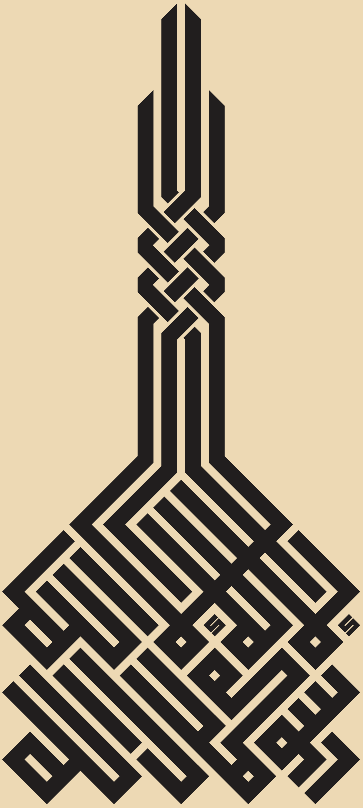


تفسير القرآن بالقرآن

طه جابر العلواني

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

تفسير القرآن بالقرآن

تفسير القرآن بالقرآن

طه جابر العلواني

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
iiit
INTERNATIONAL INSTITUTE OF ISLAMIC THOUGHT

الطبعة الأولى ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

تفسير القرآن بالقرآن

طه جابر العلواني

موضوع الكتاب:

١- تفسيرالقرآن بالقرآن ٢- الوحدة البنائية

٣- القراءتان ٤- التدبُّر

٥- منهجية التلقي ٦- نجوم السورة

ردمك (ISBN): ٥-٨٢٦-٥٦٥٦٤-١-٩٧٨

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٩/٩/٤٧٣٢)

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
المركز الرئيسي - الولايات المتحدة الأمريكية
The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703) 471 1133, Fax: (1-703) 471 3922
www.iiit.org / iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمّان
ص.ب 9486 الرمز البريدي 11191
هاتف: 4611421 6 962+ فاكس: 4611420 6 962+
www.iiitjordan.org

تصميم:

دار الفن للتصميم والإعلان
الأردن - عمّان +96265658787

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

تصدير

أولاد فضيلة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبين وعلى آله وصحبه ومن تبعه بهديه إلى يوم الدين. وبعد

فالقرآن الكريم، كتاب مكنون، يتكشف عبر العصور عن مكنوناته؛ ليستوعب مشكلات وقضايا العصور كلها، وبحسب سقوفها المعرفية وعلى اختلاف أنساقها الثقافية والحضارية، فهو مصدِّق ومهيمن ومستوعب ومتجاوز، وفي استيعابه يستطيع أن يستوعب الكون وحركته، والعالم وأزماته وإشكالاته. وليقوم القرآن بذلك لا بدّ لتاليه من "التَّدبُّر" في آياته للتعرف على معانيه ومراميه والعمل بها.[1] على هذا عاش والدنا الحبيب ولهذا نَذَر سنوات من حياته للتفرغ لتدبُّر القرآن وتعليمه عبر مختلف الوسائل المتاحة. وكان نتاج ذلك ما تركه من ثروة علمية في هذا المجال، منها ما رأى النور قبل رحيله، ومنها ما لم يره. وهذا السِّفر -الذي يشرّفنا اليوم أن نقدّمه للقراء- خطّته أنامله رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، ليضم نماذج لتفسيره لسور من القرآن بالقرآن.

وقد اتضح في هذا التفسير مذهبه المتمثل في أن أعظم تفسير للقرآن المجيد هو القرآن نفسه، فالقرآن عنده يفسّر بعضه بعضاً، ثم رسول الله ﷺ يقوم بالتأويل في الواقع، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يخلّف تفسيراً مدوناً أو محفوظاً.

وهو إذ يطوِّف في رحاب القرآن المجيد متدبّراً، يسعى لتحقيق ذلك الهدف الذي طالما ذكره في مجالسه ودروسه؛ إظهار هيمنة الكتاب العظيم على العقل الإنساني والواقع البشري، ليؤكد أن أية محاولة فهم لهذا الدين أو إصلاح لأوضاع المؤمنين به، لا ينبغي أن تتعدى القرآن أو أن تقرأه قراءة حِمَاريّة (على حدّ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

رحم الله والدنا الحبيب على جهوده وجزاه خير الجزاء، ونفع المسلمين بعلمه وثواقب تدبّره وفهمه وسديد فكره، وشكر الله للمعهد العالمي للفكر الإسلامي جهدَه في إخراج هذا الكتاب بهذه الحلة القشيبة. إنه سميع مجيب الدعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) العلواني، طه جابر. **أفلا يتدبرون القرآن معالم منهجية في التدبر والتدبير**، القاهرة: دار السلام للنشر، ٢٠١١م.

مقدمة

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]

الحمد لله رب العالمين، نستغفره ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، ونصلي ونسلم على رسول الله ومن اتبعه واهتدى بهديه إلى يوم لقاه. الحمد لله المحمود بكل لسان، ذي الطول، والفضل، والإنعام. المعبود في كل زمان، ومكان، الذي فضّل ديننا على سائر الأديان، وأنزل القرآن ليحكم على الإنس، والجان، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي أرسله رحمة للعالمين في كل زمان، ومكان.

ثم أما بعد

فإن القرآن الكريم قد يَسّرَه الله للذِّكر، وجعله نبيّاً مقيماً، يخاطب به الأحياء، كما يخاطب به من هم في حكم الأموات ليبعث فيهم الحياة، ويوجد فيهم حقيقتها، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فهو حياة كله في وحدته البنائيَّة، وحياة للأمم عندما تجمع بين القراءتين، وهو حامل المنهج، والمؤسس له، قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦]. وإذا لم ينفعل الإنسان بالقرآن المجيد، وما فيه من الحياة والنور؛ فعليه أن يدرك أن ذلك ليس بناجم عن قصور في القرآن؛ بل هو ناجم عن "وقر" في آذان المستمع، والقارئ، أو "أكنة" على قلبه تحول بينه وبين القرآن، أو بينه وبين تنزّله على قلبه، فلا يخالط القرآن الكريم بشاشته، ولا يفتح مغاليقه، بل تحجب أنواره عن ذلك القلب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: ٧]، ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ٥]، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ

فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧].

ولذلك فإنَّ القارئ إذا لم يجد آثار القرآن في قلبه، وأنوار تدبرّه في نفسه وعقله ووجدانه فلا يلومنّ إلا نفسه؛ فليصلح من شأنها، وليقم بمعالجتها؛ لِتُحْسِنَ التلقي، وتمهر في التدبّر فيحصل على نصيبه من أنوار القرآن الكريم وكرمه.

ويعود هذا التفاعل بحسب تمرير الإنسان لآياته على قلبه وتكراره لها؛ فكلما ازداد التكرار ازداد التفاعل، وكلما ازداد التأمل والعيش مع الآيات والإحساس بها، استشعر القارئ كأن الله يخاطبه بالقرآن المجيد الآن ولأول مرة، فيمرر ما يقرؤه بعينه إلى لسانه، ثم يعرج به إلى المخ، والجهاز العصبي ليفكر فيه، ويستشعره، ويجعله يجري مجرى الدم منه، ويعود به إلى القلب؛ حتى يبلغ بالمتدبر حالة الوعي بما قرأه، وتدبَّره من القرآن الكريم، فيجب الاستشعار بالكلمات، والخروج بها من اللسان إلى المخيلة، ثم إلى القلب فيرقى شيئاً فشيئاً.

وحقيق بالإنسان ألا يكون بعيداً عن الله، وحين يحرص الإنسان على العمل بآيات الله في حياته، يستجيب القرآن الكريم له، ويعطيه أموراً أكثر عمقاً؛ لأنه اتَّبع أمر الله، وبالاستمرار في العمل، والتطبيق سيتحقق التدبُّر الأفضل، والفهم الأمثل.

من معوّقات تدبُّر القرآن الكريم:

وجدير بالمسلم أن يعلم المعوّقات التي تحول دون تدبره للقرآن المجيد؛ ومنها: الذنوب، واتخاذ أحكام مسبقة قبل التدبر، وتعضية القرآن الكريم فيقرؤه على أنه آيات منفردة فحسب، أو سور منفكة ومنفصلة عن بعضها بعضاً، وكذلك جهله بعادات القرآن الكريم ولسانه الخاص به، وكذلك جهله بالمقاصد العليا الحاكمة للقرآن الكريم، وجهله بآثار مشكلة الناسخ والمنسوخ التي دخلت على الإسلام من توراة يهود، وأصبحت مصدراً للتنازع بين المسلمين، والاختلاف فيما بيننا، وكذلك غموض الغاية من التدبُّر، كل ذلك يؤثر على فكر المتدبِّر؛ فيجب إخلاء ذهنه من ذلك قبل البدء في التدبُّر.

وعليه أن يتلو القرآن حق تلاوته، ويعمل على تفهم معانيه، ويجعل منه موجهاً له في بناء نفسيّته، وعقليّته، ومنهجاً قوياً؛ لتكوين شخصيّته، وتقويمها، وأن يجعل من القرآن الكريم منهجاً لحياته؛ ليكون ممن قيل فيهم ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون: ١١]. وإذا فعل القارئ ذلك؛ فسيتمتع بالمواصفات التي تجعل منه عضواً صالحاً في هذه الأمة، وكيانها الاجتماعيّ.

فالقرآن الكريم أراد فك الإنسان من إسار "الجبريَّة التاريخيَّة" ليكون القرآن المجيد منهجاً رائداً، يقود الإنسان في عمليَّة "الاستخلاف" بكل متطلَّباتها ونماذجها وخطواتها. وهو دليل استخلاف وقاموسُ عمران وقيم.

و"المنهجيَّة القرآنيَّة" استطاعت إنشاء "أمَّة الكتاب"، وأعطت للإنسان ما كان بحاجة إليه في سائر جوانب حياته. ولو بذل الناس في تدبّر القرآن المجيد، ومحاولة فهمه جزءاً مما بذلوه ويبذلونه في تعلّم العلوم الأخرى ومنها ما أسموه "علوم القرآن" -التي وضعوها بأنفسهم بحجة أنّها هِيَ التي ستمهد لهم السبيل لفهم القرآن- أقول: لو بذلوا جزءاً من هذه الجهود مع القرآن الكريم ذاته، في تدبّره، وفي تلاوته حق التلاوة، أو في التفكّر فيه، والعمل على الوصول إلى مكنونه من داخله، وبأدواته، وبمنهجه؛ لنالهم خيرٌ كثيرٌ، ولتجنّبوا كثيراً من السلبيّات التي يشتكي منها المتخصصون في كثير من تلك الجوانب، ولتغيرت حال الأمَّة المسلمة، ولسعت نحو الحضارة، ولاستحقت أن تكون أمَّة الشهادة بحق، وأمَّة الوسطيَّة بصدق.

القرآن المجيد والتفسير:

منذ القدم والناس مختلفون هل يحتاج القرآن المجيد الذي وصفه الله وهو منّزِله بأنَّه مبين وأنَّ آياته جميعاً بيّنات ومبيّنات، هل يحتاج خطاب مثل هذا إلى تفسير وشرح وبيان، بعد أن وصف بذلك كله من قبل الله جلَّ وعلا؟!

ذهب كثير من أهل العلم إلى أنَّ القرآن لا يحتاج إلى تفسير،[1] وأنَّ حياة رسول الله ﷺ وخلقه وسائر تصرفاته هي تفسير عملي له، فهو ﷺ حين تلا القرآن على الناس

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (توفي: ٣١٠هـ). **جامع البيان عن تأويل القرآن**، تحقيق: محمود شاكر، وخرج أحاديثه: أحمد شاكر، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط٢، (د. ت.)، باب «ذكر الأخبار التي غلط في تأويلها منكرو القول في تأويل القرآن»، ج١، ص٨٤.

وعلمهم إياه كان يعلمهم القرآن كما نزل، ويعلمهم طرائق العمل به، ويسنّ لهم كيف يجعلون من آياته حياة يحيونها، وعملاً يمارسونه، فكان لا يعلّمهم عشر آيات، إلا ويعلمهم كيف يعملون بها، ويعمل بها أمامهم، ويأمرهم أن يتأسَّوا به وهو يعيش القرآن الكريم ويحياه كما قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا: أنَّهم كانوا يستقرِئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلَّموا عَشْر آيات لم يخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلَّمنا القرآن والعمل جميعاً.(١)

وقال فريق: إنَّ القرآن جاء بلغة متحدية للخلق كافة، فهي لغة متعالية، لا يسهل على كثير من البشر فهمها ومعرفتها إذا لم تُفسّر لهم وتُشرح، وأنَّ الشرح والتفسير لا ينافي كونه مبيناً وبيّناً، وكون آياته بيّنات ومبيّنات.

ولكن سلوك رسول الله ﷺ وعدم قيامه بوضع تفسير للقرآن خارج عمله به يؤيد ما ذهب إليه الأولون، وإذا ذهبنا إلى كتاب التفسير في صحيح البخاري لا نجد فيه أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ في التفسير إلا حوالي ثمانية وثمانين حديثاً،(٢) ولا شك أنَّه لو فسر رسول الله ﷺ القرآن تفسيراً بالمعنى الاصطلاحي لاحتجنا إلى أن نرى ما لا يقل عن ستة آلاف ومائتين وثمانية وثلاثين حديثاً في التفسير، إذا فسّر كل آية بما يماثلها في عدد الكلمات والألفاظ، وإذ لم نجد شيئاً كهذا، فذلك يدل على أنَّ

---

(١) رواه الطبري بسنده، انظر:
- الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص٨٤. وقال المحقق: هذا إسناد صحيح متصل. أبو عبد الرحمن: هو السلمي، واسمه عبد الله بن حبيب، وهو من كبار التابعين. وقد صرَّح بأنَّه حدَّثه الذين كانوا يُقرئونه، وأنَّهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فهم الصحابة. وإبهام الصحابي لا يضر، بل يكون حديثه مسنداً متصلاً.

(٢) يقول ابن حجر: "اشتمل كتاب التفسير على خمسمائة حديث، وثمانية وأربعين حديثاً من الأحاديث المرفوعة، وما في حكمها، الموصول من ذلك أربعمائة حديث، وخمسة وستون حديثاً، والبقية معلّقة وما في معناه، المكرّر من ذلك فيه، وفيما مضى أربعمائة وثمانية وأربعون حديثاً، الخالص منها مائة حديث، وفيه من الآثار عن الصحابة فمن بعدهم خمسمائة وثمانون أثراً، تقدم بعضها في بدء الخلق وغيره، وهي قليلة، وافقه مسلم على تخريج بعضها، ولم يخرج أكثرها؛ لكونها ليست ظاهرة في الرفع والكثير منها من تفاسير ابن عباس." انظر:
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (توفي: ٨٥٢هـ). **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن باز، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ، ج٨، ص٧٤٣.

عمله بالقرآن ومنهجه ﷺ في تعليم الناس القرآن والعمل به معاً أغناهم عن التفسير والمفسّرين، إضافة إلىٰ فهمهم للغة القرآن ولسانه.

وإذا كان المتأخرون قد أقبلوا علىٰ ممارسة التفسير وتفننوا في أنواعه لأسباب مختلفة؛ ففسروا بالمأثور والمعقول واللغات، وبرزت أنواع من تفاسير الفرق والمذاهب والتفاسير الباطنيّة وما إليها، فذلك عمل الخَلَف لا يحتج به فيقوم دليلاً علىٰ ضرورة التفسير أو حاجة القرآن الكريم إليه، فالقرآن لا يحتاج إلىٰ التفسير بالمعنىٰ الاصطلاحيّ، ويكفي للأجيال التي جاءت بعد جيل التلقي تفسير القرآن بالقرآن، فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً، والذين تابعوا منهج رسول الله ﷺ وجدوه دائماً يفسّر القرآن بالقرآن، ويعين الناس علىٰ فهمه أدق فهم وأحسنه وأصلحه بهاتين الوسيلتين، تعليمهم العمل به، ولفت أنظارهم إلىٰ أنَّ بعضه يبين بعضه، وآياته يفسّر كل منها الآيات الأخرىٰ.

وحين اضطربت السُّبل في زماننا هذا، وتشتت الأمَّة، وفرّق الناس دينهم وصاروا شيعاً، ويئس كثيرون من إمكان إعادة بناء هذه الأمَّة ولمّ شملها والقضاء علىٰ فرقتها بكتب التفاسير ومناهج المفسرين الموجودة التي توارثناها، صار لا بد من حسم هذا الأمر، وتقديم بيان شاف للناس حوله، فاخترنا منهج رسول الله ﷺ ألا وهو "تفسير القرآن بالقرآن"، وربط سلوك وعمل سيدنا رسول الله ﷺ بالقرآن المجيد؛ ليعلم الناس أنَّ رسول الله ﷺ كان يتلو علىٰ الناس الكتاب ويعلمهم العمل بآياته، وتطبيق ما جاء به، وتحويله إلىٰ ممارسة حياتيَّة؛ ولذلك عدنا إلىٰ إحياء ذلك المنهج النبويّ، وبذل كل الجهد والطاقة لبيان القرآن بالقرآن؛ لنُحيي منهج رسول الله ﷺ، فنعلّم الناس الكتاب بعد أن نتلوه عليهم حق التلاوة، ونزكيهم به، فذلك المنهج هو المنهج الذي بنيت هذه الأمَّة به، وعلىٰ دعائمه قام عمرانها.

وإننا نقدم للأمة جُهدنا هذا؛ سائلين العلي القدير السداد والتوفيق في هذه المهمة الشاقة، راجين أن تتضافر جهود أهل العلم والمخلصين من أبناء هذه الأمَّة علىٰ إحياء هذا المنهج، وردّ المسلمين إليه رداً جميلاً، فهو وحده المنهج الكفيل بحماية المقاصد، وتحقيق الأهداف، وتمكين خلف هذه الأمَّة من سلوك ما كان عليه سلفها وجيل التلقي الخير من أبنائها، والله ولي التوفيق.

منهجنا في التفسير:

منهجنا في التفسير هو: "التدبُّر"، وتفسير بعض القرآن بالبعض الآخر؛ أي: تفسير مُحكمه بمفصّله؛ فالقرآن الكريم ينغلق وينفتح حسب الاستعداد الإنسانيّ وإقبال الإنسان عليه، وطهارة قوىٰ وعيه.

مفهوم التَّدبُّر:

والتدبُّر هو التفكر فيما وراء الظواهر، ومعرفة أدبار الأمور، وعواقبها، وما لا تراه العين للوهلة الأولىٰ منها، فالقرآن خطاب مفتاحه التدبُّر أي أن يُقبِل القارئ المؤهّل الذي هيّأ قوىٰ وعيه ووسائل إدراكه لتدبُّر القرآن الكريم بعقل علميّ لديه من المعرفة والاستعدادات ما يعينه علىٰ تدبُّر هذا الخطاب، ومعرفة المراد به.

إنَّ "المتدبِّر" قد تلقَّىٰ خطاباً في قولٍ ثقيل متحدٍّ معجز ذي مواصفات خاصَّة لا يشاركه فيها أي خطاب آخر، وله مضمون ورسالة وهدف ومقاصد وغايات وعواقب. وهو خطاب صاغه مخاطِب يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. وقد فصَّله علىٰ علمه المحيط بكل شيء، فهو علم مطلق منزَّل من لدن العليم الخبير، الذي أحاط بكلِّ شيءٍ عِلماً، فلا يتوقع من المتدبِّر أن ينشغل بكل تلك التفاصيل التي قد ينشغل بها المتعاملون مع الخطاب البشريّ أيّاً كان.

الواقع والمثال، ومستويات التكليف:

سبق أن نبَّهنا إلىٰ أنَّ القرآن قد استوعب ثنائيَّة "الواقع والمثال"، وتجاوزها، ولتوضيح مرادنا بالواقع والمثال نقول: إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حين أمر بأمور وفرض فرائض، وكلف الناس بها لم يكن غائباً عن علمه طاقات الإنسان وقدراته، وتأثير علاقاته بالزمان والمكان في كثير من شؤونه وشجونه. ولذلك نجد في كثير من التكاليف مستويات متعددة؛ فهناك مستوىً عالٍ وهو المستوىٰ الأول الذي يجب علىٰ الإنسان محاولة الوصول إليه وهو يؤدي ما كلَّفه الله به، وقد تقصر طاقاته دونه.

وهناك مستويات أقل. وقد لوحظت أحوالهم جميعاً في هذا الخطاب القرآنيّ؛ ولذلك قيل: "حسنات الأبرار سيئات المقربين". فالصلاة علىٰ سبيل المثال، مستواها

الأعلىٰ أن تؤدّىٰ في وقتها بخشوع تام وقنوت وإخبات لله عزّ وجلّ، مع إسباغ الوضوء، والطمأنينة في كل حركة وسكنة، وعدم الغفلة عن الله في أيّة لحظة من لحظاتها، وذلك شأن المقربين وتلك صلاة النبيين.

ومستويات أخرىٰ دون ذلك.

فالمستوىٰ الأول لا يطيقه إلا ذلك الصنف الذي هيَّأه الله لإقامة الصلاة، أما المستويات الأخرىٰ فهي في متناول الكثيرين من عباد الله. ولكن ينبغي لهؤلاء أن يبذلوا جهدهم، ويحاولوا ما استطاعوا أن يبلغوا المستوىٰ الأول ويصلوا إليه. والمستوىٰ الأول هو الذي يحقق مقصد الخالق من الخلق، ويحقق في الحكم أهدافه ومقاصده بشكل كامل، وفي ذلك يقول "ابن الفارض" في تائيَّته:

فلو خطرت لي في سواك إرادة   علىٰ خاطري سهواً قضيت بردتي

فكأن المستوىٰ الأول، هو مستوىٰ المثال، الذي يضعه الله تبارك وتعالىٰ لنا لنحاول بلوغه والوصول إليه، وأما المستويات الأخرىٰ، فمستويات يستطيع الإنسان العادي بلوغ أي منها بشيء من التركيز. وبذلك يمكن أن يقرب فهم الفارق بين الواقع والمثال في هذا المجال.

إنَّ القرآنَ الكريم خطاب يمكن أن ينزل علىٰ القلب مباشرة فيشتبك مع قوىٰ وعي السامع والمخاطب بشكلٍ مباشر، ووعي القارئ المخاطب هو الذي سيستقبله. وحين يبدأ وعي القارئ بالتفاعل معه للكشف عمَّا بين يديه وما خلفه، سوف يفرض هذا الخطاب القرآنيّ المتعالي المتنزِّل علىٰ ذهن المتلقي تساؤلات كثيرة تختلف تماماً عن التساؤلات التي يثيرها أي خطاب آخر.

ولعلَّ أهم الاختلافات بين ما يثيره الخطاب القرآنّي، وأيّ خطاب آخر غير الخطاب القرآني، ما قد يثار من تساؤلات حول ما في ذهن مرسِل الخطاب من مقاصد وغايات أو مطامع يطمع أن يطلب المرسِل إلىٰ المرسَل إليه القيام بها. في حين أن المخاطب -بالخطاب القرآنيّ- يتَّجه للبحث عن دور له في ذلك الخطاب يُعمِل فيه ذهنه وخياله، ويمارس فيه نشاطه الإنسانيّ.

إنَّ المتلقِّي الأول للقرآن المجيد ﷺ قام بتطبيق القرآن واتِّباع كلّ ما جاء فيه حتىٰ صار ﷺ وكأنَّه نسخة بشريَّة للقرآن المجيد، فكان خُلُقه القرآن، وسلوكه القرآن، وتصرفاته كلّها اتِّباع للقرآن[١] وبذلك رسم "منهج الاتِّباع" بدقَّة لا مزيد عليها ليتمكَّن الخلق من التأسّي به ﷺ.

ولكن المتأسِّين به مهما اجتهدوا فإنَّهم لن يبلغوا مستوىٰ الاتِّباع الدقيق السليم إلا إذا حالفهم التوفيق الإلهيّ؛ ولذلك فإنَّ المؤمنين يعملون علىٰ أن يحوِّلوا واقعهم إلىٰ واقع تتجلَّىٰ فيه أنوار القرآن وهدايته، لتُشاهد التحوّلات التي أحدثها القرآن ويُحْدثها في بيئاتهم التي سوف تساعد مع المجتمع علىٰ إبراز كيانات اجتماعيَّة تهتدي بهداية القرآن، وتستظلّ بأنواره وآنذاك تتشكل شخصيَّة ذلك المجتمع في هيكل مؤطّر بمجموعة العلاقات الاجتماعيَّة المتغيِّرة المتحرِّكة في إطار "المرجعيَّة القرآنيَّة وقيمها الحاكمة".

وهنا يكون نصيب كل فرد في ذلك المجتمع مماثلاً لنصيب الأراضي المتنوّعة من الغيث، فهناك أراضٍ تهتزّ وتربو وتنبت من كل زوجٍ بهيج، وهناك أراض تحتفظ بالماء ليستفيد به الإنسان والحيوان والنبات، وهناك أراضٍ أجادب لا تنبت زرعاً ولا تمسك ماءً وهناك وهناك.[٢]

---

(١) عن سَعْدِ بن هِشَام بن عَامِرٍ قال: "أَتَيْتُ عَائِشَةَ فقلت: يا أُمَّ الْمُؤْمِنِيَن أخبريني بِخُلُقِ رسولِ الله ﷺ قالت: كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] قلتَ: فإني أُرِيدُ أَنْ أَتَبَتَّلَ. قالت: لاَ تَفْعَلْ، أَمَا تَقْرَأُ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] فَقَدْ تَزَوَّجَ رسولُ الله ﷺ وقد وُلِدَ له." انظر:

- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (توفي: ٢٤١هـ). **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م، تتمة مُسْنَدُ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ج٤١، حديث رقم (٢٤٦٠١)، ص١٤٨.

(٢) عن أبي مُوسَىٰ عن النبي ﷺ قال: "مَثَلُ ما بَعَثَنِي الله بِهِ من الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضاً، فَكَانَ منها نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ منها أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ الله بها الناس، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ منها طَائِفَةً أُخْرَىٰ إنما هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ من فَقُهَ في دِينِ الله وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنِي الله بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ من لم يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً، ولم يَقْبَلْ هُدَىٰ الله الذي أُرْسِلْتُ بِهِ." انظر:

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (توفي: ٢٥٦هـ). **صحيح البخاري**، اعتنىٰ به: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، كتاب العلم، بَاب فَضْلِ من عَلِمَ وَعَلَّمَ، حديث رقم (٧٩)، ص٤١.

وهنا يأتي دور "التدبُّر"؛ فالتدبُّر ضروريٌّ ليقوم بقيادة القارئ للتّفاعل مع الخطاب القرآنيّ، ومعرفة دوره بالنِّسبة إليه. "فالتدبُّر" يقود القارئ إلى التّفاعل مع الخطاب. وهنا يجد القارئ نفسه وجهاً لوجه في مواجهة الخطاب فيستدعي التاريخ وآفاق الفهم، ويؤسس للعلاقة مع الخطاب. إنَّ "التدبُّر" يجعل القارئ يبحث عن المعنى الذي ينشأ نتيجة تفاعله مع الخطاب لا عن المعنى "الكامن أو المكنون" فيصبح المعنى -آنذاك-"أثراً" تمكن ممارسته لا "موضوعاً" يمكن تحديده.

إنَّ من شأن تدبّر القرآن -بإذن الله - وتفسير القرآن بالقرآن، وتلاوة القرآن حق التلاوة، وحسن ترتيله وإقامة الصلاة به، تحقيق كل تلك النتائج المبتغاة التي تجعل القرآن شفاءً لما في الصدور وهدىً ورحمة وموعظة ونوراً وبصائر، لا تشحذ أسماع المتدبرين فحسب بل تمنحها قدرة التمييز، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر: ١٨].

وعند ذلك لا يمكن للشيطان أن يقيم حُجباً بين حكم القرآن وأنواره من جهة، وقوى الوعي الإنسانيّ من جهة أخرى؛ لذلك فإنَّ التدبُّر ضرورة لبناء العقل وإنماء قوى الوعي قرآنياً، فهو الذي يهيّء الإنسان وقواه العاقلة لتلك المهام العظيمة التي تنتظر الإنسان في هذه الحياة: مهام تحقيق التوحيد والتدثُّر بالتزكية، والتحلي بالعمران، وإقامة بناء الأمَّة، وحسن القيام بالدعوة، ودون ذلك تكون القراءة هذرمة، ويكون الاستماع قليل الأثر.

نرجو الله أن يوفقنا لحسن تدبُّر كتابه، ليكون القرآن ربيع قلوبنا، وجلاء همومنا وأحزاننا، ونور بصائرنا وأبصارنا، إنَّه سميع مجيب.

مقدمة في تفسير القرآن بالقرآن

إنّ القرآن العظيم كتاب الله، أنزله على قلب محمد ﷺ عبده ورسوله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فصّله الله على علمه الذي أحاط بكل شيء، وهيمن على كل شأن، وجعله الكتاب الخاتم لكل ما سبق، وأنزله على خاتم النبيّين والمرسلين ليُحيط بكل جوانب رسالاتهم وما جاءوا به من معتقدات، وليكون الحافظ الأمين للأساسيّات المشتركة بين النبيّين، بحيث نجد فيه حنيفيّة إبراهيم، وصحف وتوراة موسى وألواحه، وإنجيل عيسى وما أنزل الله فيه.

وقد وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كتابه الكريم بأوصاف كثيرة، تقارب الأربعين وصفاً، فهو «نور مبين» و«كتاب حكيم» و«صراط مستقيم»، يهدي للتي هي أقوم، ويُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد. وما أكثر الأحاديث التي وصفت القرآن، ودارت حول الآيات التي وصف القرآن الكريم نفسه بها. وذلك مما رواه السيد الإمام أبو طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أماليه، والحافظ المحدِّث أبو عيسى الترمذي(1) في جامعه، من حديث الحارث بن عبد الله الهمذاني صاحب علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: مررت في المسجد، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على عليٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأخبرته، فقال: أوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أَما إنِّي سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: "ألا إنَّها ستكون فتنة"، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله؛ فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبار قصمه الله، ومَنْ ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنتهِ الجنّ -إذ سمعته- حتى قالوا: (إنّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد)، فآمنا به. مَنْ قال به صدق، ومَنْ عمل به أُجِرَ، ومَنْ حكم به عدل، ومَنْ دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم". انتهى

(١) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (توفي: ٢٧٩هـ). **جامع الترمذي**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٩٩٩م، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، حديث رقم (٢٩٠٦) ص٤٦٤. وقد استدل به ابن الوزير صاحب «إيثار الحق...» انظر:

- ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن المرتضى (توفي: ٨٤٠هـ) . **ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان**، بيروت: دار الكتب العلميَّة، (د. ت.)، ص١٥.

هذا الحديث الجليل. وقد رواه السيد الإمام أبو طالب، في أماليه بسند آخر من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ،(١) عن رسول الله ﷺ بنحوه. ورواه أبو السعادات ابن الأثير في جامع الأصول من طريق ثالثة، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.(٢) قال: ولم

(١) ما رواه معاذ عن عليٍّ جاء في مجمع الزوائد. انظر:

- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (توفي: ٨٠٧هـ) **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، بيروت: دار الفكر، ط١، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ج٧، ص١٦٤.

(٢) المروي من حديث عمر تجده في: **جامع الأصول**، لأبي السعادات، مبارك بن محمد بن الأثير (توفي: ٦٠٦هـ) بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٩٨٠م، ج٩، ص٣٥٣، حديث رقم (٦٢٢٢)، ولكنه ورد فيه عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقال المحقق السيد عبد القادر الأرناؤوط معلقاً "كذا في الأصل - أي: عن عبد الله بن عمر، وفي المطبوع: عمر بن الخطاب" ولم يرجح. وفيه اختلاف يسير عن رواية الإمام أبي طالب والترمذي، حيث جاء في هذه الرواية قول ابن عمر: "...نزل جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على عهد رسول الله ﷺ فأخبره: أنها ستكون فتن، قال (أي: رسول الله لجبريل): "فما المخرج منها يا جبريل؟" قال: كتاب الله... الخ. وقال ابن الأثير: أخرجه رزين. وذكره ابن كثير في فضائل القرآن بمعناه عقب حديث الحارث من حديث عبد الله بن مسعود، وقال (أي: ابن كثير): رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه "فضائل القرآن" وقال: هذا غريب من هذا الوجه. وانظر:

- الدارمي، أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن (توفي: ٢٥٥هـ)، **سنن الدارمي**، تحقيق فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٧هـ، ج٢، حديث رقم (٣٣١٥) ص٥٢٣، عن عبد الله وبدأه بقوله: "إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم..." وختمه بقوله: فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته...". وأما باللفظ الذي معنا فقد أورده الدارميّ في الحديث رقم (٣٣٣١) و(٣٣٣٢). وقد علق المحققان عليه بقولهما: "رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب (١٤) ما جاء في فضل القرآن، حديث رقم (٢٩٠٦) ٥/ ١٧٢-١٧٣. وأحمد في المسند (١/ ٩١). وأبو داود الطاليسي وأبو بكر الأنباري في كتاب "الرد" له عن الحارث عن علي. كما في التذكرة للقرطبي ص٤٨ بتحقيقي. قال ابن كثير في فضائل القرآن، ص١١-١٢: "لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة في عهدته، على أنه وإن كان ضعيف الحديث، فإنه إمام في القراءة. والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده (أي: لا من جهة روايته وصدقه)، أما إنه تعمد الكذب في الحديث فلا، والله أعلم. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ" أ.هـ. والآية رقم ٢ من سورة الجن.

قلت: وفي بعض الشروح حددت "فتنة الحديث أو الأحاديث" بأنها الافتتان برواية "الأحاديث" أو "السنن" عن تلاوة القرآن المجيد ودوام الرجوع إليه، وبعضهم حملها على الأحاديث والأخبار مطلقاً، ففي كل ذلك انشغال عن القرآن، وقد يستفيد القائلون بذلك بأحاديث النهي عن كتابة السنن والتأكيد =

يزل العلماء يتداولونه، فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث متلقَّىٰ بالقبول عند علماء الأصول، فصار صحيح المعنىٰ في مقتضىٰ الإجماع والمنقول والمعقول.

وقد أودع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كتابه الشرعة والمنهاج، فأنقذنا به من الضلالة، وفتح للعالمين به أبواب رحمته وسُبل هدايته، فحمداً له سبحانه علىٰ هدايته، والشكر له علىٰ نعمائه وعنايته، أغنانا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بكتابه عمّا سواه، وكفانا به عمّا عداه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١]، فنسأله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كما أنعم علينا بالقرآن العظيم،

= علىٰ عدم الانشغال بغير القرآن. (قال طه): ولكن الفرق كبير بين انشغال بأحاديث نبوية مرفوعة صحيحة تأتي علىٰ سبيل البيان بأنواعه للقرآن المجيد، وبين مطلق الحديث. وفرق كبير بين انشغال لطلب بيان والانشغال بها علىٰ سبيل الاستعاضة عن القرآن، والاكتفاء بها بحجَّة اشتمالها أو تضمنها للقرآن أو بأية حجة أخرىٰ.

لقد استقرت المذاهب الفقهية في العهد الرابع من عهود الفقه وركدت حالة الاجتهاد المطلق، وعكف المقلدون علىٰ مذاهب الأئمة، والكتابة في مناقبهم، والعمل علىٰ ضم الناس إليهم كل إلىٰ مذهبه وإمامه. وجعل بعضهم أقوال أولئك الأئمة مثل نصوص الشارع يدخلها التعارض والترجيح والنسخ وما إليها، ففي عصر الصحابة خاصة -عصر الشيخين- لم يشغلهم شيء عن كتاب الله، ولما انتهت سنة أربعين للهجرة برزت اتجاهات فقهية وبدأ الناس ينشغلون بها.

وحين كان عبد العزيز والد عمر والياً سنة (٨٣ هـ) فكر في جمع السنن، وهو مشروع استكمله ولده عمر بن عبد العزيز، لتكون السنن فقهاً بديلاً عن الفقه الخلافي يرجع الناس إليها لئلا تتفرق بهم السبل الفقهية، ولكن الكثيرين انشغلوا بالسنن عن القرآن المجيد بحجة اشتمالها عليه وارتباطها به، وجعلوا من السنن شواهد لأقوال أئمة الفقه، ثم انشغلوا بفقه الأئمة عن السنن، وصاروا يتداولون أقوال الأئمة ويفرعون عليها، حتىٰ بدا وكأن الشريعة هي أقوال هؤلاء الأئمة، بحيث سوغ الكرخيُّ الحنفي لنفسه أن يقول: "كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي إما مؤولة أو منسوخة".

"أصل: واعلم أن كل حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو إما مؤول أو منسوخ" !! ومهما يقال في تأويل ذلك أو التخفيف منه فإنه قول جريء يدل علىٰ أن التعصُّب للمذاهب قد بلغ مستوىٰ مَرَضِيّاً بحيث صار الأصل تابعاً للفرع، بل محكوماً به. ولذلك فإن إعادة بناء الأمَّة واستئناف شهودها الحضاريّ وشهادتها علىٰ الناس لا يمكن أن تعود إليها ما لم تتجاوز هذه الإصابات الخطيرة، وترد الناس إلىٰ القرآن المجيد مصدراً منشئاً وكاشفاً عن الأحكام وغيرها مما تناوله أو تعلق به فقد أنزله الرحمن الرحيم: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨]. وما اختلف فيه أو عليه لا بدّ فيه من الرجوع إلىٰ السنّة النبويّة التي صدرت عن رسول الله ﷺ ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

وعلىٰ هذا فالمعنىٰ الوارد في هذا الحديث أو الأثر معنىٰ صحيح، يشهد له صريح الكتاب وصحيح السنَّة. والله أعلم.

والرسول الكريم ﷺ أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وأن يعلّمنا منه ما جهلنا، ويُذكّرنا منه ما نُسّينا، ويجعله حجة لنا لا علينا، وقائداً لنا إلى الجنَّة، إنّه سميع مجيب.

هذا القرآن المجيد قد يسّره الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بفضله ورحمته للذكر، وجعله في متناول العقول والقلوب عندما تتطهّر، بحيث تمس عقول وقلوب أولئك المتطهّرين. وفي الوقت نفسه تحدّى البشر به، وثبت عجزهم وعجز الجنّ معهم وسائر مَنْ خلق الله عن الإتيان بمثله، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً. ومع التحدي والتيسير جعل الله له حافظاً من داخله، يحرسه من أيّ تغيير أو تبديل أو تحريف، وذلك نظمه الداخلي. فنظم القرآن هو حافظه وحارسه الأمين و«نظم القرآن» يقوم على دعائم كثيرة لا يمكن لكلام بشر أن يشتمل عليها -كلّها- في وقت واحد. نذكر دعامة من هذه الدعائم، هي وفرة الإفادة وتعدّد الدلالة وتنوّعها مع وجازة الآية واشتمالها على أدق وجوه البيان، وأجمل أنواع البديع، يقول الإمام الرازي: "إنّ القرآن كما إنّه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، هو أيضاً معجز بسبب ترتيبه ونظم معانيه". ولعل الذين قالوا: "إنّه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك،" [(١)] فآيات القرآن الكريم المكنون والعبارات والجمل التي يشتمل عليها لها مستويات متعدّدة من الدلالة.[(٢)] فلها دلالة بحسب الوضع اللغوي وتركيب الجمل، وهي مستوى من الدلالة يشاركها فيه الكلام العربي كله، ولها دلالة صيغ بلاغيّة، وهي على مستويات عُليا ووجوه كثيرة، فكلام سيّد البلغاء المتقنين رسول الله ﷺ وهو «أفصح مَنْ نطق بالضاد» ثم أهل البلاغة من أصحابه وآل بيته، نحو الإمام علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قد يصل إلى المستوى القريب من بلاغة بعض الجمل والعبارات القرآنيّة وفصاحتها، لكنّه لا يمكن أن يصل إلى مستوى بلاغة السُّورة مهما قصرت، ولا إلى المستويات العليا من بلاغة القرآن المجيد

---

(١) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (توفي ٦٠٦هـ). **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**، تحقيق نصر الله حاجي مفتي أوغلي، بيروت: دار صادر، ط١، ٢٠٠٤م، ص٢٧.

(٢) لعل عدم إلمام غالبية المترجمين للقرآن المكنون بهذه الدلالات من أهم أسباب وقوعهم في الأخطاء التي قد يقع فيها من يعتبرون حسني النية منهم. لأن اللغات المترجم إليها لا تحمل مثل خصائص العربية، خاصة في هذا المجال. أما سيئو النية فأولئك لهم حديث آخر.

المعجز، ولو على مستوى الجملة، كما في «الدلالات المكنونة» أو المطويّة. فالقرآن الكريم وصفه المتكلم به ومنزله سبحانه بأنّه: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ ﴾ [الواقعة: ٧٨]. ففي ثنايا النصّ وفضاء الآية يعثر المتدبّرون الغوّاصون على اللآلئ والجواهر عديمة النظير، وتتكشّف مكنوناته كذلك عبر العصور، بحيث تبدو كأنّها لم تنزل إلا في تلك الفترة، وعلى أهل ذلك العصر، وهذه الدلالة ذات مستويات متعددة كذلك، فمنها: دلالة ما يذكر على ما يقدّر، مثل تقدير القول، وتقدير الموصوف والصفة، وما شابه ذلك من فنون وجوانب التقدير. ومنها: دلالة السياق، [(١)] وذلك مستوى يُدرَك من التَّدبُّر في مواقع الجُمَل من الآيات، والآيات من السُّور، والسُّور من مُجمَل القرآن، وذلك بالنظر فيما قبلها وفيما بعدها لتظهر المناسبة، وتتحدّد صفة الجملة وهويّتها في معرفة ما إذا كانت جواباً عن سؤال، أو تعليلاً لمضمون كلام سابق، أو أنّها وردت في موقع الاستدراك، أو في موقع الدليل لما سبق. وفي سائر الأحوال فإنّ هناك وفرة في الدلالة لا يستطيع أبلغ البلغاء وأفصحهم أن يقارب أي مستوى من مستويات

---

(١) السياق أمر ذو أهمية بالغة؛ إذ يُعدُّ «السياق» في القرآن المجيد هو المنتج للدلالة، والموجّه إلى المدلولات، ومع شدة عناية البلاغيين وكثرة حديثهم عنه غير أنهم لم يعرّفوه تعريفاً جامعاً مانعاً، وكأنهم اعتبروه مما يدرك دون تعريف، أو أنهم اكتفوا بوصفه وبيان آثاره، واستغنوا بذلك عن تعريفه. والأصوليون قد أبدوا اهتماماً شديداً بدلالة السياق؛ فالسياق -عندهم- يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال المراد... وذلك لأن دلالة النصوص نوعان: حقيقية وإضافية، فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف. و«الإضافية» تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكره وقريحته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها. وهذه الدلالة تختلف اختلافاً متبايناً بحسب تباين السامعين في ذلك. انظر:

- ابن القيم، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر (توفي: ٧٥١هـ). **إعلام الموقعين**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٩٧٧م، ج١، ص٣٥٠-٣٥١.
- ابن القيم، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر (توفي: ٧٥١هـ). **بدائع الفوائد**، تحقيق: علي بن محمد العمران، جدة: مجمع الفقه الإسلامي، ٢٠٠٨م.

وقد أوردت ابنتنا د.رقية العلواني تفاصيل مهمة في «دلالة السياق» وتقسيمات قديمة وحديثة أوضحت هذه الدلالة، بما لا يستغني الباحث في هذا المجال عن مراجعته. فراجع ذلك في رسالتها القيمة «أثر العُرف في فهم النصوص: قضايا المرأة نموذجاً» رسالة دكتوراه طبع ونشر وتوزيع دار الفكر في دمشق عام (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ص٢٦٠-٢٦٥. وكذلك رسالة صديقنا د. إبراهيم أصبان التي نال بها درجة الدكتوراه بعنوان «دلالة السياق في القرآن» لم تطبع طبعة عامة بعد. أما السباق: فهو لصيق جداً بالسياق، وكبير الأثر في إدراك المناسبات، وهو ربط الكلمات والآيات والسُّور بما يسبقها واعتبارها حلقة في سلسلة مترابطة.

دلالاتها الوفيرة على أنواع من المعاني لا تقع تحت حصر؛ وذلك هو الإطلاق الذي يتفرّد لسان القرآن به عن كل ما سواه، فكلُّ ما عداه داخل في دوائر النسبيّة، أمّا هو فمطلق مستوعب متجاوز لكل ما عداه من كلام البشر، ومنهم الأنبياء والمرسلون.

وقد تكفّل الله سبحانه بحفظ القرآن لفظاً ومعنىً. قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وقد دلّت الآيات المحكمات بسائر أنواع الدلالة على حفظ القرآن لفظاً. وقد تضافر النظمُ مع الوحدة البنائية للقرآن، بالإضافة إلى وسائل أخرى ظاهرة وكامنة فيه على نفي الباطل عن القرآن، وعصمته في لفظه، وحفظه في معانيه.

والقرآن الكريم يستوعب الوجود وعلاقاته وسائر عناصره. وهذا ما يجعل عملية استجلاء معاني القرآن باستقراء تام أمراً قد تنوء به العصبة من العلماء. فالقرآن -مع مزاياه وخصائصه وصفات الكمال فيه وحسن نظمه، وسموّ بلاغته، وعلوّ فصاحته، وتيسير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له- يبقى في حالة من السموّ تجعل عملية استجلاء معانيه بشكل قريب من الكمال عمليةً تحتاج -أول ما تحتاج- إلى إدامة الصلة بهذا القرآن الكريم، وبناء اللاحقين من أبناء الأمّة على ما أسّس السابقون، واعتبار عمليّات تفسيره وتأويله واستجلاء معانيه، والتطهُّر للوصول إليها شغل المسلمين الشاغل عبر العصور في مختلف الأجيال. ولا يُنكر أنّ علماء المسلمين قد بذلوا الكثير في هذا الصدد، وشمّر الكثيرون منهم عن سواعد الجِدّ، وبذلوا جهوداً متتابعة في التفسير والتأويل، وبيان أوجه بلاغة القرآن وفصاحته وتحدّيه وإعجازه، ولم تبذل أمةٌ أخرى جهوداً في دراسة ما أنزل الله إليها من كتب أو صحف. ولكن هذا القرآن كتاب مطلق كوني معادلٌ للكون وحركته، مستوعِبٌ لهما، لا يُحيط به تفسير ولا تأويل -ولو تضافرت عليهما الجهود- بل يُحيط الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، فهو الذي فصّله على علمه، وبيّن في محكم آياته ما اختلف الناس فيه، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور.

لقد ورثنا -نحن المسلمين- كتابات في التفسير تجاوزت كل ما ورثناه في العلوم الأخرى من حيث العدد والاتجاهات، واتخذت اتجاهات التفسير لدى أُمّتنا -بدءاً من جيل التلقّي ثم الأجيال التي جاءت بعد ذلك الجيل المبارك- اتجاهات عديدة، فكان منها «التفسير اللغوي»، ثم «التفسير الآثاري» القائم على روايات آثار عمليّة

وقوليّة ذات علاقة بالآيات المفسّرة، ثم «التفسير الفقهي» الذي يركّز المفسِّر فيه على معرفة أحكام القرآن أو الأحكام التي وردت في آيات القرآن الكريم. برزت بعد ذلك أنواع أخرى من التفسير، مثل «التفسير الإشاري» الذي عني به بعض الصوفيّة، و«التفسير العقلي»، و«التفسير البلاغي»، ثم «البياني»، ثم برز في عصرنا هذا ما سُمّي بـ«التفسير العلمي»، وربما أضاف بعضهم «التفسير العددي»، و«التفسير الفلسفي» وما إلى ذلك.

وحين حاولنا إجلاء هذا التراث التفسيري المتنوّع بمعرفة ما قدّمه للقرآن الكريم وللمخاطبين به -وهم البشريّة كلّها- وجدنا أنّ هذا التراث -على اتساعه وتنوّعه وكثرة فوائده- لم ينجح في استجلاء معاني القرآن الكريم، وبقي في هذا الكتاب الخالد كثير من العوالم التي قد يشعر الإنسان بأنّه لو خُلّي بينه وبين القرآن، يراجعه ويسائله ويتدبّر فيه ويتذكّر ويتعقّل لاستفاد من معانيه وتجلّياته وما فيه من نور وهداية أكثر بكثير مما استفاده من تدخّلات المفسّرين، ولا نتردد في أن نقول إنّ بعض التفاسير قد وقفت حاجزاً بين القرآن والقرّاء، وربما حرمت بعضُ التفاسير القرّاءَ من حسن استجلاء معاني القرآن العظيم ومحاولة التدبّر فيها وتعقّلها وتذكّرها.

من هنا بدأت رحلتنا مع تدبّر القرآن، ومحاولة فهمه من داخله واستجلاء أنواره من ثنايا آياته، والتّعرّض لأنواره ونفحاته من داخله، فوجدنا في ذلك خيراً كثيراً، ونعماً لا تُحصى، تجعل القارئ المتدبّر -إذا أحسن التدبّر ومرن عليه- أكثر وعياً بالقرآن وفهماً لسياقاته وإدراكاً لمعانيه واعتباراً بقصصه وأمثاله، وأقرب إلى الصواب في إدراك مقاصده وغاياته؛ ولذلك فقد رأينا تخصيص هذه المقدمة لمعالجة هذا النوع من التفسير، وشرح وبيان المنهج النبوي القويم في الأخذ به والنسج على منواله، سائلين العليّ القدير أن يُوفّقنا ويُعيننا على بلوغ هذه الغايات السامية الشريفة، وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، وجلاء همومنا وأحزاننا، وأن يُنير به بصائرنا، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

إنّ القرآن الكريم قد بدأ اتّصاله برسول الله ﷺ وبالأرض بالأمر بالقراءة، فكانت أوّل كلماته أمراً بالقراءة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ

﴿ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]، ففي هذه الآيات الخمس -الأولى نزولاً من الكتاب الكريم- أمرٌ بقراءتين، وفي هذا تنبيهٌ إلى أنّ تنزيله سوف يتكامل ليصبح كتاباً كاملاً تامّاً، مصدّقاً لما بين يديه، ومهيمناً عليه، ومشتملاً على تراث النبوّات كلها، وحاملاً لهدايات الأنبياء والمرسلين جميعاً.

إنّ كل قراءةٍ من القراءتين لها خصائصها التي تستمدّها من صلة الموصول. فالقراءة الأولى في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، قراءةٌ يستعين الإنسان في ممارستها باسم الله «الخالق»، والخلق بالنسبة لهذا الإنسان المتلقّي لهذا القول الثقيل يبدأ من علق: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ٢]، والعلق قطعة من الدم ثم تطوّرت. أمّا القراءة الثانية فهي قراءة بالقلم: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ٣-٤]. وذكر «القلم» هنا في صلة الموصول ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٤-٥] تربط بين القراءة -قراءة القرآن الكريم والقلم- وجميع القراءات التي تراكمت بواسطته منذ بداية الخلق حتى بداية عصر التنزيل، فهي قراءة بالخلق وقراءة بمتراكَم المعرفة، وقراءة بالوحي النازل، ممّا يُشير إلى أنّ القرآن يُعَلِّمُ منذ البداية الجمعَ بين قراءتين أو أكثر من قراءتين؛ لكي يحقق أهدافه أهدافَ التنزيل.

ثم تتالت وتتابعت أنواع القراءات بعد ذلك. فهناك: قراءةٌ يَعْمِدُ المتعبّدون الذين يبتغون ثواب الله -تبارك وتعالى- بالقراءة إلى القيام بها. هذا الثواب الذي وعد رسول الله ﷺ به: "اتلوه فإنّ الله يأجركم بكل حرفٍ عشرة، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن «ألف» حرف و«لامٌ» حرف و«ميمٌ» حرف."[1] وهناك قراءةٌ أخرى: هي قراءةُ الذين يريدون معرفة الحلال والحرام وشريعة القرآن الكريم، فهي قراءة تتّسمُ بالبحث

(١) نص الحديث كما ورد في صحيح الترمذي وغيره: عن عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: آلم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ." انظر:

- الترمذي، **جامع الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر، حديث رقم (٢٩١٠)، ج٥، ص١٧٥.

عن الشريعة وعن الآيات التي تحمل تشريعات إلهيّة من أمرٍ ونهي ووصيةٍ وما إلىٰ ذلك. وهناك قراءةٌ ثالثة، هي قراءة أولئك الذين يريدون أن يعرفوا تاريخ البشريّة وتطوّرها ومسيرةَ البشريّة عبر التاريخ، منذ بدء الخليقة حتىٰ أيام رسول الله ﷺ؛ رغبةً في معرفة ذلك التاريخ والاعتبار به، واستنباط دروسه وعبره. وهناك قراءةٌ رابعة، هي قراءة مَنْ يقرأ ليستمْتع بدقّة اللفظ وجمال الأسلوب وبلاغة القرآن الكريم؛ ولكي يرىٰ جوانب تحدّيه ووجوه إعجازه للبشريّة عن أن تأتي بمثله. وهناك قراءةٌ خامسة هي قراءة من يحاول أن يطّلع علىٰ قصص الأنبياء، ومعرفة أقوامهم وأحداث أزمانهم ومضامين رسالاتهم. وهناك قراءةٌ سادسة، تحاول أن ترىٰ ما إذا كان هذا القرآن يستشرف المستقبل، ويُعطي مؤشرات له، ويوضِّح مصير الإنسان ومصير البشرية، إلىٰ غير ذلك من قراءات كثيرة تكاد تشمل جوانب القرآن الكريم المختلفة. وهناك أناس درجوا علىٰ إثارة أسئلة؛ بعضها في الفلك، وبعضها في التاريخ، وبعضها عن الحاضر والمستقبل، وغير ذلك من أجل أن ينزل الجواب علىٰ أسئلتهم تلك وَحْياً، بحيث يكون لديهم جواب تطمئن إليه النفوس، وينشرح له القلب.

هذه القراءات المتعدّدة المتنوعة هي التي بدأ الفكر الإسلاميّ يتكون في بداياته بها وحولها. فلم يكن للعرب قبل القرآن علوم ومعارف متطورة، فقد كان العرب أُمَّة من الأمِّيين، والأميُّون كلمة لها معنيان؛ فالمعنىٰ الأول: أي الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، وهذا ليس مراداً هنا؛ لأنّه من المعروف أنّ بيئة قريش بيئةٌ تجارية، وكان فيها شيءٌ من القراءة وشيء من الكتابة، شأنها شأن البيئات التجارية، كما أنَّ هناك ما يدل علىٰ أنَّ العرب كانت لهم كتابات في تلك المرحلة.[1] أمّا المعنىٰ الثاني للأميّ أو الأميين: هم الذين لم ينزل عليهم كتاب من قبل، وانقطعت الصلة أو لم تقم صلةٌ بينهم وبين الوحي الإلهيّ في وقت منظور. والعرب -وإن كان هناك تاريخ لبعض الأنبياء في جزيرتهم مثل هود وصالح- قد بَعُدت الشُّقَة بينهم وبين هؤلاء الأنبياء والمرسلين،

(١) ويمكن الرجوع إلىٰ بعض المصادر التي تعرّضت لوضع الأعراب وعرب الجاهليّة وقبائلهم المختلفة في عصر التنزيل، منها «**المفصَّل في أحوال العرب**» لابن يعيش، ومنها «**بلوغ الأرب في أحوال العرب**» للآلوسي، ومنها «**عصر النبي وبيئته قبل البعثة**» لمحمد عزة دَرْوَزَة، إلىٰ مصادر أخرىٰ كثيرة تحدثت عن تلك الفترة.

فعادوا إلىٰ أُميَّتهم؛ ولذلك سموا بالغافلين في بعض الآيات: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣]، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس: ٦]. وقد نُسيت كل تلك الرسالات، وفَصلت بينهم وبينها دهور. كأنّهم لم يأتهم نبيٌّ أو رسولٌ من قبل، فهم من الشعوب الأميّة بهذا المعنىٰ؛ أي التي لم تتلقَّ رسالةً سماويّة. ومن هنا تطلّعت وتشوّقت نفوسهم إلىٰ رسالة: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، أي وهم ينظرون إلىٰ اليهود والنصارىٰ من حولهم وكانوا يتشوقون إلىٰ نزول شيءٍ أو خطابٍ إليهم.

وبسبب كون العرب أميّين لم ينزل عليهم وحي قبل القرآن، فلمـّا أنزل القرآن الكريم بدأت تتكون أفكارهم ومعارفهم وعلومهم من تفاعلهم مع القرآن. ممّا جعل ابن عبد البر أو سواه يقولون: "العلم: قال الله، قال رسوله"، فالعرب قبل نزول القرآن، كأنّهم لم يمارسوا أيّة عمليّات تعليميّة أو معرفيّة؛ ولذلك كان القرآنُ بالنّسبة لهم هو المصدر المنشئ لأفكارهم ولآرائهم ولتصوّراتهم ولمعارفهم ولعلومهم، وحوله تكوّنت تلك المعارف التي عرفت فيما بعد بـ«العلوم الإسلاميّة»، وعليه نشأ «الفكر الإسلامي» أو «العلوم النقليّة»، أو التي سُمّيت في بعض المراحل بـ«العلوم الشرعيّة»، فهذه العلوم تكوّنت في دوائر تلك القراءات المتعدّدة، والمقاربات المتنوّعة للقرآن الكريم حتىٰ أصبحت مجموعةً من المعارف التي بدأ تدوينها الرسمي، عام ١٤٣.[1] الذي صار هو تاريخ التدوين الرسمي لتلك المعارف أو لذلك الفكر الذي انبثق عن قراءات المسلمين للقرآن الكريم؛ فهناك تفسير، وعلم عقيدة أو توحيد، وعلم فقه وأصول، وحديث، وعلوم عربيّة. وهذه كلها تقريباً جَرَت مقاربتها أو عمليّة الوصول إليها بالقراءات أو بالمقاربات الإسلاميّة للقرآن الكريم التي تنوّعت وتعددت -كما ذكرت- بتعدّد أنواع القراءة، إضافة إلىٰ أنواعها القديمة منها والحديثة. وكلّها كانت ذات ارتباط وثيقٍ بالقارئ نفسه، فللقارئ رؤيته الكليّة وتصوّره ودوافعه ودواعيه ومؤثرات أخرىٰ كثيرة من بيئته وثقافته وحضارته وقدراته ونواياهُ وغاياته وسائر المؤثرات الأخرىٰ، وللقارئ دور كبير في تحديد نوعيّة القراءة التي يقرأ القرآن الكريم بها.

(١) علىٰ ما أكّد الذهبي وتبعه بعد ذلك السيوطي.

والقراءة ذات علاقةٍ وثيقة بالزمان والمكان، فالزمان الذي يقرأ القارئ القرآن فيه، والمكان الذي يقرأ القارئ القرآن به كلاهما له أثره في عمليّة القراءة، واختيار نوعها وكيفيّتها، والحصول على النتائج المتوخّاة منها. وهناك البعد الغيبيّ الإلهيّ الذي يُحيط بالقارئ وبالقراءة وبمنهجها، فإذا صادف القارئ لطفاً من الله -تعالى- وعنايته وتوفيقه فقد يوفّق في قراءته، وقد يصل بهذه القراءة إلى كثير من مكنون القرآن الكريم؛ ولذلك فإنّ الله -تبارك وتعالى- قال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٩]، وهنا الآية تُشير إلى عمليّة الوصول إلى المعنى، وليس اللمس الحسّيّ كما ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء. وإنّما مَسُّ المعنى المكنون والوصول إليه. وقد وضع الله -تبارك وتعالى- كلمة: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٩]، بصيغة اسم المفعول لكي ينبِّه إلى أنَّ عمليّة التطهير تجري من الخارج، يعني المطهَّر هو من طهَّره غيره. ذلك يعني أنّ المطَهَّرين هم أولئك الذين طهّرهم الله -تبارك وتعالى- وهيّأ عقولهم وقلوبهم ووجدانهم للمس معاني القرآن الكريم والوصول إليها. ورسول الله ﷺ يقول: "إنَّ لربكم في دهركم لنفحات، فتعرّضوا لها."(١) فحينما يقوم القارئ للقرآن الكريم متعرّضاً لنفحات الله -تبارك وتعالى- فإنّ استفادته بقراءته سوف تكون أكثر بكثير من ذلك الذي حُرِم هذه الجوانب أو لم يصادفها.

وقد وصف الله -تبارك وتعالى- القرآن الكريم بأنَّه هُدى لقوم، ونور وبيان لأقوام، وقد وصفه كذلك بأنَّه لا يزيد الظالمين إلا خساراً. وينزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. فهذا الخطاب يتنوّع دوره في التأثير بتنوع القارئ وما يتصف به وما يتعرض له من نفحات الله تبارك وتعالى.

وهناك معوّقات تحول بين القارئ والقراءة، يجب أن يحرصَ القارئ على تلافيها ومنها:

(١) السيوطي، جلال الدين (توفي ٩١١هـ). **جامع الأحاديث**، تحقيق: مجموعة من الباحثين، مصر: دار الإفتاء، ج٩،ص١٥٣، نقلاً عن:

- الطبراني، سليمان بن أحمد (توفي ٣٦٠هـ). **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، القاهرة: دار مكتبة ابن تيمية، ط٢، (د.ت)، ج١٩، ص٢٣٣، حديث رقم ٥١٩.

أولاً: «الاختلاف»: فإذا وقع اختلاف بين القارئين للقرآن الكريم وتنازعوا أمرهم، وحاول كلٌّ منهم أن يتّخذ موقفاً ما يستدل عليه. هنا ينصح رسول الله ﷺ هؤلاء بأن يتركوا القرآن، وأن يقوموا عنه، حيث إنَّ القرآن في هذه الحالة -حالة الاختلاف والشقاق النّفسي- سوف يحمِل القارئين على أن يجعلوا من القرآن مجرد شواهد ووسائل معبِّرة عن آرائهم التي اختلفوا فيها وحولها. وسيؤدي ذلك إلى أن يضربوا القرآن بعضه ببعضٍ، بدلاً من أن يقرؤوه في تكاملٍ تامٍّ، وفي إطار وحدته البنائيّة؛ ليتعرّضوا لنفحات الله -تبارك وتعالى- فيه.

ثانياً: «البحث عن شواهد»: من المعوّقات أن يمارسَ القارئ القراءة في القرآن الكريم طلباً لشاهد أو دليل معضّد لموقف يقفه أو رأي يراه. ففي هذه الحالة كذلك، سوف يكون القارئ محجوباً عن جوانب مهمة من أنوار القرآن وأضوائه ووسائل هدايته ومعانيه.

ثالثاً: «الدخول بأحكام مُسبَقة»: كذلك الدخول بأحكامٍ مسبقة إلى القرآن الكريم يُعدّ من المعوّقات التي إن دخل القارئ بها فإنّه لن يكون قادراً على استجلاء معاني القرآن بشكل سليم. فالقرآن إنّما ينفتح على قارئٍ هو في حاجة إليه، يريد أن يستنطقه ويستثيره لكي ينال من هدايته ومن معانيه ما يسدّد طريقه ويصوّب خطاه، ويعينه على معالجة أزمته. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٧]، فالتائه سوف يجد هدايته فيه، ولكن الداخل إليه بأحكام مسبقة سوف يجد نفسه يقرأ بطريقة مَنْ يفرض على القرآن معاني قد لا يحتملها نصُّه، ولا يُشير إليها أو يدل عليها خطابه بأيّ وجهٍ من أوجه الدلالة. وهنا يتحوّل القارئ من قارئٍ تالٍ مفتقر إلى ما في القرآن الكريم إلى إنسان يحاول تحميل القرآن ما لا يحتمل.

وهناك مقدمات يجب على القارئ أن يعيها في وُلوجه للقرآن الكريم، منها:

أولاً: «موقع القارئ من الخطاب»: يجب أن يحدد القارئ موقعه من الخطاب، ما موقعي أنا؟ هل جئتُ إلى القرآن الكريم طالبَ هدايةٍ، أم طالب تعبّدٍ، أم طالب معرفة حُكْم، أم طالب معرفة سُننٍ إلهيّة أم سُنَنٍ اجتماعيّة، أم تاريخ أقوامٍ، أم استنباط هداية

أم ماذا؟ هذا التحديد مهم جدّاً، ولا بدّ للقارئ أن يُحدّد موقعه من القرآن الكريم وهو يلج إلىٰ رحابه، ولا بدّ من أن يُحدّد موقع الخطاب منه؛ ما علاقة القرآن به؟ وهنا يُبيّن إيمانه واحترامه للقرآن ورؤيته له، أُلْفته معه، علاقته به، تصوّره له، مع إيمان تام ويقين كامل بقدرة القرآن المجيد علىٰ تزويد القارئ -بكرمه- بما هو بحاجة إليه. فلا بُدَّ أن يحدّد القارئ هدفه من القراءة بدقة تامة، وهو ما نسمّيه بالنيّة: «إنّما الأعمال بالنيّات». والقراءةُ عملٌ، فلا بُدّ من بناء النيّة والتعرّض للتطهير الإلهيّ. لعلَّ القارئ يصبح واحداً من أولئك المطهَّرين الذين يستطيعون العروج إلىٰ مسّ معاني القرآن الكريم.

ثانياً: «تنزيل القراءة علىٰ القلب»: تنزيل قراءتنا للقرآن علىٰ قلوبنا أمرٌ في غاية الأهميَّة؛ لكي نحصل علىٰ ثمرة القراءة، ولنجني فوائدها، فالقراءة بالعينين وتحريك اللسان دون إشراكٍ فعليٍّ للقلب لا تؤدّي ما تؤدّيه القراءة عندما ينزّل القارئ قراءته علىٰ قلبه مباشرة. وهذا النوع من القراءة يقتضي تيقُّظ قوىٰ الوعي الإنسانيّ -كلّها- عند القراءة، وتحتاج إلىٰ تدريب علىٰ ذلك، بحيث تفيض القراءة من القلب إلىٰ الجوارح، فيكون القلبُ هو المستقبِل الأول لآيات الكتاب الكريم.

فالقرآن الكريم ليس كتاباً عاديّاً ينزَّل علىٰ السمع، أو يوضع أمام العين لكي يقلب الإنسان الطرف في كلماته، أو يتصفحه تصفحاً، أو يستمع بقلبٍ لاهٍ أو ساهٍ له، بل لا بدّ أن ينزَّل علىٰ القلب قبل أن ينزّل علىٰ اللسان أو ينزل علىٰ الأذن في حالة الاستماع، قال تبارك وتعالىٰ: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٢]، ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢]. فالتنزيل علىٰ القلب إذاً ليس بالأمر السهل؛ لأنّه يحتاج إلىٰ تدرّب وتطهّر، فليس كل كلام يمكن للإنسان أن ينزّله علىٰ قلبه؛ ولذلك نُهي رسول الله ﷺ أن يحرك به لسانه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ١٦- ١٧]، وأُمر -في الوقت نفسه- ونبَّه إلىٰ أنّ التنزيل إنّما يتم علىٰ القلب، فالقارئ للقرآن الكريم محتاجٌ أن يُنَزِّلَ القرآن علىٰ قلبه، والتنزيل علىٰ القلب يستلزم أولاً تطهير القلب وتنقيته من كل ما قد يحول بين القرآن والنزول علىٰ قلبٍ ممهّدٍ ليّنٍ، إذا نزل عليه زاده إيماناً وزاده إخباتاً وخشوعاً، قلباً مخبتاً لا تعرف

القسوةُ إليه سبيلاً، والقرآنُ يزيدُ ذلك القلب ليناً، كما يلين له الجلد: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]. وفي الوقت نفسه لا بدّ من تزكيةِ القلب وتطهيره وإعداده وتهيئته، فكما تُمهد الأرض لإنزال طائرةٍ عليها مثلاً، لا بدّ لك من تمهيد القلب لكي تنزل عليه آيات القرآن الكريم وتوجد بين القلب والكتاب الكريم رابطةً وثيقةً لتذكر مُنَزِّلِه والمتكلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتذكر متلقيه الأول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي تلقّاه وحمله إلىٰ البشريّة.

ثالثاً: «حضارة كلمة وحضارة الصورة»: أمرٌ آخر لا بدّ للقارئ أن يتنبَّه له ألا وهو أنّ هذا القرآن كلمات الله، فيحتاج القارئ أن يدرك أنَّ القرآن كلام الله، يقوم علىٰ الكلمة. وأنّ الحضارة التي أقامها القرآن الكريم هي **حضارة كلمة**، وهي مقابل **حضارة الصورة والتمثال**، والكلمة يستحيل توثينها، وإنْ وثَّنها بعضُ الناس، ولكن لا يعني هذا كذلك، أن يتعامل معها تعاملاً عاديّاً كأيَّة كلمةٍ أخرىٰ. فهذه الكلمة الموجودة في القرآن كلمة إلهيّة تقابل الكلمات الإلهيّة الموجودة في الكون التي بها تشيَّأ الكون، حين قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]. وحضارة الكلمة غير حضارة الصورة أو المثال؛ فلحضارة الكلمة خصائصها، وللعقل المنتمي إلىٰ حضارة الكلمة سماتٌ وصفاتٌ لا بدّ للقارئ أن يكون علىٰ وَعْيٍ بها ليحسن التعامل مع تلك الكلمات، وكلمات القرآن الكريم ليست كَأَيَّةِ كلمات عربيَّة. وإنَّما هي كلمات علىٰ مستوىٰ عالٍ يرتقي إلىٰ مستوىٰ المفاهيم. وذلك للفرق الكبير بين الاستعمال الإلهيّ للّغة والاستعمال البشري لها. فالاستعمال البشريّ للّغة قد لا يحمل من ثراء المعاني ما يحمله الاستعمال الإلهيّ الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، والذي فصَّل هذا الكتاب علىٰ علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فالكلمة القرآنيَّة إذاً كلمةٌ ترتقي لمستوىٰ المفهوم. وعلىٰ القارئ أنْ يدرك الفرق بين الاستعمال الإلهي للكلمة والاستعمال البشري لها. ومن ثمّ فالقرآن الكريم هو أَوْلَىٰ المَصادر بتعريف كلمات القرآن الكريم نفسه، فالقرآن يجعل من الكلمة الواحدة غرفةً في بناء أو لبنةً في بناء تعطي فائدتها منفردة ومستقلة، وفي الوقت نفسه تعطي جملةً من الفوائد وهي في داخل البناء. فَوَعْيُ القَارئ بهذا الأمر وعيٌ له أهميته، وتظهر أهميّتُه في عملية الفهم

وفي التعامل مع مفردات القرآن الكريم بوصفها «مفاهيم»، ومع القرآن الكريم في «وحدته البنائيّة» وفي «كليّاته» و«مقاصده» و«غاياته». أمّا الصورة فلها تناولٌ آخر، ولها طرائق مختلفة في النظر إليها، والتكوين العقلي للمنتمي لحضارة الصورة والتوجّه النفسيُّ مختلفٌ تماماً عن توجُّه المنتمي لحضارة الكلمة.

رابعاً: «لسان القرآن»: نقطةٌ أخرىٰ لا بدّ من التنبّه لها، ألا وهي اختلاف «**لسان القرآن**» جملةً عن أيّ لسان آخر بما فيه اللسان العربيّ، وتمتُّع هذا اللسان -لسان القرآن- بمزايا مختلفة. فلسان القرآن الكريم من الصعب جدّاً إخضاعه لأحكام الألسنيّات، خاصةً المعاصرة التي تنطلق من عمليات دراسة النصوص وتفكيكها وإعادتها إلىٰ كلمات مفكّكة لتيسير تحليلها! وعدم ملاحظة سائر الجوانب التي أشرنا إليها من مزايا كلمات القرآن الكريم ونَظْمِهِ وأسلوبه وتحدّيه وإعجازه، وأثر الاستعمال الإلهيّ للغة، والفرق بينه وبين الاستعمال البشريّ لهذه الألسنيّات، يصعب أن ترتقي إلىٰ هذا المستوىٰ، ويصعب أن تتعامل مع النص القرآني التعامل اللائق به والقادر علىٰ العروج إلىٰ علياء الألسنيّات القديمة. وقد قام البلاغيُّون المسلمون؛ مثل عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الإعجاز»، والزمخشري في «أساس البلاغة»، وابن جِنّي في «الخصائص»، وسيبويه في «الكتاب» والخليل في «العين» بدراسات لغوية، وجدت وولدت في البيئة المسلمة، وبتأثير قرآني. لقد كان من الممكن لو أنّ المسلمين جاوزوا تخلّفهم الذي هم فيه، أن يبنوا علىٰ تلك الدراسات ليكون لديهم علم ألسنيّات ملائم للتعامل مع القرآن الكريم بمزاياه وبخصائصه كلها، وأن يضيفوا علىٰ هذه الألسنيات وعلومها ومناهجها معارف ومناهج أخرىٰ يمكن أن تجعل اللسانيّات الإسلاميّة والعربيّة لسانيّات متميّزة صالحة لخدمة الخطاب القرآنيّ ولحمايته من تطفّل الذين لا يعرفون عنه الكثير، ولا يستطيعون أن يتذوّقوه، ولا يستطيعون أن يُلمّوا بكثير من الأبعاد الأساسيّة لقراءته، ولأغنوا أنفسهم عن التطفل علىٰ موائد علماء الألسنيّات والبحث الفونولوجي وما إلىٰ ذلك، وأغنوا الكتاب المجيد أن يتعرّض لما تعرّض له وما يزال من تلك الدراسات الفجَّة التي لم تستطع أن تخدمه ولا أن تُقدّم له الكثير.

القرآن الكريم نفسه قد هدىٰ الناس إلىٰ مناهج قراءته. فكأنّه قد أخذ بأيديهم، وقال لهم إنْ شئتم أن تقرؤوني فاقرؤوني بهذه المناهج أو بهذه الطرق، فهو قد أوضح الفروق

بين تدبّره في حالة الاستماع وتدبّره في حالة القراءة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فالقارئ نفسه مطلوبٌ منه أن يقرأ بكل الشروط والمواصفات التي تقدّمت الإشارة إليها، والمستمع بحاجةٍ إلىٰ أن يُنصت إلىٰ هذا القرآن بجوارحه كلّها؛ لأنّ للخطاب القرآنيّ طرقاً مختلفة تستدرج القارئ والسامع إلىٰ التفكير فيها إذا ظهرت للقارئ أو السامع المسالك، وأعدّها لاستقباله، فالخطاب القرآنيّ ليس من النوع الذي يمكن للقارئ به أو للسامع أن يضع عوازل بينه وبين تأثيره فيه إذا ما استقبله بقلبه وأنزله علىٰ قلبه واستقبله، وهو مدركٌ لعظمته ولأهميَّته ولمزاياه. فقد تضافرت الروايات الدالّة علىٰ أنّ القرآن الكريم حين استمع إليه أو قرأه بعض المشركين تأثروا به، ومَنْ منَّا يجهل قصة إسلام عمر بعد قراءته لشيءٍ من سورةِ طه؟ وقصة الوليد بن المغيرة، وقصة الثلاثة: الأخنس بن شريق وأبي جهل وأبي سفيان، واستراقهم السمع إلىٰ قراءة رسول الله ﷺ للقرآن. وفي الجانب السلبيّ نجد أنَّ المشركين لمعرفتهم بذلك التأثير سارعوا إلىٰ أن قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦] فقد دعوا إلىٰ عدم السماع أصلاً منذ البداية؛ لأنّهم يعرفون من قوة الخطاب وصدق تأثيره وتنوّع مصادر قوته الشيء الكثير عن تأثيره فيمن يقرؤه أو يسمعه؛ ولذلك لم يكونوا يستطيعون أن يعطوا أحداً فرصةً للاستماع إليه. وفي الوقت نفسه يقول البارئ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]. فلا بدّ إذاً أن يحدث الخطاب نوعاً من التأثير فيه، ويشق طريقه إلىٰ قلبه وعقله ووجدانه. فيكون من الصعب جدّاً أن يتلافىٰ ذلك التأثير إذا كان مدركاً لقيمة هذا القرآن وكيفيّة التفاعل معه وكيفيّة استقباله قراءةً أو استماعاً.

إنّ القرآن الكريم بدأ أول ما بدأ بأمر بالقراءة؛ إذ نزلت به: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١] ليرشد الناس إلىٰ ضرورة قراءته ويبيّن أنه قد يسّره الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للقارئين فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]، وبيّن لنا أنّ هناك آثاراً سلبيّة وأخرىٰ إيجابيّة لهذا الخطاب: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]. وهذا كله للذي يؤمن بهذا القرآن ويدرك عظمة وجلالة قدره.

خامساً: «أسماء القرآن» ومن أهم الأمور التي تساعد القارئ على معرفة القرآن معرفةً جيدة وبناء ألفةٍ معه معرفة أسماء القرآن الكريم بمعانيها، ومعرفة صفاته بدلالتها، وللقرآن الكريم ما يزيد عن أربعة وثلاثين اسماً. وله مجموعةٌ من الصفات، أحصاها أو أحصى بعضها الإمام الرازي وآخرون من علماء القرآن الكريم. هذه الأسماء وهذه الصفات زادت على الخمسين. ومن شأنها أن تزيد في فهم القارئ وفي وعيه بأهميّة القرآن وإدراك عظمته، ومن ثَمَّ تهيئة النّفس والعقل والقلب والوجدان لاستقبال مُحْكَم آياته قراءةً أو استماعاً. وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات كريمة كثيرة تُبيّن لنا طرائق استماع المؤمنين للقرآن الكريم وتلاوتهم له، وطرائق استعمال غيرهم واستقبالهم له، فهو كما قلنا شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة، وهو موعظةٌ للمتقين، وهو بشرى وذكرى ونذارة في الوقت نفسه. لا يمكن إطلاقاً أن يتجاهل القارئ ذلك كله ويصل من دونه إلى المستوى الذي نبَّه القرآن الكريم إلى ضرورة الوصول إليه بقارئه وبسامعه وبتاليه. فالتلاوة يجب أن تكون «**حقَّ التلاوة**»، لا يكون فيها لَيّ بألسنتهم، ولا يكون فيها طعنٌ في الدين، ولا يكون فيها فسادٌ في النيَّة إلى غير ذلك من آداب ووصايا، قد اشتمل القرآن الكريم عليها؛ ليُبيّن لنا المنهج الذي نقارنه به ونقرأه به، وذلك هو منهج القراءة ومنهج الاستماع. وهذه كلها تحتاج إلى نوع من الاستقصاء في آيات القرآن الكريم؛ لنتبيّن هذه الآيات، ونضعها في نوع من التراتب والتلازم يسمح للقارئ الوصول به إلى ما يتمنَّى الوصول إليه بقراءته للقرآن الكريم. والله -تبارك وتعالى- ما أنزل القرآن منجَّماً وما فرَّقه وقرأه على الناس على مُكثٍ إلا من أجل تثبيت القلوب والعقول به، فقال سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢]، وسمّى رسول الله ﷺ بعض القراءات بقراءة «**الهذرمة**»، وسمّى القرآن الكريم بعض القراءات بقراءة «**العِضين**»: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: ٩١]، أي قرؤوه بوصفه أعضاء مجزأة مقطّعة مفرقة عن بعضها.

فكل هذه الأمور حينما نضمها إلى بعضها سوف نخرج بمنهجٍ دقيقٍ لقراءة القرآن رسمه القرآن نفسه ليهدينا به إلى المنهج الذي علينا أن نتبعه في قراءته وتلاوته وفي

الاستماع إليه. فلا بدّ من معرفة أسماء القرآن وصفاته، لكي يستصحب القارئ ذلك كله وهو يتلو آيات القرآن الكريم، ويتلوه متدبراً متفكراً متعقلاً متذكراً نظمه، ويتدبر فيه وفي تفرّد أسلوبه، وكيف تحدّىٰ البشريّة كلها، بل العالمين كافة، وكيف عجزت البشريّة كلها عن الاستجابة لذلك التحدي، وأنّه خطاب يختص بضرورة أخذه بقوة وتلقّيه بقلبٍ منفتح وعقلٍ منفتح وعزيمةٍ صادقة.

فهذه بعض معالم وملاحظات وجيزة لعلّها تبيّن لنا نوعيّة القراءة التي علينا أن نمارسها ونحن نقرأ القرآن الكريم ونقاربه. خاصةً في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا، والتي لا نجد فيها بين أيدينا إلا كتاب الله الكونيّ، فهو القادر علىٰ إخراجنا من الحيرة وتخليصنا من هذه الفتن، كتاب الله الذي يرسم لنا طريق الخلاص، كما يشير إلىٰ ذلك الخبر المرويّ عن أمير المؤمنين عَلِيٍّ -كرّم الله وجهه ورضي عنه- الذي ذكرناه آنفاً.

فهل استطاعت أمتنا -عبر تاريخها، وباستعمالها لمختلف العلوم والمعارف التي وضَعَتْها من أجل استجلاء معاني القرآن- أن تكتشف القرآن، ثم تقدّم ذلك القرآن الكريم للبشريّة بوصفه كتاب استخلاف ومنشأ عمران؟ ودليل استقامة وهداية في هذا الوجود؟!.

لا شك أنَّ أُمّتنا قد حاولت، وقد قدّمت خدمات كثيرة في كتابة القرآن وفي قراءته وفي تجويده وزخرفة أوراقه، وفي طرق تناقله، وفي إحصاء كثيرٍ من الأمور الدقيقة الدائرة حوله. ولكن لم تستطع بالرغم من إعداد وكتابة ما يقرُب من مليون دراسة وكتاب ورسالة -ما بين مطبوع ومخطوط في قضايا القرآن وتاريخه وجمعه وعلومه المختلفة- أن تقدّم لنا القرآن كما ينبغي أن يُقدّم باعتباره كتاب خلافةٍ ودليل عمران، ومصدر تحقيق للشهود الحضاريّ في هذه الحياة الدنيا. فدراساتنا في «علوم القرآن» قد اتّسمت بكثير من القصور، ودخلت في بعضها قضايا خطيرة مثل دعوىٰ «النّسخ»، و«تعدّد الأحرف»، و«القراءات» خاصّة ما سمّي بـ«القراءة الشاذة»، وعن هذه العلوم انتقلت تلك الإصابات إلىٰ بعض معارفنا الأخرىٰ، مثل «أصول الفقه»، ومجموعة من الإصابات الخطيرة التي أشرنا إليها بوصفها علماً نتداولها بوصفها

من علوم القرآن. لقد حمّلت تلك المقولات القرآن الكريم مجموعةً من التساؤلات الشاغلة عن تدبّره، والأمور التي ما كان ينبغي لهذه الأمّة أن تغفل عنها، وما كان ينبغي أن تسمح لها أن تمر إلىٰ «علوم القرآن»، فضلاً عن أن تعيش وتتداول حتىٰ أيامنا هذه. وهناك أخبارٌ منها خبرٌ يُنْسَبُ إلىٰ أُمِّنا عائشة -رضوان الله عليها- ولا أشك أنَّها بريئة من ذلك، يقول الخبر إنّها قالت: "أتدرون كم هي سورة الأحزاب اليوم؟ قالوا: يا أم المؤمنين إنّها (٧٣) آية، قالت: والله لقد كنّا نقرأها علىٰ عهد رسول الله ﷺ وإنَّها تعدل سورة البقرة، تجاوز المئين". فهذا القول كيف يمكن أن يُقبل؟ وكيف يمكن أن نستمر بتداوله؟ ونحن نعرف أنّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي تكفَّل بنفسه بحفظ هذا القرآن والحيلولة دون نسيان أو تجاهل أو تحريف أي شيءٍ منه مهما كان، حتىٰ لو كان كلمةً أو حرفاً.

فالقرآن المجيد هُوَ منبع كل خير في هذه العلوم أو المعارف، وكل ما يؤخذ عليها أو يُنتقد من تفاصيلها أو كليّاتها راجع بشكل أو بآخر إلىٰ مدىٰ قربها واتصالها وانفصالها عن القرآن الكريم. وقد حاول الإمام الرازي، وهو مَنْ هُوَ في علمه وجلال قدره وتفسيره الذي يُعدّ موسوعة معرفيّة في هذا المجال، أن يربط بين تلك العلوم وبين كتاب الله فأعدّ تفسيراً؛ وضع فيه كثيراً من قواعد أصول الفقه -وإن لم نقل وضعها كلها- وربطها بالقرآن الكريم، وكذلك فعل مع كثير من الأحكام الفقهيّة والكلامية، والبلاغة واللغة والنحو والتصريف والحديث وما إلىٰ ذلك. فكأنّ الإمام أراد أن يستدلّ علىٰ نفسه وعلىٰ غيره من الفقهاء الذين إنّما تشغلهم في فترة التكوين والتعلُّم والتعليم التفاصيل والجزئيّات، ويستغرقون فيها دون التفات لربطها بالقرآن الكريم؛ لأنّ هناك أمراً مستبطناً في قرارة كل نفس من تلك الأنفس، أنّ قواعد الأصول والفقه والحديث النبويّ وما جاء به المفسرون وما جاء من علوم الكلام والعقائد، ذلك كلّه -وإن رُد إلىٰ القرآن الكريم بشكل أو بآخر- ولكنّه في الفترات الأولىٰ من تكوينه كان الرد إلىٰ القرآن الكريم علىٰ سبيل الاستشهاد بآيات الكتاب الكريم وتعضيد ما توصل إليه أهل العلم خارجه، أو علىٰ الأقل مما صاغوه خارج القرآن الكريم، ثم حاولوا تعضيده وإضفاء الشرعيّة عليه وربطه بالقرآن الكريم من

خلال عمليّة استشهاد، فكأنّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما كتب تفسيره أراد أن يستدرك -ولو لم يصرّح بذلك- بأن يجعل القرآن الكريم منطلقاً لتلك العلوم. ولا شك أنّ الإمام الرازي قد كتب تفسيره في وقت متأخّر من عمره، وبعد أن نضجت خبراته واستوت علومه. فكأنّه كان يقول: إذا كنا في بدء حياتنا العلميّة وانشغالنا بالتعليم والتأليف اتخذنا من القرآن الكريم والأحاديث النبويّة شواهد لما كنا نصوغه من قواعد علميّة في أصول الفقه، أو الفقه، أو التفسير، أو الكلام، أو ما إلىٰ ذلك؛ فالآن سأعيد هذه العلوم من طريق التفسير أو بطريق التفسير إلىٰ القرآن الكريم، ولعلّي بذلك أجعل القرآن الكريم لا مجرد شواهد معدودة أو أدلة سائدة، ولكن منبعاً ومنطلقاً وأساساً؛ ولذلك جاء في وصيته أنّه قال: "ولقد اختبرت الطرق الكلاميّة والمناهج الفلسفيّة، فلم أجد فيها مثل ما وجدت في كتاب الله، أقول في الإثبات كذا وأقول كذا..... إلخ"، والمتأمل في وصيّة الرجل يمكن أن يدرك هذا المعنىٰ بوضوح شديد.

وبالنسبة لي، فبعد تلك الجولة الطويلة مع التراث، وبعد أن تكوّنت لديّ حاسّةٌ نقديّة مقلقة، لم تعد تسمح لي بأخذ شيء من ذلك التراث علىٰ أنّه شيء من المسلّمات، وكما نعلم فالقرآن المجيد والسنّة النبويّة لا تعد تراثاً، بل هِيَ منبعٌ ومنطلقٌ وأصلٌ للتراث. وقد وجدت الكتاب الكريم مما لا يمكن علىٰ الإطلاق أن يوجه نقد معتبر إلىٰ ما بني عليه. ولكن إذا كنا نجد ميدان النقد متسعاً؛ فإنّ ما نجده في التراث لم يأخذ حظه من الارتباط بالقرآن المجيد والبناء عليه.

لذلك فقد أخذتُ الدرس والعبرة من موقف الإمام الرازي، وقلت إنّه يجب عليَّ أن أعود للقرآن الكريم قبل أن أبلغ المرحلة التي بلغها الإمام الرازي رحمة الله عليه. ومن هنا بدأت أعمل علىٰ تكريس جميع دراستي في القرآن المجيد. والمزايا والدوافع كبيرة جدّاً. فهو الكتاب الكونيّ، وليس ثمة كتاب كونيّ في الوجود سواه الآن؛ بعد ختم النبوات بمحمد ﷺ وختم الكتب السماويّة بالقرآن المجيد، وهو الكتاب المطلق، المعجز، المتحدي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لا تعبير عن مراد الله تبارك وتعالىٰ سواه. وحينما بدأت الفكرةُ تلحّ عليَّ وجدت في التفسير ذلك الركام الهائل من الإسرائيليّات والقصص وما نحوها، والفذلكات

اللغويّة والصرفيّة والنحويّة والبلاغيّة والأحكام الفقهيّة، وما سوىٰ ذلك مما أعدُّه قد تحوّل إلىٰ حاجز وحائل بين الناس والقرآن الكريم، أو علىٰ الأقل بين الناس والتدبّر في القرآن الكريم؛ لأنّهم وجدوا من تلك المعارف التي أدرجت في التفسير مثلاً يعدُّ بمثابة التفسير الفقهيّ أو تفسير لآيات الأحكام، وأصول الفقه أصّلت وقعّدت ورُبطت ببعض آيات الكتاب الكريم، لأدنىٰ مناسبة، ولأقوىٰ مناسبة، بحسب ما كان يراه المؤصّلون. كذلك كثيرٌ من القضايا التاريخيّة والسنن وغيرها، ووجدتُ علوماً كثيرة من علوم القرآن الكريم ومعارفه لم يُلتفت إليها بقدر كافٍ لانشغال الناس بقضيّة الأحكام. فإذن، لا بدّ من العودة إلىٰ القرآن الكريم، فهو كتاب الاستخلاف وكتاب التوحيد والعمران والتزكية، وهو الذي يعطي كل ذي حقّ حقّه فيما يتعلق بالله -تبارك وتعالىٰ- من توحيد وسواه وفّاه حقّه وزاد، وهو منبع لأصحّ ألوان الاعتقاد وأنواعه ومراتبه، وهو أصحُّ المصادر فيما يتعلّق ببيان الحقوق والواجبات وما إلىٰ ذلك، وهو -قبل وبعد- الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وهو الكتاب الذي فصّله الله -تعالىٰ- علىٰ علمه، الذي لا يضيق بشيء، بل أحاط بكل شيء علماً.

إذاً، لا بدّ لنا من الارتباط بالقرآن الكريم، وربط مشاريعنا التجديديّة والحضاريّة به بشكل وثيق، وإلا فقد تستمر حالة التيه هذه التي نعيشها إلىٰ فترات طويلة. وسوف نستمر ننطلق ونعود إلىٰ النقطة التي انطلقنا منها أو بدأنا منها في عمليّة تيه متصلة لا تتوقف؛ لذلك وجدتُ أنّ في مراجعات التراث ونقده في نور هداية القرآن الكريم وسيلةً من وسائل التجديد والاجتهاد وإعادة البناء الذي ننادي به جميعاً. وعجزت كل الدعوات المنادية به عن تحقيقه أو الوصول إليه، والقرآنُ الكريم يحدّد لنا مجموعة من السنن والقوانين الاجتماعيّة التي وصلت البشريّة -بعد جهد جهيد- إلىٰ ما يقرب منها، وما يزال كثير منها بعيداً عن متناول البشريّة التي اتخذت هذا القرآن مهجوراً.

والقرآن المجيد -قبل هذا وبعده- صرّف الله -تعالىٰ- فيه من كل مثل، وفصّله علىٰ علمه المحيط الشامل، وراجع فيه تراث النبوّات، وصدق عليه وهيمن، وتناول فيه مستقبل البشريّة، ورغّب ورهّب. رغّب في السُّبل المنتجة القادرة علىٰ إعانة

الإنسان علىٰ تحقيق الغاية من العهد الذي أبرم بينه وبين الله تعالىٰ، وفي الوقت نفسه تحقيق غاية الحق -جلّ شأنه- من الخلق، وإقامة هذه الحياة علىٰ قواعد ثابتة تحوّلها إلىٰ حياة طيّبة، وتجعل من مرحلة الجزاء مرحلة تجعل مآل الإنسان إلىٰ رضوان الله -تبارك وتعالىٰ- وإلىٰ جنّته.

ووجدت أنّ اللجوء للقرآن الكريم وتفسير القرآن بالقرآن، واستنباط المشاريع الحضاريّة والاستخلافيّة والعمرانيّة، ومشاريع تزكية الإنسان وتزكية الحياة، أو ما يمكن تسميته بالتزكية الشاملة التي تشمل العقل والتصوّر والرؤية والفكر والاعتقاد والسلوك وأنظمة التعامل والعلاقات. كلُّ ذلك تستطيع أن تحصل عليه وتجده واضحاً في القرآن الكريم، إذا عرفنا المداخل التي نقاربه بها ونلج إلىٰ رحابه بواسطتها؛ فالقرآن الكريم هُوَ أولىٰ أن يُفصح عن نفسه ويُبيّن مكنون آياته، ويعرّف بما جاء فيه، فالقرآنُ الكريم يأتي في سياق ما علىٰ الإيجاز، وفي سياق آخر علىٰ الإطناب، ويأتي في سياق آخر علىٰ الإجمال، وفي سياق علىٰ التبيين، ويأتي في سياق مطلقاً، وفي سياق آخر مقيّداً، وفي سياق يكون عاماً، وفي سياق آخر ينتهي إلىٰ الخصوص، وما توجزه آيات الكتاب الكريم في سياق نجمٍ من نجوم القرآن الكريم أو في سورة تجده مبسوطاً في مكان آخر، مضافاً دون تكرار. وما يُجمله في موضع يُبينه في موضع آخر، وهكذا يُطلق ويُخصّص ويُقيّد ويُعمّم. وكل ذلك تجده في الكتاب الكريم.

من هنا فإنّ مَنْ رُزق مداخل التدبّر ومداخل الولوج إلىٰ رحاب القرآن المجيد يجد نفسه قادراً علىٰ الوصول إلىٰ ما لا يمكن أن توصّله إليه المعارف الأخرىٰ، ومنها المعارف التي سُمّيت المعارف أو العلوم الشرعيّة.

للتفسير أنواع كثيرة كما ذكرنا؛ فمنها التفسير بالآثار المنقولة عن السلف، والتفسير اللغويّ والبيانيّ، والتفسير الإشاريّ، والتفسير الفقهيّ، والتفسير العقليّ، والتفسير العلميّ، والموضوعيّ. ويُطرح الآن توجه نحو التفسير الفلسفيّ. لقد سنّ لنا رسول الله ﷺ «**تفسير القرآن بالقرآن**»، فجلّ ما ورد في صحيح المنقول عنه ﷺ في التفسير كان من نوع «تفسير القرآن بالقرآن» حين تظهر الحاجة إلىٰ التفسير اللفظيّ؛ أمّا التفسير العمليّ والتطبيقيّ فسنّته وسيرته -كلّها- عبارة عن تفسير للقرآن المجيد، فسنّته هي القرآن، وسيرته هي القرآن، وخُلقه هو القرآن ﷺ، وسائر أنواع التفسير

التي ذكرناها تطرح تساؤلاً خطيراً، هو: إنّ القرآن المجيد قد وُصف بأنّه بيانٌ ومبينٌ ونورٌ وميسرٌ للذِّكر... إلىٰ غير ذلك، مما يدل علىٰ وضوحه وعدم حاجته إلىٰ وسيط يقوم ببيانه وتوضيحه، بحيث يفترض ألّا يحتاج هذا النور والكتاب المبين إلىٰ مَنْ يفسره ليعرف الآخرون معانيه، والمراد به. فَلِم يُعتنىٰ بهذا الوسيط: «التفسير» أيّاً كان نوعه؟! ما دامت غاياته في النهاية تقريب معاني القرآن إلىٰ أفهام المخاطبين به الذين يفترض القرآن أنّهم مهيؤون للانفعال به والاهتداء بهدايته إذا تلوه حق تلاوته وتدبّروه، وتفكّروا فيه، وتعقّلوا آياته، وتذكّروا مضامينه وأهدافه ومقاصده، وأنّهم مطالبون باتّباعه، وبناء حياتهم وعمرانهم وحضاراتهم وفقاً لما نزل به من هداية. كما أنّهم مكلّفون بمعالجة اختلافاتهم، وردّ خصوماتهم إليه، والرضا بحكمه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣]. ولم يعلّل إعراضهم بعدم فهم الخطاب، بل علّل بعلّةٍ أخرىٰ خاصّة بهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٤]. فالإعراض وعدم الفقه يأتي من انعدام استعدادات المخاطبين. أمّا الخطاب القرآني فلا اختلاف فيه؛ لأنّه من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والاختلاف آفة يمكن أن تعتري الخطاب النسبي، أمّا خطاب العزيز العليم، الذي أحاط بكل شيء علماً، والكتاب الذي فصّله الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ علمه وبعلمه، لن يكون عرضةً لأيّة آفة من تلك الآفات. فالتفسير الإنسانيّ -أيّاً كان علم المفسِّر وجلالة قدره- لا يمكن أن يكون أبين من القرآن الكريم ولا أوضح. و«تنوير النور» أو «إضاءة الضوء ومصدره» أمر يتجاوز بعبثيته تحصيل الحاصل؛ ولذلك فإنّ رسول الله ﷺ لم يفسّر من القرآن بـ«المعنىٰ المعرفيّ» للتفسير إلا آيات معدودات علّمهن إياه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ أي: نقل جبريل إليه ﷺ تفسيرهن لحكمة أرادها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولعلّ هذه الحكمة من بعض جوانبها تعليم الله -تبارك وتعالىٰ- لنبيّه كيف يعلّم الناس الكتاب والحكمة، وجُلّ ذلك يمكن أن يندرج في مجالات تفسير القرآن بالقرآن.[1]

(١) إنّ رسول الله ﷺ ترك للناس مع كتاب الله سنته وسيرته، وللسنّة والسيرة مفهومها وللتفسير مفهومه، ولو أنّ رسول الله ﷺ فسّر آيات الكتاب الكريم كلّها، بالمفهوم الاصطلاحيّ للتفسير لما جاز لأحد أن يفسر القرآن العظيم بما لم يفسره به رسول الله ﷺ، ولوقع كل أولئك المفسرين ومنهم الصحابة والتابعون =

وذلك يعني أنّ التفسير بمفهومه الاصطلاحيّ -فيما عدا ما فسّره رسول الله ﷺ إن هو إلا جهد بشريّ يستخدم المفسرون فيه جهودهم وأدواتهم ومعارفهم المختلفة ليتكوّن لهم فهم، يُؤخذ منه ويُترك. فالحكم في قبوله أو ردّه إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ. فالقرآن المجيد يفسّر بعضه بعضاً. فما هُوَ «تفسير القرآن بالقرآن»؟ أحببنا أن نقرّبه إلىٰ الأذهان في هذا التعبير، وإلّا فهو أكثر من أن يكون تفسيراً، ولا نريد أن يغلب عليه مفهوم التفسير أو معنىٰ التفسير الاصطلاحي الذي درج المفسرون علىٰ استخدامه؛ ألا وهو معرفة ألفاظ القرآن أو التعريف بألفاظ القرآن، ولكن وجدنا هذه العبارة أو هذا العنوان مناسباً.

يقوم «تفسير القرآن بالقرآن» لا علىٰ الناحية الموضوعيّة كما ذهب إلىٰ ذلك بعض المشتغلين بالتفسير. وقد ظنّوا أنّ «تفسير القرآن بالقرآن» هو أن تجمع الآيات التي تتعلق بموضوع ما في موضع واحد، وتربط بينها وتنظر في تواريخ نزولها وأسباب النزول وما إلىٰ ذلك حتىٰ تتضح لك معاني الموضوع. و«التفسير الموضوعيّ» نوعٌ من أنواع التفاسير المهمة ولا شك، والمقرّبة إلىٰ ما نحن بصدده ولا شك كذلك. ولكن «تفسير القرآن بالقرآن» -الذي نريده- فيه مزايا التفسير الموضوعيّ، ولكنه يستوعبها ويتجاوزها. فمرحلة النظر الموضوعيّ مرحلة يصعب أن يتخطّاها معنىٰ تدبّر القرآن الكريم وتأمله. لكن «تفسير القرآن بالقرآن» كما قلنا يتجاوز ذلك كلّه، فهو تفسير وتدبّر وتأمل وتفكر وتعقُّل وتذكير وترتيل في القرآن المجيد، يستخدم كل تلك المداخل ويتوسل بكل تلك الوسائل ليكون القرآن الكريم المرجع الأساس في

= الذين أثرت عنهم مأثورات كثيرة في التفسير تحت طائلة الوعيد النبويّ، وما فائدة الأمر بالتدبر إذا كان مَنْ أُنزل عليه القرآن العظيم قد فسره كلّه؟ وكيف سطّر الفقهاء من أهل الحديث وأهل الرأي كل تلك الفهوم بأحاديث تفسير؛ أي: إنّ رسول الله ﷺ قد ذكر كل تلك المسائل في تفسيره.

لقد ذكر فخر الدين الرازي في مقدمة تفسيره بأنّه لو شاء أن يضع في تفسير الفاتحة وحدها وقر بعير لفعل دون أن يفرغ من معانيها؛ فهل قصد هو وأمثاله أن يرووا عن النبي ﷺ؟ وما حكم هؤلاء وتفاسيرهم التي بلغت الآلاف إذا كان هناك تفسير نبويّ تجاوزوه، بما في ذلك أولئك الذين جمعوا أقوال الصحابة والتابعين في التفسير؟! إنّ الفرق كبير جدّاً بين السنّة والسيرة والتفسير، فإنّ سنّة رسول الله ﷺ مجموع أقواله وأفعاله وتقريراته وهي قطعاً بيان القرآن، لكنّها لا تسمىٰ تفسيراً بمعناه الاصطلاحيّ، ولذلك فإنّ رسول الله ﷺ لم يترك تفسيراً. وفي ضوء ذلك ينبغي أن يراجع موضوع «التفسير المأثور».

فهم القرآن المجيد ذاته، وفي فهم كل ما جاء ليعلّم البشريّة إياه، سواء تعلّق بالأحكام أو العِبر أو السُّنن أو القوانين أو بناء الحضارات أو بناء العمران، وتحقيق التزكية، وتحقيق التوحيد، وبناء التصوّر السليم، وبناء المعتقد الصحيح، كل ذلك تجده في القرآن الكريم. فالقرآن الكريم قد يسّره الله -تبارك وتعالىٰ- للذِّكر. ولو بذل الناس في تدبّر القرآن المجيد ومحاولة فهمه جزءاً مما بذلوه في تعلّم العلوم الأخرىٰ -التي وضعوها بأنفسهم بتصور أو بحجة أنّها هِيَ التي ستمهّد إليهم السبيل لفهم القرآن- لو بذلوا جزءاً من هذه الجهود مع القرآن الكريم ذاته، في تدبّره، وفي ترتيله، وفي حسن تلاوته، وتلاوته حقّ التلاوة، أو في التفكّر فيه والتعقل والتدبّر والتذكّر والعمل علىٰ الوصول إلىٰ مكنونه من داخله وبأدواته وبمنهجه؛ لنالهم خيرٌ كثيرٌ، ولتجنّبوا كثيراً من السلبيّات التي يشتكي منها المتخصصون في كثير من تلك الجوانب.

لذلك نودّ أنْ نقول: إنّنا حينما كنا نحاول تعلّم هذا النوع من الممارسة رجعنا أيضاً إلىٰ تراثنا، وحاولنا أن نرىٰ كيف كان رسول الله ﷺ يُفسّر ما يشعر بالحاجة إلىٰ تفسيره لأصحابه رضوان الله تعالىٰ عليهم. فإذا به -صلوات الله وسلامه عليه- لا يستخدم في تفسير القرآن إلا القرآن ذاته. فحينما يهرع إليه الصحابة خائفين بعد أن نزل قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: ٢٨٤]. فيقولون: يا رسول الله؛ ومَنْ منا الذي يستطيع أن يهيمن علىٰ خواطره وأفكاره. إنّ أحدنا في بعض الأحيان يخطر علىٰ باله خواطر يتمنىٰ لو كان أُلقي من شاهق قبل أن تمر تلك الخواطر في خاطره. فإذا برسول الله ﷺ يبتسم ويقول لهم: "وأين منكم قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]"، فردّهم إلىٰ آية أخرىٰ من آيات الكتاب الكريم يُجيبهم بها علىٰ تساؤلهم. ترفع عن صدورهم ذلك الحرج الذي أحسّوه حينما سمعوا الآية الأولىٰ. ويأتي الصحابة إلىٰ رسول الله ذات يوم يسألونه صلوات الله وسلامه عليه: مَنْ منّا يا رسول الله يستطيع أن يتّقي الله حق تقاته؟ بعد أن نزل قوله -جلّ شأنه- في سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فأخذ رسول الله ﷺ بأيديهم إلىٰ آية سورة التغابن:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]. إذاً هناك مناط مبدئي ومنهجيّ. ألا وهو استطاعة الإنسان: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وما إلىٰ ذلك. وهذا من «تفسير القرآن بالقرآن». وكان في مقدور رسول الله ﷺ أن يقول شيئاً من عنده أو بألفاظه، ولكن أراد أن يسنّ لهم هذه السنّة، سنّة «تفسير القرآن بالقرآن».

وحينما يأتي إلىٰ رسول الله مَنْ يشعر بشيء مِن شُبهة وهو يسمع آية سورة الزمر ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]، فهنا «جميعاً» للتأكيد، وقد أفادت الشمول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. ونأتي إلىٰ آية في سورة النساء إذا بها تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]. إذاً استثنىٰ الشِّرك هنا من الذنوب القابلة للغفران. وكأنّ الشرك في هذه الآية الكريمة مما لا يغتفر، أو من الذنوب التي لا تغتفر. وذلك مفهوم كذلك؛ لأنّ الشرك ظلم عظيم. وهو ظلم لذات الإنسان ونفسه قبل أن يكون ظلماً لشيء آخر. فهو ظلم لخالق الإنسان والكون والحياة ونقض للعهد الذي أُبرم بين الله -تعالىٰ- وعباده وهم في «عالم الذّر». والشِّرك انقلاب علىٰ رسالات النبيّين كافّة الذين جاؤوا بالتوحيد. وتأتي آية ثالثة في سورة طه وتقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه: ٨٢]. إذاً نحن هنا أمام آيات ثلاثة: واحدة أطلقت تماماً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] ولم تستثنِ. وأخرىٰ استثنت الشِّرك، وثالثة بيّنت لنا شروط التوبة، وهي تنسجم مع قوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء: ١٧- ١٨]. فهنا تبيّن هذه الآيات بوضوح شديد أنّ قبول التوبة حق للعبد علىٰ ربّه جلّ شأنه، ولكن بشروط. ومن هذه الشروط: أن يكون الذنب قد وقع بجهالة، إذا كان قد وقع عن علم ومعرفة وتعمّد -مثل معصية إبليس- فالأمر يختلف. فالله -تبارك وتعالىٰ- قد طرد إبليس من رحمته، لا لمجرد أنّه عصىٰ ولم

يلقّنه التوبة كما لقّن آدم. ولكن على العكس، طرده من رحمته بشكل أبدي لأنّه كان عالماً بقضيّة الطاعة والمعصية، وعالماً بأنّه لا ينبغي أن يعصي عبد حقيقي الله تعالى لأيّ سبب من الأسباب. ولكن كبره وغروره حملاه على أن يعصي الله -تعالى- وهو يُنكر حكمته -جلّ شأنه- في أمره له بالسجود لآدم، وفي اصطفاء آدم. فبقيّة الملائكة سلّمت لله -تبارك وتعالى- بعد أن علّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، سلّمت أنّه هُوَ المؤهل لأنْ يكون خليفة في هذه الأرض، وأمسكت عن التساؤل، وسجد الملائكة كلهم أجمعون حينما أُمروا، مع أنّهم كانوا قد أبدوا اعتراضاً -وإن لم يزد- ففيه تفاصيل أنّهم قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١﴾ [البقرة: ٣٠-٣١]، فتمّ تسليمهم. أمّا إبليس فقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، فكان عنده نوع من الشعور بالغرور والاستعلاء والاستكبار حتى على ربّه جلّ شأنه، ونفى عن الله -تعالى- الحكمة في الأمر وفي الاصطفاء، كأنّه تعالى جلّ شأنه، حينما أمره بالسجود، لم يلتفت أو لم يكن جلّ شأنه -وله المثل الأعلى- قد التفت إلى أصل الخلقة بين النار والطين. فهذه الجريمة النكراء الشاملة النافية لكل معاني الربوبيّة الإلهيّة، النافية لحكمة الألوهيّة والربوبيّة، المتغطرسة المتكبرة المغرورة، لم يكن لها علاج إلا الطَّرد. وإلا لو كان هناك مجال قد تركه إبليس في معصيته كمجال آدم، بأن يكون قد عصى عن جهل، لربّما لقنه الله -تبارك وتعالى- التوبة، كما لقّن آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة: ٣٧]. ولكن جريمته لم تكن تتقبّل أو تحتمل بأيّ شكل من الأشكال أن يُلقّن التوبة. كما أنّه لم يُفكّر فيها بنفسه، على العكس كان يحاول أن يحصل على فسحة من الأجل والعمر يعبّر بها عن غروره وطغيانه وتمرّده، قال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨]، قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص: ٨٢]. إذاً هناك معاندة مع سبق الإصرار دون أيّ تردد، مع وضوح كامل لطبيعة الجريمة التي يرتكبها. ولكنّه يرتكبها عناداً وصلفاً وغروراً واستكباراً واستعلاءً على أوامر الله تبارك وتعالى.

فهنا نعود إلىٰ الآيات الثلاثة. نجد أنّ آيات الزمر سيقت لاستئصال القنوط من نفس الإنسان؛ فقد رأينا ماذا حدث حين قنط إبليس. حدث أن صمّم علىٰ الاستمرار في المعصية والتمرّد وعمل السوء إلىٰ يوم الدين؛ فالقنوط حالة نفسيّة خطيرة، قد تدفع الإنسان إلىٰ مواكبة الشرور. فإذا كان الإنسان قد وقع في شر، فقد يقع بعد القنوط في عشرة. وإذا كان قد وقع في معصية فقد يمارس بعد القنوط مائة. وهكذا، فاقتضىٰ السياق أن يُزال القنوط من نفس الإنسان: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]. إنّ له -جلّ شأنه- القدرة علىٰ غفران الذنوب جميعاً، فإذاً لا تقنطوا ولا تيأسوا. فإذا عرفت كيف تتوب وكيف تمارس التوبة كما أمرك الله -تبارك وتعالىٰ- فهناك أمل أن يتوب الله -تعالىٰ- عليك ويجعلك كمن لا ذنب له. فالسياق إذاً متّجه إلىٰ قضيّة القنوط، وليس لقضيّة بيان أنواع الذنوب ومحاربتها، وما يغفر منها وما لا يغفر. أمّا آية سورة النساء، فهي تتحدث في جوّ فيه أناس آمنوا ثم كفروا، ثم آمنوا ثم كفروا، ثم ازدادوا كفراً، أولئك لن تقبل توبتهم؛ لأنّ الله لا يقبل أن يُشرك به ويَغفر ما دون ذلك لمن يشاء. فكل ذنوبهم عدا الشّرك، وهو الذنب الأساسيّ الذي أصرّوا عليه وكرّروه ومارسوه عدة مرات؛ يؤمنون ثم يكفرون، ثم يؤمنون ثم يكفرون، ثمّ يزدادون كفراً، هؤلاء لن تُقبل توبتهم بعد ذلك، وبعد تكرار هذا الذَّنب مع وعي وسبق إصرار وإدراك لمعنىٰ ما يقومون به: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]. فعلىٰ الإنسان أن يكون حذراً من الوقوع في الشِّرك؛ لأنّ الشِّرك ظلم عظيم، وعلىٰ الإنسان -حينما يوفّقه الله تعالىٰ ويكشف له عن مضار الشِّرك وينتقل إلىٰ صفوف الإيمان- فعليه ألا يخرج منها مرة أخرىٰ؛ لأنّه يخشىٰ أن يقع في الشِّرك مرة ثانية، فلا يستطيع أن يخرج منه، ومن ثمَّ لن تُقبل له توبة بعد الاستغراق في الشِّرك، وتكراره مرة بعد مرة، والاستهانة به كذنب عظيم. أمّا الآية الثالثة، فهي آية سورة طه ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، أراد أن يُبيّن لنا التوبة من حيث الشروط التي لا بدّ من توافرها في التائب لكي تُقبل توبته، فهي مبيّنة ومنسجمة مع قوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ١٧]. فحينما يقول الله تعالىٰ في سورة طه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]. فالكلام هنا

عن التائب، والشروط التي لا بدّ أن يوفّرها في نفسه، والأمور التي لا بدّ أن يلتزمها من أجل أن تُقبل توبته: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه: ٨٢]. إذا تاب ورجع إلىٰ الله وأناب. ولتكون التوبة نصوحاً لـمَن تاب وآمن، لا شك أنّ الذي يتوب لا بد أن يكون له إيمان؛ فكأنّ إعادة ذكر الإيمان بعد التوبة للتنبيه علىٰ أنّ هذه التوبة تقتضي إيماناً لا يشوبه ولا يُخالطه شرك ولا انحراف في المعتقد لـمَن تاب وآمن وعمل صالحاً واستقام. أمّا مَنْ أناب فقط ولم تحصل له التوبة العقديّة أو التصحيح العقديّ فلا تُقبل التوبة. وإنّما لا بدّ من تصحيح عقديّ: ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه: ٨٢]. لا بدّ أن يصدق الاعتقاد والإيمان، ويُبرهن علىٰ صدق التوبة وكونها توبة نصوحاً بالعمل الصالح والاستقامة عليه والاستمرار فيه وعدم الرجوع عنه بعد التوبة؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلىٰ نوع من العبث واللعب الذي لا يقبله الله تعالىٰ: ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه: ٨٢]. وهذا كلّه من «تفسير القرآن الكريم بالقرآن»، وهو أرقىٰ أنواع التفسير كما قلنا. وأنت ترىٰ أنّك حين تمارس هذا ترفع عن نفسك سائر الشبهات وتزيل سائر الاعتراضات إن كان ثمة ما يستحق الاعتراض، كأن يكون مشتبهاً لِمَ أُطلق هنا، ولما قُيِّد هناك... إلىٰ غير ذلك. هذا لا يمكن أن يردّ ولا يمكن أن يوجد؛ لأنّ القرآن الكريم شفاءٌ لما في الصدور، فحينما نفسر القرآن بالقرآن، أو حين يُفسر القرآن نفسه فإنّما يشفي بذلك صدور الناس، وليس كمثل ذلك أي تفسير آخر، أو الاعتماد علىٰ أيّ تأويل آخر.

والأمثلة السابقة في مقاربة رسول الله للقرآن، توضح أنَّ تفسيرَ القرآن بالقرآن، أمرٌ أصّله رسولُ الله ﷺ وبدأ به وعلّمه الناس. كما توضح أهمية اعتبار مبدأ الوحدة البنائيّة، والتي تقوم علىٰ مبدأ أنّ في القرآن مداخل لا بدّ أن تستعمل للولوج إلىٰ رحابه والوصول إلىٰ دقائقه، فهو -أي القرآن- ميسّرٌ للذّكر، ومستوعب مكنون؛ يقوم مقام النبوّات كلّها ومقام النبيّين كافة، وهو في البشريّة الآن بمثابة النبي المقيم بين ظهراني الناس، يستطيعون العودة إليه والرجوع إليه في كل حين. فإذاً لا بدّ من الالتفات إلىٰ أنّ هذا التفسير يقوم علىٰ مبدأ أنّ القرآن الكريم مبيّن. وأعلىٰ درجات بيانه هي بيانه لنفسه. والقرآن تبيانٌ لكلِّ شيء؛ بما في ذلك السنّة النبويّة المطهرة، وكما قلنا فقد مارسَ رسولُ الله ﷺ هذا، وعلّمَه لأصحابه.

ولذلك فقد وجدنا أنّ علينا واجباً عينياً وهو أن نقوم بما لم يقم به الآخرون، فنجتهد في تقديم القرآن للبشريَّة كما أنزله الله علىٰ رسوله الكريم الذي حفظه بنظمه الداخليّ وأسلوبه وفصاحته وإعجازه من أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ورأينا أن نحمي العقول المؤمنة من أن تذهب نهباً للإسرائيليات والأكاذيب والموضوعات والمعلقات والمراسيل، وما أحاط بها دوّن مما سمّي بعلوم القرآن مثل الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، وما إلىٰ ذلك. فأردنا أن نقدّم للناس كتاب الله كما أجمعت الأمة عليه في عهد الإمام الشهيد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي وضع حدّاً لتلك الاختلافات والمنازعات، وتجاوز تلك الآثار والأحاديث التي أدّت إلىٰ اختلاف الناس في أحرفٍ وكلمات، وذلك جزءٌ من الحفظ الإلهيّ للقرآن الكريم بحيث انضبطت بنائية القرآن كما انضبطت بنائية النجوم في مواقعها، ولم يعد هناك مجالٌ لزيادة حرف أو نقصان نبرة.

وإنّ الميسور لا يسقط بالمعسور، ولذلك فقد رأينا أن نصدر سلسلة كتب لتفسير القرآن بالقرآن، تُعنىٰ بالردّ إلىٰ الأمر الأول، وإلىٰ ما كان عليه جيل التلقي الذي تلقّىٰ القرآن عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جبريل عن رب العالمين غضّاً طريّاً. إنّ محاولتنا هذه لتفسير القرآن بالقرآن هي دعوةٌ للمسلمين، بل إلىٰ البشريَّة كافة أن ترتبط بالقرآن الكريم وحده وتعتمد عليه بمفرده، وأن تعلم يقيناً أنّه محفوظ بحفظ الله بنظمه وأسلوبه وبلاغته وفصاحته وإعجازه. وإنّ أملنا كبيرٌ أنَّ كلَّ مَن يقرأ هذه المحاولة بتدبر وإمعان نظر أنْ يصلَ إلىٰ القناعة بأنّ القرآنَ وحده كاف ومغنٍ عن التفاسير التي شابت الكثير منها الإسرائيليات والآثار التي لم تصح سنداً ولا متناً، وتجاوزت المسند الصحيح الذي قدّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به منهج التفسير المقبول شرعاً ألا وهو تفسير القرآن بالقرآن.

لقد حاولنا أن نتجاوز ما قام به بعض فضلاء المعنيين بالتفسير من العلماء المحدثين من تقسيم السُّور إلىٰ أقسام موضوعية. وآثرنا أن نستعمل بدل كلمة الأقسام أو الأبعاض أو غيرها كلمة النجوم، تيمّناً بنزول القرآن منجّماً. لكننا لا نعني بها المعنىٰ الاصطلاحي الذي يُقصد به نجوم التنزيل، ولكن نعني به تقسيم السُّورة تقسيماً موضوعياً مترابطاً يعين علىٰ الفهم والاستيعاب لسور القرآن الكريم وترابط أجزائها ونجومها وآياتها.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

وصف السورة:

عدد آياتها: سبع.

وعدد كلماتها: تسع وعشرون.

وعدد حروفها: مئة وثلاثة وأربعون.

وَهِي مَدَنِيَّة وَيُقَال: مَكِّيَّة.(١)

أسماؤها:

كل سورة يترجم عن مقصودها اسم، وكل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه بعنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه، وذلك هو الذي أنبأ الله به آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند العرض على الملائكة. ومقصود كل سورة هادٍ إلى تناسبها مع ما قبلها وما بعدها. و"سورة الفاتحة من السور ذات الأسماء الكثيرة، أنهاها صاحب «الإتقان» إلى نيف وعشرين، بين ألقاب وصفات جرت على ألسنة القراء من عهد السلف، ولم يثبت في السُّنة الصحيحة من أسمائها إلا فاتحة الكتاب،(٢) والسَّبْعُ الْمَثَانِي

---

(١) ابن عباس، عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (توفي: ٨١٧هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ص٣.

(٢) عن ابن عَبَّاسٍ قال: (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النبيِّ ﷺ سمعَ نَقِيضاً من فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فقال: هذا بَابٌ من السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لم يُفْتَحْ قَطُّ إلا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ منه مَلَكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرض لم يَنْزِلْ قَطُّ إلا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وقال: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لم يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ؛ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إلا أُعْطِيتَهُ)، انظر:

- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (توفي: ٢٦١هـ). **صحيح مسلم**، اعتنى به:=

وأُمُّ الْقُرْآن،[١] وأُمُّ الْكِتَابِ."[٢] و"سميت فاتحة الكتاب لأنَّه -تعالىٰ- بها افتتح القرآن، وسَميت أُمُّ الْقُرْآنِ لِأَنَّهَا أَصْلُ الْقُرْآنِ، مِنْهَا بُدِئَ الْقُرْآنُ، وَأَمُّ الشَّيْءِ أصله، وَقِيلَ: لِأَنَّهَا مُقَدِّمَةٌ وَإِمَامٌ لِمَا يَتْلُوهَا مِنَ السُّوَرِ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا في الصحف وَبِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي: لِأَنَّهَا سَبْعُ آيَاتٍ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَسُمِّيَتْ مَثَانِيَ لِأَنَّهَا تُثَنَّىٰ فِي الصَّلَاةِ، فَتُقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَة."[٣]

ترتيبها في المصحف:

وهي الأولىٰ في ترتيب المصحف، ولكن من حيث قراءة القرآن تأتي بعد الناس.

مناسبتها لما قبلها، وما بعدها:

قبلها سورة الناس التي تتحدث عن أنَّ الله -سبحانه- رب كل الناس، ومالكهم وإلههم، والقادر علىٰ حمايتهم من كل شر يأتيهم سواء من الإنس أو الجن، وبما أنَّه -تعالىٰ- كذلك فيجب عليهم حمده علىٰ هذه النعم؛ ولذلك فهي مناسبة لأن تأتي الفاتحة -التي تبدأ بالحمد- بعدها. قال البقاعي في نظم الدرر: "قدم التعوذ الذي هو من درء المفاسد تعظيماً للقرآن بالإشارة إلا أن يتعين لتاليه أن يجتهد في تصفية سرّه،

= أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، كِتَاب صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَاب فَضْلِ الْفَاتِحَةِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْحَثِّ علىٰ قِرَاءَةِ الْآيَتَيْنِ من آخِرِ الْبَقَرَةِ، حديث رقم (٨٠٦)، ص٣١٥.

(١) عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ." انظر:
- البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب التفسير، بَاب وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً من الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، حديث رقم (٤٧٠٧)، ص٩٠٣.

(٢) عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي." انظر:
- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي (توفي: ٢٧٥هـ). **سنن أبي داود**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، دمشق: دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩م، أبواب فضائل القرآن، باب فاتحة الكتاب، ج٢، حديث رقم (١٤٥٨)، ص٥٨٧.

(٣) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (توفي: ٥١٠هـ). **معالم التنزيل في تفسير القرآن "تفسير البغوي"**، حققه وخرج أحاديثه: محمد النمر، عثمان ضميرية، سليمان الحرش، بيروت: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٩٧م، ج١، ص٤٩.

وجمع متفرق أمره، لينال سؤاله ومراده مما أودعه من خزائن السعادة بإعراضه عن العدو الحسود، وإقباله على الولي الودود، ومن هنا تعرف مناسبة المعوذتين بالفاتحة."[١]

وبعدها سورة البقرة التي فصّلت ما أُحكم في سورة الفاتحة،[٢] فإذا كانت سورة الفاتحة تتحدث عن حصر الحمد والثناء والعبادة والاستعانة بالله رب العالمين، مع تعليل ذلك كله بربوبيَّته ورحمته وملكيَّته التامَّة للدنيا والآخرة، وأنَّ مواقف الناس من ذلك قد اختلفت، فكان منهم "المنعم عليهم" و"المغضوب عليهم" و"الضالون"، فإن سورة "البقرة" بينت صفات هذه الأصناف الثلاثة في الآيات الخمس والعشرين الأولى منها.

فضائل سورة الفاتحة:

ما من سورة من سور القرآن المجيد حظيت بالاهتمام الذي حظيت به سورة الفاتحة من بين جميع سور القرآن الكريم، فأفردها كثير من العلماء بالتأليف في تفسيرها وبيان أهميتها وفضائلها وما إلى ذلك ممّا يتعلّق بها. وربما يرجع ذلك إلى أنَّ هذه الآيات السبع قد نبهت إلى مقاصد القرآن كله ومعانيه وأهدافه على تنوعها.

ومن بعض فضائلها:

- ما رواه أبو هُرَيْرَةَ عن النبي ﷺ قال: "من صلى صَلَاةً لم يَقْرَأْ فيها بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثاً غَيْرُ تَمَامٍ، فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ، فقال: اقْرَأْ بها في نَفْسِكَ، فَإِنِّي سمعت رَسُولَ الله ﷺ يقول: قال الله تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ

(١) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (توفي: ٨٨٥هـ). **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٩٨٤م، ج١، ص٢٢.

(٢) قال جل ثناؤه: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] فالآية الكريمة نص في إحكام الكتاب أولاً، ومجيء التفصيل يأتي في مرتبة ثانية، فلا يسبق التفصيلُ الإحكامَ، والقرآن كلّه دون استثناء أحكمت آياته ثم فُصِّلت، فما من آية يمكن أن يقال فيها أي شيء ينافي ذلك الإحكام، والتفصيل يرجع إلى ذلك المحكم وتردّ إليه، وهو الحاكم عليها، القاضي باندراجها، أو عدم اندراجها تحت البناء، هذا شأن الكتاب كله. للاستزادة راجع الإحكام والتفصيل، مقال منشور على حلقتين، بموقع طه جابر العلواني على الإنترنت.

عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قال الْعَبْدُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] قال الله تَعَالَىٰ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قال﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٣]. قال الله تَعَالَىٰ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، وإذا قال:﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤]. قال: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وقال مَرَّةً: فَوَّضَ إلي عَبْدِي، فإذا قال:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]. قال: هذا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قال:﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٧]، قال: هذا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي ما سَأَلَ."[(١)]

- والله عَزَّوَجَلَّ علم أنَّ هناك أُناساً قد لا يستطيعون قراءة القرآن كلّه، والإحاطة بسوره، والسياحة في رحابه، فجعل من هذه السورة وسيلةً لوصل الناس بكتابه وإنقاذهم من جريمة الوقوع في هجره. وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ قد أمرنا بتلاوة ما تيسر منه، فإنَّ رسول الله ﷺ قد بيَّن لنا أنَّه لن يوجد أيسر من سورة الفاتحة ولا أشمل ولا أدق؛ ولذلك كانت سورة الصلاة، فعن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: "لَا صَلَاةَ لِمَنْ لم يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ."[(٢)]

- والمسلم يصلي في اليوم والليلة من الفرائض سبع عشرة ركعة، فإذا أضاف إليها من النوافل -كحد أدنى- ما رواه مسلم بسنده عن أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّها سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من صلى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً في يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بُنِيَ له بِهِنَّ بَيْتٌ في الْجَنَّةِ،"[(٣)] فذلك يعني أنَّه سيقرأ سورة الفاتحة في اليوم والليلة تسعاً وعشرين مرة، فإذا تلاها حق تلاوتها وعمل على أن يتفهّم معانيها ويجعل منها مُوجِّهاً له في بناء نفسيّته وعقليَّته، ومنهجاً قوياً لتقويم ولتكوين شخصيّته، فلا شك أنَّ إنساناً كهذا سيكون من بين الذين أنعم الله عليهم.

---

(١) مسلم. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم (٣٩٥)، ص١٦٩.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأذان، بَاب وُجُوبِ الْقِرَاءَةِ لِلْإِمَامِ وَالْمَأْمُومِ في الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا في الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ وما يُجْهَرُ فيها وما يُخَافَتُ، حديث رقم (٧٥٦)، ص١٥٧.

(٣) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كِتَاب صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَاب فَضْلِ السُّنَنِ الرَّاتِبَةِ قبل الْفَرَائِضِ وَبَعْدَهُنَّ وَبَيَانِ عَدَدِهِنَّ، حديث رقم (٧٢٨)، ص٢٨٧.

- إجازة الصلاة بها وحدها، فعن أبي هُرَيْرَةَ قال: "فِي كُلِّ صَلاَةٍ يُقْرَأُ، فَما أَسْمَعَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَسْمَعْنَاكُمْ، وَما أَخْفَى عَنَّا أَخْفَيْنَا عَنْكُمْ، وَإِنْ لَمْ تَزِدْ عَلَى أُمِّ القُرْآنِ أَجْزَأَتْ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ."(١)

- عند التأمين بعد قراءتها يغفر للإنسان ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فَعن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ النبي ﷺ قال: "إذا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فإنه من وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ."(٢)

ومن هنا فإنَّنا نهيب بأئمة المساجد وخطبائها والمدرسين والدعاة بعد أن يعلِّموا الناس الشهادتين ومعانيهما العميقة ودلالاتها الدقيقة، عليهم أن يعلِّموهم سورة الفاتحة وتدبُّرها والعمل بها بشكل يجعل منها منهجاً فاعلاً ومُؤثراً في بناء الشخصيَّة المسلمة، يستطيع أن يمارسه كل إنسان قادر على قراءة هذه السورة وقادر على تدبرها وتلاوتها حق التلاوة.

الفاتحة وتفسيرها بمنهج تفسير القرآن بالقرآن:

أولاً: تحديد عمود السورة

عمود السورة

١- **العمود الأول** لسورة الفاتحة هُوَ «**التوحيد**» بأنواعه كلّها:

- توحيد الألوهيَّة.
- توحيد الربوبيَّة.
- توحيد الأسماء والصفات.
- توحيد الحاكميَّة وهو عائد إلى توحيد الألوهيَّة.

---

(١) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأذان، بَاب الْقِرَاءَةِ في الْفَجْرِ، حديث رقم (٧٢٢)، ص١٥٩.

(٢) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأذان، بَاب جَهْرِ الْإِمَامِ بِالتَّأْمِينِ، حديث رقم (٧٨٠)، ص١٦١.

يدل علىٰ ذلك حصر السورة «**الحمد والاستعانة والعبادة**» بكل أنواعها به عَزَّوَجَلَّ وتصنيف البشر كافَّة، وتحديد نتائج أفعالهم في الدنيا ومصائرهم في الآخرة وفقاً لموقفهم من «**التوحيد**». فبالتوحيد الخالص يسلك الإنسان في عداد «**الذين أنعمت عليهم**» وبمجانبته أو ارتكاب ما ينافيه يسلك في عداد «**المغضوب عليهم**» أو «**الضالّين**» بحسب طريقته في التعامل مع التوحيد وموقفه منه ومن التزكية والعمران، والأمّة، والدعوة.

٢- **العمود الثاني للسورة «التزكية»**: فتزكية النفس الإنسانيَّة تعتمد علىٰ «**التوحيد**» وتنطلق منه جملةً وتفصيلاً وأثر حمد العبد لله، وحصره به سبحانه، وعبادته وحده، وحصر الاستعانة به، وطلب الهداية منه وحده جلّ جلاله، والتعرض لرحماته، ودوام ذكر الآخرة، كل ذلك من دعائم التزكية وأركانها التي تعرضت السورة الكريمة لها.

٣- **العمود الثالث «العمران»**: فإعمار الأرض وتسخير ما في الكون لخدمة العالمين، وإبراز عنايته عَزَّوَجَلَّ بهم من مقصود هذه السورة، وذلك التسخير وما ينجم عنه، كل ذلك سبيل للذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين، فهم العمّار الحقيقيُّون للأرض، وهم الصالحون الذين يستحقون وراثتها، وهم الذين يؤسّسون بيوتاً أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمُه، فيعمرون مساجد الله، وهم الذين يتحملون عبء مدافعة المخرّبين الذين يعيثون في الأرض فساداً ولا يصلحون.

٤- **العمود الرابع «الأمَّة»**: أسست سورة الفاتحة لهذا المفهوم فبعد أن صنفت السورة البشريَّة تصنيفات ثلاثة، تصنيفات لا تعتمد علىٰ اللون، ولا الألسن، ولا الفقر، ولا الغنىٰ، ولا محل السكن، سواء في المناطق الباردة أو الحارة أو الصحاري وذات المروج، وإنما وفقاً للصراط المستقيم قرباً منه وهم الـمُنْعَم عليهم، أو مجافاته والحيدة عنه وهم المغضوب عليهم أو الضالين.

ومفهوم «الأمّة» أطلق عنواناً علىٰ تجمعات الذين يسلكون الصراط المستقيم وهم المنعم عليهم. وإذا كانت سورة الفاتحة قد أسست لهذا المفهوم بإيجاز فقد تمت صياغته بسائر السور التي ذكرته، أو نوهت به، أو أشارت إليه.

٥- **العمود الخامس «الدَّعوة»**: تشير السورة إلىٰ أن الدعوة هي وسيلة الحوار، والتفاهم بين الأمم الثلاث، أمَّة المهتدين، وأمَّة من غضب الله عليهم من أهل الشرك والكفر، وأمَّة الضالين الحائرين المترددين في مواقفهم.

ثانياً: بعد الكشف عن أعمدة سورة الفاتحة، ينبغي أن نعمد إلىٰ تحديد المفاهيم الواردة فيها بدقة ومن مداخل عديدة، وهي كما يلي:

١- مفهوم «البسملة».

٢- مفهوم «الحمد».

٣- مفهوم «الله والربّ والربوبيَّة».

٤- مفهوم «الرحمة».

٥- مفهوم «مالك» و «ملك».

٦- مفهوم «الدين».

٧- مفهوم «العبادة».

٨- مفهوم «الاستعانة».

٩- مفهوم «الهداية».

١٠- مفهوم «الصراط».

١١- مفهوم «النعمة»

١٢- تصنيف البشر، وبيان الصّفات والمفاهيم الدالة علىٰ كل صنف.

ثالثاً: تحديد هذه المفاهيم بالقرآن المجيد، وتتبعها في سياقاته المختلفة، وصياغتها صياغة قرآنيَّة في إطار وحدته البنائيَّة[1] وجعله المصدر الأوحد لبنائها. وإذا وجدنا فائدة في إضافة شيء من الدلالات والمعاني اللغويَّة من اللغة في عصر التنزيل أو السنن والآثار للاستئناس، فلا بأس بذلك إن شاء الله، خاصَّة إذا قصدنا الإشارة إلى أثر القرآن الكريم فيها. مع جعلها تالية لمعانيها القرآنيَّة، متأخِّرة عنها، تابعة لها.

رابعاً: نبيِّن المعنى الإجماليّ المراد بالسورة كلّها في ضوء «الوحدة البنائيَّة للقرآن المجيد» كذلك بشكل محرّر، معتمداً اعتماداً كاملاً على القرآن المجيد وحده.

خامساً: بيان علاقة أيّ سورة بالسورة السابقة لها وبالسورة التالية وبأيَّة سور أخرى من سور القرآن المجيد، علماً بأنَّ بناء هذه المفاهيم قرآنيّاً وملاحظة الخطوات الأخرى سوف يلقي كثيراً من الأضواء الكاشفة على تلك العلاقات.

مفاهيم سورة الفاتحة في القرآن على سبيل التفصيل:

إنَّ إطلاقنا لفظ "مفاهيم" على مفردات القرآن؛ راجع لكون مفردات القرآن ليست مصطلحات جرى اصطلاح عليها بين أصحاب الاصطلاح، وما هي بكلمات عادية مثل أيَّة كلمات أخرى، فالأقرب إلى حقائقها أن تكون مفاهيم تشتمل على معان عديدة، تلتقي في جذورها ومعانيها عند عنوان المفهوم، تلتف حوله وتحيط به، ويلاحظ المتدبِّر فيها ما بينها من روابط، ويستدعي مكنوناتها، ويدفع عنها صفات الاشتراك، والمجاز، والمتواطئ، والمشكك، والمجمل، ونحوها مما توصف به المفردات المتداولة في اللسان العربي.

كما أنَّ التزامنا بتفسير القرآن بالقرآن يجعل من التعامل مع مفردات القرآن بصفتها مفاهيم أمراً أقرب إلى تحقيق أهدافنا هذه، ودعم توجهنا في تفسير القرآن بالقرآن، وكون مفردات القرآن مفاهيم، يساعد كثيراً على الكشف عن العلاقات البينيَّة بين مفردات القرآن، والله أعلم.

(١) يوجد تفصيل لمعنى هذه الوحدة، وكيفية استخدامها كمحدد منهجي في تفسيرنا للقرآن بالقرآن، انظر:
– العلواني، طه جابر. **الوحدة البنائيَّة للقرآن المجيد**، القاهرة: دار الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٦م.

١- مفهوم البسملة:

إنَّ القرآن الكريم منذ اللحظة التي نزل فيها نزل مقروناً باسم الله عَزَّوَجَلَّ؛ وأول الكلمات التي نطق بها الوحي لمحمد ﷺ كانت ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق: ١]. ولذلك حينما نتلوه فإنَّنا نبدأ البداية نفسها التي أرادها الله -تبارك وتعالىٰ- وهي أن تكون البداية (بسم الله)، ومعناها: بذكر الله وتسميته أبدأ وأقرأ، وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم ليمارس مهمته في الكون هي: بسم الله. ونحن الآن حينما نقرأ القرآن نبدأ البداية نفسها. ونقول إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كان يتحدث بقدراته التي تقول للشيء: كن فيكون، ورسول الله ﷺ كان يتحدث ببشريّته التي تقول إنَّه: لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة، ولكن قدرة الله هي التي ستأخذ هذا النبي الذي لا يقرأ، ولا يكتب لتجعله معلماً للبشريَّة كلّها إلىٰ يوم القيامة، لأنَّ كل البشر يعلِّمُهم بشر، ولكن محمداً ﷺ سيعلمه الله عَزَّوَجَلَّ، ليكون معلماً لأكبر علماء البشر، يأخذون عنه العلم والمعرفة. لذلك جاء الجواب من الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق: ١] أي إنَّ الله -سبحانه- الذي خَلَق من عدم، سيجعلك تقرأ علىٰ الناس ما يعجز علماء وحضارات الدنيا علىٰ أن يأتوا بمثله، وسيكون ما تقرؤه -وأنت النبي الأميّ- تحدياً وآية لنبوتك ورسالتك، ليس لهؤلاء الذين سيسمعونه منك فقط لحظة نزوله، ولكن للدنيا كلها، وليس في الوقت الذي ينزل فيه فقط، ولكن حتىٰ قيام الساعة، ولذلك قال جَلَّجَلَالُهُ ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤﴾ [العلق: ٣-٤].[١]

ومن الأحكام التي تتعلق بسورة الفاتحة أحكام البسملة، وأقوال العلماء فيها: أهي جزءٌ من كل سورة أم هي آية مستقلة أُنزلت لبيان الفصل بين السور، وإذا كانت جزءاً من كل سورة فهل تجب قراءتها بداية الفاتحة كما هو مذهب الشافعيَّة، أو لا تجب لأنَّها ليست جزءاً من الفاتحة التي تُشكِّل سبع آيات من دونها، والذي نراه أنَّ البسملة آية من سورة الفاتحة، وجزء من آية في سورة النمل، وهي لا تقرأ في أول التوبة. والقارئ إذا قال: "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم افتتح تالياً السورة، يُنبئ عن معنىٰ أنَّه

(١) الشعراوي، محمد متولي. **تفسير الشعراوي**، القاهرة: مطابع أخبار اليوم، (د. ت.)، ج١، ص٤٢.

يريد بذلك: اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. وكذلك قوله: "بسم الله" عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله، ينبئ أنَّه أراد بقِيلِه "بسم الله"، أقوم باسم الله، وأقعد باسم الله. وكذلك سائر الأفعال.[١]

٢- مفهوم الحمد:

جاء لفظ الحمد (٣٨) مرة في القرآن الكريم معرَّفاً وغير معرّفٍ، ولكنّه -في سائر الأحوال- جاء منسوباً إلى الله عَزَّوَجَلَّ فقط.

وفي بداية سورة الفاتحة كان حصر الحمد بمن هو أهله، وهو رب العالمين الموصوف بصفات الكمال التي تليق بربوبيَّته وألوهيَّته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ومعنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] أي منشئهم والقائم بتربيتهم حتى بلوغ أعلى مستويات الكمال التي تهيئهم للقيام بما خلقوا له. و"العالمين" كل ما على الأرض من بشر. فالحمد هنا سببه ربوبية الله ورحمته بالعالمين وانفراده بالكيَّة يوم الدين.

وهكذا يقترن الحمد -في القرآن المجيد كلّه- بنعم وأفضال هي بمثابة حيثيَّات وأسباب له، من ذلك:

حمده -سبحانه- نفسه على نعمة الخلق، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]، وحمد -تعالى- نفسه على إنزال كتابه قيّماً لم يجعل له عوجاً، قال -سبحانه-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾ [الكهف: ١].[٢] وحمد نفسه على عدله فقال -تعالى-:

---

(١) الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، مرجع سابق، باب "ذكر الأخبار التي غلط في تأويلها منكرو القول في تأويل القرآن"، ج١، ص١١٥.

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد ﷺ؛ فإنَّه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، انظر:
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري (توفي: ٧٧٤هـ). **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م، ج٥، ص١٣٥.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٩٣]. وفي سورة الزمر يذكر -تعالىٰ- حمد المؤمنين ربهم علىٰ ما أكرمهم به من صدق وعده لهم وإدخالهم الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٤]. والأمثلة علىٰ هذا أكثر من أن تحصىٰ.

و"الحميد" من أسماء الله الحسنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج: ٦٤]. والله -سبحانه- سمّىٰ نبيه قبل بعثته وبشّر به باسم أَحْمَد من الحمد والتحميد، قال -سبحانه-: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦]، وسمّاه من تكفّل به في صغره مُحَمَّداً.

والفرق بين الحمد والشُّكر، أنَّ الحمد يكون علىٰ النِّعَم وعلىٰ غيرها، والشكر لا يكون إلا عن نعمة وإحسان. فالحمد أخصُّ من المدح، وأعمُّ من الشكر.

٣- لفظ الجلالة "الله":

ورد لفظ الجلالة (الله) (٩٨٠) مرة في القرآن الكريم، وورود هذا اللفظ يتخلل بدايات السور وخواتيمها وثناياها. وهو الاسم الأعظم لخالق الخلق -تعالىٰ- إذ تتفرع عنه أسماؤه، وهو الاسم الكامل الجامع للأسماء والصفات الدالة علىٰ الذات، ولعظمة هذا الاسم يعد حلقة مهمة وأساسيَّة في عمود القرآن الكريم، وهو توحيد الله الواحد الأحد الذي تتفرع عنه باقي الأعمدة في القرآن المجيد.

ولفظ (الله) هُوَ الناظم للأوامر والنواهي، ولِمَا قصَّ وأخبر به، ولِمَا أنذر وحذر منه، ولبديع الخلق، ولما له وليس لغيره، ولكل ما يدل علىٰ عظيم سلطانه في الدنيا والآخرة. وبهذا فإن هذا اللفظ (الله) لا يجوز أن يطلق ولا يليق أن يقال إلّا في حقّه، ومن جعله لغيره فقد سقط في الشرك والقول بتعدد الآلهة، وبهذا يفسد حاله في الأولىٰ والآخرة.

مفهوم الرَّب والربوبيّة:(١)

لقد أنكر نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على أولئك الذين اتّخذوا أرباباً متفرقين وغفلوا عن الله الرب الواحد الصمد (**القهار**) قال -تعالى- على لسانه: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩]. وأمر الرسول ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى الإله الواحد، وألّا يتخذوا لأنفسهم أرباباً من دون الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ونتيجة تولّيهم أنكر القرآن الكريم عليهم ذلك؛ إذ اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عَزَّوَجَلَّ، قال سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١ ﴾ [التوبة: ٣١].(٢)

---

(١) الرَّبُّ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهو رَبُّ كلِّ شيءٍ أَي مالِكُه، له الرُّبُوبِيَّةُ على جَمِيع الخَلْقِ لا شَرِيكَ له، وهو رَبُّ الأَرْبَابِ ومَالِك المُلوكِ والأَمْلاكِ، قال أَبو منصور: والرَّبُّ يُطْلَقُ في اللُّغَة على المَالِكِ والسَّيِّدِ والمُدَبِّرِ والمُرَبِّي والمُتَمِّمِ وباللَّام لاَ يُطْلَقُ لِغَيْرِ الله عَزَّوَجَلَّ إلاّ بالإِضافَةِ أَي إِذا أُطْلِقَ على غَيْرِهِ أُضِيفَ فقِيلَ رَبُّ كَذَا، ويقالُ الرَّبُّ لِغَيْرِ الله وقد قَالُوه في الجَاهِلِيَّةِ لِلْمَلِكِ. انظر:

- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الحسيني (توفي: ١٢٠٥هـ). **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج وآخرون، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط٢، ٢٠٠٤م، ج٢، ص٤٥٩.

(٢) عن عَدِيِّ بن حَاتِمٍ قال: "أَتَيْتُ النبي ﷺ وفي عُنُقِي صَلِيبٌ من ذَهَبٍ، فقال: يا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هذا الْوَثَنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ في سُورَةِ بَرَاءَةٌ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] قال: أَمَا إِنَّهُمْ لم يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إذا أَحَلُّوا لهم شيئاً اسْتَحَلُّوهُ، وإذا حَرَّمُوا عليهم شيئاً حَرَّمُوهُ" قال أبو عِيسَى: هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إلا من حديث عبد السَّلَامِ بن حَرْبٍ، وَغُطَيْفُ بن أَعْيَنَ ليس بِمَعْرُوفٍ في الحديث. انظر:

- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (توفي: ٢٧٩هـ). **الجامع الكبير (سنن الترمذي)**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دمشق: دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩م، ط١، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، ج٥، حديث رقم (٣٣٥٢)، ص٣٢٧.

فما هو مفهوم الربوبية وماهيته كما حدده القرآن الكريم؟

مما يوضح مفهوم الربوبيَّة في القرآن المجيد هذا الحوار الذي دار بين موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ وفرعون، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨]، هذا الحوار يكشف ماهية الربوبيَّة.

فسؤال: وما رب العالمين؟ الجواب عنه جاء بتوضيح ماهيَّة العالمين التي خلقها الله، وهي السماوات والأرض؛ أي: عالم السماوات وعالم الأرض وعوالم أخرىٰ بين السماء والأرض لا نعلمها إلا ما أَخْبَرَنَا به من عالم الجن وعالم الملائكة. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦] أي رب هذا العالم في الحاضر بما فيه أنتم، ورب الماضي من العالم بما فيه آباؤكم الأولين، وهو ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] أي: رب هذه الحركة الكونيَّة في حاضرها وماضيها ومستقبلها، فهو الماسك بأسبابها وعللها.

٤- مفهوم الرحمة:

يشكِّل مفهوم الرحمة وما يرتبط به من مفاهيم، حلقة مهمّة جداً في القرآن الكريم، فقد افتتحت به جميع السور إلا سورة التوبة.

والرَّحْمَةُ رقّة تقتضي الإحسان إلىٰ الْمَرْحُومِ، وهي منطوية علىٰ معنيين: الرّقّة والإحسان، فركّز -تعالىٰ- في طبائع الناس الرّقّة، وتفرّد بالإحسان، كما أنّ لفظ الرَّحِيمِ من الرّحمة، فمعناه الموجود في الناس من المعنىٰ الموجود لله تعالىٰ، فتناسب معناهما تناسب لفظيهما. والرَّحْمَنُ والرَّحِيمُ، نحو: ندمان ونديم، ولا يطلق الرَّحْمَنُ إلّا علىٰ الله -تعالىٰ- من حيث إنّ معناه لا يصحّ إلّا له، إذ هو الذي وسع كلّ شيء رَحْمَةً، والرَّحِيمُ يستعمل في غيره وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢]، وقال في صفة النبيّ ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقيل: إنّ الله تعالىٰ: هو رحمن الدّنيا، ورحيم الآخرة، وذلك أنّ إحسانه في الدّنيا يعمُّ المؤمنين والكافرين،

وفي الآخرة يختصّ بالمؤمنين، وعلى هذا قال: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، تنبيهاً أنّها في الدّنيا عامَّة للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصّة بالمؤمنين.(١)

وهناك فرق بين الرحمن والرحيم، فـ "الرحمن" يدل على سعة رحمة الله، و"الرحيم" يدل على إيصالها لخلقه.(٢)

كما أنَّه سبحانه كتب هذا الصفة (**الرحمة**) على نفسه وقال سبحانه: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ [الأنعام: ٥٤].

والذي يقابل مفهوم الرحمة في القرآن المجيد هُوَ مفهوم الهلاك والعذاب والضر، قال تعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾ [الإنسان: ٣١]. قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٨﴾ [الملك: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

---

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (توفي: ٤٢٥هـ). **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دمشق: دار القلم، ط٤، ٢٠٠٩م، ص٣٣٦ حرف الراء بتصرف.

(٢) فإن قيل: الرحمن أبلغ في الوصف بالرحمة من الرحيم، بالنقل عن الزجاج وغيره، فكيف قدّمه وعادة العرب في صفات المدح الترقي من الأدنى إلى الأعلى؟ قلنا: قال الجوهري وغيره: إنهما بمعنى واحد، كنديم وندمان، فعلى هذا لا يرد السؤال، وعلى القول الأول إنما قدمه لأنَّ الله -تعالى- اسم خاص بالباري، لا يُسمّى به غيره، لا مفرداً ولا مضافاً فقدّمه، والرحيم يوصف به غيره مفرداً ومضافاً فأخّره، والرحمن يُوصف به غيره مضافاً ولا يوصف به مفرداً إلى الله -تعالى- فوسطه. انظر:

- الحنفي الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (توفي: ٦٦٦هـ). **أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل**، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، الرياض: دار عالم الكتب، ط١، (١٤١٣هـ/ ١٩٩١م)، ص٢.

وسبيل الرحمة وطريقها في الدنيا والآخرة هو القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فالله عَزَّوَجَلَّ أنزل القرآن المجيد علىٰ مُحمَّد ﷺ تبياناً وهدىً وبشرىٰ للمسلمين، وفيه ما هُوَ شفاء ورحمة للمؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال سبحانه ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

٥- مفهوم المالك:

ورد لفظ مالك(١) في القرآن الكريم ثلاث مرات فقط من بين ما يحيط به من ألفاظ، وسُمي الملكُ ملكاً لما يملك ما بحوزته من الجاه والمال والسلطان، ومالك صفة من صفات العظمة، والكبرياء، والتدبير. والله -سبحانه- هو الذي له التصرف المطلق في الخلق، والأمر، والجزاء، ومالك يوم الدين؛ أي لا يملك أحد في ذلك اليوم غيره.

(١) الـمَلِكُ: هو المتصّرف بالأمر والنّهي في الجمهور، وذلك يختصُّ بسياسة الناطقين، ولهذا يقال: مَلِكُ الناسِ، ولا يقال: مَلِك الأشياءِ، وقوله:﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤] فتقديره: الملك في يوم الدين، وذلك لقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦]. والـمِلْكُ ضربان: مِلْك هو التملك والتّولّي، ومِلْك هو القوّة علىٰ ذلك، تولّىٰ أو لم يتولّ. فمن الأوّل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤]، ومن الثاني قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] فجعل النّبوّة مخصوصة والمِلْكَ عامّاً، فإنَّ معنىٰ الملك ها هنا هو القوّة التي بها يترشّح للسياسة، لا أنّه جعلهم كلّهم متولّين للأمر، فذلك مناف للحكمة، كما قيل: لا خير في كثرة الرّؤساء. قال بعضهم: الـمِلك اسم لكلّ من يملك السياسة، إمّا في نفسه وذلك بالتّمكين من زمام قواه وصرفها عن هواها، وإمّا في غيره سواء تولّىٰ ذلك أو لم يتولّ علىٰ ما تقدّم، وقوله: ﴿ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤]. والـمُلْكُ: الحقّ الدّائم لله، فلذلك قال: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١]، وقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] فالـمُلْك ضبط الشيء المتصرّف فيه بالحكم، والـمِلْكُ كالجنس للمُلْكِ، فكلّ مُلْك مِلْك، وليس كلّ مِلْك مُلْكاً. قال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]،﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وقال: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨] وفي غيرها من الآيات. والـمَلَكُوتُ: مختصّ بملك الله -تعالىٰ-، وهو مصدر مَلَكَ أدخلت فيه التاء. نحو: رحموت ورهبوت، قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقال:﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥] والـمَمْلَكة: سلطان الـمِلْك وبقاعه التي يتملّكها، والـمَمْلُوكُ يختصُّ في التّعارف بالرقيق من الأملاك، قال ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥] وقد يقال: =

قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧ ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧]، ولقد آتىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بعض أنبيائه ملكاً خاصّاً بهم، كداود وسليمان، عليهما وعلىٰ نبينا السلام، وما آتاه الله عَزَّوَجَلَّ لهؤلاء وغيرهم ما هُوَ إلّا جزء من ملكه عَزَّوَجَلَّ، فملك هؤلاء وغيرهم منحصر في الزمان والمكان، أمَّا ملكه -تعالىٰ- فهو منزّه عن الزمان والمكان. قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨] وغيرها من الآيات التي تسير في هذا السياق.

والله عَزَّوَجَلَّ هو مالك يوم الدين. وإذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد فإنَّ "مالك" وهي ملكه للدنيا والآخرة تستحق الحمد الكبير. لأنَّه لو لم يوجد يوم للحساب، لنجا الذي ملأ الدنيا شروراً، دون أن يجازىٰ علىٰ ما فعل، ولكان الذي التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيويَّة كثيرة إرضاء لله قد شقي في الحياة الدنيا. ولكن لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو المالك للدنيا وليَوْمِ الدين، فقد أعطىٰ الاتزان للوجود

=فلان جواد بمملوكه. أي: بما يتملّكه، والـمِلْكَة تختصُّ بمِلْك العبيد، ويقال: فلان حسن الملكة. أي: الصّنع إلىٰ مماليكه، وخصّ ملك العبيد في القرآن باليمين، فقال: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النور: ٥٨]، وقوله: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء: ٣]، ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ [النور: ٣١] ومملوك مقرّ بالـمُلُوكَةِ والـمِلْكَةِ والـمِلْكِ، ومِلَاكُ الأمرِ: ما يعتمد عليه منه. وقيل: القلب ملاك الجسد، والـمِلَاكُ: التّزويج، وأملكوه: زوّجوه، شبّه الزّوج بِمَلِكٍ عليها في سياستها، وبهذا النظر قيل: كاد العروس أن يكون مَلِكاً. ومَلِكُ الإبل والشاء ما يتقدّم ويتّبعه سائره تشبيها بالملك، ويقال: ما لأحد في هذا مَلْكٌ ومِلْكٌ غيري. قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ [طه: ٨٧]، وقرئ بكسر الميم، ومَلَكْتُ العجينَ: شددت عجنه، وحائط ليس له مِلَاكٌ. أي: تماسك وأمَّا الـمَلَكُ فالنحويون جعلوه من لفظ الملائكة، وجعل الميم فيه زائدة. وقال بعض المحقّقين: هو من الـمِلك، قال: والمتولّي من الملائكة شيئاً من السّياسات يقال له: مَلَك بالفتح، ومن البشر يقال له: مَلِك بالكسر، فكلّ مَلَكٍ ملائكة وليس كلّ ملائكة ملكاً، بل الملك هو المشار إليه بقوله: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾ [النازعات: ٥]، ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤﴾ [الذاريات: ٤]، ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ [النازعات: ١] ونحو ذلك، ومنه: مَلَك الموت، قال: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ [الحاقة: ١٧]، ﴿عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة: ١١]، انظر:

- الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٧٧٤.

كلّه؛ إذ إنَّ هذه الملكية ليوم الدين هي التي حمت الضعيف، والمظلوم، وأبقت الحق في كون الله، إنَّ الذي منع الدنيا أن تتحول إلىٰ غابة يفتك فيها القوي بالضعيف، والظالم بالمظلوم هو أنَّ هناك آخرة، وحساباً، وأنَّ الله -سبحانه- هو الذي سيحاسب خلقه، وهذا من عدل الله في الدنيا والآخرة.(١)

٦- مفهوم يوم الدين:

لم تأت جملة مالك يوم الدين إلا مرة واحدة في القرآن الكريم فقط في سورة الفاتحة، أمَّا جملة يوم الدين فوردت (١٣) مرة، فما هُوَ المقصود بيوم الدين؟ أجابت سورة الانفطار علىٰ هذا التساؤل، قال تعالىٰ: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٥-١٩]، وبيّنت سورة المعارج حسن الجزاء، ورضي الله عن أولئك المصدقين بيوم الدين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ١٩-٣٥].

وكان دعاء إبراهيم أن يغفر له الله خطيئته يوم الدين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨١-٨٢]، وأول من لحقته اللعنة إلىٰ هذا اليوم هُوَ إبليس، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧٨]. والويل كل الويل لكل من كذب بهذا اليوم، قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم

(١) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مرجع سابق، ج١، ص٦٨.

بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات: ١٠-١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المطففين: ١٠-١٣]، مع أنَّ هؤلاء المكذبين بهذا اليوم في الدنيا، سيعترفون بتكذيبهم في الآخرة حين يفاجئهم هذا اليوم، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٣٩-٤٨]. وبيّنت سورة الواقعة نُزُل هؤلاء المكذبين بيوم الدين وما ينتظرهم من العذاب قال تعالىٰ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٤١-٥٦].

٧- مفهوم العبادة:

العبادة هي غاية الحق -سبحانه- من الخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ودعوة كل الأنبياء في القرآن الكريم جاءت لتحقيق هذه الغاية قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فما هُوَ مفهوم العبادة وماذا يقتضي؟

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عن الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ."(١)

(١) مسلم. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: بَيَانِ عَدَدِ شُعَبِ الْإِيمَانِ وَأَفْضَلِهَا وَأَدْنَاهَا وَفَضِيلَةِ الْحَيَاءِ وَكَوْنِهِ من الْإِيمَانِ، حديث رقم (٣٥)، ص٤٨.

إنَّ العبادة مفهوم شامل، يبدأ بـ"لا إله إلا الله محمد رسول الله" ولا ينتهي إلا بإماطة الأذىٰ عن الطريق، وتنظيف الشوارع، وتطهير البيئة أطعمةً ومياهاً وهواءً وزرعاً وضرعاً، فليت المسلمين ينتبهون ويلتفتون إلىٰ هذه الأمور، وينظرون إليها علىٰ أنَّها أمور تندرج في "مفهوم العبادة"!! ويعلمون أنَّ "الحسَّ الحضاريَّ" جزء لا ينفصل عن "الحسِّ الإيمانيِّ".

ومن هذا المنطلق يجب أن يهتم المسلمون بفرائض الأمة التي هي الفرائض الكفائيَّة في الإسلام، وهي ما لا يقوم بناء الأمَّة إلا بها؛ نحو أن يكون في الأمَّة أطباء وممرضون ومهندسون وصيادلة وعلماء في سائر فنون الحياة، ومتخصصون في الكهرباء والميكانيكا والحدادة والنجارة وقيادة السيارات والطائرات وإتقان الصناعات النافعة علىٰ اختلافها، والفلاحون القادرون علىٰ زراعة الأرض، والمهندسون الزراعيون، والعلماء القادرون علىٰ مقاومة الآفات الزراعيَّة، والمهندسون الذين يبنون الجسور والقناطر ويعبِّدون الطرق، فهذه الأمور كلها تُعدُّ من فروض الأمَّة؛ ولذلك فعلىٰ الأمَّة أن توفِّر من أبنائها كل هذه الكفاءات والمهارات، فإذا خلت أقطارها من هؤلاء فإنَّ الأمَّة تكون مسؤولة وآثمة كلها أمام الله -تعالىٰ-؛ لأنَّها لم توفِّر القادرين علىٰ سدِّ هذه الثغور، كما لو أنَّها لم تبنِ المساجد التي تُرفع لله ويُذكر فيها اسمه، والمدارس التي يتعلم الناس فيها -باسم ربهم- القراءة والكتابة والحساب وسائر العلوم والفنون النافعة.

وانطلاقاً من هذا المفهوم الشامل للعبادة أيضاً نصَّ كثير من فقهائنا علىٰ وجوب الهجرة من البلد التي لا تتوافر فيها المستشفيات والأطباء والمهندسون والبنَّاؤون والقضاة؛ لأنَّها لا تتوافر فيها شروط العمران، ويتعرَّض الإنسان فيها للخطر. والبلدان التي تقصِّر في توفير ضروريات الحياة للذين يعيشون فيها يُعدُّ ساكنوها مسؤولين مسؤوليَّة تضامنيَّة أمام الله حتىٰ يوفروا هذه الاحتياجات، ومن المؤسف أنَّ كثيراً من بلدان المسلمين تعتمد -في غذائها وكسائها وضروريَّاتها- علىٰ أقطار أخرىٰ مع وفرة الأرض والمياه والأموال والطاقات البشريَّة ... إلخ، فقط لو وُجد الوعي الكافي، والتضامن اللازم، والإرادة لدىٰ تلك الشعوب لإنجاز هذه المشروعات

الضروريَّة. وما أجمل ما قاله فقهاؤنا في تقسيم هذه الاحتياجات إلى "ضروريَّات وحاجيَّات وتحسينيَّات"، فإذا تعلَّقت الحاجة بواحد من الضروريَّات، فإنَّ مسؤوليَّة الأمَّة تكون مسؤوليَّة مضاعفة، والإثم عن التفريط يكون كبيراً. ليت الفضائيات -التي تشغل الناس بالفنون الهابطة، والدعوة إلى الخرافة، والترويج للشعوذة- توجِّه عنايتها -أو شيئاً منها- للتوعية بـ«فروض الأمَّة» والدعوة إلى إحيائها، والترويج لها، والحضِّ على القيام بها!!

لقد أُقنعت شعوب الأرض -في فترة وجيزة- أنَّ «الانتصارات الرياضيَّة» في الملاعب هي بمثابة "الانتصارات القوميَّة"، تُدَقُّ لها الطبول، وتُرفرف على صانعيها البنود، فماذا لو علَّمنا الناس أنَّ الانتصار على مرض من الأمراض، أو تحقيق الكفاية في سلعة ضروريَّة -مثل القمح أو القطن- انتصار قوميٌّ، وكرَّمنا مَنْ يحققون إنجازات في هذه المجالات تكريماً مثل تكريمنا للاعبين البارزين، ألا يدفع ذلك الآلاف إلى الالتفات إلى هذه الفرائض والعناية بها؟ وإعطائها ما هي جديرة به من الاهتمام؟!! لعلَّ الإعلام والتعليم يصنعان شيئاً في هذا المجال قبل أن نتحول -رغم ثرواتنا وإمكاناتنا كلّها- إلى شعوب من المتسوِّلين العالميِّين، وبذلك نحفظ كراماتنا وماء وجوهنا، ليت... ليت!!

٨- مفهوم الاستعانة:

"الاستعانة: طلب المعونة، وهي إزالة العجز والمساعدة على إتمام العمل الذي يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه."(١) والإعانة تتحقق بالقوة في المستعان به؛ سواء أكانت ماديَّة أو معنويَّة؛ قال الله -تعالى- على لسان ذي القرنين: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥﴾ [الكهف: ٩٥]، كما أنَّ هذه الإعانة يمكن أن تصدر من فرد أو جماعة من الناس ومنه قول المشركين -تكذيباً منهم- للرسول ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ

(١) رضا، محمد رشيد. **تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج١، ص٥٨.

﴿إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤]، وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نستعين بالصبر والصلاة، إشارة إلىٰ ما فيهما من القوة التي تنعكس علىٰ المستعين، قال سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، وأمر موسىٰ قومه بالاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ مع الصبر، قال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وكان قول يعقوب عندما أساء أبناؤه لأخيهم يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وخاطب الله -تعالىٰ- المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، وهذا اللفظ بهذه الصيغة -نستعين- لم يرد في القرآن الكريم إلا مرةً واحدة وهي في سورة الفاتحة، كما أنَّ العون والاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ لا تكون إلّا في البر والتقوىٰ، أمَّا الآثمون المعتدون فلا عون لهم من الله، وهذا ما أوصانا الله عَزَّوَجَلَّ به، قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

فائدة التقديم والتأخير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

تقديم ﴿إِيَّاكَ﴾ هنا يفيد الحصر والقصر، لأنَّ تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك فلا عبادة إلا له، ولا استعانة إلا به. وأيضاً في الآية الكريمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علىٰ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لأنَّ العبادة هي المقصودة، والاستعانة وسيلة للوصول إليها لذا كان تقديم الأهم علىٰ المهم.

٩- مفهوم الهداية:

الهداية لغة: الدلالة بلطف علىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب.(١)

"وهداية الله -تعالىٰ- للإنسان علىٰ أربعة أوجه:

الأوّل: الهداية التي عمّ بجنسها كلّ مكلّف من العقل والفطنة والمعارف الضّروريّة كما قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠].

(١) رضا، **تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»**، مرجع سابق، ج١، ص٦٢.

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣].

الثالث: التّوفيق الذي يختصّ به من اهتدى، وهو المعنيّ بقوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[محمد:١٧]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن:١١]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الرّابع: الهداية في الآخرة إلى الجنّة، المعنيّ بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[محمد: ٥]، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣] إلى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]. وهذه الهدايات الأربع مترتّبة، فإنْ من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثّانية بل لا يصحّ تكليفه، ومن لم تحصل له الثّانية لا تحصل له الثّالثة والرّابعة، ومن حصل له الرّابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله. ثمّ ينعكس، فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث."(١)

الحيرة والمخرج:(٢)

"واليوم حيث تحيط بأمَّتنا أحداث جسام نصبح ونمسي بين ضغوطها النفسيَّة والحياتيَّة ويتلفت كل منّا يمنة ويسرة، يسأل عن أسباب ما يحدث، فلا يكاد يخرج بجواب.

مع أن الجواب الشافي في كتاب الله، قال تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾ [الأنعام: ٦٥]

---

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٨٣٢.

(٢) العلواني، طه جابر. «الحيرة والمخرج»، **جريدة الأهرام**، السنة ١٣٢، العدد ٤٤٠٧٢، ٦/ ٨/ ٢٠٠٧م.

والمتلقي الأول للقرآن الكريم، كان إذا قرأ هذه الآية أو قرئت عليه شعر برعب شديد، وبادر يقول بلهفة المستغيث: "أعوذ بوجهك"[١] فَلِمَ وكيف يلبس الله الناس شيعاً؟ إنَّه يلبسهم شيعاً عندما يحدث الآتي:

أولاً: أن يطول عليهم الأمد، فتنقطع صلاتهم بمصدر هدايتهم، فينشغلون بما عداه، ويتجاوزونه ويغفلون عنه.

ثانياً: عند ذلك تقسو القلوب، لانفصالها عن مصدر النور والإشعاع والهداية.

ثالثاً: نتيجة لذلك يحدث النسيان أو التناسي لمصدر الهداية تظهر فيهم عوامل العداوة والبغضاء، وتنافر القلوب، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ..﴾ [المائدة: ١٤]، ولن يرفع ذلك عنهم إلا بعد عودتهم إلىٰ معين الألفة والمودة والحب والإخاء لتنسلخ القلوب عن تنافرها، وتلين لمعاني الألفة والمحبة التي جاء بها الله، وأودعها فطر البشر، وكتابه الخالد.

رابعاً: إذا بعدت الأمَّة عن مصدر هدايتها ومنبع قيمها اضطربت مفاهيمها، وتضاربت أفكارها ومذاهبها ومقالاتها، فتستبد بها عوامل الاختلاف، حتىٰ تعود إلىٰ منبع المفاهيم الصحيحة والمعاني السليمة.

تلك بعض الأسباب الحقيقية وراء ما نشاهده من فتن ومآس بقطع النظر عن تحليلات المحللين وتفسيرات المؤولين وتحريفات الغالين والمفرطين.

---

(١) أخرج الإمام البخاري بسنده عن جَابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: "لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآْيَةُ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال رسول الله ﷺ: (أَعُوذُ بِوَجْهِكَ)، قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: (أَعُوذُ بِوَجْهِكَ)، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال رسول الله ﷺ: هذا أَهْوَنُ، أو هذا أَيْسَرُ." انظر:

- البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب التفسير، بَاب ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، حديث رقم (٤٦٢٨)، ص٨٨١.

فالظواهر السلبيَّة وعمليَّات التغير في المفاهيم الثابتة والصحيحة إذا لم يجر تلافيها والتخلُّص منها عند ظهورها فإنَّها تتحول إلىٰ ما هو أخطر، وتظل تداعياتها تنتقل من شديد إلىٰ ما هو أشد حتىٰ يشعر عقل الحليم بعجزه عن إعادة تفكيكها وتحليلها واقتراح علاجها، فلا يملك آنذاك إلا أن يقول: إنها قضيَّة معقدة تتضارب فيها المصالح والمفاسد، وتتشابك فيها العلاقات فلا يستطيع أحد إيجاد مخرج منها.

ولسنا دعاة يأس لكنَّا ندعو حلماء الأمَّة وعقلاءها إلىٰ مغادرة فتنة الحيرة، إلىٰ الحل الهادي الراشد، وهو الاعتصام بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران ١٠٢ - ١٠٣].

١٠- مفهوم الصراط المستقيم:

جاء لفظ الصراط في القرآن (٣٨) مرة، ولفظ صراطاً (٥) مرات، وصراطك مرة واحدة، وصراطي مرة واحدة، فهذا اللفظ وما يرتبط به ذكر (٤٥) مرة.

والإطار الذي تدور فيه جملة "الصراط المستقيم" هُوَ الدعوة إلىٰ التمسك بما جاء به مُحَمَّد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، وهو دين الإسلام الذي يدل عليه القرآن الكريم: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥-١٢٦]، وقال سبحانه: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم: ١].

إنَّ أهم ما تتوقف عليه سعادة الإنسان الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، والثبات عليها، والاستمرار والدوام في سلوك سبيلها. ولذلك فإنَّنا نستهديه عَزَّوَجَلَّ وندعوه في هذه السورة التي نقرؤها في اليوم والليلة عدة مرّات: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾

[الفاتحة: ٦]، وحاجتنا إلىٰ ترديد وتكرار هذا الدعاء والإلحاح به؛ لأنَّ هناك عدوّاً يتربص بنا، وبمجرد أن نعشو عن ذكر الرحمن، أو نغفل ولو للحظة، فإنَّه يقفز ليجعل من نفسه قريناً لنا، يجتالنا عن سبيل الهداية، ويقودنا بعيداً عن الصراط السويّ، ليلقي بنا في فيافي الانحراف والضلال والغواية، وصحارىٰ التيه في الأماني.

إنَّ حاجة الإنسان إلىٰ الهداية مثل حاجته إلىٰ الحياة، بل إنَّ الحياة المنحرفة الضالَّة موت مبكر. فالهداية هي الحياة الحقيقيّة، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤]. فالهداية هي الحياة الحقيقيَّة الطيبة، والذي يحول بين المرء وقلبه هو القادر أن يحول بين الشيطان وبين الوصول إلىٰ قلوبنا، والتأثير عليها. وتزيين سبيل الشيطان لها. وهو القادر علىٰ أن يهدينا، ويجعل لنا فرقاناً نفرق به بين الخير والشر والحق والباطل، والهدىٰ والضلال.

إنَّ الصراط المستقيم صراط أمَّة تسلكه فتحقق بذلك الحماية للسالكين الذين أنعم الله عليهم بالهداية والحياة الإيمانيَّة والفرقان، فاتخذوا الصراط السويّ لهم صراطاً. فدعاؤنا ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦-٧] طَلَبٌ منه -تعالىٰ- أن يهيئ أمَّة خيِّرة وسطاً تستقيم علىٰ الطريقة، وتتخذ من الصراط المستقيم صراطاً لها، هذه الأمَّة هي التي ندعوه عَزَّوَجَلَّ أن يسلكنا في عدادها ويضمنا إليها. ويجعلنا منها وعلىٰ صراطها. وهو غير صراط المغضوب عليهم من أمثال من لعنهم الله بنقضهم ميثاقهم، وجعل قلوبهم قاسية، يحرفون كلام الله عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، وكفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه... إلخ.

وكذلك نسألك يا ربنا أن تجنبنا سلوك وصراط الضالّين الذين أريتهم طريق الهداية فتنكبوها، وفي هذا يستحضر المصلّي سائر ما ورد في القرآن المجيد من خصال "المغضوب عليهم والضالّين" وسبلهم التي سلكوها وذنوبهم التي ارتكبوها، ويستعصم بالله، ويستعيذ به أن يكون منهم، أو أن يسلك سبيلهم، أو يسقط فيما سقطوا فيه.

١١- مفهوم النعمة:

قرّر الله - عَزَّوَجَلَّ - في كتابه العزيز أنّ نعمه لا تعد ولا تحصىٰ، فقال جلّ جلاله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ونِعَمُ الله عَزَّوَجَلَّ منها ما هُوَ ظاهر ومنها ما هو باطن؛ قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ [لقمان: ٢٠].

إنَّ كل ما خلقه الله عَزَّوَجَلَّ هُوَ نعمة منه علىٰ الإنسان الذي سخَّر له كل ما خلق، فالله عَزَّوَجَلَّ لم يسوّ بين مخلوقاته وبين الإنسان الذي استخلفه في الأرض، بل فضله بنعمة العقل، والتفكير، وسخر له كل ما في الكون، وكرّمه علىٰ كل مخلوقاته. فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

إلّا أنَّ الكثير من الناس يكفرون بهذه النعم وينسون فضل الله -تعالىٰ- عليهم، وقد ضرب القرآن لذلك أمثلة متعددة منها: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ٤٠﴾ [البقرة: ٤٠]. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾ [البقرة: ١٢٢]. وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرْيَةٗ كَانَتْ ءَامِنَةٗ مُّطْمَئِنَّةٗ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل: ١١٢].

كما قدَّم القرآن الكريم الكثير من النماذج لهؤلاء الذين أنعم الله عليهم وكانوا لنعمه من الشاكرين. لعلّنا نقتدي بهم. فمثلاً نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يأخذه الغرور بما أنعم الله -تعالىٰ- عليه مما أتاه من الملك والحكمة والعلم؛ بل دفعه ذلك إلىٰ الشكر لله -تعالىٰ- علىٰ ما أعطاه، قال تعالىٰ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحٗا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل: ١٩]، وغيره من الأنبياء والرسل الحامدين الشاكرين لنعم الله عَزَّوَجَلَّ.

١٢- تصنيف البشر في سورة الفاتحة:

البشريَّة أحوج ما تكون إلىٰ تصنيف للبشر يقوم علىٰ أمور وأسباب تقع تحت كسب الإنسان وقدراته، لأنَّ الأمور التي لا تقع تحت قدرات الإنسان وطاقاته الكسبيّة لا يكون لها نتائج ملموسة في الحياة الدنيا، ولا في الدار الآخرة، ومن هنا كان لا بدّ من ربط سائر عمليَّات تصنيف الناس بما يكسبون وبما يستطيعون أن يفعلوا. فالمؤمن يكتسب إيمانه اكتساباً يبدأ بمعرفته لربه، ثم يسلك سبيل الإيمان واليقين بعد تلك المعرفة بوحدانية الله جَلَّجَلَالُهُ، واتصافه بكل صفات الكمال، وتنزهه عن سائر صفات النقصان. وهو في ذلك كله سائر وموظف كسبه البشريّ لطاقاته الإنسانيّة، وآنذاك يكون فعله قابلاً للتقييم، ويستحق عليه الجزاء بالثواب أو العقاب متحملاً ما ترتب عليه من آثار، قال تعالىٰ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. فالعمل الكسبي عمل قابل للوزن، خلافاً للفعل الضروريّ، قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن: ٧]، والفعل الكسبي هو الذي يوزن ويقوم ويترتب عليه الآثار ويثاب صاحبه أو يعاقب. ولذلك فإنَّ تصنيف البشر إلىٰ مؤمن وكافر ومنافق، يعد أفضل تصنيف لبني البشر لخلوه من أيَّة تحيزات، لأنَّه يقوم علىٰ الواقع العملي لكل نفس بما كسبت، ويتم تصنيف كل مجموعة من البشر بحسب كسبها، لا بحسب أي شيء آخر خارج عن إرادة البشر، ويترتب علىٰ ذلك الكسب إنعام الله علىٰ الإنسان بالقبول والرضا والجزاء وإدخال الجنة أو النار.

من هنا يصنف البشر في سورة الفاتحة من حيث موقفهم من الله عَزَّوَجَلَّ ومن حيث نظر الله عَزَّوَجَلَّ إليهم إلىٰ ثلاثة أصناف: الأول: المنعم عليهم. الثاني: المغضوب عليهم. الثالث: الضالون.

أ- مفهوم الذين أنعم الله عليهم:

لتوضيح ذلك نتتبع مفهوم النعمة والإنعام في بعض المواضع:

بعد ذكر طائفة من الأنبياء قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩]. فهؤلاء هم من أوائل المنعم عليهم.

والنعمة التي تتفرع عنها النِّعَم هِيَ نعمة الإيمان بالله الواحد الأحد، فبموجبها يدرك الإنسان حكمة الله -سبحانه- فيما خلق من النِّعَم.

ومن هنا تصبح الأوصاف الواردة في سورة الفاتحة أوصافاً تثبت أنَّ المؤمنين قد اكتسبوا المعرفة ثم الإيمان واليقين بما بذلوه من جهد، وبفضل من الله ونعمة يسَّر لهم ذلك، فألهمهم كلمة الإيمان واليقين، وأنعم عليهم باستيفاء أركانه وبناء أعمالهم عليه، وبه صارت أفعالهم بعيدة عن العبثيّة والمصادفة وما إليها فاستحقوا الاتصاف بالتقوىٰ.

ب- مفهوم المغضوب عليهم:

الغَضَبُ: ثوران دم القلب إرادة الانتقام، ولذلك قال ﷺ: "اتّقوا الغَضَبَ فإنّه جمرة توقد في قلب ابن آدم، ألم تروا إلىٰ انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه."[(١)] وإذا وصف الله -تعالىٰ- به فالمراد به الانتقام دون غيره، قال: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾ [البقرة: ٩٠].[(٢)]

---

(١) الحديث عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: "ألا وإنّ الغضبَ جمرةٌ في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلىٰ حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن أحسّ بشيء من ذلك فليلصق بالأرض"، انظر:

- الترمذي. **الجامع الكبير (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، أبواب: الفتن، بَاب: ما أَخْبَرَ النبي ﷺ أَصْحَابَهُ بِمَا هو كَائِنٌ إلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ج٤، حديث رقم (٢٣٣٦)، ص٢٦٠.

(٢) الراغب الأصفهاني. **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٦٠١ حرف الغين.

إنَّ غضب الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة هُوَ العذاب الأليم والمهين، ودخول جهنم، وقد يلحق غضب الله -تعالىٰ- في الدنيا مستحقيه بزوال النعم وما يحل عليهم من المصائب. ولم يذكر مفهوم «المغضوب عليهم» بهذه الصيغة إلّا في هذا الموضع من سورة الفاتحة، ومفهوم المغضوب عليهم ليس المقصود به اليهود فقط كما يقول بذلك أغلب المفسرين؛[(١)] وإنَّما يشمل ويعم كل المشركين بالله تعالىٰ، والمنافقين، ومن ليسوا علىٰ أي دين من المجوس، وأصحاب الأديان الوضعية. فالأنواع الثلاثة التي غضب الله -سبحانه- عليها من المنافقين والمشركين والكافرين من أهل الكتاب شملتهم سورة الفاتحة -بالمغضوب عليهم- هؤلاء ليسوا علىٰ صراط الله في شيء.

ت- مفهوم الضالين:

الضلال والخطأ: العدول عن الصراط المستقيم عن الصواب، سواء كان العدول عن ذلك عمداً أو سهواً، وسواء كان يسيراً أو كثيراً.[(٢)]

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٧] بالجر علىٰ النعت، والمعنىٰ: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين علموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلىٰ الحق، وأكد الكلام بـ (لا) ليدل علىٰ أنَّ ثم مسلكين فاسدين، وهما: طريقة اليهود، وطريقة النصارىٰ، فجيء بـ (لا) لتأكيد النفي وللفرق بين الطريقتين ليجتنب كل واحد منهما، فإنَّ طريقة أهل الإيمان مشتملة علىٰ العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارىٰ فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارىٰ، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال -تعالىٰ- عنهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وأخص أوصاف النصارىٰ الضلال كما قال -تعالىٰ- عنهم: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧﴾ [المائدة: ٧٧]، وبهذا وردت الأحاديث والآثار، فقد روي عن عدي بن حاتم أنَّه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالىٰ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ قال: هم اليهود ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: النصارىٰ. (رواه أحمد والترمذي من طرق وله ألفاظ كثيرة). انظر:

- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج١، ص١٤٠.

(٢) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (توفي: ٤٢٥هـ). **تفسير الراغب الأصفهاني**، تحقيق ودراسة: محمد عبد العزيز بسيوني، القاهرة: كلية الآداب - جامعة طنطا، ط٤، ٢٠٠٩م، ج١، ص٦٦.

والضالّون، هم التائهون الحائرون الذين في قلوبهم مرض، وفي أخلاقهم سفه، وفي أفعالهم وتصرفاتهم التواء وانحراف وضلال. هم الذين أتاح الله لهم الاستقرار، فنبذوه وآثروا القلق، والتذبذب، فكانوا مذبذبين لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء. قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: ٢٩]. يظهر حسرة الذين كانوا في ضلال في الدنيا، يوم لا تنفع الحسرة وعلىٰ ذلك التصنيف الإلهي للبشر، تستقيم قضية التكليف، فالتكاليف كلها قد لوحظ فيها قدرات الإنسان وطاقاته، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فالاستخلاف قام علىٰ حرية الاختيار، وقبول الأمانة التي عرضت علىٰ الإنسان، بعد أن عُرضت علىٰ الأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. وعلىٰ ذلك بنيت قضية الجزاء في الدنيا ثم في الدار الآخرة، قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]. فالمنظومة كلّها قائمة علىٰ الكسب الإنساني والفعل الاختياري له، ومن ثَمَّ فلا جبر، لذا تنفي هذه السورة مبدأ إجبار وإرغام الإنسان علىٰ فعل ما لا يريد. وما أحكمته سورة الفاتحة فصَّلته وبيَّنته بدايات سورة البقرة من صفات هؤلاء، وهذه الأصناف هي الأصناف العامَّة، أو الخارجيَّة الشاملة للبشر كافَّة من حيث تعدد مواقفهم من الدين كله. أمَّا التصنيف الداخليّ للأمَّة المسلمة فقد جاء في قوله -سبحانه-: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣١-٣٢]. فإذا غلب علىٰ الأمَّة السابقون بالخيرات والمقتصدون فالأمَّة بخير، وإذا غلب عليها فريق "الظالمين

لأنفسهم" فهي إلىٰ هلاك، والهلاك حين يقع القول علىٰ الأمّة به لن يختص بالمفسدين فيها، أو الظالمين لأنفسهم -وحدهم- بل يشمل الجميع ولا ينجو منه إلا أولئك الذين لم يجترحوا السيئات ولا ارتكبوا الموبقات، ونهوا عن السوء وأمروا بالمعروف. قال سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥]، وهنا تسأل أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضوان الله تعالىٰ عليها- يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال ﷺ: "نعم إذا كثر الخَبَث."(١) أي فلم تمنعوه ولم تأخذوا علىٰ أيدي الخبيثين والخبيثات منكم.

تفسير بعض نجوم سورة الفاتحة من خلال مدخل "الجمع بين القراءتين":

١- في تهيئة العقل لفهم سنن الكون لتحقيق مقصد العمران:

لأنَّ الفاتحة هي مقدمة هذا الكتاب الخاتم المهيمن علىٰ ما سبقه، ولأنَّ الله شرع أن يرددها المسلم في كل صلاة، فهي ملازمة له، فإنَّ الله أجمل فيها الغايات والمقاصد العليا التي بثها في كتابه المجيد، وهي: (التوحيد، والتزكية، والعمران، والأمَّة، والدعوة)، ليس فقط أجملها فيها بل إنَّه جعلها عمود هذه السورة.

فحين نتأمل هذه الآية: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢]، فإنَّنا نجد فيها من الإشارات ما يمثل شرط تحقيق العمران، وما يمثل أيضاً طريق تحقيق التزكية والتوحيد، ولكي ندرك هذا علينا أن نسأل: ترىٰ ما هي هذه الشروط التي يجب توافرها من أجل تحقيق العمران؟

من أهم هذه الشروط -التي تسبق الدعوة القرآنيَّة الدائمة إلىٰ قراءة الكون والتأمل فيه، داعياً العقل للجمع بين القراءتين لتحقيق توحيد لله- تذليل (العقبات الفكريَّة) أمام ارتياد العالم والانطلاق خلاله والشغف بفهمه، هذا شرط طبيعي يسبق محاولة عمران الكون، تحقيقاً للاستخلاف، فلا عمران دون فهم للعالم، وتأمل لسننه

---

(١) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب أحاديث الأَنْبِيَاءِ، بَاب قِصَّةِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، حديث رقم (٣٣٤٦)، ص٦٣٩.

في البدء، ولا فهم ولا تأمل دون تذليل العقبات التي من شأنها أن تعيق ذلك، ولو فكرنا نظرياً، أو تأملنا التاريخ سنجد هناك كثيراً جداً من الأمور التي تقف عائقاً فكرياً أمام محاولة فهم العالم.

من هذه الأمور التي تعيق الانطلاق لفهم العالم:

أ- تقسيم العالم، بحيث يتم تنحية بعض المناطق تعسفاً عن محاولة البحث فيها وفهمها، ولعل أكبر مثال على هذا هو الفكر الأرسطوطاليسي التأملي الذي كان ينظر للعالم من منظور أفكار تأمليَّة مسبقة، قضت بتقسيم العالم لما فوق فلك القمر وما تحت فلك القمر، ثم بتنحية فلك ما فوق القمر عن الدراسة باعتباره مقدساً، وهذا كان عائقاً كبيراً للدراسة، بل إنَّ بعض الباحثين[١] يرجع تعثر علم الفيزياء إلى هذه التحكمات الأرسطيَّة التي تقدست بتبني الكنيسة لها بعد ذلك، فلم يكن للفيزياء خصوصاً فيزياء الحركة أن تتقدم إلا بعد التخلُّص من فلك أرسطو هذا، أيضاً فإنَّ هذا الفكر أعاق كثيراً حركة العلم بعدم اهتمامه بدراسة الوقائع وخضوعه للاستنباط وحده غالباً، وابتعاده عن الاقتراب من العالم. ويُلاحظ بنباهة "محمد إقبال" في كتابه "تجديد الفكر الديني" أنَّ الإسلام عن طريق تحريره الطبيعة من كل هذه التحكُّمات، وأنَّه كتاب احتفى بالطبيعة ولم يزدريها أو يستبعدها فإنَّه فتح أفقاً لدراسة العالم وفهمه كما تجلى في نشأة التجريبيَّة في العالم الإسلامي.[٢]

ب- ومن تلك الأفكار التي تقف عائقاً أمام العقل في دراسته للعالم تمهيداً لعمرانه، النظر للظواهر الطبيعيَّة نظرة فيها خوف وتقديس، فهذه النظرة تحول دون محاولة فهم العالم وعمرانه، لعل هذه النظرة واضحة في قصة ترديد الناس يوم موت إبراهيم ابن النبي ﷺ، والذي تزامن مع كسوف الشمس، بأنَّها كسفت لموته،

(١) الفصل الأول "النهضة والإصلاح العلمي، صراع القديم والجديد في فكر كوبرنيك." انظر:
- يفوت، سالم. **إبستيمولوجيا العلم الحديث**، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط٢، ٢٠٠٨م. ص٩.

(٢) إقبال، محمد. **تجديد الفكر الديني في الإسلام**، ترجمة: عباس محمود، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٦٨م، ص٢١.

وجاء الخبر من الصادق الأمين ﷺ قائلاً: "إنَّ الشمس والقمر من آيات الله، وإنَّها لا ينخسفان لموت أحد، ولا لحياته.."(١) مصدقاً لقول الحق في سورة الرعد: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد: ١٣]. فما قام به القرآن هنا هو رد كل هذه الظواهر من هذا التشرذم الذي يضفي عليها نظرة تقديسية ذاتيَّة، إلى إرادة الإله الواحد، فهي سننه التي خلقها وله وحده التحكم فيها برحمته وعدله وقدرته، وفي هذا تحرير للعقل من تقديس هذه الظواهر التي حوله، حتى يستطيع فهمها وقراءتها ليستطيع تحقيق مهمة الاستخلاف في الأرض وعمرانها.

ت- ومن أهم تلك الأفكار والتصورات التي تقف حائلاً أمام محاولة فهم العالم، النظر للعالم بوصفه خاضعاً لتصرف قوى أخرى غير الله، كتصور أنَّ الجن قادر على قلب نظام الكون، وأنَّ السحرة الذين يستعينون بالشياطين يستطيعون خرق قوانين الله وسننه في الأرض، لا شك أنَّ هذه عقائد كانت سائدة بكثرة في الجاهليَّة مع شيوع العرافة والكهانة والسحر. وهذه تصورات تشل العقل عن قراءة الكون، وتودي تماماً بالثقة في غائيَّته وخيريَّته حين تخضعه لإرادات قوى شريرة، أو تسمح بكون هذه الإرادات تعارض وتخرق إرادة الحق، لذا فإنَّ الإسلام حين أبطل كل هذه القوى، وأعلن أنَّه لا شيء يتم إلا بإرادة الله وحده، وأنَّ كل هذه القوى خاضعة له، فإنَّه بهذا قد ذلل عقبة أخرى أمام العقل حتى يستطيع قراءة العالم وفهم سننه.

وإذا كانت هذه الأفكار تقف حائلاً أمام العقل وتمنعه من تحقيق مقصد العمران، وإذا كان القرآن الكريم قام بتذليل هذه العقبات، فطبيعي أن نجد

---

(١) عن أبي بَكْرَةَ قال: "خَسَفَتْ الشَّمْسُ على عَهْدِ رسول الله ﷺ فَخَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ حتى انْتَهَى إلى الْمَسْجِدِ وَثَابَ الناس إليه فَصَلَّى بِهِمْ رَكْعَتَيْنِ فَانْجَلَتْ الشَّمْسُ، فقال (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ من آيَاتِ الله، وَإِنَّهُمَا لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وإذا كان ذَاكَ فَصَلُّوا وَادْعُوا حتى يُكْشَفَ ما بِكُمْ) وَذَاكَ أَنَّ ابْناً لِلنَّبِيِّ ﷺ مَاتَ يُقَالُ له إِبْرَاهِيمُ، فقال الناس في ذَاكَ." انظر:

- البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: الْكُسُوف، بَاب: الصَّلَاةِ في كُسُوفِ الْقَمَرِ، حديث رقم (١٠٦٣)، ص٢١٢.

هذا التذليل في سورة الفاتحة، لما قلناه عن أهميَّتها كمقدمة للكتاب وملازمة للمسلم دوماً في صلاته، ومجملة لما فصَّله الله في كتابه من مقاصد عليا وغايات، ونحن بالفعل نجد هذا التذليل بوضوح جداً في سورة الفاتحة، ففي قوله -تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] نجد إعلاناً واضحاً عن مربوبيَّة كل شيء لله رب العالمين. و"**العالمين**" جمع عالم، فعالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم الجن، وعالم الجمادات، وكل الظواهر الطبيعة هي مربوبة لله وحده، خاضعة لإرادته، فالمسلم حين يقرأ هذه الآية بتدبُّر في صلاته، فإنَّه يذكر مربوبيَّة كل ما حوله لله، فهو خالقهم من عدم، وواجدهم وممدهم وخالق سننهم وحافظها، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٣] فهو رحيم بنا وبعقولنا وفهمنا؛ لذا فهو الحافظ لسننه من الجن والشياطين والسحرة الذي يرومون قلبها وأنَّىٰ لهم، ولعل في هذا مناسبة بين سورة الفاتحة والبقرة، فأتىٰ في البقرة الحديث عن السحر وعن محاولته قلب سنن الله ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] ليقول لنا: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وأيضاً في البقرة تفصيل لخضوع كل الظواهر لله، في ذكره نعمه وأفضاله علىٰ بني إسرائيل: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ [البقرة: ٥٧]، فمربوبيَّة كل هذه الظواهر لله الرحمن الرحيم، يطمئن العقل والشعور للانطلاق في العالم لتعميره، وتحقيق الاستخلاف.

إنَّ قراءة الكون، وهي القراءة الثانية مع قراءة القرآن، غير ممكنة إلا بعد هذه القراءة الأولىٰ، فهذه القراءة الأولىٰ هي التي تحرر العقل من كل أوهامه وتصوراته التي تعيقه عن فهم الكون حوله، ولهذا فهي قراءة مرتبطة بـ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٧]، فالمنعم عليهم والذين يسيرون علىٰ الصراط المستقيم الذي يستقونه من هذا الكتاب المجيد، هم وحدهم قادرون علىٰ قراءة الكون، وليس من ضلوا فاستحقوا غضب الله، المبعدين عن توحيده وعمران

كونه، والعكس أيضاً صحيح، فقراءة الكون تفضي إلىٰ معرفة وحدة خالقه وموجده وحكمته ورحمته، فهي طريق للهداية نعمة من الله، لذا كان لزاماً أن تلهج ألسنتنا بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، الحمد له الذي بربوبيَّته للعالمين حرر عقولنا وشعورنا وهيّأنا للانطلاق لفهم العالم وعمرانه، والحمد لله بما أنعم علينا من قراءة كتابه التي هيّأتنا للقراءة الثانية قراءة كونه، والحمد لله أن هيَّأ لنا القراءة الثانية لتزيدنا إيماناً بوحدانيَّته.

هو ثناء علىٰ الله، واعتراف بنعمته علينا، فهو الذي يهدينا الصراط المستقيم، ويحفظ عمران العالم من التدمير، فالإنسان بعد عقله وفهمه للعالم قد يتيه غروراً، ويشتط فيعيث فساداً، ويأتي علىٰ الأخضر واليابس، لكن القرآن وهنا في الفاتحة، حين يذكِّر الإنسان بأنَّ فهمه للعالم ليس سوىٰ نتيجة لكونه مربوباً لله وحده، وأنَّ هذه المربوبيَّة هي في معتقد من أنعم الله عليهم بقراءة القرآن وتدبره، فإنَّه يخضع لا محالة نتاج علمه وصنعه وعمرانه ليكون طريقاً للهداية ولتحقيق مقاصد رب القرآن العليا، وليس للتدمير كما هو الحال في العالم الغربي الذي انبتت صلته بالغايات جميعها فَضَلَّ الطريق.

سُورَةُ البَقَرَةِ

الحمد لله نستغفره ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونُصلي ونُسلم علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه، ومن تبعه واهتدىٰ بهديه إلىٰ يوم اللقاء.

فهذه سلسلة من السهل الممتنع في تفسير القرآن بالقرآن، ونقدم في هذه الحلقة منها سورة البقرة؛ إذ أردنا أن تكون -مثل سور القرآن الأخرىٰ- مُتاحة لأجيال الشباب المتطلعين إلىٰ فهم للقرآن، لتُساعدهم علىٰ التدبُّر والفهم، وتُخرجهم من دوامة الرجوع إلىٰ التفاسير المطولة التي قد يصعب عليهم التعامُلُ معها، وتمييز ما فيها من مقبول ومرفوض، ورَصْدُ ما أُدخل فيها من إسرائيليات وأخبار موضوعة أو ضعيفة، أو مما لا يصح إسقاطه علىٰ معاني القرآن بحال من الأحوال. ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفع بها حَمَلة القرآن ومحبّيه، وهي محاولة ما تزال في طور التجربة قابلة للتحسين والإضافة، والتعديل والتصحيح، ولنا كبير الأمل بأنَّ قرَّاءَنا سوف يتجاوبون، ويُقدمون لنا بتفاعلهم ما يُعين علىٰ جعل هذه المحاولة -إن شاء الله- محاولة علميَّة تفسيريَّة نافعة مفيدة خاصة لفصائل الشباب، وحَفَظة القرآن المجيد المقبلين عليه.

وصف السورة:

سورة البقرة مدنية.

عدد آياتها: مائتان وست وثمانون.

عدد كلماتها: ستة آلاف ومائة وإحدىٰ وعشرون.

عدد حروفها: خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة.

العمود الأساسي لسورة البقرة -علىٰ طولها- هو (الاستبدال)، ونعني بذلك استبدال أُمّة بأُمَّة، فالسورة مع كل ما اشتملت عليه كانت إعلاناً لانتهاء دور أمة اليهود أو بني إسرائيل، واستبدالهم أمة أُخرىٰ. وقد جاء هذا الإعلان مُفَصّلاً مُعلّلاً، مع بيان الأسباب التي تجعل هذا **(الاستبدال)** أمراً ضروريّاً لا بديل عنه، وبهذا (الاستبدال) انتهت الخطاباتُ الإلهيةُ الحصريّة التي يوجهها الله -تعالىٰ- إلىٰ أقوام بأعينهم؛

لتبدأ دورة الخطاب العالميّ الكونيّ الشامل للبشريَّة كلّها في جميع أماكنها وأزمنتها وسائر شعوبها وأقوامها، وذلك الخطاب الذي تَضَمَّنه واشتمل عليه كتابٌ كونيٌّ متحدٍ معجز، قد تلقته خير أمة أخرجت للناس عن خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]. تلك هي مواصفات الأمة التي تسلَّمت راية الدعوة إلىٰ الله، بعد أن فقد بنو إسرائيل سائر المؤهِّلات والمواصفات التي أهَّلتهم سابقاً للتكليف بهذه المهمة.

الفاتحة ومقدمة البقرة نموذجٌ للإحكام والتفصيل:

لقد تدبَّرتُ سورة الفاتحة، فرأيتها قد صَنَّفت البشر -في آية واحدة- أصنافاً ثلاثة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧]. وهذا التصنيف جاء فيها بشكلٍ مُحْكم ليأتي تفصيله(١) في هذه السورة، لا سيما في الآيات الخمس والعشرين الأولىٰ منها.

هذه الآيات الخمس والعشرون تبدأ بتلك البداية الحَكيمة، ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١]، فلعل الباري -سبحانه- أراد أن يُذَكِّر البشريَّة بتلك النعمة الكبرىٰ، نعمة التمكُّن من تقطيع الأصوات إلىٰ حروف ثم تحويلها إلىٰ كلمات يُفْصح الإنسان بها، ويبين عمَّا في نفسه، ولولا ذلك لبقي الإنسان عاجزاً عن الإفصاح عمَّا في نفسه.(٢)

وفي الآية الثانية بيان أهمية المصدر الذي اشتمل علىٰ تلك الآيات والثقة التامة به، وأنّه لا ريب فيه ولا خلل، ثم يبدأ -في الآيات الثلاث التالية- ببيان وتفصيل صفات الذين أنعم عليهم، ثم يبيّن في آيتين مراده بالمغضوب عليهم، ثم بيّن صفات أولئك التائهين الضالين في ثلاث عشرة آية، وذكر المنافقين نموذجاً لهم، وضرب لهم مَثَلَين لتوضيح مَدىٰ ضلالهم وحيرتهم.

(١) أُفضّل استعمال مفهومي "الإحكام والتفصيل" بدلًا من الإجمال والبيان؛ تنزيهاً للقرآن المبين ذي الآيات المبينات.
(٢) سيأتي تفصيل ذلك.

وفي الآية الحادية والعشرين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١] يوجِّه النداء إلىٰ الخَلْق كافة إلىٰ العالمين أجمعين، وبلفظ الناس ونداء القريب لحصر العبادة بالله تعالىٰ وفي ذلك توكيد وتفصيل لما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]. في سورة الفاتحة، وشرح للحيثيات والأسباب والحِكم التي تدعو إلىٰ حصْر العبادة بالله تعالىٰ، فهو ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢٢] تفصيل لتلك الحيثيات ومزيد بيان لها، ثم تأتي الآية الثالثة والعشرون ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة: ٢٣] لتعود إلىٰ التوكيد علىٰ صحة المصدر، مصدر الهداية الذي سَأَلْنا الله -تبارك وتَعَالىٰ- أن يمنَّ علينا بها في ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: ٦]. ومصدر هذه الهداية هو مصدر واحد لا ثاني له، الكتاب الذي لا ريبَ فيه، فهو الذي يحمل الهُدىٰ للمتقين، وهنا يأتي -مع تأكيد نفي الريب عنه- التحدِّي به بل بسورة من مثل سُوره، هذا التحدِّي الذي يعلم الله -تبارك وتعالىٰ- أنّهم لن يستطيعوا أن يستجيبوا له، فلن يتمكَّنوا من الإتيان بمثل سورة واحدة من سُوره، ولو اجتمعوا علىٰ ذلك واجتمع معهم الإنس والجن وسائر الخلق، وما دام الأمر كذلك وما دامت الدعوة ثابتة بدليلها، وما دام التكذيبُ لا أثر له ولا دليل عليه؛ فلا بدّ أن يكون مصير الرافض هو النار التي وقودها الناس والحجارة، وهكذا نرىٰ (الإحكام والتفصيل) يسيران في خَطَّين متوازيين في سائر آيات الكتاب الكريم. فما أُحكم في موضع فُصِّل في آخر، وذلك ينفي عن القرآن المجيد صفة الإجمال -بمعنىٰ الإبهام أو عدم الوضوح- الذي وَصَف الأصوليون به بعض آياته، وفَرْق كبير بين (الإجمال والبيان) وبين (الإحكام والتفصيل) والله أعلم.

إنّ الناس قد يختلفون عندما ينظرون في أصناف البشر، وقد تُدرك بعضهم الحيرة في تصنيف بعض الناس، والآيات السبع في سورة الفاتحة التي أُحكمت والآيات المفصِّلة لها في مقدمة سورة البقرة قد بيّنت تصنيفات ثابتة للبشريَّة في مواقفها من الحق مهما اختلفت الأزمان والأعصر ومهما تغيَّرت الأحوالُ، وهذه الأصناف الثلاثة

أصناف لا تخضع في تقسيماتها ومواقفها من الحقائق لتغيُّرات الزمان والمكان والأحوال والظروف، بل تخضع لعقلية الإنسان ونفسيَّته وضميره ووجدانه والمؤثِّرات في نفسيّته وعقليّته وجماع شخصيّته، أما التصنيفات الأخرىٰ فهي تصنيفات سائلة متغيِّرة لا تحمل عناصر ثبات ولا يمكن أن تستمر.

إن هذا التقسيم يُرسي دعائم نظرية اجتماعية ذات بُعْدٍ قِيَميّ وأخلاقيّ، لا يسمح بانفصال أيّ منهما عن الآخر. إن المجتمعات البشريّة لا بدَّ لها من رؤية تُعينها علىٰ فهم السلوك والتصرُّف الإنسانيّ في الحرب والسلم، والأسرة والدولة والدين والسلطة الحاكمة وما إلىٰ ذلك، وأن تتكون التجمُّعات البشرية حول تلك الرُؤَىٰ.

وهناك ثلاث رؤىٰ يقدمها المختصون في علوم الاجتماع:

الأولىٰ: أصحاب النظرية الاجتماعية ذات الرؤية الأخلاقية، وهؤلاء يرون أن المعرفة إنما تكون قادرة علىٰ جعل العالم مكاناً أفضل للعيش فيه، وهذه النظرية قريبة مما تقدمه لنا سورة الفاتحة وسورة البقرة -في إطار الرؤية التي صنَّفت البشر أصنافاً ثلاثة- انطلاقاً من منظور توحيديّ.

الثانية: تبنَّاها من يُعْرفون بالمنظِّرين العِلميين، وتقوم هذه الرؤية علىٰ اكتشاف قوانين وسُنن تُطَبَّق علىٰ السلوك الإنساني في كل المجتمعات، وتتطلَّب المعرفة الحقيقية عند هؤلاء؛ أن تكون الملاحظاتُ والبحوث والحقائق مُنظمة بوصفها مبادئ عامة أو قوانين تثبت صحتها أو بطلانها بواسطة الاختبارات والتحقيقات العلمية المتكررة.

وأما الرؤية الثالثة: فهي التي تبنَّاها المنظِّرون الفلاسفة، الذين يرغبون في إرساء قانون أساسي حول السلوك الإنساني والحياة الاجتماعية.

والقرآن المجيد حين ذكر المهتدين والمغضوب عليهم والضالين، وبيَّن في أوائل سورة البقرة صفات كل من هذه الأصناف الثلاثة، استوعب فيما نرىٰ هذه النظريات وتجاوزَها، فهو حين يذكر كل صنف من المذكورين ومَنْ يُمكن أن يندرج تحته بمقتضىٰ رؤيته وسلوكه فإنه يقدِّم لأهل العلم أهم الوسائل التي تساعد علىٰ بناء نظرية اجتماعية محدَّدة متكررة صالحة لتفسير سلوك وتصرفات أيّة جماعة بشرية تجاه مجموعة من الحقائق الثابتة، ومن ثمَّ فإنَّ هذه الآيات الكريمة الوجيزة تقدِّم لنا وللبشرية كافة

أساساً متيناً لبناء علوم اجتماعية أدق وأوضح، وأقدر على تفسير السلوك الإنساني. والله أعلم.(١)

النَّجم الأول:(٢) في بيان ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] وأصناف الناس في التعامُل معه

(١) انظر ما أنتجه المعهد حول بناء النظريات الاجتماعية، خاصة فيما نشره الدكتور محمود الذوادي.

(٢) أصل النَّجم الكوكب الطالع، وجمعه نجوم، ونجم طلع نجوماً ونجماً فصار النَّجم مرّةً اسماً، ومرّةً مصدراً، فالنجوم مرّةً اسماً كالقلوب والجيوب، ومرّة مصدراً كالطلوع والغروب، ومنه شبّه به طلوع النبات والرأي قال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [النَّجم: ١]، قيل: أراد به الكوكب، وإنما خصّ الهوي دون الطلوع، فإن لفظة النَّجم تدل على طلوعه، وقيل: أراد بالنَّجم الثريا، والعرب إذا أطلقت لفظ النَّجم قصدت به الثريا، وقيل: أراد بذلك القرآن المنجّم المنزّل قدراً فقدراً، ويعني بقوله (هَوَىٰ): نزوله، وعلى هذا قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، فقد فُسِّرَ على الوجهين، والتنجّمُ الحكم بالنجوم، وقوله: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾ [الرحمن: ٦] فالنَّجم ما لا ساق له من النبات، وقيل: أراد الكواكب. انظر:

- الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٧٩١.

وأشهر النجوم عند العرب بإطلاق نجم الثريا؛ لأنهم كانوا يؤقتون بأزمان طلوعها مواقيت الفصول، ونُضج الثمار.

ولفظ (النَّجم) ورد في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعاً فقط، ورد في جميع مواضعه بصيغة الاسم، ولم يَرِد بصيغة الفعل. وقد ورد في أربعة مواضع بصيغة اسم جنس جمعي، منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: ١٦]. وورد في تسعة مواضع في صيغة الجمع، منها قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: ٩٧]. وقد ورد في القرآن الكريم على ثلاثة معان:

المعنى الأول: الكوكب المعروف الذي يظهر في السماء، من هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالنجوم في الآية هي النجوم المعهودة للناس، وهي التي تُزيّن السماء، وتهدي الناس في ظلمات البر والبحر. وأكثر مجيء هذا اللفظ في القرآن على هذا المعنى.

المعنى الثاني: نزول القرآن مفرّقاً، جاء بحسب هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [النَّجم: ١]، عن مجاهد، قال: القرآن إذا نزل. وقال الراغب الأصفهاني: القرآن المنزّل المنجّم قدَراً فقدَراً، ويعني بقوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [النَّجم: ١]: نزوله. وهذا على قول في تفسير الآية. وجاء على هذا أيضاً قوله عزَّ وجلّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، روى الطبري عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، قال: نزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملةً واحدةً، ثم فُرِّق في السنين بعدُ. وتلا ابنُ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، قال: نزل متفرّقاً.

وروى الطبري أيضاً عن عكرمة، في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، قال: أنزل الله القرآن نجوماً ثلاث آيات، وأربع آيات، وخمس آيات. وهذا أيضاً على قول في تفسير الآية، انظر:

- الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، مرجع سابق، ج٢٣، ص١٤٧.

المعنى الثالث: بمعنى النبت الذي لا ساق له، وبحسب هذا المعنى فُسِّر قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾ [الرحمن: ٦]، قالوا: فالنَّجم: ما لا ساق له. و(الشجر): كل نبت له ساق. عنى =

﴿الم (١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون
(٣) والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون (٤) أولئك على هدى من ربهم وأولئك
هم المفلحون (٥) إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (٦) ختم الله على قلوبهم
وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (٧) ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم
بمؤمنين (٨) يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون (٩) في قلوبهم مرض فزادهم الله
مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (١٠) وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون
(١١) ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون (١٢) وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء
ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (١٣) وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم
إنما نحن مستهزئون (١٤) الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون (١٥) أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما
ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (١٦) مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله
بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون (١٧) صم بكم عمي فهم لا يرجعون (١٨) أو كصيب من السماء فيه ظلمات
ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين (١٩) يكاد البرق يخطف أبصارهم
كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء
قدير (٢٠)﴾ [البقرة: ١-٢٠]

= بالنَّجم في هذا الموضع: ما نَجَم من الأرض، مما ينبسط عليها، ولم يكن على ساق، مثل البقل ونحوه. وقد روى الطبري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ [الرحمن: ٦] قال: ما يبسط على الأرض. وروي أيضاً عن سعيد، قال: النَّجم كل شيء ذهب مع الأرض فرشاً. وروي عن السدي، قال: النَّجم نبات الأرض. وهذا على قول في تفسير الآية، انظر:

- ابن منظور الإفريقي، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري (توفي: ٧١١هـ). **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ، ج١٢، ص٥٦٨.

وقد رجَّح الطبري هذا القول، فقال: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: عني بـ النَّجم: ما نَجم من الأرض من نبت؛ لعطف الشجر عليه، فكان بأن يكون معناه لذلك: ما قام على ساق، وما لا يقوم على ساق يسجدان لله، بمعنى: أنه تسجد له الأشياء كلها، المختلفة الهيئات من خلقه، أشبه وأولى بمعنى الكلام من غيره. وقد حمل بعضهم قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١)﴾ [النَّجم: ١] على هذا المعنى. انظر:

- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مرجع سابق، ج٢٢، ص١٢ بتصرف.

والحاصل مما تقدم: أن لفظ النَّجم ورد في القرآن الكريم بمعنى الجِرم السماوي المعهود، وفُسِّر في بعض مواضع وروده في القرآن بغير معناه الأصلي، ففُسِّر تارةً بمعنى نزول القرآن على فترات ودفعات، وفُسِّر تارةً أخرى بمعنى النبات الذي لا ساق به. وهذان التفسيران للفظ النَّجم خُرج بهما عن أصل معنى هذا اللفظ؛ لما ثبت من الآثار وكلام العرب، ولما اقتضاه السياق القرآني نفسه. والمعنى الثاني هو ما نقصده هنا.

أودُّ أن أقف عند ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١] هذه وقفة مُلائِمة لكي لا نقف عندها في بقية السور التي بدأت بالحروف المقطعة. ما معنىٰ﴿الٓمٓ﴾؟ كَثُر كلام العلماء فيها وفي أمثالها من الحروف التي بدأ الله تعالىٰ بها تسعاً وعشرين سورةً من سُور القرآن؛ فبعضهم عدّها من أسماء السور، وبعضهم عدّها أسراراً وبعضهم عدّها رموزاً... الخ، ولكن حينما نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] ونقرأ كيف علَّم إبراهيم ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ونقرأ كذلك كيف علَّم محمداً ﷺ وسائر النبيين والمرسلين، حينها نفهم أنّ هذه الأحرف تريد أن تنبِّهنا إلىٰ أكبر نعمة أنعم الله -تبارك وتعالىٰ- بها علىٰ الإنسان وميّزه بها عن الحيوان، وجعله سيد الكون الذي سَخّر له الكون بما فيه، ألا وهي نعمة التعلُّم والبيان.

إن كل الحيوانات تُصدر أصواتاً، فالفرس تصهل، والحمار ينهق، والكلب ينبح، والقطة تموء، والإنسان يُخرج أصواتاً كذلك، ولكن من أكبر نعم الله عليه -كما أسلفنا في المقدمة- أنه علَّمه كيف يُقطِّع هذه الأصوات ويجعلها أحرفاً تُؤَلَّف منها الكلماتُ ثم كلمات تُؤلَّف منها الجمل؛ لولا هذا لما كان الإنسان إنساناً، ولكان مجرد حيوان كسائر الحيوانات، ولما قام حينها عمران ولا بُنيت حضارات ولا أُنشئت ثقافات.

إذن فهذه الأحرف بداية تنبِّه الإنسان إلىٰ أهم وأقوىٰ شيء في إنسانيته؛ وهي أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ علَّمه كيف يُقطِّع صوته إلىٰ أحرف -فتصبح ألفاً ولاماً وميماً وحاءاً وعَيناً وصاداً وقافاً الخ- تُؤلَّف منها الكلمات. تُرىٰ لو أننا لم نعرف ذلك وأراد أحدُنا -مثلاً- أن يصف شجرة لإنسانٍ لم يَرَ الشجرة ولم يَطَّلع علىٰ شيءٍ منها كم يستغرق منه ذلك؟ ربما يحتاج إلىٰ يومين أو ثلاثة يتحدث فيها عن الأغصان وعن الطول وعن العرض وعن الجذر وما إلىٰ ذلك فقط ليرسم في ذهن من يسمعه شجرة، ولكن الكلمة اخْتَصرت لنا الطريق، والكلمة مبنية علىٰ أحرف، إذن ﴿الٓمٓ﴾.﴿الٓرۚ﴾. ﴿طسٓمٓ﴾.﴿يسٓ﴾.﴿حمٓ﴾ كل هذه الأحرف هي عبارة عن تنبيهٍ مُسْبَق تبتدئ السورة به لتنبِّهك أيُّها الإنسان إلىٰ أنّ الله قد أنعم عليك بأعظم نعمة ميَّزتك عن الحيوان وجعلتك سيِّداً للطبيعة، ألا وهي نعمة القُدرة علىٰ تقطيع الصوت إلىٰ كلماتٍ تُؤَلَّف من هذه الأحرف، فعلّمك البيان وعلّمك القرآن وعلّمك ما لم تكن تعلم، وعلّمك

كيف تكتب وتستخدم القلم، وكيف تحفظ علوماً ومعارف وفنوناً وحضارةً وتنقل ثقافةً بهذه الأحرف، كل هذا ما كان من الممكن أن يحدث لو لم يخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لدىٰ الإنسان هذه القدرة علىٰ تقطيع الصوت إلىٰ أحرف.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾ [البقرة: ٢]: إشارة إلىٰ الكتاب المكتوب، وهو مُؤَلَّف أيضاً من تلك الأحرف التي هي عبارة عن أصوات تم تقطيعها، فإذا كنتَ تبحث عن كتاب يُغنيك عن جميع الكتب، يُغنيك عن سائر ما كَتَبَت البشرية فليس هناك إلا كتاب واحد هو القرآن الكريم، لأنه هو الكتاب الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] أي لا شك فيه ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢]: بيانٌ لمصدر الهداية التي سَأَلْنا الله تعالىٰ أن يمنَّ علينا بها في سورة الفاتحة في قولنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦] فإن قيل: كيف قال ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢] والمتقون مهتدون فكأنه تحصيلُ الحاصل؟ قلنا: إنما صاروا مُتَّقين بما استفادوا منه من الهُدىٰ، أو أراد أنه ثبات لهم علىٰ الهدىٰ، وزيادة فيه، أو خصَّهم بالذكر لأنهم هم الفائزون بمنافعه حيث قَبلوه واتَّبعوه كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٥]، أو أراد الفريقين واقتصر علىٰ أحدهما كقوله تعالىٰ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].(١)

ولا بدّ من الإشارة هنا إلىٰ أن هناك نوعين من الهدايات القرآنية: هدايات قريبة، وهدايات بعيدة عميقة، قال الله تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩] هذا اسم إشارة للقريب، أي إن هناك هدايات قريبة يُدركها كلُّ من يقرأ القرآن طلباً للهداية، وبنيّةٍ خالصةٍ للوصول إليها، وهناك هدايات بعيدة لا يدركها إلا نَفَرٌ قليلٌ مخصوص من الناس ألا وهم المتقون، الذين ألزمهم الله تعالىٰ كلمة التقوىٰ وكانوا أحق بها وأهلها.

(١) الرازي، **أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل**، مرجع سابق، ص٤.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣] فالمتقون هم هؤلاء الذين يؤمنون بما غاب عن حواسِّهم وحضر في بصائرهم وقلوبهم، فإنّ للإنسان بصراً وبصيرة، حواساً ظاهرة وحواسّاً باطنة، فالذين يؤمنون بما غاب عن الحواس الظاهرة يرتقون عن مرتبة المخلوقات الأخرىٰ المشاركة لهم في هذا الوجود ويصبحون خَلقاً آخر متميِّزاً، لأن مصادر معرفتهم ومصادر إيمانهم تنوَّعت وتعدَّدت إلىٰ: مصادر غيب، ومصادر شهادة، فكما أنّ الحسّ يُعدّ عندهم مصدراً من مصادر المعرفة، تعدّ الحواسُّ الباطنة مصدراً كذلك، فالبصر نقرأ به، والبصيرة نفهم ونَفْقَه بها، وبذلك يجتمع للإنسان بُعدَان: حسّي ووجداني. أما الإيمان الحسّي المشاهَد فحتىٰ الحيوانات تشاركنا فيه، فيرىٰ الحيوان الزرع ويُقبل عليه ويأكله، ويرىٰ ما قد يضره فينفر منه، لكنّ الإنسان يجمع بين القدرة علىٰ المعرفة الغيبيّة ومعرفة المشاهدة بالجمع بين البصر والبصيرة، وبين السَّمع والبصر والفؤاد.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣] وهؤلاء المتّقون لا يقتصرون علىٰ ذلك الجمع في الإيمان بين الغيب والشهادة، بل يحوّلون ذلك الإيمان إلىٰ حركة ليصبح طاقة دافعة من الدوافع التي تدفع الإنسان لعمل الخير ولتجنُّب الشر؛ وأول خير يمكن أن يفعله الإنسان هو أن يُوثِّق صلته بخالقه، فعلاقتنا بالخالق -جلَّ شأنُه- مِثل علاقة الضوء بمصدره.

والغيب غيبان: غيبٌ مُطلَق استأثر الله بعلمه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾ [الجن: ٢٦]. وغيبٌ نِسبي يتكشَّف لنا عبر العصور وينتقل من حالة الغيب إلىٰ حالة الشهادة.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٣] فبإقامتهم للصلاة يربطون حِبال الوَصل بينهم وبين الله -تبارك وتعالىٰ-، وبإنفاقهم يربطون الوصل بينهم وبين الناس، ويعبرون عن إيمانهم بأنهم مُستخلَفون في هذه الأرض يكسبون ويتصرفون وينفقون من مال آتاهم الله إياه وجعلهم مُستخلَفين فيه، وهو ناظر إليهم، يعلم من يشكر هذه النعمة ومن يكفرها.

والإنفاق أعمُّ من الزكاة، فقد ينفق الإنسان على نفسه وعلى عياله وعلى أبنائه، وعلى ضيوفه وعلى مَن يطرق بابَه وعلى من يطلب منه العَوْن أو المساعدة أو ما إلى ذلك، فما ينفقه هو حقٌّ في المال غير معلوم أو مُحدَّد أو مُقَدَّر، فكأن الله يندب أبناء الأمة إلى مواجهة الأزمات والطوارئ والكوارث الطبيعية، بهذا النوع من التصرف بالمال الذي قد لا تستجيب الزكاة -المخَصَّصة لأصناف ثمانية من مستويات ذوي الحاجة من الأمة- له، فكأن الزكاة تُمثِّل الحدَّ الأدنى والأساسي في الأحوال العادية المستقرة، ليأتي الإنفاق لمواجهة الاحتياجات التي تتجاوز ذلك في الظروف الاستثنائية، والمتقون الأسخياء يبذلون في كلا المجالين، ليَقِينِهم بالخُلف من الـمُنْعِم جلَّ شأنه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [البقرة: ٤] أي القرآن(١) وسُمي إنزالًا لما في جانب الألوهية من العلو، علو الرب على المربوب، والخالق على المخلوقين، الذين لا يخرجون -مع التكريم والاصطفاء- عن كونهم عبيداً خاضعين، وهناك بعض النِّعم الإلهية -غير الوحي- عدّها القرآن الكريم مُنزَلةً أيضاً كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزمر: ٦] وكقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد: ٢٥].

(١) انظر ما جاء في تفسير المنار ما نصّه: «وجملة القول: إن الإيمان بما أُنزل إلى النبي ﷺ: هو الإيمان بالدين الإسلامي جملة وتفصيلاً، فما علم من ذلك بالضرورة ولم يخالف فيه مخالف يعتد به، فلا يسع أحداً جهله، فالإيمان به إيمان، والإسلام لله به إسلام، وإنكاره خروج من الإسلام، وهو الذي يجب أن يكون معقد الارتباط الإسلامي وواسطة الوحدة الإسلامية، وما كان دون ذلك في الثبوت ودرجة العلم فموكول إلى اجتهاد المجتهدين، أو ذوق العارفين أو ثقة الناقلين بمن نقلوا عنه ليكون معتمدهم فيما يعتقدون بعد التحرّي والتمحيص، وليس لهؤلاء أن يُلزموا غيرَهم ما ثبت عندهم، فإنَّ ثقةَ الناقل بمن ينقل عنه حالةٌ خاصةٌ به لا يمكن لغيره أن يشعرَ بها حتى يكون له مع المنقول عنه في الحال مثل ما للناقل معه، فلا بدّ أن يكون عارفاً بأحواله وأخلاقه ودخائل نفسه، ونحو ذلك مما يطول شرحه، وتحصل الثقة للنفس بما يقول القائل. وأقول: معنى هذا أن بعض أحاديث الآحاد تكون حجةً على من ثبتت عنده واطمأن قلبُه بها، ولا تكون حجةً على غيره يلزمه العمل بها، ولذلك لم يكن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ يكتبون جميع ما سمعوا من الأحاديث، ويدعون إليها مع دعوتهم إلى اتباع القرآن والعمل به وبالسنة العملية المتبعة المبينة له إلا قليلاً من بيان السنة، كصحيفة علي - كرم الله وجهه - المشتملة على بعض الأحكام: كالدية، وفكاك الأسير، وتحريم المدينة كمكة، ولم يرض الإمام مالك من الخليفتين: المنصور، والرشيد أن يحملا الناس على العمل بكتبه حتى الموطأ، انظر:

- رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، مرجع سابق، ج١، ص١١٦.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [البقرة: ٤] أي: من الكتب على مَنْ سَبَقَك من الرسل. وفي ذلك إعلان عن وحدة الدين وتأسيس لها. وهذه السورة هي التي نقلت مفهوم التديُّن من حالة (الاصطفاء القومي) والأسري -أي الذي يقوم على أُسَر مُتديِّنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: ٣٣]، ومثل: ارتباط الدين اليهودي والرسالة اليهودية بقوم موسى - إلى حالة اصطفاء أمة بأكملها، تخرج نموذجاً للعالمين كافَّة، وهذا هو الإعلان الأول عن الديانة العالميّة والدين العالمي الذي يُوجّه رسالته إلى الإنسانية جمعاء. وهذا هو المقصود بـ (الاستبدال) الذي رأيناه عموداً أساسيّاً للسورة.

ولذلك سوف يأتي في خلال هذه السورة آيات كثيرة تبين وحدة أمة الأنبياء، وضرورة الإيمان بهم جميعاً، وضرورة إدراك انتهاء دورات حصر الدين في قبيلة أو في شعب أو في أُسْرة.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [البقرة: ٤] يقيناً تاماً لا يشوبه ريب، ولا يُعْتَدُّ بما دون اليقين في الإيمان، وقد قال الله تعالى في اعتقاد قوم: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ [النَّجم: ٢٨]. وإذا لم يكن المؤمن مُوقِناً وعلى نور من ربه في اعتقاده، فما حال من هو دونه من الشاكّين والمرتابين؟

ويُعرَف اليقين في الإيمان بالله، واليوم الآخر بآثاره في الأعمال والسلوك والأخلاق والتصرُّفات.(١)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: ٥] هؤلاء الذين يتصفون بكل هذه الصفات هم المتقون الذين كان القرآن الكريم هُدىً لهم فهم الذين يستحقون أن يُوصفوا بالهداية، وهم الذين أنعم الله عليهم، وهم الذين سأَلْنا الله في سورة الفاتحة أن يهدينا صراطهم ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧] وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

---

(١) رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، مرجع سابق، ج١، ص١١١-١١٣.

الآن قد شَرَحَتْ لنا مقدمةُ سورة البقرة -تفصيلاً- ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ ﴾ [الفاتحة: ٧] الذي ورد في سورة الفاتحة.

ثم تشرح الآيتان التاليتان لنا صراط ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فيقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة: ٦] هؤلاء هم المغضوب عليهم ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾[البقرة:٧]أي طبع الله عليها، تنبيه إلىٰ أنهم آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم فعاقبهم بمنع الهداية عنهم كما في قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: ٣] فلا تُفْتَح أبداً لأن الله هو من ختم علىٰ قلوبهم فلا يستطيع أحد -لا نبي ولا رسول ولا شفيع- بعد ذلك أن يفتحها.

ثم تبين لنا الآيات التالية صراط ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧] كي نعرفهم بسيماهم ونتجنَّب إن شاء الله أن نكون منهم أو من بينهم، يقول تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨] يُعيدنا إلىٰ ما ذَكَرْتُ من امتياز الإنسان بأن له حواسّاً ظاهرةً وحواسّاً باطنةً، فالذين أنعم الله عليهم حواسّهم الظاهرة وحواسهم الباطنة كلها محكومة بالتقوىٰ، ولذلك لا يختلف الأمر عندهم لا في السِّر ولا في العَلَن، فسرهم وعلانيتهم سواء، أما الضالون فيختلف سرهم عن علانيتهم، ففي العلانية يعلنون الإيمان وحب الدين وحب الله وحب رسوله ﷺ والإيمان بالقِيم ولكنهم في حقيقة باطنهم ليسوا بمؤمنين، وهؤلاء قد بين الله تعالىٰ صفاتهم في آيات عديدة منها قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١]. كاذبون لأن باطنهم يُكذّب ظاهرهم قبل أن نكتشف نحن أكاذيبهم. ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨] إذن، لماذا يعلنون هذا الإيمان، ويَنْسِبون أنفسهم إلىٰ أمة المؤمنين ؟ ذلك لأنّهم يريدون الخداع ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة: ٩]. هم يستطيعون أن يخدعوا الذين آمنوا لأنهم بشر مثلهم، ولكن كيف خطر لعقولهم الضَّالة التافهة أنهم يستطيعون أن يخدعوا الله الذي ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، و﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩] كيف تصوروا هذا التصوُّر الخاطئ؟ تصوروه لأن في قلوبهم مرضاً وانحرافاً؛ والانحراف حينما يستولي علىٰ قلب إنسان -نعوذ بالله- فإنه يُفْقِده القدرة علىٰ التمييز

فلا يميز بين الله وبين خلقه، بل بالعكس إنّهم يخشون الناس أكثر مما يخشون الله -تبارك وتعالىٰ-، قال تعالىٰ: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر: ١٣] والمعنىٰ: لَخوفُ المنافقين وخشيتهم إياكم -أيها المؤمنون- أعظم وأشد في صدورهم من خوفهم وخشيتهم من الله؛ وذلك بسبب أنهم قوم لا يفقهون عظمة الله والإيمان به، ولا يرهبون عقابه.(١) فيخشون ما يقول الناس مما قد يُؤَثِّر علىٰ سُمْعتهم بينهم أكثر مما يخشون الله -تبارك وتعالىٰ- في الدار الآخرة، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] هو الغِلّ والحَسَد والغَمّ وكل ذلك من أمراض القلوب، فالله تبارك وتعالىٰ حين نصر رسوله وأعلىٰ كلمته وانتشر دينه - رغماً عن محاولاتهم كلها - أمرض بذلك النصر قلوبهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]. ولأنهم هم الذين اختاروا ذلك، زادهم الله تعالىٰ، لأن من سُنّة الله تعالىٰ(٢) أن يُعطي للإنسان القدرة علىٰ تحقيق ما يختاره، فمن اختار الإيمان زاده إيماناً وأعانه علىٰ سلوك سُبُله، قال -جل شأنه-: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧] وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٢٣]. ومن اختار الضلال مَدّ له فيه قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ﴾ [مريم: ٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥].

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠] في الدنيا قبل الآخرة؛ فهذا المنافق مُعَذَّب ومُذَبذَب وحائر في الدنيا دائماً، يخشىٰ أن ينكشف أمره لأنه يأتي الناس بأوجه مختلفة، فيأتي إلىٰ هؤلاء الناس بوجه ويأتي إلىٰ أناس آخرين بوجه آخر، فهو معذَّب بقَلَقِ النفس، وقلق الضمير، لا يعرف معنىٰ الاستقرار، وينتظره في الآخرة العذاب الأليم لما كان يكذب في الحياة الدنيا.

---

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، المدينة المنورة، ١٤٣٠ هـ، ص٤٥٧.

(٢) المنبثقة عن الأمانة التي ائتمن الله تبارك وتعالىٰ الإنسان عليها وهي أمانة حرية الاختيار التي وردت في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة : ١١] هنا شيء مهم وخطر للغاية ألا وهو تغيير المفاهيم؛ أي أن نعمد إلىٰ مفاهيم وكلمات وأسماء مُعَيَّنة وُضِعت لمعانٍ شريفة نبيلة، نُفرغها من تلك المعاني ونملؤها بمعانٍ أخرىٰ، وقد صار ذلك في عصرنا صناعة، فالمتمسك بدينه- مثلاً - يُقال عنه: (رجعيّ) والتارك لدينه، المفارق للجماعة، المخرِّب للمجتمع، يمكن أن يقال عنه: (تقدمي) أو (ثوريّ) وهكذا. ومن هنا كانت عناية الرسول الله ﷺ بتصحيح المفاهيم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: "أَتَدْرُونَ ما الْمُفلِسُ؟ قالوا: الْمُفلِسُ فِينَا من لَا دِرْهَمَ له ولا مَتَاعَ، فقال: إِنَّ الْمُفلِسُ من أُمَّتِي يَأْتِي يوم الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قد شَتَمَ هذا، وَقَذَفَ هذا، وَأَكَلَ مَالَ هذا، وَسَفَكَ دَمَ هذا، وَضَرَبَ هذا، فَيُعْطَىٰ هذا من حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا من حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أَنْ يُقْضَىٰ ما عليه، أُخِذَ من خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عليه ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ."(١) وقال: "لاَ تَغْلِبَنَّكُمْ الأَعْرَابُ علىٰ اسْمِ صَلاَتِكُمْ الْمَغْرِبِ، قال: وَتَقُولُ الأعراب هِيَ الْعِشَاءُ، "(٢) أراد بذلك ألا تغلب مصطلحاتهم مصطلحات القرآن.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة : ١١-١٣].

فحينما يقومون بشنِّ الحروب الظالمة -التي لا رائحة لأي عدلٍ فيها- ويُدَمِّرون، يقولون نريد أن نصحح أحوال هؤلاء، لأنهم رجعيون يعيشون خارج العصر نريد أن ندخلهم العصر ولو بإدخالهم القبور، ولو بعد قتلهم وإبادتهم، ولو بدفن النفايات -التي تقتل الحياة والأحياء: الإنسان، الحيوان، النبات، وسوىٰ ذلك- في أراضيهم، وكل ذلك يسمونه تحديثاً أو إدخالاً لهذه الشعوب فيما يُسمَّىٰ بالحداثة. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة : ١٣]

---

(١) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٨١)، ص١٠٤٠.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: من كره أن يقال للمغرب العشاء، حديث رقم (٥٦٣)، ص١٢٦.

هؤلاء الذين يجمعون بين الكُفر -الكامن في ضمائرهم وقلوبهم-، والنفاق -الذي يحاولون أن يغطوا به على ما يُفسدون- هؤلاء يُحرِّفون المفاهيم ويعطون للناس صفاتٍ يختارونها بمقتضى تحريف هذه المفاهيم وتغييرها، فهناك حرَّفوا مفهوم الصلاح، ومفهوم الفساد، وعكسوا الأمر، وهنا إذا قيل لهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [البقرة: ١٣] الآن يغيرون من المفهوم تجريدياً بتحويله إلى صفة مُلازمة لمن يعارضونهم ويخالفونهم وتصبح سُبّة عليهم وكأنهم يعرفون بذلك ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [البقرة: ١٣] أتريد مِنِّي أن أكون سفيهاً، أتريد مِني أن أكون رجعيّاً..؟ يحولونه إلى صفة للأشخاص المخالفين لهم، وهذا كله قائم في عصرنا هذا وتمارسه أجهزة إعلام وثقافة وتعليم عملاقة شملت العالم كله، حوَّلت الخطأ إلى صواب والصواب إلى خطأ والحق إلى باطل والباطل إلى حق. ومع ذلك فهم ضعفاء، لا تظن أن ما يفعلونه من تغيير في المفاهيم وتغيير في أوصاف الناس دليل قوة. لا إنه دليل ضعف ولذلك ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ١٤] أي على ضعفهم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤] نحن معكم فأنتم خيِّرون طيِّبون ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤] من الإنس أو الجن، قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] في مقاومة الخير والحق والإيمان، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[البقرة: ١٤] بأولئك، نخدعهم ونريهم ما يُرضيهم فقط، ولكن حقيقتنا وسيوفنا وقُوانا معكم ولكم.

هؤلاء يصدر حكم الله تعالى فيهم، إنهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٦] راحوا فأخذوا ضلالة وأعطوا ثمنها الهدى، أخذوا انحرافاً وأعطوا بدله استقامة، أخذوا كفراً وأعطوا بدله إيماناً، فهل يربح تاجر كهذا؟ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [البقرة: ١٧] أشعل ناراً بسيطة ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٧] ناراً من قش تشتعل، وقبل أن يقوم لكي يستفيد منها أية فائدة تكون قد انطفأت وذهبت إلى العدم ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧] ما حولهم متحيرين عن الطريق خائفين، (١) ولنا أن نتساءل: لِمَ آل أمر أولئك المنافقين إلى ذلك المصير؟

---

(١) المحلي، جلال الدين محمد بن أحمد (توفي: ٨٦٤هـ). والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (توفي: ٩١١هـ). **تفسير الجلالين**، بيروت: دار المعرفة، (د. ت.)، ص٥.

والجواب -والله أعلم-: لأنّهم صمّوا أذانهم عن استماع نداء الله ﴿ صُمٌّۢ ﴾ [البقرة: ١٨]: أي في آذانهم وقر أغلق آذانهم فلم تَعُد تسمع شيئاً من الحق. ﴿بُكۡمٌ﴾ [البقرة: ١٨] خُرس لا يستطيعون قول الحق. ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] لأنهم عطَّلوا قُوىٰ الوعي فيهم.

ويستمر القرآن الكريم في كشفهم فيضرب لهم مثلاً آخر ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ ﴾ [البقرة: ١٩] مطرٌ نازلٌ من السماء، ليس غيثاً يغيث الناس ويسقي زروعهم ومواشيهم ويسقيهم، ولكنه صيِّب من السماء مليء بكل مُخيف، فيه ظلمات ورعد وبرق فيجعلون أصابعهم في أذانهم من هذه الصواعق خشية الموت، ولكن هل يستطيع الإصبع حينما يُوضع في أذن الإنسان أن يحميه من موتٍ محقَّقٍ ينزل به من السماء لو شاء الله أن يميته؟ لا. ولكن تلك هي السفاهة العقليَّة التي يحملها أولئك الضالون وهم يُعْلون علاقتهم بشياطينهم علىٰ علاقتهم بالله -تبارك وتعالىٰ- وعلاقتهم بالمؤمنين، فهم كمن يضع إصبعه في أذنه خوفاً من الصاعقة التي لو نزلت ستقتله، ولن يستطيع إصبعه الذي وُضِع في أذنه أن يحميه من ذلك الموت المحقق ﴿ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢٠] وظنوا أن هذا ضياء سوف يستمر، وسيستطيعون أن يبلغوا غايتهم، لكنه بَرق مجرد لمعات عابرة ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٠] وردّهم كالحيوانات. إن هؤلاء اختاروا الضلالة علىٰ الهُدىٰ، والظلمات علىٰ النور، والجهالة علىٰ العلم، والعَمىٰ علىٰ البصيرة والبصر، فصاروا أقرب إلىٰ الدواب ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢- ٢٣]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠] ولكن الله تركهم بِناءً علىٰ ذلك الوعد الإلهي بأن يُعطي للإنسان حرية الاختيار ويجعله في هذه الحياة مختاراً حراً يستطيع أن يختار الهُدىٰ ويستطيع أن يختار الضلال، ولن يمنعه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ولن يجبره علىٰ شيء من ذلك، لأنَّ الله ائتمنه علىٰ حريته، وهي الأمانة التي عُرضت علىٰ السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، ولذا قرر سبحانه أنه ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة، ٢٥٦].

النَّجم الثاني: في خطاب القرآن العالمي وتحدِّيه للخلق

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ
أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ
شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا
ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ
وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا
بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا
ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا
فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ
جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٩]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ﴾ [البقرة: ٢١]

عودة إلىٰ تفصيل سورة الفاتحة وبيان ما أُحكم فيها من إفراد الله بالعبادة، ففي الفاتحة جاء قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة : ٥] وهذه الآية تُفصِّل مفهوم العبادة بشمولها وعمومها وتبيِّن كيف يقوم الناس لرب العالمين ليبلغوا بعبادتهم مرتبة التقوىٰ التي بدأت السورة ببيان خصال أهلها، فإذا أردتم أن تكونوا من الذين أنعم الله عليهم اعبدوا ربكم الذي خلقكم، لا يعبد بعضكم بعضاً، لا يعبد بعضكم سادته وكبراءه، اعبدوا ربكم لأنَّه الذي خلقكم فسوَّاكم فعدلَكم فأنشأ صُوركم، اعبدوا ربكم الذي خلقكم وخلق الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أي أن تكونوا في عداد أمة المتقين، الذين أنعم الله عليهم، أمة المهتدين لا أمة الضالين، أمة الذين امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ، أمة الذين يُصْلِحون في الأرض ولا يُفْسدون.

التعامُل مع المجاعات

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢]. إن قراءة كتاب الله المنظور وهو الكون يعمق الإيمان في قلوب الباحثين عن الحق، فلتتأمل البشرية هذه الأرض التي جعلها الله بساطاً لتَسْهُلَ حياتهم عليها، ووهذه السماء مُحكمة البناء، وكيف ينزل المطر من السحاب فيخرج به من ألوان الثمرات وأنواع النبات رزقاً لهم، فلا يجعلوا لله نظراء في العبادة، وهم يعلمون تفرُّده بالخلق والإرزاق، واستحقاقِه العبودية.(١) وهنا ينبّه الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أنّ الكون كله بيت للإنسانية كلّها بوصفها أسرة واحدة، خلقها سبحانه من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء، وخلق الأرض وجعلها فراشاً، والسماء بناءً لتكون بيتاً لهذا الإنسان يُكِنّه كلّه، وجاء الإنسان واخترع ما اخترع، اخترع ما سمّاه بالدولة القوميَّة، والدولة الإقليميَّة أو القطريَّة، وحاول أن يُقَسِّم هذا البيت -بيت العائلة الكبير- الذي هو الأرض فما الذي حدث؟ أصبح الناس أغنياء، وفقراء، ومعدمين، ومتقدمين، ومتخلفين، ودبَّ الحسد بينهم، وظهر البغي فيهم فأصبحوا أعداءً لبعضهم بعد أن كانوا أسرة واحدة.

يتحدث الناس اليوم عن أزمات لا حصْر لها ومنها المجاعات والعطش الذي يهدد البشرية، وسبب ذلك كله أنَّ هناك قِسمةً غير عادلةٍ قد جرت للبيت الإنساني، لبيت الأسرة الموحَّدة الذي هو الأرض كلها، هذا الذي حدث من تقسيماتٍ لهذه الأرض جعل الناس يتخوفون اليوم علىٰ معاشهم وغذائهم ومياههم وما سوىٰ ذلك، والله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قد أعلن أنَّه قد ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت: ١٠]. وأنَّه ما من مولود يُولد إلا وله في الأرض ما يكفيه من رزق ومياه وهواء وكل شيء يمكن أن يساعده علىٰ الحياة الحرة الكريمة.

تَصَوَّر لو أن القرآن المجيد هو الذي يحكم هذه الأرض اليوم، وأنَّ البشرية كلها تهتدي بهديه، ورُفعت بينها الحدود، والحواجز، وأصبحت مواردها كلها مفتوحة لتلك الأسرة الممتدة، وساد تلك الأسرة روحُ الإخاء، والانتماء إلىٰ تلك الأسرة

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٤.

البشرية الواحدة، كيف يكون حال الناس؟ هل يمكن أن تكون هناك مجاعات؟ إنَّه ما من شمس تطلع في يوم من أيامنا هذه إلا وعلىٰ الأرض حوالي ألف أو يزيدون يموتون من الجوع، وأمثالهم يموتون من التُّخمة والأمراض التي تسببها، إنه انعدام العدل بين أفراد الأسرة الإنسانية الواحدة، ولو أنَّهم اتبعوا القرآن الكريم لأكلوا من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم، ولكفت الأرض ساكنيها طعاماً وشراباً ومياهاً، ذلك أن الله قد قدَّر فيها أقواتها وجعلها كفاتاً. ولو أنَّهم اتبعوا القرآن الكريم لخلت من هذا التلوث الذي هو أبرز مظاهر الفساد في البر والبحر والجو، ولما كان فيها فقير مُعْدَم وغني مُتْخَم، ولما كان فيها كل هذا السوء، ولكنّه هَجْرُ القرآن، لذا نقول: إنَّ البشرية قد خسرت نفسها يوم هجرت هذا الكتاب ويوم لم تسمع له؟!

﴿تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢] والأنداد ليس بالضرورة أن يكونوا أصناماً أو معبودين آخرين، ولكن الإنسان حين يُعَظِّم المال والثروة والجاه والهوىٰ وأي شيءٍ يُعليه علىٰ كلمة الله فكأنه قد اتخذه لله ندّاً، وجعل منه لله شريكاً، ولذلك يقول -جلَّ شأنه-: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ [الفرقان: ٤٣]. فالإنسان قد يجعل من هواه وشهوته ورغباته ما يكون بمثابة إلهٍ يتوجه إليه صباح مساء، وفي الحديث: (تَعِسَ عبد الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَم وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إن أُعْطِيَ رضي وَإِنْ لم يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وإذا شِيكَ فلا انْتَقَشَ)(١) وصدق الله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

تحدِّي القرآن لمنكري كونه من عند الله

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة: ٢٣] إن كنتم أَيُّها الخَلْقُ في شك من كون هذا الكتاب كلامنا ورسالتَنا فاختبروا ذلك بمنتهىٰ اليُسر، وذلك بأن تأتوا بسورة من مثل سُوره في إحكامه وتفصيله ونَظْمه وأسلوبه وسائر خصائصه، فاختاروا أية سورة من سوره طالت أم قصرت وأتوا بمثلها في كل ما تقدَّم من خصائص، وهذا التحدي غير قاصر

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث رقم (٢٨٨٥)، ص٥٥٥.

عليكم وحدكم بل إنّ لكم أن تدعوا من تشاؤون ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ [البقرة: ٢٣] فاحتكموا إلىٰ من تشاؤون من بُلغائكم وفُصحائكم وقادة الرأي فيكم واسألوهم، فإن وجدتم أنكم قد نجحتم في ذلك وأقرُّوا لكم بالقدرة علىٰ المماثلة بين ما قلنا وتقولون، آنذاك فقط يمكن لكم أن تَدَّعوا بشريّة مصدر هذا القرآن، أما إذا فشلتم وعجزتم عن ذلك فلا بدّ لكم أن تتقبَّلوا ما أَخبركم به رسولُنا من أن هذا الكلام كلامنا، وأن هذا الكتاب كتابنا، أنزلناه علىٰ قلبه فتؤمنوا به وتتبعوه وتهتدوا به إلىٰ طريق الهُدىٰ وسبيل الفلاح.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤] لما أرشدهم إلىٰ الجهة التي منها يتعرفون صدق النبي ﷺ، قال لهم: فإذا لم تعارضوه وبان عجزكم ووجب تصديقه فآمنوا وخافوا العذاب المعَدَّ لمن كذَّب وعاند، وفيه دليل علىٰ إثبات النبوة صحة كون المتحدَىٰ به مُعجِزاً والإخبار بأنهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلا الله.[١]

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥] وأَخْبِر -أيّها الرسول- أهل الإيمان والعمل الصالح خبراً يملؤهم سروراً، بأن لهم في الآخرة حدائق عجيبة، تجري الأنهار تحت قصورها العالية وأشجارها الظليلة. كلَّما رزقهم الله فيها نوعاً من الفاكهة قالوا: قد رَزَقَنا الله هذا النوع من قبل، فإذا ذاقوه وجدوه شيئاً جديداً في طعمه ولذّته، وإنْ تشابه مع سابقه في اللون والمنظر والاسم، ولهم -أيضاً- في الجنَّات زوجات مطهَّرات من كل ألوان الدنس الحسيِّ كالبول والحيض، والمعنوي كالكذب وسوء الخُلُق، وهم في الجنة ونعيمها دائمون، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها.[٢]

---

(١) النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (توفي: ٧١٠هـ). **تفسير النسفي مدارك التأويل وحقائق التأويل**، تحقيق: يوسف بديوي ومحيي الدين مستو، بيروت: دار ابن كثير، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص٦٦.

(٢) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٥.

الأمثال في القرآن

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٦]

إن الأمثال وعاء حكمة الأمم، وخزائن تجاربها، وهي وسيلة من أهم وسائل حفظ تلك التجارب والحِكم وتناقُلها بين الأجيال، وهي قبل ذلك وبعده من أدق أساليب التعبير وأوجزها وأبلغها تأثيراً في النفوس، وحين تقصر أساليب التعبير الأخرىٰ عن استيعاب مراد المتكلم، أو يضيق إدراك المخاطب عن فهم المراد منه، فإن ضرب المثل يجعل ذلك كلّه سهلاً مُيَسراً مع إيجاز اللفظ وإصابة المعنىٰ، وحسن التشبيه.

إن أمثال القرآن العظيم مظهر من أهم مظاهر بلاغته وإعجازه، ودقة تصويره الفني وسِحر أسلوبه، فهي قد سحرت العرب -مؤمنهم وكافرهم- وبانت حلاوتها، وظهرت طلاوتها لعامتهم وخاصتهم، وبان تأثيرها فيهم أجمعين.(١)

والأمثال القرآنية تُمثِّل عِلماً من علوم القرآن المهمة، وبحثاً لم يُغفله أحد من المفسرين، أو البلاغيين، أو الكاتبين في علوم القرآن، ولكنهم قلّ أن يتناولوها بشكلٍ شموليٍّ يُبرز صُور الإعجاز الجمالي الفني فيها، مع إصابة المعنىٰ الموضوعي بأتم شكل وأكمل وجه.

وآيات الأمثال تصوِّر النفوس والقلوب والأشخاص والأعمال والأقوال والمشاهد والأمم والحضارات، وتضرب منها ولها الأمثال، فلا تغادر جانباً منها إلا أعطته من التوضيح والتشخيص ما يجعله وسيلة من أهم الوسائل التربويَّة، ففيها إخراج مالا يقع عليه الحسّ إلىٰ مستوىٰ المحسوس، وإخراج مالا يُعْلم ببديهة العقل إلىٰ ما يُعلم بالبديهة، وإخراج ما لم تجرِ العادة به إلىٰ الأمر المعتاد، وإخراج مالا تأثير له من الصفات إلىٰ ما له كامل التأثير، كما أنها من أفضل وسائل البيان والتعليم والإيضاح.

---

(١) يقول ابن القيم: "وقع في القرآن أمثال، وإن أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون، وإنما تشبيه شيء بشيء في حُكمه وفي تقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر." انظر:
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر (توفي: ٧٥١هـ)، **الأمثال في القرآن الكريم**، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب، بيروت: دار المعرفة، ١٩٨١م، ص١٧٣-١٧٤.

وإذا كان القرآن العظيم قد ضرب للناس من كل مثل ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]، فعلينا أن ندرك أن هذه الأمثال يمكن أن تزوِّدنا بمنهاج تربويٍّ كامل، لا يغادر جانباً من جوانب العملية التربوية إلا تناوله وفصّله، وأوضح نماذجه بأفضل ما يكون الإيضاح، وهذا الجانب وحده يحتاج إلىٰ دراسة أو أكثر توضح جوانبه المختلفة وتساعد التربويين علىٰ بناء ما يريدون من أفكار ونماذج في مختلف أركان العمليَّة التربويَّة.

وجانب آخر من جوانب أمثال القرآن كنتُ أتطلَّع إلىٰ أن أجد فيه دراسة جادَّة، ولم أطَّلع علىٰ ما يشفي الغليل فيه إلىٰ الآن هو الأمثال القرآنية بوصفها مصدراً من أهم مصادر الأحكام، وهذا يمكن أن يتَّضح في جانبين:

الجانب الأول: أنّ أمثال القرآن يَصْحَبها -دائماً- تحسين أو تقبيح، بحيث تُجسِّد النموذج وتُشخّصه فننظر إليه وكأنه ماثلٌ أمامنا شخصاً وعملاً وسُلوكاً وأخلاقاً وتصرّفات، فما حسَّنته فهو حسن، وهذا الحُسن يمكن أن يعتبره الأصولي قدراً مشتركاً بين الوجوب والندب والإباحة، واجتهاده فيه سوف يقوده إلىٰ تحديد الحُكم المناسب، -إن لم يكن هناك دليل سُوىٰ الآية المثل-، وما قبَّحته الأمثال فهو قبيح، والقُبْح دائر هنا بين التحريم والكَراهة، والمجتهد يبذل جهده لتحديد الأنسب منها، -إن لم يكن له دليل غير ذلك المثل الآية-، دون حاجة إلىٰ النظر في صِيغ الأوامر والنواهي الصريحة، ولذلك عدَّ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ معرفتها من شروط الاجتهاد، ومما يجب علىٰ المجتهد معرفته علىٰ ما نقل الزركشي في البرهان عن البيهقي.(١)

وأما الجانب الثاني: فيتضح حين ندرك أن أمثال القرآن، هي التي رسخت في أذهان بعض الأئمة من قُرَّاء الصحابة وفقهائهم ومَن جاء بعدهم فكرة القياس الأصولي، ووضعه دليلاً من أدلة الأحكام الشرعيّة، أو وسيلة منهجية من وسائل

---

(١) الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (توفي: ٧٩٤هـ)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٩٥٧م، ج١، ص٤٨٦.

المجتهدين، هذا الدليل الذي نجمت عن الأخذ به ثروة فقهيَّة وفكريَّة، وعلاقة القياس الأصولي بأمثال القرآن العظيم موضوع آخر يستحق دراسة أو دراسات عديدة ليتضح ويظهر أثر أمثال القرآن العظيم الفكري والفقهي.

وحين نعلم أن اكتشاف القياس الأصولي كان الدّعامة العلميّة الأولىٰ التي قام عليها بناء المنهج العلمي التجريبي بعد ذلك، فإن الأهمية الكبرىٰ التي تحتلّها أمثال القرآن العظيم تبدو -آنذاك- بجلاء شديد. لكن المؤسف أن نجد إسرافاً بلغ حدَّ التبديد والتبذير في جانب البحث اللغوي والبلاغي والبياني والنحوي في الأمثال القرآنيَّة، وقِلَّة وشُحّاً في الجوانب الأخرىٰ التي أشرنا إليها، ولعل في هذه الإشارات ما يُنبِّه لإعطاء هذه الجوانب الأخرىٰ ما تستحقه، وعلماء الاجتماعيات والإنسانيات هم المطالبون بتجلية هذه الجوانب، وتوضيح وخدمة كتاب الله تعالىٰ وأغراضه في هذا المجال.

ولقد أدرك أعداء القرآن ما لأمثال القرآن من تأثير في النفوس والقلوب ومن قدرات إقناعية تصعب مقاومتها فحاولوا التهوين من شأنها وسخروا من بعضها، فكانوا يقولون ألم يجد مثلاً يضربه للناس غير الذباب والعناكب وما إليها من هذه الحشرات التافهة؟! فيجيب القرآن بهذا الأسلوب الذي يوضِّح تفاهة عقولهم وضعف نفوسهم وسقم طباعهم وبلادة وجدانهم، فيقول -جل شأنه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] ويعود السياق ليعطي بعض التفاصيل عن نوعين من أصناف الناس ممن ورد ذكرهم في مقدمة السورة وفي آخر سورة الفاتحة فيقول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦] أي ما الذي جاء به هذا القرآن الذي يضرب لنا الأمثلة بأتفه الحشرات من الذباب والنمل والنحل والعنكبوت وما شاكَلَ ذلك؟ يجيب الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧] هذا العهد هو المشار إليه في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ

بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧] يقطعون علاقتهم بالله وقد أمرهم أن يَصِلُوا علاقتهم به، يقطعون علاقتهم بالكتاب الكريم، يقطعون علاقتهم برسول الله ﷺ فلا يقتدون ولا يتأسّون به، يقطعون علاقتهم بكل خير، يقطعون علاقتهم بالرَّحم، يقطعون صلاتهم بمجتمعاتهم، يقطعون صلاتهم بأمتهم، يقطعون صلاتهم بكل ما أمر الله به ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٧] وهم قد خُلقوا من أجل أن يُصلحوا فيها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧] خاسرون في الدنيا وخاسرون في الآخرة، وقد تقدَّم بيان خسرانهم في الدنيا، وبيان خسرانهم في الآخرة حينما يُلْقون في النار التي أُعدّت للنّاس والحجارة.

ثم يطرح القرآن المجيد قضيته الكبرىٰ في مقاومة الكفر والدعوة إلىٰ الإيمان والتوحيد ليقول لهؤلاء في استفهام مليء بالتعجب والاستغراب والاستنكار: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨] وما الذي يحملكم علىٰ ذلك أو يسوغه لكم ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: ٢٨] فمثلكم لا يتوقع منه إذا عرف أصله ونشأته ومبدأ حياته أن يكفر بالله جل شأنه، أو يشرك به ما ليس له به علم، أو يفتري له أنداداً وقد فطر علىٰ التوحيد، وخلق من أجله، واستخلف لإعلاء شأنه، والدخول فيه والاستظلال بظلاله الوارفة.

﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ [البقرة: ٢٨] كنتم عدماً ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: ٢٨] كيف يمكن لإنسان قويم العقل أن يكفر بالله الذي خلقه من لا شيء ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان: ١] ووسعه برحمته وعلمه ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: ٢٨] فكيف تكفرون به و ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩].

هنا ينبغي أن نُنبه أن علماءنا يقولون: بأنّ هذه الآية دليل علىٰ إباحة كل ما خلق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأنّ أي تحريم جاء بعد ذلك لأيّ شيء من الأشياء هو استثناء، هذا أمر مهم، فكل شيء مُباح لهذا الإنسان في هذا الكون الذي سخَّره الله –تبارك وتعالىٰ–

له، وحينما يأتي التحريم يكون استثناءً، ولمصلحته أيضاً؛ فالتحريم ليس محاولة من الدين لحرمانه من شيء جيِّد، ولكنه استثناء لحماية صحته وحماية عقله، فحينما يُحرّم عليه الخمر أو أكل الميتة أو لحم الخنزير أو الدم أو ما سوىٰ ذلك، إنما يحرم عليه أموراً ضارة به، فإذن عملية التحريم هي الاستثناء.

وهذا يجرُّني ربما إلىٰ تذكير بعض الدُّعاة الذين إذا سُئلوا عن شيء سارعوا إلىٰ القول بالتحريم أو بالتحليل. والتحريم والتحليل هو حُكم الله لا حُكم الناس، ولا حُكم العالم ولا القاضي ولا المفتي، إنّما هو حُكم الله -تبارك وتعالىٰ- فهو من له هذه الصلاحيَّة ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ١١٦﴾ [النحل: ١١٦]، فعلينا أن نتعلم ما حرّم الله -تبارك وتعالىٰ- علينا، وقد فصّل الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لنا ما حرم علينا، لنقف عند حدودها ولا نتعداها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] ثم قصد إلىٰ خلق السموات، فسوَّاهنَّ سبع سموات، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩﴾ [البقرة: ٢٩] عليمٌ بما يُصْلِح الإنسان، عليم بما يُصلح النبات والحيوان والأرض والسماء، عليم بما هو خير لهذا الإنسان، وعليم بما هو ضار له، فلو تمسكنا بهذه الآيات وعرفنا أهميتها في هذا المجال لأدركنا العلاقة الوثيقة بين ما نُسميه اليوم بالتنمية وبين الإيمان ووفرة الأرزاق، وأنَّ الإيمان من أهم العناصر التي تسمح لنا بأن نستفيد من الأرض ومما فيها، بل إن الله تبارك وتعالىٰ قد عدّ إعمار الأرض فريضة شرعيَّة ومَقْصداً من مقاصد الشَّارع الحكيم، فقال جلَّ شأنه علىٰ لسان نبيه صالح: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. فإحياء مواتها واستخرج ثرواتها وتوظيفها في خدمة الإنسان كلها أمور أمر الشارع الحكيم بالقيام بها، ونهىٰ عن التفريط فيها، ولم يعدّها استهلاكاً لطاقات الأرض بل إحياءً لها ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ٥﴾ [الحج: ٥].

النَّجم الثالث: قصةُ الخَلْق

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٩]

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: ٣٠] أي خلفاء يخلف بعضهم بعضاً في عمارة الأرض، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]. أَخْبَرَ اللهُ -تبارك وتعالىٰ- الملائكةَ بأنّه سوف يجعل في الأرض خليفة، ويبدو -واللهُ أَعلمُ- أنَّه كان هناك خَلْقٌ قبل آدم وبَنِيه يَعرف الملائكة عنهم أنّهم أسرفوا في سَفْك الدماء فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] يَعني كالخَلْق الذين سَبقوا ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ [البقرة: ٣٠] كأنّهم كانوا يُرشِّحون أنفسهم ويتطلّعون إلىٰ أن يكونوا هم الخُلفاء في الأرض، فهم يُسَبِّحون بحمد الله -تبارك وتعالىٰ- ويُقدّسون له، ويُسبّحون الليل والنهار لا يَفْتَرون، ولا يقع من الملائكة -بحُكم فِطرتها- إلا البرُّ والتقوىٰ والخيرُ، فالملائكة لا تستطيع أن تعصيَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بطبيعتها، فقد خُلقت من نور، وخُلق الشياطينُ والجنُّ من نار، وخُلق الإنسانُ وفيه الطبيعتان، فيه الاستعداد للخير وفيه الاستعداد للشر، وعَلِم الله -جلَّ شأنه- أنَّ هذه الأرض تحتاج إلىٰ أن يكون الخليفة فيها منها ومن جِنسها، وفيه الاستعداد للخير وفيه الاستعداد للشر.

وحينما ذَكَر الملائكةُ ما ذكروا اقتضت حكمة الله -تبارك وتعالىٰ- أن يُعَلِّم آدم الأسماء، ونحن لا نعرف ما هي هذه الأسماء، ولا يفيدنا كثيراً أن نعرفها بذاتها، وحينما نُفسِّر القرآن بالقرآن نرىٰ أننا لسنا بحاجة إلىٰ ما ذكره المفسرون عنها بغير دليل، وإنما نرىٰ في قضية هذه الأسماء أنَّ من نِعَم الله تعالىٰ -كما ذكرنا في بداية السورة- أن علَّم الإنسان كيف يُقَطِّع صوته إلىٰ أحرفٍ فكلماتٍ فجُملٍ، ومن ثَمَّ يمكنه أن يُبِين عمّا في نفسه. ومن هنا يمكن أن تكون الأسماء التي عُلِّمها آدم كلها؛ هي أسماء الأشياء التي سيصادفها في الأرض، وقد تكون أسماء الأُسرة، لأن آدم أول شيء جرىٰ علىٰ يديه هو تكوين الأسرة، وهناك جدل طويل هذه الأيام بين بعض أهل العلم والبعض الآخر، فمنهم من يقول خُلق آدم وخلقت حواء من ضلعه ولذلك قادته إلىٰ المعصية، وقد يكون هذا البعض تأثَّر بشيءٍ ممّا ورد في التوراة والأخبار القديمة، والقرآن يُنزهنا عن هذا ويُبعدنا عنه، يقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]. ويقول -جلَّ وعلا-: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٦]. دون تحديد ذكورة أو أنوثة هذه النفس، والزوج يُطلَق علىٰ الذَّكر والأُنثىٰ، والبشرية ليست بحاجة إلىٰ أن تعرف أكثر من هذا عن أصلها ونشأتها ففيه الكفاية والغَناء.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] علّمه بعضها بشكلٍ مُباشر، وأودع فيه استعداداً يتعلَّم به ما بقي منها، مما لا يقع ضمن ما استأثر الله بعلمه، ولذلك عاب الله علىٰ المشركين عندما خاضوا فيما لا يقع في مقدورهم علمه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ [النَّجم: ٢٧]. ولعلَّ في هذا تحذيراً لنا من الوقوع في خَطر فوضىٰ الأسماء الموجودة في عصرنا الحالي.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] أسماء الأُسرة يَعني هذا أبٌ هذا أخٌ هذه أُمّ هذا ابن، لأنَّ الخِلافة أو الاستخلاف تقتضي جنساً ونوعاً إنسانييْن، وأساس النوع الإنساني هو الأُسرة، فيتعلم الإنسان بالأُسرة وبأسماء الأسرة كيف يختلف عن

الحيوان الذي قد يَلِد ولده ثمّ تنتهي العلاقة بينهما، وقد يتصلان فيما بعد دون علم أيٍّ منهما بالعلاقة التي كانت بينهما من قبل، سواءٌ علاقة بنوّة أو أبوّة أو سواهما. أما الإنسان فهو أكرم على الله وأشرف من هذا، فتعليمه هذه الأسماء يعني تعليمه كيف يَبني هذا المجتمع الذي سيُستخلف فيه، ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٣١] في زعمكم أنِّي أستخلف في الأرض مفسدين سفَّاكين للدماء. وفيه ردٌّ عليهم وبيان أن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله أن يُستخلفوا ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ [البقرة: ٣١] تنزيهاً لك أن يَخفى عليك شيء أو الاعتراض عليك في تدبيرك. ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة: ٣١] (ما) بمعنى الذي والعِلم بمعنى المعلوم أي لا معلوم لنا إلا الذي علمتنا وليس فيه علم الأسماء ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ٣٢] غير الـمُعْلَم ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢] فيما قضيتَ وقدرتَ ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣٣] وسمَّى كل شيء باسمه وألحق كل شيء بجنسه، [1] ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣٣] فتمت قضية الاختيار للاستخلاف باختيار المستخلَف، فالأمر إذن ليس -كما تبادر إلى فهم الملائكة- أمر انكباب على العبادة وليس أمر تسبيح وتقديس، بل أمر استخلاف.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾ [البقرة: ٣٤] أي اخضعوا له باعتباره المختار لخلافة الله جل شأنه، فهو سجود الخضوع والطاعة لا سجود العبادة. وأمر الله بالسجود له، إما أن يكون بِناءً على ذلك الاعتراض الذي أبدوه أو الملاحظة التي أبدوها حينما قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠] أو لأنّه يحمل تلك النفخة الروحية الإلهية المباشرة من ذات الله، هذا كلّه وارد وكل ما يأمر به الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فله حِكمته وله مُراده فيه.

---

(١) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري الشافعي (توفي: ٤٦٨هـ). **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صبرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدّمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م، ج١، ص١١٦.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] قد تكون الحِكمة أن يُخْرِجَ إبليس من بين الملائكة لإبائه السجود واستكباره عنه ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: ٣٤] فقد تكون عملية أَمْرِهم بالسجود أيضاً اختباراً ليَميز الخبيث من الطيب، والله أعلم. ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] شجرة واحدة لا تقرباها، ولذلك نقول هي جنَّة قد لا تكون الجنَّة التي وُعد المتقون، لأنَّ الجنَّة التي وُعد المتقون ليس فيها شيءٌ يمكن أن يُمْنَعُ منه، بل يُبيح الله بفضله ونِعمته لهم ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم إلىٰ غير ذلك ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦] هنا بدأت مرحلة الإعداد والفحص والكشف عن قُدرات آدم للقيام بمهام الاستخلاف ومواجهة الشيطان، وعدم الخضوع له بأيِّ شكل من الأشكال، فهذا الخليفة الذي سينزل إلىٰ الأرض أُعْطِي نَوعاً من المصل مثل التطعيم، حيث أُخْضِعَ لاختبار لكي يُحفز عنده قُوىٰ المناعة، فاختُبِر وأُمر بألا يقرب الشجرة، ولكن الشيطان استطاع أن يزلهما، وهنا يبلغ القرآن غاية العظمة فلا يُلقي اللوم علىٰ حواء ولا يلقيه علىٰ آدم، بينما نجد أن التوراة المحرَّفة قد أَلْقَت الأمر علىٰ حواء وجعلتها المسؤولة، وأساطير كثيرة جدّاً تقول: إن إبليس لما أراد أن يدخل الجنة، ليستزل آدم وحواء عليهما السلام، فدَخل في جوف الحية، فلما دخلت الحية الجنة، خرج إبليس من جوفها وأغرىٰ حواء، وحواء أغرت آدم.[1]

هذه كلها قصص وأباطيل، ولكن ما حدث كان مرحلة تمهيدية؛ إذ ابتَلىٰ آدم وزوجه بهذا الأمر ولم يلتزما، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [البقرة: ٣٦] أيّ إنّه حفَّز لديهما جهاز المناعة، وأثبت لهما بالأمر العملي كيف يمكن أن يغويهم الشيطان وكيف يمكن أن يُضلَّهم ويُمنِّيهم إلىٰ غير ذلك، فأصبح كل ما ألقاه الشيطان عليهما -حتىٰ أكلا من تلك الشجرة- من الأمور التي سيتعرضان إلىٰ مثلها هما وذريتهما في الحياة الدنيا، وعليهم أن يصمدوا في وجه إبليس ووساوسه، ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [البقرة: ٣٦] أنتم والشياطين، أنتم وإبليس أعداء ﴿وَلَكُمۡ

(١) الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص٥٦١.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: ٣٦] ليس فيها خلود وهي دار امتحان ودار ابتلاء، وهنا تبرز الحكمة في كل هذه المرحلة، مرحلة الخلق، وأحسَّ آدم هو وزوجته بخطئهما وظُلمهما لأنفسهما، فألهم الله تعالىٰ آدم كلماتٍ يقولها للتوبة والاستغفار ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ [البقرة: ٣٧] وقد بيَّن الكلمات التي تلقَّاها آدم من ربه قوله تعالىٰ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقد أنعم الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ آدم ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: ٣٧]، فقالها، فتقبَّل الله منه وغفر له لأنه كثير القبول للتوبة، وهو الرحيم بعِباده الضعفاء.(١) ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ [البقرة: ٣٨] هداية ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩] فيجب أن تحذروا، وهذا الدرس الذي أخذتموه في تلك الجنَّة التي وُضعتم فيها لتحقيق ذلك الاختبار وذلك الابتلاء، وتَمَكَّن الشيطان أن يزلَّ أبويكما ويخرجهما من الجنَّة نحن لن نُمَكِّن الشيطان منكم، فلذلك تلقَّىٰ آدم من ربه كلماتٍ فتابَ إلىٰ الله -جل شأنه- فتاب الله -تبارك وتعالىٰ- عليه، وبتوبته أصبح من أولئك الذين هداهم الله والذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولكن من يكفرون ويكذبون بتلك الهداية فسيكونون أصحاب النار هم فيها خالدون.

هذا الذي حدث كلّه إنَّما حدث لكي يعطي نموذجاً للبشرية كلّها فيما يأتي من الصراع الذي سيكون بين الإنسان والشيطان، وبين شياطين الإنس والجن، وبين هذا الذي جعله الله عدوّاً لنا يستفز فينا قُوىٰ الخير ويجعلنا قادرين علىٰ تحقيق أو تقوية أجهزة مناعتنا ضد إغوائه وإغراءاته، ويكشف لنا -جل شأنه- أساليبه، ثمَّ يدخل بعد ذلك إلىٰ تجربة خطيرة من تجارب البشرية، فإذا كان إبليس قد أزلّ أبانا آدم وأُمَّنا حواء فإنَّ هناك أمة وطائفةً - ستأتي قصتها فوراً بعد هذه الآية - أراد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لهم أن يكونوا مَثلاً ونموذجاً للبشريّة، فأزلهم الشيطان بوصفهم أمة وبوصفهم مجموعة وأفشل تجربتهم، كما استزلَّ أبوينا من قبل آدم وحواء وأخرجهما من الجنة.

(١) لجنة القرآن والسنة في المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية في القاهرة. **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، الدوحة: دار الثقافة، ١٩٩٥م، ص١٠.

النَّجم الرابع: الأمة الإسرائيلية: نموذج للأمة المصطفاة التي عجزت عن الارتقاء إلىٰ مستوىٰ الاصطفاء فاستُبدلت

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠
وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ
فَٱتَّقُونِ ٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا
تَعۡقِلُونَ ٤٤ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ
رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧
وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾

[البقرة: ٤٠ – ٤٨]

في سورة آل عمران بيَّن الله تعالىٰ أنه اصطفىٰ من بين خلقه آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران علىٰ العالمين، ذريةً بعضها من بعض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤]. ويمكن القول بأن هذه المرحلة التي كانت مرحلة اصطفاء شبه قَبَلي قد جاءت تمهيداً لإدراج القبائل في إطار الأمة التي جرىٰ بناؤها لَبِنة لَبِنة علىٰ أيدي الأنبياء، لتصبح في نهاية الأمر أمة وَسَطاً خَيِّرة قادرة علىٰ القيام بحق الشهادة علىٰ الناس. وذلك لأن القرآن المجيد أراد أن يُقيم بناء إنسان الجمع بين القراءتين، ويُرسيه علىٰ دعائم خمس هي: التوحيد والتزكية والعمران والأمة والدعوة.

فهذه الدعائم هي التي يمكن أن تقوم عليها الشخصية القرآنية التي يبنيها الوحي بالجمع بين القراءتين، فكأن الإطار القَبَلي مرحلة من المراحل المهيئة والممهِّدة لبناء الأمة. إذا انحرف الإنسان ووقف عندها وعدّها نهاية الروابط بين البشر، ضل وأضل وأفسد حياته ونُظُمَه، لكنه إذا انطلق في فضاء الأمة الوسيع وحقق بناءها، فقد حقق المقصد الشرعي في أهم صُوره وأَشكاله.

كان بنو إسرائيل نهاية المرحلة القبلية وبداية الوصول إلىٰ مرحلة الأُمة. وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بتجارب وظواهر وأحداث تجعل البشرية قادرة علىٰ معرفة تفاصيل آثار العداوة بين الإنسان والشيطان، فهذا الشعب أو هذه القبيلة وقعت تحت نير استبداد لم تعرف البشرية مثله من قبل، وهو الاستبداد الفرعوني الذي ذكر الله -جل شأنه- الكثير من تفاصيله كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤] فاصطفاؤهم فيه من الدروس والعِبر الكثير جدّاً، فهذا الشعب الذي استعبده الفراعنة واستبدوا به طِيلة تلك المرحلة، كان لا بدّ أن يُبين للناس تلك الآثار السلبية الخطيرة التي يتركها استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وأن من عاش زمناً يمارس حياته مُستعبَداً لبشر مثله لن يكون قادراً علىٰ التحرر من آثار عبوديته للبشر بيُسر وسهولة، وأنه مالم يتعلم التوحيد الخالص النقي لن يتمكن من التخلُّص من تلك الآثار، فالذي يمكن أن يحرر الإنسان ويطهّره من آثار الاستبداد توحيد خالص نقي لا تشوبه شائبة، فإذا لم يخلص التوحيد ويطهر بشكل كامل فإن الآثار المدمرة لاستبداد العبيد للعبيد لن تزول، ويبقىٰ عبد العبد ضعيفاً خائراً متردداً تراه يحاول العروج فيسقط، لأن التوحيد الذي تبنَّاه ومارسه لم يكن خالصاً تماماً فيقعد به عن الوصول إلىٰ ما يريد.

وقصة بني إسرائيل توضِّح لنا أن بعضهم قد استطاع أن يُخلص لله في توحيده وألوهيته وربوبيته، فجعل منهم أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]. ولكن لم يكن كل بني إسرائيل علىٰ تلك الشاكِلة، بل خالط توحيد أكثرهم شوائبُ تُطْلعنا عليها آيات الكتاب الكريم تِباعاً في سائر السور التي تناولت قصتهم.

والقرآن المجيد فصَّل لنا في هذه التجربة الإسرائيلية مالم يُفصِّل في غيرها من التجارب، لما لها من علاقة مهمة بأُمتنا وصيرورتها ومصيرها، ولذلك فإن ذلك التساؤل الذي يطرحه خاصة المسلمين وعامتهم: لماذا أَكْثَر القرآنُ الحديثَ عن بني

إسرائيل وما الذي استهدفه من ذلك، جوابه -والله أعلم- أن ذلك الإكثار من الحديث عنهم كان لجعل تاريخهم درساً لأُمّتنا لتبتعد عن السقوط في مثل ما سقطوا فيه، وأن تستخلص منه الدروس والعِبر، فتلاحظ على الدوام مدى نقاء توحيدها وصفائه وابتعاده عن الشوائب وخلوصه لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إن قصة بني إسرائيل تجعل أمام أُمّتنا تحدّياً دائماً مستمراً، يُنَبّه على الدوام إلى ضرورة الالتزام بمنهجية التعامُل مع الكتب المنزَّلة بأدق الأشكال وأقوم الطرق، وأن يكون تمسُّك الأمم المصطفاة بما أنزل الله عليها من كتاب تمسّكاً متيناً صادقاً مخلصاً، فلا ترتخي اليد عنه بأيِّ شكل من الأشكال، ولا تُسيء فهمه فتتحول إلى قُطعان من حمير تتعامَل مع الكتاب كمثل الحمار يحمل أسفاراً، ولا تُديم التساؤل فيما سكتت عنه هذه الكتب أو محاولة الاستقصاء والإغراق في ظواهر الألفاظ والابتعاد عن دلالاتها ومعانيها.

كما أن هناك نوعاً من التعاقُب بين الأُمّتين، فمنذ أن تمّ (الاستبدال) -استبدال الأُمة المسلمة ببني إسرائيل- والأُمَّتان في حالة تداول لجوانب وأساسيات التأثير والتأثُّر في العالم كله، والصراعات الحضارية -تاريخيّاً وفي الوقت الحاضر وما يُتَوقع في المستقبل- تكاد لا تخرج عن دائرة الصراع بين الأمتين، فكأن الحالة الإسرائيلية مقابل الأُمة الإسلامية حالة حفزٍ وتحدٍّ يجعل أجهزة المناعة لدى هذه الأمة -كما يُفترض- يَقِظَة متنبهة حسّاسة لأيّ تغيير.

والمتدبِّر لآيات القرآن الكريم لا يفوته رَصْدَ ما يدل على ما ذكرنا، وفي سورة البقرة يبدو هذا الأمر بشكلٍ بارزٍ واضحٍ يلمسه قارئ السورة ومُتدبرها دون كبير عَناء، وسننطلق -إن شاء الله تعالى- في تتبُّع ما ذكره القرآن المجيد في الأُمّتين البديلة والمستبدَلة.

تُبيّن هذه السورة أهم الأسباب التي أدّت إلى أن تُستبدل بالأمة الإسرائيلية الأمة المسلمة، فهي سورة (الاستبدال): استبدال أمة لها خصائص قومية والإتيان بأمة لها خصائص عالمية. فبعد أن ذكر لنا قصة الخلق وبيّن كيف استزلَّ الشيطان

أبوينا وأخرجهما من الجنة، يُبين لنا حال بني إسرائيل الذين كانوا في جحيم لا في جنّة، وأرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم نبيّاً ورسولاً من أنفسهم واصطفاهم على العالمين، وأخرجهم من ذُلّ العبودية إلىٰ رَحابة السيادة والقيادة، فهل صانوا النعمة؟ أبواهما أو أبوانا أُخرجا من الجنّة، وهؤلاء أُخرجوا من جحيم العبودية، وأيضاً استطاع الشيطان أن يستزلهم وأن يُفسد تلك التجربة، فالله -تبارك وتعالىٰ- منحهم فرصة مهمة جدّاً، ولكن لم يستفيدوا بها.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] أي على آبائكم من الإنجاء من فرعون وفَلق البحر وتظليل الغمام وغير ذلك بأن تشكروها بطاعتي ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ [البقرة: ٤٠] المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ [البقرة: ٨٣-٨٤] وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢]. ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] المذكور في آية المائدة السابقة ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢]. ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠] خافونِ في ترك الوفاء به دون غيري ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [البقرة: ٤١] أي ما تكسبونه ثمناً لتحريفكم كلام الله تعالىٰ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم

﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩] ﴿وَإِيَّىٰيَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤١] فخافونِ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢] أي الحق المنزَّل بالباطل الذي تفترونه. وهنا أمرٌ في غاية الأهمية، وهو من أخطر العيوب، وإذا ابتليت أُمة به فقد فسد أَمرُها، وهو لبس الحق بالباطل، فإن الأمة التي تلبس الحق بالباطل لا يمكن لها أن تهتدي أو تصلح ولا يُتوقع منها إلا الضلال والفساد، لأن الحق والباطل نقيضان، إذا برز أحدهما ذهب الآخر، لذلك فإن الخلط بينهما أمر مُدَمِّر لسائر قواعد الإصلاح والصلاح، ومُلْقٍ بمن يتبنَّىٰ هذا السبيل في مَهاوِي الهَلَكة. ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢] ولا تكتموا الحق الصريح وأنتم تعرفون أنَّه الحق، وكيف لا وقد قرأتم في توراتكم وبشائر أنبيائكم أنَّ هناك نبيّاً سيأتي في آخر الزمن أعطتكم أوصافه ومكان مولده ومكان ظهوره ومكان هجرته، بل وَصَفت لكم أصحابه ومن يناصرونه ويكونون معه حتىٰ أصبحتم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣] أي اخضعوا لأوامر الله مع الخاضعين لها من صالح عباده، وفي معنىٰ الآية قوله تعالىٰ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥].

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ [البقرة: ٤٤] كلمة البر مفهومٌ شاملٌ ينتظم كل خير. يُوضِّح ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] تتركونها فلا تأمرونها به ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤] التوراة وفيها الوعيد علىٰ مُخالفة القول العمل ﴿أَفَلَا

﴿تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة: ٤٤] سوء فعلكم فترجعون. ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ﴾ [البقرة: ٤٥] اطلبوا المعونة على أموركم ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ [البقرة: ٤٥] الحبس للنفس على ما تَكْره ﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥] أفردها بالذكر تعظيماً لشأنها، وفي الحديث كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ صلّى،(١) وقيل: الخِطاب لليهود لما عاقهم الشَرَهُ وحبُّ الرياسة عن الإيمان ﴿وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: ٤٥] أي الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة: ٤٥] ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: ٤٥] الساكنين إلى الطاعة.(٢) والصلاةُ أمرٌ كبير يستثقله ذوو القلوب المريضة، يستثقله الكافرون، يستثقله أعوانُ الشيطان. ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: ٤٥] وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ [البقرة: ٤٦] يستعمل العرب الظن بمعنى التخمين أو إدراك متساوي الطرفين كما هو الحال عند الفلاسفة، ولكن لسان القرآن الكريم يستعمله بمعنى اليقين، كما في هذه الآية، وكقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾ [الحاقة: ٢٠]: أي أيقنتُ وآمنتُ، وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٨﴾ [فصلت: ٤٨]. وبذلك نستطيع أن ندرك فوارق عديدة بين لسان القرآن المجيد ولسان العرب والتعابير اللسانية الأُخرى الفلسفية والمنطقية، مما يقتضي التنبيه ويستدعي نوعاً من المعرفة التي تستطيع أن تميز بين مفاهيم القرآن وسمو التعابير القرآنية على التعابير المعتادة لدى العرب ولدى المناطقة والمتفلسفين.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة: ٤٧] يا ذُرِّيَّةَ يعقوب تذكَّروا نِعمي الكثيرة عليكم، واشكروني عليها، وتذكروا أني فَضَّلْتكم على عالَمي زمانكم بكثرة الأنبياء، والكتب المنزَّلة كالتوراة والإنجيل.(٣)

---

(١) السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، تفريع أبواب صلاة السفر، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل، ج٢، حديث رقم (١٣١٩)، ص١٦٠.

(٢) الواحدي، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، مرجع سابق، ج١، ص١٣١.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٢٦.

النَّجم الخامس: تذكير الله لبني إسرائيل بالنِّعم وتواليها مع جحودهم واستكبارهم

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٤٩ – ٦٦]

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩] ليس بالضرورة أن يكون المخاطَبون في عصر نزول القرآن هم الذين استفادوا من هذه النعمة بشكلٍ مباشرٍ، لأنَّ الله جل شأنه امتنَّ عليهم بإنجائه آباءهم، ونجاة الآباء نجاة للأبناء من وجوه عديدة، فكأن النعمة تتكرر مع كل جيلٍ، وأنّ من حقِّ الله جلَّ شأنه علىٰ كل تلك الأجيال أن تحمده وتشكره علىٰ ما أنعم علىٰ آبائهم.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] يذكّر الله -جل شأنه- بني إسرائيل كيف نجّاهم من طغيانٍ تجاوز كلَّ الحدود فلم يكن يأبه لا بأنفس ولا بأعراض، فيقتل الأبناء ويستبيح النساء، مستغلاً جبروته وقوته والآلة العسكرية التي كان يمتلكها، فيمتنّ الله عليهم بأن نجّاهم من استبداد لا طاقة لهم به، وقد استسلموا له زمناً طويلاً، وكان من الممكن أن يستمروا لزمن أطول لولا أن الله اقتضت حكمته أن ينجيهم من ذلك البلاء العظيم. يذكّرهم الله بهذا لعل قلوبهم ترق ولعلهم يتعظون ويشكرون الله -جلّ شأنه- علىٰ ما أنعم الله عليهم من نجاة بالإيمان بخاتم النبيين الذي بشر به موسىٰ وعيسىٰ والنبييون من ربّهم، فذلك هو اللائق بمن أنعم الله عليه بنعمة النجاة من أعتىٰ أنواع الاستبداد والتدمير.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩] ذلك لإفناء نسلكم بأجيال جديدة تجعل كل من يولد لكم ينسب إلىٰ آباء من غيركم، إضافة إلىٰ استخدامهن في كل أوجه الخدمة والترفيه والمتعة لأعدائكم.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٠] من فرعون وجنوده، الذين طاردوكم وكادوا يدركونكم لولا أن نجَّاكم الله منهم، بأن فَرَق البحر وجعل لكم فيه طريقاً يبساً لم تخافوا فيه دركاً، ودخل فرعون ذلك الطريق وراءكم لكن الله أنجاكم.

﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٥٠] إلىٰ انْطِبَاق البَحْر علىٰ فرعون وجنده علىٰ ذلك الطريق، حيث أَذن الله لمياه البحر المنفلقة أن تعود إلىٰ اتصالها، فغرق فرعون وجنده وأنتم تنظرون، فأيَّة آية أكبر من هذه؟! أن يفلق أمام أعينكم البحر الأحمر ويجعله فِرقين كل فِرقٍ كالطَّود العظيم، فتمرون دون أن تبتل أرجلُكم، حتىٰ

إذا ما دخل عدوكم انطبق الماء عليه وأغرقه وأصبح فرعون -ذلك الطاغية- الذي استعبدكم، وأذلّكم، وتحكّم في رقابكم، وأهْلَكَ حَرثكم ونسلكم، يقول: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠]. آمنتُ بالذي آمنت به بنو إسرائيل، ويطلب النجاة، ولكن هيهات فلا نجاة لمن لم يؤمن بالحق إلا بعد رؤية العذاب، قال -جلّ شأنه-: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤ – ٨٥]. وقال عزَّ من قائل: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٨] ولذا قال له الله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩١-٩٢].

وتستمر الآياتُ في تذكير بني إسرائيل بالنِّعم الكُبرىٰ التي أنعمها الله عليهم، علَّ قلوبهم تلين ونفوسهم تخبت، ويتقبلون دعوة رسول الله ﷺ، فيقول تعالىٰ: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] ليوحي إليه، وينزل عليه من أسباب الهداية لكم ما أنتم بحاجة إليه، ولكن لم تستطيعوا أن تصبروا أربعين يوماً ومعكم هارون أخو موسىٰ وهو نبيٌّ، أراد منكم أن تصبروا علىٰ توحيد الله والإيمان به وعبادته حتىٰ يعود إليكم موسىٰ من ميعاده مع ربه، ثمّ اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون فارتددتم ردة جماعية حين جاءكم السامري وصنع لكم عجلاً -مِنْ ذَهَب- جسداً له خوار، فسرعان ما تخليتم عن إيمانكم بالله وتوحيدكم له، وعددتم ذلك العجل الذهبي إلهاً لكم بل ولموسىٰ، وتنكرتم لكل الآيات التي جاء بها موسىٰ، ومع ذلك لم نعاقبكم ولم نخذلكم، بل ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة: ٥٢].[1]

(١) ولست أدري لِـمَ لمْ يلتفت فقهاؤنا -الذين قالوا بوجود حدّ للمرتد- إلىٰ هذه القصة، وتدبروها حق التدبر، فبنو إسرائيل -حين عبدوا عجلهم الذهبي- قد أشركوا بالله تعالىٰ وارتدّوا ردّةً كبرىٰ لا تحتمل أي تأويل، ومع أن نبيهم ﷺ قال لهم: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤] فقد تاب الله عليهم، لأن الردة -إذا لم تقترن بمفارقة الجماعة والتآمر عليها- ذنب لا يمكن أن يزيله حدّ أيّاً كان، ولا يزول إثمها إلا بعفو إلهي خاص، ذلك أن المرتد معتد علىٰ حق الله جل شأنه.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٥٣] التَّوْرَاة ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ [البقرة: ٥٣] عَطْف تَفْسِير أَيْ الفَارِق بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل وَالحَلَال وَالحرام ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٣﴾ [البقرة: ٥٣] بِهِ مِن الضَّلَال. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] أَيْ لِيَقْتُل البَرِيء مِنْكُمْ المجْرِم ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ﴾ [البقرة: ٥٤] قَبِلَ تَوْبَتكُمْ ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة: ٥٤]، وإذا بكم تتجاهلون ذلك كلَه وتأخذونه بسذاجة بالغة، وجحود لكل الدلائل التي تحفز العقل على التأمل وتحمله على الإيمان بأن وراء ذلك كلِه خالقاً عظيماً قادراً جباراً هو الذي يَسَّر كل ما تقدم. فتتطلبون طلباً عجيباً يدل على غطرسة ونفخة كاذبة وانحراف في التفكير، فتتطالبون رسولكم بأن يمكنكم من رؤية الله جهرة دون إدراك لصفات الإله العظيم، ومنها أنه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣] وأن النظر إليه بهذه الأعين -التي جعل لكم في الحياة الدنيا- لا تصلح للنظر إلى وجه الله الكريم، وكأنكم كنتم تقيسون بمقاييس فاسدة فتظنون أن الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مثلُ فرعون الذي استقرت عوامل استبداده في أنفسكم، فكما أن فرعون قد يبرز لقومه في أيام الزينة والأعياد غركم ذلكم فطلبتم رؤية الله جهرةً وكفاحاً دون نظر لتلك الفوارق بين الله تعالى وبين سائر خلقه، كما أنكم لم تستطيعوا أن تدركوا الحدود التي يقف عندها الأنبياء، وخلطتم بين النبوة والألوهية، وتوهمتم أن النبي يستطيعُ أن يُريكم الله حين تشاءون أو يشاء، وما ذلك من شأن الأنبياء ولا المرسلين، ولا يستطيع أيٌّ منهم أن يفعل لكم ذلك، وقد ادَّخر الله نعمة رؤيته لأهل الجنة وحدهم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ٥٥﴾ [البقرة: ٥٥] ما حلّ بكم لأن هذا الطلب يعني أنَّكم رفضتم الإيمان بما أنزلتُ على موسى، ورفضتم الإيمان بالآيات التِّسع التي أعطيتُها إياه، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٥٦] أحييناكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦﴾ [البقرة: ٥٦] تشكرون نعمته بأن أحياكم، فلم تشكروه حينما عَفَا عنكم عن جريمة عبادة العجل، ولم تشكروه حينما بعثكم من الموت بعد أن أخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: ٥٧].

واذكروا نعمتنا عليكم حين كنتم تتيهون في الأرض؛ إذ جعلنا السحاب مُظللاً عليكم من حَرِّ الشمس، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ [البقرة: ٥٧] وهو شيء يشبه الصَّمغ طعمه كالعسل ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧] وهو طير يشبه السُّمانَى، وقلنا لكم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]، ولا تُخالفوا دينكم، فلم تمتثلوا. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة: ٥٧] بكُفران النِّعم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ [البقرة: ٥٧]، لأن عاقبة الظلم عائدة عليهم.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ [البقرة: ٥٨].

واذكروا نعمتنا عليكم حين قلنا: ادخلوا مدينة بيت المقدس فكلوا من طيباتها في أيِّ مكان منها أكلاً هنيئاً، وكونوا في دخولكم خاضعين لله، ذليلين له، وقولوا: ربَّنا ضَعْ عنَّا ذنوبنا، نستجب لكم ونعفُ عنكم ونسترها عليكم، وسنزيد المحسنين بأعمالهم خيراً وثواباً ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾ [البقرة: ٥٩].

فبدَّل الجائرون الضالون من بني إسرائيل قَولَ الله، وحرَّفوا القول والفعل جميعاً؛ إذ دخلوا يزحفون على أستاهم وقالوا: حبة في شعرة،[١] واستهزؤوا بدين الله، فأنزل الله عليهم عذاباً من السماء بسبب تمرُّدهم وخروجهم عن طاعة الله.

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة: ٦٠].

---

(١) عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ادخلوا الْبَابَ سُجَّداً، وَقُولُوا حِطَّةٌ، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ على أَسْتَاهِهِمْ، فَبَدَّلُوا، وَقَالُوا: حِطَّةٌ حَبَّةٌ في شَعَرَةٍ)، انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب التفسير، بَاب ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ [البقرة: ٥٨]، حديث رقم (٤٤٧٩)، ص٨٤٧.

واذكروا نعمتنا عليكم -وأنتم عِطاش في التِّيْه- حين دعانا موسىٰ -بضراعة- أن نسقي قومه، فقلنا: اضرب بعصاك الحجر، فضرب، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، بعدد القبائل، مع إعلام كل قبيلة بالعين الخاصة بها حتىٰ لا يتنازعوا. لكن الطبيعة الخبيثة لا يمكن أن تتغيّر، فقد أنزل عليهم المنّ والسلوىٰ؛ طعاماً متكاملاً يشتمل علىٰ الصحن الأساسي بالإضافة إلىٰ الحلو، جاهزاً من السماء بلا جهد ولا تعب فماذا قالوا؟ قالوا: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ [البقرة: ٦١] فقد مللنا هذا الطعام ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: ٦١] كأنهم تذكّروا عبوديتهم لفرعون فحنّوا إليها وافتقدوها، واشتاقوا إلىٰ ما كانوا يأكلون في دار ذُلّهم.

إن المتوقع أنّ الإنسان العزيز الكريم إذا تذكّر دار الذل لا يشتاق إليها، وإنّما يشتاق إلىٰ البُعد عنها وإلىٰ فراقها، ولكن هؤلاء قالوا: نريد بقلاً وقثاء وعدساً وبصلاً وثوماً؛ نريد ما اعتدناه زمن عبوديتنا وذُلّنا. وهكذا نفسية العبيد: إذا حُرِّروا ضاقوا بالحرية ذَرعاً وسرعان ما يَحِنّون إلىٰ حياة العبودية والذل بكل تفاصيلها حتىٰ طعامها الرديء. "كَمَا كَانَ بَعْضُ الْعَبِيدِ يَرْجِعُونَ بِاخْتِيَارِهِمْ إِلَىٰ خِدْمَةِ سَادَتِهِمْ فِي أَمِرِيكَةَ، بَعْدَ تَحْرِيرِهِمْ كُلِّهِمْ وَمَنْعِ الِاسْتِرْقَاقِ بِقُوَّةِ الْحُكُومَةِ؛ لِأَنَّهُمْ أَلِفُوا تِلْكَ الْخِدْمَةَ وَالْعُبُودِيَّةَ، وَصَارَتِ الْعِيشَةُ الِاسْتِقْلَالِيَّةُ شَاقَّةً عَلَيْهِمْ."(١)

---

(١) رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، مرجع سابق، ج٦، ص٢٧٥.

وقد صور شوقي -تصويراً معبراً- هذه النفسية في قصيدته الرائعة "كان لبعضهم حمار وجمل":

كـان لبعضهمْ حـمـارٌ وجـمـلْ ... نالهما يوماً من الـرقّ مـلـلْ
فـانـتـظـرَا بَـشـائِـرَ الـظَّـلـمـاءِ ... وانطَلقـا معـاً إلىٰ البَـيْـداءِ
يـجـتـليـان طـلـعـة الحــريَّـهْ ... وينشقانِ ريـحـهـا الزكيَّـهْ
فـاتـفـقـا أن يـقـضـيا العمرَ بها ... وارتـضَـيـا بمائِهـا وعُشبِها
وبـعـدَ لـيـلـةٍ مـن الـمـسـيـرِ ... الـتـفـت الحِمـارُ لِلـبعيـرِ
وقال كــربٌ يا أَخـي عـظـيــمُ ... فقفْ، فمشي كلَّهُ عـقـيـمُ!
فـقـال: سَـلْ فِـداكَ أُمِّـي وأَبـي ... عسىٰ تَنالُ بي جليلَ المطلبِ
قال: انطلقْ معي لإدراكِ الـمُنىٰ ... أَو انتظِر صاحبَكَ الحرَّ هنا
لا بـدّ لـي مـن عــودة للـبـلـدِ ... لأَنـنـي تركتُ فيه مِـقوَدِي!
فـقـال سر والـزَمْ أَخاك الوتِدا ... فـإنـمـا خُلِقْتَ كي تُقيَّـدا

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١] دار ذلِّكم وخضوعكم وعبوديتكم ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٦١] مِنْ النبَات ﴿وَضُرِبَتْ﴾ [البقرة: ٦١] جُعِلَتْ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [البقرة: ٦١] الذُّلّ وَالهَوَان ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١] أَيْ أَثَر الفَقْر مِنْ السُّكُون وَالخِزْي فَهِيَ لَازِمَة لَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاء لُزُوم الدِّرْهَم المَضْرُوب لِسِكَّتِهِ ﴿وَبَآءُو﴾ [البقرة: ٦١] رَجَعُوا ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦١] أَيْ الضرْب وَالغَضَب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ٦١] كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ عليهما السلام ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾ [البقرة: ٦١] أَيْ ظُلْمًا ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٦١﴾ [البقرة: ٦١] يَتَجَاوَزُونَ الحَدّ فِي المَعَاصِي، وَكَرَّرَهُ لِلتَّأْكِيدِ.[1]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [البقرة: ٦٢]، أُحِبُّ أن أنبّه هنا إلىٰ أنَّ بعض الناس في أيامنا هذه يقولون: إنّ الله لم يطلب من اليهود والنصارىٰ الإيمان بمحمد ﷺ، ويستدلّون بهذه الآية، ووجه استدلالهم أن الآية الكريمة حَصَرت أركان الإيمان في ثلاثة أمور، ليس من بينها الإيمان به ﷺ هي: الإيمان بالله، واليوم الآخِر، وعمل الصالحات، وبيَّنت أن من آمن بها ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [البقرة: ٦٢]، وهذا خطأٌ كبيرٌ مَنْشَؤُه القراءة العضينية المجزَّأة للقرآن الكريم، والجهل أو التجاهُل لعادات القرآن الكريم وأسلوبه في مُعالجة القضايا ودقة تناوله لها.

إن القراءة الصحيحة لا تسمح بمثل هذا الفهم ولا تسمح بأخذ المعنىٰ بهذه الصورة، ولكنَّها تُبين أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ينبّه علىٰ أهم الأمور التي فرَّط فيها هؤلاء، فَذِكْر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهذه العناصر ليس لإفادة الحصْر، وإنَّما هي لبيان أهمّ ما انحرفوا فيه، وإلا فمن كفر بمحمد ﷺ فهو كافرٌ بسائر الأنبياء والمرسلين، ومن آمن بالله، فلا بدّ له أن يؤمن برسول الله ويؤمن برسل الله كافة، ويؤمن بكتب الله كافة.

---

(١) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص١٣.

مرحلة جديدة في التعامُل مع بني إسرائيل

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة: ٦٣].

هذا استمرار في ذِكر الانحرافات التي سقط فيها بنو إسرائيل، التي يأتي ذكرها -كما أسلفنا- عقب قصة الخَلْق، ليبين لنا -سبحانه- أن الشيطان كما أزلَّ آدم وزوجه يمكنه أن يزل أمماً وشعوباً بأكملها، وينحرف بها عن طريق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وذلك لتحذر الأمةُ المسلمة أن تقع في هذه الانحرافات، فيؤول أمرها إلىٰ ما آل إليه أمر بني إسرائيل، الذين لم يستطيعوا إدراك الفروق الضخمة والواسعة بين حاكمية فرعون المستبد الطاغية، وحاكمية الله جل شأنه، ولم يستطيعوا أن يتذوقوا طعم الحرية في عبوديتهم لله، أو أن يستشعروا العزة والقوة والمنعة في الانتماء إلىٰ عبوديته، هذه القلوب صارت بحاجة إلىٰ معاملة أُخرىٰ يُمزَج فيها بين منطق الإقناع، ومنطق التهديد والقوة، فصار الخطابُ الإلهي -بعد أن أكرم هذا الشعب بأكثر مما يستحق من نِعم الله جل شأنه دون أن يتأثَّر بذلك- لهم مَشوباً بالتهديد والضغط الذي يُناسِب قلوبهم المتحجِّرة ونفوسهم الحائرة الضالة المتشككة، فحين أخذ الله مواثيقهم مرة بعد مرة، وفي كل مرة يتمردون علىٰ هذه المواثيق، أُخذت هذه المرة مع التهديد المشاهَد لهم، لعل ذلك يجعلهم قادرين علىٰ تذكُّر أهمية وخطورة ما يواثقون الله عليه فيحترمونه ولا يتمردون عليه، والمعنىٰ: واذكروا -يا بني إسرائيل- حين أَخَذْنا العهد المؤكَّد منكم بالإيمان بالله وإفراده بالعبادة، ورفعنا جبل الطور فوقكم، وقلنا لكم: خذوا الكتاب الذي أعطيناكم بجدٍّ واجتهاد، وإلا أطبقنا عليكم الجبل، ولا تنسوا التوراة قولاً وعملاً كي تتقوني وتخافوا عِقابي.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: ٦٤] ومع ذلك واتتكم الجرأة وروح التهوُّر الكامنة فيكم علىٰ الاستهانة بالميثاق وتجاهُل ما جاء فيه، فقابَل الله -جل شأنه- ذلك بنعمة أُخرىٰ، حيثُ عاملكم بفضله لا بعدله، وبرحمته لا بعقوبته، ليعطيكم فُرصة بعد أُخرىٰ ويُمكِّنكم من العودة إلىٰ الرُّشد ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: ٦٤] الهالكين الذين يسقط الطور عليهم فيهلكهم ثم يذهبون إلىٰ النَّار، لكن حكمة الله -جل شأنه-

شاءت أن تُبقِي عليكم لحِكم كثيرة يعلمها -جل شأنه-، كما أن منكم أولئك الذين انتهكوا حرمة السبت الذي أمركم الله -جل شأنه- أن تسبتوا فيه وتتفرغوا لعبادته تعالىٰ، فكان هذا الجزء من شعبكم الذي كان يعيش في القرية التي كانت حاضرة البحر الذين انتهكوا حرمة السبت وعصوا الله -جل شأنه- وعملوا علىٰ الصيد فيه ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾[البقرة: ٦٥].

فهذه صورة من صور إيقاع العذاب وعدم الاكتفاء بالتهديد، كان ينبغي أن تشكّل درساً لا ينسىٰ تستمدون منه العِبَر والعظات، فتعودوا إلىٰ رشدكم، وترجعوا إلىٰ ربكم وما أوكله لكم من مهام، لكنكم رغم ذلك لم تفعلوا.

النَّجم السادس: شَدَّدُوا فشدَّد الله عليهم

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٤]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧]

واذكروا -يا بني إسرائيل- جناية أسلافكم، وكثرة تعنتهم وجدالهم لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، حين قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فقالوا -مستكبرين-: أتجعلنا موضعاً للسخرية والاستخفاف؟ فردَّ عليهم موسىٰ بقوله: أستجير بالله أن أكون من المستهزئين.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة: ٦٨]

قالوا: ادعُ لنا ربَّك يوضِّح لنا صفة هذه البقرة، فأجابهم: إن الله يقول لكم: صفتها ألا تكون مسنَّة هَرِمة، ولا صغيرة فَتِيَّة، وإنما هي متوسطة بينهما، فسارِعوا إلىٰ امتثال أمر ربكم.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة: ٦٩]

فعادوا إلىٰ جدالهم قائلين: ادعُ لنا ربك يوضح لنا لونها. قال: إنه يقول: إنها بقرة صفراء شديدة الصُّفْرة، تَسُرُّ مَن ينظر إليها.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة: ٧٠]

قال بنو إسرائيل لموسىٰ: ادعُ لنا ربك يوضح لنا صفات أُخرىٰ غير ما سبق؛ لأن البَقَر -بهذه الصفات- كثير فاشْتَبَهَ علينا ماذا نختار؟ وإننا -إن شاء الله- لمهتدون إلىٰ البقرة المأمور بذبحها.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٧١]

قال لهم موسىٰ: إن الله يقول: إنها بقرة غير مذلَّلة للعمل في حراثة الأرض للزراعة، وغير مُعدَّة للسقي من الساقية، وخالية من العيوب جميعها، وليس فيها علامة من لون غير لون جلدها. قالوا: الآن جئتَ بحقيقة وصف البقرة، فاضطروا إلىٰ ذبحها بعد طول الـمُراوغة، وقد قاربوا ألا يفعلوا ذلك لعنادهم. وهكذا (شددوا فشدد الله عليهم).(١)

---

(١) عن أَنَسِ بن مَالِكٍ قال: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كان يقول: "لاَ تُشَدِّدُوا علىٰ أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فإن قَوْماً شَدَّدُوا علىٰ أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ الله عليهم، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ في الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ، وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ما كَتَبْنَاهَا عليهم." انظر:

-السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كِتَاب الْأَدَبِ، بَاب فِي الْحَسَدِ، ج٢، حديث رقم (٤٩٠٤)، ص٢٦٥.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة: ٧٢]

واذكروا إذ قتلتم نفساً فتنازعتم بشأنها، كلٌّ يدفع عن نفسه تُهمة القتل، والله مُخْرِجٌ ما كنتم تُخفون مِن قَتْل القتيل.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣] فقلنا: اضربوا القتيل بجزء من هذه البقرة المذبوحة، فإن الله سيبعثه حيّاً، ويخبركم عن قاتله. فضربوه ببعضها فأحياه الله وأخبر بقاتله. كذلك يُحيي الله الموتى يوم القيامة، ويريكم -يا بَني إسرائيل- معجزاته الدالة على كمال قدرته تعالى لكي تتفكروا بعقولكم، فتمتنعوا عن معاصيه.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤]

ولكنكم لم تنتفعوا بذلك؛ إذ بعد كل هذه المعجزات الخارقة اشتدت قلوبكم وغلظت، فلم يَنْفُذ إليها خير، ولم تَلِنْ أمام الآيات الباهرة التي أريتكم إياها، حتى صارت قلوبكم مثل الحجارة الصمَّاء، بل هي أشد منها غلظة، لأن من الحجارة ما يتسع وينفرج حتى تنصبَّ منه المياهُ صبّاً، فتصير أنهاراً جاريةً، ومن الحجارة ما يتصدَّع وينشق فتخرج منه العيون والينابيع، ومن الحجارة ما يسقط من أعالي الجبال مِن خشية الله تعالى وتعظيمه، وما الله بغافلٍ عما تعملون.(١)

النَّجم السابع: ماضيهم ييأس من مستقبلهم

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص١١.

لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٧٥ - ٨٢].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُلتفتاً إلىٰ المؤمنين أصحاب رسول الله ﷺ في المدينة المنورة(١) ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ [البقرة: ٧٥] الطمع: توقُّع وقوع الشيء دون وجود أسباب كافية لوجوده، والرجاء أن يكون هناك وسائل تُساعد علىٰ تحقُّق المرجوّ أو ما تأمل فيه، أفتطمعون أن يؤمن لكم هؤلاء اليهود ويصدقوكم ويسالموكم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥] وليس كلامكم ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، فبعد أن عقلوه وعرفوا حق المعرفة أنه كلام الله حرّفوه، فهؤلاء الذين يحرفون كلام الله أتتوقعون أن يحترموا عهدوهم ومواثيقهم معكم؟ ذلك أمرٌ من المحال ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ [البقرة: ٧٦] يجمعون بين الكفر وبين الشرك وبين النفاق، وفي أول السورة قال: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤] وهنا قال: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٧٦] معنىٰ ذلك أن كلهم شياطين يخلو بعضهم إلىٰ البعض الآخر، يقولون حسداً عن كلمات الله التي لا يطبقونها ويحرفونها ولا يسمحون لأحد بالاستفادة منها ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦] هذا الذي أنزل علىٰ موسىٰ وعلىٰ هارون وعلىٰ أنبيائكم، هذا فتح لكم يجب أن تكتموه لا تحدثوا أحداً به فيستفيد منه، فهم أعداء للبشرية كلها ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٧] لو كانوا مؤمنين حقاً بموسىٰ وبما أنزل الله عليه ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٧]، وهناك طوائف منهم ﴿أُمِّيُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] لا يكتبون ولا يقرأون ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي يعرف سورة الحرف بالكاد، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

(١) والسورة -كما قلنا- مدنية. ومن ثمّ تحتاج منّا أن ندرسَ المجتمع المدني، ونفهم كيف كان هذا المجتمع طيلة السنوات العشر من حياة رسول الله ﷺ.

[البقرة: ٧٨] أي يكذبون[١] ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٧٩] المحرَّف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] من تلقاء أنفسهم، وذَكَرَ الأيدي للتأكيد وهو من مجاز التأكيد ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩] يسيراً ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩] من الرِشا.[٢]

كأنك تسأل ما سبب جرأتهم على الله بحيث يعصونه ويكذّبون رسله، بل ويقتلونهم، ثم يحرفون الكلم عن مواضعه، لأنهم زعموا غروراً وكذباً وباطلاً أنهم أبناء الله وأحباؤه. ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] أي إنما حَمَلَهم وجرَّأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم، أنهم إنما يُعذَّبون في النار أياماً بسيطة لا أكثر من ذلك؛ لأننا أبناؤه وأحباؤه. ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: ٨٠] هل عندكم عهد من الله أنه لن يعذبكم ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٨٠] ليس لديهم علم بهذا.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١] هنا يبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قوانينه العادلة وسُنَنه الحاكمة الضابطة التي لا يمكن أن تتخلَّف ولا يمكن أن تُحابي أحداً. ومنها: أن من ارتكب سيئة وأحاطت به آثامه حتى سَدَّت عليه منافذ الخلاص ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨١-٨٢] لأنهم آمنوا وأدُّوا ما يفرضه عليهم إيمانهم من صالح الأعمال، فهم فيها خالدون.[٣] وهذا قانون يبين لبعض المسلمين الذين يتوهمون أنهم ما داموا يحملون اسم الإسلام -حتى إذا لم يكن لهم من أخلاق الإسلام شيء- فسيكونون من أهل الجنة، هذه الأخلاق اليهودية الإسرائيلية على الإنسان المسلم أن يحذرها وأن يبتعد عنها وأن يتقي الوقوع فيها بكل سبيل.

---

(١) الصابوني، محمد علي. **مختصر تفسير ابن كثير**، بيروت: دار القرآن الكريم، ط٧، ١٩٨١م، ج١، ص٨١.

(٢) وهذ الوعيد الرهيب يشمل هؤلاء الذين وضعوا الأحاديث على لسان رسول الله ﷺ، وهؤلاء الذين وضعوا تفاسير حَشوها بكثير من التُّرهات والأخبار الكاذبة والإسرائيليات ليحرفوا معاني الكلم. وهيهات هيهات فقد تكفَّل الله تعالى بحفظه.

(٣) لجنة القرآن والسنة. **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص١٩.

النَّجم الثامن: الظاهرة الإسرائيلية: كيف تَعامَل اليهود مع المواثيق التي أخذها الله عليهم؟

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ٨٣ - ٩٣]

هذا مزيد بيان لكيفية تعاملهمم وحَملهم لكتابهم، ذلك أنّ الأمم تحمل نور الوحي بطريقين: طريق حِمارِيّ، وطريق إنساني.

فأما الطريق الحِماريّ -الذي سلكه بنو إسرائيل- فهو ما أوضحه القرآن المجيد بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ٥]. وهذه الآية الكريمة سبقتها آياتٌ امتنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- بها علىٰ الشعوب الأُمّية، بأن أرسل فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته فيتعلمون منه القراءة الصحيحة السليمة، ويُزكّيهم، فتُحْدِث القراءة أثرها فيهم وتُؤْتي ثمرتها، وهي التزكية، ويعلمهم الكتاب والحكمة التي بها يتمكنون من فقه الاستخلاف العمرانيِّ والقيام بمَهَامه بأحسن وجه وأَتمّه.

وأما الطريق الثاني فهو الطريق الإنسانيُّ في حَمْل الكتاب: الذي أشارت إليه الآيات التي بيَّنت وظائف ومَهام الرسول الذي بُعِث في الأميِّين ﷺ.

وإذا كان بنو إسرائيل قد حُمِّلوا التوراة، ثم لم يحملوها إلا بالطريقة الحِماريَّة، فذلك لم يكن شأناً خاصاً بهم؛ بل هناك أمم أخرىٰ حُمِّلت كُتباً سماويَّة ورسالات إلهية، فلم تحملها إلا بـالطريقة الحِماريَّة، ولم تفهمها إلا وَفقاً لأصول الفقه البَقَريِّ الذي أَصّلت له يهود.

كانت النبوات قد تجمَّع تراثُها وتَبَلْور في (الظاهرة الإسرائيلية). والظاهرة الإسرائيلية ظاهرة أَلِفت التعامُل مع تراث النبوَّات تعامَل الحَمير، فهي تحمل ذلك التراث علىٰ ظهورها لا في قلوبها وعقولها، فعقولها وقلوبها غُلْف، وقد افتخروا بتلك القلوب ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨]. ومنغلقة أمام ذلك التراث، لا تسمح له أن يخالط بشاشتها، والحمار قد يزهو ببردعته الجديدة الجميلة التي تقي ظهره تأثير ما يحمل، ولكن لا يغيِّر ذلك من حماريَّته شيئاً، فخصائص الحماريَّة ثابتة فيه. ويُعدّ نقضهم مواثيقهم مع الله فضلاً عن نقضها مع الأنبياء فمن سواهم، من أبرز مظاهر هذا الحَمل الحِماري.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: ٨٣] هذا الميثاق -كما سبق- هو بعض ما طالبهم الله تعالىٰ بالوفاء به في ما مَضَىٰ من السورة الكريمة في قوله تعالىٰ: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]. ومثله في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢]. ومضمون الميثاق هنا ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ [البقرة: ٨٣] الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ذَكَر نفسَه بوصفه صاحب كلمة الإيجاد والخَلْق والإنشاء، ثم ذَكَر الوالدين لأنهما سبب وجود الإنسان، وهنا إشارة إلى أنهم كانوا قُساةً بعضهم على بعض، يقسو الابن منهم على أبيه وقد يقسو على أمه، فليس عندهم شيء اسمه بِرّ الوالدين يمكن أن يحرصوا عليه ﴿وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣] أَحْسِنوا لهؤلاء، ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣] اختاروا الكلمة الطيبة، ولكنهم -بالرغم من ذلك- كانوا يأتون رسول الله ﷺ والمؤمنين، ويختارون لخطابهم الكلمات الملتبِسة، قال ابن كثير: كان بين النبي ﷺ واليهود مُوادعة، وكانوا إذا مرَّ بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى ذلك خَشِيَهم فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: ٨]. رُوِي هذا عن مجاهد ومقاتل بن حيان.(١) وقوله تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٨] أي يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم. ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المجادلة: ٨] وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يصرّون عليها ويتواصون بها، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨]. "عن عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا أَنَّ الْيَهُودَ أَتَوْا النبي ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، قال: وَعَلَيْكُمْ، فقالت عَائِشَةُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ وَلَعَنَكُمْ الله وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ، فقال رسول الله ﷺ: مَهْلاً يا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ أو الْفُحْشَ، قالت: أو ما تَسْمَعْ ما قالوا؟ قال: أولم تَسْمَعِي ما قلت؟ رَدَدْتُ عليهم، فَيُسْتَجَابُ لي

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج٨، ص٤٢.

فِيهِمْ ولا يُسْتَجَابُ لهم فِيَّ."[١] ثم بينَّ بقية مضمون الميثاق ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣] صلّوا الصلاة بخشوعٍ لكي تلين قلوبكم وتخرج من ذلك الوعاء الحَجَري الذي يحيط بها. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٨٣] عن الميثاق ورفضتموه ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ [البقرة: ٨٣] إلا أفراداً قلائل، ولكنكم كشعب توليتم وتخليتم عن ذلك؛ إذ استبدلتم بإيتاء الزكاة الرِّبا وأكل أموال الناس بالباطل، واستبدلتم كل هذه الخصال التي واثقتم الله عليها بعد أن نقضتم ميثاقه، استبدلتموها أسوأ الأخلاق وبدائل سيئة، واستمر عملكم السيّء إلىٰ غير ميعاد، إلا قليلاً منكم الذين استطاعوا أن يحترموا هذه المواثيق مع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ثم يُذَكِرهم بميثاق آخر في علاقاتهم بعضهم ببعض ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾ [البقرة: ٨٤] لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ [البقرة: ٨٤] سواء بالتآمر أو الاحتيال أو الغش، ﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٨٤] بهذا الميثاق ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤﴾ [البقرة: ٨٤]، ولكن ما الذي حدث هل احترمتم هذا الميثاق؟ الجواب لا. وهناك معنىً آخر: أي لا تسفكوا دماء الغير فيسفك دماءكم انتقاماً لما فعلتم. ﴿وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ [البقرة: ٨٤] أي لا تُخۡرِجوا الآخرين من ديارهم فيخرجوكم من دياركم انتقاماً؛ وكأن الآية نازلة اليوم، فإذا كانوا اليوم يسفكون دماء الفلسطينيين، فإن هؤلاء الذين تُسفك دماؤهم اليوم إذا ما واتتهم القوة سوف ينتقمون منهم، فالذي يسفك دماء الآخرين في الحقيقة إنما يسفك دم نفسه، والذي يُخرج الناس من ديارهم عليه أن ينتظر الثأر عاجلاً أم آجلاً. ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٨٥] أي يقتل بعضكم بعضاً. ﴿وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ﴾ [البقرة: ٨٥] حتىٰ من بني إسرائيل أنفسهم، ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] تتعاونون ﴿عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٨٥] بالمعصية ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [البقرة: ٨٥] الظُّلم ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ﴾ [البقرة: ٨٥] تنقذوهم من الأسر بالمال أو غيره وهو مما عهد إليهم ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ﴾

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [البقرة: ٥٨]، حديث رقم (٦٤٠١)، ص١٢٢٩.

[البقرة: ٨٥]، ونرىٰ اليوم مِصداق هذه الآية في المجتمع الذي يعيش في هذه التي تسمىٰ اليوم بدولة إسرائيل؛ إذ يستطيع الدارس لهذا المجتمع أن يرىٰ الفوارق الموجودة بين الفلاشا، واليهود الروس، واليهود العرب، واليهود الأوربيين وغيرهم، فهم -حتىٰ فيما بينهم- يعيشون في إطار من التمييز والطبقية، وصدق الله العظيم القائل ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٤].

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥] في خاتمة المطاف يُبيّن الله تعالىٰ لنا السبب الأساسي وراء هذه الظاهرة؛ ظاهرة نقض العهود والمواثيق مع الله -تبارك وتعالىٰ- ومع الرسل والأنبياء ومع الآخرين، وهو أنهم لم يؤمنوا بالكتاب كله، وإنما يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعض، وهذا الداء قد انتقل إلىٰ أمتنا وسَرَىٰ فيها -إلا من رحم ربُّك-، وليس بالضرورة أن يُعلن الإنسان كفره ببعض الكتاب، ولكن يكفي أن يَرُدّ بعض أحكامه، يكفي أن يقول أَقْبَلُ الصيام والصلاة، وأردُّ الزكاة، أقبلُ الصيام ولا أقبلُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وإقامة شريعته، أقبلُ هذا وأرفض ذاك. والدرس الذي نأخذه من بني إسرائيل أنه لا بدّ لنا أن نأخذ القرآن بجُملته، لا نتخلّىٰ عن شيءٍ منه، نأخذه عقيدةً وشريعةً ونظاماً نبني به أُسَرَنا ومجتمعاتِنا وعلاقاتِنا وأحكامَنا وتصوراتِنا وإراداتِنا؛ نخضع له في كل شيء، إما هذا وإما أن نكون من أولئك الذين توعَّدهم الله تعالىٰ هذا التوعُّد الرهيب ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ [البقرة: ٨٥]، والخزي الذي يعيشه المسلمون اليوم ليس بالقليل، ألا يكفي أن تستصرخ النساء والأطفال والمرضىٰ وكبار السن والعجزة في أماكن كثيرة من العالم من أبناء المسلمين فلا ينجدهم أحدٌ ولا تهتز لأحدٍ قائمة تدفعه إلىٰ أن ينتصر لهؤلاء أو يدافع عنهم أو يقول كلمة حقٍّ أو خيرٍ في جانبهم؟! أليس هذا هو الخزي بعينه؟! وهذا الخزي في الحياة الدنيا مآله في الآخرة مآلٌ سيّء ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٥-٨٦].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٨٧] موسىٰ واحدٌ منهم -من آل عمران من خيار بني إسرائيل- آتاه الله الكتاب وجعله نبيّاً ورسولاً وقائداً مُحرِّراً، أَمَرَه أن يحرِّر شعبه من عبودية فرعون، فهو يجمع بين صفات ثلاث: نبيّ ورسول وقائد قومي مُحرِّر، أنقذ الشعب الإسرائيلي كله من العبودية لفرعون، ومع هذا لم يطيعوه ولم يتابعوه. ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ [البقرة: ٨٧] التقفية: أن يأتي واحدٌ بعد الآخر دون فاصل زمني، فقفَّىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- بعد موسىٰ وهارون بالرُّسل إلىٰ هذا الشعب غليظ القلوب، فجاء دواد وجاء سليمان وجاء غيرهما ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: ٨٧] وهو آخر نبي قبل خاتم النبيين يأتي من بني إسرائيل ومعه البيِّنات. وأُمِر أن يُحِلّ لهم بعض الذي حُرِّم عليهم، وأن يخفف عنهم بعض الإصر والأغلال التي كانت عليهم ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] -سيدنا جبريل-. ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧] إنه مرضُ (الانتقائية) في العقل اليهودي، فإذا جاء الرسول بما لا تَهوَىٰ أنفسُهم ولا تشتهي فإما أن يُكذِّبوه وإما أن يقتلوه. وهم لجهلهم لا يستطيعون أن يُفرِّقوا بين ما ينبغي أن يُعْمِلوا فيه عقولهم وقلوبهم، وما ينبغي أن يُعْملوا فيه رغباتهم وأهواءهم؛ يمكن أن أقول هذا طعام لا أشتهيه ولا تهواه نفسي، ولكن لا يُعقَل أن أقول هذه رسالة لا أشتهيها أو لا تهواها نفسي، فالرسالة علىٰ الإنسان أن يدرسها بعقله وقلبه وكل قُوىٰ وعيه، وأن يرفضها حين يرفضها إذا لم تستطع تلك الرسالة أن تُقيم علىٰ صحتها الحجة والبرهان. ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨] مُغلّفة ومُغْلقة دون ما جئتَ به من علمٍ وحكمة، ومن دينٍ ووحيٍ، فيردّ الله -تبارك وتعالىٰ- عليهم بطريقة عنيفة: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٨] نادر جداً من يؤمن منهم، ثم ينعىٰ عليهم ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨٩] هو القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩] مرة أخرىٰ يكرر لعنهم وطردهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من رحمته لعلهم يتعظون، لعلهم يصحون من تلك الغفلة ومن ذلك الضلال الذي كانوا فيه. هذا كتابٌ جاء يصدّق ما تدعون أنه نزل علىٰ رسلكم وتزعمون أنكم تؤمنون بأولئك الرسل، جاءكم بمثل ما جاءكم به موسىٰ، وبمثل ما

جاءكم به عيسىٰ وداود وسليمان، وتزعمون أنكم أبناء إبراهيم وقد جاءكم بشريعة إبراهيم، فلماذا تتنكرون له وأنتم قضيتم سبعة قرون قبل ميلاده وقبل بعثته علىٰ الذين كفروا، وتقولون لهم أنكم بانتظاره لكي تؤمنوا؟!

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٩٠] هؤلاء قد باعوا نفوسهم بثمن بخس، فبدلاً من أن يُقبلوا علىٰ طاعة الله وعلىٰ الإيمان به ليبيعوا أنفسهم له، أقبلوا علىٰ معصيته والكفر بما أنزل ليبيعوا أنفسهم للشيطان، والسؤال هل تم هذا البيع بحجة أو برهان؟ والإجابة لا، بل ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٠] حسداً وكراهية أن ينزل الله بشيءٍ من فضله علىٰ أي عبدٍ من عباده، لأنهم كما قلت لكم هؤلاء يؤمنون بأن الله لهم، يعني -جلّ وعزّ وتعالىٰ وتبارك- هو الذي يجب أن يكون بخدمتهم لا هم، ولا ينبغي أن يكونوا عبيداً له ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] في الدنيا، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠﴾ [البقرة: ٩٠] في الدار الآخرة.

وتستمر عملية (الانتقائية)، في الرسل وفي الكتب، فيرفضون رسول الله كما رفضوا رسلاً من قبل منهم ومن بيئتهم، ثم يرفضون كتابه الذي أنزله الله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١]. أية عنصرية هذه وأي تعصب ذميم هذا الذي يقولونه، إنهم يريدون أن يؤمنوا فقط بما أنزل عليهم، وقد كذبوا حتىٰ في هذه ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ٩١] المؤيَّد بالدليل والبرهان فهو ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] مُوَافقاً له، وهنا يكذّبهم الله تعالىٰ من وجوه:

منها قَتْلهم الأنبياء، فإذا كنتم لا تؤمنون إلا بما أنزل إليكم ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٩١][1] وهم منكم، من شعبكم المختار، وينتسبون إلىٰ بني

---

(١) عن أبي عبيدة بن الجراح قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً؟ قال: (رجلٌ قتل نبياً أو قتل رجلًا أمره بمعروف ونهاه عن المنكر)، ثم قرأ ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: ٢١]، ثم قال: (يا أبا عبيدة قتلَتْ بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً في ساعة واحدة، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عُبّاد بني إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقُتلوا جميعاً). انظر:

- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (توفي: ٨٠٧هـ). **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة: مكتبة القدسي، ١٩٩٤م، حديث رقم ١٢١٦٦، ج٧، ص٢٧٢، وقال: رواه البزار، وفيه ممن لم أعرفه اثنان.

إسرائيل ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩١﴾ [البقرة: ٩١] فعلاً بما أنزل إليكم، وهو يحمل توصيات الإيمان بعيسىٰ وبمحمد صلّىٰ الله عليهما وسلّم عندما يأتيان إليكم وقد رفضتم الاثنين، ثم تزعمون أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم وبمن يأتي منكم.

ومنها: اتخاذهم العجل معبوداً من دون الله في زمان موسىٰ وأيامه، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: ٩٢] عندما جاءكم موسىٰ محرركم ونبيكم ورسولكم، وجاءكم بتسع آيات بيّنات وأنقذكم من الذل فما الذي كافأتم به خالق موسىٰ ومرسله وموسىٰ ورسالته؟ ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٢] ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٢] من بعد خروجه إلىٰ الطور ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٩٢﴾ [البقرة: ٩٢] لأنفسكم.

ومنها: عصيانهم الصريح لأوامره تعالىٰ حتىٰ ما كان منها تحت التهديد ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ [البقرة: ٩٣] ما أُمرتم به في التوراة ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] أمرك ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾ [البقرة: ٩٣].

النَّجم التاسع: بعض أوصافهم التي ذمَّهم الله عليها

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٩٦ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٩٩ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٠ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾ [البقرة: ٩٤ – ١٠١]

النَّجم العاشر: في السِّحر وحقيقته، وحقيقة التلبُّس بالجان

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٢ – ١٠٥]

هذه الآيات وردت في معرض الخاتمة لعرض المسار الإسرائيليّ، وبيان انحرافات بني إسرائيل، وسبقت إعلان نسخ آية بني إسرائيل ومسارهم التاريخيّ، وإعلان فشلهم في الالتزام بما فضّلهم الله على العالمين من أجل القيام به، وفشلهم في الالتزام بما كان عليه أوائلهم، كما أنهم لم يصبروا على أعباء الرسالة ومتطلباتها، فكانت النتيجة أن أعلن الله -تبارك وتعالى- أنّهم تجاوزوا ما جاءهم موسى به وأنبياؤهم، واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وكان ذلك إيذاناً بأنّهم قد صاروا حالةً ميئوساً منها لا تصلح فاستحقوا بذلك النسخ والاستبدال.

وذلك يقتضي منّا أن نقف على هذه الآية لبيان ما فيها من أحكام؛ ذلك لأنَّ أُمّتنا كما ابتليت بمتابعة بني إسرائيل فيما يمكن أن نسميه بالقراءة الحَمارية للكتاب، وكما نبذ اليهود كتاب الله وراء ظهورهم واتَّبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان، من السِّحر والشعوذة والكهانة، فإن المسلمين اليوم -إلا من رحم ربك- يستصحبون ذلك كله، ويصدّقون بالشياطين وتأثيرها والجن وتلبُّسها، وينفقون البلايين من

أموالهم للترويج لذلك، حتىٰ صار انتشار السحر اليوم في بلاد المسلمين أكبر بكثير مما هو لدىٰ يهود وغيرهم. كما أنَّ بعض السَّحرة بلغ من سِعة الإمكانات الماديَّة لديهم أن أسسوا فضائيات يتحدثون فيها عن السحر ويقومون به علىٰ الفضاء حلاً وربْطاً وما شَاكَل ذلك من دَجَلهم وأكاذيبهم. في حين لا يجد العلماء بكل أصنافهم من الإمكانات ما يسمح لهم بنشر علومهم والارتفاع بمستوىٰ مجتمعاتهم، فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

فلنلج الآن إلىٰ موضوع السحر، فما حقيقته-إن كان له حقيقة فعلاً-؟! وهل له تأثير؟! وهل هو علمٌ أو فن؟! وكيف دخل إلىٰ عقول المسلمين؟

حقيقة السِّحر

نود بداية قبل الدّخول في قضيّة السِّحر أن نؤكد علىٰ قاعدة مهمة قد ذكرها ابن حزم الأندلسي، ألا وهي أنَّ "كثرة القائلين بالقول لا تصحح ما لم يكن صحيحاً قبل أن يقولوا به، وقلة القائلين بالقول لا تبطل ما كان حقاً قبل أن يقول به أحد، وأيضاً فإن القول قد يكثر القائلون به بعد أن كانوا قليلاً ويقلّون بعد أن كانوا كثيراً."[(١)]

لقد عرَّف ابن خلدون السحر والطلاسم بأنّها: علومٌ بكيفيّة استعدادات تقتدر النفوس البشريَّة بها علىٰ التأثيرات في عالم العناصر إما بغير مُعين، أو بمعين من الأمور السماويَّة. ثم قال: والأول هو السحر، والثاني هو الطلسَمات. وبيَّن بعد ذلك أنَّ هذه العلوم هي علومٌ لكَفَرةٍ غابرين ومشركين ووثنيين من نَبَطٍ وكلدانيين ومن إليهم، ولذلك كانت هذه العلوم في أهل بابل من السيريانيين والكلدانيين، كما كان لها وجود في بعض مناطق مصر بين أقباط وكانت لهم فيها تآليف، وأشار إلىٰ ندرة ما كُتب في هذه الأمور، وأنّ أشهرها: الفلاحة النّبطية من أوضاع أهل بابل، وأنّها طُوِّرت بعد ذلك علىٰ يد جابر بن حيّان، ثمّ قدَّم ملخصاً دقيقاً بيّن فيه حقيقة السحر، وخلص إلىٰ أنَّه لا حقيقة له، بل هو تأثيرٌ لنفوسٍ بشريّة ذات خواص مُعيّنة تؤثر في الناس وتستجلب تأثيرات الكواكب إما بالقوة النفسانيَّة أو الشيطانيَّة، وبيَّن مراتب النفوس الساحرة وكيفيَّة تأثيرها في الناس وفي العناصر أو في القوة المتخيّلة في الذهن الإنسانيّ، وناقش

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي (توفي: ٤٥٦هـ). **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، قدّم له: إحسان عباس، بيروت: دار الآفاق الجديدة، (د. ت.)، ج٢، ص٥٤.

الأقوال الواردة فيما إذا كان للسحر وجودٌ خارجيّ أي خارج الأذهان والأنفس وما إذا لم يكن. ثمّ أعقب ذلك فيما يتعلّق بالإصابة بالعين. واستغرق كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا المجال تسع صفحات من مقدمته.(١)

كما أنَّ أبا بكرٍ أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصَّاص أورد في كتابه المشهور أحكام القرآن قوله: وكانت علوم أهل بابل قبل ظهور الفُرْس عليهم الحيل والنريجنيات وأحكام النجوم، وكانوا يعبدون أوثاناً قد عملوها على أسماء الكواكب السبعة، وجعلوا لكل واحدٍ منها هيكلاً فيه صنمه، وكانوا يتقرّبون إليها بضروبٍ من الأفعال على حسب اعتقاداتهم من موافقة ذلك الكوكب.

ثم استطرد الجصّاص قائلاً: وكانت السحرة تحتال في خلال ذلك بحِيَلٍ تُموّه بها على العامة إلى اعتقاد صحته، بأن يزعم أنَّ ذلك لا ينفذ ولا ينتفع به أحد ولا يبلغ ما يريد إلا من اعتقد صحة قولهم وتصديقهم فيما يقولون، ولم تكن ملوكهم تعترض عليهم في ذلك بل كانت السحرة عندها بالمحل الأجلّ. وقد أنهى الجصاص حديثه في الأمر بأن أكّد على كُفر الساحر ومَن يُصدّق به ومَن يأخذ بعمله بوجوهٍ ثلاثة. ثم بيَّن أنَّ الله -تبارك وتعالى- أراد أن يقضي على هذه الظاهرة ويُعِين البشريَّة على التخلُّص منها، فبعث الله الملكين ببابل يبيّنان للنّاس حقيقة ما يَدَّعي السحرة وبطلان ما يذكرون، ويبيّنان أنّهما فتنة ويحذران الناس من الكُفر إذا آمنوا بالسحر.(٢)

وبيّن الشيخ رشيد رضا في تفسيره: أنَّ السحر هو تأثيرٌ على مخيِّلة الإنسان كالتأثير الذي يُحدثه المتقنون لأعمال الخِفَّة بأن يخفي بيضاً أو طيوراً ثمّ يُدخل منديلاً في أنف طفلٍ أو طفلة فيرى الناس أنَّه أدخل المنديل في مناخيرها أو في فمها ثمّ يُخرجه من عَجُزها طيراً أو بيضة أو نحو ذلك معتمداً على خفة زائدة -تَدرَّب عليها طويلاً- في يديه يستطيع بها أن يتصرّف بطريقةٍ لا يستطيع مشاهدوه أن يروها كما هي أو يتابعوه فيها، فيُخيّل إليهم أنَّه أدخل منديلاً وأخرج طيراً أو بيضةً أو أداةً أو ما شَاكَل ذلك.(٣)

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (توفي: ش٨٠٨هـ). **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ج٣، ص١٠٣٩-١٠٣٠.

(٢) الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي (توفي: ٣٧٠هـ). **أحكام القرآن**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٤م، ج١، ص٥٣.

(٣) وربما هذا من معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: ٦٦].

نشأته

منذ أن استخلف الله تعالىٰ آدم في هذه الأرض وأهبطه إليها هو وزوجه -كما أهبط إبليس ليكون لهما عدواً لإتمام سنة الابتلاء والاختبار- والإنسان يعمل دائماً علىٰ أن يحيل كل ما لا يعرف له تفسيراً مقنعاً من الظّواهر التي يصادفها إلىٰ المجهول. وقد كان ذلك مدخلاً من مداخل شياطين الإنس والجن لدفعه إلىٰ متاهات الانحراف والانصراف عن الهدىٰ الذي يأتي النّاس من الله -جلَّ شأنه-، وبذلك فقد قاد إبليس البشر للشّعوذة والكهانة التي يمكن أن تبعد الإنسان عن سبيل الله وعن الاستماع إلىٰ أصوات الأنبياء والرُّسل، وجعلوها تختلط بأصوات السّحرة وأهل الكهانة، فيعجز الإنسان آنذاك عن التّمييز عن معرفة ما هو حق وما هو باطل، وبذلك يُلْبسون عليه دينه. وقدّر الله -جلَّ شأنه- أن ينقذ الإنسان من هذا النّوع من الوساوس ويمسخ كل ما ألقاه شياطين الإنس والجن، ويحكم آياته، ويبين الفروق الهائلة بين السّحر الذي يقوم به السّحرة والكهان، والآيات التي تأتي علىٰ أيدي النّبيين والمرسلين. وجاءت الآيات الكريمة في كتاب الله تبين كل أنواع السّحر وتكشف سائر أصناف السّحرة.

ومن المعروف تاريخياً أنّ صناعة السّحر والشّعوذة قد شاعت وانتشرت في حضارة بابل، وفي وضع مواز لها انتشرت لدىٰ الفراعنة، وعندما انتشرت في هاتين الحضارتين صارت لها جذور، وقامت علىٰ أساسها ثقافات ما يزال تأثيرها سائداً حتىٰ أيامنا هذه.

وحين أتىٰ الله تعالىٰ بموسىٰ علىٰ قدره بعد أن أراد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يمنَّ علىٰ الذين استضعفوا ويحررهم من فرعون، كان أهم سلاح أشهره فرعون بوجه موسىٰ وهارون هو سلاح السّحر؛ إذ كان السحر يمثل طاقة ومراكز قوىٰ في ذلك المجتمع، وكان كل من يمارسه ويمهر فيه يجد طريقه إلىٰ بلاط فرعون، فيتحول إلىٰ مستشار وساحر من المقربين له وعضو في ملئِه، فأراد الله أن يستأصل شأفة السّحر، ويجعل البشرية تتخلص من آفته، وتدرك عدم تأثيره، وتدرك أنّه نوع من التّخييل والتّحايل والتّلاعب بأذهان النّاس وأعينهم، فأقام الله النّسق الإسرائيلي علىٰ الغيبيات والخوارق والآيات الحسية، وآتىٰ عبده موسىٰ تسع آيات بيّنات كلها حسية كلها حقائق، ولما طلب فرعون منازلة السَّحرة لموسىٰ، أمر الله نبيه موسىٰ وهارون بأن يستجيبا لتلك المنازلة بينهما وبين

السّحرة، فكان ما ذكرته آيات القرآن الكريم من عرض لذلك التّحدي الذي انتهىٰ بهزيمة السِّحر والسَّحرة، وتبيّن للسَّحرة قبل الآخرين أنَّ السّحر نوع من الباطل ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس: ٨١]، لكن مع هذه الآيات التّسع التي شاهدها بنو إسرائيل وتحرروا بمقتضاها من سلاح فرعون وسيطرته، إذا هم يعودون لدىٰ أول بادرة لممارسة ذلك السّحر والانفعال به، فحين قبض السّامري قبضة من أثر الرّسول -الملَك- الذي جاء ليصحب موسىٰ إلىٰ ميقات ربه، وألقاها مع الحِليّ الذي حمله بنو إسرائيل من زينة الفراعنة وقومهم، وصنع لهم عجلاً جسداً له خوار، إذا بهم يرتدون ردَّة جماعية. ولعلّ في هذا إشارة إلىٰ أنّ الثّقافات الّتي تمتدُّ جذورها في عقول النّاس وبيئاتهم ليس من السّهل تغييرها واقتلاعها بعد أن يعيش النّاس عليها قروناً متطاولة، لذلك لم يقتصر الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ هزيمة السّحرة مرة واحدة في عهد فرعون، بل جعل من سيدنا سليمان -الذي آتاه مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده- نموذجاً ومثلاً يعلّم البشرية أنَّ الجن لا يعلمون الغيب ولا يستطيعون التّأثير في الإنسان، فسليمان -الرّسول البشرُ- قد سخّرهم وهم لا يستطيعون أن يسخروا أحداً من البشر، ولم يأت في أي آية من الآيات الكريمة بأنّ الجن يمكن أن يدخلوا في البشر أو يسخروهم، وقد مات عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو مُتكئ علىٰ عصاه، وبقي فترة لم يحدد القرآن مَدَاها ميتاً، والجن يعملون بين يديه ما يشاء من صناعة المحاريب والتّماثيل والجفان وما إليها، وما دلّهم علىٰ موته ولا أعلمهم به إلّا بعد أن أكلت القَرَضةُ عصاته من داخلها فانكسرت العصىٰ وهوىٰ إلىٰ الأرض، فعلمت الجن آنذاك أنّه قد مات، وتعلّم العالَمُ أنّ الجن لا يعلمون الغيب.

ويبدو -والله أعلم- أنّ واقعة هدم الهيكل المنسوب إلىٰ سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -وما عدّوه تخلياً عن الهيكل بل عن سليمان -أغرىٰ عامتهم- في ذلك العصر بالتّخلي عن اتّباع ما جاء به الأنبياء وفي مقدمتهم سليمان، وبدلاً من أن يتّبعوا ما أنزل الله علىٰ سليمان -وبقية أنبيائهم- من وحي، صاروا يتّبعون ما كانت تتلوه الشّياطين علىٰ ملك سليمان بوصفها مسخّرة له، طمعاً في أنّ تلاوتهم سيعيد لهم الهيكل، ويمكنهم من إعادة بناء أُمّتهم وتحقيق وحدتهم من جديد، وبدلاً من اللجوء إلىٰ الله تعالىٰ، لجأوا

إلىٰ ما كانت تتلو الشّياطين علىٰ ملك سليمان، وهنا يسارع السّياق إلىٰ نفي ما كان البعض يشيعه عن سليمان بأنّه قد ارتدَّ، حين قالوا بعد نزول بعض آيات القرآن الكريم التي تذكر سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنّه نبي، قالت يهود المدينة "ألا تعجبون لمحمد يزعم أنّ ابن داوود سليمان كان نبياً، والله ما كان نبيا بل كان ساحراً."[(١)] ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهم اتّبعوا في كفرهم الشّياطين وليس سليمان، فالشّياطين هم الذين كانوا يعلّمون النّاس السّحر.

لكن الآثار الثّقافية - لما كان في عهد نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - من تسخير الجن بقيت في بني إسرائيل،[(٢)] حتىٰ إذا جاءت الفتنة الثّانية لبني إسرائيل، وهُدم الهيكل، وبدأ السَّبي البابليُّ، أراد الله تبارك وتعالىٰ أن يستأصل منهم تعلقهم بالسّحر فأنزل ملكين[(٣)] يعلمان النّاس السّحر، ويكشفان لهم عن مساوئه، ويحذّران من ممارسته والتّأثر به، خاصة أنّ البيئة البابلية كانت بيئة تعتني بالسّحر كذلك مما هدد إيمان بني إسرائيل تهديداً خطيراً، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهذا جزء مما كانت تروّجه الشّياطين كذلك، ومع أنّ الملَكين كانا حين يعلمان أحداً حقيقة السّحر يؤكدان له أنّها فتنة واختبار للبشر الذين سيتصلون بها فلا تكفر ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ

(١) ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي البغدادي (توفي: ٥٩٧هـ). **زاد المسير في علم التّفسير لابن الجوزي**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ، ج١، ص١٢٠.

(٢) لقد آتىٰ الله تعالىٰ سيدنا سليمان عطاءات أخرىٰ كالرّيح، قال تعالىٰ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٦-٣٨]، فقد سخّر الله تعالىٰ له الرّيح كما سخّر له الجنّ، فهل يوجد من يجرؤ اليوم علىٰ ادّعاء تسخير الرّيح كما يدعي المدّعون تسخير الجن؟! فكلاهما كانا من مُلْكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده.

(٣) النّسق الإسرائيلي كله نسق قائم علىٰ خوارق العادات في عامة شؤونه من إنزال المنّ والسّلوىٰ عليهم، وتظليلهم من الشّمس بالسّحاب، وتفجير المياه بعصىٰ موسىٰ، وفلق البحر بذات العصىٰ، فلا يستغرب في مثل هذا النّسق أن يأتي ملكان يعلمان بني إسرائيل وكل من اتصل بهم خطر السّحر وتحصينهم من الضّلال، وخلط النّبوة بالسّحر والحماية من السّحرة وتخييلاتهم، وهذان الملكان لم يحملا شريعة ولا رسالة، بل أُنزلا لتحقيق غرض واحد، هو كشف حقيقة السّحر وبيان الفرق بين السّحر والنّبوة، وبيان حقيقة السّحرة، وذلك لاستئصال هذه الثّقافة التي استقرت في عقول بني إسرائيل.

فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] ليحذر وليبتعد عن ممارسته والانضمام لأهله، وكان أهم أنواع السّحر هو التّفريق بين المرء وزوجه، وهم في ذلك لا يستطيعون تجاوز قدرة الله المطلقة التي لا يمكن أن يقع في الوجود شيء لم يشأه جلَّ شأنه.(١)

كيف دخل هذا الموضوع إلىٰ عقول المسلمين؟

دخل هذا الموضوع إلىٰ عقول المسلمين من خلال مرويّاتٍ ارتبطت ببني إسرائيل الذين سكنوا المدينة المنورة وظلوا ينتظرون النّبي الخاتم سبعة قرون، وانتشروا في الجزيرة العربية وانتشرت ثقافتهم في مكة والمدينة وما بينهما بصورة خاصة، وكان مما ذاع وانتشر فكرة الجن وتداخلهم مع الإنس. وتشكلهم بأشكال بشرية أو حيوانية،

(١) حقيقة تأثير السّحر في القلوب والأمزجة والحواس: السّحر يعمل علىٰ أمرين:
- موضوع السّحر: كالحبال والعصي، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف: ١١٧].
- الأعين: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٦].
أمّا ما حدث في غزوة بدر في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: ٤٤] فهو من أمر الله تعالىٰ الذي نفذ في الأعين دون أسباب، فهذا من قدرة الله تعالىٰ: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧] والتي لا يقاس عليها قدرات البشر.
أمّا السحر فيؤثر في الأشياء بحسب الأسباب المعمول بها لتحقيق هذا التّأثير، سواء في:
- الحواس: فهو يستخدم حيلا للتّأثير في المدركات الحسية، لذلك فمعرفة الحيلة والتّحرر من الوهم يلغي كيد السّاحر.
- الأمزجة: فالجن لا يستطيع أن يقذف بالحب والكره والبغضاء قذفاً لأنّ ذلك من قدرة الله تعالىٰ وحده ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤] كما أنّ قذف هذه المشاعر هو من قدرة المولىٰ العلي القدير وحده ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦].
إنّ الشيطان ليس له سلطان مباشر علىٰ الإنسان، وإنما يدعوه فيستجيب الإنسان أو لا يستجيب﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] لذلك نعود فنقول: إنّه لكي يؤثر في الأمزجة فلا بدّ له بأن يتوسل بوسائل من الوهم والشّكوك والظّنون والقلق مع استعداد المسحور النّفسي لتلقي ذلك، بالإضافة إلىٰ استخدام السّاحر لعقاقير أو مخدرات لتقوية تأثيره، لكنه لا يلقي هذا في النّفس إلقاء. انظر:
- شعبان، رانيا رجب. **حقيقة السّحر بين الموروث والمنصوص**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٤م، ص٦٤.

وتناقلوا من القصص الكثير حول تداخل الجن مع الإنس. والعرب قوم أميون وكثيراً ما كانوا يلجأون لليهود بصفتهم أهل كتاب لاستشارتهم في كل ما يواجهون، وهم يجيبون بحسب ثقافتهم -ثقافة بني إسرائيل-، فانتشرت هذه القصص وصارت ثقافة في شبه الجزيرة العربية، حتىٰ جعلت من تقاليد أهل الجاهلية أنّه إذا أدركهم الليل وهم مسافرون وأرادوا المبيت في وادٍ فإنهم كانوا ينادون علىٰ سيد ذلك الواد من الجن -بحسب اعتقادهم- ويستعيذون به أن يصيبهم أي مكروه من الجن وسواهم، وأنّهم يريدون أن يقضوا ليلهم بحمايته، ولهم في ذلك طقوس وروايات كثيرة، حتىٰ شاعت فكرة الزّواج بينهما، وظلت هذه الثّقافة مسيطرة، وعمل القرآن الكريم وسيدنا رسول الله ﷺ علىٰ استئصالها، لكنها بقيت مسيطرة علىٰ عقول الكثيرين، حتىٰ إن بعض الفقهاء قد قبلها، [1] وكان يجب عليهم أن يدركوا أن النسق الإسرائيلي كان نسقاً قائماً علىٰ الحسِّيات وتجسيد الغيبيّات لتحويلها إلىٰ حسّ ومشاهدة، وهذا النَّسق بكل تفاصيله قد نُسِخ وأُبطِل وجاء نسقٌ آخر مغايرٌ له تماماً، نسق قائم علىٰ العقل والعلم والبرهان ورفض كل ما لم يُنزّل الله به سلطاناً. ومع ذلك فإنَّ الثقافة الشفويَّة والأخيلة الشعبيَّة قد استمرأت هذا الأمر وروّجت له، وجعلت منه مسلَّماً من المسلَّمات يعتقده كثيرون ويؤمنون بتأثيره ووقوعه، ولا تزال أريافنا زاخرة بهؤلاء الذين يعتقدون بوجود هذا النّوع من العلاقات، وعقلية العوام السّائدة تقبل هذه الأفكار المتداولة خاصة في بعض المناطق من الجزيرة العربية.[2]

(١) قال البهوتي: "ومن قالت بي جني يجامعني كالرجل فعليها الغسل." انظر:
- البهوتي، منصور بن يونس بن إدريس (توفي: ١٠٥١هـ). **شرح منتهىٰ الإرادات**، بيروت: عالم الكتب، ط٢، ١٩٩٦م، ج١، ص٨١.

(٢) صحيفة عكاظ، ١٠-١١-١٤٣١هـ، وتحكي الجريدة عن قاض مرتش كان يعمل في المدينة المنورة، أن هذا القاضي المرتشي بعد أن افتضح أمره وكُشف سرّه وأحيل إلىٰ المحكمة ادّعىٰ بأنّه بريء، وأنّه لم يأخذ الرّشوة لنفسه ولم يتسلمها بنفسه، ولكن قريناً من الجن قد استقر فيه وسحره ودفعه إلىٰ أخذ الرّشوة التي تسلمها الجني، وبحسب الجريدة أنّ المحكمة دعت أحد الذين يشتغلون بالرقية الشرعية واسمه فايز القثامي ليستنطق الجنيّ السّاكن في جسد القاضي المرتشي أمام المحكمة التي تحاكم هذا القاضي المرتشي، وأن هيئة المحكمة قد سجلت حديث الجني للراقي، وتحدث الجني عن كثير من معاملات الفساد دون أن يذكر تفاصيل، وأنّ الرّاقي قد صرح فيما بعد ببعض التّفاصيل، وقال بأنّ قاضي المحكمة قرأ علىٰ الجنيّ الكامن في القاضي المسحور بعض الأدعية والآيات، وهناك بعض المشايخ جاؤوا من القصيم وقرأوا عليه، وأنّ الجنيّ تكلم معهم. وليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل إنّ هؤلاء -وهم يسوغون ما فعلوا-=

ولقد نُشر في مصر كتاب عن أحد الصحفيين[(١)] ووضع له عنواناً لافتاً جاء فيه (حوار صحفي مع جني مسلم) ونَشر الكتاب وروّج له من روج لبعض الوقت، وزعم أنّ مقر إبليس المختار هو موقع ما فوق جزيرة برمودا، وأنّ ذلك الموقع هو موقع عرش إبليس، واستدل الصّحفي علىٰ ذلك بأخبار سخيفة من أنّ الطّائرات لا تستطيع التّحليق فوق ذلك الموقع المشار إليه، وأنّ أيّة طائرة تحلق في هذه الأجواء سرعان ما يكتشفها الرّادار الإبليسي فيسقطها مع إعدام آثارها، وكذلك السّفن التي تحاول الاقتراب من ذلك المكان.

وهناك عدد من المحطات الفضائية الآن تعمل ليل نهار علىٰ التّرويج لقضايا السّحر والادِّعاء بأنَّ أولئك الرُّقاة والمشعوذين قادرون علىٰ إبطال مفعول السّحر بالتّليفون وبأيّة وسائل أخرىٰ، نتيجة لذلك كله كان لا بدّ لنا ونحن نفسر القرآن بالقرآن إلىٰ التّعرض لهذه الجريمة التي اسمها السّحر، وبيان ما ترتب علىٰ ثقة بعض النّاس بها من مفاسد، من تكريس لعقليات العوام، وسرقة أموالهم والتّصرف بمقدراتهم، وانتهاك أعراضهم في بعض الأحيان.

وكنا نتوقع من الأزهر وكلياته ومعاهده أن يشن حرباً لا هوادة فيها علىٰ السِّحر والسَّحرة وأن لا يهدأ لأزهري بال قبل أن يجتث السّحر من هذا المجتمع، وتطهر

= قالوا: (إنّ الرّسول ﷺ سحره لبيد بن الأعصم فلم تستغربون أن يسحر القاضي).

ومما جعل بعضهم يتبنون فكرة التّداخل بين عالمي الإنس والجن، تلك القصّة التي يغلب أن تكون مدسوسة علىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، وهي ما روي عنه من قوله في مجموعة رسائله: "وكان لنا جنيّ يحبنا ونحبه، ويتمثل بنا في بعض المواقف، وكثيراً ما كان شُرط السّلطان وحُجّابه يهرعون إلي في سجني ليتأكدوا من وجودي فيه، لأنّ هذا الجني كان يحب أن يتمثل بي ويظهر بهيأتي ويذهب إلىٰ السّلطان يأمره وينهاه، فيستغرب السّلطان كيف خرجت من السّجن وهو قد أكد علىٰ ضرورة وضعي فيه وعدم إخراجي منه إلّا بأمر منه، وكنت أضحك حين أرىٰ جند السّلطان يقولون لي: أين كنت قبل قليل، ألم تزر السّلطان وتتحدث إليه؟ فأعرف أنّ صاحبي قد فعلها" انظر:

- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني (توفي: ٧٢٨هـ). **الرسائل الكبرىٰ «رسالة الفرقان بين الحق والباطل»**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج١، ص٥٢.

هذه القصة نستبعد نسبتها إلىٰ ابن تيميّة؛ ذاك الرجل الذي عُرِف بعقله وحكمته وحسن تدبّره لكتاب الله -تعالىٰ-، وما أظنّ أنّه لم يتدبّر سورة الجنّ بما يكفي، لأن يعلم منها أنّه لا صلة بين الإنسان والجنّ والشياطين، مثل هذه الصلة التي تقوم علىٰ ما يُشبه وحدة النوعين، وهو أمرٌ لا يقول به رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولا تلامذته.

(١) انظر: خليل، سعد الله. **حوار صحفي مع جني مسلم**، الحوار المتمدن، ٢٠٠٥م.

البلاد منه ومن متعاطيه بشكل كامل، فذلك هو الأجدر بالأزهر وبمجمع البحوث الإسلامية وبالهيئات الدِّينيّة المختلفة من الانشغال في أية أمور أخرىٰ، كذلك كنّا نتوقع من الجامعات الإسلامية التي جاوزت أعدادها المائة في كل أنحاء العالم الإسلامي أن تحارب هذه الآفة الخطيرة حتىٰ تقتلعها من بيئات المسلمين وعقولهم.

السِّحر في القرآن الكريم

وردت مادة "س ح ر" في كتاب الله في سبعة وخمسين موضعاً، أغلبها يدور حول المعنىٰ الذي تعارف النّاس عليه عندما يقولون كلمة "سحر" ويستخلص من تلك الآيات كلها ذم السّحر والسّحرة والتّحذير منه ومن ممارسته أو العناية به أو الانخداع بأهله، وبعض تلك الآيات الكريمة أشارت إلىٰ أنّه نوع من المعرفة يمكن أن يتعلمه النّاس ويمهروا به، وهو في الوقت نفسه وسيلة من وسائل إرهاب النّاس وتخويفهم ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٦] وهكذا يمضي القرآن الكريم – مع عادته في التّعريف بالشيء – ببيان وظائفه المختلفة والمتعددة والصّفات الكثيرة التي تتضافر كلها في بيان تلك الحقيقة دون حاجة إلىٰ تعريف جامع مانع مثل تعاريف المناطقة، فميز القرآن الكريم بين السحر وآيات الأنبياء، وبينه وبين والقوانين الكونية والطّبيعية التي لا أحد يقدر عليها إلّا الله تعالىٰ، ونبه إلىٰ أنّه نوع من التّخييل، وأنكر القرآن الكريم علىٰ من يقولون علىٰ الشّيء الحقيقي الملموس سحراً، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧]، فذكر السّحر هنا للذم والتّدليل علىٰ فساد معتقدهم، فكيف يكون سحراً وهو شيء مادي ملموس في كتاب، بل لمسوه بأيديهم، وليس فقط رؤية عينية مما قد تخدع أو تخيل للنّفس أشياء، لكن مع وجود الموروث الثّقافي الخاطئ في نفسية العوام، والفهم الخاطئ لأمر السّحر، والهيبة من السَّاحر، والاستعداد النّفسي لتقبل مثل تلك التّخييلات علىٰ أنَّها خوارق للعادة، تنجح هذه التَّخييلات في التّأثير علىٰ المسحور وإقناعه وإخضاعه.

وتعدّ واقعة التّحدي بين سيدنا موسىٰ وفرعون وسحرته من أهم الوقائع لأنّها استهدفت وضع خط فاصل بين السّحر والآيات، فالسّحر عمل باطل بطبيعته وليس له أية آثار، لذلك يقول تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١]، فسحرة فرعون قدموا أعلىٰ ما لديهم من المؤثرات التي سحرت أعين النّاس وخيلت إليهم ما ليس من الحقيقة حتىٰ استرهبوهم، قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٦] وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: ٦٦] وتأمّل كلمة "يُخَيَّل" وما توحيه من معاني الوهم والبعد عن الحقيقة، فهي لا تسعىٰ في حقيقتها وإنّما يخيل للنّاظر أنّها تسعىٰ، فهذا من تعليم القرآن الكريم لنا بأنَّ السّحر لا حقيقة له، وإنّما هو محض تخييل للعين وإيهام لمخيلة المسحور بحدوث شيء لم يحدث في الواقع، ورغم أنّه تخييل إلَّا أنَّه أدخل شيئاً من الخوف علىٰ نفس موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه: ٦٧] وكذلك الأمر مع عامة النّاس، فالتّأثير النَّفسي لفعل السّاحر لا يدل علىٰ حقيقته، فالإنسان قد يتأثر بالتّخييل فيخاف كما حدث لنبي الله موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ولإبطال هذا التّأثير علىٰ موسىٰ وعلىٰ النّاس وإبطال سلطان هؤلاء السَّحرة بتخييلهم وخدعهم، أمر الله -تعالىٰ- نبيه موسىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩]، فلم تصمد كل حيل السَّحرة أمام الحقيقة الكامنة في عصىٰ موسىٰ، التي لقفت كل إفكهم ومحت آثاره.

ولـمّا كان هؤلاء السَّحرة أمهر النّاس في السِّحر الباطل استطاعوا أن يدركوا علىٰ الفور الفرق الكبير بين الحق الذي ألقىٰ به موسىٰ، والباطل الذي سحروا به أعين النّاس، وانكشف لهم آنذاك الزّيف الذي كانوا يعيشون فيه، وأدركوا الفرق بين الاثنين، وما أروع قول الله تعالىٰ: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف: ١٢٠] كأنّهم سقطوا مع السّحر ساجدين لخالق الحقيقة التي كشفت الزّيف، وأنّهم لم يهيِّئُوا أنفسهم لهذه اللحظة، بل كانوا يقولون: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء: ٤٤].

ولـمّا كان بعض السّحرة يدّعون أنهم قادرون على أن يسخروا الجن ليأتوهم بما يريدون من أخبار مغيبة، فقد أوضح القرآن الكريم أنّ هناك انفصالاً بين هذه العوالم لا يسمح بذلك التّداخل الذي زعموه هم وأولياؤهم من الشّياطين، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وكيف يسوغ لمسلم أن يُصدِّق بإمكان تأثير السحر علىٰ أيّ إنسانٍ وهو يؤمن ويُوقن أن لا مؤثّر في هذا الوجود إلا الله، ومن يقرأ سورة الجنّ -السورة الحاسمة التي بيّنت ما بين الإنسان والعوالم الغيبيَّة-: يستطيع أن يُدرك أنَّ العلاقة بين عالم الإنس وعالم الجن والمخلوقات الغيبيَّة الأُخرىٰ أمرٌ قد حدّده الله -تبارك وتعالىٰ-، وأنَّ بَدْء نزول القرآن علىٰ رسول الله محمد ﷺ كان إيذاناً بطيّ صفحات التواصل والعلاقات التي كانت مُتخيَّلة أو واقعة فيما يتعلّق بالنَّسَق الغيبيّ في رسالة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فالسورة قد بيّنت أنّ الجن الذين آمنوا بالقرآن المجيد قد تأثروا بما سمعوه من القرآن الكريم ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١-٢] وهو ما يعنى أنّ رسول الله ﷺ وهو من الإنس قد أثّر في الجن لا العكس، فلم يقل ﷺ "قد التقيت بفريق من الجن فدعوتهم إلىٰ القرآن أو تلوته عليهم"، ولقد عابت السورة علىٰ الإنس الذين يعوذون برجال من الجن وأنّهم لن يزيدوهم إلّا رهقاً. ولقد أكدت الآيات في سورة الجن أنّ طريق وصول الدّعوة إليهم هو استماعهم للقرآن ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ [الجن: ١٣] وتنتهي بقوله تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجنّ: ٢٦-٢٨]. فهذه السّورة لو تأملها وتدبرها المسلمون لوجدوا فيها الجواب الشافي عن كل تساؤلاتهم حول العلاقة بين الإنس والجن.

ويرد القرآن الكريم علىٰ أولئك الذين يزعمون أنَّ الشّيطان قادر علىٰ إجبار الإنسان أن يقول أو يفعل شيئاً لا يريده بنفسه، بقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ

أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فلا سلطان للشّيطان على بني آدم إلّا بأن يدعو فقط، والإنسان إمّا أن يستجيب أو لا يستجيب، فأولياء الشّيطان هم الذين أعطوه هذا السّلطان عليهم ابتداءً فهم الذين تولوه وسمحوا أن يكون له عليهم هيمنة وتأثيراً بوسوسته، وليس هو الذي فرض عليهم سلطانه، ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠]، وبذلك علّم الله الإنسان أنّ قصارى ما يمكن أن يحدث من الجن أو الشّياطين تجاه الإنس هو الوسوسة والدّعوة والتّرغيب بفعل الخبائث وتزيينها لهم، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس: ٥].

كما علّم الله الإنسان كيف يحرر نفسه ويحول بين الشّيطان وبين الوصول إلى أهدافه، وذلك بالتّحصن بالإيمان بالله تعالى والتّوكل عليه.

وكان نزول المعوذتين للتّأكيد على أنّ السّحر والنّفث في العُقَد، [1] وسائر ما كان

---

(١) ورد النّفث في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفلق: ٤] وأصله قذف الرّيق القليل، وهو أقل من التّفل، وشاع استعماله عُرفاً في نفث الرّاقي والسّاحر أن ينفث في عقده، ويقال عن الحية "تنفث السّمّ" وفي الأمثال "لا بدّ للمصدور – المصاب في صدره – أن ينفث"، ويقال للدّم الذي ينفثه الجرح: "دم نفيث"، والنّفث فعل يقوم به السّاحر إذا ربط عقد السّحر، ويقوم به الرّاقي الذي يرقيه ليبرأ من السّحر وتأثيره. وقد استعمل القرآن الكريم هذه المادة اللفظية بناء على معهود العرب في أنَّ النّفاثات في العقد يراد بهنَّ السّاحرات. قال العلامة أبو شهبة في "المنهج القويم في تفسير القرآن الكريم" : ذهب كثيرون إلى تفسير الآية "نفاثات" إلى أنّهم الساحرات، لأنّ أكثر من يزاولون السّحر نساء، غير أنّها تحتمل أن تكون جمع الجمع، فصيغة المبالغة "نفاث" جمعها "نفاثة"، فهو جمع بالمعنى وليس باللفظ مثل "جماعة"، وجمع الجمع منها "نفاثات"، مثل "قناصة" لمجموعة قناصين، ومثله في القرآن الكريم "الصافات" وهم الملائكة وهي جمع من "صافة" وقد نفى الله تعالى عنهم صفة التّأنيث، فهي تصلح للذكور والإناث. رأي الإمام محمد عبده في "النّفاثات في العقد" أنّ العقد هي كل ما يعقد ويؤمن به ويؤخذ عليه المواثيق، كالنّكاح، والبيع والمعاهدات وغيره. فالنّفاثات في العقد هم الذين يسعون لقطع هذه العقد والروابط بطريقة خفية لطيفه لا يفطن الإنسان إليها ولا يعرف مصدرها، كالنّميمة التي هي فعل خفي ينبع من كلام يخرج من الفم بكيفية لطيفة قد توهم السّامع وتخييله إليه أنّه حق. هذا التّفسير يتماشى مع سياق =

يدعي أَنَّهُ يؤثر في الإنسان كل ذلك لإخافته واستلابه من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ لمنح الإنسان الإحساس بالأمن والثّقة بالله -تبارك وتعالىٰ- واحتقار الشّيطان ومحاولاته وما يفعله هو وأولياؤه، كأنَّه يقول لهم: "إنَّ في مقدوركم وبإمكانكم التّخلُّص بهاتين السُّورتين القصيرتين من سائر المخاوف الّتي يخوف الشّيطان بها أولياؤه.

وكانت هاتان السُّورتان عوذة لرسول الله ﷺ يتعوّذ بهما، و ﷺ كثيراً ما كان يعوذ بهما الحسن والحسين، ويأمر أصحابه بالتّعوّذ بهما.

شبهة سحر الرّسول و تأثيره فيه

عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "سُحِرَ النبي ﷺ ، حتىٰ كان يُخَيَّلُ إليه أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وما يَفْعَلُهُ، حتىٰ كان ذَاتَ يَوْمٍ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قال: أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيما فيه شِفَائِي، أَتَانِي رَجُلَانِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فقال أَحَدُهُما لِلْآخَرِ: ما وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قال: مَطْبُوبٌ، قال: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قال: لَبِيدُ بن الْأَعْصَمِ، قال: فِي مَاذَا؟ قال: في مُشُطٍ وَمُشَاقَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، قال: فَأَيْنَ هو؟ قال: في بِئْرِ ذَرْوَانَ، فَخَرَجَ إِلَيْهَا النبي ﷺ ثُمَّ رَجَعَ، فقال لِعَائِشَةَ حين رَجَعَ: نَخْلُهَا كَأَنَّهُ رؤوس الشَّيَاطِينِ، فقلت: اسْتَخْرَجْتَهُ؟ فقال: لَا، أَمَّا أنا فَقَدْ شَفَانِي الله وَخَشِيتُ أَنْ يُثِيرَ ذلك علىٰ الناس شَرّاً، ثُمَّ دُفِنَتْ الْبِئْرُ."(١)

ابتداءً، لقد أكّد القرآن الكريم أن عصمة رسول الله وحفظه كحفظ القرآن الكريم، ففي حفظ القرآن الكريم جاء قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾

= السّورة من الاستعاذة من كل مواطن الشّرور الكامنة الخفية. وصوغ المعنىٰ بهذه الطّريقة إنّما هو لتقريب الأفهام إلىٰ الذهن مثل "و كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه" فهذا من استخدام المعاني الدارجة لدىٰ العرب ولكن بطريقة جديدة لإعطاء معنىٰ جديد في القرآن، فهو تفكيك للصورة العرفية المتداولة وإعادة تركيب عناصرها لإعطاء معنىٰ جديد. انظر:

- شعبان، **حقيقة السّحر بين الموروث والمنصوص**، مرجع سابق.

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب بَدْءِ الْخَلْقِ، بَاب صِفَةِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، حديث رقم (٣٢٦٨)، ص٦٢٦. وانظر أيضاً:

- مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب السلام، بَاب السِّحْرِ، حديث رقم (٢١٨٩)، ص٩٠٠.

مطبوب: مسحور. مُشط: آلة تسريح الشعر. مشاقة أو مشاطة: ما يسقط من الشعر. وجف طلع نخلة ذَكَر: هو الغشاء الذي يكون علىٰ الطّلْع، ويطلق علىٰ الذكر والأنثىٰ، فلهذا قيده بالذَّكَر.

[الحجر: ٩]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وهذا أمر منطقي إذ لو اخترق حماه ﷺ فسينعكس ذلك على القرآن ورسالته التي يحملها إلى البشرية، وهذه العصمة عصمة شاملة عامة، تجعله في مَنَعة كاملة من كل ما خلق الله جلَّ شأنه، فيستحيل أن يتعرض لأي شيء قد يخل بمهام النّبوة والرّسالة من تلق عن الله -جلَّ شأنه- وتعليم وتزكية للبشرية.

وها نحن نتناول هذه الرّواية -التي هي من أخبار الآحاد[1] بل ومتنها يناقض صريح القرآن المجيد- فنخضعها للقرآن الكريم، لأن الروايات حينما لا تخضع للقرآن الكريم وموازينه فإنّها تتحوَّل إلى مَظنة أفهام ومذلة أقدام، لذا نقول:

أولاً: لقد سادت في تراثنا بعض أقوال أدّت إلى التّعجُّل في رواية مثل هذه الأخبار المزعومة، منها قولهم: "**ناقل الكفر ليس بكافر**" أو: "**من أسند فقد أعذر**"، ونحن نقول إنَّ ناقل الكفر إذا نقله وهو يعلم أنّ ذلك سيخدم الكفر ويروج له فهو مسؤول أمام الله عن ذلك، وأنّ من أسند إذا لم يكن على علم بكل واحد من رجال السّند وبعدالته وبوجود كل ما يوثقه فلن يكون معذوراً أمام الله، فأي واحد من البشر إذا أراد أن يفتري فلن يعدم وسيلة أن يختلق إسناداً لما يشاء من أكاذيب أو يتلاعب فيضعف الموثق ويوثق المضعف ليصل إلى غرضه.

ثانياً: أمَّا كون الرِّواية قد وردت عند الشيخين -البخاري ومسلم- فذلك لا يعني أنَّها رواية ثابتة صحيحة، فلقد استدرك أئمة الحديث على الإمامين كثيراً من الأحاديث، كالدّارقطني الذي استدرك على البخاري مائة وعشرين حديثاً، واستدرك الآخرون على مسلم ما استدركوا. إنّ الإمام البخاريّ -وهو إمام جليل القدر

(١) حديث السّحر خبر آحاد، بل خبر واحد، عن هشام عن عروة بن الزبير عن عائشة، ورواه بعد هشام كثيرون. فيجب أن تُعرض الرّوايات على القرآن الكريم للتثبت، كما كان يفعل عمر بن الخطاب وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، دون اتّهام ولا تشكيك في نوايا أحد. فقد اشترط الإمام مالك في خبر الآحاد ألّا يخالف عمل أهل المدينة، وكتابه الموطأ، ترك العمل بـ ٧٠ حديثاً منها ما هو في الصحيحين. وقال ابن تيمية في المسوّدة: "إنَّ من رد الخبر الصحيح كما كانت الصحابة تردّه، لا لاعتقاد غلط الغافل، أو كذبه، ولكن لاعتقاد الراد أن الدليل قد دل على أنّ الرسول لا يقول هذا، فإنّ هذا لا يكفر ولا يفسق، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً. فقد ردّ غير واحد من الصّحابة غير واحد من أخبار الآحاد التي هي صحيحة عند أهل الحديث".

وهفوات الكبار علىٰ أقدارهم- لو أخضع المتن للنقد وفقاً لمقاييس نقد المتون لديه ولدىٰ بقية المحدِّثين لما سمح لنفسه أن يضع هذا الحديث. إنه -وهو المحدِّث الفقيه- بيّن أنه قد أهمل ما يزيد عن سبعمائة وخمسة وأربعين ألفاً من الأحاديث -حسبما رُوي عنه-، لينتقي من بينها أربعة آلاف حديث.[1] وقد كان يسعه -يغفر الله لنا وله- أن يضع هذا الحديث بين تلك الآلاف التي تجاوزها بدلاً من وضعه بين ذلك العدد القليل الذي اختاره.

ثالثاً: إن المستفيدين من اتِّهام رسول الله ﷺ بالسّحر هم فقط أعداء الله والدّين والبشرية، ولن يستفيد بذلك مؤمن واحد علىٰ وجه الأرض أبداً لا في القديم ولا في الحديث، وإذا تعلل البعض بأنّ في ذلك تعزيزاً لبشريته مع نبوته ورسالته، فإنَّ السَّحر لا يضر بعامة النَّاس -سبق وأسهبنا في ذلك- فما بالك برسول الله ﷺ.

رابعاً: لقد نصّ القرآن المجيد صراحة علىٰ تكفّل الله تعالىٰ بعصمة رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]. وهذه الآية عامة في السِّحر وغيره، ولِحِكمةٍ أرادها الله -جل شأنه- استعمل لفظ الناس لتكون عامة في السحرة وغيرهم، فكيف يُقال بعد ذلك إنّ رسول الله ﷺ سُحِر!؟ أم أن المسلمين يعتقدون أن سحر اليهودي أقوىٰ من النّبوة والرّسالة والوحي، بل ومن العصمة الإلهية؟ ولو أنّ هؤلاء تحاكموا إلىٰ كتاب الله لوجدوا أنّ من المستحيل أن يسحر رسول الله ﷺ ما دام الله قد تعهد بعصمته، فهذا النّوع من الشّبهة لو روته الآلاف لرفضناه بالقرآن المجيد الذي نزه رسول الله ﷺ عن السّحر وتأثيره.

خامساً: غفل الذين تداولوا هذه الرواية -وروّجوا لها وأعلوا من شأنها برواية الشيخين لها-، عن أنَّ ذلك يهدم الثقة بالرسالة كلّها، لأنّنا لو سلّمنا بأنَّ رسول الله ﷺ سُحر ولو للحظة واحدة فذلك يعطي لأي مُنكر لرسالته ﷺ الحق في أن يتساءل عن كل آية أو سورة من القرآن، ما إذا كانت قد نزلت عليه ﷺ وهو مسحورٌ أو بعد أن شُفي من السحر؟ وفي ذلك ما فيه من خطرٍ علىٰ الثقة بالرسالة والرسول ﷺ، وعلىٰ

(١) جملة ما في صحيح البخاري سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون (٧٢٧٥) حديثاً بالمكررة، وبحذف المكرر أربعة آلاف.

التبليغ والصدق به، لا سيما أن مَن سُحر لمدة أسبوع -مثلاً- فإنَّه من الممكن أن يُسحر لمدة شهر وسنة، وأن يكون طيلة فترة رسالته مسحوراً، كقول المشركين الذي حَكاهُ القرآن عنهم: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٤٧﴾ [الإسراء: ٤٧]، فكيف هان عليهم أن يُكذّبوا القرآن ويُصدّقوا المشركين واليهود وينضموا إلىٰ صفوفهم في اتهام رسول الله ﷺ بالتأثُّر بسحر ذلك اليهوديّ لبيد بن الأعصم! ولو عقل هؤلاء الذين يرددون مثل هذا الحديث وأدركوا مقام النّبوة والرّسالة وعرفوه علىٰ حقيقته لما سمحوا لأنفسهم لترويج هذه الدّعوىٰ الكاذبة وفتح باب من الشّرِّ علىٰ الرِّسالة والرّسول وعلىٰ الأمّة كلها، ليس من السّهل إدراكه إلّا إذا ارتفعت درجة وعي هذه الأمّة بكتابها القرآن المجيد إلىٰ المستوىٰ المناسب.

سادساً: لو علم مشركو قريش أنَّ السّحر يمكن أن يؤثر فيه ﷺ لسحروه وهو لا يزال في مكة بدلاً من أن يبذلوا المهج والأرواح في مقاتلته ﷺ ثمّ ينهزمون، بل هم الذين قالوا: "وإن كان الذي يأتيك رأياً بذلنا أموالنا في ذلك حتىٰ تشفىٰ"، وسحرة فرعون لو علموا أنَّ السّحر يؤثر علىٰ موسىٰ لكان أهون عليهم من تلك المبارزة أن يسحروه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقد كانوا أكثر النّاس معرفة بالسّحر وطرقه ومسالكه، لكن لم يحدث هذا، فلم يسحروا موسىٰ ولا هارون عليهما السّلام فأنىٰ للبّيد بن الأعصم أن يسحر رسول الله ﷺ.

سابعاً: لو علم الكفرة أنّ سيدنا رسول الله ﷺ قد تعرَّض إلىٰ السّحر لجاءت آلاف الرّوايات عنهم تؤكد هذه الواقعة ولم تقتصر رواياتها علىٰ آحاد، فضلاً أن يكون مدارها علىٰ واحد، وعدم تواتر هذه القصّة -مع وجود آلاف الدّواعي علىٰ تناقلها ونشرها في العالم كله- من قبل الكافرين لإسقاط دعوىٰ الرّسول ﷺ ونفي نبوته ما دام قد تعرض للسحر، وأثّر السّحر فيه بحيث ظل أسبوعاً لا يدري أين هو، ولا ما الذي يفعله كأنَّه أُصيب بمرض فقدان الذّاكرة.

ثامناً: أنكر الجصاص وكذلك الإمام محمد عبده حديث سِحر رسول الله ﷺ وذكر أنَّ من علامة وضعه مخالفته للقطعيّ من القرآن المجيد، وقد استبعد أقوال مَن

حاولوا تأويله وإخراجه عن ظاهره، مثل زعمهم أنَّ تأثير السحر كان في جسم رسول الله ﷺ وخياله، والذي ردّه الإمام بأنَّ رسول الله ﷺ أجلّ وأعظم -بعصمة الله له- من أن يؤثِّر فيه شيء من ذلك، فنفسه أعلىٰ النفوس وأزكاها وأقواها.

وختاماً، فإنَّ المسلم وقد أنزل الله إليه المعوِّذتين عليه أن يداوم علىٰ قراءتهما ويعوّذ نفسه بهما، لا لأنَّه لو لم يفعل فستستولي الشياطين أو الجنّ عليه ويدخلون فيه، ولكن ليقوّي إيمانه بالله -تعالىٰ- وليُضعف من شأن تلك الثقافات والتخيُّلات، فلا يسمح لها أن تخترق إيمانه، أو تؤثّر تأثيراً سلبيّاً في يقينه، فالمعوِّذتان وذِكر الله -تعالىٰ- علىٰ الدوام كل ذلك كفيل بزيادة وتقوية جهاز المناعة العقليّ والنفسيّ لدىٰ الإنسان، بحيث لا يمكن أن يتسلّل إليه الشك بأنّ هناك مؤثراً في هذا الوجود -في حياته أو أَجَله أو صحته أو مرضه- غير الله -تبارك وتعالىٰ- ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١]. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧]، والله -تبارك وتعالىٰ- جعل للإنسان ملائكةً كاتبين وحَفَظة ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١] فالإنسان في هذا الكون محفوظٌ حتىٰ يبلغ الكتاب أجله لا يؤثّر عليه مؤثِّر، ويكفي المؤمنين أن يُذكِّروا أنفسهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِىۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فقد اعترف بعجزه عن أيّ تأثير وأنّه لا يملك إلا أن يدعو أولياءه، ولضعف نفوسهم وإيمانهم يستجيبون له، وقال -جل شأنه-: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

المهم ألّا يغفل المؤمن عن ذكر الله ولا عن مداومة الصلة بالقرآن الكريم، وإذا حصل وغفل وشعر بشيء من الفتور في علاقته بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سارعَ إلىٰ الرجوع إليه سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢]. كما أُذكِّر بأنَّ من غير المقبول شرعاً تداول تلك القصص التي تؤكّد تأثير السحر والسحرة وتفتح عقول الناس إلى الخُرافة، فإنَّها من تلك الأنباء والقصص التي لا يجوز تداولها وأخذها على عواهنها، وإلا فإنّني أخشى على مُروّجي تلك القصص ورُواتها أن يشملهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠٣].

ولو أن اليهود آمنوا وخافوا الله لأيقنوا أن ثواب الله خير لهم من السِّحر ومما اكتسبوه به، لو كانوا يعلمون ما يحصل بالإيمان والتقوى من الثواب والجزاء علماً حقيقيّاً لآمنوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤].

يا أيُّها الذين آمنوا لا تقولوا لنبيكم ﷺ: "راعنا، أي: راعنا سمعك، فافهم عنا وأَفْهِمنا، لأن اليهود كانوا يقولونها للنبي ﷺ يلوون ألسنتهم بها، يقصدون سبَّه ونسبته إلى الرعونة، وقولوا -أيها المؤمنون- بدلاً منها: انظرنا، أي انظر إلينا وتعهَّدْنا، وهي تؤدي المعنى المطلوب نفسه، واسمعوا ما يُتلى عليكم من كتاب ربكم وافهموه. وللجاحدين عذاب مُوجع.

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥].

ما يحب الكفار من أهل الكتاب والمشركين أن يُنزَّل عليكم أدنى خير من ربكم قرآناً أو علماً، أو نصراً أو بشارة. والله يختص برحمته مَن يشاء مِن عباده بالنبوة والرسالة. والله ذو العطاء الكثير الواسع.(١)

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص١٦.

النَّجم الحادي عشر: النَّسخ

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠٦ – ١١٠]

التراثُ التفسيريّ المنقول إلينا من القرون السابقة نَظَر إلىٰ هذه الآية: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ﴾ [البقرة: ١٠٦] علىٰ أنّها دليلٌ علىٰ جواز النسخ بل ووقوعه؛[١] فأما كونها دليلًا فينفيه السياق الذي وردت فيه، فالآية التي سبقتها هي قوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥]، تبين بوضوح أن هؤلاء الكافرين من اليهود والمشركين لا يرجون إلا ضرر المسلمين والعرب ولا يودّون أن يُنزَّل عليهم خير من ربهم، والله لا يقيم وزناً لما يرجون وما يكرهون، فالله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم والمنّ الكَبير بِالنبُوَّةِ والإسلام علىٰ مُحَمَّد ﷺ، لكي يقيم الحُجّة عليهم حتىٰ لا يقولوا يوم القيامة ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٦-١٥٧]. فالآية في هذا السياق دليلٌ علىٰ نسخ آية بني إسرائيل وأنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- قد استبدل بأُمَّتهم هذه الأُمَّة، وما أُنزل إليهم بهذا الكتاب المبارك، لكن العقل التجزيئيّ الذي ظنّ أنَّ بإمكانه أن يقتطع أيّة آية من سياقها بل جزء آية ويبني عليها ما شاء هو الذي جرّ إلىٰ تحميل هذه الآية الكريمة ما لا تحتمل.

(١) لأنهم فسروا الآية بالآية القرآنية.

وإذا أردنا أن نستنبط من هذه الآية حكماً فإنّه حكمٌ يتعلّق بنسخ آية بني إسرائيل ونسقهم وشريعتهم وما أحاط بأحكامها من حرج وإصرٍ وأغلال نجمت بناءً على بغيهم وظلمهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١] كذلك عقّب على التشدُّد في بعض الأحكام بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦] فلم تعد هناك حاكميَّة إلهيَّة ولا شريعة إصر وأغلال ولا حرج وعَنَت ومشقة، لأنَّ هذه الشريعة القرآنيَّة هي شريعة تخفيف ورحمة وحل الطيبات وتحريم الخبائث ووضع الإصر والأغلال، أراد الله أن يخفّف عن البشريَّة كلّها بها، ومنهم بنو إسرائيل إذا آمنوا بالله ورسوله النّبيّ الأُمّيّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه، والله أعلم.(١)

فقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] أي ما ننسخ من آية بني إسرائيل أو الذين كفروا من أهل الكتاب، أو نُنسي الناس آية كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنّه آتٍ بخيرٍ منها أو بمثلها بمقتضى قدرته -جل شأنه- وبمقتضى ملكيّته للسموات والأرض، وولايته ونصرته لعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة: ١٠٧] فقوله تعالى: ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] المقصود به محمدٌ ﷺ وهذه الآيات القرآنية التي أُنزلت عليه والتي تستوعب وتتجاوز سائر آيات الأنبياء ومعجزاتهم، والخوارق التي برزت على أيديهم، فَبَيْنَ أيدينا ستة آلاف ومائتان وثمانٍ وثلاثون آية هي مجموع آيات الكتاب التي كَفَت وشَفَت وأنارت وهدَت ووفّت وزادت، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة: ١٠٨] يلتفت السياق إلى هؤلاء المؤمنين الذين منّ الله عليهم بإنزال هذا الكتاب محذّراً إياهم﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا

(١) العلواني، طه جابر. **نحو موقف قرآني من النسخ**، القاهرة: مكتب الشروق الدولية، ٢٠٠٧م، تجد فيه فوائد كثيرة.

سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: ١٠٨] مثل أن تروا الله جَهرة كما سألت بنو إسرائيل، أو تسألونه ما كان بنو إسرائيل يسألون موسىٰ أن يأتيهم به علىٰ الدوام. وعدّ ذلك منهم استبدالاً للكفر بالإيمان، وتوعّد -جل شأنه- مَن يتبدّل الكفر بالإيمان بأنّه قد ضلّ سواء السبيل.

وعاد السياق في قوله تعالىٰ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩] ليؤكّد أنَّ أهل الكتاب -لشدة بَغْيهم وحسدهم وحنقهم وحقدهم علىٰ هذه الأمة أن منَّ الله عليها بإنزال هذا الكتاب المبارك- يتمنّون ردّ أولئك المؤمنين من بعد إيمانهم بذلك النور القرآنيّ -لو استطاعوا- كُفاراً بدافع الحسد الذي أصابهم بعدما ظهر لهم الحق بدلاً من أن تصيبهم الطمأنينة والاقتناع بذلك النور الإلهيّ. ومع ذلك، فقد أمر الله -تبارك وتعالىٰ- المؤمنين أن يعفوا ويصفحوا ويقابلوا ذلك الحسد والبغي بما يليق به من تجاهُل، فالآية في هذا السياق دليلٌ علىٰ نسخ آية بني إسرائيل ونسقهم وشريعتهم وما أحاط بأحكامها من حرجٍ وإصرٍ وأغلال نجمت بناءً علىٰ بغيهم وظلمهم، وأنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- قد استبدل بأُمَّتهم هذه الأمة.[1]

(١) ولقد التفت بعضُ المفسرين إلىٰ ضعف الاستدلال بهذه الآية علىٰ وقوع النّسخ، منهم الإمام الرازي الذي ذكر في تفسيره أنَّ الاستدلال بقوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦] علىٰ جواز النّسخ ووقوعه -أيضاً- ضعيف: لأنَّ "ما"ها هنا تفيد الشرط والجزاء، كما أن قولك: "من جاءك فأكرمه" لا يدل علىٰ حصول المجيء، بل علىٰ أنَّه متىٰ جاء وجب الإكرام، فكذا هذه الآية لا تدل علىٰ النّسخ، ولكن أنّه متىٰ حصل النّسخ وجب أن يأتي بما هو خير منه والله أعلم. انظر:

- الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين (توفي: ٦٠٦هـ). **مفاتيح الغيب «التفسير الكبير»**، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٨١م، ج٣، ص٢٤٤.
- القرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس (توفي: ٦٨٤هـ). **نفائس الأصول في شرح المحصول**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، ط١، ١٩٩٥م، ج٢، ص٦١٦.
- الأسنوي، الإمام جمال الدين عبد الرحيم (توفي: ٧٧٢هـ). **نهاية السول شرح منهاج الوصول في علم الأصول**، القاهرة: مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، (د. ت.)، ج٢، ص١٦١.
- الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين (توفي: ٦٠٦هـ)، **المحصول في أصول الفقه**، دراسة وتحقيق: طه جابر فياض العلواني، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٩٧م، ج٣، ٢٧٧.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ [البقرة: ١١٠].

واشتغلوا -أيُّها المؤمنون- بأداء الصلاة على وجهها الصحيح، وإعطاء الزكاة المفروضة. واعلموا أنَّ كل خير تقدمونه لأنفسكم تجدون ثوابه عند الله في الآخرة. إنه تعالى بصير بكل أعمالكم، وسيجازيكم عليها.(١)

النَّجم الثاني عشر: حجج اليهود والنصارى وبيان بطلانها

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ [البقرة: ١١١-١٢٣]

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص١٧.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١] أي قال اليهود لن يدخلها إلا اليهود وقال النصارىٰ لن يدخلها إلا النصارىٰ﴿تِلْكَ﴾ [البقرة: ١١١] القولة ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ شهواتهم الباطلة ﴿قُلْ﴾ [البقرة: ١١١] لهم ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١] هذه هي العقلية المسلمة، التي تطلب البرهان والدليل، ولا تقبل شيئاً لمجرد قصة تقال أو خبر يذكر، وإنما هاتوا برهانكم والدليل القاطع علىٰ صدق ما تقولون ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: ١١١] ﴿بَلَىٰ﴾ [البقرة: ١١٢] يدخل الجنة غيرهم ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] أي انقاد لأمره. وخصّ الوجه لأنه أشرف الأعضاء فغيره أولىٰ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] مُوَحِّد ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١١٢] أي ثواب عمله الجنة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة: ١١٢] في الآخرة.[1] وهكذا حسم الله الأمر بأن الجنة يدخلها من يستحقها، فلا يدخلها اليهودي لأنه يهودي ولا يدخلها النصراني لأنه نصراني ولا يُحرم منها المسلم لأنه مسلم، وإنما هناك مقاييس وضوابط وضعها الله -تبارك وتعالىٰ- أهمها أن يسلم الإنسان قلبه ووجهه لله -تبارك تعالىٰ- وهو محسن، غير مُسيء في تصوُّر ولا في فكر ولا في اعتقاد ولا في عمل ولا في سلوك، فمن كان كذلك ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١١٢] أي ثواب عمله الجنة﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة: ١١٢] في الآخرة.[2]

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] أي علىٰ شيء يصح ويُعْتدّ به ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣] قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، وحق من حمل التوراة والإنجيل وآمن بهما أن لا يكفر بالباقي، لأن كل واحد من الكتابين مصدق للآخر﴿كَذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ١١٣] مثل ذلك القول الذي سمعت به ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣] أي الجهلة الذين لا عِلم عندهم ولا كتاب كعَبَدة الأصنام والمعطِّلة، قالوا لأهل كل دين ليسوا علىٰ شيء، وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نَظَموا أنفسهم مع علمهم في سِلك من لا يعلم ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١١٣﴾ [البقرة: ١١٣] بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب اللائق به.

(١) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٢٣.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: ١١٤] ذكر الطبري في أسباب نزول هذه الآية أنها نزلت في نبوخذ نصر لأنه هدم الهيكل أو معبد يهود الذي يدّعونه في بيت المقدس. والحال أن القرآن الكريم نزل بعد نبوخذ نصر بقرون عديدة، والآية عامة في كل من يمنع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه ويغلق أبوابها ويهدمها ويسعىٰ في خرابها وتدنيسها، وقد رأينا في زماننا هذا الكثير من هذه الظواهر، فحينما استولت البلشفية أو الحركة الشيوعية علىٰ مقاليد روسيا أمرت بتحويل المساجد إلىٰ متاحف وأماكن للرقص وما سوىٰ ذلك، وأحياناً تهدم المساجد رأساً علىٰ عقب، كالمسجد الذي عُرف بالمسجد الأحمر في باكستان والذي هَدمه حاكم ذلك الوقت -عامله الله بعدله لا بفضله ولطفه- علىٰ رؤوس الطلبة الذين كانوا يطلبون العلم فيه، بحجج مختلفة ودعَاوَىٰ مُغرضة.

وأحبُّ أن أُنبه إلىٰ أن تخريب المساجد والمعابد لا يكون فقط بهدمها وتحويلها إلىٰ أرض جرداء أو إلىٰ شيء آخر كما فعل الشيوعيون في روسيا وأمثالهم، ولكن إخلاء المساجد من العابدين والقُرّاء ومن الذاكرين وغير ذلك هو تخريب لها؛ لأن مساجد الله ينبغي أن تُرفع، وأن تتاح فيها فرصة ذكره -سبحانه تعالىٰ-، وتلاوة القرآن الكريم، فليحذر أولئك الذين يخربون المساجد دون أن يشعروا، لأن أهم أوجْه إعمارها أن تكون عامرة بالمصلين والذاكرين.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: ١١٥] وهذه الآية تهيئة لإحداث تغيير في موضوع القِبْلة، وهي تطبيق عملي لما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ﴾ [البقرة: ١٠٦] أي ننسي تلك التجربة؛ فالآية تنبه أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حينما يتجه إليه العباد من أي موقع وفي أي مكان وفي أية زاوية فثم وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا ينبغي أن يضل أحد بدعاوىٰ هؤلاء بأنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم وحدهم الذين يعرفون الطريق إليه سبحانه.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [البقرة: ١١٦] وهنا تنبيه إلىٰ النصارىٰ لأنه ورد ذكرهم هنا، ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١١٧-١١٨] وَصَفهم بعدم العلم كما وصفهم بالأوصاف الأخرىٰ السابقة الكثيرة، وذمَّهم بها لأنهم يتعالمون دائماً علىٰ الآخرين. ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ ﴾ [البقرة: ١١٨] يريدونها آية مباشِرة حسِّية ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ [البقرة: ١١٨] من كفار الأمم الماضية لأنبيائهم ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾ [البقرة: ١١٨] في الغلظة والقسوة والانغلاق، قلوب مُغلّفة عمياء لا بصائر فيها، ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ ﴾ [البقرة: ١١٨-١١٩] كأنه تسلية لرسول الله، والمعنىٰ: إذا لم يتبعك هؤلاء المشركون وهؤلاء اليهود والنصارىٰ فينبغي أن تعلم أنك رسولنا وأنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً تبشر الناس وتنذرهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [البقرة: ١١٩] هؤلاء الذين رفضوا رسالتك ورفضوا الاستماع لدعوتك ورفضوا قبول الكتاب الذي أنزلناه عليك، لست مَسؤولاً عنهم إذا كانت مصائرهم ومآلاتهم ستقودهم إلىٰ الجحيم ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقد أُعْلِنت هذه الحقيقة أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة ومن أكثر من قائد من القادة الدينيين أو السياسيين وفي عصور وظروف مختلفة. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ ﴾ [البقرة: ١٢٠] الدليل والبرهان ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠] فلا تضعف ولا تهن ولا تحزن ولا تتأثر بكل ما يقولون ويفعلون فإنك علىٰ الحق المبين.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٢١] وحق التلاوة هو التدبُّر والتفكُّر والتعقُّل والتذكُّر، وهو قراءة تنزل علىٰ القلب أولاً، ومن القلب تفيض إلىٰ الجوارح، ومن القلب تقود اتجاهات الإنسان نحو الاتجاه السليم الصحيح، وهذه التلاوة هي التي تقود أصحابها إلىٰ الإيمان، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ ﴾ [البقرة: ١٢١] لو تلوه حق تلاوته لبرهنوا علىٰ إيمانهم به ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [البقرة: ١٢١]. بعد

هذه الجولة الطويلة مع تراثهم وتاريخهم وتصرفاتهم ومواقفهم المختلفة، بكل لطف يناديهم بأحب الأسماء إليهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾ [البقرة: ١٢٢] اذكروا هذا لكي لا تسمحوا لانحرافاتكم أن تستولي تماماً عليكم، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ [البقرة: ١٢٣] وخافوا عقاب الله في يوم لا تدفع فيه نفسٌ عن نفس شيئاً، ولا يُقبل منها فداء، ولا تنفعها شفاعة، ولا يجد فيه الكافرون نصيراً لهم من دون الله.(١)

النَّجم الثالث عشر: التأسيس للأمة الجديدة

﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾

[البقرة: ١٢٤-١٣٤]

(١) لجنة من علماء الأزهر، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٢٧.

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي اختبر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إبراهيم بكلمات معينة ذكرها له، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: ١٢٤] سأجعل منك إماماً وقدوة للبشرية كلها، وهذا كله تعقيب على تلك الظاهرة التي سرنا معها في أطوارها المختلفة، ودعواها الباطلة، وأكاذيبها وافتراءاتها على الأنبياء والمرسلين، حتى زعموا أن سيدنا إبراهيم وإسحاق يعقوب كانوا هوداً أو نصارى، فكان لا بدّ من تفنيد هذه الدعوة بما لا يدع أي أثارة من شبهة في صحتها، فيُذَكِّر بأبي الأنبياء إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. واتخاذه إماماً، وبنائه للبيت الحرام بأمر الله ليكون مثابة للناس وأمناً وقبلة أيضاً، وبيَّن دور إسماعيل مع أبيه في بناء البيت، ودعاءهما المشترك في أن يجعلهما مُسلمَين، لا يهوديين ولا نصرانيين، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة، وأن يبعث في تلك الأمة رسولاً منها، يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم كتابه ويعلمهم الحكمة ويزكيهم ويطهرهم، وبذلك تكون هناك مِلّة اسمها مِلّة إبراهيم، ودينه هو الحنيفية السمحاء، ولذلك يقول رسول الله ﷺ في حجة الوداع: "قِفُوا على مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ على إِرْثٍ من إِرْثِ أَبِيكُمْ إبراهيم"(١) وبَينَّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن الإسلام هو دين الأنبياء كافة وفي مُقدمتهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وموسى ثم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما بيَّن الله سَفَه من يتجاوز هذه الـمِلّة مِلّة سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ [البقرة: ١٢٤] أيمكن أن تجعل من ذريتي أئمة ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤] بالإمامة ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] الكافرين منهم، دلَّ على أنه ينال غير الظالم، (٢) ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ﴾ [البقرة: ١٢٥] أي الكعبة وهو اسم غالب لها كالنَّجم للثريا ﴿مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥] مَباءةً ومرجعاً للحجاج والعُمّار يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه ﴿وَأَمۡنٗا﴾ [البقرة: ١٢٥] وموضع أمن فإن الجاني يأوي إليه فلا يتعرَّض له حتى يخرج ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: ١٢٥] مثابة ومرجعاً ودار أمن للناس لهم وطمأنينة، ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: ١٢٥] ما يزال

---

(١) السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كِتَاب: الْمَنَاسِكِ، باب: مَوْضِعِ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ، ج٣، حديث رقم (١٩١٩)، ص٢٩٨.

(٢) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٢٥.

مقام إبراهيم شاهداً على أن هذا البيت هو البيت الذي بناه إبراهيم ليتخذ قبلة ويتخذ مثابة وليتخذ مكاناً آمناً، ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ [البقرة: ١٢٥] أمر إبراهيم وإسماعيل بإعداد البيت وتطهيره، ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] من عباد الله، ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] الذين يريدون الاعتكاف به، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥] الذين يريدون أن يذكروا الله فيه، وحينما وجد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن هذا البيت هو الذي سيكون مثابة للناس وأمناً، وهو الذي سيكون حَرَماً لله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وستوجد فيه ذرية إبراهيم أيضاً، دعى الله تعالى فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦] واذكروا إذ طلب إبراهيم من ربه أن يجعل البلد الذي سينشأ حول البيت بلداً آمناً، وأن يرزق من ثمرات الأرض وخيراتها من آمن من أهله بالله واليوم الآخر، فأجابه الله بأنه لن يضنَّ على الكافر نفسه بالأرزاق في أثناء حياته القصيرة، ثم يُلجئه يوم القيامة إلى عذاب جهنم. ولبئس المصير مصير هؤلاء.(١)

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨] واجعلنا ماذا؟ يهوداً؟ أم نصارى؟ ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ [البقرة: ١٢٨] واجعل من ذريتنا ماذا، أمة يهودية أو نصرانية؟ لا، ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨] التي علينا أن نتنسّك ونتعبّد ونذكرك فيها، ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البقرة: ١٢٨] ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] بعد أن يكثروا ويصبحوا أمة مسلمة يحتاجون إلى هاد يهديهم وقائد يقودهم، ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩] ولذلك نقول دائماً إن سيدنا محمد ﷺ هو استجابة إلهية لدعوة سيدنا إبراهيم، وأن الإسلام هو استجابة إلهية لهذه الدعوة الكريمة دعوة سيدنا إبراهيم.(٢)

---

(١) لجنة من علماء الأزهر، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٢٨.

(٢) عن عِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: "إني عبد الله لَخَاتَمُ النَّبِيِّين وإن آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لَمُنْجَدِلٌ في طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذلك، دَعْوَةُ أبي إبراهيم، وَبِشَارَةُ عِيسَى بي، وَرُؤْيَا أمي التي رَأَتْ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ تَرَيْنَ "قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح لغيره دون قوله: "وكذلك أمهات النبيين ترين". انظر: =

ثم يقرر جلّ شأنه ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٣٠] لا يمكن أن يتجاوز ملة إبراهيم ويرغب عنها إلا من دخل في السفاهة[1] وليس في العقل وليس في الرشد، فلو كان عاقلاً أو راشداً أو مهتدياً لما انصرف عن مِلّة إبراهيم ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣١] أسلم وجهك لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، لم يقل له تنصَّر ولم يقل له تهوَّد، ﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣١] بالملّة أو بالكلمة وهي أسلمتُ لرب العالمين ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢] هو معطوف على إبراهيم داخل في حُكمه والمعنى ووصّى بها يعقوب بنيه أيضاً ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ [البقرة: ١٣٢] على إضمار القول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان وهو دين الإسلام ووفقكم للأخذ به ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٢] فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام. فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا.[2] تلك كانت وصية سيدنا إبراهيم لبَنيه، وهي عينها وصية يعقوب الذي يدّعون الانتساب إليه وهو الملقب بإسرائيل ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: ١٣٣] ولقد زعمتم -أيّها اليهود- أنكم تسيرون على الدين الذي مات عليه يعقوب، فهل كنتم شهداء إذ حضره الموت فعرفتم الملّة التي مات عليها؟ ألا فلتعلموا أن يعقوب وأبناءه كانوا مسلمين موحدين ولم يكونوا يهوداً مثلكم ولا نصارى، وأن يعقوب حينما حضره الموت جمع بَنِيه وقال لهم: ما تعبدون من بعدي؟ فأجابوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له خاضعون.[3]

= - ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ، حَدِيثُ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ج٢٨، حديث رقم (١٧١٥٠)، ص٣٨٠.

(١) السَّفَهُ: خفّة في البدن، ومنه قيل: زمام سَفِيهٌ: كثير الاضطراب، وثوب سَفِيهٌ: رديء النسج، واستُعمل في خفّة النفس لنقصان العقل، وفي الأمور الدّنيويّة، والأخروية، وأصله سَفِهَتْ نفسه، فصرف عنه الفعل. انظر:
- الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٤١٤.

(٢) النسفي، **تفسير النسفي مدارك التأويل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج١، ص١٣١.

(٣) لجنة من علماء الأزهر. **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص١٠.

لذلك ينبغي أن يحذر الناس أن ينظروا إلىٰ الإسلام علىٰ أنه قسيم لليهودية وللنصرانية؛ فالإسلام هو الأساس وهو الأصل، وإبراهيم -الذي يدَّعون الانتماء إليه، وهو أبو الأنبياء،- هو الذي أسس هذه الملّة مِلّة الإسلام، وهو دين سائر الأنبياء والمرسلين من بعده سواء أكانوا من بني إسرائيل أم من سواهم، وهو الدين الوحيد الذي طلب الله من البشرية أن تدين به، واليهودية يفترض أن تكون جزءاً منه أو مرحلة من مراحله، والنصرانية كذلك، وأي دين جاء به نبي أو رسول هو مندرج فيه، فهو خلاصة الأديان وهو جماعها كلها، وكتاب الله -تبارك وتعالىٰ- مشتمل عليها كلها.

﴿تِلْكَ﴾ [البقرة: ١٣٤] إشارة إلىٰ الأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤] مَضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٣٤] أي إن أحداً لا ينفعه كَسْب غيره متقدِّماً كان أو مُتأخِّراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم، وذلك لافتخارهم بآبائهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤] ولا تُؤاخذون بسيئاتهم.

النَّجم الرابع عشر: ارتباط الأمة الجديدة بما سبقها من الأمم

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة: ١٣٥-١٤١]

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ [البقرة: ١٣٥] أي قالت اليهود: كونوا يهوداً مثلنا أيها المسلمون، وقالت النصارىٰ أيضاً: كونوا نصارىٰ مثلنا تهتدوا، يشفع لكم الـمُخَلِّص ويخلصكم. ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾ [البقرة: ١٣٥] هذا الذي تزعمون أنكم تنتمون وتنتسبون إليه نحن مستمسكون بمِلّته، وكان حنيفاً مائلاً عن جميع الأديان إلا دين التوحيد وهو الإسلام، مسلماً وما كان من المشركين مثلكم، حيث أشرك اليهود بعض أحبارهم ورهبانهم كما أشركوا عُزيراً، وأشرك النصارىٰ عيسىٰ ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠]. ثم يلتفت السياق إلىٰ المؤمنين برسول الله ليقول لهم: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ١٣٦] أي لا نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ كما فعلت اليهود والنصارىٰ، ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦] لله مخلصون.[1] ذلك هو الإسلام الذي جاء محمد بن عبد الله ﷺ يدعو له، أن تؤمن البشرية كلها وتتوحد علىٰ دين واحد، فتؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين، وتتبنَّىٰ سائر رسالاتهم وتستمسك بكل قيمهم وبسائر ما جاؤوا به، ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٣٧] أي اليهود والنصارىٰ ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ [البقرة: ١٣٧] عن الإيمان به ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ [البقرة: ١٣٧] أي في نزاع وخلاف، لن تستقر أمورهم، وستستمر انحرافاتهم وأحقادهم وحسدهم وبغيهم واستعلاؤهم علىٰ الآخرين، فإن لم يؤمنوا بمثل ما آمنتم به فسيكونون في شقاق وآنذاك ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: ١٣٧] ويدفع عنك شرورهم وأخطارهم ويحميك منهم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾ [البقرة: ١٣٧] لأقوالهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] بأحوالهم، ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٣٨] مصدر مؤكد لآمنا، ونصبه بفعل مُقدر أي صَبَغَنا الله، والمراد بها دينه الذي فَطَر الناس عليه لظهور أثره علىٰ صاحبه كالصبغ في الثوب ﴿وَمَنۡ﴾ [البقرة: ١٣٨] أي لا أحد ﴿أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾ [البقرة: ١٣٨] تمييز ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة: ١٣٨].[2]

---

(١) النسفي، **تفسير النسفي مدارك التأويل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج١، ص١٣٣.

(٢) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٢٨.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [البقرة: ١٣٩] ما هذه الحجج الذي تحاجوننا بها؟ تزعمون أنكم متمسكون بملة إبراهيم، وتحاجون وتجادلون في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أتجادلون في ربوبيته للعالمين كافة، أتجادلون في ألوهيته لكل من خلق، أتجادلون فيه وهو ربنا وربكم وهو الذي حكم بألا تزر وازرة وزر أخرىٰ ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة: ١٣٩]، نخلص الدين كله له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا نشوب ديننا بأية شائبة ولا نلتفت إلىٰ أي شيء مما تدعوننا إليه من التخلي عن الحق الذي أنزل الله علىٰ نبيه ﷺ نحن مخلصون لله -تبارك وتعالىٰ- فيما أمرنا به، ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠] أي هل تظنون أو تتصورون أو تدعون ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠] قولوا لهم: أتجادلوننا في إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأبنائه الأسباط زاعمين أنهم كانوا يهوداً أو نصارىٰ مثلكم؟! كما فنّد دعواهم أيضاً بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران: ٦٥].

ويختم الجزء الأول بقوله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة: ١٤١] هذا تذكير بأن المسؤوليات يوم القيامة فردية والجزاء فردي كذلك. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّجم: ٣٩-٤١]. ومع ذلك فالعمل لخدمة الدين ولإقامة الأمة ولصون المقدسات ولحماية الدين هو عمل جماعي تقوم به الأمة والمجتمع كله، ولعلنا من هذه الآية نأخذ درساً يتعلق بنا في أيامنا هذه، فكثير من الجدل يدور بين الناس اليوم حول الصحابة وآل البيت والأئمة السابقين -رضوان الله عليهم-، فمِن قادح ومن مادح، ومن مُنتقد ومن حامد، تلك أمة قد خلت، فلا ينبغي أن نغرق في التاريخ بتفاصيله وجزئياته، ولكن علينا أن نأخذ العِبر والدروس؛ ولذلك فإن في القرآن الكريم قصصاً تاريخية كثيرة تتعلق بأمم وحضارات، هذه القصص وأمثالها لا ينبغي أن نُشغل بجزئياتها ولا بمظاهرها كما يفعل أحياناً علماء الآثار، وإنما نُشغل بأخذ الدروس والعبر منها للمستقبل.

النَّجم الخامس عشر: القِبلة وحكمة التحويل

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٢-١٥٠]

بعد الانتهاء من عرض ما يتعلّق باليهود واليهوديَّة، جاءت الآية الأولىٰ من الجزء الثاني بتشريع القِبلة وبيان الوِجهة. وذلك لاستكمال جميع الأساسيات التي يتوقّف بناء الأمة البديلة عليها.

قال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢] لقد كانوا سُفهاء لأنّهم لم يدركوا تلك التشريعات في إطارها الكلّي، وهو نَسْخ دور أمة ثبت فشلها وقصورها وعجزها عن القيام بما انتُدبت له، وأنَّ كل تلك التشريعات -ما مرّ منها وما سيأتي-

يصبّ في إطار بناء البديل عن تلك الأمة الفاشلة التي تمّ نسخ آياتها، وتغيير أدوارها؛ فمن دور الاصطفاء والاختيار الإلهيّ إلىٰ دور التبعيّة والذلة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. ولن تقوم لهم قائمة بعد أن فقدوا الهداية والصبر الذي به صاروا أئمة.

في هذه الآيات الكريمة وضع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أساس الوِجهة والقِبلة التي ستلتف حولها قلوب الأمة الوارثة لتراث النبوّات كلّها كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]، فهذه الأمة لا بدَّ من أن تأخذ الوجهة العالميَّة التي يمكن للبشريَّة كلّها أن تلتفّ حولها وتتجه نحوها وتحدّد اتجاهها بمقتضاها، ذلك أنَّ ما استقبله رسول الله ﷺ حين كان في مكة كانت وجهةً تجتمع فيها الكعبة مع بيت المقدس، فقد كان رسول الله ﷺ وهو في مكة يُولي وجهه شطرَ الكعبة التي يمكن أن يكون مستقبِلها مستقبِلاً في الوقت نفسه لبيت المقدس، فيجمع بين المحرَّم والمقدَّس في وجهته وقبلته، لكنَّه بعد أن هاجر إلىٰ المدينة المنوّرة لم يعد ذلك ممكناً، فكان لا بدّ من تحديد وجهة وقبلةٍ معيّنة محدّدة فاستقبل رسول الله ﷺ وهو في المدينة المسجد الأقصىٰ من قبيل استصحاب ما كان يُفعل وهو في مكة، وكان ذلك من حِكمة الله -تبارك وتعالىٰ- لكي يعطي درساً لليهود الذين زعموا أنّهم استوطنوا الجزيرة العربية قروناً عديدة في انتظار مجيء النبي الخاتم ﷺ فصلّىٰ رسول الله ﷺ والمسلمون في المدينة سبعة عشر شهراً مستقبلين بيت المقدس.[(١)] قيل: استصحاباً لحالة

(١) عن الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ صلىٰ إلىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْراً، أو سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْراً، وكان يُعْجِبُهُ أن تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأنهُ صلّىٰ أول صلاة صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ وَصَلَّىٰ معه قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كان صلّىٰ معه فَمَرَّ علىٰ أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، قال: أَشْهَدُ بالله لقد صَلَّيْتُ مع النبي ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كما هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وكان الذي مَاتَ علىٰ الْقِبْلَةِ قبل أن تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا لم نَدْرِ ما نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ الله وما كان الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لرؤوف رَحِيمٌ، انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: التفسير، باب: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢]، حديث رقم (٤٤٨٦)، ص٨٤٨.

الأحناف في استقبالهم لبيت المقدس ظنّاً منهم أنّه قِبلة أبي الأنبياء إبراهيم وسائرهم من بعده، وقيل: لعل أهل الكتاب وخاصةً اليهود يدركون أنَّ هذا التوافُق بين وجهة النبيّ في صلاته، وتعظيم أنبيائهم لبيت المقدس دليل على وحدة أمة الأنبياء، واتحاد تعاليمهم في العقائد والمقاصد وكلّيّات الشرائع فلعلهم يؤمنون بأنَّ محمداً ﷺ لم يكن بِدعاً من الأنبياء، ويجدون في كل تلك الموافقات -بين ما جاء به وما جاء به الذين سبقوه من المرسلين- ما يؤكِّد على ضرورة الإيمان به، لأنّه منهم وخاتمهم، ولكن غِلظة أكباد يهود، وغرورهم وتوهُّمهم أنَّهم أبناء الله وأحباؤه، وجعلهم اللهَ لهم بدلاً من أن يكونوا عباداً له، ذلك كلّه لم يسمح لهم بالرؤية السليمة لهذا التدرج الحكيم الذي اتَّسمت به كل تشريعات الإسلام ومنها تشريع القبلة، فلم يدركوا أنَّ استقبال الكعبة إنَّما هو عودة إلى الأصل؛ حيث بُنيت لتكون بيتاً لله ووجهة وقبلة لعباده المرسلين والمؤمنين أجمعين، فهي بيته المحرّم، أما بيت المقدس فإنَّه لا يملك مثل المقّومات التي تملكها الكعبة فالبركة فيه وفيما حوله، وبناء سليمان هيكلاً أو معبداً لله -جل شأنه- يعظِّمه بنو إسرائيل فيه، كل ذلك غير كفيل باجتماع قلوب البشر -كافَّة- على تعظيمه واستقباله والاتحاد حوله.

إنَّ بيت المقدس بناه سليمان الملك الرسول ليُكمل لمملكة سليمان فخارها، ولعل كلمة بني إسرائيل الممزَّقة تجتمع حوله فلم يتحقق لهم ذلك فأنّى للبشريَّة - كلِّها- أن تجتمع كلمتها عليه وعلى تعظيمه؟! فلا غرابة أن يوجّه الله خاتم النبيين إلى استقبال القبلة الوحيدة للبشريَّة ولأبي الأنبياء إبراهيم، ففيها مقامه، وفيها القواعد التي رفعها وولده إسماعيل وهي بيت الله المحرّم؛ أول بيت وضع للنَّاس ببكة ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥]، ولذلك أمر أتباع الأنبياء الحقيقيّين أن يتخذوا منه مُصلًّى. والحرم منسوب إلى ذاته العليَّة، وبناء عليه يكتسب صفة الحُرمة والتحريم من هذه النسبة ويضفيها على كل ما يتَّصل به، فكأنَّها فيض منه على من يحل فيه.

أما المسجد الأقصىٰ فهو قدس أو مقدّس لمباركة الله له ولما حوله، لأنّه الموقِع الذي تقدَّس لكونه موضع حاكم حَكَم شعبه بالحاكمية الإلهية التي كانت في بني إسرائيل.

بين المُحَرَّم والمُقدَّس

ومن هنا يتبين أن الفرق بين المحرّم والمقدّس كبير، فقدسيَّة بيت المقدس والأرض المباركة حوله ترجع لانتسابها إلىٰ الله -تعالىٰ- حين أمر بني إسرائيل بدخول الأرض المقدّسة ليكون منهم الأمة النموذج التي تُقاد بحاكمية إلهيّة بعد الاستبداد الفرعونيّ، وتُعطَىٰ كل ما تطلب بشكل خارق للعادات كلِّها، لا لتحريمه لها، ولذلك فإنَّ أحكام كل من الأرْضَين -المحرّمة والمقدّسة- تختلف اختلافاً كبيراً كما هو معلوم.

فالأرض المقدّسة لا يمكن أن تكون -حين تكون قِبلة- إلا قِبلة مؤقّتة لقوم معيَّنين، ولتحقيق أغراض محدّدة.

أما المحرَّمة فهي الجديرة بأن تُتَّخذ قِبلة دائمة وعالميَّة ومَهوىٰ لأفئدة البشر -كافَّة- يبني البشر حولها وحدتهم وعالميَّتهم، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقلِّب طرفه في السماء لعلّه يوجَّه إلىٰ القبلة التي يرضاها، إلىٰ القِبلة التي تنسجم وعالميَّة رسالته، وتجعله الوارث لتراث إبراهيم والنبيين كافَّة، فلمّا تمّ له ذلك قامت قيامة يهود.

الأمة الوسط:

تأتي الآية الكريمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣] لتؤكّد علىٰ أنَّ هذه الأُمَّة التي أورثها الكتاب:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢] هي أُمَّةٌ وَسَط خيّرة،

مُخرجة إلىٰ النّاس بهذا الكتاب الكونيّ والخطاب العالميّ لتكون الشاهدة علىٰ النّاس بعد الرسل، ويكون رسول الله شاهداً عليها، وكأنّه يريد أن يقول لأولئك الذين مارسوا السّفه: إنَّ توجيه رسول الله ﷺ خاتم النّبيين وأُمَّته الخاتمة الوسط إلىٰ هذه القِبلة هو الأصل الذي تستكمل هذه الأُمَّة به مقوّمات خيريّتها ووسطيّتها وشهادتها علىٰ الناس، وأنَّ القِبلة التي كان رسول الله ﷺ قد استقبلها إنّما أُقِرّ عليها لتلك الفترة المحدودة؛ لأنَّ الله أراد أن يبتلي عباده ويختبرهم، خاصةً أهل الكتاب الذين يزعمون أنَّ بيت المقدس هو القِبلة الدائمة الأبديَّة للبشريَّة، ليعلموا أنَّها ليست دائمة وليست أبديَّة، وأنَّ قدسيتها قد ارتبطت بالحاكميَّة الإلهيَّة، وبإدخال بني إسرائيل إليها لإعادة تأهيلهم في الأرض المقدّسة، فاستقبال رسول الله ﷺ لتلك القبلة والفترة القصيرة التي استقبلها وأُقِرّ علىٰ استقبالها هي لاختبار هؤلاء، وكشف أكاذيبهم ومزاعمهم بالتمسُّك برسالة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبيان أنَّهم لم يتمسّكوا بها.

ويشير الله -تبارك وتعالىٰ- إلىٰ أنَّه كان يرىٰ رسوله الكريم وهو يقلّب وجهه في السماء، لعل وحياً ينزل عليه بتحديد قبلته لجمع أُمَّته حولها، لاستكمال مقوّمات الشهادة علىٰ النّاس والوسطيَّة بينهم، فيقول له: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] معبّراً عن تطلّعه ﷺ إلىٰ نزول الوحي بشيءٍ يُنهي أو يُسكت أولئك السفهاء الذين كانوا يزعمون أنَّه مقلدٌ وتابعٌ لهم.

إنَّ الأُمَّة التي حدّد الله لها قِبلتها، وبيّن لها كيف تكون أُمَّة واحدة لتنهض بالأعباء الجسيمة، قد تولّىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- عمليَّة صناعة هذه الأُمَّة، أُمَّة الأنبياء كافة، صاحبة الخطاب العالميّ، والكتاب الكونيّ، وشريعة التخفيف والرحمة، وجعلها أُمَّةً وسطاً أناط بها الخيريَّة والشهادة علىٰ النّاس، وجعل الرسول الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين شهيداً عليها لتكون أُمَّة قطباً تستقطب أولياء الرحمن، وتضمهم إليها، وتعزل أولياء الشيطان وتباعد بينهم وبين التأثير في مصائر البشريَّة. ولتنهض هذه الأُمَّة بهذه الأعباء الجسام فلا بدّ لها من مراقبة نفسها ومحاسبة نفسها علىٰ الدوام لتطمئنّ إلىٰ أنَّها مستقيمةٌ علىٰ الطريقة التي رسمها الله لها.

وهؤلاء السفهاء من يهود حاولوا أن يجادلوا المؤمنين بأن يقولوا لهم: إما أن تكون القِبلة الأولىٰ هي القِبلة السليمة الصحيحة وتكون صلاتكم إليها صلاةً صحيحة، وإما أن تكون قِبلةً قد استقبلها نبيُّكم في بادئ الأمر وأمركم باستقبالها ثمّ تبيَّن له خطأه في ذلك، وبذلك تكونون قد أضعتم صلاتكم إليها كل تلك الفترة، فأراد الله طمأنة المؤمنين، وكشف سخافات أعدائهم، فأوضح لهم أنَّه لن يُضيّع إيمانهم برسول الله ﷺ واتباعهم له واقتداءهم وتأثّرهم به، لا في استقبال القبلة السابقة ولا في استقبال القِبلة الأساسيَّة الكعبة المشرَّفة، فالله -تبارك وتعالىٰ- جعل من خصائص هذه الأُمَّة وما اشتملت عليه رسالتها العالميَّة ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٣].

النَّجم السادس عشر: نعمة إرسال الرسول وبيان التكاليف المترتبة علىٰ أتباعه

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا
تَكۡفُرُونِ ١٥٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن
يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ
وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ
وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ۞ إِنَّ
ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن
تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ
فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ
ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾

[البقرة: ١٥١-١٦٢]

من عادة القرآن المجيد أنَّه بعد أن يفرغ من تقديم تشريعٍ مهمٍّ ينبِّه إلىٰ أنَّ ذلك التشريع كان نعمةً وفضلاً من الله -تبارك وتعالىٰ- وكأنّه يريد بذلك أن يُزيل من النّفوس ما قد يعتريها من شعورٍ وإحساسٍ بثقل التكليف، فلكي لا تستثقله النّفوس وتتخفّف من أي إحساسٍ بالضغط والواجب، ينقل القرآن الكريم بأسلوبه المعجز ذلك التكليف إلىٰ ميدان النّعمة التي ينبغي أن تُشكر.

فينقلنا السياق مباشرةً إلىٰ نعمةٍ أخرىٰ وهي نعمة إرسال رسول الله ﷺ فيقول -جل شأنه-: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].(١) كأنَّه تعالىٰ يُدْرِج سائر التكاليف تحت مفهوم الذِّكر، ومفهوم الشكر، فاستقبالنا للقِبْلة التي حدّدها لنا، وطاعتنا لرسول الله ﷺ واستماعنا لما يتلوه علينا، وتعلُّمنا لما جاء يعلمنا إيّاه وتزكية أنفسنا وتطهيرنا بما أنزل الله عليه، وتعلُّم كتاب الله منه والحكمة في تنزيله في الواقع وتطبيقه فيه، وتعليمنا ما لم نكن نعلم من عقيدةٍ وشريعةٍ وحكمةٍ، ذلك كلّه علينا أن نذكر الله به ونشكره عليه ولا نتجاهل نعمته ولا نكفرها.

حول مفهوم الصَّبْر

وبعد أمره تعالىٰ عباده بالشكر أَعْقب ذلك بالأمر بالصبر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣] ذلك أن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر؛(٢) لأن هذه الحياة أيامها دُول بين مَكاره تتطلّب الصبر، وبين أمور محبوبة مرغوبة تقتضي الشكر. وفي الحديث: "عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ،

(١) قال الراغب: ما مع ما بعده مصدر، أي: كإرسالنا، والكاف فيه متعلق بقوله (ولأتم نعمتي عليكم)، أي إذا أنتم ائتمرتم في أمر القبلة وخشيتم الله دون الناس أتمَّ عليكم كلمته كنعمته بإرسال رسول هكذا تنبيهاً أن النعمة في بعثته أعظم من تغيير القبلة. انظر:

- الراغب الأصفهاني، **تفسير الراغب الأصفهاني**، مرجع سابق، ص٣٤٣.

(٢) قولٌ لابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، انظر:

- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين، محمد بن أبي بكر (توفي: ٧٥١هـ). **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، دمشق: دار ابن كثير، ط٣، ١٩٨٩م، ص١٠٨.

وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إن أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً له، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً له."(١)

والصبر في معناه القرآني حَبْسُ النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، وحَبْسُ النفس عن الجزع لمصيبة وقعت سُمي صبراً، وأجمل أنواع الصبر عند الصدمة الأولى(٢) عند وقوع المصيبة. ويُستعمل الصبر عند حَبس الشجاع نفسه على مقاومة عدوه، ولو فقد صبره وترك الميدان هارباً سُمي جباناً، والله تبارك وتعالى امتدح الصابرين في البأساء والضراء وامتدح الصابرين والصابرات على ما أصابهم وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على عبادة ربه وتحمُّل مشاق الدعوة إليه، وجعل الصبر والشكر من مصادر الحكمة فقال -جل شأنه-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٥] كما أمر نبيه ﷺ بصبر شديد قائلاً: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٤٨] ومن أسماء الله تعالى الصبور، ووعد الصابرين بالثواب العظيم فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠] وتَفضَّل عليهم بمعيته فقال -جل شأنه-: ﴿وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

ووعدهم بحبه فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وهذا وغيره لأن من فقد الصبر أضاع عمره وفرَّط في نفائس وقته دون أن يردّ ما فات أو يستعيد من مات، أما من صبر واعتصم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه يأنس بربه الذي يُلقي في قلبه الطمأنينة ويغمره بالسكينة ويحيطه بالرحمة ويبدله خيراً مما فقد، ولم تُصب الإنسانية بمصيبة أقسى وأشد من إصابتها بفقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومع ذلك فإن أصحابه وأهل بيته -الذين كادت نفوس بعضهم أن تفارقهم لفراقه- سرعان ما ذكروا الله وأدركوا أن الصبر هو زاد المؤمن وسلامته في الملمات والكروب.

(١) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كِتَاب الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، بَاب الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، حديث رقم (٢٩٩٩)، ص١٢٠٠.

(٢) عن أَنَسِ بن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "مَرَّ النبي ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فقال: اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، قالت: إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لم تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، ولم تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لها: إنه النبي ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النبي ﷺ فلم تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فقالت: لم أَعْرِفْكَ، فقال: إنما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى." انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب: الْجَنَائِزِ، بَاب: زِيَارَةِ الْقُبُورِ، حديث رقم (١٨٢٣)، ص٢٥٠.

إن الله ليصيب الإنسان بالأمر يكرهه، وإنه ليحبه لينظر كيف يستغني به تعالىٰ عمّا عداه وكيف يتضرّع إليه في نجواه وشكواه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٣] فالصبر والصلاة يؤديان وظيفة إعانة الإنسان المستخلَف على القيام بمهام الاستخلاف وأداء الأمانة والمحافظة عليها.

والآية كأنها تُمهِّد للآية التالية لها، وللتشريع الكبير الذي سيأتي التكليف به بعدُ في نفس السورة، وهو تشريع القتال، وما ربما قد يترتب عليه من قتلٍ وخوفٍ وجوعٍ ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات.

فقبل التكليف بالقتال نبَّه إلىٰ ما يمكن أن يكون من آثاره، وأمر باستقبالها بروح عالية وبصبرٍ متين فقال -جلّ شأنه-: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٤] فهؤلاء الذين ستفقدونهم في القتال الذي سنأمركم به -بعد أن أمرناكم بكفّ الأيدي- لن يموتوا بل هم أحياء، ولكن لا تشعرون بحياتهم لأنَّها غير حياتكم أنتم، إنّها حياةٌ برزخيَّة، وحياتكم دنيويَّة.

كما أنَّ حالة القتال ربما تترتب عليها آثار أُخرىٰ نبلوكم بها ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، وعبارة الاسترجاع هذه عبارةٌ مُعْجِزة تحرِّك الكينونة الإنسانيَّة كلّها نفساً وروحاً وذاتاً وعقلاً ووجداناً باتجاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو المالك ولسنا نحن، فما نحن إلا جزءٌ من مُلكه، فكل ما نفقد إنَّما هو ملكه وله، وقد أعطاه الله لنا علىٰ سبيل العارية،[1] مثل ما تُعطي فلاحاً أدوات يفلح

(١) بتشديد الياء وقد تخفف اسم لما يعار وللعقد المتضمن لإباحة الانتفاع بما يحل الانتفاع به مع بقاء عينه ليرده من عار ذهب وجاء بسرعة أو من التعاور أي التناوب، انظر:

- الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي بن حجر (توفي: ٩٧٣هـ). **تحفة المحتاج في شرح المنهاج**، روجعت وصحّحت علىٰ عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرىٰ ، ١٩٨٣م، ج٥، ص٤٠٩.

ويزرع بها لحسابك، وهذا ما يمثّل ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٦]. والجزء الآخر من الاسترجاع ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]. أي راجعون بالموت، ثم بالبعث للحساب والجزاء. ورجوعنا إليه ونظرنا إلىٰ وجهه الكريم، وإعطاء الشهيد مكانةً تجعله بين الأنبياء والصدِّيقين. ذلك كله كفيلٌ بإزالة أيّة آلام أو آثار قد تترتّب علىٰ القتال ونتائجه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧] إنه الارتقاء بأولئك الصابرين علىٰ لقاء العدو، إلىٰ مستوىٰ النبيّ الذي صلّىٰ الله عليه وأمر الملائكة أن يصلُّوا عليه، وأي تعويضٌ أعظم من أن يصلّي الله علىٰ عبده، ويمنّ عليه برحمته، ويلطف به فيهديه الصراط المستقيم.

وبالتفاتةٍ طريفة جدّاً يُذكّر الله المهاجرين خاصةً وإخوانهم الأنصار بالصفا والمروة ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة: ١٥٨] ليُهيئهم نفسيّاً بأنَّ هذا القتال -الذي سَيَرِد تشريعه بعد قليل- هو الوسيلة التي ستؤدّي بهم إلىٰ إخراج الحَرَم من أيدي الكفار والمشركين، وإعادته إلىٰ الأيدي المؤمنة ليؤدّي مهامه ووظائفه بيتاً طاهراً للطائفين والعاكفين والركّع السجود. والمعنىٰ الإجمالي للآية: وكما أن الله رفع شأن الكعبة بجعلها قبلة الصلاة، رفع أمر الجبلين اللذين يُشَارِفانِهَا وهما الصفا والمروة فجعلهما من مناسك الحج، فيجب بعد الطواف السعي بينهما سبع مرات، وقد كان منكم من يرىٰ في ذلك حرجاً لأنه من عمل الجاهلية، ولكن الحق أنه من معالم الإسلام، فلا حرج علىٰ من ينوي الحج أو العمرة أن يسعىٰ بين هذين الجبلين، وليأتِ المؤمن من الخير ما استطاع فإن الله عليم بعمله ومثيبه عليه.(١)

ثم ينتقل السياق لتحذير أولئك الكتابيّين الذين ظاهروا المشركين وشجّعوهم علىٰ التنكّر لرسالة رسول الله ﷺ، وكتموا عنهم بشارات موسىٰ وعيسىٰ وإبراهيم كافة ببعثة محمد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويصفهم بشرّ ما يوصف به صاحب علم؛ إذ يقول تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ

(١) لجنة من علماء الأزهر، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص١٠.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]. وهنا تبيّن الآية الكريمة أنّ من شروط التوبة المقبولة أن يتوب الإنسان عما قارفه من ذنبٍ لا بمجرد الإقلاع عنه بل وعمل نقيضه، فإذا كانت جريمة هذه هي الكتمان فلا بدّ لهم أن يبيّنوا، ولذلك قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠] فمع صدق التوبة لا بدّ من الاستقامة والصلاح، ولا بدّ من التوبة عن هذا الذنب بخصوصه والقيام بنقائضه.

ثم يتوعّد أولئك الذين سوف يستمرون على كتمانهم وكفرهم فيقول -جل شأنه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ [البقرة: ١٦١] أولئك عليهم لعنة الله بالطرد من رحمته، وعليهم لعنة الملائكة والناس أجمعين.[١] وهنا لنا أن نتساءل: مفهومٌ أنّ الله يلعن هؤلاء الكاتمين الذين كتموا وَحيَه وحرموا الناس منه، وقالوا: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ولكن ما دخل الملائكة والناس في أن ينضموا إلى الله -جل شأنه- في لعن هؤلاء؟!

أما الملائكة فلأنَّ منهم من نزل بالوحي على الأنبياء، فكأنّهم بكتمانهم وإنكارهم أنَّ الله أنزل عليهم شيئاً قد جحدوا صنيع الملائكة الذين نزلوا بالوحي فاستحقوا غضبهم ولعنتهم، وأما الناس فلأنّهم حرموهم من هذه النعمة، نعمة الوحي، بكتمان هؤلاء عنهم، ولذلك استحقوا الخلود في النار واستحقوا أن يكونوا من بين أولئك الذين سيحرمهم الله من أيّ تخفيفٍ ينالهم بل هم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة: ١٦٢] هذا الترابُط والتناسُب والانسجام بين آيات الكتاب لا يمكن أن يَخفى على أي ذي بصيرة، فما أشقى أولئك الذين يزعمون أنَّ آيات الكتاب كأنّها جُزرٌ منفصلة لا يتصل بعضها ببعض.

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣] وإلهكم -أيها الناس- إلهٌ واحدٌ متفرِّد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وعبودية خلقه له، لا معبود بحق إلا هو، الرحمن المتصف بالرحمة في ذاته وأفعاله لجميع الخلق، الرحيم بالمؤمنين.[٢]

---

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤.

النَّجم السابع عشر: التوحيد: دلائله – أصناف الناس معه

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٣-١٦٧]

من هنا ينتقل السياق إلى المقصد الأعلى من الوحي الذي يُذكّر الله -تبارك وتعالى- به على الدوام لئلا يعشُ إنسان عنه وذلك وهو التوحيد ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣] من عادات القرآن المجيد أنّه إذا ذَكر التوحيد أردفه إما بدليل العناية، أو دليل الخلق، أو دليل الإبداع، أو أي دليلٍ آخر يعزّز به التوحيد ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤] فهذه كلّها من أدلة الخلق وأدلة العناية في الوقت نفسه إذا تدبَّر الإنسان مفرداتها أو تدبّرها على الجملة فإنَّها تقوده إلى التوحيد وتعزّز من مكانته في قلبه، وترسّخه في عقله وروحه.

ثم ينقلنا السياق إلى مواقف البشر من التوحيد وأدلّته، فيُقسّم الناس إلى فريقين -في إطارٍ غير إطار الإيمان والكفر- وهو إطار الحب والبغض، فينعى على أولئك الذين أنعم عليهم بكل تلك النّعم السابق ذكرها وما سيأتي بعد ذلك، ثمّ يتخذون من دون الله أنداداً يسبغون عليهم حبهم ومشاعرهم وعواطفهم فيقول -جل شأنه-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥] يعني الحب

الذي يفترض أن يُخصّ الله به، إذا بهم ينقلونه إلىٰ مَن لا يستحقه وهم الذين اتخذوهم أنداداً، وإذا فعل هؤلاء ذلك فذلك لا يعني أنّ جبهة حب الله -تبارك وتعالىٰ- ستضعف بانحراف أولئك، فإنّ هناك الذين آمنوا وهم أشد حباً لله، يملأ حب الله -تبارك وتعالىٰ- قلوبهم، وتلهج بذكره علىٰ الدوام ألسنتهم.

ومن الحب ينتقل إلىٰ القوة وهي قراءة في قلوب أولئك المنحرفين، فهؤلاء الذين تظاهروا بحب أندادهم وشركائهم، ما فعلوا ذلك إلا لاعتقادهم بأنّ لأندادهم شيئاً يملكونه من القوة، فيستطيعون أن يقوموا بالشفاعة، ويستطيعون أن يقرّبوهم إلىٰ الله زُلفىٰ، فيدفعهم القرآن المجيد إلىٰ اليأس من الحصول علىٰ شيء من ذلك بشكلٍ واضح وصريح فيقول -جل شأنه-: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: ١٦٦]، هؤلاء الأنداد العقلاء منهم وغير العقلاء، لن ينفعوهم شيئاً، بل سيزيدون من حسراتهم يوم القيامة، وسيرجع بعضهم إلىٰ بعضٍ القول، ويرمي كل منهم التهمة علىٰ الآخر، فإذا ذهبوا إلىٰ الشيطان ليعاتبوه أو يطلبوا له مزيداً من العذاب- وذلك لن ينفعهم بشيء- قال لهم: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

النَّجم الثامن عشر: أكل الحلال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ

وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٨-١٧٦]

الأكل الحلال الطيب من أهم مداخل التوحيد، فكلما طَهر طعام المؤمن من الحرام وتنزَّه عن الخبائث، وابتعد أن يختلط بالظلم، زاد ذلك من ارتباطه بربه، وانتفاعه بمأكله ومطعمه وملبسه ومشربه، ولذلك أُمرنا بذكر الله عند الأكل والشرب والانتهاء من تناول الطعام،[(١)] لئلا يخلو وقت مهما كان يسيراً أو قصيراً من شكر الله على نعمه، ويكفي أن تُهدر الآيات الكريمات قيم المآكل والمشارب التي لا يُذكر اسم الله عليها، يقول -جل شأنه-: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ﴾ [الأنعام: ١٢١]، كأنه يفقد قيمته حين يفقد ارتباطه بالمصدر الإلهي، فهو جل شأنه الذي خلق وأنشأ، وهو الذي يغذي ويحيي ويميت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨] يبيّن هذا النداء ضرورة تحرّي الطيبات وأكلها وتجنُّب الخبائث، وليس هذا خاصّاً بأهل الإيمان وحدهم، بل هو -مع كونه بالنسبة للمؤمن يدخل في عباداته وطاعته لله سبحانه- لغير المؤمن يدخل في مجال محافظته على صحته وبدنه، فتحرّي الطيبات لأكلها ومعرفة الخبائث لاجتنابها مطلوبٌ للنّاس كافة، المسلمين وغيرهم. فالمسلم يُطيع -بذلك- ربه، ويحافظ على صحته، وغير المسلم -لو عرف ذلك واستجاب- يحافظ على صحته بالإقبال على الطيبات وتجنُّب الخبائث.

(١) عن أَنَسِ بن مَالِكٍ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عن الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عليها، أو يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عليها"، انظر:
- مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كِتَابُ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ، بَاب اسْتِحْبَابِ حَمْدِ اللهِ تَعَالَىٰ بَعْدَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، حديث رقم (٢٧٣٤)، ص١٠٩٤.

وفي إشارةٍ لطيفةٍ جداً نبّه إلىٰ أنَّ مَن يشجع النّاس علىٰ أكل الخبائث والولوغ فيها إنّما هو الشيطان عدو الإنسان، والشيطان لا يأمر الإنسان بخيرٍ أبداً إنّما يأمر بالسوء والفحشاء ويأمر الناس بأن يقولوا علىٰ الله ما لا يعلمون ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ [البقرة: ١٦٩].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠] سفهاً منهم وضلالاً. ولو أنّهم أرادوا الأصالة بحق لاتبعوا ما أنزل الله علىٰ رسوله بدلاً من اتباع ما ألفَوا عليه آباءهم، الذين لم يؤثر عنهم علم ولا عقل ولا أثارةٌ من هداية، ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠].

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: ١٧١] يبيّن الله -تعالىٰ- هنا أنّ هؤلاء الكافرين لا يتبّعون في الحقيقة أحداً أو شيئاً بعد الشيطان، فهم يردّدون ما يسمعون دون تمحيص ودون نظر، ويرفعون عقائرهم به دون نظرٍ في العواقب، ولا يحسنون استخدام قوىٰ وعيهم التي منّ الله عليهم بها لأنّهم كالأنعام بل هم أضلّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢] ثمّ يلتفت السياق التفاتةً لطيفة يخاطب بها هذه المرة المؤمنين وحدهم فكأنّه يقول لهم: إذا كنّا قد نادينا الناس كافّة إلىٰ الأكل ممَّا في الأرض مع توخّي الحلال الطيب وعدم اتباع الشيطان، فإنّ أمرنا هذا بالنسبة لكم يتأكّد أكثر بوصفكم مؤمنين وبوصفكم مستخلَفين وجزءاً من الناس، ولذلك فإنّكم مأمورون بأن تتحروا الطيّبات، وتجتنبوا الخبائث، وتقرنوا ذلك بالشكر، لتجعلوا من سعيكم في طلب الأرزاق ومن استفادتكم به جزءاً من الشكر لله، ونصيباً من عبادته إذا كنتم تعبدونه حقّاً.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: ١٧٣] هذا تفسير للسوء والفحشاء التي بيّن تعالىٰ أن الشيطان يأمر بها الناس، فهو تفسير لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ

﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ١٦٩] فالمعنىٰ: إنما يأمركم الشيطان باستحلال أكل المَيْتَة وَالدَّم وَلَحْم الخِنزِيرِ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله. ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ [البقرة: ١٦٩] بتحليل ما حرَّم وتحريم ما أحلَّ، ولذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النحل: ١١٦-١١٧]. والميتة والدّم ولحم الخنزير أمورٌ معروفة، وقد تحدّث الفقهاء والمفسرون في تفاصيل كثيرة داخلةٍ في هذا المجال يمكن لطالب التفاصيل أن يراجعها، أما نحن فنقف عند ما وقف القرآن عنده من أنَّ الميتة بكل أجزائها والدم بكل أنواعه ولحم الخنزير -كله- محرمٌّ أكله، لأنَّ الآية جاءت في معرض الكلام عن الأكل والمستثنيات من حِلّ الأكل.

أما ما أُهِلّ به لغير الله فهي تلك الذبائح التي يذبحها المشركون والمنحرفون من أتباع الشيطان علىٰ النُّصُب وعلىٰ أسماء أندادهم وشركائهم، فتلك مُحرّمةٌ علىٰ المؤمنين لأنها لم تُنسب إلىٰ خالقها الذي امتنَّ بخلقها علىٰ الإنسان، قال تعالىٰ: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾ [النحل: ٥]. فأن يبلغ بالإنسان الكُفر إلىٰ هذا الحد من السَّفَه، فيذبح ما خَلق الله وما أحلّه له علىٰ غير اسمه ويُشرك به مَن لا يَصْلُح أن يكون شريكاً في أي شيءٍ، فهذا الذي أُهِلّ به لغير الله جديرٌ بأن يُهدَر بعد أن تجاهل أصحابه أصله وخالقه وولي النعمة فيه.

وعاد السياق مرةً أخرىٰ إلىٰ أولئك الذين يكتمون ما أنزل الله من أهل الكتاب ويقولون للمشركين -رغم علمهم بضلالهم وإيمانهم بكفرهم-: أنتم خير وأهدىٰ سبيلاً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: ١٧٤] إن الذين يُخْفون ما أنزل الله في كُتبه من صفة محمد ﷺ وغير ذلك من الحق، ويحرصون علىٰ أخذ قليل من عَرَض الحياة الدنيا مقابل هذا الإخفاء، هؤلاء ما يأكلون في مقابلة كتمان الحق إلا نار جهنم تتأجّج في بطونهم، ولا يكلمهم الله يوم القيامة لغضبه وسخطه عليهم، ولا يطهرهم من دَنَس ذنوبهم وكفرهم، ولهم عذاب مُوجع.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾ [البقرة: ١٧٥] أولئك المتصفون بهذه الصفات استبدلوا الضلالة بالهُدىٰ وعذاب الله بمغفرته، فما أشد جراءتهم على النار بعملهم أعمال أهل النار!! فيعجب الله من إقدامهم على ذلك، فاعجبوا -أيها الناس- من جراءتهم، ومن صبرهم على النار ومكثهم فيها، وهذا على وجه الاستهانة بهم، والاستخفاف بأمرهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾ [البقرة: ١٧٦] ذلك العذاب الذي استحقوه بسبب أن الله تعالىٰ نزَّل كتبه على رسله مشتملة على الحق المبين، فكفروا بها، واختلفوا فيها، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، لفي منازعة ومفارقة بعيدة عن الرشد والصواب.(١)

النَّجم التاسع عشر: البِرّ والتشريع للأمة الجديدة

﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾ [البقرة: ١٧٧ - ١٨٢]

ثم ينتقل السياق إلىٰ تعميم يهيء للتخصيص الآتي في التشريعات مبيّناً أنَّ الشريعة مطلوبة لتحقيق التزكية في الإنسان، ولجعله إنساناً من أهل البر لا من أهل الشر، ويذكر في هذا الصدد صفات الذين آمنوا بمحمدٍ ﷺ ليبيّن لأولئك الذين كتموا ما أنزل الله عليهم وقالوا: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ [آل عمران: ٧٥] مدى انحرافهم

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٢٦.

وضلالهم، ويُذكّر بما قالوه وهم السفهاء عندما حدّد الله -تعالىٰ- لرسوله ﷺ القبلة الدائمة التي ينبغي أن تستقبلها البشريّة إلىٰ يوم الدين وعدّوا ذلك ليس من البر، وردّ الله عليهم بقوله: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] كما يدعوكم إلىٰ ذلك الحرفيُّون والشكليُّون ممن يزعمون أنّهم أهل كتاب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ولكنّ البر الحقيقيّ يتمثّل في هذه الصفوة من أصحاب محمد ﷺ. والقائمون بكل هذه الأعمال هم البررة الحقيقيُّون، فإيمانهم لم يلبسوه بضلال، ولم يشوبوه بنقص وآتوا حق المال لمستحقيه من هذه الأصناف، ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧] الصادقون في إسلامهم وإيمانهم وهم المتقون.

وبعد هذا التعميم والإشارة إلىٰ عناوين البر والخير الشاملة المؤدّية للتقوىٰ تبدأ تفاصيل التشريعات القرآنية في هذه السورة الكريمة، فيقول -جل شأنه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة: ١٧٨] والقصاص أمرٌ يتعلّق بالأنفس وبالحياة، فمناسبة البدء به واضحةٌ ظاهرة لا تخفىٰ، كما أنَّ القصاص كان في الشريعة السابقة -شريعة أهل الكتاب- هو الحكمُ الوحيدُ الذي لا يجوز تجاوزه إلىٰ ما عداه مهما كانت الظروف، ذلك لأنَّ شريعة بني إسرائيل بُنيت علىٰ أنَّ ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [المائدة: ٣٢]. فالنفس هنا لا تقابلها نفسٌ واحدة وإنّما هي قتلٌ لمعنىٰ الحياة، فساغ أن تُعدّ وكأنها قتلٌ للنّاس جميعاً. وذلك يُهيّء الذهن لضرورة القصاص وعدم جواز استبداله، لذلك كُتب عليهم فيها ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ ﴾ [المائدة: ٤٥].

أمّا في شريعة التخفيف والرحمة فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يبدأ بالقصاص بوصفه العقوبة المغلظة المشدّدة ويبيّن مراده فيه، فالقصاص يعني المماثلة أي تتبُّع الدم بالقَوَد[١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ [البقرة: ١٧٨] ويبيّن لنا أنّ هذا التتبّع يكون بطريقة الاقتصاص من الحر -إذا قتل مثله- بقتله، وكذلك بالنسبة للرقيق، والأنثىٰ بالنسبة للأنثىٰ. ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾ [البقرة: ١٧٨] ثمّ يُبيّن أنّنا يمكن أن نتجاوز هذا بعفو وليّ الدم، فالله -تعالىٰ- يقول لوليّ الدم: قد جعلتُ لك سلطاناً؛ فلك أن تقتص ولك أن تعفو وأن تأخذ الدية ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فقد يرىٰ أولياء الدم أنّ القتيل قد ترك أُسرة هي في حاجة إلىٰ الرعاية المالية حيث يكبر الصغير والصغيرة وتزداد احتياجاتهما واحتياجات الأُسرة، ومن ثمّ فإنَّ لهم أن يطلبوا الدية، وقد قدّرها رسول الله ﷺ في عصره بمائة من الإبل بمواصفات مُعيّنة، والمائة من الإبل بتلك المواصفات كانت تجعل الأسرة التي تملكها في عِداد مَن نسمّيهم الطبقة المتوسطة أو المكتفين في الوقت الحاضر، ولكنّ الفقهاء تصوروا أنّ تلك المائة من الإبل التي ورد النص بها دية للقتيل ينبغي أن يتمسَّك بها حرفياً وأن تُؤخَذ علىٰ ظاهرها كما هي، ودون اعتبارٍ للمعاني والمقاصد، ولذلك كانت قيمة الدية ترتفع وتنخفض بأقيام الإبل، وهو أمرٌ قد لا يحقق العدل والنصَفة، بل الذي يحققه أن تكتفي هذه الأسرة بكامل أعضائها -كما لو كان القتيل حيّاً بينهم يرعاهم- إلىٰ أن يستغني كل عضو من أبناء الأسرة عن دَخْل الأسرة، وفي هذه الحالة تتحقق العدالة الواضحة في الدِّية ومقاديرها.

أما تقدير الناس للدية -كما في قانون العشائر القديم الملغي في العراق- بخمسةٍ وسبعين ديناراً، وتقديرها في السعوديَّة ودول الخليج بما يوازي مائة وعشرين ألف ريال سعودي، فتقديرات مُجحفة وغير سليمة، فرسول الله ﷺ فيما رُوي عن نَافِعٍ عَنْ ابن عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال النبي ﷺ يوم الْأَحْزَابِ: (لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إلا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمْ الْعَصْرَ في الطَّرِيقِ، فقال بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي حتىٰ نَأْتِيَهَا، وقال بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لم يُرِدْ مِنَّا ذلك، فَذُكِرَ ذلك لِلنَّبِيِّ ﷺ فلم يُعَنِّفْ وَاحِداً منهم)[٢].

(١) القَوَدُ: قِصاصٌ وقتلُ القاتل بدل القتيل.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب المغازي، بَاب مَرْجِعِ النبي ﷺ من الْأَحْزَابِ وَمَخْرَجِهِ إلىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ وَمُحَاصَرَتِهِ إِيَّاهُمْ، حديث رقم (٤١١٩)، ص٧٨٢.

فظنّ بعضهم أنَّه أمر بذلك لذاته فلم يصلّوا العصر إلا بعد الوصول إلىٰ بني قريظة وكان ذلك وقت العشاء، وفهم بعضهم قصد رسول الله ﷺ ألا وهو الاستعجال والسرعة لتحقيق المباغتة قبل أن تصل الأخبار لبني قريظة، ولذلك صلّوا في الطريق مُسرعين ووصلوا مع إخوانهم الآخرين فكسبوا أجرَ الصلاة في وقتها وتنفيذ أمر رسول الله بالسرعة. كذلك الدّية والمقدَّرات ينبغي أن يُنظر إلىٰ مقاصدها، خصوصاً وأننا اليوم نجد بعض الإبل تُقدَّر أثمانها بأضعاف أضعاف ثمن المائة التي تحكم المحاكم بها في هذه الأيام، وحين نلاحظ المقصد نجد أنَّ علينا وعلىٰ المحاكم أن نقوم بدراسات وافية لكل حالة، فإذا ترك القتيل عشرةً من الأبناء أو أقل أو أكثر، وكان سنّ القتيل معيناً أيضاً، فيمكن معرفة ما تحتاجه هذه الأسرة حتىٰ تستغني عن المعيل، من خلال معرفة دخله وموارده، وبعد ذلك يمكن الخروج بتقديرٍ عادل لا يجعل أسرة القتيل بعد ذلك عالةً علىٰ أحد ولا يُضيّع المجتمع أبناء هذه الأسرة، وفي الوقت نفسه سيكون ذلك مغرياً لأولياء الدم بالتنازُل عن القصاص إلىٰ قبول الدية المجزية النافعة والمفيدة لأسرة القتيل الخاصة.

فالتخفيف الذي جاءت به هذه الشريعة أن نقلت القصاص- الذي كان هو الجزاء الوحيد للقاتل إلىٰ مستوىٰ العقوبة المغلَّظة إذا أصرّ ولي الدم علىٰ القصاص- إلىٰ إمكانية أن نتجاوز هذا بعفو وليّ الدم، فالله -تعالىٰ- يقول لولي الدم: قد جعلت لك سلطاناً فلك أن تقتص ولك أن تعفو ولك أن تأخذ الدية، فإن أنت عفوت فستجد ذلك عندي، وفي هذه الحالة يحتسب وليُّ الدم وأسرة القتيل ذلك عند الله -تبارك وتعالىٰ- ويتجاوزون حالة القصاص.

والحكمة من إشراك العاقلة أو القبيلة في دفع الدية ليست تكريس الاتجاهات القبائليَّة والعشائريَّة، ولكنها إيجاد نوع من التضامن في الحالات الاستثنائيَّة يضمن إيصال الحقوق إلىٰ أهلها، فإنّه إذا ضُربت الدية علىٰ القاتل وحده وكان عاجزاً، فذلك سوف يفوّت مصلحة أسرة القتيل، ولذلك أُدرجت العشيرة أو العاقلة في بعض الحالات لضمان حق القتيل.

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٩] تُبيّن الآية أنَّ تشريع القصاص هو الذي يضمن المحافظة علىٰ أرواح الناس، ويعظّم من

شأن الحياة، ويؤدي إلىٰ احترامها والمحافظة عليها. وهذه الآية مقابلةٌ لعبارةٍ كانوا يتداولونها في الجاهليَّة لا تَرقىٰ إلىٰ أي مستوىٰ من مستويات إعجاز الآية التي معنا، فقد كان العرب يقولون: القتل أنفىٰ للقتل،[1] أمّا الله -تبارك وتعالىٰ- فقد جعل في

(١) قال الرافعي في كتابه "وحي القلم": "هذه الكلمة مولدة وُضعت بعد نزول القرآن الكريم، وأخذت من الآية، والتوليد بيِّن فيها، وأثر الصنعة ظاهر عليها؛ ولقد جاء أبو تمام بأبدع وأبلغ من هذه الكلمة في قوله:

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم   إن الدم المغبر يحرسه الدم

"الدم يحرسه الدم" هذه هي الصناعة، وهذه هي البلاغة لا تلك، ثم قال: "يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

١- بدأ الآية بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وهذا قيدٌ يجعل هذه الآية خاصة بالإنسانية المؤمنة التي تطلب كمالها في الإيمان، وتلتمس في كمالها نظام النفس، وتقرر نظام النفس بنظام الحياة؛ فإذا لم يكن هذا متحققاً في الناس فلا حياة في القصاص، بل تصلح حينئذ كلمة الهمجية: القتل أنفىٰ للقتل، أي اقتلوا أعداءكم ولا تدعوا منهم أحداً، فهذا هو الذي يبقيكم أحياء وينفي عنكم القتل؛ فالآية الكريمة بدلالة كلمتها الأولىٰ موجهة إلىٰ الإنسانية العالية، لتوجه هذه الإنسانية في بعض معانيها إلىٰ حقيقة من حقائق الحياة.

٢- قال: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ﴾ [البقرة: ١٧٩] ولم يقل: (في القتل)، فقيّده بهذه الصيغة التي تدل علىٰ أنه جزاء ومؤاخذة، فلا يمكن أن يكون منه المبادأة بالعدوان، ولا أن يكون منه ما يخرج عن قدر المجازاة قل أو كثر.

٣- تفيد هذه الكلمة "الْقِصَاصِ" بصيغتها "صيغة المفاعلة" ما يُشعر بوجوب التحقيق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع، وألا يكون قصاص إلا باستحقاق وعدل؛ ولذا لم يأت بالكلمة من اقتص مع أنها أكثر استعمالاً؛ لأن الاقتصاص شريعة الفرد، والقصاص شريعة المجتمع.

٤- من إعجاز لفظة "الْقِصَاصِ" هذه أن الله -تعالىٰ- سمّىٰ بها قتل القاتل، فلم يُسمّه قتلاً كما فعلت الكلمة العربية؛ لأن أحد القتلين هو جريمة واعتداء، فنزّه -سبحانه- العدل الشرعي حتىٰ عن شبهه بلفظ الجريمة؛ وهذا منتهىٰ السمو الأدبي في التعبير.

٥- ومن إعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلىٰ أنه سيأتي في عصور الإنسانية العالمة المتحضرة عصر لا يرىٰ فيه قتل القاتل بجنايته إلا شرّاً من قتل المقتول؛ لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة، علىٰ حين أنَّ أخذ القاتل لقتله ليس فيه إلا نية قتله؛ فعبّرت الآية باللغة التي تلائم هذا العصر القانوني الفلسفي، وجاءت بالكلمة التي لن تجد في هذه اللغة ما يُجزئ عنها في الاتساع لكل ما يراد بها من فلسفة العقوبة.

٦- ومن إعجاز اللفظة أنها كذلك تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دونه، وعجيب أن تكون بهذا الإطلاق مع تقييدها بالقيود التي مرت بك؛ فهي بذلك لغة شريعة إلهية علىٰ الحقيقة، في حين أنَّ كلمة القتل في المثل العربي تنطق في صراحة أنها لغة الغريزة البشرية بأقبح معانيها؛ وبذلك كان تكرارها في المثل كتكرار الغلطة؛ فالآية بلفظة القصاص تضعك أمام الألوهية بعدلها وكمالها، والمثل بلفظة القتل يضعك أمام البشرية بنقصها وظلمها. =

تشريعه هذا ومنه القصاص حياةً لأولي الألباب، لعلهم يتّقون ويتحفظون ويتجنبون المسارعة في إراقة الدماء.

= ٧- ولا تنس أن التعبير بالقصاص تعبير يدع الإنسانية محلها إذا هي تخلصت من وحشيتها الأولىٰ وجاهليتها القديمة، فيشمل القصاص أخذ الدية والعفو وغيرهما؛ أما المثل فليس فيه إلا حالة واحدة بعينها كأنه وحش ليس من طبعه إلا أن يفترس.

٨- جاءت لفظة القصاص معرّفة بأداة التعريف، لتدل علىٰ أنه مقيد بقيوده الكثيرة؛ إذ هو في الحقيقة قوة من قوىٰ التدمير الإنسانية فلا تصلح الإنسانية بغير تقييدها.

٩- جاءت كلمة "حياة" منونة، لتدل علىٰ أن ههنا ليست بعينها مقيدة باصطلاح معين؛ فقد يكون في القصاص حياة اجتماعية، وقد يكون فيه حياة سياسية، وقد تكون الحياة أدبية، وقد تعظم في بعض الأحوال عن أن تكون حياة.

١٠- إن لفظ "حياة" هو في حقيقته الفلسفية أعم من التعبير "بنفي القتل"؛ لأن نفي القتل إنما هو حياة واحدة، أي ترك الروح في الجسم، فلا يحتمل شيئاً من المعاني السامية، وليس فيه غير هذا المعنىٰ الطبيعي الساذج؛ وتعبير الكلمة العربية عن الحياة "بنفي القتل" تعبير غليظ عامي يدل علىٰ جهل مطبق لا محل فيه لعلم ولا تفكير، كالذي يقول لك: إن الحرارة هي نفي البرودة.

١١- جعل نتيجة القتل حياة تعبير من أعجب ما في الشعر يسمو إلىٰ الغاية من الخيال، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالاً، بل يتحول إلىٰ تعبير علمي يسمو إلىٰ الغاية من الدقة، كأنه يقول بلسان العلم: في نوع من سلب الحياة نوع من إيجاب الحياة.

١٢- فإذا تأملت ما تقدم وأنعمت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلا بما تمت به من قوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩] فهذا نداء عجيب يسجد له من يفهمه؛ إذ هو موجه للعرب في ظاهره علىٰ قدر ما بلغوا من معاني اللب، ولكنه في حقيقته موجه لإقامة البرهان علىٰ طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع، هم هؤلاء الذين يرون إجرام المجرم شذوذاً في التركيب العصبي، أو وراثة محتومة، أو حالة نفسية قاهرة، إلىٰ ما يجري هذا المجرىٰ؛ فمن ثم يرون أن لا عقاب علىٰ جريمة؛ لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضىٰ؛ وهذه فلسفة تحملها الأدمغة والكتب، وهي تحول القلب إلىٰ مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع، فنبّههم الله إلىٰ ألبابهم دون عقولهم، كأنه يقرر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأي، بل هي قبل ذلك باللبّ والبصيرة، وفلسفة اللبّ هذه هي آخر ما انتهت إليه فلسفة الدنيا.

١٣- وانتهت الآية بقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وهي كلمة من لغة كل زمن، ومعناها في زمننا نحن: يا أولي الألباب، إنه برهان الحياة في حكمة القصاص نسوقه لكم، لعلكم تتقون علىٰ الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه فاجعلوا وجهتكم إلىٰ وقاية المجتمع لا إلىٰ وقاية الفرد.

وبعد فإذا كان في الآية الكريمة -علىٰ ما رأيت- ثلاثة عشر وجهاً من وجوه البيان المعجز، فمعنىٰ ذلك من ناحية أخرىٰ أنها أسقطت الكلمة العربية ثلاث عشرة مرة، انظر:

- الرافعي، مصطفىٰ صادق. **وحي القلم**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٠م، ج٣، ص٣٦٤.

أما وقد انتهت الآيات من تشريع القصاص فمن الطبيعي ونحن أمام قتيلٍ قد انتهت حياته، وآخر قد يُقتَل إذا اختار أولياء الدم القصاص منه، ناسب ذلك إيراد تشريع الوصيّة،(١) لأنّ الوصيّة في الأصل عبارة عن ما قد يُوصِي به مَن حضرته الوفاة أو كان قريباً من الاحتضار أو فيها، قال -جل شأنه-: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ [البقرة: ١٨٠] وكُتب: لفظٌ يقتضي الوجوب، وجرت عادة القرآن الكريم باستعماله عندما يريد بيان وجوب ما يأتي بعده، كما ورد في فرضية الصيام، وفرضية القتال، وأحكام القصاص، ولا شيء من ذلك نُفي عنه الوجوب أو نُسخ أو استُثني.

وآية الوصيّة صُدِّرت بـكُتِبَ التي تحمل معنى التأكيد على الإيجاب والفرضيّة، فليس لأحدٍ أن يَصْرِفها عن ظاهرها دون دليلٍ مُوازٍ مكافئٍ لها في القوة والقطعيَّة، وسائر الأوجه التي اشتملت هذه الآية عليها؛ ولذلك فإنّ القول بنسخها بآية المواريث فيه نظر، لأنّ المواريث قرّرت أنصبة محدّدة لا زيادة فيها ولا نقص، وأما الوصيّة فهي واجبةٌ على الإنسان إذا خاف حيفاً أو جَوراً قد يلحق ببعض مَن لهم الحقوق. والأبوان -بحكم كبرهما وتقدُّم السن بهما- قد يجور بعض الأبناء عليهما، وقد يستولون على ما لهما أو لديهما، وذلك واقعٌ ومشاهَد وله نظائره عبر العصور.

ومن هنا فإذا شعر الموصي بأنّ نصيب والديه من ميراثه قد لا يكفل لهما حياةً طيبة هانئة فعليه -والحالة هذه- أن يَجبُرَ هذا النصيب بوصيّةٍ يوصِي بها لهما، فلو فُرِض وجود والدين يسكنان لديه ويخشى أنّ ورثته قد يخرجونهما من المنزل فله أن يُوصِي بإبقائهما في المنزل مثلاً، أو يوصي بتمليك المنزل لهما، أو بشراء منزل بديل، فذلك من البر الواجب عليه، كما أنَّ الوالدين اللذين قد يُحرمان من الميراث نتيجة اختلاف الدين أو أية أسباب أخرى فإنّ الوصية يمكن أن تؤدي هذا الدور في حياتهما وفي إبراء ذمة الموصي، ولذلك فالآية محكمة ولا يعارضها حديث: (لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ)؛ إذ من

(١) الوصية في اصطلاح الفقهاء: هي: تمليك مضاف إلى ما بعد الموت عن طريق التبرع، سواء كان ذلك في الأعيان أو في المنافع، وسميت وصية؛ لأن الميت يصل بها ما كان في حياته بعد مماته.

الممكن حمله على لا وصية لوارثٍ مُكتفٍ نصيبه يزيد عن حاجته ويفضل. وعلى هذا فيمكن الجمع بين الآية والحديث، والجمع بين النصّين مانع من اللجوء إلى القول بالنسخ عند من يقولون بالنسخ، لكن في الأحوال كلها لا ينبغي أن يُلجأ إلى القول بالنسخ لآية صُدّرت بلفظ كُتِب القطعيّ الدلالة على الفرضيَّة، ولفظ كُتِب فيه جانبٌ إعجازيّ لا يخفى، وهو أنّ معناه: قُدِّر وأُثبِت بحيث لا يقبل تغييراً أو نسخاً، هذا مع أنّنا نتبنّى مذهب الإمام الشافعيّ في عدم جواز نسخ القرآن بالسُنَّة من ناحية، وأنَّ مذهبنا الذي ندين لله -تعالى- به ألا نسخ في القرآن بأيّ شكلٍ من الأشكال، وكل ما ادُّعي نسخه إنّما كان لبروز إشكال في ذهن المجتهد وهو يقرأ آيات الكتاب الكريم، وعلى المجتهد أن يعالج إشكالاته الذهنيَّة بدلاً من الهيمنة على النص وتعطيل بعض أنواعه بالنَّسخ، أو التعادُل، أو التعارض المسقِط للدليلين معاً، فكل ذلك ممّا لا يُقبَل إيراده على القرآن والله أعلم.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾ [البقرة: ١٨١] هنا يأمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من يحيطون بالمحتضر ويستمعون إليه -حين يُوصي- أن يكونوا أُمناء وشهوداً عدولاً، فلو أنَّ الوصيّة لم تُكتب وطُلب هؤلاء الحضور للشهادة فعليهم أن يكونوا أُمناء على ما سمعوا يؤدونه كما هو. وهذا النوع من الوصايا -خاصةً الشفويَّة- مظنّة اختلاف وتخاصُم قد يصل إلى القضاء، وقد يُدعَى الحضور إلى الشهادة. ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾ [البقرة: ١٨٢] وإذا خَشِي بعض الحضور أن تكون عواطف المحتضر متذبذبة بين ورثته بحيث قد يخرج عن دائرة العدل مع بعضهم فلا بأس في أن يتدخلوا برفقٍ لإصلاح ذات البَين وتصحيح المسار في الوصيَّة، ولكنّها حين تقع لا بدّ من الوفاء بها وإيصال الحقوق إلى أهلها.(١)

(١) قال الإمام النسفي في تفسيرها: ﴿فَمَنۡ خَافَ﴾ [البقرة: ١٨٢] عَلِمَ، وهذا شائع في كلامهم، يقولون: أخاف أن تُرسل السماء ويريدون الظن الغالب الجاري مجرى العلم ﴿مِن مُّوصٖ﴾ ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾ [البقرة: ١٨٢] تعمداً للحيف ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٢] بين الموصَى لهم وهم الوالدان والأقربون بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٨٢] حينئذ، لأن تبديله تبديل باطل إلى حق، فذكر -تعالى- من يبدل بالباطل، ثم ذكر من يبدل بالحق، ليعلم أن كل تبديل لا يؤثم، انظر:
- النسفي، **تفسير النسفي مدارك التأويل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج١، ص١٥٧.

النَّجم العشرون: حِفْظ الدين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن
كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ
وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ
أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ
مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ
ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ
ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ
فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ
فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧
وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ
بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ
بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩ ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٩]

بعد أن تناول النَّجم السابق حِفظ النفس والمال الذي قد يكون مظنّة الخطر ووصوله إلىٰ غير مستحقيه بعد الوفاة، انتقلت آيات هذا النَّجم إلىٰ (حفظ الدين) بسائر مقوّماته وأركانه ودعائمه. فانتقل السياق هنا إلىٰ الصيام ليبيّن فرضيته وأهميته.

حول مفهوم الصوم

وهنا لا بد من كلمة حول هذا الركن من أركان الإسلام، فإذا كان لكل شيءٍ صورة وحقيقة، فإن الصورة لا تُغني عن الحقيقة شيئاً وإن مثَّلت مظهراً، وبناء عليه

فإن الصيام -كسائر العبادات- له صورة وحقيقة، وصورة الصيام كلنا يُجيدها ويُتقنها، ولكن المتقنين الفاقهين لحقيقة الصيام والقيام قليلٌ ما هم، فكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا التعب والنَّصب، إن حقيقة الصيام تعني أن يستحضر الصائم الإيمان وشُعَبه كلها، والبر وخصاله كلها، والإسلام والإحسان كذلك، ويعمل على التحلّي بكل خصال أهل الإيمان وحَمَلة الإسلام، والمتصفين بالإحسان؛ ليكون من أهل القرآن ومن أهل رمضان، ومن الوارثين الذين يرثون الفردوس، فإذا لم يشعر الصائم بأنّ صيامه قد زاده إيماناً، وأثمر في قلبه اليقين، وجعله يستقرئ خصال الإيمان والإسلام والإحسان ليقوم بها كلها، ويشعر بأنّ الحياة قد بدأت تدب في ضميره الفرديّ وحسّه وسائر قُوىٰ وَعْيه، فتذكّره بهويّته ووحدة أمته، وضرورة تحرّي الصدق في انتمائه لها والعمل علىٰ إنقاذها وإنهاضها من كبوتها، وإعادة بناء وحدتها، فإنّه في هذه الحالة بحاجة إلىٰ مراجعة صيامه وقيامه؛ ليتبيّن له نصيب الصورة منه من نصيب الحقيقة، فإنّ الصورة لا تحمل إلا المظهر الخارجي، فلو جئنا بصورة أسد ميت وحشوناه ليفاً وتبناً فإنّ هذه الصورة لا يمكن أن تقاوم أي خَطر يأتيها، ولو من دجاجة أو قطة أو عصفور يريد السقوط علىٰ ذلك الجلد المحشوّ الممثل لصورة الأسد، أما الحقيقة فتمثّل ذلك الحيوان المفترس، ملك الغابة الذي لا يستطيع أي حيوان آخر منازلته أو النيل منه.

إنّ هذا الشهر الكريم هو موسم لاسترداد الحقائق التي أضعناها، وموسم للانتقال من الصور الهامدة إلىٰ تلك الحقائق الهادية المرشدة، وكم أتمنىٰ أن أجد أبناءنا وبناتنا وإخواننا يتجهون نحو الانتقال من صور الإسلام إلىٰ حقائقه، ومن صورة العبادة إلىٰ حقيقتها؛ ليُعيدوا بناء الأمة المسلمة الواحدة، ويتحلّوا بالتوحيد الخالص والإيمان الكامل والتزكية الطهور، ويتحلوا بالاتجاهات العمرانيّة التي بها تُبنىٰ وعليها تقوم الحضارات، فهل نجعل من شهر صيامنا مناسبة للانتقال من تلك الصور الباهتة في إيماننا وعباداتنا ومناهج تفكيرنا وسلوكنا وأخلاقنا؛ لنبني أنفسنا وأُسَرنا ومجتمعاتنا وأمتنا البناء الحقيقي السليم.

ولقد شهد شهر الصوم عبر التاريخ الإسلامي وشهدت أمتنا فيه أزهىٰ أيام انتصاراتها؛ فلم يكن الشهر الكريم في حياة هذه الأمة إلا شهر صبرٍ وإيمان وجهادٍ وتربيةٍ وإعدادٍ للمسلم ليعيش عامه كله إنساناً ربّانيّاً صابراً مُرابطاً مجاهداً شاكراً لأَنْعُم الله، ذاكراً تالياً قانتاً له سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لا تدركه الغفلة، ولا يُدلف إليه الانحراف.

صدقة الفطر

وقبل مغادرة الحديث عن الصيام أشير إلىٰ موضوع مهم متصل به اتصالاً وثيقاً ألا وهو زكاة الفطر التي تحوَّلت إلىٰ إشكاليَّة في هذا العصر، فزكاة الفطر أضيفت إلىٰ الفطر لأنها تَجِب بالفطر، وزكاة الفطر يُراد بها الصدقة عن البدن والنفس، ويراد بها جبر الخلل في صيام العبد، وإغناء فقراء المسلمين عن الحاجة للطعام في يوم عيد المسلمين ليشاركوا المسلمين أفراحهم، فعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: فَرَضَ رسول الله ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ من اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ من أَدَّاهَا قبلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ من الصَّدَقَاتِ."[1] ورُوي: "أغنوهم عن الطلب في هذا اليوم."[2]

ولذلك فقد كان ينبغي أن تكون زكاة الفطر وسيلةً للتسوية بين المسلمين بالفرحة بعيدهم وجعلهم جميعاً قادرين علىٰ الاحتفال به وتحقيق أهدافه ومقاصده التي شُرع من أجلها.

وقد كانت للعرب وغير العرب أعياد كثيرة فيما مضىٰ، يحتفلون بها ليتحلّلوا من سائر القيود القيميَّة والأخلاقيَّة، ويطلقون لشهواتهم العِنان لترتع كما يرتع الحيوان، فمنع الله ذلك كله وأبدلهم بكل تلك الأعياد عيدين أو يومين مباركين[3] هما: عيد

---

(١) السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كِتَاب الزَّكَاةِ، بَاب زَكَاةِ الْفِطْرِ، ج٣، حديث رقم (١٦٠٩)، ص٥٣.

(٢) الألباني، محمد ناصر الدين. **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، إشراف: زهير الشاويش، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ج٣، حديث رقم٨٤٣، ص٣٣٢. رواه سعيد بن منصور وضعّفه الألباني.

(٣) عن أَنَسٍ قال: "قَدِمَ رسول الله ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِماَ، فقال: ما هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟ قالوا: كنا نَلْعَبُ فِيهِمَا في الْجَاهِلِيَّةِ، فقال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللهَ قد أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْراً مِنْهُمَا، يوم الْأَضْحَىٰ وَيَوْمَ الْفِطْرِ." انظر: =

الفطر، الذي هو احتفال بإكمال العِدّة، عِدّة أيام الصيام، وتكبير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وذكره على ما هدانا إليه من ذلك، وتوثيق الروابط بين أبناء الأُسر والجيران وبين المؤمنين كافة ومَن يساكنونهم. والثاني هو عيد الأضحى، وهو يومٌ يُحتفل فيه بتمام الحج، ويتم فيه تقديم الأضاحي وإشباع الفقراء وتفقُّد أحوالهم وما إلى ذلك.

فجاء الفقهاء واختلفوا في كيفيَّة دفع صدقة الفطر أتُدفَع مالاً أم تُدفَع عَيناً وفقاً لما كان يُدفَع في عهده ﷺ.(١)

ولو رجعنا إلى الحكمة النبويَّة في قوله ﷺ فيما روي عن نافع عن ابن عمر: أغنوهم عن الطلب في هذا اليوم(٢) أي أغنوا فقراءكم عن الانشغال بالسؤال؛ ليشعروا بإنسانيّتهم وبأنّهم منكم، لما كان هناك داعٍ لهذا الاختلاف، على أنّ أئمة كِباراً مثل الإمام أبي حنيفة وغيره وكثيراً من قُرّاء الصحابة قد أجازوا دفع ما يعادل القيمة العينيَّة من المال لمستحقي هذه الزكاة، وأجاز العلماء -تبعاً لفهمهم لمقاصد التشريع ولما ورد من آثار وسُنن في جيل التلقّي- أن تُدفَع في اليوم الأول من رمضان أو في آخر يوم قبيل الصلاة، ولكلٍّ حكمته وفوائده.

ولقد شهدتُ في أمريكا نزاعاً بين المسلمين حول هذه الزكاة؛ إذ جاءهم مَن يقول لهم بأنَّ قول أبي حنيفة ومَن إليه من الأئمة قولٌ لا يجوز الأخذ به، لأنّهم على خلاف السُنَّة، وجاءنا أحد المتطوعين بصاعٍ مكسّر هشّمته السنون، وقد لُفّ بأسلاك من حديد ليتماسك ووضعه بين أيدينا لنقيس به الحِنطة أو الأرز أو التمر أو الزبيب ونعطيه للنَّاس في بلد الـ fast food فكان الفقراء يأخذون صدقة الفطر العينيّة ليُلقوا بها في أول قناة أو حديقة من الحدائق طعاماً للعصافير ولا ينتفعون بشيءٍ منها!!!

= - السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كتاب الصلاة، بَاب صَلَاةِ الْعِيدَيْنِ، ج٢، حديث رقم (١١٣٤)، ص٣٤٥.

(١) عن ابن عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: "فَرَضَ رسول الله ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ، صَاعاً من تَمْرٍ أو صَاعاً من شَعِيرٍ، على الْعَبْدِ وَالْحُرِّ وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ من الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بها أَنْ تُؤَدَّى قبل خُرُوجِ الناس إلى الصَّلَاةِ." انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الزكاة، بَاب فَرْضِ صَدَقَةِ الْفِطْرِ، حديث رقم (١٥٠٣)، ص٢٩٣.

(٢) سبق تخريجه [سورة البقرة: النجم العشرون، صدقة الفطر].

هذه الخلافات في هذه الأمور ونحوها ينبغي أن يضع لها رجال الفتوىٰ وأهل الفقه وعلماء الاجتماع في العالم الإسلاميّ حداً ونهاية، لأنّها صارت من مصادر الإساءة لديننا ولسمعتنا.

ومن اللافت للنظر ورود آية الدعاء بين آيات الصيام فقال -جل شأنه-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦] فدعاء الصائم في صيامه والقائم في قيامه دعاءٌ مرفوعٌ إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- إذا استوفىٰ شروطه وآدابه التي بيّنها رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والدعاء مطلوب لا ينبغي أن يُفوِّت الصائم منه شيئاً لا في الليل ولا في النهار.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] أباح الله لكم في ليالي شهر رمضان جِماعَ نسائكم، هنَّ ستر وحفظ لكم، وأنتم ستر وحفظ لهن. ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] بمخالفة ما حرَّمه الله عليكم من مجامعة النساء بعد العشاء في ليالي الصيام، وكان ذلك في أول الإسلام، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] ووسَّع لكم في الأمر، ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] فالآن جامعوهن، ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] واطلبوا ما قدَّره الله لكم من الأولاد، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. حتىٰ يتبيَّن ضياء الصباح من سواد الليل، بظهور الفجر الصادق، ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] بالإمساك عن المفطرات إلىٰ دخول الليل بغروب الشمس، ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] ولا تجامعوا نساءكم أو تتعاطوا ما يُفضي إلىٰ جماعهن إذا كنتم معتكفين في المساجد؛ لأن هذا يفسد الاعتكاف، وهو الإقامة في المسجد مدة معلومة بنيَّة التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] تلك الأحكام التي شرعها الله لكم هي حدوده الفاصلة بين الحلال والحرام، فلا تقربوها حتىٰ لا تقعوا في الحرام. بمثل هذا البيان الواضح ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ [البقرة: ١٨٧] كي يتَّقوه ويخشَوْه.[١] ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ [البقرة: ١٨٨] هذه الآية الكريمة اشتملت على كليَّات قرآنيَّة، الكليّة الأولى: منع وحظر وتحريم أخذ أي مال من أي أحد دون وجه حق. الثانية: أنَّ الحكام عليهم أن يحكموا بالعدل وأنَّه إذا انحرف الحاكم أو القاضي فذلك يعني أنَّه لن يكون وحده المسؤول عن الانحراف، بل يشاركه الجُرم والذنب أولئك الذين أغروه به وأعانوه عليه، سواءٌ بالممارسة أو بالسكوت وعدم الإنكار أو بأية وسيلة أخرى، وقد حدَّد الشارع في مواضع عديدة من القرآن الكريم أوجه الوصول إلى المال بالحق كالتجارة والدَّين والأجرة لقاء عملٍ والإرث وما إليها، فكلُّ ما بيَّن الشارع الحكيم أنَّه وسيلةٌ مشروعة لتداول الأموال وتبادلها فهو لا يندرج تحت المنهيّ عنه في الآية الكريمة، بل هو وصولٌ للمال بطريق الحق، وتترتب عليه كل الحقوق، ولـمَن نال هذا المال أن ينتفع به بكل أوجه الانتفاع.

والآية معجزة في كل كلمة منها، ففي الكلمات الأولى نهيٌ صريحٌ واضح عام شامل عن أكل أموال الناس دون حقٍّ شرعيّ، وذكر النهي عن الأكل لأنَّ مآل هذه الأموال أن يتصرَّف المستولي عليها بها في مصالحه، وأهمها أكله ولبسه وسكنه، واستعمال الأكل وتوجيه النهي إليه لأنَّه المقصود الأهم، ولـمّا كان المقصود بيان حُكم الرِّشى ذَكر الحكام بصيغة الجمع، وكأنّه أراد بذلك القضاة ومَن هم في مراتبهم، ولو أراد القيادات العليا لاستخدم أولي الأمر، أما استعمال كلمة الحكام فإنّها تحمل إشارةً إلى الفصل بين السلطة القضائية وغيرها من السلطات، فالسلطة القضائية يتولاها قضاة أو حكام هم الذين يقضون بين الناس ويحكمون في خصوماتهم، سواءٌ أكانت في أموال أم حقوق أم جنايات أم ما إليها، لكنّه لـمّا كان من أهم ما يتنازع الناس عليه الأموال وهي التي يُسارع فيها الناس إلى الرّشى للوصول إلى حيازتها، فقد ذكر المال والمعاملات المالية.

---

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٢٩.

وفي قوله -جل شأنه-: ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨] تنبيهٌ لأولئك الحكام والقضاة الذين يقبلون الرّشىٰ أنَّهم بذلك يضعون أنفسهم في الموضع الهابط، فكأنهم نزلوا إلىٰ قاع بئر، وصارت يد الراشي هي العليا فوق رؤوسهم، وكأنَّ الراشي أدلىٰ إليهم بدَلوه وهم في الموضع الهابط ليتوصّل بذلك إلىٰ شيءٍ لا يستحقه. فالآية نصٌ في تحريم الرِّشوة علىٰ جميع الأطراف المشاركين فيها إذا كان القصد بها الاستيلاء علىٰ مال حرام، سواءٌ أكان مال أفراد أم جماعات، ولأن الله يعلم أنَّ الناس قد يستمرئون هذا النوع من التعامُل، وقد يُقبلون عليه بدوافع شتّىٰ؛ سمَّىٰ كل ما يتأتّىٰ عن ذلك من مال أو منفعة باطل، وفي الحديث: "إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلي وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ من بَعْضٍ فَمَنْ قَضَيْتُ له بِحَقِّ أَخِيهِ شيئا بِقَوْلِهِ فَإِنَّما أَقْطَعُ له قِطْعَةً من النَّارِ فلا يَأْخُذْهَا."(١)

وهذا الذي يسميه الناس اليوم بهدية أو مكافأة أو بدل أتعاب لا يغيُّر من هذه الحقيقة شيئاً، فهو أكلٌ لأموال الناس بالباطل، سحتٌ لا ينبت منه لحمٌ، ولا ينشذ منه عظم، إلا والنار أولىٰ به، والحقائق لا يُغيّر منها تغيير أسمائها.(٢)

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب الشَّهَادَاتِ، بَاب من أَقَامَ الْبَيِّنَةَ بَعْدَ الْيَمِينِ، حديث رقم (٢٦٨٠)، ص٥١٠.

(٢) عن عَدِيِّ بن عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ قال: سمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: "من اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ علىٰ عَمَلٍ فَكَتَمْنَا مِخْيَطاً فما فَوْقَهُ كان غُلُولاً يَأْتِي بِهِ يوم الْقِيَامَةِ، قال: فَقَامَ إليه رَجُلٌ أَسْوَدُ من الْأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إليه، فقال: يا رَسُولَ الله اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ، قال: ومالك؟ قال: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، قال: وأنا أَقُولُهُ الْآنَ، من اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ علىٰ عَمَلٍ فليجئ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فما أُوتِيَ منه أَخَذَ وما نهىٰ عنه انْتَهَىٰ." انظر:

- مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإمارة، باب تَحْرِيم هَدَايَا الْعُمَّالِ، حديث رقم (١٨٣٣)، ص٧٦٦.

وعن أبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "اسْتَعْمَلَ النبي ﷺ رَجُلاً من الْأَزْدِ يُقَالُ له ابن اللتبية علىٰ الصَّدَقَةِ، فلما قَدِمَ قال: هذا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لي، قال: فَهَلَّا جَلَسَ في بَيْتِ أبيه أو بَيْتِ أُمِّهِ فَيَنْظُرَ يُهْدَىٰ له أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بيده لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ منه شيئاً إلا جاء بِهِ يوم الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ علىٰ رَقَبَتِهِ، إن كان بَعِيراً له رُغَاءٌ، أو بَقَرَةً لها خُوَارٌ، أو شاه تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ بيده حتىٰ رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ، اللهم هل بَلَّغْتُ اللهم هل بَلَّغْتُ ثَلَاثاً." انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب الْهِبَةِ وَفَضْلِهَا والتحريض عليها، بَاب من لم يَقْبَلْ الْهَدِيَّةَ، حديث رقم (٢٥٩٧)، ص٤٩١.

الهلال وتوحيد الصيام

حين سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الهلال: لماذا يبدأ صغيراً ثمّ يكبر حتىٰ يتكامل بدراً ثمّ يصغر وهكذا. أمر الله رسوله ﷺ أن يجيبهم بقوله: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾ [البقرة: ١٨٩][1] ليُبينَّ لهم أنَّ سؤالهم قد وضعوه في غير موضعه، ولا يدل علىٰ أنَّ وراء صياغته عقلاً حكيماً ولا فِكراً سديداً، ولذا فقد أجاب بالجواب الذي لو أنَّهم فهموا كيف يسألون، ووجّهوا سؤالاً مناسباً لكان هذا جوابه.

والله -تبارك وتعالىٰ- جعل الشمس والقمر آيتين، وجعلهما مناطاً لمعرفة السنين والحساب، وربط الأحكام الشرعيَّة جملةً بمواقيت وأزمان، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس: ٥]. وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء: ١٢]. وذلك لأنَّه أراد أن يبني في الإنسان توجُّه الاستخلاف، والإحساس بحضور مهمة العمران والخلافة في الأرض في ذهنه وعقله علىٰ الدوام، فالصلاة لها مواقيتها في اليوم والليلة، والصيام له مواقيته شهرٌ في السنة هو شهر رمضان، والحج له أشهره ومواقيته، والزكاة لها مواسمها وضرورة إعطائها لمستحقيها في وقتها دون تأخير، وهكذا الديون والاستحقاقات وعِدَد النساء وما إلىٰ ذلك.

ولله -جل شأنه- فرائض في الليل لا يرضيه تأخيرها إلىٰ النهار، وفرائض في النهار لا ينبغي أن تُؤخَّر إلىٰ الليل، وبذلك يُنشّأ الإنسان تنشئةً سليمة علىٰ احترام الوقت والتقيُّد به، وعدم التفريط به، فلكل أمة أجل، ولكل إنسانٍ أجل، ورأس مال

---

(١) روىٰ الطبري بسنده عن الربيع، قال: ذكر لنا أنهم قالوا للنبي ﷺ: لم خُلقت الأهلة؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾ [البقرة: ١٨٩] جعلها الله مواقيتَ لصوم المسلمين وإفطارهم ولحجهم ومناسكهم وعدّة نسائهم وَحلّ ديونهم. انظر:
- الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٨٠.

الأمم والأفراد هو هذا الزمن، فالحياة زمن لها أجل هي دقائقٌ وثوان إذا انتهت لا يمكن أن تُعاد أو تُستَرَد، فالحياة سائرة إلىٰ نهايتها، والإنسان كادحٌ إلىٰ ربه فملاقيه.

والله -تبارك وتعالىٰ- قد منّ علىٰ هذه الأمة بالتوقيت القمريّ وهو توقيتٌ يربط الإنسان بالزمن، وله مزايا شديدة الأهميّة تجعله أفضل من التوقيت الشمسي بشكلٍ ظاهر لا مِراء فيه، ومع ذلك فإنَّ المسلمين قد أضاعوا مزايا هذا التوقيت واستبدلوه بغيره وهو توقيتٌ إغريقيّ، عِلماً بأنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- حينما شرع لهذه الأمة توقيتها القمريّ ربطه باستدارة الزمان ونَسخ كل ما ألحقه الإنسان بقضية الزمن، لكي يصبح التوقيت محقِّقاً لمقاصد القرآن وأهدافه وغاياته فقال -جل شأنه-: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة: ٣٦]. وسمّىٰ ذلك التعديل ديناً قيماً لأنّ الأخذ به والالتزام به وإيقاع العبادات والفرائض الإيمانية وفقاً له يُعدّ رُكناً من أهم أركان التديُّن، وكيفية تحقيق أغراض التديُّن.

وبيَّن أنَّ التلاعُب في الزمن وتغييره شأن الكفار الذين يحاولون من خلال التلاعُب به أن يتخلّصوا من بعض الواجبات ويتحلّلوا من كثيرٍ من الفرائض، ويتحكّموا في الدين وأوقاته، والتديُّن وأزمانه وفقاً لرغباتهم وشهواتهم لا وفقاً لما يحقّق القيم ويُثبِّت دعائمها، ولا وفقاً لمتطلبات العمران وبناء الحضارة.

ولعلنا في هذه العُجالة نبيّن بعض مزايا التوقيت القمريّ القرآني علىٰ التوقيت الشمسي الإغريقي:

لـمّا كان الدين الإسلاميّ هو دين الفطرة ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠]، فقد ركّزت أحكامه وقوانينه كلّها علىٰ قاعدة الفطرة والطبيعة والمشاهدة والرؤية وأمثالها، هذا تعليم بسيط ويسير وعام ولا يقبل التغيير

والتحريف والزيادة والنقصان، وهذه الكيفيّة من حساب الشهر ورؤيته في أوله، ومشاهدة سيره في السماء، لتعيين الوقت، قضيّة عامة يتساوىٰ فيها العالم والجاهل، والمنجّم وغير المنجّم، والحضريّ والبدويّ، والحاضر والمسافر، ولا يختلف فيها هؤلاء، ولا يُشْتبه بها في الحساب.

ولو بقي شخص علىٰ ظهر السفينة الراسيّة في الماء أعواماً كثيرة، أو عاش علىٰ سفوح الجبال وحده بعيداً عن أنظار الناس، أو قضىٰ عمره في القُرىٰ والأرياف منعزلاً عن مجتمعه، أو انقطع عن القافلة، وظلّ في البوادي والفلوات سنيناً من عمره، فإنّه يعرف شهره، ويعرف اليوم الذي يعيش فيه.

أما لو قدّر أن يكون التقويم الشرعيّ والإسلاميّ هو التقويم الشمسيّ، فإن هناك إشكالات ستحدث جرّاء ذلك منها:

أولاً: الحاجة إلىٰ الرَّصَد، والمنجِّم، وتعيين نقطة الاعتدال الربيعيّ، أو الخريفيّ، والإسلام لا يقيّد أحكامه أبداً بالحاجة إلىٰ أمر خارجيّ مجعول.

ثانياً: أيّ شهر من الشهور الشمسيّة يمكن أن يكون معتبراً؟! ذلك لأنـّنا عرفنا أنّ مقدار الشهور الشمسيّة يتفاوت حسب التقاويم المختلفة.

ثالثاً: لو خُوّل المنجِّم صلاحيّة تعيين الشهور، فإنّ كلّ واحد من المنجّمين ينظّم الشهور بشكل خاصّ حسبما يراه، ممّا يبعث علىٰ نشوب الخلاف والاختلاف بين أبناء الأمة في التقويم والأحكام، ونحن نعلم أنّ المنجّمين لو لم يخطئوا في أصل حساب الكبيسة وتعيين مقدارها، فإنّ الصلاحيّة في تعيين مقدار الشهور أمرٌ مجعول وخاضع لنفوذهم، ولا يمكن تقديم رأي لمنجّم خاصّ علىٰ رأي منجّم آخر مع حفظ أُصول الحساب.

رابعاً: يؤدّي هذا الأمر إلىٰ اختلاف المسلمين في بقاع مختلفة من العالم لتعذُّر الحصول علىٰ تقويم وتاريخ معيّنين، ويضيع أهل القرىٰ والأرياف والقوافل والمسافرون عبر البحر والجوّ لو طال سفرهم.

ولذا نرىٰ كيف اعتبرت الآية الكريمة ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦].

١- ترتيب الشهور القمريّة منوطٌ بالخلق، وعددها الاثنا عشر مرتبطٌ بأصل التكوين والفطرة، وخلق السماوات والأرض، يضاف إلىٰ أنّها عرضت ذلك بوصفه الدين القيم، أي: الثابت، وبعبارة أُخرىٰ، إنّ السنين القمريّة والشهور القمريّة هي دين الله القيم الثابت وحكمه الذي لا يتغيّر ولا يقبل التحريف ما دامت السماوات والأرض.

٢- من المنافع التي تدرّها السنون والشهور القمريّة كما يبدو، تطوّر أعمال المسلمين في جميع الفصول والأوقات المختلفة من السنة، مثلاً: صيام شهر رمضان يدور في الفصول المختلفة؛ إذ يصوم المسلم في الشتاء، والربيع، والصيف، والخريف دون أن يكون هناك أيّ تخلّف، فضلاً عن أنّ طبيعته في الفصول الأربعة تحتاج إلىٰ الصوم في الفصول الأربعة حسب فهم الأحكام والقوانين من أصل الفطرة، وأنّ الفوائد الصحيّة للصوم تعود إليه بنحوٍ تام، فإنّه يهيّيء طبيعته وإرادته للجوع في أوقات طويلة وحارّة أيضاً.(١)

ومن المؤسف أنَّ المسلمين قد استبدلوا بتوقيتهم ما شاء الآخرون بحجج مختلفة، وكان عليهم أن يقدروا هذا التوقيت القمري ويعملوا علىٰ نشره في العالم كلّه لأهمّيته ولما فيه من فوائد كثيرة.

(١) وفي ضوء ذلك يقول الشيخ الطبرسّي، بعد تفسير هذه الآية المباركة: وفي هذه الآية دلالة علىٰ أنّ الاعتبار في السنين بالشهور القمريّة لا بالشمسيّة، والأحكام الشرعيّة مُعَلَّقَةٌ بها. وذلك لِمَا علم الله سبحانه فيه من المصلحة، ولسهولة معرفة ذلك علىٰ الخاصّ والعامّ. وحصيلة القول: إنّه لـمّا كانت طبيعة الإنسان تتغيّر في الفصول الأربعة علىٰ امتداد السنة، فإنّ الإسلام -المرتكز علىٰ قاعدة الفطرة البشريّة- قد وضع أحكامه وتعاليمه لتلائم طبيعة الإنسان في دورة الفصول الأربعة. انظر:

- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (توفي: ٥٤٨هـ). **مجمع البيان في تفسير القرآن**، بيروت: دار المرتضىٰ، ط١، ٢٠٠٦م، ج٥، ص٤٠.

- الطهراني، السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ. **رسالة جديدة في بناء الإسلام علىٰ الشهور القمرية**، مقالته في موقع معارف الإسلام.

كيف اضطرب المسلمون في صيامهم وفِطْرهم؟!

في غمرة التنازُع على السلطان أفتى بعضهم بأنَّ هناك رؤيةً للهلال وحُكماً بصحة الرؤية، فرؤية الهلال عملٌ يستطيع أيّ إنسان أن يقوم به فيتراءى الهلال في الوقت الذي هو مظنّة ظهوره، فإذا رآه فلا يكفي ذلك في دعوة أهل البلد إلى الصيام أو الفطر، بل لا بدّ من أن يقترن ذلك بحكم الإمام، فيذهب الشاهد إلى القاضي أو إلى أية جهة يحدّدها الرئيس الأعلى أو الإمام ليشهد أنه رآه، فإذا قُبلت شهادته واقترن ذلك بحكم الإمام بأنّ الشهر قد دخل، آنذاك يجب على الناس الصيام أو الإفطار، فإذا لم يقترن ذلك بحكم الإمام فرؤية الشاهد لا تُلزم غيره، "فعن كُرَيْب أَنَّ أُمَّ الْفَضْلِ ابْنَةَ الحرث بَعَثَتْهُ إلى مُعَاوِيَةَ بِالشَّام، قال: فَقَدِمْتُ الشَّامَ فَقَضَيْتُ حَاجَتَهَا، فَاسْتَهَلَّ رَمَضَانُ وأنا بالشَّام، فَرَأَيْنَا الْهِلَالَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فِي آخِرِ الشَّهْرَ فَسَأَلَنِي ابن عَبَّاسٍ، ثُمَّ ذَكَرَ الْهِلَالَ، فقال: مَتَى رَأَيْتُمْ الْهِلَالَ؟ قلت رَأَيْتُهُ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، قال: أنت رَأَيْتَهُ؟ قلت: نعم، وَرَآهُ الناس وَصَامُوا وَصَامَ مُعَاوِيَةُ، قال: لَكِنَّا رَأَيْنَاهُ لَيْلَةَ السَّبْتِ فلا نَزَالُ نَصُومُهُ حتى نُكْمِلَ الثَّلَاثِينَ أو نَرَاهُ، فقلت: أَفَلَا تَكْتَفِي بِرُؤْيَةِ مُعَاوِيَةَ وَصِيَامِهِ؟ قال: لَا هَكَذَا أَمَرَنَا رسول الله."(١)

ثمّ جاء الفقهاء فجعلوا من حديث ابن عباس ذاك أصلاً يفرّعون عليه فقرَّروا شيئاً سمّوه اختلاف المطالع، وتكلموا عن اتحاد المطالع، مع أنّ المطالع مهما اختلفت فلا يبلغ اختلافها مستوى الوقت الموسّع اليوم والليلة والشهر والسنة. فقد يطلع الهلال في موقعٍ السابعة مثلاً وفي مطلعٍ آخر يطلع بعد ذلك بخمس دقائق أو عشر أو ساعة أو ساعتين.

وعلى مستوى الكرة الأرضية لا يُتصوّر أبداً أن يبلغ الاختلاف أكثر من يوم واحدٍ، فإذا ثبت دخول الشهر في شرق الأرض فيُمكن أن يختلف في غرب الأرض إلى فترةٍ قد تبلغ يوماً، وذلك يعني أنَّه لا يُتصور أن يتجاوز اختلاف المطالع اليوم، فيمكن والحالة هذه أن يصوم سكان الأرض شطرهم في يوم كذا، ويتبعه شطرهم الآخر في يومٍ تالٍ، ولا يتجاوز ذلك.

(١) السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كتاب: الصوم، بَاب: إذا رؤي الْهِلَالُ في بَلَدٍ قبل الْآخَرِينَ بِلَيْلَةٍ، ج٤، حديث رقم (٢٣٣٢)، ص٢١.

لكن فكرة اختلاف المطالع والاشتراك في جزء من الليل وخضوع الأمر لقضاء الحاكم، وتفرُّق كلمة الأمة وانتهاء عهد الحكومات المركزيَّة الشاملة، جعل الأمر أكثر تعقيداً؛ فقد نجد الاختلاف في الصيام وفي الفطر بين بلدان المسلمين في أيامنا هذه يصل إلىٰ ثلاثة أيام أو أربعة في بعض الأحيان. وأذكر ذات يوم كنتُ ومجموعة من إخواننا من المذاهب الأخرىٰ نتراءىٰ هلال رمضان في موقعٍ من المواقع، وقد اتخذ الهلال لنفسه دائرة مما يدل علىٰ أنّه في ثالث أيام ذلك الشهر أو ثانيها علىٰ الأقل، وكنا ننظر إليه دون أن ينضم بعضنا إلىٰ بعض أو نشير إليه لكبره وإضاءته واستدارته وظهور نوره، فالتفتُّ إلىٰ إخواني من مذهب آخر وقلت لهم: ماذا تقولون؟ ها هو الهلال يطل عليكم ليؤكد أنّه موجود وقد استدار واستنار وتجاوز اليوم الأول حتماً، فإذا بهم يقولون: في مذهبنا لا نعتد برؤيته إلا إذا اقترنت بفتوىٰ الإمام بأنَّ الشهر قد دخل. قلت لهم: وماذا عن الآية الكريمة ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ وقد شهدتم وشهدنا، قالوا: لابد أن يشهد الإمام!!.

هذه الآراء المسيَّسة التي اتخذها بعض الفقهاء لفقهنة السياسة، أو كرّسها بعض السياسيين لتسييس الفقه ما زالت الأمة تدفع ثمنها من وحدتها وإفساد مواقيت دينها حتىٰ يومنا هذا.

وحين انتقلتُ إلىٰ الولايات المتحدة وسكنتُ ضاحية من ضواحي العاصمة الأمريكيَّة، وكُلّفت بإدارة المجلس الفقهيّ لأمريكا الشماليَّة واجهتُ مشكلة أنّ المسلمين في مدينة واشنطن وضواحيها مثل فيرفاكس ورستن وهيرندن والكزاندريا وماريلاند وبالتيمور يصومون ويفطرون في أيام ثلاثة تصل أحياناً إلىٰ الأربع، فقد يفطر بعضهم يوم الخميس ويكون التاسع والعشرين من الشهر وتسأله: لم أفطرت؟ فيقول: لأني بدأت صيامي مع البلد الفلاني وقد أعلن هذا البلد أنَّ غداً أول أيام العيد. تأتي لشخصٍ آخر وقد صام يوم الجمعة وتسأله فيجيب جواباً مماثلاً، ثمّ يأتي مَن يصوم يوم السبت ويأتيك بجوابٍ مثل ذلك، وهكذا ترون أنّ التوقيت القمريّ رغم كل مزاياه قد أصبح عِبئاً لا يحمل أيّة مزية، بل هو أقل بكثير من تقويمات الآخرين، لأنَّه يُسبب الاختلاف الحاد إلىٰ هذه الدرجة.

ولقد وجدتُ في بعض الأماكن اختلافات قد تبلغ حد العِراك والسّباب والشتائم، ممّا يفسد على الناس صيامهم في بدء الصيام، ويُخرّب لهم أعيادهم عند حلولها. مع أنَّ من الممكن في ضوء ما حدث أن نقدّم في ظل التقدُّم العلميّ تقويماً قمريّاً لآلاف قادمة من السنين نحدّد فيها بداية ونهاية كل شهر قمريّ، ولن يتغيّر ذلك قبل أن يطوي الله الأرض كطي السجل للكتب، وحتى يُكوّر الله الشمس، ويفقد القمر أهمّيته وشعاعه وتنتهي الحياة.

ولأنَّنا كنّا نعيش في بيئةٍ متحضرة، قد تكون تعلمت من أسلافنا أبجديات الحضارة، فقد اتصل بي بعض الخبراء في مؤسّسة ناسا لعلوم الفضاء لألتقي بهم، وبالفعل التقيت بهم، فذكروا أنَّه قد عزّ عليهم أن يجدوا المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكيَّة يختلفون عند بداية رمضان وعند نهايته اختلافاً شديداً، وذكروا لي أنَّهم لإيمانهم بأنّ المسلمين ورثة حضارة مهمّة في ظلها تأسست علوم الفلك، فقد رأوا في ناسا أنّ هذه الأمة إذا اختارت شيئاً أو وقفت موقفاً فلا بدّ أن يكون لديها على ذلك دليلٌ علميّ، فاختاروا بعض المواقع في الولايات المتحدة وأسسوا فيها أبراج مراقبة للهلال تَجرِي بالعين المجردة، وجرّبوا في أحد هذه الأبراج أن دعوا ثلاثمائة شخص من أعمارٍ مختلفة من السادسة إلى السبعين ممّن لا يستخدمون نظارات، وقدّموا لهم في اليوم الذي هو مظنّة مشاهدة الهلال الإحداثيات التي عليهم أن يلاحظوا الهلال من خلالها، وبعد فترة استجوبوهم جميعاً وكلهم قد ادّعى رؤية الهلال، ولكن عندما وجّهنا لهم الأسئلة العلميَّة الدقيقة عن فتحة الهلال وكيف هي، واتجاهها وما إلى ذلك من أسئلة فنيَّة وجدوا أنَّ ثمانية فقط من بين الثلاثمائة قد رأوا الهلال فعلاً، أما الباقون فقد خُيّل لهم أنَّهم رأوه ولم يروه، والذين رأوا الهلال كانوا في أعمار ما بين الثامنة والتاسعة، وكانت الغالبيّة من البنات، وأعطوا كثيراً من التفسيرات العلميَّة لقضية الرؤية، ولِـمَ رآها هؤلاء وصدقوا في حين كان ما رآه الآخرون مجرد تخيُّل.

وقد عقدنا بِناءً على ذلك ندوةً استضافها المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ في حينه جمعنا فيها الفنّيين والفقهاء واستضفنا اثنين من خبراء ناسا كانوا طبعاً من غير المسلمين، وأعطوا خبرتهم وتقاريرهم في هذا الشأن، واستغربوا اختلاف المسلمين في

أمر لهم فيه مندوحة عن الاختلاف. ومما خرجت به الندوة أنّ هناك مَوْقعين في العالم يمكن أن تُقام فيهما مراصد مراقبة تُوصّل إلىٰ برد اليقين في مسألة الرؤية لـمَن أراد التمسُّك بها: أحدهما في المدينة المنورة، والثاني في منطقة من مناطق تشيلي في أمريكا الجنوبيّة. والحقيقة أنَّ الحساب الذي مازال مشتبهاً لدىٰ بعض الفقهاء المعاصرين بالتنجيم -وهذا خطأٌ فاحش- يستطيع أن يقدم لنا حساباً دقيقاً، ونقدم تقويماً قمريّاً لآلاف قادمة من السنين يبيّن لنا بدايات الشهور القمريَّة ونهاياتها، لننتهي من هذه المشكلة إلىٰ الأبد لو صدقت العزائم، فلا يكون لدينا اختلاف، لا في الصيام، ولا في الحج، وينحصر الاختلاف بالاختلاف الحقيقيّ القائم علىٰ اختلاف المطالع الكبرىٰ حينما يصل الاختلاف إلىٰ مستوىٰ ليلةٍ أو تزيد، والله أعلم.

وبعد هذه الاستطرادات المهمة ذات الصلة الوثيقة بالآية الكريمة نستكمل الكلام حول ما بقي منها، ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] في الإحرام بأن تنقبوا فيها نقباً تدخلون منه وتخرجون، وتتركوا الباب وكانوا يفعلون ذلك ويزعمونه بِرّاً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ [البقرة: ١٨٩] أي ذا البر ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩] الله بترك مخالفته ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] في الإحرام ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾ [البقرة: ١٨٩] تفوزون.(١)

النَّجم الواحد والعشرون: القتال وأحكامه من منظور الوحدة البنائية للقرآن

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٤]

(١) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٣٩.

هذه الآيات مما تناول أمر القتال. ولكي نخرج بتصوُّر شامل عن هذا الموضوع، فلا بدّ من قراءة القرآن المجيد في إطار وحدته البنائية، والتي تُحتِّم الرجوع إلىٰ سائر الآيات الأخرىٰ التي تناولت بقية جوانب الموضوع، ومن هذه الآيات -فضلاً عن هذه الخمس-:

قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٧-٢١٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال: ٥٦]. إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ٧٥].

كما أن من بينها أيضاً الآيات التسع والعشرين الأولىٰ من سورة التوبة، من قوله تعالىٰ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: ١] إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩]. إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

وقوله جلّ وعز: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

[محمد: ٢٠-٢١].

هذه هي جملة الآيات الواردة في هذا الموضوع الخطير جدّاً والذي واجهناه وما زلنا نواجهه منذ عصر النبوة بأشكال مختلفة.

ومن المتفق عليه أن فرض القتال قد مر بمراحل، ففي مكة لم يأذن الله بشيء منه، بل أُمر المسلمون بكف أيديهم عن المشركين والصبر عليهم والعفو والصفح عنهم، والأدلة على هذا كثيرة جدّاً، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣]. وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨٢]. وقوله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية: ١٤]. وبعد الهجرة إلى المدينة المنورة كانت المرحلة الثانية مرحلة الإذن بالقتال، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩]، ثم كانت المرحلة الثالثة، وهي الأمر بقتال من قاتلهم كما في الموضع الذي معنا هنا من سورة البقرة ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]، ثم كانت المرحلة الرابعة والأخيرة وهي مرحلة فرضه على المؤمنين فرضاً ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]. إن التدبُّر لهذه الآيات -في مواضعها التي ذكرنا- يبرز لنا قضية أساسية: وهي حق الإنسان في حرية الاعتقاد وحرية التديُّن والعبادة، وهو حق منحه الله -تبارك وتعالى- للإنسان ولم يسمح لأحد أبداً أن يسلبه منه، وهذا الحق في الحرية لا بد له من حامٍ يحميه، هذا الحامي الذي أنيطت به هذه المسؤولية يتمثل في هذه الأمة الخاتمة للأمم والتي أخرجها الله تعالى للناس -كل الناس- إخراجاً لتنهض بهذا العبء وهذه الأمانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، ﴿كُنتُمْ

﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].
هذه الحماية لهذا الحق هي وظيفة من وظائف هذه الأمة الوسط القطب الشهيدة على الناس، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، هذه الخصائص -شهادتها وخيريتها ووسطيتها وموقعها وقطبيتها- تجعلها مسؤولة عن ضمان وحماية هذه الحرية، حرية الاعتقاد والتدين... الخ.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...﴾ [البقرة: ١٩٠][١] فقط، ذلك أن الله -تبارك وتعالى- لم يجعل قتال المسلمين لغيرهم منوطاً بإيمانهم، لأن الإيمان أَمْر آخر يحكمه قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وهي آية محكمة، سيقت في إطار النفي[٢] لتعم كل نوع من أنواع الإكراه مهما كان، قلّ أو كثر، جلّ أو حَقُر، وآيات سورة التوبة التي نزلت ببراءة الله تعالى ورسوله من المشركين والأمر بقتالهم -والتي زُعِم أنها ناسخة لهذه الآية- عللت البراءة والأمر بالقتال بنكث عهودهم مع المسلمين أو بالاعتداء عليهم أو بهما معاً، ولم تعلل ذلك بالشرك أو الكفر. ومن هنا يتبين لنا أن الهدف الأساسي من تشريع القتال أمران اثنان:

أحدهما: حماية حقوق الإنسان ومن أهمها وفي مقدمتها حقه في التدين وحرية الاعتقاد.

---

(١) هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة، كذا قال ابن أسلم حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وفي هذا نظر، لأن قوله: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠] إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همّهم قتال الإسلام وأهله، [ص: ١٧٠] أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً، انظر:
- الصابوني، **مختصر تفسير ابن كثير**، مرجع سابق، ج١، ص١٦٩.

(٢) لأن "النكرة في سياق النفي تعم" انظر: الكوكب الدري ج١، ص٢٨٨، إرشاد الفحول ج١، ص٥٣٢. و"النكرة في سياق النفي تعم مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩] وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. انظر:
- ابن قيم الجوزية، أبوعبدالله شمس الدين، محمد بن أبي بكر (توفي٧٥١هـ). **بدائع الفوائد**، بيروت: دار الكتاب العربي، ج٤، ص٢.

والآخر: فرض عملية احترام المعاهدات والاتفاقات على الجميع لكي يستطيع البشر أن يعيشوا آمنين في ظل اتفاقات ومعاهدات تسمح لهم أن يتبادلوا المنافع وأن يستفيدوا من الأرض وأن يعيشوا فيها حياة مطمئنة، وبناء على ذلك فكل ما قرره كثيرون من متقدمي الفقهاء أو متأخريهم أو من المستشرقين أو المستغربين في تعليل القتال بالكفر يحتاج إلى مراجعة في ضوء القرآن الكريم.

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بُرَيْدَةَ قال: "كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّرَ أَمِيراً على جَيْشٍ أو سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ في خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله، وَمَنْ معه من الْمُسْلِمِينَ خَيْراً، ثُمَّ قال: اغْزُوا بِاسْمِ الله في سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا من كَفَرَ بِالله، اغْزُوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِرُوا ولا تَمْثُلُوا ولا تَقْتُلُوا وَلِيداً."(١) وعند البخاري: "أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ في بَعْضِ مَغَازِي النبي ﷺ مَقْتُولَةً، فَأَنْكَرَ رسول الله ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ."(٢) ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٩١] أي لتكن همتكم مُنبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً.(٣) ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ﴾ [البقرة: ١٩١] الفتنة هنا بمعنى إكراه المؤمنين على تغيير عقيدتهم، والمعنى: واقتلوا أولئك الذين بدأوكم بالقتال حيث وجدتموهم، وأخرجوكم من مكة وطنكم الذي حملوكم على الخروج منه، ولا تتحرّجوا من ذلك فقد فعلوا ما هو أشد من القتل في المسجد الحرام، إذ حاولوا فتنة المؤمنين عن دينهم بالتعذيب في مكة حتى فروا

(١) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الجهاد والسِّيَرِ، باب تَأْمِيرِ الْإِمَامِ الْأُمَرَاءَ على الْبُعُوثِ وَوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُمْ بِآدَابِ الْغَزْوِ وَغَيْرِهَا، حديث رقم (١٧٣١)، ص٧٢٠.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب الجهاد والسير، بَاب قَتْلِ الصِّبْيَانِ في الْحَرْبِ، حديث رقم (٢٥٩٧)، ص٥٧٧.

(٣) الصابوني، **مختصر تفسير ابن كثير**، مرجع سابق، ج١، ص١٩٠.

بدينهم من وطنهم.(١) ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩١] أي في الحرم ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩١] فيه ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ١٩١] القتل والإخراج ﴿جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ [البقرة: ١٩١].

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ [البقرة: ١٩٢] ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٠] أي انتهوا عن السبب الذي من أجله أُذن للمؤمنين بقتالهم وهو الاعتداء المذكور في الأمر بقتالهم: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٠]؛ إذ الأصل أن ما كان سبباً في القتال هو ما يزول القتال بزواله، والقول بغير ذلك –كالقول بأن المراد الانتهاء عن الكفر– خروج عن الأصل بغير ما دليل صارف عنه إلىٰ غيره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ [البقرة: ١٩٢] لهم ﴿رَّحِيمٞ ١٩٢﴾ [البقرة: ١٩٢] بهم ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [البقرة: ١٩٣] الفتنة –هنا وفي سورة الأنفال– هي الإكراه علىٰ تغيير الدين، وهي مقاتلة الكافرين المؤمنين علىٰ إيمانهم إرادةَ إكراههم علىٰ ترك هذا الإيمان. ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣] وفي الأنفال ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]. أي يكون الخضوع كله لأمر الله، وأمر الله هو أنه لا إكراه في الدين، فإن قيل: إن الفتنة هي الكفر، قلنا: هذا خطأ لأن المعنىٰ يصير آنذاك: حتىٰ لا يكون كفر، وهذا هو عين معنىٰ الإكراه في الدين الذي حرّمه الله علىٰ نفسه وعلىٰ المؤمنين، بقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ولا يجوز القول بإنهاء حكم نص قرآني بحكم نص قرآني آخر إلا إذا تعذَّر الجمع بينهما، ولأن الجمع إعمال للنصين والإنهاء إبطال لأحدهما، ولا يقبل إبطال نص قرآني قطعي لا داعي لإبطاله والتأويل والفهم ممكن ومحتمل، وقد أمكن الجمع بتفسير الفتنة بأنها الإكراه في الدين، ومن ثمَّ إعمال النصين بغير موانع، إذ لا يمنع مانع ولا ينازع منازع في أن الإكراه في الدين فتنة، فلا عُذر إذاً لقائل بالإنهاء الذي يسمونه نَسْخاً لقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ﴾ [البقرة: ١٩٣] اعتداء بقتل أو غيره ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة: ١٩٣] ومن انتهىٰ فليس بظالم فلا عدوان عليه.(٢)

(١) لجنة من علماء الأزهر، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٤٣.

(٢) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٤٠.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٤] فإذا اعتدوا عليكم في الشهر الحرام فلا تقعدوا عن قتالهم فيه فإنه حرام عليهم، كما هو حرام عليكم، وإذا انتهكوا حرمته عندكم فقابلوا ذلك بالدفاع عن أنفسكم فيه. ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ﴾ [البقرة: ١٩٤] جمع حُرمة ما يجب احترامه ﴿قِصَاصٞ﴾ [البقرة: ١٩٤] أي يقتص بمثلها إذا انتهكت ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤] بالقتال في الحَرم أو الإحرام أو الشهر الحرام(١) ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤] والأمر بالمثلية في الاعتداء ليس على إطلاقه بل هو مقيد بثوابت القرآن وشريعته التي تنهى في القتال عن ارتكاب المناهي من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة وغير ذلك مما تقدَّمَت بذكره الأحايث الشريفة، وليس بشريعة المعتدين.

لقد رأينا في أفغانستان وفي باكستان وفي غيرها إرسال طائرات دون طيار تقصف عُرساً وتقتل العشرات من الناس، وفي غزة أُلقيت القنابل المحرمة دوليّاً والأسلحة الظالمة المدمرة للبيئة لسنوات كثيرة، فهل شريعة المسلم آنذاك ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤]؟ الجواب لا، لأن المقصود ﴿بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤] بما لا يتجاوز ثوابت القرآن، فإذا فقد هو أخلاقه فلا ينبغي أن نفقد أخلاقنا.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٤] وهذا -أيضاً- قَيْدٌ صريح في المماثلة في القصاص من المعتدين. اتقوا الله فلا تتجاوزوا ما حدد لكم. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة: ١٩٤] بالعون والنصر.

ولا يعكّر على ذلك فعل رسول الله ﷺ في بني النضير، كما جاء عن ابن عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: "حَرَّقَ رسول الله ﷺ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَقَطَعَ، وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ"، فَنَزَلَتْ ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥]،(٢) فهذه واقعة لها ظروفها

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب الْمُزَارَعَةِ، بَاب قَطْعِ الشَّجَرِ وَالنَّخْلِ، حديث رقم (٢٣٢٦)، ص٤٣٧.

الاستثنائية الخاصة بها، فقد التجأ هؤلاء إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عوناً لهم في ذلك، ومن ثم فقد كان من الضروري ولا بدّ من أن يرى هؤلاء تصميماً على إنهاء قدرتهم على الاكتفاء الذاتي في الطعام والشراب، لأنهم لو لم يروا هذا التصميم لما نزلوا من حصونهم التي ظنوا أنها مانعتهم من الله، فالماء تحت أرجلهم يحفرون قليلاً فيستخرجونه دونما عناء، والطعام موجود ما دام هناك نخل يحمل تمراً، لذا رد الله عليهم بقوله -تعالى- للمؤمنين ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر: ٥]، أي أَذِن لكم فيها، لأننا لو تركنا هذا لعاش يهود بني النضير سنين طويلة محاصَرين دون أن يأبهوا بالمحاصِرين الذين ليس لديهم ما يأكلونه أو يشربونه، فهي رخصة أو إجازة مؤقتة عارضة تشبه إذن الله تعالى لرسوله بالقتال في مكة يوم الفتح الأكبر.[1] فالبلد الحرام والأشهر الحرم يجب احترامها، فإذا قدر واقتضت متطلبات معركة رسول الله ﷺ وهو العادل المنصف الذي لا يمكن أن يرتكب ظلماً تجاه غيره- رخصة اسثنائية فلا يعني أن يكون ذلك تأصيلاً لأن يعمل غيره مثل عمله ﷺ، فهناك أمور تُعدّ من خصوصيات رسول الله ﷺ في هذه المجالات، فينبغي أن نفرق بين الخاص والعام أو ما هو تشريع للآخرين.

إن القرآن الكريم يقف اليوم وحده ليقدم العلاج للبشرية بهذا الإعجاز وهذا التحدي، حين يعلن أن الأصل هو ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. فإذا كان لا بدّ من القتال فيجب أن يكون عادلاً، ولا بدّ أن يكون هذا القتال العادل محاطاً

(١) عن أبي شَرُيْحٍ أَنَّهُ قال لِعَمْرِو بن سَعِيدٍ وهو يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إلى مَكَّةَ: "ائْذَنْ لي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أُحَدِّثْكَ قَوْلاً قام بِهِ النبي ﷺ الْغَدَ من يَوْمِ الْفَتْحِ سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ، حين تَكَلَّمَ بِهِ، حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عليه، ثُمَّ قال: إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا الله ولم يُحَرِّمْهَا الناس، فلا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فيها دَماً، ولا يَعْضِدَ بها شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رسول الله ﷺ فيها فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ قد أَذِنَ لِرَسُولِهِ ولم يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لي فيها سَاعَةً من نَهَارٍ ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ." انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب العلم، بَاب لِيُبَلِّغْ الْعِلْمَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، حديث رقم (١٠٤)، ص٤٦.

بضمانات وشروط تجعل الأصل فيه المحافظة على الحياة والبُعد عن التدمير.

إن البشرية قد خسرت خسراناً مبيناً باحتجاب القرآن عنها، ونحن من حجب القرآن عنها، بصوتنا المنخفض الذي لا نستطيع أن نوصله إلى العالم كله، ولو وصل هذا الصوت إلى العالم لتبنّاه كثير من المخلصين، سواء من القادة أو من الساسة، أو رجال الفكر والثقافة والإعلام وغيرهم، فمسؤوليتنا كبيرة أمام هذه الخسارة؛ لأننا نحن الذين حجبنا القرآن عن البشرية، استأثرنا به وحافظنا على تخلّفنا، فلم نعد قادرين على إيصاله إلى العالم، لذلك يدور العالم كله اليوم حول قطب مركزي غربي حضارته قائمة على الصراع وحده، لأنه داخل في عملية التكوين الفلسفي لتلك الحضارة بأُسسها وقواعدها، فكيف يمكن إيصال صوت الإسلام وما فيه من خير للإنسانية كلها؟ هل بالحوار السياسي أو الثقافي أو بالاستجداء، أم لا بدّ أن يكون للمسلمين شأنٌ آخر؟ إن أول أولوياتهم أن يستغنوا في طعامهم وشرابهم عن كل شيء خارجي، وأن يكتفوا بما يصنعون ويزرعون، ثم يُطورون ذلك إلى أن تكون لهم صناعتهم ونهضتهم، وليس ذلك على الله ببعيد إذا خلصت النوايا، فالإمكانات قائمة والقدرات ممكنة وعلماؤنا بفضل الله ما أكثرهم، ولديهم القدرة التامة على النهوض بالأمة حينما يُعْطَون الفرصة، القرآن الكريم يحمل في آيات القتال وفي غيرها كثير من المؤشرات والموجهات الأساسية التي يمكن أن تعطينا منهجاً واضحاً في عمليات إدارة الصراع في السلم وفي الحرب، فنحن نمتلك منهجاً -بفضل الله وبفضل القرآن الكريم وبفضل سُنَّة رسول الله ﷺ وسيرته- كاملاً، لو عرفنا كيف نبرزه ونحدد عناصره وكيف نوضحه للآخرين ونعرضه عليهم عرضاً حسناً لوجدت أمم الأرض اليوم في القرآن الكريم ضالتها ولاستطاعت أن تتجاوز هذه الأزمات الكبيرة التي تحيط بها والتي تكاد تأخذ بخناقها.

ومن المهم ونحن نشرح آيات القتال في القرآن أن نشير إلى الفرق الكبير بين الجهاد وبين القتال، فالقتال شيء خاص والجهاد شيء عام، هما ليسا شيئاً واحداً،

القتال مرتبة واحدة من مراتب الجهاد، فالجهاد مراتب،[(١)] منها جهاد النفس لتنضبط وفقاً لشريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسُنّة وسيرة رسول الله ﷺ، وهناك جهاد الشيطان، والشيطان نوعان: شيطان الإنس وشيطان الجن، وهناك الجهاد لتحقيق قضايا الأمة، الجهاد للاكتفاء وتحقيق الأمن الغذائي والأمن في اللباس وفي السلاح وفي المياه والأمن في ذلك كله، فالفرق بينهما كبير كما ترىٰ.

النَّجم الثاني والعشرون: الحج: عبادة التمكين

﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

[البقرة: ١٩٥-٢٠٣]

---

(١) للاستزادة انظر:

- ابن قيم الجوزية، أبوعبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر (توفي: ٧٥١هـ). **زاد المعاد في هدي خير العباد**، بيروت والكويت: مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية، ط٢٧، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، فَصْلٌ فِي مَرَاتِبُ الْجِهَادِ.

لما دار حديث القرآن المجيد في آيات القتال -السابقة لآيات الحج هذه- حول ما فعله المشركون بالمؤمنين في بيت الله الحرام، حيث أخرجوهم منه وفتنوهم عن دينهم كان من المناسب أن يَعْقُبَ ذلك الحديث عن أمر ذي صلة وثيقة بالحرم وهو عبادة الحج والعمرة، ولما كان كل من القتال والحج يحتاج إلى الأموال كان من المناسب أن يبدأ الحديث بالحضّ والحثّ على النفقة ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] مجيء التّهلكة والنهي عن إلقاء اليد بها في آية تتكلم عن النفقة يدل على أن الإنسان ليس له أن ينفق كل ماله ويبقى من دون شيء، لأن هذا مجازفة وإلقاء باليد إلى التهلكة.

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥] والإحسان مرتبة راقية عالية، فيها تجاوز للواجب والقدر المحدد، ولكن ليس إلى مستوى أن يعطي الإنسان كل ما يملك ويلقي بيده إلى التهلكة.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وأدّوا الحج والعمرة تامّيْنِ، خالصَين لوجه الله تعالى، ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦] فإن منعكم عن الذهاب لإتمامهما بعد الإحرام بهما مانع كالعدو والمرض، ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] فالواجب عليكم ذَبْحُ ما تيسَّر لكم من الإبل أو البقر أو الغنم تقرّباً إلى الله تعالى، لكي تَخْرُجوا من إحرامكم بحلق شعر الرأس أو تقصيره، ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦] إذا كنتم مُحصرين ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦] حتى ينحر المحصر هَديه في الموضع الذي حُصر فيه ثم يحلّ من إحرامه، كما نحر النبي ﷺ في الحديبية ثم حلق رأسه، وغير المحصر لا ينحر الهَدي إلا في الحرم، الذي هو محله في يوم العيد وما بعده من أيام التشريق، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ [البقرة: ١٩٦] يحتاج معه إلى الحلق -وهو مُحْرِم- فحَلَق، ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فعليه فدية: بأن يصوم ثلاثة أيام، أو يتصدق على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، أو يذبح شاة لفقراء الحرم. ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦] فإذا كنتم في أمن وصحّة، ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٦] فمن استمتع بالعمرة إلى الحج وذلك باستباحة ما حُرِّم عليه بسبب الإحرام بعد انتهاء عمرته، ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] فعليه ذبح ما تيسّر من الهَدي،

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ [البقرة: ١٩٦] هَدْياً يذبحه ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦] فعليه صيام ثلاثة أيام في أشهر الحج، وسبعة إذا فرغتم من أعمال الحج ورجعتم إلى أهليكم، ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] لا بدّ من صيامها، ذلك الهَدْيُ وما ترتّب عليه من الصيام ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٦] من ساكني أرض الحرم، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٦] وخافوا الله تعالى، وحافظوا على امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة: ١٩٦] لمن خالف أمره، وارتكب ما عنه زُجر.(١)

فالحج فريضة أراد الله تعالى أن يجعلها للبشرية فرصة للراحة من عناء وويلات الاقتتال، فجعل لها مكاناً إذا دخله الخائف أمن، وإذا استعاذ به أُعيذ، هذا المكان هو مكة والحرم، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣-٤]، وجعل من جملة تحريمها حُرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك، وكذلك جعل لها زماناً محرَّماً هو الأشهر الأربعة الحرم، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

وبعد القيام بتلك العبادة المهمة والركن الخطير من أركان الإسلام، يؤكّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ضرورة ذكره، ذلك لأنّ الناس أَلِفوا بعد أن يقوموا بأداء واجب مهم عظيم أن يطلبوا لأنفسهم الراحة، والإحساس بأداء الواجب والقيام بحقه، بل إنّ الأمم قد تعمد إلى جعل عمليات الفراغ من أداء المهام الكبرى والواجبات العظمى في حياتها مواسم للرفاهية والتحلّل من الواجبات والانصراف إلى اللهو واللعب، وقد يضيّعون ما اكتسبوا من أداء ذلك الواجب في التحلُّل الذي يدخلون فيه بعد الانتهاء منه، فأراد

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٣٠.

الله -تبارك وتعالىٰ- للحجيج ألا يقعوا في شيء من ذلك، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠] فإذا أتممتم عبادتكم، وفرغتم من أعمال الحج، فأكثروا من ذكر الله والثناء عليه، مثل ذكركم مفاخر آبائكم وأعظم من ذلك؛ فمن الناس فريق يجعل همه الدنيا فقط، فيدعو قائلاً ربنا آتنا في الدنيا صحة، ومالاً وأولاداً، وهؤلاء ليس لهم في الآخرة حظ ولا نصيب؛ لرغبتهم عنها وقَصْرِ هَمِّهم على الدنيا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١] ومن الناس فريق مؤمن يقول في دعائه: ربنا آتنا في الدنيا عافية ورزقاً وعلماً نافعاً، وعملاً صالحاً، وغير ذلك من أمور الدين والدنيا، وفي الآخرة الجنة، واصرف عنَّا عذاب النار. وهذا الدعاء من أجمع الأدعية، ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ.(١)

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠٢] أولئك الداعون بهذا الدعاء لهم ثواب عظيم بسبب ما كسبوه من الأعمال الصالحة، والله سريع الحساب، مُحْصٍ أعمال عباده، ومجازيهم بها.

﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة: ٢٠٣] واذكروا الله تسبيحاً وتكبيراً في أيام قلائل، وهي أيام التشريق، الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة، فمن أراد التعجُّل وخرج من مِنىٰ قبل غروب شمس اليوم الثاني عشر بعد رمي الجمار فلا ذنب عليه، ومن تأخر بأن بات بـمِنىٰ حتىٰ يرمي الجمار في اليوم الثالث عشر فلا ذنب عليه، لمن اتقىٰ الله في حجه، والتأخُّر أفضل، لأنه تزوُّد في العبادة.

(١) عن أَنَسٍ قال: كان أَكْثَرُ دُعَاءِ النبي ﷺ: "اللهم رَبَّنَا أتنا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّار." انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الدعوات، بَاب قَوْلِ النبي ﷺ رَبَّنَا آتنا في الدُّنْيَا حَسَنَةً، حديث رقم (٦٣٨٩)، ص١٢٢٧.

النَّجم الثالث والعشرون: من أصناف الناس

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢١٢]

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [البقرة: ٢٠٤] فهو يُحسن الحديث عنها في شؤونها المختلفة، ويُحسن مهارة الإقناع؛ إذ يستخدمها لعلّه يجرُّك إلىٰ هاوية أو يستدرجك إلىٰ فتنة ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٠٤] ليخدعك ويوهمك بصدقه، وباطنه ممتلئ بكراهيتك وبالرغبة في فشلك والدخول في خصومة معك والانتصار عليك بجهده أو جهد سواه.[١] ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤] شديد الخصومة لك ولأُمّتك وللبشرية كلها، ولكنّ الله -تبارك وتعالىٰ- بيّن لك بعض العلامات التي تستطيع أن تكشف بها ما تُضمره تلك القلوب الخائنة السوداء لك ولأُمّتك وللبشريّة كلّها، فمن هذه العلامات ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٢٠٥] فإذا تولىٰ أحدهم ولاية سعىٰ في الأرض مفسِداً، ووظّف جاهه ونفوذه

(١) يقول ابن عاشور في هذا: "ومعنىٰ يشهد الله علىٰ ما في قلبه أنه يقرن حسن قوله وظاهر تودده بإشهاد الله تعالىٰ علىٰ أن ما في قلبه مطابق لما في لفظه، ومعنىٰ إشهاد الله حلفه بأن الله يعلم إنه لصادق. وإنما أفاد ما في قلبه معنىٰ المطابقة لقوله لأنه لما أشهد الله حين قال كلاماً حلواً تعين أن يكون مُدَّعياً أن قلبه كلسانه قال تعالىٰ: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ [التوبة: ٦٢]." انظر:

- ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التّحرير والتّنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج٢، ص٢٦٧.

وماله للإفساد في الأرض، ذلك لأنّ طبائعهم وانحرافات قلوبهم وكراهيتهم للصلاح والعمران لا تسمح لهم بأن يصلحوا في الأرض، بل ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] أي الزرع، ومن ذلك ما فُعِل بالعراق بلاد الأنهار التسعة، وتُمور العراق التي كان نخيلها عندما قام انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ اثنتين وثلاثين مليون نخلة، وهي اليوم بدلاً من أن تصبح ملياراً أو تزيد خلال نصف قرنٍ من الزمان أو يزيد إذا بها -نتيجة الحرق والتدمير من قِبل السفهاء- تنزل في سنة ٢٠١٠م إلىٰ ستة عشر مليون نخلة، وكذلك ما حدث من تدمير غابات شمال العراق التي كانت مَلْأَىٰ بالفواكه والثمار والفستق والجوز، واللوز والبندق وما إليها، فاتّباع المتنفذين السُفهاء في العراق سياسة الأرض المحروقة في نزاعاتهم مع مواطنيهم وتدميرها وإعادتها أراضي جرداء، ذلك وغيره نموذج لما يفعله الطُّغاة في الحرث من إهلاك وتدمير، ولم يكتفوا بإهلاك الحرث، بل امتد تدميرهم ليشمل ﴿وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ذرية الآدميين والبهائم، فهم يفسدون إفساداً لا يقتصر علىٰ الاعتداء علىٰ البشر، وهضم حقوقهم، وتجاوز العدل فيهم إلىٰ الظلم، بل يتعدَّىٰ ذلك ليهلك الحرث والنسل، فشر هؤلاء عام شامل، ولا يصدّهم -عن ما يفعلون- علمهم بأنّ الله لا يحب الفساد.

ومن الأمثلة علىٰ ذلك أيضاً: ما حدث من إهلاك وإبادة للثروة الحيوانية في العراق أيضاً، فقد كان العراق مصدراً من مصادر توريد الغنم والماعز والبقر والجاموس إلىٰ بلدان عالمية كثيرة، ولكنّه غدا يستورد فطيس الدجاج واللحوم المشكوك في حِلّها وسلامتها، لأنَّ هؤلاء الفاسدين قد أهلكوا الحرث والنسل، ناهيك عن المقابر الجماعية التي تُكتشف بين الحين والآخر والتي هي دليلٌ آخر علىٰ إهلاك النسل الإنساني لا الحيواني فقط.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥] تعبيرٌ شامل لجميع أنواع الفساد، الفساد في العقائد والأفكار، والفساد في السياسات والأحكام والقضاء، والفساد في الاقتصاد ومعايش الناس، والفساد في تبديد نِعم الله وإهدارها إلىٰ آخر أنواع الفساد صغرت أم كبرت، فكلّها مكروهة عند الله تعالىٰ، ومكروهٌ أهلها، ومكروهٌ أصحابها.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٠٦] وهؤلاء المفسدون لا ينفع معهم نصح ولا موعظة ولا رجاء ولا نداء، لأنّه من طِباعهم أنه إذا قيل لهم: اتقوا الله أخذتهم العزّة بالإثم، وزادتهم النصيحة إمعاناً في الفساد، فالإثم بالنسبة إليهم شيءٌ يُعتزّ ويُفخر به، لا يريدون مفارقته ولا الابتعاد عنه، ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٦] هذا الصنف لا ينفع معه إلا النار -نعوذ بالله- ولن يتذكّر إلا عندما يصبح فيها ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦]، وهؤلاء الذين يستكبرون عن النصيحة أو الاعتراض أو المطالبة بتغيير الموقف أو تعديله، لا بدّ أن يكون بينهم وبين الاستبداد والاستكبار وإرادة العلو في الأرض نسبٌ وصهر يحول بينهم وبين قبول الرأي الآخر.

والأمم التي تُبتلىٰ بأمثال هؤلاء لا بدّ أن تكون لديها من الوسائل ما تقاوم به هذا النوع من المفسدين، ولكل عصرٍ أساليبه ووسائله وطرقه في مقاومة ذلك، فهناك شعوبٌ كثيرة عرفت ما يسمّىٰ بـالعصيان المدنيّ الذي يقوم علىٰ مقاطعة هؤلاء المفسدين وعزلهم، وله في القرآن المجيد أصل، فقد ذكر القرآن الكريم قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا[1] ولم يخرجوا مع رسول الله ﷺ ثمّ حوصروا وقاطعتهم الأمة حتىٰ نساؤهم، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٨]، حينها شعروا بمرارةٍ لا تُطاق لأيام وليالٍ، الله وحده يعلم مدىٰ معاناتهم فيها، ثمّ تاب عليهم بعد أن تطهّرت قلوبهم ونفوسهم وتخلّصت من حب الذات والخوف علىٰ النفس والضنّ بها عن رسول الله ﷺ والمؤمنين.

فالعصيان المدنيّ يُشعر الطغاة والمستبدين -ومَن لا يتقبّلون قول الحق والنصيحة وقول اتق الله- بضآلة شأنهم، وقلة حيلتهم، أمام شعبٍ لم يحمل بوجههم سلاحاً ليُعطيهم مسوِّغات للبطش والتنكيل، بل كل ما يحمله هو إرادته وعزمه وتصميمه

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب المغازي، بَاب حَدِيثُ كَعْبِ بن مَالِكٍ، حديث رقم (٤٤١٨)، ص٨٣٤.

علىٰ أن يعتزل هؤلاء، وينأىٰ بنفسه عن طاعتهم والاستماع إليهم وتنفيذ أوامرهم، وقد يجد أعتىٰ الطغاة في مثل هذه الوسيلة السلبيّة وسيلةً قد تضطره إلىٰ التنازل عن كبريائه والهروب من جماهيره.

فكأنَّ الآية الكريمة تنبّهنا إلىٰ أنَّه ما دامت الكلمة الطيبة اتقوا الله، تفعل فعلها في نفوس هؤلاء فإنَّ الخير يتوقع منهم، ولكن إذا أغلقوا آذانهم دون قول الأمة وعلمائها، فذلك إيذانٌ بأنَّه قد خُتم علىٰ قلوبهم، وأنّ علىٰ الأمة أن تبحث عن وسائل أخرىٰ، وإلا فسوف يزيد هؤلاء في طغيانهم وقد يبلغ ببعضهم أن يقول القولة الشهيرة لأحد خلفاء بني أُمية كما ورد عنهم: مَن قال لي اتق الله قطعت عنقه.

ثم يقابل -تعالىٰ- هذا الصنف المفسِد -الذي يمثّل نموذجاً للقيادات التي يسعىٰ إبليس لتجنيدها في مشروعه ولقيادة مشروعه- بنموذج آخر ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢٠٧] باع نفسه لله -جل شأنه- مالكها وهاديها طلباً لمرضاته -جل شأنه- وهو علىٰ استعدادٍ أن يُضَحّي بها ويقدّم ماله ونفسه وبلده وسائر ما خوّله الله من نِعم إليه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مقابل نيل رضاه -جل شأنه-، والله -تبارك وتعالىٰ- يقابل هذا النوع بالإحسان في الدنيا وفي الآخرة؛ ففي الدنيا هذا النوع من البشر هم مصابيح الهداية، ونماذج الإصلاح، وقادة الهدىٰ وأئمة الخير، يدعون بأمره -سبحانه- وينفذون كل ما يرضيه، ويُقبِلون علىٰ كل ما يقرّبهم إليه ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة: ٢٠٧] ومن رأفته -تعالىٰ- بهم ما رواه أَنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، عن النبي ﷺ يَرْوِيهِ عن رَبِّهِ قال: (إذا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إليه ذِرَاعاً، وإذا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ منه بَاعاً، وإذا أَتَانِي يمشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً).[١] وما رواه ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، عن النبي ﷺ، قال: (إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذلك، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فلم يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله له عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هو هَمَّ بها وعملها كَتَبَهَا الله له عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إلىٰ سبعمائة ضِعْفٍ إلىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله له عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله له سَيِّئَةً وَاحِدَةً).[٢]

(١) المرجع السابق، كتاب التوحيد، بَاب ذِكْرِ النبي ﷺ وَرِوَايَتِهِ عن رَبِّهِ، حديث رقم (٧٥٣٦)، ص١٤٤٠.
(٢) المرجع السابق، كتاب الرقاق، بَاب من هَمَّ بِحَسَنَةٍ أو بِسَيِّئَةٍ، حديث رقم (٦٤٩١)، ص١٢٤٤.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨] إنّها دعوة عامة شاملة لأمم سائر الأنبياء والمرسلين أن يتجنّبوا كل ما من شأنه أن يُسيء إلىٰ حالة السلم والأمن والطمأنينة، وقد بيَّن -جل شأنه- الطريق التي تؤدي إلىٰ سِلمٍ عالميّ بشريٍّ كامل، وهي أن يكون أُمراء الناس ومسؤولوهم ممّن يبتغون الصلاح والإصلاح.

إنّ هذه الآية الكريمة إنّما هي نظريةٌ كاملة في تحقيق السِّلم الاجتماعيّ والأمن الوطنيّ لكل أمة من الأمم ولكل بلدٍ من البلدان، وهي كذلك نظريةٌ كاملة في هدم الإرهاب والقضاء علىٰ أسباب الخوف والتنافُر والصراع بكل أنواعها، وكنّا نتمنىٰ أن يتقدّم المسلمون إلىٰ العالم -وقد دُعوا إلىٰ المشاركة في الحرب علىٰ الإرهاب- بهذه النظرية الكاملة التامة عن السلم، والتي تبدأ بسِلم الإنسان مع نفسه بالخروج من حالة الشرك والكفر والرياء، وسلم الإنسان مع ربه بالإيمان به وإخبات القلب له والتعلُّق بحبه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥] وحب الأرض لأنّها مسجدنا وطهورنا، منها خُلِقنا وعليها نحيا وإليها نُعاد حين نموت، ومنها نُبعَث مرةً أخرىٰ، فلا ينبغي لنا أن نهملها أو أن نميتها أو أن نسعىٰ فيها فساداً أو نجعلها نهباً للتلوُّث والدمار، والسِلم مع النبات والشجر والحجر والمياه وكل ما خلق الله مما يسميه البعض طبيعةً أو كوناً، فإنّنا مستخلفون فيه وهو مسخَّر لنا، فلا ينبغي أن يناله تدمير أو تخريب أو أيّ نوعٍ من أنواع الفساد التي امتلأ بها البر والبحر والجو في عصر الإرهاب وأهل الإرهاب.

إن هذه النظرية تعني ألا تُثار الحروب المحلّية والدولية من حينٍ لآخر لإيجاد أسواق للسلاح والمحافظة علىٰ وظائف صُنّاعه والعاملين فيه بكل أنواعه، فتُنتَج وسائل الدمار الشامل من الكيماويات والجرثوميات وما يسمّىٰ بالأسلحة الذريّة، لأن ذلك كلّه لا يمكن أن يَسْمح بتحقيق سلام، كما تعني القضاء علىٰ الرِّبا الذي دمّر اقتصاديات عالم اليوم، وحاول مفكرو الغرب معالجته بالاشتراكيَّة ثمّ الشيوعيَّة، فعمل الاشتراكيون والشيوعيون خلال القرن الماضي علىٰ معالجة أخطار فائض القيمة، ولكن سقط العلاج وانهار مصنع الدواء الاشتراكي وبقي داء الرِّبا يتحدّىٰ البشريَّة، ويعلن عن أنّ الحرب ما تزال قائمة بين الله والناس، لأنّهم ما زالوا متعلّقين بالرِّبا يتعاملون ويتعايشون به.

ذلك كله من وسائل ومنابع الإرهاب التي غفلت البشريَّة عنها، وغفل عنها المسلمون وقبلوا علىٰ أنفسهم أن يكون دينهم متّهماً، وكتاب ربهم مشكوكاً فيه، وهَدْي نبيّهم -ذي الخلق العظيم الرؤوف الرحيم- مُستَبعداً بعد أن وضعه أتباع الشيطان وقادة معسكر إبليس في دائرة الإرهاب ومنابعه، وقَبِل المسلمون التُّهمة، ولم يَرْقوا إلىٰ مستوىٰ الدفاع عن أنفسهم ومصدر دينهم وميدان اقتدائهم واتباعهم.

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٩] فإذا حدث الزلل أو الانحراف عن السِّلم والوقوع في حالة الإرهاب فينبغي المسارعة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتوبة إليه والعودة إلىٰ حالة السلم والأمن الذي يحقّق الاستخلاف والعمران.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٠] ويتساءل المولىٰ -عز وجل- متعجّباً ماذا ينتظر هؤلاء؟ ما ينتظر هؤلاء الخارجون عن أمر الله إلا أن يأتيهم عذاب الله وأمره من حيث ينتظرون الخير تنكيلاً بهم وتشديداً عليهم، وتأتيهم الملائكة بما قدّره الله وأراده لهم، هل ينتظرون أن يأتيهم الله في ظُللٍ من الغمام الذي يظن السذّج والسطحيون للوهلة الأولىٰ أنّه عارض ممطرهم ثمّ يكتشفون أنّه أعاصير وبراكين وزلازل مدمّرة دمّرت أعماق المحيطات وأجواء السموات وآفاق الأرض؟ وقد ذكر في سورة الدخان ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الدخان: ١٠- ١٢]، فيجأرون إلىٰ الله بالشكوىٰ ولكن هيهات، فقد فات الآوان وتجاوزت نِسَبُ الفساد والتدمير والتلوث - في الأجواء والتخريب في الأرض وفي البحار والمحيطات وقطبيّ الأرض، سائر الحدود، ولم يعد بالإمكان إيقافها عند حد فتستولي الملوثات علىٰ أديم الأرض والفضاء المحيط بها.[1]

(١) ثمّ بين تعالىٰ غاية الوعيد المشار إليه في الاسمين الكريمين فقال: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة، وقد غير الأسلوب بالالتفات عن الخطاب والأمر إلىٰ الحكاية عن الزالين عن صراط الله بضمير الغائب. والحكمة في الالتفات تناول هذا الوعيد لجميع من زلّ من المؤمنين المخاطبين في الدخول في السلم والمنهيين عن ضده، ومن زلّ من غيرهم، أو هي الإيذان بأن الزالين لا يستحقون شرف الخطاب =

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة: ٢١١] وما أكثر الآيات البيّنات التي اقترنت بتجربة بني إسرائيل والتي ذكرها القرآن لتعتبر بها الأمة الوارثة لهم.

إن البشريّة -بما فيها الأمة المسلمة للأسف- حتىٰ اليوم لم تأخذ من تلك التجربة درساً ولا عبرة، بل علىٰ العكس لا تزال تكرر نفس النموذج السيّء، فما تزال تجربة عَبَدة العِجل وقتلة الأنبياء هي السائدة في حضارة هذا العصر، والتي أدخلت الصراع ليُصبح سداها ولحمتها، فلم تعد البشريّة في ظل حضارة الصراع قادرةً علىٰ أن ترىٰ أنوار السلم وإشعاعاته، إذ لا تسمح لها نفوس الجشع وجمع المال ومصانع السلاح وتُجَّار الأسلحة بأن ترىٰ للسلام وجوداً أو تدرك له امتداداً.

إن حضارة الإخلاد إلىٰ الأرض واتّباع الهوىٰ وإرادة العلو في الأرض، والعَبِّ من الشهوات حتىٰ التُّخمة، والتمرُّد علىٰ الله -تعالىٰ-، كل ذلك تبديلٌ لنعمة الله من بعد ما جاءت، كالذي حدث مع بني إسرائيل الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار، فالعجل الذهبيّ لا يزال قائماً في هذه الحضارة كأنه لم يحرّق بيد موسىٰ، ولم يُنسف في البحر نسفاً، بل ما زال قائماً وما زال خواره الإعلامي يصمّ الآذان ويعمي القلوب، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شديد العقاب لمن يستبدل بنعمته الكفر أو يقابلها بالشرك والرياء.

= الإلهي. قوله تعالىٰ: "وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ" الملائكة أيضاً فيما يوكّل الله إليها ليحدث في الكون وآنذاك قضي الأمر وإلىٰ الله تُرجع الأمور. فكأنّ في هذه الآية الكريمة توكيداً ملحّاً علىٰ ضرورة المسارعة إلىٰ الدخول في السلم ونبذ حالة الصراع وعدم الاستمرار في السير وراء الشيطان، سواءٌ أكان شياطين الإنس أو الجن أو كليهما، وكلاهما اليوم يعملان متضامنين لئلا يفوت الأوان، وآنذاك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولا ينفع آنذاك الندم علىٰ التفريط بالسلم والسلام لأنّ الأمر يكون قد قُضي، وأنّ الأرض قد دمّرت، والحياة قد أُنهيت، وهذه الإرهاصات والنذر التي نراها - مهما كانت تفسيراتها العلميّة- ينبغي أن لا تشغلنا عن مسؤولية الإنسان المعاصر وحضارة الصراع المعاصرة -السائدة في عالم اليوم- عن تهيئة الأسباب لحالة التلوث وتغير المناخ والبيئة والاحتباس الحراريّ. هذه كلّها نجمت عن تخريب الطبيعة وتدمير عمرانها والإفساد في الأرض، انطلاقاً من عقائد الصراع مع الكون والطبيعة، لا عقيدة السلم والأمن والطمأنينة، انظر:

- رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠٩.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢] هذه الآية بيانٌ لسببٍ من أبرز الأسباب لوقوع ذلك التبديل وتناسي الآيات والدروس وتجاهل العبر من قصص الماضين، ألا وهو التزيين؛ فالحياة الدنيا بزخرفها وزينتها تمنح أهلها أحياناً إحساساً بقدرةٍ وهميّة مُطلقة على التحكُّم بها، وهذا الإحساس بالقدرة يجعل الإنسان يميل إلى الانغماس في زينة الحياة الدنيا، والشعور بأنّها مستمرةٌ دائمة لا تنقضي ولا تنتهي، وتجعل الكافرين يتعالون ويسخرون من أولئك الذين علموا من الله قيمة تلك الحياة الدنيا وقصر أمدها وسرعة زوالها.

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢] في الدنيا والآخرة من مُختلف أنواع الأرزاق، ومنها الحكمة والفهم والوعي بغير حساب.

النَّجم الرابع والعشرون: الأمة الواحدة

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]

أسس الله -تعالى- عملية الاستخلاف في الأرض على دعامتين أساسيتين: التفاعُل في الأشياء والتدافع في الإنسان؛ فالتفاعُل منطلقه الأساس تفاعلٌ بين الغيب الإلهيّ والطبيعة، أو ما نطلق عليه الكون المسخَّر، والتدافع في الإنسان منطلقه الأساس -أيضاً- أن يكون هناك أولياء للرحمن، وأولياء للشيطان، فأولياء الشيطان يدافعون أولياء الرحمن، ويعملون على إحباط جهودهم، وتحويل الأرض إلى ميدانٍ للفساد والإفساد. وهذا التدافع بين الفريقين سنةٌ قائمة تستوعب سُنناً أخرى في هذا المجال وتتجاوزها.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] لم يخرج منهم عن عهد الله[١] أحد أو يبتعد عنه، ثم كانت الفترة الأولى من الاستخلاف التي بدأ الخلق فيها بنفسٍ واحدة ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١] وكان الناس فيها أمة واحدة كذلك، وفي هذه المرحلة -والله أعلم- تمّ عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، وبعد أن اتسع هذا البثّ ليتحول إلى شعوب وقبائل وفئاتٍ مختلفة، حدث-بعد توافقٍ فطريّ- اختلاف وتنازُع، كان من أول وأبرز مظاهره ما حدث بين ابني آدم.[٢]

هذا الاختلاف استدعى حلولاً ومعالجات وتشريعات وقوانين ونُظماً وما يمكن أن يفضّ به الاختلاف بين الناس، فبعث الله النبيين والرسل بذلك، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] وهنا مُقَدَّر محذوف ذُكر في قوله -جل شأنه- ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: ١٩] وعلى ذلك يكون معنى الآية: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا،[٣] وحين اختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] ومع الكتاب والميزان أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس لأجل القيام بالقسط، قال تعالى:

(١) عهد الله أو ميثاق الاستخلاف هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(٢) قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

(٣) قال الإمام البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ أي كلهم ﴿أُمَّةً﴾ أي مجتمعين على شيء واحد يؤم بعضهم بعضاً ويقتدي بعضهم بعضاً، ثم أكد اجتماعهم فقال: ﴿وَٰحِدَةً﴾ أي على الصراط المستقيم فزل بعضهم فاختلفوا وتفرقت بهم السبل كما في آية يونس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: ١٩] وعلى هذا أكثر المحققين كما قاله الأصفهاني. وقد رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده بسند متصل عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: على الإسلام كلهم، انظر:
- البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، مرجع سابق، ج٣، ص١٩٨.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥]، وليعلم الله من ينصره ورسله ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر.[١]

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي الكتاب الهادي للحق الذي لا لَبس فيه المنزَّل لإزالة الاختلاف ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي فبدلوا نعمة الله بأن أوقعوا الخلاف فيما أنزل لرفع الخلاف، ففي هذا غاية التعجيب وإظهار القدرة الباهرة التي حملتهم علىٰ ذلك. ولـمّا الخلاف ربما كان عن أمر غامض بيَّن أن الأمر علىٰ غير ذلك فقال مشيراً بإثبات الجار، والمجرور إلىٰ أنه لم يستغرق الزمان ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي الدلائل العقلية والنقلية التي ثبتت بها النبوة التي ثبت بها الكتاب. ولـمّا كان هذا محل السؤال عن السبب بين أنه الحسد والاستطالة فقال: ﴿بَغْيًۢا﴾ [البقرة: ٢١٣] وزاده عجباً بقوله: ﴿بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي لا بغياً علىٰ غيرهم، فبدلوا من كل جهة. ولـمّا ذكر إنزال الكتاب وسببه، ذكر ما تسبب عنه فقال عاطفاً علىٰ ما تقديره: فعموا عن البينات ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٣] إعلام بأنه ليس من طوق الخلق إلا بعون وتوفيق من الحق، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٣] أي بالنبيين ببركة إيمانهم ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٣] أي أهل الضلالة ﴿فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] ثم بيّنه بقوله: ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣] ويجوز أن تكون تبعيضية لما عموا عنه من الحق الذي نزل به الكتاب الذي جاء به النبيون ﴿بِإِذْنِهِۦ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي بما ارتضاه لهم من علمه وإرادته وتمكينه. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣] في صيغة المضارع، فهي بُشرىٰ لهذه الأمة بدوام هداهم إلىٰ ختم اليوم المحمدي.[٢]

---

(١) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (توفي: ٧٢٨هـ). **مجموع الفتاوىٰ**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٩٩٥م، ج١٠، ص١٣.

(٢) البقاعي، **نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٠٣.

النَّجم الخامس والعشرون: الفريضة الثقيلة بين التمهيد والتوابع

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤ - ٢٢٠]

بعد تلك الجولة المباركة فيما تقدّم والتذكير بما كان عليه الناس من وحدة، وما بلغوه من اختلاف، يأتي السياق القرآنيّ بصيغةٍ غاية في الرقة تنشرح لها الصدور وتُفتَح لها القلوب، في آية هي الخاتمة لما ذُكر، والمقدّمة لما سيلحقها، تأتي بصيغة استفهام ودود محبَّب ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤] تنبيه للمسلمين أنهم ليسوا بدعاً من الأمم ولا استثناءً، بل هم امتدادٌ لها، وأن ما يجري عليهم سَبَق أن جَرىٰ علىٰ من سبقهم، والبأساء: النكاية في الحروب حيث يُقتلون ويقتلون، ويصمد الصابرون وينهزم الجزعون، وتكون البأساء والصبر عليها بعضَ ما يؤهّل مَن كُتبت لهم الجنة للدخول إليها وبلوغها، والبأساء شيءٌ والبؤس

شيءٌ آخر، فالبؤس قد يكون عن فقرٍ أو مَسْكنة أو ما إلىٰ ذلك، أما البأساء ففي صراع الأقران، وفي ذلك تمهيدٌ لطيف وتهيئة وإعداد لفريضة القتال ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: ٢١٤] والضرّاء يذكرها القرآن في مقابل النعماء، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢﴾ [الأنعام: ٤٢] وذلك يعني أنها تقع إما بزوال نعمةٍ أو بعدم حدوثها أصلاً، ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ [البقرة: ٢١٤] الأصلُ في الإنسان الواقف الثباتُ، فإذا لم يستطع الثبات لضعفٍ في رجليه أو ركبتيه أو مرضٍ في عاموده الفقريّ، فإنّه يُزلزل حين يقف ولا يثبت فيسقط أو يوشك علىٰ السقوط. شبّه الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ حالة من تُصيبه البأساء والضراء بمَن يزلزلون فتزلّ أقدامهم ولا تثبت علىٰ الموضع الذي هي فيه، وحين يحدث ذلك يدخل الإنسان حالة الاضطرار النفسيّ التي عبَّر عنها -تعالىٰ- في قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [النمل: ٦٢] فينادي الإنسان بكل ما فيه من طاقة مستغيثاً بالله -تبارك وتعالىٰ- مستنصراً به، سائلاً إياه النجدة والنصرة، وهنا يمتنُّ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ويُذكِّر عباده بأنه في حالات كهذه لن يستطيع أن يجد لنفسه مغيثاً أو وليّاً أو نصيراً إلا الله تعالىٰ.

وهذه الزلزلة لا تقتصر علىٰ عامة المسلمين، بل إنّ رسول الله ﷺ وهو المتصل بالله قلبه علىٰ الدوام قد يدخل حالة الاضطرار ويشارك أتباعه والمؤمنين به الجأر إلىٰ الله والاستغاثة والاستعانة به ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤] فهو في مقدمة المستغيثين وإمام المضطرين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢١٤] وحين يكون الرسول ومَن حوله من المؤمنين قد بلغوا هذه الحالة فإنّ من سننه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

وإذ يبلغ السياق بنا هذه الحالة ويذكّرنا بأنّ لله سُنناً اجتماعيّة تعرّض لها مَن سبقنا من الأمم، ولا بدّ أن نتعرض لمثلها، آنذاك يحمد المؤمن ربه -تبارك وتعالىٰ- علىٰ ما تقدم من فرائض، وما وفَّقه من أدائه للأركان، ويتهيأ بكل جوارحه وقلبه وعقله

ووجدانه لقبول الفرائض الآتية، فتبدأ الآيات بأخفها ألا وهي النفقة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥] ما الذي ينبغي عليهم إنفاقه مما رزقهم الله -تبارك وتعالىٰ- ومَن هم المستحقون لما ينفقون، ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥] هنا يأمر رسوله ﷺ بإجابتهم إجابةً هي في طريق التمهيد للفريضة الثقيلة المنتَظرة وداخلةٌ في متطلباتها وشروطها، فلا يفاجئهم بأنّ ما ينفقون إنما ينفقونه علىٰ أسلحةٍ وعدة حربٍ قد تَفْنىٰ وتذهب أثناء الحرب والقتال، بل يبيّن لهم بشكلٍ ودود بأنّ ما ينفقون إنّما ينفقونه بشكلٍ مباشر أو غير مباشر علىٰ الوالدين والأقربين واليتامىٰ والمساكين، لأن جانباً مهماً من جوانب نفقة الجهاد والقتال سوف يكون في سبيل الله وفي سبيل نصرة الضعفاء والمساكين والدفاع عن حرية الاعتقاد، وحرية هؤلاء الضعفاء والمساكين في اختيار أديانهم ومعتقداتهم دون إكراهٍ من أحد، فما يُنفَق في هذا السبيل هو قرباتٌ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجزءٌ من وسائل رضوانه ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥] ففي حالة السلم توجّه تلك النفقات إلىٰ هذه الأصناف لتُكفىٰ، وتُسد خلتها واحتياجاتها، وفي حالة الحرب تُسخّر الموارد للدفاع عن هذه الفئات المهمّشة والمستضعفة وحماية حريتها ووجودها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦] هذه الآية هي آية فرضية القتال بعد أن تهيَّأت كل الأسباب الداعية للقيام به، وبعد أن بقي المسلمون لثلاث عشرة سنة خاضعين لأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأول بكفّ أيديهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومقابلة الأذىٰ بالصبر، ومع هذا لم تتوقف فتنة الناس عن دينهم، فجاء الأمر بالهجرة إلىٰ الحبشة، وذلك في رجب سنة خمس من النبوة، (١) ولم يستطع المستضعفون أن يتخلّصوا من اضطهاد وعذاب المستكبرين المنحرفين في مكة، فكان الأمر بالهجرة

(١) الزرقاني، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف المالكي (توفي: ١١٢٢هـ). **شرح الزرقاني علىٰ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٦م، ج١، ص٥٠٤.

إلىٰ المدينة، ومع ذلك لم يتركهم المشركون وشأنهم، قال المقريزي: ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة بين أظهر الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وتكفلوا بنصره ومنعه من الأسود والأحمر، رمتهم العرب قاطبة عن قوس واحدة، وتعرضوا لهم من كل جانب، [(١)] فكان الأمر بالقتال -علىٰ ما مرّ- وكانت هذه الآية هي المرحلة الأخيرة من مراحل تشريعه.

فرض الله عليكم -أيها المؤمنون- قتال الكفار، والقتال مكروه لكم من جهة الطبع، لمشقته وكثرة مخاطره، وقد تكرهون شيئاً وهو في حقيقته خير لكم، وقد تحبون شيئاً لما فيه من الراحة أو اللذة العاجلة، وهو شر لكم، والله تعالىٰ يعلم ما هو خير لكم وأنتم لا تعلمون ذلك، فبادروا إلىٰ الجهاد في سبيله؛[(٢)] لأنّه سيحرر إرادة الناس في اختيار الدين الذي يدينون الله به، وقوله: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] يهدم جبال الرمال التي حاول المستشرقون وأعوانهم بناءها، كالقول بأن العرب في جاهليتهم كانوا أهل غزو وقتال، وأنّ الجهاد هو عبارة عن الصيغة الإسلامية التي طوَّرها الإسلام للاستجابة لرغبات العرب العدوانية واندفاعاتهم، الله -تبارك وتعالىٰ- الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور يخبر البشرية كلها أنّ القتال فُرض يوم فُرض والمسلمون كارهون للقيام به، وتبعاً لهذه الكراهية -التي يعلمها الخالق سَلفاً- فإنّ آيات الكتاب الكريم قد قدّمت ممهِّدات كثيرة قبل بلوغ الآية الحاسمة في بيان فرضية الجهاد وكتابته -خاصّةً القتال منه-، لئلا نسقط في بعض التناقُضات التي سقط بها بعض أولئك الذين فسّروا هذه الآيات بعد فصل بعضها عن بعض، وتعضيتها، وأخذ كل جزءٍ منها علىٰ حدة، والاستنباط منه بعيداً عن ملاحظة السياقات الأخرىٰ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠]. وغيره مما سبقت الإشارة إليه.

---

(١) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (توفي: ٨٤٥هـ). **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ج١، ص١٧٠.

(٢) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٣٤.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾ [البقرة: ٢١٧]

هذه الآية تهدم الدعايات المضلّلة التي قام بها المشركون وأعداء الإسلام من أهل الكتاب، فقد زعموا أن رسول الله ﷺ قد خرج عن تعاليم إبراهيم والحنيفية السمحة باحترام الأشهر الحُرم والبلد الحرام، فقاتل في الأشهر الحرم وأباح لنفسه انتهاك حُرمتها، فردّ الله عليهم ذلك بهذه الآية الكريمة، وبيّن أن ما فعلوه من مصادرة حرية الأديان، وفتنة الناس عما يختارونه من دين وفرض الكفر والشرك عليهم بالقوة، هو الأخطر الأكبر.

ويحذِّر القرآن الكريم من الاستجابة للضغوط الشديدة التي يوجّهها المشركون بفتنة الناس عن دينهم وتعذيبهم لإكراههم على الكفر، ويعدّ ذلك أكبر من القتل، ففي الفتنة والتعذيب قد يتمنى الإنسان الموت مراتٍ ومرات لعله يضع نهاية لعذابه وآلامه، ومع ذلك فإنّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يُحذِّر المؤمنين من الرِّدة الحقيقية التي يحاولها المشركون وهم يفتنون الناس عن دينهم ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾ [البقرة: ٢١٧] وهذا الحُكم لا يشمل ولا يتناول من أُكره على ذلك وقلبه مطمئن بالإيمان، لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فهذا حتى لو نطق كلمة الكفر مُكْرَهاً اتقاء الفتنة والتعذيب، فإنّ الله -تبارك وتعالى- أرحم وأعظم من أن يعاقبه أو يعدّه في المرتدين، ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ

﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١٠٦ - ١١٠].

ثم يقابل هؤلاء بالذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

ثم ينتقل السياقُ إلىٰ تشريعٍ قد يتوهَّم البعض بأنّه لا مناسبة تُذكَر بينه وبين تشريع القتال، ﴿۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩] فأين شرب الخمر من الوقوع في القتال؟! وإذا تدبّر الإنسان هذه الآيات وسياقاتها فإنّه يُدرك -إذا كان علىٰ وَعيٍ بالتاريخ العربي وعصر النبي ﷺ وبيئته- أنّ تشريع تحريم الخمر والميسر لا يقل صعوبةً في تمريره في تلك البيئة وإقناع الناس بالقيام به عن صعوبة القتال وكراهية نفوس العرب له، فالعرب كانوا يشربون الخمر أكثر من الماء، ويتفاخرون بكثرة شُربها، ولهم تقاليد وطقوس في الخمر، وأوقات وطرائق شربها أشبه ما تكون بتقاليد النبلاء البريطانيين في شرب الشاي وأوانيه وأنواعه، فهناك الصَبوح، وهي الخمرة التي تُشرب في الصباح ولها أوانيها وتقاليدها، وهناك الغبوق وهي ما يُشرب في المساء، ولكل منها تقاليد يهتم العرب بالمحافظة عليها. أما اعتزازهم بشرب الخمر في الجملة فيكفي إلقاء نظرة علىٰ شِعرهم وآدابهم في تلك المرحلة ليتبيّن لنا ذلك، يقول قائلهم:

ونشربها فتجعلنا ملوكاً ... وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

ويقول آخر مفاخراً بأنه رب إبل ردّاً علىٰ من يعايره بها:

أعيرتنا ألبانها ولحومها ... وذلك عارٌ يا ابن ريطة ظاهر

نحابي بها أكفاءنا ونهينها ... ونشرب في أثمانها ونقامر

ومن ثم قالت عَائِشَة أُم الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (إنما نَزَلَ أَوَّلَ ما نَزَلَ منه سُورَةٌ من الْمُفَصَّلِ، فيها ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حتىٰ إذا ثَابَ الناس إلىٰ الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ،

وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبداً، وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبداً)،[١] وهذا كله يبيّـن لنا الصعوبة البالغة لتكليف الناس بترك الخمر والميسر، فقد كان ذلك عادات متأصلة مُتجذرة، لذلك بدأت هذه الآية الكريمة بتهيئة الأذهان للتحريم الذي سيأتي لشرب الخمر ولعب الميسر، وجاءت بصيغة سؤال مرفوع من الناس إلىٰ رسول الله ﷺ وبيّن لهم في جوابه أنّ إثمهما أكبر من نفعهما، لأن ذلك سوف يحملهم علىٰ التساؤل لمعرفة الإثم والنفع في كلٍّ من الخمر والميسر.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] أي الزائد عن احتياجاتكم كلها فهذا الزائد أو العفو هو الذي يتناسب وتشريع القتال، فإن الأموال التي يتطلبها القتال كثيرة، وفي الحرب توجّه الأمم عادةً اقتصادها كلّه ليصبح اقتصاد حرب، ولذلك فهذه الآية لا تدخل فيما أدخله البعض بقضايا الناسخ والمنسوخ مع رفضنا لمبدأ النسخ جُملةً وتفصيلاً، بل هي في هذا السياق -وهو سياق قتال وهجرة- تجعل إنفاق الزائد أو تخصيص الزائد عن الاحتياجات الأصلية لأصحاب الأموال هو الأمر المناسب الذي يستدعيه السياق، خاصةً والآية خُتمت بدعوةٍ إلىٰ التفكُّر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢١٩] أي كما بين لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠] أي في أمر الدنيا ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وأمر الآخرة.

الإصلاح الشامل لليتامىٰ

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٢٠]. واليُتم في مجتمع قَبليّ- يقوم علىٰ العصبية والانتساب إلىٰ من يستطيع حماية الضعيف حتىٰ يقوىٰ، والصغير حتىٰ يكبر- يُعدّ من القضايا المهمة التي تحتل في تفكير الناس وتعاملهم موقعاً كبيراً، فاليتيم إنسانٌ ضعيف لا يستطيع أن يحمي نفسه أو ماله، وإذا كان اليتيم أنثىٰ فذلك يُعدّ ضعفاً مضاعفاً، ولذلك فإنّ أموال الضعفاء والنساء الضعيفات اللواتي لا أولياء لهنّ ولا عُصبة سَيَكُنَّ مع بقية اليتامىٰ تحت رحمة أولئك المحيطين بهم سواء أكانوا أولياء

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب فضائل القرآن، بَاب تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ، حديث رقم (٤٩٩٣)، ص٩٩٣.

أو أقارب أو جيراناً أو شركاء للوالد الراحل، وعليه فقد كان الموقف منهم موضع تساؤل؛ إذ اختلفت مواقف العرب من اليتامىٰ واليتيمات اختلافاً كبيراً، وترتبت علىٰ ذلك مشكلاتٌ كثيرة، فبعض الأولياء قد تعجبه اليتيمة عندما تكبر، فيستكثر تزويجها لآخرين، فيتزوجها هو دون مهر أو بمهرٍ يسير لا يوازي مستواها، لا لشيء إلا لأنها يتيمة. وبالنسبة لأموال اليتامىٰ فبعض الأوصياء يستثمرها مع أمواله ويحاول إنماءها لصالح اليتامىٰ كرماً منه وتفضّلاً، وبعضهم كان لا يفعل ذلك بل يبادر إلىٰ إنفاق مال اليتيم قبل بلوغه الرشد، وقد ينفد مال اليتيم قبل أن يبلغ رشده، وإذا بلغ الرشد قيل له: قد أنفقنا عليك ما خلّف أبوك، إلىٰ غير ذلك من المشكلات، فجاء القرآن المجيد يُنظم هذه العلاقة، وفي إطار سؤال ترفعه البيئة والمجتمع إلىٰ رسول الله ﷺ ليجيب الوحي عنه، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠][1] والقرآن الكريم لم يخصص النكاح ولا استثمار المال ولا إنفاقه في طبيعة السؤال، لكنه أطلق ليتناول جميع التصرفات، وليتناول كل ما يتعلّق باليتامىٰ ذكوراً كانوا أم إناثاً ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] الجواب في منتهىٰ الإيجاز والإعجاز، فقد أمر رسول الله ﷺ أن يخبرهم بأنّ الأولياء والأوصياء مكلّفون بتحري أصلح التصرفات لليتيم في نفسه وماله، وأطلق كلمة إصلاح أيضاً، لأن إصلاح أوضاع اليتيم وابتغاء الحياة الصالحة لها بعد البلوغ شيء، وإصلاح المال وإنماؤه شيءٌ آخر، وتنمية قدرات اليتيم ليصل إلىٰ مستوىٰ الرشد قبل أن يُدفع إليه ما بقي من مال أبيه له طرقٌ أخرىٰ تختلف من زمنٍ لآخر، فقد يكون في زماننا هذا من بين جوانب الإصلاح رعاية اليتيم والنظر في قدراته، ورغباته لوضعه في التخصّص المناسب سواءٌ أكان في مجال العلم والمعرفة، أم الحرف والتدريب أم أي شيءٍ آخر، فعلىٰ الوصيّ أن يبتغي له ما يبتغي لولده من صُلبه، وأن يختار له أحسن ما يستطيع اختياره ليمكّنه ويُهيئه إلىٰ حياةٍ كريمة، إضافةً إلىٰ ضرورة الحرص علىٰ إنمائه خُلقيّاً وتجنيبه العادات السيئة وحمايته من الانحرافات لينشأ إنساناً حُرّاً مُؤهلاً لممارسة الدور المناسب.

---

(١) قال الراغب الأصفهاني: "اليتيم: انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه، وفي سائر الحيوانات من قِبَلِ أمه." انظر:
- الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٤١٤.

هذا في شأن كفالة اليتيم علىٰ مستوىٰ الأسرة وهو الجانب الذي يكثر الحديث فيه، أما كفالته ورعايته علىٰ مستوىٰ المجتمع والدولة فلا بدّ فيه من كلمة. فلقد كثرت في الآونة الأخيرة الدراسات في العالم كله حول الأطفال وما يتعرَّضون له في مختلف أنحاء العالم من مشكلات، وأهم تلك المشكلات التي يتعرض الأطفال لها التشرُّد وإهمال الأهل وبيع الأولاد تحت ضغوط الفقر والحاجة علىٰ أهليهم، وسوء استخدامهم في أعمال شائنة أو شاقة، وهؤلاء الأطفال الذين يتعرضون إلىٰ ما ذكرنا يغلب أن تكون المناطق التي ينتمون إليها مناطق عربيَّة أو إسلاميَّة، فهناك البلاد التي نُكبت بالحروب؛ مثل: أفغانستان والعراق والصومال والسودان، ومناطق أخرىٰ تشرَّد كثير من الأطفال فيها نتيجة الحروب والفتن الداخليَّة، وتشتُّت أُسرهم أو مقتل معيليهم في الحروب الأهليَّة، ولم تكن في تلك البلدان مؤسَّسات تستطيع استيعاب تلك الأعداد الكبيرة من المشرَّدين.

وهناك مصادر أخرىٰ لأطفال الشوارع، مثل: العلاقات الجنسيَّة المحرَّمة التي تُلقىٰ علىٰ كاهل الأم غالباً مسؤوليَّة رعاية أطفالها من الزِّنا، ويغلب أن يكون هذا النوع من الأمهات ممن لا يستطعن تحمُّل مسؤوليَّة أطفال لا يُعرف آباؤهم، أو تخلَّوا عنهم لأسباب عديدة، فيكون الأطفال المواليد ضحية أخطاء وانحرافات والديهم، فقد تُلقي الزانية بطفلها في الشارع أو عند محل عبادة إذا لم تجرؤ علىٰ قتله، والتخلُّص من مسؤوليَّته، أو من العار الذي تخشاه في بعض البيئات.

ومهما يكن من أمر فإنَّ المؤسسات الدينيَّة لبعض الطوائف في الغرب قد وجدت في ذلك فرصة؛ إذ تتبنَّىٰ أعداداً كبيرة من هؤلاء المشرَّدين، خاصَّة من أبناء الشعوب المسلمة، وتلتقي مصلحة تلك المؤسَّسات الدينيَّة وأهدافها مع المصلحة السياسيَّة للبلدان الخاصَّة التي تنتمي تلك المؤسَّسات إليها، وتتفق كلمة رجال الدين ورجال الاستعمار علىٰ العمل -معاً- لتكوين أجيال تتبع تلك المؤسَّسات الدينيَّة، ثم يعودون إلىٰ بلادهم بعد فترة ويُسَاعَدون ويُعَاوَنون علىٰ تسلُّم مراكز مهمة في دُولهم، وبذلك يضمنون مجموعة كبيرة من المصالح في المستقبل!!

من المعروف أن الشعب الكُرديَّ -في العراق خاصَّة- كله -ما عدا قبيلة واحدة- شعب مسلم سُنِّيٌّ، يتمذهب بالمذهب الشافعيِّ، ولم يكن يوجد عبر تاريخ الكُرد العراقيِّين فرد واحد يدين بغير الإسلام، والعشيرة المستثناة هي قبيلة الفيليَّة من الأكراد، وهي الوحيدة من بين قبائلهم التي يتمذهب غالبيَّتها بالمذهب الشيعيِّ، ومنذ السبعينات من القرن الماضي ضمَّت أعدادٌ من المؤسَّسات الدينيَّة الغربيَّة في أمريكا وأوروبا كثيراً من الأيتام الأكراد الذين تمت تنشئتهم علىٰ أديان تلك المؤسَّسات، وقد بلغوا الآن مبلغ الرجال، وعلىٰ أيديهم الآن تجري عمليَّة تحويل دينيٍّ في شعبهم المسلم السُّنيِّ الشافعيِّ لا عهد للشعب الكُرديِّ به!! وكذلك الحال بالنسبة لأفغانستان ومالي وبنغلاديش.

إنَّ هناك بلداناً أفريقيَّة كثيرة تَراجَع عدد المسلمين فيها تراجُعاً مخيفاً نتيجة تلك الأعمال والجهود. فوجدنا لدىٰ المسلمين إمكانيَّات كبيرة، لو وُجِّه جزء يسير منها إلىٰ العناية بأطفال المسلمين وكفالة أيتامهم ومشرديهم لما شاهدنا تلك الظاهرة المريعة، التي ستكون لها آثار خطيرة في مستقبل الشعوب المسلمة. وحينما خاطبنا جهات إسلاميَّة شعبيَّة وحكوميَّة كثيرة بضرورة عمل شيء، قالوا: ليست هناك وسيلة يمكن الاعتماد عليها في هذا المجال إلا التبنِّي، والتبنِّي في الإسلام ممنوع، فقلنا لهم: لا جدال في تحريم القرآن الكريم للتبنِّي، ولكنَّه حضَّ وحث علىٰ كفالة الأيتام، ورسول الله ﷺ قال: (أنا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وقال بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَىٰ)[1]، فماذا لو أنَّ المسلمين وأغنياءهم والدول البترولية -خاصة- رصدوا بعض الأموال، واحداً في المائة مثلاً، وكلَّفوا بلداناً مسلمة ترحِّب بكفالة الأيتام -إذا وجدت المؤسَّسات والنفقات اللازمة لذلك-، ولديها قدرات تربويَّة وطاقات تعليميَّة كبيرة مثل: مصر والمغرب والجزائر والسودان واليمن وتركيا وأمثالها، فإن هذه الدول ستقوم بتأسيس ملاجئ ومدارس داخليَّة يقوم عليها تربويُّون ومربِّيات أكفاء لتنشئة هذه الآلاف

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأدب، بَاب فَضْلِ من يَعُولُ يَتِيمًا، حديث رقم (٦٠٠٥)، ص١١٦٣.

المؤلفة من الأيتام وكفالتهم وفقاً لشريعة الله، وحمايتهم من التشرد، أو الوقوع في براثن تلك المؤسَّسات التي تنشئهم على غير ملة الإسلام، وفي الوقت ذاته حماية بلاد المسلمين من مُعْضلات مستقبلية في غاية الخطورة.

وخُطط التنمية موجودة في سائر البلدان العربيَّة والمسلمة، وتنمية الإنسان أهم وأخطر من سائر جوانب التنمية، فلِمَ لا ندرج كفالة الأيتام والمشرَّدين في خطط التنمية؟ ومن المعلوم أنَّ أهم أنواع التنمية، وأكثرها أهميَّة وعوائد هو الاستثمار في الإنسان، فلِمَ لا نستثمر في إنساننا؟

إنَّ من الممكن إيجاد نوع من التعاون الوثيق بين جامعة الدول العربيَّة ومنظمة المؤتمر الإسلاميِّ ووزارات الشؤون الاجتماعيَّة ومؤسَّسات أخرى تتصل اهتماماتها بهذا الموضوع.

لقد فُوجئ الكثيرون في ٢٧/ ١٠ / ٢٠٠٧م بحادث سرقة أطفال مسلمين من أبناء دارفور وتشاد ليسوا بأيتام، فمعظمهم لديهم أسرهم وآباؤهم، ومع ذلك فقد جرت محاولة اختطافهم إلى فرنسا. وإذا كانت هذه المحاولة قد كُشفت فكم هي المرات التي لم تُكتشف، وصار أولئك الأطفال المسلمون تحت رحمة تلك المؤسَّسات والأسر المنتمية إليها؟ فهل تتحرك المشاعر الخيِّرة المؤمنة لإنقاذ أبناء الأمة ومستقبلها؟! والحيلولة دون بيع إنسانها والاتجار به؟!

لقد كشفت التقارير الخاصَّة في الآونة الأخيرة أنَّ هناك شركات أو عصابات احترفت سرقة الأطفال والاتجار بهم لمختلف الأغراض الخبيثة، فكيف تتعاون الشعوب والحكومات والأمم المتحدة وبقيَّة المنظمات الدوليَّة والإقليميَّة على إنقاذ الأطفال، والحيلولة دون إعادة إحياء جريمة الاسترقاق بأساليب خبيثة جديدة؟! ألا إن هذا هو الأصلاح الأكبر الذي تعنيه الآية الكريمة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]

﴿ تُخَالِطُوهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] في سائر شؤون المعاش ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فهم إخوانكم في الدين. وعلىٰ الأخ أن يرعىٰ مصلحة أخيه، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] والله يعلم المضيع لأموال اليتامىٰ من الحريص علىٰ أصلاحها ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ولو شاء الله لضيَّق وشقَّ عليكم بتحريم المخالطة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] في ملكه، ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٢٠] في خلقه وتدبيره وتشريعه.(١)

النَّجم السادس والعشرون: دعائم بناء الأسرة: من الخِطبة إلىٰ ما بعد الوفاة

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا
تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ
وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ
مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ
شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ
عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا
يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن
نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن
كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا
يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ
ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ

---

(١) آل الشيخ، التفسير الميسر، مرجع سابق، ص٣٥.

أَن ظَنَّآ إِن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ
فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ
ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ
وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ
أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ
أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ
نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ
أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ
إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ
وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا
فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ
خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ
أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ
يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ
تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ
أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ
بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ
﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ
تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ
غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢١-٢٤٢]

هذا بيان لبعض التشريعات المتعلّقة ببناء الأسرة، وإرساء قوائمها على أقوى الدعائم من الخطبة إلى ما بعد الوفاة. وأول ذلك النهي عن نكاح المشركات وإنكاح المشركين، فديانة الشرك لا تسمح بإيجاد قاعدةٍ من المشْتركات بين الزوجين تسمح بإيجاد العلاقة الوثيقة التي يعيش في ظلالها الأبناء ويَنْشَأون النشأة الصالحة، والمشركون خلت دياناتهم في الغالب من أية وصايا أو تنظيمات تحمي الزوجة المسلمة لو نكحت مشركاً كما هو الحال في الإسلام، حيث قدّم الإسلام ضمانات كثيرة تحمي للزوجة الكتابية حقوقها ولا تسمح بأن يمسّها الظلم والتحيُّز، وتبعاً لهذا فإنّه سبحانه قد منعنا أن نُنكح بناتنا وأبناءنا لمشركين حتى لو كان ذلك المشرك غنيّاً ولديه قدرات مادية تمكّنه أن يهيئ لزوجه الوسائل المادية المريحة، لأنّ السكن النفسي والقلبي والراحة الروحية والانسجام في العقيدة والعبادة والسلوك تمنح من الراحة النفسية والسعادة القلبية ما لا يمكن لجميع الوسائل المادية أن تُهيِّئه وتقدمه.

ولأن المسألة كانت مطروحةً بتداخل العلاقات التي ما تزال قائمة غير منفصلة في المجتمع المدنيّ فإنّ هذه الآية الكريمة قد حسمت الأمر وانسجمت مع معالجة سائر المشكلات التي نجمت عن ذلك بعد توقيع صلح الحديبية.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

كانت الثقافة الشفوية الكتابية السائدة في جزيرة العرب قد نَقَلت إلى العرب الفكرة اليهودية عن النجاسة، وأنها نجاسة عينية وليست حُكمية، وعلى ذلك فإن الحائض إذا حاضت تَنَجّس جسدها كله واعتُبر كل ما تخالطه أو تجلس عليه نجساً لماسته لمتنجّسٍ عيناً، وقد يكونون قد ورثوا ذلك التشريع من شريعتهم التي فيها الكثير من الإصر والأغلال، مما يبيّن لنا مدى تأثير تلك الثقافة الشفوية في العرب وتغلغلها في ثقافتهم، وبذلك نستطيع أن نتفهّم تلك المشاعر التي كان العرب يحملونها تجاه

الحائض، [١] والتي بقيت هي السائدة إلىٰ أن قضت عليها شريعة التخفيف والرحمة، وأزالت مفهوم النجاسة والرجس عن المرأة الحائض، واعتبرت الخارج وحده من الدم كأي خارج من السبيلين للرجل والمرأة نجاسةً عينية، وأنّ الحائض طاهرٌ في بدنها ولعابها وما تمسّه أو يماسها، وكل ما هو ممنوعٌ علىٰ رَجُلها أن يفعله هو الجماع لما فيه من إضرارٍ بها وبه وهي في تلك الحالة، "وروي أن اليهود والمجوس كانوا يبالغون في التباعُد عن المرأة حال حيضها، والنصارىٰ كانوا يجامعونها..."[٢]

وبتأثير الثقافة الشفوية الكتابية وانتشارها في جزيرة العرب أشاع اليهود أنّ جِماع الرجل لزوجته في موضع الحرث منها إذا كان من الخلف فإنّ الولد يأتي أحول،[٣] وصدّق العرب مضمون تلك الثقافة الشفوية، وبقي هذا المضمون مُتداولاً بينهم حتىٰ ظهور الإسلام، وكما أزال التشريع القرآني ما يتعلّق بنجاسة الحائض أزال الخرافة الشائعة عنهم فيما يتعلّق بطريقة الجماع، بالآية الكريمة ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] دعوةٌ صريحةٌ واضحة أن النكاح المأمور به هو النكاح المثمر للولد، وهذا لا يتم إلا بالتلقيح في موضع الحرث، أما أي موضع آخر فإنّه -وإن أفاد متعةً- لا يؤدّي إلىٰ ثمرة الإنجاب، فصار المأمور به في هذه الحالة إتيان النساء في موضع الحرث طلباً للولد، ولتحقيق هدف أساس من أهداف النكاح وهو دوام النوع واستمراره، لكنّ ذلك لا يمنع أن يختار الزوجان أشكالاً من شأنها أن تُقدّم مزيداً من المتعة لهما إضافةً إلىٰ تحقيق الغاية، لكنَّ تحقيق المتعة مع تفويت

---

(١) عن عَائِشَةَ أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لي رسول الله ﷺ: "نَاوِلِينِي الْخُمْرَةَ من الْمَسْجِدِ، قالت: فقلت: إني حَائِضٌ، فقال: "إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ في يَدِكِ." انظر:

- مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الحيض، بَاب جَوَازِ غَسْلِ الْحَائِضِ رَأْسَ زَوْجِهَا وَتَرْجِيلِهِ وَطَهَارَةِ سُؤْرِهَا وَالِاتِّكَاءِ في حِجْرِهَا وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فيه، حديث رقم (٢٩٨)، ص١٤١.

(٢) الرازي، **مفاتيح الغيب "التفسير الكبير"**، مرجع سابق، ج٦، ص٤١٤.

(٣) عن جَابِرِ بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كانت الْيَهُودُ تَقُولُ: إذا أتىٰ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ من دُبُرِهَا في قُبُلِهَا كان الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]." انظر:

- مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب النكاح، بَاب جَوَازِ جماعه امْرَأَتَهُ في قُبُلِهَا من قُدَّامِهَا وَمِنْ وَرَائِهَا من غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِلدُّبُرِ، حديث رقم (١٤٣٥)، ص٥٦٩.

الغاية أمرٌ لا ينسجم مع المنطق القرآني، وإذا استقر ذلك وثبت تأتي الآية الأخرىٰ لتؤكّد هذا المعنىٰ وتقويه، وتزيل ما علق في الأذهان من آثار الثقافة الشفوية الكتابية، قال -جل شأنه-: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فهنّ موضع حرثٍ وزرعٍ لإنجاب الأبناء ودوام النوع، ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وأنّىٰ في لسان العرب تحتمل معنين: الدلالة علىٰ الموضع، والدلالة علىٰ الكيفية، لكنها في لسان القرآن -الذي يستوعب ويتجاوز ليونة اللسان العربيّ- تنحصر في معنىٰ الكيفيَّة، لأن الموضع لو جرىٰ التخيير فيه فإنّه سيرتد علىٰ مقصد قرآني أساس من النكاح بالنقض، وموضوع العلاقة النوعية بين الرجل والمرأة موضوعٌ كثيراً ما تأثّر بتعدد الرُّؤىٰ والأنظار، فهناك من ينظر لهذه العلاقة علىٰ أن الهدف الأساسي منها هو الاستمتاع، وعصرنا هذا من العصور التي سادت فيها هذه الفكرة، ولذلك أخذ الناس يتفننون في هذه الممارسة الخاصة، وشاعت أنواعٌ كثيرة من أساليب الممارسة لهذا العمل نتيجة المؤثرات المختلفة التي جعلت فكرة الاستمتاع فكرةً عالية وكأنها المقصود الأساس، وليس الأمر كذلك. فالقرآن الكريم، واتّباع رسول الله ﷺ له، وتأويل أحكامه في واقع الناس، ارتقىٰ بهذه العلاقة بشكلٍ يناسب الإنسان وكرامته واستخلافه وائتمانه، فجعلها بمثابة العبادة: ".. وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قالوا: يا رَسُولَ الله أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ له فيها أَجْرٌ قال: أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَهَا في حَرَامٍ أَكَانَ عليه فيها وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إذا وَضَعَهَا في الْحَلَالِ كان له أَجْراً."(١) وبهذا السمو والرقيّ يُقبل الرجل علىٰ المرأة وتُقبل المرأة علىٰ الرجل، وتُرفع بينهما الحُجب، وتُصبح عملية الجماع عبادة مشتركة بين الزوجين يقومان بها لتحقيق مقصد شرعيّ، هو من أعلىٰ المقاصد الشرعية وأغلاها وهو دوام النسل النوعي، والنسب والصِّهر والحب والمودة، والحصول علىٰ السكن والمودة والرحمة، فهي وإن كانت لقاءً جسديّاً لكنّه لقاءٌ لصناعة الحياة تظلّله المشيئة الإلهية ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ

---

(١) المرجع السابق، كتاب الزكاة، بَاب بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ علىٰ كل نَوْعٍ من الْمَعْرُوفِ، حديث رقم (١٠٠٦)، ص٣٨٩.

ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]. فهذا الذي شهدته الجاهلية القديمة وتعززه جاهلية اليوم من تحويل هذه العلاقة إلىٰ عملية استمتاعٍ تلعب المرأة فيها دور مُعطي المتعة ومانحها، ويلعب الرجل فيها دور المستمتع الذي دفع الثمن، هذا كله هو ما أوجد في عصرنا ثقافة نشاهدها فيما شاع من أنواعٍ كثيرة للمعاشرة النوعية بين الرجل والمرأة، وتعدّدت تلك الأنواع، وأصبحت قضية إتيان النساء من أدبارهن قضية لها ثقافة تعززها وتؤكّد عليها، تتقبّلها بعض النساء باحتياطات وشروط معيّنة وترفضها عامتهن لما يشعرن فيه من إهانة وخطرٍ صحيّ وغير ذلك. ولذلك فلا بدّ من الارتقاء بالذوق الإنسانيّ الذي دعا إليه القرآن في هذه الآية ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٣] أي كيف شئتم، وإحاطة هذه الممارسة بظلالة إنسانية، والمباعدة بينها وبين المشاعر الحيوانيّة، وتقديم ما قدّمه الله، وتأخير ما أخّره، فإنَّ تلك النظرة جرّت الكثير، واستدرجت فقهنا الإسلاميّ في عصرنا هذا إلىٰ إباحة أنواع من الأنكحة ليس فيها ما ينسجم مع مقاصد النكاح في القرآن، كنكاح المتعة والمسيار والدم والمؤقت والويك إند والزوج فريند وما شَاكَل مما ابتدع الناس واخترعوا فيما لم يأذن به الله، وكل ذلك انطلاقاً من فكرة المتعة، ناسين أو متناسين أن المتعة فائدة إضافية للنكاح، تُضاف إلىٰ المقصد الأساسي منه، ألا وهو النسب والصهر ودوام النوع.

ولقد أذن بعضهم بإتيان النساء من أدبارهنّ انطلاقاً من فكرة المتعة هذه، وأنّ عقد النكاح يبيح له تجاوز المقاصد الأصلية للنكاح واعتبار جسد المرأة كله ميداناً لاستمتاعه، يستمتع به كيف شاء وكيف أراد، وهذا يخالف نظرة القرآن الكريم.(١)

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الوطء في الدبر" حرام في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وعلىٰ ذلك عامة أئمة المسلمين: من الصحابة والتابعين وغيرهم؛ فإن الله قال في كتابه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقد ثبت في الصحيح: أن اليهود كانوا يقولون: إذا أتىٰ الرجل امرأته في قبلها من دبرها جاء الولد أحول، فسأل المسلمون عن ذلك النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ﴾ و"الحرث" موضع الزرع. والولد إنما يزرع في الفرج لا في الدبر ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ وهو موضع الولد. ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ﴾ أي من أين شئتم: من قبلها ومن دبرها وعن يمينها وعن شمالها. فالله تعالىٰ سمّىٰ النساء =

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٢٣] ذرية صالحة تدعو لكم وتستغفر، وتكون امتداداً لوجودكم وحياتكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٢٣] في مراعاة أحكامه والالتزام بشريعته وعدم السماح لشهواتكم ورغباتكم أن تستدرجكم إلىٰ مضايق لا تليق بإيمانكم ولا بتقواكم. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فمحاسبكم علىٰ ما قدّمتم وما أخّرتم، ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾ [البقرة: ٢٢٣] الذين هم لفروجهم حافظون.

﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾ [البقرة: ٢٢٤] الأصل أن يقول الإنسان الصدق سواءٌ كان مخبِراً أو مستدلاً أو مُدّعياً، لأنَّ المؤمن خاصةً مأمورٌ أن يكون مع الصادقين، ولذلك فإنّ المؤمن ليس بحاجةٍ إلىٰ ما يؤكّد به صدقه في أي شيءٍ يقوله، إلا إذا احتاج القاضي في المحاكم أن يستيقن من أنَّ الشاهد قد شهد بالحق ونطق بالصدق فيطلب منه اليمين، وليُدرك الشاهد آنذاك خطورة وأهمية ما يقول، وأما في غير هذا الوضع فيفترض ألا يحتاج الإنسان إلىٰ المؤكّدات ليُثبت صدقه، وقد ينخفض مستوىٰ الالتزام بالصدق فيطلب المخبَر من المخبِر ما يؤيّد صحة خبره، ومن المستدلّ ما يؤكّد صدق دليله، ومن الشاهد ما يجعل شهادته مقنعةً بالصدق، وهكذا.

والله -تبارك وتعالىٰ- هنا ينهىٰ المؤمنين أن يجعلوا الله عُرضةً لأيمانهم، فكأنّ اسمه -جل شأنه- قد صار مهيئاً كعارضةٍ أو عُرضة لاستعماله للتوثيق فيما يُحتاج به إلىٰ ذلك وفيما لا حاجة بالناس إلىٰ توثيقه. فاسم الله عزيز، ولا بدّ أن لا يُسمَح بالنزول

= حرثاً؛ وإنما رخّص في إتيان الحروث والحرث إنما يكون في الفرج. وقد جاء في غير أثر: أن الوطء في الدبر هو اللوطية الصغرىٰ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "إنَّ الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في حشوشهن" و"الحش" هو الدبر وهو موضع القذر، والله سبحانه حرّم إتيان الحائض مع أن النجاسة عارضة في فرجها، فكيف بالموضع الذي تكون فيه النجاسة المغلظة: و"أيضاً" فهذا من جنس اللواط، ومذهب أبي حنيفة وأصحاب الشافعي وأحمد وأصحابه أن ذلك حرام لا نزاع بينهم، وهذا هو الظاهر من مذهب مالك وأصحابه؛ لكن حكىٰ بعضُ الناس عنهم رواية أخرىٰ بخلاف ذلك، ومنهم من أنكر هذه الرواية وطعن فيها. وأصل ذلك ما نقل عن نافع أنه نقله عن ابن عمر، وقد كان سالم بن عبد الله يكذب نافعاً في ذلك، فإما أن يكون نافع غلط أو غلط من هو فوقه، فإذا غلط بعض الناس غلطة لم يكن هذا مما يسوغ خلاف الكتاب والسنة"، انظر:

- ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، مرجع سابق، ج٣٢، ص٢٦٨.

به عن موقعه في قلوب المؤمنين، موقع الإيمان واليقين والمهابة والحب ليُجعَل عرضةً جاهزة ومهيَّئة للتوثيق والإقناع بصدق المدَّعي أو القائل، خاصةً إذا كان الحلف والذهاب إلىٰ اليمين سيتحول إلىٰ مانع من بر أو تقوىٰ أو إصلاح بين الناس، فالدائن -مثلاً- إذا تأخَّر عنه المدين في السداد يُقسم أنه لن يقرض أحداً بعد، والبار إذا صدر عن من يبرهم ما يزعجه قد يبادر إلىٰ اليمين ليُقسم علىٰ ألا يبرّهم مرةً أخرىٰ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢]، فقد "كَانَ فِيمَنْ حَدَّثَ الحديث رَجُلٌ كان يَعُولُهُ أبو بَكْرٍ، فَحَلَفَ أبو بَكْرٍ أن لاَ يَصِلَهُ، فأنزل الله -عز وجل- ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ [النور: ٢٢] إلىٰ آخر الآية، قال أبو بَكْرٍ: بَلَىٰ، فَوَصَلَهُ."[(١)] ولذلك -كما في الحديث-: "من حَلَفَ علىٰ يَمِينٍ فَرَأَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً منها فَلْيَأْتِهَا وَلْيُكَفِّرْ عن يَمِينِهِ."[(٢)]

والآية التالية تبيّن بعض الاستثناءات ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥] عفا الله عنكم في بعض الأيمان، فما جرىٰ علىٰ الألسنة من صور الأيمان ولم يصحبه قصد ولا عقد قلب، أو كان يحلف علىٰ شيء يعتقده حصل وهو لم يحصل، فإن الله لا يؤاخذ عليه، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم من عزم علىٰ إيقاع فعل أو عدم إيقاعه، وعلىٰ الكذب في القول مع التوثيق باليمين، فالله غفور لمن يتوب، حليم يعفو عما لا يكتسبه القلب،[(٣)] وعلىٰ مَن يحنث في يمينه التي عقدها وعزم فيها الكفّارة، وهي كما جاء في سورة المائدة ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩].

---

(١) ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، مسند النساء، حَدِيثُ أُمِّ رُومَانَ أُمِّ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، ج٤٤، حديث رقم (٢٧٠٧١)، ص٦٣١.

(٢) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الأيمان، بَاب نَدْبِ من حَلَفَ يَمِيناً فَرَأَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً منها أَنْ يَأْتِيَ الذي هو خَيْرٌ وَيُكَفِّرُ عن يَمِينِهِ، حديث رقم ١٦٥٠، ص٦٧٨.

(٣) لجنة من علماء الأزهر، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٥٢.

والكفارة هنا ليست لزيادة حسنات المكفِّر، بل فيها معنىٰ الغرامة التأديبيَّة لمنع الاستهانة باليمين وعدم احترامه، والمنع من تكرار ذلك.

الإيلاء

من المفاهيم القرآنيَّة المتعلقة بالأسرة الإيلاء، وقد ورد في مواضع من القرآن المجيد، منها الآية التي بين أيدينا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور: ٢٢]، وحقيقة الإيلاء والإليَّة: الحلف علىٰ الامتناع عن شيء ما كان ينبغي للحالف أن يمتنع عنه، ولا يجدر به أن يستعمل اليمين لتوكيد ذلك الامتناع علىٰ نفسه، وكأنَّه يحاول منع نفسه -بقوة اليمين- عن الرجوع عمَّا عزم علىٰ الامتناع منه، وكان العرب في الجاهليَّة يؤلون من نسائهم، أي: يحلفون علىٰ عدم معاشرتهن، والقيام لهن بحقهن الطبيعيِّ إذا قصَّرن في أمر يريده الرجل، فهو يمين من أيمان السفهاء الجاهليِّين، يُراد به إذلال المرأة والانتقام منها بحرمانها حقها الطبيعيِّ علىٰ زوجها، وقد نهىٰ الإسلام عنه، وذكر بعض الفقهاء أنَّ الحقَّ الطبيعيَّ للمرأة ألا يحرمها زوجها من نفسه يوماً في كل أربعة أيام إن استطاع،[1] فإن جاوز ذلك عُدّ معتدياً علىٰ حقها، إن لم يكن هناك عذر من مرض أو سفر، وأنَّ ذلك حدٌّ أدنىٰ يُدفع به عنها الضرر في النفس وفي الجسم، وتُدرأ به الفتنة، أما الحداثيُّون فقد طوَّروا هذه الظاهرة الجاهليَّة الأولىٰ إلىٰ ما يطلقون عليه separation أي توقف عن المعاشرة الزوجيَّة، وانفصال عنها، لفترة تسبق الطلاق أو العودة، قد تمتد إلىٰ سنة أو أكثر.

وكل هذه الظواهر مخالفة لهَدي القرآن المجيد، ومَنْ سقط في شيء من هذا الانحراف أمهله الله -تعالىٰ- أربعة أشهر فقط، فإما أن يرجع عن خطئه، ويتوب ويعود إلىٰ زوجه، ويتوب عن تلك الممارسة الخاطئة، أو يعزم علىٰ الطلاق، إذا كان الإيلاء قد حدث بناءً علىٰ نفرة أو كراهيَّة بين الزوجين تعذَّرت إزالتها بالوسائل الشرعيَّة المعروفة.

---

(١) سابق، سيد. **فِقه السُّنة**، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٧٧م، ج٢، ص١٩٠.

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٧]

لما كان عقد النكاح ميثاقاً غليظاً، يتواثق الزوجان به على أن يكون كلٌّ منهما زوجاً للآخر، يحمل من المسؤوليات ويستحق من الحقوق، ويؤدّي من الواجبات ما قرّره الشارع الحكيم ورتبه على هذا العقد وهذا الميثاق، كان الطلاق عبارة عن فكٍّ لذلك الوثاق، وإبطالٍ لآثار ذلك الميثاق، فلا يحمل المتطلّقان بعد فكّ ذلك الرِّباط والتخلي عن الميثاق أياً من تلك المسؤوليات أو الآثار أو الواجبات أو الحقوق المترتبة على ذلك، ويرجع كلٌّ من الزوجين طَلِقاً حُرّاً من ذلك كله، ولذلك سمي بالطلاق؛ فالطلاق فكٌّ للميثاق الذي تواثقا عليه عند إبرام عقد النكاح وإنهاءٌ لما يترتب عليه من حقوق وواجبات إلا ما رتبه الشارع الحكيم على الطلاق نفسه من آثار، وكما يُبرم النكاح بالعقد اللفظي، فإن الطلاق يكون كذلك عبارة عن ألفاظٍ منحها الشارع سلطاناً في فك ذلك الرِّباط وإيقاف آثاره، ولقد توهّم كثيرون أنَّ الطلاق بما أنّه تصرفٌ سلبيّ يترتب عليه فك الزوجية فإنّه يكفي أن يقول الرجل: طلقت بأي صيغةٍ من الصيغ، فإذا كرر اللفظ ثلاثاً فقد بانت منه بينونة كبرى، وإذا كانت دون ذلك فتكون طلاقاً رجعياً، يعني يمكن للمطلّق الرجوع فيه والتراجع عنه.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، إن هذه الآية قد أخرجت الطلاق من الدائرة الشخصية التي تجعله وكأنه قضية تخص الزوجين وحدهما، إلى أمرٍ يتعلّق بأطراف أخرى، أهمها الأبناء، وما تحمله المرأة في رحمها، فهؤلاء ينبغي ملاحظتهم ومعرفة مؤثرات الطلاق في حياتهم، لئلا يقع ظلمٌ على أطراف لم يُحسَب لظلمها حساب، ولا بدّ عند الوصول إلى قرار الطلاق أن يكون الإيمان حاضراً، وخوف الله تعالى مهيمناً، بحيث يكون هناك مجالٌ لعودة الحياة بين الزوجين إلى طبيعتها، فإنّ العلاقة بين الاثنين مهما شابتها الشوائب لا تُعدَم من ذكرياتٍ طيبة بين الاثنين -إذا جرى لها نوعٌ من الإحياء والتنشيط- قد تساعد على إعادة العلاقة

إلى مسارها الطبيعي، فالتفكير بالطلاق ليس نهاية المطاف، ولذلك قال -جل شأنه: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فالأزواج الذين يرجعون عن رغبتهم في الطلاق إلى الرغبة في رد الزوجة واستعادتها وترميم ما رثّ من العلاقة، هم الأحق بذلك من الأولياء، ما داموا يريدون الإصلاح، ولا بدّ في هذه الحالة من ملاحظة حقوق الزوجات التي أجملتها الآية الكريمة في قوله -تعالى-: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فالواجب يقابله الحق، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، لأنهم الذين جعل الله لهم العصمة -في الأصل- لأسباب كثيرة، فهي درجة، عليه أن يتقي الله بها، لأنها مسؤولية أمام الله -تعالى- لا ينبغي أن يتعسّف في استعمالها أو يتجاوز العدل.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩]

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

اشتملت هذه الآية على التنبيه إلى الطلاق السُّنّي والحذر من الوقوع في الطلاق البِدعيّ، "قال ابن العربي: الطلاق على ضربين: سُنة وبِدعة، واختلف في تفسيره، فقال علماؤنا: طلاق السُّنة ما جمع سبعة شروط؛ وهي أن يطلقها واحدة، وهي ممن تحيض، طاهراً لم يمسها في ذلك الطُّهر، ولا تقدَّمه طلاق في حيض، ولا تَبعه طلاق في طهر يتلوه، وخلا عن العِوَض، وهذه الشروط السبعة مستقرات من حديث ابن عمر،(١) وقد بقي من صور طلاق السُّنة أن يطلقها وهي حامل، وهذه الصورة ثابتة أيضاً في حديث ابن عمر هذا، فإن في بعض رواياته: (مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُطَلِّقْهَا طَاهِراً أو حَامِلاً).(٢)

---

(١) عن عبد الله بن عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا "أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، على عَهْدِ رسول الله ﷺ، فَسَأَلَ عُمَرُ بن الْخَطَّابِ رَسُولَ الله ﷺ عن ذلك، فقال رسول الله ﷺ: مرهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حتىٰ تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ، ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إن شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قبلَ أَنْ يَمَسَّ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ التي أَمَرَ الله أَنْ تُطَلَّقَ لها النِّسَاءُ." انظر:
- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب الطَّلَاقِ، بَاب قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ﴾ [الطلاق: ١]، حديث رقم: (٥٢٥١)، ص١٠٣٩.

(٢) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كِتَاب الطَّلَاقِ، بَاب تَحْرِيم طَلَاقِ الْحَائِضِ بِغَيْرِ رِضَاهَا وَأَنَّهُ لو خَالَفَ وَقَعَ الطَّلَاقُ وَيُؤْمَرُ بِرَجْعَتِهَا، حديث رقم (١٤٧١)، ص٥٨٧.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩] فالمعنى الظاهر من الآية أن الطلاق يكون مرتين، وفي كل مرة إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، الرجل مُخيَّر بعد إيقاع الطلقة الأولى -على الوجه الشرعي المبيَّن في الكتاب- بين أن يرجع فيما اختار من الفراق فيمسك زوجه ويعاشرها بإحسان، وبين أن يعزم أمره ويدع زوجه في عدتها من غير رجعة حتى تبلغ أجلها وتنقضي عدتها، فإذا راجعها إلى عصمته أو تزوجها ثانياً بعد انقضاء عدتها، ثم شجر بينهما ما يجب إليه الفراق مرة أخرى وعزم الطلاق فطلق، كان شأنه في المرة الثانية كمثل شأنه في المرة الأولى: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

ثم إن عاد إلى معاشرتها بالرجعة أو بالزواج بعد أن طلق مرتين فإنه لم يبق له عليها بعد ذلك إلا طلقة واحدة ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. فلا يملك عليها رجعة وهي في عدته ولا يجوز له أن يتزوجها إلا بعد زواجها من رجل آخر، ثم يطلقها ذلك الزوج الآخر ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾ [البقرة: ٢٣٠]؛ لأن الزوج الأول بعد أن فارقها ثلاث مرات غلب على الظن أن معاشرته إياها لا تستقيم.

هذا هو السياق الصحيح الواضح لمعاني الآية، وأن قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، معناه أن كل مرة من المرتين يجب أن يتبعها أحد أمرين: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وبذلك فسّرها الحافظ ابن كثير، قال: أي: إذا طلقتها واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية، بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها، فتَبِين منك، وتُطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً، ولا تضار بها."[(١)]

وقد نهى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الرجال أن يستردوا من نسائهم مما آتوهن شيئاً إلا في حالة واحدة، وهي الحالة التي تكون الزوجة فيها هي مَن اختار المفارقة، في حين أنّ الزوج لم يكن لديه مانع من التمسك بها والاستمرار معها، لكنها تصرّ على مفارقته

(١) شاكر، أحمد. **نظام الطلاق في الإسلام**، القاهرة: مكتبة السنة، (د. ت.)، ١٩٣٦م، ص٢٢.

لأسبابٍ تخصها، ففي هذه الحالة إذا أرادت أن تفتدي نفسها منه بشيءٍ -مما أعطاها مهراً أو غيره- فلها أن ترد عليه ما أخذت منه ليخالعها، ولا جناح عليه في قبول ذلك، وليس للرجل أن يتعسّف ويطالب بأكثر مما دفع فذلك لؤمٌ وخبثٌ منه لا يليق بكرام الرجال. والآية الكريمة ألمحت في قوله -جل شأنه- ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] أنه لا ينبغي اللجوء إلى المخالعة إلا إذا أصبحت الحياة بين الاثنين شبه مستحيلة، وأصبحت مشقة وجودها في عصمته كمشقة الأسير في أسره، أو السجين في سجنه، ولذلك فهي تفتدي منه بإعادة ما أخذت افتداءً. وتختم الآية بتحذير شديد: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩] فأي تجاوزٍ في هذه الأمور -مثل التجاوزات التي نجدها عند المعاصرين وتمتلئ المحاكم بقصصها- ليس اعتداءً على الزوج أو الزوجة، بقدر ما هو اعتداءٌ على حدود الله، ومن يتعدّ حدود الله فقد دخل في سلك الظالمين.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢٣٠].

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٠] طلاقاً بائناً لا رجعة فيه، فإنها تبين منه بينونة كبرى، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣٠] فإن لم تستقر مع زوجها الجديد فطلّقها بشروط الطلاق السُّنّي -الذي ذكرناه وليس بما يفعله الناس اليوم من زواج المحلّل تحايلاً على شرع الله واعتداءً على حدوده- وأراد زوجها الأول أن يتزوجها ويعود إليها، فهو خاطبٌ من الخطاب لها أن تتزوجه ولها أن تتزوج سواه، ولا مانع ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢٣٠].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣١].

يعود السياق ليؤكّد بعض ما تقدّم من أن المرأة المطلقة إذا قاربت انقضاء عدتها فعلى زوجها أن يمسكها بمعروف أو يسرحها بمعروف، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣١] هذا تحذيرٌ شديد من إمساكها وعدم تمكينها من الفكاك من

عقدها معه، فإمساكها ضراراً -يعني بقصد الإضرار بها- يُعد اعتداء، والله لا يسمح بالعدوان وهو -جل شأنه- خصيم المعتدين، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣١] فيمسك زوجه بغرض الضرار، ويرفض التسريح بمعروف ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣١] لأن الله سيحاسبه على ذلك، حتى لو أَفْلت من قوانين الأرض ومحاكمها، فإنه لن يفلت من عدالة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١] هذا تذكير من الله سبحانه بنعمه علينا، ومن أبرز هذ النِّعم ما أنزل علينا من الكتاب والحكمة يعظنا به، ويعلمنا لتستقيم حياتنا، فنحيا حياة طيبة، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٣١] التقوى ينبغي أن تكون حاضرة على الدوام في ذهن المؤمن وعقله، فهي عاصمته وهي الحافز الأمين له من أي انحراف، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٣١] لا تخفى عليه خافية ولا يستطيع إنسان أن يكتم عنه في صدره أو قلبه شيئاً.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وإذا طُلِّقت المرأة وبلغت أجلها وعدتها فلا مانع من أن تعود إلى زوجها بعقدٍ ومهر جديد تكفّلت ببيانه كتب الفروع وتفسير آيات الأحكام. وهذا خطاب لأولياء المرأة الذين يغضبون لها غضباً قد لا يحسب حساباً لمشاعرها ولبعض ذكرياتها الطيبة مع زوجها، فيمنعونها من الرجوع إليه، وذلك هو العَضْل، لذا يأمر الله هؤلاء الأولياء أن لا يمنعوا المرأة الراغبة في العود إلى زوجها -بعد الطلاق وبلوغ الأجل- إذا ما أرادت ذلك، فهي أعلم وأعرف بمشاعرها وما يصلح لها وما لا يصلح، وما دام الزوجان قد تراضيا بينهما بالمعروف فليس للأولياء التدخُّل بالعَضْل وغيره، ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة: ٢٣٢] والذي يستجيب له ويقف عنده، من أعطاه الله الإيمان بالله واليوم الآخر، وذلك هو الأزكى والأطهر لقلوب الزوجين، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ [البقرة: ٢٣٢] تقلُّبات القلوب ومشاعر النفوس وآثارها في كل من الزوجين، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢٣٢] شيئاً.

متعة الطلاق

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] إن الطلاق مهما كانت قسوته، ومهما كانت آثاره، فإنّ المتضرر الأكبر منه هم الأولاد -خاصةً إذا كانوا صغاراً-، فما بالك بأطفال رُضّع يجدون أنفسهم فجأة بعيداً عن المحضن الدافئ الذي يظلل عليهم فيه أبٌ رؤوف وأم رؤوم، يتسابقان في الاهتمام والرعاية لأولئك الأطفال، وإعطائهم الاهتمام اللازم ليلاً ونهاراً دون تبرمٍ أو تذمُّر. هنا يتدخل الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لحماية هذه البراعم الطرية الضعيفة الناشئة، وهي أحوج ما تكون لتلك الرحمة والرأفة، فكأنّه ينبّه الوالدين: أما وقد صار ائتلافكما وعيشكما المشترك جُزءاً من الماضي، فإياكم أن تنسوا هذه البراعم الصغيرة التي إن أُهمِلت وحدث لها مكروه في النفس أو الجسم فلن يُفلت أيٌّ منكما من المسؤولية أمام الله، وهنا تأتي قضية الرضاع ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ولقد ثبت علميّاً حاجة الأطفال الملحة -لتنمو مشاعرهم بشكلٍ طبيعي وإيجابي- إلىٰ الرضاع من صدر الأم مباشرةً، فهي إِذْ تُلقمه ثديها تلقمه -مع الثدي- الحب والحنان والعاطفة والمشاعر، وما أروع منظر طفلٍ يلتقم ثدي أمه فيمتصُّ الرحيق منه، وهو ينظر إليها بعينين يملؤهما شعورٌ لا تقرأ فيه إلا الحب والثقة والطمأنينة والأمن والاعتراف بالجميل والتطلع إلىٰ مستقبل آمن.

فالله -تبارك وتعالىٰ- يأمر من أصبح الطلاق بالنسبة لهم أمراً لا بدّ منه ألا ينسيا أو ينسىٰ أيٌّ منهما هذه البراعم، فيأمر الوالدات بألا يؤثر الطلاق فيهنّ، فالمرأة أحياناً - إذا أساء لها زوجها وانتهت العشرة بينهما إلىٰ الانفصال - قد تبغض أي شيءٍ يُذكّرها به، وقد تنظر في هذا الرضيع -وهو يمتص لبنها- ذلك الوالد القاسي الذي امتص شبابها ثم تخلّىٰ عنها وطلّقها، فتجد نوعاً من النفور من إرضاع هذا الطفل -وإن كان جُزءاً منها- لأنه يذكّرها بأبيه، خاصةً إذا كان ذكراً وذا شبه به، فيذكرها الله تعالىٰ بأن هذا الطفل البريء لا ذنب له فيما حدث بينها وبين والده، وأنه يستحق الرضاع من ثديها لمدة عامين لينمو نموّاً طبيعيّاً، ويُشبع عاطفيّاً إذا أرادت أن تتم الرضاعة، وهنا

يأتي التعبير القرآني ليستدرَّ شفقة الزوج وعواطفه ومشاعره فيقول: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فكأن هذا المولود الرضيع خاصٌّ به، عليه أن يُعنىٰ به وبوالدته، فهو جزءٌ منه ومنها، وهو حبلٌ واصل بين الاثنين مدىٰ الحياة، فإذا كانا قد عرفا أن يضعا حدّاً ونهاية لنكاحهما بالطلاق، فإنّ من المستحيل أن يضعا حدّاً لهذا الرابط الذي لا ينقطع بينهما، ألا وهو هذا المولود الذي يحمل دماء الاثنين، والذي تكوّن من جسديهما واختلطت فيه دماؤهما، فهو يُذكّر بأحلىٰ الأيام التي ارتبطا فيها.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

فعلىٰ الأب المولود له رزقُ هذه الأم التي سيُنهكها الرضاع؛ فالرضيع يشاركها غذاءها، فهما شريكان في كل ما يصل إلىٰ جسمها، ويغذي شرايينها، فعليه أن يكفيها هَمَّ الأرزاق، وهمّ احتياجها من الثياب والسكن وما إلىٰ ذلك. وهي مُتفضِّلة بأن تُرضع هذا المولود بنفسها، ولولا ذلك لألقت بعبئه علىٰ الوالد أو المولود له، وقالت: قد قمتُ بما ينبغي فحملته وَهْناً علىٰ وَهْن، وها قد ولدتُه سليماً مُعافَىٰ، وأنت أبوه وقد طلقتني فابحث له عمّن يرضعه ويقوم بشأنه، فإن فَعَلَتْ ذلك -ومن حقها شرعاً أن تفعل- لكان العبء علىٰ المولود له مضاعفاً أضعافاً كثيرة، وربما لا يجد من تتقبل الرضاع، وإذا وجد من تُرضع فمن الذي سيعتني به في الليل وفي النهار ويقوم بشأنه..؟ إن الأمر ليس سهلاً، فهي متفضلة إذ تتولىٰ ولدها وولده، وعليه أن يقدّر لها ذلك ويشعرها بشكره وامتنانه ولا يبتزها لمعرفته بمشاعرها وعواطفها تجاه من ولدت، فذلك لا يُقبل بأي حال من الأحوال، ولو وجد الإنسان المولود له مرضعةً ومربيةً وخادمة فمن الذي سيضمن له أن هؤلاء سوف يقدّمون له من العواطف والمشاعر ما هو بحاجةٍ إليه؟

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣] هذا نَهْي أن يتحول الطفل إلىٰ مضربٍ أو أداة إضرار يضرب كلٌّ منهما الآخر به أو يسبّب له الضرر، فذلك مما لا يليق باثنين استظلا ذات يوم بظل رباط الزوجية. والله -تبارك وتعالىٰ- يعلم أن للبشر طاقات جسمية وعاطفية لا يستطيعون تجاوزها فلا يكلّف الله أحداً من

الزوجين إلا ما يطيق، وما هو بوسعه سواء في مجال الإنفاق من المولود له على الولد وأمه، أو في مجال الإرضاع بالنسبة للأم التي لا بدّ من تقدير ظروفها.

﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وفي سائر الأحوال لا بدّ أن يكون التراضي بين الأب والأم أساس العلاقة في كل ما يتعلق بهذا الرضيع، لئلا يتأثر في نشأته بأية مؤثرات سلبية قد تنعكس على مستقبل حياته، وقد تسيء إليه، فإذا رأى الأبوان أن مصلحة الرضيع في أن تُرضع له أخرى، فينبغي أن يشتركا في اتخاذ هذا القرار وأن يكون قراراً قد اتُخذ بناءً على توافق بينهما واتفاق على ذلك، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣٣] وتُختم الآية بأمر صارم بالتقوى، فالأمر بالتقوى يتأكّد وينبغي لكل من الأبوين، أن يعلم أن الله ناظرٌ إليه لينظر كيف يصنع وكيف يعمل وهو لا تخفى عليه خافية، فيا له من حضورٍ إلهيّ تكاد السموات يتفطرن منه، ليؤكّد -جل شأنه- على هذين الوالدين أهمية رعاية هذا الرضيع الضعيف، علماً بأنّ رضاع الإنسان أطول بكثيرٍ من رضاع أي حيوان أو حي آخر مما يقتضي أن يحتمل كل واحد من الأبوين الطرف الآخر، ويعلم أنَّ ثمرة هذه العلاقة -وهو هذا الرضيع- ثمرةٌ مستمرة طويلة المدى، فلا يُسيء أيٌّ منهما إلى الآخر، ويحافظان على جانبٍ من العلاقة يسمح لهما بهذا الاشتراك والتعاون على تنشئة ذلك الطفل ورعايته حتى يكبر ويبلغ ويُستأنس منه الرشد.

وما دمنا نتحدث عن الرضاع فإنّ الله -تبارك وتعالى- كما جعل الرضاع وسيلةً لحماية الرضيع ومنحه مستلزمات الحياة جعل هذا الرضاع بمثابة النسب وبمثابة الصهر، ولذلك حينما ذكر الله المحرمات من النساء ذكر المرضعة بوصفها أُمّاً من الرضاع فقال -جل شأنه-: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ [النساء: ٢٣]. وذلك يعني أنّ من رضع من امرأةٍ فقد صار ابناً لها وصارت ابنتها أختاً له، فمَن أُرضع في أُسرة فستصبح له أسرتان: أسرة من الرضاع، وأسرة من النَّسَب، وفي إطار الحقوق المعنوية تستحق أسرة الرضاع من الصلة والمشاعر والتقدير مثل ما تستحقه أسرة النسب، وإن لم يرتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ذلك ميراثاً أو نفقات، وقد

كان رسول الله ﷺ وفيّاً لمرضعته وذويها، كريماً معهم يتفقّدهم ويبرّهم ويصلهم، ويُحرِّم من الرضاع ما يُحرِّمُ من النسب.

وقد اختلف الفقهاء في مقادير الرضاع الذي تترتب عليه أحكام الرضاع، ومثل هذه الأمور ينبغي أن تُلاحظ فيها أعراف الناس، فإذا جرىٰ العُرف أنّ مَن رضع خمس رضعات أو عشراً أو أسبوعاً أو شهراً أو سنة فينبغي أن يُلاحظ ذلك، وأن يؤخذ بنظر الاعتبار ما يُعدّ رضاعاً وما يستتبعه من التحريم، وهناك فقهاء رأوا أنّ الرضاع المحرّم يتم بعددٍ معيّن ورد في بعض الروايات،[1] وبعضهم عَدّ الرضاع المحرِّم هو ما أنبت لحماً وأنشز عظماً،[2] أي كان غذاءً للطفل كافياً أن يحُدث ذلك. وقد يكون ما ذكرنا من ملاحظة أعراف الأمم والشعوب في ذلك وجهٌ أقرب إلىٰ الفِقه من بعض التحديدات التحكُّمية.

وهناك جانبٌ يجدر بنا أن نشير إليه ونحن في معرض الحديث عن الرضاع، وهو استعمال البعض له كنوعٍ من النكاية، فقد يكون هناك أخوة فيهم الفقير وفيهم الغني، فتحرص نساء الأخوة الأغنياء علىٰ تحريم بناتهن علىٰ أبناء الأخوة الفقراء، فيُرضعْنهم لا بقصد الرضاع، ولا لوجود حاجةٍ إليه، بل ليمنعوا الزواج بين بناتهن الأغنياء وبين أبناء عمومتهن الفقراء، وهذا نوعٌ من ضعف الإيمان بالله تعالىٰ وإساءة استعمال لهذا الموضوع، فمَن يُدري أولئك النسوة أن الفقير سيستمر فقيراً حتىٰ ذلك الحين؟! فقد يغنيه الله من فضله، ومن يستطيع القول أنّ الغني سيستمر غنيّاً حتىٰ

---

(١) منها قوله ﷺ: "لاَ تُحَرِّمُ الْمَصَّةُ وَالْمَصَّتَانِ." انظر:

- مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الرضاع، بَاب في الْمَصَّةِ وَالْمَصَّتَانِ، حديث رقم (١٤٥٠)، ص٥٧٧.

(٢) عن أبي مُوسَىٰ الهلالي عن أبيه "أَنَّ رَجُلًا كان في سَفَرٍ فَوَلَدَتِ امْرَأَتُهُ، فَاحْتُبِسَ لَبَنُهَا، فَجَعَلَ يَمُصُّهُ وَيَمُجُّهُ فَدَخَلَ حَلْقَهُ، فَأَتَىٰ أَبَا مُوسَىٰ، فقال: حَرُمَتْ عَلَيْكَ، قال: فَأَتَىٰ ابن مَسْعُودٍ فَسَأَلَهُ، فقال: قال رسول الله ﷺ: "لاَ يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعِ الا ما أَنْبَتَ اللَّحْمَ وَأَنْشَزَ الْعَظْمَ." قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح بشواهده، وهذا إسناد ضعيف للانقطاع بين والد أبي موسىٰ الهلالي وعبدالله بن مسعود. انظر:

- ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، تتمة مسند عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ج٧، حديث رقم (٤١١٤)، ص١٨٥.

ذلك الحين؟! فهذه الأمور كلها بيد الله -تبارك وتعالىٰ- لا أحد يستطيع أن يقرّر ما يحدث في المستقبل إلا الله، فليتقوا الله ولا يُسيئوا استعمال ما جاء في شريعته طلباً للنكاية وحدها.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ [البقرة: ٢٣٤].

بعد ما ذكر الله -تبارك وتعالىٰ- ما يترتب علىٰ الفراق الاختياري بين الزوجين بالطلاق، ذكر ما يترتب علىٰ ذلك الافتراق القدري القسري الذي لا يكون باختيار أيّ منهما، وذلك هو الافتراق بالوفاة. فإذا تُوفّي الرجل وترك خلفه زوجةً فعليها العِدّة، والعِدّة أمرٌ فيه استبراء للرحم من آثار الزوج الراحل وتأكدٌ من أنه لم يعلق برحم المرأة منه شيء، فجعل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لها هذه العدة أربعة أشهرٍ وعشراً. وبراءة الرحم يمكن أن تتحقق بثلاثة أشهر فحسب، فهي كافيةٌ لأن تحيض المرأة وتطهر ثلاث مرات، وهي القروء الثلاثة علىٰ كلا التفسيرين، أما الأربعون يوماً الأخرىٰ فهي أيام الحزن الشديد الذي يعقب الوفاة ويغلب مَن توفّي عنها زوجها علىٰ نفسها، ويُسلمها إلىٰ نوعٍ من الحزن العميق والانشغال بذكريات الزوج الراحل وما إلىٰ ذلك، فهي أيام ليست محلاً لإجراءاتٍ وأحكام بقدر ما هي محلٌّ للحزن ومتطلباته، ولذلك حُدّدت بهذه الفترة الزمنية والله أعلم. ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ [البقرة: ٢٣٤] فإذا انتهت عدتهن فلا جناح ولا إثم ولا مسؤولية تترتب عليها أو علىٰ أوليائها وذويها إذا ما بدأت تعود إلىٰ حياتها العادية وتمارس مثل ما كانت تمارسه قبل وفاة زوجها المتوفّىٰ. ولكن هنا سنجد شيئاً إضافيّاً، ألا وهو التعرُّض لما قد يؤدي إلىٰ استبدال زوج مكان الزوج الراحل، كأن تأخذ شيئاً من الزينة داخل بيتها مثلاً، هنا لا ينبغي أن تُعيَّر بذلك أو يُقال إنها نسيت أو تناست أو تجاهلت الراحل قبل أن تَبلىٰ أكفانه كما هي عادة الناس في انتقاد المتوفّىٰ عنها زوجها ووصفها بقلة الوفاء أو عدمه أو ما إلىٰ ذلك، وعلىٰ أوليائها ألا يشعروا بأن فعلها ذاك شأنٌ يتجاوز الطبيعة الإنسانية، فهو أمرٌ لا جناح عليهم فيه ما دام في حدودٍ لا تتجاوز الشرع ولا تخدش الحياء.

حول الخِطْبة

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

هذه الآية الكريمة مناسبة لما قبلها، حيث إن التي سبقتها تحدثت عن المعتدّة المنتهي عِدّتها وأصحبت مهيئةً لاستئناف حياة جديدة مع شريكٍ جديد، وقد أشعرت -بتجاوزها لأزمتها السابقة ومظاهر الحزن التي أعقبتها- بأنها قد صارت مهيئةً لاستئناف حياةٍ جديدة، فماذا على الراغبين للزواج بمثل هذه المرأة أن يفعلوا؟! أما أثناء العِدّة فلا ينبغي أن يصرِّح لهؤلاء النسوة بالخطبة الصريحة والرغبة الظاهر فيهن، بل يُكتفى بالتعريض وبثّ الأمل في نفوسهنّ بأنه ما زلن في وضع يجعلهنّ موضع رغبة الرجال واهتمامهم، كأن يقول الرجل للمرأة المعتدة: "بمثلك تُبنى البيوت وتعمر"، "أنت موضع ثقة، وعلى مثلك يعتمد العقلاء" أو "سعيدٌ البيت الذي تشاركين في بنائه" ولكن لا يقال لها صراحة إنني أنتظر بفارغ الصبر فراغك من عِدّتك لنتزوج، فذلك قد يجرحها، وإذا أحسّ أحدٌ بذلك فقد يسيء تفسير ذلك أو فهمه بل يُكتفى بالمعاريض.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥] المواعدة بالسِّر -وهو للأسف أمرٌ شائع في زماننا- فهو أن يتفق رجلٌ وامرأة سرّاً على الزواج بعد انتهاء العِدّة، أو يكون ذلك بالنسبة للخالية أيضاً، فهذه المواعدة السّرية غير مقبولة، وهي مظنة الاقتراب من الزنا أو الانحراف، ومعظم الأخطاء التي تقع فيها الشابات والشباب في أيامنا هذه تقع بعد قيام الثقة بين الاثنين، ثم الدخول في مواعدة سرية أو وعد بالنكاح، قد لا يتحقق في كثيرٍ من الأحيان وقد يتحقق في القليل منها، هذا النوع من المواعدة ينهانا الله عنه. وذلك -والله أعلم- ليس خاصاً بالمتوفى عنها زوجها فقط بل هو عامٌ في المواعدة التي لا يضمن الطرفان قدرتهما على جعلها واقعاً معيشاً.

﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢٣٥] أما عقدة النكاح فلا يجوز أن تُبرم إلا بعد انتهاء العدة تماماً وبلوغ الكتاب أجله المقرر لكل امرأةٍ بحسب وضعها،

والذي هو على الجملة حوالي ثلاثة أشهر فيما عدا المتوفَّىٰ عنها زوجها. وللفقهاء كلام طويلٌ في مَن عقد على المعتدة قبل انتهاء عدتها، وما إذا كان ذلك سوف يحرّمها عليه تحريماً مؤبَّداً أو مؤقَّتاً، فليراجع في مواضعه من كتب الفقهاء.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦] هذه الآية الكريمة جاءت لبيان ما عُرف في كتب الأحكام بـمتعة الطلاق، وذلك أن يحدث الفراق بعد العقد وقبل الدخول، فإن كان المهر لم يُسمَّ أو يحدد -وهي الحالة التي ذكرتها الآية- فعلى الزوج المطلق دفع متعة مثلها من أخواتها أو بنات عائلتها أو من هم في مِثل وضعها ومستواها الأسري مادياً واجتماعياً وغيره، ويُتَّبع في تقديرها قدرات الزوج المالية ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، فالموسر يُنفق من سعته، ويقدّم متعة طلاقٍ لائقة به بقطع النظر عن المرأة وما إذا كانت غنية أو فقيرة، وعلى المقتر قدره، وهذا المتاع فيه شيءٌ من التعويض وإشغال لها عن التفكير بالإهانة التي قد تشعر بها، أو الجرح الذي ترتب على تطليقها بهذه الطريقة، عِلماً بأن طلاق المرأة بهذه الطريقة - في نحو مجتمعاتنا هذه - قد يحرمها فرصة الحصول على زوجٍ آخر لفترةٍ طويلة جدّاً، لأن الناس سوف يصوغون كثيراً من الشائعات والأسباب المتخيلة عن ذلك الطلاق غير المتوقّع. ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦] وسماه الله حقّاً على المحسنين كي لا يتهاون الناس به إذا وجدوا أن الله لم يضعه في إطار المقدّرات المحددة.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢٣٧] هذه هي الحالة الثانية للمطلقة قبل الدخول، وهي حالة تطليقها وقد حُدد وسُمِّي لها مهرها، حيث نص على أنها في هذه الحالة تستحق نصف المهر المسمّى، ولا يسقط هذا النصف ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي الزوجات فيتركنه، ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي الوليّ، وقيل

هو الزوج، فعلى الأول يكون المعنى: إلا أن يُسقط المطلقات ما وجب لهن من نصف الصداق إن كُنّ مالكات لأنفسهن أو يسقط الولي إن لم يكن كذلك، وذلك الأب في ابنته البكر أو السيد في أَمَتِه، وعلى الثاني يكون المعنى: إلا أن يعفو المطلقات، أو يعفو الزوج عن نصف الصداق فيجعل المهر كله لها.

﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] الخطاب للأزواج، والزوجات على سبيل التغليب، ذكره الزجاج، أي عفو الزوج بإعطاء كل المهر خير له، وعفو المرأة بإسقاطه كله خير لها أو للأزواج ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ﴾ [البقرة: ٢٣٧] التفضيل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].(١)

وبعد تلك الجولة الطويلة في أحكام النكاح والطلاق والمهور والنفقات والرضاع والعدد وما إليها تأتي الآية الكريمة بأمر مُشدّد جازم بوجوب المحافظة على الصلوات ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وتخصيص الصلاة الوُسطى والأمر بالقيام لله قانتين وكأنّ ذلك استراحة ولجوء إلى ذكر الله تعالى بعد تلك الجولة الواسعة مع الأحكام، فتلك الأحكام كلها في حاجةٍ إلى الصبر والصلاة والقنوت لله تعالى والحضور بين يديه، وهذا لا يتم إلا بالمحافظة على الصلوات وبخاصةٍ الصلاة الوسطى.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٩]

ينبّه -جل شأنه- بعد أن فرض على المؤمنين القتال إلى حالة الخوف ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] فكأن سائلاً يسأل: وهل يُعدّ من التفريط في الصلاة أو التضييع لها أن أصلي راجلاً أو راكباً في حالات الخوف؟ فيجيب الله -جل شأنه- هؤلاء بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٩] فصلّوا كما تستطيعون ﴿فَرِجَالًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] أي مُشاة ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] جمع راكب، أي كيف أمكن مستقبلي القِبْلة

(١) النسفي، **تفسير النسفي مدارك التأويل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج١، ص١٩٩.

أو غيرها، ويومئ بالركوع والسجود ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٣٩] وتجاوزتم الخوف ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ [البقرة: ٢٣٩] ذكره والخشوع بين يديه، وكما علّمكم ﴿مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وقد سبقها قوله -جل شأنه-: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: ١٥١] وكذلك ما أعقب آيات الحج من قوله -جل شأنه- ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠] فالذِّكر جنة المؤمن وحصنه الحصين، يلجأ إليه ليعينه الله بذكره وشكره وحسن عبادته علىٰ تحمُّل أعباء الوفاء بالميثاق والقيام بحق الاستخلاف وأداء الأمانة والنجاح في اختبار الجزاء. فذِكرُ الله -تبارك وتعالىٰ- شكرٌ وصبرٌ وفكرٌ وتعقُّل.

ثم ينتقل السياق إلىٰ خاتمة آيات أحكام النكاح، وهي خاتمةٌ معجزة كسائر آيات الكتاب الحكيم ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٤٠] أي يقتربون من حالة الاحتضار ويشعرون بدنو الأجل ﴿وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾ [البقرة: ٢٤٠] ويعرفون أنهم سيتركون أزواجاً ضعافاً في حاجةٍ إلىٰ الرعاية ﴿وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ﴾ [البقرة: ٢٤٠] أَمرٌ لهؤلاء بأن يُوصوا أولادهم وعشيرتهم بالزوجة أو الأزواج التي سيتركونها، بأن يُتركن في بيوتهنّ -بيوت الزوجية- يستمتعن بالإقامة فيها بعد رحيل الزوج عنها حولاً أو سنة كاملة، وليس لأحدٍ من الورثة أن يُخرجهنّ من بيت الزوجية ﴿فَإِنۡ خَرَجۡنَ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، فإذا آثرن أن يخرجن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ﴾ [البقرة: ٢٤٠] فلا إثم علىٰ ذوي الزوج آنذاك في خروجهن، لكنّ إخراجهنّ بطلبٍ من أهل الأزواج غير جائز ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٤٠﴾ [البقرة: ٢٤٠].

وفي نهاية كلامنا حول هذه الآية الكريمة نشير إلىٰ أنه قد ادعىٰ قوم أنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ

خَبِيرٌ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤]. ظنّاً منهم أنَّ الآيتين قد وردتا على مورد واحد ألا وهو فترة العِدّة التي تعتدها المتوفّى عنها زوجها. والحق أنَّ مورد الآيتين مختلف تماماً، إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] جاء مُراعياً لعادات الأمم وأعرافها، فللأمم عادات مختلفة في التعبير عن تكريم الأحياء لموتاهم، واحترامهم لذكراهم، وإعطاء الانطباعات الإيجابيّة بأنّهم كانوا في موقع الحب والتقدير لدى أهلهم وذويهم، وأنَّ هذا المتوفّى له ذكرى طيبِّة واحترام وقدر عند المتصلين به، والخواص من المنتمين لأسرته.

واختلفت تقاليد الأمم في التعبير عن هذه المشاعر ولا تزال مختلفة، وقد راعى القرآن الكريم هذه المشاعر الإنسانيّة أحسن مراعاة وأجملها، فمنزل الرجل الذي شهد حياته مع زوجته وبنيه يبقى وكأنّه لم يحدث تغييرٌ بهذه الوفاة، تخفيفاً على المنتمين للأسرة - كلِّها - وفي مقدِّمتهم الزوجة، فامرأته قائمة فيه، وأبناؤه وذووه يترددون عليه، وذكراه بينهم، لكي يأخذ كل منهم فرصته الكافية للصبر والسُّلوّ، وتجاوز الإحساس بالموت والفراق، والإسلام جاء وللعرب والشعوب الأميَّة من حولهم، والشعوب الكتابية تقاليدها وعاداتها في هذا المجال، ولا شك أنَّ زوج المرأة منها (لَبِمَكَان) كما عبّر رسول الله ﷺ،[1] وهناك براءة الرحم من ماء المتوفىّ وهي التي تكفيها القروء الثلاثة، وهناك فترة الإحساس النفسي الثَّقيل الشديد على المرأة وتكفيها أربعة أشهر وعشر، وهناك فترة إعادة ترتيب الحياة بالنسبة لها ولأبنائه بعد هذه التغيُّرات الحادّة الماديَّة منها والمعنويَّة. وفترة إعادة ترتيب الحياة لا يمكن أن تتم

---

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحاق قال: لما انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة من أُحد، لقيته حمنة بنت جحش، فنعى لها الناسُ أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له، ثم نُعي لها خالُها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له، ثم نُعي لها زوجُها مصعب بن عمير فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: "إنَّ زوجَ المرأة منها لبمكان،" لما رأى من صبرها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها، انظر:

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين الخُسْرَوْجِردي (توفي: ٤٥٨هـ). **دلائل النبوة**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ج١، ص٢٢.

بشكل مُلائم في أقلّ من حول، سواء أكان الناس ينتمون إلىٰ مجتمع زراعيّ تتعلق حياته بالمواسم، أو مجتمع رعويّ تتعلَّق حياته بالماء والكلأ، أو مجتمع تجاريّ ترتبط فيه الحسابات بحولان الحول، وكذلك الزكاة وحساباتها، وإذا كان البيت مُستأجَراً فتغلب أن تكون الإجارة مرتبطة بالحول، فالحول يُعدّ بمثابة الوحدة الصغرىٰ لإعادة تنظيم شؤون الناس وحياتهم، خاصة بعد مصيبة كبيرة مثل مصيبة الموت كما سماها القرآن الكريم، [١] بأن تُعطىٰ الزوجة المفجوعة في زوجها فرصة عام لتعيد ترتيب أمورها وأمور صغارها، ولتعوّد نفسها علىٰ تحمُّل المسئوليَّات -منفردة- بعد اجتياز الصدمة العاطفيَّة وبراءة الرحم وما إلىٰ ذلك، وذلك أمر معهود في أحكام القرآن الكريم القائمة علىٰ التخفيف والرحمة ومراعاة مختلف المشاعر والقضايا الإنسانيَّة وفي مقدّمتها الأسرة التي هي حجر الزاوية في بناء المجتمع. وعنها تتفرع شبكة واسعة من العلاقات الاجتماعيَّة التي يحرص الإسلام علىٰ إنمائها والمحافظة عليها.

فالتربُّص بالنفس لاستبراء الرحم وللتهيُّؤ لاستئناف دورة حياتيَّة جديدة قد تكون الأربعة أشهر وعشر ليالٍ حدّاً أدنىٰ كافياً لذلك، وقد يكون كافياً لتسوية الجانب النفسيّ والجسميّ للمرأة، وأما الحول فهو حد للتسويات المختلفة خاصّة الماديَّة منها، المتعلقة بإعادة ترتيب الحياة. وحين نلتفت إلىٰ بعض العلوم المعاصرة خاصّة علوم النفس والاستفتاءات التي يقوم بها الباحثون بين المتوفَّىٰ عنهن أزواجهن، وملاحظة مختلف الجوانب العاطفيَّة نجد توضيحاً لكثير من المعاني التي ربما لم يلاحظها المفسِّرون، لأنَّ أعينهم كانت مشدودة إلىٰ الحُكم الفقهيّ الجزئيّ التكليفيّ، لكنَّهم لو لاحظوا الأمور الأخرىٰ لحكموا بأحكام الآيتين، وأنَّه لا نسخ بينهما، فكل منهما اتجهت جهة، فالآية الأولىٰ متجهة نحو الزوجة في بدنها ونفسها ورحمها وخروجها من تأثيرات مصيبة الموت، أما آية الحول فهي وصية من الله - تبارك وتعالىٰ - للأزواج

---

(١) في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾ [المائدة: ١٠٦].

وللأسرة والورثة وللأمة في أن تُعطي الزوجة المتوفَّىٰ عنها زوجها فرصة إعادة ترتيب حياتها المادِّيَّة التي صار لها فيها شركاء آخرون هم بقية الورثة، فهي في حاجة إلىٰ تلك الفرصة بقطع النظر عن طبائع العلاقات بين أبناء المجتمع، وعليه فليس هناك تعارض أو تناقض أو تصادم بين الآيتين يستدعي القول بتخريجها علىٰ قواعد النسخ نفسها -عند القائلين بها- ليُنسخ المتقدم بالمتأخر، وللدخول في تلك التأويلات المتعسِّفة، ما دام من الممكن فهم الآيتين اللتين اختلف موضوع كل منهما عن موضوع الأخرىٰ وانتفىٰ التعارض بينهما.

وأما تلك الروايات التي رويت بناءً علىٰ هيمنة أفكار النسخ، والنظر إليه علىٰ أنَّه من المسلَّمات، فإنَّها لا تقف أمام هيمنة القرآن الكريم علىٰ ما عداه، ولا تصلح لنسخ حاكميته لجعل غيره حاكماً عليه.(١)

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة: ٢٤١] وفي هذه الآية الكريمة كأن الله -تعالىٰ- يعلم أن المطلِّق قد لا تجود نفسه بتقديم المتعة للمطلقة لأي سبب من الأسباب، فيختم التشريعات بالتوكيد علىٰ المتعة، بعد أن أكّد علىٰ عدم جواز إخراج المتوفَّىٰ عنها زوجها من بيتها، وضرورة إبقائها فيه لمدة عام كامل لتكون مهيّئةً بعده للانتقال إلىٰ بيتٍ آخر. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢] وبعد أن فرغ من بيان سائر التشريعات المهمّة التي عليها يتوقف بناء الأسرة، يبيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه قد هدانا لآياته وبيّنها لنا ليُنعم علينا بعقولٍ راجحة قادرة علىٰ حسن التعامُل مع هذه القضايا الشائكة التي تختلط فيها العواطف والمشاعر والأعراف والتقاليد، وتشمل أطرافاً عديدة من الناس، فجملة هذه التشريعات ليست من التكاليف الفردية أو التشريعات الخاصة، بل هي تشريعاتٌ لأناس قرروا التشارك في حياةٍ مشتركة وإقامة مؤسسةٍ يتعاون في إقامتها أكثر من طرف، ويترتب عليها سكنٌ ونسبٌ وصهرٌ وعلاقاتٌ، وعليها يتوقف دوام النوع الإنساني واستمراره.

(١) العلواني، **نحو موقف قرآني من النسخ**، مرجع سابق، ص٧٤.

النَّجم السابع والعشرون: أمة التخفيف والرحمة

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟
ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ
أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ
بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن
كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن
دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا
وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً
فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ
فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا
جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ
جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ
بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾
تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ

ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣-٢٥٥]

بعد تلك الجولة الواسعة في تشريعات عديدة للشريعة البديلة الناسخة لشريعة الإصر والأغلال، تأتي هذه الآية الكريمة لتعيدنا مرةً أخرىٰ إلىٰ المقارنة بين الأُمّتين: أمة الإسلام وأمة يهود؛ فأمة المسلمين أمة مُخرجة، بل هي خير أمة أُخرجت للناس نموذجاً ومثالاً ونشراً للإصلاح والعُمران علىٰ مستوىٰ الأرض كلها، تقابلها الأمة المدخَلة إلىٰ أرض محدودة محصورة ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١]، ذلك لتأخذ التجربة أبعادها الكاملة، وليدرك البشر الفروق الكبيرة بين عباد الرحمن وعباد الإنسان؛ فعباد الإنسان -الذين أُنقذوا من عبادة فرعون- أُعدّ كل شيءٍ لتصحيح التخريب والتدمير الذي أحدثه استعبادهم، مما جعل الأرض المقدسة تتحوّل إلىٰ مصحة كبيرة ومستشفىٰ قوميٍّ تجري فيه معالجة شعب بأكمله وأمة بتمامها بحاكمية إلهية وتصرفاتٍ غيبيَّة وأرض مقدّسة، وشريعة إصرٍ وأغلال وقيودٍ وإعادة تربيَّة يتفاعل فيها الغيب والشهادة، والأمر والإرادة لتُعطِي ثمارها. ومن الخراب المتبقِّي في وجدان تلك الأمة اليهودية إعلاء الأسباب ونسيان المسبِّب، فالأسباب عندهم كثيراً ما تُؤدِّي إلىٰ الغفلة عن خالقها وخالق نتائجها، ولذلك ففيما مرّ من الآيات من سورة البقرة من ٣٩ إلىٰ ١٤١ أُحصيت أخطاء كثيرة لتلك الأمة تتعلق بالتصرُّفات، أما في هذه الآية فهناك خطيئةٌ كبرىٰ تتعلّق بالاعتقاد؛ إذ يتجاوز عَبْد الإنسان وعَبْد الأسباب خالق الكون والحياة والإنسان ومُوجد الأسباب ومُرتِّب المسببات عليها، ليُعلىٰ شأن السبب، ويعتدّ به ويَنْسَىٰ خالقه ومُوجِده، ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣] فهؤلاء قومٌ من بني إسرائيل

خرجوا من ديارهم وليس من عادتهم الخروج ولا هو من خصائص أُمّتهم، لكنَّ إيمانهم بالأسباب وارتباطهم بها جعلهم يشعرون -لسبب لم يبيّنه القرآن- أن بقاءهم حيث هم قد يؤدي إلىٰ هلاكٍ جماعيّ وموتٍ شامل لن تحميهم منه كثرتهم، فخرجوا وهم أُلوف حذر الوقوع في موتٍ رأوا له أسباباً قائمة، دون أن يلتفتوا إلىٰ أنّ الأسباب إنما هي أسباب لها خالق ومُدبِّر هو الذي يضع فيها الفاعلية، والتي دونها لن تُؤتي نتائجها ولن تؤدّي إلىٰ التأثير، فعيشهم الطويل في إطار الغيب البعيد عن ملاحظة الأسباب لم يستطع أن يضع الأسباب في حجمها الحقيقيّ في أذهانهم وعقولهم وقلوبهم، فبقيت قيم الأسباب شاغلةً صارفةً عن خَلْق الخالق وإبداع المبدع -جل شأنه- ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] لـمّا خرجوا وتصوروا أنهم قد بعدوا عن أسباب الموت وصاروا في منأىٰ عنه. ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: ٢٤٣] فخلق فيهم الموت وخلق فيهم الحياة لكي يحملهم علىٰ الإيمان بأنّه الخالق لكلٍّ منهما -الموت والحياة- وأنّ الأسباب لا تكون أسباباً إلا إذا أراد لها الخالق البارئ المصوّر المبدع -جل شأنه- ذلك. وهكذا يُبدي الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ غيرته الشديدة علىٰ توحيده وإفراده بالألوهية والربوبية والصفات.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾ [البقرة: ٢٤٤] هذا أَمرٌ من الله للأُمّة بالقتال الذي كتبه علىٰ من سبق عليهم، فكأن قصة أولئك الملأ كانت مقدمةً لهذا الأمر الإلهي بالقتال الذي يُعدّ -عند ضعف الإيمان- سبباً للموت في ظاهره، حيث يغلب علىٰ الظن الإنسانيّ أن الخارج إليه لن يعود منه إلا قاتلاً أو مقتولاً، ولكن الإنسان المؤمن الموحِّد يوقن أن الميت إذ يموت -في مضجعه أو قتيلاً شهيداً- فإنّما يموت لأَجَله لا يتقدّم عنه ساعةً ولا يتأخَّر، وأن هذا الأجل حتمٌ لا تؤثّر فيه الأسباب، ولذلك سَخِر الله -تبارك وتعالىٰ- من ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ [آل عمران: ١٦٨] بقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران: ١٦٨] أي في أن القعود يُنجي منه.(١)

(١) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٥٣.

فما على المؤمن إلا أن يطيع الله تعالىٰ ويعلّق قلبه ويقينه به فهو خالق كل شيء، ومن ذلك نحن وما نعمل، وما الأسباب إلا خلقٌ من خلقه إن شاء أمضاها وإن شاء أوقفها، وإمضاؤه وإيقافه -كلٌّ في كتاب- خاضعٌ لحكمته ولعزته وقدرته المطلقة.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥] هذا تنبيه من الله تعالىٰ إلىٰ أهم متطلبات الجهاد -بعد عزم المجاهدين وإرادتهم وتصميمهم- وهو المال، فالقتال في حاجة إلىٰ سلاح ومُؤَن للجند الذين قد يقضون شهوراً وسنين بعيداً عن أسرهم فيحتاجون إلىٰ مَن يُنفق عليهم وينفق علىٰ أسرهم، وكان الناس قبل وضع الدواوين وفرض الخراج وتقسيم الزكوات وتوجيه أهل الصدقات، يعتمدون علىٰ التطوُّع والتبرُّع الذي يُقدّمه أصحاب الأموال والدثور لأولئك المقاتلين المجاهدين في سبيل الله، فَيَعد الله -تبارك وتعالىٰ- هؤلاء المتبرعين بأنه لا يضيع عليهم من أموالهم شيئاً، ذلك أنهم إنما يعاملون الله -سبحانه-، والله -تبارك وتعالىٰ- قد جعل ما ينفقونه في سبيله قرضاً منهم له!! ومَن أحسن من الله وفاءً ومن أكرم منه في رد الفضل إلىٰ أهله ومكافأتهم عليه. سيوفيه حسابه عاجلاً وآجلاً؛ عاجلاً بالبركة ودفع الأعداء ودرء المخاطر عن الأمة، وآجلاً بالجنة ونعيمها.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦]. قوله -جل شأنه-: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] في القرآن جَارٍ مَجرىٰ القول بأنّه قد وقع كذا[1] وعُلم واستفاض وصار من

(١) قال الراغب في تفسيره: رأيت: تتعدىٰ بنفسه دون الجار، لكن لما استعير قولهم: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ لمعنىٰ: ألم تنظر عُدّي تعديته، وفائدة استعارته أن النظر قد يتعدىٰ عن الرؤية، فإذا أريد الحث علىٰ نظر ناتج لا محالة للرؤية استعيرت له، وقلّ ما استعمل ذلك في غير التقرير، ولا يقال: رأيت إلىٰ كذا، وكما أن الرؤية ضربان، رؤية بصر، ورؤية بصيرة، كذا أيضاً النظر والإبصار. انظر:
- الراغب الأصفهاني، **تفسير الراغب الأصفهاني**، مرجع سابق، ج١، ص٤٩٩.

المعلومات المسلّمة الشائعة، فحين يقال للنبي ذلك فكأنها بمعنىٰ ألم تعلم، ألم تشاهد، ألم تسمع، ألم تطلع لجعل ذلك المذكور كأنّه أحد الأمور المعلومة المسلّمة المعروفة للجميع والله أعلم.

وهنا اقتضىٰ السياق أن يشير إلىٰ بني إسرائيل لأن ما سبق من الملأ الذين خرجوا يمكن أن يحدث لبني إسرائيل ويمكن أن يحدث لسواهم، أما هذه الأحداث التي ستأتي بها الآيات التالية فهي خاصة ببني إسرائيل، وهذا –والله أعلم– بعد أن ظنّ بنو إسرائيل أنّ الحاكمية الإلهية قد أصبحت عِبئاً عليهم، وشعروا بأنّ تكاليفها سوف تزول إذا ما حُكموا حاكمية بشرية عادية وتخلصوا من الحاكمية الإلهية، فطلبوا من أحد أنبيائهم أن يطلب من الله –جل شأنه– أن يتخلّىٰ عن حاكميته المباشرة لهم، وعن استخلاف وتمليك الأنبياء عليهم كاستخلاف داود وتمليك سليمان، لأن ذلك كله مرتبطٌ بالحالة الغيبيَّة التي ضاقوا ذرعاً بها وحاولوا التخلُّص منها ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] النبي لهم ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦] خبر عسىٰ، والاستفهام لتقرير التوقُّع بها ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦] بسببهم وقتلهم –وقد فعل بهم ذلك قوم جالوت– أي لا مانع لنا منه مع وجود مقتضيه. قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ﴾ [البقرة: ٢٤٦] عنه وجبنوا ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٤٦] وهم الذين عبروا النهر مع طالوت كما سيأتي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البقرة: ٢٤٦] فمجازيهم، وسأل النبي ربّه إرسال مَلِك فأجابه إلىٰ إرسال طالوت،[1] وأمره أن يخبرهم بأنه قد ملّك عليهم طالوتَ ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، ولم يوضّح لنا القرآن الكريم من هو طالوت ولم اختاره الله مِلكاً عليهم؟ لكنّه نبّه إلىٰ اعتراضهم ليشير إلىٰ ضعف جديتهم فيما يطلبون ويسألون، فما أن أُخبروا باختيار طالوت من الله –جل شأنه– ليكون ملكاً عليهم حتىٰ بادروا بالاعتراض ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ

(١) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٥٣.

سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧] يذكرون مقاييسهم المادية وأحقِّيتهم بالملك لمجرد النسب وسعة المال، ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧] سألتم ورجوتم فاستجاب الله واختار واصطفى لكم هذا الملك، ومؤهلاته للمُلك أفضل بكثير مما ذكرتم، فالملك يحتاج إلى العلم والقوة، وسعة المال ليس بالضرورة أن تكون في مال الملك نفسه، بل تكون في مِلك الأمة لأنها جزءٌ من طاقاتها وقدراتها، والثروات المشتركة بينها التي تمكّنها من مجابهة أعدائها والمحافظة على أبنائها وممتلكاتها.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨] ولتعلقهم الشديد بالتحوُّلات من الغيب إلى المحسوس فإنّ نبيهم قد أعطاهم علامة وهي ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٨] فكأنّ الآيات في الرسالة الموجّهة إلى بني إسرائيل لم تقتصر على الآيات الممنوحة للأنبياء والمرسلين، بل تجاوزتهم إلى آياتٍ للملوك كذلك، فجعل لهذا الملك آية -لا إشارة- تثبت أن طالوت من الملوك الأنبياء وليس ملكاً فحسب.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩] فلما خرج بهم طالوت قال لهم: إن الله مختبركم بنهر تمرُّون عليه في طريقكم فلا تشربوا منه إلا غَرْفَة، فمن شرب منه أكثر من ذلك فليس من جيشنا ولا من جمعنا لخروجه عن طاعة الله. ولن يصحبني إلا من لم يشرب منه أكثر من غرفة، فلم يصبروا على هذا الاختبار وشربوا منه كثيراً إلا جماعة قليلة، فاصطحب هذه القلة الصابرة واجتاز بها النهر، فلما ظهرت لهم كثرة عدد عدوهم(١)

(١) لجنة من علماء الأزهر، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٥٩.

أعادوا ما سبق أن سقطوا فيه وهم بقيادة موسىٰ وهارون، فكما قالوا له عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤]. قالوا لملكهم -لما برزوا لجالوت وجنوده-: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وكما وعظهم -في قصة موسىٰ- رجلان من الذين يخافون، وعظهم أيضاً هنا جماعة قليلة من المؤمنين ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩] وكان الله معهم لأنّهم صبروا.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: ٢٥٠] ولما تقدم المؤمنون لقتال جالوت وجيشه اتجهوا إلىٰ الله ضارعين داعين له: أن يملأهم بالصبر، ويقوىٰ عزائمهم ويُثبتهم في ميدان القتال، وأن ينصرهم علىٰ أعدائهم الكافرين.(١) ويبدو أن الآية تشير إلىٰ استخلاف داود وتجاوُز مرحلة الحاكمية الإلهية المباشرة، وأن طالوت قد مثّل فترة مَلِكٍ في مرحلةٍ انتقالية من تاريخ بني إسرائيل، هي المرحلة التي مهّدت لبروز بطولة داود، ليكون بعد ذلك النبي المستخلَف ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة: ٢٥١-٢٥٢] هذا الذي نذكره لك غيبٌ لم تشهده أنت ولا قومك، فهو آياتٌ ودلائل إلهية علىٰ صدق نبوتك وصحة رسالتك وسلامة ما جِئتَ به.

﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ [البقرة: ٢٥٣]

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

هذه الآية تُقدِّم لصفحاتٍ أخرىٰ تربط بين الحلقات المتسلسلة من الأنبياء والمرسلين بدءاً بآدم أو بنوحٍ مروراً بإبراهيم وانتهاء بمحمدٍ عليه وعليهم أفضل الصلوات والتسليم ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فالسُّورة بعامتها تناولت تاريخ أمة سيدنا موسىٰ الكليم، ولذلك بدأت الآية به مُنوِّهةً بتمييزه واصطفائه بكلمات الله وبرسالاته ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ثم أَبْهَم فقال: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] أي عَلَىٰ من كَلَّمه وعلىٰ من يأتي بعده، ولذلك فإني أشعر بميلٍ إلىٰ أنّ المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] هو رسول الله ﷺ، فكأن الله قد رفعه درجاتٍ فوق من كلَّمه وفوق عيسىٰ وغيرهما من رسل الله وأنبيائه بأنه خاتم النبيين صاحب الرسالة العامة الشاملة، به خُتمت النبوّة وأُنزل عليه الكتاب الحاكم بشريعة التخفيف والرحمة ورفع الحرج والخطاب العالمي، فهو الذي أُرسل ليكون رحمة للعالمين كافة، فلا غرابة أن يُرفع درجات علىٰ من عداه من النبيين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-. وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أن القرآن الكريم لم يُشر إلا إشارات قليلة لمناط التفضيل أو التفاضُل بين أعضاء أمة الأنبياء والمرسلين، فهذا التفاضُل كما أشرنا بالنسبة إلىٰ سيدنا موسىٰ أنه اصطفاءٌ علىٰ الناس بكلماته وتحميله الرسالة بشكلٍ مباشر، كأنّ فيها إشارة لعدم توسُّط ملك الوحي -سيدنا جبريل- في رسالته، ولكنّ هذا التفضيل لا يقتصر علىٰ ما أُشير إليه، بل هناك من أُرسل بشريعة كاملة ومن جاء بتصحيحٍ أو تخفيفٍ لشريعةٍ سابقة كما في حالة سيدنا عيسىٰ ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠]. ومنهم من جاء إلىٰ أُمّة ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤]. ومن جاء إلىٰ جيل أو منطقة جغرافية أو عصر، وهناك خاتم النبيين الذي جاء إلىٰ الناس كافة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨]. وهكذا.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٣] كإحياء الموتىٰ وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣] قويناه بجبريل أو بالإنجيل

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ولو شاء الله منع القتال بين أتباع النبيين لفعل إذ لا رادّ ولا مانع لإرادته. ﴿ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم﴾ [البقرة: ٢٥٣] من بعد الرسل ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] المعجزات الظاهرات ﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٣] اختلفوا في كُتب أنبيائهم وفيما جاءوا به وفي معرفة الحق الذي نزلت تلك الكتب به، ولو شاء الله –رغم ذلك– لمنع القتال بينهم، لكن سبقت كلمة ربك لإمضاء سُنّة التدافُع بين البشر وإمضاء سُنّة حريتهم في اختيار ما يفعلون. ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣] بمشيئتي، يقول الله تعالىٰ: أجريت أمور رُسلي علىٰ هذا؛ أي لم يجتمع لأحد منهم طاعة جميع أمته في حياته ولا بعد وفاته بل اختلفوا عليه، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٣] كرره للتأكيد؛ أي لو شئت أن لا يقتتلوا لم يقتتلوا؛ إذ لا يجري في مُلكي إلا ما يُوافق مشيئتي.[1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤] ثم يلتفت السياق إلىٰ الإنفاق مرةً أخرىٰ، وهذه المرة للتمهيد لمبادرة ذلك اليوم الذي لا بيع فيه ولا خُلة ولا شفاعة، وذلك لبيان مدىٰ عظم وجناية المراباة في المال.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥-٢٥٦]

هذه الآية سُميت بآية الكرسي، وهي آية اشتملت بشكلٍ كبير علىٰ أهم ما عُرف بإلهيات القرآن، وإلهيات القرآن عبارة عن آياتٍ محكمات أو سُورٍ مثل سورة الإخلاص التي اختُصّت ببيان جوانب خاصة من التوحيد، وقدمت قضية التوحيد صافية نقية بوصفه أهم محاور رسالات النبيين ومداخلها وأعلىٰ مقاصدها وأساس الدين وجوهره، ومن ثم فهي آية عظيمة الشأن، وهي من جوامع آيات الكتاب الكريم وروائعها.

---

(١) النسفي، **تفسير النسفي، مدارك التأويل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج١، ص٢٠٨.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] الله: اسم تفرّد به الحق –سبحانه– فلا سَمِيّ له فيه. كما قال الله تعالىٰ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: ٦٥]؛ أي هل تعرف أحداً غيره تَسَمَّىٰ الله؟ من اعتبر في هذا الاسم الاشتقاق فهو كالمتعارض، فهذا اسم يدل علىٰ استحقاق صفات الجلال لا علىٰ اشتقاق الألفاظ، فلا يعارض ما لا يعارض فيه من الأقوال، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إخبار عن نفي النظير والشبيه، بما استوجب من التقديس والتنزيه. ومن تحقق بهذه القالة لا يرىٰ ذَرّةً من الإثبات بغيره أو من غيره؛ فلا يرفع إلىٰ غيره حاجته، ولا يشهد من غيره ذرة، فَيَصْدُقُ إليه انقطاعه، ويديم لوجوده انفرادَه، فلا يسمع إلا من الله وبالله، ولا يشهد إلا بالله، ولا يُقْبِلْ إلا علىٰ الله، ولا يشتغل إلا بالله، ثم إن هذا القالة تقتضي التحقُّق بها، والفناء عن الموسومات بجُملتها، والتحقق بأنه لا سبيل لمخلوق إلىٰ وجود الحق –سبحانه–، فلا وَصْل ولا فَصْل ولا قُرْبَ ولا بُعدَ، فإن ذلكَ أَجْمعَ آفاتٌ لا تليق بالقِدَم. ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] المتولي لأمور عباده، القائم بكل حركة، والمحوي لكل عين وأثر، ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لأنه أَحَديٌّ لا ترهقه غفلة، وصَمَد لا تمسه عِلة، وعزيز لا تقاربه قِلة، وجبار لا تميزه عُزلة، وفَرْدٌ لا تضمه جثة، ووِتْر لا تحدّه جهة، وقديم لا تلْحَقُه آفة، وعظيم لا تدركه مسافة، تَقَدَّس مِنْ جماله جلاله، وجلاله جماله، وسنائه بهاؤه، وبهائه سناؤه، وأزله أبده، وأبده سرمده، وسرمده قِدَمُه، وقِدَمه وجوده. ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٥] مِلْكاً وإبداعاً، وخَلْقاً واختراعاً ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] من ذا الذي يتنفس بنَفَس إلا بإجرائه، أو يتوسل إليه من دون إذنه وإبدائه. ومن ظنَّ أنه يتوسل إليه باستحقاقٍ أو عمل، أو تذلل أو أمل، أو قربة أو نسب، أو عِلّة أو سبب؛ فالظنُّ وطنه، والجهل مألفه والغلط غايته والبعد قُصاراه، ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لأنه لا يخرج عن علمه معلوم، ولا يلتبس عليه موجود ولا معدوم. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يعني من معلوماته، تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه. فأي طمع لها في الإحاطة بذاته وحقّه؟ وأَنَّىٰ تَجُوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه

في عِزِّه أمد، ولا يدركه حَدٌّ؟! ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] خطاب لهم علىٰ قدر فهمهم. وإلا فأي خَطَرٍ للأكوان عند صفاته؟ جلَّ قَدْرُه عن التعزُّز بعرش أو كرسي، والتجمُّل بجنٍّ أو إنْس ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥] كَيف تُتْعِبُ المخلوقاتُ مَنْ خَلْقُ الذرّةِ والكونِ بجملته -لو سواء-، فلا من القليل له تَيَسُّر، ولا من الكثير عليه تَعَسُّر.(١)

النَّجم الثامن والعشرون: لا إكراه في الدين

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ
ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ
ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾
أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ
عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ
طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى
ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن
لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ
يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ

---

(١) القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (توفي: ٤٦٥هـ). **لطائف الإشارات (تفسير القشيري)**، تحقيق: إبراهيم البسيوني، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ٢٠٠٠م، ج١، ص١٩٨.

حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا
يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ
أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن
تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ
ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم
مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ
غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ
وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا
كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا
وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ
فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ
لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي
ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ
ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم
بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ
يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ
ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ
فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾
يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ
يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن
لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا
تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ
﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ
بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ
ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ
فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ
مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا
دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ
وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا
تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ
كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ
ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ
بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ
رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا
تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ
رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦-٢٨٦]

الآية الأولىٰ في هذا النَّجم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة: ٢٥٦] تُقرر أن الإيمان بالله لا يُكْره البشرُ عليه أحداً، لذا فقد أتت بصيغة النفي الذي يُراد به النهي، فكأنه لا يُتصوّر من أحدٍ يعلم حقيقة الإيمان وأنّه لا بدّ أن يبدأ بالقلب ويستقر فيه أن يفكّر في إكراه إنسان عليه.

ولـمّا كان موضوع آية الكرسي هو التوحيد، وكان محل التوحيد هو القلب الذي لا يَطَّلع علىٰ سرائره ومكنوناته إلا العليم الخبير، كان من المناسِب -والله أعلم- أن يُعَقِّب الباري -جل شأنه- علىٰ ذلك بنفي الإكراه في الدين نفياً شاملاً مُعجِزاً، فكأنه -جل شأنه- يقول: لا تحاولوا إكراه أحد علىٰ الإيمان واليقين بألوهيتي وربوبيتي وصفاتي؛ إذ لا يسعكم ذلك وقد خَلقتُ الناس أحراراً، وائتمنتهم علىٰ أنفسهم، وأخبرتهم أن من شاء منهم أن يؤمن فليؤمن ومن شاء أن يكفر فليكفر، ولو حدث وحاول أحدٌ أن يُكره أحداً علىٰ إيمان فلن يتحقق ذلك مهما فعل، وإذا استجاب المكرَه وقال بلسانه ما شاء المكرِه فذلك مما لا يرتبط بالقلب ولا يعبّر عما فيه، فهو ليس من جنس ذلك الكلام الذي قيل فيه:

إن الكلام لفــي الفؤاد وإنمــا   جُعل اللسانُ علىٰ الفؤاد دليلاً(١)

وقد جاءت الآية بهذه الصياغة الشاملة للنفي والنهي معاً ووضعها في صيغة الخبر، لكي لا يَدَّعي مَدَّع القول باحتمال نسخها -لدىٰ القائلين بالنسخ-، ولقد هفا بعض العلماء -وهفوات الكبار علىٰ أقدارهم- حين عدّ هذه الآية مما نُسخ بآية السيف ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩].

(١) ينسب للأخطل، وقال شيخ الإسلام بن تيمية: وأما البيت الذي يُحكىٰ عن الأخطل أنه قال:

إنَّ الكلام لفي الفؤاد وإنما   جُعل اللسان علىٰ الفؤاد دليلاً

فمن الناس من أنكر أن يكون هذا من شعره. وقالوا: إنهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه، وهذا يُروىٰ عن محمد بن الخشاب. وقال بعضهم: لفظه: إن البيان لفي الفؤاد. انظر:

- ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، مرجع سابق، ج٧، ص١٣٨.

سبب نزول ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] والدلالات

لقد عُني القرآن الكريم عناية فائقة بحريّة العقيدة وضمانها للإنسان، وتحديدها كشأن خاص، حيثُ تضافرت كثير من الآيات على توكيد هذا الحق ووجوب حفظه للإنسان وحمايته من أي تدخُّل خارجي. وفي مقدمة هذه الآيات هذه الآية التي بين أيدينا ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وسبب نزول الآية حين نتأمله نستطيع أن نقرر مطمئنين أنها لا تدع مجالاً لكثير من الأقوال التي زعمت نسخها أو فسرتها بما لا يتناسب وعمومها، عن ابن عَبَّاسٍ قال: "كانت الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلَاتاً، فَتَجْعَلُ على نَفْسِهَا إن عَاشَ لها وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ، فلما أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كان فِيهِمْ من أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا: لَا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ الله عز وجل ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]."(١) وعن ابن عباس -أيضاً- قال: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار من بني سالم يُقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيَّان، وكان هو مُسلماً فقال للنبيّ ﷺ: ألا استكرههما، فإنّهما قد أبيا إلا النصرانيّة، فأنزل الله الآية". وفي رواية أنه حاول إكراههما، فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ ولم يأذن رسول الله ﷺ له في إكراههما على الإسلام."(٢) وفي رواية عن سعيد بن جبير أن النبي ﷺ قال: "عندما نزلت هذه الآية: قد خير الله أصحابكم، فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فهم منهم."(٣)

وقال الشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير: "هذا هو حُكم الدين الذي يزعم الكثيرون من أعدائه أنّه قام بالسيف والقوة، فكان يُعرض على الناس والقوة عن يمينه، فَمَن قَبلَه نجا، ومن رفضه حكم بالسيف فيه حكمه. فهل كان السيف يعمل

(١) السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كتاب الجهاد، بَاب في الْأَسِيرِ يُكْرَهُ على الْإِسْلَامِ، ج٤، حديث رقم (٢٦٨٢)، ص٣١٧. قال أبو دَاوُد: الْمِقْلَاتُ التي لَا يَعِيشُ لها وَلَدٌ.

(٢) السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (توفي: ٩١١هـ). **الدر المنثور في التفسير المأثور**، بيروت: دار الفكر، ٢٠١١م، ج٢، ص٢١.

(٣) رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، مرجع سابق، ج٣، ص٣١، وانظر أيضاً:
- دروزة، محمد عزة. **التفسير الحديث**، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٣هـ، ج٦، ص٤٧١.

عمله في إكراه الناس على الإسلام في مكة أيام كان النبي ﷺ يُصلي مُستخفياً وأيام كان المشركون يفتنون المسلم بأنواع من العذاب ولا يجدون رادعاً حتى اضطر النبي ﷺ وأصحابه إلى الهجرة؟ أم يقولون إن ذلك الإكراه وقع في المدينة بعد أن اعتز الإسلام، وهذه الآية قد نزلت في غرة هذا الاعتزاز؟ فإن غزوة بني النضير كانت في ربيع الأول من السنة الرابعة، وقال البخاري: إنها كانت قبل غزوة أُحد التي لا خلاف في أنها كانت في شوال سنة ثلاث، وكان الكفار في مكة لا يزالون يقصدون المسلمين بالحرب، ونقض بنو النضير عهدهم مع النبي ﷺ فكادوا له، وهمّوا باغتياله مرتين وهم بجواره في ضواحي المدينة، فلم يكن بدٌّ من إجلائهم عن المدينة، فحاصرهم حتى أجلاهم، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه بإكراه أولادهم المتهوِّدين على الإسلام، ومنعهم من الخروج مع اليهود، فذلك أول يوم خطر فيه على بال المسلمين الإكراه على الإسلام، وقال الأستاذ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان معهوداً عند بعض الملل -لا سيما النصارى- حمل الناس على الدخول في دينهم بالإكراه.

وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين؛ لأنَّ الإيمان -وهو أصل الدين وجوهره- عبارة عن إذعان النفس، ويستحيل أن يكون الإذعان بالإكراه، وإنّما يكون بالبيان والبرهان، ولذلك قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أي قد ظهر أن في هذا الدين الرشد والهُدى والفلاح والسير في الجادة على نور، وأن من خالفه من الملل والنحل على غيّ وضلال."[١] وأكد القرآن اختصاص الباري -وحده- بحساب من يدعو معه غيره، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧]. ويخاطب رسول الله ﷺ بقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: ٤٥]، وقوله: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: ٢٢]، كما تأتي آيات كثيرة تُبيِّن لرسول الله ﷺ عدم جَدوى وسائل الإكراه وفرض الاعتقاد على الآخرين، وأن الله -تعالى- لو علم أنّ الإيمان يمكن أن يأتي بالإكراه

(١) رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٦-٣٧.

لأمر رسله بإكراه الناس على الإيمان وقبول الإسلام، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠٧]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]. كما يبيِّن -جل شأنه- أنّ العقائد لا تخضع للإكراه من أيّ نوع كان، حتىٰ ذلك الذي يأتي من زاوية الحرص علىٰ المدعوّ والرغبة في إنقاذه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، ولذلك فقد حَثَّه علىٰ ممارسة الدعوة إلىٰ الإيمان ونبذ الكفر بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فقال -جل شأنه-: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

من ذلك -كله- يتضح أنّ حريّة العقيدة في القرآن أُحيطت بسائر الضمانات القرآنيّة التي جعلت منها حريّة مُطلقة لا تحدّها حدود ما دامت في إطار حريّة اختيار المعتقد، وأنّ الحساب عليها خاص بالله -جل شأنه- لا يجاوزه إلىٰ سِواه.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] الطاغوت من الطغيان، والطغيان استُعمل في القرآن للإشارة إلىٰ كبير الطغاة وهو الشيطان، تمسك ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] بالعقد المحكم ﴿لَا ٱنفِصَامَ﴾ [البقرة: ٢٥٦] انقطاع ﴿لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] لما يقال ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦] بما يفعل.[1]

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧] الله له الولاية المطلقة علىٰ خلقه كله، تتجلّىٰ هذه الولاية بتسخير المسخّرات، وتوفير الأرزاق، ومنح الحياة وغير ذلك من نعمه جل شأنه التي لا تُحصىٰ، وهي نعمٌ ابتدأ الله عباده بها، لم تتوقف علىٰ إيمان مؤمن ولا كُفر كَافر، لكنّ لله تعالىٰ ولاية للمؤمنين بالنصرة والتأييد والهداية والتسديد والعناية والمعيَّة، يهبها -جل شأنه- لهم تفضُّلاً منه وتمنُّناً وتكرُّماً وعوناً لهم،

(١) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٥٦.

لحمايتهم من همزات الشياطين وحضورهم ولمزهم ونفثهم وعقدهم ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦]. فإذا كان للمفسدين أولياؤهم من شياطين الإنس والجن، فإنّ الله -تبارك وتعالىٰ- ولي الذين آمنوا، فالطاغوت وليُّ الكافرين، وعدالة الله تقتضي أن يكون للمؤمنين وليٌّ، فكان وليهم الله -جل شأنه- وكفىٰ به وليّاً وناصراً وهادياً ومُعيناً. ثم بمثل ذلك النداء والاستفهام يخاطب الله نبيه ﷺ يهيّئ به وجدانه لتأمُّل ذلك الأمر العجيب، أَمْر طاغيةٍ لم يكن أقل طُغياناً من فرعون في زمن إبراهيم، حاجج إبراهيم في ربه اغتراراً منه بما خوَّله الله من نِعم تحوَّلت إلىٰ استدراج له إلىٰ النار، لقد آتاه الله الملك فظن أنه ملكٌ حقيقيّ يستطيع بمقتضاه أن يجعل من نفسه شريكاً لله: ﴿أَلَمْ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ألم تسمع ألم تعلم بذلك الطاغية الفاجر المغرور الذي حاجّ إبراهيم في ربه، ليس لأن لديه حجة أو منطقاً يشهد له، بل اغتراراً بما أُوتي من مُلك ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعني أنه تعالىٰ يخلق الموت والحياة، لكن ذلك الطاغية الأهبل(١) أساء فهماً فأساء إجابة، فقال بكل غرورٍ واستعلاء: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وسارع ببلاهة يغلفها الغرور باستدعاء سجينين أمر بقتل أحدهما وإطلاق الآخر، ورأىٰ إبراهيم أن من العَبث أن يبيّن له أنه حين قال: ربي الذي يحيي ويميت، لم يقصد بذلك أن يترك من منحه الله الحياة يعيش حياته حتىٰ يبلغ الكتاب أجله، وأن ذلك الذي بلغ أجله وحانت ساعته يُقتل، فحين يترك ذاك ويقتل الآخر يظن أنه قد خلق الحياة فيمن ترك، وخلق الموت فيمن قتل، فنقله إلىٰ أمرٍ آخر من الصعب عليه أن يتغابىٰ فيه، فقال له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فإن الله يأتي بالشمس من المشرق يوميّاً وهو أمرٌ مُشاهَد معروف للقاصي والداني، فإن كنتَ ربّاً كما تزعم فَأَصْدر لها الأمر بأن تأتي من المغرب، فإنْ هي أطاعتك أمكن آنذاك التسليم بدعواك، لكن الطاغية أدرك أنّ ذلك خارجٌ عن قدراته متجاوزٌ لها ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

(١) رَجُلٌ أَهْبَلُ: فَاقِدُ العَقْلِ، أَحْمَقُ.

فقدراته لا تتجاوز التصرفات الظاهرية في مصاير رعاياه، فهي تصرفاتٌ يمكن أن يخدع بها الخانعين الخاضعين له، الذين تنخدع أبصارهم بما ترىٰ وتتوقف بصائرهم عن العمل والحركة، فينخدع الطاغية بقدراته الموهومة، ويوهمه شيطانه أن له من الأمر شيئاً أو أنه شريكٌ فيه، ولا تصدمه آنذاك إلا الحقيقة المرَّة السَّافرة كالتي حصلت لفرعون فيما بعد حين أدركه الغرق، وآنذاك شعر بأنه واحدٌ من الناس يَهْلَك كما يهلكون، ويغرق كما يغرقون، فنادىٰ بأعلىٰ ما بقي له من صوت: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠].

وقوله -جل شأنه-: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨] بيانٌ لسُنَّة إلهية، وهي أنَّ التلبّس بالظلم، واستمراءه، والاستمرار عليه، وعدم الرجوع من قريبٍ عنه، وعدم التوبة منه، يُدخل ذلك الظالم تحت هذه السُنَّة فيصبح عصيّاً علىٰ الهداية غير مؤهّل لها، وآنذاك لا يأتي بخير لا لنفسه ولا لقومه.

وبعد ذكر طاغية يجادل نبيّاً، يقصّ الله تعالىٰ قصة رجل صالح، يغلّب بعض المفسرين أنه عُزير الذي نُسب إلىٰ بني إسرائيل بوصفه واحداً من أنبيائهم، ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩] تَقَدَّمَ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وَهُوَ فِي قُوَّةِ قَوْلِهِ: هَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ الذي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ؟ وَلِهَذَا عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[البقرة: ٢٥٩].(١) لقد رأىٰ هذا الرجل الصالح قرية وصفها القرآن بأنها خاوية علىٰ عروشها، فالتفت إلىٰ الأسباب وأبدىٰ تعجُّباً مشوباً بشيء من الاستبعاد بأن يحيي الله تلك القرية بعد موتها، فذكر الله -تعالىٰ- لنا قصته وبيّن لنا -تعالىٰ- كيف أماته ثم أحياه، فالقصة تنتمي لعصر الغيبيات والخوارق التي امتزجت بحياة بني إسرائيل وظواهر تلك

(١) الصابوني، **مختصر تفسير ابن كثير**، مرجع سابق، ج١، ص٢٣٥.

الحياة، فأراه الله آية من عجائب قدرته، بيّن له فيها كيف يصنع الحياة، وجعله جُزءاً من تلك الآية فأخرجه من الحياة لمائة عام ثم أعاده إليها. وما قام به المفسرون فيه من محاولة تحديد الشخص المعنيّ والاختلاف حول صفته لا يؤثر في قليل أو كثير في سياق القصة وما فيها من عِبَر ودروس يمكن أن تؤخذ منها، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد جعلها آية للرجل نفسه كما جعلها للناس، فقصته كقصة أهل الكهف، وقصة الملأ من بني إسرائيل الذين قال الله لهم: ﴿مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾، وقصة البقرة، وقصة إحياء الطير لإبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التالية لهذه القصة، كلها دالة على قدرة الله – تعالىٰ – التي تخضع لها المسخرات كلها. والله أعلم.

ثم تأتي بعد ذلك قصة إبراهيم وهو يسأل الله –جل شأنه– سؤال المؤمن المحب المخبت الأواه الحليم الذي فطره الله –تبارك وتعالىٰ– على ذلك التطلُّع لمعرفة ما وراء ظواهر الأشياء، والبحث عن الأشياء الكامنة التي قد لا يسعفه تدبره وتفكره بالوصول إليها، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ويبدو أن ذلك قد حدث من سيدنا إبراهيم بعد حواره السابق مع الطاغية، فإنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما قال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ورأىٰ رد فعله الغبي أو المتغابي ولم يجادله –كما قَدَّمنا– في حقيقة الحياة والموت وأنّ هذه الحقيقة لا يمكن لغيره سبحانه أن يتصرف فيها، فيخلق الموت ويخلق الحياة فيما يريد أن يميت أو يحيي، أحب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يرىٰ رَأْي العين كيفية إيجاده سبحانه الحياة في الأحياء وإيجاده الموت في الأموات، فقال له ربه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البقرة: ٢٦٠] بقدرتي على الإحياء؟ سأله مع علمه بإيمانه بذلك ليجيبه بما سأل فيعلم السامعون غرضه ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] آمنتُ ﴿وَلَٰكِن﴾ [البقرة: ٢٦٠] سألتُك ﴿لِّيَطْمَئِنَّ﴾ [البقرة: ٢٦٠] يسكن ﴿قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] بالمعاينة المضمومة إلى الاستدلال ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] أَمِلْهن إليك وقطعهن واخلط لحمهن وريشهن ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٦٠] إليك ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] سريعاً ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] لا يُعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾[البقرة: ٢٦٠] في صنعه.(١)

---

(١) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٥٧.

جزاء المنفقين

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١]

وبعد تلك الاستراحة في رحاب التوحيد، والتوكيد على حرية الاعتقاد، والقصص الثلاث المعزّزة لقضية الخلق والتوحيد، يعود السياق ليشدنا مرةً أخرى في نوعٍ من التفاصيل للنداء الذي سبق آية الكرسي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] فهؤلاء الذين ناداهم الله لينفقوا -قبل الانتقال إلى الدار الآخرة، وفقدان أية سيطرة لهم على أموالهم، وفقدان القدرة على الانتفاع بها- يبيّن لهم في هذه الآية عائد ما ينفقون، وجزاء ما يقدّمون، فيقول -جل شأنه-: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١] ثم يقدّم لنا في آياتٍ معدودات منظومةً كاملة في الصدقات، بدأت ببيان مَثَلٍ للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، وكيف يتلقّى الله -سبحانه- نفقتهم تلك وصدقتهم، فيُنمِّيها لهم ويباركها حتى تصبح الواحدة بسبعمائة ضعفٍ أو تزيد، والله يضاعف لمن يشاء دون أن ينقص من ملكه شيء، فهو واسعٌ سبحانه بملكه، عليمٌ بما يستحق أن يضاعف له صدقته إلى أكثر مما ذُكِر.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٢] هذه شروط أولئك الذين يضاعف الله لهم أضعافاً كثيرة، وهم الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بإخلاصٍ تام وصدقٍ ومودة، ثم لا يُتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى، فالعلاقة بينهم وبين الله -تعالى-، ولا ينبغي أن يُدخل في هذا المجال المتصدَّق عليه، فلا يمنّ عليه المتصدِّق، ولا ينظر إليه على أنَّه أدنى منه، ولا يؤذيه أو يعيّره بفقره، بل على العكس عليه أن ينظر إليه على أنَّه سبب من أسباب وصول الخير إلى المتصدِّق، فلولا حاجة مَن تصدّق عليه، ولولا أنّ الله -تبارك وتعالى- فضّل بعض الناس على بعض في الأرزاق لما أمكن لمانح

الصدقة أن يحصل على ذلك الثواب الجزيل من الله -تبارك وتعالى-، فهو قد حصل عليه بسبب فقر هذا الفقير واحتياجه، فعليه أن ينظر إليه بأنّه إذا مثّل بالنسبة له مُعطياً ومانحاً، فقد مثّل المتصدَّق عليه للمتصدِّق وسيلةً لجلب خيرٍ كبير هو أكبر مما أعطى، وأهم مما قدّم له، فلا ينبغي أن يمنّ عليه أو يؤذيه وقد كان سبباً لحصوله على ذلك الثواب العظيم.(١)

﴿۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣﴾ [البقرة: ٢٦٣]

ثم يقول جل شأنه لبعض أولئك الذين قد لا يستطيعون أن يحجزوا أنفسهم عن النيل ممن يتصدقون عليهم وإيذائهم بالمنِّ أو الأذى: إذا لم تكن قادراً على ذلك فينبغي أن تفهم بأنّ صدقتك آنذاك تفقد قيمتها، فقولٌ معروفٌ يُقال للفقير أو المحتاج وإعفاءٌ له من الأذى الذي يلحقه بالمنّ خيرٌ من صدقةٍ تُمنَح له متبوعةً بالمنّ والأذى، وعليك أن تذكر أيها الغني المتصدِّق أنّ الله -تبارك وتعالى- الذي أغناك قادرٌ على إغنائه، فهو غنيٌّ حليم لا يعجّل للمذنب أو المخالف بالعقوبة لحلمه، ولن يترك عباده نهباً لشهوات وأهواء وتقلُّبات نفوس الأغنياء. وبعد أن تلطّف في بادئ الأمر بالتلميح والتعريض وجّه النهي الصريح لهم بقوله -جل شأنه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: ٢٦٤] فالمنُّ والأذى يُذكران هنا على أنّهما مبطلان للصدقة، فتبطل من حيث منافعها وفوائدها للمتصدَّق عليه، ويبطل ثوابها وجزاؤها بالنسبة لـمَن تصدَّق، وأنَّ ذلك لا يليق بمؤمنٍ مخلصٍ في طاعته وعبادته، شاكرٍ لأنعم الله عليه، بل إنَّه أمرٌ لا يصدر إلا عن مُراءٍ يُرائي الناس بما يفعل، يريد منهم المديح والثناء، وليس بمخلصٍ يريد من الله وحده الثواب والجزاء؛ فكلٌّ من

(١) وقد ورد عن السلف في هذا المعنى الكثير: روي عن زين العابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يُكرم السائل ويقول له: أهلاً بمن يحمل زادنا إلى الآخرة، وقال أحدُ العارفين: لو عرفتَ ما يحمله لك السائل من الخير لحملتَه في فؤادك لا على رأسك، وقال الفضيل بنُ عياض: نِعْمَ السائلون، يحملون أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة حتى يضعوها في الميزان بين يدي الله تعالى.

المتصدِّق مع المنّ والأذىٰ والمرائي فيما ينفق، يُشرك بالله في عبادته ونفقته، دون أن يكون مؤمناً خالص الإيمان بالله واليوم الآخر وما وعد الله فيه من جزاءٍ وفير، مثل هذا النوع من المتصدّقين أو المتبرعين من المرائين وأهل المنّ والأذىٰ ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤] فإن حال المرائي في نفقته كحال حجر أملس عليه تراب، هطل عليه مطر شديد فأزال ما عليه من تراب. فكما أن المطر الغزير يزيل التراب الخصب المنتج من الحجر الأملس، فكذلك المن والأذىٰ والرياء تبطل ثواب الصدقات.. فلا ينتفع المتنفعون بشيء منها، وتلك صفات الكفار فتجنبوها، لأن الله لا يوفق الكافرين إلىٰ الخير والرشاد.(١) وتستمر الآيات الكريمة، فيقابل الله -تعالىٰ- بين أولئك المرائين الذين يتبعون ما أنفقوا بالمنّ والأذىٰ وبين قوم آخرين يضربهم مثلاً ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥] ومثل هؤلاء الصالحين الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله لا رئاء الناس، ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] لأنّ صاحب المال فيه كثيرٌ من القلق علىٰ المال والربح والمحافظة والإبقاء عليه، والصدقة مهما كانت هي إنفاقٌ للمال وإعطاءٌ له، وبهذا الإعطاء أو الصدقة إذا خلصت النية متجهةً نحو مرضات الله، فإنّ مآل ذلك أن تُثبّت نفس المتصدِّق، ويزايلها القلق، فالجزاء مضمون، والمباركة وعدٌ من الله -تبارك وتعالىٰ-، ولذلك فإنّ المتصدّق يدرك أنّ هذا الذي تصدّق به عائدٌ عليه في الدنيا وفي الآخرة؛ ففي الدنيا: إذا أدركت الأمة كيف تنقذ فقراءها، وتسد خلتهم، وتَفي بِأَهَمّ احتياجاتهم، فذلك يُزيل القلق من أوساط المجتمع، فلا يخاف الغنيّ علىٰ ماله من انتشار جرائم السرقة والاختلاس والاستيلاء علىٰ الأموال بمختلَف الأشكال الممنوعة، ويُدرك الفقير أيضاً أنّ ضرورياته مضمونة، وأنَّ المجتمع قد ضمن تلك الضروريات فتثبت نفسه، ويستقر وجدانه وضميره، ويُزايله القلق، فكأنّنا طَهَّرنا المجتمع كله من أهم أسباب القلق.

(١) لجنة من علماء الأزهر، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٦٣.

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥] إنَّ ذلك الذي يُنفق في سبيل الله كأنّه يصنع لنفسه جنة بربوة، أي مكان مُرتفع، أصابها وابل فلم يغرقها؛ إذ إن ارتفاع مكانها جعلها تحصل منه على حاجتها وكفايتها فتُؤتي أُكلها ضعفين، فإن لم يُصبها وابلٌ فلن تُحرم الطلّ الذي يجعلها قادرةً على أن تُؤتي ثمرها وافراً كاملاً.

إنّ القرآن بعظمته يُخاطِب سائر أنواع النفوس البشرية، فمهما كان نوع النفس فإنَّ القرآن يخاطبها ويتحدَّث إليها، يقول -جل شأنه-: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] فيصور الصدقة بأجمل صورة، وكذلك عائدها جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار، لا يفتقد الإنسان فيها ثمرة من الثمار؛ إذ له فيها من كل الثمرات.

﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ [البقرة: ٢٦٦] فضعف من الكِبر عن الكسب ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦٦] أي أولاد صغار لا يستطيعون أن يقوموا بالعناية بهذه الجنة بعده، وهو يؤمِّل أن يتركها لهم ليطمئن أنَّهم سوف يحيون حياة طيبة ويعيشون سعداء. ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] وفيما هو ينظر بعين الأمل إلى جنته وذريته إذا بإعصار فيه نار يصيبها فيجعلها أثراً بعد عين، وأي أثر؟ إنه أثر مُحترَق، فالمنّ والأذى الذي نُهِينا عنه مَثَله مثل الإعصار المحرق الذي لا يغادر ثمرة ولا يستثني شجرة ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦] فتعتبرون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] فأنتم إن أنفقتم يجب أن تختاروا الطيب من أموالكم وليس الخبيث، أنفقوا من أطيب وأفضل ما حصلتم عليه، فلولا ذلك لما كسبتم شيئاً. ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]

وإياكم أن تتفقدوا الخبيث منه تنفقون، سواء أكان خُبثاً معنوياً مثل المال الحرام، أم خُبثاً ماديّاً، ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] لو عرض عليكم، ازدراءً له واحتقاراً ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] فتتساهلون وتتجاوزون تطلعكم إلىٰ الجودة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٧] عن نفقاتكم ﴿حَمِيدٌ ۝٢٦٧﴾ [البقرة: ٢٦٧] محمود علىٰ كل حال.

ثم يُذكِّر -جل شأنه- بما وعد في بداية الآيات من أنه سيجعله كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فيقول: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ليخيفكم من الصدقة ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ومنه عدم دفع صدقاتكم وزكواتكم. ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ [البقرة: ٢٦٨] في الآخرة، ﴿وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨] بركة في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦٨﴾ [البقرة: ٢٦٨] قادر علىٰ أن يُضاعف لكم أكثر من السبعمائة ضِعف.

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٦٩﴾ [البقرة: ٢٦٩] الحِكمة هنا -وإن كانت مفهوماً شاملاً واسعاً لمعانٍ كثيرة- أقرب ما تكون إلىٰ الحِكمة في كَسب المال بطرقه المشروعة ووسائله التي أتاحها الله، والحكمة في إنمائه وإكثاره بالتجارة والصناعة وسواها، والحكمة في إنفاقه وحُكم استعماله وعدم تبديده وعدم إيتائه السفهاء، واختيار الشركاء، ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٦٩] في كل ما ذكرنا، وهذا لا يتعلق بأموال الأفراد فحسب بل بأموال الحكومات كذلك، ﴿فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] أوتي حصانة ومناعة وضمانة من الوقوع في براثن الفقر والمجاعات والحاجة والكوارث المالية ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٦٩﴾ [البقرة: ٢٦٩] أولو العقول الحكيمة المؤمنة المدبرة التي تعرف رسالة الإنسان في هذه الحياة وتدرك أن العمران من مقاصد القرآن العُليا.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٠] الذين يمتنعون عن الإنفاق أو ينفقون رئاء الناس أو يُبطلون صدقاتهم بالمنِّ والأذىٰ ما لهم ﴿مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠﴾ [البقرة: ٢٧٠] مانعين لهم من عذابه.

﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾ [البقرة: ٢٧١] إن أظهرتموها وأبديتموها فنِعْم ما تفعلون ما دُمتم تُريدون وجه الله. ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا﴾ [البقرة: ٢٧١] وإن أردتم أو اخترتم إخفاءها، ﴿وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ﴾ [البقرة: ٢٧١] في سريَّة وكتمان بينكم وبينهم فهو الأفضل، فصدقة السر تُطفئ غضب المولىٰ جل شأنه،(١) وصدقة السر لا تجعل هناك سبيلاً إلىٰ شائبة الرياء أن تشوبها ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢٧١] والله يغفر لكم من ذنوبكم بسبب إخلاصكم في صدقاتكم، والله يعلم ما تُسرون وما تُعلنون، ويعلم نِيَّاتكم في إعلانكم وإخفائكم. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة: ٢٧١] عالم بباطنه كظاهره لا يَخفىٰ عليه شيء منه.

ثم يقول -جل شأنه- لنبيه الكريم مُسريّاً عنه ما قد يراه أو يصادفه من بُخل بعض الموسرين، ومنهم أولئك المنافقون الذين كانوا يأتون إلىٰ رسول الله ﷺ فقراء يستعينون به ويسألونه الدعاء لهم ليستغنوا، وأنه إن فعل ورُزقوا بالمال فسوف يفعلون ويفعلون، فإذا حقق الله لهم أمانيهم وأجرىٰ المال بين أيديهم بعد فقرهم أخلفوا الله ما وعدوه،(٢) وأخلفوا رسول الله ﷺ: ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢﴾ [البقرة: ٢٧٢] ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ [البقرة: ٢٧٢] أي إيصالهم وحملهم علىٰ سبيل الهداية الموصلة إلىٰ الجنة، فأنت يكفيك من الهداية أن تُرشدهم وتُوجههم، أما الهداية المصحوبة بنتائجها فهي لله سبحانه، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢] فهو الذي يُوصّل من شاء إلىٰ الجنة ويضعه علىٰ طريقها ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ [البقرة: ٢٧٢] يا أيها الناس ﴿فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٧٢] في عاجِله وآجِله ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ

---

(١) عن معاوية بن حيدة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: "إنَّ صَدَقةَ السرِّ تُطفِئ غَضَبَ الربِّ تبارك وتعالىٰ". رواه الطبراني في الكبير، وفيه صدقة بن عبد الله السمين، ولا بأس به في الشواهد، انظر:
- الألباني، محمد ناصر الدين. **صحيح الترغيب والترهيب**، الرياض: مكتبة المعارف، ط٥، ١٤٢٠هـ، ج١، ص٢١٦.

(٢) كما قال تعالىٰ: ﴿۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾ [التوبة: ٧٦-٧٥].

﴿وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وما ينبغي أن تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٧٢] جزاؤه ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢﴾ [البقرة: ٢٧٢] تنقصون منه شيئاً، والجملتان تأكيد للأولىٰ.(١)

ثم يقول جل شأنه -مُبيّنا أَوْلىٰ مَصرفٍ ينبغي أن توجّه إليه الصدقات-: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقد ذكر المفسرون أقوالاً عديدة لبيان هؤلاء الذين أُحصروا، فمن هم هؤلاء؟ إن المهاجرين بعدما هاجروا إلىٰ المدينة استطاع الأنصار أن يستوعبوا عدداً كبيراً منهم، وكانت هجرة المهاجرين علىٰ مراحل أو أفواج دائمة مستمرة لم تحدث دُفعة واحدة، فقد يصل المهاجر إلىٰ المدينة ولا يجد من يستوعبه وما يستوعبه، فيجلس في الصُّفّة مقابل بيوت النبي ﷺ، وكأنهم جيشٌ تحت الطلب، فالكُتّاب منهم يكلّفهم رسول الله ﷺ بكتابة الوحي، ويتلو عليهم الآيات ويعلّمهم، وهذه المهمة ليست سهلة في تلك المرحلة، وقد تستغرق وقت الصحابيّ كله، فلا يكون عنده وقتٌ كاف لكي يضرب في الأرض ليتجر ويكسب رزقه بنفسه، ولم يكن هناك في تلك المرحلة وفرةٌ في المال تكفي هؤلاء جميعاً، والقادرون من هؤلاء علىٰ القتال أو الجهاد هم أول من يستجيب، ولا يجدون ما يُحملون عليه ولا ما يُنفقونه علىٰ أنفسهم، فهم في حاجة، وهم بذلك كانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يجمعون بين الخدمة العامة والبقاء تحت الطلب النبويّ، فهم بمثابة جيشٍ احتياطيّ -وإن صَغُر- يقوم بمهام عديدة، وعدم قدرتهم علىٰ الضرب في الأرض والاتجار والكسب أو العمل في مزارع الأنصار قد يكون بناءً علىٰ تَرَصُّد المشركين واليهود لهم وتربصهم بهم الدوائر، وقد يكون بناءً علىٰ كونهم قُرّاءً، والقُرّاء كانوا يشكّلون هدفاً لأعداء رسول الله ﷺ فلا يستطيعون أن يضربوا في الأرض، لكنهم في الوقت نفسه قد جاءوا من خلفيات تجعلهم يتقبلون الجوع ويتعففون عن سؤال الناس، هؤلاء كان الرسول ﷺ إذا جاءه

(١) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٦٠.

شيء أشركهم فيه وإلا فقد يَطوي ويطوون، وهؤلاء أَوْلىٰ من أي فصيل من الفصائل الأخرىٰ بأن تُوجّه إليهم الصدقات، والآية تحدد أوصافهم لمن يريد الصدقة، فوصفهم بستّ صفات: الأولىٰ: الفقر. الثانية: حبسهم أنفسهم في سبيله تعالىٰ وجهاد أعدائه، ونصر دينه، وأصل الحصر: المنع، فمنعوا أنفسهم من تصرفها في أشغال الدنيا، وقصروها علىٰ بذلها لله وفي سبيله. الثالثة: عجزهم عن الأسفار للتكسُّب، والضرب في الأرض: هو السفر. قال تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ﴾ [المزمل: ٢٠]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١]. الرابعة: شدة تعفّفهم. وهو حسن صبرهم، وإظهارهم الغِنىٰ. يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم، وعدم تعرضهم وكتمانهم حاجتهم. الخامسة: أنهم يُعرفون بسيماهم، وهي العلامة الدالة علىٰ حالتهم التي وصفهم الله بها، وهذا لا يُنافي حسبان الجاهل أنهم أغنياء، لأن الجاهل له ظاهر الأمر، والعارف: هو المتوسِّم المتفرِّس الذي يَعرف الناس بسيماهم. فالمتوسمون خواصّ المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥]. السادسة: تركهم مسألة الناس، فلا يسألونهم إلحافاً، والإلحاف هو الإلحاح والنفي متسلط عليهما معاً، أي لا يسألون ولا يلحفون، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف، وفيه كالتنبيه علىٰ أن المذموم من السؤال هو سؤال الإلحاف، فأما السؤال بقدر الضرورة من غير إلحاف فالأفضل تركه ولا يُحرَّم.[1]

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤]

الذين يُخْرجون أموالهم مرضاة لله ليلاً ونهاراً مُسرِّين ومُعلنين، فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون علىٰ ما فاتهم من حظوظ الدنيا. ذلك التشريع الإلهي الحكيم هو مِنهاج الإسلام في الإنفاق لما فيه

---

(١) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب (توفي: ٧٥١هـ). **تفسير القرآن الكريم لابن القيم**، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ط١، ١٤١٠هـ، ج١، ص١٧٤.

مِن سدِّ حاجة الفقراء في كرامة وعزة، وتطهير مال الأغنياء، وتحقيق التعاوُن على البر والتقوى؛ ابتغاء وجه الله دون قهر أو إكراه.[١]

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥]

بعد أن بيَّنت لنا الآياتُ من أول السورة إلى هنا نموذج أولئك المتصدقين الصالحين الشاكرين لأنعم الله الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية. ينقلنا السياقُ إلى صورة بشعة غاية في البشاعة، صورة أولئك الذين يستغلون فقر الفقراء وضعف الضعفاء فيأكلون الرِّبا على أموال يقترضها المضطرون لسد حاجاتهم الضرورية من طعام وكساء أو دواء أو استمرار في عمل أو ما شَاكَل ذلك، فيأتي أصحاب المال المرابون لتكثير أموالهم شكلاً وصورةً، وجعلها تربو في أموال الناس وتَفتك بهم وبأموالهم كما يَفتك السرطان في جسم المصاب، وهي صورة تجعلنا نُدرك بشاعة هذه الجريمة وقُبحها وضرورة الابتعاد عن السقوط في شيءٍ منها، فهي جريمةٌ فيها إعلان الحرب على المالك الحقيقي فيما رزق وأعطى، وإعلان الحرب عليه في استغلال عباده الذين لهم في ذلك المال مثل ما لذلك المرابي فيه، فهم جميعاً مستخلفون فيما لا يملكون حقيقةً، هذه الصورة البشعة هي صورة المرابي سواءٌ كان فرداً أو شركةً أو مؤسسةً أو بنكاً أو أَخَذت أيّ شكل من الأشكال، فالأصل في المال أن يكون وسيطاً في تبادُل الطيِّبات والمنافع فحسب، فهو وسيلةٌ لا غاية، فإعلاء شأنه وإعلاء قيمته على قيمة الجهد البشري وعناصر المسخّرات الطبيعية التي سخّرها الله تبارك وتعالى، واستغلال ذلك كله بجشعٍ وأَثرةٍ وبَغيٍ لحيازة مزيد من المال أو الوسيط النقدي انحرافٌ بالنعمة، وتجاوزٌ لقيمتها، وتنكُّرٌ للمُنعِم - جل شأنه - وخروجٌ عن الأمانة وابتعادٌ عن الاستخلاف، لذلك يقدّم لنا القرآن هذه الصورة بعد تلك الصورة المشرقة عن الصدقة والنفقة وإعطاء المال لمستحقيه ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من نفس المعطي، لتتبين بشاعة صورة المرابي.

---

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٤٦.

الرِّبا... شيء من التاريخ

الأصل أنَّ المال الحقيقيّ الذي أودعه الله هذه الأرض واستخلف الناس فيه، هو تلك الطيّبات التي تحتاجها حياة الإنسان علىٰ هذه الأرض بمستويات مختلفة، وأن هذه الطيبات يَشترك في إنتاجها التراب والماء والجهد الإنسانيّ، وكل ذلك مَحوط بالمشيئة الإلهية، فهو سبحانه الموجِد للأشياء، وحين نَفترض وجود مجتمع صغير قادر علىٰ تبادل الطيبات فلا يكون هناك إشكال في ذلك، ولكن وَجَد الإنسان نفسه في المجتمعات بعد اتساعها في حاجة إلىٰ وسيط يخرجه من دائرة مُقايضة الطيّبات ببعضها إلىٰ دائرة تبادلها بواسطة ذلك الوسيط النقديّ، وكان الذهب والفضة من أوائل ما اكتشف واستُعمل وسيطاً في تبادل الطيّبات.

وقد كان الإنسان في عصوره الماضية كثيراً ما يتطلع إلىٰ قُوىٰ ما فوق الطبيعية، ويرىٰ أنها هي المسؤولة عن الكوارث والزلازل والأعاصير والجفاف والحروب والزرع والضرع، فكان يبتكر لنفسه أصناماً آلهة يتخذها وسيلة حماية له ولمزروعاته وحيواناته، وظل الإنسان كذلك إلىٰ أن اتسعت مجتمعاته وتطورت وسائل إنتاجه وقدراته علىٰ التوزيع وتبادل الطيّبات والمنافع، وبدأ يُدرك شيئاً فشيئاً أنّه أقوىٰ من تلك القُوىٰ التي كان يَنسب إليها التأثير فيما ذكر، وظل هذا التفكير يتطوَّر إلىٰ أن بُعث خاتم النبيين ﷺ فجرَّد الإنسان من الخرافة وأشعره بأنَّه مستخلَف في هذه الأرض، استخلفه مُنشئُها وخالقها، وأتمنه علىٰ حريَّته وجعله سيد مصيره، يستطيع أن يتحرك ويتصرف ويصنع ويُنتج ويستهلك ويدخر ويبيع ويشتري وفق منظومة عادلة تقوم علىٰ ذلك التصور التوحيديّ الإسلاميّ القائم علىٰ أنَّ الله -تعالىٰ- هو الخالق والمالك لكل شيء، وأن الناس -عيال الله-[1] مستخلفون في مُلكه، وبما أنه -سبحانه- هو الذي سخَّر لهم كل شيء فإن عليهم أن يلتزموا بما وضع المالك الحقيقيّ -جل شأنه- من نُظم وقواعد ولا ينبغي لهم الخروج عنها أو مخالفتها.

(١) أبو يعلىٰ، أحمد بن علي بن المثُنىٰ التميمي الموصلي (توفي: ٣٠٧هـ). **مسند أبي يعلىٰ**، تحقيق: حسين سليم أسد، دمشق: دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٨٤م، ج٦، حديث رقم (٣٣١٥)، ص٦٥.

ومع امتداد الإسلام وانتشاره فإنَّه لم يَغمر العالم -كلّه- بأنواره، حيث كانت قارات كثيرة تتطور بطرق أخرىٰ بعيداً عن هداية الوحي، ومنها ما صار يُعرف بأوروبا أو القارة الأوروبية التي بقيت تُعاني من تطور بطيء كان يَجري فيه الصراع بين اللاهوت والناسوت بشكل في غاية القوة، فتطورت تلك الأفكار ببطء شديد ومعارضة قويَّة من اللاهوت حتىٰ استطاعت أن تتخلَّص من سلطانه، وتقود ما عُرف بثورة العصر العلميَّة التي تكوّنت أوروبا ضمنها منذ بداية القرن السابع عشر، بناءً علىٰ تصور كونيّ جديد بدأت صياغته منذ نيوتن، وتطورت حتىٰ بلغت الصياغة الماركسيَّة التي عُدَّت نتاجاً طبيعيّاً للتطوّر العلميّ الأوربيّ، فالصياغة الماركسيَّة كانت فلسفة للتغيير أفرزت تطوراً فلسفيّاً نفت بمقتضاه تعاليم الكنيسة وأبعدت اللاهوت، واستبدلت بذلك خلاصتها التي بنتها علىٰ مفهوم الجدليّة الهيغليّة والتطوريّة الداروينيّة والماديّة الوضعيّة، فكأنَّ الماركسيَّة تحولت إلىٰ خُلاصة للفلسفة الألمانيَّة، والاشتراكية الفرنسيَّة والاقتصاد الإنجليزيّ، وأودعت قابليّة لاستيعاب المتجدد في ديناميَّة الحركة من خلال رصد التغيُّرات الاجتماعيَّة والتاريخيَّة، وصارت الماركسيّة، أو رشحت نفسها لتكون محتوىٰ للتطور الفلسفيّ العلميّ بل لقد حولت الماركسية نفسها إلىٰ ما يُشبه لاهوتاً أرضيّاً يُرشح نفسه بديلاً عن لاهوت السماء، المتمثل بالكنيسة وما يرتبط بها. ولقد استطاعت نتائج الثورة العلميّة أن تُوزع نفسها علىٰ صياغتين: الصياغة الرأسماليّة والصياغة الاشتراكية، وانتشرت أوروبا في محيط عالميّ واسع بعد اكتشافات جغرافيّة وامتدادات استعمارية، وصارت أول حضارة قوميَّة تُشكل عالميَّة واسعة تجاوزت كل الحدود التاريخيَّة للعالميَّات والحضارات السابقة، وحملت معها إلىٰ مستعمراتها ومناطق نفوذها سائر اختياراتها بما فيها التطورات الحادة التي مرت بها عبر الثورات المتلاحقة مروراً بـالثورة العلميّة. ووجد العالم نفسه -ومنه العالم الإسلاميّ- يحمل تلك المظلة أو المظلات الأوروبيَّة متأثراً بالمبتكرات العلميَّة والاكتشافات والمنجزات والهزيمة الداخليَّة لتُحدث فينا حالة تَنزع بنا وتَدُعُّنا دعّاً باتجاه التحول نحو مسيرتها: تصوراً ونمطاً وسلوكاً. وهو الذي سميناه بـالتغريب،

ذلك يَعني انحسار مجتمعاتنا التقليديَّة لصالح المجتمعات الجديدة التي تم تصنيفها وفقاً للتطور الأوروبيّ، وإذا بمفاهيمنا الإسلاميّة وتصوراتنا القرآنيّة تبدأ بعمليّات تراجع أو تحوّل وحدوث انقلاب حقيقيّ في مفاهيمنا الكونيَّة حول الإنسان والحياة والكواكب والمجرات وعلاقة الإنسان بمختلف ظواهر الطبيعة، وبدأت تَدخل مع إيماننا بالغيبيّات في حالة صراع عنيف عنيد. وصار الإنسان المسلم يَسعىٰ -بكل شدة ودون تردد- لقبول المفاهيم والتصورات الجديدة التي لم يجد نفسه قادراً علىٰ مقاومتها وهو يمر بمرحلة التحول من السلعة إلىٰ المفهوم الكامن وراءها، فأنت حين تأخذ سيارة أو غسّالة أو تَمتطي مِصعداً كهربائيّاً أو تطير بطائرة لا تستطيع أن تعزل السلعة عن الارتباط المفاهيميّ بمعنىٰ الإنتاج والتوزيع وما يترتب علىٰ الاستعمال والمتغيِّرات التي لا بد أن تتصل بذلك كله.

ومن أخطر ما حدث في هذه التطورات التغيّر في النظرة إلىٰ الوسيط النقديّ والجهد الإنسانيّ والسلعة والإنتاج والاستهلاك، والإطار الفلسفيّ الذي بدأ يحتل مواقع الأُطر الأخرىٰ.

وإذا بأفكار وفلسفات كثيرة تُطرح من خلال المسيرة العقليَّة فَتُحِلُّ فكرة الدين الطبيعيّ والأخلاق الطبيعيّة محل الدين الإلهيّ والأخلاق الشرعيَّة، فلا غرابة أن تمر أوروبا منذ القرن السادس عشر بمرحلة انحلت فيها الروابط الدينيّة والعائليّة والاجتماعيّة فنشأت الحروب وتعددت الفلسفات.

ومن القرن السادس عشر حتىٰ القرن العشرين حصل الإنسان علىٰ كثير من الإيجابيّات، منها تطور مناهج البحث العلميّ كما حفل بأعداد كبيرة من السلبيّات التي يُعد من أخطرها وأبرزها موضوع الرِّبا. فلقد قام الرِّبا علىٰ مبدأ استغلال فائض القيمة واستغلال ذلك الفائض لجعل المال يكسب المال ويأتي به، وعادت عبادة العجل الذهبيّ. وقام المجتمع الرأسماليّ في أوروبا بذلك الشكل المعروف، وانقسمت الشعوب إلىٰ عُمّال وأرباب عمل، وجاءت صياغة الحل الرأسماليّ بأن يُقبل

ذلك الانقسام ويُنظّم ويُستوعب عن طريق المنظومة الديمقراطيّة القائمة على حزبين جمهوريّين وديمقراطيّين في أمريكا ومحافظين وعمال في أوروبا، وجاءت الصياغة الماركسيَّة لتقول بإلغاء الملكيّة الفرديّة، وتحويل المال إلى الملكيّة الجماعيّة.

أما الأمة المسلمة فقد هجرت مُنطلقاتها وعقيدتها وتصورها الإسلاميّ وتبنَّت ما جاءتها به أوروبا وتشبَّثت به كما هو، وعدَّته ضريبة لا بدّ منها للاستمتاع بالمنجزات العلميّة، وأنه لا بُدّ لها من أجل ذلك من مشاركة البشريّة سلبيّاتها وإيجابيّاتها. وشاع الرِّبا وانتشر بين الدول والحكومات، وأُقيمت له المؤسسات العملاقة -وهي البنوك- ولم يَعد أحدٌ قادراً على التخلص من شروره وآثامه، ومن نجّاه الله منه أصابه غُباره.(١) حتى وقعت الأزمة الماليّة التي تخبَّط العالم فيها في ٢٠٠٨م، وتدهور تحت وطأة مَسّها.(٢)

وهذه الأزمة ما كانت لتقع لولا شيوع الرِّبا ودخوله في كل مجال من مجالات الحياة. فقد دخل طعام الناس وشرابهم، ومساكنهم وفرشهم، وملابسهم ومراكبهم، ونكاحهم وطلاقهم.

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة، أن رسولَ الله ﷺ قال: "ليأتين على الناس زمانٌ لا يبقى فيه أحد إلا أكل الرِّبا، فإنْ لم يأكله أصابه من غُباره" وقد اختلف أئمتنا في سماع الحسن عن أبي هريرة، فإن صح سماعه منه فهذا حديث صحيح". [التعليق - من تلخيص الذهبي] ٢١٦٢ - سماع الحسن من أبي هريرة بهذا صحيح. انظر:

- أبو عبد الله الحاكم، محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري (توفي: ٤٠٥هـ). **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م، ج٢، حديث رقم (٢١٦٢)، ص١٣. وضعّفه الألباني وقال: رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة. انظر:
- التبريزي، أبو ولي الدين عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمري (توفي: ٧٤١هـ). **مشكاة المصابيح**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٥م، ج٢، حديث رقم (٢٨١٨)، ص٨٥٧.

(٢) في سبتمبر ٢٠٠٨م بدأت أزمة مالية عالمية والتي اعتُبرت الأسوأ من نوعها منذ زمن الكساد الكبير سنة ١٩٢٩م، ابتُدئت الأزمة أولاً بالولايات المتحدة الأمريكية، ثم امتدت إلى دول العالم ليشمل الدول الأوروبية والدول الآسيوية والدول الخليجية والدول النامية التي يرتبط اقتصادها مباشرة بالاقتصاد الأمريكي، وقد وصل عدد البنوك التي انهارت في الولايات المتحدة خلال العام ٢٠٠٨م إلى (١٩ بنكاً)، كما توقع آنذاك المزيد من الانهيارات الجديدة بين البنوك الأمريكية البالغ عددها (٨٤٠٠ بنكاً).

وقد لخّص الدكتور دراز تاريخ بروز الرِّبا بالشكل الآتي: فتحدَّث عن مصر في عهد الفراعنة وبيَّن أن قدماء المصريين لم يكونوا يحظرون الرِّبا حظراً صارماً، بل وضعوا له قواعد للحدّ من أضراره، وإن لم تنتشر مثل القواعد التي وضعها حمورابي الذي تعامل بالرِّبا، وحاول أن يُنظِّم قانونيّاً التعامل به. حاول الفراعنة أن لا يصل الرِّبا إلىٰ مقدار رأس المال، ونُقل عن الدولتين الإغريقية والرومانية أنّ الرِّبا كان شائعاً وبدون حدود، حتىٰ إن المرابي قد يملك المدين نفسه إذا عجز عن الوفاء، ثم جاء تشريع صولون للقضاء علىٰ هذه العادة وحصر مسؤولية المدين في ماله أو ذمته لا في شخصه ورقبته، كما حدد الزيادة القُصوىٰ بنسبة ١٢٪ من رأس المال، وكذلك فعل واضعو الألواح الاثني عشر في روما، وبقيت هذه النسبة محفوظة في التشريع الروماني حتىٰ جاء جستيان وجعلها تدور بين ١٢٪ للتُّجار وأمثالهم، و٤٪ للنبلاء. وهذه التشريعات لم تأتِ إلا بعد اضطرابات وحروب وفتن داخلية استمرت بين الأغنياء والفقراء لكي تصل إلىٰ مثل هذه التحديدات التي لم تُجدِ في القضاء علىٰ آثار الرِّبا الضارة، وبقي مبدأ التعامل بالرِّبا سائغاً، والاتجاه كله انحصر في نسبته، والاستثناء الوحيد كان (اسبرطة) فهذه المدينة لم يكن لها نظام رِبوي بل اعتمدت علىٰ التعامُل بالمبادلة والمقايضة، كما منع قانونها الغرباء أن يُدخلوا أموالهم أو يدّخروا الذهب والفضة وجعل عقوبة ذلك هي الإعدام.

أما اليهودية والنصرانية فقد قامت بنوعٍ من التنظيم المغاير لقضية الرِّبا دون استئصاله مع تحريمه في التوراة والإنجيل، وإن كان الاتجاه العام في الشريعة الموسوية ميّالاً نحو الحظر والتحريم الكلّي، لكنّ هناك تفريقاً واضحاً بين اليهوديّ وغيره. ففي العهد القديم جاء الإصحاح ٢٥ من الفصل ٢٢ من سِفر الخروج ليقول: (إذا أقرضت مالاً لأحد من أبناء شعبي فلا تقف منه موقف الدائن، لا تطلب منه رِبحاً لمالِك). وفي الإصحاح ٣٥ من الفصل ٢٥ من سِفر اللاويين يقول: (إذا افتقر أخوك -أي الإسرائيلي- فاحمله لا تطلب منه رِبحاً ولا مَنفعة).

وتاريخ بني إسرائيل يُشير إلىٰ استمرار الإسرائيليين بالتعامل بالرِّبا مع الآخرين من غير اليهود وغير الإسرائيليين، وقد أشار القرآن المجيد إلىٰ هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦١]. وذلك يَعني أن تلك النصوص التي حصرت الرِّبا المحرَّم فيما بينهم تحتاج إلىٰ مراجعة وفحص وتدقيق.

أما في العهد الجديد ففي الإصحاحين ٣٤، ٣٥ من الفصل السادس من إنجيل لوقا يقول: (إذا أقرضتم لمن تنتظرون منه المكافأة فأي فضلٍ يُعرف لكم، ولكن افعلوا الخيرات وأقرضوا غير منتظرين عائدتها، وإذن يكون ثوابكم جزيلاً). وواضحٌ أن السيد المسيح -الذي جاء برسالة تصحيحية عملت علىٰ وضع بني إسرائيل علىٰ جادة الشريعة العتيقة- قد حرص أن يبيّن لهم أنّ الرِّبا مُحرّمٌ تحريماً قاطعاً مُطلقاً، وحاول كثيرٌ من قادة الكنائس فيما بعد التمسُّك بنهي رسول الله عيسىٰ عن الرِّبا بشكلٍ مُطلق، والنظر إلىٰ المرابين في أوروبا والبلاد التي اعتنقت المسيحية نظرة احتقار وازدراء وجشع، بل إن بعض المجامع النصرانية وَصفت المستبيح للربا بأنه ملحدٌ في الدين. كما قال الأب بونيو: (إن هؤلاء المرابين يفقدون شرفهم في الدنيا وليسوا أهلاً للتكفين بعد موتهم). وبقي النصارىٰ ينظرون إلىٰ الرِّبا هذه النظرة حتىٰ سنة ٧٨٩م وكان تحريم الرِّبا ومنعه هو المذهب الوحيد السائد في أوروبا طيلة القرون الوسطىٰ. وعلىٰ أثر الاعتراضات المتكررة علىٰ منع الرِّبا بين القرنين السادس عشر والثامن عشر والهجمات الكثيرة التي شُنّت علىٰ مبدأ منع الرِّبا وتحريم التعامل به، فإن كثيراً من الملوك بل والرؤساء الكنسيين صاروا يجترئون علىٰ ممارسة رذيلة الرِّبا، فلويس الرابع عشر اقترض بالرِّبا ليسدد ثمن دانكرن سنة ١٦٦٢م، والبابا بويو التاسع تعامل بالرِّبا في سنة ١٦٦٠م، ومنذ أواخر القرن السادس عشر ١٥٩٣م وُضع استثناء لحظر الرِّبا في أموال القاصرين؛ إذ أباحت الكنيسة استثمارها بالرِّبا بإذنٍ من القاضي إذا ثبت أن في ذلك مصلحة لأولئك القاصرين. وهذه الرخصة الكنسية أخذت بها المحاكم في

عهد الدولة العثمانية اعتماداً على فتوىٰ بعض علماء الحنفية، ثم أُجيز على مذهب تحريم الرِّبا في الثورة الفرنسية التي اتخذت من المذهب المعارض لمنع الرِّبا مذهباً لها، وجعلته هو المبدأ الرسمي، وقررت الجمعية العمومية الفرنسية بتارخ ١٢ أكتوبر ١٧٨٩م أنّه يجوز لكل أحد أن يتعامل بالرِّبا في حدودٍ خاصة يُعَيِّنها القانون.

الرِّبا في الجاهلية

كان الرِّبا في الجاهلية قد أصبح نظاماً شائعاً بأنواعه كلها، وقد يصل الرِّبا إلىٰ أضعاف رؤوس أموال المرابين، وسيطرت عليهم أهواؤهم ونزعاتهم المادية، فجعلوا منه القاعدة وجعلوا غيره من المعاملات الاستثناء، وتعاملوا بالرِّبا بكل أنواعه ودون قيود، ولا نستطيع أن ننفي تأثير اليهود عليهم في هذا المجال فقد كانوا يعايشونهم ويتعاملون معهم في شتّىٰ أنواع المعاملات. وفي الإصحاح العشرين من الفصل ٢٣ من سِفر التثنية نص علىٰ أن لليهودي أن يأخذ الرِّبا من غير اليهودي، وهذا شبيه بالفتوىٰ التي يَفتي بها بعض علماء المسلمين اليوم من أنه يجوز للمسلم أن يأخذ الفائدة من غير المسلم ولا يجوز له أن يعطيه، ويستند بعضهم إلىٰ بعض فَتاوَىٰ الأحناف في التعامُل في دار الحرب ومع أهلها، وهذا أمر لا يُقره الإسلام، وقد رفضناه بشدة عندما كنتُ رئيساً للمجلس الفقهي لأمريكا الشمالية، لأن الإسلام علّمنا أن الحلال والحرام والمبادئ الأخلاقية عامة شاملة، فليس للمسلم أن يتعامل مع المسلم في هذه الأمور بطريقة ويتعامل مع غيره بطريقة أخرىٰ. ومن شأن الرِّبا أن الناس إذا سقطوا في مقدماته فإنهم سوف يستمرئونه وينطلقون فيه دون قيود أو حدود. ومهما يكن من أمر فإن القرآن بدأ ينزل والعرب الوثنيون يقترضون بالرِّبا من اليهود ويتقاربون به فيما بينهم دون حَرجٍ أو غَضاضة.

ومع ذلك فقد حاول العرب أن يكونوا أقل جشعاً من جيرانهم اليهود، فلا يبدأون بالمحاسبة علىٰ الرِّبا إلا بعد السنة الثانية حين يَعجز المدين عن سداد دينه في السنة الأولىٰ، فيُجرون عقداً جديداً بدءاً من السنة الثانية علىٰ التأجيل في مُقابل الزيادة، وبحسب التراضي فيما بينهم. كما روىٰ مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم أنه قال:

"كان الرِّبا في الجاهلية، أن يكون للرجل على الرجل الحق إلى أجل، فإذا حل الأجل، قال: أتقضي أم تُربي؟ فإن قضى أخذ، وإلا زاده في حقه، وأَخّر عنه في الأجل."[(١)] وهكذا نزل القرآن ليردَّ الاعتبار لشريعة التوراة، ولما جاء في العهدين القديم والجديد، ويعمل على اقتلاع هذه الرذيلة، لا من أرض العرب وحدها بل من الأرض كلها، وليجعل من التعامل بالرِّبا تعاملاً غير مشروع. ومن المؤسف أن ما حدث في فرنسا بعد الثورة الفرنسية حدث مثله في بلاد المسلمين، فصار بعض المسلمين يتعاملون بالرِّبا اقتراضاً ثم إقراضاً، ثم بعد ذلك شاع وأقرّته القوانين والنظم التي حلّت محل الشريعة الإسلامية في بلاد المسلمين تحت ضغط السلطات المحتلة في بادئ الأمر، ثم أبقت الحكومات التي يُفترض أنها قامت على أنقاض الاحتلال على تلك الرذيلة في أراضي المسلمين، ودافعت عنها وحمتها، وعدّت التعامُل بها تعاملاً مشروعاً وحقّاً لأهله، وبدأت تتقبّل فكرة تأسيس المصارف والبنوك الأهلية وغيرها حتى لم يعد بلدٌ واحدٌ من بلاد المسلمين لم يتلوث بهذه الرذيلة، بل بدأت بعض الحكومات تُقرض مواطنيها لشراء البيوت أو سد الاحتياجات التي تنزل بهم بالرِّبا؛ قليله وكثيره تحت تسويغات مختلفة وحججٍ لا تقوم بها الحجة، مثل كون الفوائد المقدّمة هي أجور للعاملين في تلك البنوك أو بدلٌ عنها أو هي وسيلة لتقليل آثار التضخم على الهبوط بقيمة العملة المقترضة وهكذا.

إن القرآن الكريم في هذه الآيات يُحرّم الرِّبا تحريماً قاطعاً، كتحريمه الزنا والقتل والشرك بالله وسائر الموبقات، ولا يُعطي أي مجال للتساهل فيه، فالحكيم الخبير يعلم أنّ أي تساهلٍ في هذا الأمر؛ سواءٌ في استثمار أموال القاصرين فيه أو في استعماله مع غير المسلمين، أو في دار الحرب، أو في القروض التجارية، أو في أي شيء من تلك الأشياء، سوف يفتح المجال واسعاً أمام الولوغ فيه. وإن كان القرآن الكريم قد تدرّج في النهي عنه وتحريمه واقتلاع آثاره لتيسير عملية التخلّي عنه على من عاشوا في ظل النظام

(١) الأصبحي، مالك بن أنس بن مالك (توفي: ١٧٩هـ). **موطأ الإمام مالك**، صحّحه ورقّمه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م، ج٢، حديث رقم (٨٣)، ص٦٧٢.

الربوي الجاهلي قروناً عديدة، فذلك لا يعني أن تُخرج الآيات من سياقاتها المتدرِّجة لتوظَّف في إيجاد مخارج تَعود على أصل الحُكم بالنقض، فقد رأى المسلمون في أزمات العالم المتكررة، ومنها أزمة ٢٠٠٨م كيف يدفعون من دمائهم ومواردهم وقوت أبنائهم وأبناء مِلَّتهم فواتير الرِّبا للعالم الجشع الذي لا يوفّر شيئاً دون استغلال، وبناء عليه فإن هذه الآيات المحكمات يحكمها النص الصريح الذي جاء بالتحريم القاطع والمنع الواضح من ممارسة هذه الرذيلة.

وبعد هذه الجولة في تاريخ الرِّبا نعود للآيات، ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥].

الذين يتعاملون بالرِّبا لا يكونون في سعيهم وتصرفهم وسائر أحوالهم إلا في اضطراب وخَلل، كالذي أفسد الشيطان عقله فصار يتعثر من الجنون الذي أصابه، لأنهم يزعمون أن البيع مثل الرِّبا في أن كُلًّا منهما فيه معاوضة وكسب. فيجب أن يكون كلاهما حلالاً، وقد رد الله عليهم زَعمهم، فبيّن لهم أن التحليل والتحريم ليس من شأنهم، وأن التماثل الذي زعموه ليس صادقاً، والله قد أحل البيع وحرم الرِّبا، فمن جاءه أمر ربه بتحريم الرِّبا واهتدى به، فله ما أخذه من الرِّبا قبل تحريمه، وأمره موكول إلى عفو الله. ومن عاد إلى التعامل بالرِّبا باستحلاله بعد تحريمه، فأولئك يُلازمون النار خالدين فيها.[1]

وتبعاً لما سبق، لا ينبغي لأحد أن يتساهل في هذا الأمر، أو يبحث عن المخارج والحيل، أو يفتح أية نافذة إليه بعد أن أَغلق الله تعالى جميع النوافذ الموصلة إليه.

---

(١) لجنة القرآن والسنة، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٦٦. فإن قيل: كيف قلتم أنَّ أهل الكبائر لا يخلّدون في النار، وقد قال الله تعالى في حق آكلي الرِّبا: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥]؟ قلنا: الخلود يُستعمل بمعنى طول البقاء، وإن لم يكن بصفة التأبيد. يقال: خلّد الأميرُ فلاناً في الحبس إذا طال حبسه، أو قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] إشارة إلى من عاد إلى استحلال الرِّبا بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، بعد نزول آية التحريم، وذلك يكون كافراً والكافر مخلَّدٌ في النار.

إن ما يذهب إليه البعض من التفريق بين ما سمّوه ربا القرآن وربا السُّنة، أو ربا النّسيئة وربا الفضل، فيوافق في الأول على سبيل الإطلاق، ويأتي إلى الثاني ويتحدث عنه مرةً بطريق التخصيص في الأصناف الستة،[1] وإباحته فيما عداها، أو تعميمه في النقدين والمطعومات والفواكه والتوابل، فهذا أيضاً ينبغي فهمه في إطار أنّ رسول الله لا يمكن أن يخالف القرآن الكريم بشيء، ولا أن يأتي بما يعود على أصل من أصوله بإضعافٍ أو تسييل أو تمييع، فقد كان ﷺ مُدركاً تمام الإدراك أن هذه الرذيلة البشعة لا بدّ من استئصالها بالقرآن المجيد وتطهير الواقع وجزيرة العرب قاعدة الإسلام ومنطلقه الأول من براثينها وآثارها، فكان أول رباً وضعه ربا عمه العباس.[2] وحينما منع ربا الفضل في الأصناف الستة أراد بذلك أن يؤسس اقتصاداً جديداً للمدينة المنورة يكون نموذجاً لأمم الأرض فيما بعد، وكان هذا الاقتصاد ينفي الرِّبا من أساسه ولا يسمح بشيءٍ منه لا في القروض ولا في المبايعات ولا في التبادل والمقايضة والديون، لئلا ينفتح له أي باب أو نافذة، ولكي نفهم أحاديث ما عُرف بربا الفضل أو ربا السُّنة لا بدّ لنا أن نستحضر حديث البخاري الذي رواه -بسنده- عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا "أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً على خَيْبَرَ، فَجَاءَهُ بِتَمْرٍ جَنِيبٍ، فقال رسول الله ﷺ: أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا؟ فقال: لَا والله يا رَسُولَ الله، إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ من هذا بِالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ، فقال: لَا تَفْعَلْ، بِعِ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ، ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيباً."[3]

(١) هي المذكورة فيما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: "الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد، أو استزاد، فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواء." انظر:

- مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب المساقاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً، حديث رقم (١٥٨٧)، ص٦٤٧.

(٢) قال ﷺ في حجة الوداع: "وربا الجاهلية موضوعٌ، وأولُ رباً أضع من رِبانا ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوعٌ كلّه". انظر:

- الألباني، محمد ناصر الدين. **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٢٠هـ، ج١، حديث رقم (٢٠٦٩)، ص٤١٥.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب المغازي، بَاب اسْتِعْمَالِ النبي ﷺ على أَهْلِ خَيْبَرَ، حديث رقم (٤٢٤٤)، ص٨٠٤.

فالتحول من المقايضة والمبادلة إلىٰ استعمال الوسيط النقدي -إضافةً إلىٰ أهميته في التغيير الاقتصادي والانتقال من اقتصاد المنزل والقرية أو المدينة الصغيرة إلىٰ اقتصادٍ عام- كان هدفاً من أهدافه ﷺ، وهذا لا يتم إلا إذا جَرت عملية تجاوز المقايضة والمبادلة. وفي الوقت نفسه بقطع دابر فتح أية نافذة -خارج دائرة القروض- للرِّبا، فيصبح الرِّبا مقتلَعاً من سائر أنواع التعامل، لا يدخل في القروض ولا في البيع والشراء ولا في المقايضة والمعاوضات، وبذلك يحقق رسول الله ﷺ كل ما جاء في آيات الكتاب الكريم بإحكام وتفصيل ليجعل منه واقعاً يعيشه الناس بحيث لا يُتوقّع أن يعودوا لممارسته بأي شكلٍ من الأشكال. فهل أدرك المسلمون اليوم -وقد ولغوا في الرِّبا ودخلوا في معاملات حكوماتهم وأفرادهم وتُجّارهم ومن إليهم- كيف هجروا القرآن وتجاوزوا سنة رسول الله ﷺ؟

حقيقة مسّ الشيطان

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وبمناسبة هذه الآية الكريمة نود أن نشرح المراد بالمسّ فيها؛ لندرأ بذلك فهماً خاطئاً فَهِمه بعضُ المسلمين أو كثيرٌ منهم نتج عنه سلوكيات وممارسات خاطئة كذلك.

فهناك صورٌ تدخل إلىٰ مخيِّلات الناس تحمل معها بشاعةً لا تُوصف، يوحي بها التركيب الذي يُصاغ؛ ليعبّر عن تلك الصور البشعة؛ لتنفير النفوس منها وصرفها عنها، وإبعادها عن السقوط فيها، ومنها هذه الصورة المتخيّلَة البشعة المنفِّرة، فمن الذي يستطيع أن يتصور نفسه وقد مسّه الشيطان ذلك المخلوق البشع المنفِّر الذي جسّد الله الشر فيه، وجعله عنواناً له ولكل أنواع القُبح التي يحملها؟ ومَن الذي يستطيع أن يتصور أنّه يقوم وهو يظن بنفسه القُدرة علىٰ القيام ثم يجد نفسه قد سقط، لأنه قد مسّه الشيطان فصار قيامه وقعوده وسقوطه وهويه تخبطاً غير منتظم، لا يخضع لإرادة ولا يقوم علىٰ تصور، لكنّه تخبطٌ فقط وتخبطٌ بيد شيطان لا يَستقر ولا يَهدأ ولا يَتوقف شرّه ولا يقف خطره وضره كالذي ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ذلك لأنهم قلبوا الحقائق وغيروا الأدوار، وتلاعبوا بالنِّعم فاستحقوا ذلك، إنها صورةٌ

يرسمها القرآن معتمداً في إظهار بشاعتها على ما استقر في أذهان البشر كافة – منذ أن أُخرج أبواهما من الجنة– من بشاعة صورة الشيطان ووسوسته ومسّه وهمزه ولمسه ونفثه وسائر أنواع تصرفاته، لكن هذه الصورة مثل صورٍ أخرى كثيرة، حسنة وسيئة، جميلة وقبيحة، دأب القرآن على تصوير ما يريد تصويره، لكن البعض قد أساء فهمها، وحوّلها من تصويرٍ فني لبناء حاجز نفسي بين الإنسان وبين السقوط بالرِّبا، وبين تحويلها من الخيال إلى الواقع، وجعل عملية المس هذه سلطةً إضافية للشيطان على الإنسان.

والمسّ في القرآن ورد لمعانٍ عديدة، منها الجنون والأذى والعذاب وما إلى ذلك،[1] وقد ارتسم في ذهن الإنسان ونفسه أنّ الشيطان وراء الجنون ووراء كل شر ومنه الصَّرع الذي عُبّر عنه بالتخبُّط في الأرض، فكأن الإنسان يخبط في الأرض خبطاً في حركاتٍ عجيبة غير منضبطة لا تصدر إلا عن الشيطان ومسّه. ولكن الحقيقة أن المسّ هو تأثيرٌ معنويّ يغلب أن يكون بطريق الوسوسة، فالشيطان يُوسوس للإنسان بالشر، فإذا تقبَّل الإنسان وسوسته وتأثر بها فإن الأمر سوف ينتهي إلى أن يقال: قد مسّه الشيطان، فيه مسٌّ من جنون، والله تبارك وتعالى قد قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وهذا الطائف تعبيرٌ مُعجِز دقيق، لأن الشيطان يَطوف بالإنسان في كل وقت محاولاً أن يجد ثغرة، والثغرة التي يجدها تنبثق عن غفلة الإنسان عن ذكر ربه وابتعاده عنه، وآنذاك يُقيّض لهذا

(١) قال الراغب: المسّ كاللمس، لكن اللمس قد يقال لطلب الشيء وإن لم يوجد، كما قال الشاعر: وألمسه فلا أجده، والمسّ يقال فيما يكون معه إدراك بحاسّة اللمس، وكنّي به عن النكاح، فقيل: مسّها وماسّها، قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وقرئ: ﴿مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ [آل عمران: ٤٧] والمسيس كناية عن النّكاح، وكنّي بالمسّ عن الجنون. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥] والمسّ يقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى. نحو قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: ٨٠]، وقال: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨]، ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [ص: ٤١]، ﴿مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ [يونس: ٢١]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧]. انظر:

– الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٧٦٧.

الإنسان شيطاناً فهو له قرين، قال -جل شأنه-: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]، أي مصاحب ولكن عن بُعد، فإذا ذكر الله واستعاذ بالله من الشيطان أُبعد الشيطان وهمسه ولمسه ولمزه ووسوسته وأي تأثير له.

فكل هذه الدعاوىٰ التي يُكثر الناس اليوم من ترديدها هي نوعٌ من الدعاية للشيطان، والدعوة إلىٰ التصديق بتأثيره والخوف منه بل والاستسلام له، بل إن فريقاً من الناس قد أضلهم الله علىٰ عِلم قد عبدوا الشيطان وحَرَّموا الاستعاذة منه، ورأوا أن الأَوْلىٰ للتخلص من شره هو مسالمته، وتقديم القرابين له وتجنب الاستعاذة منه لئلا يَغضب عليهم. والجنون فنون.(١)

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥]

ذلك العذاب لأنهم قالوا: إنما البيع مثل الرِّبا، في أن كُلّاً منهما حلال، ويؤدي إلىٰ زيادة المال، فأكذبهم الله، وبيَّن أنه أحلّ البيع وحرَّم الرِّبا؛ لما في البيع والشراء من نفع للأفراد والجماعات، ولما في الرِّبا من استغلال وضياع وهلاك، فمن بَلغه نهي الله عن الرِّبا فارتدع، فله ما مضىٰ قبل أن يبلغه التحريم، ولا إثم عليه فيه، وأمره إلىٰ الله فيما يَستقبل من زمانه، فإن استمرَّ علىٰ توبته فالله لا يضيع أجر المحسنين، ومن عاد إلىٰ الرِّبا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥-٢٧٦]، يُذهب الله الرِّبا كله أو يحرم صاحبه بركة ماله، فلا ينتفع به، ويُنمي الصدقات ويكثرها، ويُضاعف الأجر للمتصدقين، ويبارك لهم في أموالهم. والله لا يحب كل مُصِرٍّ علىٰ كُفره، مُسْتَحِلٍّ أكل الرِّبا، متمادٍ في الإثم والحرام ومعاصي الله.

---

(١) قد فصّلنا القول في هذا الأمر عندنا تفسيرنا لقول الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ﴾ [البقرة: ١٠٢].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ ﴾ [البقرة: ٢٧٧]

إن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا الأعمال الطيبة، وأدّوا الصلاة كما أمر الله ورسوله، وأخرجوا زكاة أموالهم، لهم ثواب عظيم خاص بهم عند ربهم ورازقهم، ولا يلحقهم خوف في آخرتهم، ولا حزن على ما فاتهم من حظوظ دنياهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] يا من آمنتم بالله واتبعتم رسوله خافوا الله، واتركوا طلب ما بقي لكم من زيادة على رؤوس أموالكم التي كانت لكم قبل تحريم الرِّبا، إن كنتم محققين إيمانكم قولاً وعملاً.

﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] فإن لم ترتدعوا عما نهاكم الله عنه فاستيقنوا بحرب من الله ورسوله، وإن رجعتم إلى ربكم وتركتم أَكْلَ الرِّبا فلكم أَخْذُ ما لكم من ديون دون زيادة، لا تَظْلمون أحداً بأخذ ما زاد على رؤوس أموالكم، ولا يظلمكم أحد بنقص ما أقرضتم.

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠ ﴾ [البقرة: ٢٨٠] وإن كان المدين غير قادر على السداد فأمهلوه إلى أن ييسِّر الله له رزقاً فيدفع إليكم مالكم، وإن تتركوا رأس المال كله أو بعضه وتضعوه عن المدين فهو أفضل لكم، إن كنتم تعلمون فَضْلَ ذلك، وأنَّه خير لكم في الدنيا والآخرة.[1]

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾ [البقرة: ٢٨١] هذه الآية الكريمة -وردت آثارٌ كثيرة تؤكّد أنّها آخر ما نزل من القرآن الكريم-[2] تأتي لتؤكّد على التقوى بوصفها العاصمة للإنسان من مسّ الشيطان والوقوع

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٤٧.

(٢) بسط الكلام على هذه المسألة العلامة عبد العظيم الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان"، انظر:

- الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم (توفي: ١٣٦٧هـ). **مناهل العرفان في علوم القرآن**، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣، ١٩٤٣م، ج١، ص٧٠.

في الرِّبا الحرام، والتخبّط في الحياة، وتوهّم أن الرِّبا يكوّن الثروة ويرفع المستوىٰ المادي للإنسان، كما أنها تبيّن أنّ هناك يوماً يرجع الناس جميعاً فيه إلىٰ الله، ثم توفّىٰ كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون، فالرِّبا فيه نوعٌ من استغلال حاجة الفقير والمدين والمحتاج، فيُذكّر الله -سبحانه- وهو صاحب الفضل الأعظم كيف يُضاعف للناس يوم القيامة حسناتهم أضعافاً مضاعفة، لكنّه إذا ما جاء للسيئات وَفّىٰ كل نفسٍ ما كسبت دون زيادةٍ ودون مضاعفة، لعل تلك الصورة -مع ما مرّ في الصدقة من مضاعفة الحسنات أضعافاً كثيرة حتىٰ لتبلغ سبعمائة ضعف أو تزيد في حين لا تُقابل السيئة إلا بمثلها-، تؤثر في نفوس قارئيها فتعامل الفقير المدين أو المحتاج -الذي تَخَلَّف عن الدفع- بالعفو والمسامحة، فيأخذ الدائن رأس ماله فقط دون زيادة ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٩]، فلعل هذا التعامل في الدنيا والعفو عن الآخرين ومسامحتهم يؤدي إلىٰ العفو عنا يوم القيامة، يوم الرجوع إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

آية الدَّيْن

وإذ بيّن -تبارك وتعالىٰ- حُرمة الرِّبا وبشاعته وبيّن ضرورة تقوىٰ الله والتقرّب إليه تأتي آية الدين وهي أطول آية في القرآن المجيد لتبيّن أن الحياة بطبيعتها سوف تَحمل البشر علىٰ أن يكون فيهم دائن ومدين، فالله فضّل بعض الناس في الأرزاق ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل: ٧١]. فإذا قصّرت موارد الإنسان عن الوفاء باحتياجاته فإنه قد يستدين، فجاءت الآية الكريمة لتُعلِّمنا أحكام الدَّيْنِ وآدابه وسننه وشروطه وتوثيقه ووجوب الوفاء به وفقاً للشروط المبرمة وما إلىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فأول وسائل إبعاد منابع الاختلاف حول الدَّين كتابته، وهذه الكتابة ينبغي أن يقوم بها كاتبٌ بالعدل، كاتبٌ ذو مواصفاتٍ خاصة، وله صلاحيات معينة ليستوثق الدائن لدينه، فلا يتمكّن المدين

أن ينكر أو يغيّر في أجله أو مقداره أو شروطه، والكاتبون مأمورون أمراً إلهيّاً بأن لا يمتنعوا عن التوثيق، وليتذكروا نعمة الله عليهم بتعليمهم الكتابة وجعلهم قادرين على التوثيق، وأما مَن عليه الحق فعليه أن يوقّع ويمضي ولا يبخس منه شيئاً عند الوفاء، وفي ذلك ما سوف يشجع أصحاب المال على إقراض المحتاجين، ويشجع المدينين على السرعة في الوفاء وعدم الإخلال بما اتفق عليه، ولا بدّ أن تُظلل التقوى جميع أطراف هذه المعاملة، من الدائن والمدين، والكاتب والشهود، فالتقوى هي الضمانة التي ستجعل كل واحد من هؤلاء يقوم بما عُهد له به.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقد يكون المقترِض غير مَؤهلٍ لإعطاء الضمانات الكافية والالتزام بالوفاء، كأن يكون ضعيفاً أو سفيهاً أو لا يستطيع أن يُوقع أو يملّ، فعلى أولياء هؤلاء القيام بعملية التوثيق، ولا بدّ من الإشهاد، فالشهادة تُزيل اللبس والغموض، وتحسم الاختلاف وتقيم الحجة على المدين لصالح الدائن.

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٌ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وذلك لأن معاملات الدَّين والتجارة والمعاملات المالية لم تكن مما يمارسه النساء إلا نادراً، وبناء عليه فقد لا تكون الشاهدة الواحدة كافية لمعرفة سائر ما يتعلّق بمعاملة الدَّيْن أو التجارة، فكان لا بدّ من اثنتين إضافة إلى الرجل، وليس في ذلك تقليلٌ من شأن المرأة ولا من شأن ذاكرتها أو قدراتها، فالشهادات مبنيةٌ على جعل القاضي قادراً على أن يرى المعاملة المشهود عليها، كما لو كانت قد جرت أمامه، ليتمكّن من الحكم بالعدل على سبيل اليقين أو على سبيل غلبة الظن، ولذلك فإن بعض الشهادات لا يُقبل فيها الرجال، خاصةً ما يتعلّق بالقضايا الداخلية للنساء، وبعض الشهادات لا يُقبل فيها إلا رجلٌ وامرأتان كهذا النوع من الشهادة، وبعض الشهادات لا يُقبل فيها الرجلان بل لا بدّ من أربعة، وهكذا تتعدد أنواع الشهادات دون أن يكون لها أية علاقة بكرامة

أو تقدير، بل العلاقة كلُّ العلاقة مُنصبَّة على الشهادة التي تُقنع القاضي بأنّ ذلك ما حدث فعلاً وواقعاً، فلا حاجة إلى هذا الذي يُكثر المعاصرون من الخوض فيه من أنّ اشتراط شهادة اثنتين بدلاً من رجلٍ واحد فيه تقليل من شأن المرأة أو طاقاتها الذهنية والعقلية، فالمرأة -إذا لم تشتغل في قضايا الشرطة والجرائم- إذا رأت جريمة ترتكب فقد تشيح بوجهها عن موقع الجريمة وعن المتقاتلين فلا تستطيع تحمُّل تفاصيل ارتكاب الجريمة ورؤيتها بشكلٍ دقيق، في حين أن الرجل قد يركز نظره ليرى ما يحدث على سبيل التفصيل- وليس كل الرجال كذلك-، ولكن كما قلنا إن لكل قاعدة شذوذاً، ولكن القوانين والنظم والحقوق مبنية على الاحتياط والتعميم لا الاستثناء، والله أعلم.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهذا أصل في وجوب استجابة الشهود لدعوى المحاكم، وعلى المحاكم أن تقدّر ما إذا كان الحضور لأداء الشهادة سيُؤدي إلى ضرر مادي يقع على الشاهد في عمله أو أجره، فقد تقتضي الشهادة -مثلاً- سَفَراً، فعلى المحاكم أن تهيئ الأسباب أيضاً للشاهد، وتمكّنه من الإدلاء بشهادته دون وقوع ضرر عليه في نفسه وماله.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أي الدَّين صغيراً أو كبيراً إلى أجله، فأنتم لا تُقدّرون دواعي النفوس عند الوفاق والخلاف، فقد تتحلّى النفوس بالسماحة فتتعامل مع دَيْن كبير كأنه صغير جدّاً، وقد تُبتلى بالشح وهو جزء من الطبيعة الإنسانية ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩]. فيتحول الصغير إلى كبير وتتجسد الاختلافات وتُؤدي إلى مصائب ومشاكل كثيرة.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ذلك هو الأعدل الذي يوصيكم الله به، والذي يجعل لشهاداتكم قيمة قادرة على معالجة اختلافاتكم ودفع الريب والشكوك والسيطرة على مصادر الاختلاف، وهذا في كل ما هو مؤجّل إلى أجلٍ مسمّى ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾

[البقرة: ٢٨٢] أما التجارة الحاضرة التي تدار بالتعاطي فيدفع البائع البضاعة ويدفع المشتري الثمن، فهذه معاطاة قائمة على التراضي المباشر ليس فيها تأجيل لأيٍّ من الأمرين؛ إذ إنّ تأجيل البضاعة عن دفع الثمن قد يلُحقها بالسَلَم، وتأجيل دفع الثمن يجعلها من قبيل القرض، وفي كلتا الحالتين لا بدّ من الكتابة والإشهاد أما الحالة المستثناة الوحيدة هي التجارة القائمة على المعاطاة والتراضي. ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أيضاً ففي البيع إذا أمكن الإشهاد فمن المفيد أن يتم إشهادٌ على البيع، ولعل ذلك فيما يُخاف فيه نقض أحد المتبايعين للبيع دون تقيّدٍ في شروط وآداب الخيار المعروف. ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولا يضرهما صاحب الحق بتكليفهما بما لا يليق في الكتابة والشهادة ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ما نُهيتم عنه ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] خروجٌ عن آداب الشرع ووصايا الشارع الحكيم ودخولٌ في الفسق المنهي عنه في هذه الشريعة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أمرٌ آخر بالتقوى ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٨٢﴾ [البقرة: ٢٨٢] فعلمه محيطٌ بكل شيء لا ينفد ولا ينضب.

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وهنا يعطينا تفصيلاً آخر رحمة ورأفةً منه -جل شأنه-، فيبيّن لنا أحكام الرَّهن، والرَّهن: أي شيء يقبله الدائن بوصفه وثيقةً يتصرف بها لو عجز المدين عن الوفاء، ليسترد منها دَيْنَه ويرد الباقي على صاحب الرَّهن، كأن يرهن إنسانٌ ساعته أو خاتمه أو مالاً آخر لديه، فيقول ليس معي من النقد ما يُغطي هذا الدين فخذ هذا مني رهناً، وللرهن أحكام تفصيلية كثيرة أهمها ما جاء في هذه الآية من بيان مشروعيته وحِلّ التعامل به وكيفية ذلك.

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٢٨٣ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] فقَبِلَ المرتهنُ الرَّهنَ فليؤدِّ الذي اؤتمن على الدَّينِ الدَّينَ لصاحبه وليسترد رهنه، ولا ينبغي للمرتهن أن يطمع في الرَّهن ويحاول الاستئثار به مستغلّاً حاجة أخيه، فينبغي أن يكون العدل

والنصفة رائد الطرفين الراهن والمرتهن، ولتكن التقوىٰ هي المهيمنة علىٰ كلٍّ منها في هذا النوع من التعامل، ثم يأتي نهيٌ آخر عن كتمان الشهادة، ويبيّن أثره المباشر علىٰ القلب، وكأن الله سبحانه وتعال ينبّه الشهود علىٰ ضرورة مطابقة القلب للسان، أو ما في القلب علىٰ ما في اللسان، فالتعامل بالشهادات إنما هو تعامل مع الله تبارك وتعالىٰ، فلا ينبغي للشهود أن يكتموا، ومَن كتم فإنّ لذلك الكتمان أثره في تأثيم القلب ونيل القسوة منه، ويُخشىٰ من إحاطة الدَّين به، والله أعلم.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: ٢٨٤] وإذ تنتهي السورة من عرض كل تلك الشرائع بذلك التفصيل الدقيق الشامل تتهيأ لتقديم خاتمةٍ شاملة، فالكون كله والإنسان والحياة هي لله -جل شأنه-، وسواءٌ أخفيتم ما في صدوركم أو أعلنتموه فإن الله يعلمه وإنّه محاسبكم عليه، فهذه الآية خاتمةٌ ملائمة لكل تلك التشريعات التفصيلية الدقيقة المتنوعة، صحيحٌ أن معظم المعاملات تجري علىٰ الظواهر ووفقاً للعقود، ولكن ينبغي أن تكون السرائر أيضاً نقية وسليمة ومخلصة فيما تأخذ أو تدع؛ لأن الحساب شامل للجميع.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥] ثم ينتقل السياق ليُعلِم المؤمنين أن كل هذا الذي تقدّم آمن به رسول الله ﷺ فهو قد آمن بكل ما أُنزل إليه وكذلك المؤمنون جميعاً، كلٌّ منهم قد آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبسائر الشرائع المنزّلة علىٰ رسول الله ﷺ، وأنه ﷺ آمن وآمن معه المؤمنون برسل الله كافة دون تفريقٍ بينهم أو إنكارٍ لنبوة أو رسالة أيّ منهم، ودون تقليلٍ من أهمية أية شِرعة أُنزلت علىٰ أيٍّ منهم ﴿وَقَالُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٥] أي الرسول والمؤمنون ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥] يطلبون من الله المغفرة بعدما التزموا بكل ما أُمروا به.

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

هنا يعلمنا الله أن نسأله ألّا يحمّلنا ما لا طاقة لنا به وقد فعله تعالىٰ، ولا يوجد في شريعتنا تلك ما لا نطيقه، لأنه ما جُعِل علينا في الدِّين من حرج، وأعلن أنه -جل شأنه- وضع عنّا الإصر والأغلال، وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨ ﴾ [النساء: ٢٨] ومع ذلك فقد تناول علماء أصول الفقه فيما تناولوه مسألةً أسموها بمسألة تكليف ما لا يُطاق، وأكثروا الجدل فيها وحولها، وأطالوا القول في أن لله أن يكلّف ما لا يُطاق، وأنه جائزٌ عقلاً، وزعم بعضهم أنه واقع وأخذوا وأعطوا في ذلك، والآية نصٌّ في أنّ الله - تبارك وتعالىٰ - لا يكلّف نفساً إلا وسعها، وأنه لا يكلّف نفساً إلا ما آتاها، وأن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ثم يعلّمنا الدعاء واللجوء إليه، وبذلك يُهيّئ للربط بين خاتمة هذه السورة، وبداية سورة آل عمران التي ورد فيها ذكر أولئك الذين في قلوبهم زيغ.

فنتمنىٰ علىٰ الله -جل شأنه- أن ينصرنا علىٰ الكافرين -وهم منهم- إنه سميعٌ مجيب.

سُورَةُ الأَنْعَامِ

بين يديّ السُّورة

هذه السُّورة الكريمة -سورة «الأنعام»- هي السادسة في ترتيب المصحف، والخامسة والخمسين في ترتيب النزول تلت سورة الحجر في النزول. وتُعد هذه السُّورة من السُّور القليلة التي نزلت جملةً واحدةً، على طولها. وقد سُميت «سورة الأنعام» بهذا الاسم، لأنّها اشتملت على أحكام الأنعام، وبيان الحلال والحرام فيها. وهي السُّورة التي بيّنت -بشكل لا تجده في غيرها- العلاقة الوثيقة بين الشِّرك والكفر بالله ودعاوى الجاهليّة من جهة، والمآكل والمشارب وأحكام الطعام من جهة أخرى، وتأثيراتها في ذلك. وأسماء السُّور أسماء فيها معان وإيحاءات كثيرة. فالأنعام جاء ذكرها وبيان منافع كل منها في سور عديدة، لم تغادر وصفاً أو فائدة أو منفعة إلا وذكرت في موقعٍ ما من القرآن المجيد. والقارئ المتدبّر مطالبٌ باستدعاء كل تلك الأمور لتصبح التسمية -وحدها- مصدراً مهمّاً من مصادر التدبُّر ومعرفة نِعم الله تعالى في مدلول الاسم. ولقد ذكرت بعض المصادر أنّ هناك من سمّاها بـ«سورة الحُجّة» ملاحظة لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣] وليس ثمّة نصٌّ يدل على أنّ هذه التسمية توقيفيَّة؛ ولذلك لم تَشِع، فهذه التسمية الأنعام تسمية وحيدة لهذه السُّورة. فـأسماء سور القرآن هادفة كلها -كما ذكرنا-، وقد ضرب الله تعالى المثل بالبعوضة وما فوقها، ولم يستحِ من ذلك -كما كان المشركون يدّعون- لأنّ هذه الأنعام والحشرات مسخّرات خاضعة طائعة لله -تعالى- بنظام التسخير، فهي -من هذه الناحية- أقرب منهم إلى الانسجام مع مراد الله سبحانه وتدبيره، فهم -المشركون والكفار- في تمرّدهم على نظام الخالق العظيم أضلّ سبيلاً، ودون مرتبة الأنعام التي سخّرها لهم، ولم يحرمهم بكفرهم نعمة الاستمتاع بها!! ثم إنَّ في هذه الأسماء مفاتيح في الجمع بين القراءتين، وتنبيه للإنسان إلى نعمة التكريم والتفضيل على أمم المخلوقات كافّة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ

وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠] ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨] صحيح أنّ هذه الأنعام خلقت لكم، ولكنكم لا تملكون حق التصرّف المطلق فيها.

لقد ذكر المفسّرون أقوالاً كثيرة حول المدنيّ في هذه السُّورة -بناءً على ما قرّروه من مواصفات لأساليب السُّور المكيّة وأساليب المدنيّة-. وإيماننا بالوحدة البنائيّة للسُّورة يُغنينا عن الإسهاب والإطالة في نقل ما قالوه، واختلافهم فيه ومناقشته؛ إذ إنّ الوحدة البنائيّة للسُّورة تجعل منها، بعد الترتيب الأخير، والعرضتين بين رسول الله ﷺ وجبريل- غير ذات موضوع، وكذلك ما يتعلق بأسباب النزول؛ إذ إنّنا نؤمن بأنّ القرآن قد أخذ صفة الإطلاق التام بعد العرضتين وإعادة الترتيب، وقطع ما بينه وبين ما عرف بأسباب النزول. صحيح أنّ بعض الآيات كانت تنزل بمناسبة رَفْعِ البيئة لسؤالٍ إلىٰ رسول الله ﷺ أو قضيّة. مثل ما حدث في قضايا الإفك والتبنّي وتحريم الخمر... وغيرها. فيظن بعض النّاس أنّ الآيات النازلة للإجابة عن ذلك السؤال، أو معالجة الإشكال، قد ارتبطت بتلك الواقعة. وكثيراً ما كان يُروىٰ أنّ آية كذا نزلت في كذا؛ أي نزلت في إثبات الأمر الفلاني، أو بيان حكمه، أو تصديق شيء فيه أو تكذيبه ونفيه، وهذه الروايات يمكن أن يستفيد منها المفسِّر، ولكنّها ليست أحاديث مسندة وصحيحة بحيث تُقَيَّد تلك الآيات بتلك القضايا، ومع ذلك فإنّ العلماء -وإن تساهلوا في بعض الروايات المتعلقة بالأسباب والمناسبات، وكون هذه الآية مدنيّة وتلك مكيّة- ما كان ينبغي لهم أن يجعلوا ذلك كله متداولاً في هذا المجال ومنه مجال التفسير، إلا إذا ثبت برواية صحيحة السَّند، وصريحة المتن، وسالمة من المعارضة والاحتمال. إنّ اهتمام بعض المتقدمين بهذه الأمور نجم عن اهتمامهم في الأساس بقضايا الأحكام، وظنِّهم أنّ تحديد مكان النزول بمكة أو المدينة، وما سموه بأسباب النزول مفيد في معرفة الناسخ من المنسوخ؛ لاعتماد قضيّة النسخ علىٰ التأخُّر والتقدُّم.

وموقع سورة الأنعام بين سورتي المائدة والأعراف موقعٌ في غاية المناسبة، فهو يدلُّ علىٰ أنَّ ما فيها يصلح أن يكون تتمةً لسورة المائدة وخاتمة لها، وما يقرب من افتتاح لـسورة الأعراف، ومقدمة مناسبة له. خُتِمت سورة المائدة بمعجزة حسيَّة من

معجزات سيدنا عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهي دعوته اللهَ -جلّ شأنه- بناءً علىٰ طلب حواريّيه إنزال المائدة، فأنزلها اللهُ آيةً لعيسىٰ. وقد اشتملت سورة المائدة علىٰ بيان كثير من أحكام الأطعمة، وتحديد وتفصيل الحلال والحرام منها. ثمّ جاءت «سورة الأنعام» -والأنعام نفسها رأس الأطعمة- لتستكمل التشريعات التي وردت في المائدة وما سبقها من سور في هذا المجال. كما أنَّ المائدة قد بيَّنت أنّ البشر لا يملكون سلطة تحريم أو تحليل في أيّ شأن من الشؤون المذكورة. بل مَنْ يملك السلطة المطلقة في التحليل والتحريم في كل ما خلق الله، وفي بهيمة الأنعام خاصَّة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقد بيّنت سخف وسقم عقليّات المشركين، وتفاهة أحكامهم. أمّا سورة الأعراف، فقد تناولت العديد من مقاصد القرآن المجيد كما تناولت القاعدة الأساس في التنبيه إلىٰ أهم أحكام الملابس والزينة. فالتناسب بين السُّور الثلاث قائمٌ في أحسن وأكمل وجه.

وهناك ما يقرب من مؤاخاة بين سور القرآن التي نزلت في مكة، وتلك التي نزلت في المدينة. فلكل سورة مكّيَّة أخت أو أكثر في السُّور المدنيّة. وكأنّ المكيَّة حين تختم تقول لك: "للبحث صلة". وحين تعثر علىٰ أختها المدنيّة تجدها وكأنّ هناك إحالة عليها من أختٍ لها مكيَّة، والمدنية تتمة وتكملة للمكية، وسرعان ما تجد بين السُّورتين اتصالاً وتكاملاً يشدّ بالقوة إلىٰ متابعة حركة القرآن الكريم في المجتمعين المكيّ والمدنيّ، ويقدّم لك معاني في غاية القوة والثراء والاتساع في طرائق وأصناف الناس المختلفة في التفاعل مع القضايا التي يحملها الخطاب القرآنيّ، وتعطي مؤشرات في غاية الأهمية في إدراك الفوارق بين البيئات وآثارها في التفاعل مع الخطاب إيجاباً وسلباً. وفي ترتيب رسول الله ﷺ وجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للمصحف في العرضتين إشارات لا يصعب اكتشافهما لهذه الظاهرة، وكذلك في ترتيب الآيات داخل السُّور. وفي سورة الأنعام نجد تفصيلاً رائعاً لما أحكمته «سورة العلق» في إطار «الجمع بين القراءتين»، وفي إطار بيان العلائق بين الله -تعالىٰ- وهو الخالق المسخّر المستخلِف، والإنسان وهو المخلوق المختار المستخلَف، والكون المسخّر وهو ميدان الابتلاء.

وسورة الأنعام اختصت بمناقشة المشركين في الشِّرك وتفاصيله، وما يؤدي إليه من سقوط الإنسان في دركات أخرىٰ، وربطت نظام الحياة الإنسانيّة بالتوحيد، وبيّنت

الأخطار التي يعود الشِّرك بها على الحياة الإنسانية ونظمها. وسورة الأنعام تتناغم مع سور أخرىٰ في هذا الموضوع. فلقد تناولت سورة البقرة الظاهرة الإسرائيليَّة في شقّها اليهوديّ في عرض تفصيليّ شامل، لا يملك الإنسان معه إلا أن يسلّم بضرورة استبدال هؤلاء القوم والإتيان بغيرهم. أمّا سورةُ آل عمران فقد تناولت في شقّها الأول الظاهرة الإسرائيليّة في إطارها النصرانيّ المسيحيّ؛ لتصل إلىٰ قناعة مماثلة. وفي كلتا السُّورتين كان السياق يعرّج علىٰ الأمَّة المسلمة ليُبيّن لها بعض الشرائع والأحكام والأدوار التي عليها الاضطلاع بها -ممّا فرطت به الأُمَّتان السابقتان- لئلا يحدث لها مثل ما حدث للأمم التي شاء الله -تعالىٰ- أن يجعلها بديلاً عنها.

والسُّورة تبيّن حقائق الألوهيَّة والربوبيَّة مقرونة بدلائل الخلق والإبداع والتسخير والعناية وسائر الدلائل والحجج الأخرىٰ، ومنها الحجّة البالغة التي آتاها الله -تعالىٰ- إبراهيم علىٰ قومه ورفع درجاته بها. والسُّورة تعرّف الإنسان بربه وإلهه بشكل ظاهر بارز في كل ما خلق؛ لئلا يتم بيان حقائق الألوهيّة والربوبيّة بالتجريد، والذي يصعب علىٰ عامّة الناس فهمه، فتجد نفسها وكأنّها تتلقّىٰ درساً من دروس علم الكلام، لا يضيف إلىٰ وعيها بالله -تعالىٰ- شيئاً، ولا يؤدّي بها إلىٰ الشعور بالمسؤوليّة وضرورة الالتزام بما أنزل -جلّ شأنه- شيئاً.

وفي سورة الأنعام يدور الحوار في أكثر آياتها مع المشركين حول الألوهيّة والعبوديّة، مع تذكير يسير -بين فترة وأخرىٰ- بـ«مشركي أهل الكتاب»، الذين اختاروا لأنفسهم موقف الحلفاء مع المشركين وموالاتهم ومناصرتهم ضدّ رسول الله ﷺ والمؤمنين. وذلك استكمالاً لحلقات الحوار والجدال مع جميع الفئات القاطنة في الجزيرة العربيّة؛ من مشركين وأهل كتاب، الذين اختاروا لأنفسهم موقف العداء لرسولِ الله ﷺ ومعارضة دعوته، وصدّ الناس عن سبيل الله الذي دعاهم لسلوكه. إنّها السُّورة التي تُجيب بشكل مباشر عن تلك الأسئلة التي عُرفت بـالأسئلة النهائيّة، والتي نجد الإجابة عنها جليّة بيّنة في السُّور المكيّة. ومنها «سورة الأنعام»، وهي الأسئلة المتعلقة بالعقيدة.

إنَّ العلم بالطبيعة يقود الإنسان إلىٰ معرفة الخالق -جلّ شأنه- وإدراك بعض جوانب عظمته سبحانه، ولكنّه ذاك الإنسان الذي لا يزدري الطبيعة ولا يستهين بها، بل يتأمل في نظامها، وقوانينها وسننها، ومظهرها ومخبرها. وكلّما ازداد علماً بها ازداد معرفة بالله وخشية له: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وازداد قنوتاً وإخباتاً لله، ومعرفة بحقيقة الأمانة التي اؤتمن عليها. وسرد مكوّنات الكون والطبيعة وعالم الخلق -بعيداً عن ربطها بالخالق العظيم ومقاصده من الخلق- لا يؤدّي إلىٰ إدراك حقائقها، ولا إلىٰ «الجمع بين القراءتين» ولا إلىٰ الالتزام بـ«قيم العمران ومقاصد القرآن». فالكون لا سلطان له علىٰ الإنسان، ولكن الحديث عن الكون المسخَّر، والطبيعة المخلوقة المسخَّرة، وقوانينها يصبح عوناً للإنسان علىٰ اكتشاف ذاته، والاهتداء إلىٰ إلهه وربّه -جلّ شأنه- وإدراك حقيقة مهمته الاستخلافيَّة في هذه الأرض.

إنَّ تفاعلاً ما يُوجد بين الغيب والإنسان والطبيعة، دبّره وأرسىٰ قوانينه الخالق الأزليّ[١] العظيم تبارك وتعالىٰ. ولقد ربطت السُّورة بين تلك الأطراف الثلاثة ربطاً محكماً؛ لتستدعي علىٰ الدوام الارتباط بين النفس والإيمان والعلم والقيم. وتشدُّ ذلك -كلّه- إلىٰ من خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور. إنّها السُّورة التي عرضت حقيقة الألوهيَّة والربوبيَّة في آفاق الكون والحياة، وآفاق الأنفس والضمائر، وفي جنبات عالم الغيب وأطراف عالم الشهادة، دون إغفال لذكر «النشأة الكونيّة والإنسانيَّة والحيويّة». إنَّها سورة تجعل الإنسان يشاهد آثار الألوهيَّة الواحدة في كل شيء؛ في الفطرة والكون والأحداث والبأساء والضراء والنعمة والرخاء. إنَّها تجعل الإنسان عبداً لله لا يستطيع الغفلة عنه -سبحانه- ولو بجزء من الثانية، فتستولىٰ عليه مشاعر العبوديَّة الواهة، عبوديّة النفس والضمير، والسعي والحركة، والتقاليد والأعراف والشعائر. وكل شيء يُسَبِّح بحمد الله ويُقَدِّس له.

(١) قد يطلق بعضهم علىٰ الذات العليّة -ذات الله- جل شأنه أنها ذاتٌ مطلقة، وهذا غير صحيح؛ لأنه سبحانه الأزليّ الذي لا أزليّ غيره. أما «المطلقات» فهي ثلاث: القرآن، والإنسان، والكون. وذلك لأنّ المراد بالمطلق: الحقيقة الدائمة المستمرة التي لا تبيد إلا في أجل يحدّده الخالق -جل شأنه- أما الأزليّ فهو: الدائم الباقي المتعالي عن الوقت والزمان والفناء والانتهاء.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] نتيجة حتميّة للإيمان بأنّ لا إله إلا الله، ومترتبة عليه، فهي تستلزم نزع السلطان الذي يزاوله الكهنة والحكام. فلا يكون لبشر سلطان على بشر، فالسلطان -كله- لله رب العالمين، فهو السلطان على الضمائر، وهو السلطان على المناسك والشعائر، وهو السلطان في المال، وفي القضاء، والأنفس والأبدان، وتفاصيل الحياة.

وسورة الأنعام، بعد أن تفرغ -في آياتها الأولى- من عرض قضيّة القرآن الأساسيَّة، ومقصد القرآن الأعظم وهو «التوحيد»، وتستدل عليه في الآفاق والأنفس، وتتناول تفرّد الله -تعالى- بالحاكميّة المطلقة، وتجادل عن ذلك -كلّه- إلى أن تقترب من منتصف السُّورة. تقدّم لنا السُّورة -بعد ذلك- النموذج الإبراهيميّ بوصفه النموذج الجاد في البحث عن الحقيقة، والمصمّم على بلوغها مهما تحمّل من المشاق وتكبّد من المتاعب، وهو نموذج ينطلق من الخلق للبحث عن الخالق، ومن الوجود للبحث عن الـمُوجِد للوجود؛ لأنّه الذي يزعم مشركو العرب وكفار أهل الكتاب أنَّهم على حنيفيَّته وملّته، فأراد تكذيبهم وبيان جهلهم به، وبعدهم عن ملته.

كما يتعرّض السياق في السُّورة إلى كثير من مداخل الشرك والكفر والضلال، فهناك مدخل الحسد والبغي والغرور والاستعلاء والاستهزاء الذي تصحبه طلبات لا تنتهي؛ منها مطالبة النبيّ ﷺ بإنزال الملائكة، أو إنزال الكتاب جُملة واحدة، أو أن يأتي الرسول ﷺ بمختلف الآيات الحسِّية، وهم يعلمون أنّه ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، أو تنزل الملائكة لتشهد على صحة الرسالة وصدق الرسول ﷺ وترافقه في دعوته؛ لأنَّهم -لفرط جهلهم، واعتقادهم بعقائد أسلافهم وأساطير آبائهم- لم يكونوا يدركون أنّ لله سنّة ثابتة في نزول الملائكة، وهي أنَّهم حين ينزلون على قوم كذّبوا رسولهم فإنّهم ينزلون لتدميرهم، وتحقيق سنّة الله فيهم بالإهلاك، فلو استجاب الله لطلبهم، وأنزل ملكاً لقُضِيَ الأمرُ ولَأُهلكوا. ولكنّ الله -تبارك وتعالى- أراد بقاءهم، والإفساح لهم في الأجل، وعدم إنفاذ سنّة الاستئصال فيهم، لعلّ يخرج من أصلابهم مَنْ يوحد الله ويؤمن به.

بعد عرض ذلك كلّه ينبّه الله -تبارك وتعالىٰ - إلىٰ مداخل عديدة للانحراف عن التوحيد؛ منها مدخل تعاون شياطين الإنس مع شياطين الجن، وتبادل الفريقين إيحاءات الشبهات والمقترحات السخيفة اللاهية، والتي تدل علىٰ أنّ هؤلاء لم يستطيعوا أن يرتقوا إلىٰ مستوىٰ الجدّ والرغبة الصادقة في الخروج من ظلمات الشّرك إلىٰ نور الإيمان والتوحيد والهداية والتزكية، وما كان لهم وما يستطيعون. ومنها مدخل التنصّل من المسؤوليّة، وإلقائها علىٰ الله -تعالىٰ- وادّعاء الجبر أو إلقاء المسؤوليّة علىٰ السَّادة والكبراء.

بعد ذلك يعرج القرآن الكريم علىٰ مدخل خطير من مداخل الكفر والشّرك، يقود إلىٰ التمّرد علىٰ أحكام الله والخروج عليها، إلا وهو مدخل التحليل والتحريم في الأطعمة، ووصف أولئك المشركين لما يشاؤون بالحِلّ، ووصف أصناف أخرىٰ بالحرمة دون أيّ دليل أو برهان أو أثارة من علم إلا شهواتهم وتحكماتهم. وهنا يحدّد الله -تعالىٰ- بدقة وبمنتهىٰ الصراحة والوضوح أنّ صلاحيَّة التشريع خاصة به سبحانه وحده. فلا أحد في الوجود غيره يحق له أن يحدّد ما هو حلال وما هو حرام من الأطعمة أو سواها. وبعد أن يفرغ السياق القرآنيّ من ذلك -كله- ويقدّم الشريعة بما عُرف عن شريعة القرآن من تخفيف ورحمة، ورفع للحرج، ووضع للإصر والأغلال، وحِلّ الطيبات وتحريم الخبائث، يتجه إلىٰ تحديد مصدر الدِّين.

ويلتفت السياق نحو القضيّة الأساسيّة الأخرىٰ وهي قضيّة الإيمان بالمصدر؛ مصدر الدين كلّه. عقيدة وشريعة ونظاماً وسلوكاً ومعاملات، ألا وهو القرآن المجيد، ومعرفة قدره وقيمته، وضرورة التسليم بأنَّه كلام الله وكتابه، مع الإشارة إلىٰ أنَّ القوم قد ضلّوا السبيل وفرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً، وأنّ رسول الله ﷺ بريء منهم، يعلن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في ثنايا السُّورة وفي ختامها بأنَّ الله قد هداه إلىٰ الصراط المستقيم، ديناً قيماً، ملّة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. ويُعلن عقيدة التوحيد الخالص النقي، وضرورة توجيه كلّ شيء؛ من صلاة أو نُسك أو محيا أو ممات لله رب العالمين، لا شريك له، وأنّه بذلك أمر، وأنّه أول المسلمين، ويعلن ﷺ أنّه لا يمكن أن يبتغي غير الله ربّاً، فهو الذي أرسىٰ دعائم العدل، فلا تكسب كل نفس إلا

عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ، وأنّ مرجع الجميع إلىٰ ربّهم، وأنّه من سينبئُهم بما كانوا فيه يختلفون، وكيف يبغيهم ربّاً غير الله وهو الذي جعلهم خلائف الأرض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ليبلوَ الجميع فيما آتاهم.

وممّا تقدم فقد اتضح أنّ عمود سورة الأنعام هو مناقشة المشركين وشبهاتهم ودعاواهم في جُمْلتها، وقد قامت آيات السُّورة بتفنيدها وإسقاطها، وبيان تهافتها، وإظهار فساد حياتهم كلها -جملة وتفصيلاً- بناءً علىٰ انحرافهم عن جادة التوحيد، وقد قدّمت السُّورة بدائل عن كل ما اجترحه المشركون وما اخترعوه وما ابتدعوه من أوصاف وأحكام في تفاصيل الحياة المختلفة. فعمود السُّورة ومحورها هو التوحيد الخالص، بكل أنواعه، ومنها التشريع والاستدلال عليه بالكون، بتفاصيله وجزئياته كلّها، والسنن والقوانين التي تحكمه، ومناقشة ما عليه المشركون من تهافت وانحراف، وإدانتهم -بأفواههم- بذلك كله، مع سرعة عقابه للمشركين، فإنّه غفور رحيم، وهنا تنتهي السُّورة.

التفسير التفصيلي للسُّورة

النَّجم الأول: في البدء بالحمد وقصة الخلق

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

[الأنعام: ١-٦].

بدأ الله تعالىٰ السُّورة بـ«الحمد لله»، وهي الكلمة التي افتتح الله كتابه بها، ثم افتتح بها أربع سور مكيّات أخر، اشتملت كل منها علىٰ بيان دعوة رسول الله وأمّة المرسلين معه، ومحاجّة المشركين فيها. فكانت الأنعام في نهاية الربع الأول من القرآن،

ثم تأتي «الحمد لله» في الكهف، وهي مشتركة بين آخر الربع الثاني وأول الربع الثالث، ثم تأتي الثالثة في سبأ، والرابعة في بداية فاطر، وهما آخر الربع الثالث. وقد اقترنت كلمة الحمد في هذه السُّورة بخلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، والإشارة إلىٰ النور الحسّي، كما اقترنت في الثانية -وهي سورة الكهف- بإنزال القرآن علىٰ عبده، وهو النور المعنوي: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا﴾ [النساء: ١٧٤]. واقترنت في الثالثة بصفات الحكمة والخبرة والعلم بما ينزل من السماء وما يعرج فيها، واقترنت الرابعة بخلق السموات والأرض، وجعل الملائكة رسلاً. وما يأتي بعد الحمد بمثابة العلّة والسبب لانحصار الحمد بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعدم جواز تعديته إلىٰ سواه؛ لأنّ الحمد يُعدُّ أعلىٰ أنواع العبادة، فلا يليق بإنسان أن يوجهه لغير الله -جلّ شأنه- ويصبح قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] علّة لحصر الحمد به تبارك وتعالىٰ، ولبيان غرابة ما انتهىٰ إليه المشركون، متجاوزين كل ضرورات العقل والحكمة وحسن التفكير وسداد القول ورشاد الرأي؛ ليجعلوا له من عباده عِدلاً وكفؤاً، فقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: ١]. فبالرغم مما ذكر -سبحانه- من خلقه السماوات والأرض، وجعله الظلمات والنور، وتفرّده بالخلق والإبداع والربوبيَّة والألوهيَّه، فإنّهم يعدلون به سواه.

الخلق الذي ذكره الله -تبارك وتعالىٰ- هنا هو إيجاد من القادر عن تقدير وحكمة مطلقاً. سواء ألوحظ في المخلوق عند خلقه غيرهُ أم لا، ولذلك قرن السماوات والأرض بالخلق. ولكنّه حينما ذكر الظلمات والنور قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. والجعل: إيجاد شيء ملاحظ معه شيء آخر، مثل: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النحل: ٧٢] وقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ٦١ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ٦٢﴾ [الفرقان: ٦١-٦٢] فالجعل فيه معنىٰ الصيرورة، فيبدأ الشيء بإذن الخالق الكريم -جلّ شأنه- بشكلٍ ما، ثم يصير شيئاً آخر. والظلمات والنور حسّيان ومعنويّان، فكما أنّ هناك ظلمات ونوراً حسيّين كظلمة الليل ونور النهار: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] فهناك ظلمات ونور

معنويّان؛ كالإيمان والكفر، وظلمة الجهل ونور العلم. ولتعدد الظلمات جمعها جلّ شأنه، فالظلمات كثيرة متعددة متنوعة، وأمّا النور فواحد، لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

وقد أكثر القرآن من ذكر النُّور وحمد الله -تعالىٰ- عليه، وامتنانه علىٰ الناس به. فليبادر المسلمون إلىٰ إحاطة أنفسهم -بل والعالم كله- بهالات النور بأنواعها المعنويّة والحسيّة؛ ليكونوا شاكرين لله -تعالىٰ- فعلاً علىٰ نعمتي تداول الظلمات والنور. وكان يُتوقع من أمّة احتفىٰ كتابها الكريم بالنور هذه الحفاوة ألّا يسبقها أحد لاكتشاف الكهرباء والنور، وأن يشتمل فقهها علىٰ اعتبار الحصول علىٰ النور، وتوفيره لكل إنسان، فريضة من فرائض الأمّة، ومقصداً من مقاصدها، فلا يسود الظلام قريةً من قراها أو مدينة من مدنها أو أي موقع من مواقعها. بل يَشِعُّ النور فيها بأنواعه، لتختفي ظلمات الخرافة والشعوذة والدجل والسحر والكهانة، والتعلق بالأماني والأحلام، وطلب المسببات من غير أسبابها، ولكن مَنْ يلتفت إلىٰ ذلك هم المهتدون المتَّقون، الذين حملوا القرآن حملاً إنسانيّاً، ففهموه وفقهوا آياته. وأمّا الذين حُمّلوه ثم لم يحملوه إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً، فأنَّىٰ لمثل هؤلاء أن يهتدوا به أو يبلغوا حقيقة أنواره؟ إنّ جُل أقطار المسلمين اليوم تفتقر إلىٰ النور بكل أنواعه، وكأنّها لم تقرأ بـسورة النور، ولا ببدايات هذه السُّورة، ولم تَسمُ إلىٰ إدراك أسباب الامتنان الإلهي علىٰ عباده بخلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور. والجعل ينبّه إلىٰ التدخل البشري المنتظر من أولئك الذين يهتدون بكتاب الله ويهدون به، وبه يعدلون. والظلمة حالة يكون عليها كل مكان ليس فيه نور، أمّا النور فهو الضوء المنتشر، الذي يُعين علىٰ الإبصار، وقد يكون هناك فرق ما بين الضياء والنور، والنور -كما سنوضّحه- حِسّيٌّ صُوريٌّ؛ وهو ما يُدرك بالبصر. ومعنويٌّ عقليٌّ أو نفسيّ؛ وهو ما يُدرك بالبصيرة. وقد أطلق القرآنُ علىٰ نفسه أنّه نور، وأطلق علىٰ رسول الله ﷺ أنّه نور. والآية قد أَفردت النور، فذكرته بلفظ المفرد، وذكرت الظلمات بلفظ الجمع، وسائر الآيات -التي قوبل فيها بين النور والظلام- وردت بهذا الشكل؛ إفراد النور وجمع الظلام. فالنور لم يُذكر في القرآن إلا مفرداً، والظلمة لم تُذكر إلا جمعاً.

وحين نحلّل معاني الآية الكريمة ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] نجدها قد أفادت تقرير وحدة الحقيقة وربطت ذلك بنوع من الصيرورة، التي تجعلها بمثابة النهر الجاري، يُصيب منها مَنْ يوفقه الله -جلّ شأنه- بقدر ما يشاء له: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠]. وإذا صحب الإيمانَ بوحدة الحقيقة -في ذاتها وعنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وعيٌ وفهم يقيان الإنسان من الشعور أو الإحساس المغرور بأنَّ الإنسان يمكن له أن يمتلك الحقيقة ويحيطَ بها، فلا شيء في ذلك؛ ولكن حين يتوهم الإنسان المحدود النسبيّ أنَّ لديه قدرة علىٰ امتلاك الحقيقة والإحاطة بها كما هي، في ذاتها ونفسها، فإنَّ ذلك سيدفعه -لا محالة- إلىٰ الاستعلاء علىٰ كل مَنْ يخالفه؛ لأنّه سينظر إليه علىٰ أنَّه تجاوز الحق إلىٰ الضلال، وأنَّه تجاوز الحقيقة إلىٰ نقيضها. ومن ثمَّ فقد يؤدي ذلك به إلىٰ تكفير وتجريم ذلك الذي جاوز الحق الذي يعرفه إلىٰ الضلال، وأخطأ الحقيقة وجاوزها ونأىٰ عنها؛ وألّا تثريب علىٰ الناس إذا نظروا إلىٰ الحقيقة في إطار نسبيَّتهم فلم يحيطوا بها علماً، وهؤلاء -الذين كفروا- حين يعدلون بالله شيئاً، أو يُشركون به، يكونون قد تجاوزوا إلىٰ الضلال حتماً، وتجاوزوا الحقيقة، فلم ولن يصلوا إليها. ولعلّه -سبحانه- يشير إلىٰ ذلك بقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] فذلك الذي يليق بمثل هؤلاء الذين عدلوا بربهم تلك الأصنام والأرباب المتفرقين في العبادة وتوجيه الحمد والثناء إليهم، وطلب الحاجات منهم. وهم الذين لم يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، فكيف يسوّون بينهم وبين مَنْ خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور؟! ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]

وينتقل السياق إلىٰ الآية الثانية؛ ليُبيّن لنا أصل الخلق، فيقول جلّ شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] لينبّه العقل البشريّ أنَّه حين يرجع إلىٰ أصل الخلق، ويتابع مسيرته من بداية الخلق من الطين الذي خُلقت منه النفس الأولىٰ، إلىٰ أن خلق

منها زوجها، وهيّأ أسباب الخلق الطبيعيّ المتكرّر وفق السُّنن الثابتة الإلهيّة، لتكون من: ﴿نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، كما في بداية سورة الحج وسورة المؤمنون: ﴿نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥] لكي لا يبقىٰ أيُّ مجال أمام أيّ ذي عقل وبصيرة ليفكر بأنّ لله في عمليَّة الخلق شريكاً أو مساعداً أو ما إلىٰ ذلك. ثم يبيّن نهاية الحياة، كما يبيَّن بداية الحياة، فإنّ من عادات القرآن أن يذكر الأمور المتقابلة؛ وما دام قد ذكر بداية الحياة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] فلا بدَّ أن يذكر نهايتها، فقال: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً﴾ [الأنعام: ٢]، وهو أجل حياة كل فرد في الدنيا: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام: ٢] ألا وهو أجل قيام الساعة، وبهذه الدقة والوجازة والإعجاز يعرض -جلّ شأنه- بداية الخلق ونهايته علىٰ مستوىٰ الأفراد والأمم، بل علىٰ مستوىٰ الخلق كله، ونجد الإعجاز -كلّه- يتجلّىٰ في ألطف صوره في خاتمة الآية الأولىٰ: ﴿يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]، وخاتمة الثانية ﴿تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢]؛ أي تشكّون، ولم يحدد تمترون بماذا؛ ليجعل الشك معبّراً عن أمراض الذين في قلوبهم مرض، فأهل الشك كلهم يشكّون في الخلق وبدايته، ويشكّون في الله ووحدانيّته، ويشكّون في أصل الخلق ونهايته، وفي البعث وكيفيّته، وفي الآجال التي أجّلها الله للأفراد والأمم وفي الحياة الدنيا.

ويأخذنا السياق بعد هذا إلىٰ التوكيد بأنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- شاء هؤلاء -الذين هم بربهم يعدلون ويمترون- أم لم يشاؤوا ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: ٣]، وأنَّكم سوف تحاسبون في يوم لا تخفىٰ منكم فيه خافية، وتُعرضون علىٰ هذا الإله الواحد الأحد، الذي يعلم سرّكم وجهركم، ويعلم ما تكسبون، وسيحاسبكم علىٰ كل ما فعلتم؛ لِمَ وكيف فعلتموه؟ وكل ما تركتم؛ لِمَ وكيف تركتموه؟ وسيواجهكم بكل ما فعلتم، وهو مَنْ لا تخفىٰ عليه خافية، وستلقون حساباً دقيقاً، وكشفاً شاملاً في كلِّ ما فعلتم، وقدّمتم وأخّرتم، وأسررتم، وأعلنتم. فإنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- يعلم ذلك كلّه، وقد قدّم لكم دلائل ذلك، وما يشهد علىٰ صحته ودقّته.

﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾ [الأنعام: ٤-٦] لقد جاءتكم الآيات متتابعة شاملة، ولكنم قد كذّبتم بالحق، وصدّقتم بالضلالة، ولم تؤثّر فيكم ولم تلفت أنظاركم تواريخُ من سبقكم من أولئك الذين: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ: ١٩]؛ لأنّهم كفروا بآيات الله، واستهزؤوا برسله، واتَّبعوا كل كافر وجبّار عنيد. وستأتيكم الأخبار الصادقة الدقيقة التي تؤكّد لكم حقيقة الأنباء التي طالما استهزأتم بها، وسخرتم منها، وأبديتم تعجّبكم منها ونفيكم لها، ونحن نسأل ما إذا كانت قد عميت أبصاركم وأُغلقت بصائركم، فلم تروا شيئاً من أنباء وأمثال أولئك القرون التي خلت من قبلكم، مِن الذين اقترنوا بأزمان سالفة سابقة؟ أو أنّ جحودكم ومكابرتكم قد حالا بين قوىٰ وعيكم وإدراك الدروس والعِبر التي يمكن أن تأخذوها من مصائرهم؟ ولعلّكم تعلمون كيف كانوا ذوي نِعَم وقوة وقدرة وتمكّن في الأرض تتجاوز ما لديكم وتزيد علىٰ ما عندكم، وأهلكناهم بذنوبهم وكفرهم وإنكارهم الذي تبنّيتموه وسِرتم عليه بعدهم. بل إنَّ بعض تلك القرون قد مكنّاها ما لم نمكّن لكم، وأنعمنا عليها بما لم ننعم به عليكم، وأترفناهم في الحياة الدنيا، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم؛ ولكنّهم آسفونا وأقبلوا علىٰ الانخراط في ذنوبٍ ومعاصٍ واستعلاءٍ علىٰ طاعتنا، فأهلكناهم بذنوبهم، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين. ولقد ذكر الله -جلّ شأنه- في سور أخرىٰ ما يُماثل هذا حين قال: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩﴾ [التوبة: ٦٩] ويقول -جلّ شأنه- في قصة قارون ما ذَكَر، ويعقّب عليها بقولِه، بعد أن زعم قارون أنَّه إنّما أوتي ذلك كلّه علىٰ علم عنده، فردّ -جلّ شأنه- عليه: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ

ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨] فهذا الغرور الذي يجعل الخالفين لا يعتبرون بالسالفين، ولا يأخذون الدروس مما حدث لهم، كأنّ السياق يُنبّهنا أنّ هذه الرذائل -الصارفة عن قبول الحق عن سنّة من السُّنن ماضية- على الإنسان أن يقاومها، وأن يدفعها عن نفسه، وذلك بملازمة الذِّكر: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦- ٣٧]، والذِّكر -هنا- لم يُرَدْ به أن نجلس ونذكر الله بالاستغفار والعبارات والكلمات فحسب، بل يتحقق ذلك بمداومة الاتصال بالقرآن ذي الذِّكر، وتدبُّره، وتفهّم معانيه.

وعند نهاية هذه الآية السادسة، نجد أنفسنا أمام نهاية قسم يمثّل مقدّمة السُّورة، وينبّهنا إلى عمودها وموضوعها الأساس، ويؤكد على أهمّيته، ويستدل له، فيوظف دليل الخلق لإثبات الخلق والربوبيّة والألوهيّة وصفات التوحيد، ويبيّن ضلالَ أهل الشرك وانحرافَهم، ويشير إلى أنَّ داءهم الأساس يكمن في غفلتهم وإعراضهم، وأنَّ هذه الغفلة هي التي تهيّؤهم لإنكار ما هو بدهيّ في الحق، وما هو ظاهر ظهوراً كبيراً، كما يشير السِّياق إلى غفلة هؤلاء عن دراسة تواريخ من سبقهم، وهو درس في بيان كيف يُؤتى الإنسان من الشيطان ليُصرف عن الإيمان!! فهو -بداية- يؤتى من جهله بالله -سبحانه- وغفلته عن حقيقة الربوبيّة، ثم بلادة حسٍّ تجعل هذا الإنسان الضعيف يواجه ما يأتيه من آيات بالإعراض، ظنّاً منه أنّ ذلك الإعراض هو الذي يُريحه من مهام معاناة التدبُّر والتفكر في الدنيا، وسيريحه من مهام وأعباء المساءلة والحساب في الدنيا وفي الآخرة، أمَّا الدنيا فإنّه لا يتوقع فيها حساباً على هذا الذي يؤمن به أو ينكره، وأمّا الآخرة؛ فلأنَّه لا يؤمن بها، ثم يصم آذانه وبصيرته عن استخلاص أيّ عبر أو دروس، وكأنّه يرفع شعار: أن امشوا واصبروا على كفركم وشرككم وإعراضكم. وهذا القسم المؤلَّف من آيات ستّ مقدِّمةٌ لكل ما سيأتي في السُّورة من أقسام أخرى، نجد عند التدّبر أنّه أشير إليها في هذه المقدّمة لتهيئة البصائر والعقول لفهم ما يأتي من آيات إن شاء الله.

النَّجم الثاني: في إثبات صدق وإعجاز الرسالة، ورد سائر الشبهات عنها

﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ (٧) وَقَالُواْ
لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا
وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ
مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (١٠) قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلۡمُكَذِّبِينَ (١١) قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ
يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (١٢) ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ
وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (١٣) قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ
أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٤) قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي
عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ (١٥) مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ (١٦) وَإِن يَمۡسَسۡكَ
ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (١٧) وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ
وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ (١٨) قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ
وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا
تُشۡرِكُونَ (١٩) ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ
(٢٠) وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢١) وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ
نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا
مُشۡرِكِينَ (٢٣) ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (٢٤) وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا
يَشۡعُرُونَ (٢٦) وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٢٧) بَلۡ بَدَا لَهُم
مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ
بِمَبۡعُوثِينَ (٢٩) وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا
كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ (٣٠) قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا
فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ

ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ
نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ
ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾
وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

[الأنعام: ٧-٣٧].

يتكون النَّجم الثَّاني -علىٰ ما يبدو لنا- من نجوم هذه السُّورة المباركة، من ثلاثين آية من آياتها، تبدأ بالآية السابعة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧] وقد اشتملت علىٰ كشف سخريّة أولئك المشركين واستهزائهم، وعدم جديّتهم في كل ما تناولوه، فقد كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ [الفرقان: ٣٢] وردّ الله -سبحانه- عليهم مقولتهم للتشكيك بصدق مصدر الرسالة تلك: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟
لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا
وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ٧-١٠] فنزول القرآن مفرّقاً لا يسوّغ عدم اعتراف الذين كفروا بمعجزة الرسول، وعدم إيمانهم بها، ولا يعني أنّه لو أنزل جُملة واحدة لآمنوا به؛ لأنّهم كاذبون في دعواهم تلك؛ فالعليم الخبير الذي يعلم من خلق، علم منهم ذلك، وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧]. إذاً فكل ما يزعمونه لا يدلُّ علىٰ أنَّهم جادّون، فلا ينبغي الالتفات إلىٰ ما يثيرون أو يزعمون من مزاعم التشكيك بمصدر الرسالة وكتابها، ألا وهو القرآن المجيد.

الآيات من (٧-١١) تتناول مصدر الهداية، ألا وهو القرآن المجيد. وتتناول فيما تتناوله بيان طرائق الذين كفروا في استقباله، وسخريتهم وعدم جديّتهم في النظر إليه، وإدراك أهميّته، ومعرفة ما يحمل من وسائل الهداية، ثم يدعوهم إلىٰ السير في الأرض للنظر في عواقب المكذبين لكُتبٍ سبقت القرآن في نزولها علىٰ رسلهم وعليهم، يأمر اللهُ -جلّ شأنه- رسولَه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يسأل هؤلاء الساخرين: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢]. إنّه سيترككم تسخرون وتمرحون كما تريدون إلىٰ أن تبلغوا آجالكم، وأجلاً مسمىٰ عنده. وهناك سوف ترجعون إلىٰ الله الذي سوف يجمعكم إلىٰ يوم القيامة لا ريب فيه، وستعلمون أنّكم خسرتم أنفسكم بعدم إيمانكم بهذا النبي والكتاب الذي أُنزل عليه. وإذا كان موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد أوتي تسع آيات حسِّية، فالقرآن المجيد ستّة آلاف ومائتان وستٌّ وثلاثون آية؛ وكل آية من آياته تحمل دلالة علىٰ آيات لا تُعَدّ ولا تُحصىٰ من علم الله وآيات الكون المنتشرة فيه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ويستمر السياق بأساليب مختلفة، يلفت أنظارهم إلىٰ الله الواحد الأحد، فاطر السموات والأرض، ثم في الآية التاسعة عشرة يسألهم: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩]. وهنا يبدو أنّهم أثاروا سؤالاً من نوع جديد، هو: أنت تؤكد أنّك تؤمن بموسىٰ وعيسىٰ، فلِمَ لم يؤمن أهل الكتاب بك ولم يصدقوك؟ ولم يقولوا: إنَّك نبي مثل موسىٰ وعيسىٰ؟ فيُجيب القرآن الكريم عن ذلك التساؤل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ٢٠]. ثم يُبيّن مدىٰ ظلمهم إذ افتروا علىٰ الله كذباً، وزعموا أنَّ هذا الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ليس هو المقصود في وصايا وبشائر أنبيائهم، فافتروا علىٰ الله كذباً وكذّبوا بآياته، ولن يُفلح الظالمون.

ولقد قطع الله -تبارك وتعالىٰ- حجج هؤلاء كلّها، وأثبت لهم ولسواهم أنّهم مجرد قوم معاندين جاحدين، لا يهمهم التحقُّق أو التثبُّت، بل كل ما يهمهم هو إشغال رسول الله ﷺ والسخرية به ومنه. وقد أخبر الله رسولَه ﷺ بكل ما كانوا يُخفون من قبل، وأظهر له سرائرهم، ومنها أنّهم كانوا حين يرونه ﷺ إن يتخذونه إلا هزواً، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢]. فهم مجرد قوم يصِدّون ويُعرضون عن آيات الله، ويريدون أن يشاركهم الآخرون ذلك الإعراض. وما ذكر الله -تبارك وتعالىٰ- في هذه الآية الكريمة هو عبارة عن تزكية لمصدر الهداية ومنبع الإسلام القرآن المجيد، وبيان أنّه لا ريب فيه، وأنّه هدىٰ للمتقين، وأنّه ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١]، وأنَّ عدم إيمانهم به أو تقبّلهم له إنّما هو بغيٌ وحسد وجحود وإعراض، وتنكُّر للحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبذلك يظهر عناد هؤلاء الضالّين الجاحدين وبغيهم.

ثم ينتقل إلىٰ معالجة مسألةٍ أخرىٰ سألوها؛ ألا وهي أن ينزِّل مَلَكاً ليُخبر هؤلاء الضالّين، ويشهد بأنّ هذا القرآن صِدْقٌ وحقٌّ، وأنّ رسولَ الله ﷺ صادقٌ فيما نقله عن ربه ليُظهر هؤلاء الضالُّون أنفسَهم بمظهر الإنسان الجاد، الباحث عن الحقيقة وعن الدليل، والـمُتثبّت الذي لا يطلب أكثر من التأكد من صدق ما جاء النبيُّ ﷺ به: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ٨-١٠]. و يردّ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليهم ذلك بأنّ نزول الملائكة لا يكون لهذه الأغراض، ولكنّه يرتبط بأغراض أخرىٰ، وأنّهم يوم يرون الملائكة لا بُشرىٰ يومئذ للمجرمين، فهم آنذاك لا يُنظَرون ولا يُمهَلون؛ فمجيء الملائكة يعني أنَّ القول قد حقّ عليهم، ووقع عليهم بما ظلموا: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢] فهذا الكون له خالق مدّبر يُسَيّره -سبحانه- بقوانين لا علاقة لها برغباتهم. ثم يُبيّن الله -تبارك وتعالىٰ- لهم بأنّه لو جعل مَلَكاً لجعله رجلاً، فلا يظهر لهم بصفته الملائكيّة، بل بصفته الإنسانيَّة؛ لأنّه لا

يمكن أن تقوم بينهم وبين عالم الملائكة أو عالم الجن أو غيره من العوالم الغيبيّة علاقات مباشرة، وأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لو جعل مَلَكاً يأتي إليهم بصورة رجل لاختلط الأمر عليهم، وخَفيَ، ولما استطاعوا التمييز. فهم لم يدركوا بعدُ نسبيّتهم ومحدوديّة قدراتهم وطاقاتهم. وفي سورة الإسراء يردّ الله تعالىٰ عليهم ذلك بطريقة أخرىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]؛ أي: لو أنّ الملائكة كانوا هم المستخلفين في الأرض، والمستقرين فيها، لنزّلنا عليهم -من جنسهم- مَلَكاً رسولاً، ولكن الذي نجح في اختبار الاستخلاف هو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلِمَ تستغربون أيّها الجاحدون أن يبعث الله بشراً رسولاً؟ وتجعلون من ذلك سبباً لإعراضكم عن الإيمان، وهو أمر بدهيٌّ، استيقنته قلوبكم، وجحدته ألسنتكم.

ثم تأتي الآية العاشرة: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠] لتُسرّي عن رسول الله ﷺ وتبيّن له أنّه ليس الرسول الوحيد الذي تعرّض لاستهزاء قومه وسخرَّيتهم، بل هو واحد من أُمّة الرُّسل الذين استهزئ بهم من قبله. لكنّ العاقبة دائماً للرُّسل، ولا يحيق المكر السيّء إلا بأهله، والسخرية ينبغي أن تتجه لأولئك المستهزئين بهم، لا بالرُّسل الأطهار.

ثم يدعوهم القرآن المجيد إلىٰ السير في الأرض: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١] هذه المرة، ثم النظر بعقولهم وعيونهم في أمر مهم جدّاً لا ينبغي أن يلتفتوا لسواه، ألا وهو النظر في عاقبة المكذّبين من خلال النظر الدقيق فيما تركوا من آثار وبئر معطلة وقصر مشيد، فقد تركوا كثيراً من جناتٍ وعيون وزروع ومقام كريم، وقرىٰ خاوية علىٰ عروشها من بعدهم: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]، هذا السير في الأرض والنظر فيها، والنظر في آثار أولئك الذين هلك بعضُهم بالطاغية، وهلك آخرون بالرجفة، وهَلك فريق ثالث بريحٍ صرصرٍ عاتية، وأُهلِكت قرىٰ بجعل عاليها سافلها، وإمطارها بحجارة من سجّيل، كل ذلك قد حدث، وهناك آثار باقية تُذكّر بما حدث، وتؤكد أنَّه قد حدث. فهل يريد هؤلاء المشركون العرب -ومَنْ انضم إليهم من كفّار أهل الكتاب- أن تكون عاقبتهم مثل عاقبة أولئك المكذبين؟!

إنَّ السبيل واضح، فإمّا أن يُكذّبوك ويستمروا في تكذيبك، فتكون العاقبة مثل عاقبة المكذبين من قبلهم لـمَنْ سبق أن أرسلنا من رسلنا: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠] وإمّا أن يؤمنوا بك ويتّبعوك، فيحيوا حياة طيّبة، ولهم الجزاء الحسن في الدار الآخرة.

ثم يوّجه الله إليهم السؤال الذي لا يملكون أن يُجيبوا عليه إلا بنسبة الأمر لله جلّ شأنه: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢]، وهم لا يتردّدون -إن أجابوا عن هذا السؤال- أن يجيبوا بمثل جوابك، فهم يعلمون أنّ لا مالك للأرض ولا للسماء إلا هو، وأنّهم -في إنكارهم البعث والنشور ووحدانيّة الله تعالىٰ- قالوها مقلّدين متّبعين لآبائهم ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المؤمنون: ٨١] والله تبارك وتعالىٰ -الذي تُشركون به ما لا يسمع ولا يُبصِر ولا يُغني عنكم من الله شيئاً- كتب علىٰ نفسه بفضله ونعمته الرحمة، وهو مَنْ سيجمعكم يوم القيامة للحساب والجزاء، وهو يوم لا شك فيه، ولا شك أنّكم ستشهدون أنّه لا إله إلا هو، مهما كابرتم ونفيتم. وآنذاك، سوف تدركون أنّكم خسرتم أنفسكم بعدم إيمانكم به -سبحانه- مع كل ما خلق وأوجد وعرض عليكم من دلائل، وإنّكم لتعلمون أنَّ له -سبحانه- ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم. فكلُّ ما استقرَّ في هذا الوجود، في أيّة لحظةٍ زمنيّة، وفي أيّ جانب مكانيّ، إنّما هو ملكُه تبارك وتعالىٰ؛ ولذلك فإنّي لن أتخذ وليّاً ناصراً -أعبده وأحبّه ويحبّني هو- من دونه، فيأمر الله -جلّ شأنه- رسولَه ﷺ أن يُعلن لهم، وفي إطار استفهام استنكاري: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤-١٨] وهنا يقف -صلوات الله وسلامه عليه- منهم مثل موقف أبيه إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ

﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾
وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى
حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾
إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٧٠-٨٩] وذلك لدفع هؤلاء إلىٰ أن يحاوروا أنفسهم بما فرض الرسول الكريم ﷺ عليهم من أسئلة، مهما تجاهلتها تلك النفوس المريضة فلن تستطيع أن تُسكت أصواتها في داخلها. ونجد السياق هنا مرة يجعل رسول الله ﷺ مخاطباً مثلهم في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧]، وذلك ليؤكّد علىٰ بشريَّته ﷺ من ناحية، وليُبيّن اللهُ لهؤلاء أنّ القرب منه والبعد عنه مرهونان بأعمال محدَّدة، وأنَّ النبيَّ الكريم ﷺ لا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً إلا بتبليغ هذه الرسالة، وتعليمهم الكتاب والحكمة، وتزكيتهم بها، فإنْ لم يفعلوا فقد خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المُبين: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

ثم يأتي السياق متنزّلاً معهم إلىٰ ما يمكن اعتباره البحث عن شهود يشهدون علىٰ أنّه رسول الله، وأنّ القرآن كتاب الله المنزّل عليه، فيقول لهم: إنّي جئتكم بالشهيد الذي لا يمكن التشكيك بشهادته ولا الطعن فيها، فيقول لهم: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ [الأنعام: ١٩] فالله هو الذي يشهد لرسوله ﷺ ويزوّده بآياته ليفتح بها عقول هؤلاء وقلوبهم: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] في كل ما أنكرتموه عليَّ، ورفضتموه منّي، فهو يشهد أنّي عبده ورسوله، وهو يشهد أنَّه اصطفاني لرسالته، وأنزل عليَّ وحيه، وهو يشهد أنَّه قد أوحىٰ إليَّ هذا القرآن، وأمرني بإنذاركم به، وإنذار كل مَنْ أستطيع إيصال صوتي بالقرآن إليه.

ثم يلتفت السياق -بقوة- ليُحرّك تلك العقول الخائرة المريضة الجامدة، ويحملها حملاً على أن تتدبَّر فتتفكر فيما هو معروض عليها، فيسألهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٩] وهو استفهام تقريريّ استنكاريّ في الوقت نفسه، أمَّا أنا -يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- فلا أشهد معكم هذه الشهادة الباطلة الضالّة؛ لأنَّني أؤمن بأنّه إلهٌ واحدٌ، فلن أصاحبكم في شهادتكم الظالمة تلك، بل أشهد أنّه إله واحد، وأُعلِن براءتي التامة من شركائكم ومما تُشركون.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٠-٢١] أمّا أولئك الكتابيّون، الذين كانوا يزعمون أنّهم أهل كتاب ومؤمنون، لكنَّهم سمحوا لأنفسهم بمظاهرة ومناصرة المشركين ضد رسول الله ﷺ وضد المؤمنين والموحِّدين، فيُعلن الله -جلّ شأنه- أنّ ضلالهم ليس بأقل كثيراً من ضلال أولئك المشركين، فهم يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم، بتلك الأوصاف الدقيقة التي ذكرها أنبياؤهم لهم، ونزلت كتبهم بها، وأخذ منهم العهد والميثاق على أن يُبيّنوا ذلك للناس، وأن يُسارعوا إلى الإيمان بهذا الرسول، ويعزّروه ويوقّروه، وينضموا إليه وينصروه على أعدائه، ففعلوا عكس ذلك، فاستحقوا مثل ما استحقه أولئك المشركون، خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. وقد يكون هؤلاء الكتابيُّون أكثر ظلماً للرسول وللرسالة من أولئك الجهلة من المشركين؛ إذ قد أضافوا إلى شركهم رفضهم الإيمان ومخالفتهم وصايا أنبيائهم وما جاؤوهم به، فهم من الظالمين، والظالمون لن يُفلحوا ولن ينتصروا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤] وكانت هذه الالتفاتة إلى أهل الكتاب، الذين آزروا المشركين وحالفوهم، ضروريّة جدّاً ليعود السياق بعدها إلى الحديث إلى المشركين،

فيذكّرهم الله -جلّ شأنه- بالبعث والنشور والحشر، ويُخبرهم بسوء موقفهم آنذاك، حيث يقول الله -جلّ شأنه- لأولئك المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام: ٢٢]، الذين جعلتموهم شركائي في ربوبيَّة أو ألوهيَّة، فلم يصدر عنهم من جواب أو رَدّ مقنع يجيبون به، إلا أنّ شركهم وكفرهم -الذي انتهىٰ بهم إلىٰ ذلك المصير- صوّر لهم أنَّهم لو كذبوا علىٰ الله ونفوا أنَّهم كانوا مشركين، وأقسموا بالله علىٰ ذلك، فقد ينفعهم هذا، فصاروا يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]، فكذبوا بذلك علىٰ أنفسهم، وضّل عنهم وتاه في مسالك التيّه والضلال ما كانوا يفترون، فلم يقدّموا لهم أيَّ شيء، بل زادوهم رجساً إلىٰ رجسهم.

ثم ينتقل السياق إلىٰ مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة، يصوّره لهم، ويضعهم فيه لعلهم يتدبّرون، ليذكر الحشر وليذكر موقفهم حين لا يجدون ما يقولون بين يدي الله إلا أن يكذبوا، مع قسم بالله كذبوا فيه: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤]، ويبدأ بيان بعض أصناف هؤلاء الذين لا يختلفون عن الأصناف الأخرىٰ إلا بشيء من الرياء والنفاق والالتواء، يجعلهم يُشعرونك -وقد يُشعرون الآخرين- أنَّهم يستمعون إليك، يجدون فيما يستمعون ما يعنيهم برسالتك وبالكتاب الذي أنزل عليك، فيقول تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥]. وفي الوقت الذي ينهون الآخرين عن الاستماع إليك، ويمنعونهم من النيل منك، بناء علىٰ عصبيَّة قبليَّة وحميَّة جاهليَّة، أو ينهون الآخرين عن الاستماع إليك، وينأون بأنفسهم عنك وعن القرآن، هم بذلك -كلِّه- يهلكون أنفسهم دون أن يشعروا. فهذا ذِكرٌ لبعض أحوال أولئك المشركين، فيُبيّن لنا أنَّ فريقاً من أولئك المشركين وإن كانوا يستمعون لرسول الله ﷺ ولكنَّه استماع المعرضين، استماع اللاعبين بقلوب لاهية، فيحرمهم ذلك من الاستفادة بما يسمعون، أو يحرمهم من فقهه وفهمه ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢] لأنَّ الله قد

جعل على قلوبهم أكِنّة تمنعهم من فقه ما يسمعون من كلام الله، إنَّهم يسمعون مع إصرار عجيب على إلا يغادروا مواقع الكفر إلى الإيمان، وإن يروا كل آية مهما كانت فإنَّهم لن يؤمنوا، ولديهم جواب سخيف واحد لم يملّوا تكراره وترديده على سخافته وتفاهته، فإذا جاؤوا رسول الله ليُجادلوه -كما يزعمون- فهم لا يجدون ما يجادلون به سوى أن يسبُّوا ويشتموا ويصفوا القرآن المجيد بوصفٍ، هُم أكثر الناس علماً بأنَّه لا ينطبق عليه، وهو «أساطير الأولين». والعجب من أمرهم أنَّ عصبيتّهم القبليّة قد تدفعهم في أحوال نادرة إلى إظهار شيء من الولاء في الدفاع عن رسول الله ﷺ إذا ما جاء أحدٌ غيرهم للنيل منه بمثل ما يفعلون، فيقول الله جلّ شأنه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، يَنْهون غيرهم بدافع حميّة قبليّة جاهليّة عن أن ينالوا من رسول الله ﷺ بمثل ما يفعلونه من النيل منه، وفي الوقت نفسه يُعطون لأنفسهم الحق في إيذاء رسول الله ﷺ والمؤمنين بكل أنواع الأذى، أو أنّ جحودهم وغطرستهم تجعلهم ينهون الآخرين عن اتّباعه، ويبتعدون بأنفسهم عنه، فجريمتهم مضاعفة: تأتي من الامتناع عن الإيمان والرفض له، والإقبال على الشِّرك به، مصحوباً بصدّ الآخرين ونهيهم عن الاستماع إليه أو الإيمان به. وهُنا يخبِر الله تعالى نبيه ﷺ بموقف لم يشهده، فهو موقف مستقبليّ غيبيٌّ لا يعلمه إلا الله، فكأنه -جلّ شأنه- يقول له ﷺ: ولو ترى موقفهم ذاك لما قضيت العجب من غطرستهم واستعلائهم في هذه الحياة الدنيا، وذلّهم وهوانهم في الدار الآخرة، ذلك الموقف حين يوقفهم الله على النار، ويرونها عياناً، ويرون ما فيها، فلا يجدون ما يقولون إلا الصراخ وتمنّي المستحيلات: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، وذلك عندما يظهر لهم ما كانوا يُخفون من قبل، ويظهر لهم أنَّ النار حقيقة واقعة، وأنَّ العذاب مصيرهم ومآلهم. وهنا يُبيّن الله -تعالى- أيضاً لرسول الله ﷺ تحجُّر قلوبهم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]، فإنَّهم في الآخرة، وهم يرون كل شيء عياناً، سوف يحاولون اللجوء إلى الكذب، ويحاولون أن يَعِدُوا بما لا يُتوقع أن يوفوا به، فلو أنَّ تلك القلوب المتحجرة كان فيها أيَّة أثارة من لين للانت في الحياة الدنيا، واستفادت من فسحة الأجل، والله يعلم إنّهم لكاذبون في قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا

نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، فإنَّهم لو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه، وإنّهم لكاذبون. هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة كان كفيلاً بأن يجعل هؤلاء يُعيدون النظر في موقفهم، ويدركون صدق رسول الله ﷺ وهو الصادق الأمين في كل ما جاء به؛ ولذلك يُخبرنا الله بأنَّهم ما زالوا على إصرارهم على القول: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٩]، فاذكروا البعث والنشور والحساب، وهو إنكار لا يقلُّ سخفاً عن طريقتهم في إنكار صدق رسول الله ﷺ في رسالته وصدقه في القول بنزول القرآن عليه؛ فهناك مَنْ قالوا: "أساطير الأولين"، وعن البعث قالوا: "وما نحن بمبعوثين"، وبهذا السَّفَه يواجهون الحقائق الكبرىٰ التي جاء بها رسول الله ﷺ، ثم يأتي السياق ليُوقفهم هذه المرة، لا على النار، بل بين يدي الله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام: ٣٠]، فلا يُمهلون ليقولوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧]، بل هو سؤال واحد يعقبه المصير إلى النار والعياذ بالله: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام: ٣٠].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١] إنَّ جميع آيات الكتاب الكريم، والأحاديث النبويّة التي ارتبطت بالساعة؛ أكّدت على أنّها لا تأتي إلا بغتة، والبغتة من البغت؛ وهو: أن يُفاجِئ الشيءُ من حيث لا يحتسب المفاجَأ أن ذلك سيحدث، قال تعالىٰ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزخرف: ٦٦]. ومع ذلك فقد روىٰ الناس أحاديث كثيرة، وأُلِّفت كتب في أشراط الساعة وعلاماتها ومقدماتها، بحيث لا تصبح بعد ذلك بغتة كما ورد في كتاب الله. فلقد ازدهرت الكتابة فيما عرف بالملاحم والفتن منذ القرن الثاني الهجري، وانتشرت الأحاديث في الملاحم والفتن بكثرة. ولم ينظر كثير من النقاد إلىٰ ما قد يُصادم معنىٰ البغتة ومفهومها، وإلىٰ ما لا يُصادمه، ولم يخلُ عصر من العصور من إضافة كتاب أو أكثر في أشراط الساعة، وقد قسّموها إلىٰ أشراط صغرىٰ وأشراط كبرىٰ، واسترسلوا بذلك استرسالاً شديداً. وقد كان مدخل أشراط الساعة مدخلاً واسعاً لإضافة ما

ورد بأخبار ظنيّة في ثبوتها ظنيّة في دلالاتها، أو قابلة للتأويلات، مثل ما ورد في نزول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخروج المهديّ، وما إلىٰ ذلك.[١] وقلّ أن تجد كتاباً في الحديث خلا من باب أو أبواب في الفتن والملاحم، مع تأكيد القرآن الكريم علىٰ أنّها لا تأتي إلا بغتة، ولقد وقع خلقٌ كثيرٌ في ترديد أشراط لن تحدث إلا يوم القيامة، ولكنهم زعموا أنّها علامات صغرىٰ وعلامات كبرىٰ تسبق القيامة، ولعلّ منها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢]، ومع وضوح الآية وظهورها، فقد تجاوزها الناس إلىٰ آثار كثيرة تُشبه ما كان يُعنىٰ به بنو إسرائيل في إسرائيلياتهم؛ من الدخول في تفاصيل كثيرة حول شكل الدَّابة وطولها وطريقتها في الكلام وما إلىٰ ذلك. ولو التفت الناس إلىٰ أسلوب القرآن الكريم وهو يقول: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٢]، فوقوع القول ينبّه بوضوح إلىٰ أنّ الحياة الدنيا تكون قد انتهت وحق علىٰ الناس القول، بل وقع القول، وبدأت أحداث اليوم الآخر، وخرجت الدابة لتكلّم أولئك الكافرين، فكأن الله -تبارك وتعالىٰ- يقول لهم: لقد أرسلت لكم رسلي، بشر مثلكم، بألسنتكم، يكلمونكم، ويخاطبونكم بما تعرفون ولا تنكرون، وبما تعقلون، فلم تقبلوهم ولم تنتفعوا بما جاؤوكم به، وكنتم مثل الدواب: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، فهبطتم في حياتكم الدنيا إلىٰ مستوىٰ الأنعام، وإلىٰ مستوىٰ الدواب، وذلك زيادة في النكاية بهم وتبكيتهم ودفعهم إلىٰ الندم والحسرة.[٢]

(١) ومن الكتب المنتشرة والمتداولة في أيامنا هذه في الموضوع «إتحاف الجماعة فيما كان ويكون بين يدي الساعة» لمؤلفه الشيخ: حمود التويجري، يرحمنا الله وإياه، وهناك «الإذاعة في أشراط الساعة»، «والملاحم والفتن» لابن كثير، «والفتن والملاحم» لأحد كُتّاب الشيعة في القرن السادس الهجري، و«الإشاعة لأشراط الساعة»، وغيرها من الكتب.

(٢) أذكر أنّنا كنّا في مدينة الرياض قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً، فجاء أحد طلبة العلم إلىٰ الشيخ عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان القادم مضطرباً خائفاً جدّاً، وقال للشيخ: «يا شيخ، إنّ الدابة قد خرجت، وإنّها شوهدت هذا الصباح علىٰ الصفا في مكة، وإنّ نصفها آدمي ونصفها الآخر في شكل حيوان، وإنّك لا بدّ أن تحذّر الناس من هذا الأمر»، فما كان من الشيخ إلا أن رفع الهاتف علىٰ أحد كبار المسؤولين يخبره بالأمر،=

إنّ هذه الأمور يجب الوقوف بها عند آيات القرآن الكريم، لا نجاوزها بأي حال من الأحوال، وإلّا فستضطرب الرؤية، وتختل العقيدة، وتحتار العقول، وتتفكك الأمّة، وتتجارىٰ بها الأهواء. ولا أظنّها في أيامها هذه في حاجة إلىٰ مزيد من ذلك، فلديها من الأزمات ما يكفيها، ليتمنوا ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٧﴾ [الأنعام: ٢٧]، يخرج لهم دابة من الأرض تكلّمهم وتدفعهم إلىٰ النَّدم علىٰ أنهم لم يؤمنوا بآيات الله، وكثير مما سُمّي بـالأشراط يقع في هذا الإطار. فطلوع الشمس من مغربها معناه أنّ المجموعة الشمسيّة والسُّنن والنُّظم التي تسير عليها كلها قد انتهت أعمارها وبلغت أجلها، وصارت في طريقها إلىٰ مجموعة الأحداث التي ستحدث في ذلك اليوم ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾ [التكوير: ١-١٤]، فالشمس سائرة في طريقها إلىٰ التكوير، والجبال سُيّرت، والعشار عُطّلت، والوحوش حُشرت، والبحار سُجّرت، والنفوس زُوّجت، والسماء انفطرت، والكواكب انتثرت، والبحار فُجِرّت، ثم تبدأ أحداث الحشر والحساب، ثم الجزاء، فهذه الأمور عبارة عن أحداث ستقع في اليوم الآخر، يوم انتهاء هذه الحياة الدنيا وتوقفها. لكن الذين شغلوا الأمّة بأحاديث الفتن، وأشراط الساعة، وقبلوا فيها الموضوع والضعيف والمعلول وصحَّحوه، كانوا يستغلون -في غالب الأحيان- أحوالاً من الضيق والضّنك والمحن والحروب والفتن تمر الأمّة بها، فيتعالمون عليها، ويحاولون إعطاء تفسيرات لتلك الأحداث، لا تعالج أمراض الأمّة، ولا تشكّل فيها دافعيّة نحو التغلُّب علىٰ حالتها، بل تزيد من يأسها وقعودها واستسلامها وإيهامها بأنّ كل ما يحدث إنّما هو قدر مقدور لا رادّ له ولا دافع، فرسول الله ﷺ قد تنبّأ به، وقد أخبر

= ويطلب منه أن يُكلف شرطة مكة بالتحقق ومعرفة صحة ما روىٰ هذا الرجل. وقد بقيت الأوساط القريبة من الشيخ والمحيطة به تتابع الأمور، وتنتظر من خبر الدابّة مَنْ يأتيها بالخبر اليقين، ولم تجد الشرطة ولا غيرها أيّ أثر لهذا الذي ذكر، لا في مكة ولا في غيرها. ولا أدري إذا كان قدماء المصريين كان لديهم تصوّر لدابّة نصفها آدمي ونصفها دابة ليتحقق المصطلح، فصنعوا أبا الهول ليكون تجسيداً لذلك التصور.

عنه، وما دام الأمر كذلك فعليها أن تستسلم لكل حدث، وتخضع لكل جبّار، وتنتظر ما يأتي بعد ذلك بدلاً من أن تقوم بواجبها في الإصلاح والتغيير، والأمر بالمعروف.

وإذا كانت هناك بعض أحاديث صحيحة، تناولت أموراً مثل الفتن والهَرْج والحروب، ومعاداة الأمم الأخرىٰ، واجتماعها ضدّ هذه الأمّة، فإنّما هي تحذير من السقوط في أحوال تؤدي إلىٰ ذلك في غالبها، فحين يحذّر الله -تعالىٰ- في القرآن من أن تسلك هذه الأمّة سلوك بعض من سبقها، فتتخلىٰ عن حمل الكتاب حملاً إنسانيّاً، والعناية به، وتتساهل في وحدتها، وتهمل دعوة الناس إلىٰ صراط الله، وتضعف قبضتها عن التمسك بكتاب الله، فإنّ ذلك سوف يؤدي إلىٰ ضعفها وتفرُّقها، وتشتّت شملها، وتكالب الأمم ضدّها، وما إلىٰ ذلك، فما صحَّ من هذه الأحاديث، مسوقٌ لتحذير الأمّة من أمور حذّرَ القرآنُ منها، ونهىٰ عن السقوط فيها، أو التساهل في إبرازها والتهاون في مقاومتها، كي لا تؤول أحوالها إلىٰ الوهن الذي حذّر القرآن منه، وحذّر رسولُ الله ﷺ منه كذلك.

وأمّا تلك الأحاديث الواردة في التجديد، وأنّ هذه الأمّة لن تخلو من المصلحين والدعاة إلىٰ الله، وإلىٰ سبيله السويّ المستقيم، فذلك لدفع اليأس عن قلوب المؤمنين، وإعطائهم الآمال التي تُقَوِّي الدافعيّة لديهم للإصلاح والتجديد والجدّ والاجتهاد والجهاد في سبيل الله، فهي أمّة أراد بنوها ومؤسسها رسول الله ﷺ أن يجعلها قادرة علىٰ أن تنهض بسرعة إذا ما كبت، وأن تُفيق إذا ما غفلت، وأن تُجَدّد نشاطها إذا ما فترت، وأن تكون قادرة علىٰ الحيلولة دون ظهور الظلم فيها أو الانحراف، فلا يليق بها أن تقعد عن مهامّها تلك، وهي الأمّة التي أراد الله لها أن تكون وسطاً شاهدة علىٰ الناس. وبذلك يكون دور تلك الأحاديث دور المنبّهات والمنشّطات للدافعيّة، لكن من المؤسف أنّها تحوّلت -علىٰ أيدي أولئك الغافلين- إلىٰ أمراض فتّاكة في عقل الأمّة وجسدها، تُقعدها عن النهوض، وتصرفها عن مقاومة الأمراض، وتدفعها إلىٰ الاستسلام لأسوء الأمور، وهذه الأمور لا بدّ من إخضاعها للقرآن المجيد أولاً وثانياً وثالثاً؛ لأنّها أمور تتعلق بالعقيدة وبالرؤية الكليّة، فلا تؤخذ إلا من يقينيّات القرآن وقطعيّات آياته وسوره، وإلا فإنّ معتقدات الأمّة ورؤيتها سوف يُصيبُها الدمار والخراب والعياذ بالله.

والله -تبارك وتعالىٰ- حين قال: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ [محمد: ١٨] نبّه إلىٰ أنّ أهم أشراطها مبعث خاتم النبيّين، فهو إيذان بقرب وقوعها، وقرب انتهاء هذه الحياة الدنيا، إذ لا نبي بعده، ولا كتاب ينزل بعد القرآن حتىٰ قيام الساعة. ومن العجب أنّ المسلمين -تأثُّراً بأهل الكتاب- أشاعوا أخباراً واهية لا تصح، منها ما ردّدها بعضُ من أنّ هناك حديثاً يقول: «لا تؤلّفان»؛ أي: لن تبلغو سنة ألفين، ولا ندري إذا كانت سنة ألفين من الهجرة -علماً بأنّ التاريخ الهجري لم يظهر إلا في عهد سيدنا عمر- أم في التاريخ الميلادي، ولا يُعقل أن نُخَاطَبَ به، ويُقال لنا: «لا تؤلّفان»، وها نحن قد جاوزنا الألفين من ميلاد السيّد المسيح. فلا بدّ من وضع هذه الأخبار تحت هيمنة القرآن، والتصديق عليها بآياته، أو التوقّف عن تداولها بتلك الطريقة البلهاء، وكأنّنا أمّة لا كتاب لها ولا هداية.

لقد زعم مَنْ زعم -بناء علىٰ دعوىٰ جورج بوش- أن السيّد المسيح لا بدّ أن يكون قادماً ما بين سنة سبع وتسع بعد الألفين؛ ولذلك غرّته إسرائيل، ودفعته لتفكيك العراق واحتلاله سنة ٢٠٠٣م؛ لتهيئة الأجواء لنزول السيّد المسيح، وما زالت إسرائيل تمكر مكرها علىٰ بعض المغفّلين في أمريكا وأوروبا بادّعاء أنّ هدم الأقصىٰ وبناء الهيكل لا بدّ أن يُمَهّد له الطريق، وأنّ هذا إنّما هو من التحضيرات التي لا بدّ منها لنزول السيد المسيح وعودته، وإلا فإنّه لن ينزل، وها هُم يقومون بعمليّات إجراميّة علىٰ مرأىٰ من العالم كله ومسمع؛ لأنّهم حيّدوا أولئك الذين بأيديهم القوة ولديهم القدرة علىٰ منعهم من القيام بذلك بتلك الطريقة، فأضحىٰ كل ما تفعله إسرائيل من قتل الفلسطيين وتشريدهم، ضرورياً لمجيء السيد المسيح ونزوله.

والله تعالىٰ يعلن -جلّ شأنه- خسران الذين كذّبوا بلقائه، وأضاعوا أعمارهم كلها في غمرات التكذيب، حتىٰ إذا جاءتهم الساعة بغتة -دون انتظار منهم أو توقُّع- قالوا: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾ [الأنعام: ٣١].

ويلتفت السياق إلىٰ رسول الله ﷺ الذي كان يحزنه جدّاً غفلةُ هؤلاء وإعراضهم؛ ليقول الله جلّ شأنه: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]، مما يؤكد أنَّهم لا يستطيعون أن يقاوموا قناعتهم الداخليَّة ويقينهم بصدق رسول الله ﷺ في كل ما جاء به، لكنّهم يجحدون -أي ينكرون- بألسنتهم، وتأبىٰ قلوبهم. والجحود: نفي اللسان لما يستيقنه القلب، قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١]، ويبيّن الله -جلّ شأنه- لرسوله الكريم ﷺ أنّ إخوانه من الرُّسل قد كُذّبوا أيضاً، فواجهوا التكذيب بالصبر حتىٰ أتاهم نصرنا الآتي لا محالة، ولكن في مواقيت حدّدناها نحن بحكمتنا. ولقد جاءك من نبأ المرسلين ما يؤكد لك بأنّك لست بدعاً منهم، وأنّ ما أصابك قد أصاب مَنْ سبقك، وأنّ عليك بالصبر والصلاة، حتىٰ يأتي نصرنا في موعده ووقته. لكن إن كبُر عليك إعراضهم، ووجدت لو استجبت لطلباتهم، وقمت بإتيانهم بآيات حسيَّة كالآيات الحسيَّة التي آتيناها موسىٰ وعيسىٰ، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض، فتغوص في أعماقها، أو سُلَّماً في السماء لتأتيهم بآية، فافعل، وما أنت بفاعل إلا بإذني، ولن تستطيع أن تأتي بآية كما أوتي الأولون إلا بإذني، وقد آتيناك الآية الوحيدة الكبرىٰ، وهي الآية الأهم والأنسب للرسالة الخاتمة التي أُرسل بها خاتم النبييّن والمرسلين بشكل مباشر، وهي الآية التي انفردت بها، وهي التي تتحدَّىٰ بها، ألا وهي «القرآن المجيد»: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧]، فهذه آيتك الدائمة العالميّة، وأمّا الآيات الحسيّة فهي آيات آتيناها بحكمتنا لمن سبقوك، فاعلم أنّنا لو شئنا حمل قومك علىٰ الهدىٰ وإكراههم عليه لجمعناهم علىٰ ذلك، فلا تكوننّ من الجاهلين.

ثم يعرض لنا القرآن الكريم مشهداً آخر من مشاهد يوم القيامة، يصوّره لهؤلاء الجاحدين، ويضعهم فيه لعلهم يتدبّرون، ليذكر الحشر وليذكر موقفهم حين لا يجدون ما يقولون بين يدي الله إلا أن يكذبوا، مع قسم بالله كذبوا فيه: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤]، ويبدأ بيان بعض أصناف هؤلاء الذين لا يختلفون عن الأصناف الأخرىٰ إلا بشيء من الرياء والنفاق والالتواء، يجعلهم يُشعرونك -وقد يُشعرون الآخرين- أنّهم يستمعون إليك، يجدون فيما يستمعون ما يعنيهم

برسالتك وبالكتاب الذي أنزل عليك، فيقول تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥]، فيبيّن أنهم بنهيهم الآخرين عن الاستماع إليك، ومنعهم من النيل منك، بناء علىٰ عصبيَّة قبليَّة وحميَّة جاهليَّة، وبنأيهم بأنفسهم عنك وعن القرآن الكريم فإنهم يهلكون أنفسهم دون أن يشعروا.

ويستمر السياق يُقلّب هؤلاء، وينتقل بهم من مشهد من مشاهد القيامة إلىٰ آخر، ومن الدعوة إلىٰ النظر إلىٰ تحذير من مصير سيء، حتىٰ نهاية الآية (٣٧)، حين يقترحون علىٰ رسول الله ﷺ أنّ يُنزل عليهم آية كما أُنزل علىٰ الآخرين من قبله، وبخاصة موسىٰ وعيسىٰ، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: ٣٦-٣٧] فنرىٰ أنّ الآيات كلها -من السابعة إلىٰ السابعة والثلاثين- تدور حول القرآن الكريم مصدر الهداية، تجادل عنه، وترد شُبَه المشركين المثارة عليه، وتنبّه إلىٰ صدقه وعظمته وقدراته المتنوعة علىٰ إخراج البشرّية من الظلمات إلىٰ النور.

النَّجم الثالث: في بيان جانب من جوانب الخلق الداعية للتفكُّر

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: ٣٨-٤٧].

يبين الله -جلّ شأنه- في الآية (٣٨) جانباً من جوانب الخلق في هذا الكون الفسيح، الذي لا ينفرد هؤلاء بالعيش فيه، يذكّرهم بالعالم الذي غفل عنه هؤلاء، ولم يتدبّروا ما فيه، بل انشغلوا في ظلماتهم وكبريائهم، ونسوا الأمم الأخرىٰ التي خلقها الله جلّ وعلا.

حين يُدرك هؤلاء أنّ الدواب كلّها والطيور جميعها أمم أمثال البشر؛ ولكن حكمته -سبحانه- قد اختارتكم من بين هذه الأمم كلها لعبادته، وللقيام بمهمّة الاستخلاف في خلقه، وسخّر لكم كل ما خلق لتقوموا بهذه المهمة، وكرّمكم من أجلها: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]. وأحسن خلقكم، وصوّركم فأحسن صوركم، ذلك كلّه لتمكينكم من هذه المهمة التي قبلتموها باختياركم، وعاهدتم الله عليها برضاكم، ثم ها أنتم تتمرّدون عليها، وتنزلون إلىٰ مستوىٰ ما سخّرنا لكم من مخلوقات، بل أقل: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣] لقد منحناكم قوىٰ وعي، وقدرات، وطاقات لتستفيدوا بها وتستعملوها في أداء مهمتكم تلك، ففرّطتم بها وعطلتموها، ولم تستفيدوا بشيء منها: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]. إنّ تكذيبكم بآياتنا يجعلكم أقلَّ شأناً من الخلق المسخّر، من جميع أممهم؛ من طير ودواب ووحوش، ويوم تحشرون مع هذه الأمم كلّها فسيكونون أحسن حالاً منكم؛ لأنّنا لم نؤتهم ما آتيناكم من قوىٰ الوعي، ولم نعاهدهم علىٰ ما عاهدناكم عليه؛ ولذلك فإنّنا سنقول لهم: كونوا تراباً، فلا يدخلون جنّة ولا ناراً، أمّا أنتم فإنّ مصيركم إلىٰ النار؛ لأنّكم نسيتم الله، ونقضتم عهودكم معه، وتخليتم عن مهمتكم الاستخلافية التي كُرّمتم بها، فأنساكم الله أنفسكم بما نسيتم يوم الحساب.

إنّ هذه الأمم -من الطير والحيوان- لم تنجُ من مظالم المفسدين في الأرض. فالمفسدون في الأرض لم يقتصروا في أضرارهم علىٰ الإضرار بالبشر أمثالهم، بل أضرّوا كذلك بالحيوان والطير والنبات والبيئة كلّها، وهذه الأمم -التي أصابتها أضرار المفسدين

في الأرض- سوف تشهد ضدّهم في موقف الحشر، كما تشهد عليهم جوارحهم: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥] ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ١٩-٢٣]. فسيأتي يوم تنطق فيه بالشهادة عليكم، حيث لا يؤذن لكم (أيها الكافرون) بالنطق.

ثم يلتف إليهم بسؤال قَلَّ إلا يُصادف إنساناً، في موقف يجعله يجأر باستغاثته ولجوئه إلىٰ الله وحده، وذلك حين يرىٰ عذاب الله أو الساعة، فيقول تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنعام: ٤٠]، فإنّ عذاب الدنيا مهما اشتدّ فإنّه دون عذاب الساعة، فحين يأتي العذاب، وتجد فطرتكم فرصة للتعبير عن نفسها بعيداً عن ضغوطكم وانحرافاتكم؛ لأنّ هول المفاجأة لن يسمح لكم باستدعاء عبادتكم الشركيّة، وشركائكم وضلالكم، وإنّكم حينها ستتوجهون باستغاثتكم إلىٰ الله وحده، وتلك هي الفطرة، فتذكّروا حين تستغيثون ربكم في القيامة وقد ضلّ عنكم ما كنتم تزعمون. فهل تتوقعون أن يُغيثكم وقد استكبرتم عن طاعته في الدنيا، ولم تستجيبوا لرسله، ولم تُلبّوا نداءه، فلِمَ لا تستجيبون له اليوم ليستجيب لكم غداً؟! إنّكم في الدنيا، حين يخلّىٰ بين فطرتكم ومواجهة المواقف الصعبة، فإنّها تتجه إلىٰ الاستغاثة بالله، فلِمَ لا تنسجمون مع فطرتكم، وتؤمنون بربكم، وتتمرّدون علىٰ شياطينكم وأعدائكم بدلاً من تمردكم علىٰ إلهكم الحق؟!.

إنّ سنن الله ماضية في الأفراد والأمم والجماعات كما نبّهنا تعالىٰ في قرآنه، فيذكّر بأمم كثيرة جاءتهم رسلهم بالبيّنات، وبدأت السنن الإلهيّة تجري عليهم، وحين كذّبوا رسلهم -كما فعل قومك معك- أخذناهم بـ«البأساء» و«الضَّرَّاء». و«البأساء»: كل ما يُصيب الإنسان في غير نفسه، كالمرض؛ وتعني كذلك الشدّة والقوة والضرّ والمكروه،

وهي في النكاية أكثر.(١) أما «الضر»: فهو سوء الحال؛ إمّا في نفسه لِقلّة العلم والفضل والعفّة؛ وإمّا في بدنه لعدم جارحة ونقص؛ وإمّا في حالة ظاهرة من قلّة مال وجاه؛ ولذلك كان دعاء أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣] ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، فهو محتمِل لثلاثتها.(٢) وكلاهما رُبطا بتشكيل دوافع «التَّضرُّع»، أي التَّذلل والخشوع، اللذين من شأنهما أن يدفعا هؤلاء القساة في قلوبهم، غلاظ الأكباد، إلى التوبة والإنابة إلى ربهم، والرجوع إليه، لكن قسوة قلوبهم، وغلظة أكبادهم، وتجمُّد قوى وعيهم، حالت دون ذلك. «التضرّع» و«الضراعة»: الضعف والذّلّ، قال تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٢].(٣)

ثم تبدأ عمليات استدراج لهؤلاء المعاندين: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢- ١٨٣]، فتُفتَّح عليهم الأبواب في سعة الرزق وصحة الأجسام وكثرة الأهل والولد، لتبدأ قوى وعيهم تتحرك في اتجاه مغاير مفارق، فيتوهمون أنّهم كانوا على صواب في كفرهم، فتربط قوى وعيهم -المريضة الكليلة- بين تكذيبهم رسلهم وكفرهم وشركهم والوفرة في أرزاقهم: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]. آنذاك، يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، كما يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]؛ أي: يائسون من النجاة، متحسّرون على ما فرَّطوا في جنب الله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

و«الإبلاس» كما يعرّفه الأصفهانيّ في المفردات هو: الحزن المعترض من شدّة البأس، يُقال: «أبلس»، ومنه اشتق «إبليس» فيما قيل، قال عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الروم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(١) المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف (توفي: ١٠٣١هـ). **التعاريف**. تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ط١، ١٤١٠هـ، ص١١١.

(٢) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٥٠٣.

(٣) المرجع السابق، ص٥٠٦.

[الأنعام: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۝٤٩﴾ [الروم: ٤٩].[1]

والدَّابر: هو الآخر، والمراد: أهلكوا -جميعاً- عن آخرهم. وذكر الحمد -هنا- «وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» لبيان أنّ إهلاك هذا النوع من البشر فيه إنقاذ للأرض ومَنْ عليها من العَابثين والمفسدين، فالحمد لله قاصم الجبَّارين، ومنقذ المستضعفين، وقاطع دابر المفسدين سبحانه. لقد أُمر نوح أن يحمد الله أنْ نَجّاه ومَنْ معه في الفلك من القوم الظالمين، وأهلك بالطُّوفان الآخرين: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٢٧ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ۝٣٠ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١﴾ [المؤمنون: ٢٧-٣١]، ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ [فاطر: ٣٤- ٣٥]، ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٧٤﴾ [الزمر: ٧٤]، فالحمد يصدر عن المؤمنين شكراً لله علىٰ تدمير المفسدين في الأرض والظالمين والطغاة والجبّارين، ونصر المستضعفين ولو بعد حين.

إنّ الإنسان -إذا أخذ الله تعالىٰ منه قوىٰ وعيه- يُصبح في وضع ناقص البشريَّة بمقدار ما فقد من نِعَمٍ وحواس خوّلها الله -تعالىٰ- له، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يُلحق نفسه بـ«الحيوان الأعْجم»؛ لأنّ الحيوان أُعِدَّ ليكون حيواناً ابتداءً، وليس الإنسان كذلك، فالتساؤل الذي أورده الله تعالىٰ في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٧﴾ [الأنعام: ٤٧] هو تساؤلٌ في منتهىٰ القوة، فكأنّه يقول: أخبروني إن حدث لكم ذلك؟ وهو أمر يمكن أن يحدث لكم في أيّ وقت؛ فإنّ الذي خوّلكم هذه النِّعم هو نفسه الذي تكفرون به، وترفضون الإيمان به، وكذلك أخبروني لو أتاكم عذاب الله بغتة بدون مقدمات أو إنذارات، فإنّ بأسنا وعذابنا يمكن أن يأتي بياتاً أو نهاراً: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ

(١) المرجع السابق، ص١٤٣.

وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: ٤-٧] وقد يأتي عذابنا جهاراً نهاراً ظاهراً، يشهد المفسدون المقدِّمات كلّها، فلا يتوبون ولا يتذكرون حتى يصبحوا في قلب العذاب ووسط دوامته: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨] كما حدث لفرعون وقومه، وقوم نوح وغيرهم، فعذابنا خاضع لمقاديرنا لا لأمانيهم ورغباتهم.

إنّكم -أيّها الظالمون المفسدون في الأرض- تطالبون بما ليس في مقدور الرُّسل أن يفعلوه، وليس من مهماتهم أن يستجيبوا لكم فيه؛ فمرَّة تطالبونهم بتعجيل العذاب الذي أنذروكم به، ومرَّة تطالبونهم بأن يأتوكم بالخوارق والمعجزات الحسِّيَّة بحسب شهواتكم ورغباتكم.

النَّجم الرابع: في بيان ماهية الرُّسل، وتوجيههم في منهج التعامل مع أقوامهم

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: ٤٨-٥٨].

إنّ الرُّسل هم رسل الله وأنبياؤه، فالله هو مَن يحدِّد مهمّاتهم وحدودها ووسائلها، وقد جعل الله مهمّاتهم منحصرة في «الدعوة مصحوبة بالتبشير والإنذار». وفي قدرة الله المطلقة -لو شاء- أن ينزّل عليهم آيات تظل أعناق أممهم لها خاضعة: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء: ٤] لكنّ في ذلك نوعاً من الإكراه لهم. وقد سبقت كلمةُ الله أن يأتمن الإنسان على «حريّة الاختيار». وللمحافظة على حرية الإنسان فقد قصر مهام المرسلين على دعوة الناس مع الإنذار والتبشير. فلا ينبغي لأحد من بني البشر أن يتوقع من الله -جلّ شأنه- أن يفرض الإيمان بالرُّسل وما ينزله عليهم؛ لأنّه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: ٤٨ - ٤٩].

وليبيّن ويؤكّد -تعالى- على ماهية الرُّسل وكيف جمع الله -سبحانه- لهم بين الوحي والبشريّة يأمر رسولَه ﷺ أن يؤكد على قومه بشريَّته، ويؤكد على قدراته المحدودة، وعلى أنّ حمله لرسالة الله -جلّ شأنه- لا يُغيِّر من ذلك شيئاً: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠] قل: لا أقول لكم عندي خزائن الله، فلن تسألوني شيئاً إلا أُعطيتم، ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم إنّ الرسالة قد نقلتني من عالم البشر إلى عالم الملائكة، ذلك كله لم يحدث، فأنا لست إلا بشراً رسولاً، أتبع ما يُوحى إليّ من ربي، فأبصر وأسمع وأعقل، أمّا أنتم فتستمرون في العمى والظلمات والضلال البعيد، مع علمكم بأنّ الأعمى لا يستوي مع البصير، لكنّكم لا تتفكرون لتدركوا أنّكم في موقع الأعمى وأنا في موقع البصير بما أوحي إليَّ من ربّي.

ثم يأمر الله -تعالى- رسوله ألّا يضيّع وقتاً مع أولئك العُمي الذين لا يتفكرون، وأن ينذر بهذا القرآن الذين فتح الله قلوبهم وعقولهم إلى ما فيه من بصائر، فآمنوا بأنّ هناك بعثاً ونشوراً وحشراً بين يدي الله؛ ولذلك اتخذوه -سبحانه- وليّاً وشفيعاً؛

هؤلاء -بهذه الاستعدادت لديهم- سيرتقون إلىٰ مستوىٰ التقوىٰ، فلا تظنن أنّ الإنذار قاصر علىٰ أولئك المشركين الضالين؛ لأنّك: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: ١٨]، وهنا تتجاوز المقارنات ثنائيّة الأعمىٰ والبصير إلىٰ مجموعة كبيرة من الثنائيات المتقابلة: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ١٩-٢٤]، فلا تبتئس، واعلم أنّك: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: ١١]، إنّ الله -سبحانه- يأمر نبيّه أن ينذرهم بالفرار إلىٰ الله تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات: ٥٠].

ثم ينبَّه إلىٰ انقسام الإنذار إلىٰ أقسام: فهناك إنذار للكفار والمشركين، وهؤلاء قلّ أن ينتفعوا بذلك؛ لعدم وجود الاستعداد للانتفاع بذاك الإنذار لديهم، وهناك إنذار وتبشير لأولئك الذين يتّقون ليستمرّوا، فلا يفترون ولا يغفلون ولا يلبسون إيمانهم بظلم، ولا تغرَّنهم الحياة الدنيا، ولا يغرَّنهم بالله الغرور.

ثم يحذر الله نبيه ﷺ من أن يطرد أحداً من أولئك الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، وينذره -جلَّ شأنه- أنّه لو طردهم فسيسلك في عداد الظالمين، ويُبين له أنّ المستكبرين من زعماء القبائل، الذين ينظرون نظرة استخفاف إلىٰ أولئك الفقراء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ويريدون رضاه، فقد جعل الله -تبارك وتعالىٰ- بعضهم لبعض فتنة وموضع اختبار، فكان يفترض بذلك الغني أن يشكر الله ويحمده وهو يشاهد نعم الله عليه التي حَرَمَ من مثلها كثيرين. إنها فتنة واختبار كثيراً ما يسقط فيه أولئك المستكبرون، لأنّهم يقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ﴾ [الأنعام: ٥٣] فكبرياؤهم وغطرستهم تجعلهم يفكرون أنّ لهم حق الاعتراض علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو أعلم بالشاكرين.

وفي سورة هود، يقول هود لقومه، وقد واجه مثل الموقف الذي وَاجَهْتَهُ يا رسول الله محمد: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ

إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧]، فردّ هود عليهم: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود: ٢٨-٣٠]، وهكذا ترىٰ التشابه بين أولئك الكفّار والجبارين والمستكبرين في كل زمان، وطرائق تفكيرهم وخصالهم مع أنبيائهم.

ثم تأتي آية ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤] ليقول -جلّ شأنه- لرسوله الكريم: إنّ هؤلاء هم المؤمنون المستحقون أن يُبشَّروا، وأن يُقال لهم: "سلام عليكم"، أمّا أولئك الكفار فينبغي أن يُنْذَروا، لعلّ الإنذار يلفت أنظارهم أو يؤثّر في قلوبهم القاسيّة، وإلّا فإن أجل الله ماض فيهم لا محالة.

وفي ذكر التوبة في هذا السياق، وذكر لفظ "كَتَبَ" الذي يوحي بالإلزام تحفيز كبير لأولئك المؤمنين الذين جاؤوا الرسول ﷺ مخبتين لله، غير مشركين به، فوجّه الله تعالىٰ أنظار نبيّه إلىٰ تذكيرهم بالتوبة بعد إلقاء السلام عليهم، وتبشيرهم بقبولها قبل أن يأتوها، فلقد بشّر الله هؤلاء في هذه الآية وفي آيات عدة بالقبول، كما في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧- ١٨]، وفي ذلك من المنن والرحمة الكثير لـمَن كان له قلب يعي.

والآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥] تبيّن أنّ هذا القرآن المجيد لم يكتف ببيان منهج المؤمنين الصادقين ومناهج المسلمين، بل بيّن وأوضح سبيل المجرمين كذلك، وبذلك هدىٰ الله الإنسان النجدين؛ ليختار، ولئلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرُّسل.

﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨ ﴾ [الأنعام: ٥٦-٥٨]

تأتي هذه الآيات كتوجيهات من الله -تبارك وتعالىٰ- لنبيّه الكريم في كيفيّة التعامل مع الشبهات التي يوردها الكفار والمنافقون؛ حيث يدعوه -تعالىٰ- إلىٰ بيان الخطوط العريضة التي يعمل الرسول من خلالها، والتي تحكمها إرادة الله تعالىٰ، ويبيّن الصلاحيات التي أعطاها لنبيّه الكريم بناءً علىٰ بشريته وعبادته لله تعالىٰ واصطفاء الله تعالىٰ له في آن، فيدعوه أولاً إلىٰ أن يبيّن لهم أنّ الله قد نهاه ونهىٰ الناس كافّة أن يعبدوا تلك الأصنام التي يدعونها آلهة وأرباباً من دون الله، وألّا يتّبع أهواء هؤلاء المشركين وتمنّياتهم ورغباتهم القائمة علىٰ الباطل والفساد، وأنّ ما يدعونه إليه هو الضلال بعينه الذي يخرج -مَنْ يطيعهم فيه- من دائرة الهدىٰ إلىٰ دائرة الضلال، وفي سورة الفرقان: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩ ﴾ [الفرقان: ١٨- ١٩] الأمر الذي يؤكّد علىٰ إيمان النبي بربه الكريم وأنّه هو نفسه أول المؤمنين.

ويدعوه ثانياً إلىٰ أنْ يعلن أنّه موقن بأنّه علىٰ بيّنة من ربه ومحجّة بيضاء، فقد بيّن له الله -تبارك وتعالىٰ- الحق من الباطل في هذا القرآن، وتكذيب الكافرين له لا يجعله يغيّر موقفه وينصرف إلىٰ الضلال الذي يدعونه إليه بعد إذ هداه الله؛ إذ البيّنة معه ﷺ والحجة قائمة تقطع عليهم العذر، فقد جاءتهم البيّنة برسالته ليتلو عليهم هذا القرآن، فيقول لهم بكل قوة وبكل يقين: إنّني أنا صاحب البيّنة لا أنتم، والله أعطاني تلك البيّنة والصحف المطهّرة التي يُكتب القرآن بها وتحفظ آيات الله فيها، إنّه كتاب مرقوم، وكتاب مكنون، لا يمسّه إلا المطهّرون.

ويدعوه تعالىٰ ثالثاً إلىٰ أن يبيّن لهم محدوديّة الصلاحيات التي أعطاها الله تعالىٰ له، وأنّ استعجالهم له بالعذاب لا معنىٰ له؛ لأن الأمر بيد الله وحده ليس بيده هو: ﴿ قُل

﴿لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٨] فأنتم تستعجلونني بالعذاب الذي أنذرتكم به، ولو كانت لكم قلوب تعقلون بها لاستعجلتم الله -جلّ شأنه- الرَّحمة، ومع ذلك فإنزال العذاب أو الإنعام بالرحمة كل ذلك محصور في حكم الله جلّ شأنه، فهو الذي يقصّ الحقّ ويهدي إليه، ويأمرنا به، وهو خير الفاصلين حين يفصل بيني وبينكم، ولو أنّ عندي ما تستعجلون به، وقد بلغتم في إيذائي وإيذاء المؤمنين ما بلغتم لقُضي الأمر بيني وبينكم، ولن أكون ظالـماً لكم لو حدث ذلك، لأنّكم مَنْ بدأتم واستدعيتم ذلك كله، والله -تبارك وتعالىٰ- أعلم بالظالمين.

النَّجم الخامس: في تفرّده تعالىٰ بالعِلم والقدرة المطلقتين الأزليّتين

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٥٩-٦٧].

يُؤكّد الله -جلّ شأنه- في هذه الآية علىٰ تبرئة نبيّه ﷺ مرة أخرىٰ مما يتوهمون أنَّه جزء من مسؤوليَّاته، وهو قدرته علىٰ إنزال العذاب بهم؛ ذلك لأنّ الذي يقدر علىٰ هذا الأمر هو الله -تعالىٰ- وحده الذي عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، فهو هنا يجادلهم في جوانب الألوهيَّة والربوبيَّة التي لا يملك إنسان أن يتجاهلها، فينتقل السياق بهم من التهديد إلىٰ الوعيد إلىٰ بيان القدرة لإثبات وحدانيته تبارك وتعالىٰ. وهو أمرٌ يشاهدون آثاره فلا يستفيدون بها، ولا تخبت لها قلوبهم، فخزائن

الغيب ومفاتحها عنده -جلّ شأنه- لا يعلمها إلا هو، وهو جلّ شأنه مَنْ يعلم ما في البر والبحر، فعلمه شاملٌ محيطٌ بالغيب والشهادة: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩] بل ولا: ﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾ [سبأ: ٣]، هذا الكتاب هو اللوح المحفوظ كما في سورة البروج، محفوظ من كل ما يمسّ قدسيته، وقد أشير إليه في آيات أخر، منها قوله تعالىٰ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: ٣٩]، والآيات: ﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾ [عبس: ١٤-١٩]، وفي سورة يس قال: ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾ [يس: ١٢]، والمراد به «اللوح المحفوظ»؛ لأنّه الأصل المحفوظ، ومنه ينزّل الله الملائكة بالرّوح من أمره؛ أي: بالوحي، كما في الآية: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾ [النحل: ٢].

ثم يبيّن تعالىٰ آية أخرىٰ من آيات قدرته التي تفرّد بها، وهي أمر متكرر نمارسه كل يوم، إلا وهو حالة النوم، فيبيّن لنا حقيقته الغائبة عنّا، فهذا النوم الذي ننامه نعمة كبرىٰ من الله تبارك وتعالىٰ، هيّأ الله لنا سائر أسبابه، فيتوفّانا بالليل، وتلك حقيقة النوم، وقد نكون سقطنا في معاصٍ بالنهار لا يرضاها جلّ شأنه، بل تُغضبه، ومع ذلك فلا يتوفانا بالليل -الوفاة الأخيرة- مع علمه بما اقترفنا بالنهار، بل يبعثنا في اليوم التالي ليُقضىٰ أجل مسمىٰ هو الذي حدّده -جلّ شأنه- لنا، ثم إليه مرجعنا بعد ذلك، ثم ينبئنا يوم القيامة بما كنّا نعمل في هذه الحياة الدنيا، وهو القاهر فوق عباده؛ أي: الغالب المتحكم في الخلق كله، كما ورد في هذه السُّورة الكريمة: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: ٦١]، وهم الكرام الكاتبون كما في سورة الانفطار: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وهم -في الوقت نفسه- الذين يراقبونكم فيه، ويسجلون عليكم كل ما تعملون في صحائف أعمالكم، وكذلك هم مَن يحفظونكم من أمر الله ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرعد: ١١]، فالملائكة جماعة يعقب

بعضهم بعضاً لحراسة الإنسان من الله، فيجنبونه السّوء ويحفظونه من الحوادث إلا ما قدّر الله أن يصيبه، وهم في الوقت نفسه يُحصون أعماله، واقرأ قوله -تعالىٰ- في سورة ق: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]، ثم يقول جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام: ٦١]، أي في واجباتهم، وذلك تمهيداً للعرض على الله تعالىٰ يوم الحشر، وهو يوم ردّ الناس إلىٰ الله مولاهم الحق، ألا له الحكم في شأن كل إنسان: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾ [الأنعام: ٦٢].

وتتجلّىٰ رحمة الله -جلّ شأنه- علىٰ عباده أنه بعد ما ذكر لهم ما ذكر من الآيات والحساب والحشر والملائكة الحفظة، ويوم يقول الإنسان: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ [الكهف: ٤٩]، فإنّه يذكرهم بآيةٍ أخرىٰ من آياته لعلها تثير في أنفسهم -إذا لم يقض الصدأ عليها- السؤال التالي: هل لنا من نجاة؟ فيذكرهم بما يعايشونه في عالم الحياة: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣] من أهوال وشدائد: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا﴾ [الأنعام: ٦٣] تذلّلاً بالقول، فيكون جهراً في الغالب وخفية في القليل النادر، وتؤكدون علىٰ أنّه لو أنجاكم من هذه لتكونن من الشاكرين، فيخبرهم ﷺ بأمره -جلّ شأنه- قائلاً: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٦٤﴾ [الأنعام: ٦٤] ثم يأتي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧﴾ [الأنعام: ٦٥-٦٧] لتبين أن الكروب والشدائد غير قاصرة علىٰ ما قد يحدث في ظلمات البرّ والبحر؛ لأنّ هناك أنواعاً أخرىٰ من الشدائد في قدرته سبحانه أن يبعثها عليكم أو يُسلمكم إليها، وهو -سبحانه- وحده القادر علىٰ أن ينجيكم منها، وهذه الأخطار أشد وأقسىٰ؛ فما دمتم تحيون علىٰ الأرض فإنّ الأخطار محدقة بكم، فلا تظنوا أن نجاتكم من كرب ما في ظلمات البرّ أو البحر تعني نجاة مطلقة لا يعقبها خطر. فهناك أخطار ومصائب وكروب قد تأتي من فوقكم، أو من تحت أرجلكم، فتنفجر البراكين والزلازل، وما إليها، أو تأتي الأخطار من بشر مثلكم يختلفون معكم، فتلبسون شيعاً، ويذيق بعضهم

بأس بعض!! ففي خزائنه -التي لا يملك مفاتحها غيره سبحانه- الكثير الكثير، وهو -سبحانه- الذي يصرّف الآيات ويعرضها على عقولكم وقلوبكم لعلّكم تفقهونها، وتفهمونها، وتستوعبون دروسها!!.

إنّ قومك من القرشيِّين وأهل مكة قد كذّبوا بالحق الذي أنزلنا عليك، وتكذيبهم لا يغيّر من هذا الحق شيئاً، ولا يؤثّر تكذيبهم في كونه حقّاً، ونحن نصرِّف لهم الآيات ونقدمها لهم حججاً ناصعة بطرق متنوّعة، أمّا أنت فعليك البلاغ، ولست عليهم بوكيل يحمل عنهم ما لا يريدون حمله، وعليك بالصبر، فإنّ لكل خبر زماناً أو مكاناً يقع فيه عندما يأتي موعد تأويله ووقوعه، وآنذاك سيكون صدقه معلوماً لهم ولغيرهم.

النَّجم السادس: في بيان أحوال المستهزئين

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٦٨-٧٣].

هناك صنف من أولئك الذين يكذّبونك، عابثون هازلون هازئون. يحسبون أنّهم خُلقوا عبثاً، ووجدوا في هذه الحياة الدنيا سدًى، فاتخذوا كلَّ شيء لهواً ولعباً، فدنياهم لعب ولهو، ودينهم لعب ولهو كذلك. إذا اقتربوا من القرآن المجيد فإنّهم يقتربون منه اقتراب الخائفين. الذين يجعلون الآخرين يظنون أنّهم سيدخلون الماء أو سيمارسون

السباحة، وهم لا يريدون إلا أن يخوضوا في الشاطئ ليلهوا ويلعبوا ويعبثوا ابتغاء التسلية. وأكثرُ استعمالات القرآن لهذه المادة اللغويّة فيما يذم الشروع فيه، كالآية التي معنا، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: ٦٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١]، وقوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المدثر: ٤٥]، فهم يُسارعون في كلّ باطل أو زُور ليخوضوا فيه لعلهم يصرفون الناس عن هذا القرآن ويصدّونهم عنه، هؤلاء لا يستحقون منك إلا الإعراض عنهم وإهمالهم، وعدم مجالستهم، ولو حدث وأنساك الشيطان وجلست إلىٰ بعضهم فعليك أن تترك ذلك المجلس فور تذكّرك، فهم ظالمون بِشِرْكهم، وظالمون بسلوكهم، لا يليق بمؤمن ولا مؤمنة مجالستهم، أو تكثير سوادهم، وهؤلاء حسابهم عند الله عسير، وهو حساب لا يتجاوزهم إلىٰ المتقين الذين قد يُنسيهم الشيطان فيجالسونهم، فإذا تذكّروا انصرفوا عنهم، ولكن هذا الإهمال لهم والإعراض عنهم تذكير لهم ولسواهم بما هم عليه، إن لم ينتفعوا به فإنّ فيه إقامة للحجة عليهم، وفيه كذلك ذكرىٰ للمؤمنين أنفسهم بما يجب عليهم تجاه القرآن المجيد، فالتقوىٰ تتحقق بتعظيم القرآن والإيمان، والاعتصام به واتباعه وعدم هجره. كما أنَّ هناك أقواماً آخرين ينبغي أن يُتركوا ويُهملوا، إذ إنّ أوقاتك وأوقات المؤمنين أجلّ من أن تُضيَّع مع هؤلاء الضائعين المضيَّعين، وهم الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً. و«اللعب»: فعل صاخب، لا يقصد صاحبه من ورائه تحقيق أي مقصد صحيح، سواء تحصيل نفع أو دفع ضرر، كأفعال الأطفال، لكنَّ أفعال الأطفال بريئة، وهذه يغلب أن يشوبها القصد السّيء. وأمَّا «اللهو»: فهو ما يشغل الإنسان عن المهم من شأنه، ظنّاً منه أنَّه يجد في ذلك تسليةً، واغتراره بالحياة الدنيا وتوهّمه أنَّها باقية يجعله مهيئاً لإضاعة الأوقات؛ فذكِّرهم يا رسول الله بالقرآن بسرعة زوال هذه الحياة وانقضائها قبل أن يهلكوا، وتبسل أنفسهم، وتحبس في جهنم بما كسبت. وذكِّرهم بأنّه لا وليّ لهم من دون الله ولا شفيع، وليس لدىٰ أي نفس ما تُفتدىٰ به إلا ما تدعوهم إليه الآن، فإنّها إن تعدل كلَّ عدلٍ –لو كان ذلك ممكناً– لا يؤخذ منها لو فُرض أنّ لديها ما يُفتدىٰ به،

فلا فداء في ذلك اليوم، أولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا؛ أي: أهلكهم الله بسبب عملهم السّيء، الذي يؤدي إلىٰ حبسهم في جهنم، لهم شرابٌ من حميم يُصهر به ما في بطونهم والجلود، وعذاب أليم بسبب كفرهم، وإعراضهم عن الهدىٰ بما جاءهم.

وقل لهم علىٰ سبيل الموعظة والحوار: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١] من أصنام وأوثان وأرباب متفرقين، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، فضلاً عن أن يملكوا ذلك لسواهم، وآنذاك سيكون مَثَلنا مَثَل من استهوته الشياطين في الأرض، فحملته علىٰ اتّباع هواه والسير علىٰ غير هدىٰ، وله أصحاب مهتدون يدعونه إلىٰ الهدىٰ: «ائتنا»، فلا يستمع إليهم بعد أن استهوته الشياطين، ومثل هذا ما كان يمكن أن ينقذه إلا هدىٰ الله؛ لأنّ هدىٰ الله هو الهدىٰ الحقيقي الذي لا يُقاوم مكائدَ الشيطان سواه: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنعام: ٧١]؛ أي: «أن نُسلم»، فاللام بمعنىٰ «أن»، وما بعدها في قوة المصدر، ﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢﴾ [الأنعام: ٧٢]، وهو -وحده- أهلٌ لعبادتكم وتقواكم؛ لأنّه إضافة لذلك كله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾ [الأنعام: ٧٣].

النَّجم السابع: في قصة سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ والحجّة التي آتاها الله تعالىٰ له علىٰ قومه لإثبات وجوده ووحدانيته عَزَّوَجَلَّ، والمزج بين أدلة الخلق والإبداع، وطروء النقص علىٰ سائر الخلق لإثبات التوحيد بكل مستوياته

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ
أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾
وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ
فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ
وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ
وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ
وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾
وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ
فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ
قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٧٤-٩٠].

بداية عرض الحُجة التي آتاها إبراهيم على قومه، ورفعه بها درجات: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقد عطف على الآية (٦٦)، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام: ٦٦]، وفي ذلك ربط بديع بين سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وسيدنا محمد ﷺ وبين قوم إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وشركهم وضلالهم، وقوم محمد ﷺ وما هم عليه.

والأوّلون ينتسب إبراهيم إليهم، وهؤلاء -قوم سيدنا محمد ﷺ- ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم، وما فعله قوم إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ معه، فعل العرب مثله مع رسول الله ﷺ؛ ولذلك فإنّ الحُجج التي احتج بها النَّبيَّان العظيمان، والرسولان الجليلان، متضافرة متساندة، يُعزِّز كل منهما حجج الآخر لدحض شبهات المتقدمين من المشركين والمتأخرين منهم.

ولأنّ سياق السُّورة سياق احتجاج -جاءت بعد محاولات هداية وإقناع كثيرة- اتّسم الحجاج بنوع من القوة التي لم تُعهد فيما مضى، ففي الماضي جاء قوله تعالى في

حوار إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا (٤٢) يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ
جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا (٤٣) يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ
كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا (٤٥)
قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ
سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا (٤٧)﴾ [مريم: ٤٢-٤٧]، ومع أنّ ما أوردته سورة الأنبياء
من حِجاج اتَّسم بشيء من الشِّدَّة، لكنّه لم يكن بهذه الصورة، واتل تلك الآيات:
﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ (٥٢) قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ
مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ
ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (٥٦) وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا
لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٥٩) قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ
يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠) قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا
يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥)
قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا
وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى
بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَـٰهُمْ
أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَـٰبِدِينَ (٧٣)﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٣]، وكذلك آيات سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩)
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ
(٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥)
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ
يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ

لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٣]، وفي سورة الصافات: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ٨٣-١١٣].

أمّا هنا في سورة الأنعام، فإنّ الله -تبارك وتعالىٰ- يُري بنفسه إبراهيمَ ملكوت السماوات والأرض، ليصوغ له الحُجّة القاطعة، والدليل الساطع القائم علىٰ الاستدلال بالموجودات، تلك التي اتخذت آلهة ضلالاً وانحرافاً عن وجود الإله الحق الذي خلق السماوات والأرض بالحق، لتصبح تلك الموجودات المؤلَّهة حجّة مزدوجة، تدل علىٰ بطلان تأليهها من ناحية، والاستدلال بنقصها وأفولها علىٰ وجود من جعلها آفلة، وهو الإله الحق الذي لا إله غيره، ولا ربّ سواه لها ولغيرها.

وإراءة الله -تعالىٰ- إبراهيم «ملكوت السماوات والأرض»، أي: كل ما يصحّ أن يندرج تحت «ملك»؛ لأنّ «ملكوت» و«جبروت» وأمثالهما صيغ مبالغة، وهذه المبالغة تتجلّىٰ بالعموم والشمول، وجعلت إبراهيم نفسه أول المستفيدين من هذا؛ ليكون بهذه الإرادة الإلهيّة له من «أهل اليقين» التام، ويطمئن قلبه بحجته وسلامتها، فيقدّمها لقومه وهو عالم بها علماً يقينيّاً لا تخالطه شائبة من شك.

وإذ بلغ إبراهيم ذلك تقدّم إلىٰ قومه -الذين يعبدون النجوم والكواكب، ويصوّرون لها أصناماً -وتلك ديانة الصابئة والكلدانيِّين من قوم إبراهيم، وهي ديانة كانت منتشرة آنذاك في جنوب العراق، حيث مدينة «أور» مسقط رأس إبراهيم- فاختار أشد الكواكب إضاءة ولمعاناً في ليلة من الليالي، ويبدو أنَّه من الكواكب التي كانوا يعظِّمونها؛ فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، فلمعانه وبريقه وتوسّطه كبد السماء يجعله الأكثر حظّاً في منحه صفة الربوبيَّة والخلق والتدبير، وانتظر، وأمل قومه أن تنتهي أزمتهم معه، فكأنّهم تجاوبوا ونظروا معه إلىٰ النجوم والكواكب، فلمّا أَفَل وغاب، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام: ٧٦]، إذ مَنْ الذي يتولىٰ شؤون الربوبيَّة والتدبير إذا غاب؟ كما أنَّ الأفولَ دليلُ نقصٍ، وما دام قد أفل وانصرف فمَنْ الذي صرفه وجعله يأفل؟ أليس ذلك أولىٰ بالربوبيَّة منه؟! فقوله عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من شأنه أن يُثير كل تلك الأسئلة في أذهانهم، شاؤوا أم أبوا!! وكأنّه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقد استدرج أذهانهم إلىٰ التساؤل والتفكير، تركهم في حيرتهم وتساؤلاتهم الكثيرة: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ [الأنعام: ٧٧] وابتدأ شروقه سارع إلىٰ القول: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾ [الأنعام: ٧٧] هنا يبدو عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كمن يحدّث نفسه، ثم يُبدي نوعاً من القلق والاتِّجاه نحو الربّ الحقيقيِّ، ربّ الطبيعة والإنسان، ليمنَّ عليه بالهداية؛ إذ إنَّ جهوده وبحثه بنفسه لا يبدو أنّها سوف تُوصِله إلىٰ الإله الحق؛ وفي ذلك تعريضٌ بقومه، وبيان أنَّهم ضالّون في عبادة هذه الكواكب الآفلة الناقصة، والتي تعتمد علىٰ ربّ لا شك أنّه هو الربّ الحقيقيّ الخالق المسيّر لها في بزوغها وأفولها. ولـمّا انقادوا وراءه إلىٰ تلك المشاهدات والأدلة الحسِّيّة انتظر بزوغ الكوكب الأكبر، «الشمس»: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾ [الأنعام: ٧٨] ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: ٧٩]. لقد تدرّج عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ معهم وقادهم عبر مسيرة مليئة بـ«الشك المنهجيّ»؛ ليرفع عن قلوبهم وعقولهم حُجُب الأفكار المسبقة والمسلّمات الخاطئة التي لا دليل عليها، ويستبدلها بمسلّمات سليمة: فالرب لا يمكن أن يأفل أو يغيب، وما ينبغي له ذلك.

وقد حاول عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو يسير بأناة، ويقود قومه بتؤدة نحو تخليصهم من وثن «ضغوط المجتمع»، وهو وثن يصنعه المجتمع علىٰ هواه، وقد يستفيد من تاريخه وتراثه وثقافته وأيَّة عناصر أخرىٰ، ليحول بين الأفراد وتجاوز ذلك الوثن أو الخروج عليه. ومن مظاهر تحكّم ذلك الوثن المجتمعيّ الخوف من المجتمع، وموقفه في حالة المخالفة. فحاول إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ العمل علىٰ تشغيل قوىٰ وعيهم، وجلاء فطرهم، ودفعهم إلىٰ استعمال عقولهم.

إنّ الدروس التي تقدِّمها هذه الحُجة -التي آتاها اللهُ إبراهيمَ علىٰ قومه- كثيرة ومهمَّة جدّاً، وهي التي ينبغي أن يعتمدها دعاة التوحيد ليصلوا بالناس إليه، ويمهِّدوا لهم السبيل ليبلغوا مستوىٰ ومرتبة: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ﴾ [الأنعام: ٧٩]، مبتعداً عن الباطل، مجافياً للشِّرك وأهله، مائلاً عن سائر الأديان إلا دين الحق الذي اختاره الله لعباده، وأرست دعائمه أمّة الأنبياء الواحدة. والموحّد يتجه إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بمحض اختياره وإرادته فيتجلىٰ معنىٰ: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ﴾ [الأنعام: ٧٩].

فبعد تلك الحُجة البالغة مازال القوم يحاجّون إبراهيم ويجادلونه، فيقول لهم -مستغرباً- ذلك اللجج في الجدل: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: ٨٠]، فيلجؤون إلىٰ سلاح العاجزين هو الترهيب من آلهتهم الصمّاء البكماء العاطلة، والتخويف بها، فيعلن إبراهيم في مواجهة ذلك النوع من الإرهاب: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٨٠]، ولو حدث لي أيّ شيء فلا تتوهموا أنّه قد حدث بفعل أصنامكم وآلهتكم المصطنعة، بل يكون ذلك بمشيئة ربي وإلهي، الذي يعلم ما يصلح لي وما لا يصلح؛ لأنّه ذو علم شامل محيط، فإذا علم أنّني بحاجة إلىٰ بلاء أو ابتلاء فهو العليم الخبير الذي يعلم مَنْ خلق: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١﴾ [الأنعام: ٨١]، ويُجيب -جلّ شأنه- علىٰ ذلك التساؤل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]، فالذين آمنوا إيماناً

خالصاً -لم تَشُبْه شائبة شرك- أولئك لهم الأمن في الدنيا والآخرة؛ أَمنٌ من القلق والاضطراب والانحراف عن الصراط في الدنيا، وأَمنٌ من عذاب الله وحسابه في الدار الآخرة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١] «الأَمْن» مفهوم قرآنيّ من أهم وأخطر المفاهيم التي تشتدُّ حاجة أمّتنا إلىٰ الوعي بها وفهمها، وإدراك طبيعتها، وكيفيَّة تحقيقها في حياة الأُمّة، وقد ورد في القرآن المجيد بصيغ عديدة، منها المصدر، كما اشتقّ منه اسم «الأمانة» و«الإيمان». و«الأَمْن» طمأنينة النفس، وانعدام الشعور بالخوف والقلق. ولأهميّة مفهوم «الأَمْن» عدّه بعضُ كلمة «التوحيد»؛ لأنّ الأَمْن لم يكن يتحقق إلا بها. وقال بعضهم: إنّه «العدالة»؛ لأنّها الركن الذي لا تتحقق الطمأنينة إلا به، وقد امتن الله -تعالىٰ- علىٰ البشريّة «بالحرم الآمن»: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقد امتنّ الله علىٰ قريش بأنّه: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٤]. و«المأمن» المنزل الذي يطمئن الإنسان فيه، ويشعر بالسَّكن والطمأنينة، ويُزال به الخوف لوجود ما يؤدّي به إلىٰ الشعور بحالة «الأَمْن». ووسائل تحقيق الأَمْن كثيرة، أهمّها أن تكون هناك منظومة أخلاقيّة يلتزم بها أبناء المجتمع، فيطمئن الإنسان في إطار هذه المنظومة الأخلاقيّة؛ لأنّه لا يتوقع من أيّ أحد أن يتجاوز عليه، أو يتعدىٰ عليه، أو يصادر حقوقه. وكذلك نظام العدل يجعل الإنسان آمناً مطمئناً للعيش في ظلاله، لا يخشىٰ أن يضيَّع له حق، أو يفرض عليه شيء بظلم. وقد يجد الإنسان في «السِّلم» أمناً، ولا يجد ذلك في حالة «الحرب». و«استجارة غير المسلم» بالمسلمين ليسمع كلام الله -تعالىٰ- توجب عليهم إجارته حتىٰ يسمع كلام الله، ثم عليهم أن يقوموا بحمايته إلىٰ أن يصل إلىٰ مأمنه؛ أي: إلىٰ المكان الذي يأمن فيه علىٰ نفسه ودياره وديار ذويه. وقد جعل الله -تعالىٰ- بيته المحّرم آمناً، بحيث يشعر داخله بـ«الأمن والطمأنينة» في قلبه ونفسه ووجدانه؛ ولذلك فقد نهىٰ الله -جلّ شأنه- أن ينفّر صيد الحرم، أو يقطع شجره، أو يعرّض اللَائذ به للخوف؛ ليكون نموذجاً للأرض كلّها التي استُخلف آدم وبنوه فيها

ليقوموا بعمرانها بالأَمْن والحق والعدل: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ولا يمكن تحقيق مقاصد الشارع الحكيم في «التوحيد والتزكية والعمران» من دون حياة آمنة مستقرة، يسودها «السّلام والأَمْن»، وتغمرها «الطمأنينة».

و«الأَمْن» مطلب إنسانيّ عالميّ، سلك البشر مختلف السُّبل ابتغاء الوصول إليه، لكنّ تلك السُّبل والوسائل التي توسَّلوا بها لتحقيق هذه الغاية في بلوغ «حالة الأَمْن» كانت جلّها -إن لم تكن كلّها- مناهج إنسانيّة وطرقاً بشريّة نسبيّة. لقد ظنّ بعضٌ أنّ «الأَمْن» يتحقق بالليبراليّة، وقد تحقق الليبراليّة شيئاً منه؛ ولكنّها لا تحقق الأَمْن كلّه. وهؤلاء -بعد أن ركّزوا على تعليق قضايا الخلاص الإنسانيّ للذات الإنسانيّة حول نفسها- سارعوا بتبنّي الليبراليّة Libéralisme إطاراً لإطلاق حيوانيّة الإنسان وإشباع رغباته كلها دون قيود، فاستظهرت الليبراليّة وتأَصّلت بالفرديّة Individualisme، ثم سوّغت «الفرديّة» بالنفعيَّة Utilitarianism، وأصّلت «النفعيّة» بالنزعة «الأدائيّة» و«الأداتيّة» أو «العمليّة»، واتخذت هذه النزعة «الآليّة» أو «الأداتيّة» Instrumentalisme نهجاً لتحقيقها. وأمام مضاعفات «إطلاق الفرديَّة»، وما أدت إليه من اغتراب وتفكيك وصراعات، برزت «الديمقراطيَّة» Democracy بوصفها حلًّا موهوماً أو مفترضاً في مجال «تقنين الصراع» واستيعاب القوى الجديدة، التي يفرزها المجتمع. فلم تكن «الديمقراطيّة» -وليس من طبيعتها أن تكون- حلّاً للأزمات الإنسانيَّة، أو وسيلة للقضاء على الصراعات، وتوجيه البشريّة للدخول في السّلم كافّة في سائر جوانب نظمها السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة؛ إذ إنّ مهمتها فقط الحيلولة دون تفجر العلاقات بين أبناء المجتمع الواحد، واحتواء التناقضات بين فئاته وعناصره من خلال تقنين الصراع، واستيعاب القوى الجديدة في المجتمع، وهذا الاستيعاب كثيراً ما يتم بشكل وهميّ!! حيث يُخيَّل للإنسان -في الإطار الديمقراطيّ- أنّه شارك في صنع القرار بمجرَّد أن أدلى بصوته، أو عبَّر عن نفسه. والتعبير عن النفس شيء، والمشاركة في صنع القرار شيء آخر، والمعطيات التي تؤثر في صنع القرار كثيرة متعدّدة؛ ولذلك فإنّ كثيراً من الرؤساء يجدون أنفسهم -شاؤوا أم أبوا- عاجزين عن الالتزام بما أعلنوه في برامجهم المعروضة على الناخبين، ولا يملكون

ولا يملك منتخبوهم شيئاً. لقد تحوّل الإنسان -من خلال «الديمقراطيَّة»- إلىٰ أداة إنتاج واستهلاك، يُدار -ديمقراطيّاً وبرضاه التام- بوساطة طبقة مهيمنة متعالية تتبادل هذه الإدارة بشكل يلفت النظر، وبوصفها أحزاباً سياسيّة أوجدتها الشعوب للتعبير عن إرادتها، وإن كانت قد انبثقت في بادئ الأمر عن الشركات الكبرىٰ، وبذلك تحوّل «المذهب الإنسانيّ» -الذي أقيم علىٰ «مركزيّة الإنسان»- إلىٰ مجرّد شكل أو شعار زاد في مآسي الإنسان ومعاناته واغترابه، وجعله يدور حول ذاته، منقطعاً عن ربَّه، وعن محيطه وجذوره، فاقداً لكل ما كان يربطه بكينونته الإنسانيَّة أو علاقاته العائليَّة أو تاريخه أو جذوره الحضاريَّة.

وبذلك وجد الإنسان نفسه يتخبط في «عبثيَّة وجوديَّة» تلقي به إلىٰ مجاهل «الفراغ العدميّ»، والَّذِي جعله لا يبالي بشيء ولا يهمه أن يدرك شيئاً، فهو لا يدري أكثر من أنّه توفر له الطعام والجنس. ودراسة أحوال الشعوب -التي يسودها هذا النظام- كفيلة بإبراز هذه الحقيقة المرّة، وإن تبجّح قادتها بخلاف ذلك. إنّ شخصيّة مثل هذه -إن كانت قد بقي لها من مكونات الشخصيّة أو الكينونة الإنسانيّة شيء- مستلبة الوجود تماماً.

لقد جعلت الأنظمة المختلفة من الإنسان «**حيواناً إعلاميّاً**»، تفرّغه من مقوّمات كينونته، وعناصر شخصيَّته؛ لتشخّص له كل شيء -إعلاميّاً- بكل ما لديها من وسائل وأجهزة إعلاميَّة، فهو لا يُشحن أو تبنىٰ شخصيَّته تربويّاً ولا حضاريّاً، ولا دينيّاً، بل إعلاميّاً؛ لأنّه -بالإعلام- يسخَّر لخدمة النظام والأيدي الظاهرة والخفيّة فيه التي يدار الإنسان بها، فهو إنسان يدور بين ساقيتي الإنتاج والاستهلاك وقيادة الإعلام، أينما توجّهه -خارج ذلك- لا يأتِ بخير، إلّا ما يفرضه الثلاثيُّ المذكور، ومع ذلك يُخيَّل إليه أنَّه شريك فِعْليٌّ أو مساهم حقيقيٌّ في القرار السياسيّ من خلال ذلك الصوت الذي يُدلي به في مواسم الانتخابات، وحين تجد الطبقة المتحكمة ضرورة لتجاوزه فما أكثر الطرق التي تستطيع أن تسلكها لتحقيق ذلك!! والوضع العالمي والأمريكيُّ الراهن نموذج لذلك، حيث جرىٰ تمرير الكثير من الإجراءات والقوانين المناقضة للديمقراطيَّة -بكل معانيها القديمة والحديثة- تحت ضغط الماكينة الإعلاميَّة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وما كان لشيء منها أن يمرّ لولا ذلك.

هناك الفريق الثاني الذي اختار أتباعه للخلاص الإنسانيّ سبيلاً آخر، حيث توهّموا وجود الخلاص في دائرة «الحتميّات التاريخيّة» و«الماديَّة الجدليّة»، التي زعموا أنَّهم اكتشفوها، والتي تمر من أقنية «الصراع الطبقيّ»، وهؤلاء لم يكونوا أقل استلاباً للإنسان من اللَّيبراليين والرأسماليّين؛ فقد جرّدوا الإنسان -كذلك- من كينونته، ووضعوه في إطار نمطيَّة أحاديَّة مبوتقة، لا تتصل بتاريخ الإنسان ولا بواقعه ولا مستقبله إلا من خلال الحزب المعبّر عن مصالح الشعوب، وفي إطار الطبقة والحزب وحدهما، وقد قطعت علاقة إنسانها بالتاريخ كلّه وبالحضارات الإنسانيَّة كافَّة، وجعلتها علاقة رفض ولعن وتحقير لها، فكلّها حضارات طبقيَّة لم تأخذ «الشغيّلة» فيها نصيباً. وكل تلك الحضارات صنعها الجلّادون وأعداء الشعوب، والإقطاعيُّون، ومَنْ إليهم من البرجوازيِّين، وكل دين هُوَ أفيون معيق لتحرير الشعوب، فتجب محاصرة الأديان والقضاء عليها، وتحويل معابدها إلىٰ ملاهٍ ومراقص، ومتاحف إن أمكن. ويمكن للفنون -من رقص وغناء ونحت ورسم وغيرها- أن تلبي الحاجات النفسيّة والروحيّة لمن يجد في نفسه حاجة لذلك، وبلا مواربة. وبعد خمسة وسبعين عاماً أعلن أصحاب هذه الأطروحة موتها وفشلها، وارتدّت تلك «الحتميّات التاريخيّة» و«الماديَّة الجدليّة» علىٰ أصحابها بالخسران والخذلان، وتفككَّ الحزب والإمبراطوريَّة التي أقاموها، قبل أن يبني الحزب جنَّته الأرضيَّة ليعيش فيها مجتمع الرفاهيَّة الذي وعد الناس به. وحين تهاوت تلك الأطروحة سرعان ما عادت إلىٰ الظهور داخل الاتحاد السوفيتي المقبور بالعصبيَّات القوميَّة، والأصول العرقيّة والطائفيّة والدينيّة؛ لتعلن أنّ النظريّات التي قامت علىٰ «الماديَّة الجدليّة» و«الحتميّات التاريخيّة» لم تستطع استئصالها أو تغييرها، لكنَّها كمنت تحت سيف القهر، وحين وجدت فرصة للظهور المجدّد لم تتردد في اغتنامها؛ لتعلن أنّها كانت أقوىٰ من تلك النظريَّات التي زعموا أنّها نظريّات خلاص.

والآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] قد بيّنت بجلاء ووضوح قاعدة الأَمْن ومنطلقاته، وما لا يمكن أن يتحقق الأَمْن إلا به، وكأنّها قد قدمت لنا قاعدتين أو دعامتين؛ الأولىٰ هي

الإيمان، والثانية نبذ الظلم وعدم الخلط بين الإيمان والظلم بكل مستوياته وأنواعه، ظلم الإنسان لربه بأن يُشرك به غيره، وظلم الإنسان لنفسه بتجاهل نشأتها وصيرورتها ومصيرها، والانغماس فيما نذر الشيطان نفسه لاستدارج ابن آدم إليه وإلىٰ الانغماس فيه من المعاصي والشهوات، وظلم الإنسان لأُمّته بتجاهله لواجباته نحوها، وظلم الانسان للأرض بعدم إحيائها. وإذا كان رسول الله ﷺ قد نبّه في بعض ما رُوي عنه إلىٰ أنّ الإيمان بضع وسبعون شعبة، فإنّ الظلم شُعبٌ كثيرة كذلك، ولا بُدَّ من تجنّبها لتحقيق الأَمْن النفسي والأَمْن والسلم الاجتماعيين، والأَمْن والسلم العالمي، والآية الكريمة ترسم للبشريّة سُبل الوصول إلىٰ الأَمْن والسلام وتحقيقهما بناء علىٰ هاتين الدعامتين: تحقيق الإيمان الخالص، ونبذ الظلم بكل أنواعه، فذلك سبيله، ولقد امتن الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ قريش بأمرين: أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. فلو أنّ الأُمّة أدركت واجباتها وقامت بدورها، واتصفت بما ندبها الله للاتصاف به من وسطيّة وخيريّة وشهادة علىٰ الناس لتغيرت أحوالها وأحوال العالم كله من حولها، لكن تخلّفها وتراجعها وتجاهلها لدورها وتوقفها عن حمل رسالتها إلىٰ العالم كله أدّىٰ إلىٰ خسارة العالم والبشريّة خسائر فادحة لا يمكن لها أن تُعوّضها إلا بالاتفاق علىٰ الهدىٰ والحق والإيمان ونبذ الظلم؛ ليتحقق لها الأَمْن والسَّلام وتدخل في السِّلم كافة، وتتخلص من القلق والاغتراب والعدوان وما يجرّه من ويلات.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣]. تلك هي الحُجّة البالغة التي آتاها الله إبراهيم لينصره علىٰ قومه، ويرفع بها درجته بين الرُّسل كافة: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣].

إنَّ نصر الله -تعالىٰ- إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد تجلّىٰ في جوانب ثلاثة. الجانب الأول هو «الحُجّة» التي آتاه الله إيّاها ليدحض بها شِركهم وباطلهم، بحيث تنقطع عمليّات شغبهم الذي يزعمون أنّه حجج يحتجون بها علىٰ باطلهم. والجانب الثاني هو «رفع

درجاته وترقيته» لكي يدرك الناس تقدير مولاه -جلّ شأنه- ونصره وتكريمه له، كما يمنح الملك القائد المنتصر أوسمة وأنواطاً لتكريس الاعتراف بانتصاره في معركة فاصلة، وإشاعة ذلك، إضافة إلىٰ المعاني الأخرىٰ التي يحملها التكريم الإلهي. أمّا الجانب الثالث فهو «وهب له إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب» والأنبياء من ذراريهم.

ولن نُعنىٰ بترجمة أحد منهم بأكثر من ترجمة القرآن التي لم تتجاوز ذكر اسم النبيِّ واسم قومه، وأحياناً اسم الكتاب الذي أُنزل عليه أو الصُّحف، ثم أهم صفحات جهاده قومَه ليؤمنوا، وعناوين الموضوعات الأساسيّة التي جاءهم بها، وذلك لأنَّه ليس بين أيدينا من المصادر التي يمكن الاستفادة بها للترجمة لهم -بما يزيد علىٰ ما في القرآن المجيد- سوىٰ التوراة وما بُني عليها، واستند إليها من المراجع، وليس من منهجنا الرجوع إليها؛ لأنّنا معنيّون بـ«تفسير القرآن بالقرآن» فقط، وليس تفسيره مطلقاً أو بقصص بني إسرائيل. وقد ذكر الله -تعالىٰ- هؤلاء المحسنين الصالحين الذين فضّلهم الله علىٰ العالمين وهداهم واجتباهم، وأسماء كثيرون منهم معروفة متداولة في جزيرة العرب بتأثير «الثقافة الشفويّة» المتدوالة -آنذاك- وغيرها، وكأنّه يقول للعرب: كل أولئك الذين تعرفون بعضهم موحّدون لا يتقبّلون من شرككم شيئاً، فَلِمَ لا يسعكم ما وسع هؤلاء.. فتؤمنوا؟! لكنّ بعض ما يُهمنّا -هنا- هو أنّ الله -تعالىٰ- أثبت نبوّة بعضهم، وذكر هؤلاء الأنبياء، وعلينا أن نؤمن بهم كما ذُكروا في القرآن المجيد دون زيادة أو نقص. أمّا النبيّ الخاتم ﷺ فواجب علىٰ كل مسلم ومسلمة الإيمان به تعييناً ومعرفته تفصيلاً، ومن لطف الله أنّ القرآن المجيد قد عرَّفنا تفصيلاً به وبقريته التي أخرجته -أم القرىٰ- وبقومه ومهجره وأهل بيته وأصحابه وصفاته وأخلاقه.(١) والذي نؤمن به وندين به أنّ مَنْ يُنكر نبوّة معينّ ممن سمّاهم القرآن المجيد

(١) وقد بالغ ناظمٌ نقل أبياته إبراهيم البيجوري في شرحه علىٰ جوهرة التوحيد، وهي قوله:

حَتْمٌ عَلَىٰ كُلِّ ذِي التّكْليفِ مَعْرِفَـة ... بِأَنبيَـاءٍ عَلَىٰ التّفصِيلِ قَدْ عُلِـمُـوا

فِي رد تلك حجتـنا مِنْهم ثَمَـانِيَـة ... مِنْ بَعْد عَشْرٍ وَيَبْقَىٰ سَبعة وَهُمُـو

إِدْريس، هُود، شُعَيْب، صَالِح، وَكَذَا ... ذُو الكفل، آدم، بالمخْتَار قَد خُتِمُوا

فإنّ قصد الناظم بـ«حتم» هو فرض أو واجب، فهذا ما لا نقبله ولم يوافقه عليه أحد. أمّا إن أرادوا «الاهتمام» الذي لا يليق إهماله، فمقبول، وإن لم تساعد عبارته عليه.

أنبياء في سور «النساء وهود والأنعام والأنبياء ومريم» وغيرها، مع تحقّق علمه بذلك، وتعمّده الإنكار بعد المراجعة والتوضيح، فإنّ ذلك الإنكار يكون كفراً. وقد اختلف أهل العِلم في عدّ «ذي الكفل» بين النبيّين، فذهب بعضٌ إلىٰ أنَّه نبيٌّ، وذهب آخرون إلىٰ أنَّه ليس بنبيّ؛ لأنّ اسمه ذُكر في سورة الأنبياء في عِدَاد الصالحين فقط، ولم ينصّ القرآن المجيد علىٰ نبوّته، أمّا آدم فقد اتفقوا علىٰ كونه نبيّاً.

وقد امتنّ -جلّ شأنه- علينا مبيّناً أنّ هذا النوع من الهدىٰ هو هدىٰ الله، لا هدىٰ الآباء والسادة والكُبراء الذين يضلّون ويُضلّون مَنْ يتّبعهم، إنَّه بهدىٰ الله الذي يشمل الذرّية والأزواج والآباء والأبناء والإخوان، أمّا ما يجب علينا الإيمان به فهو أنّ الله -تعالىٰ- أرسل رُسلاً مبشّرين ومنذرين، ونبّأ أنبياء كثيرين نؤمن بهم كما ذكروا في كتاب الله، لا نزيد علىٰ ذلك، ولا نُضيف إلىٰ ما قصّه الله علينا في كتابه الكريم؛ لئلا نُستدرج للسُّقوط في الإسرائيليّات وما فيها من أساطير أذهبت الكثير من بهاء النبوّة، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩]، ففيها نوع من التخفيف عن النفس الطاهرة نفس رسول الله ﷺ، فإنّ كفرهم بالرسالة لم يضرّ بها، فقد أُسند الإيمان بها وتأييدها وتبنّيها والدفاع عنها إلىٰ قوم ليسوا بها بكافرين، وهم خير من هؤلاء: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، أولئك الأنبياء المرسلون الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة هم الذين هدىٰ الله، فبهداهم اقتده، فأنت خاتم النبيّين، ومتلقي الكتاب المصدّق لما أنزل عليهم، والمهيمن علىٰ ما أُوحي إليهم، فلستَ بِدَعاً من الرُّسل، بل جمعت لك هدىٰ الأولين وتجارب السابقين، وأكملت لك الفضائل؛ ليجتمع الهدىٰ فيك، فهداك خلاصة هداهم، وكتابك جماع ما أُوحي إليهم.(١)

(١) استدل القائلون بأنَّ شرع مَنْ قَبلَنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ بهذه الآية علىٰ ما ذهبوا إليه. وعزّزوا استدلالهم هذا بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وهي مسألة طويلة الذيل، أكثر الأصوليُّون الأخذ والرد فيها. فراجِعْها مبسوطةً:

- الرازي، **المحصول في أصول الفقه**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٦-٢٧٥.
- ابن عاشور، **تفسير التّحرير والتّنوير**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٥٨-٣٥٩ =

النَّجم الثامن: في بيان أن الوحي حق

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ
مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ
قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ
ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ
ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

= وخلاصة المسألة أنّ الشرائع السابقة لها ثلاثة أحوال: فهناك شرائع لم نعلمها إلا من كتبهم، ورواة أخبارهم ولا خلاف بين علماء الأمّة المسلمة أنّنا غير مكلفين بها لعدم صحة النقل والشك فيه. وقسم أجمعت الأمّة على أنّنا وهم مكلفون به مثل: «التوحيد والعدل والأمانة والتزكية والعبادة» وما إلى ذلك من أصول سلوكيّة وأخلاقيّة وعباديّة.

وقسم نقل شرعُنا عنهم أنهم تعاملوا به وكان جارياً العمل به لديهم، وهذا –وحده– موضع اختلاف علمائنا، وقد اشترطوا لاعتباره شرعاً لنا أو كوننا مكلّفين به ثبوته في شرعنا على سبيل الإخبار، مع عدم ورود ما يقتضي تكليفنا به، وشمولنا بذلك التكليف، فنكون مشمولين بالخطاب الموجّه إليهم؟ والحقّ أنّ قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ ﴾ [المائدة: ٤٨] كافية لغلق باب الجدل في هذه المسألة، إضافة لاختلاف خصائص الشرائع، وضرورة ملاحظة «الخصوصيّة والعالميّة» في هذا المجال!! وقد أحسن إمام الحرمين حين قال في البرهان، الفقرات (٤١٧–٤٢٣): "إنّ هذه المسألة لا يظهر لها ثمرة في الأصول ولا في الفروع، بل هي مما يجري مجرى التواريخ"، انظر:

- الأصبهاني، الإمام أبو عبد الله محمد بن محمود (توفي: ٦٨٨هـ). **الكاشف عن المحصول في علم الأصول**، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م، ج٣، ص١٨٤.
- القرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس (توفي: ٦٨٤هـ). **نفائس الأصول في شرح المحصول**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، ١٩٩٥م، ج٦، ص٢٣٧١.
- الرازي، **المحصول في أصول الفقه**، مرجع سابق، ج٣، هامش ص٢٦٥.

ومما يلتفت النظر إليه أنّ الامام الرازي قد قال ما لفظه: "إنّ من أخبره (أي: النبيّ) بوجود الرَّجم في التوراة لم يكن ممن يقع العلم بخبره، فثبت أنّ رجوعه إليها كان ليقرّ عليهم أنّ ذلك الحكم (أي الرَّجم) ثابت في شرعهم، وأنهم أنكروه كذباً وعناداً..."، أمّا ثبوته في شرعنا فلم يثبت بالقرآن، ولا بسنن تصلح أن تزيد على القرآن؛ لأنّها ليست في قوة ثبوته، والزيادة على النصّ نسخ والإمام الشافعي لا يرى نسخ القرآن بالسنّة، ومن ثمَّ فإنّه –وفقاً لقواعده– لا يقول بجواز إضافة «الرجم» إلى الحد، لأنّه زيادة على النص القرآني على الجلد في الآية الثانية من سورة النور.

ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩١ - ٩٤].

هذا النَّجم متَّصل بعمود هذه السُّورة الأساس، ألا وهو تقديم الوحي الذي أنزله الله علىٰ عبده ورسوله -محمد ﷺ- للبشريَّة كافَّة ليخرجها من الظلمات إلىٰ النور، ومجادلة المشركين عنه وإفحامهم، كما جادل الله أهل الكتاب عنه وأفحمهم في سور سابقة. ويأتي ذِكر الكتاب المنزل علىٰ خاتم النبيِّين ﷺ بعد ذكر عدد كبير من النبيِّين الذين آتاهم الله الكتاب والحُكم والنبوَّة، فإن يكفر بها مشركو مكَّة ومن حولهم فقد وكَّل الله بها قوماً ليسوا بها بكافرين، فإذا كفر أهل مكَّة بما أنزلنا فهم الخاسرون.

ويبيِّن السياق أنَّ جميع الأنبياء الثمانية عشر الذين ذُكروا في الآيات السابقة ممن اجتباهم الله وهداهم إلىٰ صراطٍ مستقيم، وأنَّ ما جاؤوا به أقوامهم هدىٰ الله يهدي به من يشاء من عباده، أنَّهم جميعاً موحّدون لم يشب إيمان أيٍّ منهم أو دعوته شرك، وأنَّ الشِّرك ظلمٌ عظيم وذنبٌ خطير يعرِّض صاحبه -إذا لم يتب- إلىٰ الخلود في النَّار، فيقول الله -جلَّ شأنه- لرسوله ﷺ: "أولئك الأنبياء المذكورون في الآيات السابقة الذين هدىٰ الله "فبهداهم اقتده" فاقتدِ بهم، وسِرْ علىٰ طريقتهم، فأنت واحد منهم، ما كنت بِدَعاً من الرُّسل، وكان المفروض بأولئك الذين يزعمون أنهم مؤمنون بأيٍّ من أولئك أن يسارعوا إلىٰ الإيمان بك، وإدراك أنَّك خاتَم النبيِّين وحامل الرسالة الخاتمة إلىٰ الناس كافَّة" لكنَّ هؤلاء المشركين لم يقدُروا الله حقَّ قدره، ولم يعرفوه حقَّ معرفته، فلم يدركوا عظمته، ولم يعرفوا صفاته وأسماءه، ولم يستطيعوا أن يحيطوا علماً بتمام قدرته، وبكونه علىٰ كل شيءٍ قدير؛ ولذلك لم يدركوا أنَّ الله - تبارك وتعالىٰ - لا يمكن أن يترك عباده سدىٰ؛ لأنَّه لم يخلقهم عبثاً، بل خَلَقهم -جلَّ شأنه- ورزقهم ليستخلفهم ويعطيهم فرصة الوفاء بما عاهدوا الله عليه وفرصة أداء الأمانة، فلم يكن من الممكن أن يتركهم لعداوة الشيطان يصدّهم عن السبيل، ويبعدهم عن الحق، ويسيَّرهم كما يشاء، ويقعدنَّ لهم صراط الله المستقيم، ويضلهم ويمنِّيهم ويَعِدهم وما يَعِدهم الشيطان إلا غروراً.

ومن هنا فقد كان الوحي والنبوَّة وإرسال الرُّسل والأنبياء وإنزال الكتاب والحكمة عليهم، كان ذلك كله لِحِكم بالغة، ولتمكين هذا الإنسان من التغلُّب علىٰ الشيطان وعلىٰ مشاريعه في الإضلال، فالوحي والنبوَّة ضروريَّان لا يمكن للإنسان أن يواجه مشارع الشيطان، ويتغلب علىٰ عداواته لولا لطف الله به، وإرسال الرُّسل والنبيِّين، وإنزال الكتب عليهم والوحي إليهم. فهذا أمر لا يمكن لعاقل أن يستغربه أو يرفض الإيمان به أو التصديق به. وهذا كلُّه لإظهار ضلال المشركين وانحرافاتهم وسفه آرائهم. ومن هنا يظهر الله لرسوله مدىٰ ضلال هؤلاء المشركين وفساد آرائهم، وانحراف تفكيرهم، حين استبعدوا أن يوحي الله إليك وأنت بشرٌ مثلهم، وأن يصطفيك عليهم وأنت واحدٌ منهم، فهم عاجزون عن أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوا مدىٰ قدرته، ليعلموا أنَّك رسوله وصفيُّه وخليله، والكتاب المبارك المنزل علىٰ قلبك كلماته ووحيه، وأنَّه -جلَّ شأنه- له الحكمة البالغة فيصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: ٧٥]، ومن ﴿ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن: ٢٧ - ٢٨]، وهذا العذر الذي يتعلَّل به أولئك البَطَلة من مشركي مكَّة هو ذات العذر الذي تعلَّل به المشركون والكافرون من قبل فامتنعوا عن الإيمان بالرُّسل، وذكر الله حالهم بقوله جلَّ شأنه ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: ٩٤]، وكأنَّهم يزعمون الإشارة إلىٰ أنَّه لو بعث غير البشر كالملائكة لقبلوا دعوتهم واستجابوا لها كما قالوا قولتهم التي ذكرها الله في بداية السُّورة: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام: ٨-٩]، وقال جلَّ شأنه ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: ٩٥]، ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾ [الإسراء: ٩٦]، ويبيِّن ذلك جهلهم ونفي الحكمة التي يدعونها عنهم فهم لم يصابوا بالجهل بربهم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وعجزهم عن تقديره حقَّ قدره ومعرفة صفاته -تبارك وتعالىٰ- فقط، بل هم جاهلون بمعنىٰ الرسالة

والرسول والملائكة والنبيِّين وهم يوهمون أنفسهم بأنَّهم يعلمون ويفهمون ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ولو عرفوا الله حقّ المعرفة، وأدركوا معنىٰ ربوبيَّته لهم وعبوديَّتهم له، لما سقطوا في تلك الضلالات. إنَّهم علىٰ صلة بالكتابيِّين وقد سمعوا منهم وعرفوا أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد أنزل الكتاب علىٰ موسىٰ بقطع النظر عما أحدثه بنو إسرائيل من عدم الاهتداء بالكتاب وحمله بطريقة الحمير،(١) ولكن ذلك شائع ومعروف لديهم وكثيراً ما كان المشركون يلجأون إلىٰ أولئك الكتابيِّين يستشيرونهم في بعض الأمور، لأنَّهم أهل كتابٍ سابق، فَلِمَ يستبعدون أن ينزل الله عليك كتاباً مباركاً مصدقاً الذي بين يديه، وهم الذين كانوا يزعمون أنَّه لو أنزل عليهم الكتاب لكانوا أهدىٰ من الذين سبقوهم من اليهود والنصارىٰ، كما جاء في الآيات (١٥٤ - ١٥٨) من هذه السُّورة، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦]، ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٧]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فها هي أمنيتهم قد تحقّقت، وأنزلنا عليك هذا الكتاب المبارك الذي جعلناه مصدِّقاً للذي بين يديه، ومهيمناً عليه، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨]".

(١) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ٥].

ولقد صدّق القرآن لما بين يديه من الكتب. وقد كان التصديق بإعادة تلك الكتب وما ورد فيها إلىٰ حالة الصدق التي نزلت بها، ثم الهيمنة عليها لحفظها في المستقبل من أي تحريف. فهو كتاب مباركٌ جاء بالرسالة العامة الشاملة الخاتمة التي تنطلق من أُم القُرىٰ حيث الحرم، وتتجه إلىٰ ما حولها لتستقطب الشعوب الأمية الغافلة التي لم يأتها من قبلك من نذير، ثم بعد ذلك تنطلق إلىٰ العالم كله لتصحيح الدين، وإزالة ما علق به نتيجة تصرفات البشر وتحريفاتهم وانحراف تأويلاتهم وتفسيراتهم، فيؤمن به جميع أولئك الذين يؤمنون بالآخرة، ويحافظون علىٰ صلواتهم وخشوعهم وإخبات قلوبهم، هؤلاء هم الذين سيهتدون بأنوار هذا الكتاب.

وتبين الآية التالية مدىٰ ظلم وانحراف من يفترون علىٰ الله الكذب، فيزعمون أنَّه أوحىٰ إليهم، ولم يوحَ إليهم شيء، أو أولئك الذين يتجاوز كبرهم وغرورهم كل الحدود، ليقول بعضهم: سأنزل مثل ما أنزل الله، هؤلاء إذا ما جاءهم الموت تخرج نفوسهم كارهة جزعة، وزيادة في السُّخرية منهم تبسط الملائكة أيديها لتسلّم تلك النفوس الأمّارة الخبيثة، ويقال لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]" زيادةً في حسراتهم وسخريةً بهم؛ ليُجزَوا عذاب الهون والهوان الشديد والذُّل الذي ما بعده ذل، بما كانوا يقولون علىٰ الله من أباطيل وينسبون إليه من افتراءاتهم وأكاذيبهم ما شاؤوا؛ استكباراً وغروراً وإلحاداً ومكر السيِّء، ولا يحيق المكر السيِّء إلا بأهله. سيَقدم هؤلاء المفترون علىٰ الله فرادىٰ كما خلقهم أول مرة، تاركين وراء ظهورهم كل ما خوّلهم الله من نِعَم لم يعرفوا قدرها، ولم يقوموا بواجب شكرها، ولم يكن معهم أولئك الذين كانوا يزعمون أنَّهم سيكونون شفعاءهم يوم القيامة، فكانوا يعظّمونهم ويذبحون بأسمائهم الذبائح ويقدِّمون لهم النذور ليشفعوا لهم عند الله وليقرِّبوهم إليه. هم أولئك الذين قال الله -جلَّ شأنه- فيهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، إنهم أولئك الشركاء المزعومون، الذين قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ

نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣]، فهؤلاء الذين زعمتم أنَّهم شركاؤكم وشركاؤنا فيكم وفي خلقكم ورزقكم، لقد تقطع كل ما كان بينكم وبينهم من تلك الروابط المزعومة الكاذبة، يقول جلَّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧]، فكل تلك الروابط والأسباب المزعومة سوف تتقطع وآن ذاك لن تنفعهم الحسرات ولن تغنىٰ عنهم البراءات وإنكار بعضهم بعضاً، أو إرجاع بعضهم لبعض القول، ولن تخفف من عذاب أيٍّ منهم شيئاً. إنَّ الوحي قد علَّمكم الكثير ممَّا تجهلون، وممَّا لم تكونوا تعلمون أنتم ولا آباؤكم؛ لكنَّ الإيمان بالوحي شيءٌ عظيم لا يستطيعه إلا الذين سبقت لهم من الله الحسنىٰ، وهدوا إلىٰ الإيمان بالآخرة وهم علىٰ صلاتهم يحافظون.

ثم بيَّنت الآيات أصنافاً من أولئك الذين بلغوا في الظلم غايته في مواقفهم من الوحي: فمنهم من يفترون علىٰ الله الكذب، فقد يدَّعي بعضهم أنَّه أوحي إليه ولم يوحِ الله -تعالىٰ- إليه شيئاً. ومنهم من يقول بطيشٍ وغرور: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]". ومنهم من يستكبرون عن آيات الله بغير الحق، يقول جلَّ شأنه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

إنَّ بيان حقيقة الوحي وصدق الرُّسل، وردّ سائر شبهات الجاحدين يبيِّن للناس صدق مصدر الرسالة وحجيَّتها وصحة نسبتها إليه سبحانه، فتزيل كلَّ ريب يتوجه إلىٰ مصدرها، ويقطع دابر كل شبهة بحيث لا يحتاج الوحي -بعد ذلك- إلىٰ الانشغال بالدفاع عن كل أمر جاء به وبيان صدقه وحجِّيته.

النَّجم التاسع: في تفصيل معاني الألوهيّة والربوبيّة والاستدلال عليها بدليل الخلق ودليل العناية

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ
تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦)
وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ
ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا
مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ
ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ
وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ
ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ
أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) ﴾

[الأنعام: ٩٥-١٠٥].

تبدأ هذه الآيات الكريمة بعرض قضيّة «الألوهيّة والربوبيّة»، وتعريف البشر بإلههم وربهم -جلّ شأنه- بتقرير طريقة أخرىٰ من الطرق التي يعرض القرآن المجيد بها دليلي الخلق والعناية، وهي تتّسم بأنّها تستقطب قوىٰ الوعي الإنسانيّ كلّها وتشدّها للتردّد الدائم بين محورين: الأول: محور الطبيعة والكون المسخَّر، والثاني: محور الإنسان نفسه. ويضع القرآن قوىٰ الوعي هذه في حركة دائبة بين المحورين؛ ليوصّل الإنسان المخيّر بتلك الحركات الدائمة -بين الكون المسخّر والإنسان المخيّر- إلىٰ معرفة الله المدبّر لما هو مسيّر ولما هو مخيّر، فالله -تبارك وتعالىٰ- خلق الموت والحياة، وقدّم ذكر الموت علىٰ ذكر الحياة؛ لأنّه الأصل للحياة، والمنطلق الذي تنطلق منه الحياة، وكلاهما -الموت والحياة- يتداولان الإنسان والطبيعة، وبداية ونهاية كل

منهما مما يشهده الإنسان ويلامسه، فلا مجال لإنكاره أو تجاهله. فالحَبُّ من الحِنطة والشعير والذُّرة وسواها تبدأ حياتها بـ«فلق الحبة» وفتحها؛ لتتحول إلىٰ نبتة قد تُنبت سبع سنابل، وقد يكون في كل سنبلة مائة حبة، مِثْل تلك الحبة الأصل، التي كانت حبّة واحدة، ففلقها الله ونمّاها لتصبح سبعة سنابل تحمل سبعمائة حبّة. كل منها يمكن أن تدخل دورة حياتيّة، لتقدّم لكم نوعاً واحداً من أنواع الطعام الذي تقوم حياتكم عليه. إنّ الذي فلق هذه الحبّة هو الله ربكم وإلهكم وخالقكم وبارئ نسمكم؛ وفي الأيمان يُقسم الحالفون بقولهم: "لا والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة". والنَّوىٰ مثل «نواة التمر»، فهذه النخلة الباسقة أصلها نواة فلقها الله لتصبح بعد حين نخلة، تحمل عدداً كبيراً من حبّات التمر الذي تأكلونه مستمتعين بحلاوته وما فيه من غذاء لكم. وحين تلاحظون دورات الموت والحياة تشاهدون كيف يخرج الله الحيّ من الميّت، ويخرج الميّت من الحي، وكيف يجري تداول الموت والحياة!

وفيما تكون قوىٰ الوعي مشدودة كلّها إلىٰ تلك العمليّات الهائلة في دورات الموت والحياة، حيث ينفلق الحب والنَّوىٰ، ويخرج الحيّ من الميّت والميّت من الحيّ بتلك الحركات الدائبة التي لا تتوقف، يصبح عدم اكتشاف الإنسان «آيات الله» في ذلك كله -عندما ينظر في صنع الله الذي أتقن كل شيء فلا يرىٰ يد الله فيه- أمراً في غاية الغرابة، ويبدو لكلٍّ ذلك الموقف الغريب من أهل الشرك والكفر، موقف الانصراف عن الله إلىٰ المجهول، إلىٰ غياهب الجهل والشرك وظلمات الإنكار. وقبل أن يسترد الإنسان أنفاسه اللاهثة يلفت القرآن المجيد نظره بشدّة نحو الكون الفسيح والظواهر الطبيعيّة وسنن الكون، وكأنّه يقول له بغلظة تلائم الموقف: "ألم تعرف ربك بعد؟!"، دعك من الحب والنّوىٰ، وغذائك اليوميّ الذي تتوقف حياتك عليه، أنت تحيا حياتك وتعيش ليلك ونهارك، هل لاحظت كيف يفلق الإصباحُ ظلامَ الليل الدامس؟ وهل راقبت كيف تخرج من سبات الليل إلىٰ معاش النهار؟ وهل رأيت الشمس والقمر، وكيف تجري الشمس لمستقرٍّ لها؟ وكيف قدّر القمر منازل، وأنت تتابع حركة كل منهما لتعلم عدد السنين والحساب؟ هل ساءلت نفسك: مَنْ الذي خلقهما؟ ومَنْ الذي قدّر لكل منهما مسيرة ودورة؟ لتدرك أنَّ الله ربّك وربّ آبائك الأولّين هو من خلق كلاً منهما،

وهو الذي جعل الشمس نوراً والقمر ضياءً، وجعل الليل والنهار خلفة، وجعل في السماء بروجاً، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً... هل وصلت إليه؟ وهل عرفته؟.

ويواصل القرآن المجيد تفصيل الآيات، فيشدّ قوىٰ وعي الإنسان إلىٰ نجوم معيّنة يعرفها العرب القاطنون في المدن والقرىٰ والأرياف والبوادي، فما من إنسان يسافر إلىٰ أيّة وجهة أو اتّجاه إلا وتشتد حاجته إلىٰ معرفة تلك النجوم ليهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، وإلّا فسيهلك بالتيه والضياع، هذه النجوم، مَنْ خلقها؟ ومن جعلها مصابيح للسماء ورجوماً للشياطين؟ ومَنْ ألهمكم ضرورة الاهتداء في ظلمات البرّ والبحر بها؟ إنّه الله خالق كلّ شيء. وبعد تفصيل كل ما يتعلّق بالكون نبدأ بتفصيل ما يتعلّق بهذا الإنسان الجامد المتصلّب، المعطّل لقوىٰ وعيه: هل لك أيّها الإنسان المغرور أن تتفكر في نفسك أنت؟ فأنت لم تكن شيئاً مذكوراً قبل سنوات، وها قد صرت شيئاً مذكوراً تجادل فينا أنبياءنا ورسلنا، وتتمرّد علىٰ أوامرنا، وتطيع فينا عدوّك وعدوّنا الشيطان! لو تساءلت نفسك: كيف وُجدتَ ومَنْ الذي أوجدك؟، وتفكّرت قليلاً في ذلك، لوجدت أنّ الذي أنشأك من عَدَم هو الله ربّك وإلهك، لا ربَّ لك غيره، ولا إله لك سواه، خلقك من نفس واحدة، ومَنَّ عليك بالأرض، وجعلها مهاداً لك وجعل فيها سُبلاً، وجعلها مستقرّاً ومستودعاً إلىٰ الأجل المسمّىٰ، فهي مستقر لكم ومستودع لكل ما تحتاجونه؛ إذ ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: ٥٥]، وقدّرنا فيها أقواتها لتتمكنوا من الحياة فوقها، ولو تدبّرتَ أيّها الإنسان الغافل المغرور دورة حياتك عليها لاستطعت معرفتنا والاهتداء إلينا.

ثم انظر أيها الإنسان المغرور في ظاهرة أخرىٰ. هذا الماء الذي ننزّله عليكم من أعلىٰ، من السماء، وجعلنا منه كل شيء حيّ، ونخرج لكم من مستودع الأرض به نبات كل شيء، نخرج منه نباتاً أخضر، نخرج منه حَبّاً متراكباً بعضه فوق بعض. وقد فصّلنا لكم كيف نفلق الحب والنَّوىٰ، لنخرج منه النخيل «ذات الأكمام»، وما تُخرج من ثَمَرات من قران أكمامها، هذه النواة التي فلقناها وحفظنا لكم ثمارها بـ«الأكمام» صنعناها لأداء هذا الغرض، وجعلنا «الطَّلع النضيد» منضّداً بعناية علىٰ تلك الشماريخ التي تحمله، واعتنينا لكم بذلك الطلع من البداية لتستمعوا به بعد ذلك رطباً جنياً،

وجعلنا من ذلك الطَّلع قنواناً دانيةً، أعواداً محمّلة بثمار سهلة التناول، وجعلنا لكم جنّات من أعناب والزيتون والرُّمان متشابهاً، يشبه بعضه بعضاً، وغير متشابه، انظروا إلىٰ ثمره إذا أثمر في بداياته، وينعِه إذا أينع ونضج، لتستمتعوا به فاكهة ومنظراً، في حدائق ذات بهجة، تدخل إلىٰ نفوسكم السرور، وتشعركم بالاكتفاء والاطمئنان إلىٰ المستقبل بعد الحاضر. في ذلكم الذي ذكرنا كلّه آيات لقوم يؤمنون بالله واليوم الآخر، تزيدهم هدىٰ، ويقيناً، وطمأنينة بالإيمان.

فكيف واجه هؤلاء المشركون تلك الأدلة كلّها؟ فبدلاً من أن يسارعوا إلىٰ الإيمان، ويبادروا إلىٰ اليقين، إذا بهم يجعلون لله شركاء «الجن»، والجنّ يطلق علىٰ كل ما استتر عن العيون، فيشمل الجن والملائكة والشياطين؛ ولذلك قال جلّ شأنه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات: ١٥٨] ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٣] متجاهلين كونهم بعض من خلق الله، واختلقوا له بنين كالمسيح: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١] وبنات كالملائكة: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٧-٥٩]، ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠] ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ١٦-٢٠].

أمّا في هذه السُّورة فقد جعلوا الله شركاء من الجن وخرقوا له بنين وبنات، كأنّهم بذلك يحاولون أن يسوّغوا لأنفسهم رفضَ التوحيدِ والشِّركَ بالله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠].

قوله تعالىٰ: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠١]، قوله: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ [الأنعام: ١٠١]، أي الذي خلقهما وكل ما فيهما علىٰ غير مثال سابق. فـ«الإبداع»: لغة، عبارة عن عدم النظير، وفي الاصطلاح: هو إخراج ما في الإمكان والعدم إلىٰ الوجوب والوجود، قيل: هو أعمّ من الخلق، بدليل: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ [الأنعام: ١٠١] ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ولم يقل: «بديع الإنسان». وقيل: «الإبداع»: إيجاد الأيس عن الليس والوجود عن كتم العدم والإيجاد. والاختراع: إفاضة الصور علىٰ المواد القابلة، ومنه جعل الموجود الذهني خارجاً. وقال بعضهم: «الإبداع»: إيجاد شيء غير مسبوق بمادة ولا زمان؛ كالعقول، فيُقابل التكوين لكونه مسبوقاً بالمادة، والإحداث لكونه مسبوقاً بالزمان. و«الإبداع» يُناسب الحكمة، و«الاختراع» يُناسب القدرة، و«الإنشاء»: إخراج ما في الشيء بالقوة إلىٰ الفعل، وأكثر ما يُقال ذلك في الحيوان، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم ﴾ [الأنعام: ٩٨]، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] أي كيف يكون له ولد، ولو كنتم علىٰ شيء من منطق أو عقل لأثبتم له -أولاً- وجود الصاحبة التي تحمل بالولد وتضعه؛ أمّا القفز إلىٰ نسبة الولد دون أن تكلّفوا أنفسكم إثبات وجود الصاحبة ففيه تجاهل تام لمنطقكم المفلوج وأوهامكم. إنّه -سبحانه- الغنيّ، خلق كلَّ شيء، لو كانت به حاجة إلىٰ ولد لاصطفىٰ مما يخلق ما يشاء، ولكنّه منزّه عن ذلك سبحانه. لقد بلغ غباء هؤلاء وجهلهم وضلالهم آخر مَداه حين قلبوا الأمور، فبدلاً من أن يجعلوا التفرّد بالألوهيّة والربوبيّة دليلاً علىٰ عدم وجود الولد والشريك -لأنّ «الوحدانيّة» تُحتّم عدم وجود شيء من ذلك- جعلوا من الوحدانيّة دليلاً علىٰ الشِّرك، فتعالىٰ الله عمّا يصفون.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٢] هذا الخلق -كل ما ذكر وما لم يذكر- هو خلق ربكم المستحق لعبادتكم وتعظيمكم، فهو اللطيف بكم ومربيكم، وهو مَن أحاطتكم نعمه ظاهرة وباطنة، أبصاركم لا تدركه؛ لأنّها لم تُعَدّ لذلك في هذه الحياة الدنيا، أمّا هو -جلّ شأنه- فإنّه يُدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، الذي يعاملكم بالرفق

والرحمة ويتلطف بكم؛ ولذلك فإنَّه -من تمام رفقه بكم ورحمته- أنزل على رسوله كتابه ليكون بصائر لقلوبكم، كما كان الخلق الذي ذكرناه لكم موضع مشاهدتكم واستمتاع أبصاركم به؛ من فلق الحبة والنّوى، إلى فلق الإصباح، إلى إخراج الأحياء من الأموات، إلى خلق الشمس والقمر والنجوم، إلى خلقكم أنتم من نفس واحدة، إلى إنزال الماء من السماء لإحياء الأراضي الموات، وإخراج نبات كل شيء من مستودع الأرض...إلخ من نعمه التي لا آخر لها، ولا طاقة بكم لعدّها أو إحصائها، فللبصائر القلبيّة جولاتها في فِقه وتفسير المبصرات التي تشاهدها أبصاركم وتدركها أعينكم، ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: ١٠٤]؛ أي: لست المسؤول عن منعكم -إكراهاً- عن الوقوع فيما أنتم فيه من ضلال، (إنْ عليّ إلا البلاغ)، ولن أستطيع أن أبعد وساوس الشيطان عنكم بالقوة، بل ذلك ما ينبغي أن تقوموا به بأنفسكم، ولو آمنتم واتّصفتم بالتقوى وتحصنتم بها لأبصرتم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١- ٢٠٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٥]، يقول الشيخ الشعراويّ في معنى: «كذلك نُصرِّف». أي أن يأتي لنا بالحال بعد الحال ويكرر ويعيد، وتأتي الحادثة من الحوادث وينزل فيها تشريع، ويرقق قلوبهم، ويأتي بنماذج من الرُّسل، ومواقف أممهم منهم حتى نصادف في كل حال قلباً مستقبلاً؛ لأنه إن قال مرة واحدة وسكت، وكان هناك أناس قلوبهم منصرفة، فعندما يكرر الأحداث وينزل فيها التشريع والمواعظ فقد ترق قلوبهم للإيمان وتستوعب القلوب الهداية.

ومعنى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥] إننا نعلم أن السماء تتدخل حين يطم الفساد، لكن إن وُجد في الذات الإنسانية نفس لوّامة فهي مَنَاعة للنفس ووقاية لها. فإن فعل الإنسان ذنباً تلومه نفسه فيرجع، وإن اختفت النفس اللوّامة وصارت النفس أمّارة بالسوء، امتنع في المجتمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمعنى ذلك أن الفساد قد طمّ. وهنا تتدخل السماء، وتأتي ببيان جديد ومعجزة جديدة. إن الفساد

لا يتأبىٰ إلا من وجود طبقات تطحن في طبقات، والذين يُطحنون بالفساد هم من يستقبلون المنهج بشوق، لكن الطاحن المستفيد من الفساد هو الذي يعارض المنهج؛ ولذلك فإن كل جماعة حاربت الرُّسل هم من الطاحنين للناس، لكنَّ المطحونين إنما يريدون من ينقذهم.

إذاً فكلُّ صاحب دعوة سماوية جعل الله له عدواً من المجرمين؛ لأن السماء لم تتدخل إلا حين صار الإجرام لا مقاوم له. وهكذا يجعل الله لكل نبي ورسول عدواً من المجرمين، وهذا العدو يفتن به الناس، ويميل له ضعاف العقائد. والحق يصرف الآيات حالاً بعد حال حتىٰ لا يثبت مع الداعي الحق إلا المؤمنون الصادقون؛ ولذلك تجد أن الإسلام قد جاء وغربل الأمور؛ فمثلاً تأتي حادثة الإسراء فمن كان إيمانه مهتزّاً ينكر الإسراء، وذلك من أجل أن يذهب الزَّبد ويبقىٰ من يحمل الدعوة بمنهج الحق. أما من كان إيمانه ضعيفاً أو كان يعبد الله علىٰ حَرْف فالإسلام لا يرغبه ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]. إذاً فالحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد صرّف الآيات لينصر المطحونين، وحينما قال الرسول ﷺ ذلك. قالوا: درستَ، وادّعوا أنه كان قاعداً في الجبل، وتعلّم من أعجمي. ولذلك نجد الحق يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].(١)

النَّجم العاشر: في بيان كذب دعاوىٰ المشركين، وتوجيه التعامل معهم

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ

(١) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مرجع سابق، ج١٣، ص٨٢٢٤، تفسير الآية ١٠٣ من سورة النحل.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠٦-١١٧].

هنا يصدر الأمر العلوي للنبي الكريم ﷺ وقد صرّف الله الآيات، فافترق الناس في مواجهتها فريقين: أن يتبع ما أوحي إليه، وأن يُعرض عن المشركين، فلا يحفل بهم ولا يحفل بما يقولون من قول متهافت، ولا يشغل باله بتكذيبهم وعنادهم ولجاجهم. فإنما سبيله أن يتبع ما أوحي إليه من ربه؛ فيصوغ حياته كلها على أساسه؛ ويصوغ نفوس أتباعه كذلك. ولا عليه من المشركين؛ فإنما هو يتّبع وحي الله، الذي لا إله إلا هو، فماذا عليه من العبيد؟! ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠٦].

ثم يقوله -جل شأنه-: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨]. السَّبُّ: هو الشَّتم، وذكر الإنسان بما يُسيئه، وقد نهى القرآن -في هذه الآية الكريمة- المؤمنين عن الهبوط عن المستوى الأخلاقي العالي -الذي وضعهم فيه- واحترام الآخر بسبِّ المشركين والذين يدعون من دون الله، فإنّ ذلك سوف يدفعهم إلى سبّ الله ورسوله والمؤمنين، وليسوا سواء، فإنّ ذلك سوف يؤدي إلى سباب غير متكافئ؛ فأين الله -تبارك وتعالى- من آلهتم التي يزعمون، ومن أصنام وأوثان وأموات وما إلى ذلك.

ويعلمنا الله -تبارك وتعالى- أدباً عالياً في هذه الآية الكريمة يصلح أن يكون أساساً للتسامح وقبول الآخر وحسن التعامل معه، بل واحترامه. فهذا الشِّرك الذي نستنكره ونرفضه بكل أشكاله، ونسأل الله أن يُجيرنا منه، تضعه الآية تحت إطار التزيين: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فكأن الآية الكريمة -وهي تعمل

علىٰ تطهير الإنسان المسلم وتزكيته ومنعه من السقوط في مهاوي السباب- تقول له -ليخفف من غلوائه في رفض الذين يدعون من دون الله- إنّهم أُوهموا من الشيطان بأنّهم علىٰ حق وأنّهم علىٰ صواب، فالشيطان زيّن لهم؛ ولأنّ الله -تبارك وتعالىٰ- لم يحفظهم، ولم يحل بين الشياطين وبين التزيين لهم، فإنّه -جلّ شأنه- نسب ذلك التزيين لنفسه ليقدّم مزيداً من الإشارات إلىٰ المؤمنين بأن يبتعدوا عن سبّهم، أو يعتبروهم قد وقعوا في الكفر عن تصميم وقصد واختيار مجرد من عند أنفسهم، وإذا كان -جلّ شأنه- قد نسب التزيين للشيطان في آيات أخرىٰ فتلك هي الحقيقة: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل: ٢٤] ولكنّه في هذه الآية الكريمة، وهو في معرض حمل المسلمين علىٰ تجنب السّباب وتحويل أمر الدعوة إلىٰ خصومة شخصيّة مباشرة، نسب التزيين إليه جلّ شأنه، علىٰ ذلك المعنىٰ الذي نبهنا إليه، فكأنّه يريد أنّه إذا كان الله قد هداكم للإيمان فأصبحتم بنعمته مؤمنين مسلمين، فإنّ الخذلان قد أصاب آخرين، فلا ينبغي أن تسبّوهم علىٰ ذلك. ولأنّ سبّهم وسبّ شركائهم وأصنامهم سوف يثير حميتهم، ويحملهم الشيطان علىٰ سبّ الله جلّ شأنه، وذلك سيزيد في ضلالهم وانحرافهم وإمعانهم في الشِّرك والضلال، فعليكم إلا تُعينوا الشيطان عليهم، وتدفعوهم إلىٰ ذلك. والآية تقدّم لنا درساً بليغاً في التعامل مع الآخر، وفي العدل معه في القول والعمل، وأن نبتعد عن الهبوط إلىٰ مستوىٰ الخصومة الإنسانيّة المباشرة، فاختلافنا معهم اختلاف في دين ومعتقد، فإذا بغضنا شيئاً فإنّما نبغض أعمالهم وشركهم، ولا نقبل شيئاً من ذلك، أمّا هم، وبوصفهم بشراً، فإنّ كفرهم وإشراكهم لا يجعلنا نستبيح تحقيرهم أو استعلاءنا عليهم ومقتنا لهم بصفتهم البشرية، أو الإنسانيّة المجردة، فبُغْض عمل الإنسان شيء وبُغْض ذاته شيء آخر، ولا بدّ من التفريق بين الاثنين، فأنت تدعوه للهداية وتدعو له بها لأنّك تحبه، وتريد الخير له، وتريد أن تخرجه من الظلمات إلىٰ النور.

والسّباب لا يأخذ شكلاً واحداً؛ فإنّ خطباء بعض المساجد الذين يضمنون أدعيتهم نحو «أحصهم عدداً وأهلكهم بدداً واجعلهم وأموالهم ونساءهم غنيمة للمسلمين» يقومون بعملية سباب في إطار دعاء في غير وقته وفي غير مناسبته، فإذا دعا

رسول الله وأصحابه اللهَ -جلّ شأنه- بمثل ذلك وهم يخوضون المعركة، أو يتهيأون لها، فذلك أمر مفهوم، أمّا أن يدعو خطيب بمثل هذه الأدعية، وفي هذه الأوقات، فإنّه يدفعهم إلىٰ كراهية المسلمين واستباحة دمائهم وأعراضهم، وإذا احتج عليهم أي محتج فيقولون: "إنّ هؤلاء لو تمكّنوا منا فذلك ما سيفعلونه فينا، اسمعوا إلىٰ خطبائهم في الجمعة ماذا يقولون، وانظروا ماذا يكتبون، إنّهم يقولون كذا وكذا..." من هذا السّباب. والمسلمون اليوم -وقد بلغوا للأسف الشديد هذه المرحلة من مراحل الضعف- في حاجة إلىٰ أن يُعيدوا النظر في كثير من هذه الأمور، وألّا يكونوا كمثل الذي قال: «أشبعتهم شتماً، وراحوا بالإبل»! إذ ما الذي أفاد هذا الأحمق صاحب الإبل من الشتم والسّباب الذي قاله لمن استاقوا إبله واغتصبوا أمواله؟!.

قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل: ٤]، فالتزيين من الشيطان لا من الله تعالىٰ؛ لأنّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يأمر بالفحشاء ولا يزيّنها لأحد، لكنّه بعد أن علم منهم اختيار سبيل الشيطان خلّىٰ بينهما، وأسقط عنهم حمايته لهم من الشياطين وحفظه لهم من وساوسها، وذلك ما يسوغ نسبة التزيين له سبحانه، فلله -تعالىٰ- سنن ثابتة لا تتغيّر في ضلال من يتعرض للضلال ويختاره سبيلاً له، وهداية من يتشوّف إلىٰ الهداية ويطلبها ويتطلّع إليها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩]، و: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥]، و: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨١-٨٣] و: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: ٥٣]، والآية: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ

خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصّلت: ٢٥] والآية: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥].

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩] وهؤلاء يعمون عندما يُحرجون، ولا يبقىٰ بين أيديهم سبيل للشغب لطلب آيات ومعجزات جديدة، ويقسمون الأيمان علىٰ أنَّهم سوف يؤمنون إذا جاءتهم آية جديدة كما طلبوا، ويكشف الله -تعالىٰ- نواياهم، ويبيّن عدم جدِّيتهم، وأنّهم يريدون إيماناً وإسلاماً وديناً مفصّلاً علىٰ أهوائهم، وتتّسع لكل رغباتهم وشهواتهم، فلا تغترّوا أيّها المؤمنون بمزاعم هؤلاء، ولا تسألوا رسلكم كما سُئل موسىٰ من قبل توهماً منكم أنّهم صادقون بوعدهم بالإيمان لو جاءتهم آية: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١١-١٥]، ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ إنّ نزعة معاداة الأنبياء التي يشتركون فيها هم وشياطين الجن هي التي تحملهم علىٰ تلك المقترحات والطلبات التي ليس بينها وبين الصدق والجِدّ نسب، بل هي مزخرفات كلاميّة يتبادل شياطين الإنس والجن الإيحاء إلىٰ بعضهم بعضاً بها، غروراً منهم واستهزاءً بالنبيِّين، ولو شاء الله منع هؤلاء الأعداء من فعل ذلك كرهاً لمنعهم الله، فلا يقف شيء في وجه قدرة الله -تعالىٰ- فذرهم وما يفترون، وذرهم في طغيانهم يعمهون ويتردّدون في عذابات الضلال والحيرة في الحياة الدنيا وعذاب النار في الآخرة. إنَّ تلك العداوة والإيحاء بزخرف القول غروراً تميل إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ويرضونه، فليرتكبوا من الإثم ويقترفوا من الجرائم ما هم مقترفون.

يذهب شياطين الجن إلىٰ أوليائهم من شياطين الإنس ليجادلوا في ذلك وليقولوا: إنَّه لا فرق بين ما ذُكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه في حقيقة الذبح واللحم؛ ليصدوا أولياءهم، وكلُّهم متمردون أشرار، سواءٌ أكانوا من الإنس أو الجن، يوحون في خفاء، ويوسوس بعضهم لبعض من زخارف الأقوال ما يجادلونكم فيه، وإن أطعتموهم في ما يدعونكم إليه ويجادلوكم فيه إنّكم لمشركون.

ولعلّ هذا فيه الوعيد للشعوب المسلمة التي تعتمد علىٰ الاستيراد من غير المسلمين في طعامها وشرابها، ولا تفرّق بين ما ذُكر اسم الله عليه، وما لم يذكر اسم الله عليه، وتجادل عن ذلك، فإنَّ الآية الكريمة تجعل الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه دائراً بين الفسق والشِّرك، وما الذي يجعل البلدان المسلمة -عربيّة أو غير عربيّة- تعتمد اليوم في أكلها -كلاً أو بعضاً- علىٰ ما يستورد من غيرهم؟! ويتناسون ويتجاهلون ما حرّم الله -جلّ شأنه- في هذا المجال، وقد فصّل لنا ما حُرِّم، ومنه ما لم يذكر اسم الله عليه. إنّ عدم تحرز المسلمين وتقصيرهم في تحقيق الأمن الغذائي فسق دينيّ، وخطر حقيقيّ علىٰ البلد والتدين أو الدين والأمَّة، إضافة إلىٰ الصحة وتحقيق الأمن الغذائي والاعتماد علىٰ النفس في أمر لا يمكن الاعتماد فيه علىٰ الغير، فغير المسلمين لو أرادوا الضغط علىٰ أي بلد مسلم وفرض شروطهم عليه فإنَّ ذلك ميسّرٌ تماماً لعدم توافر الأمن الغذائي في أي بلد مسلم، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ثم ينادي رسول الله فيهم: أفغير الله أبتغي وأطلب حَكَماً يحكم بيني وبينكم أيّها المدعوّون إلىٰ الإيمان به من مشركين وكتابييّن، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصَّلاً ليكون له الحكم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣]. وأهل الكتاب يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ويعلمون أنَّ هذا الكتاب منزّل من ربك بالحق، فلا تكونَنّ من الشاكين بأنّهم لا يعلمون، أو أنّهم قد يجهلون ذلك، فتجهد نفسك في تعليمهم ودعوتهم.

وتمت كلمة ربك في هذا القرآن صدقاً وعدلاً، لا مبدّل لكلماته، ولا ناسخ ولا مغيِّر؛ لا علىٰ مستوىٰ الألفاظ؛ لأنّ الله سميع ويسمع كل ما يحاولون إحداثه، ويحول

بينهم وبين التمكّن منه، ولا على مستوى المعاني؛ لأنّه سبحانه عليم، ولن يمنح هؤلاء القدرة على تحقيق ذلك، فاستمسك بالذي أوحي إليك من كتاب ربك صدقاً كلّه وعدلاً كلّه، ولا تبديل لكلماته. ولا تغرنّك كثرة أهل الباطل والدّعاة إلى الزيغ، فإنّ أكثر أهل الأرض على ضلال؛ لأنّهم يتّبعون الظنون، لا الصدق والعدل الذين جئتهم به: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ [الأنعام: ١١٦]، يخمّنون تخميناً لا يستند إلى دليل، ويفتقر إلى ما يسنده.

يقول مجاهد في معنى الظن: كل «ظن» في القرآن فهو يقين، وهذا يشكل بكثير من الآيات. وقال الزركشي: للفرق بينهما ضابطان في القرآن؛ أحدهما: أنّه حيث وُجد «الظنّ» محموداً مُثاباً عليه فهو اليقين، وحيث وُجد مذموماً متوعّداً عليه بالعذاب فهو الشك، والثاني: أنّ كلّ ظنّ يتصل به «أن» المخفّفة فهو شك، نحو: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢]، وكل «ظنّ» يتصل به «أنّ» المشدّدة فهو يقين، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾ [الحاقة: ٢٠]، والمعنى في ذلك أن المشدّدة لتأكيد، فدخلت في اليقين، والمخففة بخلافها فدخلت في الشك.[1] والقرآن المجيد قد أغنانا عن هذا الخلط، فألفاظ القرآن مفاهيم كبرى فلليقين ألفاظه ومفهومه، وللظنّ ألفاظه ومفاهيمه، فلا داعي يدعو لإيجاد هذا التداخل الذي ذكره والتعميم الذي حاولوه. ونحن مأمورون بتدبر القرآن والنظر في سياقاته، وستغنينا عن الاحتياج لهذا التداخل الذي ذكروه. وقد قال -جل شأنه- مفرّقاً بينهما: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢﴾ [الجاثية: ٣٢]، ومن ثمَّ فالسياق هو الذي يحدد المراد من الألفاظ، وينبّه إلى القصد الإلهيّ من وراء ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾ [الأنعام: ١١٧]، ويكفيك أنّه يشهد لك بأنّك على الحق المبين، وأنّ ما أُنزل إليك من ربك هو الحق، وأنّك على هدى وعلى صراط مستقيم. فيؤكّد تعالى بعد كل ما ذكر أنّه أعلم بمَن ضلّ عن سبيله، واتبع هواه، وهو كذلك أعلم بمَن اهتدى بآياته وصدّق به.

---

(١) الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي (توفي: ١٠٩٤هـ)، **الكليات؛ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، ج١، ص٩٢٨، فصل الظاء، مادة (الظلمات).

النَّجم الحادي عشر: في بيان أحكام الأطعمة والذبائح

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١١٨-١٢١].

هذه الآيات من سورة الأنعام والآيات التي ستليها حتىٰ الآية رقم: (١٥١) تقريباً، يبرز فيها أسلوب القرآن الكريم في عرض الأمور الشرعيّة أو الفقهيّة، وهو أسلوب يتّسم بما يلي: أولاً ليس فيه ترابط موضوعيّ كالذي نجده في كتب الفقه، من تقسيمه إلىٰ كتاب طهارة، وصلاة، وزكاة...إلخ، لكنّ فيه عرضاً لقضيّة الحلال والحرام مرتبطة بأمور، وهي: العقيدة والرؤية الكليّة، وعلاقتها وانعكاساتها علىٰ تفاصيل الحياة؛ وإبراز الآثار المرتبة علىٰ ذلك التشريع في الحياة الدنيا وقضيّة الجزاء في الآخرة؛ و«الحاكميّة الإلهيّة» المتجليّة في «حاكميّة القرآن المجيد» وانحصار سلطة التشريع فيه.

ويجري القرآن أحياناً نوعاً من المقارنة بين تشريعاته والتشريعات التي يختلقها العباد، ويبيّن ضآلتها وضحالتها، وكثيراً من ثغورها؛ ليتبيّن القارئ عظمة التشريعات القرآنيّة الكونيّة ودقتها، وتميّزها وتفوقها علىٰ ما عداها، ثم يجمع بين عدّة أمور قد لا تتضح الروابط بينها بشكل مباشر، فقد لا تتضح فيها وحدة الموضوع، لكن يتضح بها ذلك الارتباط الوثيق بين الشريعة والعقيدة والحياة الطيّبة في الدنيا والجزاء الحسن في الآخرة.

بعد هذه الجولة الطويلة في دلائل الربوبيَّة والألوهيّة مع دلائل الخلق والإبداع والتسخير، وبيان حقيقة العبوديّة والنِّعم التي أنعم الله علىٰ عباده بها وأتاحها لهم، لا توجد نتيجة أنسب من أن يدعو الخلق إلىٰ الأكل مما ذُكر اسم الله عليه، فذكر اسم الله عليه عند الذبح هو المفتاح الذي يفتح مغاليق الرزق المستودع، ويُعطيكم إذن الخالق

الرازق المالك بتناوله هنيئاً مريئاً. لقد فصّل الخالق -جلّ شأنه- المحرّم عليكم من الأطعمة والذبائح، فمَنْ تجنَّب تلك المحرّمات -التي فصّلها الله في سورة المائدة وغيرها- وذكر اسم الله علىٰ ما ذَبح، فقد أُبيح له أن يأكل منها إلا ما حرّم. إنَّ ذكر الله -تعالىٰ- بالبسملة والتكبير عند الذبح إعلان لربوبيّة الربّ وعبوديّة العبد، ليس ذلك فحسب، بل إنّه تذكير لمالك الأنعام وللجزّار وللآكل بأنّ الأطعمة يجب أن تكون طيبة حسيّاً ومعنويّاً؛ إذ إنّ اسم الله عظيم ويستدعي مبدأ «النعمة والشكر والحمد» والخالق الذي ذلَّل هذه الأنعام ورزقها الإنسان، ويصبح الأكل آنذاك عبادة وسبيلاً إليها، ولعل سيدنا رسول الله ﷺ كان ينبّه إلىٰ هذه المعاني وهو يقول: «وَلَسْتَ بِنَافِقٍ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إلا آجَرَكَ اللهُ بِهَا حَتَّىٰ اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ»،[1] فمشاعر الربوبيّة والعبوديّة هي التي تهيمن علىٰ أدقّ ما في الحياة من نُظُم، ومنها نظام الأطعمة، وحينما يذكر سائرُ ذوي العلاقة اللهَ في هذا الموقع، ويسمّون باسمه، ويكبّرونه -جلّ شأنه- فذلك يساعدهم علىٰ استحضار مفهوم التقوىٰ، ومع استحضار مفهوم التقوىٰ ينتفي الغش والجشع والرغبة في الكسب، ولو علىٰ حساب صحة الإنسان وحياته، فتختفي الظواهر السلبيّة التي -بعد أن طال علينا الأمد وقست منا القلوب- برزت، بل هيمنت علىٰ حياتنا جميعاً، وأدّت إلىٰ ظهور سائر ما نعاني من مشكلات في نظام الحياة، والإضرار بصحة الإنسان.

وحينما يبدأ الآكل تناول طعامه بالبسملة فذلك توكيد أنّه يأكل من طعام صنعه وأعدّه ورزقه إيّاه رب العالمين، الخالق المالك، فهو -وحده- ربّه وإلهه وخالقه ورازقه، وما دام قد ذُكر اسم الله عليه، ولم يكن ممّا أُدرج فيما فُصّل تحريمه، فكلوا منه، بل هناك حضّ منه -جلّ شأنه- علىٰ الأكل منه:

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٩]، لا شيء يمنعكم من ذلك، وفي تفصيل ما حرّم عليكم في سورة المائدة: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي ﷺ: اللهم امض لأصحابي هجرتهم، حديث رقم (٣٩٣٦) ص.٧٤٨.

وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة: ٣] جرىٰ استثناء ما اضطُررتم إليه أيضاً.

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٩]، هناك كثيرٌ من الناس يضلون ويُضلُّون لاتباعهم أهواءهم بغير علم، فيضلون بغير علم ويُضلّون غيرهم وفقاً لتلك الأهواء، وفي ذلك يعتدون علىٰ أنفسهم وعلىٰ غيرهم وعلىٰ سلطان الله -جلّ شأنه- ويعلن -سبحانه- انحصار عملية التحليل والتحريم به جلّ شأنه، ثم يقول جلّ شأنه: ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٢٠]؛ أي: اتركوه ودعوه، وظاهر الإثم هي المنكرات التي تفعلها الجوارح؛ مِنْ: ضرب وسبّ وسرقة وزنا وما إليها. أمّا باطن الإثم فهو الذنوب التي تقع في القلب؛ كالحسد والنوايا السيّئة. وفي الآية التالية في ذكر المحرّمات قُسّمت الفواحش إلىٰ ما ظهر منها وما بطن، والمراد هذا المعنىٰ.. والله أعلم. فالذين يكسبون الإثم الظاهر أو الباطن سَيُجْزون بما كانوا يفترون ويرتكبون من تلك الجرائم، ثم ينهىٰ -جلّ شأنه- عن أكل ما لم يُذكر اسم الله عليه، ويَعُدّه فسقاً، والفسق: هو الخروج عن إطار الشرع، والفسق يقع بالقليل من الذنوب والكثير، وتُطلق علىٰ المؤمن إذا أخلّ بالالتزام بأحكام الشرع كلها أو ببعضها، وإذا أطلقت علىٰ الكافر فإنّما تُطلق عليه لأنّه خرج عن العقل والأحكام التي يُلزم العقل بها، وتقتضيها الفطرة. وقد كثر ورود هذا المفهوم في القرآن المجيد: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ ﴾ [الكهف: ٥٠]، ﴿ فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور: ٤]، ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾ [السجدة: ١٨]، ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٨]، ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة: ٦٧]، ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ ﴾ [يونس: ٣٣]، فالفاسق أعمّ من الكافر، يشمله ويشمل سواه، وتسمية القرآن الأكل مما لم يُذكر اسم الله عليه بأنّه فسق يعني أنه خروجٌ عن الالتزام بطاعة الله تبارك وتعالىٰ، وهذا النوع من الفسق كثيراً ما يقع بإيحاء الشياطين إلىٰ أوليائهم.

النَّجم الثاني عشر: عودٌ إلىٰ بيان قدرة الله المطلقة الداعية للتفكّر وإخلاص الوجه له

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ
بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ
مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن
نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ
عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ
أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى
ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمۡ دَارُ
ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم
مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ
مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ
يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ
﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا
رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ
بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ
أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ
عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢- ١٣٥].

ويعود السّياق مرة أخرىٰ إلىٰ عمود السُّورة الأساس، ليقارن بتساؤل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي: كان ميتاً في حالة الكفر، فالكافر الذي لا إيمان له ميتٌ في الحقيقة؛ لأنَّه قد مات عهده مع الله، وخرج من دائرة الاستخلاف، وفرّط بالأمانة الإلهيّة، وفشل في اختبار الابتلاء، فكأنَّه لم يُخلق ولم يوجد، ولا يزال في غيابات العدم ميتاً من الأموات، فأحييناه بالإيمان وجعلنا القرآن نوراً له يعيش في ضوء هدايته، ويسير بأنواره في الناس. هل يمكن أن يكون كمن مثله في ظلمات

الجهل والشِّرك ليس بخارج منها ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢] فزين لهم شياطينهم وأولياؤهم أعمالهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] ففي كل مدينة عظيمة وقرية كبيرة يغلب أن يكون الأكابر والمتحكمون والمتأمّرون فيها هم المتطرفون. ومن السُّنن الاجتماعيّة أنّ «الترف» قرين الفسق، فحين يترف الإنسان ويسبح بالنِّعم، وليس له من إيمانه وتقواه ما يحول بينه وبين ذلك، فإنَّه ينصرف نحو الفسق، وإنّ ذلك يجعله ممّن يحق عليه القول والوعيد الذي هدّده الله به، وهؤلاء الذين فسقوا وأترفوا، وصاروا أكابر المجرمين، لا يتوقع منهم توبة ولا استقامة: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: ٣٣]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧]، وهؤلاء الفسقة إذا جاءتهم آية من آيات الله قالوا: لن نؤمن حتىٰ نؤتىٰ مثل ما أوتي رسل الله استكباراً منهم وغروراً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١]، استكبروا في أنفسهم واغتروا وأضلّهم الملأ، فتجاوزوا الحد في الظلم والطغيان، وطلبوا أن يؤتوا مثل ما أوتي رسل الله، ويقول جلّ شأنه: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ [المدثر: ٥٢]، منشورة غير مطوية وغير مغلقة، كي يقرأها متىٰ ما يشاء هذا الطغيان والغرور لهم، يرد -جلّ شأنه- عليهم بأنّ الرُّسل رسله، وهو مَنْ يختارهم ويصطفيهم، وهو أعلم أين يجعل رسالته، وأنّ هذا الاستكبار -الذي يمارسونه في هذه الحياة- يتحول إلىٰ صَغَار وذلّ وهوان في الآخرة وعذاب شديد.

ثم يُبين -جلّ شأنه- أنّ مَنْ أراد الله له الهداية يشرح صدره للإسلام، ومَنْ يرد أن يُضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصّعد في السماء، كذلك يجعل الله الرّجس. وتقدّم في سورة البقرة (٥٩) رجزاً، وكذلك في سورة الأعراف الآية (١٣٤)، لكنّه في هذه الآية وفي الآية (٩٠) من سورة المائدة جاءت بالسِّين «رجس»، وكلاهما يُستعملان في القرآن بالمستقذر حسّاً، كالميتة والخمر، أو معنىٰ مثل الكفر والنفاق ووسوسة الشيطان والعذاب المترتب علىٰ الكفر والمعاصي، فكل ذلك يُطلق عليه رجسٌ أو رجز. والرِّجز قد يُطلق علىٰ ما ينفر الطبع منه أو العقل أو الشرع. فهو

دائرٌ بين ذلك المستقذر طبعاً أو حسّاً أو شرعاً أو عقلاً، ويكون حسيّاً ومعنوياً. وقد يأتي بدلاً من كليهما نجسٌ، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ٥]؛ أي: كل ما يندرج تحت رجز أو رجس يجب هجره بصفةٍ عامة، وهذا الرجز يصيب الذين لا يؤمنون.

ثم يقول جلّ شأنه: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ [الأنعام: ١٢٦]؛ أي: نوعنا في آيات القرآن لينتفع الناس في مستوياتهم كلها بحسب استعداداتهم إذا كان لديهم استعداد ليتذكروا وليتدبروا، وهؤلاء المؤمنون لهم دار السلام عنده، وهو وليهم بما كانوا يعملون.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، لقد أعلمنا القرآن المجيد بأنّ الله -تبارك وتعالىٰ- قد خلق خلقاً وأمماً سمّاها الجن، وخلق خلقاً سمّاه الملائكة، وخلق الدواب والأنعام والشجر وما إليه، وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالنا، والجن -كما جاء في كتاب الله- خلقٌ مثلُ الإنسان من حيث وجود قوىٰ وعي لديه؛ من سمع وبصر وقوة عاقلة وما إلىٰ ذلك؛ ولذلك خوطبوا بالقرآن المجيد، ونودوا لاتّباع النبي الكريم ﷺ، فكان منهم من استجابوا لله وللرسول وقبلوا الخطاب، ومنهم من تمرّد وكفر ولم يقبل الخطاب: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ [الجن: ١١] وقال المؤمنون منهم الذين استجابوا لله وللرسول: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١-٢] فادعاء مَنْ ادّعىٰ أنّهم مكروبات أو بكتيريا يصادم ما جاء عنهم في كتاب الله، ومَنْ ذهب إلىٰ ذلك الرأي، لا بدَّ له من توبة ورجوع إلىٰ ما جاء القرآن به دون زيادة أو نقص، وما أضافه الرواة والمفسرون والقصاصون والوعّاظ في تراثنا من حكايات عن الجن، وزواج الإنس بالجن، وإمكانيات ذلك، زائد علىٰ ما في القرآن الكريم، وما ارتبط به، وما جاء تأويلاً له من سنّة نبويّة، كله تزيّد لا ينبغي للمؤمن أن ينظر فيه إلا وعينه علىٰ القرآن المجيد. فما كان في القرآن دلالة عليه فإنّه يقبل، وما لم يكن فلا بدَّ من الحذر الشديد منه. ولقد كان للثقافة الشفويّة السائدة في

جزيرة العرب، والمتأثرة بمرويات أهل الكتاب وما أشاعوه في الحجاز وغيرها، أثرٌ كبيرٌ في تساهل الناس في رواية القصص عن الجن وعلاقتهم بالإنس وتداولها إلى أيامنا هذه. ولو أنّ الناس التزموا بما ورد في كتاب الله -تبارك وتعالى- ووقفوا عنده دون تزيّد لما شاعت تلك الأفكار الخطيرة وبلغت ما بلغته حتى أفسدت على المؤمنين إيمانهم، وأفسدت عليهم تصوراتهم لعالم الغيب، وخرّبت ما بناه القرآن في قلوبهم من تحرّر من الخوف من الطبيعة والمخلوقات الغيبيّة وما إلى ذلك، بحيث صار الناس يتحدثون عن زواج الإنس بالجن والعكس، ودرء حدّ الزنا عن مَنْ ادعت أنّ مَنْ أحبلها إنّما كان جنّيّاً، باعتبار ذلك شبهة يُدْرء الحد بها. وبلغ الناس في هذا الأمر ما بلغوه، حتى كادوا يفقدون -مع سلامة الإيمان وصحته- عقولهم كذلك.

لقد أراد القرآن المجيد أن يُبيّن لنا أنّ هناك مخلوقات أخرى غيرنا؛ منها ما يتمتع بقوى وعي، وقد خوطب بالقرآن الكريم كما خوطبنا، وكُلّف كما كُلّفنا، لكن ذلك لا يعني إلغاء الفوارق وهدم الفواصل بيننا وبين تلك العوالم، فالله قد جعل الملائكة بحكمته مسخّرين لطاعته، يُسبّحون الليل والنهار لا يفترون، لا يعصون الله -تعالى- ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ وجعل الإنس خلفاء في الأرض، ومنها خلقهم وإليها يعيدهم ومنها يخرجهم تارة أخرى، وجعل فيهم استعدادات للخير واستعدادات للشر، وجعلهم من عالم الشهادة؛ لأنّ مهمتهم تتعلق بهذا العالم، وتنحصر فيه؛ وخلق الجن، وأوجد فيهم استعدادات مماثلة، وإن كان أصلهم من نار، ليُبيّن قدرته جلّ شأنه، وخاطبهم بهذا القرآن الكريم، وأرسل لهم رسول الله ﷺ ولن يخرجهم كونهم تلقوا رسالة -هي رسالة محمد بن عبد الله ﷺ، الرسالة الخاتمة- من كونهم جزءاً من عالم الغيب، لا يتّصل بنا، ولا نتصل بهم، ولا يؤثر فينا ولا نؤثر فيه، وعلاقاتهم بالإنس لا تتجاوز علاقة الوسوسة بطريق الإيحاء والترغيب والتزيين الخفي، وليس لأي منهم سلطان يجعله قادراً على التأثير في الإنسي فيما عدا ذلك، فلا يتجاوز الأمر مستوى الوسوسة وحالتها. وكلُّ ما دخلنا من مداخل الثقافة الشفويّة هو إرث إسرائيلي، نجم عن انفتاح النسق الإسرائيلي على ذلك الغيب لحكمة أرادها الله -جلّ شأنه- فأعطى سليمان ذلك السلطان الذي ذكره القرآن، كما أعطى موسى تسع آيات

بيّنات، وألان لداود الحديد، وجعل الجبال تؤوّب معه والطير، فتلك أمور لم تُخرج أيضاً الجنّ من كونهم جزءاً من العالم الغيبي، وذلك الاتصال المحدود الذي جرىٰ بينهم وبين سليمان هو اتصال جرىٰ بحكمة الله جلّ شأنه، ورسالة محمد ﷺ أعادت الأمور إلىٰ نصابها، فهي رسالة تجاوزت موضوع خرق السنن والقوانين الإلهية التي وضعها للكون والطبيعة وللانسان والجان والملائكة والشياطين، وكل دابة هو آخذ بناصيتها، ولسائر الأمم التي خلقها، ذلك الأمر كله قد انتهىٰ وتوقف، فسليمان حين دعا أن تُسَخّر له الريح والشياطين والجن قال: ﴿مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ [ص: ٣٥] وقد استجاب الله لدعوته، فلا ينبغي أن نتجاوز تلك الحدود إلا إذا نصّ القرآن علىٰ شيء من ذلك، كما أنّنا لا نحتاج إلىٰ تأويل الجن بكونها البكتريا أو المكروبات كما فعل الشيخ محمد عبده وتابعه الشيخ رشيد رضا، وهفوات الكبار علىٰ أقدارهم، فالجن خلق لا نعلم عنه إلا ما وصفه القرآن به، ولا ينبغي أن نتزيّد فيه، لا بثقافة أهل الكتاب ولا بثقافة الجاهليّة، ولا بثقافة من تأثروا بالتراث الجاهلي وآدابه وما ورد فيها من شعر ونثر ووصف للجن والشياطين وما إلىٰ ذلك.(١)

ونحن نقول: إنّ القرآن حجّة علىٰ كل انسان، وليس هناك إنسان يُعَدُّ قوله حجّة علىٰ القرآن المجيد، فإذا قَصَر القرآن علاقتهم بناء علىٰ هذين الأمرين؛ يروننا من حيث لا نراهم: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وأنّ بعضهم يُوحي إلىٰ مَنْ يماثله في المعصية والانحراف من الإنس زخرف القول: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وأنّ ذلك الإيحاء يتم بطرق خفيّة وليس بطريق مباشر لاختراق النفس الإنسانيّة، فذلك يعني أنّ عملهم وتأثيرهم لا يتجاوز الوسوسة لجعل الإنسان يستقبح أشياء وينفر منها، أو يستحسنها ويُقبل عليها، لأنّ الوسوسة لا تتجاوز عمليّات التزيين والتحسين والتقبيح الوجداني،

(١) عفا الله عن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما تأثر ببعض المرويات التي وردت بما لا يتفق مع القرآن الكريم، وقُبلت لدىٰ بعض أهل العلم لإطلاقهم القول في حجيّة خبر الواحد، دون تفصيل بين ما يصدق القرآن عليه ويهيمن، وما لا يصدق القرآن عليه من تلك الأخبار، فَنُسِبَ إليه أن جنّيّاً قد سخر له، وأنّه كان يتمثل به، وأحياناً ينوب عنه في وعظ السلطان وأمره ونهيه، في حين يكون ابن تيمية في السجن لم يغادر؛ ولذلك تأثّر كثيرون بما ورد لدىٰ ابن تيمية في هذا الأمر.

وهذه هي التي دلّ القرآن عليها: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤] وهذه كلها لا دلالة فيها على فكرة اختراق الجنّ والشياطين للإنسان وسكونهم في جسده، واستمتاعهم ببنات آدم أو أبنائه، ذكراناً من الجنّ أو إناثاً، ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، فالغواية مدخل من مداخل الوسوسة والتزيين؛ لأنّها استعداد لذلك؛ ولذلك فقد جاء القرآن المجيد بذكر ذلك المشهد المعجز البليغ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فسلطانه قد انحصر في دعوته بطريق الوسوسة الخفي والإيحاء الخفي كذلك، وتكون الاستجابة إذا كان الانسان من الغواة أو مَنْ في إيمانهم شرك: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقد ذكر الله -تبارك وتعالى- لنا ما فعل الشيطان بمشركي قريش: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٧- ٤٨]، فهو بالرغم من معصيته لله، وعدم سجوده لآدم، ونفيه من الجنة، وإعلان تخليده في النار، قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ﴾ [الأنفال: ٤٨]، في حين يتجاوز المشركون والعصاة العتاة هذا المستوى، مع أنّه لا يُيأس من رحمة الله، فذلك الشيطان الذي مقته الله، وجعل مصيره الخلود في النار؛ لا ينكر أنّه يخاف الله، وقد ينتهي من الوسوسة ثم يفارق مَنْ وسوس لهم، ولا يفي بأي وعد وعدهم إياه، ومع ذلك، ومع كل هذه الآيات البيّنات، إلا أنّ المسلمين قد هجروا القرآن الكريم وانصرفوا لغيره، وأخذوا بمرويات وآثار لا يصدق القرآن عليها، دون نظر إلى هيمنته وضرورة إخضاع كل شيء لوجهته؛ ولذلك وجدنا هذه القضيّة موضع استغلال شديد منذ تراجعنا، فمرّة نُسْتَدْرَج لتأويلات لا يتقبلها كتاب الله، ومرة ننفي أموراً قد تؤدي إلى الكفر ونفي ما جاء القرآن به؛ كما فعل كثير من الملحدين ومَنْ تأثروا بهم، ومِنَّا مَنْ يؤمن بتأثير للجن يتجاوز أقدار الله -جلّ

شأنه- ويخترق سننه وقوانينه مثل الادعاء بجواز أن يتزوج الجني من الإنسيّة وجواز أن تَحمِل منه، ويقبل كثير من الفقهاء ذلك. وبعضهم صار يدّعي أنّ الجن قد أمره بالسرقة، وبالرشوة، وقد بلغ مِنْ تجاوز الناس لكتاب الله واهتمامهم بمرويات لا تخلو من شذوذ وعلل قادحة، وفي أسانيدها ومتونها مشكلات كثيرة، فضلاً عن أنها لم تُفهم على وجهها، أو لم تنكشف لهم عللها في أسانيدها ومتونها، أن صار أولئك العرّافون والكهنة الجُدد من الذين ينسبون أنفسهم إلى فئة الرّقاة، الذين يستعملون ما سُمي بالرُّقية إلى المحاكم، ليستنطقهم قضاة اتخذوا كتاب الله وراءهم ظهريّاً وهجروه، ولم يأبهوا بتصديقه ولا هيمنته.

إنّنا نعتقد أنّ الذين يُشيعون هذه الأمور ويعززونها، ويجعلون منها حقائق واقعيّة، إنّما هم مخرّبون ومدمرون وسفهاء، تجاوزوا القرآن وتجاوزوا سنن المصطفى ﷺ باتّباعه والتمسك به، وانصرفوا وراء الخرافة بوحي من شياطين الإنس من أعداء هذه الأمة الذين يعملون ليل نهار لنهب ثرواتها وتمزيق كيانها وتدمير مقوماتها، وجعلها أُمَّةً من المجانين والمخرّفين والمشعوذين والدَّجالين؛ ليسهل الاستبداد بشؤونها، حتى تصبح دولة بني إسرائيل لا من النيل إلى الفرات فقط، ولكن من المحيط حتى الخليج. فإنّ أُمّة يبلغ بقُضاتها ومحاكمها الأمر هذا المستوى لا يمكن أن تكون لها فاعلية، ولا يمكن أن تهتم بشرعيّة أو شريعة أو قيم أو دين، إنّها أُمَّة من السوائم، تُسيّرها مجموعة من الشياطين ومن الجن ومن الشهوات والرغبات، ومن عناصر الفساد والإفساد، أعاذنا الله الكريم من ذلك.

إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين يقول: ﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، أي: استكثرتم من الوسوسة لهم وإضلالهم وإبعادهم عن سبيل الله، فجعلتم الفاسدين والمنحرفين والفاسقين أكثر من أهل الاستقامة، يريد -جلّ شأنه- أن يقيم على الفريقين -فريق شياطين الإنس وفريق شياطين الجن- الحجّة قبل إدخالهم النار، فهو حوار مثل الحوارات التي جاءت بين الذين استضعفوا والذين استكبروا: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَـٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ

ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وهذا الاستمتاع ليس بالمعنىٰ الذي ذهب إليه القائلون بدخول الجني إلىٰ الإنسيّة وتمتعه بها، بل هذه محمولة علىٰ الوسوسة، وعلىٰ ذلك التولّي بين شياطين الإنس وشياطين الجن، الذي لا يتجاوز ما أشار القرآن إليه أبداً. بل لقد تجرّأ البعض ليؤكد أنّه ما من إنسان إلا وفي داخله شيطان أو جني أو ما إلىٰ ذلك، ولم يستثنوا سيدنا رسول الله ﷺ من ذلك. وحينما رأوا ذلك كثيراً قالوا -بعد أن ذكروا اعترافاً لرسول الله ﷺ بأنّ له شيطاناً مثل غيره- رووا عنه أنّه قال: "إلّا أنه أسلم"؛ أي: أقل شرّاً من شياطينكم، وفي رواية (أسلم): دخل الإسلام، وحاشاه ﷺ أن يحدث له ذلك أو أن يقول ذلك، وهو يتمتّع بالعصمة الإلهيّة من الناس والجن والشياطين. فليتقِ اللهَ الخائضون في هذه الأمور، والمروّجون لها، فإنّه إذا كانت قوىٰ الشر في الأرض تريد لهذه الأمّة أن تفقد آخر حصونها، وتنغمس في الخرافة وظلماتها، فإنّ هناك داراً آخرة يسأل الله -تعالىٰ- فيها الناس عن إيمانهم وعن اهتدائهم وضلالهم، فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً.

فهذا مشهد من مشاهد القيامة، حين يقف الخلق بين يدي الله، فيُقال للأشرار من الجنّ والكفرة المردة منهم: ﴿ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، أي من إغوائهم، وقال -جلّ شأنه- في سورة يس: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس: ٦٢] ، في جماعة كثيرة، وكأنّها لكثرتها تشبه الجبل في الثبات أو العظمة أو الضخامة، فيقول لهم؛ أي لشرار الجن: ﴿ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]؛ أي من إغوائهم وإضلالهم، فيقول أولياؤهم من الإنس كالمعتذرين: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فالجن قد استمتعوا بقيادة الإنس وإغوائهم، وكأنّهم استمتعوا بنشرة الزعامة بالقدرة علىٰ الإغواء والإضلال، أمّا أولياؤهم من الإنس فقد استمتعوا بالشهوات التي قادوهم إليها وزيّنوها لهم.

﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وها نحن في هذا اليوم -يوم القيامة- بين يديك، والله -تبارك وتعالىٰ- لم يذكر لنا الحوارات والجدل الكثير الذي ذكره في

أماكن أخرىٰ، حيث يتبرأ كلٌّ منهم من الآخر؛ لأنّ ذلك قد عُلم من آياتٍ كثيرة مرّت في سورة البقرة، وستأتي في سور أخرىٰ، مثل سورة إبراهيم وغيرها. بل كأنّه عجّل بهم إلىٰ النار: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢٨]؛ أي: جميعاً، أنتم وأولياؤكم، خالدين فيها إلىٰ ما شاء الله، وما شاء الله هنا لا يعني أن يتوقف العذاب، نعوذ بالله، بل إنّ فيها معنىٰ الاستهزاء بهم، وقد يقصد بها تلك الفترات التي أَلِف الناس أن يَعُدُّها توقُفاً، فكأنها استثنيت، وهي التي وردت في نحو قوله تعالىٰ: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الصافات: ٦٢-٦٧]، فكأنّ هناك انتقالاً من النار إلىٰ مكان أكثر، فيه طعامٌ وشراب من هذا النوع؛ ولذلك قال في سورة الرحمن: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤]، فذلك هو الاستثناء إلا ما شاء الله؛ أي اللحظات الاستثنائيّة لألوان الطعام والشراب، الذي هو نوع آخر من العذاب. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩] فهم اعتقدوا أنهم أخذوا شيئاً من وراء الله وخلصوا به. نقول: لا، فربك سيحاسبك ثواباً أو عقاباً، وذلك بما قدمت يداك من سيئات أو حسنات.(١)

النَّجم الثالث عشر: في بيان ضلالات المشركين وتجرُّئهم علىٰ تحكيم أنفسهم من دون الله في بيان الحلال والحرام

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ

(١) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مرجع سابق، ج٧، ص ٢٧٤٢، تفسير الآية ١٢٩ من سورة الأنعام.

أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٦-١٤٠].

تحدثت الآية: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] عن منح المشركين أنفسهم مسؤوليّة الحكم في الحلال والحرام في الحرث والأنعام وغيرها، وتجاهلوا أنّ أمرَ الحُكم بالتحليل والتحريم والمنع والإباحة كله، وفي كل شيء منوط بالله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ. إنِ الحكم إلا لله، فلا يجب على العبد شيء إلا بإيجاب الله، ولا يُحرم عليه شيء إلا ما حرّم الله. وقد فصّل الله -تبارك وتعالىٰ- ذلك كله، وما كان ربّك نسيّاً. لكنّ رعونة المشركين جعلتهم يتجرّؤون التحكيم فيها بهذه الطريقة الجائرة؛ ولذلك سَخِر القرآن منهم، وبيّن فساد حكمهم وانعدام منطقيّته، وافتقاده التام إلىٰ الحكمة ومعرفة المقصد والهدف والغاية والآثار وما إلىٰ ذلك.

ثمّ عقّب عليه بأنّه حكم سيّء، فقال تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ففي هذه الآية تحدّث -جلّ شأنه- عن سَفه الشِّرك وسذاجة العقليّة الشركيّة وأوهامها الكثيرة التي جعلتها تضع أصنامها وشركاءها في مقابلة الله -تبارك وتعالىٰ- الذي خلق كل شيء واستخلف البشريّة: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾[الأنعام: ١٣٦] أي: خلق، ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وكأنّهم مالكون حقيقيّون يملكون حقّ التوزيع والتقسيم، زعموا أنّه لله مع أنّ زرعهم وأنعامهم وكل ما في السماوات والأرض خَلقُ الله وملكه، وهم لا يتجاوزون كونهم مستخلفين فيه. وفي آية «سورة الزمر» يذكر الله إنزال الأنعام في إطار بيان خلق الإنسان واستخلافه. فيقول جلّ شأنه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] فجاءت بلفظ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر: ٦] وذلك للربط بين هبوط الإنسان إلىٰ الأرض من الجنّة وهبوط عدوّه الشيطان معه، ويذكّره بأنّه أنزل له من الأنعام ثمانية أزواج أيضاً. وفي «سورة يس» يمتنّ -جلّ شأنه- علىٰ بني آدم بخلق الأنعام وتذليلها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا

مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ [يس: ٧١] وجعل خلقها -جلّ شأنه- منوطاً بيده الكريمة لبيان مزيد من العناية التي يحتاجها الإنسان ليدرك مكانة هذه النعمة، فإذا بهذا المستخلَف يتجاوز كل صلاحيّاته وحدوده، ليخصّص للمالك الحقيقيّ -الذي استخلفه- نصيباً يستردّه لصالح الشركاء الذين اختلقهم، وجعل نصيب الشركاء المزعومين -المخصّص لهم بذلك التحكم السيّء الذي لا عدل فيه ولا إنصاف- يذهب إليهم، ويذهب معه ما زعموا أنّه نصيب الله.

ثمّ ينتقل السياق إلىٰ آثار أولئك الشركاء أو الأرباب التي صنعوها واتخذوها أرباباً من دون الله؛ ليُبيّن ما يجلبه هؤلاء الأرباب المتفرقون علىٰ مؤلّهيهم من انحرافات وبلايا ومصائب؛ منها تحريضهم علىٰ قتل أبنائهم، لينبّه إلىٰ فساد تلك العقليّة، وفساد كل ما يصدر عنها من أحكام باطلة فاسدة، تجعل مجرّد إسناد «الحاكميّة» لها كارثة ضدّ الإنسانيّة، بل تدميراً واغتيالاً لها. فتلك العقليّة هي التي مكنّت أولئك الشركاء المزعومين من أن يزيّنوا لكثير من المشركين قتل أولادهم؛ ليهلكوهم بتلك الجريمة وليلبسوا عليهم دينهم، بل يجعلوه خليطاً عجيباً لا يقود إلىٰ خير، ولا يهدي إلىٰ استقامة، ولا يبني حياة. ولأنّ مشيئة الله -تبارك وتعالىٰ- فوق كل شيء، والقربان البشريّ من أخطر ما ابتليت به البشريّة، بل هي أعظم جريمة وسوس شياطين الجنّ بها إلىٰ الكهنة، وشياطين الإنسان أمثالهم؛ ليُشيعوا في البشريّة هذه الجريمة النكراء، وتتلخص بالتضحية بإنسان لصنم أو وثن أو ملك أو فداء لعظيم. وقد تفنّنت الشعوب في هذا النوع من القرابين البشريّة، فقرّبت لآلهة الخصب والنماء، وقرّبت لمن زعمته إلهاً، وأحياناً تُقرّب للأنهار؛ كما كان الفراعنة يقربون للنيل لِئلا يغضب فيفيض ويدمّر أو تنقص مياهه. وهناك النذور، وذلك بأن ينذر الإنسان إذا رُزق بشيء ما يريده أن يذبح ولده قرباناً لكذا. وبقيت قضيّة عروس النيل وتقديمها قرباناً له في موسم محدد إلىٰ أن أنعم الله علىٰ مصر بالإسلام، فكتب عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رسالته المشهورة إليه، وأمر بإيقاف تلك العادة الشِّركيّة. واستمر العرب في جاهليتهم يُقربون أبناءهم لآلهتهم، ويئدون بناتهم حتىٰ جاء الإسلام. ومن القصص المشهورة قصة عبد المطلب جدّ النبي محمد بن عبد الله ﷺ، الذي كان قد نذر إذا رزقه الله

بعشرة أبناء ذكور أن يضحي بالعاشر ويذبحه قرباناً للآلهة، وذلك كان عبد الله والد النبي ﷺ؛ ولذلك فإنّ أصحاب السِّير يطلقون على رسول الله ﷺ أحياناً اسم «ابن الذبيحين»؛ أي اسماعيل وعبد الله.

وقد كان سيدنا إبراهيم قد اختاره الله -تبارك وتعالى- للقضاء على هذه العادة الشِّركيّة، حين أراه في المنام أنّه يذبح ولده إسماعيل، وجاءت قصته في «سورة الصافات »وغيرها: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٢] فهي مثل قضيّة سيدنا محمد ﷺ في القضاء على جاهليّة التَّبنِّي بأن جعله الله -تبارك وتعالى- بنفسه وسيلة لإنهاء هذه الحالة: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧] .فما جاء في قضيّة سيدنا إسماعيل كان رؤيا منام، وليس هناك أي حكم شرعي أمر اللهُ نبيّاً أو رسولاً بفعله أو تطبيقه أو دعوة الناس إليه بمجرد رؤية المنام، فالأحكام الشرعيّة التي ينقلها رسول الله وأنبياؤه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى البشر لا بدّ أن تُوحى إليهم بيقظة، وتُبْلَغ للمكلَّفين بيقظة كذلك، فلو قام أي إنسان ببيع أو شراء أو طلاق أو نكاح أو سوى ذلك في المنام لا يمكن أن يُثبَت بذلك حكمٌ أو يُبنَى على المنام صحة تصرّف، ولكنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أراد أن يُبيّن سَفه المشركين وكهنتهم وأصنامهم بهذه الطريقة .وذكر لنا قصة إبراهيم وإسماعيل ليتصوّر الناس بشاعة قتل الولد بتلك الأسباب، ولعلّهم ينتهون ويتوقفون عن تلك الجريمة، فإنّ الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يأمر ولا يُزين لعباده ما يأمر أو يُزين أهل الشِّرك والكفر من قتل الأولاد، وانتقاده -جلّ شأنه -لهؤلاء المشركين يجعل ذلك الاحتمال منفيّاً تماماً، ويجعل المراد لفت أنظار البشريّة كلها إلى بشاعة تلك الجريمة التي تنسب إلى الأديان وتربط بالآلهة والأوثان؛ ولذلك فإنّ الاعتقاد بأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أمر إبراهيم بقتل ولده ثم تراجع عن ذلك عطفاً على الذبيح- كما تشير التوراة وبعض نسخ العهد الجديد وبعض الشروح-

تدل علىٰ أنّ هؤلاء لا يرون عصمة الأنبياء ولا حفظ الله لهم من ارتكاب الكبائر أو الإصرار علىٰ الصغائر .وتلك قضيّة أخرىٰ لا بدّ لنا من إصلاحها والوقوف عندها عندما يأتي ما يناسب ذلك إن شاء الله. وأمّا تشبيهها لذلك بقضيّة التَّبنِّي والقضاء عليه واستئصاله التي كُلّف به رسول الله ﷺ فإنّه أمرٌ ظاهر أنّ من سنن الله -جلّ شأنه- أن يجعل أنبياءه ورسله قدوة يقتدي الناس بهم، ويتأسون بهم، فإذا كانت هناك انحرافات متأصّلة وثّنتها المجتمعات وتشبّثت بها، وتحوّلت إلىٰ جزء من ثقافتها، فإنّه أَمرٌ ظاهرٌ أنّ من سنن الله -جلّ شأنه- أنّ من أنبيائه ورُسله من يجعله طرفاً في قضيّة تؤدي إلىٰ تعليم البشريّة مدىٰ سوء ذلك الفعل وبشاعته، وضرورة الإقلاع عنه .وقد اختار الله سيدنا إبراهيم لهذه القضيّة -قضيّة قتل الأولاد واتخاذهم قرابين بشريّة- وكذلك اختار سيدنا محمداً ﷺ لتخليص البشريّة من عادة التبنّي .والآية تنبّه بوضوح إلىٰ هذا الذي استنبطناه، ووفقنا الله إليه في فهم منام سيدنا إبراهيم ...والله أعلم.

هؤلاء الشركاء لا يملكون لأنفسهم ولا لمتّبعيهم ضراً ولا نفعاً، وأكّد أنّه لو شاء منعهم من ذلك الفعل بالقوة لفعل؛ لأنّه صاحب المشيئة المطلقة المهيمنة، ومع ذلك فهم أناس قد يُستحسن أن يُهملوا لافتراءاتهم وأكاذيبهم، قال تعالىٰ: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وحين تنتهي الآية (١٣٧) من السُّورة يعود السياق مرة أخرىٰ إلىٰ أحكامهم السيّئة في الحرث والأنعام والزروع والبهائم، فذكر -تعالىٰ- أنّهم عزلوا أنعاماً وحرثاً ومنعوها من الناس، وادّعوا أنّهم بذلك الحجر أو المنع يجعلونها متاحة فقط لمن يشاء الله -بحسب زعمهم- أن يصيب شيئاً منها، فيأكلها أولئك المتصدّرون للكهانة والترويج للشركاء والدجالين، ويزعمون أنّ الله مكّنهم من ذلك، وأنّه لو لم يشأ أن يطعموا تلك الأنعام والحرث لمنعهم من ذلك. كما أخذوا نصيباً آخر من تلك الأنعام، وزعموا أنّه حرام ركوبها، أنعامٌ أخرىٰ زعموا أنّ عليهم الّا يذكروا اسم الله عليها عند ذبحها، وادّعوا أنّ تلك الأهواء والأحكام السخيفة التحكميّة التي لا تبدو فيها أيّة حِكمة هي أحكام ورثوها، وأنّ الله أمرهم بها افتراءً عليه -تعالىٰ- متجاهلين الجزاء الذي ينتظرهم علىٰ افتراءاتهم تلك.

ثم يضرب لنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مثلاً آخر في الآية رقم (١٣٩) عن هذا النوع من البشر المشركين، وكيف تضطرب أحكامهم نتيجة الشِّرك وابتعادهم عن التوحيد، ويتخذون من أهوائهم آلهةً ورُسلاً يحكمون باسمها علىٰ الأشياء، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٩] فكأن هذه التقسيمات مجرد أوصاف مبتكرة لا قيمة حقيقيّة لها بحيث ترقىٰ إلىٰ مستوىٰ الأحكام. وكما ربط السّياق بين (١٣٦ - ١٣٧) وقضيّة الأحكام التي افتروها واختلقوها في الحَرث والأنعام، فقادتهم إلىٰ استباحة قتل أولادهم بتزيين من شركائهم وشياطينهم الذين يريدون إهلاكهم وتدمير دينهم، وجعله خليطاً من رغباتهم وشهواتهم وتخريب دنياهم وما إلىٰ ذلك. يقودنا السّياق من الآية (١٣٩) التي تناولت مواقفهم مما في بطون تلك الأنعام، وأوصافهم السيّئة التحكميّة التي لا تبدو فيها حكمة ولا يظهر لها هدف ولا غاية، ليبيّن أن ما زيّنه للمشركين شركاؤهم فيما مرّ -من قتل أبنائهم- تحوّل إلىٰ ممارسة حقيقيّة فقال في الآية: ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

النَّجم الرابع عشر: في بيان نِعَم وأصناف الأنعام التي امتنّ الله تعالىٰ بها علىٰ عباده

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ

فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤١-١٤٨].

ثم ينتقل السّياق إلىٰ بيان حقيقة الحَرث ومنشئه وخالقه وجاعله أصنافاً وأنواعاً، الذي هو صاحب الحق وحده في إعطائه الأحكام المناسبة والملائمة، والتي لم يجعل فيها برحمته أكثر من أن يأكلوا منها بإباحة منه جلّ شأنه، وأن يذكروا اسم الله عليها توكيداً لعبوديّة الإنسان له والتزامه بشرعه، وأن يقوموا بأمرٍ مهمٍ هو إيتاء حقه يوم حصاده لمن لا يستطيعون أن يكون لهم زرع ولا ضرع من الفقراء. ونهاهم عن واحدة، وهي أن يسرفوا في استعماله؛ لأنّ كل شيء خلقناه بقدر، فالله قدّر في هذه الأرض أقواتها، وفعل -جلّ شأنه- مثل ذلك في الأنعام مبيّناً فوائدها.

إنّ القران المجيد قد بيّن لنا امتنان الله -تعالىٰ- علينا وعلىٰ العالم كله بما أنشأ من جنّات معروشات، وثمر وفواكه وطعام وشراب، وجعل تلك النِّعم التي لا تُحصىٰ وسيلة لحضّ الناس علىٰ الإيمان بالله الذي أنعم عليهم بكل تلك النِّعم، ودعاهم إلىٰ الاستمتاع بها واستثمار تلك الخيرات وإخلاص التوحيد له، ربّاً وإلهاً، لا يُشرك به غيره ولا يُعبد سواه. وذلك يعني أنّنا مطالبون بالاستفادة بهذه النِّعم بإحياء الأرض بعد موتها، وتوفير المياه لها، وزراعتها، واستخراج ما مَنّ الله علينا به من خيراتها والاستمتاع بها.

والتَّخلف -حين يحول بين الإنسان وبين ذلك- يصبح ذنباً من الذنوب، وظلماً للأرض وما فيها ومَنْ عليها، وظلماً للإنسان نفسه، فما خلق الله -سبحانه- هذه الأشياء إلا ليُستفاد بها فيها، فقد خلقها للإنسان، وذلّل له كل السُّبل التي تؤدي إلىٰ الاستفادة بها، فإذا عطّلها ولم يستفد بها فقد حرم نفسه وحرم البشريّة من الوصول إلىٰ نِعم الله

والاستمتاع والاستفادة بها؛ ولذلك كان العمل بالزراعة أو الصناعة أو سواهما عبادة من العبادات المقربة إلىٰ الله -جلّ شأنه- إذا اقترن بالنيّة والإيمان والالتزام بالهدىٰ، والعمل علىٰ إقامة الحقّ ونبذ الظلم، فإذا عطّل الإنسان ذلك، ولم يستفد به، فكأنّه رفض نعمة الله، فحرم نفسه وحرم غيره، وفي ذلك ظلم كبير للنَّفس وللغير.

إنّ سائر مقاصد القرآن -من توحيد وتزكية وعمران ومقاصد التشريع- لا يمكن تحقّقها إلا إذا أحيا الإنسان الأرض واستثمر كل ما أودعه الله فيها، ونفع نفسه وغيره بخيراتها، فذلك هو العمران المحقق لأهم أهداف الاستخلاف وغاياته ومقاصده. وقد أدرك المسلمون الأوائل ذلك، وعملوا علىٰ إحياء الأرض، وتركوا أحكاماً كثيرة وفِقهاً غنياً خصباً فيما يتعلق بالأرض وأحكام إحيائها، وتداول الانتفاع بها، وما إلىٰ ذلك.

ومن المؤسف أنّ المسلمين قد أساؤوا فهم فرائض الأمّة، أو فروض الكفايات، ومنها إحياء موات الأرض، واستثمارها في السكن أو الزراعة أو الصيد، وإعطاء الفقراء حقوقهم فيما تنتجه الأرض بجهود البشر القائمين عليها: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] وحين عطّل المسلمون هذه الفرائض وأساؤوا فهمها وتوقفوا عن الالتزام بها أصابهم الجوع والفقر والمرض، وفقدوا الأمن، وعادت أيديهم سفلىٰ بعد أن كانت عليا، وأحاطت بهم المشكلات من كل جانب، وصارت الأمّة تعيش في زمن تستورد فيه ما تأكل من خصومها وأعدائها والجشعين من مكتنزي الأموال، ومحتكري السلع والمرابين، الذين صار لهم سبيل علىٰ هذه الأمّة، يستطيعون إجاعتها إن شاؤوا، وإيقاعها في العُري لو أرادوا، وحملها علىٰ معاناة العطش متىٰ رغبوا. وأمّة مثل هذه يستحيل أن تتصف بالخيريّة أو الوسطيّة، فضلاً عن أن تقوم بمهام وأعباء الشهادة علىٰ الناس.

فالأمة اليوم تتسول من الأمم كل شيء، وما ذلك إلا لأنّها غفلت أو تغافلت عن فروض الأمّة، وعن تحقيق ذلك الذي صار يطلق عليه الأمن الغذائي، بل لقد اعتمدت علىٰ الآخرين -ومنهم خصومها وأعداؤها- في صناعة ما تغذي به الأرض وتخصبها من أسمدة، وصرنا نقرأ ونسمع ونعاني من أسمدة مسرطنة وأطعمة ملوثة،

وأغذية مدمرة ناقلة للأمراض والمصائب، وأدوية فاسدة... وما إلىٰ ذلك، وصدق الله في قوله جلّ شأنه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣]، وها نحن نرىٰ مستشفياتنا تغصّ بالمرضىٰ، ونرىٰ أنفسنا فقراء في كل شيء، ومنه الماء الذي لم نحسن في سبل الاحتفاظ به أو إنمائه، أو تكثير موارده التي مَنّ الله علينا بها، وها نحن نجد الدراسات الكثيرة التي تهدد بأنّ الأربع سنوات القادمة سوف يشهد عالمنا فيها فقراً في المياه قد يؤدي إلىٰ تعطيل تلك الزراعات البسيطة المتبقية لنا، والقضاء علىٰ ما بقي لنا ممّا ترك السابقون من نخيل وأشجار مثمرة.

والآيات الكريمة لو تدبرها المسلمون اليوم، وأدركوا معانيها، وعرفوا أنّ ما لا يتم الواجب المطلق إلا به، وكان مقدوراً للمكلَّف، فهو واجب، وقاموا بذلك حقّ القيام، لتجنبوا هذه المخاطر وتجاوزوا هذه التهديدات، واحتفظو بكرامتهم، وحرّروا أنفسهم من سيطرة الآخرين علىٰ طعامهم وشرابهم ولباسهم، فضلاً عن أسلحتهم وما إليها.

إنّ المسلمين -في تاريخهم كله- لم يعتمدوا علىٰ سواهم في هذه الضروريات، وكانوا يرون أنّ الاعتماد علىٰ الآخرين في الطعام والشراب واللباس مُذِلّ للإنسان مهين لكرامته، مدمر لإرادته؛ ولذلك فقد كانت تسودهم أفكار وقيم الاستغناء عمّا في أيدي الآخرين، وتوفير ما يحتاجون بأيديهم وجهودهم. أمّا اليوم فإنّهم جياع عراة فقراء، يقفون من بقيّة العالم موقف التسول، ولا يأنفون وهم يستقبلون صدقات الشعوب وفضلات أموالها من قمح وأرز وذُرة وسواها، لجهلهم بفروض الأمّة ومقوّماتها وخصائصها، ومن لم يُحرر غذاءه وكساءه والماء الذي يشربه أو يتطهّر ويغتسل أو يسقي به مزروعاته؛ فأنّىٰ له أن يكون إنساناً ذا عزّة وكرامة وقدرة علىٰ الكفاح والجهاد والنضال وتحرير الأرض، وصيانة العرض؛ ولذلك فإنّنا نتمنىٰ علىٰ قادة الرأي والمسؤولين وصائغي الخطاب في الداخل الإسلامي أن يلتفتوا إلىٰ هذه الفريضة الغائبة، ويسارعو إلىٰ العمل علىٰ توعية الناس بها، قبل أن يطمس الله علىٰ الوجوه: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء: ٤٧].

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ [الأنعام: ١٤٢] وإباحتها ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، والتحريم بالهوىٰ والأوصاف المختلفة، والتحكم في تلك الأمور بما لم يأذن الله به، إنّما هو اتباع لخطوات الشيطان الذي حذّر الله منه ومن عداوته واتباعه منذ البداية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢﴾ [الأنعام: ١٤٢].

ثم يزيد في بيان سفههم وهو يشرّعون انطلاقاً من أهوائهم وشهواتهم، فيُورد قسمة عقليّة لتلك الأنعام، ويقول فيها: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾ [الأنعام: ١٤٣] فالقسمة العقليّة هنا لا تقبل أكثر من هذا، وللزيادة في تفنيد آرائهم أو شهواتهم قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، بنفس القسمة العقليّة بيّن سفههم وضلال حكمهم الذي لا يحمل أيّ منطق أو دليل يشهد لهم.

ثم يسألهم: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾ [الأنعام: ١٤٤] ليبيّن كذبهم وافتراءاتهم وعاقبة ذلك عليهم في الدنيا والآخرة، وينبّه إلىٰ أنّ عمليّة الحكم علىٰ الأشياء هي عمليّة في غاية الخطورة، لا ينبغي أن تمارس إلا بعلم، ومَنْ مارسها بغير علم فقد دخل في سلك الظالمين.

ثم بيّن لأولئك المشركين -ومَنْ سار سيرهم- مدىٰ ضلالهم حينما منحوا أنفسهم حق التشريع وَهْماً منهم وظنّاً كاذباً من ظنونهم أنّهم بذلك سوف يوسعون علىٰ أنفسهم إذا منحوا أنفسهم صلاحية التشريع، وإذا بهم بدلاً من ذلك قد ضيّقوا عليها. وليبيّن الله لهم ضلالهم وانحرافهم واستقامة تشريعاته -جلّ شأنه- أمر رسول الله ﷺ بأن ينفي سائر الأحكام التي وضعوها -بزعمهم- افتراء علىٰ الله، ووصفوا بها بعض ما أنعم الله به عليهم وصفاً حَرَمهم من الاستفادة بها، فقال جلّ شأنه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فكلّه مباح إلا ما استثنىٰ، وهو قليل جدّاً.

والتفت بعد هذه الآية إلىٰ اليهود الذين شابهوا المشركين في بعض الجوانب، وحرّموا علىٰ أنفسهم بعض الأمور، وأباحوا لها بعضاً آخر بافتراءات نسبوها إلىٰ أبيهم إسرائيل أو غيره من الأنبياء زوراً وبهتاناً، وردّ الله عليهم ذلك في: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ [آل عمران: ٩٣] أمّا بعد أن نزلت التوراة فقد ذكر -جلّ شأنه- ما حرّم عليهم، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام: ١٤٦] ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠﴾ [النساء: ١٦٠] ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه: ٨١-٨٢] ثم قال معقّباً علىٰ التحريم: "وإنَّا لصادِقون"، فهنا يبيّن لأُمتنا نعمته البالغة السابغة في أنّ منطلق التشريع فيها هو منطلق التشريف والرحمة والتخفيف ورفع الحرج ودفع الإصر والأغلال، في حين أنّ منطلق التحريم في شريعة بني إسرائيل كان التأديب والجزاء المعجّل بناءً علىٰ اختلاف النسَقين الإسلاميّ واليهوديّ، واعتبر تحريم هذه الأمور جزاءً منه -جلّ شأنه- لهم ببغيهم وتجاوزهم حدود ما أنزل الله.

ثمّ جاءت الآية (١٤٧) لتقول: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ [الأنعام: ١٤٧] فيما ذكرت لهم من شريعتهم التي يحرصون علىٰ إخفائها ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: ١٤٧]، فقل: ربكم ذو رحمة واسعة، ومع سعة رحمته فإنّه لا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.

النَّجم الخامس عشر: في الدعوة إلىٰ الإيمان بحجّة الله البالغة في منح الإنسان حرية الاختيار وائتمانه عليها، وأنه لا جبر

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا

وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٥٣].

ثم ينتقل السّياق بنا إلىٰ نوع آخر من أنواع المجادلة التي أتقنها أولئك المشركون وحلفاؤهم من أهل الكتاب لتبرئة أنفسهم من الإجرام في حق الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ حين ينازعونه الحاكميّة والتشريع، ويسجّل ما يدور في أوساطهم احتجاجاً لأنفسهم فيما يزعمون، وتبرئة لها، وإلقاء للمسؤوليّة في خروجهم علىٰ أحكام الله، ومنازعته -جلّ شأنه- سلطانه -تبارك وتعالىٰ- فيقول: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فلا الشِّرك -الذي هو أساس المشاكل ومنبعها- ولا التصرف في الأحكام بحسب الرغبات والهوىٰ يعترفون بفعله، بل ينسبون ذلك كله إلىٰ الله -تعالىٰ- ليخدعوا أنفسهم وجماهيرهم والبسطاء من الناس، ويوهموهم بأنّهم وهم يشرّعون ما لم يأذن به الله لم يخرجوا عن مشيئته؛ إذ لو شاء لمنعهم بالجبر والإكراه من ذلك، وما دام لم يفعل ذلك فهذا يعني أنّه عنهم راضٍ!! وهم يتلاعبون هنا في قضيّة «الأمانة»، أمانة الحريّة والاختيار الإنسانيّ، ويحتجّون بـ«الجبريّة» والجبر والقدر علىٰ ما يفعلون من جرائم، ويريدون أن يفحموا المصلحين ويقولوا لهم بأنّنا ما خرجنا عن دائرة المشيئة الإلهيّة في كل ما ارتكبناه من جرائم ومعاصٍ، بل ما نزال بداخلها. ويردّ الله -تبارك وتعالىٰ- عليهم بالعِلم لا بالوَهم، ويسائلهم: قل هل عندكم من علم بما تدّعون فتخرجوه لنا لنقتنع بها تدّعون وتقولون؟! ومن المعلوم أنّهم لا يملكون غير الأوهام، وإنْ هم إلا يخرصون. فيقول لهم جلّ شأنه: أما وقد عجزتم -ولا بدّ أن تعجزوا عن تقديم أيّ علمٍ أو أثارةٍ من علم- فقد ثبت أنّكم لا تتبّعون إلا ظنونكم السيئة وأوهامكم المريضة

وتخرّصاتكم، أمّا الله -تبارك وتعالىٰ- فله الحُجة البالغة، وله البراهين الساطعة، والعِلم الذي أحاط بكل شيء، فلو تعلّقت مشيئته بما تفعلون، وصادر حريّاتكم، لأصبحتم من المسخّرات التي تتحرك وتتصرف بقوانين مودعة فيها. وآنذاك فالمعقول والملائم للحكمة الإلهيّة أن يكرهكم ويسخركم لسبيل الهداية، فلو شاء؛ أي: إكراهكم علىٰ شيء، ومعاملتكم مثل المسخّرات بقوانين عامة صارمة جبريّة لا تقاوم لأكرهكم علىٰ الهداية؛ لأنّه -جلّ شأنه- لا يرضىٰ لعباده الكفر، ولا يرضىٰ لهم اتّباع الهوىٰ والشيطان فيما يُحلّون ويُحرّمون. وبعد أن يُحبط هذه الحجّة يطالبهم بشيء أقل من ذلك، فيدعوهم لأن يأتوا بشهدائهم -إن كانوا يعرفون شهوداً- يشهدون لهم أنّ الله حرّم هذه الأشياء التي حرّموها علىٰ أنفسهم!! فإن افتروا كعادتهم، واختلقوا شهداء، أو شهد بعضهم لبعض كما هي عادة الكفار والمنافقين، فلا تشهد معهم؛ لأنّ موقفك مغاير، معك علم يقينيّ لا تزيله شهادات الزُّور ولا الشهادات المختلقة المفبركة: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠] وكأنّ الخطأ الأول الذي ارتكبوه وقادهم إلىٰ تلك المهالك أنّهم جعلوا شركاءهم في مقابلة الله تعالىٰ، وجعلوهم معادلين له جلّ شأنه، وهو لا يعدله شيء ولا يشبهه شيء من تلك المختلَقات. كما أنّ عدم إيمانهم بالآخرة أعطاهم الجرأة علىٰ اتباع الهوىٰ واختلاق الأحكام ونسبتها إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- ثم يأمر الله رسوله ﷺ قائلاً: "قُلْ"؛ أي لهم، ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وهو صاحب الحق في التشريع والتحريم والتحليل. بل إنّ هذه الصلاحيّة -صلاحيّة التشريع- منحصرة فيه -جلّ شأنه- فيذكر لهم أولاً: الشِّرك الذي يتمرّغون فيه: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١]. فالشِّرك هو أساس البلاء ومنطلق الانحرافات، ثم الإحسان إلىٰ الوالدين والنهي عن الإضرار بأيٍّ منهما، وتحريم ذلك تحريماً قاطعاً. وَوَضَع هذه الجريمة، جريمة الإساءة إلىٰ أيٍّ من الوالدين بعد جريمة الشِّرك مباشرةً؛ تنبيهاً من القرآن الكريم إلىٰ هؤلاء بوجوب تذكّر كيف جاؤوا إلىٰ هذه الحياة، ومَنْ الذي خلقهم وأنشأهم وربّاهم، وجعل منهم شيئاً مذكوراً بعد أن لم يكن أحد منهم شيئاً مذكوراً: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ثم يردفها بجريمة ثالثة يحرّمها -مما كانوا يمارسون- وهي جريمة قتل الأولاد ووأدهم خوفاً من الجوع والإملاق لعدم إيمانهم

بالله تعالىٰ، فيقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] فلستم المسؤولين عن أرزاقهم، كما أنّكم لم تكونوا مسؤولين عن خلقهم، وكل ما هو لكم في هذا الأمر أنّكم سبب طبيعيٌّ جعله الله لإيجاد هؤلاء الأولاد. والتناسب معجزٌ بين البدء بالنهي عن الشِّرك والأمر بالإحسان للوالدين، المشتمل علىٰ النهي عن الإساءة لأيٍّ منهما، والأمر بحماية الأولاد وعدم قتلهم أو التخلّص منهم خشية ضيق الرزق، ثم يأتي بقاعدة كُليّة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] والفواحش جمع فاحشة، وهي السيّئة المجاوزة لحدود السّيء، فكأنّها سيّئة تضاعفت حتىٰ فحشت، إمّا بطريقة ارتكابها أو بالقصد والتصميم الذي اتصف به فاعلها، بحيث جعلها مجاوزة لحدود السيّئة، فتصبح بحيث لا يمكن الاعتذار عنها أو القول بأنّه ارتكبها مغلوباً علىٰ أمره، أو بناءً علىٰ إكراه. وفيها إلماح إلىٰ مراتب السيّئات والذنوب؛ فهناك ذنوب وسيئات قد يقع الإنسان فيها محاطاً بظروفٍ مخففة، يصعب معها أن يوصف فعله بأنّه قد فحش؛ أي جاوز الحدود كلها، أو أن يكون الذنب محاطاً بظروفٍ مشدّدة كما نسميه في لغة القانون اليوم؛ بأن يشتمل علىٰ القصد والتصميم وسبق الإصرار والترصّد، وما شاكل ذلك مما يُعَدُّ -في قوانين الجرائم- من الظروف المشدّدة، فكأنّه -جلّ شأنه- باستعمال هذا اللفظ المعجز أراد أن يُنبّه أنّ هناك ذنوباً قد لا تبلغ حدّ الفحش؛ لأنّها لم تتجاوز حدودها العرفيّة، وتلك ذنوب قد يتوب الإنسان منها أو يرجع عنها أو يستغفر فيغفر الله له. لكنّ هناك ذنوباً أخرىٰ تتجاوز الحدود، فتتحول إلىٰ فاحشة تستحق المقت الإلهيّ، وقد تؤدي بالفاعل لها إلىٰ نوعٍ من الإدمان أو المداومة والاستمرار، كما أنّ جمعها لا يحصرها بجريمة الزنا، كما قد يتوب بعض العباد. فأيّ ذنبٍ يمكن أن يتحول إلىٰ فاحشة -سواء أكان في المال أو السلوك أو سواهما- إذا جاوز به صاحبه الحدّ، واقترن بما يجعل منه فاحشة. وبما أنّ الذنوب منها ما يظهر للناس ومنها ما قد يكون في باطن الإنسان وقلبه؛ مثل قضايا العقيدة، فقد جمعها، ثم قسّمها إلىٰ نوعين: ما ظهر منها وما بطن.

وهذه الأفهام الخاطئة ليست جديدة علىٰ هؤلاء الذين يقرؤون القرآن عضين، ويفرّقون بين آياته بشتىٰ أنواع الفوارق التي تمليها عليهم شياطينهم ورغباتهم، فإذا

كان المشركون -فيما سبق- اعتذروا بعذر عام هو: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فهؤلاء يرتّبون اعتذاراتهم بشكل آخر، كالمسوّغات التي أشرنا إليها؛ من التصرّف باللغة والانحراف في المفاهيم والتلاعب بالمصطلحات. وظاهر من تحويل الزنا إلىٰ مجرد شيء بين الإنسان وربّه -ليس للجماعة دخلٌ فيه إلا إذا أعلن- نرىٰ فيه تمهيداً للتقليل من أهميّة هذه الجريمة وخطورتها، وتحويلها إلىٰ شأن شخصيّ يخضع لرغبات الفاعلين، وفي ذلك تدمير للأسرة وللمجتمع والحضارة والمدنيّة، أعاذنا الله من الانحراف بكل أنواعه وأشكاله.

ثم تتعرض الآية لقتل النَّفس، وهي الجريمة الخامسة المنهي عنها: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ أي: التي بيّن الله حُرْمتها ومكانتها ووجوب احترامها وحمايتها، قال جلّ شأنه: ﴿ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ليس المراد به النزول بهذه القضايا، أو بأحكام هذه القضايا، إلىٰ مستوىٰ التوصية غير الملزمة، بل يفيد ارتباطها بأنّها مما وصّىٰ الله به، بمعنىٰ الاستمرار والدوام وعدم قبول التغيير أو النسخ، فهي أمورٌ كليّة ما ينبغي التهاون فيها ولا التنازل عنها بأيّ حال من الأحوال.

ثم تنتقل الآيات إلىٰ النهي عن مجرد الاقتراب منه، في ذلك دليل علىٰ النهي عن مقدّماته وما قد يؤدي إليه، والنهي عنه كذلك: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ أي بأي طريقة وأضمن طريقة تحفظ مال اليتيم ولا تؤدي إلىٰ التفريط به أو الاعتداء عليه.

ثم يأمر الله -تبارك وتعالىٰ- بالوفاء بالكيل والميزان، وعدم بخس الناس حقوقهم، والتزام العدل في المعاملات، وتجنّب أي شيء يمكن أن يؤدي إلىٰ تجاوز حالة العدل والقسط، وتؤدي إلىٰ الدخول في الجور، ويُبيّن -تبارك وتعالىٰ- أنّ طبيعة تكليفاته -جلّ شأنه- وأوامره ونواهيه منسجمةٌ مع طاقات الإنسان وقدراته، ليس فيها حرجٌ ولا إصر ولا أغلال، ولولا علم الله -تعالىٰ- بأنّ ذلك داخل في وسع الإنسان واستطاعته لما كلّفه به.

ثم ينتقل إلىٰ الأمر بالعدل في القول؛ فالعدل لا يتعلّق بالأفعال وحدها، بل في الأقوال كذلك، فيقول جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فلا ينبغي أن تحمل الإنسانَ عواطفُه ومشاعره علىٰ مجانبة سبيل العدل والخروج عنه، لا في القول ولا في العمل ولا في أي شيء آخر، ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] فبعد أن فصّل ما تقدّم أكّد علىٰ أنّ ذلك كله مندرج تحت عهد الله تبارك وتعالىٰ، وأنّه من مقتضيات الوفاء بالعهد بين الله والإنسان. وتأتي فاصلة الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢] توصية دائمة مستمرة دوام عهد الله معكم، وهذه التوصيات هي التي تذكركم بذلك العهد الإلهيّ.

ثم ينتقل إلىٰ بيان أنّ الالتزام بما تقدّم هو أمر ميسّر، فتُردّدون في صلواتكم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦]، فهذا هو الصراط المستقيم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ أي: لتهتدوا ولتتقوا ولتنجحوا وتفوزوا في اختبار الابتلاء، وأن أيّة سبل أخرىٰ تتبعونها ستتفرق بكم عن سبيله، وتوصلكم إلىٰ الضياع، فإذا أردتم التقوىٰ فعليكم بالتزام هذا الصراط المستقيم الذي جاء الكتاب الكريم به، وأمرتم بالتزامه وعدم السير في سواه، لتتحققوا بالتقوىٰ وتتحلوا بالتزكية، وتكونوا من المهتدين.

ثمّ يُبيّن -جلّ شأنه- أنّ هذا الذي وصّاكم به قد وصّىٰ به أممًا سبقتكم، وجاء به الأنبياء قبل نبيّكم، ونزل في كتب أنزلت عليهم، ولقد ردّ الله -سبحانه- علىٰ المشركين كل ما افتروه بهذه الآيات الثلاث: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ

سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ
أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ
وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ
حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ
﴿١٣٨﴾ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ
فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ
سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾
۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ
وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا
تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ
ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ
عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا
عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ
ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ
ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا
ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ
وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا
حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ
لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ
﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا
تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

[الأنعام: ١٣٦-١٥٠] جاءت هذه الآيات ترد على المشركين جملة وتفصيلاً، وتعلن إعادة الحاكميّة في هذه الأمور وغيرها إلى الله ربّ العالمين، الذي فصّل في كتابه الكريم كل شيء، فذكر -سبحانه- خمسة نواهٍ وخمسة أوامر، وكرّر الأمر بالوصيّة ثلاث مرّات،

حتىٰ عدّ العلماء هذه الآيات الثلاثة أنّها «الوصايا العشر». ودعوته لهم للحضور إليه واستماع ما يتلوه توكيد لسلب حق التشريع منهم ومِن سواهم. وقد بدأ -سبحانه- بقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١] «ألّا» كلمة أدغمت فيها «أن» التفسيريّة «بلا» الناهية؛ لأنّ تجاوز التوحيد واللجوء إلىٰ الشِّرك رأس كل تلك المعاصي والمنطلق لها، ولو آمنوا بالله -تعالىٰ- ربّاً ووحّدوه لأدركوا أنّ التحريم والتحليل شأن يختص به جلّ جلاله، وجمهرة العلماء أكدوا علىٰ أنّ الأمر بالشيء نهي عن ضدّه .كما أنّ النهي عن الشيء أمر بضده، ففي الأوامر الخمسة والنواهي الخمسة تلاحظ الأضداد كذلك.

النَّجم السادس عشر: في إنزال الكتب وعاقبة الإيمان أو الكفر بها

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤-١٥٩].

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، بيّن أنّه -جلّ شأنه- بذلك قد أقام عليهم الحجّة، وألزمهم بها، وحال بينهم وبين أن يحتجّوا عليه بأيّ شيء، فقال جلّ شأنه: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦] هم اليهود والنصارىٰ، ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٧]؛ أي في هذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليكم هدىً ورحمة، وبذلك يتضح لكم شناعة وقبح مَنْ كذّب بآيات الله وانحرف عنها، والعدل في مجازاته بسوء العذاب، ويورده

-جلّ شأنه- في معرض سؤال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٧]، فمَنْ أكثر ظلماً ممّن كذّب بآيات الله المنزّلة وصدف عنها، سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون.

ويتساءل بعدها: هل ينظرون أو ينتظرون لكي يتخلّوا عن تلك الكبرياء الفارغة التي حملتهم علىٰ أن يصدفوا عن آيات الله، وينحرفوا عنها: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨] يكون الوقت قد مضىٰ، وأمد الاختيار في هذه الحياة قد ولّىٰ، وآنذاك: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨] مما فصّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا كان ذلك هو ما تنتظرونه أيُّها المشركون لتؤمنوا فانتظروا إنّا منتظرون معكم، لنرىٰ العاقبة السيّئة التي ستؤولون إليها، والحسنىٰ التي سيمنّ الله علينا بها. وإذ حذّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من اتباع السبل غير الصراط المستقيم، ونهىٰ عن سلوكها، منبّهاً إلىٰ أنّها ستؤدي إلىٰ تفرّقهم عن سبيل الله، وبيّن أنّ هناك أناساً سلكوا تلك السُّبل ففرّقوا دينهم، وتحولوا إلىٰ شيع وأحزاب ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، وأغرىٰ بينهم العداوة والبغضاء إلىٰ يوم القيامة، وهؤلاء لا ينبغي أن يكون بيننا وبينهم أيّ تشابه أو أيّ صلات مهما كانت قرابات النسب أو المصالح أو الجوار، إنّما أمرهم موكول إلىٰ الله، فهو -وحده- الذي يتولىٰ جزاءهم ثم ينبئهم بشناعة ما فعلوا واستحقاقهم كل أنواع العذاب بما كانوا يفعلون.

النَّجم السابع عشر: خاتمة السُّورة في تلخيص أهم موضوعات السُّورة من إثبات للرسالة والألوهيّة، ودحض سائر دعاوىٰ المشركين

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥-١٦٠].

ثم يعقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك ببيان عدله بقوله: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فلا تضاعف السيئات ولا يُزاد فيها، بل يقتصر عليها كما هي. فإذا رغب العبد في التخلص منها ومن آثارها ومن عقابها فإنّ السبيل مفتوح أمامه لذلك؛ بحيث يُعفىٰ من الجزاء بمثلها، إلا وهو سبيل «التوبة» والإنابة إلىٰ الله، واستغفاره والرجوع إليه بشروطها الواردة في آيات أخرىٰ، منها آيات «سورة النساء».

ثم يؤمر -عليه الصلاة والسلام- بأن يعلن للجميع أنّه سيد المهتدين وإمامهم: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وهذا الصراط المستقيم لم يكن بدعاً ولا خاصاً بسيدنا رسول الله ﷺ؛ بل إنّه دين قيّم، هو امتداد لملّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإبراهيم كان حنيفاً مائلاً عن كل الأديان، متنكّباً سائر السُّبل إلىٰ سبيل الهداية وهو الصراط المستقيم؛ لذلك كان صاحب دين قيّم، وكان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. وبعد الإعلان عن الالتزام بـ«الملّة الإبراهيميّة» والصراط المستقيم والدين القيّم يعلن عن إخلاصه في ذلك كلّه، إخلاصه لله -تبارك وتعالىٰ- في كل ما يأخذ ويدع، وفي بيان ما يُحلّ ويُحرّم: ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وذلك ليؤكد علىٰ القاعدة القرآنيّة والرؤية الكليّة التي أكّدت عليها كل الشرائع، فهي أساسها ودعامتها. ويؤمر أن يتساءل ويُسائل أولئك جميعاً تساؤلَ المستغرب المتعجب، الذي يريد أن يُثير التعجّب في نفس مَنْ يسمعه، فيُؤمر أن يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وكيف أفعل وهو ربّ كل شيء، ولا ربّ لأي شيء سواه، ولا إله لأيّ شيء غيره، ولا خالق ولا بارئ ولا مصوّر إلا هو.

والدعامة الأخرىٰ أنّه لا تكسب كلُّ نفس إلا عليها، فما يكتسبه الإنسان وما يفعله من خير أو شرّ فإنّه له وعليه، وذلك من عدل الله جلّ شأنه، ومن عدله كذلك إلا يحمل أحد وزر أحد: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فلا صنم ولا شفيع ولا مَنْ تتخذونه إلهاً -بضلالكم- يحمل من أوزاركم شيئاً يوم القيامة، بل سيحمل أولئك

-الذين أوهموكم أو توهمتم أنّهم سيحملون عنكم بعض أوزاركم- أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم يوم القيامة، ليُكبّوا في النار، ويراهم أولئك الذين اغترّوا بهم وانخدعوا بهم وأشركوهم بربهم؛ ليروا عاقبة الشِّرك وعاقبة أولئك الذين اتخذوهم شركاء وجعلوهم آلهة: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦٤]، سواء في مجال العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق والسلوك والمعاملات أو أي شيء آخر؛ وذلك لأنّه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]؛ ليحقق الابتلاء والاختبار، ولتترابط المنظومة التي وضعت لحياتكم من العهد حتىٰ الجزاء، فتختبرون فيما أوتيتم، وتجازون بأعمالكم، فمَنْ يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومَنْ يعمل مثقال ذرة شراً يره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فلا يذهب وهمُ أحد من أهل الشِّرك أو الظلم أو الوقوع في المحرّمات أنّه سيُفلت من عقاب الله، أو أنّ الله -تبارك وتعالىٰ- قد يغفل عنه، فهو سريع العقاب، فمثل هؤلاء لا يفلت أحد منهم من عقابه، وإنّه لغفور رحيم للذين تابوا وأنابوا واتقوا وأحسنوا، وإذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا، ويتوبون -حين يتوبون- توبة نصوحاً خالصة لله تبارك وتعالىٰ.

الدروس المستنبطة:

حينما ندرس هذه الآيات الكريمة الواردة في هذه السُّورة، ونحاول أن نتبيّن أسلوب القرآن الكريم في عرض قضايا الحلال والحرام، والأساليب التي اتخذناها فيما بعد لعرض هذه القضايا في كتب الفقه والأصول، نجد ما يلي:

أولاً: إنّ كتبنا الفقهيّة -حينما بدأ وضعها وتدوينها- التزمت بأطر موضوعيّة تعتمد -أحياناً كثيرة- علىٰ اقتطاع الآية من سياقها، أيّاً كان ذلك السياق، ووضعها في إطار موضوعي، مثل كتاب الطَّهارة وكتاب الصلاة وما إلىٰ ذلك. أمّا القرآن المجيد فإنّه يجمع دائماً بين الأشباه والنظائر في إطار من التذكير بالعقيدة، وبصفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الملائمة لما يعرض، وببيان سلامة تشريعات القرآن وقوتها ومتانتها، مع بعض الإشارات إلىٰ تشريعات المخالفين، والشوائب الكثيرة التي تشوبها انطلاقاً من الهوىٰ والرغبات وما إلىٰ ذلك، فللتشريع قواعد ودعائم يُقام عليها لا تخضع لرغبات

أفراد؛ لأنّ الشرائع تأخذ بنظر الاعتبار قواعد العدل والمساواة والعموم والشمول، فخطاب الحلال والحرام في القرآن يخاطب الإنسان في كينونته كلها، ويهيّء عقله ونفسه ووجدانه ومشاعره -كلها- لقبول التشريع القرآني والإقبال عليه، وتبنّيه بارتياح، وحسن تنفيذه وتطبيقه، مع كثير من عوامل المرونة والسعة والتخفيف والرحمة والتيسير ورفع الحرج، فتفارق آيات الأحكام آنذاك طبيعة التأليف القانونيّ والفقهيّ، وما تتّسم به من صرامة وجمود، لا يتسم القرآن المجيد به. وآنذاك تأتي فواصل الآيات لتنبّه إلىٰ أنّ ذلك الخطاب حين يُتبنّىٰ كما أنزله الله فسوف يؤدي، لا إلىٰ الخلاص الفرديّ وحده، بل إلىٰ خلاص الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والجنس البشريّ كلّه، وتمكينه -أي الجنس البشريّ- من ممارسة الحياة الدنيا بصفتها حياة طيبة، وعند المآل إلىٰ الآخرة تكون العاقبة رضىٰ الله والجنة.

ثانياً: في الخطاب التشريعي القرآني تُربط التشريعات بمآلاتها ونتائجها، فتبتعد عن الشكليّة والانشغال بصور الأعمال وهيئاتها وأشكالها عن آثارها ومآلاتها، لا في الدنيا، بل في الآخرة كذلك، والخطاب الفقهيّ في القرآن الكريم يجعل العقيدة حاضرة باستمرار في كل شيء، وفي كل شأن تشريعيّ، كما يجعل المآل -في الدنيا وفي الآخرة- ماثلاً أمام أنظار المكلّفين، فيصعب الانغماس بالشكليّة أو بالصور وتناسي أو تجاهل الحقائق والمآلات.

ثالثاً: يهتمّ الخطاب القرآني التشريعي بكليّات أساسيّة، أهمها: «التوحيد لله تعالىٰ»، و«التزكية للإنسان»، و«العمران للكون».

رابعاً: لا يفصل الخطاب التشريعيّ -في القرآن- بتلك الفواصل الحادة -التي عرفتها كتب الفقه والقانون- بين «فِقْه الفرد» و«فِقْه الجماعة» و«فِقْه الأمة»، بل يجمع بينها، بحيث يجعل كلاً منها يشدّ عضد الآخر.

خامساً: يربط الخطاب القرآني التشريعي بين التربية النفسيّة والتنشئة والحكمة في التنزيل علىٰ الواقع بمنهج متماسك، يجعل من الصعب إيجاد الفواصل بينها، كتلك الفواصل التي عرفتها الأساليب القانونيّة والفقهيّة في هذا المجال.

سادساً: الخطاب التشريعي في القرآن ينبّه القارئ المتدبّر الفقيه إلىٰ ما يمكن أن يمتدّ به عبر الزمان، بحيث يكون ما ذكره القرآن بمثابة بداية مفتوحة، تعطي للمجتهدين المتدبّرين الفرصة للبلوغ بها إلىٰ غايتها، ويمكن أن نضرب مثلاً لهذا بالتشريعات المتعلقة بقضايا الرقّ وتعدد الزوجات، وما إلىٰ ذلك مما كان في مقدور المجتهدين الامتداد به إلىٰ غايته بالاستفادة بخصائص الشريعة وما يمكن تسميته بـ«فلسفة التشريع».

سابعاً: الخطاب التشريعي في القرآن لا يقتصر علىٰ بيان تقييمه للفعل الإنساني، ووضعه في دائرة الحرام أو الواجب أو المنهي عنه أو المأمور به، لكنّه يُبيّن كثيراً من جوانب علاقته بتحقيق الحياة الطيّبة في الحياة الدنيا والعاقبة الحسنة في الدار الآخرة، مع إشارات -لا تخفىٰ علىٰ المتدبر- لما قد يُصيب أولئك الذين يخالفون أمره أو يقعون في ممارسة نواهيه، وذلك إضافة إلىٰ «مبدأ الالتزام» الذي لا يمكن أن يحققه شيء بمثل ما يفعل القرآن المجيد.

حينما ندرس الكتاب الفقهيّ نفتقد الجزء الكبير من هذه الأمور في إطار تصنيفه بالطريقة التي صنف بها. ومن ناحية يصبح البحث فيما يمكن أن نسميه «فِقْه القرآن الكريم» أمراً في غاية الأهمية لا بدّ من ممارسته وبناء أصوله وإقامة العملية التعليمية للفِقه والأصول خاصة علىٰ قواعده.

ثامناً: الكلمة أو المفردة في القرآن هي بمثابة «اصطلاح إلهي ربانيّ»، قد يمكن أن تكون مترادفة؛ لأنّ الترادف لدىٰ أهل اللغة من البشر يقوم علىٰ وجود سعة في الألفاظ ومحدوديّة في المعاني، فيترادف لفظان أو ثلاثة علىٰ معنىً واحد، وهذا أمر لا يمكن أن يُنسب إلىٰ الاستعمال الإلهيّ للمفردة؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- قد ضبط دلالات الألفاظ علىٰ المعاني، وفصّل الكتاب علىٰ علمه، وعلمهُ -جلّ شأنه- أكثر انضباطاً من أيّة لغة علميّة، فلا زائد ولا مشترك ولا مترادف ولا تورية، فالمفردة محكمة في آية محكمة وسورة محكمة وفي كتاب حكيم، والمدلول أو العائد المعرفيّ للكلمة القرآنيّة محدّد منضبط، تم إحكامه أولاً ثم تفصيله ثانياً، والإحكام والتفصيل حصلا من

لدن حكيم خبير، فليس شعراً تفرض الأوزان وضرورة الشعر فيه على الشاعر أن يُرادف ألفاظاً أو يشرّك ألفاظاً مع أخرى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩]، وعربيّة القرآن لم تنزل به إلى مستوى لغة ولهجات الأعراب والعرب، بل رفع القرآن المجيد العربيّة وشرّفها وجعلها قابلة للاستعمال الإلهي بجعل وتيسير إلهيّ منه تبارك وتعالى؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: ٥٨]، ويسّره -جلّ شأنه- حين قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]، وقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ١-٤]، وفي الجعل إشارة إلى صيرورة، فأصله محفوظ لدى الحكيم العليم سبحانه، وهو مَنْ يسّره تيسيراً، ونزّله تنزيلاً ليخاطبكم به، فإذا أراد الله الأمر بشيء فلا تتقيد صيغة الأمر بـ«افعل»، وإذا أراد تحريم شيء فلا تتقيّد صيغة التحريم بـ«لا تفعل»، وهناك فروق بين «اللمس» و«المس» و«العورة» و«السوءة» و«الفرج»، و«راعنا» و«انظرنا»، وكذلك سائر مفردات القرآن.

وهناك فرق بين «النهي» و«التحريم»؛ ولذلك نجد في هذه السُّورة الكريمة استعمال الله -تبارك وتعالى- لفظ «حرّم» في: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ لأنّ «التحريم» سلطة إلهيّة لا شريك لله فيها، فحتى رسول الله ﷺ لا يملك شيئاً منها، بل هو منفذ للأمر بالتلاوة على الناس. أمّا «النهي» ففيه مجال للاجتهاد ولمعرفة ما إذا كان نهي تحريم أو كراهية، بحسب مستوى القطعيّة والظنيّة فيه. وما عُرف بأصول الفقه نجده في الخطاب القرآني التشريعي، مضمَّناً فيه، فكثيراً ما يُشار إلى قواعد أصوليّة تسمح بالامتداد أو التكرار، سواء أكان في الزمان أو المكان أو الإنسان، أو يُشار إلى أنّ المطلوب مرة واحدة.

ولنتبين مزايا الخطاب التشريعيّ القرآني على الكتابات الفقهيّة والمدونات القانونيّة نحتاج إلى القراءة المتدبرة المتتبعة لكل آيات الكتاب الكريم، مع وقفات طويلة عند الآيات التي اشتملت على تشريعات كليّة أو جزئيّة، وكذلك الآيات التي قصّت علينا أنباء الأمم الأخرى ومخالفاتها أو موافقاتها للتشريعات التي أنزلت فيها.

والسُّورة تقدّم لنا دروساً في «حركة التاريخ والأمم»، وعلاقة ما يُعرف «بنظريّة التداول» فيها، وتبيّن ضرورة الربط بين نهوض الأمم وتراجعها، وسيادة الحضارة وأفولها بمنظومات القيم، ليس القيم الخاصّة التي تبتكرها بعض الأمم والشعوب لنفسها، بل «القيم الإنسانيّة» وترسخها هي التي تغذي نفسها بعوامل الاستمرار والبقاء، بل النموّ والدوام، وذلك مثل قيم العدل والحريّة والمساواة وتكريم الإنسان وصيانة ضرورياته وحاجياته، بل وكماليّاته، فالأمم والحضارات التي تحافظ على هذا النوع من القيم تكون قد وضعت نفسها على صراط مستقيم من «السُّنن الاجتماعيّة والكونيّة» التي تمدها على الدوام بالخلايا المجدّدة لحياتها وحيويتها وفاعليتها.

الخاتمة

وبعد، فهذه «سورة الأنعام»، السُّورة التي يمكن القول إنّها «سورة التوحيد» أو «العقيدة»، ففيها تم تفصيل أركان وقواعد التوحيد، فلو لم ينزل من القرآن المجيد -في عرض عقيدة التوحيد، وأركان الإيمان- إلا هذه السُّورة لكفت وشفت. فقد عرضت أركان «عقيدة التوحيد» إحكاماً وتفصيلاً مع التدليل والتعليل، بحيث يُدرك المؤمن حقيقة كل ركن من أركان التوحيد مع الأدلة الدالة عليه، والحكمة أو العلّة في التكليف به في إطار العقيدة، ففيها ما يمكن أن نسميه «عقلنة العقيدة». فلا تُعرض بوصفها أركاناً غير معقولة المعنىٰ، يؤمن بها المؤمن دون تدبر أو نظر في حقائقها. بل إنّ السُّورة قد تكفّلت ببيان آثار العقيدة وأركانها -إحكاماً وتفصيلاً- في حياة المكلفين العمليَّة، بحيث يتعلم المتدبر فيها كيف يمكن تحويل العقيدة إلىٰ تصوّر ورؤية ونظام حياة وخلق وسلوك يؤول إلىٰ ثقافة ملاحظة ومشاهدة.

لقد فصّلت السُّورة «عقيدة التوحيد وأدلته» بعيداً عن ذلك التجريد الجاف الذي تعرض كتب «علم الكلام والعقائد» القضايا الاعتقاديّة به، وبيّنت ما يجب علىٰ المؤمن معرفته من صفات الله -تعالىٰ- وآياته، وتولّت الردّ الحاسم علىٰ سائر الشبهات التي أثارها الكفار بالهدم، وألزمتهم الحجّة بعد الأخرىٰ بمصدر هذه العقيدة؛ القرآن المجيد، والرسول الذي تلقّاه من لدن حكيم خبير، حيث بيّنت صدقه في دعوته، وأمانته فيما بلّغه من رسالة ربّه، وحرصه علىٰ هداية الناس كافة دون تمييز، وتأييد الله -تعالىٰ- له، وعنايته -جلّ شأنه- بإقامته علىٰ الطريقة، وتحذيره الدائم المستمر لئلا يحزنه ما يقوله المشركون عنه وفيه، أو يعرض عن أولئك المقبلين عليه وعلىٰ الإيمان به -من عامة الناس وفقرائهم ومساكينهم، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه- انشغالاً بأولئك الذين يدعون أنفسهم أكابر، أو استجابة لرغبات أولئك المستكبرين الذين يرون أنفسهم عظماء، ويطلبون منه أن يبعد هؤلاء الذين يطلقون عليهم أراذل، لا لشيء إلا لأنّهم أقل منهم غنىً أو عدداً، ولا يملكون -في ظلّ قيم الجاهليّة- ما يؤهلهم للانخراط بين صفوف أولئك الذين يريدون علوّاً في الأرض، ويسمّون أنفسهم أكابر وعظماء، وهم لا يملكون من المؤهلات ما يسمح لهم بأن يسلكوا في عداد الأكابر أو العظماء.

إنّ السُّورة -بجميع آياتها- اتجهت نحو «العقيدة وأركانها»، فدارت آياتها كلّها في ذلك، وحين تناولت قصة سيدنا إبراهيم حصرت اهتمامها في بحثه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن التوحيد والإيمان بدليله، ليوجّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض، ليكون حنيفاً مسلماً بعيداً عن الشِّرك وملّته، وكيف آتاه الله الحجّة علىٰ قومه المشركين من أهل الأوثان، بتوفيقه له لتلك الحجّة البالغة التي جمع فيها عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين القراءتين، ليقدم لنا منهجاً في الجمع بين القراءتين في إطار البحث عن العقيدة، فهو يبحث عن الكون ثم يتجه إلىٰ الخالق الذي خلقه؛ ليعينه في بحثه، ويسأله ليسدد خطاه ويوصله إلىٰ النتيجة المطلوبة، وذكر -سبحانه- فيها أسماء الأنبياء من ذريته وذرية نوح دون ذكر قصصهم، بل اكتفىٰ -جلّ شأنه- ببيان أنّهم كانوا علىٰ الهدىٰ، وأنّ علىٰ رسول الله ﷺ أن يهتدي بهداهم؛ لأنّه لم يكن بِدَعاً من الرُّسل، لكنّه حين ذكر سيدنا موسىٰ ذكر الكتاب الذي أنزله عليه نوراً وهدىً للناس، وكيف جعله قومه قراطيس يُبدون بعضها ويخفون أكثرها؛ ليُبيّن مدىٰ انحراف قوم موسىٰ عن رسالته وشريعته، وفيها تنبيه لأُمّة محمد ﷺ لئلا تسلك مثل سبيلهم، فتُجزّئ القرآن وتجعله عضين، مثل أعضاء جسد منفصلة عنه، كما أنّ ذِكر مَنْ ذُكر في السُّورة من النبيين جاء في إطار تفصيل لضرورة إيمان المؤمنين كافة بسائر النبيين والمرسلين، سواء في ذلك مَنْ قصّ الله -سبحانه- علينا قصصهم ومَنْ لم يقصص علينا قصصهم.

وكل ذلك قد فصّلته هذه السُّورة الكريمة تماماً بأسلوب قرآني بليغ، جامع بين قدرات الإقناع وطاقات التأثير. نجد فيها صفات الله مبيّنة مشروحة بذكر أفعاله جلّ شأنه، وبيان سننه في الخلق والتكوين والتقدير والتدبير، وعرض آياته في النفس والآفاق، بعيداً عن كل ما يُثير الجدل أوآثاره -فيما عُرف بعلم الكلام- حول التّشابه والتشبيه والتعطيل والتأويل، وما إلىٰ ذلك مما تنزّه القرآن عنه. ولو أنّ كليّات أصول الدين والمدارس الإسلاميّة المعنيّة بتدريس العقائد درّست -بدلاً من تلك الكتب الجوفاء التي كثيراً ما تُثير الشبهات- هذه السُّورة لتعليم التوحيد والعقيدة، وطبائع الاجتماع، وملكات الأخلاق، لكان خيراً للإسلام والمسلمين، وأكثر توفيقاً؛ ولتبين للدارسين كيف تؤثر العقائد في الأعمال، وما يترتب عليها في الدارين من الجزاء،

وكيف يُورد القرآن حقائق الاعتقاد، ويُستدعىٰ مَنْ يريد المناظرة أو الجدال أو البحث عن الحقيقة أو الفهم للقيام بذلك؛ ولكن بأسلوب القرآن الجامع بين إقناع العقول والتأثير في القلوب، واستثارة الوجدان، وإنعاش الفطرة وتهيئتها للاتصال بالقرآن؛ ليقترن اليقين بالإيمان مع حب التعظيم لله -تعالىٰ- والخشوع والإخبات لجنابه، والخوف والرجاء منه.

والقرآن -وهو يجادل عن عقيدة التوحيد- يذكر شبهات المشركين والكفار ومَنْ إليهم، فيردّها، ويُظهر عوارها، ويطهّر القلب والنفس والوجدان منها، ويبرز ما فيها من قبح وتهافت وبطلان، ويقيم الدليل والحجّة علىٰ أصحابها، ويعمل علىٰ استنطاقهم، وتوجيه الأسئلة التقريريّة لهم؛ ليقروا بأنفسهم ببطلانها وتهافتها، وتذكيرهم بأنّ سبب إعراضهم عن عقيدة التوحيد -كما جاء القرآن بها- ليس لخلل فيها ولا لعيب اكتشفوه فيها، بل لفساد أنظارهم، واتباعهم أباءهم وتقليدهم، وأنّ ذلك سوف يؤدي بهم إلىٰ أبشع مصير. وقد يعرض لهم بعض مشاهد القيامة، وهم يُبدون الندم حيث لا ينفع الندم، ويظهرون الحسرة حيث لا ينفعهم شيء، ولا يوقفوا من عجلة اتجاههم نحو النار والسقوط فيها، فلن ينفعهم كذبهم وهم يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]، ولن ينفعهم نحو قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، ولن يُغير من مصائرهم ذلك، وكانت لديهم الفرص الكاملة لذلك كله، فهم كانوا صُمّاً وعُمياً وبُكماً في الظلمات، يدعون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

وهؤلاء قد كانوا عاهدوا الله من قبل: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩]، لكنّهم، حين جاءتهم الآية، ونزل فيهم الكتاب، وجاءهم رسول من أنفسهم، لبث فيهم عمراً من قبله، لم يلحظوا عليه ما يريب؛ لا في جاهليّة ولا إسلام، ومع ذلك، ومع قسمهم بأنّه لو جاءتهم آية كما جاءت الأولين ليؤمنن بها، فلم يؤمنوا، ولم يكونوا أهدىٰ ممن سبقهم؛ بل كانوا أعتىٰ وأضلّ سبيلاً. وظلوا في طغيانهم وعنادهم يعمهون، وماذا عليهم لو صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وآمنوا بالله رباً، وآمنوا به إلهاً، ووحّدوه في ربوبيّته، وفي ألوهيّته، والتفتوا إلىٰ كل تلك الآيات والبراهين التي

ساقها القرآن، إنّهم قد أشركوا في الألوهيّة ولم يجادلوا كثيراً في الربوبيّة، لكن التوحيد لا يمكن إلا أن يكون كاملاً، فلا يكون هناك شرك أو إشراك؛ لا في الألوهيّة ولا في الربوبيّة، فلا يُغني التوحيد في الربوبيّة عن التوحيد في الألوهيّة ولا عكس.

ولقد بيّنت هذه السُّورة ذلك بجلاء، وتناولت الإيمان والتوحيد والشِّرك والشفاعة الربوبيّة والألوهيّة والجزاء، وسبل نجاة الناس وخلاصهم، وأمنهم وسعادتهم أو شقاءهم، وأنّ ذلك كلّه إنّما يكون بأعمالهم. ولمزيد من التوضيح لهؤلاء العرب الذين كانوا يزعمون أنّهم على ملّة إبراهيم؛ ذكر لهم إبراهيم ومجادلته لقومه الذين كان شركهم مغايراً بعض الشيء عن شرك عرب الجاهليّة، فقد كانوا يعبدون الكواكب، ويصوّرون لكل كوكب صنماً، كأنّه تجسيد لذلك الكوكب أو نائب أرضيّ عنه؛ فيعبدونه، مسوّغين لأنفسهم تلك العبادة بشتى المسوغات، ولا شيء يسوغ الشّرك بالله، أو يقلل من خطورته على عقليّة الإنسان ونفسيّته وقلبه وفطرته ورؤيته ووجهته.

ثم تعرّضت السُّورة إلى الرّكن الثاني من أركان العقيدة، ألا وهو حجج الوحي والرسالة التي كانوا يحاولون طمسها، ويستكثرون أن يوحي الله لرجل منهم من دونهم، فهناك أدلّة ساقها الله -تبارك وتعالى- على الوحي وعلى نزول القرآن -بالذات- على سيدنا محمد ﷺ؛ إذ ساق أدلتها وحججها مع أدلة التوحيد، فجمع في تلك الأدلة والحجج بين الاحتجاج للتوحيد والاستدلال عليه، وبين الاحتجاج لصدق محمد في رسالته ﷺ وصدقه فيما ذكر من أنّه يوحى إليه، وصدقه -صلوات الله وسلامه عليه- في نزول القرآن عليه؛ بل تحديه لهم ولسواهم بذلك القرآن، ثم ساق الأدلة على صدقه وصدق مَنْ سبقه من الرسل، وذكر أهم الرُّسل والنبيين من ذريّة نوح وذريّة إبراهيم، مبيناً أنّ هذا الوحي الإلهي هو مِنْ أَمرِ ربي، وهو لطف ورحمة منه بعباده، لا ينبغي أن يُنفى أو يُستبعد، فالأدلة عليه كثيرة، حفلت السُّورة ببيان الكثير منها، وبيّنت معنى الرسالة، وموضوع الوحي، والأدلة عليه، ووظائف أولئك الرُّسل، وردّ الشبهات التي تشدّق بها هؤلاء، وبيّن أنّ الرسول بشر مثلهم، ويغلب أن يختاره الله من بين قومه، ويعصمه من أن يعصي الله ما أمره، أو يخون بتبليغ ما أرسل به، أو يضيف إليه أو يحذف منه، والعلم الذي يمنّ الله به على رسله علم

موحىٰ منه -جلّ شأنه- لطفاً منه، وتفضّلاً غير مكتسب؛ ولذلك فإنّ النبيّ لا يُرشّح نفسه، ولا يدري قبل النبوّة أنّ الله قد اصطفاه، ولا يسعىٰ لذلك، بل يصطفيه الله اصطفاء، فيُوحي إليه ما يشاء، بواحد من الطرق التي ذكرها الله -جلّ شأنه- في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورىٰ: ٥١]، ومهمته تعليم الناس ما يأمره الله بتعليمهم إيّاه؛ ليهتدوا وليميزوا بين الخير والشر، وتلاوة ما يُوحىٰ إليه عليهم، وتزكيتهم به، وبيان ما قد يختلفون فيه، ويعمل الرُّسل علىٰ هداية أقوامهم بذلك، وأنّ محمداً ﷺ خاتم النبيّين والمرسلين، جاءهم وبعثه الله إلىٰ الناس كافة بالحق من عند الله، وببصائر يُبْصرها مَنْ هداه الله، وأنّ هذا القرآن كلمة الله؛ قد تمّت صدقاً وعدلاً، وأنّ ما جاء به إنّما جاء به لا من عند نفسه، بل كان علىٰ بيّنة من ربه، وجاءهم بما يهدي للتي هي أقوم، وأنّ ما جاءهم به هو الدّين القيّم، والصراط المستقيم، وأنّ رسول الله ﷺ هو أول المسلمين والمهتدين والمتبعين لما جاء في هذا الوحي، فلن يخالفهم إلىٰ ما كان ينهاهم عنه، وظلّ يؤكد عليهم ذلك ليعلموا أنّ هذا الكتاب منزّل من ربه بالحق، وأنّ الله يقصّ الحق وهو خير الفاصلين، وأنَّ المكذّب به إنّما يكذب بالحق، وهذه البصائر لهم مطلق الحريّة بأن يستفيدوا بها أو يعموا عنها، فمَنْ أبصر هذه البصائر واهتدىٰ بها فلنفسه، ومَنْ عمي فعليها، وهذه البصائر تؤدي إلىٰ معرفة يقينيّة؛ قائمة علىٰ حجج نقليّة وعقليّة وعلميّة، تؤدي إلىٰ الرحمة والهداية والتقوىٰ، فهو مبارك، جامع لأسباب الهداية الدائمة، هدىٰ الله رسوله به إلىٰ صراط مستقيم؛ ديناً قيّماً، وهو يريد أن يهديكم إليه، ويشارككم هذه البصائر، ويجعلكم قادرين علىٰ إدراكها. وهذا الكتاب صدق كلّه وحق كلّه في أخباره وحكمته، وعدل في أحكامه، فماذا تريدون أيّها المشركون؟ وأين تذهبون معرضين عن هداية هذا الكتاب الذي نزل بالحق والصدق والعدل والقيم، والذي يهدي للتي هي أقوم، ويبين لكم كل ما أنتم بحاجة إلىٰ معرفته، يحمله إليكم واحدٌ منكم، كلكم متفقون علىٰ أنّه أكملكم عقلاً، وأحدّكم نظراً، وفهماً وفضلاً، ليس بجبّار ولا مسيطر ولا متعنّت، رؤوف بكم رحيم، عزيز عليه ما عنتّم،

حريص عليكم، يريد هدايتكم وإبعادكم عن الضلالة، والأخذ بحجزكم عن النار، هو مبشّر ومنذر، لكنّه لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً؛ إذ إنّ الضرّ والنفع محصوران في الله جلّ شأنه، ولا يملك لكم موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا يعلم الغيب؛ إذ لا يعلم الغيب إلا الله، وما هو بملك، ولن يستطيع أن يستجيب لكل ما تطلبونه منه، فأنتم تريدون منه ما هو فوق طاقته، وأكثر من قدرته؛ لأنّه ما هو إلا بشر مثلكم، فيما عدا اصطفاء الله له؛ لحمل الرسالة وأداء الأمانة، والنصح لكم وللبشريّة جمعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

سُورَةُ طه

هي سورة مكيَّة.

عدد آياتها: مائة وخمس وثلاثون.

وعدد كلماتها: ألف وثلاثمائة وإحدىٰ وأربعون.

وعدد حروفها: خمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون.

قيل: إنَّ هذه السُّورة نزلت بعد أن قام رسول الله ﷺ اللّيل حتّىٰ تورّمت قدماه.(١) ولذلك قال سعيد بن جبير -فيما نقله عنه بعض المفسّرين-: إنّ السُّورة افتتحت باسمه "الطّيب الطَّاهر الهاديُّ"، مرجّحاً أنّ "طه" اسم من أسمائه ﷺ، (٢) وقد يرجّح ذلك أنّها لم ترد بصيغة الأحرف المقطعة لا كتابة ولا قراءة، فلم ترد "طاء هاء" ولم توصل فيما بعدها، بل وردت كأنّها نداء لمنادىٰ ذلك اسمه، وذهب بعضهم إلىٰ أنّها "حرفان من حروف الهجاء"ط-ه"، فهي مثل: "ألم، وحم، وطس" ونحوها. وقال بعضهم: إنّ "الطّاء" من الطُّهر، أراد -جلَّ شأنه- أن يقول له: "يا طاهراً أو يا مطهّراً" من الذّنوب، و"الهاء" من الهداية أي: يا هادياً إلىٰ علّام الغيوب."(٣) ومهما قيل فيها فإنّ السّياق يشبه أنّها نداء لرسول الله ﷺ وخطاب له لتنبيهه إلىٰ ما يأتي بعد، وقد يرجّح ذلك ما نقلناه عن سعيد بن جبير آنفاً، أنّها اسم من أسماء رسول الله ﷺ وسلطانه، بوصفه اسماً مقترناً بنفي صفة الشَّقاء عن رسول الله ﷺ بهذا القرآن الذي يستحيل أن يكون مصدر شقاء له وما ينبغي له وما يستطيع أحد أن يجعله كذلك.

---

(١) الزيلعي، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد (توفي: ٧٦٢هـ). **تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري**، الرياض: دار ابن خزيمة، ط١، ١٤١٤هـ، ج٢، ص٣٤٨.

(٢) الرازي، **مفاتيح الغيب "التفسير الكبير"**، مرجع سابق، ج٢٢، ص٣.

(٣) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (توفي: ١٣٩٣هـ). **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م، ج٤، ص٤٠٠.

التّناسب بين سورة طه وسورة مريم التي سبقتها:

خُتمت "سورة مريم" بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: ٩٧-٩٨]، فذكرت تيسير القرآن بلسان رسول الله ﷺ ليبشر به المتّقين وينذر به ذوي اللدد والخصومة من الكفار والمشركين ومن إليهم، وتؤكد علىٰ إهلاك المعاندين الذين يصرّون علىٰ جحودهم وجمودهم، بحيث لم يعد أحد منهم يمكن أن يحس أو يسمع له صوت، ثمّ تأتي سورة طه لتنفي عن رسول الله ﷺ الشّقاء به. فهذا الرّبط الدّقيق بين السّور نكاد نلمسه بينها جميعاً، فكل منها تتصل بما قبلها، وتؤدي إلىٰ ما بعدها بشكل في غاية الدّقة والقوة.

عمود السّورة:

عمود هذه السورة هو ارتباط السّعادة والشّقاء بالذّكر المنزل علىٰ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فمن أراد السّعادة فعليه بهذا الذّكر يؤمن به ويتبعه، ومن أعرض عنه فهو الشّقيُّ، الذي يكون نصيبه المعيشة الضّنك، ويحشر يوم القيامة أعمىٰ.

النَّجم الأول:

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ١-٨].

﴿طه ﴿١﴾﴾ [طه: ١] اسم من أسماء رسول الله ﷺ الطّيب الطّاهر الرّؤوف الرّحيم بالمؤمنين، وهذا ما رجّحناه فيما تقدم.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ [طه: ٢] يُطلق العرب الشّقاء علىٰ التّعب، وأحياناً يقولون: "سيد القوم أشقاهم"(١) أي أشدّهم تعباً في مصالحهم، وقيل: إنَّ

(١) ابن الأزرق، أبو عبد الله شمس الدين محمد (توفي: ٨٩٦هـ). **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق: علي سامي النشار، القاهرة: دار السلام للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٨م، ج١، ص٤٦١.

وفداً من زعماء قريش زار رسول الله ﷺ طمعاً منهم في فتنة رسول الله ﷺ عن دعوته، فقالوا له: يا مُحمد لقد أشقيت نفسك فيها، أنت فقير لا تملك ما يكفي لمن تُعيلهم من أهلك وبني عمّك، وأشقيت قومك بتفريق كلمتهم وتسفيه آرائهم وسبّ آبائهم، أمَا كان الأجدر بك أن تنأىٰ بنفسك عن هذا الشّقاء؟ وتسعد بأن تكون أغنىٰ قريش، تجمع لك من كرائم أموالها ما يجعلك أغناها، وتتزوج من شئت من نسائها، وتسود علىٰ قومك فلا يقطعون أمراً دونك، وتجنّب قومك ما هم فيه من فرقة واختلاف، (١) فإن صحّ ذلك فتكون الآية نزلت في سياق نفي الشّقاء الذي نسبوه إلىٰ

(١) عن محمد بن كعب، قال: "حدثت أن عتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً، قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش، ألا أقوم إلىٰ هذا فأكلّمه أموراً لعله أن يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة بن عبد المطلب، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلىٰ يا أبا الوليد، فقم فكلّمه، فقام عتبةُ حتىٰ جلس إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة -المكانة- في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضىٰ من آبائهم، فاستمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك أن تقبل منها بعضها، فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، فقال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد شرفاً شرفناك علينا حتىٰ لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه ولا تستطيع أن ترده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتىٰ نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع علىٰ الرجل حتىٰ يداوىٰ منه، ولعل هذا الذي يأتي به شعر جاش به صدرك، فإنكم لعمري يا بني عبد المطلب تقدرون منه علىٰ ما لا يقدر عليه أحد، حتىٰ إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال رسول الله ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاستمع مني، قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [فصلت: ١-٣] فمضىٰ رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت له وألقىٰ بيده خلف ظهره معتمداً عليها يستمع منه، حتىٰ انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ السجدة فسجد فيها، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلىٰ أصحابه، فقال بعضهم لبعض يحلف بالله: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت لمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، كنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، فقال: هذا رأي لكم فاصنعوا ما بدا لكم"، انظر:

- ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (توفي: ١٥١هـ). **سيرة ابن إسحاق**، تحقيق: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٧٨م، ص٢٠٨.

رسول الله ﷺ عنه، وفيه اتّهام ضمنيّ لهم بأنّه إذا كان هناك من شقي بدعوة رسول الله ﷺ فإنّهم المشركون الذين اختاروا رفض الدّعوة والصَّدَّ عن سبيل الله، وإيذاء رسول الله ﷺ، وإذا كان هناك من يستحق الشّفقة فهم من المشركين ومنهم ذلك الوفد؛ ولذلك فإنّ رسول الله ﷺ كان يحزنه ذلك حتىٰ قال الله -جلَّ شأنه-: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]، وقال -جلَّ شأنه-: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء: ٣-٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: ٨]، فإذا كان هناك ما يحزنه فإنَّه ذلك الخسران المبين لقومه، الذين جاءهم بخيري الدّنيا والآخرة فرفضوه واستكبروا وصدوا عن سبيل الله.

لقد حمل لهم هذا القرآن، وكان المفروض أن يستقبلوه بما يليق به، فالله -جلَّ شأنه- قال: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤]، فكان مما يحزن الرّسول النّبي ﷺ أن يتنكّر قومه لهذه النّعمة ويستهينوا بها، وفيها ذكرهم وشرفهم، وهدايتهم وإخراجهم من الظّلمات إلىٰ النّور أيضاً.

أمَّا رسول الله ﷺ فقد كان أسعد الخلق بنزول القرآن المجيد علىٰ قلبه، فكيف يشقىٰ بكتاب وضع حداً لحيرته، وأجاب عن جميع أسئلته وما كان يدور في ذهنه، فقد وجده ضالاً فهداه الله وشرح صدره به، ورفع له به ذكره، وبه وضع عنه وزره، وحين وجده الله عائلاً أغناه من فضله عن قريش وغيرها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحىٰ: ١-١١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ [الشرح: ١-٨].

فالقرآن نزل علىٰ قلبه ﷺ ليسعده ويسعد البشريَّة كلّها بما فيه من نور وهداية وموعظة وبصائر.

﴿ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ ﴾ [طه: ٣] قال -جلَّ شأنه-: ﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ﴾ [الأعلى: ٩-١١]، وقال -تبارك وتعالىٰ-: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ ﴾ [عبس: ١١-١٤].

ففي الآية (١١) من سورة الأعلىٰ بيّن -سبحانه- أنَّ الأشقىٰ ليس من أُنزل القرآن علىٰ قلبه ليكون للعالمين نذيراً، بل الأشقىٰ الذي يُعرِض عن هذه التّذكرة ويتجنبها ويستكبر عن آيات ربه، قال تعالىٰ: ﴿ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝٥١ ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، أولئك هم أهل الشّقاء، وقال تعالىٰ: ﴿ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ ﴾ [الليل: ١٤-١٦]، فهذا القرآن تذكرة لمن يخشىٰ الله ويتقيه، فلن يشقىٰ به إلّا من يعرض عنه ويكفر به ويصد النّاس عنه. والخشية خوف مشوب بالتّعظيم والإجلال، وأكثر ما تكون الخشية عندما تكون قائمة علىٰ علم صاحبها بمن يخشاه وما يخشاه منه، ولذلك خُص العلماء بها في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ ﴾ [عبس: ٨-٩]، وقال: ﴿ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ ﴾ [يس: ١١]. واعتبر أنّ من يستحق أن يُخشىٰ منه هو الله وحده في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ۝٣٩ ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وندد سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ بقوم يخشون النّاس كخشية الله أو أشد خشية، وخاطب عباده جميعاً بقوله: ﴿ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي ﴾ [البقرة: ١٥٠] فهو شعور سام يمتزج فيه الإحساس بعظمة من تجب خشيته وحبه ورجاء الخير منه ودفع الضّر وخشيته كخشية الله، وبذلك تصبح الخشية أداة تعليمية وتربويّة، فهي تهيئ قوىٰ الوعي الإنساني للانفعال بما تخاطب به، وفي الوقت نفسه تجعل ذلك الانفعال إيجابياً يمكن الاستفادة به تعليمياً وتربوياً، يقول جلَّ شأنه: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الزمر: ٢٣]. فهل نستطيع أن نطالب الدُّعاة والمربين أن يستخدموا هذا المدخل لتهيئة قوىٰ الوعي لقبول الدَّعوة والانفعال بها قبل توجيه الخطاب؟ إنَّ جملة الآيات تنبه إلىٰ ذلك، وفي القرآن الكريم وسائل عديدة لإيجاد هذه الخشية وجعل الإنسان قادرا علىٰ أن يسلك في عداد الذين هم من خشية ربهم مشفقون.

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ﴾ [طه: ٤] يردّ -جلّ شأنه- على هؤلاء المشركين وحلفائهم فريتَهم التي لا يملّون ترديدها: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ [الفرقان: ٤-٥]، فيؤكد القرآن أنّ هُويَّته الحقيقيَّة في أنَّه كتاب الله وكلماته أنزلها على رسوله ومصطفاه وخيرَته من خلقه تنزيلاً، وأنّ هذا القرآن ما كان حديثاً يفترى، ولا يمكن لأحد أن يأتي به إلا الله الواحد الأحد، ذو القدرة المطلقة، التي لا تحدّها حدود، ولا تقيدها قيود، فهو منزل تنزيلاً من الذي خلق الأرض والسّموات العلى، وليس في مقدور أحد غيره -جلَّ شأنه- أن ينزل هذا الكتاب على قلب نبيّه ﷺ ولو أنّ الخلق -كلّهم- اجتمعوا على ذلك لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فالله الواحد الأحد وحده القادر على النّطق بكلماته وإتمامها صدقاً وعدلاً بحيث يستحيل أن تبدل كلماته أو تغيّر أو يصاغ مثلها.

وفي ذكره -جلَّ شأنه- لخلق الأرض والسّماوات العلى، تنبيه لعقولهم الكليلة التي سلّمت بأنّ الله خلق الأرض والسّماوات العلى، ولم تستطع هذه العقول أن ترقى إلى مستوى الإيمان بأنّ هذا القرآن كلام الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٧]، وحين ادّعى بعض المشركين أنّ الشّياطين أنزلته على الرّسول النّبي الأميّ؛ ولذلك فهم عاجزون عن الإتيان بمثله، يردّ الله عليهم فريتهم هذه -أيضاً- فيقول -جلَّ شأنه-: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، وهكذا يدافع القرآن المجيد عن قلب المتلقي الذي نزل عليه ليبيّن هُويَّته وسلامتها وصدق متلقيه ﷺ، والقادر على خلق الأرض والسّماوات العلى قادر لا محالة على تنزيل القرآن على قلب الرّسول الكريم ﷺ فأين تذهبون، أفلا تعقلون، إنّكم أيّها الضّالون المكذبون تعيشون على الأرض حياتكم كلّها، ولا تنكرون أنّكم منها خلقتم وفيها بعد موتكم تقبرون، ومنها يوم القيامة تخرجون، والسّماوات العُلى بها تستظلون، وأنتم لا تستطيعون بلوغها أو الوصول إليها، وقد جعلناها لأرضكم سقفاً محفوظاً، وسخّرنا لكم فيها أموراً تتجاوز كل طاقاتكم وقدراتكم، فسخرنا لكم

الشّمس والقمر دائبين، وسخرنا لكم اللّيل والنّهار، فإذا كانت لكم مَسْكَة من عقول، وتفكرتم في بعض ذلك فإنَّكم تستطيعون -آنذاك- أن تدركوا أنَّ رسول الله ﷺ قد جاءكم بالصّدق وصدق به، وأنّ هذا القرآن ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، إذن.. أدركوا أنَّه قرآن عظيم، نازل من الرّحمن الرّحيم، على قلب نبيّه ورسوله وخيرته من خلقه ﷺ ليكون تذكرة لمن يخشى، وبشيراً ونذيراً يتلوه على النّاس، ويعلمهم منهج اتباعه، رسول كريم بشير ونذير، بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وبعد أن لفت أنظارهم إلى المسلَّم لديهم والمحسوس عندهم من ظواهر الأرض والسّماوات العلى، نبّههم إلى عالم غيبيّ غير محسوس، ليوفر لهم أدلة حسيّة وأخرى ليست حسيّة، لعلّهم يتفكرون، فالأرض والسّماوات العلى تتصل بدليل العناية الإلهيّة بالإنسان؛ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] فهذا مظهر من مظاهر الهيمنة على الغيب، وغير المحسوس كذلك؛ ولذلك فإنه يفترض فيمن يسمع ذلك كلّه وينظر في دلالات ما ذكر الله -تعالى- أن لا يبقى في صدره شيء من الشّك بأنّ القرآن يستحيل أن يكون مصدر شقاء، ويستحيل أن ينسب إلى أحد غيره -تعالى- فهو عالم الغيب والشّهادة المهيمن عليهما جميعاً بكل ما فيهما.

وذِكْر "**الاستواء على العرش**" فيه تحدّ لِقِوى الوعي الإنسانيّ مباشرة، فالله -تبارك وتعالى- ليس كمثله شيء، وحين يذكر شيئاً كالعرش والاستواء عليه، فإن الإنسان مهما فكّر وقدّر فلن يستطيع أن يصل إلى تصور حقيقيّ له، فيضطره أخيراً إلى أن يرجع بعقله وقلبه وقوى وعيه خاسئاً خائباً ليدرك ضآلة عقله، وقلّة علمه، وقصور أدواته، واضطراره إلى أن يبحث عن العلم والمعرفة عند من أحاط بكل شيء علماً، وهو الله -سبحانه-، وهذه الآية ليست من المتشابهات بمعنى الغامضات أو المبهمات، بل هي آيات معلومة ظواهرها، لكن ظواهرها المعلومة للإنسان بوسائله اللغويّة والأداتيّة المحدودة لا تقبل في حق الباري -سبحانه- إلّا بمعانيها التي استأثر بها؛ ولذلك حين سأل سائل الإمام مالكاً عن معنى استواء الرَّحمن على العرش؟ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقولته الشّهيرة: "الاستواء معلومٌ والكيفُ مجهولٌ والإيمان به واجب والسّؤال عنه بدعة."(١)

(١) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (توفي: ٥٤٨هـ). **الملل والنحل**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٩٧٥م، ج١، ص٩٣.

فالاستواء مفهوم لغويّ متداول يعلمه الإنسان من اللغة، لكنّ كيفيّة الاستواء مما استأثر الله -تعالىٰ- بعلمه؛ ولذلك فإنّ السّؤال تزيُّد لا يليق بمؤمن أن يسمح لفضوله بأن يجرّه إلىٰ البحث عنه؛ لأنّه لن يعود عليه بطائل، ويكفيه أن يؤمن بالقدرة المطلقة لخالقه -جلَّ شأنه- وأنّه لا شيء يمكن أن يخرج من دائرة هذه القدرة المطلقة، وإذا قاس الإنسان ما يجهل فيما حوله إلىٰ ما يعلم، فسيدرك أنّ العلم الذي أوتيه قليل؛ لأنّه يحتاج إلىٰ علم يستطيع العمل به أو الاستفادة به في شؤونه الدنيويّة أو الأخرويّة.

وفي السِّياق الذي معنا -للتعريف بمن خلق الأرض والسّماوات العلىٰ-؛ فإنَّه -جلَّ شأنه- صرح بمن خلق الأرض والسّماوات العلىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ٥] وأضاف -سبحانه- إليها قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ليقدم شيئاً غيبيّاً مجهولة حقيقته للإنسان، ألا وهو العرش الذي قد يكون خلقه أعظم من الأرض والسّماوات وأوسع، ومع ذلك فهو لا يخرج عن قهر الله -تعالىٰ- وجبروته، فالقادر علىٰ خلق ذلك كلّه وإيجاده والهيمنة عليه قادر علىٰ أن ينزل هذا القرآن علىٰ قلب نبيّه فيسعد به، وتسعد البشريّة كلّها بهدايته. وما دام الأمر كذلك، فإذن ليس لأحد أن يقول في هذه الآية وأمثالها إنها آيات متشابهات بمعنىٰ غامضات غير بيّنات لعدم وضوح معنىٰ الاستواء، لأنَّ الحقائق التي استأثر الله بعلمها ليست دليل تشابه، وإنّما هي في إطار قوله تعالىٰ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورىٰ: ١١] وأنَّ الإنسان ما أوتي من العلم إلّا القليل وما فاته منه فهو الأكثر، فليتق الله وليعرف حدوده.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه: ٦].

بعد أن بيّن -جلَّ شأنه- عظمته وقدرته المطلقة وهو يذكر لنبيّه وللنّاس كافَّة خَلْقَه للأرض وللسّماوات العُلىٰ وللعرش، واستواءه عليه بعد خلق ذلك كلّه، تبرز صفة قيوميّته -جلَّ وعلا- فهذا الخلق والملك لو أهمله -سبحانه- لجزء من اللحظة لانهار وسقط، لكنّه -جلَّ شأنه-: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فإنَّ عادة ملوك الأرض -حين يستوون علىٰ عروشهم

بعد الاستيلاء عليها- ينامون ويغفلون، أمّا الله الرّحمن الرّحيم فإنّه حيّ قيّوم لا يغفل عن خلقه وملكه لألوهيَّته وربوبيَّته، وفي هذه الآية رد على أولئك الذين يزعمون أنّه -سبحانه- لا ينشغل بتفاصيل الخلق ولا بالأمور الجزئيّة، فكأنَّه خلق السّماوات والأرض ولكن ما فيهما وما بينهما تفاصيل لا يلتفت إليها، وهو قول بعض ملاحدة الفلاسفة، لكن ما أكده القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

فالآية تبيِّن أنَّه -جلَّ شأنه-: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [طه: ٦]، وما دامت مخلوقة مملوكة له فهي جزءٌ من خلقه، وهو -سبحانه- قيّوم بذلك كلّه، وفي عهد التّنزيل لم يكن النّاس يرون أنَّ باطن الأرض يمكن أن يختزن شيئاً أكثر من المياه التي تظهر عند حفر الآبار، أمَّا البترول والمعادن وكنوز الأرض الأخرى فلم تكن معروفة؛ ولذلك انصرف المفسّرون إلى تفسير ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [طه: ٦] بالحوت أو الثّور أو غيرهما من الحيوانات التي كانت الإسرائيليَّات تروِّج للقول بأنَّها تحمل الأرض، وأنّ كلاً منها يحمل الأرض لمدة عام ثمّ يستريح ليحملها سواه، ولو أنّ الأمّة التزمت بما التزم به رسول الله ﷺ وجيل التّلقي من الجمع بين القراءتين، لربما اكتشفت الأمّة ما تحت الثّرى من وقت بعيد، وأسّست الحضارة المنشودة عليها؛ فالحضارات قد تنقدح أفكار تأسيسها وبنائها من النّظر في ما تركته حضارات سادت ثمّ بادت في باطن الأرض، فتكشف عنه حفريَّات تلفت النّظر، وتوجد حوافز لبناء حضاريّ جديد ينافس ما اندثر، أو ارتياد الفضاءات وما يبثه في النّفوس من حوافز للتّأسيس الحضاريّ. ففي السّماء خزائن: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١]، وتحت الثّرى خزائن من نوع آخر: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٣٠].

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، حين قال الله -سبحانه- لرسوله ﷺ: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه: ٣] فقد يتبادر إلى الأذهان أنَّ "التّذكرة" لا تكون إلّا جهراً وبصوت مرتفع، فتأتي هذه الآية لتوضح أنّ الجهر بالقول -وحده- لا يكفي فيها، بل لا بد من الإخلاص في التّذكرة، وصدق النِّيَّة فيها، والدُّعاء، فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يشكو قومه إلى ربه -سبحانه-: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ

دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٥-٩]، فإن تجهر يا مُحمد بما أمرتك أن تبلّغ النّاس به، فليس ذلك لتُسْمِعني فأنا أسمع وأرىٰ.

فالجهر بالقول أن تُسمع من تريد ويريد أن يسمع، و"السّر أو الإسرار" أن تخص من تختار لتضع في أذنه سرك الذي لا تريد إشاعته لغير الشّخص المعنيّ، أمّا ما هو أخفىٰ من السّر فهو "خواطر القلب"، أو ما يُزَوِّره الإنسان في نفسه؛ وقد أشار -سبحانه- إليه بقوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك: ١٣]، فجمع الثّلاثة: الجهر والسّر وما هو أخفىٰ من السّر من مكنونات النّفس قبل أن تصير كلاماً، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، فوسوسة النّفس وذات الصّدور أخفىٰ من السّر، إذن: هناك جهر وسر وما هو أخفىٰ من السّر، وكلّه معلوم له -سبحانه-، بل إنّه -جلّ شأنه- يعلم ما سيكون في النّفس قبل أن يكون فيها: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وبعد ذلك قاد السّياق الحكيم إلىٰ عنوان الدّعوة وخلاصتها، وهي التي مثلت خلاصة ولباب دعوات النّبيّين والمرسلين كافّة، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٨]، فهذه الكلمة هي منطلق الإيمان، وإليها مآله، وخير ما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والنّبيّون من قبله "لا إله إلّا الله" فهو -وحده- صاحب الرّساله، وهو -وحده- من ألقىٰ عليك القول الثّقيل، وهو -وحده- من يعينك علىٰ تحمل أعباء الدّعوة إليه، وهو -وحده- الذي يعلم حاجتك الشّديدة إلىٰ عونه، فقد حُمّلت مثل ما حُمّل المرسلون كافّة وزيادة؛ ولذلك فإنّه سيكون معك، ولن يتخلىٰ عنك لحظة أو يودّعك أو يقليك، فأنت خاتم النّبيّين، وأنت من ائتمنك الله علىٰ الرّسالة كلّها، وإذا كان من سبقك من إخوانك الأنبياء والمرسلين كُلِّف كل منهم بهداية قوم أو قبيل أو قرية أو أرسل لأمة معدودة فأنت قد أرسلت إلىٰ العالمين، وإلىٰ النّاس كافّة، وتجاوزت رسالتك حدود الزّمان والمكان.

إنّك يا طه ستواجه كل الصّعوبات والمتاعب التي واجهها من قبلك كل المرسلين والنّبيّين، لا لإشقائك بل لأنَّ مسؤولياتك أكبر وأوسع؛ ولذلك يبشرك ربك بأنّه سيكون معك ويعصمك من النّاس ويحفظك وسيكون معك بكل أسمائه وصفاته، فلا تخفْ ولا تحزن، ولا توجس في نفسك خيفة ولا رهبة، فأنا معك بكل صفاتي وأسمائي، فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قال لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾ [طه: ٤٦]، أمّا إمام المرسلين وخاتم النّبيّين فمعيّة الله -تعالىٰ- له معيّة مطلقة في كل صفاته وأسمائه.

وبعد أن اتّضح البَونُ الشّاسع بينه وبين إخوانه الذين سبقوه جاء السّياق ليعيد النبيّ الخاتم إلىٰ أمّته من المرسلين لئلا يتوهّم غافل أو متوهم بانفصاله عنهم بتلك المزايا. "فإنَّ المسك بعض دم الغزال".(١)

النّجم الثّاني

﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (٩) إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا
بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى (١٠) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ
ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى (١٢) وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ (١٣) إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ
لِذِكۡرِيٓ (١٤) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا
يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ (١٦) وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ (١٨) قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ (٢٠)
قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ (٢١) وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ
ءَايَةً أُخۡرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى (٢٣) ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي (٢٥)
وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي (٢٦) وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي (٢٨) وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠)
ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي (٣١) وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي (٣٢) كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا (٣٣) وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا (٣٥) قَالَ
قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ (٣٧) إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقۡذِفِيهِ

(١) فـإنْ تَفُق الأنـامَ وأنـتَ مِنْهُمْ   فإنَّ المِسْـكَ بَعْضُ دَمِ الغَـزَالِ

-المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (توفي:٣٥٤ هـ) . **ديوان المتنبي**، بيروت: دار بيروت للطباعة، ١٩٨٣م، ص٢٦٨.

فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ
عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ
وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾
فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ
إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ
جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ
ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا
وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ
ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ
مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن
يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ
هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ
ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا
تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ
﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ
عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ
رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ
ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ **وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ**
أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم

مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ
ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ
غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞
وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ
فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ
رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى
﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ
﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ
إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ
إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ
أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾
قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ
ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ
أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [طه: ٩-١٠١]

هذا النّجم على طوله تناول قصة سيدنا موسى ومواقف فرعون ومَلَئه من سائر أحداثها. وكذلك مواقف بني إسرائيل التي تنوعت وتعدّدت فيها، وما جاء في هذا النّجم يتكامل مع ما جاء في سورة البقرة والأعراف والقصص وغيرها من السّور التي تناولت جوانب مختلفة من تاريخ بني إسرائيل ومسيرتهم، بيد أنَّ القصَّة في "سورة طه" بدأت بنزول الوحي على سيدنا موسى وبلوغه أشده، وبدأ نبوته وتتابع وقائع تاريخ بني إسرائيل الكبرى بعد أن بعث الله فيهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبيّاً ورسولاً، وجعل منه إضافة إلى ذلك قائداً قوميّاً، ليحرّرهم ويخرجهم من أرض عبوديّتهم مصر بقيادته إلى الأرض المقدّسة، حيث يحظون هناك بحاكميّة إلهيّة بديلاً عن استبداد فرعون الذي كان يذبّح أبناءهم ويستحي نساءهم ويستضعفهم جميعاً، ويعبّدهم لنفسه ويحرمهم

من عبادة الله الخالق المصوّر الواحد الأحد ليعلن ذلك فيهم بكل ما أوتي من طغيان وفجور: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وإذا كان هناك إلهٌ غيري فأنا ربكم الأعلىٰ.

إنَّ حديث موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي يقصّه الله علىٰ نبيّه في هذه السّورة يبدأ مع قضائه الأجل الذي اتفق مع شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عليه وبداية تلقّيه الوحي عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالوحي هو النّعمة الكبرىٰ والمنّة العظمىٰ لله -تعالىٰ- عليه وعلىٰ قومه، وكل ما سبق من عنايته -سبحانه- به، إنّما حدث إعداداً له، وتهيئة لبلوغه هذه اللحظة ووصوله لهذه الغاية، واصطناع الله جلَّ شأنه موسىٰ لنفسه: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝٤١﴾ [طه: ٤١] لإعداده لهذه اللحظة، وما يترتب عليها من أحداث.

أمّا قصة بني إسرائيل في سورة البقرة فقد صدقت علىٰ أهم مفاصل التَّاريخ الإسرائيلي، وتذكير الله جلَّ شأنه لبني إسرائيل بنعمه التي لا تحصىٰ عليهم، وما قابلوا به تلك النّعم من جحود وعناد وتمرد وارتداد وارتكاس في المعاصي المتكرّرة، وقد أخذ ذلك معظم الجزء الأول من (الآية ٣٩-الآية ١٠٦) التي أعلنت استبدالهم ونسخ آيتهم ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٠٧ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٠٨﴾ [البقرة: ١٠٦- ١٠٨] فكانت بمثابة التّفاتة في السّياق إلىٰ الأمة المسلمة، لتحذيرها من السّقوط في مثل ما سقطت فيه الأمة اليهودية، ونقل بعض أقولهم الخطيرة التي تدل علىٰ انحرافاتهم وتعصبهم الشّديد، وانغلاق نسقهم كله، وحين ينغلق أي نسق علىٰ ذاته بالطّريقة التي حدثت لبني إسرائيل فلا يبقىٰ لذلك النّسق من مخرج إلّا الاستبدال.

ثمّ اتّجه السّياق بعد ذلك إلىٰ تهيئة الأذهان عامة إلىٰ الحدث الكبير المنتظر، وهو تغيير القبلة، لتأكيد الاستبدال الكلي لتلك الأمة، ولذلك، فإن من الضّروري أن يفهم تحويل القبلة بأنَّه قد جرىٰ في إطار الشّروط المكملة للعبادة، فللعبادة مقاصد وغاية وروح وثمار، ولها شروط وهيئات، ولها أيضاً أوصاف ظاهرة -علىٰ أهميتها- لا تبلغ

ذلك المستوىٰ، ولا ينبغي أن يرفع سقف الاهتمام فيها إلىٰ مستوىٰ مقاصد العبادة وغاياتها وروحها، فهناك " فقه أولويات" لا بد من النّظر فيه والاستفادة منه.

وفي إطار التّمهيد لتغيير القبلة أورَد الكتاب الكريم قصَّة سيدنا إبراهيم وبناءه البيت الحرام ليكون مَثابة للنّاس وأمناً، وبناء الأُمّة المسلمة بدعوته، والتّهيئة لمجيء خاتم النّبيين يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، فكانت بمثابة الالتفات للخروج من قصّة بني إسرائيل إلىٰ أمر ليس ببعيد عنها، ألا وهو أبوة إبراهيم وبناؤه البيت ليكون قبلة، وتبع ذلك كله تناول التّشريعات التَّفصيليّة وما إلىٰ ذلك.

أمَّا في سورة القصص، فتبدأ القصّة بقوله جلَّ شأنه: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [القصص: ٣]، ثمّ تبين السورة غفلة فرعون عن الله عَزَّوَجَلَّ كما تبيّن أهم أفعال فرعون البشعة ضدّ بني إسرائيل، ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٤-٦]، ثمّ يبيّن السّياق كيف حفظ الله موسىٰ بعد ولادته، فهيّأ له أن يَنشأ في بيت فرعون بينه وبين زوجه، ويجعل منه قرة عين لهما، وهيّأ الأسباب ليعيده إلىٰ أمّه لإرضاعه والعناية به بتكليف من فرعون، وكل تلك التّفاصيل حتىٰ بلوغه أشدَّه، ثم خروجه من مصر إلىٰ مدين، والالتقاء بشعيب وزواجه، ثمّ إنزال وحيه عليه وإرساله وأخيه إلىٰ فرعون وحفظهما من شره.

وهكذا تتضافر آيات الكتاب في مواطن عديدة لتعطي رسول الله ﷺ والمؤمنين صورة كاملة عن موسىٰ وبني إسرائيل وفرعون باعتبارها حلقة من أهم حلقات الصّراع بين الرّسل وأعدائهم، واطلاع رسول الله ﷺ علىٰ تاريخ أمّة الأنبياء وتثبيت فؤاده وإشعاره أنَّه لم يكن بدعاً من الرّسل، بل هو واحد منهم وخاتم النّبيين.

تبدأ آيات سورة طه التي تقص علىٰ رسول الله ﷺ حديث موسىٰ، ببيان الاختلاف بين حالة بدء الوحي لسيدنا رسول الله ﷺ وحالة بدء الوحي لسيدنا موسىٰ، وهو أمر ظاهر، فبيّن جلَّ شأنه له منذ البدء ما يجب عليه أن يعرفه عن

ربه، فقال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه: ١٤]، أي وحدي لا تشرك بي أحداً، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤] كلّما ذكرتني، ثمّ أكد عليه أنَّ السّاعة آتية، وقد يَغُر أهل السّذاجة ومن لا يفكرون أمر إخفاء توقيتها، فيجترئون علىٰ إنكار قيامها وحدوثها، فيبيّن سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لموسىٰ أنّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يُعلم النّاس بموعد قيام السّاعة لكي لا يغتروا ويضطربوا في أعمالهم، فيؤثر ذلك في مرحلة الجزاء التي تنتظرهم، فإخفاء السّاعة عن علم البشر أمر ضروري لتحقيق الجزاء، وأنّ عباد الله الصّالحين، ورسله المصطفين ينبغي أن يبتعدوا عن كل ما من شأنه أن يصدُّهم عن ذكر الله، وعن تذكّر السّاعة وتوقعها وانتظارها، فذلك هو الرّدع بعينه، ومن أنكر السّاعة فلن يكون بين يديه إلّا اتّباع هواه فيردىٰ ويهلك. وبعد أن يعلم سيدنا موسىٰ الأسس التي يقوم عليها كل شيء، تبدأ عمليّة هي أشبه بعمليّة تدريب لسيدنا موسىٰ قبل أن يبدأ بممارسة مهامه التي اصطنعه الله –جلَّ شأنه– لنفسه من أجل تحقيقها، وينبه السّياق إلىٰ أنّ رسالة سيدنا موسىٰ بدأت بأمور حسية وانطلقت منها، بدأت من رؤية النّار ثمّ قراره بالذّهاب إليها ليأتي أهله بقبس أو بجذوة من النّار أو يجد علىٰ النّار هدىٰ، ثمّ أمره الله تعالىٰ بعد وصوله النّار بأن يخلع نعليه، وأخبره أنَّه بالوادي المقدّس طوىٰ، وسمّاه المقدس لاتِّصاله بالله –جلَّ شأنه– ولسماعه الكلام الإلهي لهُ في ذلك الموضع وبتلك الصُّورة، وهو معنىٰ في غاية الأهمية لموسىٰ وبني إسرائيل، فالأرض التي نبت فيها الاستبداد وأثمر سمّاها الله جلَّ شأنه دار الفاسقين، قال تعالىٰ: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف: ١٤٥] وهم الفراعنة ومَلَؤهم وأتباعهم وجندهم، فحين يقول الله –جلَّ شأنه– له: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ [طه: ١٢]، ففي هذا تعليم له بأنَّ الأرض تختلف باختلاف ما يقع عليها وما يُحدث فيها، فتكون مقدّسة، وتكون محرّمة، وتكون عادية وتكون مدنّسة، وفي هذا درس عظيم لسيدنا موسىٰ، فيقطع ما بين موسىٰ وبني إسرائيل أولاً، وبينهم وبين أرض الاستبداد التي استعبدوا فيها ثانياً، فلا تتعلق قلوبهم بها بوصفها وطناً، بل هي دار الفاسقين لما وقع فيها من فساد وانحراف، أمَّا الوادي المقدّس فهو مقدس لاتّصاله بالله –جلَّ شأنه– ولنزول الوحي فيه علىٰ سيدنا موسىٰ، فنال صفة القداسة، وأعلىٰ صفات الأرض وأهمها هي

صفة الحرم لأنَّها انتساب كامل لله -جلَّ شأنه-، فالبيت بيته والحرم حرمه، ولذلك ارتبط الأمن به والاستقرار، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ولعلّ سيدنا رسول الله ﷺ حين تلقّىٰ هذه الآيات تداعت إلىٰ ذهنه الشّريف لحظات الوحي الأولىٰ، عندما أخبر أنَّه رسول الله، وكيف جاءه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقرأ عليه الآيات الخمس من سورة العلق، وكأنّه بذلك ينبه إلىٰ اختلاف منهج الرّسولين في التّلقي وفي التّبليغ، وإذا تتبعنا السّور الأولىٰ نزولاً فسوف تتبين لنا هذه المعاني وتكشف عن الفوارق بين البدايتين، وهنا نستطيع أن نستحضر إضافة إلىٰ الآيات الخمس من سورة العلق سورة المزَّمّل والمدَّثّر والقلم ثمّ الرّحمن وغيرها، وفيها دروس وعبر تبيّن لسيدنا رسول الله ﷺ الفوارق بين قومه وبين قوم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ويأتي قول الله -جلَّ شأنه- لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه: ١٧] كأنّه إبراز للمعجزة الحسّية من بين الآيات التّسع التي أوتيها، فيسأله جلَّ شأنه عن عصاه: ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ ﴾ [طه: ١٨]، وأظهر له كل وظائفها وطرق استفادته بها، فبيّن له -جلَّ شأنه - أنَّها منذ اليوم ستكون لها فوائد أخرىٰ ومهام جسيمة في حياته، فلن تبقىٰ كما كانت مجرد عصىٰ يتوكأ عليها ويهش بها علىٰ غنمه، بل إنَّ عليه أن يلقيها حين يدخل في تحد لفرعون وقومه وملئه لتكون حية تسعىٰ، فأراد جلَّ شأنه أن يدرِّبه علىٰ إلقائها ورفعها في تلك المواقف دون أن يصيبه الخوف، فقال له: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه: ١٩-٢١]، وهذا يستدعي تذكر سنة الله تعالىٰ في النّبيين ﴿ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [النمل: ١٠]، ثمّ نقله إلىٰ الآية الأخرىٰ ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه: ٢٢]، وهي التي ستكون من وسائل دعوة القوم إلىٰ رسالتك ونبوتك واتباعك، وإيمانهم بما جئتهم به، وإخراج بني إسرائيل من ذل العبودية لفرعون إلىٰ العبودية لله وحده. ورسول الله ﷺ وهو يرىٰ أخاه موسىٰ -يحمل تلك الآيات الحسية إلىٰ فرعون- يتذكر أنّه لم يأت قومه إلّا بالآيات القرآنية، فلم يُعط آيات حسية مثل العصىٰ واليد وما إليها، وإنّما حمل إليهم آيات الكتاب الكريم، والكافرون لم يتوقفوا عن مطالبته بتلك الخوارق والآيات الحسية، فكان بعضهم يقول: ﴿ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ

أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ﴾ [القصص: ٤٨] ويرد القرآن الكريم عليهم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص: ٤٨]، لكنها تلك حجج الكافرين والمشركين.

فالقصّةُ بيّنت بجلاء أنَّ هذا النَّسق الإسرائيلي منذ بدايته كان قائماً علىٰ الخوارق الحسّية في سائر المجالات؛ لأنَّ اقتلاع آثار الاستبداد والطغيان الفرعوني يحتاج إلىٰ تلك الخوارق الحسّية؛ إذ إنّ فرعون كان يرىٰ في ملك مصر، والأنهار التي كانت تجري من تحته، والأموال العظيمة، وطاعة القوم له، وقدرته علىٰ استخفاف قومه، وطاعتهم له، يراها أموراً تجعل لدعواه الألوهيّة شيئاً سائغاً -في نظره-، فأراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يقتلع ذلك من نفوسهم، وأن يريهم عجز فرعون عن أن يجلب لنفسه نفعاً أو يدفع عنها ضراً. والطُّغاة دائماً يمثّلون، فطاغية عصر سيدنا إبراهيم حين قال له إبراهيم: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، لأنَّه لم يكن يظن أنَّ أحداً يجرؤ أن يتحداه بهذا أو يطالبه به.

وبعد أن تلقىٰ موسىٰ الأمر الإلهيّ بالذّهاب إلىٰ الطّاغية فرعون، ودعوته إلىٰ الإنصات إلىٰ صوت الحق، ومعرفة قدر نفسه، طلب سيدنا موسىٰ من ربه -جلَّ شأنه- أن يعينه علىٰ ما أمره به، ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ ﴾ [طه: ٢٥] وشرح الصّدر أمر في مقدمة مؤهلات الرّسل والأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل من الدّعاة، فمن لم يشرح الله له صدره فلن يتمكن من أن يكون رسولاً نبياً، ولا داعية مؤثراً، لأنّ شرح الصّدر يعني أن يصل أعلىٰ درجات اليقين بما أُمر بدعوة النّاس إليه، وأن يتغلغل ذلك في سويداء قلبه، وأن ينعكس نوراً وسكينة علىٰ سمته كله وجوارحه كلها، فيصبح قادراً علىٰ دعوة الآخرين، وتحمل كل ما يترتب علىٰ ذلك من أعباء، ولذلك امتنَّ الله علىٰ رسوله محمد ﷺ بقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ [الشرح: ١]، ونحن نطلق الشّرح فيما نتداوله من كلمات علىٰ بيان المشكل من الكلام وبسطه واستخراج ما يخفيه من المعاني ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الزمر: ٢٢]، فالصّدر آنذاك ينبسط ويتخلص من سائر الأمراض والعوائق التي تحول بينه وبين اليقين وبرد اليقين وبلوغ الغاية، فيمارس الدّعوة آنذاك ونوره يسعىٰ بين يديه وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته،

وتحوطه السّكينة من كل جانب، ويشعر بالمعيّة الإلهية والمدد الإلهي الذي يجعله قادراً على الثّبات في وجه كل ما سوف يصادف من أعاصير، فطلب سيدنا موسى من الله -جلَّ شأنه- أن يشرح له صدره وييسر له أمره، فيزيل العقبات من أمامه ويذلل له الصِّعاب، ثمّ طلب شيئاً يخصه وهو قوله: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ ﴾ [طه: ٢٧]، قيل: إنَّ سيدنا موسى كان يعاني من لدغة في اللسان قد تجعل المستمع إليه لا يفهمه للوهلة الأولى، وقد يتطلب منه إعادة ذكر بعض الكلمات، فسأل الله -جلَّ شأنه- أن يحلل عقدة من لسانه ليصبح مبيناً إبانةً تامةً، ويكون من يستمع إليه قادراً تمام القدرة على فهم ما يقول، ثمّ سأل اللهَ -جلَّ شأنه- أن يجعل له وزيراً من أهله، خاصة وهو يواجه قوماً لهم تفاخر في أنسابهم، وقد يستعلي بعضهم على بعض، فلو أُعين بوزير من عائلة أخرى، قد لا يكون له ذات التّأثير الذي يكون لابن عِمران المعروف المشهور فيهم، وسمَّى هارونَ أخاه، وسألَ البارئ -جلَّ شأنه- أن يشدّ به أزره ويشركه في أمره، وعلل ذلك بأنّهما إذا كانا معاً فهذا يجعلهما أقدر على تسبيح الله -جلّ شأنه- والإكثار من ذكره، إلا إنه فوض الأمر لله -جلَّ شأنه-، البصير به وبأخيه في المهمة الكبرى التي حمّلهما إياها، وما تتطلبه من جهود ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ [طه: ٣٥]، فمنّ الله -تبارك وتعالى- عليه بإعطائه ما سأل، ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه: ٣٦]، وهنا يبين لنا القرآن المجيد أنّ كل ما تقدم من حديث موسى، قد تناول نعمة اصطفائه واختياره واصطناعه على عين ربه ليكون رسولاً نبياً.

ثمَّ اتّجه السّياق -بعد ذلك- ليذكّر موسى بنعمة سابقة له عليه، ألا وهي النّعمة المتعلقة بولادته ونشأته وحفظه من فرعون ورجاله، الذين كانوا يقتلون كل مولود ذكر يولد لبني إسرائيل، فكانت العناية الإلهية هي التي وجهت أمّه وأخته وجهة تؤدي إلى حمايته وحفظه وتجنيبه الهلاك على يدي فرعون، ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ﴾ [طه: ٣٧-٤١]، والآيات الكريمات

تلقى ضوءاً على أثر أسرة سيدنا موسى في حياته، فلا يُستغرب أن يسأل الله سبحانه أن يعينه بأخيه هارون، فهو إذن رسول ساهمت أسرته في أمور كثيرة في حياته، هيأته لما اصطفاه الله له واختاره لتحقيقه، وفي الوقت نفسه تُبين الآيات لنا أنّ هذا النّسق الموسوي فيه نوع من الخصوصيّة، فلم يتم اصطفاء موسى وحده وتجاهل أسرته، بل اصطفي الله موسى، ثمّ اصطفى أخاه بدعوته أن يكون وزيراً له، وقبل ذلك كان لأمّه وأخته أثر كبير في حمايته في مرحلة الطّفولة، ولذلك حُق له أن يقال فيه: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١]، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩]، إنَّ هذه الآيات تبيّن للبشر كيف يُمضي الله إرادته مهما كانت إرادة الطّغاة والمستبدين وقدرتهم، وسورة القصص تبيّن لنا كيف يمكر الله جلَّ شأنه بهؤلاء الطّغاة ويستدرجهم من حيث لا يعلمون؛ فآل فرعون يتخذون هذا الطّفل -موسى- ولداً دون أن يعلموا أنّهم وقعوا على العدو الحقيقيُّ الذي سيقضي على فرعون وعرشه، وسيحرر بني إسرائيل من الاستعباد والطّغيان، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ٧-١٣].

إنَّ قصّة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيها من الدّروس والعِبَر ما إن لو استوعبته البشرية لما عاش فيها مستبد، ولما استكبر فيها مستكبر، ولا بغى فيها باغ، أو اغْترَّ فيها مغترّ، وهناك توافق كبير بين ما ورد في هذه السّورة الكبيرة من حديث موسى، وما ورد في سورة القصص مع اختلافات أخرى في الأحداث والوقائع.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ [طه: ٣٨]، هل المراد بالوحي هنا هو الوحي بمفهومه الذي ورد في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١]؟ أو أنَّ هناك معنىً آخر؟

لا شك أنّ هناك الوحي الخاص بالأنبياء، وهو يختلف عن الوحي الذي ورد في نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨] لأنّ الوحي لسائر المخلوقات المسخرة غير المكلَّفة يتخذ شكل توجيه غريزي يعتمد علىٰ ما أُودع في جسم ذلك المخلوق من قابليات، فيشعر بالجوع والعطش والرّغبة ويسعىٰ إليها كلّما أحس بها بطرقٍ أُلهمها غريزيّاً، بحيث أودع الله في كل مخلوق ما يجعله قادراً علىٰ الإحساس بالجوع والعطش والشّبع والرّي، فالوحي هنا إذن هو ذلك الرّادار أو الجهاز الذي يتحرك الحيوان بمقتضاه للحصول علىٰ ما يحتاج، وهناك الوحي لمن لم تثبت نبوته أو رسالته، مثل الوحي إلىٰ أم موسىٰ، وهو وحي مخصوص لا يشتمل علىٰ شريعة ولا علىٰ دعوة أو تكليف، وهذا النّوع وردت الإشارة إليه في أحاديث كثيرة منها الإلهام والرّؤيا الصّالحة في النوم أو الإلقاء في الرّوع أو أي شيء يؤدي بالإنسان إلىٰ الاقتناع بأمر أو الإقلاع عن شيء دون أن يكون هناك تسلسل منطقي أو دليل معرفي علىٰ ذلك الذي يفعله، ولذلك فلا مجال لإطالة النّقاش الذي حاول بعضهم أن يطرحه حول نبوة أم موسىٰ، ونبوة مريم لمجرد استعمال كلمة "أوحىٰ" في سياق مثل هذا السّياق.

ولكن ما الذي أوحِي إلىٰ أم موسىٰ؟ الذي أُوحي إلىٰ أم موسىٰ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩]، وأيضاً ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧].

وتتضح الحكمة من ذكر التّابوت هنا أنّ الله -تبارك وتعالىٰ- يصنع الأشياء ويصنع الأسباب، دون أن يكون هناك تجاوز بالأسباب لإطلاق قدرته -جلَّ شأنه-، وأية غفلة عن إطلاق القدرة قد تحول الإنسان إلىٰ عقيدة الجبر وما يترتب عليها من انحرافات، ويتضح ذلك حين ذهب موسىٰ مع العبد الصّالح وركبا في السّفينة وخرق العبد الصّالح السّفينة، أدهش ذلك موسىٰ فسارع إلىٰ الاعتراض علىٰ العبد الصّالح

وقال: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]، فقرنَ بين الخرق والإغراق، والسّفينة حين خرقت كانت أقوىٰ من التّابوت الذي قذف به الرّضيع موسىٰ في اليمّ.

ويستولي الخوف الشّديد علىٰ أمّ موسىٰ لولا أن ربط الله علىٰ قلبها وهي تلقي بموسىٰ في اليمّ علىٰ خشبة، لا تدري كيف يستطيع هذا الرّضيع أن يحتمي بها، ويصل إلىٰ الغاية التي أراد الله -جلَّ شأنه- إيصاله إليها، لكن يبيّن الله -جلَّ شأنه- أنه أمرها بذلك لييسِّر لعدو الله فرعون التقاطه من اليمّ، وليلقي عليه محبة زوج فرعون، وليصنع علىٰ عين الله -جلَّ شأنه- في بيت فرعون، وقد كان لذلك كله أثره البالغ في نجاح مهمته فيما بعد، لأنَّ فرعون بعد أن نشأ موسىٰ في حجره لم يعد قادراً علىٰ التّفكير بقتله أو القضاء عليه للمحبة التي ألقاها الله -جلَّ شأنه- لموسىٰ وسرت إليه، ولو أنَّ موسىٰ لم يمر بكل تلك المراحل وجاء إلىٰ فرعون يدعوه لربَّما قتله من اللقاء الأول، بل ربَّما لم يكن ليسمح له بلقائه أصلاً، لكننا نرىٰ كيف صبر فرعون، وحاول بكل ما استطاع أن يُبقي علىٰ موسىٰ حياً ويدخل في كل تلك التَّجارب، ويوظّف موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كل ذلك لإنجاز مهمته بالشّكل الذي أراد الله له أن يكون. ويذكّر الله تعالىٰ سيدنا موسىٰ بطفولته، ثمّ بشبابه، ثمّ بعودته من مَدْيَن علىٰ قدر من الله -تعالىٰ- ليقوم بدور قد رسمه المولىٰ تبارك وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: ٤٠]، فهو لم يأت بناء علىٰ مصادفة ولا علىٰ تدبير بشري، لكنّه عاد علىٰ قدر قدره الله تبارك وتعالىٰ لأنَّه اصطنعه لنفسه.

وبعد كل تلك التّمهيدات يأمره الله -جلَّ شأنه- وأخاه هارون بالذّهاب إلىٰ فرعون بآياته التي أنزلها علىٰ موسىٰ، ويأمرهما بأن لا ينيا في ذكره، فالذّكر بالنّسبة للرّسل وأصحاب الدّعوات هو الرّوح التي ينبغي أن تسري في عروقهم، وهو كالهواء الذي ينبغي أن يتنفسوه علىٰ الدّوام، فأيّة غفلة عن الذّكر أو وهن فيه وضعف يجعل الشّيطان قادراً علىٰ أن يقوم بدوره الخبيث في صد النّاس عن الرّسول والرّسالة، واستعمل هنا "وني" وفيها معنىٰ الفتور والتّقصير، [١] أو عدم الاستمرار لأي سبب من الأسباب، لأن كل من يفتر أو يَعْشُ عن ذكر الرّحمن، فإنَّ ذلك يفقده معية الله

(١) الزَّبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، مرجع سابق، ج٤٠، ص٢٥٧.

-جلَّ شأنه- له، فيستغل الشّيطان ذلك، فيجعل من نفسه قريناً لا يفارق ذلك الذي فتر عن ذكر الله أو عشىٰ عن الذّكر، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٦] فإذا كان الأمر مع الرُّسل بهذه المثابة ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ﴾ [طه: ٤٢] فما بالنا بدعاة المؤمنين وماذا يكون حالهم إذا أصابهم الوهن والفتور والعشو عن ذكر الله -جلَّ شأنه-؟ فالذّكر هو سلاح الرّسول وسلاح الدَّاعية، ومن خسر سلاحه خسر معركته.

ثمّ يقول جلَّ شأنه: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه: ٤٣] فتجاوز كل الحدود، ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٤] فأُمرا بالذّهاب إلىٰ فرعون لإيقافه عند حدّه، والحيلولة دون استمرار طغيانه، ورسم سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لهما الطّريق الذي ينبغي أن يسلكاه في مخاطبته، فقال تعالىٰ: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٤]، ويبدو أنَّ النَّاس كانت تعرف من غرور فرعون وطغيانه الكثير، ويعرف موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ أنَّ أمراً كهذا سوف يقابله فرعون بغضب شديد، وقد يؤدي به إلىٰ إيقاع أقصىٰ العقوبات بمن يتجرأ علىٰ نصحه أو تخطئته أو دعوته إلىٰ التزام جانب الحق والعدل، ولذلك ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [طه: ٤٥] وهذه صفة من صفات الطُّغاة تكاد تكون عامة شاملة فيهم جميعاً مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة والمواقع، فإفراط الطّاغية وفرطه من شأنه أن يستفز في الآخرين مشاعر مختلفة قد لا يرىٰ الطّاغية منها إلّا أنّه قد أخاف خصومه وأدخل هيبته والخوف منه علىٰ قلوبهم، لكن هناك مشاعر أخرىٰ قد تدفع العامة وبعض الخاصة إلىٰ التّعاطف مع ذلك الذي كان ضحية للإفراط في الأذىٰ الذي وقع عليه، وقد يكسبه -إذا اشتدّ الفرط والاعتداء علي- أنصاراً ومؤيدين من بين أولئك الذين يرون أنّ ما قام به لا يستحق كل هذا الذي فعله الطّاغية، وبلوغ هذه الحالة تعتبر بداية انتصار الدّعاة وهزيمة الطّغاة، ولقد طمأن الله -جلَّ شأنه- الرَّسولين الكريمين حيث ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٦] فرطه ولغوه وسبابه -لو فعل- سأحميكما منه، فأنا حافظكم وناصركم عليه، ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه: ٤٧] وإلهك الحقيقي،

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه: ٤٧] ثمّ أنذراه ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه: ٤٨] فإذا أصررت على التّكذيب وتوليت وأعرضت عنّا وعن الاستجابة لما دعوناك له فسينالك العذاب، لأنّ سنة الله -جلَّ شأنه- أن يوقع العذاب على من كذّب وتولّى في الدّنيا والآخرة، وفي الوقت نفسه هو سينصر رُسله -جلَّ شأنه- في الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد، والتزمَ الرّسولان بذلك التّوجيه الإلهي الحكيم، فقدّما أولاً الدّعوة وهي أنّهما رسولا ربه، والهدف النّهائي أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم، ثمّ أظهرا الوسائل ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ ﴾ [طه: ٤٧]، ثمّ ألانا القول له لتقليل غضبه ورد فعله إلى أدنى حد ممكن بقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه: ٤٧]، وكان الإنذار آخر شيء قدمه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه: ٤٨]، وذلك ما حمله على أن يواجه موسى بالحوار والأسئلة، ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [طه: ٤٩] وهنا يبين بالتّفاتة سريعة أنّه وإن اعترف بالرّسولين لكن اهتمامه كله منصرف إلى رب موسى ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٥٠]، وقد يكون فرعون في دعوته موسى إلى الحديث أراد أن يكشف عن قصوره الذي وصمه به حين، قال: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٢] خشية أن يخلب هارون ألباب القوم بفصاحته ويؤثر عليهم، وقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٥٠] يؤكد فيه أنَّ الله -تبارك وتعالى- هو الخالق البارئ المصور، بعد أن أعطى كل شيء صورته وحقيقته وما به تمام خلقه، أنزل له الهداية فهداه النّجدين، وبذلك علّمه كيف يقوم بمهامه في هذه الأرض من توحيد الله -جلّ شأنه- ومن إفراده بالعبادة والطّاعة، ومن تزكية نفسه وكل من حوله، ومن إعمار الأرض التي استخلفه الله -جلَّ شأنه- فيها، وعلى قصر العبارة التي أجاب بها موسى، لكنها اشتملت على بيان الخالق الحقيقي، ودليل الخلق على ربوبيّته وهدايته للبشر لكل ما هم بحاجة فيه إلى أن يعانوا ويرشدوا، لذلك انتقل فرعون إلى سؤال ظنّ أنّه سيفحم موسى به ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [طه: ٥١] الذين عاشوا قبل أن تأتيني، وقبل أن تخلق، وقبل أن تدّعي الرّسالة، فهل تستطيع أن تخبرني من السّعيد منهم ومن الشّقي، وهم جميعاً قد سبقوك

وعاشوا وماتوا قبلك من قبل أن تصلهم رسالتك؟ فأجابه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنَّ هذا السّؤال لا يتعلق بي ولا يرد عليّ، لأنّني ما كنت في تلك القرون التي تشير إليها، ولكن ربي كان موجوداً -جلَّ شأنه- فهو من لديه العلم بالشّقي أو السّعيد من أولئك الأقوام، أمَّا أنا في هذا الأمر فإني عبد مثلك لا علم لي إلّا ما علمني ربي، وربي جلَّ شأنه لا يضل ولا ينسىٰ، وسيجازي من أحسن منهم بالحسنىٰ، وسيجازي أهل السُّوء بالسّوء، فهو المحيط بكل شيء، ولا يخفىٰ عليه شيء، ولا ينسىٰ ولا يخطئ كما تنسىٰ أنت وتخطئ وتضل وتنحرف، والأولىٰ أن لا تجادل في هذا فأنت تعلم أن ربي ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٣-٥٤]، وكل تلك أمور لا تنكرها أنت ولا سواك، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٥٤]، فإذا كنت منهم فستعرف ذلك ولا تجادل فيه، وهذه الأرض التي جعلها الله لكم مهداً، قال ربي فيها: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥] فهي ليست مصدراً للنّبات والثّمار والزّرع فحسب، ولكن مادتكم الأولىٰ كانت منها، وأبوكم آدم خلق من طينها، وفيها نعيدكم بعد أن تقضوا الأجل المسمىٰ في حياتكم الدّنيا، ومنها نخرجكم تارة أخرىٰ وذلك ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣].

ويلتفت السّياق، وكأنّه ترك موسىٰ وفرعون في جدالهما، وموسىٰ يحاول أن يريه الآيات التي زوده الله بها، فيقول -جلَّ شأنه-: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه: ٥٦]، ومع أن الله أراه آياته كلها، العصىٰ، واليد، وفلق البحر، وضرب الحجر لإخراج الماء، والطوفان، والجراد، والقمل، والضّفادع، والدّم، فأبصرها وعرفها، وأدرك صحتها وأيقن بها، فلم يعد لديه إلّا المكابرة والجحود، وإن كانت نفسه قد استيقنت صحة تلك الآيات وصحة دعوة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنها لم تدفعه إلىٰ التّسليم بصدق موسىٰ وصحة ما جاء به، فذهب الجاحد يكابر ويتحول من ذلك النّقاش - الذي بدأه بشكل يليق بباحث عن الحقيقة - وينقلب إلىٰ زعيم لهواه، فيطوي جميع المقدمات ويتجاهل كل ما ذكره الرّسولان، ليهيج النّاس من حوله لرفض الرّسالة، وتأييده ودعم موقفه في عدم الاستجابة لدعوىٰ الرّسولين قائلاً: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا

مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ [طه: ٥٧]، مع أنَّ موسىٰ لم يشر من قريب أو من بعيد إلىٰ إخراج قوم فرعون من أرضهم، بل لم يخطر له علىٰ بال، فغاية ما طلبه موسىٰ وهارون عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ ﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ ﴾ [طه: ٤٧]، لكن فرعون أراد أن يهيج شعبه، ويستنصر بهم ويريهم أنَّهم هم المقصودون، وأنّ قبول دعوة موسىٰ وهارون تعني الخروج من الأرض، وتدمير الوطن وإظهار الفساد فيه، وبذلك يضع كل ما ظنه أسلحة بين يديه في هذه المعركة التي اعتبرها فاصلة، والحق أنَّ مجرد قوله: ﴿ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ [طه: ٥٧] دليل علىٰ هزيمته النّفسية، وإحساسه بأنّ النّتيجة قد تكون محسومة في انتصار موسىٰ وهارون عليه، وقوله: ﴿ بِسِحۡرِكَ ﴾ [طه: ٥٧] يريد به أنّه يبين اِستعلاءه وكبرياءه وعدم ضعفه أمام ما بين يدي موسىٰ من وسائل، فكأنَّ موسىٰ لا يملك إلّا السّحر وهو لديه ما يماثله، بل قد يتفوق عليه، فقال بأعلىٰ صوته: ﴿ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ ﴾ [طه: ٥٨]،(١) يبطل سحرك ويحفظ ملكنا ممَّا نحن فيه، ﴿ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه: ٥٨]، واستعمال كلمة موعد هنا للدّلالة علىٰ الزّمان والمكان في وقت واحد، فيقال: "وصلت في موعدي" ويراد به الزّمان، ويقال: "وصلت علىٰ موعدي في الوقت الفلاني" فيراد به المكان، وقوله: "مكاناً سُوىٰ" أي منصفاً بحيث تكون مسافة الوصول أو الزّمن الذي يستغرقه حضورنا وحضورك إليه واحداً، فكأنَّه أراد مكاناً وسطاً ليس بعيداً ولا شاقاً علىٰ أي من الفريقين، بحيث لا يقع الخلاف -من أي منهما- في الوصول إليه، ﴿ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه: ٥٩] وفيه دلالة علىٰ أنَّ موسىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ كان علىٰ علم بأعيادهم وأيامهم وثقافتهم، فاختار يوم الزّينة، كأنَّه يوم عيد لهم، ونبَّه موسىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ فرعون إلىٰ أنَّ عليه أن يحشر النَّاس ضحىٰ في ذلك اليوم، وفيه إشارة

---

(١) هنا تبرز قضيّة من أكثر القضايا التي ثار الجدل حولها، **وهي السِّحر**، وقد عرّجنا علىٰ هذه القضية بتمامها في تفسيرنا لقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٢] فليرجع إليه.

لعدم ثقة موسىٰ بفرعون، وكأنَّه قد يختلق أي شيء ليصرف النّاس عن الحضور، فلا يتحقق غرض موسىٰ من هزيمة السّحرة علىٰ أعين النّاس جهاراً نهاراً، وذلك يوحي بمدىٰ ثقة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من تحقيق انتصار يتحدث النَّاس عنه وينقلون أنباءه إلىٰ سائر أرجاء البلاد، وهكذا الدّاعية ينبغي أن يتحدث باستمرار بهذا المستوىٰ من القوة لإحداث الهزيمة النّفسية لدىٰ خصمه.

ويطوي السّياق إعلانهم الموافقة والإجراءات التي اتَّخذها الطّرفان للحضور في الموعد والمكان المحددين، لينقلنا إلىٰ المشهد الخطير الذي ينتظره الجميع، مشهد المواجهة، وحينما أصبح موسىٰ وهارون وجهاً لوجه مع سحرة فرعون، أراد موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يعظ أولئك السَّحرة قبل أن يدخل مجال التّحدي، وذلك أيضاً فيه إيحاء بقوته، وبأنّه منتصر لا محالة عليهم وأنَّهم مهزمون، فلذلك فقد وعظهم ونصحهم بأن لا يضاعفوا ذنوبهم فيفتروا علىٰ الله كذباً، ويصوروا للنّاس أنَّ الآيات التي جاء بها موسىٰ من ربه هي من مثل سحرهم، فذلك سوف يعرضهم لإسحات الله -أي لإهلاكه لهم-، وإضافة إلىٰ ذلك فإنّ الخيبة تلازم أولئك الذين يفترون علىٰ الله الكذب، ويضعون آياته في مصاف السّحر، ويجعلون أنبياء الله ورسله كأنَّهم سحرة. ولقد أربكت هذا النّصيحة والموعظة صفوف هؤلاء السّحرة ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢﴾ [طه: ٦٢]، فأخذوا يتشاورون سراً ويراجع بعضهم بعضاً، فقال بعضهم لبعض: إنَّ موسىٰ وأخاه، إمّا أن يكونا ساحرين فسنغلبهما ونثبت أنّهما لم يأتيا بخير مما جئنا به، وإمّا أن يكونا نبيين فلن يهزمهما سحرنا، وآنذاك فلا بد لنا أن نؤمن بهما، ولن يضرنا ذلك بل يكفر عنا سيئاتنا، وبعد أن أكملوا النّجوىٰ والتّشاور فيما بينهم برزوا بوصفهم فريقاً، و ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾ [طه: ٦٣]؛ لأنَّ لكلِّ أمّةٍ أو فريق من النّاس اِعتداداً بما هم عليه واعتزازاً به، وقد قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون: ٥٣] فهم يرون أنَّ ما هم عليه هي الطّريقة المثلىٰ، ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ [طه: ٦٤] بأن يأتوا بكل ما لديهم من خبرة وكيد وقدرة، ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ [طه: ٦٤]، لأنَّه يدل علىٰ وحدتكم، ويُلقي الهيبة في قلوب عدوكم منكم، ولأنَّ نجاحكم في هذا التّحدي سيجعلكم ذوي مرتبة عالية،

وستحظون بتقدير فرعون ومحبته وهداياه وعطاياه، وتكونون من المقربين إليه، ولا تتفرقوا فيضعف كيدكم وينفرط عقدكم فتفشلوا، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: ٦٤]، وبعد أن أخذ كلاً الفريقين الأهبة للقاء ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه: ٦٥]، وهذا أمر لافت للنّظر، ذلك لأنّ من يدخلون في تحدٍّ كثيراً ما يحاول كل منهم أن يكون هو البادئ، لعل ذلك يجعله ينتصر على خصمه -كما يقال- في الجولة الأولى، ولكن الفريقين على ما يبدو أراد كل منهما أن يبيّن استخفافه بغريمه، فأبدى له أنَّ الأمر بالنّسبة له سواء، فكان رد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ﴾ [طه: ٦٦] فبالنّسبة إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يعلم أنَّ إلقاءهم أهم ما عندهم، وبدأهم التّحدي يجعل الأمر -حين تلقف عصاه ما يأفكون- حاسماً، محققاً للمفاجأة المذهلة التي تكفل له انهزامهم وسقوطهم أمامه، وتشير الآية بأنّ موسى فوجئ بعض الشيء بما حدث ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: ٦٦]، فيخيل إليه من شدة سحرهم وقدراتهم وتمكنهم فيه أنّها تحولت فعلاً إلى ثعابين تسعى، حتى إنَّ موسى مع يقينه بأنَّ ما يفعلونه وما جاءوا به إنّما هو السّحر، وأنّ الله -جلَّ شأنه- سيبطله، ومع ذلك فقد دخل إلى نفسه بحكم الطّبيعة البشرية لا النّبوة والرّسالة- شيء من الخوف ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه: ٦٧]، فطمأنه الله -تعالى- ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٦٨]، والله -تبارك وتعالى- ذم الاستعلاء، لكنه مدح العلو الإلهي، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾[طه: ٦٨] والعلو هنا بمعنى الغلبة والظّهور، فكأنَّه -جلَّ شأنه- يقول له: لا تبال بكثرتهم، ولا بكيد سحرهم وإتقانهم له، وأمره الله -جلَّ شأنه-: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ﴾ [طه: ٦٩]، لأنَّ عصاك تمثل الحقيقة، فهي بإرادتنا ستتحول إلى حية تسعى، وليست خاضعة لإرادة سحرة أمثال هؤلاء، ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٦٩-٧٠]، وكلمة تُلْقِيَ وأَلْقَى وأَلْقُوا وأُلْقِيَ وأَلْقِ تكررت في هاتين الآيتين، تكررت في معرض التّحدي، وتكررت عند ظهور الحق وسقوط الباطل، حينما ألقي السحرة سجّداً، وحسم الموقف لصالح الحق الذي منَّ الله به

علىٰ رسوله ونبيه موسىٰ، والسّجود هو أعلىٰ وأقوىٰ تعبير إنساني عن الخضوع لله -جلَّ شأنه-، وبناء الفعل للمجهول لتحريك ذهن المتدبر في المشهد كله، فهل ألقي السّحرة أنفسهم بأنفسهم سجّداً أم ألقاهم الله -جلَّ شأنه- بقدرته سجّداً، أم أنّ المعجزة الخارقة التي شهدوها تلقف ما يأفكون، ولم تدع لهم فرصة لعمل شيء غير السّجود؟ كل ذلك وارد ومحتمل، المهم أنّ النّتيجة حسمت، وألقي السّحرة سجّداً ليعبّروا بأقوىٰ ما يعبّر به الإنسان والحيوان والشّجر والدّواب وكثير من النّاس عن العبودية لله تعالىٰ لا لغيره، وحينما ألقي السّحرة سجّداً أعلنوا إيمانهم بالرّب الذي خلق فسوىٰ، الرّب الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثمّ هدىٰ، ولم يذكروا أية صفة من صفاته -وهم يلقون رؤوسهم لله سجّداً- إلّا أنّهم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه: ٧٠]، فذلك هو العنوان القريب الظّاهر لهم علىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، العنوان الذي لا يملك المندهش شيئاً إلّا أن يلجأ إليه، وهنا نطق فرعون الذي كان قبل قليل يساوم السّحرة ويشجعهم ويعدهم ويمنيهم بالهدايا والأجور، وإعطائهم المكانة اللائقة بهم في المجتمع وبين مَلَئِه، وجعلهم من أقرب المقربين له، وأول ما نطق به كان تعبيراً عن إحساس بالضّياع وسقوط الهيبة والسّلطان ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [طه: ٧١]، وكأنّ الغبي كان ينتظر أن يستأذنوه بعد أن رأوا برهان ربهم، ويقولون له: "ها قد رأينا البرهان، فهل تأذن لنا أن نؤمن ونستسلم لهذه الحجة القاطعة، والدّليل الذي لا مراء فيه"! لكن غروره وكبرياءه جعلاه يبحث عن سلطانه الضّائع، ومكانته السّاقطة، وهيبته التي لم يعد لها وجود، وتاه عقله فإذا به يقول قولته السّخيفة: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ [طه: ٧١] وكأنّ ذلك اكتشاف بالنّسبة له، لم يستطع أن يصل إليه حينما أرسل في المدائن حاشرين ليأتوه بكل سحّار عليم، وبالرغم من أن كل أولئك السّحرة -الذين حشروا له وجمعوا بين يديه- لم يكن أحد منهم علىٰ صلة أو معرفة بموسىٰ من قبل، إلا إنّه سارع إلىٰ اتّهامهم بالمؤامرة والدّسائس والانحياز إلىٰ كبيرهم الذي علمهم السّحر، وسيأتي تكذيبهم له في دعواه هذه حين يقولون له بلسان واحد ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾ [طه: ٧٣]، فبدلاً من أن يرىٰ نفسه مسؤولاً عن إكراههم علىٰ السّحر، عدَّهم متآمرين مسؤولين مسؤولية تضامنية، وتبرأ منهم وتبرأ من أنّه هو

الذي أتى به وتناسى تهديده ووعيده لموسى وهو يقول له: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٨]، تناسى ذلك كله، ليعلن أنّهم مجرد متآمرين، وأنّ عرشه يتعرض لمؤامرة خطيرة ستشمل أضرارها الشّعب كله، فهو يخاف من موسى عليهم وعلى وطنهم أن يخرجوا منه عنوة، وعلى دينهم أن يبدل كرها ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦]، هنا يقفز فرعون إلى الوسيلة الأخرى والنّهائية من وسائل الطّغاة ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١]، فما كان جواب أهل الإيمان إلّا أن ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه: ٧٢] أي لن نؤثرك بالولاء والطّاعة على من فطرنا وهو ربنا وربك، وإلهنا وإلهك، ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢]، قمة التّحدي وأعلى كلمات المجابهة مع الطّاغية، اقتل، اصلب، قطّع الأيدي والأرجل، إنَّ تعذيبك لن يستمر إلّا إلى لحظات مهما طالت، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه: ٧٢] إنّما تمضي ويقضي قضاؤك في دنيا نعيشها، ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [طه: ٧٣] فهو قابل التُّوب وغافر الذّنب، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٣] ورضاه أفضل وأدوم، فلقد تعلمنا من موسى وهارون ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٧٤] بالشّرك والكفر، واتّخاذ غير الإله ربا، وممارسة السّحر وغيره من الخطايا ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ [طه: ٧٤] فإنَّ مآله إلى جهنم، ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه: ٧٤]، أمّا تعذيبك أنت فإنّ الموت سينقذنا منه مهما طال، أمّا جهنم فإنَّ من يؤول إليها لا يموت فيها وينتهي عذابه، ولا يحيا حياة حقيقية دون عذاب، ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [طه: ٧٥] التي هي غير ما تدّعونا إليه يا فرعون، ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٥-٧٦].

وهنا لم يعد هناك مجال للعيش المشترك بين المؤمنين والكافرين، فكان لا بد من المفاصلة التّامة، والتمايز بين الفريقين، وينقلنا السّياق إلى لحظات المفاصلة، وهي لحظات خطيرة لا تقل خطورة عن لحظات التّحدي ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ [طه: ٧٧]، أي ليلاً، لأنّكم متبعون، وأنّ فرعون وجنوده وملأه سيتبعونكم

ويطاردونكم، ويحاولون اللحاق بكم وإعادتكم إلىٰ دار الفاسقين، دار العبودية والإذلال، ثمّ يأمر الله -جلَّ شأنه- موسىٰ بقوله: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧] فلن يدركك فرعون وجنوده مهما أسرعوا، ولا تخشىٰ أن يصيبك منهم أذىٰ لأنّي سأكون معكم، حافظاً لكم، محيطاً بأعمالكم، قادراً علىٰ درأ أي خطر يهددكم، ثمّ ينقلهم إلىٰ لحظة المطاردة ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ [طه: ٧٨]، والسّورة تطوي ما جرىٰ تفصيله في سور أخرىٰ مثل الشّعراء والقصص من استنفار فرعون لكل قواه، وكأنَّ الله -جلَّ شأنه- أراد أن ينهي هذه القوة الطّاغية الباغية بكاملها، فأخرج فرعون وملأه وجنوده من جنات وعيون ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩] فأتبعهم فرعون بجنوده عند الشّروق، لأنَّه -كما أشرنا- انشغل بجمع كل قواته وطاقاته، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الشعراء: ٦١-٦٥] وخرج آخر واحد من أصحاب موسىٰ من الطّريق البحري، أطبق الله -تعالىٰ- المياه التي كان قد حجزها بطريقة غيبية لا نعلمها ولا نستطيعها، ليغرق فرعون ومَلَؤُه وجنوده، ولا ينجو منهم أحد ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٨-٧٩] لكن فرعون حين أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠]، فكان الجواب ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩١-٩٢]

وبذلك تحقّق وعد الله لموسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥] وهذا السّلطان هو سلطان النّبوة والرّسالة، فحفظ موسىٰ وهارون بسلطان جعله الله لهما، يمنع فرعون وملأه من الوصول إليهما بسوء، وهنا أشار إلىٰ الآيات التي في قصة موسىٰ، وأنَّ الغلبة ستتحقق ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥] أي بالآيات التّسع التي أوتيها موسىٰ، وهذا يشبه ما كان لنبينا الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾

[المائدة: ٦٧] أي فلا يصلون إليك لكن سيدنا رسول الله ﷺ قد تولىٰ جلَّ شأنه عصمته بنفسه، وتولىٰ نصره بنفسه ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، وفي سائر المواقع كان معه، ينصره بنفسه، ويحوطه بعنايته، ويقود مسيرته ﷺ.

ثمّ يلتفت السّياق إلىٰ بني إسرائيل، وقد نجاهم الله بتلك الخوارق، وواعدهم جانب الطّور الأيمن، ونزل عليهم المنَّ والسّلوىٰ طعاماً شهياً لم يبذلوا فيه أي جهد، فيقول تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠﴾ [طه: ٨٠] وناداهم أن ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه: ٨١] أي لا تتجاوزوا حدود ما أنزلت، فإن تجاوزتم فسيحل عليه غضبي ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ۝٨١﴾ [طه: ٨١]، والله -تعالىٰ- يعلم من ضعف عباده ما يعلم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤]، فيفتح باب الأمل أمام من يضعفون في بعض الأحيان فيقعون في شيء مما نهىٰ الله عنه أو يفرطون في شيء مما أمر الله تعالىٰ به، فيقول تعالىٰ -بالصّيغة التي وصفها علماء اللُّغة بصيغة المبالغة-: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ﴾ [طه: ٨٢] أي واسع المغفرة، لا يقف ذنب أمام سعة مغفرتي ورحمتي، لكن تلك المغفرة تخص أولئك الذين تابوا عن الذّنب، ورجعوا عنه، وأنابوا إلىٰ الله، واستغفروا لذنوبهم، وبدّلوا نحو الحسن والأحسن، هؤلاء سأكون غفّاراً ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه: ٨٢]، فاستمرَّ علىٰ الهداية، واستمرَّ سالكاً سبيلها ولم ينحرف، ولم يرجع عن توبته ولم يلبس إيمانه بظلم ولم يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، بل استقام علىٰ الهدىٰ وعلىٰ الطّريقة.

وتستدعي هذه الآية آية سورة الزُّمر وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر: ٥٣] فهنا يخاطب الله -تعالىٰ- أقواماً أذنبوا وأسرفوا في ذنوبهم حتىٰ أصابهم نوع من القنوط واليأس من توبة الله عليهم، فأزال عن أنفسهم القنوط بقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٥٣] وهو سياق مختلف عن سياقنا في سورة طه، ففي سورة طه جاءت الآية في سياق التّبشير والإنذار لبني إسرائيل، وبيان نعم الله الكبرىٰ عليهم، وأنّه لا يتوقع منهم بعد كل تلك النّعم أن يقعوا في معصية أو يفرطوا في واجب، ومع ذلك

فإن الله -تبارك وتعالىٰ- يبيّن أنّه لو حدث ذلك - كما سيأتي بعد هذه الآية فوراً - فإنّ الله -جلَّ شأنه- غفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثمّ اهتدىٰ، فالآية هنا خاتمة لما تقدم ومقدمة لما سيأتي.

كما تستدعي الآية أيضاً قوله -جلَّ شأنه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: ٤٨] فكأنّه في سورة الزّمر أعلن للقانطين ضرورة التّخلّي عن القنوط، لأنَّ لهم رباً ذا رحمة واسعة يغفر الذّنوب جميعاً. وفي سورة النّساء يتناول الشّرك، ويريد أن يبين أنّه من أخطر الذّنوب وأشدها، بينما آيات أخرىٰ من سورة النّساء قد أوضحت بجلاء قضية التّوبة وشروطها ومتىٰ تقبل، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء: ١٧-١٨]، فالتّوبة حالة تبرز فيها أحسن مشاعر الإنسان نحو ربه -جلَّ شأنه-، فهي حالة حزن يشعر الإنسان فيها أنَّه سقط في مخالفة لأمر من أوامر الله، أو حد من حدوده، وخوف وحذر وقلق وحيرة لدىٰ ذلك الإنسان، ويستمر كذلك حتىٰ يشعر ببرد اليقين بأنّ الله -جلَّ شأنه- قد تاب عليه وقبل منه ورضي عنه، ويرجو أن يكون في عداد من قيل فيهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ويتمنىٰ أن الله قد سلكه في سبيل التّائبين الذين محت توبتهم آثار ذنوبهم، حتىٰ صار التّائب من الذّنب كمن لا ذنب له.

ومن الجدير بالتّوقف معه هنا قليلاً قضية التّوبة ومفهومها في القرآن الكريم، فمع تفضل المولىٰ العلي القدير بالتّأكيد علىٰ مغفرته ورحمته، علّمنا جلَّ شأنه كيف ننالها.

فالأمر لا يتوقف عند مجرد التّوبة، فالتّوبة هي الخطوة الأولىٰ في رحلة يجب أن تمر بالإيمان بأنواعه، كما ذكرت في خواتيم سورة البقرة ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥] فلا توبة تكتمل من دون إيمان، وتستمر

رحلة التّوبة أثناء الإيمان إلىٰ العمل، ولكن ليس أي عمل، وإنّما العمل الصّالح، لذا يعلمنا الله -تعالىٰ- كيف أنّ رحمته وسعت كل شيء لكنه -سبحانه- بحكمته وبقدرته لن يعطيها إلّا لهؤلاء، قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فمن لا يفعل هذه الثّلاثة، فليحذر العذاب والطّرد من رحمة الله تعالىٰ.

والذي يجب علينا أن نتعلمه هو كيف نتعرف علىٰ العمل الصّالح، لأنه ليس كل عمل هو عمل صالح، وكيف أحكم علىٰ عملي بأنّه صالح، أو غير ذلك كجزء من رحلة التّوبة؟

الله -تعالىٰ- يعلّمنا أنّ العمل الصّالح فقط هو الذي يقبله، ولكي يقبل أي عمل يجب أن يشتمل علىٰ تقوىٰ الله تعالىٰ، قال -جلَّ شأنه-: ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧] فقربان أحد بني آدم قُبِل، والآخر لم يُقبَلْ، رغم أنّهما يبدوان ظاهرياً نفس العمل، إلّا أنَّ أحدهما اشتمل علىٰ التّقوىٰ للمولىٰ العلي القدير، والآخر افتقد هذه التّقوىٰ، فهذا أول علامات العمل الصّالح، أمّا ثانيها: فإنّ العمل الصّالح لا يمكن أن يكون معصية لله حتىٰ ولو حسنت النّية، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١]، فلا يتصور أن يكون سرقة مال عملاً صالحاً، حتىٰ ولو كانت النّية التّصدق به علىٰ الفقراء، فالنّية الحسنة لا تصلح العمل الفاسد، فيجب أن يكون هذا العمل الصّالح هو في أصله طاعة لله ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، وثالث علامات العمل الصالح يجب أن يشتمل هذا العمل علىٰ النّية الخالصة لله -تعالىٰ- فلا يجوز أن تحتوي نية العمل علىٰ أي شريك لله -تعالىٰ-، وأن تكون خالصة لإرضاء المولىٰ جلَّ شأنه فالعمل بأيّة نية دنيوية كنية إرضاء النّاس، أو بنية كسب الشّهرة، أو ما إلىٰ ذلك من نوايا لم تخلص في أصلها لله -تعالىٰ-، تبعد عن العمل الذي يؤدي بنا إلىٰ الجنة الذي هو العمل الصّالح، قال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ

فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨-١٩] فإرادة الإنسان من عمله تحدد قبول هذا العمل من عدم قبوله، ولا أصلح من الأوامر المباشرة التي ذكرها الله -تعالىٰ- في كتابه العزيز كالإيمان بالله، والدّعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة وبالحكمة والموعظة الحسنة، وإقامة الصّلاة، وإيتاء الزكاة، وتلاوة القرآن، والجهاد، والإنفاق في سبيل الله وغيرها الكثير من الأوامر المباشرة من العمل الصّالح، وفي نهاية رحلة التّوبة هذه يعلمنا الله -تعالىٰ- أنّها لا بد لنا من مواصلة الاهتداء، فلا يظن أحدنا أنّه قد تاب وأتمّ الإيمان وأتمّ العمل الصّالح، وإنّما يجب عليه الاستمرارية في محاولة الاهتداء إلىٰ ما هو أقوم وأقرب إلىٰ الصّراط المستقيم، وهذا الاهتداء إنّما يتم عن طريق ما سماه المولىٰ العلي القدير ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ [الفتح: ٢٨] والذي هو كلامه -جلَّ شأنه-، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢] فعلىٰ الباحث عن التّوبة وعن الهدىٰ التزام هذا الكتاب، والنّهل منه باستمرار، وعدم مفارقته، وإلّا أتبعَه الشّيطانُ فكان من الغاوين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥]، كما يصبح له قرناء من الشّياطين ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦] عافانا الله وإياكم.

ونختم هذه الوقفة القصيرة مع التّوبة، بآيات تناولتها بشكل مباشر ويكاد يكون متطابقاً، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص: ٦٧] فهنا يعلمنا المولىٰ القدير أنّ التّوبة ليست عملاً قلبياً فقط، وإنّما هي سلسلة أعمال تبدأ بالشّعور بالنّدم والحزن -كما سبق وأشرنا- ثمّ التّوقف عن ذلك الفعل، وتجديد الإيمان الذي نقص قبل وأثناء هذه المعصية، وهذا يبين لنا قول رسولنا الكريم ﷺ: "لا يَزْنِي الزَّانِي حين يَزْنِي وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حين يَشْرَبُهَا وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَسْرِقُ السَّارِقُ حين يَسْرِقُ

وهو مُؤْمِنٌ"(١) ثمّ إصلاح ما أفسدته هذه المعصية من مصالح النّاس، واستبدال هذا الفساد بأعمال صالحة، بهذا يكون المؤمن قد أتمّ مراحل التّوبة القرآنيّة، كما علّمها الله لنا في كتابه.

نعود إلىٰ رحاب سورة طه، لنرىٰ أنّ آية التّوبة السّابقة الذّكر قد مهّد الله -جلَّ شأنه- بها لواقعة الرّدة الجماعية، التي أشار إليها قول الله لموسىٰ: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾ [طه: ٨٣] ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [طه: ٧٥]، هذه الواقعة -التي طواها النّص هنا في سورة طه- لكن سورة الأعراف بينت لنا بعض التّفاصيل، منها أن هذه الواقعة كانت أثناء سعي موسىٰ إلىٰ لقاء ربه، بعد أن أمره بالاعتكاف ثلاثين ليلة، وأتمّها بعشر ليصبح ميقات ربه أربعين ليلة، واختار موسىٰ من بني إسرائيل سبعين رجلاً لشهود ذلك الميقات، وأنّ رجفة قد أخذتهم وهم علىٰ الجبل لتهيئهم نفسياً إلىٰ ذلك المشهد العظيم، مما جعل موسىٰ يقول: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أمّا السّياق في سورة طه فيبدأ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾ [طه: ٨٣] وجعلك تسبقهم وتأتي وحدك، ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: ٨٤]، كأنّه أراد أن يعلن بين يدي الله تعالىٰ استسلامهم وحضورهم، ويسأل لهم الجائزة علىٰ ذلك، فكان هو بمثابة مقدمة أو رأس نفيضة.(٢) لكن الله -جلَّ شأنه- قد علّم موسىٰ واصطنعه علىٰ عينه، وأدبه، ولم يبين لرسول قبله أو بعده مدىٰ أهمية الالتزام بالمواقيت المحددة مع الله -جلَّ شأنه-، دون استعجال أو تأخير، ففي نبوته قال له: ﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه: ٤٠] وفي لقائه بالعبد الصّالح عندما

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأشربة، باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: ٩]، حديث رقم (٥٥٧٨)، ص١٠٩٩

(٢) النفيضة: الذين يتقدمون الجيش فينفضون الأرض نحو الطليعة .انظر:

-ابن دريد الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن(توفي:٣٢١ هـ). **جمهرة اللغة**، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٧م، ج١، ص٢٥٤.

استعجل قليلاً تجاوز العبد الصّالح، ولولا قصة السّمكة لربما فاته اللقاء، لكن الله -جلَّ شأنه- قد قدر اللقاء فأعاده إلىٰ ذلك الموضع في الوقت الذي حدّده وحدّد له ميقاته، وعجل سيدنا موسىٰ وتقدم النّقباء من قومه وعاتبه ربه في ذلك، فكأنّ العجلة والتّقدم لسيدنا موسىٰ مناط للتعبير عن الشّوق إلىٰ سماع كلام الله، والحضور في موعده والالتزام بميقاته، لكن الله -تبارك وتعالىٰ- أدَّبه مرة أخرىٰ في هذا الموقف، وكأنّه يقول له: أنّ الأمر ليس إليك، سواءً باستعجالك أو تقدمك أو تأخرك، فإنّا قد جعلناهم عرضة للافتتان بما فعله السّامري، ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ [طه: ٨٥]، وفيما أعقب هذا الحوار بين الله- جلَّ شأنه- وموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نستطيع أن نتخيل حالة الانكسار النّفسي التي حدثت لسيدنا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكيف رجع إلىٰ قومه بمثل السّرعة التي أتىٰ بها إلىٰ ميقات ربه أو أسرع، غضبان أسفا ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ ﴾ [طه: ٨٦] أي أدركته سَوْرة غضب شديد، صحبها حزن شديد، وهو في تلك الحالة ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ ﴾ [طه: ٨٦] في هذا الميقات، قيل إنَّ التّوراة لم تكن قد نزلت بعد، وأنَّ الله قد حدد ذلك الميقات لإنزال التّوراة علىٰ موسىٰ، وقيل: إنَّها صحف أخرىٰ فيها هدىٰ ونور كالتّوراة، كان ينتظر أن تنزل علىٰ موسىٰ في ذلك الميقات، ولسنا بحاجة إلىٰ شيء من ذلك، فالقرآن قد نبه إلىٰ أنّ الله -تعالىٰ- قد وعدهم وعداً حسنا، فيعاتبهم سيدنا موسىٰ ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه: ٨٦]، يريد بذلك مدة مفارقته لهم، أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي وتأخرتم مع السّامري، لتقدموا عبادتكم إلىٰ ذلك العجل الجسد، فردوا: ﴿ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ [طه: ٨٧] أي من زينة آل فرعون ويبدو أنَّ بعض بني إسرائيل كانوا صاغة من عهد آل فرعون، ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ [طه: ٨٧] أي في النّار وذوبناها، ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه: ٨٧] بعد أن خلط الحلي المذهب بقبضة الطّين التي أخذها من أثر رسول من الملائكة الذين فلق الله بهم البحر، ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا ﴾ [طه: ٨٨] -أي صورة- لا حقيقة له ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ [طه: ٨٨]، أي يصدر صوتاً بوضعه في شكل معين بمرور الرّيح داخله، ﴿فَقَالُواْ ﴾ [طه: ٨٨] أي بني إسرائيل ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ

وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [طه: ٨٨] وهذه الفتنة ليعلم الله -جلَّ شأنه- من يثبت على الإيمان ومن يهتز إيمانه بتلك الفتنة، ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه: ٨٩]، يبين قله وعيهم، وضآلة فهمهم، وأنَّهم لا يفكرون حين عبدوا العجل بأنّ هذا الجسد الخالي من أي عنصر من عناصر الحياة لا يملك لهم نفعاً لا ضراً.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ ﴾ [طه: ٩٠] ومع أنّ هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ حذّرهم من تلك الرِّدة من قبل، وقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ [طه: ٩٠]، وأنَّ ذلك كان اختباراً لكم، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [طه: ٩٠] الذي خلقكم، ﴿ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ ﴾ [طه: ٩٠] ولا تتبعوا السّامري ولا تطيعوا أمره، ومع ذلك ﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾ [طه: ٩١]، والسّياق يحمل الكثير من الدّلالات على اضطراب العلاقة بين بني إسرائيل وبين الله، واضطراب مفهوم الرّبوبية والألوهية لديهم بشكل كبير، فكأنّهم يعاملون الله ربهم في كفرهم هذا، ويريدون أن يقولوا إمّا أن تعيد إلينا موسىٰ مع كل ما وعدته بأن تمنح له في هذا الميقات، وإمّا أن نستمر في عكوفنا على عبادة هذا العجل حتىٰ يأتي موسىٰ من عندك بكل تلك الغنائم التي وعدت أن يأتي بها، فلم يعد بين يدي موسىٰ إلّا أن يلتفت إلىٰ أخيه هارون ووزيره -الذي دعا الله أن يشركه في أمره- ليقول له وهو في سَوْرة غضبه، بعد أن يمسك بلحيته ورأسه: ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه: ٩٢-٩٤]، ففي قوله: ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾ [طه: ٩٤] -هو أسلوب استعطاف وتذكير بالأم الواحدة التي أنجبت كل منهما لعله يفثأ غضبه- ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ [طه: ٩٤]، إنني خفت لو تركتهم في تلك الحال أن تزداد فرقتهم، وقد يقتتلون، ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه: ٩٤] وخشيت أن تقول -في ذاك- إنّني السّبب في تفريق كلمتهم، واضطراب وحدتهم وتشتت أمرهم، وأن عليك أن تثبت مكانك ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه: ٩٤] وتنتظر تعليماتي وقولي، فترك هارون والتفت إلى السّامري ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾ [طه: ٩٥]، وما الذي حدث لتفعل ما فعلت، ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ [طه: ٩٦]، فقد أدركتُ ما لم يدركه الآخرون، والتفتُّ إلى ما لم يلتفتوا إليه، ﴿ فَقَبَضْتُ

قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [طه: ٩٦] الذي أُرسل إليك من الملائكة ليصحبك إلىٰ ميقات ربك -أي أخذ قبضه من تربة موطئه- لأنّه قد رأىٰ للملك المرسل أثراً يلفت النّظر -بالنّسبة إليه-، وأدرك أنّ هذا الأثر يمكن أن يكون له شأن عندما يخالط شيئاً آخر، فلما أذاب القوم الحليّ ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ [طه: ٩٦] أذبت تلك القبضة مع الحليُّ المذاب، ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾ [طه: ٩٦]، فصار هذا الحليّ المذاب عجلاً جسداً له خوار، فقلت لبني إسرائيل: هذا إلهكم وإله موسىٰ، ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ [طه: ٩٧] أي إنّك لن تسطيع أن تمسَّ أحداً أو تخالط النّاس، فتعيش معزولاً مخذولاً خاسئاً منحسراً كسيرَ النّفس، يحرّم الجميع علىٰ أنفسهم مكالمتك، أو الأخذ والعطاء معك، وإذا مسَّك أحد، فإنّه يصاب بنوع من الحمىٰ والألم الشّديد الذي يصيبك ويصيبهم، بحيث تقول لكل من يريد أن يقترب منك: لا مساس، هذا عذاب الدنيا، أما الآخرة ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ [طه: ٩٧] أبداً، لأنّ لك جريمة عظيمة جداً استحققت بها خزي الدّنيا وعذاب الآخرة، ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ [طه: ٩٧] وهذا الذي زعمت أنّه إلهك وإله بني إسرائيل. وهو العجل الجسد الذي صنعته ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه: ٩٧] بحيث لا يمكن أن يغتر به أحد من النّاس، وتزول الفتنه به، ويتخلص بنو إسرائيل من تأثيره.

ثمّ يتوجه السّياق إلىٰ بني إسرائيل كافة بعد هذه الرّدة الجماعية في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [طه: ٩٨] لا إله لكم غيره ولا رب لكم سواه، ولا خالق ولا رازق إلّا هو، ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه: ٩٨]، وأحاط علمه بكل شيء، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

وهذه الجولة المطولة خُتمت بقوله تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه: ٩٩]، أي بهذا الشّكل المحكم الدّقيق التي نقدم فيه القصّة - بأشخاصها وأحداثها ووقائعها - بحيث تكون بين يديك، وكأنّك حاضر تشاهد وترقب، وتسمع وترىٰ، ثمّ نأخذ بيديك لاستخلاص العبر والدّروس والعظات منها، ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [طه: ٩٩] فكأنّ ما قصّ الله علىٰ نبيه تمهيد يهيىء عقول النّاس وقلوبهم، ويقوي وعيهم لحسن استقبال الذّكر الذي يُتلىٰ عليك وقبوله، فلا يرتابون

فيه، وأنَّىٰ لعاقل أن يرتاب وهو يراك تذكر له من أنباء من قد سبق أموراً لم تشهدها بنفسك، ولم تدرسها في كتاب، وما كان لك بها من عهد، ولذلك فإنّ هذا الذّكر هو حجتنا وحجتك علىٰ قومك وعلىٰ النّاس، فكما قصصنا عليك حديث موسىٰ وقومه مع فرعون ومَلَئِه، نقص عليك -في هذا القرآن، من أنباء الأمم وتواريخها وأحوالها ما نثبت به فؤادك، ونزيد به في معلوماتك وبيناتك- من علم الله الذي وسع كل شيء، ومنها أخبار الماضين وما سبقوا-، ليتأكد قومك أنّك رسول الله حقاً. وهذا القرآن -الذي يذكّرك ويذكّر النّاس برسالتك وشريعتك- يذكّر أمتك والنّاس أجمعين بأخبار الأنبياء السّابقين وقصصهم علىٰ وجه الحقيقة، ودون مبالغة، ومن غير أن تشوبها الشّوائب، إنّه لذكر عظيم لك ولقومك وللنّاس كافة، فلا ينبغي أن يصدنّكم الشّيطان عنه، أو ينسيكم آياته وبيناته، وفي هذا الذّكر النّجاة والسّعادة لمن أقبل عليه، أما من أعرض عنه فقد هلك، وباء بالإثم، وسيكون مآله إلىٰ جهنم خالداً فيها. ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه: ١٠٠-١٠١] يؤدي به إلىٰ العقوبة الثّقيلة، التي تثقل ظهر حاملها، وهذا يستدعي آيات مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١]، كما تستدعي قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

النَّجم الثالث

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١٠٢-١١٤]

﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢ ﴾ [طه: ١٠٢] كأنّه يريد أن يقول لهم إنَّ هذا الذي توعدون به قريب وليس ببعيد، ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨ ﴾ [الزمر: ٦٨] وآنذاك نحشر المجرمين يومئذ زرقاً، [1] وقد كان العرب يبغضون اللون الأزرق ويتشاءمون منه؛ لأنّ الروم أعداؤهم، وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدوّ: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين.[2] ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [طه: ١٠٣]، وآنذاك يتخافت المجرمون بينهم في حوار خفي، ﴿ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ ﴾ [طه: ١٠٣]، بينما ﴿ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤ ﴾ [طه: ١٠٤] وتستدعي هذه الآيه آيات كثيرة تتحدث عن السّاعة، وعن قصر الفترة التي عاشها النّاس في الحياة الدّنيا، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦ ﴾ [الروم: ٥٥-٥٦].

وهؤلاء المستبعدون للبعث -الذين تذهب بهم أوهامهم أنّه من الصّعب إنهاء الحياة الدّنيا بكل تفاصيلها، ونقل النّاس إلىٰ الحياة الآخرة- يتساءلون عن هذه الجبال الضّخمة كيف يتصور خرابها وإزالتها من علىٰ وجه الأرض، يقول تعالىٰ: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ ﴾ [طه: ١٠٥] فهو الذي خلقها وجعلها أوتاداً للأرض، فهو وحده القادر علىٰ نسفها وجعلها كالعهن المنفوش، ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧ ﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧][3] أي ينسف الله الجبال فيجعل الأرض

(١) فسرّه ثعلب فقال: معناه عطاش، قال ابن سيده: وعندي أن هذا ليس علىٰ القصد الأول، إنما معناه: ازرقت أعينهم من شدة العطش، وقيل: عُمياً يخرجون من قبورهم بصراء كما خُلقوا أول مرة، ويعمون في المحشر، وإنما قيل زرقاً لأن السواد يزرق إذا ذهبت نواظرهم، ويقال: زرقاً طامعين فيما لا ينالونه، انظر:
-ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج١٠، ص١٣٩.

(٢) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (توفي: ٥٣٨هـ). **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، اعتنىٰ به: محمود شيحا، بيروت: دار المعرفة، ط٣، ٢٠٠٩م، ص٦٦٦.

(٣) أي لا انخفاض فيها ولا ارتفاع .انظر:
-ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٩.

قاعاً مستوياً كأن لم يكن فيها جبل ولا نتوء ولا شيء يعكر حالتها المستويه، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨] يومئذ تسير الخلائق كلهم وراء هذا الدّاعي الذي يدعوهم فيوصلهم إلىٰ موقف الحشر، وهذا الدّاعي سيتبعون صوته باستقامة فلا ينحرف أي منهم يميناً ولا يساراً، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، فهيبة الموقف تفرض نفسها فلا يبقىٰ من يجترئ علىٰ أن يرفع صوته في ذلك الموقف ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ﴾ [طه: ١٠٨-١٠٩] أي في ذلك الموقف ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩] أن يَشفع ويُشفّع، فالشّفاعة ليست حقاً ثابتاً للبشر، لأنّها نعمة يمنّ الله بها علىٰ من يشاء من عباده، فيجعله شافعاً في بعض خلقه فضلاً منه ومنّاً، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠] يعلم ما بين أيدي المتشفعين والمتشفع لهم وهم لا يحيطون به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علماً.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] حين يعاين الخلق القيامة ويرونها عين اليقين، ويرىٰ أصحاب الخيبة والشّقوة العذاب الذي ينتظرهم، فتصير وجوههم عانية؛ أي ذليلة خاشعة مثل وجوه العوناه وهم الأسارىٰ، وتستدعي الآية قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الملك: ٢٧]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٥]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: ١١١] أي تحققت خيبة أولئك الذين ظلموا أنفسهم، واستبدت بهم شهواتهم في الحياة الدُّنيا، وكانوا لا يرجون لقاء الله، فهم -الآن- بين يديه يرون كل شيء رأي العين. ثمَّ ينقلنا السّياق إلىٰ الفريق الآخر وهم الذين استعدوا لهذا اليوم، واستعدوا للقاء الله -تعالىٰ- وتزوّدوا بخير الزّاد وهو التّقوىٰ، وعملوا من الصّالحات ما استطاعوا، وآمنوا بالله، ولم يلبس إيمانهم بظلم ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما كان ظالماً للعبيد، ولا هاضماً لحقوقهم، فهو لا يضيع عنده مثقال ذرة في السّموات ولا في الأرض، بل هو المتفضل دائماً علىٰ خلقه، فيجزي السّيئة بمثلها وقد يغفر، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعف، فله الحمد علىٰ نعمه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ [طه: ١١٣] يفهمونه، ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ﴾ [طه: ١١٣] ليتذكروا الله والدَّار الآخرة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [طه: ١١٣] ذلك اليوم ﴿أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣﴾ [طه: ١١٣] أي تذكر لكل ما سبق من رسالات الله وقصص الأنبياء. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ [طه: ١١٤] وتقدّس وتبارك -جلَّ شأنه- ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [طه: ١١٤] الذي أنزل الله على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وأنت يا رسول الله يا من ينزل القرآن على قلبك ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ [طه: ١١٤] محاولاً حفظه، بل تثبت وتريث، وهو مثل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ [القيامة: ١٦] لأنَّ حفظه في صدرك، وحفظه في الخارج جزء من مسؤوليتنا نحن، ولكي يتحقق الذّكر فيه يأمره الله جلَّ شأنه بعد الثناء على ذاته العلية بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: ١١٤]، يا مَن علمتني ما لم أكن أعلم، وأنزلت على قلبي هذا الكتاب الجامع الحكيم، وأقرأته لي فلن أنسى منه شيئاً، وحفظته في قلبي وفي وعيي بعنايتك سبحانك.

النَّجم الرابع

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه: ١١٥-١٢٧]

في هذه الجولة يذكرنا الله جلَّ شأنه بما يحتاج إلى استحضار ذكره على الدّوام، ألا هو عداوة الشّيطان لنا، وكيف أذلّ إبليس أبوينا ووسوس لهما وأخرجهما من الجنة، حيث بدت لهما سوءاتهما فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ

لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه: ١١٥]، وما عهد به إلىٰ آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يس: ٦٠]، ويبدو أنّ آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قد نسي هذا العهد، فاغتنمها الشّيطان فرصة، فقال له: ﴿ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه: ١٢٠]، ففقد عزمه علىٰ الالتزام بأوامر ربه، ولم يعد له التّصميم الكافي علىٰ مخالفة الشّيطان وعدم الالتفات إلىٰ وسوسته، ولذلك نريدكم يابني آدم أن تتذكروا علىٰ الدّوام خطورة وسوسة الشّيطان، وألا تنسوا عداوته ولا حقده عليكم، وذكر القصّة بتمامها فقال: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه: ١١٦-١٢٠]

وفي سورة الأعراف ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢] وذلك إشارة إلىٰ أنَّ السّقوط في المعصية أعادهما إلىٰ وضعهما البشريّ الطينيّ العاديّ. ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه: ١٢١] أي دخل في الغواية، والغواية تقابل الرّشد والرّشاده، وإذا كان الرّشد بمعنىٰ الهداية، فعلىٰ ذلك تكون الغواية هي الانحراف ودخول سبيل الغيّ، والخروج عن سبيل الرّشد، قال جلَّ شأنه: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال جلَّ شأنه: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فهناك سبيل رشد وسبيل غواية، فمن سلك سبيل الرّشد فهو علىٰ الصّراط المستقم -إن شاء الله-، ومن سلك سبيل الغي ضاع وخسر، وقد شاء الله جلَّ شأنه أن يتجاوز عن معصية آدم، وتأثره بوسوسة الشّيطان، وسقوطه في الغي، وذلك لا ينافي ما هو معروف من عصمة الأنبياء، ذلك لأنّ أبانا آدم حين وقع في المعصية لم يكن نبياً، بل اختاره -عندما شاءت حكمته- ليكون خليفة، وأخبر الملائكة بقوله: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي

جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢٢] فكأنَّ في الآيه إشارة إلىٰ أنّ الاجتباء والاصطفاء للنّبوة تم بعد التّوبة التي ألهمها الله لآدم وزوجه، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، فبعد تلقيه لكلمات الله اصطفاه واجتباه، وهداه إلىٰ صراطه المستقيم، ومنّ عليه بدوام هدايته، وكأنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- باختبار آدم وزوجه في نهيهما عن الأكل من تلك الشجرة، وبيان عدواة الشّيطان لهما، أراهما جنة أسكنهما فيها، ليكون لديهما حنين فطري للعودة إلىٰ الجنة، وفي حال نجاحهما في اختبار الاستخلاف، وقبول الأمانة، وقبول مبدأ الابتلاء والجزاء، تكون العودة إلىٰ الجنة التي وعد المتقون، فالجنة الكبرىٰ والنّهائية خاتمة يتطلع الإنسان في حياته -كلها- لبلوغ تلك الحياة، والوصول إليها، فجاء أمره -جلّ شأنه- ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢٣] وكأنَّ الخطاب لآدم وللشيطان، وفي ذلك إشارة إلىٰ أنّ المسؤول الأول والأخير في ذلك الذي حدث كان سيدنا آدم، أمَّا زوجه فكانت تبعاً له، والقرآن المجيد يصحح ما امتلئت به كتب أهل الكتاب من ذم المرأة، وتحميلها المسؤولية عن تلك الخطيئة، والخروج من الجنة، كأسطورة الحية التي أقنعت حواء بذلك، ويعيد الأمر إلىٰ نصابه.

وبعد صدور أمر الله بالهبوط ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣] برز عدل الله -جلَّ شأنه- المطلق ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [طه: ١٢٣]، وهذا شامل لإبليس، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ [طه: ١٢٣] أي ينحرف ويتيه في سبل الغوايا في الحياة الدّنيا، ﴿وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣] في الآخرة، وهذه هي المرة الثّالثة التي تأتي كلمة ﴿يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] في هذه السّورة، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ﴾ [طه: ١٢٤] أي مال بجانبه ﴿عَن ذِكْرِي﴾ [طه: ١٢٤] وكل ما أنزل الله -تبارك وتعالىٰ- من كتب وصحف ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] أي حياة مليئة بالنّكد والمتاعب والمصاعب، وشأن الدّنيا أنّها دار إذا ما أضحكت في يومها أبكت في غدها، وقوله جلَّ شأنه ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤] قرينة تدل علىٰ أنّ المعيشة الضنك هي في الحياة الدّنيا لا في الدّار الآخرة، وما أروع هذه الصّورة التي يرسمها القرآن الكريم للذين يسيرون خلف الشّيطان فينسيهم الشّيطان ذكر ربهم ويصيبهم بالعشي عن أبصار أنواره ﴿وَمَن

يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، فجزاء التّناسي المتجاهل المستكبر الذين يستكبرون عن آيات الله بغير الحق بأن يجزي تجاهله ونسيانه وتناسيه جزاءً وفاقاً لما عمل وفعل؛ وحين يقول هؤلاء الذين سلكوا سبل الغوايه والشّقاء، وتنكبوا سبل الهدىٰ والرشاد، وأعرضوا عن ذكر ربهم، ونسوا أو تناسوا آياته ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [طه: ١٢٥] يكون الجواب ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ ﴾ [طه: ١٢٦-١٢٧] فتجاوز الحد وأشرك بربه، أو أعرض عن ذكره، أو طغىٰ، فكل ذلك من الإسراف والتّجاوز، وأكثر أنواع الإسراف جرماً أن يفرط ويسرف في مجال الإيمان، فلا يؤمن بربه، أو يلبس إيمانه بظلم أو شرك فلا يكون إيماناً خالصاً لله جلَّ شأنه، فإذا حشر يوم القيامة أعمىٰ يكون ذلك نتيجة إسرافه في الدّنيا، فهو الملوم علىٰ ذلك، وهو الذي أوصل نفسه إلىٰ هذا النّتيجة، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه: ١٢٧] من المعيشة الضّنك والحياة المتعبة.

النَّجم الخامس

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ
﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ
طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا
مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ
عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا
فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ
ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [طه: ١٢٨-١٣٥]

في بداية هذه الجولة يبين القرآن الكريم ضعف عقول هؤلاء المعرضين عن ذكر الله، وقلة حكمتهم، وجهلهم، وغبائهم، وعدم قدرتهم علىٰ الوصول إلىٰ العبر والدّروس من مصادرها، فكأنّهم لم تصلهم أخبار الماضيين والقرون التي خلت من

قبلهم، وكيف أُهلكت أقوام أمثال عاد وثمود ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ ﴾ [الحاقة: ٥-٦] هذه كلها لم تصلهم، وكأنّهم يعيشون خارج هذه الحياة، فلم يعتبروا بمن أهلكهم الله من القرون السابقة، مع أنّهم يمشون في مساكنهم، ويمرون علىٰ منازلهم مصبحين وبالليل، ولو أنّهم كانوا من أهل النُّهىٰ والعقول النّيرة لأخذوا من ذلك الدّروس والعبر، وآمنوا بربهم وآياته، ولم يتناسوا ذكره، ولما استقبلوا ذلك الذّكر أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلفاً.

ثمّ قال جلَّ شأنه: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۝١٢٩ ﴾ [طه: ١٢٩] إنّ هؤلاء لا يعبأ الله بهم، وكان من الممكن أن يصيبهم بتكذيبهم لك ما أصاب من سبقهم، ولكن سبقت كلمة ربك ألا يستأصلهم بعذاب وأنت فيهم، وألّا يعذبهم وهم يستغفرون، وأنه يؤخرهم لأجل مسمىٰ عنده، وأنه لولا تلك الكلمة التي سبقت من الله جلَّ شأنه لكانوا مستحقين لعذابه، وإيقاع بلائه فيهم، فمثل هؤلاء يستحقون العذاب لزاما، لولا كلمتنا التي سبقت، فلا ينبغي لهم أن يظنوا أو يتوهموا بأنَّ الله -جلّ شأنه- لم يعاجلهم بالعذاب رغم أنَّهم سألوا ذلك مرات عديدة.

﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ [طه: ١٣٠] يا رسول الله ﴿ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: ١٣٠] من أقوالهم الباطلة السّخيفة من أنّك شاعر أو ساحر أو مجنون أو تأتيهم بأساطير الأولين ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [طه: ١٣٠] في سائر الأوقات ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠ ﴾ [طه: ١٣٠]، وتستدعي هذه الآية قوله جلَّ شأنه: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾ [الضحى: ٥] فلا تشغل نفسك بافتراءتهم وبما يقولون، واملأ وقتك كله بالتّسبيح لله، والحمد له، والثّناء عليه، فإنّك من المرسلين علىٰ صراط مستقيم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ولا تبخع نفسك لأنّهم لم يؤمنوا بك، ولم يدركوا أنّك رسولنا ونبينا.

ثمّ يقول -جلَّ شأنه- لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١ ﴾ [طه: ١٣١]، وفي قوله: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ [طه: ١٣١] بلاغة لا تخفىٰ؛ لأنّ الأصل في المدّ أن يكون من أفعال اليد، فيقال: مد يده ومد رجله

وما شاكل ذلك، فاستعماله للعين للحيلولة بين النّظر وبين ما خولهم الله، بأي مستوىٰ من مستويات الإعجاب، فأراد -جلّ شأنه- أن يبين قبح ذلك باستعمال فعل المد، فكأنّ النّظر بالعين والإعجاب بما خولهم الله من نِعَم، يصبح بمثابة مد الأيدي إليهم، والذي هو أمر مذل لا يطيقه الكرام والشّرفاء من النّاس، كما أنّ فيه لمحة بلاغية أخرىٰ، وهي النّهي عن طول النّظر إلىٰ ما هم فيه، مما قد يُوجِد في نفوس المؤمنين نوعاً من الحسرة علىٰ أن يستمتع الكافرون بكل تلك الأزواج والأصناف من النّعم، وتستدعي الآية إضافة لما تقدم آية سورة الحجر ﴿ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر: ٨٨] فهم الأولىٰ والأحق باهتمامك وبوقتك، والتفافهم حولك يجعلك بهم دائماً أقوىٰ وأقدر علىٰ مواجهة أولئك المستهزئين، ومنحنا إياهم تلك النّعم ليس فيه دلالة علىٰ رضانا عنهم، أو حبنا لهم، أو تفضيلهم علىٰ أهل الإيمان، بل هي لفتنتهم واختبارهم، وزيادة عذابهم، ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه: ١٣١] أي لنمتحنهم ونختبرهم، ونكشف لك ولهم سوء عاقبتهم، وفي قوله -جلَّ شأنه-: ﴿ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [طه: ١٣١] لمسة بلاغية عالية أخرىٰ، تشير إلىٰ قصر أمد الاستمتاع بتلك النّعم، حيث إنّها أشبه بوقت تزهر فيه الورود والأشجار، وهو وقت قصير جداً سرعان ما ينتهي، أمّا نتائج هذه الفتنة والاختبار فهي في الباقية التي سيحاسبون فيها، ورزق ربك خير وأبقىٰ من سائر وسائل المتعة التي يتمتع بها أولئك الكافرون، والآية تستدعي -أيضاً- قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣] ولعلَّ في هذه الآية ما ينبّه إلىٰ عدم إدامة النّظر في النّعم التي خولها الله لكثير من المشركين، خشية أن يؤدي ذلك إلىٰ نوع من أنواع الإعجاب بهم وبحياتهم وبما هم عليه، وقد يؤدي بالجهلة -وما لم يمنحهم الله النّظر الثّاقب- إلىٰ أن يظنوا أنّ الانحراف والمعصية والتّكذيب من وسائل نماء الرّزق، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٢].

ثمّ يقول له -جلَّ شأنه-: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢] وهذا تكليف آخر من الله تعالىٰ لرسوله ﷺ لتحصينه وحمايته، وهو أن يأمر أهله بالصّلاة الخاشعة، ويصطبر عليها ويواظب، ففي ذلك

تقوية لحصانته وعصمته، وحمايته من أية تأثيرات سلبية لأهل الدُّنيا عليه، ذلك لأنّ الأهل إذا لم يكونوا من أهل الصّبر والصّلاة، والخشوع والإخبات لله -عز وجل-، فذلك يعني أنَّ النّبي الرّسول -أو الدّاعية- سيكون عرضه للاختراق من داخل بيته، فيأمره -جلَّ شأنه- بذلك، لأنَّه كما قال تعالى: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، فحماية المسلم لأسرته من الانحراف، والحيلولة بينها وبين قطع الصّلة بالله، تعد من أهم وسائل تحصين الدّاعية وحمايته من الانحراف، ثم يقول -جلَّ شأنه- بعد أن قدّم الصّلاة على ذكر الرّزق: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ﴾ [طه: ١٣٢] كما يسأل الملوك والسّادة عبيدهم، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ﴾ [طه: ١٣٢] ونعطيك ما تنفقه على نفسك وأهلك وغيرك، ليس ذلك فحسب، بل ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢]؛ إذ نجعل العاقبة والنّهاية للمتقين المخلصين.

ثمّ يقول -جلَّ شأنه-: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ﴾ [طه: ١٣٣] يريدون بذلك آيات حسية، كالآيات التّسع التي جاء بها موسى، أو كالتي جاء بها عيسى، وما سبقهم من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أو الآيات التي اقترحوها له - عليه الصّلاة السّلام- ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣] وقد كرّر المشركون هذا المقترح، وطالبوا بالآيات الحسية، وأمر الله رسوله الكريم ﷺ أن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١] فإذا كانوا يريدون بيّنة على صدقك، ودليلاً على نبوتك، فلماذا لا يكفيهم إنَّا أنزلنا الكتاب يتلى عليهم، وفيه آلاف الآيات؟ وقد جاءتهم آيات وشواهد ومبشرات حملها إليهم الأنبياء من قبلك، ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧]، ومنها ﴿بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه: ١٣٣] مثل صحف إبراهيم وموسى، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٨-١٩]. ثم قال -جلَّ

شأنه-: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [طه: ١٣٤] أي من قبل إرسالك يا محمد إليهم، وإنزال القرآن عليك، ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ [طه: ١٣٤] بالشّرك في الحياة الدّنيا، ﴿وَنَخْزَىٰ ١٣٤﴾ [طه: ١٣٤] بدخول النّار في الآخرة، وحين جاءهم رسول من أنفسهم كذّبوا كما كذّب من سبقهم من الظالمين، وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ١٣٤﴾ [طه: ١٣٤] يستدعي قوله -جلَّ شأنه-: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة: ٣٣]، وقوله -جلَّ شأنه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، ثمّ قال -جلَّ شأنه-: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ۖ﴾ [طه: ١٣٥] أي نحن ننتظر إنجاز الله وعده، وأنتم تنتظرون. وهذه الآية تستدعي قوله -جلَّ شأنه-: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ٥٢﴾ [التوبة: ٥٢] وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ٣٠ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾ [الطور: ٣٠-٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ١٤﴾ [الحديد: ١٤].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ١٣٥﴾ وبهذه الآية ختمت سورة طه، وهي مقدمة لطيفة للسّورة التّالية سورة الأنبياء التي بدأت بقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] هناك في الحساب والحشر سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وسيعلم المتقون عاقبة التقوىٰ.

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

نزولها: هي مكيّة بلا خلاف.

عدد آياتها: مائة واثنتا عشرة.

عدد كلماتها: ألف ومائة وثمان وستون.

عدد حروفها: أربعة آلاف وثمانمائة وسبعون .

تسميتها: واحدة هي سورة الأنبياء. ذكر فيها عدد كبير منهم، مع مواقف ملخصة لأقوامهم مما دعوهم إليه.

مناسبة السّورة لما قبلها:

مناسبتها لما قبلها وهي (سورة طه) أنَّ (سورة طه) كانت من أوائل ما نزل من السّور المكية، نزلت والمسلمون قد هاجروا إلىٰ الحبشة تلافياً لاضطهاد قريش لهم، وبعد نزولها بقليل أسلم حمزة ثمّ عُمر، قيل كان بين إسلام حمزة وعُمر ثلاثة أيام. واقترن إسلام عُمر بقراءته (سورة طه) التي أخذها من يد أخته فاطمة، وكانت من السّور التي نقلت إلىٰ المهاجرين للحبشة، وهم في أول عهدهم بها وبجوار النّجاشيُّ، وارتبطت السّورة ببشائر انتصار المسلمين وانتهاء مرحلة اضطهادهم علىٰ أيدي أهل الشّرك، أو الاقتراب من ذلك. واستهلَّت سورة (طه) علىٰ ذلك بالبشارة بأنَّ الله ما أنزل القرآن علىٰ رسوله ﷺ ليشقىٰ. وختمت بإشارة إلىٰ أنَّ المشركين قد عطلوا قوىٰ وعيهم كلها ولم يبق إلّا أن ينذروا الإنذار القاطع: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [طه: ١٣٥] والدّعوىٰ إلىٰ التَّربص بهذا الأُسلوب تعد من أشد أنواع الإنذار، فصاحب (دعوة الحق) موقن بالحقِ والهدىٰ الذي هو عليه، وقد بسط كل الأدلة المقنعة بين يدي من دعاهم فلم يقبلوا أيّاً منها، فلا يبقىٰ إلّا أن يعلن لهم أنَّ جحودهم لا علاج له إلّا الانتظار والتّربص، والزَّمن سيكشف لهم عن ضلالهم وسفههم بتركهم الاهتداء بما اهتدىٰ به النَّبي ﷺ والمؤمنون معه. وقد كشف الله تعالىٰ ذلك بتلك الانتصارات المتتالية التي جاءت بعد نزول سورة طه، فبعد أن

غلب الرّوم الفرس في الجولة الثّانية كما في مقدمة سورة الرّوم، صار هاجسهم الأكبر الخوف من القوة التي صار انتشار الإسلام ينذر بظهورها، مما جعل بني الأصفر -أي الرّوم- يخشون تلك القوة النَّاشئة ويحسبون لها ألف حساب، وصارت عِبارة معروفة لدىٰ العرب أنَّ بني الأصفر صاروا يخشون رسول الله ﷺ والمسلمين، بعد أن لم يكونوا يحسبون حساباً إلّا للفرس وقوتهم.

وفي السّنة الثّامنة من البعثة كانت هجرة المسلمين إلىٰ الحبشة، وقد كان ذلك بداية انهيار أحلام قريش في هزيمة القرآن والرَّسول والمؤمنين، ومعها انتشرت دعوة الإسلام خارج الجزيرة العربية. ثم جاءت الهجرة إلىٰ المدينة بعد البيعتين، -بيعة العقبة الصّغرىٰ وبيعة العقبة الكبرىٰ- واستمرت الانتصارات النّبوية والإسلامية حتىٰ دخل النّاس في دين الله أفواجاً، وأكمل الله الدّين، وأتمّ النِّعمة، ورضي الإسلام ديناً عاماً شاملاً عالمياً، تهتدي به البشرية كلها، وبظهوره سعدت الإنسانية كلها.

ينقلنا السِّياق من خاتمة (سورة طه) إلىٰ بداية (سورة الأنبياء) فتهزهم هزاً عنيفاً، ولا تسلمهم إلىٰ حالة التَّربص التي دعتهم إليها في خواتيم (سورة طه)، بل تعلن لهم خطأ آرائهم، والسَّاعة قد اقترب أجلها منهم، وهُم لم يفعلوا شيئاً استعداداً لملاقاتها، بل هُم في غفلة معرضون عن ذكرها وعن الاستعداد لها، آنذاك سيعلمون حق اليقين من الشّقي ومن السّعيد. ففرصة التّفكر والتّأمل التي تمنحها حالة التّربص لهم أضاعتها عليهم غلظة أكبادهم، وتعطل قوىٰ وعيهم، فلم تسمح لهم بالوصول إلىٰ الإيمان بما جاءهم من الرِّسالة وبما دعوا إليه منها، فلينتظروا اليوم الذي يصبح فيه كل ما أنذروا به (حق اليقين) بعد تجاوز مرحلتي (علم اليقين وعين اليقين).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء: ١-٢] يجعل هذه العبارة الوجيزة محملة بكل صور مشاهد يوم القيامة، فالحساب -هنا- ليس مجرد قائمة فيها كشف بالحسنات والسّيئات والمعاصي والطّاعات، بل هو شيء آخر عظيم تستطيع أن تتصور فيه: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾ [البقرة: ٢١٠]، وتستطيع أن تستدعي كل مشاهد وأهوال القيامة التي ﴿تَذْهَلُ كُلُّ

مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ [الحج: ٢]، وانشقَّت السّماء وانتثرت الكواكب، ونسفت الجبال فكانت كالعِهن المنفوش، والبحار سُجّرت وتحولت نيران، وتستمر باستدعاء وحشد كل تلك الصُّور المهولة المخيفة المرعبة. فكيف سيواجه هؤلاء الغافلون ذلك كله؟ أنَّهم يواجهونه بالإعراض والغفلة والاستكبار الفارغ، لأنَّهم لا يعقلون ولا يعلمون ولا يتفكرون ولا يتذكرون ولا يتدبرون.

إنَّ الانتقال من خاتمة سورة طه إلىٰ بداية سورة الأنبياء انتقال يمثِّل روعة (التّناسب والتّرابط القرآني) فـ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾[الفرقان: ١].

عمود السّورة:

السورة عمودها الذّكر بمعانيه المختلفة، التي سنأتي علىٰ بيانها لاحقاً، ثم بيان عاقبة الفريقين المستجيبين لدعوة الأنبياء والرّافضين لها، التي حسمتها السورة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. فالله سبحانه هو الحَكَم العَدْل بين الأنبياء والمستجيبين لهم من أقوامهم من جهة، وأولئك الرّافضين من أقوامهم بتلك الحجة التّافهة المتهافتة المكررة ألا وهي (بشرية الرُّسل) من جهة أخرىٰ. وإذا كان الرّسل والصّالحون -الذين استجابوا لهم- سيرثون الأرض في الدّنيا والفردوس في الآخرة، فإنَّ أعداءهم والسّاخرين منهم سيرثون مع آلهتهم -التي اتخذوها من دون الله- النّار، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

النَّجم الأول:

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟

أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾
ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١-١٠]

هذه الآيات العشر تناولت الحالة النّفسية والعقلية التي يستقبل الكافرون والمشركون بها بلاغات المرسلين ودعواتهم، بإعراض واعتراض، وتشاغل باللعب واللهو، سواء باتّهام الوحي بأنَّه لا حقيقة له، بل هو والكهانة والسَّحر وأضغاث الأحلام والشّعر شيء واحد أو بالاستكبار على الرّسل، الذين لم تمنعهم بشريتهم من الإعلان عن نبوتهم ورسالاتهم مثل سائر البشر، يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق ويموتون. ولكن القرآن المجيد يرد عليهم مقولاتهم تلك بالنّتائج التي يغفلونها ولا يفكرون فيها، وذلك أنَّ جميع ما وعدوا أقوامهم أو توعّدوهم به يجدونه يحدث كما وعدوهم به تماما: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩]. تبدأ السُّورة بهذا الإعلان الخطير الذي لا يمكن أن يستقبله إلّا البليد الذي تعطّلت قوىٰ وعيه كلها بالشّكل الذي استقبله به هؤلاء البلداء الذين لا يعقلون ولا يسمعون ولا يبصرون، إنَّهم شر ما عرفته الأرض وما دبَّ ويدبُّ عليها.

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ
إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء: ١-٣] الإعلان فيه قوة وطاقة فاعلة لا تقاوم، فقد اقتربت السّاعة وكأنَّها قائمة اليوم أو غداً، بل كأنَّها واقعة صباحاً أو مساءً أو هم قائلون، نداء يجعل العاقل يقلّب طرفه وعقله في نفسه وفي كل ما حوله ليتأكد هل أنَّه ما زال حياً أو أنَّه مات أو كاد يموت؟ ويستدعي هذا الإعلان كل مشاهد ذلك اليوم، التي أشرنا إليها ليضاعف (طاقات الخطاب القرآني وتأثيراته) في نفوس المخاطبين وعقولهم. ويشبه هذا الإعلان المزلزل -الذي بدأت به السّورة- قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ
ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا
تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾ [القمر: ١-٦].

وقوله -جلَّ شأنه-: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ [الأنبياء: ١] ولم يقل على النّاس، "لأنَّ" الحساب[1] الذي يقوم به أسرع الحاسبين جل شأنه سيكون عادلاً، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وسيجازي سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على الحسنة بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف، ولا يجزي على السّيئة إلّا بسيئة واحدة مثلها، فأي حساب أرحم وأكثر رأفة من هذا الحساب؟! وهذا الحساب يزيل أي إحساس بالخوف من الظّلم والجور، فهو حساب دقيق لو حاسب الإنسان نفسه بنفسه لما استطاع أن يصل إلى تلك النّتائج التي أوصله الباري إليها، وهناك يقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: ١٤] "وآنذاك" يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: ٤٩] فهو -إذن- يصح أن يقال فيه: "للنّاس، لا على النّاس".

﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ [الأنبياء: ١] الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التّحفظ والتّيقظ،[2] وهو نحو قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [ق: ٢٢] وغفلة المشركين والكافرين ومن إليهم عن دعوة الأنبياء والرّسل غفلة مقصودة متعمدة، وفيها معنى الإعراض عن ذكر الله، والاستعلاء على دعوة الرّسل وتكذيبهم. ولذلك قال تعالى في بعض هؤلاء: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] فهناك أناس ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادله: ٢٢] فصار الإيمان لهم جهاز تنبيه؛ إذ يفتح قلوبهم للحق ويغلقها عن الباطل، فإذا شاء الله تركها وشأنها للغفلة فعطّل جهاز التنبيه فيها، فإذا دعاهم الرّسل لم يسمعوا، ولو سمعوا ما استجابوا، قال

---

(١) الحساب استعمال العدد، يقال: حسبت أحسب حساباً وحسباناً، قال تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس:٥]، [الإسراء:١٢] وقال جلَّ وعلا: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ [الأنعام: ٩٦] وقيل: لا يعلم حسبانه إلا الله، وقال عز وجل: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الكهف: ٤٠]، انظر:
-الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٢٣٢. والحسبان يراد به هنا العذاب المكافئ لجرائم وخطايا المعاقبين، والحساب قد يكون هيناً، وقد يكون شديداً، قال -جلَّ شأنه-: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا﴾ [الطلاق: ٨].

(٢) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٦٠٩.

تعالىٰ: ﴿ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٥] وقد تكون الغفلة لعدم حصول الإنذار أصلاً: ﴿ مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يس: ٦].

والغفلة قد يستدعيها الغافل ليزيح عن عقله المستريح إلىٰ البطالة هم التّفكير في الحق الذي يعرض عليه التّدبرّ فيه، فهم لا يريدون أن يشغلوا عقولهم وقلوبهم بهذا الذّكر الجديد الذي جئتهم به لتكون خاتم النّبين والمرسلين.

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢]، ذلك شأنهم وشأن أمثالهم مع كل ذكر جاءهم من قبل، لا يستمعون له بإصغاء واهتمام ويقظة تناسبه، بل يستمعون إليه -لو استمعوا- وهم يلعبون. و"اللعب" فعل إنساني وهو نوعان: نوع يقصد الإنسان إيقاعه بقصد يهمه، وهدف صحيح يبتغيه، ونوع لا يقصده أو يقصد منه قتل الوقت وتمضيته، لأنه لا يرىٰ الحياة ولا ينظر إليها إلّا من زاويته ونتيجة نظرة عابثة: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

"الذِّكْر" يراد به تلك الطّاقة أو الهيئة التي تمكن الإنسان من أن يحفظ بها ما ناله من المعارف، فيقال لتلك الطّاقة "الذّاكرة". و"الحفظ" يطلق علىٰ إحراز المعرفة، و«الذِّكْر» يطلق علىٰ القدرة في استحضارها وذكرها بالقول أو القلب. ولذلك قيل: الذّكر ذكران، ذكر بالقلب وذكر باللّسان. وكل منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر عن إدامة الحفظ. وكل قول يصدق عليه ذكر بملاحظة ما تقوم به، فمن الذِّكر باللّسان قوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠] وقوله: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وقوله: ﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ [الأنبياء: ٢٤] وقوله عزَّ وجل: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقوله: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [ص: ١] وقوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ [ص: ٨] يراد بها القرآن المجيد. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل: ٤٣] أي الكتب المتقدمة. وقال عزَّ وجل: ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].[(١)] في هاتين الآيتين جمع

---

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص١٥٦، بتصرف.

معجز بين الكتاب والرَّسول الذي يحمله ليتلوه على النّاس، ويعلمهم آياته ويخرجهم به من الظّلمات إلى النّور، وذِكْر القرآن والرّسول بهذا الشّكل رد حاسم على أولئك الذين يزعمون أنَّهم قرآنيون فيعلون من شأن القرآن، لكنهم ينزلون بمهام النَّبي ﷺ إلى مستويات متدنية، وكأن من الممكن الاستغناء عنه ﷺ، لكن تلازم الآيتين بهذه الطَّريقة يجعل الذِّكر وحامله إلى البشرية كأنَّهما شيء واحد لا ينفصل. فالقرآن "ذي الذّكر" لا بدّ له من متلق يصطفيه الله تعالى لتلقيه عنه -جلَّ شأنه- ويبلغه لخلقه ويتلوه عليهم، والرَّسول لا يكون رسولاً إلا بالذِّكر الذي يوحيه الله تعالى إليه، فلا انفصام ولا انفكاك.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء: ٢] ليس مأخوذاً من كون الشّيء حدث بعد أن لم يكن كما هو اصطلاح الفلاسفة والمتكلمين، بل يراد به "كل ما قرب عهده بالسّامع" فكأنَّ للسّامع شيئاً من العذر إذا لم يلتفت إلى ذكر بعيد عهده، أما إذا كان حديث العهد به فيفترض أن يكون ما زال حاضراً في الأذهان شاغلاً لها يستمع إليه من يحدّث به بالجدية الملائمة: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء: ٨٧] ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: ١١١] ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ [النجم: ٥٩] فلا وجه لما اعتمد عليه المعتزلة من اعتبار هذه الآية نصاً في حدوث القرآن وكونه مخلوقاً.[1]

(١) قضية خلق القرآن قضية طرحها المعتزلة في مواجهة ما كان الأشاعرة أكدوا عليه، ونادوا به من كون صفات البارئ، ومنها الكلام صفات تتصف بالقِدَم، كما تتصف الذات الإلهية به، ويريدون «بالقِدَم» أن لا تكون الصفة أو من يتصف "بالقِدَم" مسبوقاً بعدم، وخروجاً من استدلالات خصومهم عليهم فقد ابتكروا فكرة التفريق بين الكلام النفسي الذي يهيئه المتكلم في نفسه قبل أن ينطق به ويكون كلاماً، فقالوا: الكلام القديم هو ما قام في ذات الله تعالى، أما المكتوب المقروء المنطوق به من البشر فإن له شأناً آخر. وأصل الإشكال جاء حين ظن المأمون أن الكلمة يمكن أن «توثَّن»، فبعض طوائف النصارى قد وثّنوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو كلمة الله، والقرآن كلام الله والمسلمون يعظمونه تعظيماً شديداً، وقد توجد في المسلمين في المستقبل طوائف تحوّل القرآن إلى وثن، ولمقاومة ذلك أرادوا التأكيد على أن القرآن خلق من خلق الله فهو محدث كان بعد أن لم يكن موجوداً، وظن أنه بذلك سوف يقطع الطّريق على من قد يوثن القرآن كما وثنت النصارى السيد المسيح "الكلمة"، وقد تبنى ذلك الرأي بشدة وأقنع المعتزلة به، ولما رفض الأشاعرة وأهل السُّنة بصفة عامة ذلك فتحت أبواب السجون، ليدخلها المخالفون لمذهب الخليفة، ومن أشهر من اضطهد في هذه الفتنة الإمام أحمد بن حنبل. ولقد استمرت تلك الفتنة الشغل الشاغل للعلماء وولاة الأمور، وصناع القرار ما يزيد عن=

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣].

"واللهو ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمه ويقال: "لهوت بكذا ولهيت عن كذا اشتغلت عنه بلهو" ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٣] اسم مفعول أي ساهية مشتغلة بما لا يعنيها.

وقد جاء في القرآن الكريم في آيات عديدة منها: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌۚ ﴾ [محمد: ٣٦]، و[الحديد: ٢٠] وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو، قال تعالىٰ: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٧] كما سيأتي (في الآية ١٧) من هذه السّورة، ويقال: "ألهاه" إذا شغله عما هو أهم لديه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾ [التكاثر: ١] وقوله تعالىٰ: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧].[1] وليس في ذلك تقبيح للتّجارة والبيع، بل هو تقبيح للانشغال عن ذكر الله وإقام الصّلاة، وأخطر أنواع اللهو لهو القلوب.

﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ [الأنبياء: ٣] ناجيته: ساررته، فكأنّك نجوت بسرك إذ ساررت به من هو موضع ثقتك، ولشدة إصرار المشركين علىٰ شركهم، وتشبثهم بمعاداة رسول الله ﷺ وإنكار ما جاءهم به فقد جمعوا إلىٰ إعراضهم ولهوهم ولعبهم أن يتناجوا، ويسروا النّجوىٰ علىٰ الصّد عن سبيل الله، مبالغة في التّكتم علىٰ ما يدبرون، توهماً منهم أنَّ الله –تعالىٰ– مثل آلهتهم التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئاً.

= ثمانية عشر عاماً. عانىٰ العلماء خاصة فيها شتىٰ أنواع العذاب. لقد استغرقت خلافة المأمون والمعتصم وشيئاً من خلافة المتوكل الذي اقتنع بأن هذه الأطروحة مجرد رأي له ما له وعليه ما عليه، والناس ينبغي أن يتركوا أحراراً فيما يتبعون أو يتجاوزون من الأفكار والمذاهب. وخطورة القول بخلق القرآن وكونه محدثاً، وإلغاء كونه كلاماً يتصف البارئ –جلَّ شأنه– أنه المتكلم به أنه أمر قد يزيل عن القرآن المجيد صفة الإطلاق، ويدخله في دائرة النسبية، وفي ذلك ما فيه من فتح باب للاعتراض والمطاعن ليس من السهل أن يغلق، لذلك فقد وقف أئمة أهل الحديث والأشاعرة وسائر الطوائف المخالفة للمعتزلة ذلك الموقف الصلب من هذا القول، وواجهوه بكل ما استطاعوا من قوة خوفاً من ذلك.

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٧٤٨. بتصرف.

وما هذا الذي يتناجون فيه؟ إنَّه الإثم والعدوان ومعصية الله ورسوله ﷺ ومن هذا الإثم والعدوان الذي يسرونه نجوىٰ قولهم عن رسول الله ﷺ: ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٣]، فالرَّسول في نظر غرورهم واستكبارهم لا بدّ أن يكون ملكاً، لا بشرا، وأمَّا وقد جاءهم بشر مثلهم إذن فهو ساحر أو كاهن أو شاعر: ﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾ [الأنبياء: ٣]، إنَّه فَعَل فيكم مالم يفعله إلّا السَّحرة عادة من التَّفريق بين الأب والابن، والأخ وأخيه، والزّوج وزوجته. ولغبائهم وبلادة حواسهم حين يعلمهم رسول الله ﷺ بأسرارهم وبما كانوا يتناجون فيه، كانوا يتساءلون ببلادة "كيف علم ما كنا نتناجىٰ به ونُسِرُّه؟!" وكأن نجواهم أخطر وأهم من الوحي الذي يأتيهم به الرسول الله ﷺ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان رسول الله ﷺ يجيب علىٰ تساؤلهم ذلك بقوله الذي حكاه الله –تعالىٰ– عنه: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ ﴾ [الأنبياء: ٤]، ولم يقل –جلَّ شأنه–: "قال ربي يعلم النجوىٰ" أو"يعلم ما تسرون"، بل جاء بكلمة "القول" لتشمل كل ما يطلق عليه "قول" في القرآن المجيد، فليس هناك نوع من أنواع القول يمكن أن يخفىٰ علىٰ من لا تخفىٰ عليه خافية.

"القول والقيل" وردا في الكتاب بمعنىٰ واحد، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢ ﴾ [النساء: ١٢٢] والقول يستعمل علىٰ أوجه كثيرة في الكتاب أظهرها أن يكون لما يطلق عليه "قولاً" وهو المركب من حروف في النَّفس ثم تبرز في النّطق مفردة أو جملة، ولذلك عبّر ابن هشام في قطر النّدىٰ عن الكلمة بأنَّها "قول مفرد" وانصرف ابن مالك لتعريف الكلام –وهو أحد معاني القول– فقال: "كلامنا لفظ مفيد كاستقم" ثم ذكر أقسامه فقال: "واسم وفعل ثمَّ حرف الكلم" فكل واحد من الثّلاثة يصلح أن يطلق عليه: "قول" وتسمىٰ المقالة والخطبة "بالقول" كذلك، وحديث النّفس يطلق عليه قول فيقال: "قلت في نفسي كذا" قال تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة: ٨]، ولذلك أطلقت كلمة "قول" علىٰ "الاعتقاد" فيقال: "فلان يقول بقولة الطّائفة الفلانية. وسمىٰ الأشعري "اعتقادات الفرق" بـــ "مقالات الإسلاميين". كما أطلق القول علىٰ الإلهام، وفي قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ

﴿ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴾ [الكهف: ٨٦] قالوا: لأنَّ ذا القرنين لم يكن نبيا وقيل له ذلك على سبيل الإلهام لا على سبيل الوحي. ونسب القول إلى السّماوات والأرضين ﴿ قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

قال سبحانه للنَّار التي أوقدت لإبراهيم: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وقوله -جلَّ شأنه-: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ [آل عمران: ١٦٧] دليل على ضرورة ارتباط القول بالقلب وإلَّا كان كذباً غير مقصود. وقوله عزَّ وجل: ﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يس: ٧] أي ثبت علم الله -تعالى- فيهم وبذلك ثبتت كلمته عليهم فتطابق العلم الإلهي والكلمة الإلهية، ولذلك قال جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ٩٦] كما قال تعالى بعد أن أوضح حقيقة السّيد المسيح الذي هو كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾ [مريم: ٣٤] لينبه إلى ارتباط ذلك بقوله -جلَّ شأنه-: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] فكما سماه "كلمة" سماه "قول" ويصف القول بما يدل على مدحه وما يدل عله ذمه، قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴾ [الذاريات: ٨] وقال -جلَّ شأنه-: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٣] ونسبة القول إلى الرَّسول لأنَّه الحامل للخطاب من المرسِل -جلَّ شأنه- ومبلغه المباشر إلى المرسل إليه. وحين لم يوقف ذلك رسول الله ﷺ عن تلاوة ما أنزل إليه من ربه، ولم يَحُلْ بين النّاس وبين الاستماع إلى آية الله، جاؤوا بفِرْيَة أخرى ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥-٦]، "أضغاث" جمع "ضغث" وهو حزمة أو قبضة من ريحان أو حشيش أو عيدان، قال تعالى: ﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا ﴾ [ص: ٤٤] و ﴿ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ [يوسف: ٤٤]، وهي حزم مختلطة "وأضغاث الأحلام هي الأحلام المختلطة التي لا تبين حقائقها. فكأنَّهم -قاتلهم الله- شبهوا التّنزيل لتنوع حقائقه وتعددها "بأضغاث الأحلام المختلطة"، مما لا يمكن لعربي أن يعرف لغته حق المعرفة، ثم استرسل المشركون في افترائهم فقالوا:

﴿ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥] وتعمد تأليفه واختلاقه، وإذ لم يجدوا صدىً لافتراءاتهم تلك قالوا: ﴿ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥ ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقد ردّ الله عليهم كل تلك الافتراءات فقال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥١ ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١] وقال جلَّ شأنه لهم: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ۝١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٠٢ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ۝٢٠٣ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٢٠٤ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-٢٠٧]، إنَّ القرآن غني عن طلب شهود من خارجه يشهدون بصحته وصدقه، ومع ذلك فقد تنزل لهؤلاء القوم ولفت أنظارهم إلى علم علماء بني إسرائيل كحقيقة، وإنَّه كتاب الله الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومشركو العرب كانوا يحسنون الظّن بعلماء بني إسرائيل، وقد يستشيرونهم في بعض الشؤون لعلمهم بأنَّهم أهل كتاب سابقون، لديهم من العلم ما ليس عند عرب الجاهلية، فليأخذوا شهاداتهم في القرآن. أمَّا إصرارهم على رفض آيات القرآن وطلب الآيات الحسية، فذلك جزء من جهلهم وبلادتهم التي أجاب القرآن عنها في مواضع عديدة، منها ما تلوناه في سورة الشُّعراء والعنكبوت. فالآيات الحسية؛ إذ طلبها النَّاس -وقدر الله الاستجابة لهم- ثمَّ لم يؤمنوا، فلن يمهلوا، بل يعمهم العذاب، وقد طلبتها أُمم كثيرة قبلهم، وأعطوا مواثيقهم وعهودهم أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآيات، فلمَّا جاءتهم الآيات ولم يؤمنوا أهلكوا، وهم ليسوا بدعاً من هذه الأُمم، فإذا جاءتهم الآيات ولم يؤمنوا سيهلكون، والله لا يريد إهلاكهم لسببين: الأول وجود رسول الله ﷺ فيهم، والثّاني: دخول بعضهم في الإسلام: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فهذه سنة إلهية في هذه الأُمّة.

وعاد السّياق ليردّ على تشبثهم بكفرهم دون دليل أو حجة، إلّا ذلك الخيال المريض الذي افترض -دون أي دليل أو إماره أو إثارة من علم أو قرينة- أنَّ البشر لا يكونون رُسلاً، وأنَّ الرّسل يجب أن يكونوا من الملائكة، فقال -جلَّ شأنه-: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ﴾ [الأنبياء: ٧-٨] الجسد "ما يُصنع من مادة الأرض على شكل إنسان أو تمثال"، قال تعالى: ﴿ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ [طه: ٨٨] وقال تعالى: ﴿ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ ﴾ [ص: ٣٤].

"التّمثال" هو الشّيء المصوّر والممثل على مثال غيره، فهو جسد لا يأكل ولا يشرب، فإذا أردتم معرفة الفروق بين الرّسل وغيرهم، ومنها زعمكم استغناء الرّسل عن الطّعام والشّراب أو نفي الموت عنهم، فتلك أمور ملازمة للإحياء، ثم تتبعوا سنة الله التي سبقت لعباده المرسلين ﴿ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٩ ﴾ [الأنبياء: ٩] فلقد وعدنا رُسلنا بذلك ووفينا به: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢ ﴾ [غافر: ٥١-٥٢]، ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١ ﴾ [المجادلة: ٢١]".

ثم يوجّه القرآن المجيد خطابه إلى أولئك العرب المشركين، منبهاً إياهم بأنّهم قد خسروا -برفضهم اتباع رسول الله ﷺ والكتاب الذي أنزل على قلبه- شرفاً وسمعة هم أحوج ما يكونون إليها، ومن يفرط بما له فيه مصلحة بينة مثل هذه فذلك دليل على غبائه وقلةِ عقله: ﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠ ﴾ [الأنبياء: ١٠]. فلو آمنتم به وقبلتموه وحملتموه إلى النّاس لكان شرفاً وذكراً لكم، فلا يُذكر القرآن إلّا وتذكرون به ومعه، وذلك تحريض وحضّ لهم شديد على الإيمان بالقرآن، أكده بقوله: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠ ﴾ [الأنبياء: ١٠]، فكيف تفرطون بهذا الشّرف الذي اعتدتم أن تبذلوا الأرواح والمهج للحصول على مثله، ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ۝٤٤ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ونحوه ما جاء في سورة الشّرح خاصاً برسول الله ﷺ: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ ﴾ [الشرح: ٤] فهو ذِكْر وشرف، ونور وموعظة، يهدي به الله

من آمن به سبل السّلام، ويخرجهم من الظّلمات إلىٰ النّور. والذّكر قد يطلق ويراد به الكتاب: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [ص: ٨].

وبعد ذلك التّحريض لهم عاد السّياق ليبين لهم أنّهم بإعراضهم عن رسول الله والقرآن وصدهم عن سبيل الله سيخسرون ذلك الشّرف والذّكر، كما أنهم سيتعرضون لسخط الله وهلاك قريتهم وأمتهم.

النَّجم الثّاني:

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾ [الأنبياء: ١١-١٥]

"القصم" التّحطيم والتّهميش، ويقال: " قاصمة الظّهر " للمصيبة أو النّازلة التي لا يُرجىٰ الخروج منها أو اجتيازها. فالقرىٰ التي قصمها الله قرىٰ أهلكها ودمرها بحيث لا تقوم لها قائمة بعد ذلك. فكأنَّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ خَيَّرهم بين الذّكر والشّرف والسمعة الطّيبة مدىٰ الدّهر، وبين الإهلاك والتّدمير، "والقرية" في الاستعمال القرآني لا يراد بها القرية في مفهومها المعاصر، بل المراد ما يقابل المدن والعواصم الكبرىٰ في هذا العصر. وحين أطلق القرآن المجيد علىٰ مكة أنَّها "أم القرىٰ" أراد بذلك أنَّها عاصمة المدن أو أكبرها في سائر ما تحمل من معاني.

وهذه الآيات تبين حالة أولئك المستكبرين حين تداهمهم ساعات إذاقتهم العذاب كيف يتنازلون عن غطرستهم وكبريائهم وغرورهم، فيركضون هرباً ولا ملجأ من الله إلّا إليه. إنّ "قصم القرىٰ" وتحطيمها بذلك الشّكل لا يُبْقِي لأهلها وساكنيها فرصة للتّريث لأخذ شيء من أمتعتهم وما أُتْرِفوا فيه؛ لأنَّ القرية وشظايا بيوتها المتطايرة تصبح وسائل تدمير لسكانها، يجعلهم بعد إحساسهم ببأسه -سبحانه- يركضون هرباً من شظايا وقطع بيوتهم المدمرة والمتناثرة أن تصيبهم فتدمرهم، فينادَون بسخرية مدمرة: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣﴾ [الأنبياء: ١٣]، لعل من يمر بقريتكم التي قصمنا يسألكم عما حدث، فتقصّون عليه ما حدث لكم

ولقريتكم. لكنهم أمام هذه الأهوال التي داهمتهم لم يعودوا قادرين على قول أي شيء سوى: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾ [الأنبياء: ١٤] لأنفسنا ولأنبيائنا ولربنا وللنّوع البشري الذي ننتمي إليه، فهي الكلمة الوحيدة التي يستطيعون ترديدها قبل أن يدمروا مع شظايا قريتهم الظّالم أهلها والتي عتت عن أمر ربها، ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ [الأنبياء ١٥] لا يجدون ما يقولونه سواها، حتى جعلهم الله كالزّرع المحصود بعد جمعه وتحويله إلى أكداس، فصاروا ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾ [الأنبياء: ١٥]. فمن حيث إبادتهم وقطع سائر أسباب الحياة عنهم كانوا حصيداً، ومن حيث حقدهم على أنبياء الله ونشاطهم في الصدِّ عن سبيل الله وسبيلهم صاروا كنار خامدة. فجمع -جلَّ شأنه- في هاتين الكلمتين كل معاني الهلاك والتّدمير وخمول النّشاط، فحُصِدُوا كزرع، وأُخْمِدت نيران عداوتهم كخمود النّار بعد تأجيج واشتعال.

ومن الآيات التي تُبَيِّنُ مصائر القرى التي تصدُّ عن سبيل الله وتكفر بما جاء به رُسله آيات سورة الأعراف ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ [الأعراف: ٩٤-١٠٠] وآيات سورة يونس ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [يونس: ١٣-١٤].

بعد هذه الآيات السّابقة التي تناولت موضوع النّبوة والأنبياء، وكيف كتب الله النّصر في النّهاية للأنبياء والرّسل على المكذبين وأصحاب القرى الظّالمة، أخذنا السّياق إلى دليل الخلق، فكأنّه أراد أن يستدل بدليل الخلق، وأنّه لم يكن عبثاً ولا لغاية اللهو واللعب، بل كان لغايات أعظم وأكبر من ذلك كله، لعلهم يستطيعون أن يستيقظوا

من غفلتهم التي كانت سبب إعراضهم، ويدركوا أنّ من يتخذ من خلق السّماوات والأرض لهواً أو لعباً لا يمكن أن يتخذ من الوحي النّازل علىٰ الأنبياء إلا لهواً ولعباً، بحيث يقابلون ذلك الوحي بغفلة وإعراض، ويستمعون إليه وهم يلعبون وبقلوب لاهية مشغولة، فالذي خلق السّماوات والأرض بالحق أنزل الوحي بالحق كذلك، فكلاهما من مصدر واحد ومنبع واحد هو الحق بعينه. ثمّ بَيَّنَ -جلَّ شأنه- أنَّه ليس بحاجة إلىٰ اللهو، بل إنَّ اللهو بالنّسبة له مستحيل، لكن المشركين يقيسون الإله الحق بآلهتهم الباطلة التي اتخذوها آلهة، فيقعون في هذه الأوهام والأخطاء القاتلة.

النَّجم الثّالث:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٦-٢٠].

إنَّ هؤلاء المشركين حين يسألون عمن خلق السّماوات والأرض لا يملكون إلّا أن يعترفوا بأنّه إله آخر غير الآلهة التي يَدَّعون ويُعَظِّمون؛ ولذلك قال -جلَّ شأنه-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٩] ولذلك فإنَّ العزيز العليم -جلَّ شأنه- يقيم الحجة عليهم انطلاقاً من مسلماتهم، أنَّ هذه السّماوات والأرضين التي أدركتم أنَّ خالقها لا بدَّ أن يكون العزيز العليم، هي نفسها التي لم نخلقها لاعبين، بل خلقناها بالحقّ. ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩] وقال تعالىٰ: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣].

وكان في مقدوركم أن تقيسوا نزول الوحي والذّكر علىٰ خلق السّماوات والأرض، فالوحي نازل بالحق كذلك. فكما أننا لم نخلق السّماوات والأرض وما

بينهما لاعبين، فإنّنا لم ننزل الوحي والذّكر على رسلنا لاعبين؛ لأنَّ اللهو واللعب ليسا من صفاتنا ولا يليقان بنا، و ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾ [الأنبياء: ١٧] فإذا كان الأمر كذلك، فيجب ألا تنصرف أذهانكم إلى أنّنا كنا لاعبين عند إنزال الوحي والذّكر على رسلنا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ٤٣﴾ [فصلت: ٤١-٤٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: ٥٦-٥٧]. وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠﴾ [غافر: ٦٩-٧٠].

أمَّا المؤمنون بالله تعالى فهم يعلمون بأنَّ خلق السّماوات والأرض إنما هو بالحق وليس باطلاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]. لكن الذي يليق بنا ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١٨] الذي أنزلنا به الوحي والذّكر على أنبيائنا ورسلنا ﴿عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ﴾ [الأنبياء: ١٨] الذي تتمرغون فيه ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨]، فنقضي عليه بداية من الدّماغ بحيث لا يكون لديه فرصة للحياة من أي نوع، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: ١٨] ويزول هذا الباطل كله، فكأنَّه يُنَبِّهُ إلى أنَّ هذا الوحي والذّكر المنزل على الأنبياء والرّسل مهمته الأولى أن يدمغ الباطل فيزهقه. فلذلك فإنَّ شغبهم ولهوهم ورفضهم وتماديهم بقولهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: ٢٦] لن يكون له أي أثر في الوقوف بوجه الحق الذي أنزل الله به الذّكر ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ [الإسراء: ١٠٥] ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ [الأنبياء: ١٨] من الكذب والافتراء على الله -تعالى-، ومثل هذا الوصف ما أخبر الله به في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١]. ثم أخبر -جلَّ شأنه- أنَّ ما يدعوهم إليه من توحيده وعبادته ليس لحاجة منه سبحانه، فهو غَنيٌّ عن خلقه كافةً، ومع ذلك فإنَّ له ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنبياء: ١٩] في الملأ الأعلىٰ ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩] كما تستكبرون أيها المشركون، ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، أي: يتعبون وَيكِلّون، فهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ومهما اجتهدوا في العبادة فهم لا يستحسرون، أي: لا يشتد تعبهم ولا يشعرون أنَّهم في حاجة إلىٰ فتور، فالعبادة جزء من تكوينهم، والتّسبيح في طبيعتهم.

النَّجم الرابع:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [الأنبياء: ٢١- ٢٩]

هذه الآيات تبين الحقيقة الكبرىٰ التي يستكبرون عنها وهي التّوحيد. فكأنَّه -جلَّ شأنه- يقول لهم: إنَّ كل ما تقدم من ذنوبهم وخطاياهم وجرأتهم عليه وخوضهم ولهوهم ولعبهم، كل ذلك لا يساوي اتخاذهم ﴿ءَالِهَةٗ﴾ [الأنبياء: ٢١] من دون الله ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنبياء: ٢١]، لا علاقة لهم بالسّماء مثل الواحد الأحد ﴿ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [الزخرف : ٨٤]، فاتخذوا من الأرض آلهة وأوهموا أنفسهم أنَّهم يتمتعون بالقدرة علىٰ أن ينشروا ويحشروا ويبعثوا مَنْ في القبور؛ لأنَّهم غافلون عن أنَّ كل ما في الوجود يدل علىٰ وحدانيته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لأنَّه: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأنبياء: ٢٢] العظيم الذي لا يُمَكّن أحداً أن يستوي عليه، فتبارك وتقدس

وتعالىٰ الله رب العرش ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فهو وحده -جلَّ شأنه- ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وهم جميعاً ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣] عن إيمانهم وأعمالهم وأفعالهم من خير وشر.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ [الأنبياء: ٢٤] من دون دليل ولا قرينة ولا برهان يدل علىٰ ألوهيتهم، ولعلَّ تلك الأفهام الكليلة تصل إلىٰ ذلك الإدراك حين يجري تحدِّيها، ويقال لها: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ﴾ [الأنبياء: ٢٤] والله يعلم أن لا برهان لهم علىٰ شيء، لكن الأمر من الله للنّبي الكريم أن يطلب من هؤلاء الغَفَلة الجاهلين اللاعبين أن يأتوا ببرهان علىٰ أنَّ من اتخذوهم آلهة هم آلهة فعلاً. وبإشارة حكيمة يشير الله -تعالىٰ- إلىٰ أنّ البرهان ينبغي أن يكون صادراً عن الوحي وعن الله -جلَّ شأنه- فيقول لهم: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ﴾ [الأنبياء: ٢٤] وليس فيهما أية إشارة إلىٰ دعوىٰ أو إقرار أو سند يسند دعاواكم بوجود الشّركاء، أو وجود آلهة غير الله -تبارك وتعالىٰ-، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ﴾ [الأنبياء: ٢٤] ولا يعرفونه، فضلاً عن أن تكون لهم عقول قادرة علىٰ الوصول إلىٰ البراهين واستخلاصها، ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٤﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وسبب إعراضهم هو جهلهم بالحق واستكبارهم علىٰ مَنْ أرسلهم الله - جلَّ شأنه - لتعليمهم ذلك الحق. ويزيد -جلَّ شأنه- في تحديهم أن يأتوا بأي برهان علىٰ دعاواهم الشّركية فيقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥] فالذّكر يكذبهم ورسل الله يكذبونهم، ثمَّ يبين الله -جلَّ شأنه- مدىٰ سخف عقولهم وضآلة تلك الأفهام حين تنزلوا من دعوىٰ وجود شريك لله إلىٰ دعوىٰ وجود ولد له: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ﴾ [الأنبياء: ٢٦] مثل عزير والسّيد المسيح والملائكة، ظناً منهم أنَّ ذلك سيحقق لهم ما استهدفوه من الشّرك، ولكن بتغيير صفة الشّريك، فينسبونه إلىٰ الله -تعالىٰ- كولد له. وهم كقوم يعيشون في مجتمع قَبَلي يرث فيه الابن الأكبر أباه؛ إذ توهموا أنَّ نسبة الولد إلىٰ الله -جلّ شأنه- قد تكون من الأمور التي يمكن أن تمرَّ وتُقبل، خاصةً إذا كان الولد - المدعي والمنسوب إليه - خلق من أم دون أب، فمن المقبول -في عقولهم المريضة- أن يُنسب إليه ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وبذلك يكونون قد حَقَّقوا الشّرك الذي تبنوه، وزيفوا التّوحيد وذلك هدفهم،

وقسموا العبادة والولاء بين الأب والابن، وجعلوا النّاس يتصورون أنَّ الإله -جلّ شأنه- مثله مثل خلقه، يشبههم فله صاحبة وله ولد، ومن ثمَّ فأية غرابة في أن يكون له شركاء، فالغريب عندهم هو التّوحيد لا الشّرك الذي أَلِفوه وعاشوا عليه. فهؤلاء الذين نسبوهم إلىٰ الله كأبناء، لا يمكن أن يكون منهم آلهة أو أولاد لله، لا هم ولا سواهم، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦] لا يضرهم ولا يقلل من شأنهم، ولا يحملون أية مسؤولية عن شرك هؤلاء وما ينسبونه إلىٰ هؤلاء العباد المكرمين.

وقوله -تعالىٰ-: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦] شاملة لكل الرّسل والأنبياء والملائكة. فهذه الآية تستكمل قضية التّوحيد التي لم يجد المشركون لديهم أي دليل أو برهان يستطيعون تقديمه لإسناد زعمهم في تأليه الشركاء.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧-٢٨] فلا يتعدون الحدود التي حددها الله -جلَّ شأنه- لهم، فهؤلاء المشركون الذين يأملون أنَّ هؤلاء الشّركاء سيشفعون لهم، لا يعلمون أنَّهم ﴿بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهم يخشون ربهم ويتّقونه، وما من أحد منهم ممكن أن يقول للنّاس إني إله من دون النّاس؛ لأنه يعلم أنَّ جزاءه سيكون النّار ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٩] وتستدعي هذه الآيات حوار سورة المائدة بين الله -تبارك وتعالىٰ- والسّيد المسيح، ذلك الحوار الشّيق: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٩].

النَّجم الخامس:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣]

هذه الآيات الكريمة تستهدف - في كثير من الأحيان - تحدي عقول المشركين والمخاطبين بصفة عامة، واستفزازها ودفعها إلىٰ التّفكير، فإنَّ أهم ما عمل الأنبياء علىٰ الدعوة إليه وجعل البشر يؤمنون به هو وحدانية الله -جلَّ شأنه- وتفرده بالألوهية والرّبوبية والصّفات، وهذا التّوحيد والتفرّد حجر الزّاوية الذي يقوم عليه كل ما يأتي بعده من الإيمان بالبعث بعد الموت والنّشور والحساب والجزاء، وصيرورة فريق إلىٰ الجنة، وفريق آخر إلىٰ السّعير، وكل ما في الوجود يشكل آية وعلامة ودلالة علىٰ وحدانية الله -جلَّ شأنه- وتفرّده بالألوهية والرّبوبية والصّفات، يدل بشكل أو بآخر علىٰ اليوم الآخر ثمّ البعث والنّشور والحساب والجزاء، ولكن الإنسان محل النّسيان، وأحياناً كلما اشتدّ ظهور الأشياء حوله ازداد غفلة عنها، وقديماً قيل: ومن شدة الظّهور الخفاء، فيقوم القرآن الكريم باستفزاز قُوىٰ الوعي الإنساني وتحديه ودخول في حوار معها، وفي هذه الآية الكريمة يوجه الله لهؤلاء استفهاماً انكاريّاً يستفز به قُوىٰ وعيهم لأمر يفترض أن يكون مُشاهداً مرئياً، فهذه السَّماء نراها رتقاً مصمتة مغلقة فتفتح وينزل منها الماء المنهمر ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ [القمر: ١١] يصاحبه الرّعد والبرق وسواه، وهذه رؤية بصرية، وترىٰ الأرض هامدة فينزل الله الماء عليها فتهتز وتربو وتتفتق عن زروع وأشجار وثمار، وتتحول المياه أحياناً إلىٰ أنهار، وهكذا وهي مما يُرىٰ ويُشاهد بين الحين والآخر.

وهذا إذا أخذنا الرّؤية التي وقع الاستفهام الإنكاري عليها وهي الرّؤية البصرية، وإذا اردنا الرّؤية العلمية، فذلك أمر لا يعلمه إلّا العلماء المتخصصون الذين يستطيعون أن يتفهموا أنَّ السّموات والأرض كانت كتلة واحدة متصلة رتقاً، ففصل

الله -جلَّ شأنه- بقوته وقدرته الأرض عن السّماء وفتقها، لإزالة ذلك الاتصال الذي كان، وتحديد وظائف كل منهما بعد ذلك، فأمَّا السَّماء فقد جعلها الله – تعالىٰ- سقفاً محفوظاً وفيها آيات كثيرة جداً، ففيها النّجوم مصابيح، وفي الوقت نفسه وسائل رجم للشّياطين، وجعلها ذات حبك، وينزل أمره-جلَّ شأنه- بين السّماوات كما هو في علمه، وجعل الأرض فجاجاً وسبلاً وطرقاً ومهاداً وفرشاً، وجعل فيها رواسي لتستقر وتؤدي للإنسان وظائفَ كثيرة وخدمات تساعده علىٰ مهام الاستخلاف والقيام بها والأمانة والابتلاء، لعل النّاس يهتدون إلىٰ الخالق العظيم الذي أعطىٰ لكل شيء خلقه ثمّ هدىٰ، وأعطىٰ للسّماء خلقها وجعلها سقفا محفوظاً، وخلق اللّيل والنّهار والشّمس والقمر، وجعلها سابحة في أفلاكها، وقدر القمر منازل، وجعل الشّمس تجري لمستقر لها، فيكون للنّاس ليل يسكنون فيه، ونهار ينطلقون فيه للحصول علىٰ معايشهم، وتستقيم الحياة وتتم حلقات العهد الإلهي مع الإنسان باستخلافه وانتمائه وابتلائه ثمَّ مجازاته بعد ذلك، فهذا الخلق كله خُلِقَ بتقدير العزيز العليم، فأوحىٰ في كل سماء أمرها، وهيّأ كل جزء من هذا الكون لما خلق له، وسخره لهذا الإنسان لينهض بتلك المهام التي أوكلت إليه.

هذه الآيات لو تدبرها الذين كفروا لتمكنوا من أن يدركوا أنَّ البعث والنّشور أمران معقولان، لأنَّ الله القادر علىٰ كل ذلك، قادر علىٰ أن يُعيد هذا الخلق ويبعثه مرة أخرىٰ ويحشر النّاس إليه جميعاً، ويدركوا -أيضاً- أنَّها قدرة لا يمكن أن تكون موضع شك أو تفكير، فالّذي لم يَعْيَ بخلق ذلك كله، ولم يعجزه شيء منه لن يكون صعباً عليه أو مُتعذراً إعادة ذلك الخلق، بل هو في المقاييس العقلية – لو كانوا يعقلون – أهون عليه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

لكن هذه الآيات كثيراً ما يغفل الناس عنها، ويعجزون عن تدبرها وتأملها، فهذا الخالق العظيم الذي تفرد بخلق كل شيء وقدره تقديراً، هو المتوحد المتفرد بالعظمة والجلال والكبرياء والجمال، مستغنٍ عن الشّركاء، وهو الأحد الصمد الذي ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، فكان حرياً بهؤلاء أن يعرفوه ويؤمنوا به ويستغفروه وتخبت قلوبهم لجلاله.

النَّجم السادس:

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٦]

ينتقل بنا السّياق إلىٰ جانب آخر من جوانب الغفلة والجهل لدىٰ هؤلاء المشركين، يتعلق بجهلهم بحقيقة النّبوة وطبيعة رسالات الأنبياء ومهامهم، فهم لم يسمحوا لأنفسهم أن يتلقوا عن الله -جلَّ شأنه- حقيقة النّبوة، وهي من الأمور السّمعية، كما أنهم لم يعطوا لأنفسهم فرصة التفكّر في معرفة الدّور الذي يقوم به الأنبياء في هداية البشر إلىٰ ربهم، ولم يفطنوا إلىٰ أن الرّسالة والنّبوة لا بدّ وأن يقوم بها بشر مثل بقية البشر، ليتمكنوا من الاتصال بهم ومخاطبتهم وإبلاغ الدّعوة إليهم، لكنّ عناد هؤلاء الكافرين حملهم علىٰ أن يضعوا مواصفات خاصة للرسل تخيلوها في مخيلاتهم وابتدعوها، فزعموا أنّ الرّسل والأنبياء ينبغي أن يكونوا ملائكة أو جزءاً من العالم الغيبي، ولو كانوا كذلك لما أمكن لهم أن يخاطبوا البشر الذين لا ينتمون إلىٰ جنسهم، ولا صلة بين الملائكة وعالمهم إلّا بطرق يعلمها الله ويحددها -جلَّ شأنه-، وحين نبه الله -تعالىٰ- هؤلاء الغافلين علىٰ أنَّ الملائكة لا يمكن أن يكونوا رسلاً للبشر، وأنَّ رسل البشر لا بدّ أن يكونوا منهم لا من الملائكة ولا من سِواهم، وإلّا استحال الاتصال والتّواصل بين الرُّسل والمرسَل إليهم، ولذلك كان مجيء الملائكة إلىٰ البشر نذير سوء، لأن الملائكة تأتي لإهلاك أمم المكذبين وتدميرهم وأخذهم بالصّيحة أو بالرّجفة، وما شاكل ذلك من أنواع العذاب -والعياذ بالله-، ولذلك قال الله -جلَّ شأنه-: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢﴾ [الفرقان: ٢٢] ولـمّا أدرك – هؤلاء الذي قالوا بضرورة أن يكون الرّسل إليهم من الملائكة – أنه أمر لا يستقيم، عمدوا إلىٰ العيب علىٰ الرّسول بأنّه يأكل الطّعام، ويمشي في الأسواق، ويموت كما يموت النّاس، ولايحمل صفة الخلود، وقد يكون هذا الموضوع جاءهم بتأثير الثّقافة الكتابية التي زعمت خلود موسىٰ وعيسىٰ وأنّهم في حالة غيبة، وأنهم سيرجعون منها وليسوا في حالة موت، فقالوا لرسول الله: ما دمت ستذوق الموت

مثلك مثل أيّ بشر آخر، وأنك لن تخلّد في هذه الأرض، فإذن أنت لست برسول ولا نبي، فتأتي رداً عليهم ونفيا لانحرافات مَنْ سبقهم في تصور أنَّ أحداً من النّاس أو من الأنبياء السّابقين قُدِّرَ له الخلد، فقال -جلَّ شأنه-: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. إنّ طبيعة هذه الحياة وطبيعة خلق الإنسان فيها لا تسمح بالخلود فتأتي الآية التالية: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] إن وجودكم في هذه الحياة الدّنيا هو وجود قصير محدود بتحقيق مهمة الابتلاء ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك: ٢]. وبعد رجوعكم إلينا هناك ستأتي مرحلة خلود فيقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة، خلود بلا موت، ويا أهل النّار، خلود بلا موت. وبخصوص نفي الخلود عن رسول الله ﷺ ورد قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقد أَلِفَ هؤلاء أن يسخروا منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويتخذوا مما يدعو إليه مجال استهزاء، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٦] وهم أحق بالسّخرية والاستهزاء، فهم يكفرون بالرّحمن -جلَّ شأنه-، أمّا أنت فتكفر بأصنام سمّوها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، صنعوها بأيديهم وزعموا أنّها آلهة، وأنّها تقربهم إلىٰ الله زلفىٰ، وأنّها تفعل لهم، وتفعل، إلىٰ غير ذلك.

النَّجم السابع:

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ

عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٧-٤٧]

ترتبط هذه الآيات الكريمة بما قبلها، فقد كان استهزاء المشركين برسول الله ﷺ يثير المؤمنين ويستفزهم، وربما تمنوا لو أنّهم لم يؤمروا بكفِّ أيديهم عنهم، فيستعجلون عذاب الله الذي توعدهم به، والّذي لا يكف المشركون عن سؤال رسول الله ﷺ أن يأتيهم به ويعجل بإيقاعه عليهم إن كان صادقاً، ويسخرون من رسول الله ﷺ كلما تأخر عليهم ويقولون: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٨]

وهنا يبين الله -جلّ شأنه- أنّ السّرعة والاستعجال في طبائع البشر أقوىٰ وأغلب من الصّبر الذي يجب أن يتحلىٰ به المؤمنون، لأن الإنسان إذا أحب شيئاً استعجل حصوله، وإذا كره شيئاً استعجل زواله ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١١] فلا يستطيع الإنسان الصّبر إلّا إذا حمل نفسه عليه؛ لذلك جعله الله قسيم الإيمان في سورة العصر، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر: ١-٣] فالإيمان وعمل الصّالحات والتّواصي بالحق والتّواصي بالصّبر، كل أولئك من الأمور التي لا يناسبها الاستعجال، ولا يستطيع الإنسان القيام بها إلّا بالصبر، ولكن الإنسان خُلق من عجل، فكأنّ الاستعجال جزء من طبيعته وجِبلته التي منها خُلِقَ وعليها جُبل، فيقول الله -جلَّ شأنه- للمؤمنين والمشركين معاً: ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] فبالنّسبة للمؤمنين سيرون آيات الله في نصر رسوله علىٰ المشركين في الدّنيا، وقد أراهم الله -جلّ شأنه- ذلك في غزوة بدر، وجعل الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وجعل النّصر لله ولرسوله وللمؤمنين عليهم، (١) وسيرونهم وهم يُدَعُّون

(١) عن نَافِعٍ أَنَّ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أخبره قال:" اطَّلَعَ النبيُّ ﷺ علىٰ أَهْلِ الْقَلِيبِ، فقال: وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً؟ فَقِيلَ له: تَدْعُو أَمْوَاتاً؟ فقال: ما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ منهم، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ ".انظر:

-البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم (١٣٧٠)، ص٢٦٦.

إلىٰ النّار دعّاً في الآخرة، لا يستطيع أحد منهم أن يكف عن وجهه النّار، ولا عن ظهره، ولن تغني عنهم آلهتهم شيئاً. وتستدعي هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠﴾ [الأنفال: ٥٠] وسيندمون علىٰ تلك السّخرية التي كانوا يواجهون بها رسول الله ﷺ والمؤمنين من أصحابه، ويقول -جلّ شأنه-: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩﴾ [الأنبياء: ٣٩] لما قاموا بالاستهزاء برسول الله وبما أنزل الله عليه، ولما استمروا علىٰ شركهم وكفرهم واستهزائهم برسول الله ﷺ. وإذا كان لما حدث في بدر له مقدماته وإرهاصاته، فإنّ عذاب الله لهم بعد السّاعة أشدّ وأنكىٰ وأفتك وأقوىٰ، والسّاعة ﴿تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ٤٠] ويجدون أنفسهم عاجزين حتىٰ عن تلك المدافعة الهزيلة التي قاموا بها في غزوة بدر، فالسّاعة تفاجئهم، وتعجزهم عن المدافعة فيغلبون، وفي الوقت نفسه ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠﴾ [الأنبياء: ٤٠]، أو يؤخرون، أو يؤخر عنهم العذاب؛ لأنّ وقت العمل والجزاء يكون قد انتهىٰ.

ثمّ يقول الله -تعالىٰ- لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤١﴾ [الأنبياء: ٤٠] فهي مثل ما جاء في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [الأنعام: ١٠] فهذا الذي يحيق بالكافرين والمشركين في الحياة الدّنيا إنّما هو جزء من آيات الله التي يريها الله لرسوله ولعباده المؤمنين كما وعدهم -جلّ شأنه- في قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء: ٣٧].

ثمّ يأخذ السّياق هؤلاء المغرورين إلىٰ سؤال خطير موجه إليهم، يذكرهم بأنّ بقاءهم في هذه الحياة واستمرارهم فيها إلىٰ الأجل المسمىٰ، لا يعني أنّهم أقوياء أو أنّهم يعجزون الله -جلّ شأنه- في الأرض أو في السّماء، بل لأنّ الله -جلّ شأنه- قدّر أن يحفظهم ويبقيهم إلىٰ أجل مسمىٰ، ويُمْهِلَهم من غير أنْ يُهْمِلَهم لعلهم يتخلون عن كبريائهم وإعراضهم واستهزائهم وسخريتهم، فيأمر رسول الله أن يقول لهم: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ [الأنبياء: ٤٢] أتظنون أنّ تلك الآلهة السّخيفة هي

التي تحفظكم من الرّحمن -جلّ شأنه- وذِكْر الرّحمن هنا فيه تناسب مع ذلك الحفظ، فهو -جلَّ شأنه- برحمته أراد أن يمنحهم الفرصة فيؤخر عنهم العذاب، ويحفظهم في سائر الأوقات من الآفات، وكان ينبغي أن يكون ذلك دافعاً يدفعهم إلىٰ عدم الاستهزاء بالله وبرسوله، لكنهم كعادتهم مستكبرون معرضون ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢] فلا يذكرونه ولا ينسبون إليه ذلك الحفظ -جلَّ شأنه-. ويسألهم الله -تعالىٰ- سؤالاً إنكارياً، بعد أن يضرب عنهم بخطابه المباشر ويكلمهم بضمير الغيبة: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] وهي مثل كلمة "بل"، أي: بل لهم آلهة تمنعهم من دوننا، زيادة في السّخرية منهم والإعراض عنهم، وبيان تفاهة ما اختاروا من تأليه آلهة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: ٤٣]، وليسوا مؤيدين من الله بالقبول، أو لديهم حظوة عنده - عزَّ وجل -، فيجيب المولىٰ -جلَّ شأنه-: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، فهؤلاء الحاضرون لهم آباء سبقوهم طال عليهم العمر، ولكن العمر مهما طال فإنَّه إلىٰ نهاية، ولم يدرك هؤلاء أنَّ ذلك استدراج وإمهال، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ [الأنبياء: ٤٤] أي هؤلاء المشركون من قريش وأمثالهم رؤية علمية ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، وأنّ الأرض والخلق والكون كل يوم هو في شأن جديد، والأرض تنقص من أطرافها، والمياه تزداد، ويوشك أن يأتي يوم تنتهي فيه هذه الأرض وتُبدل ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨] ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: ٤٤] فالذي يتحكم في السّماء والأرض والشّمس والقمر والنّجوم والسّحاب والبحار والأنهار والأحياء والأموات، هل يمكن أن يغلبه هؤلاء وآلهتهم التي صنعوها واختلقوها، وهل يمكن أن يكون هؤلاء هم الغالبون؟! إن ذلك مستحيل.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، ويأمر الله نبيه الكريم أن يقول لهم: ما أنذركم به ليس مني، بل هو وحي أوحاه الله إليَّ، ما كنت أعلمه أنا ولا أحد من قومي، فذلك ما أنذركم به، فأنا لم أقل لكم يوماً عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أنّي ملك، بل أخبرتكم بأنني ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ

مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٩] فإنني أنذركم بهذا الوحي ولكن ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٥] لا بالوحي ولا بسواه.

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

والنّفحة هي من الرّضخ في العطية، يقال: نفحه بشيء إذا أعطاه دون حساب هذه العطية، والسّياق يسخر منهم كما يسخرون، فالأصل في النّفحة أن تكون في العطية، ولم يعهد استعمالها في العذاب، لكنها جاءت هنا استهزاءً بهم وسخرية، فإذا رأوا من العذاب ما يشبه النّفحة من العذاب الأدنىٰ دون العذاب الأكبر، يسارعون إلىٰ ولولة وصريخ بدلاً من الإسراع إلىٰ التّوبة والرّجوع إلىٰ الله وإدراك أنّهم كانوا ظالمين، وأنّ عليهم أن يهتدوا ويؤمنوا برسول الله، ويخرجوا من حالة الظّلم الذي يمارسونه.

ولأنّ قوله في الآية السّابقة ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴾ [الأنبياء: ٤٦] -التي هي مجرد رضخ- قد يتوهم بعضهم أنّ الله -تعالىٰ- قد لا يكون عادلاً في حسابهم وعقابهم، فيبين -جلّ شأنه- أنه سوف يضع موازين ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، والموازين جمع ميزان، فأعمال العباد سوف توزن بموازين دقيقة، قائمة علىٰ القسط والعدل، ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، وإذا كان الله يبغض كفر الكافرين وانحرافهم وضلالهم، فلا يعني أنّه سيظلم أحداً منهم شيئاً، والله -تبارك وتعالىٰ- يضع الموازين القسط العادلة ليوم القيامة؛ لأنّ هناك موازين الدّنيا التي تحتمل التّطفيف، ويمكن أن يقع فيها شيء من الظّلم، أمّا موازين الله -تعالىٰ- يوم القيامة فهي عادلة، لدرجة أنّها توصف بالقسط، وكأنّما هي القسط نفسه، أو كأنّها صنعت من القسط والعدل، وقد ذكرها بالجمع علىٰ سبيل التنزّل، لتناسب عقلياتهم التي كانت تستكثر أن تكون محاسبة الله البشر دقيقة لهذه الدّرجة مع كثرتهم، ومع كل هذه الأعداد من البشر من آدم إلىٰ يوم الدّين، وترىٰ تلك العقول الكليلة في ذلك ضرباً من المحال، فأكّد لهم أنّ في قدرته -جلّ شأنه- أن يضع الموازين القسط العادلة ليوم القيامة علىٰ مستوىٰ الذّرَّة والمثقال وحبة الخردل الصّغيرة من الخير أو الشّرِّ، فكل

ذلك مندرج تحت قدرة الواحد الأحد عَزَّوَجَلَّ فهي بالجمع تدل على قدرته -سبحانه- أن يحاسب الجميع كلهم في الوقت نفسه، وقد يستغرب الإنسان ذلك؛ لأنّه يرى أنّه يصعب عليه القيام بالحوار مع اثنين أو ثلاثة ويكاد يكون محالاً مع عشرين، ويكون بالفعل محالاً مع ألف مثلاً، فلا يتخيل هؤلاء كيف يحاسب الله البلايين من البشر حساباً دقيقاً في وقت واحد، ونسيَ هذا الإنسان -الضّعيف- أنّ قدرة الله لا حدَّ لها. ودون تشبيه، فنحن نرى مع التّكنولوجيا الحديثة كيف أنّ جهاز الحاسب الآلي يستطيع أن يقوم بملايين العمليات الحسابية وتشغيل عشرات البرامج في الوقت نفسه، فكيف لا يتخيل ذلك مع الجبار ذي القوة والملكوت -جلّ شأنه-.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧] أي قادرين على الحساب الدّقيق الذي لا جور فيه على أحد ولا ظلم لأحد.

النَّجم الثّامن:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠]

ثمّ يلتفت السياق إلى حلفاء هؤلاء المشركين من أهل الكتاب وبخاصة اليهود ليقول لهم: إنكم ظلمتم أنفسكم بعدم إيمانكم برسول الله محمد ﷺ ظلماً شديداً، فإنّ ما أُنزل عليه هو مثل ما أُنزل على موسى وهارون، فرقاناً يفرق الله به بين الحق والباطل وضياء وذكراً للمتقين، وقد آمنتم بما أُنزل على موسى، فما الذي يجعلكم تكفرون بما أُنزل على محمد ﷺ وهو الحق من ربكم.

وقد نزع الله -جلّ شأنه- عن أهل الكتاب هؤلاء أهم صفات المؤمنين والمتقين، ألا وهي أنّهم يخشون ربهم بالغيب، كما نزع عنهم صفة الإيمان بكل ما أرسل به الرّسل من غائب أو حاضر فلا يكفرون به ولا يعصون؛ كما نزع عنهم صفة الخوف والخشية من أنّهم سيلقون الله يوم القيامة، وهم يبارزونه بالكفر والعصيان.

النَّجم التّاسع:

﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ
ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي
ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ
وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا
إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ
سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ
فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ
﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا
هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾
أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾
وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا
جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ
ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ
ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ
﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ
وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا
سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ
تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ
وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ
وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ
رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾

وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١- ٩١]

وبعد أن ينتهي السياق من تذكير أهل الكتاب، يعود مرة أخرىٰ لتذكير الجميع بأبي الأنبياء إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الذي رفض عبادة الأصنام، فلم يسجد لأي صنم منها، ولذلك فقد استحق إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يؤتىٰ النّبوة والكتاب بعد أن آتاه الله رشده، وذلك من قبل أن يُنزل علىٰ موسىٰ وهارون عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ الكتاب، ومن قبل أن يبعثا إلىٰ فرعون، وتبين الآيات مُنْطَلَقَ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في موقفه من قومه ومن أصنامهم، ألا وهو الرّشد الذي آتاه الله إياه، فجعله عاقلاً صاحب حجة وبيان ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣] ثم يقول -تعالىٰ- مادحاً نبيه وخليله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١] أي: عالمين بأنّه رجل رشيد، وعالمين باستحقاقه بأن يكون نبياً ورسولاً، فالله تعالىٰ أعلم حيث يجعل رسالته، وكنا معه حين جاء أباه وقومه ينكر عليهم شركهم وعبادتهم الأصنام، ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ ﴾ [الأنبياء: ٥٢] بكل ازدراء واحتقار ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ ﴾ [الأنبياء: ٥٢] تصورونها وتنحتونها علىٰ صور صلحاء النّاس من البشر، ﴿ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٢] علىٰ عبادتها وملازمة التّعظيم لها وتقديسها، فهل عندكم من سلطان أو برهان أو دليل يدلكم علىٰ أنّ لكم أن تفعلوا هذا؟! فما كانوا يجدون قولاً يقولونه أو دليلاً يستدلون به إلّا أن ﴿ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٣] تلك حجتهم الدّائمة، التي يرونها برهاناً: تقليد الآباء والأجداد، انطلاقاً من أنَّ الآباء لا يخطئون، وهو دليل افتروه وصاغه لهم الشّيطان، فرد عليهم إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٤] فأخذتهم العزة بالإثم ليجاهدوا سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ويسألوه ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٥]،

فيحتمل أن (أم) بمعنىٰ (بل)، فكأنّهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الأنبياء: ٥٥] فخشية أن يظن أنّه قد جاء بالحق، -وقد خضعوا لما جاءهم به من الحق ولو للحظة-، سارعوا إلىٰ القول: ﴿ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ ﴾ [الأنبياء: ٥٥] الذين يريدون أن يعبثون بديننا، وما نعتز به من آلهة آبائنا، فقال عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦ ﴾ [الأنبياء: ٥٦] إنّ الذي يصلح أن يكون رَبّاً وإلهاً ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ [الأنبياء: ٥٦] وخلقهن ولم يَعْيَ بخلقهن، فهي تطيعه عَزَّوَجَلَّ مسخرة له، خاضعة لجلال وجهه وعظمة سلطانه، وهو الجدير -جلّ شأنه- بأنّه يُؤلَّه وأن يُعبد، لا هذه الأصنام التي تصنعونها وتؤلهونها باطلاً. وتستدعي هذه الآيات آيات سورة الشّعراء؛ إذ يقول -تعالىٰ-: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩ ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٩].

وهذا الحوار -في سورة الشّعراء- يذهب إلىٰ التّفاصيل الدّقيقة، فتأتي الآيات مُصَدَّرةً بأمر الرسول الله ﷺ بتلاوة نبأ إبراهيم علىٰ هؤلاء المشركين من العرب الذي يدّعون أنّهم أبناؤه وذريته، وأنهم منتمون إلىٰ حنيفيته، ومتّبعون لوصيته بتطهير البيت الذي بوأه الله آية للقائمين والعاكفين والرّكع السّجود، وعمارة البيت، وسقاية حجاجه. وفيه إعلان لعداوة إبراهيم لتلك الآلهة البلهاء من الأصنام: ﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ﴾ [الشعراء: ٧٧]، وأقسم علىٰ أن يتخلص منها ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا ﴾ [الأنبياء: ٥٧-٥٨] قطعاً صغيرة وكسراً، ولم يستثن ﴿ إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ ﴾ [الأنبياء: ٥٨] صنماً كبيراً من تلك الأصنام ﴿ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨ ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، فلمّا وجدوا أصنامهم قد آلت إلىٰ كومة من جذاذ وكسر

صغيرة تساءلوا، و ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٩-٦٠] أي: يذكر تلك الأصنام، وقد عبّروا عنها بصيغة العاقل ﴿ يَذْكُرُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٠] وليس (يذكرها) بوصفها آلهة، ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦١] ليروه بعدما هدد بجعلها جذاذاً وتوعدهم بتدميرها، فلمّا جاءوا به -كما دبروا- على أعين النّاس ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٢] فرد عليهم بجواب فيه معنى السّخرية بهم، والحط من شأن آلهتهم، وتوكيد لما سبق أن قاله في تلك الأصنام من أنّها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنطق، ولا تُغني عن نفسها -فضلاً عمن يعبدونها- شيئاً، ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فإذا عجزوا عن النُّطق وعن حماية أنفسهم، فكيف يخلقون ويأمرون، وينهون، ويحلون ويحرمون؟ فصدمهم ما اشتمل عليه جوابه من حجة، ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ ﴾ [الأنبياء: ٦٤] بنوع من البداهة الفطرية المفاجئة ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٤] لكن الشّيطان منهم بالمرصاد ويجري منهم مجرى الدّم، وكبرياؤهم وغطرستهم قائمة فيهم، فلا يعترفون بحجته ولو كانت حقاً، فسارعوا إلى الإنكار بعدما ﴿ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٥] بأنَّ جوابهم لا قيمة له، ولا ينفي من حجة إبراهيم عليهم شيئاً، ولا يغلق باب الحوار والجدال معه، فقالوا برؤوس منكسة، وألسن متلجلجة، وحجة غير داحضة ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، ولا طاقة لديهم تمكنهم من ذلك، وهنا واجههم سيدنا إبراهيم بما آتاه الله من حجة، قائلاً: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧] فردّ عليهم ﴿ أُفٍّ ﴾ [الأنبياء: ٦٧] والتي تقال عندما يرى الإنسان ما يستقذره من الأشياء، فكأن عبادتهم لهذه الأصنام شيء مستقذر يؤذي حاسة الشّم والبصر لديه، فلا يجد كلمة يقولها ليعبر عن استقذاره لما يفعلونه إلا هذه الكلمة -التي تُعَدُّ اسم صوت وليست بكلمة-، فهي موجّهة ﴿ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنبياء: ٦٧] -أيضاً- لأنّكم أضفتم عليها ما لا تصلح له ولا يليق بكم أن تضفوه عليها، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٧] ؟! كيف استطعتم أن تواصلوا هذا الغي الذي سقطتم فيه؟!

وممَّا يلفت النَّظر أنَّ الله -جلَّ شأنه- في كل آيات المتاب التي تخاطب المشركين والتي تدعوهم لإدراك سخف ما هم فيه من الشّرك، تكون فاصلتها متصلة بالإدراك العقلي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٧]، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٠]، وفي هذا توكيد لرؤية القرآن لهؤلاء المشركين الذين يعدهم أحياناً شر الدّواب على وجه الأرض ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢]، وفقدوا كل خير حتى إنَّ الله -جلَّ شأنه- يقول عنهم: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]. فهم مُعَطَّلون لعقولهم عن عمد وقصد، مُغْلِقون لجميع منافذ الوعي لديهم، فلا غرابة إذا ما نُبِّهوا في كل مناسبة إلى أن يعودوا إلى عقولهم ويراجعوا قوى وعيهم ويدركوا ما هم فيه من عمى وضلال.

ويلفت النّظر أنَّ كثيراً من فئات المسلمين والمتدينين يرون أنَّ هناك صراعاً ونزاعاً بين العقل والسَّمع، أو بين العقل والوحي وكأنَّهم يتشبهون بالكافرين والمشركين في دعوتهم لتعطيل العقل وقوى الوعي، وتوهّم الكثيرون منهم أن ذلك هو التّدين الحقيقي، وأشاعوا فكرة التّعبد مقابل التَّعقل. وقد نظّم بعض الفقهاء -في عصور التّخلف عندما تخلى المسلمون عن عقولهم، وقللوا من قيمة العقل، وهبطوا بمستوى الوعي- منظومة تساوي بين جريمة من يعمل بغير علم ولا عقل ولا هدى ولا كتاب منير، بل يعمل تقليداً واتباعاً للآباء والأجداد، كما كان المشركون يعملون جريمة أولئك الذين يعلمون ولكن لا يعملون، يقول صاحب كتاب الزّبد:

وعالم بعلمه لـم يعـملـن معذّبٌ من قبل عباد الوثن
وكـل من بغير علمٍ يعمل أعمـالـه مردودة لا تُقبـل

واليوم نسمع من أناس كثيرين متدينين ذماً للعقل، يظنون أنَّه دليل على تمسكهم بالنَّقل، ومَنْ زعم أنَّه قد تمسَّك بالنَّقل دون عقل، فقد عطّل العقل وأساء فهم النّقل، فالعقل ضروري لفهم النّقل ولتطبيقه، ولا يستقيم فهم النّقل دون عقل ذكي، ولا يمكن أن يحسن تطبيق النّقل مَنْ لا يحسن استخدام عقله، فليُتأمل.

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨-٦٩].

فجمعوا جمعاً ضخماً من الحطب وألقوا بإبراهيم فيها، ثمّ أضرموا فيها النّار ليحترق، ويزعمون آنذاك لأنفسهم أنَّ آلهتهم قد أحرقته لاعتدائه عليها وتجاسره علىٰ إهانتها، فأمر الله النّار ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩] فجلس فيها حتىٰ انطفـأت، وخرج منها ينفض عن نفسه غبارها ورمادها، وكأنَّه خارج من عاصفة رملية، وبذلك أسقط في أيديهم وأدركت العامة الذين حُشِروا من كل مكان أنَّ إبراهيم صادق، وأنَّ دعوته هي الحق، وأنّ كبرياءهم هو الذي حملهم علىٰ تعظيم هذه الأصنام التّافهة التي يصنعوها بأيديهم، بيد أنها لا تجلب لهم نفعاً ولا تدفع عنهم ضراً، أمَّا الملأ من قومه فقد استمروا في مكايدهم لإبراهيم وابن أخيه لوط عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، فأخرجهما الله -جلَّ شأنه- إلىٰ الأرض التي بارك فيها للعالمين.

وقد جعل كثير من المفسرين من قوله -تعالىٰ-: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩] وسيلة للانتصار لمذاهبهم خاصة الجبرية والقدرية من جهة، والأشاعرة والماتريدية والمعتزلة من جهة أخرىٰ، وحاولوا أن يُعَمِّموا ذلك، لا في مذاهبهم التّفسيرية وحدها، بل في أصول الفقه وفي الفقه نفسه. ومن المعروف أن السّبب عند الأصوليين واحد، مما أطلقوا عليه الأحكام الوضعية التي وضعها الله -جلّ شأنه- لتكون أسباباً وشروطاً أو موانع أو أدلة صحة أو فساد لما عُرف بالأحكام التّكليفية. ونود أن نقول: إنّ السّبب والعلة لفظان مترادفان عند المناطقة، وعند الأصوليين -وخاصة الأشاعرة- "السّبب هو المعرف للحكم"(١) واختار ذلك جمهرة الأصوليين الأشاعرة، وقالت المعتزلة: "السّبب هو المؤثر في الحكم بذاته، "(٢) وقال الغزالي وهو من الأشاعرة: "السّبب هو المؤثر في الحكم بإذن الله تعالىٰ، "(٣) وقال الآمدي وابن الحاجب: "السّبب هو الباعث علىٰ الحكم."(٤)ونقل ابن السّمعاني في

(١) الجمل، سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري (توفي: ١٢٠٤هـ). **فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب** (حاشية الجمل)، بيروت: دار الفكر، (د. ت).، ج٤، ص٣٢٢.

(٢) السُّبكي، تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي وولده تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب (توفي: ٧٥٦هـ.) **الإبهاج في شرح المنهاج**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م، ج٣، ص٤٠.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٤) الآمدي، أبو الحسن سيف الدين علي بن أبي علي الثعلبي (توفي: ٦٣١هـ). **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، بيروت: المكتب الإسلامي، (د. ت).، ج٤، ص٣٧.

القواطع عن الخطابي قوله: "ليس كل سبب علة، ولكن كلّ علة سبب، وليس كل دليل علة ولكن كل علة دليل"،[١] وتعقبه ابن السبكي في الأشباه والنّظائر ومنع الموانع.[٢] ومن تعريفاتهم المتداولة له أنّ "السّبب هو الوصف الظّاهر المنضبط المعرّف للحكم."[٣] وللإمام الفخر الرّازي نقاش طويل في هذا المجال.[٤]

وللعلماء في تعريف السّبب أقوال كثيرة تراجع في مظانها من كتب الأصولين (الدّين والفقه).

والحق أنّ حساسية الأشاعرة الزّائدة -تجاه هذا الأمر- هي التي جعلتهم يجعلون من هذه القضيّة قضيّة شائكة، طال الجدل فيها وحولها هرباً من القول بتعدد المؤثرات، وفسّروا المؤثر بأنّه: "وصف مؤثر في جنس الحكم أو في عين" كالبلوغ الذي يؤثر في رفع الحَجْر عن مال الصّبي ويؤثر في رفع الحجْر عن النّكاح.

وبقطع النّظر عن أقوال الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة أو غيرهم في التّعليل، فإنّ الله -جلّ وعلا- قد علل الكثير من أحكامه صريحاً وإيماء وتنبيهاً، وعلل رسوله ﷺ وعلَّل أصحاب رسوله من بعده وكذلك فعل المجتهدون. ولا يسع إنساناً أن يقول بالقياس ثمّ ينفي التّعليل حقيقة أو صورة.

إنّ الله -تعالىٰ- قد علل إيجاده العباد بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. وعلل إرسال الرّسل بقوله -تعالىٰ-: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥﴾ [النساء: ١٦٥] وعلل

(١) المروزي السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي الحنفي ثم الشافعي (توفي: ٤٨٩هـ). **قواطع الأدلة في الأصول**، تحقيق: محمد حسن محمد الشافعي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٩م، ج٢، ص٢٧٤.

(٢) السُّبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (توفي: ٧٧١هـ). **طبقات الشافعية الكبرىٰ**، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٣هـ، ج٣، ص٢٨٩.

(٣) الرَّملي، شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة (توفي: ١٠٠٤هـ). **نهاية المحتاج إلىٰ شرح المنهاج**، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٤م، ج١، ص١٠٨.

(٤) الرازي، **المحصول في علم أصول الفقه**، مرجع سابق، ص٨٦-٨٨.

تشريع القصاص بقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [المائدة: ٣٢]، وعلل أمره لرسوله بالزّواج من زينب بقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧] وغير ذلك كثير جداً.

ومن تعليلات الأحكام في السّنة قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (كنت قد نهيتكم عن لحوم الأضاحي من أجل الدّافّة فكلوا وادخروا.)(١) وقوله: (لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ علىٰ أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كل صَلَاةٍ.) (٢) وقوله: (من اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فإنه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فإنه له وِجَاءٌ.)(٣)

وقد علَّل الصّحابة وأثبتوا الأحكام بناءً علىٰ عللها -منصوصةً أو مستنبطةً- فعلَّلوا بالمصلحة، والضّرورة، والحاجة، ودفع الضّرر، وأثبتوا أحكاماً لم تكن، وأوقفوا بناءً علىٰ ذلك العمل ببعض ما كان معمولاً به لعلة ثمّ زالت علته. وكانوا في كل ذلك يتفقون أحياناً ويختلفون، ومن الأمثلة علىٰ ذلك إيقافهم ما كان يعطىٰ للمؤلفة قلوبهم؛(٤) لأنّ الله قد أعزّ الإسلام وأغناه، ومنها جمع سيدنا عمر النّاس

---

(١) عن عبد الله بن وَاقِدٍ قال: "نهىٰ رسولُ الله ﷺ عن أَكْلِ لُحُومِ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلَاثٍ، قال عبد الله بن أبي بَكْرٍ: فَذَكَرْتُ ذلك لِعَمْرَةَ، فقالت: صَدَقَ، سمعتُ عَائِشَةَ تَقُولُ: دَفَّ أَهْلُ أَبْيَاتٍ من أَهْلِ الْبَادِيَةِ حَضْرَةَ الْأَضْحَىٰ زَمَنَ رسولِ الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ادَّخِرُوا ثَلَاثاً، ثُمَّ تَصَدَّقُوا بِمَا بَقِيَ، فلما كان بَعْدَ ذلك قالوا: يا رَسُولَ الله إِنَّ النَاس يَتَّخِذُونَ الْأَسْقِيَةَ من ضَحَايَاهُمْ، وَيَجْمُلُونَ منها الْوَدَكَ، فقال رسول الله ﷺ: وما ذَاكَ؟ قالوا: نَهَيْتَ أَنْ تُؤْكَلَ لُحُومُ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلَاثٍ، فقال: إنما نَهَيْتُكُمْ من أَجْلِ الدَّافَّةِ التي دَفَّتْ، فَكُلُوا، وَادَّخِرُوا، وَتَصَدَّقُوا". انظر:

-مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الأضاحي، باب بَيَانِ ما كان من النَّهْيِ عن أَكْلِ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ بَعْدَ ثَلَاثٍ في أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَبَيَانِ نَسْخِهِ وإباحته إلىٰ مَتَىٰ شَاءَ، حديث رقم (١٩٧١)، ص٨١٧.

(٢) المرجع السابق، كِتَاب: الطَّهَارَةِ، بَاب: السِّوَاكِ، حديث رقم (٢٥٢)، ص١٢٧.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الصيام، باب الصَّوْمِ لِمَنْ خَافَ علىٰ نَفْسِهِ العزوبة، حديث رقم (١٩٠٥)، ص٣٦٢.

(٤) عن عبيدة قال: "جاء عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس إلىٰ أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقالا: يا خليفة رسول الله إن عندنا أرضاً سبخة، ليس فيها كلأ ولا منفعة، فإن رأيت أن تقطعناها لعلنا نزرعها ونحرثها، - فذكر الحديث في الإقطاع وإشهاد عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عليه ومحوه إياه، قال: فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن رسول الله ﷺ كان =

عَلَىٰ أُبي بن كعب في قيام رمضان بعد أن امتنع عن ذلك رسول الله ﷺ لئلا يُفرض عليهم،[١] ومنها نهي عمر لحذيفة عن زواج الكتابيات فعن سعيد بن جبير: " قال بعث عمر بن الخطاب إلىٰ حذيفة بعدما ولاه المدائن وكثر المسلمات: إنه بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب، فطلقها، فكتب إليه لا أفعل حتىٰ تخبرني أحلال أم حرام، وما أردت بذلك؟ فكتب إليه: لا بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم علىٰ نسائكم، فقال: الآن، فطلقها؛"[٢] ومنها موقفهم من قسمة أرض السّواد؛[٣] ومن الطّلاق الثّلاث؛[٤] وتحديد حدِّ شرب

= يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل، وإنَّ الله قد أعزَّ الإسلام، فاذهبا فاجهدا جهدكما، لا أرعىٰ الله عليكما إن رعيتما"، انظر:

-البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين الخُسْرَوْجِردي الخراساني(توفي:٤٥٨ هـ). **السنن الكبرىٰ**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٣م، كتاب قسم الصدقات، بَابُ سُقُوطِ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَتَرْكِ إِعْطَائِهِمْ عِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ، وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنِ التَّأَلُّفِ عَلَيْهِ، ج٧، حديث رقم (١٣١٨٩)، ص٣٢.

(١) عن عبد الرحمن بن عَبْدٍ القارئ أَنَّهُ قال: "خَرَجْتُ مع عُمَرَ بن الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَيْلَةً في رَمَضَانَ إلىٰ الْمَسْجِدِ، فإذا الناس أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ، يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ، فقال عُمَرُ: إني أَرَىٰ لو جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ علىٰ قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ، ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُمْ علىٰ أُبَيِّ بن كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ معه لَيْلَةً أُخْرَىٰ وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِئِهِمْ، قال عُمَرُ: نِعْمَ الْبِدْعَةُ هذه، وَالَّتِي يَنَامُونَ عنها أَفْضَلُ من التي يَقُومُونَ، يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ، وكان الناس يَقُومُونَ أَوَّلَهُ". انظر:

-البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ، بَاب فَضْلِ من قام رَمَضَانَ، حديث رقم (٢٠١٠)، ص٣٨٠.

(٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (توفي: ٣١٠هـ). **تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٩٦٩م، ج٣، ص٥٨٨.

(٣) عن يزيد بن أبي حبيب قال: "كتب عمر إلىٰ سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين افتتح العراق، أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم، فإذا جاءك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس عليك إلىٰ العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرضين والأنهار لعمالها، فيكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء ".انظر:

-البيهقي، **السنن الكبرىٰ**، مرجع سابق، كتاب السير، بَابُ السواد، ج٩، حديث رقم (١٨٣٦٩)، ص٢٢٦.

(٤) عن ابن عَبَّاسٍ قال: "كان الطَّلَاقُ علىٰ عَهْدِ رسول الله ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَسَنَتَيْنِ من خِلَافَةِ عُمَرَ طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةً، فقال عُمَرُ بن الْخَطَّابِ: إِنَّ الناس قد اسْتَعْجَلُوا في أَمْرٍ قد كانت لهم فيه أَنَاةٌ فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عليهم فَأَمْضَاهُ عليهم ".انظر:

-مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الطلاق، بَاب طَلَاقِ الثَّلَاثِ، حديث رقم (١٤٧٢)، ص٥٩٠.

الخمر بثمانين.[(١)] وكان ذلك كله بناءً على علل ذكروها، وقد سلك التّابعون وتابعوهم والمجتهدون هذا المسلك أيضاً، فالقول بأن نفي التّعليل إنّما هو تنزيه لله -تعالى-؛ لأنّ القول به يعني أنّه -تعالى- مُستكمل بالغرض، فهذا إنّما هو نوع من الوسواس، وقول لا ينبغي أن يخطر على الذّهن، ولا تقليبه على الألسنة فضلاً عن وضعه على السّطور، ذلك لأنّ من البدهي أنّ المستكمل بالغرض أو العلة إنّما هو العبد، لا خالقه الغني -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-.

هذا وقد تأثرت مذاهب الأصوليين في تعليل الأحكام بمذاهبهم الكلامية؛ فالذين ساغ في مذاهبهم الكلامية تعليل أفعال الله -تعالى- وأحكامه ولم يروا في ذلك ما ينافي التّوحيد أو يخدشه، كان للتعليل في نظرهم مفهوم ينسجم مع هذا المذهب. والذين رأوا أنّ القول بالتّعليل هو نفسه القول بالغرض وأنّه ينافي التّوحيد وقفوا من التّعليل ومن حقيقته موقفاً آخر يتفق مع مذهبهم ذاك. ولقد أثرت تلك المذاهب تأثيراً سلبياً شديداً في نظر العقل المسلم؛ إذ هيّأت العقل المسلم لأزمة تجاهل الأسباب، أو عدم ربط الأسباب بالمسببَات، وألقى ذلك كثيراً من الغبش على قانون السّببية، وهيّأ الأذهان لإنكار قانون السّببية أو التّقليل الشّديد من أهميته والقول بالجبر، وشاعت أمراض فكرية كثيرة بين المسلمين نتيجة لذلك، فكثيرون توهموا أنّ هناك تنافياً بين السّببية والعِلّية والتّوكل، وبينها وبين الإيمان بالقضاء والقدر، وألقت تلك الأفكار والمناقشات بظلالها السّيئة على مفهوم القدر نفسه، وأصبح المسلم يميل إلى التّواكل والكسل، وإنكار الاختيار الإنساني، وإنكار تأثير الأسباب، وشاعت تلك المقولات التي تدعي أنّ الأسباب لا قيمة لها وأنّ الأشياء تخلق عندها لا بها، فالنّار لا تحرق ولكن الله يخلق الحرق عند مماستها، وهم يعلمون أنّه ما دام الحرق قد حصل بمماسة النار، فسواء كان بخلق الله الحرق عندها أو بها فهما سواء وتحصيل حاصل، ولِـمَ لا يقال: إنّ سنة الله في النّار أن تكون محرقة؟! ولله أن يوقفها عن الإحراق خرقاً للسُنة التي خلقت بها، فقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. لكن تلك

(١) عن أَنَسِ بن مَالِكٍ أَنَّ النبي ﷺ: " أُتِيَ بِرَجُلٍ قد شَرِبَ الْخَمْرَ فَجَلَدَهُ بِجَرِيدَتَيْنِ نحو أَرْبَعِينَ، قال: وَفَعَلَهُ أبو بَكْرٍ، فلما كان عُمَرُ اسْتَشَارَ الناس، فقال عبد الرحمن: أَخَفَّ الْحُدُودِ ثَمَانِينَ، فَأَمَرَ بِهِ عُمَرُ ". انظر:
- مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ص ١٥٣١ كتاب: الطلاق، بَاب: طَلَاقِ الثَّلَاثِ، حديث رقم (١٧٠٦)، ص٧٠٨.

الوسوسة التي حدثت جرّت إلىٰ ذلك كله، والله -تبارك وتعالىٰ- قد قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦] فهو خالق النّار، وخالق الإحراق بها، وهو -جلّ شأنه- القادر علىٰ أن يوقفها إن شاء أو يعطلها إلىٰ غير ذلك، لكنهم بجدالهم ذلك وبتناسيهم لكثير مما جاء القرآن به أحدثوا ذلك الشرخ في العقل المسلم وأوقعونا في تلك الأزمة، والله -جلّ شأنه- حين ذكر قصة ذي القرنين قال ببساطة ويسر: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ۝٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾ [الكهف: ٨٤-٨٥] فالسّببية قانون إلهي لا يسع مؤمن بالله واليوم الآخر أن يتجاهله أو يقلل من شأنه أو ينفي آثاره.

ومما يُحزن القلب أنّه علىٰ الرغم من السّقوط في هذه الإشكالية من قبل البعض، إلّا أنّ مَنْ بعدهم قد تبعوهم في هذه الإشكاليّة، وتبعوا رأيهم هذا دون نقد أو مراجعة من كتاب الله -جلّ وعلا- ودون إعمال للعقل والفكر في الدّنيا واستنباط قوانينها التي بالتّأكيد تتسق مع قوانين الكتاب الكريم. وتأثُّر العقل المسلم بهذه القضية إلىٰ اليوم يجيب علىٰ السّؤال الكبير، وهو كيف وصل حال المسلمين إلىٰ هذا التّدهور والانحطاط بين الأمم؟ فهذه هي الإجابة: ترك الأخذ بالأسباب ظنّاً أنّها لا قيمة لها وأنّها ليست من الدّين، بل وتناقض الإيمان والتوّكل علىٰ الله. فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنبياء: ٧٠-٧١].

فتلك سنة الله للانتصار لرسله عندما يطغىٰ الشّر ويستشري، وتصبح هزيمة الرّسل والدّعاة كأنّها انتصار للشرك وللأصنام ورموز الكفر، آنذاك يتدخل الله -جلّ شأنه- فينصر رسله والذين آمنوا، ومن هنا قال -جلّ شأنه-: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر: ٥١-٥٢] ولذلك جعل الله أعداء إبراهيم هم الأخسرين، ونجّىٰ إبراهيم ونجّىٰ ابن أخيه لوطاً معه، وأخرجهما من أرض كوثا -التي علىٰ أطلالها بُنيت النّاصرية المدينة المعروفة بجنوب العراق- وكان أهل كوثا يعبدون النّجوم، ويرمزون لها بأصنام يعظمونها تمثل تلك النّجوم التي يقدسونها ويعبدونها.

وقد اختلف المفسرون في المراد بتلك الأرض؛ فمنهم من ذهب إلىٰ أنَّها أرض الحرم الذي "ببكة"، وذهب بعضهم –ولعله هو الأرجح– إلىٰ أنَّها بيت المقدس وما جاورها، فإن معظم الأحداث التي تلت هجرة إبراهيم ولوط عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ حدثت في تلك الأرض التي وُصفت في سورة الإسراء كذلك بأنها موضع المسجد الأقصىٰ الذي بارك الله حوله.

وهنا لا بدّ لنا من معرفة العلاقة بين الأرض وأهلها وما يدعو الرّسل إليه، فقد يضيق أهل قرية أو مدينة أو شعب من الشّعوب أو أمّة من الأمم برسلهم، ويُضَيِّقون الخناق عليهم ويجعلون مهمتهم صعبةً جداً، وهنا تصبح الهجرة إلىٰ أرض أخرىٰ وسيلة الرّسل لإيجاد بدائل عن أقوامهم في غير الأرض التي ولدوا ونشأوا فيها، فإذا هاجر الرّسل فإن الله ناصرهم في مهاجرِهم ومعوضهم عن الشّعوب التي أرسلوا إليها، فاستكبرت وعتت عن أمر ربها وعصت رسله، وأحياناً يُصادفون في مهاجرهم قوماً لا يقلّون سوءاً عمّن فارقوهم كالذي حدث لسيدنا لوط، فيبدلهم الله بشعوب أخرىٰ تستجيب لهم وتُـحسن استقبال ما يدعون إليه والاستفادة به، أو يؤسس الله لهم –ويعينهم علىٰ– تأسيس أمة أو ملة كما حدث لسيدنا إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

والدّعاة أحوج ما يكونون لدراسة سير الرّسل وقصصهم والاستفادة بها والاعتبار بما فيها، فهو المؤدي إلىٰ الإيمان بالرّسل، ولذلك عاتب الله المستضعفين الذين ارتبطوا بأرضهم وركنوا إليها وتهيبوا مغادرتها إلىٰ غيرها وقال لهم: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾ [النساء: ٩٧].

تلك سنن الرّسل التي غفلنا عنها، لا يخلدون إلىٰ أراضيهم أو يتشبثون بها لمجرد أنّهم ولدوا فيها، بل هم يريدون أن يُعَبِّدوا الأرض لله، ويصلوا بكتابه إلىٰ كل جوانبها ونواحيها، تلك الرّسل وتلك قصصهم، ألم يقل ورقة بن نوفل فيما أثر عنه لرسول الله ﷺ "لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّاً إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقال رسول الله ﷺ: أوَمخرجي هُمْ؟ قال: نعم لم يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إلا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً."(١) فهذا الرّجل العجوز علم مما سمع أنَّ تلك سُنّة الرّسل وذلك هديهم.

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب بَدْءُ الْوَحْيِ، باب كَيْفَ كان بَدْءُ الْوَحْيِ، حديث رقم (٣)، ص.٢١

ألم يقرأ هؤلاء ما قاله الكافرون لرسلهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤] إنّ رسول الله ﷺ لا شك أنّه كان يحب مكة، وأصحابه يعشقونها، لكنه بعد أن فتحها الله له وأصبح سيدها لم يعد إليها وعاد مع أنصاره يقول: "الهدم الهدم والدّم الدّم."(١) وقبره ﷺ ومسجده شاهدان إلىٰ يوم الدّين علىٰ أنّ الرّسالة أعلىٰ من النّفس والأوطان ومراتع الصّبا، فأين ذهبت هذه المعاني عن الدّعاة؟!

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةًۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وهنا يأتي التّعويض الإلهي والكرم الرّباني بأعلىٰ درجاته، فإذا كان إبراهيم قد فارق أباه وأسرته التي نشأ فيها، فقد أبدله الله بأسرة من صلبه أحب إليه وأقرب إلىٰ قلبه، أسرة هي نواة لأمة وبداية لملة، تبقىٰ علىٰ الدّهر تجعله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يطمع في مزيد من كرم ربه. وحين ابتلاه ربه بكلمات أتمهن إبراهيم قال له ربه: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤] فهنا سأبدلك بأسرة من الصّالحين المؤمنين البعيدين عن الشّرك والظّلم والانحراف والمعصية، وسأجعل منهم أئمة يهدون إلىٰ الخير، ويقيمون الصّلاة، ويؤتون الزّكاة، ويؤمنون بآيات ربهم، وسأجعلهم حملة لدعوتك ورسالتك التي أوحيت إليك وأرسلتك بها، وأجعلهم أهلاً لكي يرثوا حجتك التي آتيتك إياها، فلا تتوقف عملية الاحتجاج بها علىٰ مدة بقائك، بل تدوم وتبقىٰ لنسلك من بعدك، ذلك عطاء الله لإبراهيم الذي صدق في عبوديته له، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٥].

(١) عن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ قال: "كان أَوَّلَ من بَايَعَ رَسُولَ الله ﷺ يوم الْعَقَبَةِ أبو الْهَيْثَم بن التَّيْهَانِ، وقال: يا رَسُولَ الله، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الناس حِبَالاً -وَالْحِبَالُ: الْحِلَفُ وَالْمَوَاثِيقُ -فَلَعَلَّنَا نَقْطَعُهَا، ثُمَّ تَرْجِعَ إلىٰ قَوْمِكَ وقد قَطَعْنَا الْحِبَالَ وَحَارَبْنَا الناس، قال: فَضَحِكَ رسول الله ﷺ من قَوْلِهِ، وقال: الدَّمُ الدَّمُ الْهَدْمُ الْهَدْمُ"، انظر: -الطبراني، **المعجم الكبير**، مرجع سابق، باب: مَنِ اسْمُهُ مَالِكُ بْنُ التَّيْهَانِ أَبُو الْهَيْثَمِ الْأَنْصَارِيُّ" عَقَبِيٌّ بَدْرِيٌّ لَمْ يَزَلْ بِالْمَدِينَةِ حَتَّىٰ توفي بِهَا سَنَةَ عِشْرِينَ، مِنْ أَخْبَارِهِ"، ج١٩، حديث رقم(٥٦٦)، ص.٢٥٠

وهنا نجد بعض المفسرين حاول أن يحدد من هو النافلة ومن هو النّعمة الأساسية؟ فدخلوا في خلافات شديدة لا دليل لها ولا سند من القرآن يعضضها في حين أنّ القرآن المجيد قد حسم الأمر بقوله -تعالىٰ-: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود: ٧١] فبينت الآية أنَّ النّافلة هو يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مما يدل علىٰ أنَّ كثيراً من المفسرين لم يكونوا يلتفتون بقدر كاف إلىٰ الوحدة البنائية للقرآن، ولا إلىٰ محاولة تفسير القرآن بالقرآن، بل تأثروا بقصص الأنبياء، خاصة ما ورد في كتب اليهود والنّصاري، ولا ندري كيف استساغوا ذلك وصاروا إليه، عفىٰ الله عنهم وعنا.

ثم مَنَّ الله عَلَىٰ إبراهيم وعلىٰ ذريته بنعمة أخرىٰ، قال فيها: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقد ذهب البعض في تفسير هذه الآية إلىٰ أنَّ صلاتهم التي أمروا بها هي مثل صلاتنا وصيامهم هو مثل صيامنا، فإذا كنا مأمورين بصيام شهر رمضان، فهؤلاء يرون أنَّ اليهود والنّصارىٰ قد أُمروا أيضاً بصيام شهر رمضان، وإذا أمرنا بإقامة الصّلاة، وكانت خمس صلوات في اليوم والليلة، فذلك يعني أنّهم كانوا مأمورين كذلك بصلاة مماثلة بكل شروطها وأركانها وهيأتها، وهذا أمر ما كنّا نود مناقشته لولا إثارته بشده من أولئك النّفر، والله -تبارك وتعالىٰ- نبّه إلىٰ أنّ دعوات الأنبياء كافة تتفق في العقائد وأصول الشّرائع، فقال -تعالىٰ-: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورىٰ: ١٣] كما بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هناك اختلاف في فروع الشرائع، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾ [المائدة: ٤٨] فالأمر ليس بحاجه إلىٰ النّظر في أنّهم أمروا بالصّلاة، وأمروا بالزّكاة، وأمروا بالصّبر، ونُـهوا عن الزّنا والسّرقة، وما إلىٰ ذلك، والوصايا العشر معروفة تتفق كل الأديان التي أوحاها الله إلىٰ رسله علىٰ أصولها، لكن ادعاء اتفاقها تماماً في سائر الأمور يحتاج إلىٰ دليل مستقل، ولا دليل فيما نعلم يدل علىٰ ذلك إلّا دليل الاسم، والاسم لا يصلح دليلاً وحده -إذا اختلف الدّين

والكتاب والرّسول- بل يحتاج إلىٰ دليل آخر يوضح أنّ هذا الأمر هو كذلك، كما أنه لا يُعرف في كتب أهل الكتاب ما يدل – مثلاً – علىٰ أنّهم أُمروا بصيام شهر رمضان حين أمرنا بصيامه، قال جلّ شأنه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] فكأنّه علل اختصاصه بهذه الفريضة بنزول القرآن فيه، كما أنّ تغيير القبلة وأمور أخرىٰ مثل ما يتعلق بالتّيمم والمسح علىٰ الخفين لا نجد لها أصولاً في الشّرائع السّابقة، فنحن نؤمن بأنّهم قد أُمروا بأن يكونوا مسلمين، وأُمروا بالصّلاة، وأُمروا بالزّكاة، لكن اتفاق الألفاظ لا يدل علىٰ مطابقة المعنىٰ التّفصيلي إذا لم يكن هناك دليلٌ خاصٌّ علىٰ ذلك؛ وإلّا فستكون تفاصيل الأحكام كلها قد تمت في عصور أهل الكتاب، وبيان الأحكام لا يحتاج إلا إلىٰ متابعتهم فحسب. وهذا أمر لا يجرؤ أحد علىٰ الذّهاب إليه.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤-٧٥].

لقد نَجّىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- لوطاً مرتين:

الأولىٰ: حين يسَّر له الهجرة مع عمه -إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- إلىٰ الأرض المقدسة التي بارك الله فيها للعالمين.

والثانية: عندما نجّاهُ من القرية التي كانت مشهورة بعمل الخبائث وإتيان الرّجال من دون النّساء، وكانوا بذلك قوم سوء فاسقين، فقام فيهم يدعو إلىٰ الله وإلىٰ نبذ الفاحشة ولكنهم لم يستجيبوا، فأهلك القرية وجعل عاليها سافلها، وأمطرها بحجارة من سجيل، وأهلك أولئك الأشرار بتلك الوسيلة المدمرة التي لم تُبقِ أحداً منهم ولم تذر، ونجّاه الله وأهله إلّا امرأته من تلك القرية الظّالم أهلها، وآتاه حكماً، وعلماً، وفضلاً، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء: ٧٥]. الذين لا يضيعهم الله -جلّ شأنه- ولا يخذلهم ولا يسلّمهم.

والملاحظ أنّ ذكر الأنبياء هنا لم يلاحظ فيه التّاريخ والتّسلسل الزّمني، فتذكر الآيات رسولاً متأخراً قبل الرّسول المتقدم، فقد ذكر موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ قبل سيدنا إبراهيم، وذكر سيدنا إبراهيم قبل سيدنا نوح، وكذلك لوط؛ فالهدف هنا تسرية

رسول الله ﷺ والتّسرية عنه، ولذلك أخذ في جولة سريعة يَمرّ بها على إخوانه من النّبيين والمرسلين، ويشاهد قصصهم مع إخوانهم وأقربائهم وما حدث لهم، وكلما كانت القصّة أقرب إلى معاناته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جاء السّياق بذكرها حتى ولو كان النّبي أو الرّسول التي وقعت له تلك الأمور متأخراً زماناً، وهناك من هو أقدم منه، فالمراد تدعيم الحالة النّفسية لرسول الله ﷺ وأخذه في مشهد شامل يرى فيه أنّه لم يكن بِدْعاً من الرّسل، وأنّ ما يعانيه من قومه قد عاناه إخوة له، وهذه قصص معاناتهم بين يديه؛ ولذلك جاء ذكرهم بهذا الشّكل -على نبينا وعليهم الصّلاة والسّلام-.

ويأخذنا السّياق إلى نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ويختصر قصته مع قومه كأنّه يريد فقط أن يذكر رسول الله ﷺ بها على سبيل الإجمال، ليستدعي الرّسول ﷺ تفاصيلها التي جاءت مبسوطة في سور كثيرة منها سورة نوح والأعراف.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧]

فنوح أول المرسلين من قبل هؤلاء الرسل، وقد لبث في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً، ومع ذلك لم يؤمن به من قومه إلّا القليل، قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: ٣٦-٣٧] فأمره الله بصناعة الفلك، والتي امتدت إلى وقتٍ اللهُ يعلمه، وكأنّ الله -تعالى- أراد أن يعطيهم فرصةً أخرى حينما يرون أنّ الأمر جدٌّ، فإذا بهم يسارعون إلى الاستهزاء والسّخرية به، فوقع القول عليهم بدعائه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المذكور في سورة نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦] وبيّن الله استجابته له نداءه ودعاءه، فقال -جلَّ شأنه-: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦] وأي كرب أشدّ من ذلك الكرب الذي أصاب النّاس عند الطّوفان، وكل منهم كان يبحث عن ملجأ لعله ينجو من الغرق، لأنّهم كانوا قوم سوء فأغرقهم الله جميعاً، وغسل الأرض من أوضارهم، وكأنّهم

أوساخ قد علقت بالأرض ولا بدّ أن تُطَهَّرَ الأرض منهم، فأغرقهم أجمعين، ونجّىٰ نوحاً ومن آمن معه في الفلك، فهبط نوح بعد ذلك بسلام، وبدأت دورة جديدة من دورات الدّعوة والإصلاح.

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٨٢]

هذه هي خامسة القصص التي قصها الله علىٰ رسوله ﷺ وعلينا في هذه السّورة، ليبين أنّ عجلة الإصلاح لم تتوقف، والنّبوات تتابعت حتىٰ وصلت لداود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي أضاف الله إلىٰ نبوته الخلافة وقال له: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦]، وقام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما عليه، ثمّ آلت النّبوة إلىٰ ولده سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي آتاه الله إضافة إلىٰ النّبوة الـمُلْك، وآتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسخّر له عناصر الطّبيعة، سواء التي تُنسب إلىٰ عالم الغيب أو الشّهادة ليبين الله للبشرية كلها أنّ الله خالق كل شيء، وأنّ عالم الغيب والشّهادة في قبضته، وأنّه لا يخرج عن ملكه وقبضته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيء منها.

وحكىٰ لنا الله -تعالىٰ- في سور كثيرة قصة داود وما مَنَّ الله عليه به، وقصة سليمان وما سخَّر الله له، وفي هذه السّورة يبين لنا قصة تتعلق بالحكم، فهناك حَرْثٌ أي: زرع نفشت فيه غنم القوم، فتحاكم أصحاب الزّرع وأصحاب الغنم إلىٰ سيدنا داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فحكم بينهما بأنّ الغنم لصاحب الحرث، ما دامت الغنم قد أتلفت الزّرع كله ولم تُبق شيئاً منه، ولما خرجا من عنده مرَّا بسليمان وكان - علىٰ ما يذكر المفسرون - صبياً لا يجاوز الحادية عشرة من عمره، فقال سليمان للخصمين: كيف قضىٰ بينكما والدي؟ فأخبراه به، فقال: لو كان الأمر لي لقضيت بما هو أرفق بالفريقين،

فقيل له: بما كنت ستقضي، فقال: تسليم الغنم إلىٰ صاحب الحرث، وله أن يَرْتَفِقَ بمنافعها من صوف ولبن، وعلىٰ صاحب الغنم أن يعمل في إصلاح الحرث والزّرع حتىٰ يعود كما كان، ثمّ تُرَدُّ الغنم إلىٰ صاحبها والحرث إلىٰ صاحبه، فعادا إلىٰ داود وقالا له مقالة سليمان، فنادىٰ سليمان وأمره أن يخبره بما قال، فذكر له ما قال، فقال له داود: إن القضاء ما قضيت به، فأشار الله -تعالىٰ- إلىٰ نعمته علىٰ سليمان وتفهيمه ذلك الحكم، ثمّ أكّد نعمته علىٰ داود وسليمان معاً، وأنّه قد آتىٰ كلاًّ منهما حُكماً وعِلماً، فداود يحكم بوصفه خليفةً، وسليمان يحكم بوصفه ملكاً، وقد علّم الله -تبارك وتعالىٰ- داود منطق الجبال، ومنطق الطّير، وامْتنَّ عليه بقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩-٨٠]، وتلك هي الدّروع، وكما الله امْتنَّ علىٰ داود بهذه النعم، امْتنَّ علىٰ سليمان بأن سخّر له ﴿ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ﴾ [الأنبياء: ٨١]، طائعة مُنقادة، فهنا يصفها بالعاصفة، وفي موضع آخر يصفها بأنّها رخاء حيث أصاب، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١]، فهو -سبحانه- خالق الجبال والرّياح، وفي ذلك تنبيه للإنسان علىٰ أنّه لا يليق به أن يعبد أي شيء من الطّبيعة كما كان يفعل المشركون، فليس له أن يعبد الجبال ولا الرّياح والطّير ولا النّار، فكلٌّ قد خلقه الله وسخره للبشر كيف يشاء ومتىٰ يشاء. ثمّ يبين نعمة أخرىٰ علىٰ سليمان وهي تسخير الشّياطين التي كثيراً ما أضلت من أهل الشّرك وسخرتهم وجعلتهم يعبدونها، هؤلاء الشّياطين يعملون عند سليمان، ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٨٢] في أعماق البحار ليستخرجوا الجواهر وغيرها من الأعمال، ولولا حفظ الله لهم- ليحققوا لنبيه سليمان ذلك- لما استطاعوا بأنفسهم أن يقوموا بكل ما أراده ويريده سليمان، وما كان لسليمان -لولا تسخير الله لهم- أن يسخرهم ويحبسهم ليفعلوا له ذلك كله. وهكذا يبين الله لرسوله وللبشرية من بعده قصص أنبيائه واختلاف أولئك النّبيين، ففي الوقت الذي عانىٰ فيه بعض الأنبياء ما عانوا، هناك أنبياء لم يعانوا الكثير وسخر الله لهم -جلّ شأنه- ما شاء.

هنا لا بدَّ لنا من الإشارة بأنّ الحكم بدأ في بني إسرائيل بحاكمية إلهية، ثمّ انتقل إلىٰ خلافة بعد أن رفض بنو إسرائيل الحاكمية الإلهية فاستخلف داود عليهم، ولكي لا يكون الانتقال من الحاكمية الإلهية إلىٰ حاكمية الخليفة حادّاً، فقد مَنَّ الله عَلَىٰ داود

بما تقدم من نعم ومسخرات، ولكن تمرد بنو إسرائيل على خلافة داود وطلبوا ملكاً، فجعل الله لهم سليمان ملكاً ونبياً في الوقت نفسه سخّر له الرّياح من عالم الشّهادة، والجن من عالم الغيب، ورغم ذلك تمردوا على ملك سليمان، واختاروا أن يختار لهم ملكاً كسائر النّاس، ويخرجوا من دوائر الحاكمية الإلهية والملك النّبوي إلى الملك العادي، واختار طالوت لهم ملكاً: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٤٧﴾ [البقرة: ٢٤٧] ثمّ انتهت الحاكمية الإلهية، ومع ذلك ادّعوا أنّهم أبناء الله وأحباؤه، وادّعوا محرفين بشارة رسول الله موسى إليهم بمحمد ﷺ بأنَّ هناك "مشايا" -أي نبي- يأتي في آخر الزّمن يحكم الأرض كلها لمدة ألف عام وسيكون منهم، وهناك سيعيدون حاكمية الشّعب المختار فلن تكون حاكمية إلهية، وخلافة وملكاً، ولكن حاكمية أبناء الله وأحبائه، أو شعبه المختار كما يقولون.[1]

ثمّ ينتقل السّياق إلى القصة السّادسة، وهي قصة سيدنا أيوب الذي ابتلاه ربه ثمّ استجاب له واصطفاه ورزقه أهلاً وولداً كثيرين: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء: ٨٣] هنا أراد الله -جلّ شأنه- أن يضرب للبشرية مثلاً مغايراً للمثل الذي ضربه بداود الخليفة وسليمان الملك، ليثبت به بشرية الرّسل كافة، وأنّ الرّسول مهما ميزه الله تعالى بالرّسالة فإنّه يبقى عبداً من عباد الله، في مقدوره -جلّ شأنه- أن يبتليه بالنّعماء وقد يبتليه بالضّراء، ويقدم أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للبشرية مثلاً في ذلك كله، فلا تطغيه النّعمة، ولا يفسده الابتلاء أو يدفعه إلى الكفر. ولقد ذكر المفسرون قصصاً عجيبة في موضوع سيدنا أيوب، لا قيمة لمعظمها، وليس عليها دليل، والعلم بها لا ينفع، والجهل بها لا يضر، فلن ننشغل بذكرها. فلو أنّ في ذكرها خيراً لنا لذكره الله، لكن ما ورد في كتاب الله عن هذا النّبي الصّابر المحتسب - في مختلف سور

(١) وللمزيد عن الحاكمية، انظر:

- العلواني، طه جابر. **الحاكمية والهيمنة: نحو إعادة وبناء مفهوم الأمة والدولة والدعوة**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٦ م.

القرآن - كاف لاستخلاص العبر وأخذ الدّروس. وبعد أن ذكر -جلّ شأنه- نداء أيوب بعد ابتلائه بالضّرّ، قال: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٤] فالإشارة إلىٰ أهله إشارة إلىٰ حالة النّعماء التي كان عليها قبل أن تمسه البأساء، فأراد الله -جلّ شأنه- أن يذكره في هذه السّورة لنبينا وللبشرية من بعده مثالاً للصّبر والشّكر في حالة النّعمة، ومثالاً للصّبر والذّكر واللجوء إلىٰ الله في الحالة المضادة لها، وفي كلتا الحالتين لم يتغير أيوب ولم يتذمر وبقي مواظباً علىٰ طاعة الله شاكراً له عندما أنعم عليه، وصابراً عندما ابتلاه وشاكراً مرة أخرىٰ عندما استجاب دعاءه، لذلك كانت فاصلة الآية الثّانية أنّ الله -تبارك وتعالىٰ- قال فيه أو في قصته ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٤] فقد أنعم عليه بأن جعل الملائكة تصلي بصلاته، فمن أراد أن يعبد الله حق عبادته مهما كانت ظروفه، فقصة أيوب تساعده وتسعفه وتقدم له المثل الأفضل والأحسن والنّموذج الذي يُحتذىٰ. فالعابدون أحوج النّاس إلىٰ أن تكون بين أيديهم أمثلة للصّبر والاحتساب، والشّكر والاقتراب من الله -جلَّ شأنه- لذا أتبع نبأ أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذكر مجموعة من الأنبياء المشتهرين بالصّبر، فقال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦] فإسماعيل الذي صبر علىٰ رؤيا والده بذبحه حين رأىٰ في المنام أنّه يذبحه، وصبر علىٰ المقام في واد لا زرع فيه ولا ضرع، فأكرمه الله تعالىٰ وجعل خاتم النّبيين من بنيه، وأمّا إدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي قال الله فيه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ [مريم: ٥٦-٥٧] وأمّا ذو الكفل فقد وصفه الله -تعالىٰ-بأنّه من الصّابرين، وللمفسرين قصص كثيرة في تسميته وكنيته والقوم الذين أُرسل إليهم، ولا نود الإطالة في ذلك، ويكفينا أنّه ذكر مع ثلاثة من الأنبياء ذكروا بعد سيدنا أيوب، ووصفهم الله - تعالىٰ - بأنّه أدخلهم في رحمته وأنهم من الصّالحين.

وينتقل السّياق إلىٰ نبي الله ذي النّون أو يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي التقمه ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

[الأنبياء: ٨٧-٨٨] فقد غضب من قومه أن لم يؤمنوا، فانصرف عنهم. وكل ما يمكن قوله إنّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم ينتظر إذن الله -جلّ شأنه- له بالانصراف عنهم، فيئس منهم وانصرف عنهم، فكأنّه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قد جعل من قصته درساً وعبرة للأنبياء والرّسل من بعده وللدّعاة والمصلحين كافة. وأمّا قوله -جلّ شأنه-: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧] فقد أصابه اليأس من أن يستطيع أن يخرج من بطن الحوت، ظناً منه أنَّ هذا عقابه من الله، فاستمر في الذّكر والتّسبيح حتىٰ قدر الله تعالىٰ خروجه من بطن الحوت إلىٰ البر: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤٤ ۞فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ۝١٤٦ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ۝١٤٨﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٨] وقد أمر الله رسله من بعد يونس أن يتعلموا منه الدّرس، فقال تعالىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: ٤٨-٥٠] فهذه القصة فيها من الدّروس والعبر الرّائعة للدّعاة الذين يستكبر أقوامهم عن الاستجابة لهم، ولا يحالفهم النّجاح في إقناعهم، فيدركهم اليأس من استجابة النّاس لهم، فهؤلاء عرضة للبلاء كابتلاء صاحب الحوت! فهذا النّوع من الابتلاء قد يصيب الدّاعية حينما يظن يوماً بأنّ نجاحه كان بما أُوتي من علم عنده، وأن انتشار دعوته رهن بقدرته الاستراتيجية والتّخطيطية والتّنظيمية وغيرها، فيصيبه الغرور ويشعر بالاستعلاء، فإذا ابتلي مرة أخرىٰ فبدلاً من أن يراجع نفسه ويلومها، يلقي باللوم -عند الفشل- علىٰ الأسباب المادية والعوامل البشرية وما إليها وينسىٰ نفسه. وليتعلم الدعاة من تجربة سيدنا يونس، وليراجعوا أنفسهم، وليصبروا علىٰ أقوامهم ولا يغضبوا عليهم، ويرحلوا عنهم إلّا بعد دراسة وتخطيط. فمسؤولية الدّعوة إلىٰ الله مسؤولية كبرىٰ، لا ينبغي أن يستعجل الدّاعية التّنصل منها، والهروب من أعبائها ولا أن يفتر عنها.

ولنستشعر عظمة هذا الأمر فعلينا أن نتأمل -معاً- معنىٰ أن يلتقم الحوت سيدنا يونس، وأن ندرك كم الظّلام الهائل الذي عاش فيه داخل زنزانة بطن الحوت، وأن ندرك أذاه ونتن الرّائحة التي يشمها فيه، وأن ندرك كم الضّيق والضّنك والخوف، فلا

يعلم أين هو؟ ولا يعلم الوقت ولا الزّمن الذي قضاه بداخله، ولا شيء عن مصيره، وأن ندرك بذلك الارتجاجات التي يتعرض لها داخل بطن حوت لا يكف عن الحركة والتّقلب، فلا يهنأ له نوم ولا راحة، وأن ندرك كم الجوع والعطش الذي قد تعرض لهما داخل بطنه وما يثيره من بؤس وضنك شديدين، فليستشعر المسلم ويتعلم من سيدنا يونس وليعلم أنه أمام مسؤولية عظمىٰ.

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠] في هذه القصة التّاسعة ينقلنا السّياق إلىٰ قصة نبي انقطع إلىٰ ربه يحمده ويسبحه ويذكره حتىٰ بلغه الكبر، وقال تعالىٰ واصفا حاله: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وهو عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يعرف أنّ الله -تعالىٰ- لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وهو عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ متعلّق بذكر ربه، عاشق لاستمراره ودعائه، فإن كان الموت سيحرمه من ذلك، فقد تمنىٰ أن لا يتوقف الذّكر والخشوع والمسارعة في الخيرات في ذلك البيت المبارك، فنادىٰ ربه ودعاه دعاء خفياً، ﴿ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فأنا أريد من بعدي أن يرثوا عني ذلك الدّعاء والتّهليل والتّكبير والمسارعة في الخيرات؛ لئلا ينقطع الذّكر في هذا البيت، فإن كنت يا رب ستستجيب دعائي؛ فذلك فضل منك ونعمة، وإن لم يكن فإنك خير وارث، فاستجاب الله -تعالىٰ- له وحقق له ما تمناه ووهب له يحيىٰ وأصلح له زوجه، فمَنَّ عليها بالصّحة والقدرة علىٰ الإنجاب رغم الكبر وتجاوز فترة قدرة المرأة علىٰ الحمل، وما يستتبعه من ولادة وإرضاع وحضانة وما إلىٰ ذلك. فكأنّه -جلّ شأنه- حقق له ما أراد، وفي الوقت نفسه هيأ الأسباب لذلك كله بحيث تظهر وكأنها أسبابٌ طبيعية، وليحقق له -جزاء تبتله وعبادته وخشوعه لله وخضوعه- ما تمناه، وجعل الولد الذي وهبه ﴿ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٩]، لتقرّ به عينه كثيراً، وليعلم أنّ الذّكر لن ينقطع وأنّ صلاة الله ورحمته وبركاته علىٰ من بهذا البيت سوف تستمر ولن تتوقف إذا مات.

ثمَّ ينقلنا السّياق إلىٰ القصّة العاشرة، قصة مريم وابنها الذين جعلا آية واحدة ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١] فلم يمسسها بشر لا في حلال ولا في حرام، قال تعالىٰ: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾ [مريم: ٢٠] وجعل ولادتها لعيسىٰ بنفخة فيها كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: ٩١]. وليس لأحد أن يزيد علىٰ ما ذكره الله -جلّ شأنه- في هذا الأمر شيئاً، فقضية النّفخ وكيفيته وحقيقته إنما هو من عالم الأمر، وعلمه خاص به -تبارك وتعالىٰ-، ولا وزن لما قاله بعض المفسرين من قصص كثيرة حول هذا الأمر مما لم يقم عليه دليل صادق من القرآن الكريم أو أقوال الرّسول ﷺ الصّحيحة، وعلينا أن نوجّه اهتمامنا بما في القصة من عبر عظيمة من ضرورة تحصين المرأة لفرجها، وعدم السماح لأحد أن يمسها إلّا بما أحلّ الله، وأنّ الله قد خلق آدم من طين دون أب وأم، وخلق حواء دون أم، وخلق عيسىٰ دون أب، فسبحان الخلاق العليم. أمّا النّفخ فنأخذ عنه ما قاله الله ولا نتعداه إلىٰ غيره باحثين عن الكيفية أو غيرها، فما أوتينا من العلم إلّا قليلاً. وفي الوقت نفسه ذكر الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩] و﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١] وإنما كان هو وأمه آية في خلقه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكذلك في كلامه وشهادته لأمه -وهو طفل حديث الولادة- وفي سائر الكرامات والخوارق التي حصلت لأمه، ثمّ إرساله لبني إسرائيل، والخوارق التي حصلت علىٰ يديه من إحياء الموتىٰ وتشكيل طين علىٰ هيئة الطّير، فينفخ فيه نفخاً بشرياً غير غيبي، فيكون طيراً بإذن الله.

النَّجم العاشر:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ

كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ
جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ
فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا
يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ
كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ
ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ
ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا
تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ
عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٢-١١٢]

وهكذا تنتهي القصص العشر التي سيقت لتسرّي عن رسول الله ﷺ ولتبين له أنه ليس بدعاً من الرّسل، وأنّه واحد من أمّة الأنبياء الواحدة. وتأتي هاتان الآيتان خاتمة للقصص العشرة لتعلن أنّ النّبيين والرّسل -وإن اختلفت أسماؤهم والأمم التي أرسلوا إليها، والأماكن والمواقع التي أرسلوا فيها- يدعون إلىٰ إله واحد، وملة واحدة، وأمة واحدة في الإيمان الذي دعوا إليه، وهو توحيد الله وإفراده بالعبودية، لكن من أرسل إليهم قد تقطعوا أمرهم بينهم وتفرقت كلمتهم، واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات مع هؤلاء النّبيين كافة، فليعلموا أنهم جميعاً ﴿ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٣] ومسؤولون بين أيدينا عن كل ما فعلوا، لذلك ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، فلا يخاف من ضياع عمل أو نسيانه مهما كان صغيراً، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: ٤٤]. أمّا أولئك الذين لم يعملوا الصّالحات، فعليهم أن يسارعوا إلىٰ التّوبة ويغتنموا الفرصة التي آتاها الله لهم؛ إذ إنّهم لا رجوع لأي منهم بعد الموت، ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٥] فأية قرية وقع القول

عليهم، وأهلكوا بذنوبهم التي اقترفوها فلا سبيل إلىٰ الرّجوع إلىٰ الدنيا مرة أخرىٰ، فليبادروا إلىٰ التّوبة -وهم ما زالوا أحياء قادرين عليها- قبل فوات الأوان. وقد عبّر الله -تعالىٰ- عن ذلك بالحُرمة، فيحتمل أن يكون التّحريم عائد علىٰ القرية، ويكون المعنىٰ "كل قرية أُهلكت لا يمكن أن تُعاد إلىٰ الحياة، لا هي ولا أهلها قبل يوم النّشور"، فذلك تحريم بمعنىٰ المنع القطعي كما في قصة موسىٰ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] فهو يتنافىٰ مع سنة الله مع الموتىٰ. وممكن أن ينصرف التّحريم إلىٰ ذات الله العلية، فكأنّه يحرم علىٰ نفسه ذلك، لقطع الأمل تماماً عند البشر، الذين قد تغرهم رحمة الله تعالىٰ وفضله وكرمه ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار: ٦]، فمع رحمته وكرمه إلّا أنّ ذلك لن يحدث قطعياً، فلا تأملوا في ذلك أبداً، فالموت لا حياة بعده إلّا بعد البعث والنّشور، فاستبقوا الخيرات وسارعوا إليها.

ثم يؤكد -مرة ثانية- استحالة رجوعهم إلىٰ الحياة حتىٰ قيام السّاعة بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦]. وفيه إشارة إلىٰ أنّ يأجوج ومأجوج علامة من علامات يوم القيامة، لأنّ فتح يأجوج ومأجوج مقارب لاقتراب الوعد الحق.

ويأجوج ومأجوج تعبير عن أنواع من البشر، ولم يرد لهم ذكر في القرآن الكريم إلا في هذه الآية الكريمة، وما جاء في سورة الكهف في قصة ذي القرنين، ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف: ٩٤] إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٩] كما أننا نعرف أنّ الملائكة قد قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فمن الممكن أن يكون يأجوج ومأجوج من ذرية أولئك الذين كانوا من قبل ذرية آدم الذين كانوا يفسدون في الأرض ويسفكون الدّماء، وخشيت الملائكة من أفعالهم فقالوا ما قالوه. وسورة الكهف بينت أن يأجوج ومأجوج كانوا يؤذون جيرانهم الذين استعانوا بذي القرنين، وطلبوا منه أن يجعل بينهم وبين هؤلاء سداً يدرأ عنهم الأذىٰ الذي يصدر ضدهم من يأجوج ومأجوج. وأيّاً كان الأمر، فإنّ ذكرهم في هذه الآية

الكريمة يشير إلىٰ أنّ ذلك جزء من أحداث يوم القيامة، ويؤكد علىٰ ذلك قول ذي القرنين: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [الكهف: ٩٨]، فهو سد يمنع أذىٰ يأجوج ومأجوج عن جيرانهم إلىٰ أن يأذن الله، ويأتي الوعد الحق فيجعل هذا السّد دكاً، فينطلق هؤلاء مع البشر -الذين هم سكان الأرض اليوم- من كل حدب ينسلون إلىٰ حيث أرض المحشر والحساب والجزاء. ولا تمدنَّ عينيك إلىٰ ما خاض فيه المفسرون من أساطير الشّعوب ومخاضاتهم والإسرائيليات وما فيها عن حقيقة هؤلاء وانتمائهم وما إلىٰ ذلك، فكلها لا نجد لها سنداً من علم ولا تأييداً من آثار صحيحة ولا شيئاً من ذلك، فنكتفي بما ذكر الله- جلّ شأنه - ولا ندخل في أية متاهات أخرىٰ.

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء: ٩٧] لأنفسنا بتلك الغفلة وبتكذيب رسل الله -عليهم الصّلاة والسّلام-، ويلتفت السّياق إلىٰ أهل مكة وإلىٰ مشركي العرب ليقول لهم: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وحين نزلت هذه الآية قال عبد الله بن الزبعري"أنا أَخْصِمُ لَكُمْ مُحَمَّداً، فقال: يا محمد أَلَيْسَ فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾ قال: نعم، قال: فَهَذِهِ النَّصَارَىٰ تَعْبُدُ عِيسَىٰ، وَهَذِهِ الْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْراً وَهَذِهِ بنو تَمِيم تَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، فَهَؤُلاءِ فِي النَّارِ فَأَنْزَلَ اللهُ -عز وجل- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾"[1] وروىٰ المفسرون روايات أخرىٰ في ذات السّياق. ونزل قوله -جلّ شأنه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وبقطع النّظر عن قصة ابن الزّبعري وما فيها، فإن قريشاً كانت تعبد الأصنام والآية دالة علىٰ أنّ الله -جلّ شأنه- سيلقي بهم وبأصنامهم في جهنم يوم القيامة. والحكمة في بيان أنّهم سيكونون مع آلهتهم حصباً لجهنم، ليبين لهم ضآلة شأنهم وتفاهة ما يعبدون من دون الله من شياطين وأصنام وما إليها، وسيقول الله لهم -جلّ شأنه-:

(١) الطبراني، **المعجم الكبير**، مرجع سابق، ج١٢، حديث رقم (١٢٧٣٩)، ص١٥٣.

أهؤلاء الذين زعمتم أنّهم آلهتكم أو شركاء لي ﴿ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ ﴾ [الأنبياء: ٩٩-١٠٠] لآلهتهم التي ألقيت معهم، وسويت بأرض جهنم كأنّها جزء من حصبائها، لا يسمعون استغاثاتهم ولا ينتصرون لهم ولا ينفعونهم، فهم لا شيء مطلقاً. وعلى النّقيض يبيّن الله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وآمنوا بنا ولم يتخذوا آلهة من دون الله، فأولئك قد وعدناهم بثوابنا، فهم مبعدون عن النّار، بمن في ذلك أولئك الصّلحاء والأنبياء والرّسل والملائكة الذين ألههم بعض النّاس بجهلهم واتخذوهم آلهة بضلالهم.

﴿ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] بل هم في شغل عن ذلك كله، في الجنة خالدون لن يخرجوا منها ولن يموتوا، ﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فلا يحزنهم فزع يوم القيامة، وهو أكبر فزع قد يتعرض له الإنسان، ﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧ ﴾ [النمل: ٨٧] فيؤمنهم الله -تعالى- من الفزع وتستقبلهم الملائكة بالبشائر ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ ﴾ [الزمر: ٧٣] فهذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤-١٠٥].

ذهب الأكثرون من العلماء والمفسرين إلى أنّ المراد بالأرض هنا أرض الجنة ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤ ﴾ [الزمر: ٧٤] كما أنّها الأرض التي يختص الصّالحون بالإقامة فيها، أمّا أرض الحياة الدّنيا فهي أرض الاستخلاف والعمل ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ

ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥] ثم قال -جلّ شأنه- وهو يختم هذه السّورة: ﴿ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، أي إنّ ما ورد في هذه السّورة يكفي أن يكون بلاغاً تاماً كافياً للإنذار والتّبشير، ولكن لن يفقهه ويتأثر به إلّا العابدون وحدهم.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي في الدّين والدّنيا، ففي الدّين أنتَ المرسل بالشّريعة الخاتمة، التي تحل الطّيبات وتحرم الخبائث، وتضع عن النّاس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وأنت الذي أنزل الله عليك القرآن هدىً وشفاء، وأنت صاحب الخلق العظيم الذي يحرص علىٰ أن لا يكون هناك عنت ولا مشقة علىٰ أحد من النّاس، فأنت رحمة لمن اتبعك من المؤمنين في كل العصور، لأنك أرسلت بالكتاب الذي صدّق وهيمن علىٰ الكتب السّابقة.

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨-١١٢] تأتي خاتمة هذه السّورة الكريمة، سورة الأنبياء كلهم، لتؤكد أنّ ما أنزل إلىٰ رسول الله ﷺ وأوحىٰ إليه في هذا القرآن هو الموضوع الأساس للنبوات كافة ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، فتسلمون وجوهكم لله الواحد، وتوقنون بأنّ الوحي الوارد لدىٰ جميع الأنبياء والمنزل عليهم إنّما جاء بإخلاص التّوحيد لله -تعالىٰ- ونبذ الأنداد والشّركاء، فإذا رفضتم التّوحيد، فذلك يعني أنكم قد توليتم وأعرضتم عن ذكر الله الذي جئتكم به، وعن الذّكر الذي جاء به المرسلون كافة، ولم تتركوا لي خياراً بأن أنبذ لكم وأعلمكم علىٰ سواء بما سيترتب علىٰ ذلك من فتنة واضطراب، إضافة إلىٰ ما ينتظركم في الدّار الآخرة من عذاب، فأنا لا أدري أقريب أم بعيد ما توعدون، لأنّ الله -تعالىٰ- قد أخفىٰ السّاعة عني وعنكم، ولكنه ﴿ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ

﴿مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾ [الأنبياء: ١١٠]، فالوحي الذي أنزله عليّ وأمرني بدعوتكم إلى الإيمان به ﴿لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ﴾ [الأنبياء: ١١١] واختبار في هذه الحياة القصيرة، أو لعله ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾ [الأنبياء: ١١١]، ولا أدري متى وكيف ينزل الله فيكم العذاب، فاغتنموا الفرصة، وبادروا إلى الإيمان بالله ولا تشركوا به شيئاً، فهو المستعان على ما تصفون من أباطيل وكفر وشرك وافتراء عليه -سبحانه-، وقد بلغت الغاية في النّصح لكم وأنتم تتمادون في كفركم وشرككم وضلالكم وما تصفون به آلهتكم من أكاذيب وربي وربكم هو الرّحمن الرّحيم، لا ربَّ سواه وهو وحده المستعان على ما تصفون.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ﷺ.

سُورَةُ الحَجِّ

وصف السورة:

عدد آياتها: ثمان وسبعون.

وعدد كلماتها: ألف ومائتان وتسع وسبعون.

وعدد حروفها: خمسة آلاف ومائة وستة وتسعون.

وترتيبها في المصحف (٢٢).

نزلت بعد سورة النور، وقد اختلف المفسِّرون في كون هذه السورة مكيَّة أو مدنيَّة، أو بعضها مكّي والآخر مدني. فأخرج ابن المنذر عن قتادة قال: نزل بالمدينة من القرآن الحج، غير أربع آيات مكيات ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٥].[١] وقال أبو حيان: هذه السورة مكية إلا ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ [الحج: ١٩] إلى تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد. وعن ابن عباس -أيضاً- إنهن أربع آيات إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٩]، وقال الجمهور: منها مكي ومنها مدني.[٢]

قلتُ: والظاهر من آياتها كلها أنَّها نزلت في مكة، وهذا هو الأليق بها في عرضها واتصال آياتها وموضوعاتها، ووحدتها، والسياق يؤيّد ذلك ويقوّيه. وتشريع الحجّ لا يجعل من الآيات المتعلقة به ولا من السورة سورة مدنيّة؛ فالحج كان معروفاً عند

(١) السيوطي، **الدر المنثور في التفسير المأثور**، مرجع سابق، ج٦، ص٣.

(٢) أبو حيان الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف (توفي: ٧٥٤هـ). **البحر المحيط في التفسير**، بعناية: الشيخ زهير جعيد، بيروت: دار الفكر، ٢٠١٠م، ج٧، ص٤٨٠.

العرب قبل الإسلام، وكذلك القلائد والهدايا والشعائر، لكنّ التغيير الذي أدخله القرآن الكريم كان في ربط جميع الشعائر والمناسك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وتصحيح النوايا، وإيجاد قطيعةٍ مع الأصنام. وكون بعض آيات السورة تُماثل -من حيث الأسلوب- بعض ما نزل في المدينة ليس دليلاً كافياً علىٰ مدنيّة تلك الآيات، وليس لدينا نقلٌ ثابتٌ يُبيّن أنَّ ما نُقل عن ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحّاك ثابتٌ بنقلٍ صحيحٍ يُحتجّ به؛ وعلىٰ ذلك فالسورة -فيما نرىٰ- مكيّةٌ بتمامها، والله أعلم.

علىٰ أنَّ الاهتمام بتحديد ما هو مكيٌّ من الآيات، وما هو مدنيٌّ هو فرعٌ عن اهتمامهم "بالنسخ"، فمعرفة ذلك يعين علىٰ تحديد ما هو ناسخ وما هو منسوخ، وقد ناقشنا القول بوجود ناسخ ومنسوخ في القرآن وأبطلناه في كتابنا "نحو موقف قرآنيّ من النسخ".

كما أنَّ الدخول في ذكر عدد الآيات المكية وعدد الآيات المدنية في كل سورة، لم يعد له أثر كبير بعد الترتيب لآيات الكتاب الكريم في العرضتين الأخيرتين،(١) فقد قطع ذلك الكلام عن أسباب النزول وأماكنها إلا في أضيق الحدود.

مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها:

لما ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سورة الأنبياء حال الأشقياء والسعداء، وذكر الفزع الأكبر الذي سيحدث يوم القيامة، وكان مشركو مكّة ينكرون المعاد، ويكذّبون به، وقد أوهمهم الشيطان أنّهم علىٰ صوابٍ في ذلك بسبب تأخُّر العذاب -الذي توعّدهم القرآن به- عنهم جاءت هذه السورة تحذيراً لهم وتخويفاً؛ بما انطوت عليه من ذكر زلزلة الساعة وشدّة هولها، وذكر ما أُعدّ لمنكريها، وتنبيههم علىٰ أنّ البعث واقعٌ لا محالة، وأنّ الدليل عليه هو نفس دليل الخلق وما فيه من بدايةٍ ونهاية، وما يحدث بينهما، كما أنّه ضرب لهم الأمثلة بالأرض الهامدة الميّتة، وكيف يُحييها الله بعد موتها بالماء، فتهتز وتُنبت وتعود حيةً مخضرّة بإذنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.(٢)

(١) عن أبي هُرَيْرَةَ قال: "كان يَعْرِضُ علىٰ النبيِّ ﷺ الْقُرْآنَ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَعَرَضَ عليه مَرَّتَيْنِ في الْعَامِ الذي قُبِضَ فيه، وَكَانَ يَعْتَكِفُ كُلَّ عَامٍ عَشْراً فَاعْتَكَفَ عِشْرِينَ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ"، انظر:
-البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب فضائل القرآن، بَاب كان جِبْرِيلُ يَعْرِضُ الْقُرْآنَ علىٰ النبي ﷺ، حديث رقم (٤٩٩٨)، ص٩٩٤.

(٢) أبو حيان، **البحر المحيط في التفسير**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٨٠.

عمود السورة:

إنّ عمود السورة ومحورها وموضوعها الأساس هو التمكين للنبيّ ﷺ ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وقد ذكرت السورة لوازم هذا التمكين، وما يتوقّف التمكين عليه، وما يؤدّي إلىٰ استمراره، وبعض التحدّيات التي تعترضه أو قد تؤدي إلىٰ توقّفه وانقطاعه.

وتسميتها بـ«الحج» لما يقتضيه الحج من أمنٍ واستطاعةٍ، وبسط سلطان المؤمنين وقيام أُمَّتهم بكل ما يعنيه قيام الأُمَّة؛ من قِبْلةٍ، ومناسك، ومشاعر، وهيبةٍ في نفوس الآخرين تحول بينهم وبين الصدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام، سواء بإخافة الطّريق أو انتهاك حرمة الشعائر. وعلىٰ هذا فإنَّ «الحج» من أهم مظاهر «التمكين»، فلا غرابة أن تُسمّىٰ السورة به، ويأخذ ذلك الحيِّز من سورة محورها الأساس: «التمكين»، ولأنّ قريشاً لم يكن لها ذلك القدر من الاحترام والتقدير والمهابة في نفوس العرب إلا بسبب ذلك البيت الذي بوَّأ الله إبراهيمَ مكانه، وبسببه كانت جزيرة العرب تعرف فتراتٍ من الأمن والأمان ما كان يمكن أن تتمتّع بها لولا هذا البيت، قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [القصص: ٥٧]. وفي هذه السورة -الحج- قال جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: ٤١] ففي آية القصص إشارة إلىٰ سكان الحرم، وفي هذه الآية إشارة إلىٰ الأُمَّة التي ستشرف بحماية هذا الحرم، وحماية أمنه، وتطهيره للطائفين والقائمين والركّع السّجود.

و«الجدل» الذي ورد في السورة أكثر من مرة، والعناية بذكر أصناف المجادلين، يُعد وجهاً من وجوه التمكين، فالجدال مع المخالفين هو دليل قوةٍ ومَنَعة وتمكينٍ لتلك الأُمّة؛ إذ يشير إلىٰ أن أعداء رسول الله ﷺ وأعداء التمكين له ولأُمّته، وللكتاب الذي نزّله الله علىٰ قلبه، لم يعودوا قادرين علىٰ إيقاف ذلك المدّ الخيّر المبرور، ولم يعودوا يجدون في أنفسهم قدرةً علىٰ إسكات صوت رسول الله ﷺ أو النّيل منه: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]، وصار بَسط سلطان الإسلام أمراً ميسّراً، ولم يعد لدىٰ المشركين ما يفعلونه، إلا الشّغب واللغو والمجادلات السفيهة التي لا تنبثق عن علم أو معرفة، بل عن تقليدٍ ومتابعةٍ عمياء للشيطان، وهي مجادلاتٌ

لن تؤدي إلىٰ إيقاف الإسلام أو الحيلولة بينه وبين الوصول إلىٰ الناس.

و«الحج» من العبادات التي فيها ينفتح الطريق أمام الأُمم والشعوب للتلاقي، مهما اختلفت ألسنتهم وجذورهم وأنسابهم. وتقارب الثقافات البيئيَّة وتحاورها تعبيرٌ عن ذلك «التمكين» الذي تقوم عليه هذه الأُمَّة الشاهدة الخيّرة الوسط، فتجتمع شعوب هذه الأُمَّة علىٰ صعيدٍ واحد، في موقعٍ واحد، لعبادة الله وحده، وليشهدوا منافع كثيرة مع تلك العبادة الفريدة.

كما أنَّ اشتمال هذه السورة -لا غيرها- علىٰ أول إذنٍ إلهيٍّ يصدر للمؤمنين بالجهاد والمدافعة في آياتٍ متعاقبة يُعزّز كون عمود السورة هو «التمكين»، الذي هيّأه الله -تعالىٰ- لهذه الأُمَّة بعد أن كانت أُمَّة الأقلّية المستضعفين في الأرض. الذين يخافون أن يتخطّفهم الناس فآواهم الله -تعالىٰ- وأيدهم بنصره.

نداء النّاس كافة، وأمرهم بالتقوىٰ في سورتي «الحج» و«النساء»:

بداية هذه السورة مثل بداية سورة «النساء»، فهناك قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١] وهنا كانت البداية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: ١].

فآية «النساء» تبدأ بنداء الناس للالتزام بالتقوىٰ والتشبُّث بها، مذكّرة ببداية الخلق، فالخلق بدأ بنفس واحدة خلقت من طين، وخلق منها زوجها، وبداية سورة «الحج» تنادي الناس -جميعاً- للالتزام بالتقوىٰ والتشبُّث بها قبل الدخول في أهوال الآخرة. وقد تكرّر نداء الناس في هذه السورة خمس مرات، كما نُودي الذين آمنوا وأُمروا بالرّكوع والسجود وفعل الخير والجهاد، وبذلك تكون السورة تفصيلاً لبعض ما أُحكم في سور أخرىٰ كسورة «البقرة» وغيرها من الأنفال والتوبة.

النَّجم الأول: (في البعث ودليل الخلق)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم

بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ١-٧].

جرت عادة القرآن المجيد على التذكير الدائم والمستمر بأمورٍ عديدة، يذكرها عندما يتناول أمراً عظيماً مثل «التمكين»، فيذكّر بالتقوى والدّار الآخرة والبعث والرسالات السابقة؛ لأنَّ في ذلك ما يُزيل استبعاد الإنسان وقوع ما جاء من بيان جواز وقوعه، وما يتطلبه ذلك الوقوع من أعباء وشروط وأسباب لا بد من تحصيلها، فـ«الرؤية الكليَّة» و«القاعدة الإيمانيَّة» -ينبغي أن يكون منها المنطلق وإليها المرجع على الدوام- تهيّئ لذلك وتمهّد له، وتزيل أيّ شعور بتعذّره أو تعسُّره.

و«التقوى» مفهومٌ قرآنيّ ذو أهميَّة كبيرة، وهو الاسم من قولهم «اتّقى»، والمصدر «الاتّقاء»، وكلاهما مأخوذ من مادّة «و ق ي» التي تدلّ على دفع شيء عن شيء بغيره، ومعنى قوله -جلّ شأنه-: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. توقّوه: أي اجعلوا بينكم وبينه من الأعمال الصالحة كالوقاية، (١) وتجنّبوا من الأعمال السيئة ما يكون واقياً وحافظاً لكم من غضبه وسخطه لتستحقوا رضاه. وهي أعم من العدالة وأوسع. قال الراغب: التقوى: جعل النفس في وقاية مما يُخاف، هذا تحقيقه. وصار مفهوم التقوى في عرف الشرع حفظ النفس عما يؤثّم، وذلك بترك المحظور، والقيام بالمأمور به.(٢)

ويقول الجرجانيّ: التقوى: في اللغة بمعنى الاتقاء، وهو اتخاذ الوقاية، وعند أهل الحقيقة هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به

(١) ابن حميد، صالح .وملوح، عبد الرحمن (مشرفان). **موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم** ﷺ، جدة: دار الوسيلة، ط١، ١٩٩٨م، ج٤، ص.١٠٧٩.

(٢) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٨٨١.

العقوبة من فعل أو ترك، والتّقوىٰ في الطاعة يُراد بها الإخلاص، وفي المعصية يُراد بها التّرك والحذر، وقيل: أن يتّقي العبد ما سوىٰ الله -تعالىٰ-، وقيل: المحافظة علىٰ آداب الشريعة، وقيل: مجانبة كل ما يُبعدك عن الله تعالىٰ، وقيل: ترك حظوظ النّفس ومباينة النهي، وقيل: ألّا ترىٰ في نفسك شيئاً سوىٰ الله، وقيل: ألّا ترىٰ نفسك خيراً من أحد، وقيل: ترك ما دون الله. والمتّبع عندهم هو الذي اتقىٰ متابعة الهوىٰ، وقيل: الاهتداء بالنبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قولاً وفعلاً.(١)

والحق أنَّ كل تلك المعاني المذكورة تندرج تحت مفهوم التقوىٰ، وإفراد أولئك العلماء لبعض تلك المعاني لأنَّ نظرهم انصرف إليه لا ليجعل المفهوم منحصراً فيه، بل يجعل ذلك المعنىٰ جزءاً من مدلولاته، فالتقوىٰ إذن تلك المعاني كلها بعد أن تتحول إلىٰ ملكة قائمة بالنفس الإنسانيَّة تجعلها تستحضر وجود الله -تعالىٰ- معها في كل حالة، في السر والعلن، وفي الخلوة والجلوة، انطلاقاً من قوله ﷺ: "أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك."(٢) وآنذاك تظهر التقوىٰ في قلب المؤمن ووجدانه وسلوكه وأخذه وعطائه؛ لتكون تقوىٰ عامَّة شاملة في السر والعلن، تحمل - من وفق إليها وأعانه الله علىٰ حملها - إلىٰ التجافي عن دار الغرور والإنابة إلىٰ دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله بزاد التقوىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧]. فهي صفة عالية مثل صفات الإيمان والإسلام والإحسان، بها تتحقق العدالة، وعليها تقوم الاستقامة.

فقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ١] أي يا أيها الناس احذروا عقاب ربكم، فأطيعوه ولا تعصوه واجعلوا أنفسكم في وقاية من غضبه، وذلك بفعل ما أمركم به من الواجبات، وترك ما نهاكم عنه من المحرمات، وهذا خطاب ينتظم فيه المكلفون حين النزول ومن سيوجدون بعدهم إلىٰ يوم القيامة.(٣) فالخطاب هنا عام

---

(١) الجرجاني، علي بن محمد الشريف (توفي:٨١٦ هـ). **كتاب التعريفات**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٣م، ص٦٥.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، بَاب سُؤَالِ جِبْرِيلَ النبي ﷺ عن الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ وعلم الساعة، حديث رقم(٥٠)، ص٣٣.

(٣) انظر: المراغي، أحمد مصطفىٰ. **تفسير المراغي**، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٩٤٦م، ج١٧، ص٨٤.

للناس جميعاً، وعادةً ما يأتي الخطاب الذي يطلب الإيمان عاماً لكل الناس، [١] وحين يطلب تنفيذ حكم شرعيّ يصدِّر الخطاب بنحو قوله: «يا أيها الذين آمنوا.»[٢]

ثم علل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]؛ أي إن الزلزلة التي تكون حين قيام الساعة قبل قيام الناس من أجداثهم كما قال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: ١-٢].

واعلم أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر في الآية من أهوال ذلك اليوم أموراً ثلاثة:

أحدها: قوله: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]؛ أي: تُذهلها «الزّلزلة»، و«الذهول»: الذهاب عن الأمر مع دهشة.

وثانيها: قوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢]، والمعنىٰ أنّها تضع ولدها لتمام أو تسقطه لغير تمام من هول ذلك اليوم، وهذا يدل علىٰ أنّ هذه «الزّلزلة» إنّما تكون قبل البعث.

وثالثها: قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢]، المعنىٰ: وتراهم سكارىٰ (علىٰ التشبيه) ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢] (علىٰ التحقيق)، ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله -تعالىٰ- هو الذي أذهب عقولهم وطيّر تمييزهم.[٣]

ومعنىٰ «التزلزل»: الاضطراب، وتكرير حروف لفظه تنبيه علىٰ تكرير معنىٰ التزلزل فيه، قال تعالىٰ: ﴿وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب: ١١]؛ أي: زُعزعوا من الرعب.[٤]

---

(١) فهو خطاب للحقيقة الإنسانيَّة التي أخذ الله العهد عليها ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢﴾ [الأعراف:١٧٢]، وهي الحقيقة التي جلّاها الله في آدم وزوجه، حيث عهد إلىٰ آدم بمهمة الاستخلاف، فالعهد كان إلىٰ جنسه وحقيقته، ولم يكن قاصراً عليه وزوجته، وكذلك في تحمل الأمانة التي عرضها الله وحملها الإنسان، فمثل هذا الخطاب الموجّه للحقائق الكليَّة لا يختلف فيه خطاب الموجود عن خطاب من سيوجد بعد ذلك، فكأن في داخله معنىٰ يقول: "لما وجد إنسان يحمل هذه الحقيقة فهو مخاطب بهذا الخطاب .ومن ثمَّ فلا معنىٰ لما شغل بعض علماء الفقه به أنفسهم من عقد مسألة عرفت في أصول الفقه بـ"مسألة تكليف المعدوم "فهو في عرف القرآن ليس معدوماً، لكنه لم يكن شيئاً مذكوراً: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١] وفرق كبير بين المعدوم والموجود الذي لم يذكر من قبل ثم ذكر.

(٢) قارن بـ: الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مرجع سابق، ج١٦، ص٩٦٨٥.

(٣) الرازي، **مفاتيح الغيب "التفسير الكبير"**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٥.

(٤) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٣٨٢.

«والزلزلة» تضاف إلىٰ الأشياء وإلىٰ الأشخاص، ففي الأشياء قد تشتد فتدمّر، وقد تجعل عالي الأشياء سافلها. وفي الأشخاص قد تؤدي إلىٰ الهروب إذا كانوا في معركة أو موقف محرج مخيف. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج: ٢] فهم لم يَرَوْا العذاب بَعْد، إنَّ مجرد شهود قيام الساعة وأهوالها قد أفقدهم توازنهم؛ إذن: انتهىٰ الأمر، وما كنتم تكذبون به ها هو ماثل أمام أعينكم.[١]

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ [الحج: ٣]. يذكر صنفاً من الناس من أولئك الذين اتخذوا من الجدال في المولىٰ -جل شأنه- مشرباً في اتباع هوىٰ الشيطان. فكيف يكون الجدال في الله -تعالىٰ-؟ "يكون الجدال في الله وجوداً، كجدال الملحد الذي لا يعترف بوجود إله، أو يكون الجدال في الوحدانيّة، كمن يُشرك بالله إلهاً آخر، أو يكون الجدال في إعلام الله بشيء غيبي، كأمر الساعة الذي يُنكره البعض ولا يُؤمنون به، هذا كله جدل في الله."[٢] و«الجدال» عبارة عن مراء يتعلّق بإظهار المذاهب وتقريرها.[٣]

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ [الحج: ٤]. كُتب علىٰ هذا الشيطان المسْتَعلي أنَّ مَنْ يتولّه ويستمع إليه فإنّ مصيره إلىٰ الضلال الذي سيصل به إلىٰ النار، وهذا حكمٌ ظاهرٌ استحقّه بِبَغيه وبما ارتكبه من جرائم في حقّ الله -تعالىٰ-.

(١) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مرجع سابق، ج١٦، ص٩٦٩٢.

(٢) المرجع السابق، ج١٦، ص٩٦٩٣.

(٣) الجرجاني، **كتاب التعريفات**، مرجع سابق، ص٧٩. وقد ذكر الإمام الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية أنَّها -بمفهومها- تدلّ علىٰ جواز المجادلة الحقّة؛ لأنّ تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل، يدلّ علىٰ أنّ المجادلة مع العلم جائزة، فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ [الزخرف: ٥٨]، والمجادلة الحقّة هي المراد من قوله: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، انظر:
-الرازي، **مفاتيح الغيب "التفسير الكبير"**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٦.

والجدال في الله قد يكون بالجدل في أفعاله -سبحانه- مثل جدال منكري النبوات في اصطفائه الرسل والنبيّين من البشر وإنزاله -سبحانه- الوحي عليهم. وقوله: «شيطان مريد»؛ أي: متعرٍّ من الخيرات، فـ«المارد» و«المريد» من شياطين الجنّ والإنس: المتعري من الخيرات، من قولهم: «شجر أمرد»: إذا تعرّىٰ من الورق، ومنه قيل: «رملة مرداء»: أي لم تُنبت شيئاً.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ [الحج: ٥] هذه الآية من السورة ذكرت «البعث» بدليله -دليل الخلق- لتزيل أيّ ريب فيه، ولتؤكد أنّ الله هو الإله الحق، والربّ الحقّ المتّصف بكل صفات الكمال، المنتفيَة عنه كل صفات النقصان، وأنّه قادرٌ على أن يُحيي الموتى قدرته على كل شيء آخر، وأنّه قادرٌ على البعث وإعادة مَنْ في القبور إلى الحياة الأخرى كما خلقهم أول مرة.

وأصل «البعث»: إثارة الشيء وتوجيهه، يُقال: بعثته فانبعث، ويختلف «البعث» بحسب اختلاف ما علق به، فـ«بعثت البعير»: أثرته وسيّرته، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٣٦] أي: يُخرجهم ويُسيّرهم إلى القيامة، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [المجادلة: ٦]، ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨].(١)

﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ [الحج: ٥]. إنْ كنتم في شّك منه فإليكم الدليل على صِدْقه ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ نَشَآءُ ﴾ [الحج: ٥] أي: الخَلْق الأول، وهو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تارة يقول: إنه تعالى خلق الإنسان: ﴿ مِّن طِينٍ ﴾ [الأنعام: ٢] وتارة ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر: ٢٦] وتارة ﴿مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥] وتارة ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴾ [الرحمن: ١٤]. وتارة ﴿مِن مَّآءٍ ﴾ [الطارق: ٦] وهذا مما دعا المستشرقين إلى الطعن في أسلوب القرآن، فقالوا: من أيِّ هذه الأشياء خُلِقْتم؟

وهذا الاعتراض ناشئ من عدم فَهْم لغة القرآن، فالتراب والماء والطين والحمأ المسنون والصلصال -كلها- مراحل متعددة لشيء الواحد، فإذا وضعتَ الماء على التراب صار طيناً، فإنْ تركتَ الطين حتى يتخمّر، ويتداخل بعضه في بعض حتى لا تستطيع أنْ تميز عنصراً فيه عن الآخر. وهذا عندما يعطَنُ وتتغير رائحته يكون هو الحمأ المسنون، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار، ومنه خلق اللهُ الإنسان وصوَّره، ونفخ فيه من روحه، إذن: هذه مراحل للشيء الواحد، ومرور الشيء بمراحل مختلفة لا يُغيِّره في حقيقته.(٢)

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص١٣٢.

(٢) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مرجع سابق، ج١٦، ص٩٧٠٢-٩٧٠٣.

ثم ذكر الاستدلال على إمكان البعث بخلق النبات أيضاً فقال: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ [الحج: ٥]. أي وترى الأرض يابسة دارسة الآثار من النبات والزرع، فإذا نحن أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات وازدادت وانتفخت، لما يتداخلها من الماء والنبات، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]. البهجة: حسن اللهو وظهور السرور، وفيه قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]،[١] أي: ثم أنبتت أنواعاً تسر الناظرين ببديع منظرها، وجميل شكلها، واختلاف طعومها وروائحها، ومقاديرها ومنافعها.

وبعد أن قرر سبحانه هذين البرهانين رتب عليهما خمس نتائج حتمية:

(١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ [الحج: ٦]، الذي ذكرت لكم من بدئنا خلقكم في بطون أمهاتكم، ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده، طفلاً وكهلاً وشيخاً في حال الهرم، وتنبيهنا إياكم إلى فعلنا بالأرض الهامدة بما ينزل عليها من الغيث ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦]، لتصدّقوا بأن الذي فعل ذلك هو الله الحق الذي لا شك فيه، وأن ما تعبدون من الأوثان والأصنام باطل، لأنها لا تقدر على فعل شيء من ذلك.

(٢) ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الحج: ٦]، أي ولتعلموا أن الذي قدر على هذه الأشياء البديعة لا يتعذر عليه أن يحيي الموتى بعد فنائها.

(٣) ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [الحج: ٦]، أي وأن فاعل ذلك قادر على كل شيء ولا يمتنع عليه شيء أراده، فهو قادر على إيجاد جميع الممكنات، ومن ذلك إعادة الأجسام بعد موتها.

(٤) ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧]، أي ولتعلموا أن الساعة التي وعدكم أن يبعث فيها الموتى من قبورها آتية لا محالة، ولا شك في حدوثها، وليس لأحد أن يرتاب فيها.

(٥) ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]، أي ولتوقنوا بأن الله -حينئذ- يبعث من في القبور أحياء إلى مواقف الحساب.[٢]

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص.١٤٨

(٢) المراغي، **تفسير المراغي**، مرجع سابق، ج١٧، ص٨٩-٩٠.

النَّجم الثاني: في أصناف البشر

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ ﴾ [الحج: ٨-١٤].

هذا بيان لصنف آخر من أولئك الذين اتخذوا من الجدال في المولىٰ –سبحانه– مشرباً لكفرهم، والذين لا يروق لهم تمكين هذه الأُمّة ورسولها، وبيان لعاقبتهم السيّئة وخسرانهم في الدنيا والآخرة بجدالهم، وشركهم، وغرورهم، وكبرهم، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ [الحج: ٨] فجدالهم جدال متكبّرين، لا يريدون به هدفاً معرفيّاً، بل يريدون به الإضلال عن سبيل الله، فهم لا يكتفون بغمس أنفسهم في الضلال، بل يُريدون إضلال الآخرين وصدّهم عن الهدىٰ.

والجدال في الله بعد تلك الدلائل يبدو غريباً مستنكراً، فكيف إذا كان جدالاً بغير علم، لا يستند إلىٰ دليل، ولا يقوم علىٰ معرفة، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل، ويوضح الحق، ويهدي إلىٰ اليقين.

﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ ﴾ [الحج: ٩] التعبير يرسم صورتهم، صورة فيها الكبر المتعجرف، فثني العطف هو عبارة عن التنكّر والإعراض؛ وهو نحو: لوىٰ شدقه ونأىٰ بجانبه،(١) فهو لا يستند إلىٰ حق، فيلجأ إلىٰ العجرفة والكبر، ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج: ٩] فلا يكتفي بأن يضل، إنما يضيف إلىٰ ذلك حمل غيره علىٰ الضلال.

ويذكر الله –تعالىٰ– عاقبته: ﴿ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ ﴾ [الحج: ٩] ومصيره ﴿ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ﴾ [الحج: ٩]، وهو موضع إيقاد النار؛ فهو في أسفل موضع فيها.

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ ﴾ [الحج: ١٠] (٢) عبر عنه بهما دون غيرهما لأن أكثر الأفعال تزاول بهما ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [الحج: ١٠]، فيعذبهم بغير ذنب.

---

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص١٧٨.

(٢) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٤٣٤.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ١١] هذا وصف فريق آخر من الذين يقابلون الأمر بالتقوىٰ والإنذار بالساعة مقابلة غير المطمئن بصدق دعوة الإسلام، ولا المعرض عنها إعراضاً تاماً، ولكنهم يضعون أنفسهم في معرض الموازنة والمواءمة بين دينهم القديم ودين الإسلام، فهم يقبلون دعوة الإسلام ويدخلون في عداد متبعيه، ثم يرقبون ما ينتابهم بعد ذلك، وهذا الصنف غير مستقرّ في إيمانه، بل هو فيه ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] وانحراف، مثله كمثل الذي علىٰ طرف من جرفٍ هارٍ، ومقاييس صحّة الدين أو عدم صحّته -عنده- هي النفع الدنيويّ الذي يُقدّمه الدِّين له ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ [الحج: ١١] عقب ذلك وتتابعت عليه منافعه ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ [الحج: ١١] وقال: "هذا دين جيّد، وعليّ الاستمرار عليه"! ! وعلم أن دينهم القديم ليس بحق، وأن آلهته لا تقدر علىٰ شيء، لأنها لو قدرت لانتقمت منه علىٰ نبذ عبادتها، وعلم -آنذاك- أن الإسلام حق، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ [الحج: ١١] شر من شرور الدنيا العارضة في الحياة المسببة عن أسباب عادية ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١] فسخط علىٰ الإسلام، سارع للارتداد والتحوّل والانقلاب علىٰ وجهه، وتوهم أن آلهته أصابته بسوء غضبا من مفارقته عبادتها، كما حكىٰ الله عن عاد؛ إذ قالوا لرسولهم: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٥٤]، وهو بذلك ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج: ١١]، فالدين والعبادة لا بد أن تكون خالصة لله تعالىٰ، لا تشوبها شوائب المنافع الدنيويَّة.

وإلىٰ أين يتّجه هذا الذي يعبد الله علىٰ حرف؟! إنه يتجه بعيداً عن الله -تعالىٰ-، لأنّه: ﴿ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ [الحج: ١٢]، يدعو صنماً أو وثناً علىٰ طريقة الجاهليّة الأولىٰ، أو يدعو شخصاً أو جهة أو مصلحة علىٰ طريقة الجاهليّات المتناثرة في كل زمان ومكان، كلّما انحرف الناس عن الاتجاه إلىٰ الله وحده، والسير علىٰ صراطه ونهجه، فما هذا كله؟ والجواب: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [الحج: ١٢]، المغرق في البُعد عن الهدىٰ والاهتداء، ﴿ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ ﴾ [الحج: ١٣] سواء كان وثناً أو شيطاناً، أو سنداً من بني الإنسان، فهذا كله لا يملك ضُراً ولا نفعاً، بل هو أقرب لأن ينشأ عنه الضرّ، فضرّه أقرب من نفعه، ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ [الحج: ١٣]، ذلك الضعيف الذي لا سلطان له في ضرّ أو نفع، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: ١٣]، ذلك الذي ينشأ عنه

الخسران، يستوي في ذلك المولىٰ والعشير من الأصنام والأوثان، والمولىٰ والعشير من بني الإنسان، ممن يتّخذهم بعض الناس آلهة أو أشباه آلهة في كل زمان ومكان.

وكعادة الكتاب العزيز أعقب ذكر ذلك العذاب الشنيع الفظيع بذكر النعيم الذي ينتظر الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ ليتّضح الفرق الكبير بين مآل كل من الفريقين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [الحج: ١٤] فهذا وعد لمن عبد الله بكل حال لا لمن عبد الله علىٰ حرف.[1]

النَّجم الثالث: في استمرار الجدال والخلاف إلىٰ يوم القيامة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ١٨﴾ [الحج: ١٤-١٨].

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الحج: ١٥] يبيّن -جلّ شأنه- خطأ ظنّ أولئك المجادلين -الذين يعبدون الله علىٰ حرف- في اعتقادهم أنّ الله لن ينصر رسوله الكريم ﷺ وأتباعه علىٰ تلك الأعداد الكبيرة من المشركين وأهل الكتاب وأحلافهم المدجّجين بالمال والسلاح، فلو كنتم تظنون أنّ أعداء محمد ﷺ الذين يستمدون قوّتهم من حبال العون والمساعدة من أمثالهم من الكافرين علىٰ شيء من الحق أو القوة، فإنّ حبل رسول الله ﷺ هو الحق القوي؛ لأنّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو ناصره ومعينه، فهو حبلٌ أصله ثابتٌ وفرعه في السماء، يستحيل علىٰ أعدائه قطعه، ولن يستطيع أحد أن يمدَّ حبلاً مثله إلىٰ السماء ينافسه، ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ﴾ [الحج: ١٥] أي بحبل إلىٰ السماء، - ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ [الحج: ١٥] ذلك الحبل فيتردىٰ إلىٰ الأرض فتزهق روحه، ﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ

---

(١) النسفي، **تفسير النسفي مدارك التأويل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٣١.

﴿يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ [الحج: ١٥] هل يُذهِبُ ذلك غيظَه وحنقه على الرسول الكريم أم لا؟ وهو مثل قول فرعون -كما حكى عنه القرآن المجيد-: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]. يُقال في الأمثلة الفصحى: «امْدُد للسّماء حبلاً»؛ لبيان استحالة ذلك الذي يقوله أو يتمنّاه الشخص المقول له المثل، فكأنّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أراد بهذه الآية أن يقضي على سائر تمنيّات المشركين والكفّار والمنافقين، وتخرُّصاتهم بأنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يمكن أن يتخلّى عن رسوله، فهو سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كتب على نفسه نصرة رسله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١] وهؤلاء الذين يتمنّون أن لا ينصر الله رسوله، يتمنّون المستحيل الذي يختنقون فيه لو حاولوا، ومن ثمّ فإنّها آيةٌ من أعظم الآيات في بيان ما تفضّل الله -جلّ شأنه- به من نصرة رسوله عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقد أكّد الله -تعالى- على نصرته الموعودة لرسله وأتباعهم المؤمنين في آياتٍ عدة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾ [الفتح: ٣]، وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: ٤٠]، فهي وعدٌ من الله -تبارك وتعالى- بنصرة رسوله والمؤمنين، واستحالة خذلانه له عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. ليعلموا أنّهم لن يضرّوا رسول الله بذلك الطمع أو التمنّي، بل إن من يعتقد ذلك فهو بمثابة من ينتحر ويخنق نفسه، وفي الأمثال: «دونك الحبل فاختنق»، يُقال للذي يريد من الأمر ما لا يمكن له أن يُحقّقه.(١)

(١) والعجب من ابن عاشور -مع جلالة قدره- أنّه قال في هذه الآية الكريمة [الحج: ١٥]: "موضع هذه الآية غامض ومُفادُها كذلك". انظر:

-ابن عاشور، **تفسير التّحرير والتّنوير**، مرجع سابق، ج١٧، ص٢١٧.

ونحن لا نرى غموضاً، لا في الموقع ولا في المدلول والمفاد، أمّا الموقع فهو موقعها الدقيق حيث وضعها الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في مقدمة نجم التمكين لرسول الله ﷺ ولكتابه الكريم؛ وأمّا في مفادها ومدلولها فقد كان واضحاً بحسب ما بيّناه، مما لا يخفى على الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولذلك جاء بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [الحج: ١٦]، فالله -تعالىٰ- لا يهدي أولئك المعاندين الطغاة الذين يتمنون فشل النبي ﷺ وفشل القرآن، لأنّ أمر الله أقوىٰ وأمضىٰ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

تبين الآية أن الاختلاف بين الناس، وانقسامهم إلىٰ مؤمنين ومشركين، وصابئين ومجوس، ويهود ونصارىٰ، سوف يستمر إلىٰ أن يفصل الله يوم القيامة بينهم: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: ٣٩].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨]، هنا يبين الله -تبارك وتعالىٰ- أنه غنيٌّ عن إيمان مَنْ يؤمن، وطاعة مَنْ يُطيع، وعبادة مَنْ يعبد، وأنه لا يضره كفر مَنْ يكفر، ولا عصيان مَنْ يعصي، [1] فما من شيءٍ في السماوات والأرض إلا ويسبّح بحمده: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] حتىٰ هؤلاء الكافرين، الذين استحقّوا سخط الله وإهانته في الدنيا والآخرة ببغيهم عليه -تعالىٰ- وعلىٰ رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والذين لو تفكروا في أنفسهم لوجدوا أنّهم -فيما يزيد عن شطر حياتهم- خاضعون لله خضوع تسخير، مقهورون بعظمته في سائر السُّنَن التي تحكم حياتهم؛ من حملٍ وولادةٍ ونموٍ وافتقارٍ للطعام والشراب والكساء، وسائر ضروريات الحياة وحاجيّاتها، وذلك خضوعٌ لا ينكرونه ولا يستطيعون التمرّد عليه، وهو خضوعٌ كان يمكنهم -لو عقلوا- أن يضيفوا إليه ذلك الجزء اليسير الخاضع لأمانة الاختيار، يُخضعونه -بإرادتهم ورغبتهم وعزائمهم- لطاعة الله -جلّ شأنه-، وهو أفعالهم الاختياريَّة؛ ليستحقّوا بذلك رضوان الله، ويعادوا به إلىٰ جنته التي استزلّ الشيطان أبويهم وأخرجهم منها.

---

(١) كما قال -جل شأنه-: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

النَّجم الرابع: في قصة خصمان اختصموا في ربهم ومآل كل منهما

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤ ﴾ [الحج: ١٩-٢٤].

﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ ﴾ [الحج: ١٩] «الخصم» مصدر خصمته؛ أي: نازعته خصماً، وأصل المخاصمة أن يتعلّق كل واحد بخصم الآخر؛ أي جانبه، والجمع: «خصوم» و«أخصام»، وقوله: ﴿ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ ﴾ [الحج: ١٩]؛ أي فريقان؛ ولذلك قال: اختصموا.»(١) ومعنى «في ربّهم»؛ أي: في شأنه ووحدانيته وصفاته، فالكلام على حذف مضاف ظاهر.(٢)

﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ ﴾ [الحج: ١٩]

والتقطيع: مبالغة القطع، وهو فصل بعض أجزاء شيء عن بقيته. والمراد: قطع شقة الثوب. وذلك أن الذي يريد اتخاذ قميص أو نحوه يقطع من شقة الثوب ما يكفي كما يريده، فصيغت صيغة الشدة في القطع للإشارة إلى السرعة في إعداد ذلك لهم، فيجعل لهم ثياباً من نار. والثياب من النار ثياب محرقة للجلود وذلك من شؤون الآخرة. والحميم: الماء الشديد الحرارة. وما في بطونهم: أمعاؤهم، أي هو شديد في النفاذ إلى باطنهم. والمقامع: جمع مِقمعة- بكسر الميم- بصيغة اسم آلة القمع «المقمعة» وهي السوط؛ أي يضربون بسياط من حديد.

ومعنى ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج: ٢٢] أنهم لشدة ما يغمهم، أي يمنعهم من التنفس، يحاولون الخروج فيعادون فيها فيحصل لهم ألم الخيبة، ويقال لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٢]، والحريق: النار الضخمة المنتشرة، وهذا القول إهانة لهم فإنهم قد علموا أنهم يذوقونه.(٣)

---

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص ٢٨٤.

(٢) ابن عاشور، **تفسير التّحرير والتّنوير**، مرجع سابق، ج١٧، ص٢٢٩.

(٣) المرجع سابق، ج١٧، ص٢٣٠.

وأمّا الخصم الذي كان يخاصمه أولئك ويضطهدونه، ويُضيّقون الخناق عليه في الحياة الدنيا، ويسخرون منه، فهو المستحقّ لرحمته تعالىٰ؛ لذا ذكره -تعالىٰ- في مقابلة ذلك الخصم الباغي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ [الحج: ٢٣]، جمع أسورة، جمع سوار ﴿مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣].(١) ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الحج: ٢٤]. أي: إنّ الله -تعالىٰ- قد هداهم في حياتهم الدنيا إلىٰ القول الطيب السديد، فكانوا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويسمعون الآراء فيأخذون بما يهديهم إلىٰ صراط الحميد، ولذلك جعل الله العاقبة لهم فرددوا في آخرتهم مثل ما كانوا يذكرون الله به في الدنيا، وقد ذكر بعضها في قوله تعالىٰ: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: ١٠]. وفي قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر: ٧٤]. ويسمعونها من ملائكة ربهم الذين يستقبلونهم عند دخولهم الجنة بأطيب الأقوال، بدلاً من المناداة بالويل والثبور والحسرة والندامة التي يرددها أولئك الذين خاصموهم في ربهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]. وهذا أشد مناسبة بمقابلة بما يسمعه أهل النار في قوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].(٢) وقد أخبر -جل وعلا- أنهم يفتقدون المؤمنين في الآخرة: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٦٣﴾ [ص: ٦٢-٦٣].

النَّجم الخامس: في الحرم وأذان الحج

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ

(١) النسفي، **تفسير النسفي مدارك التأويل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٣٤.

(٢) ابن عاشور، **تفسير التّحرير والتّنوير**، مرجع سابق، ج١٧، ص٢٣٤.

مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: ٢٥- ٣٣].

لـمّا كان كفار قريش ومشركو العرب حريصين دائماً على التميّز على من عداهم، جعل الله -تعالىٰ- لهم نوعاً من الخصوصيّة في العذاب، فكبرياؤهم وحرصهم على التميُّز بالكفر، وتصدّر حزبه وجنده اقتضىٰ أن يُخَصّوا بمزيدٍ من العذاب، فذكر الله -جلّ شأنه- ما يُشير إلىٰ عدالته في منحهم هذا المزيد، وتمييزهم بأنواعٍ من العذاب الشديد؛ ذلك لأنّهم كانوا بجوار بيته المحرّم، وهم أعرف الناس -آنذاك- بعظمته، وقدره، وأهمّيته، وارتباطه بإبراهيم مؤسّس الملّة، والداعي الأكبر إلىٰ الدين. ذلك -كله- كان من المفترض أن يدفعهم إلىٰ المسارعة إلىٰ الإيمان بهذا النبيّ الذي جاء لإحياء ملّة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وتعظيم البيت وجعْله قِبلة للعالم كلّه، فلمّا لم يفعلوا بيّن الله لهم أنَّه ناصرٌ رسوله، وسيُمكّن له من الأرض ومن إرث إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ،(١) ومنه بيت الله المحرّم الذي لا يمكن أن يُترك بأيديهم، ينثرون حوله الأصنام يعبدونها ويعظمونها. والله -تعالىٰ- ما بوّأ لإبراهيم مكان البيت إلا ليكون طاهراً على الدوام -طهارةً حسيّة ومعنويّة- ليكون بيتاً للطائفين والعاكفين والركّع السجود، فكأنّ ذكر الحرم كان تفصيلاً للنصر والتمكين الذي ذكره -تعالىٰ- في قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ١٥].

وهذه الآيات الواردة في هذه السورة في الحج والتمكين والبيت، ينبغي أن تُقرأ وتُربَط بآيات «سورة البقرة» في الحج والقتال، من قوله: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ

(١) عن يَزِيدَ بن شَيْبَانَ، قال: أَتَانَا ابن مِرْبَعٍ الْأَنْصَارِيُّ وَنَحْنُ بِعَرَفَةَ، فقال: أَمَا إني رسول رسول الله ﷺ إِلَيْكُمْ، يقول لَكُمْ: "قِفُوا علىٰ مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ علىٰ إِرْثٍ من إِرْثِ أَبِيكُمْ إبراهيم" سبق تخريجه في سورة البقرة: الآية ١٢٤.

قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤] حتىٰ انتهاء موضوع القبلة، وبناء الأُمَّة، والبدء بذكر تفاصيل الشريعة؛ لتطمئنّ القلوب بأنّ هذه السورة مثل تلك السور، فهي تفصيلٌ لمعاني التمكين لرسول الله ورسالته، وكذا آيات «سورة الأنفال» و«التوبة» و«الأنبياء» و«محمد» وغيرها فهي تفاصيل أخرىٰ.[1]

إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **وأرض البيت:**

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الحج: ٢٦] «بوّأنا» أي: مهّدناه وهيّأناه له، ونسب تبويئه لنفسه، فهو سبحانه الذي مهّده وسهّله وجعله ملائماً لبناء بيته، وأمره آنذاك ببنائه في ذلك المكان، الذي مهّده وهيّأه وجعله الموضع الملائم لبنائه، وما علىٰ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلا أن يشرع بالبناء، فالأرض ممهّدة، والأسس قائمة؛ أقامها العليم الخبير لبيته وحرمه، ﴿ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ [الحج: ٢٦] من الأوثان ﴿ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ [الحج: ٢٦]، المقيمين به ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج: ٢٦] جمع راكع وساجد المصلين.[2]

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ [الحج: ٢٧] اختلف المفسّرون في المخاطب بقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٢٧]، أهو إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أم محمد ﷺ؟ والذي نميل إليه -والله أعلم- أنَّ المخاطب بذلك هو إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك أنَّه بعد أن رفع قواعد البيت -ومعه ولده إسماعيل- كان من الطبيعي أن يأمره الله -تبارك وتعالىٰ- بذلك، إذن: فالحج قد نادىٰ به إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والبيت قد بناه هو وولده إسماعيل، وهما اللذان أُمرا بتطهيره والعناية به، وإعداده علىٰ الدوام للطائفين والعاكفين والركّع السّجود، وليكون مثابة للناس وأمناً، وأمّة محمد ﷺ علىٰ إرث من إبراهيم في هذه الأمور، كما أنَّ سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو مَنْ دعا الله -جلّ شأنه- أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إلىٰ هذا البيت: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ

(١) نؤكد علىٰ من يقومون بالتعليم ضرورة قراءة الآيات المشار إليها كلها مع هذه الآيات، وتعليم مَن يتعلم في مجالسهم كيفية الربط، وتفسير القرآن بالقرآن.

(٢) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٤٣٦.

يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وسيدنا رسول الله ﷺ قد كتب الله عليه وعلى أمّته الحج، وأمره الله أن يدعو القادرين للقيام بأداء هذه الفريضة، وأمره أن يؤذّن بالبراءة من المشركين وعهودهم يوم الحج الأكبر، فلا حاجة لإطالة القول في تحديد المخاطب بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧].

﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ [الحج: ٢٧] مشاة جمع راجل كقائم وقيام ﴿وَ﴾ ركباناً ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ [الحج: ٢٧] أي بعير مهزول وهو يطلق على الذكر والأنثى ﴿يَأۡتِينَ﴾ [الحج: ٢٧] أي الضوامر حملاً على المعنى ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج: ٢٧] طريق بعيد، (١) وذكر «الضوامر» في هذه الآية الكريمة لئلا يتوهم امرؤٌ أنَّ الحج لا بد أن يكون من راجل أو ماشٍ على قدميه لتقديم مزيد من الطاعة لله -تبارك وتعالى-، فالله -تبارك وتعالى- يقبل من الحجّاج حجّهم إذا أخلصوا نواياهم لله -تعالى- وقاموا بما أوجبه عليهم، سواء حجّوا راكبين أو راجلين، بل لهم أن يشهدوا بعض المنافع الدنيويّة في الحج، ولن يؤثر ذلك في سلامة العبادة وخلوص النيّة فيها، ما دام الإنسان قد أراد بها وجه الله -تعالى-، وأكثر من ذكر الله -جلّ شأنه- وجعلوا نُسكهم وتفثهم وذبائحهم وهديهم لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ [الحج: ٢٨] في هذه الآية دليل على جواز التجارة في الحج، روي عن ابن عباس أنّه قال: "المنافع التجارة،" (٢) وقال: مجاهد: "التجارة وما يرضي الله من أمر الدنيا والآخرة،" (٣) وقد نصّ الفقهاء على أنّ التجارة جائزة للحاج من غير كراهة، إذا لم تكن هي المقصودة من السفر. (٤)

﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨] أي عشر ذي الحجة أو يوم عرفة أو يوم النحر إلى آخر أيام التشريق، ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٨] الإبل والبقر والغنم التي تنحر في يوم العيد وما بعده من الهدايا والضحايا

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٢) أبو حيان، **البحر المحيط في التفسير**، مرجع سابق، ج٧، ص٥٠٢.
(٣) الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٨٠.
(٤) السايس، محمد علي. **تفسير آيات الأحكام**، تحقيق: ناجي سويدان، بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ٢٠٠٢م، ص٤٩٧.

﴿ فَكُلُواْ مِنۡهَا ﴾ [الحج: ٢٨] إذا كانت مستحبة ﴿ وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ﴾ [الحج: ٢٨] أي الشديد الفقر.(١)

وظاهر قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ﴾ [الحج: ٢٨] وجوب إطعام الفقراء من الهدايا، وبهذا الظاهر أخذ الشافعيّة، فأوجبوا إطعام الفقراء منها، وقال أبو حنيفة: «إنّه مندوب؛ لأنّها دماء نسك، فتتحقق القربة فيها بإراقة الدم، أمّا إطعام الفقراء فهو باقٍ علىٰ حكمه العام."(٢)

﴿ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ ﴾ [الحج: ٢٩] ثم ليزيلوا وسخهم: يُقال: «قضىٰ الشيء يقضي»: إذا قطعه وأزاله، وأصل «التفث»: وسخ الظفر وغير ذلك مما شأنه أن يُزال عن البدن. وفي الآية دليلٌ علىٰ وجوب التحلل الأصغر، الذي يكون بالحلق أو التقصير، وهو من أعمال الحج المعروفة. ﴿ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩ ﴾ [الحج: ٢٩] ثم تأمر الآية بالوفاء بالنذور التي يقطعها الإنسان علىٰ نفسه، فعليه أن يؤدّيها وجوباً، كذلك تأمر بالطواف بالبيت، والمقصود به هنا «طواف الإفاضة»، وهو ركنٌ من أركان الحج يجب علىٰ الحاجّ فعله ولا يجوز تركه بحال.

وفي الآية الكريمة تعريضٌ بأولئك المشركين الذين انحرفوا بالحج وأغراضه وأهدافه، وجعلوا منه موسماً للمعاصي وارتكاب المحرمات وعبادة الأصنام وتعظيم الأوثان، فالحج ما شُرّع لشيء مما كان عليه الجاهليّون، بل شُرّع لتوحيد الله وإفراده بالعبادة والتعظيم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

صيد الحرم وذبائحه:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [الحج: ٣٠].(٣)

---

(١) السايس، **تفسير آيات الأحكام**، المرجع السابق، ص٤٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤٩٨.

(٣) قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ خبر مبتدأ مضمر أي: الأمر والشأن ذلك. قال الزمخشري: "كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني، ثم إذا أراد الخوض في معنىٰ آخر قال: هذا وقد كان كذا". وقدره ابن عطية: "فرضكم ذلك، أو الواجب ذلك". وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف. أي: ذلك الأمر الذي ذكرته. وقيل: في=

﴿ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج: ٣٠] المعروفة والتي ذُكرت في القرآن المجيد في مواضع عديدة هي الكعبة البيت الحرام، وما أحاط بها، في حدود معروفة بأنّها حدود الحرم والمشعر الحرام، والشهر الحرام، والبلد الحرام. و«الحرمة» شيء يستمدّ حرمته ومكانته وأحكامه من تحريم الله -تبارك وتعالىٰ- له، يقال: حرّمه أي منعه واعتبره خاصّاً به -جلّ شأنه- وأنَّ المساس به كأنَّه اعتداء مباشر علىٰ حق الله -جلّ شأنه -؛ ولذلك فإنَّ من شأن المؤمنين أن يعظّموا حرمات الله ولا ينتهكوا شيئاً منها، وفيها إشارة إلىٰ أنَّ هؤلاء المشركين -الذين أضفوا الحرمة علىٰ ما لا يستحقها من أصنام وأوثان- مخطئون؛ لأنَّ الحرمات حرمات الله، مضافة إليه، فهو وحده مَنْ يحدّد ما هو محرَّم وما هو ليس كذلك.

ثم أراد الله أن ينبّه إلىٰ أنَّ الأنعام في الحرم لا تُعامل كما يُعامل صيد الحرم، فإنّ الله قد نهىٰ المؤمنين عن صيد الحرم في سورة المائدة، وقال: ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة: ١] ولئلا يتوهم أحد أنّ الأنعام -أيضاً- لا تُذبح في الحرم، فقد بيّن -جلّ شأنه- ذلك، وقال: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [الحج: ٣٠] أي في الحرم وفي غير الحرم، والذي مُنعتم منه هو الصيد وحده.

ولئلا يتوهم أولئك المشركون أنّهم يستطيعون أن يُضفوا علىٰ ما يقدّسون صفة الحرمة سمّىٰ الأوثان رجساً، وأمر باجتنابها، وقال: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج: ٣٠]؛ أي الكذب والافتراء علىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- بقول ما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام بأهوائكم وتقليداً لآبائكم، فإنَّ التحليل والتحريم كله عائد إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج: ٣١].

«الحنف»: هو ميل عن الضلال إلىٰ الاستقامة، و«الحنيف» هو المائل إلىٰ ذلك، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ [آل عمران: ٦٧]. وقال: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٠].(١)

= محل نصب أي: امتثلوا ذلك. ونظير هذه الإشارة قول زهير، بعد تقدم جمل في وصف هرم ابن سنان: هذا وليس كمن يعيا بخطبته... وسط الندي إذا ما ناطق نطقا. انظر:

-السمين الحلبي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (توفي:٧٥٦ هـ). **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دمشق: دار القلم، ط١، ١٩٨٦م، ج٨، ص٢٦٩.

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص.٢٦٠

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج: ٣١] أي: منصرفين عن كل شيء، ومعرضين عن كل شيء سوى الإقبال عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكل قلوبكم وأفئدتكم، مخلصين له في كل ما أمركم به ونهاكم عنه.

ولقد كان يجب عليهم أن يعلموا أنَّ ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ [الحج: ٣١] -جلّ شأنه- في الربوبيّة أو العبوديّة أو الحاكميّة أو التحليل والتحريم، فقد ظلم نفسه ظلماً عظيماً، وحقّ عليه الخسار والبوار، وهو في شركه شبيه به إذا سقط من جوّ السماء، ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ [الحج: ٣١] فاجتمعت عليه الطيور الجارحة، فمزّقته، وذهب كل منها بقطعة منه، وتأخذه حيث تشاء فتمّ بذلك هلاكه، [1] ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾ [الحج: ٣١] أي بعيد، لا يجد فيه إلا الهباء والبلاء والبعد عن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

ويقول الشيخ النيسابوري: "إن كان تشبيهاً مركّباً، فمعناه مَنْ أشرك بالله فقد أهلك نفسه غاية الإهلاك، وذلك بأن صوّر حاله بصورة من خرّ من السماء فاختطفه -أي استلبته- الطير، فتفرّق مزعاً؛ أي: قطعاً من اللحم في حواصلها، أو بحال من خرّ فعصفت به الريح حتىٰ هوت به في بعض المطاوح السحيقة البعيدة، وإن كان مفرّقاً. فقد شبّه الإيمان في علوه بالسماء، والذي تركه فأشرك قد سقط منها، والأهواء التي توزع أفكاره بالطير المتخطِّفة، وفي المثل الآخر شبّه الشيطان الذي يطرح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بالأشياء في المهاوي المتلفة."[2]

هذه الأمور كلّها هي جماع الدين كلّه؛ إذ يُذكّر الله - جلّ شأنه - بها وهو يتناول قضيّة الحج؛ ليستنبط الإنسان الذي أوتي البصيرة منها ما يُيسّره الله له، فالمؤمن مخلص في كل شيء، مائل منصرف عن سائر السُّبل إلىٰ سبيل الله والحق؛ لإيمانه أنّه ما بعد الحقّ إلا الضلال، والله أعلم.

---

(١) السايس، **تفسير آيات الأحكام**، مرجع سابق، ص٥٠١.

(٢) القمي النيسابوري، نظام الدين (توفي بعد: ٨٥٠ هـ). **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ، ج٥، ص٧٩-٨٠.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢] (١)

تعظيم شعائر الله والوقوف عند أوامره دليل على أنّ التقوى قد بلغت القلب، فلم تعد مجرد لباس ظاهر: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] بل بلغت مستوى التغلغل في القلوب والمشاعر، وبذلك لا يكون للشياطين سبيل لاجتيال إنسان يتمتع بتقوى القلوب، ويتحلى بكل متطلبات التقوى ظاهراً وباطناً، خفيةً وعلناً، والله أعلم.

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحج: ٣٣]

منافع جمع منفعة، والنفع: ما يُستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يُتوصّل به إلى الخير فهو خير، فالنفع خير، وضده الضرّ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [الفرقان: ٣](٢)

والمراد أن هذا الهدي وهذه القلائد تنتفعون بألبانها وأصوافها وأشعارها، على أن يكون محلّها ونهاية طريقها هو البيت العتيق.

وقد كان للعلماء كلامٌ حول هذه الآية: ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحج: ٣٣]، فمنهم من رأى أن محل الذَّبح مِنَى، وليس مكة، والآية تقول: ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحج: ٣٣]، ونقول: الأصل كما جاء في الآية أن الذبح في مكة وفي الحرم، إلا أنهم لما استقذروا الذَّبح في الحرم بسبب ما يُخلفه من قاذورات ودماء وخلافه نتيجة هذه العملية، فرُؤي أن يجعلوا الذبح بعيداً عن الحرم حتى يظل نظيفاً ولذلك جاء في الحديث الشريف: "مِنًى كُلُّهَا مَنْحَرٌ."(٣) وهذا لا يمنع الأصل، وهو أنْ يكون الذَّبح في الحرم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة: ٩٥].

---

(١) قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: إعرابه كإعراب «ذلك» المتقدم في كتاب الدر المصون.

(٢) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٨١٩.

(٣) عن جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قال: "نَحَرْتُ ها هنا، وَمِنًى كُلُّهَا مَنْحَرٌ، فَانْحَرُوا في رِحَالِكُمْ، وَوَقَفْتُ ها هنا، وَعَرَفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ، وَوَقَفْتُ ها هنا، وَجَمْعٌ كُلُّهَا مَوْقِفٌ ".انظر:
-مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الحج، بَاب ما جاء أَنَّ عَرَفَةَ كُلَّهَا مَوْقِفٌ، حديث رقم (١٢١٨)، ص٤٨٥.

النَّجم السادس: في العلاقة: بين الـمَنْسَك وبناء الأُمَّة

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٤-٣٧].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: ٣٤] جعل الله -تعالىٰ- الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتآلفوا، ثم جعلهم بعد ذلك أمماً. ومفهوم الأمّة يختلف عن مفهوم الشعب والعشيرة والطائفة، فهو أرقىٰ المفاهيم، وهو المفهوم الذي يشتمل علىٰ أن تكون للأُمَّة رسالة وأهداف ومقاصد، تنبثق عن إطار النشأة والتكوين، فقد جعل الله -جلّ شأنه- لكل أُمَّة من الأُمم شرعةً ومنهاجاً ومنسكاً ووجهةً ومنظومةً حياتيَّة، بهذه الشرعة، ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧]، وبالمنهاج والوجهة والقبلة والمنسك والعبادة تتمايز الأمم، وتشعر كل أُمَّة أنَّـها بحاجة إلىٰ الأُمم الأخرىٰ، تتفاعل وتتعاون معها بأشكال وأوجه حدّدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذه الأُمَّة المسلمة منهجها وشرعتها وقبلتها ووجهتها ومنسكها وعبادتها وشعائرها، وهذا الأمر ينبغي أن يكون مسلّماً بين الأمم، وأن يتصالح الجميع عليه، وأن يجعلوا منه مصدر تفاعل وتعاون وتنافس في الخيرات، لا مصدر صراع ونزاع واقتتال ورغبة في الاستعلاء، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢].

وأُمَّتنا قد آتاها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك أكمل الشعائر والمناهج والمناسك؛ ولذلك كانت أمّةً مخرَجة للناس لتكون مثلاً يُحتذىٰ به، وقدوة لبقيّة الأُمم تقتدي بها، وأُسوة تتأسّىٰ بها؛ ولكي تكون من ناحية أخرىٰ أمة قطباً تستقطب الأُمم الخيّرة المماثلة لها في منطلقاتها وشرعتها ومنهاجها ونسكها، حيث يمكن لهذه الأمم أن تتعرّف عليها، وتنطلق للتعارف مع غيرها من الأمم، ليأتي ذلك بتآلفٍ وتعاونٍ علىٰ البر والتقوىٰ لا علىٰ الإثم والعدوان.

﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ﴾ [الحج: ٣٤] المطمئنين المتواضعين.[١] ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥ ﴾ [الحج: ٣٥] ومن صفات الذين تتألف هذه الأمّة منهم أنهم هم ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ [الحج: ٣٥] يعني خافت، واضطربت. ولا منافاة بين الآية وقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾ [الرعد: ٢٨]. لأن ذكر الله إنْ جاء بعد المخالفة لا بُدَّ للنفس أنْ تخاف وتَوْجَل وتضطرب هيبةً لله عز وجل، أما إنْ جاء ذِكْر الله بعد المصيبة أو الشدة، فإن النفس تطمئنُّ به، وتأنَسُ لما فيها من رصيد إيماني ترجع إليه عند الشدة وتركَنُ إليه عند الضيق والبلاء، فإنْ تعرَّضَ الإنسان لمصيبة وعزَّتْ أسبابُ دَفْعها عليه، علم أن له رباً فيلجأ إليه، كما كان من موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين قال: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ ﴾ [الحج: ٣٥] ومعنىٰ أصاب: يعني جاء بأمر سيء في عُرْفك أنت، فتعده مصيبة؛ لأننا نُقدِّر المصيبة حَسْب سطحية العمل الإيذائي، إنما لو نظرت إلىٰ المصيبة مقرونة بأجرها لهانَتْ عليك وما أعتبرتَها كذلك. ﴿ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [الحج: ٣٥] لأن الصلاة هي الولاء الدائم للعبد المسلم، والفرض الذي لا يسقط عنه بحال من الأحوال، فالشهادتان يكفي أنْ تقولها في العمر مرة، والزكاة إنْ كان عندك نِصَاب فهي مرة واحدة في العام كله، والصيام كذلك شهر في العام، والحج إنْ كنتَ مستطيعاً فهو مرة واحدة في العمر، وإنْ لم تكُنْ مستطيعاً فليس عليك حج."[٢]

البُدن والذبح العظيم:

﴿ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ ﴾ [الحج: ٣٦]

ثم يذكر الإبل التي استدلّ -في آية أخرىٰ- بها علىٰ جوده وحسن صنعته؛

(١) الخبت ما اتسع من بطون الأرض، وجمعه أخبات وخبوت، وقال ابن الأعرابي: الخبت ما اطمأن من الأرض واتسع، وقيل: الخبت ما اطمأن من الأرض وغمض، فإذا خرجت منه أفضيت إلىٰ سعة، وخبت ذكره إذا خفي، ومنه المخبت من الناس، وأخبت إلىٰ ربه أي اطمأن إليه، وروي عن مجاهد في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ﴾ [الحج: ٣٤] قال: المطمئنين. وقيل: هم المتواضعون، انظر:
- ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج٢، ص٢١.

(٢) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مرجع سابق، ج١٦، ص٩٨٢١.

فقال -تعالىٰ-: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧﴾ [الغاشية: ١٧] و«الْبُدْن»: جمع بدنة؛ ولأنّها ذات بدن كبير مرفوع علىٰ تلك القوائم ناسب أن يُطلق عليها «بَدَنة» و«بُدْنَة»، وقد أشار القرآن المجيد إلىٰ بدنةٍ أو جمل في فداء إسماعيل وسمّاه بـ«الذبح العظيم»، قال تعالىٰ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾ [الصافات: ١٠٧] ليبيّن أنّها قد جعلت بالنسبة للحرم والحج من شعائر الله، حيث يكون منها الهدي والقلائد التي تُهدىٰ إلىٰ الكعبة المشرّفة لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. هذه الْبُدْن -بضخامة حجمها وتسخيرها للإنسان- هي شعيرة ودليل من أدلّة الخلق والتسخير، فإنّ هناك من الدواب ما هو أصغر منها لكنها وحوش كاسرة، قد تفترس الإنسان ولا يستطيع أن يُسَخّرها، في حين أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل الْبُدْن وسائر الأنعام ذلولاً مُسخّرةً، يستطيع الإنسان أن يتصرف بها امتلاكاً وانتفاعاً وركوباً وذبحاً عندما يحتاج للطعام، إضافة إلىٰ دخولها في مناسك الحج وشعائره كما تقدّم، ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦] فهي تُعَلّم وتُشعَر وتُسَاق هدياً بالغ الكعبة، فهي شعيرة من الشعائر، يعني مما ينبغي أن يُعَلَّمْ وكأنّه يتحوّل إلىٰ شعار، فهي مسخّرةٌ لكل ما يحتاجه الإنسان في دنياه وأُخراه، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ [الحج: ٣٦] أي: سقطت بعد ذبحها وإعدادها ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وذَكَرهما لا علىٰ سبيل الحصر بل علىٰ سبيل الإشارة إلىٰ مَنْ يُماثلهما في الحاجة، فـ«القانع» هو المحتاج الذي تغلب عليه القناعة رضاً بما يُرزق ويعطىٰ، و«المعتـرّ» هو الذي لا يكتفي إلا إذا سدّت حاجته، ولا يقنع إلا إذا أُعطي ما يكفيه، والمحتاجون لا يتجاوزون هذين الصنفين؛ صنف يترفّع عن السؤال أو الإلحاح في السؤال، وصنف لا يتوقف عن السؤال قبل أن تسد حاجته، ويمتنّ الله -جلّ شأنه- علينا بنعمة تسخيرها دون حول أو قوة منّا، ولولا تسخير الله لها لما لانت لنا ولا خضعت لمشيئتنا، ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦﴾ [الحج: ٣٦].

التديّن بين الشكل والحقيقة:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾ [الحج: ٣٧]

في هذه الآية الكريمة بيانٌ للفروق الدقيقة بين آثار الإيمان وآثار الشرك، فالمشرك بَليدُ الحِسّ، يتعلّق بالقشور والظواهر، ويتوهم أنَّ هذا لله -بزعمهم- وهذا لشركائهم، فيصبحون المتحكّمين الحاكمين وليس الله -تبارك وتعالىٰ-، أمّا التوحيد فإنّه يجعل القلب معلّقاً بالله -تعالىٰ- تقيّاً مخبتاً له، ولا ينظر إلىٰ تلك الأمور علىٰ أنَّها غايات، بل هي وسائل للتقرّب إليه، ينبغي أن لا يبتدع فيها ولا يخترع، ولا يزاد ولا ينقص؛ لأنَّ ما كان له -جلّ شأنه- ينبغي أن يكون خالصاً لوجهه الكريم، وما كان لسواه فليس لله به حاجة، يُضرب به وجه صاحبه ويُرَدّ عليه ولا كرامة.

ذلك لأنهم كانوا قبل الإسلام حين يذبحون للأوثان يُلطّخون الصنم بدماء الذبيحة، كأنهم يقولون له: لقد ذبحنا لك، وها هي دماء الذبيحة، وفي هذا العمل منهم دليل علىٰ غبائهم وحُمْق تصرفهم، فهم يروْن أنهم إذا لم يُلطِّخوه بالدم ما عرف أنهم ذبحوا من أجله.

وهنا ينبه الحق سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إلىٰ هذه المسألة: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الحج: ٣٧]، يعني: "لا يأخذ منها شيئاً، وهو سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قادر أنْ يعطي الفقير الذي أمرك أنْ تعطيه، ويجعله مثلك تماماً غير محتاج، إنما أراد سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من تباين الناس في مسألة الفقر والغنىٰ أن يُحدِث توازناً في المجتمع، فالمجتمع ليس آلة ميكانيكية تسير علىٰ وتيرة واحدة، إنما هي حياة بشر لا بُدَّ من هذه التفاوتات بين الناس، ثم تتدخّل الشرائع السماوية فتأخذ من القوي وتعطي الضعيف، وتأخذ من الغني وتعطي الفقير. وساعتها، نقضي علىٰ مشاعر الحقد والحسد والبغضاء والأَثَرة. فحين يعطي القويُّ الضعيفَ من قوته لا يحسده عليها، ويتمنىٰ له دوامها؛ لأن خيرها يعود عليه، وحين يعطي الغنّي مما أفاض الله عليه للفقير يُؤلِّف قلبه، ويجتثّ منه الغِلَّ والحسد، ويدعو له بدوام النعمة."(١)

وهذه الآيات ينبغي أن تُقرأ مع آيات الحج وفرضيّته ومناسكه في سورة البقرة (من الآية ١٥٠- ٢٠٤) وآل عمران (من الآية ٩٥-٩٨). وغيرهما؛ لتتضح معانيها بشكل عميق، ولتظهر علاقتها بالتمكين لرسول الله وأمّته وعقيدة التوحيد.

---

(١) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مرجع سابق، ج١٦، ص٩٨٢٦.

النَّجم السابع: في الإذن بالقتال: قتال الدفع[(١)]

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾ [الحج: ٣٨-٤١].

هنا يعلن الله -تبارك وتعالىٰ- بلوغ الطريق غايته نحو التمكين الذي استبعده هؤلاء الكافرون، بظنّهم أنَّ الله لن ينصر رسوله ﷺ ولن يمكّنه، فبيّن -جلّ شأنه- لهم أنَّ ذلك سيحدث ابتداءً بوقوفه -تعالىٰ- مع المؤمنين يُدافع عنهم؛ فهو المتولّي لشؤونهم المدبّر لأمورهم بعد أن أسلموا وجوههم وقيادهم إليه -جلّ شأنه-، فصاروا كالملائكة في هذا الأمر، ينفّذ الله -جلّ شأنه - بهم سننه، وينصر بهم رسالته، ويُدخلهم ضمن جنده: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ [المدثر: ٣١] ويدافع عنهم، وينصرهم، وأنه -سبحانه- حين أمرهم بمكّة أن يكفّوا أيديهم: ﴿ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [النساء: ٧٧] ما كان يريد -جلّ شأنه- بذلك أن يُسلمهم إلىٰ أعدائه وأعدائهم من المشركين، بل كان -تعالىٰ- يريد أن يحفظهم ليحملوا دعوته وينشروا رسالته.

يقول ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: "استئناف بياني جواباً لسؤال يخطر في نفوس المؤمنين ينشأ من قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج: ٢٥] الآية، فإنه توعد المشركين علىٰ صدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام بالعذاب الأليم، وبشر المؤمنين المخبتين والمحسنين بما يتبادر منه ضد وعيد المشركين وذلك ثواب

(١) يظن البعض واهمين أنَّ -الله تعالىٰ- لم يأذن لرسوله وللمؤمنين بالدفاع عن أنفسهم في مكة، وأنه أمرهم بكفّ أيديهم وإقامة الصلاة لضعفهم، وأنَّه أذِن لهم بذلك بعد أن صاروا قوة. وهذا تصورٌ غير دقيق، فقد كان الأمر بكفّ الأيدي لإعطاء المشركين فرصةً كافية للنظر فيما جاءهم به رسول الله ﷺ ومظهر صبره عليهم لعلهم يؤمنون. وفي الوقت نفسه، لحماية القلة المؤمنة من إضاعة وقتها وتبديده بالصراع مع خصومهم. والله أعلم.

الآخرة. وطال الكلام في ذلك بما تبعه لا جرم تشوفت نفوس المؤمنين إلى معرفة عاقبة أمرهم في الدنيا، وهل ينتصر لهم من أعدائهم أو يدخر لهم الخير كله إلى الدار الآخرة. فكان المقام خليقاً بأن يطمئن الله نفوسهم بأنه كما أعد لهم نعيم الآخرة هو أيضاً مدافع عنهم في الدنيا وناصرهم، وحذف مفعول يدافع لدلالة المقام عليه، فالكلام موجه إلى المؤمنين، ولذلك فافتتاحه بحرف التوكيد إما لمجرد تحقيق الخبر، وإما لتنزيل غير المتردد منزلة المتردد لشدة انتظارهم النصر واستبطائهم إياه، والتعبير بالموصول لما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وأن دفاع الله عنهم لأجل إيمانهم."(١)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] الخوَّان: صيغة مبالغة من خائن، وهو كثير الخيانة، و«الخيانة»: التفريط في الأمانة.(٢) وكذلك كفور: صيغة مبالغة من كافر، و«الكفر»: تغطية ما حقه الإظهار، و«الكفران»: سترُ نعمةِ المنعمِ بتـرك أداء شكرها، وأعظم الكفر جحود الوحدانيّة أو النبوة أو الشريعة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعاً.(٣)

ومعنى الخيانة يقتضي أن هناك أمانةً خانها، نعم، هناك الأمانة الأولى، وهي أمانة التكليف التي قال الله فيها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فلقد خانَ هذه الأمانة بعد أنْ رَضِي أنْ يكونَ أهْلاً لها. وهناك أمانة قبل هذه، وهي أمانة العهد الذي أخذه الله على عباده، وهم في مرحلة الذَّرِّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].(٤)

---

(١) ابن عاشور، **تفسير التّحرير والتّنوير**، مرجع سابق، ج١٧، ص٢٧١.

(٢) المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف (توفي: ١٠٣١هـ). **التوقيف على مهمات التعاريف**، تحقيق: محمد رضوان الداية، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤١٠هـ، ص٣٢٩.

(٣) المرجع سابق، ص٦٠٦.

(٤) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مرجع سابق، ج١٦، ص٩٨٣٢.

﴿أُذِنَ﴾ [الحج: ٣٩] أي: رُخص وشرع، أي أَذن اللهُ ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] أي: يُقاتلهم الكفارُ المشركون، وحذف المأذون فيه؛ لدلالة «يُقاتَلون» عليه، أي: في قتالهم، ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [الحج: ٣٩] أي: بسبب كونهم مظلومين، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، فقد كان مشركو مكة يؤذونهم أذىً شديداً، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ ما بين مضروبٍ ومشجوج، فيتظلمون إليه، فيقول لهم رسول الله ﷺ: «اصبروا؛ فإني لم أومر بالقتال» حتى هاجر، فنزلت هذه الآية. وهي أول آية نزلت في الجهاد، بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية.(١) ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحج: ٣٩] وعدٌ لهم بالنصر، وتأكيد لِما مرّ من الوعد الكريم بالدفع، وتصريح بأن المراد ليس مجرد تخليصهم من يد المشركين، بل بغلبتهم وإظهارهم عليهم. وتأكيده بكلمة التحقيق واللام؛ لمزيد من تحقيق مضمونه، وزيادة توطين نفوس المؤمنين.(٢)

لقد كان -جلّ شأنه- قديراً على نصرهم وهم في بطن مكّة، وقد نصرهم، حين حال بين أعدائهم وبين استئصالهم وهم قليلٌ مستضعفون في الأرض، لو أراد أعداؤهم أن يتخطّفوهم لربما فعلوا، لكن العزيز العليم القوي المتين القدير حفظهم وحماهم؛ ليبلّغ بهم أمره، ويُحقّق بهم تقديره، ذلك تقدير العزيز العليم، ولذلك امتنّ عليهم -جلّ شأنه- فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦].

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

ثم يُبيّن الله -تبارك وتعالى- سُنّة مهمّة من سننه في خلقه وهي «سُنّة التدافع»؛ أي دفع الله الناس بعضهم ببعض، فلا مكان في هذه الرسالة لقول: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤] بل اذهب أنت وربك فقاتلا ونحن بقيادتك معكما مقاتلون.

(١) الزمخشري، **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، مرجع سابق، ص.٦٩٧

(٢) ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد الحسني (توفي: ١٢٢٤هـ.) **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩-٢٠٠١م، ج٣، ٥٣٧.

هذا «التدافع» لا بدَّ منه ليمحّص الله الذين آمنوا، ويتخذ منهم شهداء، ويُذيق بَأسَهم أولئك المستكبرين الضالّين المضلّين، ليروا فعل الغيب في الواقع، وتدبيرات العزيز العليم -جلّ شأنه- في خلقه وعباده.

فممارسة «التدافع» وقيام الأُمَّة بدورها فيه، أمرٌ لا بد منه، وسُنَّة دائمة ثابتة؛ فإيمان المؤمنين وطاعتهم وعبادتهم لا تعني أن يُقاتل الله تعالىٰ عنهم، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] وقال -جلّ شأنه-: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

والتدافع هو سنة الله في خلقه وفي كونه، ولن يصل التاريخ إلىٰ نهايته بالوصول إلىٰ "المجتمع التكنولوجي الآلي"، أو إلىٰ "الإنسان الصناعي الرشيد"، بل بالوصول وفقاً لسُّنة التدافع إلىٰ وراثة الأرض من قبل عباده الصالحين، وهذه لن تكون نهاية للتاريخ، بل بداية له، بداية عودة الإنسان من ضيق العلمنة لرحابة الحقيقة الإيمانية الأسمىٰ، والمعنىٰ المعرفي الأصيل لحياته ووجوده.(١)

سلوك أهل التَّمكين:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١]

وهذه سُنّة أخرىٰ تأتي بعد «سُنّة التدافع»، وهي «سُنّة التمكين» للمؤمنين ولعباد الله الصالحين الذين يرثون الأرض من بعد أهلها، فسُنّة التدافع تُعطي المؤمنين فرصاً

(١) العلواني، طه جابر، **مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية**، القاهرة: دار السلام، ط١، ٢٠٠٩م، ص٣٩.
وثمة دراسات مفيدة جداً في إطار تحديد مفهوم التدافع الحضاري والنظرة للتاريخ وتطوره من المنظور الإسلامي، نذكر منها:
-عمارة، محمد .**النموذج الثقافي**، القاهرة: دار نهضة مصر، ط١، ١٩٩٨م.
-هيشور، محمد .**سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م.
-خليل، عماد الدين .**حول تشكيل العقل المسلم**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥م، بتصديرنا.

مهمّة للتكوين والتدريب والإعداد، واكتساب الخبرات، والاستفادة من التجارب، والكشف عن سُنن الله في الكون والحياة والمجتمع، وارتباط تلك السُّنن -كلها- بدين الله، وبالفطرة التي فطر الله الناس عليها، وآنذاك، تأتي سنّة التمكين ليفرح المؤمنون بنصر الله وتمكينه، ينصر مَنْ يشاء، ويُمكّن لمن يُريد. تأتي «سُنّة التمكين» وقد أُعدّ المؤمنون إعداداً كبيراً للاستفادة بها وتوظيفها. وتسخير الله لـ«سُنّة التمكين» بعد «سُنّة التدافع» يجعل المؤمنين هم الأتقىٰ والأفقه، والأقدر، والأعلم، والأكثر قدرةً علىٰ التدبير، وتسخير السُنَن، والتوافق مع سُنن الفطرة والاجتماع والكون والحياة، وجعلها بعض وسائلهم وأدواتهم لتحقيق النصر، وبلوغ الهدف والغاية.

النَّجم الثامن: في ذكر أقوام كذّبوا وظلموا، وبيان عاقبتهم في معرض التَّسرية عن النبي ﷺ

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الحج: ٤٢-٥٠].

هذه الآيات من بين ما نُزل تسريةً لرسول الله ﷺ. والتسرية الإلهيّة عن رسول الله ﷺ بسبب إيذاء المشركين له أخذت في القرآن المجيد أساليب عديدة، فهناك سور نزلت بذلك مثل "الضحىٰ والشرح" وهناك آيات عديدة منها ما سبق في هذه السورة من قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ١٥] ونحو قوله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦]، ونحوه كثير. ولعل

من أهمها ذكر ما أصاب النبيين والمرسلين قبله، وبيان أنّ العاقبة كانت للرسل كما في هذه الآيات:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤] يخاطب الله -تعالىٰ- رسوله ﷺ وقد تحمّل من صنوف الأذىٰ ما تحمل، بأنّ تكذيب هؤلاء لك، سبقهم إلىٰ مثله أقوامٌ آخرون، وقد سبقك بمعاناة التكذيب والجحود والتنكّر إخوانٌ لك من المرسلين والنبيين من قبل من أقوامهم؛ منهم قوم نوح، وبقيّة النبيّين والمرسلين من بعده، ولكن العاقبة دائماً كانت للأنبياء والمرسلين، ومَنْ آمن بهم وصدّق برسالاتهم من المؤمنين.

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٥-٤٦] هؤلاء الغافلون الذين تجتالهم الشياطين وتخدعهم، فيتوهّمون أنَّ بقاءهم في الحياة الدنيا، وعدم تعجيل العذاب لهم -كما يطلبون أحياناً من المرسلين- يتوهمون بذلك أنّهم علىٰ حق، وأنّهم لم يغضبوا الله -جلّ شأنه-، والحقيقة أنّهم أغضبوه، لكن حكمته -سبحانه- اقتضت أن يُمهلهم لا أن يُهملهم، وحين يستمرّون في غيِّهم ومعاصيهم، وتستمر الحياة تُعطيهم من عاجلها ما تُعطيهم، فإنَّما ذلك استدراج، يستدرجهم الله به من حيث لا يعلمون، وهؤلاء لم يستطيعوا -لاستيلاء الغفلة علىٰ قوىٰ وعيهم- أن يُدركوا ذلك، فهم إذا ساروا في الأرض ورأوا تلك القرىٰ الخاوية علىٰ عروشها، وبقايا القصور المشيدة، والآبار المعطَّلة، والبيوت المهجورة، لا تستطيع عقولهم أن تنقل إليهم أنّ بقايا هذه القصور والبيوت والمدن والآثار والآبار كانت لقومٍ أو أقوامٍ سبقتهم، كانوا ملء السمع والبصر، ينبضون بالحيويَّة والحياة، فلمّا آسفوه -جلّ شأنه - انتقم منهم، فمنهم مَنْ أخذته الصيحة، ومنهم من سلّط عليه الريح، ومنهم مَنْ جعل قراهم عاليها سافلها، ومنهم، ومنهم، لكنّ عقول هؤلاء معطّلة بليدة، وقوىٰ وعيهم مُغيّبة، لا تستطيع أن تستخلص دروساً، ولا أن تُقدّم لهم عبرة.

التّحدّي السَّفيه:

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج: ٤٧].

يستعجل هؤلاء بالعذاب، ويقولون لرسول الله ﷺ: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣] وهم لا يدرون أنّ العذاب قادمٌ لا محالة، وأنَّه مصيبهم لا شك ما داموا مقيمين علىٰ كفرهم، لا يعرفون إلىٰ التوبة سبيلاً ولا طريقاً، لكنّهم يتوهّمون أنّهم بذلك الاستعجال للعذاب يحرجون رسول الله ﷺ لأنّهم من الأصل -لبلادتهم وسوء فهمهم- لم يكونوا قادرين علىٰ التمييز بين الألوهيَّة والربوبيَّة، والنبوّة والرسالة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أهلك كثيراً من القرىٰ كانوا أشدّ منهم، لكن العذاب الذي سلّطه الله علىٰ القرىٰ الظالمة البائدة اقتضت حكمته ألا يُسلّطه عليها عندما تبدأ الظلم والانحراف، بل بعد أن يُملي لها ويُعطيها من الفرص ما يمكن لمثلها أن تثوب إلىٰ رشدها، وترجع عن غيّها، فإن هي لم تفعل بعد ذلك الإملاء، وبعد تلك الفترات الزمنيّة الكافية المتطاولة تؤخذ -آنذاك- بذنوبها، وتُزال من الأرض -التي ما خُلِقت إلا بالحق- لمنافاة أعمالها لذلك الحق الذي خُلقت السموات والأرض به وقامت عليه.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ [الحج: ٤٨] أي وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ [الحج: ٤٨] بالعذاب ﴿ وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج: ٤٨] أي المرجع إليَّ فلا يفوتني شيء. وإنما كانت الأولىٰ أي فكأين معطوفة بالفاء، وهذه أي وكأين بالواو؛ لأن الأولىٰ وقعت بدلاً عن ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو وهما ﴿ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج: ٤٧].(١)

---

(١) النسفي، **تفسير النسفي مدارك التأويل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٤٦.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحج: ٤٩-٥٠] هذا أمر لرسول الله ﷺ، بعد كل ما تقدّم من ظهور بشائر التمكين له وللمؤمنين، أن يوجّه الخطاب البشري العالميّ للناس كافّة، يدعوهم فيه إلىٰ الإيمان بالله -تعالىٰ- وبما أوحىٰ الله إليه من بيّنات، وتجاوز الخطاب الموجّه لأم القرىٰ وحدها أو لعشيرته الأقربين أو قومه أو الأُمّيين وحدهم ليأخذ الخطاب صيغته الأساسيَّة الكونيَّة، ويكون خطاباً موجّهاً إلىٰ البشريَّة كلها، برسالةٍ خاتمة علىٰ يد نبيٍّ خاتم، حملت في طيّاتها رسالات جميع المرسلين والنبيّين، وتجاربهم مع أُممهم، والمواقف المختلفة لأُممهم منهم ومن رسالاتهم؛ ليتمايز الناس ويكونوا صنفين: صنفاً يندرج فيه أولئك الذين استجابوا لله وللرسول، وهم (أمّة الإجابة)، وصنفاً آخر يضمّ جميع أولئك الذين لم يستجيبوا لله ولا للرسول، ولم ينفعلوا بالقرآن المجيد إلا انفعالاً عكسياً بدلاً من أن يسمحوا للقرآن الكريم أن يُعيد بناء نفسيّاتهم وعقليّاتهم وشخصيّاتهم، ويُعيد بناء قوىٰ وعيهم بصياغة سليمة، وهم (أُمَّة الدعوة) الذين لا ينبغي التوقف عن دعوتهم حتىٰ يؤمنوا أو تقام الحجّة عليهم.(١)

النَّجم التاسع: في بيان تمنّي الأنبياء وإلقاء الشيطان

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحج: ٥١-٥٧]

(١) قارن بما قاله الإمام الرازي في تفسيره، انظر:
- الرازي، **مفاتيح الغيب "التفسير الكبير"**، مرجع سابق، ج٢٩، بدءاً من ص٣١١.

السَّاعون في آيات الله معاجزين:

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [الحج: ٥١]

في هذه الآية يُبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا نوعاً من المشركين والكفار، وهم هؤلاء الذين إذا تُليت عليهم آياته فإنّهم يسعون فيها معاجزين، يحاولون تعجيز رسول الله ﷺ، وكأنّهم بذلك يحاولون أن يُقاوموا إعجاز القرآن لهم، فيواجهون الإعجاز بسعي في آيات الله يقوم على الرغبة بالمسابقة والمعاجزة، لقد كانوا يتمنّون أن يتوقّف رسول الله ﷺ عن إشعارهم بالعجز عن الاستجابة لتحدّياته، وكانوا يتمنّون لو استطاعوا أن يفتنوه: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٣] مما يُمكّنهم من أن يتحدّوه وأن يُعاجزوه به، بل: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القلم: ٩] وسلكوا لذلك سبلاً شتّى؛ منها الظاهر المعلَن، ومنها الخفيّ؛ ولذلك فإنّه -جلّ شأنه- كان مع الرسول ﷺ على الدوام، يُثبّت فؤاده، ويجعل بينه وبين الذين لا يؤمنون بالقرآن حجاباً مستوراً، ويقول له: ﴿ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ [المائدة: ٤٩] فهم دائمو المحاولة، يأتون رسول الله ﷺ والمؤمنين من كل جانب، ومعهم الشيطان، الذي أعلن عداءه للبشرية، فقال: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ ﴾ [النساء: ١١٩]، وهنا يُصبح الرسل والأنبياء هدفاً من أهم الأهداف التي يسعى الشيطان دون يأس أو كلل للنيل منها، والوصول إليها، بالوسوسة والإيحاءات بشتّى أنواعها، والله -تعالى- يحفظ رسله ويعصمهم، ويحول بين الشياطين وبينهم بألطافه -سبحانه- ومؤيِّدات من جنده: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ [المدثر: ٣١].

وكان هناك أُناسٌ يحاولون أن يسعوا في آيات الله معاجزين، ومنهم النضر بن الحارث الذي كان يرقب رسول الله ﷺ، فإذا أتى مجلساً يتلو فيه على الناس كتاب ربه بدأ النضر يقصّ قصصاً تاريخيّة مختلفة، وأساطير متنوّعة، بأسلوبٍ عربيٍّ طريف جذّاب؛ ظنّاً منه أنّه بذلك يُعجز رسول الله ﷺ عن تلاوة كتاب ربّه حق التلاوة، وأن

ذلك ربما يصرف الناس عنه، ويشوّش عليه ﷺ، ويوهم النّاس ليخلطوا بين القرآن وتلك القصص والأساطير. وكان فريقٌ من أولئك المعاجزين يلجأون إلىٰ اللغو والشغب واللغط، ويقولون للناس ما حكاه القرآن: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦] متوهّمين أنَّ ذلك سيُعجز الرسول، ويُوقف انتشار الرسالة وامتدادها، فتوعّدهم الله -جلّ شأنه- علىٰ تلك المحاولات بأنّهم أصحاب الجحيم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٢-٥٤].

هذه الآيات الكريمات من هذه السورة الكريمة كانت موضع جدل كبير؛ ذلك لأنّها اقتُطعت من سياقها، وعُوملت وكأنّها آياتٌ مستقلة، يجري التعامل معها واستخلاص معانيها منها وحدها، فلم يُلْتَفت إلىٰ وجودها في هذه السورة، التي محورها الأساس «الإعلان عن التمكين لرسول الله ﷺ ولرسالته وللمؤمنين به»، وجاءت روايات باطلة تقول: إنّ هناك واقعةً جرت لرسول الله ﷺ، لـمّا نزلت سورة النَّجم وقرأ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩-٢٠] ألقىٰ الشيطان علىٰ لسانه كلمات فقال: (وَإِنَّهُنَّ لَمِنَ الْغَرَانِيقِ الْعُلَىٰ وَإِنَّ شَفَاعَتَهُمْ لَتُرْتَجَىٰ) وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته.

أخرج الطبراني بسنده عن عُرْوَةَ قال: (حين أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ السُّورَةَ التي يَذْكُرُ فيها وَالنَّجم إذا هَوَىٰ، وقال المُشْرِكُونَ من قُرَيْشٍ: لو كان هذا الرَّجُلُ يَذْكُرُ آلِهَتَنَا بِخَيْرٍ أَقْرَرْنَاهُ وَأَصْحَابهُ، فإنه لا يَذْكُرُ أَحَداً مِمَّنْ خَالَفَ دِينَهُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ بِمِثْلِ الذي يَذْكُرُ بِهِ آلِهَتَنَا مِنَ الشَّتْمِ وَالشَّرِّ، فلما أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ السُّورَةَ التي يَذْكُرُ فيها وَالنَّجم وَقَرَأَ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾،

أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ في أُمْنِيَّةِ النبي ﷺ، ذكر الطواغيت وَحَدَّثَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قد قَرَأَهَا في السَّجْدَةِ، (١) فَسَجَدُوا لِتَعْظِيمِ آلِهَتِهِمْ، فَفَشَتْ تِلْكَ الْكَلِمَةُ في الناس وَأَظْهَرَهَا الشَّيْطَانُ حتىٰ بَلَغَتِ الْحَبَشَةَ، فلما سمع عُثْمَانُ بن مَظْعُونٍ وَعَبْدُ الله بن مَسْعُودٍ وَمَنْ كان مَعَهُمْ من أَهْلِ مَكَّةَ أَنَّ الناس قد أَسْلَمُوا وَصَلَّوْا مع رسول الله ﷺ وَبَلَغَهُمْ سُجُودُ الْوَلِيدِ بن الْمُغِيرَةِ علىٰ التُّرَابِ علىٰ كَفَّيْهِ أَقْبَلُوا سِرَاعاً، وَكَبُرَ ذلك علىٰ رسول الله ﷺ، فلما أَمْسَىٰ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَشَكَا إليه فَأَمَرَهُ، فَقَرَأَ عليه، فلما بَلَغَهَا تَبَرَّأَ منها جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقال: مَعَاذَ الله من هَاتَيْنِ، ما أَنْزَلَهُمَا رَبِّي وَلا أَمَرَنِي بِهِمَا رَبُّكَ، فلما رَأَىٰ ذلك رسول الله ﷺ شَقَّ عليه وقال: أَطَعْتُ الشَّيْطَانَ، وَتَكَلَّمْتُ بِكَلامِهِ، وَشَرَكَنِي في أَمْرِ الله، فَنَسَخَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ما أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ، وأَنْزَلَ عليه ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ ﴾ [الحج: ٥٢-٥٣]، فلما بَرَّأَهُ اللهُ من سَجْعِ الشَّيْطَانِ وَفِتْنَتِهِ انقلب الْمُشْرِكُونَ بَضَلالِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ، وَبَلَغَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ كان بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ وقد شَارَفُوا مَكَّةَ، فلم يَسْتَطِيعُوا الرُّجُوعَ من شِدَّةِ الْبَلاءِ الذي أَصَابَهُمْ، وَالْجُوعِ وَالْخَوْفِ، خَافُوا أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ فَيُبْطَشَ بِهِمْ، فلم يَدْخُلْ رَجُلٌ منهم إلا بِجِوَارٍ، وَأَجَارَ الْوَلِيدُ بن الْمُغِيرَةِ عُثْمَانَ بن مَظْعُونٍ..الحديث). (٢)

فرأت -هذه الرواية وغيرها- أن موضوع «الغرانيق» لم يكن من إضافات أولئك الكافرين، بل إنَّه كان بناءً علىٰ ضعفٍ بشريّ أصاب النبي ﷺ، وجُلّ أولئك الرّواة

---

(١) قلتُ: انظر كيف تناقضوا في هذه الروايات الزائفة، فينسبون تلك الإضافة الكافرة الفاجرة مرةً إلىٰ الشيطان، قائلين: إنه وضعها علىٰ لسان رسول الله ﷺ وأنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ردّدها، ومرةً يقولون: إنَّ الشيطان قد ألقاها مباشرةً في أذهان المشركين، لكنّهم -في الحالتين- يضعونها بجوار الآية القرآنيَّة الصحيحة المعصومة، وبذلك الأسلوب الذي رأيت.

(٢) الطبراني، **المعجم الكبير**، مرجع سابق، ج٩، حديث رقم (٨٣١٦)، ص٣٤، في إسناده عبد الله بن لهيعة، قال البخاري: كان يحيىٰ بن سعيد لا يراه شيئاً. انظر:

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (توفي: ٢٥٦هـ). **كتاب الضعفاء**، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٩٨٦م، ص٦٩.

الذين رووا تلك القَصَص الخرافيَّة مدلّسون، لا تُقبل رواياتهم بحال، ولو نظر الناس في سند هذه الروايات وفحصوا أسانيدها، لوجدوها ليست مرسلةً[١] فحسب، بل متـرعةً بالبلايا في أسانيدها ومتونها،[٢] مما يجعل مجرد تداولها وتناقلها أمراً غير مقبول، ولا يُسوّغه أي مسوّغ، لكنّ شغف بعضهم بالرّواية والتعالم بها جعل هذه الروايات غير الصحيحة متداولة، بحيث تناقلها المفسّرون عامة، ومهما قالوا في تكذيبها فذلك ليس بمسوّغٍ لروايتها، وكان يجب إهمالها وعدم الالتفات إليها بأي حالٍ من الأحوال.

والحق أنَّ جميع هذه الروايات رواياتٌ باطلة إسرائيليّة، أدخلها أناسٌ من أولئك الذين يخلطون بين تراث بني إسرائيل وأحاديث رسول الله ﷺ، وكلها يردّها القرآن المجيد جملةً وتفصيلاً، وما ردّه القرآن بهذه الطريقة ما كان ينبغي لسائر محدّثينا ومفسّرينا أن يسوّدوا به كل تلك الصحائف، بل لا أدري كيف استساغ المسلمون أن يردّدوها جيلاً بعد جيل، ويفسحوا لها في تفاسيرهم ذلك المكان الواسع الذي لا تستحقه، قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] وأيَّة أقاويل أخطر من امتداح تلك الغرانيق، التي جاء القرآن الكريم لهدمها، والقضاء على عبادتها، وتحرير البشريَّة من أرجاسها؟

(١) قال ابن كثير: قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم. انظر:

- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج٥، ص٤٤١.

(٢) قال المناوي: قال أبو بكر بن العربي: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها، وقال عياض: هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته وانقطاع إسناده، ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم في ذلك ضعيفة واهية، ثم رده من طريق النظر بأن ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم قال ولم ينقل ذلك، انظر:

- المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف (توفي: ١٠٣١هـ). **الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي**، تحقيق: أحمد مجتبى، الرياض: دار العاصمة، ١٩٨٨م، ج٢، ص٨٤٤.

إنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- قد عصم نبيّه من شياطين الإنس والجن، ولم يجعل لأحدٍ عليه سبيلا، وقال له: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقال -جلّ شأنه-: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ ﴾ [يونس: ١٥] ولو صحّت هذه القصة المختلَقة -أو أي جزءٍ منها- لكان في ذلك اتهام خطير لرسول الله ﷺ أنّه كان يتمنّىٰ أن ينزل عليه ما يمكّنه من مهادنة المشركين، وإذا سلّمنا -والعياذ بالله- أنّ الشيطان قد ألقىٰ علىٰ لسانه ذلك -كما سلّم بعض الرواة-(١) فتلك طامّة كبرىٰ؛ لأنهّا تعني أنّ الوحي ما كان معصوماً، وأن للشيطان قوة كبيرة، بحيث يمكنه أن يضع الكفر والكذب علىٰ لسان رسول الله المعصوم ﷺ فهل يمكن الوثوق بأي شيءٍ من الوحي بعد ذلك؟! والله -جلّ شأنه- لم يسمح بنسيان رسول الله شيئاً من هذا القرآن، ولم يجعل في مقدروه أن ينسىٰ شيئاً منه، كما لم يجعل في مقدوره أن ينسب إليه ما ليس منه: ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ ﴾ [الأعلىٰ: ٦] كما أنّه -جلّ شأنه - قال: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ ﴾ [الحاقة: ٤٤] و«بعض» تتناول حتىٰ الكلمة الواحدة، ويقول -جلّ شأنه-: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ ﴾ [النّجم: ٣] والتسليم بمثل هذه الخرافات والقصص الباطلة تسليمٌ بأنّه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد ينطق عن الهوىٰ، كما يُعطي للشيطان سلطاناً لم يمكّنه الله منه، فإنّه ليس له سلطان إلا علىٰ الذين يتولّونه والذين هم به مؤمنون، فكيف استساغت عقول أولئك المفسّرين أن يُقال: إنّ الشيطان ألقىٰ علىٰ لسان النبيِّ ﷺ؟! فالشياطين أعجز من أن يُوحوا لرسول الله ﷺ أو يضعوا علىٰ لسانه نقطة واحدة، لا أقول حرفاً ولا كلمة. إنَّ الشياطين غاية ما يمكن أن يفعلوه هو أن يُوحوا لأوليائهم ليجادلوا النبي ﷺ والمؤمنين. كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

---

(١) منهم الحافظ ابن حجر الذي أورد كل روايات هذا الحديث، ثم قال معقباً عليها: وكلها -سوىٰ طريق سعيد بن جبير- إما ضعيف وإما منقطع، ثم قال: لكن كثرة الطرق تدل علىٰ أن للقصة أصلاً. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص٤٣٩.

إنَّ هذه القصة -علىٰ ما يبدو- والأكاذيب التي اشتملت عليها في رواياتها العديدة صاغها مَنْ صاغها، وحبكها من حبكها لهدم الوحي وهدم الرسالة، فلا ينبغي الالتفات إليها، وقد علمتَ ما فيها؛ ولذلك وددنا أن نقول في ذلك الأمر مقالةً حاسمة تقطع دابر الكلام فيها إن شاء الله:

أولاً: قد غفل أو تغافل الكثيرون وهم يفسّرون هذه الآية عن أنَّها بدأت بإذا الشرطيّة، وذلك يعني أنّه (إذا حصل التمني، حصل إلقاء الشيطان).

ثانياً: إنّ الرسول ﷺ معصومٌ بنص القرآن من أن يُنال منه وهو في معرض التلقي أو الأداء لرسالة الله -جلّ شأنه- من الناس ومن الشيطان ومن الجن، ومن سائر ما خلق الله، ومعصومٌ كذلك من أن يخلط بين بشريّته ونبوّته ورسالته، فالله -تبارك وتعالىٰ- قد جعل بين نبوّته وبشريّته حاجزاً، بحيث لا تؤثر بشريّته في أي جانبٍ من جوانب رسالته، ولا تتأثر رسالته ببشريّته؛ ولذلك فقد مُنح النبيّون والمرسلون العصمة الإلهيَّة لتمكينهم من الأمانة والدقة في التحمل وفي الأداء والتبليغ، وهذا أمرٌ يُعدُّ من المعلوم من الدين بالضرورة، ليس لأحدٍ أن يُماري أو يُشكّك أو يتشكّك فيه؛ ولذلك كثرت الآيات في التسرية عن رسول الله ﷺ والتخفيف عنه عندما يستبد به الأسىٰ من إعراض الناس عن الاستجابة له، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: ٦] وكذلك التأكيد علىٰ القضيَّة المشتركة الكبرىٰ في رسالات النبيِّين والمرسلين كافَّة، وهي القيامة والبعث والنشور والجزاء، والاستدلال عليها بكل الأدلة التي من شأنها أن تقنع الإنسان -لو كان محايداً، وبعيداً عن المؤثِّرات الشيطانيَّة خاصّة- بصحة ذلك كلِّه، لكنّ وساوس الشيطان قد تؤثّر علىٰ أولياء الشيطان، وقد تفتن مرضىٰ القلوب الذين أصيبت قلوبهم بالقسوة، وتُحوّلهم إلىٰ حالة الشّقاق والنزاع والخلاف مع الأنبياء، وآنذاك يشعر النبيُّ أو الرسول بالحسرة والألم علىٰ بعض قومه الذين اجتالتهم الشياطين، فيتلطَّف الخالق -سبحانه- به فينزّل عليه نحو قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: ٦]، ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: ٣]، وفي الوقت نفسه تأتي آيات أخرىٰ للتأكيد علىٰ الرسل

والأنبياء ألا تحملهم «أمنياتهم ورغبتهم» في إيمان أممهم على تجاوز «منهج التبليغ»: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢] ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ولم يكن رسول الله ﷺ بدعاً من الرسل في هذا.

ثالثاً: زعم كثيرٌ من المفسرين -متأثّرين بالروايات الواهية- أنَّ «الأمنيَّة» تعني فيما تعنيه «التلاوة والقراءة»، وحكموا بأنَّ المراد بها -هنا- هو هذا المعنى، استدلالاً ببيت ركيك مختلف في صحة نِسْبَته إلى حسَّان بن ثابت هو:

تمنّى كتاب الله أوّل ليلة ... تمنّيَ داوود الزبور على مهل

وقالوا: إنّه أراد بـ «تمنى»: قرأ.

وليس في اللغة العربيّة -لا في الجاهليّة ولا في الإسلام- أنّ القراءة معنى من معاني التمني إلا ما اختلقه الوضّاعون والدسّاسون على لسان حسّان بن ثابت، وهذا اختراقٌ لغويّ ينبغي أن يلتفت إليه طلبة العلم، وأن يدقّقوا في المعاني اللغويّة وأنساب الكلمات، مثلما يُدققون في أنساب الأفكار للكشف عن هذا النوع من الدسّ ومحاولات العبث والطعن في الدين، وهذا من أخطر الأمور التي تحتاج من علماء العربية في الأمّة إلى وقفات لمراجعة لغتهم، فإنّ الدسّ على كتاب الله، وسنن رسول الله ﷺ والباطل الذي حاول أهل الباطل أن يدخلوه على الإسلام إنّما بدأ بنوعٍ من الاختراق اللغويّ، وتغيير كثيرٍ من المعاني والمفاهيم؛ وتحذير القرآن في هذا المجال شديد قال -جلّ شأنه -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤] وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦]؛ ليُنبّهنا إلى ضرورة الوقوف على هذه الثغرة، والعناية بها، وعدم إهمالها.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢]؛ أي إنّ الله -تعالى- يُزيل ويُبطل مَا يُلقي الشيطان من طريق القرآن، وتأثيره في القلوب، ويحكم آياته

ويثبتها في تلك القلوب المؤمنة المخبتة، التي لن يكون لوساوس الشيطان أثر فيها أو عليها بعد ذلك، وهذا المعنى أدعى لاستيعاب «النّسخ» ورفض نسبته إلى أيّ شيء من القرآن بحجَّة جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً؛ لأنّه يجعل المنسوخ في هذه الآية مما يلقي الشيطان، لا من آيات الله، ولا من سنَّة رسوله ﷺ وفي هذا مَا فيه، وكفى بذلك صارفاً عن قبول «النسخ» أو القول به.(١)

وقد رأينا فقهاءنا وقد أعطوا للنسخ معاني لا تشهد لها لغة القرآن الكريم، ولم ينطقها لسانه، ألا وهي الإزالة، والرفع، وبيان الانتهاء، ومعاني أخرى حمّلوها للكلمة لتستجيب لما قرّروه -قبل القراءة- من معانٍ وأحكام، زعموا أنّها منسوخة حكماً وتلاوةً، أو حكماً مع بقاء التلاوة، أو تلاوةً مع بقاء الحكم. ولكي تُفرض تلك المقررات المسبقة المتخذة من خارج القرآن كان لا بد من توظيف لغةٍ غريبةٍ عن لسان القرآن، فحمّلوا «تمنى» معنىً هو من أغرب الغرائب، ألا وهو «القراءة»، وسوّغوا ذلك بأنّ الإنسان أحياناً يقرأ ما يتمنّاه، وأحياناً يكتبه. وهذا يُعدّ اختراقاً لغويّاً، وتزييفاً لسانيّاً، كما ركّزوا على مفهوم الإزالة باعتباره معنى للنسخ؛ لينسجم مع ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢]، وهكذا سمحوا لأنفسهم أن يُعطوا للكلمة الواحدة معاني عديدة وضعوها لها لأدنى مناسبة، أو دون مناسبة أحياناً؛ ليُثبتوا لأنفسهم تحميل كلمات القرآن المجيد المعاني التي رأوا أنّ من الضروري تحميلها لها. وفي عرضنا الآتي سيكتشف القارئ الكريم ذلك بوضوح.

خامساً: وحين تؤخذ الآية وهي جزءٌ من سورة التمكين -التمكين للنبيّ في الأرض والتمكين له في المرجعيَّة- فإنَّ الأمر يكون في غاية البساطة، ويكون مفهوماً جدّاً، لكنّ الروايات الواهية -وهي بعض أحابيل الشيطان- استطاعت أن تحوّل هذه الآية -التي هي بمثابة وعد إلهيّ للرسول وللمؤمنين بحفظ المرجعيّة- إلى مشكلة المشاكل، وساعدت على ذلك عمليّات الاختراق اللغوي والتلاعب باللغة، ولا يغترّ بما أورده جمهرة المفسرين من أخبار كاذبة لا يخلو واحد منها من مقال، سائلين العليّ القدير أن يهدينا جميعاً بالقرآن المجيد.

(١) العلواني، **نحو موقف قرآني من النسخ**، مرجع سابق.

سادساً: «**الأمنية**»: مفهوم من مفاهيم القرآن المجيد، جاءت مادتها في آيات كثيرة، [(١)] وهي:

(١) وفي تمنّي القرآن الكريم، جاء لفظ التمني بهذا المعنى، الذي هو طلب الشيء البعيد.. كما في قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥]. والخطاب هنا لبني إسرائيل، وهم مطالبون في هذا الخطاب أن يتمنّوا شيئاً لا يمكن أن يقع منهم، وهو تمنّي الموت. ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾ [البقرة: ٩٥] كاشفاً عن هذا.. ولهذا أيضا جاء قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ﴾ ﴿حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] – جاء مؤكداً لعدم وقوع هذا الأمر منهم، إذ إن الحريص على الشيء لا يتمنّى إفلاته من يده، فكيف إذا كان أشدّ الناس حرصاً عليه؟ وجاء في القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النَّجم: ٢٤] وهو ينكر على الإنسان أن يقع له ما يتمناه، ويجري على هواه وهواجسه. وجاء في القرآن الكريم كذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨] والأماني جمع أمنيّة.

وعلم الأميين من أهل الكتاب بالكتاب، هو علم بعيد عن الحقّ، بعد أمنية عمن يتمنّاها .فما هي أمنية كلّ رسول، وكلّ نبيّ؟

إن أمنية كلّ رسول، ورغبة كلّ نبيّ، هي أن يرى قومه على الهدى الذي يدعوهم إليه، وأن يصبحوا جميعاً في المؤمنين بالله.. فتلك هي رسالته في الناس، يعيش لها، ويعمل من أجل تحقيقها، وأن سعادته كلها هي أن يرى نجاح مسعاه، وثمرة جهاده، في هذه الأعداد التي استجابت له واتبعته، وأنه كلما كثرت هذه الأعداد، تضاعفت سعادته، وعظمت غبطته.

هذه هي أمنية كل رسول، وكل نبيّ.. لا أمنية لأحد منهم غير هذه الأمنية! ولكن الأمانيّ- كما قلنا- بعيدة التحقيق! وأمنية الرسول أو النبيّ في أن يكون الناس جميعاً مؤمنين- أمنية تقع في دائرة المستحيلات، لأنها تطلب من الحياة ما لم تجد به، وتريد الناس على غير ما أقامهم الله عليه. فالحياة لم تعرف المجتمع الإنساني على طريق سواء، يضمّ جميع أفراده. والناس- كما خلقهم الله- مؤمن وكافر، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ١].وإذن فأمنية أي رسول وأي نبيّ، غير ممكنة التحقيق. ومع هذا فإن على كل رسول وكل نبيّ أن يسعى سعيه، ويبذل جهده، ويدعو الناس جميعاً إلى الله، ويؤذّن فيهم بآيات الله! ولكن صوت الحق هذا، تلقاه على الطريق أصوات منكرة، بعضها ينبح نبح الكلاب، وبعضها يعوي عواء الذئاب، ومنها ما ينهق نهيق الحمير، ومنها ما يفحّ فحيح الأفاعي، فيتألف منها ومن كثير غيرها من كل صوت منكر- إعصار مجنون، يكاد يخنق هذا الصوت الكريم، ويغطي سماءه الصافية، بما يثير من غبار ودخان! فهذه هي أمنية الرسول أو النبي، وتلك إلقاءات الشيطان فيها، وهكذا يذهب ما يُلقي الشيطان في أمنيّة الرسول أو النبيّ هباء، حيث يخلص النبي أو الرسول بأوليائه، وهم صفوة المجتمع، والثمرات الطيبة فيه، على حين يستولي الشيطان على أتباعه، ويسوقهم إلى حظيرته، حيث هم حصب جهنم وحطبها! واستمع بعد هذا إلى قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٢٥] وانظر كيف كانت عاقبة هذا الصراع بين النبي أو الرسول، وبين الشيطان وأولياء الشيطان، لقد أحكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ آياته، فنسخ أي أبطل ما ألقى الشيطان، ثم أحكم سبحانه آياته، وثبّت قواعدها، انظر:

- الخطيب، عبد الكريم يونس (توفي: بعد ١٣٩٠هـ). **التفسير القرآني للقرآن**، القاهرة: دار الفكر العربي، (د. ت.)، ج٩، ص١٠٦٥.

صورة تتسم في النفس بشكل حسن، وتصور لها بصورة جميلة، سواء أكان لتلك الصورة حقيقة في الواقع أو أنّها صورة متخيّلة قامت على تخمين أو تخيُّل أو ظنّ، وقد تحصل بناءً على أصل ما، أو تفكير ورؤية، وهناك اتصال وانفصال بين «**التمني**» ومجانبة الحقيقة، التي تصل إلى مستوى الكذب، من حيث كون الكذب مشتملاً على مجانبة للحقيقة، وإعطاء صورة أو تصور لما لا حقيقة له.

كما أنّ هناك اتصالاً وانفصالاً بين «**التمني**» و«**التزيين**»، فتزيين النّفس أو الشيطان الشيءَ أو الرأيَ أو العملَ للإنسان هو إعطاء صورة مغايرة أو مبالغ فيها أو ليست بحقيقة -على كل حال- لدفع المزيَّن له إلى ممارسة ذلك والوقوع فيه إن كان رأياً أو حقيقةً.

سابعاً: هل وقع التمنّي من أنبياء ورسل ممن جاؤوا قبل نبيّنا محمد ﷺ؟

عرض القرآن الكريم بعض الأمنيات التي تمناها بعضهم -صلوات الله عليهم- كما حدث من تمنّي أبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الخلد في الجنّة وتمني نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إيمان ابنه، وتمني الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن ينال عهدُ الله -تعالىٰ- ذريتَه، ولنعرض لتلك الأمثلة بشيء من التفصيل:

أُمنية سيدنا آدم:

يُنبّه القرآن إلى أنّ آدم وزوجه بعد أن استقرا في الجنّة «**المؤقتة**» تمنّى آدم الخلود فيها، فكانت أمنيته تلك مدخل الشيطان إليه، وكان الله -تعالىٰ- قد حذر آدم من قبل عداوة الشيطان له ولذريّته، وأسكنه وزوجه الجنة، وعهد إليه أنّه لن يجوع فيها ولن يعرىٰ، وذلك يُنبّه إلى الاستقرار الذي سيكون فيه آدم وزوجه، ولكنّ آدم قد نسي ذلك وفُلّ عزمه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥] ودخل الشيطان إليه من ذلك المدخل، فقال له: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠] ذلك لأنّ الوعد الإلهيّ لم يشتمل على نص في الخلود وعدم البلىٰ بل كان: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٨-١١٩].

وقد أبطل الله -تعالىٰ- تأثير هذا الذي ألقاه الشيطان في أمنيّة آدم بتعليمه التوبة،

وبإمضائه تعالىٰ لسنّته في هدايته له ولبنيه، وجعل جزاء مَنْ اتبع الهدىٰ أن لا يضلّ ولا يشقىٰ، وأن يصير في الدار الآخرة إلىٰ: «جنة الخلد وملك لا يبلىٰ».

أُمنية سيدنا نوح:

وكان نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتمنّىٰ أن يؤمن قومه كلهم، كما تمنّىٰ أن يُنقذ الله ابنه من الطوفان. وقد أبرز القرآن أمنيّة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقد بدأ الطوفان يغسل الأرض من أولئك القوم وأرجاسهم: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود: ٤٥-٤٧]. وفي «سورة نوح» نجده عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يذكر بحسرة وألم جهوده المتكرّرة المتنوّعة في دعوته قومه، والنصح لهم، ثم يذكر كيف عَصَوْه وتمرّدوا عليه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾ [نوح: ٥-٩].

وقد أحكم -سبحانه- آياته وسننه وقوانينه الماضية، فقال -تعالىٰ-: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧﴾ [المؤمنون: ٢٧] وحين ذكر بني إسرائيل في بداية «سورة الإسراء» بيّن سبحانه أنّهم: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: ٣] فبنو إسرائيل ذريّة أولئك الذين حملهم الله -تعالىٰ- مع نوح في الفُلك المشحون، ليستمر قانون الاستخلاف والبقاء والبلاء.

أُمنية سيدنا إبراهيم:

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤] فكأنّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تمنّىٰ أن تكون الإمامة في ذريته وفي عقبه، فكان الجواب الإلهيّ: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾

[البقرة: ١٢٤].(١) وفيها تنبيه له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ أنّ ذريته سيكون فيها ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات، ولن يكونوا -جميعاً- صالحين للإمامة.

وأمّا دعاؤه لأبيه فكان عن موعدة وعدها إياه، فهل هذا يُعدّ تمنياً؟ الصحيح أنَّ هناك فارقاً كبيراً بين الدعاء والتمني.. فليُتأمّل.(٢)

وهنا نودّ التنبيه علىٰ بعض النقاط:

أولاً: الآية قد أكّدت أنّ هذا الأمر لو حدث لكان خاصاً بالرسل والأنبياء من قبله لا به: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]. فهو الرسول الوحيد ﷺ الذي لم يتمنّ شيئاً لنفسه ولا لقومه، بل انصبّت أمنيته علىٰ هداية البشريّة جمعاء، وهل كانت أمنيته أن يرىٰ هذا قبل موته؟! ذلك أمر محتمل.

ثانياً: إنَّ الفاصل بين بشريّة الأنبياء والرسل ورسالاتهم فاصلٌ سميك قائم لا يُتجاوز، ولو جرىٰ تجاوزه لاختلت الأمور كلها، واختلطت؛ ولذلك فإنّ النبوّة والرسالة في النبي الرسول البشر تعني الالتزام التام منه في التلقّي وفي الأداء، وفي

---

(١) قال الراغب: قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾، فأجيب إلىٰ ملتمسه بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤] لكنه تعالىٰ بين أنه قد يكون من ذريته ظالم، وبين أن الإمام يتحمل العهد، والظالم لا عهد له، فإذاً لا إمامة له. انظر:

- الراغب الأصفهاني، **تفسير الراغب الأصفهاني**، مرجع سابق، ص٣١٠.

(٢) قد يختلط علىٰ البعض الدعاء بالتمنّي، ولا بد من ملاحظة ذلك، فللرسول أن يدعو لقومه بالهداية، أو يدعو علىٰ أعدائه بالهزيمة، فهل يدخل ذلك في مجال التمنّي؟! لا نرىٰ التسويّة بين الأمرين واردةً؛ ولقد جاءت أمنية سيدنا سليمان بصيغة الدعاء حين قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص: ٣٥] فوهب الله له ذلك الملك. ولكن في مرحلة من المراحل أدّىٰ به ذلك إلىٰ نسيان ذكر الله، وموعد صلاته له وهو يستعرض الصافنات الجياد، فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ليكفِّر عن ذلك، وكيف يُلقي الشيطان في أمنيته وجزء منها كان تسخير الشياطين له وإخضاعها لسلطانه؟! وفي القرآن آيات كثيرة دلّت علىٰ ذلك، وعلىٰ سيطرته عليهم، لعلّ منها أن وقف علىٰ منسأته ومات وهو عليها دون أن يعلموا شيئاً عن موته، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: ١٤] ونحن لا نرىٰ في أيّ من ذلك -مما اعتُبر أمنياتٍ نبويّة لأنبياء ومرسلين سبقوا رسول الله ﷺ من الأمنيات التي قد يلقي الشيطان فيها شيئاً.

التحمل والاتباع، وفي البيان، وسائر ما له علاقة في هذا الجانب، فمهما بالغ في حب قومه فإنّه لا يهدي مَنْ أحب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦] وحين نهاه الله -جلّ شأنه- عن الصلاة على المنافقين، أو الاستغفار لهم فإنّ رحمته -صلوات الله وسلامه عليه- وشفقته جعلته يقول: «إنما خيرني الله فقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ [التوبة: ٨٠]، وسأزيده على السبعين»، إلى أن ورد النّهي القاطع له عن الصلاة عليهم، بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة: ٨٤] ثم نُهي عن الاستغفار لهم، (١) وقال له -جلّ شأنه-: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة: ١١٤].

ثم بين تعالى الحكمة في ذلك فقال: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الحج: ٥٣] وإنما مكّن الله المتمردين على الحق من إلقاء الشُّبه والعراقيل في سبيل الدعوة ليكون في ذلك امتحان واختبار للناس، فالكفار الذين تحجرت قلوبهم، والمنافقون ومرضى القلوب يزدادون ضلالاً بترويج هذه الشُّبه ومناصرتها، ولا عجب في أن يقف هؤلاء الظالمون هذا الموقف فإنهم لجُّوا في الضلال، وأوغلوا في العناد والشقاق.

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج: ٥٤] وليزداد الذين أوتوا علم الشرع

(١) عن عُمَرَ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قال: "لَمَّا مَاتَ عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلُولَ دُعِيَ له رسول الله ﷺ لِيُصَلِّي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إليه، فقلت: يا رَسُولَ الله أَتُصَلِّي على بن أُبَيٍّ وقد قال يوم كَذَا كَذَا وكذا وَكَذَا؟ قال أُعَدِّدُ عليه قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رسول الله ﷺ وقال: أَخِّرْ عَنِّي يا عُمَرُ، فلما أَكْثَرْتُ عليه، قال: إني خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لو أَعْلَمُ أَنِّي إن زِدْتُ على السَّبْعِينَ يُغْفَرْ له لَزِدْتُ عليها، قال: فَصَلَّى عليه رسول الله ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ، فلم يَمْكُثْ إلا يَسِيراً حتى نَزَلَتْ الْآيَتَانِ من بَرَاءَةَ ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ٨٤] إلى قَوْلِهِ: ﴿ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة: ٨٤] قال: فَعَجِبْتُ بَعْدُ من جُرْأَتِي على رسول الله ﷺ."انظر: - البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب التفسير، بَاب اسْتَغْفِرْ لهم أو لَا تَسْتَغْفِرْ لهم إن تَسْتَغْفِرْ لهم سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ الله لهم، حديث رقم (٤٦٧١)، ص٨٩١.

والإيمان به إيماناً وعلماً، بأن ما يقوله الرسل والأنبياء إنما هو الحق المنزَّل من عند الله، وإن الله ليتولىٰ المؤمنين دائماً بعنايته في المشاكل التي تمر بهم، فيهديهم إلىٰ معرفة الطريق المستقيم فيتبعونه.(١)

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الحج: ٥٥] كأن في الآية إعلاماً لرسول الله بأنّ أمنيتك بأن لا يبقىٰ علىٰ ظهر الأرض مشرك، وأن يدخل الناس في التوحيد أفواجاً، هي أمنية في عداد المحال. ولا منافاة بين ذلك وما وعده الله -تعالىٰ- به من إظهار دينه علىٰ الدين كله الوارد في آيات عديدة مثل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨] فالمعنىٰ أن ذلك الإظهار سيتم في إطاره الأغلبي، لا في إطاره الاستقرائي الشامل. والله أعلم.

النَّجم العاشر: الهجرة والانتصار

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾
[الحج: ٥٨-٦٢].

هؤلاء المهاجرون الذين هاجروا في سبيل الله بعد أن ابتلوا بلاءً شديداً، وتحمّلوا الأذىٰ طيلة العهد المكّي وهم ينتظرون؛ لأنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- قال لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧] بعد الإذن لهم بالقتال كان لابد أن تنشأ مناوشاتٌ هنا وهناك، وتحرّكات، وتحرشات، تؤدّي -أحياناً- إلىٰ الالتحام والمواجهة، ومن سلخ خمسة عشر عاماً -تقِلّ أو تزيد- وهو يتحمّل الأذىٰ دون ردّ. وحين يدخل مرحلة ردّ الأذىٰ ومواجهة العدوان لا شك أنّ ذلك -في بدايته- سيُثير الكثير من التساؤلات عن طبيعة الإذن الصادر من الله -تعالىٰ-، وكيفيّة تنفيذه، وقد وقعت

(١) لجنة من علماء الأزهر، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٤٩٧.

سرايا واحتكاكات بين المهاجرين في سبيل الله، وأعداء الله من المشركين، فنزل قوله -جلّ شأنه-: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾ [الحج: ٥٨]، بياناً لعاقبتهم الحسنة وجزائهم الوافر عند الله -تعالىٰ-.[١]

﴿ذَٰلِكَۖ﴾ [الحج: ٦٠] ذلك الأمر الذي قصصنا عليك من إدخال المهاجرين الجنة، ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٦٠] ومن اعتُدِي عليه وظُلم فقد أُذِن له أن يقابل الجاني بمثل فعلته، ولا حرج عليه، ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾ [الحج: ٦٠] فإذا عاد الجاني إلىٰ إيذائه وبغىٰ، ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] فإن الله ينصر المظلوم المعتدىٰ عليه؛ إذ لا يجوز أن يُعْتَدىٰ عليه بسبب انتصافه لنفسه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [الحج: ٦٠]، يعفو عن المذنبين فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم.[٢] تلك سنّته في الحياة تماماً، كما أن سنته في الكون أن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [الحج: ٦٠]. فكما تجري وتتداول هذه السنن -إزالة الظلمات بالنور، وإزالة النّور بالظلمات- في الطبيعة، فإنها تجري وتتداول في الإنسان سواء بسواء.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وإذا أذِن الله للذين آمنوا بالقتال ومعاقبة أعدائهم بمثل ما عُوقِبوا به، وردّ بغيهم؛ فلأن الله هو الحقّ، وهو الذي يدفع الباطل وأهله، والذين يدعوهم المشركون آلهة هم الباطل، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحج: ٦٢].

النَّجم الحادي عشر: في دليل الخلق والإبداع

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ

(١) قال الحافظ ابن كثير: يخبر -تعالىٰ- عمن خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده في الله ورسوله ونصرة لدين الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ [الحج: ٥٨] أي في الجهاد ﴿أَوۡ مَاتُواْ﴾ [الحج: ٥٨] أي حتف أنفهم من غير قتال علىٰ فرشهم، فقد حصلوا علىٰ الأجر الجزيل والثناء، انظر:

- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج٥، ص٤٤٧.

(٢) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٣٩٩.

لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج: ٦٣-٦٦].

وتعود السورة إلىٰ دليل الخلق والإبداع لتبسطه من جديد؛ فيقول -جلّ شأنه -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج: ٦٣]. فالماء الذي يُحيي به اللهُ الأرضَ بعد موتها دليلٌ علىٰ كونه هو الحق، وأنّ ما يدعون من دونه الباطل، فهم لا يستطيعون أن يجلبوا لهم رزقاً من السماء أو الأرض.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ [الحج: ٦٤]، فهو إذ يبسط هذه الأدلة، ويُريهم آياته في كل شيء، ليس لافتقاره لعبادتهم -تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً-، ولا في حاجته إليهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج: ٦٤].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٦٥] والذي سخّر لنا ما في الأرض، وسخّر الفلك تجري في البحر بأمره؛ لنستخرج منه حليةً ولحماً طرياً، ونحقق مصالح لا تتحقّق بغير ذلك. وهو -جلّ شأنه- لا آلهة الباطل الذي رفع السماء بغير عمدٍ ترونها، ومن يُمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه، فعل ذلك لرأفته بعباده، ولرحمته بهم، وهي رحمةٌ وسعت كل شيء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج: ٦٦]

وهو -جلّ شأنه- الذي أحياناً ثم يُميتنا ثم يُحيينا للخلود ويُنشأنا النشأة الآخرة، ومع ذلك فإنّ الإنسان -الذي ألِف الجحود، وركن إلىٰ النسيان- لكفور.

النَّجم الثاني عشر: عَوْدٌ إلىٰ الأُمة والـمَنْسَك

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: ٦٧]

في الآية تعزيزٌ لما ذهبنا إليه من أنّ عمود هذه السورة ومحورها الأساس هو التمكين للإسلام والقرآن ورسول الله ﷺ، ومن مكمّلات هذا التمكين قبلة هذه

الأُمَّة وتحديدها -الذي طال انتظار رسول الله ﷺ له -كما ذكر في سورة البقرة-، ثم تحديد منسكها الذي تمتاز به عن سواها، ومن مكمّلات هذا التمكين أيضاً نصرة رسول الله ﷺ على المشركين وأحلافهم من بقيّة أعدائه. هذه النصرة التي تقطع دابر الجدل الذي كثرت الإشارة إليه في هذه السورة في الآيات (٣، ٤، ٨-١٠، ١٩) حتى بلغت السورة تحديد المنسك، وتحديد الغاية منه في (٣٤، ٣٥).

وفي هذه الآية: أعلن -جلّ شأنه - أنّه لم يعد عند أعدائك يا رسول الله ما يُمكنهم من أن ينازعوك أو يجادلوك فيه، فانطلق واصدع بما تؤمر، ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧﴾ [الحج: ٦٧]، فإذا حَمَلَتْهم أحقادهم وبغيهم وحسدهم على شيءٍ من جدال فلا تلتفت إليهم، فليس لديهم ما يستحقّ منك التفاتاً ولا ردّاً، بل قُلْ: الله أعلم بما تعملون.

النَّجم الثالث عشر: الإعراض عن جدال المتعنتين

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٧١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٢﴾ [الحج: ٦٨-٧٢].

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ [الحج: ٦٨] مراءً وتعنتاً كما يفعله السفهاء، بعد اجتهادك أن لا يكون بينكم وبينهم تنازع وجدال، ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨﴾ [الحج: ٦٨] ولا تجادلهم وادفعهم بهذا القول، والمعنى: أن الله أعلم بأعمالكم وما تستحقون عليها من الجزاء، فهو مجازيكم به، وهذا وعيد وإنذار -ولكن برفق ولين وتأديب- يجابه به كل متعنت. ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩﴾ [الحج: ٦٩]، هذا خطاب من الله للمؤمنين والكافرين أي يفصل بينكم بالثواب والعقاب، وفي الوقت نفسه مسلاة لرسول الله ﷺ مما كان يلقى منهم. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ

وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحج: ٧٠]، أي كيف يخفى عليه ما تعملون، ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث في السموات والأرض ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ [الحج: ٧٠] الموجود فيهما ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ [الحج: ٧٠] في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [الحج: ٧٠]؛ أي علمه بجميع ذلك عليه يسير.[١]

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَ﴾ [الحج: ٧٢]، ولو كانوا باحثين عن الحقيقة وجادّين في طلب معرفتها لاستمعوا لها باستعدادٍ تام، وتهيؤ كامل، ورغبةٍ في معرفتها؛ لتنشرح صدورهم، وتُخبت قلوبهم، وتستعد أفئدتهم لقبول الحقّ الذي جاءت به آياتنا البيّنات، لكنهم -لما استقر عندهم من ضلالٍ وانحراف- بمجرد أن تُتلى عليهم الآيات -وهي آياتٌ بيّنات- تكفهرّ وجوههم، وينعكس ظلام أنفسهم وفساد قلوبهم عليها، بحيث يتحولون إلى ما يُشبه الكواسر من الحيوان، ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ [الحج: ٧٢]. ويهاجمونهم ويفتكون بهم لإسكات أصواتهم، والحيلولة دون دخول تلك الآيات البيّنات إلى قلوبهم، ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ﴾ [الحج: ٧٢]، هل أخبركم بشرٍّ من تلك المشاعر السيّئة التي تشعرون بها وأنتم تتلى عليكم آيات الله؟ إنها: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾ [الحج: ٧٢].

النَّجم الرابع عشر: ضَرْبُ مَثَلٍ للكُفر

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [الحج: ٧٣-٧٦].

ينتقل السياق إلى الاستدلال على ألوهية الله ووحدانيته، واتصافه بسائر صفات الكمال، بمثلٍ بسيط بين أيديهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ [الحج: ٧٣]

---

(١) النسفي، **تفسير النسفي مدارك التأويل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٣٤.

و«المثل» كلمة يسيرة تُدرج فيها معانٍ كثيرة من خبرات الأمم وتجاربها، وتلك الخبرات الكثيرة الوفيرة حينما توضع في كلمات معدودة يسيرة الحفظ سهلة التذكّر والرواية والشيوع، فإنّها تتحول إلىٰ وسيلةٍ معرفيّة وتعليميّة من أهم الوسائل، وللأمثال كثير من التقدير والاحترام والضوابط، ومن ضوابطها أنّه لا تغيّر من حال مضربها عن حال موردها؛ ولذلك ردّ الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ الكافرين حين استهانوا ببعض الأمثال، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦] فأمثال القرآن حقٌّ مثل سائر القرآن، وهي تُعَدُّ من أهم محاوره، وقد تناولت موضوعات كثيرة نجدها مبثوثة في آيات القرآن وسوره.(١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] والمثل الذي يدعو اللهُ الناسَ -في هذه الآية الكريمة- للتأمل فيه والتدبر هو أنّ هؤلاء الذين تزعمون أنّهم شركاء وآلهة يُنازعون الله في ألوهيّته وربوبيّته، اجمعوهم إن شئتم، واطلبوا منهم، لا أن يخلقوا بحاراً ولا أنهاراً ولا جبالاً تكون للأرض أوتاداً، ولا نجوماً تزيّن السماء بأنوارها، بل ذباباً، هذه الحشرة الصغيرة التي كثيراً ما تزعجكم فتذبّونها عن وجوهكم وأطعمتكم، وتحتمون منها، لكنّها لا تكفّ عن مضايقتكم، ولا تستطيعون ردّها، فلتجمعوا آلهتكم كلها، واسألوهم أن تخلق واحدةً من هذا الذباب، وكعادة القرآن في التنزُّل عند التحدّي،(٢) تنزّل من خلق الذباب إلىٰ استنقاذ ما يسلبهم منهم من طعامٍ أو غيره، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣] هذا الشيء الصغير الذي لا يُرىٰ بالعين المجرّدة، والذي يسلبه الذّباب منكم، سلوا آلهتكم المجتمعين هؤلاء أن يستنقذوه منه، فلن يستطيعوا: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] فكيف تعبدون هؤلاء

---

(١) راجع تفسيرنا في سورة البقرة لقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

(٢) كما تنزّل وهو يتحدىٰ بالقرآن من الإتيان بمثله إلىٰ الإتيان بعشر سور، إلىٰ الإتيان بسورةٍ واحدة.

الضعفاء؟ وكيف تُشركونهم بالله وهم على هذا القدر من العجز والضعف؟! لكنّ هؤلاء المشركين: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٤]، فلو قدروا الله حقّ قدره لأدركوا أنّ الله هو الحق، وأنّ كلّ ما يدعونه هو الباطل.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج: ٧٥-٧٦]

الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يختار من الملائكة رسلاً إلى أنبيائه، ويختار من الناس رسلاً لتبليغ رسالاته إلى الخلق، إن الله سميع لأقوال عباده، بصير بجميع الأشياء، وبمن يختاره للرسالة مِن خلقه. وهو سبحانه يعلم ما بين أيدي ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم، ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم، وإلى الله وحده ترجع الأمور.[1]

النَّجم الخامس عشر: ذكر بعض وصايا الله -تعالى- لعباده

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

[الحج: ٧٧- ٧٨]

يتّجه السياق إلى المؤمنين الذين تحقق لهم ثمرات إيمانهم، فيناديهم بذلك النداء المحبَّب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ [الحج: ٧٧] أي صلوا ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧] وحده ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧] بعامة دون تحديد؛ فهذه الرّسالة، رسالة الخير للبشريّة كافّة، ورسالة الرحمة للإنسانيّة جمعاء، ورسالة الأمن والهداية لخلق الله. افْعَلُوا الخَيْرَ كلّه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧] وحينما تأتي هذه الصيغة فإنّها لا تعني -في لسان القرآن- ما تعنيه في لسان البشر، بل تعني وعداً إلهيّاً بالفلاح والنجاح إذا حققّ المؤمنون ذلك.

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٣٤١.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨] يُناديهم -جلّ شأنه- بنداء الجهاد، الذي هو أهم وسائل التّمكين التي دارت آيات هذه السورة حوله وأدواته، ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ [الحج: ٧٨] واختاركم، فالذي يصطفي من الملائكة رسلاً ويصطفي من الناس رسلاً يجتبي من الأمم أمماً، وهو اجتباكم وجعلكم الأمّة الوسط، ومَنّ عليكم بالخيريّة، وجعلكم خير أمّة أُخرجت للناس. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨] فهذا الجهاد -وإن كانت له متطلباته التي قد يستصعبها البعض- لا يدخل تحت الحرج ولا المشقة، ولا التكليف بما لا يُطاق، فقد عرفتم التدافع مذ وُجدِّتم على ظهر هذه الأرض، ويمتاز الجهاد الذي كُلّفتم به بأنّه جهادٌ في سبيل الله، ولإعلاء كلمته، ورفع منار الخير والحق وإعمار هذه الأرض، وحماية المعابد -من الصوامع والبيع والصلوات والمساجد، والأماكن التي يُذكَر الله فيها كثيراً- من الهدم والتخريب، وأنتم على ملّة أبيكم إبراهيم. وأبوكم إبراهيم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج: ٧٨] مِن قبلُ في الكتب المنزلة السابقة ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨] وفي هذا القرآن، ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ﴾ [الحج: ٧٨] بعده ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، وتحملوا أمانة التمكين، ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الحج: ٧٨] ثقوا به ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ [الحج: ٧٨] ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ [الحج: ٧٨] هو، ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: ٧٨] لكم.(١)

(١) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص.٤٤٥

خاتمة

وفي نهاية المطاف يُسعدنا أن نلخّص معاني هذه السورة الكريمة -بعد الفراغ من تدبّرها-:

١- فهي سورةٌ جاءت بعد «سورة الأنبياء» في ترتيب المصحف؛ لتستكمل موضوع النبوّات، ولتؤكّد على اتفاق رسالات النبيّين والمرسلين كافة في الموضوع الأساس، ألا وهو البعث والنُّشور والجزاء يوم القيامة، ولتستدلّ عليه بدليل بدء الخلق، فإنَّ مَنْ فطر الخلق -لا على مثالٍ سابق- قادرٌ على أن يُعيده مرّةً أخرى، بل هو أهون عليه، وليؤكّد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على ذلك، وليبيّن خسران جميع أولئك الذين أنكروا الوحي، أو شكّكوا فيه، أو جادلوا فيه بغير علم ولا هدى، أو استكبروا عن الإيمان بالرسالة والرسول، أو عبدوا الله على حرف، أو شكّكوا في انتصار رسول الله ﷺ، كل هؤلاء الذين خاصموا المؤمنين في ربهم قُطّعت لهم ثيابٌ من نار، وهُيّئت لهم، ويُصب على رؤوسهم الحميم، والله -جلّ شأنه - يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات -في ذلك اليوم- جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، يُحلّون فيها من أساور من ذهب.

٢- وقد بيّنت السورة أهميّة المسجد الحرام، وكيف بوّأ اللهُ لإبراهيم مكان البيت، وعلاقة الحج بسائر جوانب الإيمان، وأهميته لإكمال بناء الأُمّة.

٣- ولما كان محور السورة الأساس، وعمودها الأكبر التمكين لرسول الله ﷺ، فقد تعرّضت لإذن الله للمظلومين بالقتال، ووعده لهم بالنصر، مع بيان ما يُتوقع منهم بعد أن يُمكّنهم الله من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

٤- التسرية عن رسول الله ﷺ بذكر النبيّين من قبله وما واجههم أقوامُهم به، وأنَّ الأنبياء والرسل من قبل رسول الله ﷺ كانت الشياطين تحاول أن تُلقي في أُمنيّات مَنْ يتمنى منهم إذا وقع منه التمني، وأنّ الله -تبارك وتعالى- كان ينسخ ما يُلقي الشيطان؛ ليضربه في وجهه، ثم يُحكم الله آياته، فلا مجال للشيطان أن يدسّ أنفه في أي شيءٍ يُوحيه الله لأنبيائه ورسله، أو يُدخل فيه ما يشاء، وفي ذلك ردٌّ على كل أولئك

المشركين الذين زعموا أنّ بعض الوحي تنزّلت به الشياطين، فردّ الله -تعالىٰ- ذلك، فقال: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١١] وليعلم الذين أوتوا العلم أنّ الوحي المنزّل علىٰ الأنبياء هو الحق من ربنا، فيؤمنوا به، فتخبت له قلوبهم، ولا يُضير الوحيَ ولا الأنبياءَ أنَّ الذين كفروا في مريةٍ وشك، فإنّ كفرهم وشكوكهم عذابٌ لهم دائمٌ إلىٰ يوم القيامة، وهناك يحكم -جلّ شأنه- بينهم، فيُلقي بالذين كفروا في النار، ويُدخل الذين هاجروا في سبيله ثم قُتلوا أو ماتوا مدخلاً يرضونه ويرضاه لهم.

٥- النعي علىٰ المشركين عبادتهم لتلك الأوثان التي لم يُنزّل الله بها سلطاناً، وليس لهم بها علم، وبيان أنَّ الذين كفروا إذا تُتلىٰ عليه آيات الله بيّنات تعرف في وجوههم المنكر، حتىٰ ليكادون يفتكون بالذين يتلون عليهم آيات الله، ثم يضرب الله -جلّ شأنه- لأولئك الكافرين مثلاً -وما أروع الأمثال القرآنيّة- بالذباب، ليُبيّن لهم أنَّ كل شركائهم الذين يؤلّهونهم ويُشركونهم مع الله في ألوهيّته وربوبيّته وسلطانه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، بل إنَّهم لو سلبهم الذباب شيئاً -علىٰ ضعفه وهوانه- فإنَّهم لن يستطيعوا أن يستنقذوه منه.

٦- دعوة المؤمنين إلىٰ أن يركعوا ويسجدوا ويعبدوا الله، ويفعلوا الخير، ويجاهدوا في الله -حق جهاده- علىٰ ما أنعم عليهم واجتباهم، وما جعل عليهم في الدين من حرج، وهداهم إلىٰ ملّة أبيهم إبراهيم الذي أسلم ودعا إلىٰ الإسلام وأوصىٰ بالإسلام سائر بنيه وذراريه، وأنَّ رسول الله ﷺ شهيدٌ علينا، وهو الذي يُهيّئنا أن نكون شهداء علىٰ الناس بعد أن مكّن الله لنا أن نكون خلفاء في الأرض، وأمرنا بالاستمرار بإقام الصلاة وإيتاء الذكاة والاعتصام بالله، الذي هو مولانا، وهو نعم المولىٰ ونعم النصير.

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

عدد آياتها: مائة وثماني عشرة.

عدد كلماتها: ألف وثمان وأربعون.

عدد حروفها: أربعة آلاف وثمانمائة وأربعون.

نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السّجدة، والله أعلم.

عمودها:

عمود سورة المؤمنون هو الإيمان، ودلائل الخلق، والرّسل وأقوامهم.

فإذا كانت سورة الأنبياء أوردت عشر قصص من قصص الأنبياء -وبعضهم رسل كذلك- فإنّ سورة (المؤمنون) قد اختصّت بذكر الرّسل وجوهر رسالتهم وهو التّوحيد، وصفات أولئك الّذين أُهِّلوا لأن يستجيبوا لهم وينفعلوا لرسالتهم ويتزكوا بها، ومن ثَمَّ يُؤَهَّلون للفلاح والنّجاح في مهامهم على الأرض وفي جزائهم في الدّار الأخرة، كما أنّها أبرزت التّدبر بوصفه هو المانع من الغفلة التي أُشير إليها في مقدمة سورة الأنبياء ويس وغيرهما، فهي مناسبة تماماً للسّورة التي نزلت قبلها وهي الأنبياء.

مناسبتها لما قبلها:

وأمّا مناسبتها لسورة الحج -التي جاءت قبلها في ترتيب المصحف-، فإنَّ سورة الحج ختمت بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: ٧٨] وأراد الله -جلّ شأنه- أن يبين يسر هذا الدّين وبساطته، وتيسير سبل الفلاح فيه للمؤمنين، وخلوه من أي حرج عليهم، والانتماء إلى ملة إبراهيم، والدّخول تحت شرف تسميته لملته بالمسلمين، وشهادة خاتم النّبين على أمته، وندبُها

لليشهادة علىٰ النّاس بعده، فصار الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزّكاة والاعتصام بالله، أمراً يتضمن شكر الله تعالىٰ علىٰ كل ذلك، وبيان أنّ ذلك هو وسيلة المحافظة علىٰ كل ما ذكر ثمُّ أجمل ذلك بقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨] فيأتي قوله تعالىٰ في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون: ١] بياناً لثمرة جهاده، وللدخول في المجتبين، وملة إبراهيم، وأمّة المسلمين التي هي أمّة الشّهادة بعد الرّسول ﷺ.

النَّجم الأول: صفات المؤمنين أهل الفلاح

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١-١١].

يبدأ هذا النَّجم ببيان أنّ الفلاح والنّجاح -مطلقاً- متحقق للمؤمنين ولذلك استعمل الفعل الماضي أفلح مسبوقاً بقد التي هي للتّحقيق، فالآية تفيد تحقق الفلاح ووقوعه يقيناً للمؤمنين، والفلاح هنا مطلق، فالفلاح في الدّنيا أن يتمكن الإنسان من الوفاء بعهده مع الله تعالىٰ والقيام بحق الاستخلاف، والنّهوض بالأمانة التي قبلها الإنسان، في حين أبت السّماوات والأرض والجبال أن تحملها، والوفاء بما يتطلبه هذا الابتلاء، والفلاح في الآخرة هو الفوز بالجنّة والخلود فيها والنّجاة من النّار والإبعاد عنها.

مفهوم الإيمان

كل هذا الفلاح والنّجاح منوط بالإيمان بالله جلّ شأنه، ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون: ١] والإيمان بالله -جلّ شأنه- هو مفهوم ضخم، بل لعله الأضخم في كتاب الله تعالىٰ، وقد تعرضت له آيات القرآن الكريم في مواضع كثيرة جدا، إمّا لبيانه، أو

بيان أثره، أو بيان أثر غيابه عن الفرد والمجتمع.

وفي تعرضنا لقضية الإيمان ينبغي التّأكيد على نقطتين:

الأولى: هي أن الإيمان بالمفهوم الصّحيح لا ينفصل عن العمل الصّالح كما ورد في الكثير من الآيات الكريمة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ... ﴾ [الحج: ٢٣].

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحج: ٥٠].

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحج: ٥٦].

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٧].

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

وغيرها الكثير من آيات الله -جلّ شأنه- التي تؤكد على الارتباط اللازم والتّام والمحتّم بين الإيمان الصّحيح والعمل الصّالح.

ثانيا: إنّ الإيمان مفصل في القرآن تفصيلاً شديداً من لدن الخالق -جلّ شأنه-، بحيث لا يحتاج إلى مزيد من البيان أو الإضافات من خارج الكتاب العزيز، فإن لم يتحقق للإنسان- أي إنسان مسلم أو غير مسلم - الإيمان من كتاب الله بدارسته وتدبره وتلاوته حق التّلاوة والعمل به وحده، فأنّى له أن يتحقق بما هو دونه من كلام البشر؟! وهذا ما قاله المولى تعالى عن من لم يتحقق له الإيمان من كلام الله وحده: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجاثية: ٦]، ولهذا فإنّ الكتاب العزيز قد فصّل في قضية الإيمان أيما تفصيل على مستويين كبيرين:

المستوى الأول: أن يعلمك القرآن ما هو الإيمان وكيف تتحلّى به.

المستوىٰ الثّاني: أن يعطيك القرآن ما تستطيع به أن تقيس مستوىٰ إيمانك بنفسك، وصدق هذا الإيمان ومدىٰ تحققه من عدمه، فتصلح ما بنفسك إن وجدت قصوراً قبل أن تلقىٰ الله تعالىٰ علىٰ هذا القصور.

ذلك لأنّ الإيمان -هو في أصله- مفهوم داخلي باطني لا يطّلع عليه غير الإنسان بذاته، بل وقد لا يستطيع الإنسان بذاته أن يبصر حقيقة إيمانه! لذلك أنعم الله علينا بما نستطيع به أن نختبر أنفسنا ونمتحنها ونحاسبها ونعالجها قبل أن توافينا المنية. وهذا هو في الحقيقة ما نفعله عادة في حياتنا اليومية، فالمريض مثلاً يأخذ الدّواء، ثم يترقب حدوث آثار تبين أنّ الدّواء فعَّال، فإن لم يحدث راجع الطّبيب فعدّل الدّواء، ثمّ ينتظر الأثر، وهكذا إلىٰ أن يتحقق الأثر المتوقع ويُشفىٰ المريض. فهذا في أمور المرض العضوي، أمّا المرض القلبي فلا يُعالجه إلّا دواء الإيمان، فيأخذ المريض هذا الدّواء، ثمّ يترقب آثار الدّواء عليه، فإن لم يجدها عدّل الدّواء بمراجعته عناصر إيمانه وتصحيحها، ثمّ يترقب الأثر علىٰ نفسه، وهكذا إلىٰ أن يتحقق الشّفاء بإذن الله تعالىٰ.

فعلىٰ المستوىٰ الأول -تحديد عناصر الإيمان- نجد مثالاً قوله تعالىٰ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فمن هذه الآية -وغيرها- يعلمنا الله تعالىٰ ما الذي ينبغي أن نؤمن به وهو الله -جلّ شأنه- والملائكة والكتب والرّسل، وبدراسة الكتاب الكريم سنجد باقي عناصر هذا الإيمان واضحة بينة، كما وجدناها في هذه الآية الكريمة.

وقد يقول أي مسلم: أنا مؤمن بهؤلاء علىٰ قدر فهمي وعقلي، فكيف أتأكد من أنّي مؤمن بالشّكل الصّحيح الذي يريده الله وأنّ فهمي وعقلي لم يخدعاني، فيصوران لي أنّي مؤمن حقاً ولكني في الحقيقة بعيد عنه؟ كما صُوِّر لأُناس أنّهم مصلحون وهم مفسدون، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١-١٢] وكما صَوَّرا -الفهم والعقل- لأُناس أنهم يحسنون صنعاً، لكنهم في الحقيقة غير ذلك، ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا

﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، كيف أعرف حقيقة نفسي حتىٰ لا تخدعني كما خدعت هؤلاء ؟! فهنا تأتي آيات العمل الصّالح التي لا تنفصل عن الإيمان الصّادق أبداً: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المؤمنون: ١].

١ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢].

٢ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣].

٣: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤].

٤ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

٥ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨].

٦ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩].

فهذه الأعمال الصّالحة -وغيرها الكثير- في كتاب الله تعالىٰ، وإتيان كل ما أمر الله به واجتناب كل ما نهىٰ عنه هو من العمل الصّالح، وهي التي تبين حقيقة الإيمان بالله تعالىٰ وهي مقياس ومعيار يقيس به كلّ إنسان نفسه ليقيمها ويحاسبها في الدّنيا؛ حيث لا تزال الفرصة متاحة للإحسان والتّقوىٰ والتّوبة والإنابة قبل أن يُحاسب في الآخرة. ونلاحظ أنّ هذه الأعمال مادية ظاهرة لكلّ إنسان أمام نفسه، ولا يهمنا إطلاقاً أن تظهر أمام النّاس فيُحاسبوا بعضهم بعضاً، فما لهذا نزل الكتاب الكريم، وإنما نزل ليتعلمه الجميع فيُحاسب كلّ إنسان نفسه ويهتم بشأنه، ويدع عنه حساب الآخرين ما لم يكن في موقف قضاء، وليست هذه الأعمال باطنية كالإيمان، فيستطيع كل إنسان بمراقبة أعماله أن يقيّم إيمانه الباطني غير المرئي بأعماله الظّاهرة المرئية.

وابحث بنفسك عن كلمة الإيمان ومشتقاتها في كتاب الله -مؤمنون، مؤمنين، آمنوا، يؤمنوا، آمن... إلخ- وستجد في سياقاتها ما يُعلمك الكثير عن الإيمان بذاته أو دلائله أو عواقبه الحميدة أو عواقب تركه السّيئة.

ومن العمل الصّالح البعد عن المنهيات التي ورد ذكرها في وصايا سورة الأنعام ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ

أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٢].

وما ذكر في سورة الفرقان وغيرها من قوله تعالىٰ:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٧].

فذلك كله يندرج تحت مفهوم الإيمان كما جاء القرآن الكريم به، لا كما جاءت به كتب علم الكلام، وما ندين لله به هو كلامه الذي نزل في كتابه الكريم، لأننا لن نُسأَل إلّا عنه، قال تعالىٰ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣-٤٤].

فالمفهوم القرآني للإيمان شيء، والمفاهيم اللغويّة -وما بُني عليها في علم الكلام- شيء آخر، والفلاح منوط بالإيمان -كما هو في القرآن المجيد- الشّامل لكل ما تقدم من أفعال القلب وأفعال الجوارح، وما يتعلق بالفرد وبالأسرة وبالملة، ولذلك جاء تفصيله وبيانه في هذه الآيات الكريمة من الآية ٢ إلىٰ الآية ١١.

مفهوم الصّلاة:

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢].

إنّ كل الأفعال والأقوال سواء أكانت من أفعال القلب أو الجوارح أو ما يعتقد ويربط القلب عليه، أو ما تمارسه الجوارح كل ذلك لا بد أن يُبنىٰ علىٰ الإيمان أولاً، فلا قيمة لعمل بلا إيمان، قال تعالىٰ: ﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرًا مَّحۡجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٍ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٢-٢٣] فهؤلاء المجرمين الّذين لم يؤمنوا، لا قيمة لكل أعمالهم التي قضوا أعمارهم فيها، فكلها ذهبت هباء منثوراً. فإقامة الصّلاة لا يكفي فيها أن تُؤدَّي حركاتها وظواهرها بشكل عام، وإنّما أصلها الخشوع، أو هي الصّلاة التي تؤدي بصاحبها إلىٰ الخشوع، فكلاهما يغذي الآخر.

وقد علّمنا المولىٰ -جلّ شأنه- كيف يكون الخشوع، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦] فهكذا تكون الصّلاة، وهذه أحد أهم فوائدها "تذكر لقاء الله".

فيترتب عليه باقي الفوائد عندئذ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه: ١٤] ونهيُ النّفس والآخرين عن الفحشاء والمنكر: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وتحقيق الاستعانة الحقة بالله وحده لا بغيره: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥] وهذه الاستعانة بالله وحده هي المنافية للشّرك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٣] وتحقيق جماعة المسلمين وترابطهم بالتّقابل يومياً خمس مرات علىٰ الطّاعة: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقد ذهب الكثير منهم أنّ (ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها)[1] وتذكُّر الله -تبارك وتعالىٰ- وقد ندب المصلين إلىٰ تدبر ما يقرؤون وإلىٰ فهمه والتّأثر به: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤] لأنّ القراءة لباب الصّلاة، وقال -جلّ شأنه-:

(١) العراقي، أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين (توفي: ٨٠٦هـ). **المغني عن حمل الأسفار**، اعتنىٰ به: أشرف عبد المقصود، الرياض: مكتبة طبرية، ط١، ١٩٩٥م، ج١، ص١١٦.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ ﴾ [طه: ١٤] وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفي نهيه عن اقتراب السّكران من الصّلاة قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] فالغافل الذي لا يعلم ما يقول –الذي سماه الله بالسّكران في هذا السّياق– خير له أن لا يصلي حتىٰ يفيق، ومن استغرقته هموم الدّنيا وانشغل في صلاته بالتّفكير فيها، فإنّه يغفل عن أنّه في حالة مناجاة لربه فخير له أن يترك الدّنيا وراءه حتىٰ يعلم ما يقول، فالله تعالىٰ يأمره بعدم قربها، وهو علىٰ هذه الحالة، وكأنّ القيام بها علىٰ هذه الحالة مساوية لعدمها.

لقد أمرنا الله –جلّ شأنه– أن نقوم لله قانتين والقنوت دعاء ومناجاة وإخبات وخضوع وخشوع لربنا وإلهنا –جلّ شأنه– ولذلك فإنّ ما يحتاجه المسلمون اليوم هو إدراك أهمية هذه المعاني وإعطاؤها حقها من الاهتمام. فالخشوع حالة نفسية كالخوف والفزع، والطّمأنينة والهلع، والرّضا والغضب، لا تحدث من فراغ، ولا توجد دون تربية وتدريب لتحدث بها التّزكية ولتستدعي الفلاح. وكان البعض يدربون تلامذتهم علىٰ ذلك، فيأمرونهم باستحضار عظمة الله تعالىٰ حين يقومون إلىٰ التّطهر وضوءاً أو اغتسالاً، ومحاولة فهم العلاقة بين الماء والحياة، وبين الماء وأجسادهم، فإذا لم يكن هناك ماء ولجأوا إلىٰ التّيمم، فلا بد من تذكر العلاقة بين التّراب والإنسان، وآدم والتّراب، ونفخ الرّوح والتّراب. فإذا استحضر ذلك في ذهنه، وعلم أنّه قد خلق من تراب، وأنّ الله تعالىٰ قد جعل من الماء كل شيء حي، استشعر عظمة الله وهو يمارس الوضوء أو الاغتسال واستشعر علاقته بمقومات الكون الماء والتّراب، فإذا كان الماء يذكر بالحياة، فإنّ التّراب يذكر بالمصير والمآل: ﴿ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥ ﴾ [طه: ٥٥]، فإذا انتهىٰ من وضوئه تذكر أنّ هذه الطّهارة تعني عهداً جديداً بينه وبين الله –جلّ شأنه– (أن يتزكىٰ فلا يتدنس مرة أخرىٰ، وأن يتطهر فلا يتنجس بعد ذلك، وأن يخلص دينه لله تعالىٰ فلا تشوبه شائبة بعد ذلك) فإذا جاء –وهو بكل هذا الحضور– واستقبل القبلة ذكّر نفسه بأبي الأنبياء إبراهيم الذي قلّب في السّموات وفي الأرض الطّرف والقلب وانتهىٰ بعد ذلك بأنَّ وجه قلبه وعقله ووجدانه لله رب العالمين ﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

مفهوم اللَغو:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣].

وردت كلمة اللغو في كتاب الله عدة مرات، فقال تعالىٰ في وصف الصّالحين: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ ... ﴾ [المائدة: ٨٩]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٢].

وعن حال المؤمنين في الجنّة، قال تعالىٰ: ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم: ٦٢] وقال تعالىٰ: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الطور: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النبأ: ٣٥].

وعن حال الكافرين في تعاملهم مع الوحي، قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦].

فمن مجمل هذه الآيات نجد اللغو هو الكلام الذي لا فائدة له ولا جدوىٰ منه، فهو الكلام الذي يُحارب به الحق، ويبتعد عن الصّالحين المؤمنين، وهو الكلام الذي يقع فيه الجاهلون والكافرون المعاندون، وهو الكلام الذي لا يسمعه أهل الجنّة في الجنّة. فيعلمنا المولىٰ -تبارك وتعالىٰ- أن نترك هذا النّوع من الكلام، وليكن كلّ كلامِنا جَدّاً ومفيداً ولِنُعرض عن الهزل والسّقيم منه.

إنّ لهذه الآية الكريمة أهمية كبرىٰ نلمسها في واقعنا الحالي الذي نرىٰ فيه الآن كيف يكثر الجدل والنّقاش الشّديد في أمور تافهة لا قيمة لها، ونترك الجدل في الأمور التي أمرنا بها: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥]، والأدهىٰ أن يكون نقاشاً بين اثنين أو أكثر، لن يؤدي انتصار أي منهم فيه إلىٰ شيء! فسواء اقتنع بعضهم

أو كلهم بالكلام أو لم يقتنع أحد، فلن يؤدي هذا إلىٰ أي تغيير في واقعهم وحياتهم وحياة مجتمعاتهم، لأنّ أصل الكلام لا قيمة له ولا فائدة منه. فنجد من يتناقشون ويحتدم بينهم النّقاش عن مباراة لكرة القدم، أو عن اللاعب الفلاني الذي فعل كذا، أو حول شخصيات سينمائية أو غنائية أو سياسية أو ما إلىٰ ذلك، فهذا يقول إنه جيد ويدافع عنه، وهذا يقول إنه سيء ويهاجمه، حتىٰ يؤدي الخلاف بينهم إلىٰ الشّجار والتّناحر، بل قد يؤدي إلىٰ شقاق دائم بين أفراد البيت الواحد! وكل هذا بسبب كلام لا فائدة منه، فسواء كان هذا الرّجل -محور النّقاش- جيداً أو سيئاً فلن يؤدي ذلك إلىٰ أي أثر علىٰ حياتهم في الدّنيا أو الآخرة ! فسبحان الله، كيف يضيّع أناس كثر ساعات أعمارهم في لغو لا طائل ولا جدوىٰ منه!

فلو التزمنا قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥] لحافظنا علىٰ أعمارنا وطاقاتنا وحَسُنَت الصّلات بيننا واستخدمناها فيما هو نافع ومفيد لنا في الدّنيا والآخرة.

وقد يصل اللغو إلىٰ درجة اللغو في الدّين والقرآن الكريم، وهو أسوأ أنواعه إذا كان متعمدا للصّد عن سبيل الله، فهذا فعل المجرمين الكافرين كما سماهم الله تعالىٰ، فيعملون ما نسميه اليوم "الشّوشرة"علىٰ القرآن وعلىٰ معلميه وقارئيه؛ فبدلاً من تعلمه ومقابلة الحُجة بالحُجة، تراهم يعمدون إلىٰ نقد ملابس هذا الشّخص مثلاً، أو أخلاق أسرته، أو ارتفاع ثمن بيته، أو غلو سيارته، أو سوء صوته، إلىٰ غير ذلك من أنواع الشّوشرة أو اللغو لصرف النّاس عن أصل الموضوع، وهو كلام الله تعالىٰ، وكم فعل ذلك المشركون والكافرون من قبلُ مع رسول الله ﷺ، من رفع الصّوت أمامه وهو يقرأ القرآن لكي لا يسمعه أحد، أو يأتون بالطّبول والأصوات المختلفة لكي لا يسمعه النّاس فيؤمنوا بكلام الله تعالىٰ ويتبعوه.

ومن جميل ما قيل في اللغو "وأعلم أنّ هذا -أي الإعراض عن اللغو- أدب عظيم من آداب المعاملة مع بعض النّاس وهم الطّبقة غير المحترمة لأنّ أهل اللغو ليسوا بمرتبة التّوقير، فالإعراض عن لغوهم رَبْءٌ عن التّسفل معهم."(١)

(١) ابن عاشور، **تفسير التّحرير والتّنوير**، مرجع سابق، ج١٨، ص١١.

مفهوم الزّكاة

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤].

بعد أن جاهد المؤمن بعقله وبدنه ووجدانه في إقامته الصّلاة، فإنّه يكون أقدر علىٰ المجاهدة بماله لإيتاء الزكاة، ولا شك في أنّ زكاة المال داخلة بكل تفاصيلها في هذه الآية، لكن فاصلة الآية "**فَاعِلُونَ**"، تومئ إلىٰ كل ما يندرج تحت مفهوم الزّكاة والتّزكية، فهم يزكّون أنفسهم ويطهرون قلوبهم، فيفعلون كلَّ بر من فعل القلوب أو الجوارح، ويزكّون كل جارحة، ويطهرون كل ما حولهم، فالزّكاة شاملة لجميع الفضائل، ألم يقل الله -جلّ شأنه- عن والدي الغلام الذي قتله العبد الصّالح مترجيا أن يرزق بما هو خير منه زكاة: ﴿ وَأَمَّا الْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف: ٨٠-٨١].

فالزّكاة تنقية الأنفس، والأبدان، والعقول، والبيوت، والثّقافات، والحضارات، ونظم الحياة، فكلّ ذلك في حاجة إلىٰ الزّكاة والتّزكية، ليكون من الذاكرين لله والذاكرات، وليكون جديراً بأن يعيش في ظله الذين هم في صلاتهم خاشعون، ثمّ يقول -جلّ شأنه-: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥-٦]، وكلمة حافظون تعني حفظ الفروج عن كل ما يتنافىٰ مع ما خُلقت لأجله، وأن تصان الفروج إلّا عن السّبيل المشروع الذي ذكره الله -جلّ شأنه-، وكلمة "**حَافِظُونَ**" فيها إيماء لكل تلك الشّذوذات التي يسقط فيها أولئك الضّعفاء حين يتساهلون مع فروجهم، فيكون هناك انحرافات لا تخفىٰ من لواط وسحاق واستمناء وعري واقتراب من الفواحش أو تعرض لها، وحين نربطها بقوله -جلّ شأنه-: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢]. تقربوا لا تعني الزّنا نفسه، ففي الزّنا نفسه قال -جلّ شأنه-: ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان: ٦٨] أمّا هنا ففيه دعوة إلىٰ الابتعاد عن ذلك الفعل، وعن كل ما يمكن أن يقرب إليه، وأن يقوم الإنسان بكل ما يحفظ الفروج ويحول بينها وبين أن تبتذل، أو أن يتعرض للمحرّم، ولذلك فإن هذه الآية الكريمة حين نربطها بآيات الكتاب الأخرىٰ، شاملة

في لوازمها للأمر بكل ما يحصّن الفروج ويحفظها، ويحول بينها وبين الابتذال وتقريبها من الزّنا، والوقوع فيما حرم الله -جلّ شأنه- وتحصينها، فأحكام الاستئذان عند دخول الإنسان لغير بيته، بل استئذان أهل البيت إلىٰ الدّخول إلىٰ غرف مساكنهم منهي عنه في أوقات معينة، وهي أوقات مظنة مخالطة الأزواج لأزواجهم، والنّهي عن النّظر، والأمر بغض البصر، والنّهي عن الخلوة واتخاذ الأخدان، ويدخل فيها ما نشاهده اليوم من منكرات الإعلان عن بضائع وما شاكلها، وتهييج الشّهوات بأي شكل من الأشكال كلّ ذلك يعد مما أمرنا باجتنابه في قوله حافظون.

فلا يكفي أن لا يقع الإنسان بالزّنا أو اللّواط، بل لا بد من أن يبتعد عنها، ولا يقترب من أي شيء يمكن أن يقربه من الوقوع في ذلك، أو يقلل من استنكاره لتلك الفاحشة، أو يصورها وكأنّها أمر طبيعي، فيمتد الأمر إلىٰ المفاهيم والأسماء والصّور والمباني والشّوارع والطّرقات وما إلىٰ ذلك، فإن حضارة الإسلام مختلفة عن غيرها، وقد عرف فقهنا الإسلامي أحكاماً سميت بأحكام البِنَاء، نصت علىٰ منع السّكان من أن يجعلوا في بيوتهم ما يسمح بالكشف عما يدور فيها من أهل البيت أو السّاكنين فيه، وهناك قرىٰ إسلامية ومدن لا يسلط المعنيون بالآثار عليها الأضواء، ليعرف الفرق بين مباني أمّة ذات حضارة تعرف ما هو عورة فتتجنب كشف العورات، وتعرف ما ليس بعورة إلىٰ غير ذلك.

إننا نعيش في ظل ثقافة وحضارة هجين، أثّرت في ثقافتنا وحضارتنا ورؤيتنا لديننا، وكل ذلك يحتاج منّا إلىٰ مراجعة دقيقة يقوم بها علماء متخصصون، يستطيعون أن يدركوا المعاني بلغة الإيحاء إلىٰ جانب اللغات العادية، فهناك معانٍ كثيرة لا تُقال، بل يوحي بها شياطين الإنسان والجن بعضهم إلىٰ بعض لمقاومة الفضائل وتهيئة النّاس لاختراق الشّيطان لعقولهم وقلوبهم وثقافاتهم وحضاراتهم.

ولم يستثن الله من كل العلاقات المحتملة التي تتصل بفروج النّاس إلّا الأزواج، أمّا ملك اليمين فقد زال، فلسنا في حاجة إلىٰ الحديث عنه، ولا يفترض أن يعود، وقد حرّر الله البشرية منه. وقال -جلّ شأنه- بعد ذلك: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٧] أي المعتدون كما قال -جلّ شأنه-: ﴿ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ ﴾ [الطلاق: ١].

ثمّ ينتقل السّياق إلىٰ الأمانة والعهد، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨]، فالنّاس يتعاملون، يبيعون ويشترون، ويتعاطون كلّ شيء بينهم بائتمان بعضهم للبعض الآخر، واحترام أماناتهم وعهودهم.

فلو أنّ النّاس ساد فيهم خيانة الأمانة وعدم احترام العهود وانتشر ذلك فيهم، فذلك يعني أنّه لا يمكن إقامة مجتمع ولا بناء جماعة ولا أمّة ولا نهوض بأية مهمة ندب الله البشرية لها، ولذلك فقد أكّد -جلّ شأنه- في هذه الآية وفي آيات أخرىٰ علىٰ ضرورة حفظ الأمانة، وقال -جلّ شأنه-: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨] وهو نص صارم قاطع، لا يجعل مؤمن ولا مؤمنة يجترأ علىٰ خيانة الأمانة أو عدم احترامها، كيف وقد أكَّد سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أمره للبشر أن يفوا ويؤدوا الأمانات إلىٰ أهلها، وقدم ذلك علىٰ الحكم بالعدل، كأنّه -جلّ شأنه- يريد أن ينبه هذا الإنسان إلىٰ أنّ حفظ الأمانة ينبغي أن يكون خلقاً وسلوكاً، وجزءاً من طبيعة الإنسان لا يفرط فيه ولا يتجاوزه، ولا يحتاج في ذلك إلىٰ اللجوء إلىٰ القضاء وإلىٰ التّحاكم ليسترد الإنسان أمانته، أو ليحمل الآخرين علىٰ الوفاء بعهودهم معه.

والأمانة هي ما يؤتمن الإنسان عليه مما ليس له، وينبغي عليه رده لمن ائتمنه عليه عند طلبه، ولا يحق له أن يتصرف فيه أي تصرف إلّا ما يأذن به المؤتمن أو يطلبه، وهي عامة شاملة تشمل الأمور المادية والمعنوية كذلك، يقال: ائتمنه علىٰ سره فخانه"إذا أفشىٰ به، ويقال: "ائتمنه علىٰ ماله فخانه" إذا تصرف فيه أو مد إليه يده دون إذن من صاحبه، وجمع الله كلمة الأمانات هنا لتشملها كلها بجميع أنواعها المعنوية والمادية، وهي ضرورة للبشرية وحاجة ماسة لمنظومة الحياة لا يستغنىٰ عنها.

والأمانة أعم من العهد، فكل عهد أمانة، وليست كلّ أمانة عهداً، وإن كان هناك بينهما جوامع كثيرة تتناول كلّ ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه.

وقد ائتمننا الله -جلَّ شأنه- علىٰ جوارحنا وأجسادنا وقلوبنا وعقولنا وأبنائنا وأهلينا وجميع النّعم التي خوَّلها الله لنا، فكلها أمانات يأمرنا الله -جلَّ شأنه- أن نؤديها إلىٰ أهلها، وقد يطلق علىٰ بعض الأمانات ودائع، لأنّها شيء يدعه المؤتمن عند من يأتمنه، ولذلك قال الشّاعر:

وما المال والأهلون إلّا ودائع ولا بدَّ يوماً أن تُرد الودائعُ

والله -تبارك وتعالىٰ- قد أنعم علينا بنعم ظاهرة وباطنة، وكلها ودائع وأمانات استخلفنا -جلّ شأنه- فيها، وعلينا أن نرعاها حق رعايتها، وأن لا نستخدمها إلّا فيما خُلقت له، ووفقاً لغايات الواهب المؤتمن -جلّ شأنه-، ومن هنا كان هناك حرام وحلال، فالذي أحلَّ لنا أن ننظر إلىٰ الماء والأرض، والزّرع والضّرع، ونحمد الله ونشكره علىٰ ما خوَّلنا وما ائتمننا عليه، فإنّه سبحانه قد حرم علينا النّظر إلىٰ المحرمات التي ليس لنا سبيل شرعي إليها، والذي أمرنا باستماع ما جاء به الأنبياء والرّسل نهانا عن استماع اللغو واللهو والكذب والغيبة والنّميمة وما إلىٰ ذلك، فحين خلق ما خلق وأورثنا هذه الجوارح لنستعملها في ما أمرنا به لا فيما نهانا عنه، فاستعمالها فيما نهينا عنه خيانة للأمانة.

والمال الذي رُزقناه أمانة، علينا أن ننفقه فيما استُخلفنا لأجله، فإذا أنفقناه في محرم أو منهي عنه فهذه خيانة للأمانة وعدم رعاية لها.

وقد استخلفنا الله في الأرض وفي سائر خيراتها وعدّها أمانة علينا أن نرعاها، فكل ما يؤدي إلىٰ تبديد مواردها أو استعمالها في غير ما خلقت له يدور بين التّفريط والإفراط وبين الخيانة وعدم الرّعاية، فالتّفريط في المياه والتّبذير فيها خيانة للأمانة، وإهمال الأرض وعدم إعمارها وإحيائها واستثمار خيراتها خيانة للأمانة، وتلويث البيئة وإفسادها خيانة للأمانة، وإهمال حيواناتها التي تحتاج إلىٰ رعاية الإنسان خيانة للأمانة؛ إذ قال رسول الله ﷺ "دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فلم تُطْعِمْهَا ولم تَدَعْهَا تَأْكُلُ من خَشَاشِ الأرض، "[١] فإدخال هذه المرأة النّار كان بسبب حبس قطتها حتىٰ الموت،

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب بدء الخلق، بَاب خَمْسٌ من الدَّوَابِّ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ في الْحَرَمِ، حديث رقم (٣٣١٨)، ص٦٣٣.

ليس لأنَّ الله تعالىٰ لم يفرق بين المرأة والقطة وسوّىٰ بينهما، بل لأنَّ المرأة خانت أمانتها، فهي واحد من الجنس البشري المؤتمن علىٰ هذه الأرض باختياره ورضىً، فيُعد حبسها للهرة التي لم تزود بقدرات عقلية أو بدنية تُمكّنها من البُعد عن الخطر وحماية نفسها خيانةً للأمانة، فإنّ تلك المرأة كان عليها أن تعين تلك القطة علىٰ الحياة، لأنَّ القطة وغيرها مما هو علىٰ وجه الأرض أو في باطنها جزء مما استخلف البشر فيه، وأوكل إليهم واجب رعايته، فأي تفريط منهم بهذا الواجب خيانة للأمانة، فالأمانة بعمومها وشمولها عامة شاملة لحقوق الله وحقوق العباد ولكل ما اؤتمن الإنسان عليه، وهو كل ما في هذه الحياة. فالأمانة هي البر كله والدّين كله، فنجد قوله تعالىٰ في الأمانة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢-٧٣] فالأمانة هي حقاً الدّين كله، يعذب الله تعالىٰ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات لعدم حملهم ومراعاتهم هذه الأمانة التي حمّلوها لكونهم جزءاً من الإنسانية، ويتوب الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين والمؤمنات الذين جاهدوا في حمل الأمانة ورعوها حق رعايتها، فعبّر -جلّ شأنه- هنا بالتّوبة رحمة منه وفضل علىٰ هؤلاء المؤمنين لأنّهم لن يبلغوا الكمال مهما فعلوا في حملهم الأمانة.

فالأمانة معنىً شامل عام لكل ما أوكل إلىٰ شخص لفعله أو صيانته، وقد تكون هذه الوكالة من الله العلي القدير -جلّ شأنه- أو من إنسان لآخر.

فالله تعالىٰ أوكل إلينا وعهد إلينا بحفظ الدّين وعبادته وحده، وعدم اتباع الشّيطان: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦٠-٦١] فهي أمانة حمّلها الله للإنسان باختياره هو نفسه.

وكذلك يحمِّل بعضنا بعضاً الأمانة، قال تعالىٰ ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨] من الرّعاية، والرّعاية مستوىٰ يتجاوز مجرد الحفظ، فحفظ الأمانة أن توضع في حِرْز يحفظ به مثلها، وتصان عن ما يؤدي إلىٰ ضياعها، لكن الآية الكريمة وصفتهم بالرّعاية لأماناتهم وذلك يعني أنّه يرعىٰ الأمانة والعهد ويعتني بحفظها وصيانتها وإبقائها علىٰ ما كانت عليه عند إيداعها حتىٰ لا تقل قيمتها ويتعاهدها علىٰ الدّوام خوفاً عليها من الضّياع الجزئي أو الكلي أو التّلف الجزئي أو الكلي، فهي توحي للإنسان المؤمن بأنَّ المتوقع منه أن يكون راعياً للأمانة، فيربيها ويرعاها ويحفظها بمثل ما يحفظ به نفسه وماله وأهله وولده وكذلك العهد.

وقد يقول قائل: إنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- قد نهىٰ عن استعمال فعل ﴿رَٰعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] في آية سورة البقرة، فكيف يستخدمها في هذا السّياق للثّناء علىٰ الذين يقومون برعاية أماناتهم؟! فنقول: إنّه -جلّ شأنه- قد نهىٰ عن استعمال لفظ محتمل لمعنيين "الرّعاية"بمعنىٰ تعاهد الشيّء بما يصونه ويحفظه والنّظر إليه بعين الحفظ والاهتمام، وقد تستخدم بالمعنىٰ البعيد وهو "الرّعونة"، واليهود الذين عرفوا بتحريف الكلم عن مواضعه وليِّ ألسنتهم طعنا في رسول الله ﷺ وفي الدّين كانوا يريدون بقولهم ﴿رَٰعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] المعنىٰ البعيد السّيّء الذي فيه معنىٰ الرّعونة، فأمر الله -جلّ شأنه- المؤمنين أن ينزّهوا لغة تخاطبهم مع رسول الله ﷺ عن الألفاظ المحتملة لأي معنىٰ فيه إساءة للنبي الكريم. أمّا في هذا السّياق، فهي لا تعني إلّا معاني الحفظ والتّعاون الدّائم المستمر لحفظه ودوامه، واستعماله في هذا السّياق.

وقد اشتملت الآية علىٰ الأمانات والعهود، والعقود مواثيق في حاجة إلىٰ أن يتعاهدها أطرافها بالحفظ والصّيانة والحيلولة دون التّفريط بها بحال من الأحوال، وهي أبلغ بكثير مما لو قال "حافظون" بدلاً من قوله تعالىٰ: ﴿رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨] فسبحان الله رب العالمين.

وكما بدأ الله هذه الخصال بالصّلاة الخاشعة ختمها -جلّ شأنه- مرة أخرىٰ بالصّلاة وضرورة المحافظة عليها، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩]، وبذلك يقول للبشر الصّلاة هي التي تعينكم وتساعدكم علىٰ حفظ أنفسكم وعقولكم وأديانكم وأموالكم وأعراضكم، وكلّ ما هو ضروري أو في موقع الحاجة أو في موقع

تكميلي، لذلك اجعلوا من الصّلاة سياجاً لتأمينه والمحافظة عليه، فلا أمانة لمن لا إيمان له، ولا إيمان دون المحافظة على الصّلاة والخشوع فيها، ولن يكون المرء من الوارثين للفردوس إلّا إذا عمل على تحقيق الخشوع في الصّلاة والمحافظة عليها، وهي محافظة عامة شاملة تعني المحافظة على أدائها في أوقاتها بكل شروطها وأركانها وفرائضها وعدم التّفريط بشيء من ذلك. فكأنّ ذلك تنبيه على أنّ مجرد الصّلاة وحدها لا تكفي لوراثة الفردوس، أو لكي يُسلك العبد في عداد أولئك الوارثين، إلا إذا كان المصلي مقيماً للصّلاة قانتاً فيها، خاشعاً لله أثناء أدائها محافظاً عليها بكل شروطها وهيئاتها بحيث تتصف صلاته بمثل صفة صلاة رسول الله ﷺ ويكون هو الأسوة في أدائها والقيام بها، لتؤتي ثمارها وآثارها في شخصية الإنسان المسلم وبنائها والتّفريق بينه وبين غيره: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٩] فالمحافظة على الصّلاة وإقامتها دعامة الدّين، وركنه وسنامه.

وجاء السّياق بكلمة "على" ولم يستعمل "اللام" أو غيرها مما يمكن استعماله هنا، ليفيد نوعاً من التّنبيه إلى أنّ أفعال الصّلاة من سجود وركوع وما إليها وإن بدت بأنّها تعني الرّكوع والذّلة بين يدي الله ولوجه الكريم، إلا أنها في حقيقتها تعني السّمو والارتفاع وعلو الشّأن في الدّنيا والآخرة، فناسب أن تستعمل "على" كحرف جر في هذه الآية، فلم يقل "لصلواتهم يحافظون" وإنما: ﴿ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩] فالصّلاة وسيلة المؤمن إلى التّزكية والطّهارة والفلاح في الدّارين.

وخُتم هذا النَّجم -الذي خُصِّص لبيان أعمال المؤمنين- بأنّ هذا النّوع من المؤمنين هم الذين يستحقون أن يرثوا الجنة التي وعد المؤمنون، وأن يخلدوا فيها فلا خطر يتهددهم بالخروج منها أو عدم الخلد فيها، ولعلّ في ذلك إيماءً بأنّ الذين يرثون هذا الفردوس الأعلى لن يكونوا معرضين إلى ما تعرض له أبواهما من استزلال الشّيطان ووسوسته، وإلى تخويف الإنسان من التّحول وعدم الخلود، فيصبح الخلود همّاً، يضيع عليه الاستمتاع بالجنة ونعيمها، فيطمئنه القرآن الكريم إلى أنّه وارث لهذا الفردوس ولن يخرج منه، بل هو خالد فيه خلوداً أبدياً، وهذه هي النّتيجة السّعيدة التي تنتظر

الخاشعين في الصّلاة، وهذا قمة الفلاح ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

النَّجم الثّاني: بعض الأدلة على وجود الله تعالى

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۢ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ٢٢].

إذا كانت السّورة قد استهلت بالإعلان عن تحقق فلاح المؤمنين، فإن السّياق ينتقل بنا إلى إقامة الدّليل على وجود الله الذي يؤمن به هؤلاء المؤمنون، فيأتي القرآن المجيد بدّليل الخلق -خلق الإنسان ذاته- ليذكر بالأمر بالقراءة الأولى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾ [العلق: ١-٢] فدليل الخلق دليل ظاهر ملموس، لا يستطيع عاقل أن يلغيه أو ينفيه أو يتمرد عليه، فهو من أهم الأدلة التي وظفها القرآن للدّعوة إلى الإيمان، وقوله -جلّ شأنه- في بيان أصل الخلقة، وهو سؤال كثيراً ما يحير العقول التي لم يهدها الله إلى الإيمان، ويفرض عليها هذا التّساؤل الخطير الذي يُعدّ واحداً من الأسئلة الكبرى أو النّهائية والذي مضمونه "من أنا؟" و"من أين جئتُ؟" و"إلى أين سأذهب؟". فيقول الله بصيغة التوكيد والتحقيق مع نسبة الخلق له -جل شأنه-: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢﴾ [المؤمنون: ١٢] وخصّ السّلالة بالذّكر -وهي جزء من الطّين- للإيماء لأولئك الكافرين بالمعرفة الدّقيقة لهذا الخلق وكيفيته، وللعناصر التي خُلق الإنسان منها، لكي لا يكون عند أحد منهم ريب في أنّ من يقول هذا لا يمكن أن يكون إلّا الخالق نفسه، لأنّه يتحدث عن أمور لا يمكن أن

يعرفها أو يعلم بها إلّا من خَلَق، فهو خلاصة من طين، وهذا الكلام عن أصل الخلق في سياق بيان صفات المؤمنين جاء لإعطائهم الأدلة التي يبينون بمقتضاها أنهم لم يؤمنوا بناء على التّقليد أو اتباع الآباء والأجداد، بل آمنوا عن بينة وعن علم، وعن دليل قائم على ذكر تفاصيل دقيقة لا يعلمها إلّا من خلق، وهو اللطيف الخبير.

والآية هنا تتحدث عن أصل الخلق -آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- الذي أصله التّراب، ولذلك حين غالى المغالون في السّيد المسيح ونسبوه إلى الله -جلّ شأنه- نسبة مرفوضة غير مقبولة، قال جلَّ شأنه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩] فقد خُلق آدم من غير أبوين؛ خلق من تراب من سلالة من طين، من حمأ مسنون، وكل ذلك راجع إلى الطّين، فهو الأب والأم بالنّسبة لآدم، ولذلك فإنّ الله -تبارك وتعالى- قال: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩] فهو بديل عن السّبب الطّبيعي بالتّقاء الذّكر بالأنثى فالحمل فالولادة، فالأمر الإلهي هنا تكويني وسببي. ثمّ تنتهي مرحلة خلق آدم من سلالة من طين، ومن دون أبوين إلى خلق النّفس الثّانية وهي حواء من آدم نفسه، ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١] لتكون أيضاً خلقاً في حاجة إلى فعل التّكوين والإنشاء والخلق بقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩] أمّا بعد ذلك فتبدأ السّنن الإلهية وفي مقدمتها السّببية تؤدي دورها فيما بثه الله -جلَّ شأنه- منهما من رجال ونساء، قال تعالى: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١] فتصبح الأرحام هي المستقر والمستودع وذلك في إطار سنة السّببية المتصلة بالصّيرورة، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٣] النّطفة -بضم النون- كلمة وردت في القرآن الكريم مرات عديدة في قضية الخلق، فهي تطلق على ماء الرّجل وتستعمل -أيضاً- بفتح النّون لحبات اللؤلؤ، والتعبير بقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾ [المؤمنون: ١٣] إيماء إلى أن النطفة قد لا تحمل ما يلقح الأنثى وتُكوِّن أمشاجاً تشتمل على الحياة منها، ولذلك حينما أريد خلق النّطفة علقة قال: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فالنّطفة في حد ذاتها لا تتحول إلى علقة إلّا بخلق جديد من الله ذاته، لأنّ العلقة تركّب تركيباً من حياة من الذّكور وبويضات الإناث، وكأنّ الله -تبارك وتعالى- أراد أن يقطع السّبيل أمام فِرْية التّطور التي حوّلها العلم المنقطع عن

الله لعقود كثيرة إلىٰ مسلّمة علميّة، ثمّ انتقل لتحويل العلقة إلىٰ مضغة، فكبرت لتصبح بمثابة مضغة أي لقمة تكونت من ذلك المزيج، وهذه المضغة منها المخلق ومنها غير المخلق، كما في الآية الكريمة:

﴿مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ [الحج: ٥] وذلك كله خاضع لعملية التّخليق الإلهي، فالنّطفة تتحول بخلق الله -جلّ شأنه- إلىٰ عظام أو هيكل عظمي بعد أن رسمت صورتها علىٰ المضغة،[١] ثمّ يكسو الله ﴿ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] لا يربطه بأمه إلّا ذلك الحبل السّرّي الذي يتغذىٰ منه تمهيداً لانفصاله عنها وخروجه من القرار المكين، ليخرج إلىٰ الحياة الدّنيا خلقاً آخر مختلفاً عن أمّه وعن أبيه، منفصلاً عنهما، وله أجهزته التي تخصّه في التّنفس والطّعام والشّراب وما إلىٰ ذلك. وفي كل تلك المراحل نجد قدرة الله -جلّ شأنه- وعنايته ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]، وكأنّ الآية تضمر بعد ذلك كل مراحل الحياة الدّنيا من الطّفولة إلىٰ الصِّبا، فالمراهقة والشّباب فالكهولة إلىٰ الشّيخوخة، ثم الرّد إلىٰ أرذل العمر إن لم يسبق عليه الموت حتىٰ يبلغ الأجل المسمىٰ الخاص به كذلك. ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦] بعد أن تعيشوا ما شاء الله لكم أن تعيشوا في هذه الحياة التي يتوقع منكم أن تقوموا فيها بالوفاء بعهد الله -جلّ شأنه-، والقيام بمهام الاستخلاف، وحفظ أمانة حرية الاختيار التي اخترتموها بأنفسكم، والنّجاح في اختبار الابتلاء الذي ابتليتم به، ونيل جزائكم بعد ذلك، فالموت هو أمر يقيني بالنّسبة لكم، كل نفس من أنفسكم ذائقته دون استثناء، والذي تفتتح فيه مرحلة الدّار الآخرة التي هي الحياة الحقيقية ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: ٦٤] لذلك كان المتوقع من الإنسان أن يؤمن بالبعث بعد الموت والحشر والحساب والجزاء والذّهاب إلىٰ الجنة والخلود فيها أو النّار والخلود فيها والعياذ بالله. وإذا أتم الله -جلّ شأنه- دليل الخلق بهذا الشّكل المعجز الرّائع، أردفه بدليل ثان متصل به، ولكنه يأخذ من الكون مادته وليس من الإنسان، فبعد أن

(١) تستطيع أن تراها بوضوح علىٰ الجنين السّقط بعد أربعة أشهر من الحمل، وكأنّها صورة منقوشة لإنسان بكامل هيئته، فتبارك الله أحسن الخالقين.

بين لنا آيات الأنفس، انتقل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلىٰ آيات الآفاق وليجعل هذه الآفاق، متصلة بالإنسان فيشعر الإنسان أنّها خُلقت له ولصالحه، قال -جلّ شأنه-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٧] وهذه الآية تستدعي قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢] فالسّماء سقف مرفوع محفوظ، خلقها الله من غير عمد ترونها، وحفظها من كل شيطان مارد، ودفعهم عنها بالشّهب التي تنتظر كل من يحاول الاقتراب منها، أو معرفة ما فيها تطفلاً من دون إذن من الله تعالىٰ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ [الجن: ٨] ومثل السّماء الأرض والكون كله يقوم به الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يغفل عن خلقه، لأنّ الخلق به يقوم، ومنه -جلّ شأنه- يستمد هذا الخلق الحياة. ثمّ يلفت النّظر إلىٰ العلاقة بين السّماء والأرض، فالسّماء بعيدة عن الإنسان، وقد لا يبهره بديع صنعها وقد يغفل عن عجائب تكوينها وخلقها، فتنزلت الآيات إلىٰ مستوىٰ يدركه الإنسان، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٨] فأنزلنا ماء للشرب والزّراعة وإحياء مواتها واستخراج كنوزها، فأسكّناه في الأرض التي لولا قدرة الله تعالىٰ وإرادته لما وجد الماء له في الأرض مستقراً، وعبّر هنا بـ "الإسكان" لأنّه الوسيلة الأساسية في الحياة، والتي لو لم يكن الماء متوافراً في الأرض لما قامت الحياة، ولما استقرت، ولما استطاع الإنسان العيش فيها، فلا ينضب الماء ما دامت الحياة قائمة، لأنّه مصدر الحياة الأساس، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠] فهو ساكن في الأرض ما سكنها الإنسان، وهو باق في الأرض حتىٰ قيام السّاعة، والإنسان مطالب بأن يتذكر هذه النّعمة التي أنعم الله بها عليه علىٰ الدّوام، فهي أصل خلقته ومصدر حياته وبقائه. وكما أوجده الله تعالىٰ في الأرض، فإنّه قادر علىٰ أن يذهب به، ولن يستطيع البشر أن يأتوا به مرة أخرىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠] ولذلك علّمنا رسول الله ﷺ أن نقول عند تلاوة هذه الآية: "الله يأتينا به وهو ناصر معين". ويبين الله تعالىٰ لنا بعد ذلك النّعم المرتبطة بالماء، والتي توجد بوجوده وتنعدم إذا انعدم، فقال تعالىٰ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ

سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ
كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٩-٢٢].

بعد أن بين الله لنا أصل الخلق والأطوار التي مر بها خلق الإنسان والكون، ليستدل بها علىٰ أنّ من فعل ذلك كله قادر علىٰ أن يعيدكم إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ، وقادر علىٰ أن ينشئ النّشأة الأخرىٰ، بل هي بمقاييسكم الدّنيوية أهون عليه، فهو قد أبدع الخلق كله وأوجده من عدم لا علىٰ مثال سابق. فيفترض لو أنّ لكم عقولاً تعقلون بها أو تدركون، أن تفهموا أنّ الذي أنشأ ذلك من عدم وأوجده دون مثال سابق أقدر علىٰ أن يعيده مرة أخرىٰ، وله سبحانه المثل الأعلىٰ، فِلِمَ تستبعدون البعث والنّشور وتنكرون الدّار الآخرة وتنظرون إلىٰ حالة الموت أنّها عدم نهائي لا بعث بعده ولا نشور!!

النَّجم الثالث: وحدة خطاب الرّسل

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا
بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا
كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ
فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم
مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ
أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ
﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا
تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم
مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ
﴿٣٧﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾
قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا

تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣-٥٠].

تكرّم الله -جلّ شأنه- بعد ذلك كله بالتّذكير بواحد من أقدم النّبيين والمرسلين بل لعله أقدمهم جميعاً، وكل من جاؤوا بعده كانوا من ذريته وذرية من حمل الله معه، وهو نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد ذكَّر الله بمعاناته مع أمثال هؤلاء الذين يعاني منهم عبد الله ورسوله محمد ﷺ وبيّن الجوهر والأصل الواحد لرسالات النّبيين كافة، وبساطته ويسره وتضافر الأدلة عليه، فقال -جلّ شأنه-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣] أي تتقون غضبه وعقابه والنّار التي أعدها للكافرين به النّافين لربوبيته وألوهيته، المستكبرين عن عبادته، فإذا بهؤلاء السّفهاء -الذين يعتبرون الملأ من قومه- يولون وجوههم ليهربوا من الإلزام الذي فاضت به الأدلة التي قدمها نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على صدق دعوته، وأنّه لا إله إلّا الله، وأنّه وحده -جلّ شأنه- المستحق لعبادتهم، وبدلاً من أن يحاولوا محاورته في القضية الأساس التي جاء بها، انصرفوا للحديث عن بشريته ومماثلته لهم، ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤] غير مدركين أنّه أمر طبيعي، وما كان ينبغي أن يكون موضع حديث أو تساؤل أو حوار، فقد أراد الله أن ييسر عملية التّواصل معكم وليسهل عليكم التّعلم منه، واتباعه وإعادة صياغة عقولكم ونفوسكم بالوحي الذي أنزل عليه، إذا بهم يتجاهلون ذلك كله ليشغلوا أنفسهم بأنّه بشر مثلهم، ومن ثمّ فهو يريد أن يتفضل عليهم، ويبرز فيهم، ولا يرون له حقا في ذلك، وأنّ الله -جلّ شأنه- حسب زعمهم - لو شاء أن يبعث أحداً إليهم بمضمون أية رسالة لأنزل ملائكة.

وقد ردَّ الله تعالىٰ عليهم ذلك في قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]، فلو أنّ الخلق من

الملائكة، لكان لزاماً أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، ولكن لأنّ الخلق من البشر، فكان لزاماً أن يكون الرّسول من البشر، لأنّ الملائكة عالم مغاير وخلق آخر، ولو بعث الله تعالىٰ رسولاً من الملائكة لجعله رجلاً، إذ لا يمكنه التّواصل والتّلاقي معهم، فكيف ستعرفونه إن كان ملكاً ومتشبهاً بالبشر، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٩] لكي يتواصل معهم ويوصل إليهم ما يريد الله تعالىٰ إيصاله لهم من الهدىٰ والنّور. ولو أنزل الله ملائكة لقضي الأمر، لأنّهم إنّما ينزلون -بإذن ربهم- للقيام بمهام يحددها الخالق العظيم -جلّ شأنه-، ومنها أن تنزل الملائكة بعذاب الاستئصال للقرىٰ الظّالمة وأهلها بعد أن يبلغ بهم العتو والاستكبار عن تقبل رسالات الله مبلغه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام: ٨] فيحيق بهم العذاب ولا ينظرون للعمل علىٰ تجنبه.

وقد بدا من جدالهم هذا أنّهم يؤمنون بالملائكة وبنزولها من السّماء، فمن آمن بجزء من الغيب مثل الملائكة فلماذا يعجز عن الإيمان بخالق الغيب والشّهادة ! ولا يستطيع أن يصل إلىٰ تلك المدارك. وينبه الله تعالىٰ إلىٰ قضية مهمة تدل علىٰ سخف عقول هؤلاء المشركين وهي التعلق بالآبائية ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤]، والآبائية هي اتباع منهج الآباء، وشيوع القصص الخرافية في مجتمعاتهم عن الملائكة وأنّهم بنات الله، هي التي جعلتهم يتحدثون عن وجود الملائكة حديث المؤمن بوجودهم، ويتمنون أن يرسل الله إليهم رسلاً منهم. ولكي يتخلصوا من عناء التّفكير في أمر هذا الرّسول الكريم وما جاءهم به من ربهم، يلجأون إلىٰ ذلك السّلاح -الذي كثيراً ما لجأوا إليه- وهو اتهام الرّسول بالجنون ومطالبة قومهم بالانتظار حتىٰ ينجلي الأمر ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٥] أي انتظروا إلىٰ أن يأتي الوقت الذي تنكشف فيه حقيقته ويظهر صدق الباطل الذي يزعمونه، وهنا يدعو نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربه بأن ينصره عليهم، وأن يعينه علىٰ كشف كذبهم وبيان ضلالهم وافترائهم، وكأنّ هذه الآيات تختصر لنا معاناة سيدنا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه عبر تسعة قرون ونصف، هي مدة لبثه فيهم، فدعىٰ ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٦]، والعجب من سيدنا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خاصة إذا قارناه بسيدنا يونس

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. فسيدنا نوح قد صبر على قومه قروناً متطاولةً دون يأس أو كلل أو تذمُّر، ولكنه حين بلغ الأمر مداه توجّه بالشّكوى والدّعاء إلى اللطيف الخبير -جلّ شأنه- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ [نوح: ٥-١٠] ولكنهم في النّهاية عصوا سيدنا نوح ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [نوح: ٢١-٢٤]، فاستيأس منهم سيدنا نوح بعد أن أدى رسالته وبلّغها، ولكن سنة الله تعالى في كونه نافذة، فبعد أن يشعر الرّسل باليأس يأتي نصر الله لهم، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوسف: ١١٠]، وهو درس نفيس يجب أن يعيه كل داعية إلى الله تعالى، فمهما تعب وبذل فلن يبلغ معشار سيدنا نوح في دعوته قومه ومدة مكثه فيهم، ومع ذلك تمّ تكذيبه ومعاداته والسّخرية منه، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [هود: ٣٦]، فدعى ربه بتطهير الأرض منهم ومن شرورهم وطغيانهم وكفرهم بالله، فقال: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح: ٢٦-٢٧] و﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٦] أي بين صدقي وكذبهم، وانتصر لي ببيان أني نبيك ورسولك، وليقع بهم ما أمرتني أن أتوعدهم به، وذلك يعني أن إهلاكهم صار إعلاناً لانتصار النّبي الرّسول عليهم بإنجاز كل ما توعّدهم به، وإثبات سوء عاقبتهم نتيجة رفضهم لتصديقه، فاستجاب الله تعالى لدعائه وأمره بصناعة الفُلك على عينه ووحيه، وهنا يتدخل الله -جلّ شأنه- فيوحي إلى عبده ورسوله أن يصنع الفُلك، قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٧] فهنا إشارة إلى أنّ الله -جلّ شأنه- قد علّمه صناعة الفلك، وكيف يجعل منه فُلْكاً لا يغرق

رغم الأمواج العاتية، ويقاوم أكثر التّحديات البحرية سوءا مهما بلغ سوء الأحوال الجوية. فإذا جاء أمرنا كقوله –جلّ شأنه–: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: ٨٥] وبلغوا أجلهم الذي أجّله لهم نزل أمر الله تعالىٰ بإهلاكهم، وعلامة ذلك أن يفور التّنور بالماء، والتّنور هو ذلك المصنوع من الطّين والذي يوقد بالنّار لعمل الخبز، فجعل الله ذلك علامة أخيرة أن يفور التّنور الذي كان الأصل فيه أن يسخن بالنّار، فيتحول إلىٰ نبع ماء يلتقي بمياه الأمطار العاتية ليغرق الله بها القوم، وهذه هي ساعة الصّفر لسيدنا نوح، ليبدأ بإدخال مَنْ آمن معه وأهله –إلّا من سبق عليهم القول، وهما زوجته وابنه– إلىٰ السّفينة، ومن كل الحيوانات التي تيسّر للإنسان الحياة علىٰ وجه الأرض، ونهاه أن يخاطبه أو يسأله لبعض الّذين ظلموا وأشركوا بالله تعالىٰ ومنهم ابنه، فأولئك كلهم سيكونون من المغرقين، ولقد أسهبت بعض كتب التّفسير في الحديث عن تفاصيل هويات ركاب السّفينة محاولين أن يجعلوا كل من وما علىٰ الأرض نسلاً لأولئك الرّكاب، ولسنا بحاجة إلىٰ ذلك كله، فلو أنّه في علم الله –جلّ شأنه– ما يفيد بذكر تلك التّفاصيل لأنزلها إلينا في كتابه العزيز، أما وقد سكت عنها –جلّ شأنه– فنسكت عنها أيضاً تأدباً معه –سبحانه– والتزاماً بكلامه فقط.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٨] هنا يذكّر الله تعالىٰ سيدنا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن يحمد الله –جلّ شأنه– علىٰ نعمته في إنجائه ومن معه مما وقع بالقوم الظّالمين من الغرق، وأمره –وقد اجتاح الطّوفان الأرض التي كان قومه يعيشون فيها وأنفق سنوات عمره يدعوهم إلىٰ الإيمان– أن يسأل الله أن يبدله بذلك المنزل منزلاً مباركاً، وعلّمه قائلاً: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢٩] فهو مصدر البركة، وهو المتفضّل بها وحده، لذلك فالحمد لا بد أن يُحصر به، فهو الذي يهلك الظّالمين، وينجي المؤمنين، وينصر الأنبياء والمرسلين، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيي عن بينة، فلا السّفينة لها الفضل في إنجائك ولا نوح له الفضل في إنجاء المؤمنين معه، فالفضل كلُّه لله.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون: ٣٠]، ففي قصة سيدنا نوح التي وردت هنا وفي غيرها من السّور آيات عظيمة ودلالات كبيرة علىٰ عظمة قدرته –جلّ

شأنه- وبديع صنعه -تبارك وتعالىٰ-، ومن هذه الدّلالات تسخير كل ما في الكون، فتلك المياه العظيمة التي نشأ عنها الطّوفان جزء من خلقه وآياته لا تحدث ولا تجتمع إلّا بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الذي أمرها أن تفيض ففاضت إلىٰ أن كان الطّوفان، ثمّ أمرها أن تغيض فغاضت ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ .. ﴾ [هود: ٤٤]، وهناك دلالة عظيمة علىٰ أنّ الكفر والشّرك مهما طغىٰ وعلا في الأرض فإنّ الله -جلّ شأنه- قادر علىٰ إنهائه، ونصر المؤمنين.

﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١ ﴾ [المؤمنون: ٣١]، وهم قوم هود، والقرن هنا أي الأمة.

﴿ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، كعادته -سبحانه- في رسله أن يكونوا من القوم أنفسهم، وأن يكونوا معروفين لديهم بكريم الصّفات وطيب الأخلاق وحُسن السّيرة والسّلوك، ليس فيهم ما ينفر منهم طبعاً أو عقلاً ليكونوا أقدر علىٰ إقامة أحسن العلائق بمن يدعونهم ويبلغونهم رسالات الله -جلّ شأنه-، فالرّسول منهم، معروف بالحرص عليهم، والرّغبة في النّصح لهم، والرّسالة سهلة تتألف من عنصر واحد ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢ ﴾ [المؤمنون: ٣٢] فهو يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده ليخرجوا من الظّلمات -ظلمات الشّرك-، وأن يتقوا النّار والعذاب الأليم بتلك العبادة لله وحده لا شريك له.

هنا يبين الله -جلّ شأنه- أنّ للتّقوىٰ والتّحقق بها وبلوغ غايتها سبيل واحد هو عبادة الله وحده.

فماذا كان جواب قومه علىٰ هذه الدّعوة السّهلة في كلماتها، الكبيرة في معانيها وآثارها؟

لقد تصدت نخبة القوم والملأ الذين يتصدرون دائماً للحديث باسم الشّعوب وفرض وصايتهم عليها مع أنّهم جميعاً سواء في الكفر، وقالوا: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤ ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤] فجعلوا اتّباع الرّسل خسراناً، ولو كان لهم ذرّة من عقل لجعلوا عبادة الأصنام وعدم الإيمان بالله وعدم الالتزام بالتّقوىٰ والتّحلّي بها هي الخسران المبين بعينه، لكنهم لضلالهم وشِركهم قرنوا الخسران بالإيمان، بدلاً من أن يقرنوه بالكفر والشّرك وإنكار البعث والنّشور، لكن كفرهم وجحودهم وخوفهم من أن يكون كلام هؤلاء

المرسلين صحيحاً فيغير حياتهم الظّالمة التي اعتادوها بالكامل، لذلك عمدوا إلىٰ الإنكار وفقط، ثمّ يحاولون أن يناقشوا بعض الأمور التّفصيلية، وكأنّهم قد قدّموا حجتهم لنفي الأمور الإجمالية وفرغوا منها وبدأوا يتكلمون في الأمور التّفصيلية، علىٰ الرغم من أن الواقع المشهود لهم يبين أنّ أمور النّاس لا تنتظم إلّا بوجود قيادات وجند، وأتباع ومتبوعين، وعمال وفلاحين، وأصحاب أموال ومزارعين، وإلّا فلن يتحقق عمران ولن تقوم حياة، وهم أنفسهم -بوصفهم ملأ لأقوامهم- يمثلون جزءاً من تلك الظّواهر التي لا بد من أن يطيع بشرا فيها بشراً مثله في تنظيم شؤون الحياة ! فلِمَ قبلتم هذا في أمور الحياة وترفضونه من الأنبياء والمرسلين في شؤون الدّار الآخرة؟!

ثمّ يلتفتون بغباء لمناقشة الحشر في الدّار الآخرة والحساب والبعث والنّشور فيتسائلون وهم منكرون جاحدون ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٥] أي هل حقاً يعدكم الرّسول أنّكم مخرجون من باطن الأرض من قبوركم وأجداثكم فتعاد لكم الحياة وتحاسبون! ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٦]، تأكيداً لاستبعادهم لما جاء به المرسلون. ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٧] فهنا عبروا عن عقيدتهم الضّالة المنحرفة، يموت بعضنا ويحيا الآخرون وما نحن بمبعوثين، فالموت في معتقدهم الفاسد عدم، لا تعقبه حياة أخرىٰ عندهم، ثمّ يعودون إلىٰ الإساءة للنّبي ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٨] فهي كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف: ١٧] فمؤمن بمعنىٰ مصدق، ونلحظ هنا قمة التّناقض في كلامهم، فإذا كنتم مؤمنين أنّ هناك إلهاً، فلماذا تكذّبون بأنّه سيحاسبكم؟! فهؤلاء لا عقل لهم، أو أنّهم ينكرون ما تمليه عليهم عقولهم ويستكبرون استكباراً، فعادوا يركزون علىٰ شخص الرّسول الكريم لاتهامه بالكذب ولنسف الرّسالة بالكامل، ولتقويض ما يدعو إليه مثل: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] فهنا بلغ الرّسول حد اليأس منهم فاستنصر بالله ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٦]، ومن المعلوم أنّ آيات كثيرة قد وردت تؤكد أنّ الرّسول لا يبلغ هذا المستوىٰ إلّا بعد أن يرىٰ تحجر قلوب القوم، وبلوغها مرحلة تفرض اليأس من

إمكان فتحها، -آنذاك- ينادي ربه -تبارك وتعالىٰ- وهو السّميع البصير معلناً أنّه قد فشل في هداية القوم وإقناعهم بقبول الرّسالة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠] -فآنذاك- يأتي النّصر لرسل الله -جلّ شأنه- علىٰ هؤلاء بإهلاكهم بأية وسيلة، تجعل منهم مثلاً وعبرةً ودرساً لمن يطلع علىٰ قصتهم وتاريخهم.

وهؤلاء - أي قوم هود - حينما طلب هود من ربه أن ينصره عليهم، ويثبت صدقه وافترائهم وجحودهم دعىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- أن ينصره عليهم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون: ٤٠] ولكن ذلك ليس بالوقت الكافي لكي يتداركوا ما فات أو يتوبوا إلىٰ رشدهم، والنّدامة هنا ليست ندامة توبة، بل هي ندامة حسرة وألَم، تزيد في إحساسهم بالهزيمة والخسارة والحسرة والنّدامة، فكان جزاؤهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤١]، وهذه الصّيحة وإن اختلفوا في تفسيرها لكنها صيحة واحدة كما قال تعالىٰ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٩] فهي كافية لإهلاكهم وتدميرهم أيّاً كانوا، وبيان ضآلة شأنهم وتفاهة قوتهم التي كانت مصدر غرورهم واستكبارهم، صيحة واحدة فإذا هم مبلسون خامدون يستحيلون إلىٰ غثاء، ويتحولون إلىٰ مادة للقصص، وخبر من الأخبار التي يتداولها النّاس، وهذه الصّيحة إنّما هي بالحق لا بالباطل، تختلف عن سائر ما عرفوه من صيحات، فهي تدمرهم بالحق والعدل، وقد تنوعت المهلكات التي ينزلها الله تعالىٰ علىٰ الأمم الطّاغية الضّالة، قال تعالىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠] والحاصبة هي الرّيح العاصفة التي فيها حجارة صغيرة مهلكة، ومن أرسل عليهم ذلك هم قوم عاد وقوم هود، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة: ٥-٦] وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ١٣] وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ

﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٦-١٧] وبما أنّ صالحاً وهوداً كانت أقوامهم تعيش في بلاد العرب، ويبدو أنّ الذّاكرة التّاريخية للعرب كانت تحتفظ ببعض القصص والأساطير عن تلك الشّعوب، وتمر على قراها وبقايا آثارها وهي في جزيرتهم، أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينذرهم ويخوّفهم ويبين لهم أنّهم إن لم يّتبعوا رسول الله ﷺ ويسمعوا له ويطيعوا، فإنّ مصائرهم مثل مصائر أولئك الذين جعلهم الله أحاديث ومزَّقهم كل ممزق. أمّا الغثاء فهو ما يكتسحه السّيل من عيدان وأوراق شجر يابسة وبقايا حيوانات نافقة مما لا قيمة له، ولا يمكن أن يصنع منه شيء، ولا يستفاد به بأي شكل من الأشكال، وقد ورد في القرآن الكريم في موضع آخر بسورة الأعلى، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الأعلى: ٥]. أمّا قوله: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤] فهذه الكلمة تحديداً ترد في القرآن الكريم لتنبه أنّها مثل سحقاً ودماراً، فهي بمنزلة اللعن، ففيها معنى الإبعاد عن الخير والجنة ورضاء الله –جلّ شأنه– واستعمال ﴿بُعْدًا﴾ هنا فيه إشارة إلى أنّ هذا البعد بعدٌ مطلق في الدّنيا وفي الآخرة، فكما بعدوا في الدّنيا عن الهداية وحيل بينهم وبين ما يشتهون من بقاء في الحياة الدّنيا سيحال بينهم وبين نعيم الآخرة، والله أعلم.

وقد وردت ﴿بُعْدًا﴾ في مواطن أربعة أُخر قال تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٨] وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ٩٥]، فهذه المواضع كلها تماثل سحقاً، من حيث إنّ فيها لعنة وطرداً وإبعاداً وإذلالاً وإيماءً إلى الإهمال التّام لهؤلاء الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

ثم تأتي قصة ثالثة بعد القصتين السابقتين فيقول –جلّ شأنه–: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المؤمنون: ٤٢] فإذا عصاه قوم وأهلكهم فلا يعني ذلك أنّه قد أفنى الصّالحين من عباده، فإنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخلق أجيالاً متعاقبة وقروناً آخرين، وقد يكون فيهم المتقون، كما أنّه –جلّ شأنه– بيّن لهؤلاء أنّه إن عصيتم وأهلكتم فلا يعني ذلك أنكم قد سبقتم آجالكم، ولا أنّ بإمكانكم التّأخر عنها حين تأتي؛ لأنّه ﴿مَا تَسْبِقُ

مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٣] ويبين الله -جلّ شأنه- أنّه لن يظلم الآخرين الذين يخلفون أقواماً قد عصوا وأهلكوا ومضوا فيمنعوا عنهم الرّسل، فالله -جلّ شأنه- ليس بظلام للعبيد ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: ١١٧]، فجَرَت حكمته وسابق فضله بأن يرسل إلىٰ كل أمّة رسولاً، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٦]، وجَرَت حكمته أن لا يعذب إلّا بعد أن يرسل الرّسل مبشرين ومنذرين ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، فهم تَتْرَىٰ بحيث يكون لكل قرية منذرها ومع ذلك فقد استمر النّاس بالتّكذيب فأتبع بعضهم بعضاً بالهلاك بعد أن يؤدي الرّسل ما ائتمنهم الله عليه من أمانة ورسالة، ويلج أولئك في طغيانهم، وهنا يجعلهم الله أحاديث لا يُرىٰ منهم عين ولا أثر، ولا يبقىٰ منهم إلّا الذّكر السّيّء والدّروس التي يعتبر منها الأقلون، ويهملها الأكثرون ليسقطوا فيما سقط فيه من سبقهم، فبُعداً وهلاكاً لقوم لا يؤمنون، ولعنةً لهم بما كانوا يكفرون، وسحقاً لهم بما كانوا يستكبرون علىٰ أنبيائهم، فيقع هلاكهم بالتّعذيب بشكل من الأشكال التي ذكرنا آنفاً كما ذكرها الله تعالىٰ.

ثمّ ينتقل السّياق بنا إلىٰ قصة سيدنا موسىٰ وأخيه هارون اللذين أُرسلا إلىٰ فرعون ومَلَئه، فلم يكن حظهم بأحسن من حظوظ أمم سبقتهم، ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٩] ويمكن أن يكون ما أراد الله بالآيات هي ما أنزله الله عليه من كتاب وصحف حملت الدّين والشّريعة، ويمكن أن يكون السّلطان المبين، هو النّسق الغيبي الذي أوتيه سيدنا موسىٰ، بحيث يضرب هو بعصاه الحجر فيتفجر عيوناً، ويضرب بعصاه البحر فينفلق، ويكون كل فرق كالطّود العظيم، ويسير ببني إسرائيل في البحر لا يخاف دركاً ولا يخشىٰ، ويمكن أن تكون هذه الآيات هي الآيات

التسع التي نص الله عليها بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١]، فبماذا واجهه قومه مع كل هذه الآيات والسّلطان؟ لقد واجهوه بالإنكار والاستكبار وكانوا قوماً عالين، ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وبهذا الاستكبار والاستعلاء المقيت ضلّ فرعون وغوىٰ وشاركه ملؤه وقومه الضّلالة والغواية، فكذبوهما -أي موسىٰ وهارون- فكانوا من المهلكين بالغرق الذي أهلك به قوم نوح، ولو عقلوا وأدركوا أنّ الله آتىٰ موسىٰ الكتاب لهدايتهم، وأنّهم لو اتبعوا موسىٰ وهارون لكانوا من المهتدين النّاجين، ولم يكونوا من المهلكين الغارقين فبقوا علىٰ ماهم فيه من الكفر فاستحقوا الهلاك، فلم ينتفعوا بدعوىٰ موسىٰ وهارون، ولا بالكتاب الذي أنزل علىٰ موسىٰ، ولا بالصّحف والألواح وما فيها من الآيات والمواعظ.

ثمّ يقودنا السّياق إلىٰ قصة سيدنا عيسىٰ وأمّه مع بني إسرائيل كذلك، وهناك شيء من التّناسب بينها وبين قصة موسىٰ وهارون الذين حملا نبوة واحدة ورسالة واحدة إلىٰ فرعون وملَئِه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، وفي هذا السّياق لم يتحدث القرآن عن الآيات الكثيرة التي جاء بها عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وبالسّلطان المبين الذي أتىٰ به، ولكن طويَ داخل النّص ليكون ابن مريم وأمّه معاً آية، وكأنّها الآية الأولىٰ لعيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بأن خلقه من أم دون أب وأنطقه وهو صغير، لم يؤت مثله القدرة علىٰ النّطق، ثمّ أجرىٰ الله علىٰ يديه خوارق عديدة منها: إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتىٰ.

وحكمة المشاركة بين عيسىٰ وأمّه في كونهما آية واحدة، فإنّنا أمام والدة ومولود، والدة يفترض في الحالة الطّبيعية أن لا تحمل من دون زوج، وولد المفترض أن لا يُحمل به ولا يُوضع من دون أب، وهما آية سابقة للنبوة، فقبل أن يبلغ سن النّبوة كان آية، وكأنّ القرآن الكريم أراد أن ينبه هؤلاء الذين شكّكوا بنبوته ورسالته وطهارة أمّه ونقاء أصله أنّ ذلك مظهر من مظاهر قدرة الله -جلّ شأنه-، وأراد -تبارك وتعالىٰ- أن يجعل منه إرهاصاً لما سيظهره الله علىٰ يديه من آيات وخوارق، ﴿ وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٠] -لعلها هضبة القدس والله أعلم- فالرّبوة هي المكان العالي والأرض المرتفعة وذلك ينطبق علىٰ إيلياء -أي بيت المقدس- وفيها ما

يساعد على استقرار الإنسان من رزق وفاكهة وزيتون وفيها المياه مما يجعلها دار إقامة مناسبة، استطاع أن يقضي فيها سنوات ما قبل نبوته ونزول الوحي عليه.

النَّجم الرابع: مواقف المدعوين مع أنبيائهم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ
أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرۡهُمۡ
فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ
(٥٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ
لَا يُشۡرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ
وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٦٢) بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي
غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ
(٦٤) لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ
(٦٦) مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٦٨) أَمۡ لَمۡ
يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ (٧٠)
وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن
ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ (٧١) أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ (٧٤) ۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم
مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)
حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ (٧٧)﴾ [المؤمنون: ٥١-٧٧].

يبين الله -جلّ شأنه- أنّ الرّسل ومن أرسل إليهم مطالبون معاً بالاستجابة لنداء الله -جلّ شأنه- فوُّجه النّداء إليهم بعد الفراغ من القصص المتقدمة للأنبياء الذين ذُكروا في هذه السّورة، فجاء قوله -جلّ شأنه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (٥١)﴾ [المؤمنون: ٥١] فأنتم بشر تأكلون الطّعام لكنكم رسل تقدمون الأسوة للبشرية في أن لا تأكلوا إلّا الطّيبات، والطّيب هو الطّعام الحلال النّافع للجسم، فهو طيب من حيث مصدره، وحكم تناوله وفوائده، ومن ثمَّ فإنّهم مدعوون كغيرهم من البشر لأن يأكلوا ويشربوا ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ

وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢] فالطّعام والشّراب مما يتقوىٰ الإنسان به علىٰ القيام بواجباته، فهم مندوبون علىٰ القيام بالطّيبات ومدعوون بأن يعملوا صالحاً مع الإيمان بأنّ علم الله –جلّ شأنه– محيط بما يعملون ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥١] لا تخفىٰ عليه خافية ولا حركة ولا سكنة.

وفي الآية إشارة إلىٰ عصمة الأنبياء، فهم لا يأكلون إلّا طيباً ولا يعملون إلّا صالحاً، والطّيبات من الطّعام هي التي تطيب النّفس به وتحبه ولا تجزع أو تنفر منه، وعكسه الخبيث من الطّعام الذي تأنفه النّفس ولا تحبه وتكره أكله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وبمثل ما خوطب الأنبياء خوطب المؤمنون.(١)

وقد أفاض العلماء في العلاقة بين أكل الطّيبات والعمل الصّالح بشكل جعل أكل الطّيب الحلال بمثابة شرط مسبق لصلاح العمل ولاستقامته علىٰ الطّريقة، فمن أكل الحرام لا يفلح ولا يتوقع منه العمل الصّالح، لأنّه ما أكل حراماً إلّا بعمل فاسد! وما يستمر في أكله للحرام إلّا باستمرار عمله الفاسد عمداً، فأنّىٰ له أن يتحول لعمل صالح؟! لذلك كان الصّالحون يتحرون اللقمة الحلال ويسعون إليها، ويتورعون عن أي طعام فيه شبهة تحريم أو خالطه مال خبيث، لعلمهم ما لأكل الحرام من تأثير في الأعمال، فيا ويح المؤمنين اليوم في هذا العصر الذي لا تكاد تصفو فيه اللقمة من أكل الحرام إلّا لأولئك الذين يأكلون ويشربون من عرق جباههم. والسّقوط إلىٰ الهاوية بتناول الطّعام هي أخطر بكثير من الأطعمة الفاسدة، فهذه الأخيرة تضر بآكليها

---

(١) عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: "أَيُّهَا الناس إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلا طَيِّباً، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٧١]". انظر:

– مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الزكاة، بَاب قَبُولِ الصَّدَقَةِ من الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَتَرْبِيَتِهَا، حديث رقم (١٠١٥)، ص٣٩١.

جسدياً، أمّا الحرام فتجعل آكليها بعيداً عن الطّريقة والاستقامة، فيؤدي تحليلهم الأموال والفروج وإقبالهم علىٰ الكبائر من أجل ما يأكلون ويشربون، ولا يجتنبون اختلاط الحلال بالحرام في الأموال التي أطعموا منها أبناءهم وبناتهم، وعاشوا حياتهم دون تفكّر من أين جاء المال الذي ينفقونه علىٰ أسرهم وعوائلهم؟ ولعلّ هناك ارتباطاً بين وقوع بعض الآباء وأرباب الأسر في الحرام من أجل أسرهم، قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن: ١٤]، فالزوجة التي يفترض أن تكون مصدراً للطمأنينة والسّكينة هي التي تدفعه تحت ضغط حبها للدنيا أو الرّفاهية فيها إلىٰ أن يسرق ويرابي ويرتشي ويفسد لتحقيق نوع من الرّفاهية المزعومة والشّكلية لها ولأسرتها، وهكذا الحال بالنّسبة للأبناء الذين يتحولون أعداء لآبائهم يدعونهم إلىٰ جهنم، يتفاخرون علىٰ أقرانهم بأنّ أبي قد اشترىٰ لي كذا، أو هيأ لي كذا، أو ابتعثني إلىٰ بلد كذا. أي باحث يحتاج أن يؤلف المجلدات في أخطار ومضار اللقمة الحرام في علاقات النّاس فيما بينها وبين حكامها، وقصور الموارد عن الاستجابة لاحتياجاتها في بعض الأحيان، فالأرض لا تنبسط ولا يأخذون ما فيها لأقوام لا يعرفون الحلال من الحرام، ولا الخبيث من الطّيب، ولا يميزون بين ما يرضي الله وما يرضي الشّيطان. إنّها آية عظيمة تصلح لأن تكون قاعدة تفرّع عنها أمور كثيرة في شتىٰ جوانب الحياة، فذلك فِقْه القرآن الذي يدعونا إلىٰ التّفكر فيه والإلمام بجوانبه، وليس الفقه الشّكلي أو القائم علىٰ المخارج والحروف، ولو تفكّرنا بكمية المفاسد التي يقضي عليها التزامنا بالأكل الحلال الطّيب، لما اجترأ إنسان أن يمد يده إلىٰ رشوة، أو سرقة، أو استغلال لمال عام أو خاص، ولتطهرت البيئات والنّظم، وسادت العلاقات الطّيبة بين النّاس، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، لكن الشّيطان يوسوس لهم حتىٰ يبلغ بهم مدىٰ يجعلهم يعتقدون أنّ رزقهم مرتبط بالكفر بالله وتكذيب رسله، أعاذنا الله من ذلك، ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٢].

ثمّ ينقلنا السّياق من وحدة الرّسل بالخطاب -فيما تقوم به الحياة ويبنىٰ عليه العمران- إلىٰ إعلان كون الرّسل أمّة واحدة، فهم أمّة واحدة في رسالاتهم ووحدة الدّين الذي جاءوا يدعون النّاس إليه، ووحدة الملة، أمّة واحدة في الإيمان والتّوحيد

الذي دعوا النّاس إليه، وأمّة واحدة في العمل الصّالح، وأمّة واحدة في دعوة النّاس إلىٰ الإيمان بالبعث والنّشور والحساب والجزاء، وهم أمة واحدة في أصول الشّرائع وفي تعريف النّاس بإلههم وربهم وإتقاء معاصيه.

وهذه الوحدة بين الأنبياء والرّسل كان من المفترض أن تنعكس علىٰ أممهم وأتباعهم فيكونون أمة واحدة كذلك في اتباعهم الرّسل وإيمانهم بهم والالتزام بأكل الطّيبات والعمل الصّالح، لكن هذه الأمم تقطعت أمرها وأمر دينها بينها، ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣ ﴾ [المؤمنون: ٥٣] وجعلوه عضين، مثل أولئك الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، وتفرّقوا علىٰ الرغم من وحدة الدّين والملة والرّسل، وذلك كله كان يفترض أن يوحّد كلمتهم، وغرهم في ذلك اختلاف الشّرائع وسولت لهم أنفسهم أنّه ما دامت بعض الشّرائع مختلفة فهم مختلفون، لكنهم لم يفطنوا أنّ الشّرائع ترتبط بالوقت وعوامل الزّمان والمكان، وتلاحظ المؤثرات علىٰ الإنسان، فلا بد أن تشتمل علىٰ المرونة الكافية التي تعطيها فرصة استيعاب ظروف الإنسان وتلبية احتياجاته، فهي ليست مثل الإيمان تعتمد علىٰ ثوابت لا تحتاج إلىٰ تبديل أو تغيير.

لقد جعل أصحاب الأديان أديانهم وسائل فرقة واختلاف، بدلاً من أن يجعلوها وسائل وحدة وائتلاف، وقد نهاهم الله أن يفعلوا ذلك، وأمرهم أن يقيموا الدّين وأن لا يتفرقوا فيه، وهذا النّداء يجعل القرآن موحداً لسائر أمم الأنبياء، ومنادياً فيها بوجوب اجتماع الكلمة، وضرورة الائتلاف فيما بينها، وعدم تجاوز ذلك أو الخروج عليه لمن أراد أن يقيم الدّين وأن يستقيم علىٰ الطّريقة، ولكنه انحراف خطير من انحرافات البشرية يضاف إلىٰ تلك الانحرافات التي سقطت البشرية فيها نتيجة غفلتها عن الله -جلّ شأنه- وعدم التزامها بما أُمرت به، وهنا يلتفت السّياق إلىٰ رسول الله ﷺ في نوع من التّسرية عنه، وتخفيف وطأة الشّعور بالمرارة لديه، وهو يرىٰ قومه يخالفونه ويرفضونه ويكيدون له، ﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، دع هؤلاء القوم من الكفار والمشركين في جهلهم وغمرتهم. والغمرة هي الماء الذي يغمر القامة، فكأنّ الشّرك والظّلام قد تحول إلىٰ مياه آسنة تغمر تلك القامات الخاوية، التي كأنّها أعجاز نخل، فلا تزداد فيها إلّا جهلاً وحيرة، غمرة ساترة لعقولهم، ومثل هؤلاء يتركون، فلا

يلتفت إليهم ولا يهتم بهم، حتىٰ يصلوا إلىٰ حين الأجل ويكشف عن بصرهم الغطاء، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، عندئذ سيتحسرون وسيندمون ولات حين مندم، وهو تمهيد لما سيأتي عما قريب من آيات، فحين يعانون من سكرات الموت فهذا هو الحين الذي قد تبدأ فيه قوىٰ وعيهم بإدراك هذا الذي تدعوهم إليه وأهميته، فينادي الذي وصل لهذه الحالة منهم – وكل إنسان لا بد واصلها ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٠٠ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، إنّ تلك الغمرة لم تصرفهم عن التّفكر في الله -جلّ شأنه- فحسب، بل جعلتهم لا يشعرون بما هم فيه من رفاهية وما يتقلّبون فيه من نِعَم المال والبنين التي لم تنقطع عنهم بكفرهم، لأنّهم يتقلبون فيها استدراجاً لهم، ولذلك فإنّ الله يسجل عليهم تلك المشاعر البليدة البلهاء، والظّنون التي لا تعتمد علىٰ أصل، ولا تستند إلىٰ شيء، فيقول -جلّ شأنه-: ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، فهم لا يستطيعون أن يفرَّقوا بين الاستدراج والمسارعة في الخيرات، ﴿ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦ ﴾ [المؤمنون: ٥٦] نتيجة تلك الغمرة، ولو عقلوا لعلموا أنّ هذا الإمداد الإلهي بالمال والبنين وسائر النّعم إنّما هو اختبار لهم وابتلاء، لعلهم يدركون أنّ الله -تبارك وتعالىٰ- قد قدَّم لهم هذا العون وهذا الإمداد ليجعلهم أقدر علىٰ ذكره وشكره وحسن عبادته وتذكّر نعمه وحمده -جلّ شأنه- عليها، لكنهم نظروا إليها علىٰ أنّها حق لهم يستحقونه في الدّنيا وفي الآخرة، وأنّ ما يتنعمون به في الدّنيا سوف يتنعّمون بمثله في الآخرة، هكذا سوّل لهم الشّيطان وسوّلت لهم أنفسهم أنّ ما يتمتعّون به في هذه الحياة الدّنيا ما هو إلّا مسارعة لهم في الخيرات، ولكي يوقظهم من غفلتهم بيّن لهم صفات أولئك الذين يستحقون أن يسارع لهم في الخيرات فذكر صفات أربع:

الأولىٰ: أن يكون هؤلاء يخافون ربهم من فوقهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ ﴾ [المؤمنون: ٥٧] خائفون من لقائه، يدعونه رغباً ورهباً مهما بلغت أعمالهم الصّالحة.

الثّانية: أنهم كلما رأوا نعمة أو آية من آياته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أو سنة من سنن الكون يجدد الإيمان لديهم ويقويه عندهم ويزيد فيه حتىٰ يكون يقيناً ثابتاً دائم التّجدد، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ ﴾ [المؤمنون: ٥٨] وقدم -جلّ شأنه- العمل الأول الذي

اشتمل على الخشية والإشفاق، ليبين أنّ المؤمنين مهما قويَ إيمانهم وصلُب يقينهم، تبقى رقة القلوب وخشوعها وتواضعها أمام عظمة الله -جلّ شأنه- من الصّفات الثّابتة لهذه القلوب، تزيل عنها القسوة، وتباعد بينها وبين آثار طول الأمد، ومن هنا نجد التّناسب ظاهراً بين الصّفتين، صفة الصّلابة والرّقة، والخشية واليقين.

الثّالثة: أن يكون إيمانهم دائماً نقياً صافياً خالصاً لله -سبحانه-، لا تكدّره شوائب الشّرك، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٩] فليس ثمة شِرك خفي ولا ظاهر يشوب إيمانهم الخالص النّقي.

الرابعة: أنهم يؤدون أعمالهم بقلب ليس فيه شائبة استعلاء ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] خائفون وجلون، يرجون الله أن يقبل صدقاتهم، فهي قلوب خائفة من أي تقصير وتشعر أنّ اليد التي تمتد إلى الفقير والمحتاج إنّما هي يد تمتد إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهي تمتد باستحياء خوفاً أن يرفض الله تعالى هذه الصّدقة، فالمؤمنون بربهم، المشفقون من عذابه، الخاشعة الخاضعة قلوبهم، هؤلاء يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلة، لأنهم يدركون أنّ هذا الذي يعطونه هو فائض نعمة من نِعَم الله عليهم، ولذلك فإنّ قلوبهم تكون وجلة، وأيديهم تمتد إلى أولئك الفقراء، وهكذا شأنهم مع كل بر يفعلونه وكل خير يؤمنون به. ولقد سألت أمّنا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا سيدنا رسول الله ﷺ عن هذه الآية وكانت تظن أنّ المراد بها أولئك الذين يرتكبون المعصية دون أن يفارقهم خوفهم من الله -جلّ شأنه- فتكون المعصية قد ضغطت عليهم بشدة حتى أوصلتهم لهذا الموقف، فقالت: "يارسول الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ قال: لَا يا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ منهم."(١) وعقّب الله على هذه الصّفات بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦١]، وليس أولئك المشركين الذين يسارعون في السّيئات والموبقات. وعلم الإنسان أنّه إذا جعل ربه بين عينيه دائماً فإنه يصونه عن الوقوع في المعاصي، وإذا سقط في بعضها لأي

(١) الترمذي، **الجامع الكبير (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، ج٥، حديث رقم (٣٤٤٩)، ص٣٩٣. وقال أبو عيسى: قد رُوِيَ هذا الحَدِيثُ عن عبد الرحمن بن سَعِيدٍ، عن أبي حَازِمٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي ﷺ نحو هذا.

سبب من الأسباب، أو دافع من الدّوافع فإنّه يسارع إلىٰ التّوبة والاستغفار والرّجوع إلىٰ الله -جلّ شأنه- وتجاوز حالة المعصية، وهؤلاء المؤمنون الذين كان المشركون يتعالون عليهم ويهزأون بهم هم الذين يسارع الله لهم في الخيرات في الدّنيا ويجعلها مقدمة لما ينتظرهم من خيرات في الآخرة وهم المستحقون لنيلها.

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [المؤمنون: ٦٢] أي إنّ الأعمال التي يقوم بها المؤمنون والمتقون -علىٰ سبيل التّكليف- ليس فيها ما لا يدخل تحت وسعهم وطاقاتهم، فالوسع إنّما سُميَ وسعاً لأنّ الطّاقة الإنسانية تتسع له، فليس هناك في هذا الدّين لا في منهاجه ولا في شرعته ولا في آدابه وتكليفاته شيء يمكن أن يعد خارج طاقة الإنسان ووسعه، أو يكون أكبر من قدراته، فليس هناك "تكليف ما لا يطاق"، ولقد أفرد علماء أصول الفقه في كتبنا الأصولية فصولاً وأبواباً لمناقشة ما سّموه بمسألة "تكليف ما لا يطاق"، وذلك لأنّهم ذهبوا في الفعل الإنساني مذاهب شتىٰ، وفي هذه المسألة بالذّات جعلوها جواباً لسؤال: "هل لله أن يكلف عباده بما لا يطيقون؟" وهذا سؤال خاطئ، ما كان لهم أن يثيروه، أو أن يجعلوه سؤالاً يكون جوابه الحديث عن أنّ لله أن يكلف عباده بما يطيقون وما لا يطيقون، لأنّ الله حكيم خبير يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، ويعلم -جلّ شأنه- أنّ هذا الإنسان قد خلق ضعيفاً وبطاقات محدودة لا يستطيع أن يتجاوزها، ولذلك فإنّه رفع عنه التّكليف بما لا يطاق، بل رفع عنه الحرج والمشقة ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]، فكل ما فرضه الله علىٰ الإنسان فهو في وسعه وفي طاقته. إنّ من يريد أن يثبت هذا فليأتنا بالدّليل من كتاب الله ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ [المؤمنون: ٦٢] فالحُجة علىٰ من يزعمون أنّ الله يكلِّف ما لا يطاق، هو كتابنا هذا الذي ينطق بالحق، فهل تجدون فيه ما يمكن أن يشهد لكم؟، وكأنّه -جلّ شأنه- يذكّر بعدله وحلمه وفضله، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٢]، فينبه أنّه لو صدقت ظنونهم وظنون الشّيطان من ورائهم بأنّهم قد كُلّفوا ما لا يطيقون، فإنّه يعني نسبة الظّلم إلىٰ الله -جلّ شأنه- وهو القائل: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقد فتحت هذه المسائل الغثيثة الباب أمام القول بالجبر، ونفي الظّلم عن الله كفيل بأن ينفي مثل هذه التّصورات التي لا نجد لها سنداً في الكتاب الكريم، فالله تعالىٰ يقول:

﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩ ﴾ [الكهف: ٤٩] وما يزعمه البعض من أنّ الله كَلّف الكفار ما لا يطيقون وما لا تستجيب له عقولهم يكذبه القرآن الكريم فيقول: ﴿ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، فهم فعلوا ذلك لأنّ قلوبهم في غمرة من هذا الذي بيّناه في كتابنا الذي ينطق بالحق، ولأنّها في غمرة فإنّهم لم يعودوا قادرين على الفقه بها أو الوصول إلىٰ المعرفة الحقة بها، فقال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال -أيضاً-: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ ﴾ [الأنفال: ٢٢] فتلك الغمرة حجزت عنهم ذلك، ﴿ وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ [المؤمنون: ٦٣] أي أعمال دون تلك الأعمال الصّالحة في القدر والمكانة فهي أعمال سيئة، ﴿ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ٦٣ ﴾ [المؤمنون: ٦٣] سوف يعملونها فيحق عليهم بذلك عذاب الله، لأنّهم كفروا به سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وأيضاً ساءت أعمالهم وتصرفاتهم، فذكر أعلىٰ جرائمهم ألا وهي الشّرك، ثمّ نبه إلىٰ انحرافاتهم الأخرىٰ التي هي دون الشّرك وأقل منه فجعلتهم مستحقين -حتماً- لخزي الدّنيا وعذاب الآخرة بعدل وحق.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤ ﴾ [المؤمنون: ٦٤]، وقد وردت كلمة "يجأر" في سورة النحل ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ﴾ [النحل: ٥٣] فهي بمعنىٰ الاستغاثة والدّعاء كما في مواضع كثيرة، وحينما يجد هؤلاء -وأمثالهم- أنفسهم في مواجهة العذاب يضجون بالشّكوىٰ ويبحثون عن الاستغاثة، فيكون الجواب: ﴿ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥ ﴾ [المؤمنون: ٦٥]، فلن يدفع عنكم البلاء هذا الدّعاء الذي تجأرون اليوم به، ولن ننصركم ونستجيب لدعائكم، وكيف تتوقعون أن نستجيب لكم، وقد أعرضتم عن ذكري، وكذبتم برسلي مع أنه ﴿ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [المؤمنون: ٦٦]، فوفروا علىٰ أنفسكم جؤاركم ذلك إذ لن ينفعكم بشيء، ﴿ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ ﴾ [المؤمنون: ٦٦] أي تنفرون وتتراجعون عن الاستماع إليها - بل وتتداعون إلىٰ اللغو فيها والاستهزاء بها وتنكصون علىٰ أعقابكم زيادة في رفضكم لها، وإعراضكم عنها وتواجهونها ﴿ مُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٧] علىٰ طاعتي وعلىٰ رسولي وذكري، وأنتم تتنعمون في بيتي المحرم، وتتفاخرون به وبوجودكم

فيه، وبانتمائكم إلىٰ إبراهيم الذي رفع قواعده مع ولده إسماعيل الذين تزعمون انتماءكم وانتسابكم إليه، فتواجهون ذلك بالبذاءات والفحش والهذيان الذي لا يليق إلّا بساقط الكلام ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: ٦٧] كالكلام الذي تتسامرون به، فيبعدكم عن هذا القرآن وتهجرونه، ولا تنظرون في حجته ولا تتدبرون آياته، ولو فعلتم لاكتشفتم أنّ هذا القرآن مغاير لكلامكم في فصاحته وبلاغته، وما اشتمل عليه من هداية للتي هي أقوم ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] فلو تدبرتموه لتبينتم الضّلال والباطل الذي أنتم فيه، فرسول الله لم يأت بجديد عليكم ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨] وإنّما رسالته هي رسالة كل إخوانه السّابقين من الأنبياء والمرسلين، ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩] ويعرفون حسبه ونسبه؟ بل قد عرفتموه ولقبتموه بالصّادق الأمين، وحتىٰ جيرانكم من أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩] وهم أعلم النّاس بأنّ أعينهم لم تشاهد أحكم ولا أعقل ولا أزكىٰ ولا أطهر ولا أصدق منه، فأي عذر لكم في أن تصفوه بالجنون ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [المؤمنون: ٧٠] إنّكم تكذبون أنفسكم بأنفسكم فكيف يكون الصّادق الأمين مجنوناً بعد أن جاءكم بالرّسالة، وبعد أن خطَّ الشّيب عارضيه، ودخل عامه الأربعين وما عُرف بينكم إلّا بالصّدق والأمانة ومكارم الأخلاق، ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٧٠] الذي خلقنا به السّماوات والأرض وبه أرسلنا رسلنا وأنزلنا به كتبنا، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون: ٧٠] لذا يصفونه ﷺ بأنه مجنون، والحق الذي جاء به هو الإيمان والإسلام والإحسان وكل خير وهدىً وكل تذكرة ونور، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٧١] باتخاذ آلهة مع الله تعالىٰ والإشراك به والاستكبار عن عبادته، ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١] ولهلك الإنسان ولانتهت الحياة كلها، ولاختل نظام العالم كله، فلو أنكم كنتم تفقهون، وتدبرتم القول، وأدركتم أنّ نبيكم الذي أرسل إليكم لم يكن بدعاً من الرّسل، ولا شذوذاً عن أمة الرّسل الواحدة، التي أرسلت تباعاً لهداية الإنسان وإقامة الحق والعدل والعمران، ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١] ولو

تدبروا القول لأدركوا أنّ هذا الذي جاءهم به رسول الله ﷺ هو ذكر لهم، وشرف، ورفعة شأن، ولو كانت لهم عقول يعقلون بها لسارعوا إلىٰ الاستجابة له، وقبول هذه الرّسالة، والإيمان بحاملها واتّباعه، وهو نحو قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠] وأنتم الذين تبحثون عن المفاخر والشّرف والفخر. فها هو القرآن الكريم ذي الذّكر قد أُنزل عليكم، ومنَّ الله عليكم برسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم، فلم تواجهونه بكل هذا الإعراض؟!

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ [المؤمنون: ٧٢] فثقل عليهم فأعرضوا عنك؟! ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ [المؤمنون: ٧٢] ونعمه التي لا تحصىٰ غمرت الجميع، المؤمنين منهم والكافرين، ﴿خَيْرٌ﴾ [المؤمنون: ٧٢] من كل ما لديهم ولدىٰ البشر كافة، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [المؤمنون: ٧٢] فلا أحد يستطيع أن يرزق النّاس بمثل ما يرزقهم به -جلّ شأنه-.

ثمّ يقودنا السّياق إلىٰ ما تشتمل عليه دعوة الرّسول الكريم ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣] لحياتهم، لتسير عليه سلسلة هادئة سعيدة مستقرة، يأتيهم رزقهم من كل مكان، وينعمون بالأمن والخيرات، وإضافة لذلك نعيم دائم أبدي في الآخرة، فِلمَ تعرضون عنه وتكذّبونه وتُعادونه ؟! ألا تستطيعون العيش إلّا علىٰ صراط أعوج؟! ألا تستسيغون إلّا أن تستعبدوا النّاس وتقهروهم؟ ألا تريدون إلّا حياة القتل والفُحش والسّرقة والنّهب وقطع الطّريق وقطع الرّحم وسبي الأطفال والنّساء وأكل الخبائث وشرب المنكرات؟ ألا تستطيعون أن تحيوا وأنتم تعلمون أنّ لكم رباً كبيراً قادراً محاسبكم علىٰ كل عمل؟

إنّ الصّراط المستقيم الذي هو كتاب الله تعالىٰ الذي يدعو إليه سيدنا رسول الله ﷺ إنّما هو الصّراط -الطّريق- الوحيد للسّعادة والنّجاة في الدّنيا والآخرة، سواء علمتم هذا من كتاب الله وآمنتم به، أو علمتموه من تجاربكم الحياتية التي انتهت إلىٰ أنّ لا سبيل إلىٰ العيش الهادئ المستقر السّعيد إلّا بتطبيق ما يأمر به كتاب الله (مثل عدم السّرقة، الأمانة، الصّدق، عدم الاعتداء، العدل... الخ) حتىٰ لو لم تعلموا أصلاً أنّه يأمر به، لكنه يظلّ هو الصّراط المستقيم.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٤] لا يرون هذا الصّراط ولا يريدونه هم الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ [المؤمنون: ٧٤] ولا بأنّهم محاسبون علىٰ أعمالهم، صغيرها وكبيرها، ثمّ مآلهم إلىٰ جنة أو إلىٰ نار خالدين فيها أبداً، فمن لا يؤمن بذلك ويريد أن يظل يرتع ويلعب في حياة النّاس وأعراضهم وأموالهم وأرزاقهم وأملاكهم وأولادهم دون حساب ودون جزاء، فهؤلاء هم حقاً ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون: ٧٤] أي مائلون، لا يمكنهم السّير علىٰ الصّراط المستقيم، وسيظلون دائماً علىٰ هذا الطّريق الأعوج الذي اختاروه وارتضوه رغم إنذار الرّسل الكرام لهم.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥] فلو كشفنا عنهم العذاب سواء الجوع أو القحط أو ما سواهما لعادوا إلىٰ ما كانوا عليه، ولجوا في طغيانهم، وعادوا إلىٰ أفعالهم، وتمادوا في ضلالهم، واستمروا في مهابط الحيرة ودركات الضّلال، لأنّهم لا يرون في ما حدث تحذيراً لهم ولا إنذاراً لعلهم يرجعون، فهم لا يؤمنون بالله ولا بالآخرة، وهم سيكررون هذا الجؤار في الدّار الآخرة، ويقول قائلهم ساعة الموت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وقد قال -جلّ شأنه-: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]، فهذا النّوع من البشر ليس في طبيعته واستعداداته الرّجوع إلىٰ الحق حتىٰ حين يراه، فهو ذو طبيعة متقلبة لا تعرف الاستقرار ولا تميل إليه، ولا تطيقه بحال من الأحوال، فهم يرون الصّراط المستقيم ويعدلون عن سلوكه، ويتنكّبون معظم الطّرق الوعرة المعوجة الملتوية، ولا يطيقون الاستقامة والسّلوك السّوي، ولقد أثبتوا ذلك في الحياة الدّنيا مراراً وتكراراً، يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦] فقد أصابهم العذاب الأدنىٰ من القحط والضّر، وداهمهم الجوع حتىٰ اضطروا لأكل الجلود والجيف وأوراق الشّجر، وبدلاً من أن يستكينوا لربهم ويتضرّعوا لإلههم الحق الذي لا إله لهم غيره كانوا يفزعون إلىٰ أصنامهم وضلالهم القديم، مع علمهم أنّها لا تغني عنهم من الله شيئاً، ويكشف الله عنهم العذاب ثمّ يعودون إلىٰ أقوالهم الكافرة وضلالاتهم وفجورهم. فإذا اشتدّ عليهم العذاب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾ [المؤمنون: ٧٦]، فتراهم يسارعون إلىٰ اليأس، ويغلقون علىٰ أنفسهم وعقولهم طرق التّفكير وسبل التّوبة والعودة إلىٰ الله -جلّ شأنه-، ويبادرون إلىٰ اليأس لئلا تنفتح بعض مداخل فطرهم للجوء إلىٰ الله -جلّ شأنه- ويكون ذلك مدخلاً من مداخل الإيمان، فاليأس يساعدهم علىٰ إغلاق باب الرّجاء وعدم البحث عن سبيل الخلاص وعن وسائل الأمل، وفي ذلك إمعان في الضّلال وفي الكفر والإصرار عليه. فإذا كان يوم القيامة ولجوا في اليأس المطلق ولذلك قال -جلّ شأنه-: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾ [الروم: ١٢]، أي ييأسون مع مزيد من الحسرة، ويبين الله تعالىٰ أنّ العذاب لن يفتر عنهم: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: ٧٥] أي يائسون من أن تدركهم رحمة بعد ذلك العذاب.

النَّجم الخامس: نماذج من وسائل إقامة الحجة والجدال بالتي هي أحسن

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠ بَلْ
قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا
نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ
ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا
يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ۝٩٠ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢ قُل رَّبِّ
إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ
لَقَٰدِرُونَ ۝٩٥ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ
ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ
أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠ فَإِذَا نُفِخَ فِي
ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ
۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ

وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا
شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا
تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ
هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ
﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا
لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ
إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٧٨-١١٨].

يزيد الله تعالىٰ في حسرة هؤلاء القوم وهو يذكّرهم بما منَّ عليهم به من قوىٰ الوعي التي كان يجب عليهم أن يستخدموها: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ لكنهم لم يستفيدوا منها شيئا، ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وفي الجحود معنىٰ مقاومة الوعي والمعرفة كما يقول -جلّ شأنه-: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٤] فهم يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ولكن يلجأون للجحود والمكابرة لئلا يؤمنوا أو تنفتح قلوبهم علىٰ الإيمان، ثمّ يقول تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [المؤمنون: ٧٩] خلقكم وأسكنكم فيها وجعلكم عُماراً لها ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٧٩] بعد موتكم ودفنكم فيها، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، فمنَّ عليكم بالحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، ويميتكم ليبعثكم ليوم النّشور والجزاء، ﴿ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ ﴾ [المؤمنون: ٨٠] هذا الاختلاف هو الذي يمكنكم من الحياة والاستفادة من نعم الله كلها، فهو الذي جعل الليل سباتاً تستريحون فيه، وجعل النّهار معاشاً تضربون به في الأرض، لتستفيدوا بخيراتها، وبما أودع الله -جلّ شأنه- فيها، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٠] ذلك كله؟!

ثم ينتقل السّياق إلىٰ الموانع التي أقاموها في عقولهم وقلوبهم وعطّلوا بها قوىٰ وعيهم عن التّفكير، فقال -جلّ شأنه- ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨١] فبدلاً

من أن يتأملوا فيما ذكر ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨٣﴾ [المؤمنون: ٨٢-٨٣] وهنا تشير الآية إلىٰ ظاهرة خطيرة ألا وهي ظاهرة الاعتداد والاعتزاز بالآباء وما كانوا عليه، وتقليدهم فيما كانوا يفعلون، فقال تعالىٰ في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾ [النمل: ٤٣] فالآية تحمل التّحذير من التّقليد بكل أنواعه، ومن القياس الخاطئ كذلك مثل قولهم: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ﴾ [المؤمنون: ٨٣] فقاسوا أنفسهم علىٰ آبائهم، واعتبروا أنّه طالما آباؤهم قد رفضوا فينبغي عليهم أن يرفضوه تبعا لهم، ويفعلوا كما فعل آباؤهم في هذا الموقف فنقول: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨٣﴾ [المؤمنون: ٨٣]، وفي هذه الآيات إشارات إلىٰ التّأثيرات الخطرة للثّقافات والتّقاليد والعادات، وقياس الأبناء أنفسهم علىٰ الآباء، والاعتداد بتراثهم دون أن يسمحوا لأنفسهم بمراجعته وإعادة النّظر فيه والتّفكير في ثناياه وميز الحق من الباطل منه، فياويح أولئك الذين يتشبثون بالتّقليد، وتهيمن عليهم العادات والعقل الجمعي والثّقافات الموروثة، فلا يستخدمون عقولهم، ويظنون أنّ التّقليد يغني عنهم من الله شيئاً.

ثم يلتفت السّياق القرآني إلىٰ مجادلة هؤلاء بالحق -كعادته كلما ذكر شيئاً من إسرافهم- ليقيم الحجة عليهم مرة بعد مرة، ويقطع دابر أعذارهم، ويزيل أي جهالة عندهم برسالة الرّسل وتفاصيل دعواتهم، فيأمر الله تعالىٰ سيدنا رسول الله ﷺ بأن يجادلهم بالتي هي أحسن ويقول: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤﴾ [المؤمنون: ٨٤] أيّها المدّعون للعلم والمعرفة، فينطلق في مجادلتهم مما هو معلوم لهم ومتفق عليه بين المؤمنين وبينهم، فيسألهم عن الأرض ومن فيها، من الذي خلقها ولمن تعود ملكيتها؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥﴾ [المؤمنون: ٨٥]، وفي ذلك حضٌّ لهم وحث علىٰ التّفكر والتّذكر، تذكر العهد الذي قطعوه علىٰ أنفسهم، ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣] فلما لا تذكرون ذلك العهد؟ واستخلاف أبويكم في الأرض؟ وعرضه الأمانة علىٰ السّماوات والأرض وتصديكم لحملها؟

فذكرهم بذلك لعلهم يتجاوزون حالة الجحود، ويقبلون التّوحيد الذي لا شيء في أنفسكم ولا في الآفاق التي تحيون فيها بخارج عنه. ثمّ يسألهم ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧] فهي أمور دقيقة لا علم لهم بها ولكنهم ينسبونها إلىٰ الله تعالىٰ، فلماذا لا تتقون عذاب الله وأنتم تعترفون بذلك كله، وهذه التّقوىٰ لا تتحقق إلّا بالإيمان بوحدانيته والاعتراف بألوهيته وقدرته علىٰ بعثكم بعد موتكم، ولن يقيكم من النّار شيء، ولن يباعد بينكم وبين العذاب أمر إن لم توحدوا الله وتؤمنوا به وحده: رباً وإلهاً وقيوماً للسّموات والأرض ومن فيهن، ورازقاً لكل دابة هو آخذ بناصيتها.

ثمّ يوجه لهم -جلّ شأنه- سؤالاً ثالثاً: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [المؤمنون: ٨٨] فكأنّه جمع الخلق كله -ما هو مشاهد لهم ويقع تحت علمهم، أو ما ليس بمشاهد لهم ولا يقع تحت علمهم-، ليسألهم عنه، فالله تعالىٰ بيده كل شيء ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٨] ويغيث مخلوقاته عند الحاجة -ولا تفعل أصنامكم ذلك- وهو لا يحتاج أن يغاث ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٨] فأجيبوني عن هذا، فيجيبون بالصّدق، ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ ﴾ [المؤمنون: ٨٩] لأنّهم لا يملكون أن يقولوا غير ذلك، فيقول لهم -جلّ شأنه-: ﴿ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٩] أي تخدعون وتجتالون عن طريق توحيده -سبحانه- وطاعته وأنّىٰ يأخذكم الشّيطان والهوىٰ، وفي هذا إشارة أنّ الإجابات الصّحيحة التي أجابوا بها لن تغني عنهم من الله شيئاً إن لم يؤمنوا بها حق الإيمان، ويقوموا بما يتطلبه ذلك الإيمان بتلك المسلمات الإيمانية.

ثمّ يبين الله -جلّ شأنه- أنّه جاءهم بالحق، وأنّ كل ما حاججهم به إنّما هو جزء من الحق الذي آتاهم إياه ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [المؤمنون: ٩٠] الذي لا مراء فيه ولا شك، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٠] فلا قيمة لما يدّعوه من إيمان كاذب لا يساوي شيئاً -وهو تسليمهم بالأسئلة الثّلاثة بأنّ الله مالك الأرض والسّماوات السّبع والعرش وبيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه-، فذلك الاعتراف اللساني منهم اعتراف شكلي لم ينبثق عن إيمان ويقين يكوّن لهم سلوكاً في انحيازهم للحق دائماً، وما تسليمهم بذلك إلّا لأنّهم اعتادوا أن يقولوا ما ليس في قلوبهم، وذلك لا يغني

عنهم من الله شيئاً، فلا بد أن تكون تلك الإجابات صادرة عن وعي، ونابعة من قلب موقن بها، ويلحق بهؤلاء -أيضاً- الذين يقولون -من مشركي مكة والعرب آنذاك- إنّ الملائكة بنات الله، ويشاركهم بعض أهل الكتاب بتلك المقولة الزّائفة حين يألهون بعض أنبيائهم، أو ينسبون لله ولداً، فيجب أن ينفي ذلك كله ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] فأنبياء بعض الأمم وصلحاؤهم -والذين قد اتُّخذوا آلهة- لا يمكن أن يكونوا شركاء لله في ألوهيته، فلو حدث هذا ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] وقد سبق أن اعترفتم أنّ الله خلق السّماوات والأرض وهو يجير ولا يجار عليه، فلو فرض المحال فكل واحد من الآلهة سيستبد بخلقه، ويعجب به ويميزه عن خلق الآخر، ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] ولسعىٰ كل منهم إلىٰ الغلبة والانتصار علىٰ الآخرين، ولا يستطيع امرؤ أن يدّعي وجود شيء من ذلك في خلق السّماوات والأرض، فلا بد أن يدرك الجميع أنّه -جلّ شأنه- إله واحد أحد، ما اتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا يشاركه في ألوهيته وربوبيته أحد، ثمّ يعلن -جلّ شأنه- تنزيه نفسه عن أن يكون بهذه المنزلة ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١]، وليستثير في عباده أن ينزهوه عن الولد والشّريك ويؤمنوا بوحدانيته -تبارك وتعالىٰ-، فهو ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٢] فلا يستطيع أحد أن يجمع ذلك لنفسه ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩٢].

ثمّ أمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ بأن يتوجه إليه وحده بالدّعاء ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [المؤمنون: ٩٣] كما فعلت مع أقوام آخرين، خاصة بعد أن كثر سؤالهم له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن يأتيهم بالعذاب، كما في نحو قولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧] وكما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون: ٩٤] فإن حَكَمتَ -سبحانك- بأن تعذبهم فلا تجعلني بينهم، فيشملني عذابك، وفي ذلك إنذار شديد لهم، لأنّ الرّسل لا يقولون ذلك إلّا بعد يأسهم من أقوامهم، فيتضرع رسول الله ﷺ بأن ينجو من عذاب الله المتوقع أن يشملهم، فيقول الله -جلّ شأنه- لرسوله الكريم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ

﴿أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [المؤمنون: ٩٥]، وسنريك بعض ذلك فيما حلّ بهم في بدر وفي فتح مكة وكثير من الوقائع رغماً عن أنوفهم، ولعذاب الآخرة أخزىٰ وأشق، أمّا أنت ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦]، فالأولىٰ بك أن تستمر فيما أنت عليه، من دفع السّيئة بالحسنة أو بالتي هي أحسن، واحتمل منهم مثل ما كنت تحتمل مذ كلفت بتبليغ الرّسالة من التّكذيب وضروب الأذىٰ التي ووجهت بها، وبيّن لهم أدلتنا علىٰ ألوهيتنا وربوبيتنا ووحدانيتنا بأحسن الوجوه وأقوم الأساليب وأكثرها تأثيراً في النّفوس، فكأنّه ما يزال هناك ما يمكن أن يُفعل معهم، وعليك أن تحتمل وتستمر بدعوتهم للتي هي أحسن.

ثمّ ينتقل السّياق ليأمر رسول الله ﷺ بأن يستعيذ بالله -جلّ شأنه- من أمرين هما أهم مداخل الشّيطان لإيذاء الإنسان:

أولهما: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧][1] وهي وسوسته التي تحرك الإنسان إلىٰ الكبر والغرور والاستعلاء علىٰ الآخرين، أو اليأس منهم الذي قد يدفع الدّعاة إلىٰ الرّغبة بالتّوقف عن دعوتهم، فيأمر الله رسوله ﷺ بأن يستعيذ به من همزات الشّياطين التي قد تحول بينه ﷺ وبين الاستمرار بالدّفع بالتي هي أحسن سيئات القوم ضده، وأن يستعين بالله ويتحصن به.

ثانيهما: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٨] يستعيذ من "حضور الشّياطين"، أو مجالستهم له، أو التّمكن منه بأي شكل من الأشكال، فهو تعليم للمؤمنين بالالتجاء إلىٰ الله -جلّ شأنه- والاستجارة به من تأثير وساوس الشّياطين ومن حضورهم.

ثمّ يعود السّياق ليكمل مع أولئك المشركين ليبين لهم حالة تنتظرهم وقد لا يتوقعونها، وهي حالة حضور الموت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩] وصار أقرب إلىٰ الله من المحيطين به، وحتىٰ نفسه تكون قد فارقت جسده، ولا يستطيع كل من يعرفهم في الحياة أن يمدوا له يد العون -وهو علىٰ تلك الحالة-، يكشف

---

(١) الهمز: النخس، والهمزات جمع الهمزة، ومنه مهماز الرائض، والمعنىٰ أنّ الشياطين يحثّون الناس علىٰ المعاصي ويغرونهم عليها، كما تهمز الراضة الدواب حثاً لها علىٰ المشي. انظر:

- الزمخشري، **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، مرجع سابق، ص ٧١٤.

الله عنه الغطاء، ويتذكر كل إنسان ما فرّط فيه من إحسان، سواء أمور واجبات أو مستحبات، ويتذكر المنهيات التي قد يكون سقط فيها، وهنالك سيقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وهذا شامل للمشركين وللمفرطين من أهل الإسلام حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ١٠]، فيكون الرّدُّ عليه ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠] لكنه طلبٌ لا يستجاب له، لأنّ هذه هي سنة الله ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨] فهذا ليس دعاء يحتمل الإجابة والرّفض، فلا يجاب إليه ولا يسمع منه. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٠] أي حاجز ومانع كما في قوله تعالىٰ: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن: ٢٠] فحالة الاحتضار هذه هي حالة لا مرجع منها، فهي بوابة الموت وبدايته.

وبعد أن بينت السورة حالة الاحتضار وبينت شيئا لما يجري للإنسان فيه، نقلتنا إلىٰ حالة السّاعة وقيامها ثمّ البعث والنّشور بعدها ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فهو فناء وموت جميع المخلوقات ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فهؤلاء الذين يتفاخرون بأنسابهم في الحياة الدّنيا ويتعالىٰ بعضهم علىٰ بعض فيها لن يجدوا لهذه الأنساب أثراً في موازينهم التي تخف وتثقل بما عملوا، لا بمن ينتسبون إليهم، ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١] فهم لن يسألوا عن أنسابهم بل عن أعمالهم فهي مواطن لا يُسأل فيها المرء عن شيء إلّا عن نفسه ومصيره، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] وقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج: ١٠]، فشدة الفزع والتّرقب وانتظار النّتائج لا يسمح لأحد أن ينشغل إلّا بخويصة نفسه، وانتظار ما سيكون عليه مصيره، فلا مجال ليتساءل النّاس عن أنسابهم وقراباتهم وما إلىٰ ذلك، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٨-٩] فهم ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣-١٠٤] تأكلهم النّار وتقطعهم فتتقلص الشّفاه وتتباعد عن الأسنان، فيقال لهم -آنذاك- وهم يصطرخون فيها: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، وهو مثل قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [النمل: ٨٣-٨٤]. فما كان ردهم إلّا الاعتراف بما فعلوا، ولكنه وقت لا ينفع فيه هذا الاعتراف ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨]، أي ينزجرون -من خسأ الكلب وخسأ بنفسه- فلا يرفع عنهم العذاب ولا يخفف، وهو طلب طالما طلبوه وذكره القرآن الكريم على ألسنتهم، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة: ١٢] وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر: ٣٧] وقال -تعالىٰ-: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ [غافر: ١١] فقد أعطيناكم الفرصة كاملة، فضيعتموها وآذيتم المؤمنين بي ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١١] فهؤلاء الذين جعلتم الاستهزاء بهم والسّخرية منهم شغلكم الشّاغل في الدّنيا، هؤلاء هم عبادي المؤمنين الذين فازوا في هذا اليوم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ

ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦]، وليزيدهم حسرة وندامة أكثر، وليوبخهم ويشعرهم بضلالهم وسفه عقولهم حين كانوا يستمتعون بالمعاصي ويعبّون منها عبّاً، فيسألهم: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١١٢-١١٣] وهو مثل قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الروم: ٥٥] فكم قضيتم في التّمتع بالدّنيا واتباع الغيِّ والضّلال، فلا يشعرون إلّا أنّها يوم واحد! بل أقل! فيرد عليهم: ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٤]، ليزيد في حسرتهم، فكيف ضيعوا الكثير الباقي بالقليل الفاني، فلو أنكم آمنتم في هذا العمر القليل بربكم، وقمتم بواجباتكم، وسلكتم سبل الهداية، وصبرتم قليلاً علىٰ ذلك، إذاً لتغير المصير وتغيرت النّتيجة، ولكنكم كنتم من الضّالين الجاهلين الذين لا يعلمون إلّا ظاهراً من الحياة الدّنيا، ولذلك لم يؤمنوا بالبعث والنّشور، ولا الحشر والخروج من القبور، لأنّ ظنهم بربهم أرداهم، ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣]، ولمزيد من التّوبيخ والحسرة والإذلال لهم قال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] فيشير المولىٰ القدير إلىٰ أنّ هذا الخلق لم يكن عن عبث، ولا رغبة في لهو، بل إنّ له غاية ومقاصد مهمة، وإنّ الله -جلّ شأنه- لا يليق به -تبارك وتعالىٰ- أن يفعل العبث ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٦] الذي هو المالك الحق لكل شيء، فكل شيء منه وإليه، وهو الثّابت الذي لا يزول ملكه تعالىٰ عن العبث وتنزه عنه -سبحانه- ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، فهذا الإيمان هو الذي يحدد للخلق غايته ومقصده وحكمته، لذلك تختتم السورة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ [المؤمنون: ١١٧] فبيّن -جلّ شأنه- أنّه من يدعي وجود إله آخر فقد ادعىٰ الباطل الذي يستحيل أن يسعفه في دعوته، لأنّه يستحيل إثبات ما ادّعاه بوجود الشّريك، فالآية هنا فيها دلالة علىٰ أنّ العقل السّوي لا ينبغي أن يقبل دعوىٰ دون دليل ولا برهان، فمن روىٰ شيئاً فلا بد أن يقيم الدّليل علىٰ صحة روايته، ومن

ادعىٰ دعوىٰ فلا بد أن يقيم الدّليل علىٰ صحة دعواه، ذلك هو العقل المسلم، عقلٌ لا يقبل شيئاً دون برهان، والبرهان أقوىٰ في الدلالة والوضوح والحجية من الدّليل، فلا بد من البرهان، ولذلك فإنّ من يدّعي شيئاً ويدعو النّاس للإيمان به دون برهان ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧] فجُرمه وذنبه أكبر من أن يقدّره بشر، لذلك فإنّ حسابه موكل إلىٰ ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ثم تأتي فاصلة الآية لتبيّن أنّ الأمور بخواتيمها ونتائجها وعواقبها، وما دام الأمر كذلك فتعتبر من سنن الله الثّابتة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧] وقد تركها دون تقييد فتشمل الدّنيا والآخرة، وهنا تعيدنا هذه الآية التي ختمت بها وبما بعدها السّورة إلىٰ مقدمتها، حيث جاء قول الله -جلّ شأنه- ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١﴾ [المؤمنون: ١] وكأنّ هناك سؤالاً مفاده وماذا عن الكافرين؟ فيقول تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ثمّ نجد الأمر الإلهي لرسوله ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ [المؤمنون: ١١٨] فطلب المغفرة والرّحمة منه -سبحانه- وهو العاصم من الوقوع في الآفات، وهكذا تبيّن لنا هذه السّورة الكريمة بآياتها -القليلة العدد، العظيمة الشّأن- سبل الفلاح وتفادي الدّمار.

فالحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً.

والله أعلم.

سُورَةُ النُّورِ

نزولها: هي السّورة ١٠٢ في ترتيب النّزول، وهي سورة مدنية.

عدد آياتها: أربع وستون.

وعدد كلماتها: ألف وثلاثمائة وسبع عشرة.

وعدد حروفها: خمسة آلاف وخمسمائة وستة وتسعون.

عمود السّورة:

عمود هذه السورة الأساس هو "التزكية" المطلقة، تزكية الأفراد، والأسر، والمجتمعات، ويتَّصل بها تزكية البيوت، والبيئات، والأوطان والديار، تزكيةً شاملةً، تقوم على قواعدَ ربَّانيَّةٍ في السلوك الإنسانيّ، في أدقِّ المواقع التي يستشعر الإنسان فيها حريَّتَهُ شبهَ المطلقة، ويحبّ أن يمارس فيها حياتَه دون ايَّة قيود.

وتسمية السورة الإلهيَّة بالنور: تسميةٌ لها بما يترتَّب على الالتزام بها من هداية ونور من نوع خاص متميّز، لا يشبِهُهُ أيُّ نورٍ آخر في نقائه وفي صفائه وفي طهارته، وما يتَّصل بذلك.

وقد جاء ذكر التزكية فيها بألفاظها ثلاث مرات في سياقين مختلفين:

ففي الآية الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [النور: ٢١]

يبين الله جلَّ شأنه أنَّ الانحراف عن التزكية انقيادٌ واستسلامٌ للشيطان، بحيث يصبح الإنسانُ متتبِّعاً لخطوات الشيطان، يضع الشيطان قدَمَهُ، فيتبَعُهُ الإنسان خطوةً خطوة، والتزكية منهج الرحمن فلذلك ينبغي استمدادها منه وعدم الغفلة عن ذكره وطلب معيته في كل خطوة، لأنَّ الشيطان يتربص به، ويعمل على اغتنام ايَّة فرصةٍ

للانحراف به، وتغيير سلوكه، وإيقاعه في حبائل «التدسية»، وفيها تحذير ضمنيّ من الآفات التي تعتري طلاب التزكية، أثناء جهودهم لممارستها، وبلوغ غايتها، فلا يستعلي طالب التزكية على أحد من عباد الله جلَّ شأنه، ولا يغترَّ بنفسه ويقول: «إنّما أوتيته على علم عندي» أو أوتيته لأنني إنسان جيد، بل عليه أن يعلم أنّه ما سلك سبيل التزكية إلا بفضل الله عزَّ وجلَّ وتوفيقه وعنايته ومعيته، فليس له أن يغفل عن ذلك لحظة، فالله تعالى هو الذي يزكّي من يشاء، بعد أن يعلم منه الإقبال عليه، والرغبة في ما عنده، ولذلك قال: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١].

فالفضل لله جلَّ شأنه الذي شمل المقبلين عليه برحمته، فزكّاهم، وبارك في جهودهم فآتت ثمارها في التزكّية والتطهّر على مستوى الأفراد والأسر والجماعات والبيوت والديار والبيئات.

أما الآية الثانية: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النور: ٢٨].

فكأنّها تضرب للناس مثلاً للوصول إلى معرفة ما هو زكيٌّ، وما هو أزكى وأطهر، وما هو من خطوات الشيطان في موقف لا يطّلع عليه إلا هو جلَّ شأنه، موقف يتّصل بالقلوب والمشاعر والنفوس قد لا يصل علم إنسان مهما اتسع وانتشرت آفاقه للوصول إليه وإدراكه، ولكنَّ الله يعلم مَنْ خَلَق وهو اللطيف الخبير، فيعلم ما هو أزكى لنا وأطهر، وما يمكن أن يجرَّ علينا المشاكل والمصائب والانحرافات واتباع خطوات الشيطان.

وتسمية السورة من ربِّ العالمين بسورة النور، لأنَّ النورَ ثمرةُ التزكية، والنتيجة التي توصِّلُ التزكيةُ إليها، فالتزكية مقدمات والنور نتيجة، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور: ٤٠]، وكل التشريعات الواردة فيها من أوّلها إلى آخرها تدور حول محور التزكية، ومنح الإنسان النور الذي يهتدي به، وهو يبحث عن التزكية ويسعى إليها، فما أعظم هذا القرآن الكريم وما أجلَّه، والنور هو المنهج الذي يهدي إلى التزكية.

مقدمة

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾ [النور: ١]

هذه سورةٌ من أعظم سور القرآن -وكل سور القرآن عظيم- ولأنَّها سورة قد انفردت بمجموعة كبيرة من الأحكام والقضايا التي من شأنها أن تُبنىٰ علىٰ أساس منها المجتمعات الإنسانيَّة الزّكية النّقيَّة الطّاهرة، فقد قدمت لما اشتملت عليه بمقدمة هي غاية في القوة والتّحدي وطلب التّسليم بكل ما جاء فيها من آيات. فبعد أن أكّدت علىٰ أنَّها سورة منزّلة محكمة بينت أنَّها سورة فرضها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فكل شيء فيها وكل حكم دقَّ أو جلَّ، فالله عزَّ وجلَّ هو من فرضه، فكأنَّه أراد أن يقول لا مجال للتنصل أو تأويل أو اجتهاد في سائر ما ورد في هذه السّورة، لأنّ الله فرضها وقدَّرها وألزم بها. فالفرض مفهوم يدل علىٰ القطع للأشياء الصّلبة حسياً أو معنوياً، والتّأثير فيها ينبه إلىٰ أنَّه شأن معلوم محدد، فقال: ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ [النساء: ٧] أي معلوماً، وإذا وصف حكم بالفرض كان حكماً قطعياً يجب العمل به علىٰ وجهه. وفي سائر المواضع التي وردت مادة الفرض فيها لوحظ أنّها تدور حول القطع الذي يمنع من تقدير أي وجه أو احتمال خارج دائرة المنطوق، فيتم بذلك القطع وإلزام النّاس بها. وكل ذلك ينبغي الإيمان به بقبول وتسليم نفسي وعزيمة صادقة في العمل والتّنفيذ. ﴿ وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ [النور: ١] تشتمل علىٰ ذلك كله، فكل ما فيها مفروض ومقدّر تقديراً إلهياً ليس فيه مجال لزيادة أو نقصان أو اجتهاد أو تغيير، فهي مفروضة من الله تعالىٰ، وليس لأحد -علىٰ مستوىٰ التّفسير أو التّأويل ولا تقديم الاحتمالات- أن يُحمّل شيئاً منها ما لا يحتمله الخطاب القرآني فيها كما هو.

ويأتي قوله جلَّ شأنه: ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [النور: ١] لقد انفردت هذه السّورة بأنّه قد وردت فيها كلمة ﴿ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ [النور: ٣٤] باسم الفاعل أي مبينات لغيرها، فهي بينة في نفسها مبينة لغيرها، وفي ذلك تنبيه علىٰ ضرورة الالتزام بها كما هي، وكما وردت في كتاب الله تعالىٰ دون تغيير أو تأويل أو تحريف للكلم عن مواضعه، وأنَّها هي التّبيان والبيان الـمُبين الـمُبيِّن، وكأنّ فيها تحذيراً ضمنياً وإيماءً للمكلفين بأن لا يبحث أحد

عن أية إضافة من خارجه؛ إذ بيان المبين ليس من شأن العقلاء والعلماء أن يسعوا إليه.

فكأنّ الله جلّ شأنه علم أنّ الأحكام النّازلة في هذه السّورة قد تتعرض للتّلاعب والحذف والإضافة كما فعلت أمم أخرىٰ سبقتنا، وفي مقدمتهم بنو إسرائيل حين غيروا في الحدود والعقوبات، وحاولوا التّمرد عليها، فكأنّ الله جلّ شأنه أراد تحذيرنا من مماثلتهم في تغيير ما أنزل، وما أوحىٰ، وما حدّ وما شرع، بأية حجة أخرىٰ -ولا حجة بعد القرآن- وبأي دليل آخر -ولا دليل يحكم علىٰ القرآن-، فحذّرنا من ذلك، وأخبرنا بأنّ هذه الآيات بينات في ذاتها ومبينات لغيرها، وبأن هذه سورة قد فرضناها بأنفسنا فنحذّركم أن تماثلوا أمماً أخرىٰ حرّفت وأضافت وحذفت، فهذه الآية كأنّها اشتملت علىٰ وعيد وتهديد لأولئك الذين حاولوا أن يجعلوا هذه الأمة مثل أمة بني إسرائيل، ويجعلوا أحكام هذه الشّريعة وحدودها مثل الأحكام والحدود الواردة في شرائع شرعها الله جلّ شأنه لتأديب تلك الأمم التي قست منها القلوب، فعوقبوا بشرائع إصْر وأغلال، أمّا شريعتنا فهي تخفيفٌ ورحمةٌ ورفع للإصْر والأغلال والحرج، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ [النور: ١] عهد الله وميثاقه الذي واثقكم به، إذ أشهدكم علىٰ أنفسكم أنّه ربكم، الذي يخلق ويختار، وهو أولىٰ منكم ببيان ما ينفعكم وما يضركم وما يُصلح شأنكم وما يفسده، وأيضاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ [النور: ١] أنّكم مستخلَفون في هذه الأرض، لا تملكونها علىٰ وجه الحقيقة، بل لكم فيها حق الانتفاع وحق الاستغلال والتّمتع بها فيها، شريطة الالتزام بالأحكام والنّظم التي شرعها الله لكم جلَّ شأنه، وفي مقدمة ذلك -بعد توحيد المولىٰ جلَّ شأنه والإيمانِ به- تحقيق التّزكية، تزكية عقولكم وقلوبكم ووجدانكم وبيئاتكم وأخلاقكم، فلا تَدَعوا ثغرة في أي مستوىٰ من المستويات تنفذُ منها إلىٰ مجتمعاتكم أو أنفسكم أو أسركم عواملُ الانحراف والسّلوك السّيّء. ولعلكم تتذكرون ما فُرض علىٰ الأمم السّابقة لكم،

وعواقب انحرافهم عنها وانغماسهم في الشّهوات واتّباع الغرائز، وكثيراً ما تقف عقولكم عاجزةً أمام تصحيح هذه الانحرافات أو تجاوزها أو وضع الاحتياطات المناسبة لحمايتكم من آثارها المدمرة، وقد قصصنا عليكم ما حدث لأمم سبقت مثل قوم "لوط" وأمثالهم من أولئك الذين سيطرت عليهم شهواتهم، ففقدوا إنسانيتهم، وهبطوا إلىٰ مستوىٰ أسفل السّافلين، ليكونوا شرَّ الدّواب عند الله، وليكونوا علىٰ سفالة من الأخلاق فانهارت حضاراتهم ودمرها الله عليهم بما ارتكبوا من الفواحش واقترفوا من السّيئات، فذلك كلّه مقدمة اشتملت عليها الآية الفاتحة المقدمة لهذه السّورة.

كما أنَّ تسمية السّورة بالنّور ينبّه إلىٰ أنّ هذه السّورة قد حملت أنواعاً من النّور تتجاوز الحصر لكيلا تغادر حاجةً من حاجات الأفراد والأُسر والمجتمعات في هذه الأمور الشّائكة التي تتعلق بشهوات النّاس وحاجاتهم الجسدية التي قد لا يستطيع الإنسان -لو أراد- أن يشرِّع لها تشريعات أن يصل إلىٰ أفضل الطّرق وأَسلمها إليها.

النَّجم الأول: منهج حفظ العرض والكرامة

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا
يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ
فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةٗ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ
إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن
تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [النور: ٢-١٠]

القضيّة الأولىٰ: الزّنا والجَلْد

وبعد انتهاء هذه المقدمة، دخل مباشرةً إلىٰ عقوبة الزّنا الذي هو أفحش السّبل لتلبية الحاجات الغريزية للبشر، ذكراً كان أو أنثىٰ. فبعد أن مهّد في آيات كثيرة سبقت في نزولها هذه الآية الكريمة ببيان قُبح وفُحش هذه الجريمة، والنّهي عن الاقتراب منها وممارستها، وبيان ما فيها من مفاسد، جعلت آيات الكتاب تتناولها دائماً باعتبارها

فاحشةً ومقتاً وأسوأ سبيل يمكن أن يسلكه الإنسان لتلبية حاجاته الغريزية. قال تعالىٰ: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢].

لقد استَخدمت الآية الكريمة اللفظ المشتق من الزّنا -اسم الفاعل- في وصف من يستحقون العقاب. ومن النّاحية اللُّغويَّة إنّما يُشتق للإنسان اسم أو لقب من فعلٍ قام به وتعدّدت ممارسته له بحيث صحَّ أن يقال عن ذلك الشّخص إنّه زانٍ أو سارق أو مُرابٍ أو نحو ذلك، وإن كان الأصوليون قد اختلفوا في ضرورة بقاء ما منه وجه الاشتقاق عند إطلاق اللفظ. ولا يبعد هنا رجحان القول ببقاء ما منه الاشتقاق، ففيه تنبيه لتعدد وقوع الفعل إلىٰ مستوىٰ الاتصاف به، فمن ارتكب هذه الفاحشة وقام بها، وأقبل عليها، وتكررت منه، فقد صدق فيه اللّقب بأنّه زانٍ أو زانية، وهذا ينسجم مع توجّه القرآن الكريم علىٰ سبيل التّنبيه، والإيماء في الرّبط بين التّوبة والعقوبة، وكون "التَّائِب من الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ له."(١) ولا يُتوقع من الزّاني أن يجهر بالزّنا بحيث يشهد عليه أربعة من الشّهود أنّه زنىٰ إلّا إذا خلع عنه ثياب الحياء والخوف والتّردد بشكل كامل، بحيث لم يعد يتحفّظ عن المجاهرة التي تُعرّضه لشهادة شهود أربعة بأنّه زنىٰ، وهذا لا يأتي إلّا بتكرار فعله ذلك. وسيدنا رسول الله ﷺ وفي كثير من الوقائع التي رويت عن مجيء زناة إلىٰ الرّسول الكريم، أنّهم ما يزالون يخافون الله تعالىٰ، ويريدون أن يقفوا عند حدوده، لكنهم سقطوا في هذا الظّرف نتيجة الضّعف الإنساني وضغط الشّهوات القاهرة، والغفلة عن الله تعالىٰ، ثُمّ تذكروا فإذا هم مبصرون، فهرعوا يبتغون التّطّهر من الفاحشة والخروج عنها، والتّخلُّص من آثارها، لأنّهم لا يريدون أن يلقوا الله تعالىٰ بها. فما كان من رسول الله ﷺ إلّا أن يردهم ويعرض عنهم رحمةً بهم، إلّا أن يُصرُّوا. وكان الصّحابة رضوان الله عليهم عندما يأتي إليهم من يعترف بهذا يقولون له: لولا سترت علىٰ نفسك، لولا سترت علىٰ فلان.

فالزّانية والزّاني هنا هما "اسم الفاعل" اشتقت من فعل الزّنا، لتنبه إلىٰ ذلك النّوع من اعتياد وتكرار تلك الجريمة، ومثال هذا أيضاً ما أورده البخاري من حديث ابن

(١) ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (توفي: ٢٧٣هـ). **سنن ابن ماجه**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دمشق: دار الرسالة العالمية، ط١، ٢٠٠٩م، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ج٥، حديث رقم (٤٢٥٠)، ص٣٢٠.

مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلىٰ الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلىٰ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتىٰ يَكُونَ صِدِّيقاً، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلىٰ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّاباً."[(١)] ففي هذا الحديث نجد أنّ الصّدِّيق والكذَّاب لم يصيرا كذلك إلّا بعد مداومَة الفعل وتحرّيه. وما روي في رد رسول الله ﷺ لبعض من أقرَّ عنده بالزّنا، وتلقينه عبارات الرّجوع عن إقراره، وشيوع تلك المقولة على ألسنة الصّحابة: "لولا سترت على صاحبك" يدل على عدم وجود عقوبة محددة ثابتة بدليل صحيح في تلك المرحلة، وكأنّ الأمر بالعقوبة من الله لم ينزل بعد. فهذا بالتّأكيد حدث لأنّ سورة النّور نزلت متأخرة، ولا نجد نصاً في القرآن ولا في الأحاديث الصّحيحة عن رسول الله ﷺ ما يمكن أن يقال إنّه نص في عقوبة الزّنا –سواء في حالة الإحصان أو غيره– قبل آية النّور. فكأنّها مثل حالة تحويل القبلة، فالكل يعرف أنّ رسول الله ﷺ بعد الهجرة قد استقبل بيت المقدس والحكمة في ذلك ظاهرة، ففيها تأكيد لوحدة الأنبياء ووحدة الدّين ومقاصده وغاياته وأهدافه وعدم وجود تناقض بين رسالات النّبيين والمرسلين، فأصول الدّين واحدة، واختلاف بعض الشّرائع بناءً على اعتبارات معينة لا ينفي هذه الوحدة، ولا يقلل من شأنها، فمن رجم من اليهود إنّما رجم بحكم التّوراة كما هي بين أيدينا الآن، والله أعلم بالحكم الأصلي قبل تحريفها –كما أخبرنا الله– وسنبين ذلك، وإذا قيل برجم غيرهم في حالتين أو ثلاث فهي أخبار آحاد لا تنسجم حتىٰ مع تعليمات التّوراة التي تقول بوجوب القيام بالرّجم على باب المدينة ليشهده الدّاخلون إليها والخارجون منها، ووقائع كهذه لا بد أن يشهدها المئات الذين يصدق عليهم اسم طائفة أو طوائف من المؤمنين، فإن لم يشهد ذلك إلّا آحاد فذلك يعد شذوذاً عند الإمام أبي حنيفة، باعتبار أنَّ الواقعة والحالة هذه يجب أن يرويها المئات عن المئات ولا نقول الآلاف، ولا يقتصر ذلك على رواية أربع فما دون –كما ذهب بعضهم إلى ذلك– قياساً على عدد شهود الزّنا، فالشّهادة شيء، وشهود حالة العذاب وإقامة الحد لزجر النّاس وإصابة الزُّناة بالخزي وإشعارهم بالهوان نكالاً من الله شيء آخر، فليُتَأَمَّل!

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأدب، بَاب قَوْلِ الله تَعَالىَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ٩١١] وما يُنْهَى عن الْكَذِبِ، حديث رقم (٦٠٩٤)، ص١١٧٧.

والزّنا هادم للمجتمعات، ولا يمكن أن يقوم مجتمع علىٰ أكتاف أُناس اعتادوا الزّنا وألفوه، وشاع فيهم ومارسوه سراً وجهراً، ولا يمكن أن تقام أمَّة رشيدة أو دولة قوية من مثل أولئك. والزّنا ليس كما يصوره بعض المعاصرين بأنَّه استمتاع رجل بامرأة والعكس، بل هو هدر لنُوَيَات[1] الخلق، فالزّانية مسافحة والزّاني مسافح، وفيه معنىٰ القتل -لأنَّهما قد يلجآن إلىٰ التّخلّص من المولود خشية الفضيحة والمسؤولية- وخلط الأنساب وتدمير شبكات العلاقات، إضافة إلىٰ أنَّه لا يمكن أن تتحقق بين الزّانيين المودة والرّحمة، ولا يقوم بينهما النّسب والصّهر، ولا يمكن أن يؤدي إلىٰ بقاء النّوع ودوامه، فهو كما وصفه الله تعالىٰ: ﴿فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ٢٢]، فهنا لم يكتفِ القرآن الكريم بتقبيح هذه الجريمة البشعة والتّنفير منها، وبيان ما فيها من اعتداءات وفحش، بل أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الجريمة هذه الآيات البينات، وضمَّنها عقوبةً زاجرة هي من جنس عقوبة الحيوانات أو وسائل زجرها وترويضها وهو الجلد، جزاءً وفاقاً للانسياق وراء الشّهوة الحيوانية والغريزة العضوية وعدم إدراك حكمتها ووضعها موضعها.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الجريمة بدأ بالأنثىٰ مع أنَّها العنصر المفعول به، ويفترض أن الذَّكر يكون العنصر الفاعل من حيث قانون الزّوجية، ولكن لأنّ المرأة هي المنوط بها المتعة، ولأنَّ هذه الجريمة لا يمكن أن تتم من دون استعداد وتسليم من أنثىٰ غاوية، بل قد يكون تبرجها وميوعتها محرّكاً ودافعاً للذَّكر لمتابعتها للقيام بهذه الجريمة، والغالب ألّا تقع جريمة زناً دون استدعاء أو رضىٰ من الأنثىٰ، بخلاف جريمة السّرقة التي بدأ القرآن المجيد فيها بالذَّكر: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨] لأنّه في الأعم الأغلب أن الذي يُقبل علىٰ السّرقة هم الرّجال، فهم الذين يمتلكون الجرأة الكافية لارتكاب مثل هذه الجريمة وهم المنوط بهم الإنفاق وكسب المال.

---

(١) جمع نواة، انظر:

- الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الحموي (توفي: ٧٧٠هـ). **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٨٠م، ج٢، ص٦٣٢.

تبين الآية الكريمة أنّ عقوبة الزّاني والزّانية هي الجلد مائة جلدة، وهذا ما ينسجم مع خصائص الشّريعة القرآنية التي ذكرها الله تعالىٰ في آيات سورة الأعراف ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هذه الخصائص التّشريعيَّة التي اختصّت بها شريعة القرآن المجيد بوصفها الشّريعة العامة الشّاملة الخاتمة التي يفترض أن تصبح شريعة العالمين، شريعة النّاس كافة التي تتبناها البشريَّة كلها، فعالمية خطابها وحاكمية الكتاب الذي حملها وخصائصها هذه جعلت منها الشّريعة الخالدة، لتكون شريعةً تجتمع عليها كلمة البشر وترضاها الإنسانيَّة لنفسها، فإنّ منتهىٰ احتياج البشر هو أن يأتيَهم برهان من ربهم يضع عنهم آصارهم والأغلال التي كانت عليهم، وتحلّ الطّيبات كلها، وتحرم الخبائث كلها، وتنسجم مع المعروف الذي تعرفه الفطرة وتعرفه البشريَّة وتتقبله ولا تنفر منه طباعهم، ولا يكون تحميلاً لما لا يطاق، ولا تكليفاً بما ليس في وسع البشر أن يفعلوه، هذه كلها تجعل هذه العقوبة – عقوبة الزّاني بالجلد – ومعاملته مثل معاملة الحيوان المتمرد؛ لأنّ شهوته قد غلبت عقله ودينه واستعلىٰ علىٰ القيم التي يؤمن بها، فمن هنا كانت عقوبة الجلد تعتبر العقوبة الزّاجرة المانعة من عودة من يقع في مثل هذه الجريمة إليها، فمهما ضغطت عليه شهواته بعد ذلك، فلن يسمح لنفسه أن تُعرَّض إلىٰ كل أنواع المهانة والنّكال من أجل قضاء شهوة في لحظات ضعف. ومع غلظة العقوبة إلّا أنّها لم تُنه حياته، وتركت له فسحةً وفرصةً ليعود إليها نادماً تائباً إلىٰ الله قبل موته، وكأنّ الله تعالىٰ يعطيه فرصة أخرىٰ لكيلا يكون آخر عهده بالحياة هذه الفاحشة المقيتة، فعنده فرصةً ليتوب ويكون ممن حسنت خواتيمهم.

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٢]

نهىٰ الله جلَّ شأنه أن تأخذ النّاس رأفة في تطبيق هذا الحد الذي أطلق الله عليه أنّه دين الله، وكيف يُتوقع أن يكون إنسان أرأف من الله بخلقه، أو أرحم بهم منّه جلّ شأنه، ففرض العقوبات علىٰ المخطئين إنّما هي ضرورة حتمية لضمان السّير المنظم السّعيد اليسير لحياة البشر، فيأمن النّاس علىٰ أعراضهم وشرفهم وأبنائهم وأزواجهم، فهذه هي قمة الرّحمة، ولكيلا يتكلم أحد -من قصار النّظر- عن مدىٰ فظاعة هذه العقوبة، فلينظر إلىٰ ثلاثة أمور:

أولها: فظاعة الخطيئة نفسها، فقد انتهك عرضاً لامرأة وهدمه واعتدىٰ عليه، وأضرَّ بالمرأة التي زنىٰ بها في أن تستقيم لها حياة هادئة مستقرة نفسياً وعاطفياً، وتلبي دواعي أمومتها بشكل طاهر نظيف، وإذا حملت يكون قد أضرَّ بهذا الطّفل الذي يكون ابن حرام والذي سيخرج لا يعرف له أباً ولا عائلاً مربياً يفخر به وسط مجتمعه، وستتحمل أمه وحدها المسؤولية الهائلة في رعايته والإنفاق عليه وتربيته، إلىٰ جانب الكثير من المضار الأخرىٰ الفرديَّة والاجتماعيَّة.

ثانيها: كم نرىٰ من فظاعات ترتكب في حق الإنسان من قتل بغير حق، وتعذيب وتشويه وتفنن في التّعذيب والسّجن لمن قد ارتكبوا ما هو أهون بكثير من جريمة الزّنا؟

ثالثها: كيف سيأخذ المُعتَدَىٰ عليه حقه إذا لم يوجد عقوبة رادعة تزيل ما اعتمل في نفسه من الغل والحقد والغضب علىٰ المعتدِي عليه، فلا يتوقع منه إذا تمكن منه إلّا أن يقتله انتقاماً لشرفه وعرضه، فوجود عقوبة رادعة مثل تلك إنَّما هي زاجرة للمُعتدِي وشافية للمُعتدَىٰ عليه.

ونهيه جلَّ شأنه عن الرّأفة التي تُعدُّ من مظاهر الضّعف الإنساني بحيث يتوهم الإنسان أنّ هذه الرّأفة هي من الرّفق والرّحمة التي أمر الله عباده بها، فأمر القرآن المجيد أن يبين أنّه لا ينبغي أن يخلط بين القوة في حدود الله، والقسوة، وألّا يجعل القاضي أو الوالي المسؤول عن تطبيق الحد مظاهر الذّلة والصّغار -التي قد تظهر علىٰ المحدود أثناء تحضيره لإقامة الحد عليه وأثناء إقامة الحد عليه- تثنيه عن القيام بالعقوبة، فقد يبكي البعض، وقد يؤكّد بأنّه لن يعود إلىٰ ذلك الفعل أبداً، وهنا قد يضعف البعض،

ويظن أنّه ما دام قد بلغ هذا المستوىٰ من النّدم، فذلك يعني أنَّه لن يرجع لهذا الفعل الحرام مرة أخرىٰ، فيتوهم البعض بأنّ ذلك كافٍ في تحقق الانزجار والارتداع عن السّقوط في هذه الجريمة مرة أخرىٰ، فتقع الأمَّة بمعصية التّساهل في حدود الله والغفلة عما يؤديه ذلك التّساهل من انتشار للفواحش وشيوع لها في المجتمع. فليبكِ من شاء، وليعلن ندمه وهو يتجرع مرارة الخزي الذي أوقع نفسه فيه.

وقوله جلَّ شأنه: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] توكيد علىٰ أنّ هذه العقوبة حددها دين الله ذلك؛ لأنّ الدّين هو عبادة الله تعالىٰ وحده ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥] والعبادة هي اتباع الأمر. وظهور تلك المظاهر علىٰ المحدود سوف يكون زاجراً لمن يشهدون عذابه من المؤمنين عن الوقوع في تلك الجريمة والتّردّي فيها. والله أعلم.

﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: ٢]

كذلك نجد أمر المولىٰ القدير بألّا تطبق هذه العقوبة سراً، بل هي عقوبة علنية، فالجريمة قد ارتكبت علانية بأنْ شهدها أربعة أشخاص علىٰ الأقل، فلا بد أن تكون العقوبة علنيَّة أيضاً، لكي يعالج ما اعتمل في نفسية مَنْ شهدوا هذا، من تحرك الغريزة والشّهوة؛ فيردعها ويردها إلىٰ نصابها حينما يرىٰ المصير الذي آلت إليه، ويشفي صدور المُعتدَىٰ عليهم بأنّهم قد أخذوا حقهم من المُعتدِي، بأنْ نال عقابه، ويكون بمثابة إعلان عام للمجتمع بالتّحذير الشّديد من الاستهانة بالأعراض والحرمات. والعلانية في تطبيقها إنّما هي جزء من العقوبة النّفسيَّة للمجلود أو المجلودة. وقد اختلف العلماء في العدد الذي يجب أن يشهد هذا العذاب، وقد رُجِّح أنّه أربع، كما قامت عليهم الشّهادة بأربع، وهذا لا دليل فيه، فالفرق بين أهداف الشّهادة علىٰ تطبيق الحد وأهداف الشّهود لإثبات جريمة الزّنا كبير، فلا يقاس أي منها علىٰ الآخر، والأَولىٰ أن يكون العدد أكبر من ذلك، وذلك من دلالة كلمة "طائفة"، فقد وردت في كتاب الله علىٰ أعداد كبيرة من النّاس، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف: ١٤] وقال تعالىٰ: ﴿ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٢] وقال تعالىٰ في الحرب: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ ﴾ [النساء: ١٠٢] فهذه آيات توحي بالأعداد الكبيرة من البشر، وهناك آيات أخرىٰ وردت فيها هذه الكلمة لكنها تحتمل الوجهين، فقد يكون عدداً كبيراً أو صغيراً، فأتينا بالواضح منها والذي ليس فيه احتمال آخر لنقيس عليه باقي المواضع مما فيه احتمال.

ذلك كله يجعل هذا الحد الذي تبناه القرآن الكريم والعقوبة التي جاء بها – بحيث تكون هي العقوبة الوحيدة التي يتبناها القرآن المجيد– أمراً قطعياً ليس فيه احتمال، ولا يسع مؤمن ولا مؤمنة أن يزيد علىٰ ما جاء في كتاب الله زيادة تعود علىٰ ما نزل به الكتاب بالتّغيير والإبطال.

وتأخر نزول السّورة إلىٰ السّنة الخامسة أو السّادسة من الهجرة لا ينفي وقوع تطبيق لعقوبات سابقة في شرائع أنبياء ومرسلين، بَيَّن القرآن الكريم لسيدنا محمد ﷺ اتحادهم في الملّة وعناصر الإيمان وأركانه وظواهره، وما يكون به الإنسان مشركاً أو ممن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً إلىٰ غير ذلك، ولكن نزول هذه الآية أصبح هو العقوبة الشّرعية الوحيدة التي لا يسع أحداً من أهل ملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الانصراف عنها إلىٰ غيرها؛ فهو حكم مُبطِل لما سبقه ورافع له ولآثاره؛ ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر كل ما يتنافىٰ مع خصائص الشّريعة التي ذكرناها. وبذلك تصبح أية عقوبة أخرىٰ مؤقتة، وانتهت بنزول آية سورة النّور–إن وجدت أصلاً.

وفي إقامة الحد علىٰ المحدود تعذيب وإهانة تحرم الإنسان من الإحساس بلذة الحياة وعذوبتها. فكأنّ سفح الزّانيين لمائيهما في الحرام يستحق الزّاني بمقتضاه أن يذوق من العذاب والإيلام والأذىٰ ما ينسيه تلك اللذة، ويجعله يندم علىٰ الإقدام عليها، ويتمنىٰ لو أنَّه لم يسقط فيها. فعذاب مقابل عذوبة. وفي الوقت الذي نجد رسول الله ﷺ يحث ويحض علىٰ استمتاع كل من الزّوجين بزوجه وبلوغ أقصىٰ ما يستطيع كل منهما بلوغه

من اللذة، وتعبيره في الحديث المعروف: (حتىٰ يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا)(١) فيه إشارة إلىٰ هذا المعنىٰ، لكن تلك النّطفة حينما توضع في حرام، ويستخف الزّانيان السّقوط في تلك الرّذيلة، ليتجنب تحمل أعباء الحياة المشتركة وتأسيس أسرة وإقامة بيت للمسلمين، ينبغي أنّ يقابل بعذابٍ يفرض علىٰ كل منهما مراجعة نفسه. وشهود النّاس لهما وهما في ذلك الخزي يتلويان تحت السّياط ويعبران عن الإحساس بالعذاب الجسدي والنّفسي معاً، يجعل من هذا العذاب جزاءً وفاقاً لكل منهما.

وقد ذكرت كلمة العذاب في هذه السّورة مرتين:

الأولىٰ: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور: ٢].

والثانية: ﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [النور: ٨].

وفي المرتين تكون كلمة العذاب في سياق مشعر بأنَّه أشد أنواع الإيلام الذي يلحق بهؤلاء المسافحين والزّناة ومتخذي الأخدان، فكأنّ فيه إشارة إلىٰ أنّه ليس فوق هذا العذاب عذابٌ تواجه به هذه الجريمة المنكرة.

إنّ مما يدعو للأسف اعتقاد وجود عقوبة أخرىٰ للزّناة لم ترد في القرآن الكريم! فقسم البعض الزّنا إلىٰ: زنا المحصن وغير المحصن، وادَّعوا أنّ عقوبة المحصن من الزّناة القتل رجماً بالحجارة، وأنّ الآية الكريمة التي نتناولها إنَّما تتكلم فقط عن غير المحصنين من الزّناة! فكيف يجترئ إنسان علىٰ تقسيم كلام الله وتقسيم حلاله وحرامه تماماً كما فعل المشركون ﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٩] فمن ذا الذي يملك التّقسيم بين الحلال والحرام سوىٰ الله تعالىٰ، ولو كان الأمر كما زعموا لذكره الله تعالىٰ في كتابه كما ذكر تخفيف عقوبة الأمَة! فإنّ الله تعالىٰ ليس ينسىٰ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ

(١) عن عَائِشَةَ "أَنَّ رَجُلًا طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا، فَتَزَوَّجَتْ فَطَلَّقَ، فَسُئِلَ النبي ﷺ أَتَحِلُّ لِلأَوَّلِ؟ قال: لاَ، حتىٰ يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا كما ذَاقَ الْأَوَلُ"، انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الطلاق، بَاب من أجاز طلاق الثلاث، حديث رقم (٥٢٦١)، ص١٠٤٠.

نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم: ٦٤] عن بيانه لنا كما بين لنا وفصّل ما حرم علينا، بل وبيّن ما هو أهون بكثير من الزّنا في نفس هذه السّورة الكريمة! فهل لكم من كتاب آخر تأتون منه بالحلال والحرام غير كتاب الله ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القلم: ٣٦-٣٨] أم لكم شركاء يشرّعون لكم الدّين مع الله ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الشورى: ٢١] فليتق الله كل متكلم في دين الله وليعلم أنّ الله هو وحده صاحب الحكم فلا تعبدوا إلّا إياه ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف: ٤٠].

لذلك سنناقش فيما يلي هذا الزّعم بشكل مبسط.[١]

مفهوم الإحصان:

وهو من أهم المفاهيم التي ينبغي تحريرها وفهمها؛ لأنّها المدخل في الادّعاء بالرّجم للزّاني المحصن، لأن الإحصان والتّحصين من الحفظ، وبما أنّ الزّوج إذا تزوج، فإنّ زواجه مظنة اكتفائه وحفظ فرجه عن المحرمات، فأطلق على من تزوج من الرّجال محصن، ومن النّساء مُحصنةٌ. ولأنّ هذا الإحصان مظنة الحفظ من مقارفة الحرام والوقوع في الزّنا، اعتبرت عقوبة المحصن أكثر مناسبة للتّشديد لما له من الحصانة وأسباب الحفظ والإبعاد عن الحرام.

وقد تعدد ذكر مادة "حصن" في القرآن الكريم، وكلها تشمل معنى الحماية والوقاية ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢] فالحصون المكان الذي يتحصن فيه الإنسان أي يكون محمياً فيه متوقياً للشّر، ومثله قوله جلَّ شأنه: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ [الحشر: ١٤] ففي الآية الأولى حصّنوا أنفسهم بالحصون، وفي الثّانية حصنوا أنفسهم بالقرى المحصنة.

وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا

---

(١) على من يريد الاستزادة مراجعة موقع أكاديمية العلواني؛ فثمة مقالات ومقاطع فيديو عن الموضوع.

﴿مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨﴾ [يوسف: ٤٨] فهنا علَّمهم سيدنا يوسف أن يحصنوا ما زرعوه، بمعنىٰ يحموه ويقُوُه من التّلف؛ لكي يظل صالحا للأكل طوال هذه السّنين السّبع.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾ [الأنبياء: ٨٠] فقد علّم الله تعالىٰ سيدنا داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ صناعة الملابس لكي تكون حصناً للإنسان تحميه وتَقيه.

والله تبارك وتعالىٰ أثنىٰ علىٰ مريم، وبين لشانئيها أنّها قد أحصنت فرجها. قال تعالىٰ في مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: ١٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: ٩١]، فالإحصان هنا معناه العفة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٢٤﴾ [النساء: ٢٤] فيذكر لنا المولىٰ عزَّ وجلَّ المحرمات من النّساء، وذكر منهن المحصنات من النّساء؛ أي المتزوجات من النّساء؛ فلا يحق لرجل أن يتزوج امرأة متزوجة، ولا يمكن أن تحتمل الآية معنىٰ المحصنات بالحرية ولا معنىٰ المحصنات بالإسلام.

وفي بعض السّياقات نفهم أنّ المحصنة هي المتدينة التي يحميها تدينها من السّقوط في الفاحشة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [النساء: ٢٥] فيعلّمنا المولىٰ عزَّ وجلَّ بأنّ الأَولىٰ أن ينكح المؤمن الفتاة المؤمنة الحرة لكي لا يؤثر علىٰ أبنائها في انتقاص حريتهم، فإن لم يستطع فيحلّ له أن ينكح من الإماء، لكن بشرط أن تكون من المؤمنات. وفي تحقق شرط الإيمان، أخبرنا جلَّ شأنه أنّه هو الذي يعلم حقيقة الإيمان، فلا يكون علىٰ المؤمن حرج في التّعرُّف علىٰ حقيقة إيمان من سيتزوجها، فلا يتعسّف في السّؤال عنها أو اختبارها، ولا هو أيضاً يتجاهل الأمر

بالكلية ويأخذ بالمظهر فقط، فيجب أن يكون وسطاً في ذلك. وهذا التّفريق بين الحرائر والإماء ليس فيه -كما قد يتوهم البعض- أي أثر للنّزعات الطّبقية أو الاستعلائية، بل لأنّ الحرائر العفيفات وقت نزول الخطاب لم يكنَّ يمارسن أعمالاً خارج بيوتهن، أو أعمالاً في بيوت آخرين قد تعرضهن إلىٰ مؤثرات مختلفة، قد تجعل بعضهن أيسر منالاً لطالب المتعة من الحرائر اللواتي لا يتعرضن لمثل ذلك.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] فالمحصنات هنا المحصنة بعفتها، لأنّها لم تتزوج بعد، فسقط معنىٰ "المحصنة المتزوجة". ولأنَّ الأمر علىٰ الإماء، فسقط معنىٰ "المحصنات الحرائر"، فالأمر للمؤمنين لمن لم يجد الحرة وسيتزوج الأمَة، فليبحث عن المؤمنة العفيفة غير المسافحة ولا المتخذات أخدان (أي رفقاء في السّرِّ)، وهذا مما يدل عليه السّياق، لأنّه سيذكر فيما يلي ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ [النساء: ٢٥] أي أتممن التّحصُّن بالزّواج، ولا تحتمل التّحصُّن بالإسلام، لأنّه شرط في بادئ الأمر في قوله تعالىٰ: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥] وهي لا تحتمل المؤمنات من أهل الكتب السّابقة، لأنّ المولىٰ عزَّ وجلَّ قد فرّق بينهم في آية سورة المائدة ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥]، كذلك فإنّها لا تحتمل هنا التّحصُّن بالحرية؛ لأنَّها إذا أصبحت حرة فسوف يسري عليها الحكم العام علىٰ الزّاني والزّانية في أول سورة النّور. إذن هنا يتحدث السّياق عن الأَمَة المسلمة التي تتم التّحصُّن بالزّواج، وهن لا يَزَلْنَ من الإماء ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] فبعد أن تتزوج الأمَة فإن أتت بفاحشة فعليها نصف ما علىٰ المحصنات أي الحرائر -سواء المتزوجات أم الأبكار- من العذاب أي خمسون جلدة، فالتّفريق في العقوبة في كتاب الله لا يكون إلّا بين الأحرار والإماء وذلك لتحقيق العدل الإلهي المطلق؛ إذ إنّ العبيد والإماء مُكرهون في كثير مما يفعلون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ [النور: ٣٣] والإكراه لا ينبني عليه عقوبة، ولم يفرق القرآن الكريم بين المتزوجة والبكر في العقوبة.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ ﴾ [النور: ٤] وقال تعالىٰ في واقعة القذف بالإفك علىٰ السّيدة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ ﴾ [النور: ٢٣] المؤمنات العفيفات اللواتي أحصَنّ بعفتهن ودينهن وأحسابهن ونشأتهن في الإسلام، فصار لقب المحصنة ملازماً لها، يخالطها مخالطةً تامةً لا يكاد ينفصل عنها بحال.

فبين الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بشاعة هذه الجريمة –القذف– التي ارتكبها ويرتكبها المنافقون والمرجفون، ووضع سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ حداً للقذف حتىٰ لا تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، وتنتشر قالةُ السّوء لتروِّض الأذهان وتتهيأ لقبوله، فتنعدم حالة الظّن الحسن التي تعد بذاتها تحصيناً للمرأة والمجتمع. ولذلك قال جلَّ شأنه فيما سيأتي: ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ ﴾ [النور: ١٢] فهي سيقت لبيان أهداف هؤلاء المرجفين العاملين علىٰ إشاعة الفاحشة في مجتمع الطّهر والعفاف الذي منَّ الله به علىٰ المسلمين.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣ ﴾ [النور: ٣٣] فالتّحصّن هنا هو التّعفّف عن البغاء، فهنَّ محصنات بعفتهن وإن ظللن من الإماء وبغير زواج. فالعفاف بحد ذاته يعتبر بمثابة درع تتحصّن المرأة به من الوقوع في الفاحشة، واختراق قالة السّوء لسمعتها، والتّحصُّن هنا يقرر بوصفه فعلاً إرادياً تريده المرأة وتسعىٰ إليه.

فاتضح من استعراض آيات القرآن الكريم أنّ الإحصان: مَلَكَةٌ قائمة في نفس الإنسان تمنعه من السّقوط في الفاحشة، وتجتمع علىٰ إيجادها مؤثرات عدة –منها الإيمان والإسلام والإحسان والعفة– يشد بعضها أزر بعض.

كما اتضح من تلك السياقات أنها استعملت في كتاب الله لما يدل علىٰ الحفظ والحماية والحصانة. كما استعمل للمرأة التي لا يُتوقع منها الإقدام علىٰ الزّنا أو التّفريط بعفتها. والسّياقات القرآنية أحكم وأقوم من تقييد الإحصان بمعنىٰ واحد من تلك

المعاني التي توزعت اختيارات الفقهاء بينها، فلِمَ لا تكون كلها مجتمعة "الإسلام، العفاف، الحسب" وما إلىٰ ذلك شروطاً تحقق للمرأة الحصانة والإحصان، أو يمكن أن تفهم بأنّ هناك مستويات مختلفة من البشر؛ فهناك من يمنعهم من السّقوط في الرّذائل تَدَيُّنُهُم، وهناك من يمنعهم أحسابهم وإحساسهم بالحرية، وهناك وهناك، ولذلك فإنّنا نميل لأن نجعل الاستعمالات القرآنيَّة كلها واردة علىٰ هذا المعنىٰ، بحيث يكمل كل منها الآخر حتىٰ تندرج المستويات كلها تحت هذا المفهوم في هذا السّياق.

فمفهوم الإحصان مثل مفهوم العدالة والتّقوىٰ والأمانة -وما إليها من مفاهيم القرآن- أوسع بكثير مما يميل العقل الفقهي إليه من معنىٰ محدد يصلح أن يكون عِلّة مؤثرة في الحكم، وذلك شأن القرآن في صياغة مفاهيمه دائماً، فهو يستوعب الإطار الفقهي ويتجاوزه. والله أعلم.

شروط إثبات الزّنا:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ ﴾ [النور: ٤-٥]

شدّد الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في شروط إثبات الزّنا بحيث يصعب أو يتعذّر إثباته إلّا بشروط خاصة، أهمها أنّه جلَّ شأنه لم يُسَوِّ بينه وبين أية جريمة أخرىٰ في الشّهادة؛ فالجرائم مثل القتل والسّرقة وسواها من الكبائر يكتفىٰ في إثباته بشاهدين اثنين، أمَّا الزّنا فلا بدّ من شهود أربعة يرون الزّانيين وهما في حالة جماع، فلا تقبل الشّهادة في ممارسة مقدمات الزّنا أيًّا كانت بما في ذلك الاحتضان والقبلات والخلوة وما إلىٰ ذلك، بل لا بد من رؤية الفعل بشكل مباشر ورؤية المعاشرة الجنسية بشكل واضح فاضح صريح، وهذا من الصّعب جداً أن يحدث حتىٰ في زماننا هذا إلّا في دُور البغاء المعدة لهذه الأغراض، ومواخير صناعة وتجارة الأفلام الإباحية، ومن ثمَّ فكأنّ الشّارع الحكيم أراد أن لا يعاقب علىٰ هذه الجريمة أو بها إلّا السفلة الذين مردوا علىٰ التّخلّي عن سائر مستويات العفة والطّهر والاستهانة بكرامة الإنسان وعرضه. لذلك كان الإقرار (أي الشّهادة علىٰ النّفس) بدافع تطهيرها وتزكيتها هو البديل المطلوب عن تلك الشّهادة التي يكاد يكون من المستحيل إثبات الفعل الفاضح إلّا بها.

كما أنَّ هناك قرينة واحدة يمكن الأخذ بها وهي أن يكون الحمل، وهذا الحمل لا يعد إلّا شبهةً إذا وجد مع بنت لم يسبق لها الزّواج، وأقرّت وأقرّ من يعرفونها بعذريتها، فيعتبر الحمل آنذاك قرينة على ارتكاب الزّنا، لكنها قرينة يمكن أن يُدرَأ الحد فيها بأدنى شبهة تـثار.

قال النووي: "وقال الشافعي وأبو حنيفة وجماهير العلماء لا حدَّ عليها بمجرد الحبل، سواء كان لها زوج أو سيد أم لا، سواء الغريبة وغيرها، وسواء ادعت الإكراه أم سكتت، فلا حد عليها مطلقا إلا ببينة أو اعتراف لأن الحدود تسقط بالشبهات."[١]

العقوبة

الغرض من عقوبة الزّنا هو تحقيق النّدم الدّاخلي، وتأثر النّفس والرّوح مع بعض الألم الجسدي، وليس الغرض هو التّعذيب أو القهر، لأنّ الغاية النّهائية من العقوبة هو رد المُذنب إلى دينه وإلى ربه تائباً نادماً وعدم عودته إليه مرة أخرى، لذلك فإنّ التّركيز على الجانب الرّوحي والنّفسي يجب أن يكون أكبر في هذه العقوبة، ويجب أن يتم توجيه المذنب إلى التّوبة، وأنّ هذا ليس نهاية المطاف، وأنّه قد يتوب وتحسن توبته فيكون من أهل الجنة، ويجب توعية النّاس إلى ضرورة قبوله وعدم كرهه وإبداء البغضاء له، فقد نال عقابه ومردّه إلى الله، أمّا القسوة في العقوبة وإيقاع الأذى الجسدي المستدام أو الأذى النّفسي باليأس وبغض المجتمع له، سيبعده عن طريق التّوبة والعودة إلى الله، وقد يجعل منه مجرماً معتاداً للإجرام، وراغباً في الانتقام من الذين عاقبوه ومن المجتمع الذي يكرهه. وفهم الغرض من العقوبة يمنعنا من القسوة في أدائها بما يؤدي إلى ضياع مغزاها. ولذلك ينبغي:

- أن يكون الضّرب معتدلاً، فلا يمزق الجلد ولا يؤدي إلى أذى مستديم، وكذلك لا يكون هيناً بلا ألم.
- أن يكون الضّارب منفذ العقوبة من الفقهاء لهذا الأمر، ولا يكون من غلاظ الأكباد القساة حتى لا يسيء الفعل.

(١) النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (توفي: ٦٧٦هـ). **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢هـ، ج١١، ص١٩٢.

- أن يكون السّوط المستخدم في الضّرب معتدلاً، فلا يقطع ولا يمزِّق ولا يسبب عاهة أو أذىٰ مستديماً.
- أن يكون الضّرب علىٰ الظّهر فقط، لأنّه الأقدر علىٰ التّحمُّل من البطن أو القدمين، ويجب تجنب ما أعلىٰ الظّهر وما أسفله.
- يمكن أن يكون هناك حائل علىٰ جسم الرّجل ويشد الجلباب علىٰ جسم المرأة.

وعقوبة الزّنا تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: زنا الأحرار، وزنا العبيد، وزنا الإكراه.

فأمّا النّوع الأول: الأحرار، وعقوبتهم الجلد مائة جلدة، ويكون أمام طائفة من المؤمنين.

وأمّا النّوع الثّاني: فهم الزّناة من العبيد، وأولئك عقوبتهم الجلد خمسون جلدة، ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] وسبق التّعرُّض بالشّرح لهذه الآية الكريمة.

أمّا النّوع الثّالث: فهم الزّناة بالإكراه، وأولئك لا عقوبة عليهم لأنّهم مكرهون،[١] ولو أعطوا القدرة لرفضوا فعل ذلك واجتنبوه ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ [النور: ٣٣] فالله غفور رحيم لمن وقع عليه الإكراه، وليس لمن قام بالإكراه إلّا أن يتوب.

هل جاء القرآن بعقوبة أخرىٰ للزّنا؟

نجد الفقهاء يذكرون التّغريب للزّانيين لمدة عام، ويذكرون أنّ آية سورة النّور ليست علىٰ عمومها، بل هي مخصصةٌ بآثار وأحاديث وردت في بيان عقوبة الزّاني الـمُحْصَن، فكيف ولمَ حدث هذا، ومن أين جاءت؟ ولماذا تكلفوا عقوبة أخرىٰ غير عقوبة القرآن الكريم؟

ذهبت جمهرة المدارس الفقهية إلىٰ القول برجم المحصن، وتكلفت تفسير المحصن، وتأوّلت الآية الكريمة بالرّغم من كل ما تقدم بأنّها خاصة بغير المحصن،

(١) ويُتصور الإكراه بالأساس للمرأة، ولا ينبغي قبول قول رجل بأنّه أُكره علىٰ الزّنا بسهولة إلّا بالتّدقيق والتّحقيق معه، أمّا إكراه المرأة فهو متصور وشائع في كل زمان. انظر:
- الرازي، **المحصول في علم أصول الفقه**، مرجع سابق، ج١، ص٤٨٨.

وعدّوا بعض الرّوايات مخصصة لعموم القرآن الكريم، بل ذهب بعضهم إلىٰ أنّ هناك حداً جاء به القرآن لغير المحصن، وحداً جاءت به السّنة مستقلة بتشريعه عن القرآن، ومخصصة لعمومه، ألا وهو حد الزّاني المحصن.

وهذا الحد هو الرّجم بالحجارة حتىٰ الموت، بدلاً من الجلد مائة جلدة للحر وخمسين جلدة للعبد أو الأمَة كما أمر الله في القرآن الكريم. وقد شاع وانتشر هذا القول بشدة علىٰ ضعف أدلته، وأتوا عليها بأدلة مختلقة من القرآن، ومن حديث الرّسول الكريم ﷺ ومنها:

- ادّعاء وجود آيات في القرآن كانت موجودة فيه، ثمّ أكلتها داجن -طير الفراخ- ومن هذه الآيات آيات الرّجم.
- ادّعاء أن النّبي الكريم أمر بالرّجم بعد نزول هذه السّورة الكريمة في أحاديث كثيرة، كلها من رواة معينين، ضعَّفهم وجرَّحهم الكثير من علماء الحديث والأصول، هذا إلىٰ جانب أنّ ما قد يصدق من رواياتهم لا يعدو كونه حدث لرجم الزّناة من اليهود، أو لمسلمين ولكن قبل نزول آية النّور.

ولأهمية الأمر وتشعبه وكثرة الكلام فيه عبر العصور المختلفة -وكأنّه من أركان الدّين وأعمدتِه!- فقد أفردنا كتاباً خاصاً للرّد علىٰ هذا المذهب، يُضاف إلىٰ ردود الكثير من العلماء الرّبانيين عبر العصور الذين ناقشوا هذا المذهب ورفضوه، ونزّهوا كتاب الله عن إلصاق تهمة النّقص به، ونزّهوا رسول الله عن مخالفته لأوامر الله في كتابه، فعلىٰ من يريد الاستزادة في الأمر مراجعته.(١)

القضيّة الثّانية: زواج الزّناة

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [النور: ٣]

(١) رجاء مراجعة كتابنا: لا إكراه في الدين: إشكالية الردّة والمرتدّين من صدر الإسلام إلىٰ اليوم. وكذلك موقع أكاديمية العلواني الإلكتروني.

تعد هذه الآية توجيهاً لتصفية العلاقات التي كانت قائمة بين من دخلوا الإسلام ومن لم يُسلموا بعد، ذلك لأنّ الله جلَّ شأنه قد قال في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١] فقطع ما بين أهل الشّرك وأهل الإيمان في هذا الأمر، وبقي صنف من المشركين اعتاد الزّنا واحترفه، فرجال كانوا يَتَّجرون بالزّنا -والعياذ بالله- ويوردون إلىٰ مكة والمدينة وغيرهما بغايا من البلدان المجاورة يؤجرونهنّ للزنا، وتلك تجارتهم ومصدر رزقهم الخبيث، فهؤلاء قد ورد النّهي في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] وجاءت آثار كثيرة تحذّر من أموال البغاء والزّنا، وتحقر من شأن أولئك الذين يتخذون من ثمن البغي وأجرة الزّنا مورد عيش لهم يعيشون عليه.

وهنا قد يتساءل امرؤ: لقد بيّن الله لنا حكم نكاح أهل الشّرك ونهانا عنه، وبيّن لنا تحريم إكراه العفيفات علىٰ الزّنا إن أردن تحصناً، فما حكم من يتزوج بمن زنت، سواءٌ أكان الزّاني هو نفسه من يريد الزّواج منها أم غيره؟ فجاءت هذه الآية في هذه السّورة التي تناولت العديد من الأحكام المنظمة لشؤون الأسرة لتبين تحريم نكاح محترف أو محترفة الزّنا، (لأنّه في هذه الحالة من المشركين)؛ إذ إنّ هؤلاء لا يبحثون عن الطُهر والشّرف والعفاف والطّمأنينة والرّحمة والسّكن والنّسب والصّهر وحفظ العِرض والنّوع، ونحوه من أهداف النّكاح ومقاصده، بل يبحثون عن المال الحرام بهذا الطّريق القذر البشع، لذلك لا يليق ولا يجدر بمؤمن ولا مؤمنة أن يقترن أو تقترن بمحترفي الزّنا، لأنّ محترف الزّنا إذا كان من الذّكور فهو مجرد قوّاد ديُّوث يهمه الرّبح الحرام ولا يهمه بأي سبب جاء، ولو كان السّبب امتهان فرج امرأته وغيرها للوصول إلىٰ ثمن الفجور فيها وفيهن، كما أنّ محترفة الزّنا "البغيّ" لا هدف لها من الاقتران بأحد إلّا الأهداف الرّديئة الخبيثة بأن تجد من يقف معها ويحمي لها فجورها ويعينها علىٰ ممارسته، ويمنعها ممن يهددونها في نفسها أو مكاسبها الخبيثة، وهنا تكتمل الصّورة بنهي الله جلَّ شأنه بشكل أقوىٰ مما صدر بنهي "لا"؛ إذ إنّ الآية الكريمة جاءت بصيغة

الخبر، وكأنّها تشير إلىٰ أنّ استهجان هذا الأمر والنّفرة منه والاستنكاف من الوقوع فيه بدهي! وقد يؤيد ذلك ما نقله الكاتبون في أسباب النّزول والمفسرون الذين نقلوا عنهم تلك الأسباب.(١)

وهنا لا بد من الإشارة إلىٰ أنّ الزّانية إذا كانت من المؤمنات وسقطت في جريمة الزّنا ثمّ تابت عنها فهل تندرج تحت هذا الحكم؟

المؤكد أنّ الإسلام يجبُّ ما قبله، والتّوبة تجبُّ ما قبلها، وبالنّسبة للمشرك والمشركة الإسلام يجبُّ ما قبله ومنه الزّنا، ممارسةً واحترافاً، ومن ارتكب الزّنا من المؤمنين وتاب، فالتّائب من الذّنب كمن لا ذنب له، فالتّوبة بشروطها والإيمان التّام بشروطه يعيد الكفاءة في النّكاح إلىٰ التّائب والتّائبة، والله أعلم.

ومن سقط في هذه الفاحشة ولم يتب عنها، وحدّ فيها، ثم عاد إليها مرة أخرىٰ، فكأنّه قد أعلن بأنّه لا يصلح لنكاح أيّ إنسان غير فاحش ولا زانٍ، وإذا حدث ونَكحت الزّانية أحداً فهي بطبيعتها ليس من شأنها أن تختار إلا مِثْلاً لها في التّحلل من الشّريعة وعدم الالتزام بها وكذلك الزّاني، أمّا المؤمنون فقد نصَّ الله تعالىٰ علىٰ تحريم الزّواج إلّا بين أهل العفة والطّهارة ممن يريدون بناء أسر تكون لبنات صالحة في المجتمع، وقوله في نهاية الآية ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور: ٣] تجعل الآية تنصرف إلىٰ المعنىٰ الذي ذكرنا. والله أعلم.

وما يجري في زماننا هذا من سقوط بعض الشّباب ومنهم الخاطبين والخاطبات بِناءً علىٰ التّساهل في اللقاء بينهما في أماكن خلوية قد تهيء للوقوع في الزّنا، فيُطلب من ذلك الشّاب عندئذ: "صلّح غلطتك" أي بالزّواج بمن زنىٰ بها، فهذا -والله أعلم- لا يندرج تحت هذه الآية الكريمة، والخطأ هنا مشترك بين أهل البيت والولد وأصدقائهما، وهو يدل علىٰ أنّ كل هؤلاء لم يقوموا بواجباتهم من تعليم البنت والولد خطورة إقامة أيّة علاقات بينهما قبل توقيع عقد النّكاح الشّرعي الذي يبيح كُلّاً منهما للآخر، فنوصي الأسر بأن تتخذ الاحتياطات اللازمة، وأن تتخلص من بعض التّقاليد

(١) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٨، ص٢٢١ وما بعده.

التي تطيل فترة الخطوبة وتُرهق الخطيبين، فجميع الأسباب المادية التي تتعلل الأسر بها لا تساوي وقوع خطأ بين الخطيبين، قد يؤدي إلىٰ تدمير العلاقة بينهما في حاضرهما أو مستقبلهما، وقد تكون الأحوال الرّاهنة باعثاً لتثقيف الأبناء والبنات عند سن البلوغ، لكيلا تقع هذه الأمور وتفشو وتؤدي إلىٰ تفكك المجتمع الذي سيتكون من هؤلاء الشّباب فيما بعد.

ومن طيب الكلام الذي قيل في هذه الآية قول ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: "أنّ النّكاح هنا عقد التّزوج كما جزم به المحققون من المفسرين مثل الزّجّاج والزّمخشري وغيرهما. وأنا أرىٰ لفظ النّكاح لم يوضع ولم يستعمل إلّا في عقد الزّواج وما انبثق، وزعم أنّه يطلق علىٰ الوطء إلا من تفسير بعض المفسرين قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] بناء علىٰ اتفاق الفقهاء علىٰ أن مجرد العقد علىٰ المرأة بزوج لا يحلها لمن بَتّها إلّا إذا دخل بها الزّوج الثّاني."(١)

الآية في صيغة الإخبار ثُمَّ التّعليل

يقول ابن عاشور: "وإنّه يلوح في بادئ النّظر من ظاهر الآية أنّ صدرها إلىٰ قوله: ﴿أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾ [النور: ٣] إخبار عن حال تزوج امرأة زانية، وأنّه ليس لتشريع حكم النّكاح بين الزّناة المسلمين، ولا نكاح بين المشركين. فإذا كان إخباراً لم يستقم معنىٰ الآية؛ إذ الزّاني قد ينكح الحصينة، والمشرك قد ينكح الحصينة، وهو الأكثر، فلا يستقيم لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ [النور: ٣] معنىٰ، وأيضاً الزّانية قد ينكحها المسلم العفيف لرغبة في جمالها أو لينقذها من عهر الزّنا، وما هو بزانٍ ولا مشرك فلا يستقيم معنىٰ لقوله: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾ [النور: ٣]، وإنّنا لو تنازلنا وقبلنا أن تكون لتشريع حكم فالإشكال أقوىٰ؛ إذ لا معنىٰ لتشريع حكم نكاح الزّاني والزّانية والمشرك والمشركة، فتعيّن تأويل الآية بما يفيد معنىٰ معتبراً.

والوجه في تأويلها: أنّ مجموع الآية مقصود منه التّشريع دون الإخبار لأنّ الله تعالىٰ قال في آخرها: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [النور: ٣]، ولأنّها نزلت جواباً عن

(١) ابن عاشور، **التّحرير والتّنوير**، مرجع سابق، ج١٨، ص١٥٢.

سؤال مرثد تزويجه عناق، وهي زانية ومشركة، ومرثد مسلم تقي. غير أنّ صدر الآية ليس هو المقصود بالتّشريع، بل هو تمهيد لآخرها، مشير إلىٰ تعليل ما شُرع في آخرها، وفيه ما يفسر مرجع اسم الإشارة الواقع في قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور: ٣] وأنّ حكمها عام لمرثد وغيره من المسلمين بحق عموم لفظ المؤمنين.

وينبني علىٰ هذا التّأصيل أنّ قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] تمهيد للحكم المقصود الذي في قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور: ٣] وأنّه مسوق مساق الإخبار دون التّشريع، فيتعين أنّ المراد من لفظ الزّاني المعنىٰ الاسميّ لاسم الفاعل، وهو معنىٰ التّلبس بمصدره دون معنىٰ الحدوث؛ إذ يجب أن لا يغفل عن كون اسم الفاعل له شائبتان:

شائبةُ كونه مشتقاً من المصدر، فهو بذلك بمنزلة الفعل المضارع، فضارب يشبه يضرب في إفادة حصول الحدث من فاعل.

وشائبةُ دلالته علىٰ ذات متلبسة بحدث، فهو بتلك الشّائبة يقوىٰ فيه جانب الأسماء الدّالة علىٰ الذّوات. وحمله في هذه الآية علىٰ المعنىٰ الاسميّ تقتضيه قرينة السّياق؛ إذ لا يفهم أن يكون المعنىٰ أنّ الذي يحدث الزّنا لا يتزوج إلّا زانية لانتفاء جدوىٰ تشريع منع حالة من حالات النّكاح عن الذي أتىٰ زِناً.

فتمحض أن يكون المراد من قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] إلخ: من كان الزّنا دأباً له قبل الإسلام، وتخلق به ثُمّ أسلم، وأراد تزوج امرأة ملازمة للزّنا مثل البغايا ومتخذات الأخدان (ولا يكنّ إلّا غير مسلمات لا محالة) فنهىٰ الله المسلمين عن تزوج مثلها بقوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور: ٣]. وقدم له ما يفيد تشويهه، بأنّه لايلائم حال المسلم وإنّما هو شأن أهل الزّنا، أي غير المؤمنين، لأنّ المؤمن لا يكون الزّنا له دأباً، ولو صدر منه لكان علىٰ سبيل الفلتة كما وقع لماعز بن مالك.

فقوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] تمهيد وليس بتشريع، لأنّ الزّاني -بمعنىٰ مَن الزّنا له عادة- لا يكون مؤمناً، فلا تشرع له أحكام الإسلام.

وعطف قوله: ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] على ﴿زَانِيَةً﴾ [النور: ٣] لزيادة التّفظيع فإنّ الزّانية غير المسلمة قد تكون غير مشركة مثل زواني اليهود والنّصارى وبغاياهما. وكذلك عطف ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣] على ﴿إِلَّا زَانٍ﴾ [النور: ٣] لظهور أنّ المقام ليس بصدد التّشريع للمشركات والمشركين أحكام التّزوج بينهم؛ إذ ليسوا بمخاطبين بفروع الشّريعة.

فموقع هذه الآية موقع المقصود من الكلام بعد المقدمة، ولذلك جاءت مستأنفة كما تقع النّتائج بعد أدلتها، وقدم قبلها حكم عقوبة الزّنا لإفادة حكمه وما يقتضيه ذلك من تشنيع فعله. فلذلك فالمراد بالزّاني: مَن وصف الزّنا عادته."(١)

القضيّة الثّالثّة: القذف

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾ [النور: ٤-٥]

القذف جريمة، وهي نسبة إنسان مؤمن -ذكراً كان أو أنثى- إلى الزّنا، مثل أن يقال: "فلان زانٍ، أو زنى بفلانة" وما شاكل ذلك، فهي جريمة تبعية، تتصل بجريمة الزّنا وجاءت في أعقاب ذكر حد الزّنا وعقوبته لتنبه إلى أن وقوع بعض الحالات الشّاذة والنّادرة من أبناء المجتمع المسلم في جريمة الزّنا لا ينبغي أن يقود إلى التّساهل في إشاعة الفاحشة في المجتمع، والإكثار أو التّساهل برمي أبناء المجتمع بعضهم لبعض بتهمة الزّنا أو عمل قوم لوط "السّدومية"؛ لأنّ في ذلك إشاعةً للفاحشة وإضعافاً من مشاعر الاستنكار التي بناها ويبنيها الخطاب القرآني في نفوس المسلمين وعقولهم لحمايتهم من السّقوط في تلك الرّذائل والفواحش، فإشاعة الفاحشة يؤثّر في كسر حاجز استهجانها ورفضها والخوف من السّقوط فيها، ولذلك فإنّ فنون المسلمين لا بد أن تبعد كلّ البعد عن أي شعر أو نثر أو فن أو رسم يمكن أن يحرك دواعي الفجور في النّفس أو يزيل عوامل النّفرة منها، فيكسر الحواجز النّفسية بين النّفس ومقارفة

(١) المرجع السابق، ج١٨، ص١٥٤-١٥٦.

تلك الفواحش، فالفنون التي أتقنها الرّومان والفرس وبعض الهنادك في رسم الصّور العارية والأعضاء التّناسلية للذّكور والإناث لا ينظر القرآن إليها علىٰ أنّها فنون، بل هي عبث وإفساد وتعبير عن الرّغبة في إشاعة الفواحش ونشرها، فلا يكرم أهلها ولا يقال: إنّها فنون، ولا إبداع، ولا توصف إلّا بالحقائق القائمة بها من تحريض علىٰ الفحش وإعلاء لشأن المعصية وإظهار الإعجاب بممارستها، ولا يقْدم علىٰ ذلك ويُقبل عليه إلّا الرّاغبون بتغيير مفاهيم النّاس وتحطيم الأسوار، أسوار الكرامة الإنسانية والدّينية والورع والتّقوىٰ ليرىٰ النّاس آنذاك في الزّنا حباً، وفي الشّذوذ مثليةً ناجمة عن ميول خلق الإنسان بها، فتبدأ في المجتمعات عمليات إشاعة الفاحشة ونشرها مغلّفة بتلك الأغلفة التي تسميها فنوناً وروائع عالمية وإبداعاً وما إلىٰ ذلك. فهم لم يتجهوا إلىٰ حلق الرّأس وزرع الشّعر فيه كإبداع؛ لأنّ تصوير الرّأس وصناعة تمثال له لا يغري بالفاحشة ولا يخرق الكرامة الإنسانية بجعل الإنسان ينظر إلىٰ نفسه علىٰ أنّه شقيق الحيوان في كل شيء، وكفؤ له في كلّ أمر، ومماثل له في كل ما يأخذ ويدع. لم نَرَ هؤلاء الذين ينسبون تصوير وتمثيل تلك الأوضاع يرون في نزو كلب علىٰ كلبة أو قط علىٰ قطة أو سواها في قارعة الطّريق إبداعاً ولا فنّاً، مع أنَّ الأمر مماثل لو لم تكن في الحالة الإنسانية قائمة علىٰ الرّغبة في إشاعة الفاحشة وكسر حواجز التّكريم، وإتيان الفواحش وما إلىٰ ذلك. وفي الهند والصّين وغيرهما ابتكر الوثنيون عبادات يقدس فيها الإناث الأعضاء التّناسلية للذّكور، وكذلك يفعل الذّكور مع الإناث، وسوّل لهم الشّيطان أعمالهم وأغواهم بأنّ هذه الأعضاء هي مصادر الحياة، ويجب علىٰ الإنسان أن يعظِّم مصادر الحياة ويقدسها ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٧] فإذا وجدنا القرآن يعاقب علىٰ القذف، فإنّ ذلك يزيدنا حباً بشريعة الله وإيماناً بها وإعجاباً بكلّ ما جاءت به، وتقديراً لكلّ ما حفلت به من أحكام. وعقوبة القذف كما نصّت الآية الكريمة عليها تشتمل علىٰ ثمانين جلدة، وذلك يجعلها قريبة جداً من عقوبة الزّنا نفسه، مع حرمان من الشّهادة مدىٰ الحياة "الحقوق المدنية"، فيوضع علىٰ قائمة سوداء هي قائمة الممنوعين من قبول شهاداتهم في أية محكمة، وعلىٰ أيَّة قضيّة، إمعاناً في إهانتهم. إنّ أبا بكرة -الصّحابي الجليل- حين شارك في الشّهادة

علىٰ المغيرة رفضوا رواياته كلها مع أنّ الرّجل كان من بين كرام الصّحابة، ولكن جاءت الشّريعة بأنّ شهود الزّنا الأربعة إن رجع أحد منهم عن شهادته فلا بد من حد الثّلاثة الآخرين، وحادثة المغيرة المشهورة رجع أحد الشّهود الأربعة وأبدىٰ شيئاً من الشّك في رؤيته حالة الزّنا الفعلي بحسب شرط الشّارع، فأمر عمر بجلد الثّلاثة الآخرين واعتبارهم قَذَفَة. وقد أهدر القرآن إضافة إلىٰ شهاداتهم الحرمة والحصانة التي يشاركون فيها أبناء المجتمع المسلم، فمن يقع في القذف فإنّه يتصف بالفسق، بحيث لو وصفه أحد بالفسق لم يستطع أن يقيم الدّعوىٰ عليه أنّه قد اتهمه بالفسق أو قذف به، فأهدرت كرامته كما أهدر هو كرامة أخيه من قبل، فأطلَق عليه أنّه فاسق، وهي جريمة خطيرة في القرآن، رتَّب عليها هذه العقوبات الثّلاث الزّاجرة الرّادعة.

وهكذا تحمي شريعة الله أموال النّاس وأعراضهم ودماءهم فلا تسمح بالتّهاون في أي جانب من جوانبها. والله أعلم.

لقد ابتُلِيَ المؤمنون في عصرنا الحالي بالفيديو والتّصوير وتسجيل الأصوات وتقنيات المعالجة الرّقمية وغيرها، وأذكر أنّ المحاكم المصرية عالجت قضية امرأة أرادت إثبات نكاحها العرفي من زوجها الذي استولىٰ علىٰ الأوراق ومزقها فلم يعد لها ما تثبت به زواجها العرفي من ذلك الرّجل وادّعت عليه مرتين وثلاث بأنّه زوجها، ولكنه أنكر ونفىٰ أيّة صلة لها به، ولمّا أعياها الأمر استدرجته ذات ليلة إلىٰ المبيت معها ووضعت مسجلاً صغيراً تحت السّرير، وفتحت باب عتاب لطيف تعاتبه فيها علىٰ تنكّره لزواجهما العرفي وإنكاره له، فاعتذر الرّجل عن ذلك وبين الأسباب، ثُمّ أغرته بمعاشرتها، وسُجل ذلك كله، وذهبت في اليوم التّالي إلىٰ المحكمة وأقنعت المحكمة بقبول ذلك الشّريط كوسيلة إثبات لنكاحها الشّرعي ودخوله بها، وقد حكمت لها المحكمة بذلك بعد استماع خبير أصوات أثبت أنّ المرأة والزّوج المدَّعِّي عليه هما صاحبا الصّوت المسجل، كما اعتبر أصوات السّرير ونَفَسُهما دليلاً علىٰ الدّخول بها وفوجئ الزّوج بذلك كله واعترف بالزّواج العرفي وأثبتت المحكمة للمرأة شيئاً من حقوقها. أثارت هذه الواقعة وطرحت علىٰ المفتين أسئلة عديدة، منها:

"قضيّة الأخذ بالصّور بكل أشكالها لإثبات حالة زنا أو نكاح وأشرطة الفيديو والتّسجيلات الصّوتية وما إلىٰ ذلك".

وعندنا أنّ هذه الأمور كلها يدخلها الظّن والشّك، فلا تأخذ صفة الشّهادة "شهادة الأربع" في إثبات واقعة الزّنا، ولا يدرأُ الحد عن القذفة وجود شريط مصور، وإذا أريد أن تتخذ هذه الوسائل كإثبات فلا بد من دراسات علمية مفصلة لها، تكشف عن جميع الثّغرات التي يمكن أن تتعرض لها هذه الوسائل، وتبيّن كيفيّة معالجتها، وما يمكن أن يثبت بها وما لا يمكن، وما المستوىٰ الذي يمكن للقضاة والمفتين أن يعطوه لمثل هذا النّوع من وسائل الإثبات، وإلّا فسيكون من أسهل الأمور التّلاعب في كثير من الحقوق والتّفريط بكثير منها واضطراب العدل وضياع الحقوق وما إلىٰ ذلك، فلا بد من البحوث والدّراسات العلمية الجادة قبل إغراق المحاكم بهذه الوسائل. والله أعلم.

شروط القاذف: أن يأتي بأربعة شهداء، والتاء في ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ٤] في ظاهرها تفيد اعتبار كونهم من الرّجال، لكن باقي الشّروط تفهم ضمناً كالتّكليف والعقل والعلم بالحرمة والبلوغ.(١) وإذا كان القاذف من الرّقيق: فظاهر العموم أيضاً أنّ الرّقيق والحُر في ذلك الحكم سواء، وأنّ كلاًّ منهما يجلد ثمانين جلدة إذا وقع القذف منه بشرطه.(٢)

شروط المقذوف: الإحصان، ولأنّ الإحصان يتحقق بأربعة مستويات كان لا بدّ من التّيقن من الإحصان، وذلك بتحقق أقل مستوىٰ له وهو العفة. فمن قذف غير عفيف فلا يحدّ. والله أعلم.

(١) وللعلماء خلاف في أهل الشّهادة من هو؟ فالشّافعية يقولون: لا بد في أهل الشّهادة أن يكون عدلاً، والحنفية يقولون: الفاسق من أهل الشّهادة، وعلىٰ هذا تظهر ثمرة الاختلاف. فإذا شهد أربعة فسّاق علىٰ المقذوف بالزنا فهم قَذَفَة عند الشّافعية، يُحدون كما يحد القاذف الأول، إذا لم يأت بأربعة من أهل الشّهادة. والحنفية يقولون: لا حدَّ عليه، لأنّه أتىٰ بأربعة من أهل الشّهادة، إلّا أنّ الشّرع لم يعتبر شهادتهم لقصور في الفاسق، فثبتت بشهادتهم شبهة الزّنا، فيسقط الحد عنهم وعن القاذف، وكذلك عن المقذوف لِإعتبار العدالة في ثبوت الزّنا، انظر:

- السايس، **تفسير آيات الأحكام**، مرجع سابق، ج١، ص٣٢٢.

(٢) وبهذا الظّاهر قال ابن مسعود والأوزاعي، وهو أيضاً مذهب الشّيعة. لكنّ فقهاء الأمصار مُجمعون علىٰ أنّ حدَّ الرّقيق في القذف أربعون جلدة علىٰ النّصف من حدّ الحر، كما في الزّنا، وعلىٰ ذلك تكون الآية خاصة بالأحرار.

وحكم القذف هو الجلد ثمانون جلدة للحر وأربعون جلدة للعبد أو الأَمَة قياساً علىٰ تنصيص عقوبة الزّنا للعبد والأَمَة.(١)

حكم الشّهود إذا لم يكتمل النّصاب: يُحدُّون، لأنّهم يعتبرون قَذَفَة أيضاً، فقد سقطت عنهم صفة الشّهادة لأنّه لم يكتمل بهم النّصاب.

من يطبق الحد؟ وظاهر قوله تعالىٰ: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ [النور: ٤]، المخاطب فيه هم أولياء الأمر من الحكام. أنّ الإمام يقيم الحدّ ولو من غير طلب المقذوف.(٢)

توبة القاذف

ولعلَّ الرّاجح عودة الاستثناء إلىٰ الجمل الثّلاث "الجلد" و"الشّهادة" و"التّفسيق"، والسّياق ينصر ذلك الاتجاه؛ لأنّ الأصل في التّوبة أنّها بشروطها تكون كفارة للتّائب تخلّصه من جميع الآثار المترتبة علىٰ مقارفة الذّنب الذي تاب عنه، وعلىٰ ذلك تسقط العقوبات الثّلاث عن القاذف إذا تاب توبةً نصوحاً قبل القدرة عليه وتنفيذ الحد بحقه، فكون العقوبة مركبة يكون الاستثناء عائداً علىٰ العقوبة بجملتها، وتكون التّوبة مسقطة للعقوبة بعناصرها الثّلاثة.(٣)

---

(١) الحاصل أنّه يعتبر في تحقق إحصان المقذوف العفة عن الزّنا، والحرية والإسلام، وأمّا البلوغ والعقل فإنّهما من لوازم العفة -كما علمت- وهذا الذي ذكرناه هو رأي الجمهور من العلماء وفقهاء الأمصار، وأصحّ الرّوايتين عن أحمد، ولبعض الفقهاء خلاف في شيء من ذلك: فداود الظّاهري لا يشترط الحرية في المقذوف، ويرىٰ أنّ قاذف العبد يحد، فإن كان يكتفي في الإحصان بالعفة لشهرته فيها لزمه القول بحد من قذف كافراً عفيفاً. وروي عن ابن أبي ليلىٰ أنّ من قذف ذميّة لها ولد مسلم يُحدّ. قال بعضهم: وكذلك يُحدّ قاذفها إذا كانت تحت مسلم. ذهبوا إلىٰ ذلك دفعاً للعار الذي يلحق ابنها أو زوجها المسلم، انظر:
- السايس، **تفسير آيات الأحكام**، مرجع سابق، ج١، ص٥٥١.

(٢) وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي والشّافعي: لا يحدّ إلّا بمطالبة المقذوف. وقال مالك: إذا سمعه الإمام يقذف حدَّه ولو لم يطلب المقذوف، إذا كان مع الإمام شهود عدول، انظر:
- السايس، **تفسير آيات الأحكام**، مرجع سابق، ج١، ص٥٥٣.

(٣) والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها أن تكون الجمل الثّلاث بمجموعهن جزاء الشّرط، كأنّه قيل: ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردّوا شهادتهم، وفسّقوهم أي: فاجمعوا لهم الجلد والرد والتّفسيق، إلّا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا، فإنّ الله يغفر لهم، فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسّقين.=

حق الله وحق العباد

كأنّ ما سماه الفقهاء بـ "حق الله" مقابل لما أطلق عليه رجال القوانين المحدثون "الحق العام"، فهو حق لا يضاف إلىٰ إنسان بعينه، بل إلىٰ شخصية اعتبارية تجعله حقاً لله الذي يعتبر جلَّ شأنه خلقه كافة بمثابة عيال له يتولىٰ حمايتهم والدّفاع عنهم والتّشريع لحماية ما يهمهم، وما يحقق مقاصدهم، فالدَّين حقٌّ للدّائن من حيث كونه مالاً أقرضه لغيره، وعلىٰ المقترض أن يعيده إليه، وإلزام الله تعالىٰ للنّاس بحماية حق

= فإن قلت: هل للمقذوف أو للإمام أن يعفو عن حد القاذف؟ قلت: لهما ذلك قبل أن يشهد الشّهود ويثبت الحد، والمقذوف مندوب إلىٰ أن لا يُرافع القاذف ولا يطالبه بالحد. ويحسن من الإمام أن يحمل المقذوف علىٰ كظم الغيظ، ويقول له: أعرض عن هذا ودعه لوجه الله قبل ثبات الحد، فإذا ثبت لم يكن لواحد منهما أن يعفو؛ لأنّه خالص حق الله، ولهذا لم يصح أن يصالح عنه بمال. فإن قلت: هل يورث الحد؟ قلت: عند أبي حنيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لا يورث، لقوله ﷺ: «الحد لا يورث» وعند الشّافعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يورث، وإذا تاب القاذف قبل أن يثبت الحد سقط. وقيل: نزلت هذه الآية في حسان بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حين تاب مما قال في عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا. انظر:

- الزمخشري، **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، مرجع سابق، ص٧٢٠.

والمشهور عند الأصوليين أنّ أصحاب الشّافعي يقولون برجوعه إلىٰ جميع الجمل، وأنّ أصحاب أبي حنيفة يقولون برجوعه إلىٰ الجملة الأخيرة، وجماعة من المعتزلة يقولون بالتفصيل، وآخرون يقولون بالاشتراك، وآخرون يقولون بالوقف، وليس هذا محل ذكر الحجج للمختلفين. والذي ينبغي ذكره هنا أنّ الخلاف بين الشّافعية والحنفية إنما هو في الكلام إذا خلا عن دليل يدل علىٰ أحد الرّأيين، أمّا إذا كان في الكلام دليل علىٰ أحد الرّأيين فإنّه يجب المصير إليه بلا خلاف. فقوله تعالىٰ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ [النساء: ٩٢] قد اشتمل علىٰ قرينة تعيّن أنّ الاستثناء راجع إلىٰ الجملة الأخيرة وحدها. وتلك القرينة هي امتناع عود الاستثناء إلىٰ تحرير الرقبة، لأنّه حقّ الله تعالىٰ، وتصدق الولي لا يكون مُسقِطاً لحق الله تعالىٰ. وكذلك قوله تعالىٰ في المحاربين: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة: ٣٣] إلىٰ قوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٤] فيه دليل علىٰ رجوع الاستثناء إلىٰ الجمل كلها، فإنّ التّقييد بقوله تعالىٰ: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] يمنع عود الاستثناء الأخيرة وحدها، أعني قوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: ١١٤] إذ لو عاد إليها وحدها لم يبق لهذا القيد فائدة، إذ من المعلوم أنّ التّوبة من الذّنب تُسقط العذاب الأخروي سواء أكانت قبل القدرة عليهم أم بعدها، فلم يكن للتّقييد بقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] فائدة إلا سقوط الحدّ. انظر:

- السايس، **تفسير آيات الأحكام**، مرجع سابق، ج١، ص٥٥٧.

الدّائن لدىٰ المدين وإجبار المدين علىٰ أداء ذلك الحق لصاحبه هو حق الله تعالىٰ في هذه المعاملة، لأنّه لو لم تلتزم الجماعة بحماية الدّائن من مَطْل المدين أو جحْده، وحماية المدين من تعسُّف الدّائن في استعمال حقه لاضطربت أمور المداينات التي تمثّل حاجَّةً تشْتدُّ حاجة أبناء المجتمع إليها، ويتعرض المجتمع كله للضّرر لو أغلق هذا الباب، ولم تُكفل له الحماية اللازمة والتّنظيم الدّقيق، الذي يؤدي لكلّ ذي حق حقه.

أمّا في شأن القذف فهناك حق لله جلّ شأنه وهو إلزام الجماعة أو الأمة بحفظ أعراض أبنائها كما ألزموا بحفظ أنفسهم وأموالهم، فتوجيه القاذف القذف لشخص بعينه هو طعن في عرض ذلك الشّخص، ولا يقتصر ضرره علىٰ المقذوف نفسه، بل يمتد إلىٰ الجماعة التي قد تشيع فيها الفاحشة وتستباح فيها الأعراض، وتصبح سمعة كل إنسان معرضة للضّياع والامتهان، فحق ذلك الشّخص بعينه، أن نحمي له عرضه وندافع عنه ونقتص ممن طعن فيه ونحدد له العقوبة الزّاجرة لئلا يعود لمثل ذلك أبداً، وحق الله جلَّ شأنه أن لا تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فهو حين يقول للنّاس ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ أي لا تسمحوا بوقوع جرائم القتل بينكم؛ لأنّها سوف تؤدي إلىٰ أن يستهين المستعدون للإجرام بالأعراض ويوجهون الطّعن لهذا وذاك؛ فتُمتهن الأعراض وتُنتهك حرمتها وتشيع قالة السّوء بين النّاس، فالله تعالىٰ يحمي النّاس بأن يأمر الأمة كلها بأن تأخذ حذرها، وتقف صفاً واحداً في ردع ومواجهة مرتكبي هذا النّوع من الجرائم، ومعاقبة أصحابها قياماً بحق الله تبارك وتعالىٰ الذي أوكل إليها حفظه، والحرص عليه، وعدم التّفريط به. فحق الله تعالىٰ الذي هو منع انتشار الفاحشة مكفول بتوبة هذا القاذف الذي تاب وأصلح، أمّا حق المقذوف فلا يسقط إلّا بإذنه، كأن يطلب من القاذف أن يعلن كذبه عليه أمام النّاس ويبرئ المقذوف.

القضيّة الرّابعة: اللِعان

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٦-١٠]

بعد أن بيّن الله جلّ شأنه حدَّ القذف، برزت إشكالية أن يكون الشّاهد زوجاً للمشهود عليها بالزّنا، فهل يشترط الأربعة شهداء أم لا بد من حكم خاص في هذه الحالةِ يَخرج من السّياق العام الذي ورد فيه وجوب وجود الشّهداء الأربعة؟

هنا يأتي القرآن المجيد بأسلوبه المعجز ليؤكد ضرورة وجود الشّهداء الأربعة من ناحية، ويقدم للنّاس نوعاً من الشّهادات خاصاً ألا وهو شهادة الواحد فيما عرف بموضوع اللعان.

روى البخاري "أَنَّ هِلَالَ بن أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النبيِّ ﷺ بِشَرِيكِ بن سَحْمَاءَ، فقال النبي ﷺ: "الْبَيِّنَةَ أو حَدٌّ في ظَهْرِكَ"، فقال: يا رَسُولَ الله إذا رَأَى أَحَدُنَا على امْرَأَتِهِ رَجُلاً يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ؟ فَجَعَلَ النبيُّ ﷺ يقول: "الْبَيِّنَةَ وَإِلَّا حَدٌّ في ظَهْرِكَ"، فقال هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إني لَصَادِقٌ فَلَيُنْزِلَنَّ الله ما يُبَرِّئُ ظَهْرِي من الْحَدِّ."(١)

فجاءت الآيات الكريمة لتبين الحكم الشّرعي في هذه الحالة، فهنا نحن أمام حالة لا تجعل من البيت الذي وقعت فيه الجريمة، وكان مسرّحاً لها منتهك الحرمة معرضاً للفضيحة التي قد تتجاوز الزّوجين إلى الأبناء والأقارب، ويتضرر بها كثير من الأبرياء دون ذنب جنوه أو جريمة ارتكبوها إلّا أنّهم كانوا من أقارب هذا الزّوج أو الزوجة، فيقدر الله عزَّ وجلَّ هذا الأمر ويحمي الأبرياء من كل تلك الآثار، فيشرع حالة اللعان. ولا يظنَّنَّ امرؤ أنّ هذه العقوبة هينة، فالمتلاعنان يتلاعنان على مشهد من النّاس في مسجد المنطقة التي يسكنون بها.

فاستبدل بالشّهود الأربعة الشّهادات الأربع، فإذا أرادت الزّوجة أن تدرأ عن نفسها عقوبة الجلد -كما بينا سابقاً- فتشهد شهادات مضادة لشهادات الزّوج تبطل بها مفعولها.

ونلحظ الفرق بين الشّهادة الخامسة للرّجل والمرأة، أنّه في حالة الرّجل اللعنة، وفي حالة المرأة الغضب.

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب التفسير، بَاب وَيَدْرَأُ عنها الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِالله إنه لَمِنْ الْكَاذِبِينَ، حديث رقم (٤٧٤٧)، ص٩٢٠.

فاللعنة هي الطّرد من رحمة الله والإقصاء عنها، وهي أكثر ما يخشاه الرّجال وهو ما يتردد بينهم عند النّزاع والتّشاتم فيقال: "لعن الله فلاناً"، ففي الخامسة يعلن أنّه يلاعن زوجته وهو غير غافل عن ذكر الله وعن عقوبته إن كذب. فإن استسلمت الزّوجة وأقرّت فيكون إثبات الزّنا عليها بالإقرار واللعان، فينالها العذاب الذي هو الجلد المذكور في الآية الثّانية من السّورة وهو الذي سمّاه الله عذاباً ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا ﴾ [النور: ٢] كما سمّاه هنا ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ [النور: ٨]. والعذاب معرّف بالألف واللام للعهد، والعهد هنا قريب جداً بين الآيتين. فإذا تمت شهادتها فلا يقع عليها عذاب الجلد، ويّفرَّق بينهما، فلا يمكن أن يكون بينهما بيت آمن بعد أن رمى الرّجل زوجته بالزّنا واستمطر على نفسه اللعن، وأمّا المرأة تكون قد كذبته واستمطرت على نفسها غضب الله إن كانت كاذبة، فلا يمكن أن تقام بينهما -بعد ذلك كله- الغاية من الزّواج، وهي المودة والرّحمة والسّكن والنّسب والصّهر، فلا بد أن يشق كلّ منهما طريقه فيما بقيَ من الحياة بعيداً عن الآخر، وتظل محرمةً عليه إلى الأبد. والله أعلم.

إنّ الدّعاوى في قضايا الخيانة الزّوجية في عصرنا الحاضر تشغل الكثيرين، وتنفق المحاكم ودوائر الشّرطة والجهات المختصة الملايين لاحتواء مشكلاتها، وفي هذه الشّريعة الغراء تُحتوى هذه المشكلة وتكاد تحصر في دائرة المنزل ولا تأخذ تلك الفترات الطّويلة وما يتبعها من مآسٍ ومشكلات. والله أعلم.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [النور: ١٠] أي ولولا فضل الله عليكم بهذه التشريعات الواضحة الحكيمة التي تجمع بين الحزم والشّدة والرّحمة، وإمكانية التّوبة في آن واحد، فلا تنهي على حياة شخص لذنب أذنبه، لمسّكم عذاب أليم بسبب ذنوبكم تلك في الدّنيا قبل الآخرة، بأن تصبح حياتكم جحيماً لامتلائها بالخيانة والكذب والخداع، وعندئذ لن ينجو منها المجتمع أبداً إلّا أن يشاء الله، فكل زوج تمت خيانته، إن لم يوجد سبيل لرد حقه واعتباره ومعاقبة الجاني، فسينتقم هو بنفسه من زوجته ومن رفيقها الجاني، وهذا الجاني هو بدوره سوف يرد هذا الانتقام بمثله أيضاً، وهكذا تصبح دائرة مفرغة لا خروج منها، ونحن نجد في المجتمعات التي لا يطبق فيها هذا المبدأ كمّاً هائلاً من حالات الخيانة الزّوجية للرّجال أو النّساء والدّراسات في هذا المجال كثيرة ومتيسرة، لمن يريد الوصول إلى نسب دقيقة عن هذه الحالات.

النَّجم الثاني: قصة الإفك

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم
مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ (١١) لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ (١٢) لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ
بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ (١٣) وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ
لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ
عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ (١٥) وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا
سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ (١٦) يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (١٩) وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ
وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٢٠) ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ
أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٢١) وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن
يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ
ٱللَّهُ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا
وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٢٣) يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
(٢٤) يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ (٢٥) ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ
وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ
لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ (٢٦)﴾ [النور: ٢٦-١١]

إنّ هذه الآيات جاءت بعد فاتحة السّورة ذات الأوصاف المهمة جداً التي وُصفت السّورة بها، كما وقعت لتكون بمثابة المقدمة لأخطر جريمة ارتُكبت في حق النّبيِّ ﷺ وآل بيته وأهله من أمهات المؤمنين في المدينة المنورة. حيث استنفد المنافقون وحلفائهم كثيراً من طرق لمعاداة رسول الله ﷺ، فلم يوقفوا تيار الدّعوة الهادر، ولم يعرقلوا مسيرة النّبي ﷺ في بناء الأمة، فما بقيَ بين أيديهم من أسلحة ليس بأقوىٰ ولا أفتك مما استعملوه فيما سبق، فلجأوا هذه المرة إلىٰ حرمات الرّسول ﷺ محاولين اختراقها

في مجتمع قبلي يعظم الأنساب ويفخر بها ويقاتل عنها؛ ليَصِموا واحدة من أهم أمهات المؤمنين زوجة الرّسول الكريم من ناحية وابنة صديقه وصدِّيقه والخليفة من بعده أبي بكر الصّديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فانتهزوا فرصة تخلفها عن الجيش في طريق العودة من غزوة بني المصطلق مع صفوان بن المعطّل السّلمي، فلم يضيعوها وجاؤوا بالإفك لعلهم يعرقلون مسيرة الإسلام وانتشار دعوته بالطّعن في بيت النّبوة، بما ينفر النّاس من الرّسول الكريم وآل بيته.

و"الإفك" أقصىٰ درجات الكذب والافتراء؛ لأنّه لا يقوم علىٰ أي أصل؛ ففي الكذب المألوف قد يكون هناك أصل، مهما كان ضعيفاً أو واهناً يبني الكذاب عليه كذبه؛ أمّا "الإفك" فهو اختلاق الأمر اختلاقاً من إنسان كاذب يسخّر عقله وقوىٰ وعيه لتلفيق هذا الكذب، ويفتعل كل أحداثه بدوافع غاية في الحقارة والخسة، وفي التّنـزيل قوله تعالىٰ ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] فلمّا كان ادّعاء وجود شريك لله أو ندّ له أو ابن أو ابنة محض اختلاق وتلفيق وصناعة من الكافرين، عبَّر القرآنُ عنه بقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، لذلك نطقت الآية الكريمة بهذا التّعبير المتين لتبيِّن منذ البداية وبمجرد قراءة ألفاظ الآية أنّنا أمام حادثة عجيبة، وأنَّ هؤلاء المنافقين صنعوا ذلك الإفك صناعة في مكان ما، وجعلوا منه شيئاً يذكر ثُمّ جاؤوا المجتمع به، فالأمر كله صناعة وتلفيق، ولندع أمنّا عائشة -التي وقع اختيار الآفكين عليها لتكون ضحية لإفكهم- تحكي لنا ما حدث؛ قالت:

«كان رسول الله ﷺ إذا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَراً أَقْرَعَ بين أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بها معه، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا في غَزَاةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ معه بَعْدَ ما أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ في هَوْدَجٍ وَأُنْزَلُ فيه، فَسِرْنَا حتىٰ إذا فَرَغَ رسول الله ﷺ من غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا من الْمَدِينَةِ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حين آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حتىٰ جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فلما قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إلىٰ الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ أَظْفَارٍ قد انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الذينَ يَرْحَلُونَ لي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ علىٰ بَعِيرِي الذي كنت أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فيه، وكان النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافاً لم يَثْقُلْنَ ولم يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا

يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ من الطَّعَامِ، فلم يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ حين رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ ما اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فيه أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الذي كنت بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أنا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وكان صَفْوَانُ بن الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ من وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَىٰ سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي، وكان يَرَانِي قبل الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حين أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فوطئ يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حتىٰ أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ ما نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ في نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ من هَلَكَ، وكان الذي تَوَلَّىٰ الْإِفْكَ عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ بها شَهْراً يُفِيضُونَ من قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي في وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَىٰ من النبي ﷺ اللُّطْفَ الذي كنت أَرَىٰ منه حين أَمْرَضُ، إنما يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يقول: كَيْفَ تِيكُمْ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ من ذلك حتىٰ نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أنا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا، لَا نَخْرُجُ إلا لَيْلاً إِلىٰ لَيْلٍ، وَذَلِكَ قبل أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيباً من بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ في الْبَرِّيَّةِ أو في التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أنا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أبي رُهْمٍ نَمْشِي فَعَثَرَتْ في مِرْطِهَا، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فقلت لها: بِئْسَ ما قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْراً؟ فقالت: يا هَنْتَاهْ، أَلَمْ تَسْمَعِي ما قالوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضاً إِلىٰ مَرَضِي، فلما رَجَعْتُ إِلىٰ بَيْتِي دخل عَلَيَّ رسول الله ﷺ، فَسَلَّمَ، فقال: كَيْفَ تِيكُمْ؟ فقلت: ائْذَنْ لي إِلىٰ أَبَوَيَّ، قالت: وأنا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ من قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لي رسول الله ﷺ، فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ، فقلت لِأُمِّي: ما يَتَحَدَّثُ بِهِ الناس؟ فقالت: يا بُنَيَّةُ هَوِّنِي علىٰ نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَالله لَقَلَّمَا كانت امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إلا أَكْثَرْنَ عليها، فقلت: سُبْحَانَ الله، وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ الناس بهذا؟ قالت: فَبِتُّ اللَّيْلَةَ حتىٰ أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ ولا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَدَعَا رسول الله ﷺ عَلِيَّ بن أبي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بن زَيْدٍ حين اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَشِيرُهُمَا في فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عليه بِالَّذِي يَعْلَمُ في نَفْسِهِ من الْوُدِّ لهم، فقال أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يا رَسُولَ الله ولا نَعْلَمُ والله إلا خَيْراً، وَأَمَّا عَلِيُّ بن أبي طَالِبٍ فقال: يا رَسُولَ الله، لم يُضَيِّقْ الله عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، فَدَعَا رسول الله ﷺ بَرِيرَةَ، فقال: يا

بَرِيرَةُ، هل رَأَيْتِ فيها شيئا يَرِيبُكِ؟ فقالت بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إن رأيت منها أَمْراً أَغْمِصُهُ عليها أَكْثَرَ من أنها جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عن الْعَجِينِ فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رسول الله ﷺ من يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ من عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلُولَ، فقال رسول الله ﷺ: من يَعْذُرُنِي من رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ في أَهْلِي؟ فَوَالله ما عَلِمْتُ على أَهْلِي إلا خَيْراً، وقد ذَكَرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عليه إلا خَيْراً، وما كان يَدْخُلُ على أَهْلِي إلا مَعِي، فَقَامَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ فقال: يا رَسُولَ الله، أنا والله أَعْذُرُكَ منه، إن كان من الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كان من إِخْوَانِنَا من الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فيه أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بن عُبَادَةَ وهو سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وكان قبل ذلك رَجُلاً صَالِحاً، وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ، فقال: كَذَبْتَ لَعَمْرُ الله لَا تَقْتُلُهُ ولا تَقْدِرُ على ذلك، فَقَامَ أُسَيْدُ بن الحضير، فقال: كَذَبْتَ لَعَمْرُ الله، والله لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عن الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حتى هَمُّوا، وَرَسُولُ الله ﷺ على الْمِنْبَرِ فَنَزَلَ، فَخَفَّضَهُمْ حتى سَكَتُوا وَسَكَتَ، وَبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ ولا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، قد بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْماً حتى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قالت: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وأنا أَبْكِي، إِذْ اسْتَأْذَنَتْ امْرَأَةٌ من الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لها، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دخل رسول الله ﷺ فَجَلَسَ، ولم يَجْلِسْ عِنْدِي من يَوْمِ قِيلَ فِيَّ ما قِيلَ قَبْلَهَا، وقد مَكَثَ شَهْراً لَا يُوحَى إليه في شَأْنِي شَيْءٌ، قالت: فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قال: يا عَائِشَةُ، فإنه بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ الله، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بشيء فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إليه، فإن الْعَبْدَ إذا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ الله عليه، فلما قَضَى رسول الله ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي، حتى ما أُحِسُّ منه قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ الله ﷺ، قال: والله ما أَدْرِي ما أَقُولُ لِرَسُولِ الله ﷺ، فقلت لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ الله ﷺ فِيمَا قال، قالت: والله ما أَدْرِي ما أَقُولُ لِرَسُولِ الله ﷺ، قالت: وأنا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيراً من الْقُرْآنِ، فقلت: إني والله لقد عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ ما يَتَحَدَّثُ بِهِ الناس، وَوَقَرَ في أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قلت لَكُمْ إني بَرِيئَةٌ وَاللهُ يَعْلَمُ إني لَبَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، والله ما أَجِدُ لي وَلَكُمْ مَثَلاً إلا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ على فِرَاشِي وأنا أَرْجُو

أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ، وَلَكِنْ واللهِ ما ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْياً، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي من أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كنت أَرْجُو أَنْ يَرَىٰ رسول الله ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ، فَوَاللهِ ما رَامَ مَجْلِسَهُ ولا خَرَجَ أَحَدٌ من أَهْلِ الْبَيْتِ حتىٰ أُنْزِلَ عليه الْوَحْيُ، فَأَخَذَهُ ما كان يَأْخُذُهُ من الْبُرَحَاءِ، حتىٰ إنه لَيَتَحَدَّرُ منه مِثْلُ الْجُمَانِ من الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فلما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بها أَنْ قال لي: يا عَائِشَةُ، احْمَدِي اللهَ، فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ، فقالت لي أُمِّي: قُومِي إِلَىٰ رسول الله ﷺ، فقلت: لَا واللهِ لَا أَقُومُ إليه، ولا أَحْمَدُ إلا اللهَ، فَأَنْزَلَ الله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ [النور: ١١] الْآيَاتِ، فلما أَنْزَلَ الله هذا فِي بَرَاءَتِي، قال أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان يُنْفِقُ علىٰ مِسْطَحِ بن أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ منه: واللهِ لَا أُنْفِقُ علىٰ مِسْطَحٍ شيئاً أَبَداً بَعْدَ ما قال لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾ [النور: ٢٢] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بَكْرٍ: بَلَىٰ واللهِ إني لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لي، فَرَجَعَ إِلَىٰ مِسْطَحٍ الذي كان يُجْرِي عليه، وكان رسول الله ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عن أَمْرِي، فقال: يا زَيْنَبُ، ما عَلِمْتِ ما رَأَيْتِ، فقالت: يا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، واللهِ ما عَلِمْتُ عليها إلا خَيْراً، قالت: وَهِيَ التي كانت تُسَامِينِي، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ."(١)

ونزل فيَّ القرآن المجيد في هذا الشّأن الآيات العشر السّابقة الذّكر.

أشارت أم المؤمنين إلىٰ أنَّ هذه الواقعة حدثت بعد فرض الحجاب علىٰ نساء رسول الله ﷺ، وذلك يعني أنّها نزلت في فترة متأخرة أو في النّصف الثّاني من العهد المدني، وفيها في الوقت نفسه أنّ سفر أمهات المؤمنين بصحبة رسول الله ﷺ لا يتنافىٰ مع فرض الحجاب عليهن وإيجاب القرار في البيت، وفيه إشارة إلىٰ أنّ الحجاب أوسع وأعمّ من ارتداء الملابس التي تستر ولا تصف ولا تشف ليدخل فيه القرار في البيت وعدم مغادرته إلّا لضرورة قصوىٰ، وهذا لا يشمل نساء المؤمنين اللواتي يحق لهنّ الخروج للعمل ونحوه دون قيود.

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الشهادات، بَاب تعديل النساء بعضهن بعضاً، حديث رقم (٢٦٦١)، ص٧٨٦.

وقد اشتملت القصة على أحكام كثيرة، وكون النّزول قد تم بهذه المناسبة الأليمة لا يعني أنّه لو لم يحدث ذلك لما نزلت هذه الآيات، فهذه الآيات جزء من كتاب الله القديم غير المخلوق، وشاءت حكمة الله جلّ شأنه أن تقرن بعض الآيات المهمة جداً في أحكامها أو علاقاتها بمناسبات معينة، لتكون أشد تثبيتاً وأقوى رسوخاً في بنية المجتمع الأخلاقية والسّلوكية، وتثبيتها في العقول والقلوب والنّفوس، وفي الواقع التّشريعي والسّلوكي والحياتي، ويهيئ القرآن لها كل الظّروف التي تجعلها ثابتة راسخة لا يمكن نسيانها أو تناسيها أو تجاهلها أو تغييرها بأي شكل من الأشكال، هكذا فعل القرآن في قصة إبراهيم وإلغاء القربان البشري، وهكذا فعل في بيان أنّ الأنبياء لا يملكون من أمر إدخال أحد الجنة أو النّار شيئاً، لأنّ الحكم فيه لله وحده، فجعل من امرأة نوح وامرأة لوط أسوأ مثل للمرأة الخائنة التي تخون النّبي وتخون الوحي، ومن امرأة فرعون أفضل المثل، وهي التي بنى الله لها بيتاً في الجنة رغم وجودها في بيت فرعون الذي أعلن ألوهيته على النّاس فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] و﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]. وقد خلَّد الله تعالى بهذه القصة (قصة الإفك التي ابتُلي بها رسولُ الله ﷺ من أعدائه) هذه المجموعة الكبيرة من الأحكام والآداب والسلوكيات، التي قد يتساهل الناس فيها، وقد لا يشرعون لها من التّشريعات ما يحول دون وقوعها أو استمرارها أو تعاظمها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: ١١].

فقوله جلّ شأنه: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] تدل على عدم تكفير مرتكب الكبيرة، فقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ تدل على عدم خروجه عن جماعة المسلمين.(١) فيعلّمنا الله تعالى أن لا تحسبوا هذا شرّاً محضاً، فإذا نظرنا إلى هذه الأمور بشكل كلي ولاحظنا الجوانب

(١) ذهب عامة الخوارج إلى أنّ من ارتكب كبيرة من الكبائر فقد كفر واستحق النّار، وحملوه على الكفر المخرج من الملة، لا الكفر الأصغر الذي يدخل في المعصية أو الفسق ولا يخرج من الملة، وقد خالف عامة المسلمين وجمهرتهم الخوارج في ذلك، فعدوا مرتكب الكبيرة عاصياً يستطيع أن يتوب ويثوب إلى الله جلّ شأنه، ولعل الله يغفر له، وأدلة الفريقين في ذلك كثيرة ومتعددة، ولها مظانها من المباحث الكلامية، فليرجع إليها فيها.

التّعليمية فيها، وكذلك الجوانب التي تحمي المجتمع من الوقوع والسّقوط في الفتنة، عند تعرضه لمؤامرات المتآمرين والأزمات التي يعمل علىٰ إيجادها أعداء الإيمان والمؤمنين، نستطيع أن ندرك جوانب الخير الكثيرة في الابتلاء بهذه الواقعة. وإذا نظرنا إلىٰ الآلام النّفسية التي تحلّ بمعسكر أهل الإيمان وعلىٰ رأسهم رسول الله ﷺ والسيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا وأهلها والمؤمنين، فإنّنا نستطيع أن نتبين مدىٰ الآلام والإرباك الذي سببته هذه الفِرْية الكبرىٰ والإفك العظيم.

منهج مقاومة الشّائعات

﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ ﴾ [النور: ١٢]

تقدّم لنا هذه الآية منهجاً في تحصين المجتمع المؤمن ضدّ الشّائعات أيّاً كان نوعها ومن أي وعاء خرجت، وقد لخصت الآية الكريمة هذا المنهج في هذه الآية الكريمة، فواجهوا الشّائعة والافتراء باستحضار الظّن الحسن بأنفسهم ولمن وقع الإفك عليهم، خاصة لمن هم بتلك المثابة كأمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، وهم يعلمون أنّ الله تعالىٰ قد تدخل في تزويجها بالنّبي ﷺ، وتطهير بيت النّبوة؛ لأنّها قضية خاصة بالأمّة، فلم يتركها الله تعالىٰ نهباً للأعداء، ولذلك كان ينبغي أن يكون حاضراً في أذهان المسلمين حين بدأ المنافقون يرجفون في المدينة، ويروجون الشّائعات ضدّ أمّ المؤمنين، ذلك الظّن الحسن بأنفسهم وأمّهم والرّجل الصّالح الذي كان يأتمنه رسول الله ﷺ علىٰ مؤخرة جيوشه في غزواته.

وفي الآية إشارة إلىٰ أنّ قالة السّوء لا يستطيع أحد حماية نفسه منها بمجرد نسبه أو انتسابه، فلم يصدّ المنافقين عن اتهام أمّ المؤمنين كونها زوج رسول الله ﷺ ولا كونها ابنة الصّديق، لكن الذي يصون المجتمع ويحمي أهله ويحفظ له روابطه إنما هو الإيمان الذي هو مناط التّأليف بين القلوب وتزكية النّفوس وتطهيرها، ولذلك فإنّ الآية ذكرته ولم تشر إلىٰ حَسَب عائشة ونَسَبها وانتسابها إلىٰ الرّسول الكريم وكونها أمّ المؤمنين، بل استثار في النّاس إيمانهم الذي يحدد لهم ما ينبغي أن يقبلوه أو يرفضوه، فهو الهادي إلىٰ سواء السّبيل، وهو العاصم للمؤمنين من السّقوط. ولعلّ حديث أبي

أيوب الأنصاري وزوجته يوضح ذلك، فيقول لها: "أسمعت ما يقول النّاس؟ قالت: نعم، قال: لو كنتِ مكان عائشة، أكنتِ تفعلين ما يقولون عنها؟ قالت: لا، قال: فعائشة خيرٌ منك، قالت: وأنتَ لو كنت صفوان، أكنتَ تفعل ما قالوه عن صفوان؟ قال: لا، معاذ الله، قالت: فصفوان خيرٌ منك."

فهذا الحديث يبين حُسن الظّن والانطلاق من المسؤولية الفردية، وكعادة القرآن الكريم في تربية النّفس، فيلفتها إلىٰ نفسها ويستثير فيها كوامن الخير والصّدق، وأن علينا أن نميّز بين أن يظن المؤمنون بأنفسهم خيراً ليعصمهم ذلك من قبول قالة السّوء وأنباء الفاسدين وأخبار المنافقين ودعايات المغرضين، وبين أن يصيبهم الغرور والاعتداد بالنّفس إلىٰ درجة الغرور، فيرتكب جريمة أخرىٰ فيحاول النّأي بنفسه عن السّقوط فيما نهىٰ الله عنه، فهذه مزلة أقدام ومواضع اضطراب أفهام تحتاج للكثير من الفهم والوعي والحذر لكيلا ينقلب الشيء إلىٰ ضده.

وفي إطار هذا المنهج يستطيع المؤمن أن يجد العلاقة الواضحة بين ظن المؤمنين بأنفسهم وإخوانهم في الإيمان وبين ظنهم بمصادر قالة السّوء من أهل الفسق ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] ولا بدّ من التّفريق هنا بطريق التّبين بين أنباء الفاسقين والمنافقين والمرجفين، والأنباء الأخرىٰ. وهكذا يعلمنا القرآن من أدبه أنّ الجماعة تظن الخير بنفسها وبأبنائها، فهنا ينتفي الإحساس بنزعة الاستعلاء والاستكبار. وقد نستطيع أن نتبين معلماً آخر في هذه المنهجية حين نقرأ نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النساء: ٨٣] فإذا لا يجوز ترديد الشّائعة كما قيلت وكما روّج لها قائلوها من منافقين وكذابين وفسقة وأعداء، بل تُردّ إلىٰ رسول الله ﷺ في عهده وإلىٰ القادة وأهل العلم، وذلك يعني أنّ الشّائعة تحتاج إلىٰ دراسة وتحليل واستنباط، ومعرفة كل ما يتعلق بها، من قالها؟ وعلىٰ من قيلت؟ ولما وضعت هكذا؟ ومن المستهدف بها؟ وما آثارها لو صُدّقت؟ وما وسائل مواجهتها؟ فتلك كلها تصب في إطار منهج مقاومة الشّائعات.

إنّ ذلك كله يبين أنّ هذه الآية اشتملت علىٰ منهج حكيم دقيق في مواجهة الشّائعات، جدير بالمؤمنين أن يتعلموه ويعلموه ويضعوا له القواعد والضّوابط التي تمكّن أبناء الأمة من مواجهة شائعات وإعلام أعدائها وخصومها بمنهج سليم، قليل التّكلفة لا يعمد إلىٰ استخدام ذات الأساليب الشّيطانية التي يسلكها عادة أصحاب المناهج الأخرىٰ.

وأذكر أنّني كنت في فترة شبابي أثناء الفترة التي عرفت في العراق بفترة المد الأحمر -أي الشّيوعي- وجمعتني زنزانة واحدة بأحد قادة حزب البعث -آنذاك- وأحد قادة الحزب الشّيوعي العراقي، فذكر لي كل منهما أخباراً عجيبة عن بعض العلماء والمشايخ وقادة العمل الإسلامي، ولأنّ هناك شيئاً من الألفة قد قامت بيننا كسجناء؛ نأكل ونشرب وننام في غرفة واحدة، فقد طرح كل منهما كل ما لديه من انطباعات وأمور سمعها عن بعض العلماء والمشايخ وقادة العمل الإسلامي. ولمّا سألت كُلّاً منهما عن مصادره، أجابا بأنّ مصادرنا هو حزبنا، فقلت لهما: إنّني مستعد أن أصحح لكما كل هذه الأكاذيب والدّعاوىٰ، وأثبت لكما كذبهـا علىٰ أن تعاهدوني أنّني إن أقنعتكم بذلك رجعتم عنه، وتبتم إلىٰ الله، وقاومتم مثل هذه الأساليب، وحلتم بينها وبين أن تكون جزءاً من السّياسات الحزبية لأحزابكم، فنحن أبناء بلد عشائري له قيم معينة، تؤثر الشّائعة وقالة السّوء في مصير البريء والمتهم، وإذا ألصقت في خصمك تهمة، فهو ليس بأقل قدرة من أن يصمك بتهمتين وأكثر، وهناك من يستمع، وشعوبنا أَلِفت أن تردد الشّائعات دون تبيّن أو تثبت، وأذكر أنّ من جملة التهم أنّهم اتهموا ابنة أحد العلماء المشهورين في بغداد بالفجور، وأقسمْتُ لهما أنني أعرف الرّجل وأعرف أسرته فرداً فرداً، وأن البنت التي يشيرون إليها ويتهمونها بالوقوع في حب سائق أبيها لا يتجاوز عمرها ثمانية أعوام -آنذاك-، فكيف يتصور من طفلة كهذه أن تعشق وتحب وتهرب إلخ. فلمّا تأكد لهما صدقي فيما ذكرته، أردفتُ قائلاً إن هذا الشّيخ لم يملك سيارة طيلة حياته حتىٰ اليوم الذي دخلت فيه السّجنّ فكيف أشاع عليه حزبكم بملكه لسيارة وسائق تقع ابنته في محبته! وبعد أن فرغنا من النّقاش واطمئنا إلىٰ أنّه ليس هناك ما يدفعني إلىٰ الكذب عليهما فيما ذكرت، أبدىٰ كل منهما أسفه وقالا: "قاتل الله الحزبية، فإنّ أحزابنا قد علمتنا منذ البداية كيف نتهم قادة

الأحزاب المعادية لحزبنا بما ينفر الجماهير عنها، فإذا كانت تلك الأحزاب المعادية دينية إسلامية، فلا بدّ أن نختار لقادتها تُهماً أخلاقية تنال من أعراضهم وأعراض ذويهم، وكثيراً ما تأتينا هذه التهم مطبوعة في حلقات التّثقيف الحزبي، ونعلم الأعضاء الجدد كيف يتداولونها ويشيعونها بين النّاس، أمّا إذا كانت تلك الأحزاب من الأحزاب التي لا تهتم بالشّأن الدّيني ولا تعمل علىٰ كسب الجماهير بوسائل دينية فلا بدّ أن تُصاغ لقادتها اتهامات يتم تلفيقها حول ذممهم المالية وعلاقتهم بالاستعمار وكونهم عملاء يتقاضون مرتبات شهرية من السّفارات الأجنبية". وفي سنة ١٩٥٩م نشرت صور كثيرة لعلماء هم فوق الشّبهات وُضعت بين أيديهم كؤوس تشبه كؤوس الخمر، وكتب تحتها إنّ هذا الشّيخ كان في الخمارة الفلانية يشرب الخمر، وصور أخرىٰ تبين بعض قادة الأحزاب السّياسية المعادية لهؤلاء، وقد أُلقي القبض علىٰ بعضهم واستخرجوا من جيبه شيكاً كان قد تسلّمه لتوه من السّفارة البريطانية أو الأمريكية أو سواها. والجماهير المخدوعة تصدق أحيانا تلك الشّائعات الملفقة وتهلل لها، بل لقد بلغ الأمر حد تلفيق نكت وطرائف ضد المعارضين لتلك الأحزاب للسّخرية منهم واستدراج الجماهير للمشاركة في تلك السّخرية.

﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النور: ١٣]

هنا جزء آخر من منهج التّبيّن والتّثبت، وهو مطالبة أصحاب قالة السّوء أو الشّائعة بتقديم ما يثبت بحسبه، فإن كان اتهاماً بالزّنا أو السّدومية -عمل قوم لوط- أو اتهاماً بالذّمة المالية، فلا بدّ من إثبات، ولا بدّ من التبيّن، وإذا كان نقلاً بطريق الرّواية فلا بدّ من مواجهة بين من نقلوا ومن نُقل عنهم، ليتبين لنا الذين صدقوا ونعلم الكاذبين.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النور: ١٤] وهنا تبرز رحمة الله جلّ شأنه في مواجهة ضعف الإنسان وقلة حيلته أمام إغراء الكلام في أعراض الآخرين الذي يعطي الكثيرين شعوراً بالأفضلية وإحساساً بالتّميز السلّبي لا بتفوقه هو وإنّما بفشل الآخرين، ففضل الله تعالىٰ ورحمته وعنايته لأهل الإيمان وراء حفظ الجماعة المؤمنة وصيانتها من كل ما يُراد بها من عوامل

التّفكيك، فهو الذي ألّف بين قلوب المؤمنين، وهو الذي زكّىٰ نفوسهم وطهّر قلوبهم وأودع فيهم القدرة علىٰ التّبيّن والتّثبت ورفض قالة السّوء، ولولاه عزّ وجلَّ لما زكىٰ أحد منكم وتمكن من صيانة نفسه عن الخوض مع الخائضين في هذه الأمور. فرحمته في الدّنيا بأن علّمكم وبيّن لكم كيف تجتنبون الوقوع في هذا الأمر الجلل، حين أعطاكم القوة علىٰ حسن الظّن بأنفسكم وأمركم بالتّبيّن والتّثبت، وكشف لكم عما يضمره خصومكم وأعدائكم من عداء، فلا يغترّ أحد بنفسه، ولا ينبغي أن يحدّث نفسه بأنّه قد أوتيه علىٰ علم عنده، وذكاء وعبقرية شخصية، وينسىٰ أو يتجاهل فضلَ الله تعالىٰ. ورحمته في الآخرة هي مغفرته عما اقترفتموه، ﴿لَمَسَّكُمۡ﴾ [النور: ١٤] أي كل من ساهم وشارك بل وسكت عن الرّد عن عرض أخيه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فكل أولئك لن ينجوا من أضرارها وشرورها إلّا أولئك الذين هداهم الله، وجعلهم ينهون عن السّوء ويقفون ضده، ولا يسمحون لقالته أن تنال من وحدة الأمة وثباتها واستقامتها وولائها لقادتها وأولي الأمر منها. والله جلّ شأنه يشير إلىٰ أنّ كثيراً من أهل المدينة قد أفاضوا بالحديث في هذا الأمر، وليس مجرد ذكر أو قول، وكأنّ فيه تنبيهاً إلىٰ ضرورة تجنّب الإفاضة في الحديث في هذا الأمر؛ فهو إمّا أن يكون الله جلّ شأنه قد قضىٰ فيه بشيء ولا بدّ من إنفاذ قضائه سبحانه، وإمّا أن يكون مما لم ينزل فيه من الله حكم بعد فعلينا أن ننتظر حكمه، لأنّ الخوض فيه سوف يحقق لمن لفّقوا ذلك الإفك أهدافهم بإشغال الجماعة المؤمنة والأمة عما يهمها وتفكيك روابطها، لكن حينما نتوقف عن الحديث فيه، فإنّنا نستطيع أن نتبين الأمر بشكل أفضل، ونتجنب ما استهدفه أصحاب قالة السّوء والمرجفون والمنافقون.

﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ [النور: ١٥]

هذه هي الإفاضة المشار إليها في الآية السّابقة، فقد أفاض النّاس كلاماً في الأمر بألسنتهم فشُغلوا به وشغلوا مجتمعهم وأمتهم بتداوله وهم يحسبونه هيناً، فالأمر ليس فيه إلّا الكلام في ذكر ووصف ما حدث، فعدوا ذلك أمراً هيناً، ولم يشعروا بخطر

تداوله كما هو، فلم يقدّروا آثاره حق قدرها. أمّا الله تبارك وتعالىٰ الذي أحاط بكل شيء علما فقد عظّم هذا الأمر؛ إذ هو ليس بهين عنده ويجب أن يكون كذلك عندنا، وأن نكون قادرين علىٰ التحصّن ضده، وعدم السّماح لأي أثر من آثاره لإشغال المؤمنين به. والإشارة بقوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ [النور: ١٥] فيها تأديب خفي بأنّكم لم تُعملوا عقولكم قبل أن تفيضوا في الكلام فيه وتناقله بالألسن، فكان أولىٰ بكم أن تفكروا فيه، وتتبينوا أبعاده وأهداف المنافقين من إثارته، وعظم الجريمة التي ارتكبوها في حق الأمة ورسولها الكريم ﷺ. وهنا إشارة مهمة أخرىٰ، فالتلقي بالألسنة لا يستلزم الاقتناع، فهو مثل تناقل الأخبار والحكايات، ومع ذلك فإنّ الشّارع الحكيم قد نهىٰ عن ذلك بشدة، وتوعّد من يحكي ويتداول هذا حتىٰ ولو لم يصدقه في نفسه أو يقتنع به. إنّ المنافقين باستهدافهم أم المؤمنين عائشة، كأنّه كان لديهم إحساس بقرب وفاة الرّسول الكريم، وربما شعروا من خلال ارتباط اسم الشّيخين أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا باسمه صلوات الله وسلامة عليه، فيقال: جاء الرّسول وأبو بكر وعمر معه، وانصرف رسول الله وأبو بكر وعمر معه، كما أنّ العرب تعظم الأكبر سناً وتوليه احتراماً وتقديراً خاصاً، فهل أرادوا بذلك أن ينالوا من سيدنا رسول الله ﷺ ومن سيدنا أبي بكر من بعده بضربة واحدة؟ هذا محتمل والله أعلم.

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: ١٦]

لا يليق بالمؤمن أن يقول قالة السّوء علىٰ سبيل الرّواية، فضلاً عن الإنشاء، وهنا يبدو لنا خطأ المقولات التي بنيت علىٰ قولهم: "ناقل الكفر ليس بكافر"، وناقل الكذب -علىٰ ذلك- ليس بكاذب. فالنّاقل لا يختلف عن من لفّق القول وصاغه إفكاً أو بهتاناً، وهذا منطقي، فلولا نقله للخبر لما انتشر ولما علم به أحد. فالنّاقل المردد للقول مثل ببغاء لا تعقل ولا تعي أنه قد شارك في التّرويج للبهتان وللإثم وللإفك، ولا يخرجه من دائرة المسؤولية أنّه مجرد ناقل؛ لأنّه قد أُمر بالتّبيّن والتّثبت وردّ أمور الأمن والخوف وأية مقولة مؤثرة في كيان الأمة إلىٰ الله ورسوله وإلىٰ أولي الأمر، فإن لم يفعل وردد ذلك كما سمعه، فإنّه آثم بذلك مسؤول عنه، قد لا يقل إثمه كثيراً عن إثم الجاني الأول الذي جاء بالبهت والإفك والافتراء.

﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النور: ١٧]

في الآية تهديد خطير ووعيد وتنبيه للأمة أن لا تعود مرة أخرىٰ للوقوع في هذا الخطأ العظيم أبداً، وأن تسد كل الذّرائع المؤدية إليه وأن لا تسمح لأحد بالنّيل من الأمة بهذه الوسائل. وفي هذا تهديد بفقد الإيمان إن كرر هذا الأمر.

﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النور: ١٨]

ويأتي هذا التّحذير في آيات بينات صادرة من حكيم عليم بما خلق، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السّماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النورط ١٩]

هذه الآية الكريمة تبين لنا فريقا من الذين يستهينون بتناقل قالة السّوء وترديد الشّائعات والطّعون في أعراض النّاس، ويمكن أن يصنفوا والعياذ بالله من أولئك الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فإذا اقترن ما يتلقونه بألسنتهم ويذيعونه بين النّاس بحب إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، فإنّ الأمر يتحول إلىٰ جريمة فعلية؛ لأنّها تؤدي إلىٰ كسر الحواجز النّفسية بين المؤمنين والفواحش التي نهىٰ الله عنها وعن مقارفتها؛ فهي جريمة يستحق مرتكبها العذاب الأليم في الدّنيا بأن يقام عليه حد القذف بالجلد ثمانين جلدة، وفي الآخرة معرض لعذاب جهنم وساءت مصيراً. لذلك فإنّ هذه الأمور ينبغي أن تؤخذ بآثارها وما تحدثه من تخريب في المجتمع وعلاقاته، وتهديد لأهم ما يحرص المنتمون للأمة من المحافظة عليه من عرض وشرف ودين وطهارة المجتمع من الفواحش؛ ما ظهر منها وما بطن.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور: ٢٠] وختام آيات الإفك التّذكير بفضل الله ورحمته الذي حفظكم وحال بينكم وبين وقوع العذاب فيكم، فذلك فضل منه ونعمة أخرىٰ إضافة إلىٰ نعمة التّشريع الحكيم، ولولا أن ﴿ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور: ٢٠] بكم لوقع بكم شر مستطير، نتيجة ما حدث في هذه

القصة، وتعريض أمن المجتمع كله إلىٰ الخطر، فالمنافقون كانوا وهم يدبرون لهذا الإفك المفترىٰ يتوقعون من المؤمنين ردود فعل خطيرة كانوا قد خططوا لاغتنامها لو وقعت، وما علموا أنّ الله جلّ شأنه قد قرر حماية هذه الأمة وصيانتها من آثار المؤامرات التي تستهدف وحدتها وكيانها وتدمير روابطها وتخريب ألفتها والإيقاع بين أبنائها؛ فالله الذي نجّىٰ هذه الأمة مما كان سيقع بها من تدبير هؤلاء المنافقين والشّياطين، ليأخذ المسلمون بعدها العبرة والدّرس، وليغلقوا كل الثّغور التي تركوها مفتوحة، ويحولوا بين الأمة ومؤامرات أعدائها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور: ٢١]

تنهىٰ الآية الكريمة عن اتباع خطوات الشّيطان؛ لأنّ كيد الشّيطان -علىٰ ضعفه- كيد متدرج، فهو لا يكشف كلَّ ما لديه مرة واحدة لمن يعمل علىٰ إضلالهم عن سواء السّبيل، بل يخطو خطوة خطوة، مما ينبه علىٰ المكر والتّدبير والتّخطيط والإناة في الإضلال، بحيث يخفي مكره ودهاءه وما يريد الوصول إليه في تلك الخطوات المتدرجة، والتي قد يَخفىٰ أثرها في بادئ الأمر ولا تظهر، إلا بعد أن يكون الشّيطان قد خطىٰ خطوات كثيرة مع من يُضلُّهم وتمكّن منهم. وعلىٰ المؤمن الذي يريد التّحصّن من الشّيطان وإغوائه وإضلاله أن يبذل جهده لعدم اتباع الشّيطان في الخطوة الأولىٰ، فإنّه إن اتبعه في الخطوة الأولىٰ فسيستدرجه للثّانية والثّالثة والرّابعة حتىٰ يتمكن منه، ويضلّه ضلالاً بعيداً، ويتخطفه ويجعله كمن تهوىٰ به الرّيح في مكان سحيق. وكشف خطوات الشّيطان منذ البداية وميزها عن الخطوات الأخرىٰ يصون الإنسان ويحفظه قبل فوات الأوان، فلا بد للمؤمن من أن يعرف الشّيطان وأساليبه وحيله والمنهج الذي يتبعه في إضلال النّاس وصرفهم عن سبيل الله، فتلك أمور في غاية الأهمية وتمنح الإنسان القوة علىٰ مواجهة خطوات الشّيطان أولاً بأول وإحباط محاولاته بشكل كامل.

ومجيء الآية بعد كل ما تقدم ليلفت الأنظار إلىٰ المقدمات والنّتائج، فالوصول

إلىٰ الزّنا والعياذ بالله والسّقوط في القذف والاعتداء علىٰ أعراض النّاس، واختلاق قصة الإفك وبلوغ المنافقين في عداوتهم للرّسول الكريم إلىٰ ذلك الحد، كل تلك الأمور لم تظهر فجأة ولم تكن دون مقدمات، بل كان لكل منها مقدماتها، ولذلك كان التّناصح والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والكشف عن خطوات الشّيطان كلها أمور تعد من المقدمات التي يتوقف عليها الامتناع عن تلك الجرائم المذكورة. وهنا تأتي المنظومة الأخلاقية كلها لتندرج تحت مسؤولية الإنسان في المحافظة عليها محافظة تامة، ابتداء من أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وتمييزهم بين الصّدق والكذب ومعرفته بالدّليل وطلب الشّهود عليه واحترام المؤمنين بعضهم لبعض، واجتناب ظن السّوء وقالة السّوء، إلىٰ غض البصر والاستئذان وتجنب خلوة الرّجل بالمرأة والمساكنة وكافة الأمور التي قد يستهين البعض بها ويحسبونها هينة. وقد تكون هينة بالفعل لكننا لا نستهين بها حينما ندرك أنّها خطوة من خطوات الشّيطان، وقد تكون هينة في ذاتها ولكنها لا تكون هينة بما تشتمل عليه من تفريط في جنب الله، وما قد تؤدي إليه من خطوات أخرىٰ يخطوها المؤمن علىٰ سبيل الشّيطان، فحينئذ ندرك خطورتها وما يمكن أن تؤدي إليه.

ولم يتركنا القرآن في حيرة أو غفلة عن خطوات الشّيطان، بل بيّن لنا علاماتها وأماراتها فقال جلّ شأنه: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١]، فإذاً لا بدّ من الالتجاء إلىٰ الله جلّ شأنه والتّحصن بحالة التّزكية، وجعلها ملكة من ملكات الإنسان الثّابتة، التي في وجودها لا يستطيع الشّيطان إغواء الإنسان. ولكي نستطيع الوصول لهذه المرحلة -النّفس الزّكية والمداومة عليها- فإنّنا يجب أن نفهم أنّ التّزكية هي منحة وهِبَة وفضل من الله تعالىٰ وليست من صنع الإنسان، فالله جلّ شأنه يزكي من يشاء، فلا تبلغ حداً تتوهم به أنّك تزّكي نفسك، وترىٰ أنّ جهدك هو الذي يزكيك! فلا تكون كمن ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]، ويستدعي ذلك أن يكون المؤمن ساعياً إلىٰ تحصين نفسه علىٰ الدّوام بالتّقوىٰ والتّزكية بذكر الله تبارك وتعالىٰ، والمحافظة علىٰ الصّلوات، وتلاوة القرآن حق التّلاوة، كل تلك الأمور تصبح أموراً متلازمةً، تشكّل سياجاً من المناعة لوقوع الإنسان في كيد الشّيطان،

وبذلك تكتمل المنظومة كلها، وتنتظم أعمال البر كلها، وتجعل الإنسان المؤمن يدرك أنّه لا حصانة له ولا حماية إلّا بذكر الله على الدّوام في إطار منظومة كاملة تنتهي بإيجاد المؤمن القوي القادر على مقاومة كيد الشّيطان الضّعيف، ومواجهة محاولاته كلها، والامتناع عن اتباعه في أية خطوة يخطوها. فالتّزكية هي فعل إلهي في حقيقته ولكن يمارسه البشر، وتقدير الهداية هو لله، أمّا فعل مقدماته فهو شغل الإنسان.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٢]

هنا يعود السّياق إلى والد السّيدة عائشة بنت أبي بكر الصّديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عندما أقسم على أن لا يتصدق على مِسطح قريبه الذي نال من أم المؤمنين عائشة في قصة الإفك، تأثراً بكلام المنافقين الكاذبين، فينهاه جلّ شأنه عن ذلك القسم، ويبين له أنّ هذا الأمر لا يعالج بهذه الطّريقة، لأنّ هذه الطّريقة قد توجد من العداوات والبغضاء، ما يجعل المجتمع قابلاً للسقوط في هذه الجريمة مرة أخرى، سواء مع أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أو غيرها من نساء النّبي وآل بيته، وأنّ طريقة المعالجة لاستئصال هذا الإفك وإغلاق مداخل السّقوط فيه لا بدّ أن تخضع للمنهج القرآني الذي هو منهج شامل وكامل وحكيم، والمنهج القرآني لم ينظر إلى الأمر على أنّه قضية فردية بين مِسطح ووالد أم المؤمنين، وأنّ الهبوط بها إلى هذا المستوى يضعف من القضايا الأساسية والدّروس والعبر التي يمكن استفادتها من سائر عناصر هذه القصة "قصة الإفك"؛ فهذه الآية عملت على وضع هذه الجريمة في موقعها الملائم بوصفها جريمة ضد الأمة ونبيها ورسولها ورسالته وليست ضد زوجة من أزواجه وحسب.

والحكمة من هذا الأمر الإلهي الحكيم هو تربية المؤمنين على أن لا تكون أعمالهم إلا لله، ولا يكون للنّفس ولا للنّاس فيها شيء، فكأنّ الآيات تقول "ما دمتم بدأتم شيئاً لله فلا تنهوه إلّا لله" فهذا علامة صدق إخلاص الأعمال لله، وهو عامل مساعد لاستدامتها.

ومن الحِكَم البالغة أيضاً منع مقابلة السّيئة بالسّيئة، فعندئذ لن تنتهي السّيئة أبداً، وستظل الدّائرة تدور على الجميع، فلا بدّ أن يتنازل طرف ولا يردّ السّيئة بالسّيئة

وإنما بالحسنة، فهذا مما يزيل العداوة بين النّاس ويؤلف قلوبهم، بل ويشعر المخطئ بخطئه بشكل أكبر، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤] وقال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: ٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦] فعندئذ يكون هو القدوة والمثل الذي يُحتذىٰ ويتم تقليده.

ومن الحِكم البالغة أيضاً التي توحي بها هذه الآية هي أنّ المال مال الله، ليس من حق أحد أن يمنعه عن خلق الله، فإذا أخطأ في جنب الله، فلا تمنعه المال تأديباً له، فالله تعالىٰ قد أدبه، ولله أمره من قبل ومن بعد، فالمال لله هو الذي يعطيه لمن يشاء ويمنعه عن من يشاء. فليس الأمر هنا فقط بأن يؤتيه المال وهو كاره، وإنما يأمر الله تعالىٰ بالعفو عما فعله كأنّه شيءٌ لم يحدث، ثمّ بالصّفح عن هذا الأمر بالكُلية بالإعراض عنه وتركه بجملته.

وتنتهي الآية الكريمة بأسلوبٍ مُرغِّب مُحببٍ للنّفس ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فكأنّه تعالىٰ يقول أنتم أيضا تخطئون، ولكني لا أمنع عنكم نِعَمِي وأغفر وأتوب وأعفو وأصفح، فلا تحاسبوا غيركم وكأنّكم معصومون، فاغفروا للمخطئين في حقكم، وسامحوهم كما أسامحكم أيّها المؤمنون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣]

ذكرت السّورة في أولها أحكام وعقوبة رمي المحصنات في الدّنيا، وهنا تذكر عقوبتهم في الآخرة، وهي نفس عقوبة الزّوج الذي قذف زوجته كذباً "اللعن".

وفي الآية أمور:

أولاً: الرّمي، وهو القذف بالزّنا أو ما هو أقل، من التُّهم التي تمسّ عِرض المرأة وشرفها، وتختلف كلمة "الرّمي" هنا لتسع معنىٰ أكبر عمّا في أولها، لأنّها في أول السّورة قرينة وجود الشّهداء الأربع لإثبات صدق الدّعوىٰ علىٰ الرّمي بالزّنا، وأما في عدم وجود القرينة فالمعنىٰ أعمّ وأشمل.

ثانياً: المحصنات، وسبق لنا التّعرض لمفهوم الإحصان بالتّفصيل في أول السّورة، وهو باقتضاب "مَلَكَة تقوم في نفس الإنسان كالتّقوىٰ والإيمان، تندرج تحتها معاني التحصن الأربعة بالعفة أو الإسلام أو الحرية أو الزّواج أو بهم جميعاً". فتحقُّق أقل معنىٰ لهذه الكلمة هو تحقيق للكلمة، ومن ثمَّ لا ينبغي قذف النّساء العفيفات ذوات السّمعة الطّيبة، ولو كنّ من غير المسلمين، ولو كنّ غير متزوجات، ولو كنّ غير حرائر.

ثالثاً: الغافلات، فهي الغافلة عن ما يُحاك ضدها أو من يُحيكه، أو هي الغافلة عن إمكانية تعرضها لمثل هذا الاتهام من الأصل لبعدها التّام عنه وعن مواضع الشّبهة به.

ففي الآية الكريمة ينهىٰ الله تعالىٰ عن أن تكون ألسنة النّاس مسلّطة علىٰ أي أحد في المجتمع دون وجه حق، فالله لا يحب الجهر بالسّوء إلّا من ظلم، أمّا من ظُلم فيذهب إلىٰ قاض أو حاكم ليقتصَّ له، ولا يجب أن يسبّ ويقذف ويشتم، وإنّما يصون لسانه عن قالة السّوء، وإلّا كان عليه اللعن في الدّنيا والآخرة.

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور: ٢٤] إنّ هؤلاء الذين قذفوا النّساء ولم يأتوا بأربعة شهداء سيأتي الله تعالىٰ بشهداء عليهم من أنفسهم هي: ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، تشهد بما كانوا يعملون، فلا يَظلمون ولا يُظلمون.

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور: ٢٥]

أي يوم أنْ تحدث هذه الشّهادة، وهو يوم القيامة، ﴿ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ [النور: ٢٥] التّوفية هي إتمام الشّيء بحقه علىٰ أتم وجه دون بخس ولا نقص قليلاً أو كثيراً. كما قال تعالىٰ علىٰ لسان سيدنا شعيب: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود: ٨٥].

﴿ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ [النور: ٢٥] كلمة الدّين أتت بمعانٍ عديدة في كتاب الله، قال تعالىٰ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة: ٥].

فإذن التّعريف الأول للدّين هو: اليوم الآخر، يوم القيامة.

التّعريف الثّاني: هو الإسلام بمفهومه الشّامل بما أنزله الله من علم في كل آياته.

التّعريف الثّالث: عبادة الله بإخلاص وإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

وهذه التّعريفات للدّين متقاربة ولها مضمون واحد، شأنها شأن كل كلمات القرآن الكريم التي تعددت معانيها في كتاب الله، فهي في الحقيقة ليست بمعانٍ متعددة، وإنّما يُسلط عليها الضّوء من زاوية مختلفة، وكما سبق أن بينا هذه الخصيصة القرآنية في "الإحصان"، نبيّنها هنا أيضاً، فالدّين في أصله هو عبادة الله وحده بإخلاص، ويظهر في صورة الصّلاة والزّكاة والتّزكية، ولإتمام فعل ذلك فقد أنزل الله إلينا علماً في آياته الكريمة هي في مجموعها تمثّل شريعة الإسلام بكل تفصيلاتها، ولن يؤمن كل النّاس بهذا الدّين أبداً إلّا في يوم الدّين، فهو اليوم الذي سيؤمن فيه كل النّاس بأنّ هذا هو الدّين الحق، وأنّ الله واحد معبود متفرد، وأنّ آياته حق. فنلحظ أنّها كلها في إطار واحد، لكن من زوايا متعددة، بما يتناسب مع مكان الكلمة واستخدامها.

ففي هذا اليوم سيُتم الله تعالىٰ للناس دينهم الحق، فسيحاسبون علىٰ كل صغيرة وكبيرة، وسينالون من الجزاء ما يستحقون، فعندئذ سيعلمون أنّ الله هو الحق المبين الذي كانوا هم في غفلة عنه رغم بيانه.

و"الحق" في ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] هو وقوع الشيء وتحوله إلىٰ حقيقة ملموسة، وهو أعلىٰ درجات اليقين الثلاث التي تحدث القرآن عنها وهي:

الدّرجة الأولىٰ: قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: ٥].

الدّرجة الثّانية: قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٧].

الدّرجة الثّالثة: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة: ٩٥].

فأولاً يعلم الإنسان الشّيء ولكنه لا يكون متيقناً منه تماماً، فمثلاً أنزل الله تعالىٰ علماً بأنّه هو الخالق الواحد الأحد، وأنّه سيحاسب البشر ثمّ يُحيلهم إمّا إلىٰ جنة وإمّا

إلىٰ نار، فعندما يراه يحدث لآخرين يزداد يقينه به، لكن لا يصل لمنتهاه، فقد يشكك به ويبرره، وقد يقول إنّه "لن يقع لي"، فمثلاً عندما يرىٰ وقوع العذاب علىٰ المكذبين والكافرين يُطمئن نفسه، ويقول: لن يحدث لي رغم أنّه شهده بعينه! ثمّ عندما يحدث له هو بعينه، ويصبح حقيقة واقعة عليه هو، فعندئذ يكون قمة اليقين، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٥] فلا يصير حق يقين إلّا بعد أن ينزل بالحميم ويصلىٰ في الجحيم أعاذنا الله وإياكم من هذا.

﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور: ٢٦]

من عدل الله جلّ شأنه وقيامه بالقسط أن خلق لنا من أنفسنا أزواجاً ليحقق جميع أهداف وحِكَم ومقاصد النّكاح فينا، وذلك فضل منه ونعمة، وتحقيق للعدل والتّكافؤ بين الزّوجين في الأمور الحسية من ناحية، ثمّ في الأمور المعنوية من ناحية أخرىٰ، فلو أنّ الإناث أو الذّكور كانوا من غير بني البشر لما تحققت حكمة النّكاح ولا مقاصده، فلا أمن ولا سكينة ولا نسب ولا صهر ولا استمراراً للنّوع. ثمّ امتدت حكمته جلّ شأنه حين جعل التكافؤ بين الزّوجين شاملاً للأمور المعنوية، فطيّبات النّساء للطّيبين من الرّجال، والخبيثات للخبيثين منهم، والعكس أيضاً صحيح. هذا أمر في صيغة الخبر بأن يلزم المؤمنون هذه القاعدة وأن لا يتجاهلوها، فإذا كانوا طيبين حقاً، فلا يبحثوا لأنفسهم ولا لأبنائهم إلّا عن طيبين مثلهم، ولو كانوا فقراء أو أقل منهم في الوجاهة الاجتماعية، ولا يقبلوا بالخبيثة حتىٰ وإن كانت أغنىٰ وأجمل وأوْجَه اجتماعياً، وكذلك لا يقبلوا لبناتهم الطّيبات إلّا أزواجاً طيبين، ولا تغريهم زينة الدّنيا ومتاعها الذي قد يكون مع الخبيثين من الرّجال.

فهذا في حق الرّجل العادي الذي لا يستطيع أن يقترب من مقام رسول الله ﷺ ذي الخلق العظيم الذي جعله الله عنواناً ونموذجاً ومثالاً للطيب كله، لا يجاريه فيه

أحد من الخلْق. وأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا طيبة بما عُرف عنها وعن أبيها وأمها من أخلاق ومكارم، فلو لم يكن لها من الطّيب أي نصيب إلّا كونها زوج رسول الله ﷺ أطيب الطّيبين وأطهر الطّاهرين وأفضل الخلق أجمعين، لكفاها ذلك طيباً وشرفاً وعزاً وطهراً وإيماناً وسلامةَ قلبٍ ونقاءَ سريرةٍ وطهارةَ ذيلٍ وعفةَ نفسٍ، ولا شك أنّ مجرد اقترانها برسول الله ﷺ يُسلكها في عداد الطّيبات من النّساء، فكيف وهي أطيب الطيبات، لأنّ رسول الله ﷺ أسلم روحه الطّاهرة وهو بين صدرها ونحرها، ودفن في بيتها، وقضىٰ أيامه الأخيرة معها، فكانت الممرضة والزوجة الطّيبة والمخلصة الأمينة رضوان الله عنها، فإذا أضيف إلىٰ مناقبها تلك كونها نشأت في الإسلام وعليه، فلم تسجد لصنم ولم تعبد سوىٰ رب هذا البيت المحرم، كما أنّها ابنة الصّدّيق والصّدّيقة، يجعل منها كالثّريا في عزها وشرفها الذي قد لا تنافسها فيه إلّا فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها، لأنّها بضعة من رسول الله ﷺ أمّا من عداها فإنّ بينها وبينه مثل ما بين الثّرىٰ والثّريا.

ولقد ضلّ قوم وجهوا تلك الفِرْيَة النّكراء لأُم المؤمنين وسيدة الطّيبات وزوج رسول رب العالمين، وإذا كان سيدنا رسول الله ﷺ رفض معاقبة حاطب بن أبي بلتعة بعد سقوطه في خطيئة الخيانة العظمىٰ وعفا عنه، وقال: "إن اللهَ عز وجل اطَّلَعَ علىٰ أَهْلِ بَدْرٍ، فقال: اعْمَلُوا ما شئتم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ."(١) فما بالك بزوجةٍ طيبةٍ برأها الله جلّ شأنه وأنزل في براءتها آيات يتعبد الخلق بها وأبقاها زوجة لرسوله ﷺ حتىٰ توفّي ﷺ وهو عنها راضٍ، ولذلك فإنّنا نستغرب أن نجد للمنافقين أذناباً، ولأهل الإفك ذرية ممتدة ما تزال تنال من هذه الصّدّيقة بنت الصّدّيق، وتأبىٰ الانضمام إلىٰ صفوف المؤمنين من أبنائها، إنّه ضلال ما بعده ضلال.

وفي الآية الكريمة تبرئة واضحة صريحة -لا تحتمل تأويلاً ولا تفسيراً- لأم المؤمنين مما أُوتفك عليها، ثمّ عقب المولىٰ جلّ شأنه بأن لهم مغفرة في الدّنيا، ورزقاً كريماً في الدّار

(١) ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، مسند علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ج٢، حديث رقم (٦٠٠)، ص٣٧.

الآخرة، وذلك نص في أنّ أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا مغفورٌ لها ولمن اتُهم بذلك الإفك، ولها عند الله رزق كريم في جنة عرضها السّموات والأرض أعدت للمتقين.

النَّجم الثالث: تدابير وقائية قرآنية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣ ﴾ [النور: ٢٧-٣٣]

بعد أن تناول المولىٰ جلّ شأنه الزّنا واللعان والقذف، وذكر أموراً أخرىٰ بالنّهي والتّوجيه ليكتمل المنهج، منهج حفظ العرض والكرامة وحماية إنسانية الإنسان وذاتيته وكرامته، عقّب ذلك بأمور تعدها بعض النّظم الأخلاقية في إطار الآداب، ويسوقها القرآن في إطار تدابير وقائية قرآنية يضعها في إطار المنهج القرآني لتشكل الحماية اللازمة لعِرْض الإنسان وكرامته.

أحكام البيوت

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾ [النور: ٢٧]

في هذه الآيات نجد منظومة كاملة لحفظ خصوصيات الإنسان وحمايتها ومنع انتهاكها، فتبدأ الآيات الكريمة بالمنع والنّهي عن دخول البيوت دون استئذان واستئناس -وهو اللّطف والألفة-، بل واستئذان قائم على التّرحيب من أهل البيت، واستئناس منهم يدخل عليهم الرّاحة والطّمأنينة، بالإضافة إلى قبول الرّجوع إذا طلب ذلك، كأنّ ذلك القادم يقول أتيتكم أحمل الأمن والطّمأنينة والسّلام لكم، وأنّ كل ما قد تقع عليه عيني أو تسمعه أذني، فإنّني لن أفشي لكم سراً، ولن أطلع أحداً من الخلق على عوْراتكم إن رأيت عورة، ولن أنقل إلى الآخرين ما يمكن أن يسيء إليكم أو تُعيّروا به، فقوله السّلام عليكم يصبح بمثابة عهد بينه وبين أصحاب البيت أن لا يسيء إليهم أبداً، ويلي ذلك تفاصيل دقيقة بآيات بينات مبينات لذلك المنهج، لما في هذه الأمور من حساسية ومداخل للشّرِّ والفساد يجب إغلاقها وسد منافذها بوضوح، وعلى بيّنة لا تشوبها الشّوائب ولا يتطرق إليها الاحتمال. وفي كل الأحوال لا بدّ وأن يحمل الزائر معه السّلام والأمن والطمأنينة إلى أهل البيت، فلا يزعجهم ولا يقلق راحتهم ولا يجعل من زيارته وسيلة استطلاع لمعرفة ما يجري في البيت، وما يدور من خصوصياتهم، فأوجب على المؤمنين غض أبصارهم، فكل تلك أمور لا يليق بالمؤمن أن يتتبعها أو يعمل على الكشف عنها.

لقد نُقل عن إمام الظّاهرية داود بن علي[1] أنّ رجلاً دخل عليه، وهو يتناول طعامه الذي كان يتألف من خبز جاف وماء، فخرج الرّجل يثني على زهد داود في الدّنيا وتقشفه ويمدحه بما قد رآه، ولما عاد لزيارته مرة أخرى رفض داود إدخاله

(١) داود بن علي بن خلف أبو سليمان الفقيه الظاهري أصبهاني الأصل، ثم قدم بغداد فسكنها وصنَّف كتبه بها، وهو إمام أصحاب الظاهر، وكان ورعاً ناسكاً زاهداً، وفي كتبه حديث كثير إلا أنَّ الرواية عنه عزيزة جداً، ولد سنة مائتين، ومات في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين، ودفن في منزله، انظر:
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (توفي: ٤٦٣هـ)، **تاريخ بغداد**، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٢م، ج٩، ص٣٤٢.

المنزل وتساءل الرّجل عن سبب رفض داود استقباله، فقال داود: أنت لا تؤتمن على سر، وقعت عيناك على طعامي فرحت تفشي ذلك بين النّاس، فكيف أأْتمنك على أي شيء آخر!.[١]

من المؤسف أنّ جميع القوانين المعاصرة تعترف بحق الإنسان في الخصوصية، وكلها تضع تشريعات لحماية هذه الخصوصية، ولكن ما أسرع انتهاك تلك الخصوصيات ومصادرتها؛ فيكفي أن يُساء الظن بإنسان ليستبيحوا خصوصياته، فُيقتحم بيتُه ولو بكسر الأبزاب، ويُبعثر فراشه وقد يُقطع بحثاً عمّا يدينه، ويُستباح عرضه، لمجرد الظنّ بأن يشكل خطراً، لذا خصوصيات النّاس لا ينبغي أن تستباح من أحد. وقد نقل الكاتبون في سيرة عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنّه كان يضيف إلى أعبائه في إمارة المسلمين عبء حراسة المدينة ليلاً، وتفقد أحوالها لينام النّاس بطمأنينة وأمير المؤمنين يسهر على راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم، فسمع من أحد البيوت صوت رجل يتغنّى، فتسوّر عليه فوجده عنده امرأة وعنده خمر، فقال: يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته؟ فقال: وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل، فإن كنتُ قد عصيتُ الله واحدةً فقد عصيتَ الله في ثلاث، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، وقد تجسستَ، وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقد تسوّرتَ عليَّ، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٢٧] وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام، فقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: هل عندك من خير إن عفوتُ عنك؟ قال: نعم، والله يا أمير المؤمنين لئن عفوتَ عني لا أعود إلى مثلها أبداً، فعفا عنه)[٢] فانصرف أمير المؤمنين عن الرّجل الذي أحسن الدّفاع عن نفسه وإن أساء.

إنّ هذه الآيات الكريمة تشريع ثابت في ضرورة احترام الخصوصيات وضرورة المحافظة عليها على جميع المستويات، وفي الأوقات كلها؛ في السلم وفي الحرب.

ولعلّ هذه الآيات الكريمة تؤكد أنَّ القرآن الكريم ضرورة حياتية للبشرية كلها لا يستغني عنه عالم أول ولا ثانٍ ولا ثالث.

---

(١) المرجع السابق، ج٩، ص٣٤٥.

(٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (توفي: ٥٠٥هـ). **إحياء علوم الدين**، بيروت: دار المعرفة، (د. ت.)، ج٢، ص٢٠١.

وقد طُورت ما تسمىٰ بأجهزة الأمن في العالم الأول -كما يسمونها- لتستخدم طائرات بدون طيارين، وأسلحة تطلق من الجو باتجاه بيوت النّاس بمجرد الاشتباه بهم، فيقتل الأطفال والأبرياء بدم بارد لتغير المفاهيم.

إذا كانت الأديان قد احترمت هذه الخصوصيات حتىٰ في أحوال الحرب، وأمرت باحترام البيوت إذا اعتزل أصحابها القتال وكان فيها مدنيون لا علاقة لهم بالحرب، فإنّ حروب العالم المدعي التّمدين اليوم لم تعد فيها أيّة حرب عادلة، ولا يغرنا بكاء القتلة بعد أن يقتلوا ومسارعتهم إلىٰ تقديم مبالغ تافهة من الأموال والتّعويضات، إن دلت فإنّما تدل علىٰ أنّ هؤلاء لا يعرفون للإنسان كرامة ولا حقوق إلّا إذا كان منهم قلباً وقالباً.

الآن، ما علينا إلّا أن نقرأ الآيات قراءة متدبّرة؛ لنستخرج منها سائر الآداب التي تشتد حاجتنا إليها في كل زمان ومكان؛ فبها نحفظ خصوصيتنا، وتحترم أعراضنا، ونحمي سمعتنا، وتضعف عوامل الشّك وسوء الظّن والشّحناء والبغضاء بيننا؛ فنكون في أمن وسلام مع أنفسنا وجيراننا وأهلينا ومن نزورهم ويزوروننا.

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النور: ٢٨]

وكأنّ الآية تجيب عن تساؤل خاص بتلك البيوت التي يغيب عنها أصحابها لأي سبب " هل تفقد هذه البيوت حرمتها بغياب أهلها؟" فيبين القرآن المجيد أنّ حرمتها باقية؛ فالبيت يبقىٰ بيتاً ولا يفقد أهله اختصاصهم به إذا سافروا أو ارتحلوا عنه لأية فترة من الفترات، ويبقىٰ حقهم في أن لا يقتحم بيتهم، وليس لأحد أن ينتهك حرمته بحال من الأحوال، وهذه الآيات لا تُنسخ بأي فعلٍ من أفعال العباد.

﴿ حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٨] إمّا بعودة أصحاب الدّار، أو يأذن أهلُه، فإذا غاب أصحاب البيت فيأذن الأقربون فالأقربون كالابن بدلاً من أبيه، إذا وُجدت ضرورة قصوىٰ تستدعي ذلك.

ولا ينبغي لأهل العلم أن يتساهلوا في هذه الحقوق، فيبيحوا مصادرتها، فعلىٰ قادة العلم والفتوىٰ أن يكونوا علىٰ حذر شديد من أن يكسروا هذه القاعدة الإلهية الواضحة الصّارمة.

﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ ﴾ [النور: ٢٨] أَلِف النّاس أن يعدّوا اعتذار صاحب البيت في أوقات قد لا يكونوا مهيأين لاستقبال النّاس فيها بمثابة الإهانة أو الطّرد والإساءة، والمفروض أنّ أهل الإيمان لا يجدون حرجاً في أنفسهم مما شرع الله ويسلموا تسليماً، فالله تبارك وتعالىٰ أمر القادم أن يرجع إن طلب منه أهل البيت ذلك، فقد يكونوا غير مهيأين لاستقباله، ويجب أن يكون هذا أمراً عادياً، وأن ينفذه عن طيب خاطر، ولا ينظر إليها كإهانة أو طرد أو إساءة باعتذارهم عن استقباله في ذلك الوقت، ﴿ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ ﴾ [النور: ٢٨] والاستجابة لذلك زكاة وطهارة للقلب وللعلاقات بين النّاس، فليس لأحد أن يضيق صدره بهذا التّشريع الإلهي.

﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ ﴾ [النور: ٢٩]

تفرق الآية الكريمة بين بيوت فيها متاع للرّاغب بالدّخول، وبيوت لا علاقة له بها وليس له فيها متاع، وبين بيوت مسكونة وغير مسكونة. فهناك بيوت يضع فيها مالكون أمتعة كما نفعل نحن اليوم بالمستودعات والمخازن، فلا حرج علىٰ أصحاب الحاجات أن يدخلوا إلىٰ هذه البيوت، فهي لا تخضع لنفس التّنظيم الذي تخضع له بيوت السّكن ولا يستلزم الدّخول إليها ولا الخروج منها إذناً أو رخصة، إلّا ما يتعارف النّاس عليه في مثل حالة الخانات -سابقاً- ومستودعات الأمتعة في وقتنا الحاضر. وهذه الحرمة للبيوت تقلل من أسباب الاختلاف بين النّاس وعوامل النّزاع والصّراع فيما بينهم.

إنّ حق الخصوصية لم يعلقه القرآن الكريم علىٰ الملكية بل علىٰ الإشغال والانتفاع، فالخصوصيات هذه خصوصيات شاغل البيت وساكنه، وهذا الاستئذان الواجب يشمل مالك البيت وغيره، فلا يحق لمالك البيت أن يجعل من الملكية مسوغاً أو مُباحاً لخصوصيات الآخرين وضرورة احترامها. إنّ المحاكم اليوم مكتظة بالشّكاوىٰ والدّعاوىٰ والقضايا ذات العلاقة بانتهاك الخصوصيات وعدم احترامها، والوقوف عند حدود الله فيها، والقرآن يُتلىٰ علىٰ النّاس صباح مساء ويسمع النّاس هذه الآيات ويقرأونها، ولكنها قراءة الهذرمة، التي لا تدبّر ولا تأمل فيها، فلا يلتفت النّاس إلىٰ

معانيها ولا إلىٰ ما تحمله من أحكام وآداب، فيقع النّاس في هجر القرآن وهم يقرأونه صباحاً ومساءً، أو يستمعون إلىٰ آياته تتلىٰ عليهم، فالقراءة دون تدبر لا ترفع عن الإنسان إثم هجر القرآن والابتعاد عنه، فحتّىٰ يكون الإنسان تالياً للقرآن غير هاجر له، لا بدّ له من فهم أحكامه ودلالاته، والوقوف عندها وتدبرها، والتّفكر فيها، وتذكر الإنسان لعهوده مع الله جلّ شأنه في ذلك كله.

غضّ البصر

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠]

ينتقل السّياق إلىٰ أمور مكشوفة يستطيع البصر أن يراها، وينقل للنّاظر شكلها وما يدل عليه أو يشي به، وذلك مثل وجوه النّاس والأماكن المكشوفة من أجسامهم كالكفين والقدمين، فهل للإنسان أن يسلط نظره عليها فيفتح علىٰ نفسه باب الشّيطان؟ لأنّه لن يفكر بالمرئيّ المكشوف فقط، بل يذهب إلىٰ ما ورائه، فيقول مثلاً وهو يمعن النّظر إلىٰ وجه المرأة أو كفيها أو قدميها أو شعرها: إذا كان ما ظهر منها بهذا الجمال فما بالك بما خفي! فيفتح علىٰ نفسه للشّيطان باباً يقربه إلىٰ الزّنا، ونحن منهيون عن كل ما يقربنا إلىٰ الزّنا حتىٰ بالكلمة وما يهيج الغرائز ويخرجها عن حد الاعتدال، فيأمر المسلم والمسلمة بأن يغضوا أبصارهم وأن لا يطلقوا لها العنان:

فالمرء مـــا دام ذا عـــين يقلبها ... في أعين الغيد موقوف علىٰ الخطر
يـــسر مقلته مـــا ســـاء مهجته ... لا مرحبـــاً بسرور جاء بالضّرر

فالأمر بغض البصر بحيث لا يديمه فيتحول إلىٰ ميدان تفكير وتصورات تشغله عن ذكر الله وعن الصّلاة، وتشغل قوىٰ عقله الواعية بالخيالات المريضة، وتباعد بينه وبين توظيف طاقات وعيه وقوىٰ إدراكه فيما هو نافع ومفيد في أمور الدّنيا والآخرة، فكأنّ الله تبارك وتعالىٰ بعد أن تناول ما تستره الأبنية والحجب والحواجز، تناول ما لا يستره شيء من ذلك، فنظّم كل شيء حتىٰ النّظر.

والقرآن الكريم وهو يبين ذلك يتناوله بأدب جمٍّ، فكأنّه لا يريد أن يحرج عباده بالأمر المباشر بشيء يمس الحياء، فيضع الرّسول واسطة بينه وبينهم، فيقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣٠] و ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: ٣١] فالخطاب مما يستحيا منه، فالخطاب المباشر يحرج المُخاطَبَ؛ فالأولىٰ أن يصل إليه بالواسطة فيأمر رسوله الكريم بأن يقول لهم ذلك، ولا شك أنّ الله هو القائل في الحالين، لكنه حجاب الرّبوبية ذي العظمة والجلال والرّحمة والجمال، لا يخاطبهم بذلك بشكل مباشر قد يحرج حياءهم مع الله.

وقوله جلّ شأنه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣٠] يدل علىٰ أهمية تأصل جذور الإيمان في القلب حتىٰ يبني عليه هذه الفروع المثمرة، فهي ليست منبتة أو معزولة في الهواء، وإنّما هي مبنية علىٰ أسس تشكل -متضافرةً- إيجاد الإنسان المزكّىٰ. فمن لم يتأصل في قلبه الإيمان لن يَعتبِر بهذا الكلام، وإن كان سيعرفه وقد يعلمه غيره، ولكنه لن يكون مؤمناً به حقاً.

وقوله جلّ شأنه: ﴿يَغُضُّواْ﴾ [النور: ٣٠] يعني النّقصان من الشّيء، مثل القول (غض) من قَدْر فلان أي أنقص من قدره. فالشّارع الحكيم لم يأمرنا بإغلاق أبصارنا أو الكف عن النّظر مثلاً لصعوبة ومشقة ذلك، وإنّما الأمر بالغض لتقليل حدود إطلاق هذا البصر؛ فأول حدّ له حصره في الحلال، وهو الأعم الأغلب في الأشياء، وحتىٰ فيما يتوقع أن يقع الإنسان عينه علىٰ ما لا يحل "مثلاً تمشي في الشّارع فقد تمر علىٰ امرأة متزينة"، فكان الأمر بالغض وليس بالكف التّام، بمعنىٰ أنّك ستصيب جزءاً من النّظر إليها بغير عمد لا محالة، عندئذ غضّ بصرك، وهذا من الحكمة البالغة للمولىٰ جلّ شأنه، فمع المراقبة الدّقيقة للقلب، يجد الإنسان قلبَه لا يتأثر بما وقع عليه بصرُه بغير عمد ثمّ غضه، وإنّما يتأثر بما تعمد النّظر إليه أو أدامه بعد وقوعه بغير عمد، فهنا يتأثر القلب، وهو ما تمنعنا منه الآية الكريمة بأمرنا بالغض من البصر.

وقوله جلّ شأنه: ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] إنّما هي من البلاغة القرآنية، وهو أمر بخفض طاقة الإبصار وعدم استعمالها كلها في هذا المجال، فكأنّه يقول إبق من طاقة أبصارك الزّائدة ما أنت بحاجة إليه فقط؛ لسيرك وتحديد وجهتك ومعرفة مخاطبك وما إلىٰ ذلك، فالبصر واسع ومحيطه يشمل كثيراً من المرئيات في النّظرة

الواحدة، ولو فتحتَه كلَّه فسينقل إلىٰ الدّماغ صوراً ستشغل قوىٰ وعيك كلها. فالأمر الحكيم بـ "الغض من البصر" لتحقيق المنفعة دون أن يشق علىٰ المؤمنين، فقد يقع بصر الإنسان علىٰ ما لا ينبغي، لكن غضه لبصره سيحمي قلبه، ولن يتأثر بما رآه إلّا إذا لم يغض بصره. ويتضح هذا بجلاء حينما ننظر إلىٰ الأمر التّالي بحفظ الفرج، ففي النّظر كان ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ..﴾ [النور: ٣٠] أمّا في الفرج ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ [النور: ٣٠] ولم يقل: "يحفظوا من" فليس فيه تجزئة كالنّظر. وكما قال الإمام الرّازي: "كفاك فرقاً أَنْ أُبِيحَ النّظرُ إِلَّا مَا استثنِيَ مِنْهُ وَحُظِرَ الجِماعُ إِلَّا مَا استثنىٰ."(١)

إنّ قضية النّظر قضية كبرىٰ ذُكرت في آيات الكتاب الكريم وفي هذه السّورة تحديداً، وهذا يدلنا علىٰ الوحدة البنائية لسور القرآن الكريم؛ فسورة النّور تكلمت عن الفواحش والأعراض والإفك وحفظ المجتمع من الشّائعات وآداب البيوت والدّخول عليها وحفظها، وكل ذلك مرتبط أيّما ارتباط بقضية النّظر. فالسّياق يحدّثنا عن حرمة البيوت وآداب الدّخول عليها وآداب حفظها ثمّ تلاه الأمر بغض البصر، كأنّ الأمر بالغض يشمل النّظر داخل البيوت، فيأمن كل ساكن علىٰ عرضه وعوراته. كذلك فقد سبقت آيات البيوت آيات الإفك والشّائعات، وما من شائعة إلّا وهي مرتبطة بالنّظر، فالقرآن الكريم أمرنا بالتّثبت بأن نأتي بالشّهود -من رأىٰ الأمر بنفسه- قبل تناقل الخبر ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣﴾ [النور: ١٣] ولو كانوا أقل من أربع شهداء، فلا ينبغي لهم أن ينقلوا الخبر، فما بالكم بمن لم يشاهد إطلاقاً، بل اكتفىٰ بالسّمع وتناقل الكلام دون تبين أو رؤية مباشرة منه !

وسبق آياتَ الإفك آياتُ الفواحش، فالغض من البصر يقي المجتمع من السّقوط في الفواحش، فارتباط السّياقات القرآنية شديد وله دلالات عميقة يراها من تدبّرها خاصة بداخل السّورة الواحدة ذات الوحدة البّنائية المترابطة. فنجد الأمر التّالي بعد الغضّ من البصر هو حفظ الفرج، كدلالة أساسية علىٰ مدىٰ ارتباطهما معاً ومع باقي سياق السّورة الكريمة.

---

(١) الرازي، **مفاتيح الغيب «التفسير الكبير»**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٢٠٣.

العورات

يقول الإمام الرازي: "استقلت الشّريعة القرآنية بتفصيل العورات عن الأمم السّابقة... واعلم أنّ العورات علىٰ أربعة أقسام: عورة الرّجل مع الرّجل، وعورة المرأة مع المرأة، وعورة المرأة مع الرّجل، وعورة الرّجل مع المرأة. فأمّا الرّجل مع الرّجل فيجوز له أن ينظر إلىٰ جميع بدنه إلا عورته، وعورته ما بين السّرة والرّكبة، والسّرة والرّكبة ليستا بعورة.

أمّا عورة المرأة مع المرأة فكعورة الرّجل مع الرّجل، فلها النّظر إلىٰ جميع بدنها إلّا ما بين السّرة والركبة، وعند خوف الفتنة لا يجوز، ولا يجوز المضاجعة.

أمّا عورة المرأة مع الرجل فالمرأة إمّا أن تكون أجنبية، أو ذات رحم محرم، أو مستمتعة.

أولاً: فَإن كانتْ أجنَبية فَإمّا أَن تَكون:

أ. حُرَّةً

ب. أَمَةً

أ. فإن كانت حرة فجميع بدنها عورة، ولا يجوز له أن ينظر إلىٰ شيء منها إلّا الوجه والكفين، لأنّها تحتاج إلىٰ إبراز الوجه في البيع والشراء، وإلىٰ إخراج الكف للأخذ والعطاء، ونعني بالكف ظهرها وبطنها إلىٰ الكوعين، وقيل: ظهر الكف عورة. واعلم أنّا ذكرنا أنّه لا يجوز النّظر إلىٰ شيء من بدنها، ويجوز النّظر إلىٰ وجهها وكفها، وفي كل واحد من القولين استثناء. أمّا قوله يجوز النّظر إلىٰ وجهها وكفها، فاعلم أنّه علىٰ ثلاثة أقسام: أولاً: أن لا يكون فيه غرض ولا فيه فتنة، ثانياً: أن يكون فيه فتنة ولا غرض فيه، ثالثاً: أن يكون فيه فتنة وغرض.

أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: فاعلم أنّه لا يجوز أن يتعمد النّظر إلىٰ وجه الأجنبية لغير غرض وإن وقع بصره عليها بغتة يغض بصره، لقوله تعالىٰ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠].

أَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: وهو أن يكون فيه غرض ولا فتنة فيه فذاك أمور:

١: يريد نكاح امرأة فينظر إلىٰ وجهها وكفيها، لقوله تعالىٰ: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ ﴾ [الْأَحْزَابِ: ٥٢] ولا يعجبه حسنهن إلّا بعد رؤية وجوههن.

٢: إذا أراد شراء جارية فله أن ينظر إلىٰ ما ليس بعورة منها.

٣: أنّه عند المبايعة ينظر إلىٰ وجهها متأملاً حتىٰ يعرفها عند الحاجة إليها.

٤: ينظر إليها عند تحمل الشّهادة ولا ينظر إلىٰ غير الوجه لأنّ المعرفة تحصل.

أَمَّا الْقسم الثّالث: وهو أن ينظر إليها للشّهوة فذاك محظور.

ثانياً: إن كانت المرأة ذات محرم له بنسب أو رضاع أو صهر فعورتها معه ما بين السّرة والرّكبة كعورة الرّجل، وقال آخرون: بل عورتها ما لا يبدو عند المهنة، وهو قول أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثالثاً: أمّا إذا كانت المرأة مستمتعة كالزّوجة والأَمَة التي يحل له الاستمتاع بها، فيجوز له أن ينظر إلىٰ جميع بدنها حتىٰ إلىٰ فرجها غير أنه يكره أن ينظر إلىٰ الفرج وكذا إلىٰ فرج نفسه.

وَأَمَّا عَوْرَةُ الرَّجُلِ مَعَ الْمُرْأَةِ [فَفِيهِ] نَظَرٌ:

١. إن كان أجنبياً منها فعورته معها ما بين السّرة والرّكبة، وقيل: جميع بدنه إلّا الوجه والكفين كهي معه، والأول أصح بخلاف المرأة في حق الرّجل، لأنّ بدن المرأة في ذاته عورة بدليل أنّه لا تصح صلاتها مكشوفة البدن وبدن الرّجل بخلافه.

٢. وإن كان محرماً لها فعورته معها ما بين السّرة والرّكبة.

٣. إن كان زوجها أو سيدها الذي يحل له وطؤها، فلها أن تنظر إلىٰ جميع بدنه غير أنّه يكره النّظر إلىٰ الفرج كهو معها، ولا يجوز للرّجل أن يجلس عارياً في بيتٍ خالٍ وله ما يستر عورته، لأنّه رويَ أنّه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سئل عنه فقال: "اللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا منه من الناس."[١] ورويَ أنّه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: "إِيَّاكُمْ وَالتَّعَرِّيَ، فإن

---

(١) السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كِتَاب الحمّـام، بَاب النهي عن التَّعَرِّي، ج٦، حديث رقم (٤٠١٧)، ص١٣٤.

مَعَكُمْ من لَا يُفَارِقُكُمْ إلا عِنْدَ الْغَائِطِ، وَحِينَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلىٰ أَهْلِهِ، فَاسْتَحْيُوهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ."(١) والله أعلم.(٢)

فقوله جلّ شأنه: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ [النور: ٣٠] هو ربط بمنتهىٰ الأدب والحكمة بين مقدمات الزّنا، كأنه يقول: احذروا هذه المقدمات، والتزموا بما أمرناكم بالالتزام به، ليشكل تدابير وقائية تباعد بينكم وبين الاقتراب من الزّنا. ولكي تحفظوا فروجكم من أن يستبيحها الشّيطان أمرنا بتلك التّدابير كلها من الاستئذان وعدم الدّخول علىٰ أهل البيوت في وقت تبذّلهم وراحتهم، والغض من الأبصار والامتناع عن إطلاقها ومتابعة النّظرة؛ كل ذلك لحماية المؤمنين من ارتكاب المحظورات.

ولكي يعين الله جلّ شأنه عباده المؤمنين وإماءه المؤمنات علىٰ الالتزام بما أمر، أنزل تلك الآيات البينات. وحرّم ما حرّم، وكرّه ما كرّه، وأباح ما أباح؛ لئلا يقترب النّاس من الزّنا والفواحش التي ما ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة أن يسقط فيها.

وهذا التّتابع بين المقدمات والنّتائج يبين لنا الحكمة من أمر الله بأن "لا تتبعوا خطوات الشّيطان" فخطوة أولىٰ كالنّظرة ستتبعها خطوات أُخَر، إلىٰ أن يسقط الإنسان الغافل في الفاحشة.

كنّا نأمل أنّ هذه الآيات وأمثالها من الآيات المنيرة المبينة تكفي لإقناع المسلمين بأنّ الله تعالىٰ ما فرّط في الكتاب من شيء، وأنّه جلّ شأنه ما كان نسيّاً؛ فالذين يبتغون الهدىٰ في غير القرآن ويدّعون أنّ نصوص القرآن متناهية ووقائع حياة النّاس غير متناهية، هم أناس ذاهلون عن أن القرآن تبيانٌ لكلّ شيء، وأنّ الله ما فرّط في هذا الكتاب من شيء دقيق أو جليـل، فها هو جلّ شأنه يكشف لنا في هذه الآيات الكريمة خائنة الأعين وما تُخفي الصّدور، وفي الآيات السّابقة لها أدق آداب الاستئذان، والزّيارة ودخول البيوت، فسبحان من أنزل الشّرعة الكاملة التامة في

(١) الترمذي، **الجامع الكبير (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، أبواب الاستئذان والآداب، بَاب ما جاء في الِاسْتِتَارِ عِنْدَ الْجِمَاعِ، ج٥، حديث رقم (٣٠٠٨)، ص٨٥.

(٢) الرازي، **مفاتيح الغيب "التفسير الكبير"**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٢٠٥.

كتاب غير ذي عوج ولا اختلاف؛ لتكون الشّرعة والمنهاج في حياة الرّسول الكريم وبعد وفاته إلىٰ يوم الدّين.

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣١]

أَلِفت البشرية منذ أُمّنا حواء حتىٰ يوم النّاس هذا أن تنظر للمرأة علىٰ أنّها المنفعل لا الفاعل، خاصة في هذا الجانب من جوانب الحياة، ويرون أن الأصل فيها الحياء التّام، وأنّه ليس لها أن تحب وتكره وتشتهي وتختار. فتأتي الآية الكريمة لتضع الذّكر والأنثىٰ في مستوىٰ واحد من مستويات المسؤولية في هذا الجانب، فإذا أُمر الرّجل بأن يغض بصره ويحفظ فرجه عن الزّنا، فالمرأة مأمورةٌ بمثل ما أُمر به الرّجل، ومساوية له في هذا المجال.

الزّينة

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور: ٣١]

اختلف أهل العلم في معنىٰ ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور: ٣١]، فمنهم من مضىٰ إلىٰ القول بأنّ ما ظهر منها هو ما لا تستطيع المرأة إخفاءه لأنّه يعطلها عن القيام بمهامها بشكل سليم، لذلك قالت بعض المذاهب الفقهية بأنه الوجه والكفان والقدمان. وبعضهم اعتبر جزءاً من شعر المرأة مندرجاً في هذا الاستثناء. وهنا لا بدّ من ملاحظة الأعراف والثقافات وتقاليد النّاس ليستفيد المجتهد بذلك كله عندما يتدبر القرآن، ويعمل علىٰ تنزيل أحكام آياته علىٰ واقع يعيشه النّاس دون أن يعطل ذلك حكماً شرعياً أو يعود عليه بالإبطال.

وقد عبّر القرآن هنا ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ولم يحددها بدقة كما في آيات أخر مثلاً كآيات الوضوء.

إنّ من عادة القرآن الكريم إذا تناول أموراً تمتزج فيها التّقاليد والأعراف والعادات بالمقاصد والمصالح، فنراه يلاحظ ذلك كلّه ويتناوله بشكل يحافظ علىٰ العادات والتّقاليد والأعراف قدر الإمكان، فيتناوله بحذر شديد علىٰ خلاف عادات القوانين

والتّشريعات الصّارمة التي تعتمد على الأمر والنّهي المجردين في صياغة المواد التي تريد صياغتها، فيبدو وكأنّه تعديل وتسديد للممارسات الإنسانية، فيترك مجالاً واسعاً لمشاركة الإنسان في الاجتهاد والرّأي لتنفيذ التّوجيه الإلهي، فالقرآن الحكيم كأنّه يحيل قضاياه التي يتناولها إلى المكلَّف ليشارك لا في الفهم المجرد ولا في النظر إلى ما أمر به أو نُهي عنه على أنّه مجرد تكليف صادر له من ربه ما عليه إلّا تنفيذه، عَقَل أو لو لم يعقِل، فهم أو لم يفهم، بل يجعل تشريعاته قريباً من المكلف حسب عاداته وتقاليده وأعرافه، وكأنّها منه صدرت، وعنه انبثقت، فهو تشريع متفرد بهذه الخصوصية التي تزيل عن النّفس الشّعور بثقل التّكليف. وقد علّم الله المؤمنين أن يدعوه بأن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ونفى عن الإسلام الحرج ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] والتّشريعات المتعلقة بالأسرة كلها يبدو فيها هذا الأمر، بحيث لا يحقق القرآن شيئاً ويخسر أشياء، بل يحافظ على مشاعر المكلف ويمنحه إحساساً بأنّه لا يتلقى تكليفاً وإنّما أمراً عليه أن ينظر فيه ويتبين أفضل السّبل للاستفادة به في واقعه الحياتي فهو له لا عليه، ومنه وإليه، فهذه صفة اختص بها التّشريع القرآني وحده. فتبارك الله منزل هذا الكتاب المجيد.

ولن ندخل هنا في تفاصيل الزّينة وما هي وما حدودها، فهي كغيرها من المفاهيم القرآنية العديدة التي سكت القرآن الكريم عن تفاصيلها ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ [مريم: ٦٤]، فنسكت نحن أيضاً ولا نتكلّفه، ولا يظنن ظان أنّ هذا يعني أنّ القرآن لم يحكمها، والله لقد أحكمها بأبلغ وأعظم حدود وهي التّقوى والتّزكية، فلينظر كل إنسان لنفسه وليتق الله فيها، وليزكيها ويطهرها ويُعلي من أخلاقها، فهذه الرّوح الإيمانية الدّاخلية إن وجدت فقد ضمن ستر العورات، وحفظ الأعين والفروج، أما إذا فُقدت هذه الإيمانيات فلن ينفع معها عندئذ كونك حددت لهم الزّينة بالتّفصيل أم لا، ولا أدلّ على ذلك من بعض فتيات الدّول اللاتي فُرض عليهم النّقاب قسراً، فنجدهم بمجرد الذهاب إلى دول أكثر تحرراً يخلعنه، بل ويتبرّجن ويتبذّلن في هذه الدّول، وماذا تنتظر من أناس يعملون الظّاهر ويراقبون النّاس ونسوا الباطن ومراقبة الله تعالى.

ولم يتم النّهي عن زينة الرّجال بشكل صريح كالنّساء، لأنّه من غير المألوف أن يتزين الرّجال لهنّ إلّا ببعض الطّيب وبعض الوسائل المتغيرة من عصر لآخر.

وفي عصرنا هذا ابتلي النّاس بالسّعي وراء الجنس الذي غدا محوراً للحياة لدىٰ الكثيرين، وصرنا نرىٰ كثيراً من الشّباب يعمدون إلىٰ إبراز ما يمكن أن يشكل للمرأة فتنة تلفت نظرها إلىٰ الرّجل، والتفت إلىٰ ذلك مصممو أزياء الرّجال الذين يبحثون عن الكسب بكل الوسائل، فهناك قصات الشعر والقمصان التي تبرز صدر الرّجل وما عليه من شعر، والسّراويل التي قد تبرز بعض الأعضاء وتصفها، فإذا أصبحت هذه الأمور أموراً شائعة يلفت الشباب فيها نظر النساء، فإنّها تدخل - آنذاك- في دائرة ما يؤدي إلىٰ المفسدة، فيجب أن يُلاحظ ذلك ممن يُبتلون بالفتوىٰ في المستجدات، فيلاحظون نشأتها، وأسباب ظهورها، وآثارها، والتّفريق بين ما يؤدي إلىٰ التّزكية وما يضرّ بها، وكذلك ثقافات الشعوب فهي مما ينبغي ملاحظته باستمرار لضمان مستوىٰ من التّزكية يساعد علىٰ المحافظة علىٰ الكرامة الإنسانية وتماسك الأسرة المسلمة.

إن ابداء الزينة هو مظنة الدعوة إلىٰ إعجاب في أمر حسيٍّ، لشيء أراد القرآن بلطف أن ينبه النساء إلىٰ أنّ هذا الجمال الأولىٰ به أن يخفىٰ ولا يبتذل، حتىٰ يظهر من يطلبه بحقه، ولذلك أبيح للخاطب أن يرىٰ من مخطوبته ما يدفعه للزّواج منها، وللمخطوبة أن تظهر من محاسنها ما يُرغِّب الخاطب بها. لكن حبَّ الثّناء وامتداح جمال المرأة قد يدفعها إلىٰ ابداء الزّينة للجاد وللهازل. ومن طرائف الأدب، أنّ امرأة بارعة الجمال جاءت إلىٰ أحد الفقهاء المكيين في مِنَىٰ وكشفت عن وجهها، وقالت له: "ما قولك يا شيخ في هذا الوجه"، وكأنّها كانت تطمع أن يقول فيها شعراً، فقال الشيخ لها: أرىٰ وجهاً أرجو الله أن يحرّمه علىٰ النار، وإنّي أنصحك أن تستريه، فإنّني أخشىٰ أن يراك أحد المتنطعه فيقول لك ما يسوؤك، قالت: يا شيخ

أنا من اللائي لم يحججن يبغين جنة ولكــن ليقتلــن التّقــي المغفل

ونرىٰ الشعراء والأدباء يكثرون من الغزل والنّسيب فيما يبدو من النّساء، أثناء ممارسة ما يحتجنه من أعمال، بما فيها ذلك أعمال العبادة، ولذلك كان رسول الله ﷺ

يأمر النّساء بأن يصلّينَّ بعد صفوف الرّجال، لئلا تتحول المساجد إلىٰ أماكن للغزل والتّشبيب؛ فيسمح للمرأة أن تصلي وتنصرف دون أن تبدو زينتها للرّجال. في حين نجد شعراء مثل عمر بن أبي ربيعة وغيره يسترقون النّظر إلىٰ النساء في عبادتهن خاصة في الحج، فيقول:

لقد عرضَتْ لي بالمحصَّبِ من منىً ... مع الحجِّ شمسٌ سُتِّرتْ بِيَمانِ
بَدا لي منها مِعْصمٌ يومَ جَمّرتْ ... وكفٌّ خَضيبٌ زُيّنتْ ببَنانِ
فَوَالله ما أدري وإنْ كُنتُ دارياً ... بِسَبعٍ رميتُ الجَمْرَ أم بِثَمانِ

ويقول الأخطل (وهو نصراني) مفضلاً الكنائس علىٰ المساجد:

إنّ من يدخل الكنيسة يوماً ... يلقىٰ فيها جآذراً وظباءَ

لأنّه لا حواجز تمنع من أن يتطلع إلىٰ رؤية النّساء فيها كتلك الحواجز التي أدبنا القرآن بها، وأمرنا بعدم التّفريط فيها.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]

الخُمر: جمع خِمّار، وهو غطاء الرّأس الذي يُسْدل ليستر الرّقبة والصّدر. الجيوب: جميع جيب، وهو الفتحة العليا للثّوب.

والضّرب هو: الوَقْع بشدة، فليس المراد أن تضع المرأة الطّرحة علىٰ رأسها وتتركها هكذا للهواء، إنّما عليها أنْ تُحكِمها علىٰ رأسها وصدرها وتربطها بإحكام.

وقد فهم البعض من هذه الآية وجوب ستر الوجه، لكن ما تقدم من الاستثناء ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] يمنع من دخول الوجه في هذا؛ لأنّه ضمن ما يظهر من الزّينة عند القائلين بأنّ الظّاهر هو الوجه والكفان والقدمان، وقد قالوا: إن ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ [النور: ٣١] قرينة تؤيد هذا المذهب لأنّ الخمار هو غطاء يستر الرّأس والصّدر فيحتاج إلىٰ الضّرب، بمعنىٰ التّثبيت حتىٰ لا يطير عن الرّأس، أمّا لو كان مغطياً للوجه أيضاً كنوع من التّغطية الذي يكون فيما يشبه غطاءً يوضع علىٰ الرّأس وينزل علىٰ الصّدر، لما أمر الشّارع المرأة بملاحظة تثبيته، وفي سائر الأحوال لا بدّ من

ملاحظة أنّ التّشريع القرآني من طبيعته الاتساع والشّمول والمرونة؛ لأن لا يضيق على أي شعب من الشّعوب، فخطابه عالمي، ولشعوب العالم عادات وتقاليد وأعراف في اللبس تجعل القرآن يستدعي النّاس لملاحظة كل ما يجعل التّشريع محققاً لمقاصده دون حرج أو مشقة أو تضييق، لذلك فإنّ التّفسيرات المختلفة التي ينطلق النّاس بها بناء على بيئات محددة وتقاليد خاصة، تحتاج دائماً إلى المراجعة والحوار الذي لا يهمل كليات الشّريعة ويشغل المكلفين بالجزئي وحده، فإنّ إهمال الكليات تقصير وتفريط في جنب الله مثل إهمال الجزئيات، والفقيه مطالب بأن يُعمل الاثنين معاً: الجزئي والكلي.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]

تتحدث الآية الكريمة عن رخصة إبداء الزّينة لأصناف معينة من النّاس، ومنهم آباء الأزواج، فهذه رخصة لعدم وقوع الحرج على النّساء في حال احتاج الابن أن يعيش مع أبيه في البيت نفسه، فلا تشعر المرأة أنّها غريبة وإنّما تتصرف وكأنّه أب لها، هذا مع مراعاة الأحكام العامة في القرآن الكريم ومقاصده، فهنا المقصد رفع الحرج، ولكن إذا كان سيأتي بأذى على أي طرف فلا ينبغي الأخذ بالرّخصة حتى يُدفع هذا الضّرر.

والمراد هنا الزّينة الخفية بعد أن سبق التّكلم عن الزّينة الظّاهرة، وقد اختلف العلماء في تحديدها بدقة، وخير قول في هذا هو أن تحدد المرأة بنفسها لنفسها، فهذا أمر يختلف من مجتمع لآخر، فكما تظهر المرأة أمام أبيها وبعلها فلها الرّخصة أن تظهر بالهيئة ذاتها أمام أبيه من ظاهر الآية الكريمة، ومما يتوافق مع المقاصد العامة للقرآن الكريم، وبما يراعي حياءها، كما أنّ المرأة تفطُن إلى النّظرات السّيئة إليها، وتفهم القصد من ورائها، فتستطيع أن تعرف من الذي يؤتمن ومن الذي لا يؤتمن، لذلك فهي الأقدر على أن تعرف حدود هذه الزّينة.

ونلاحظ دقة التّعبير القرآني بكلمة "الزّينة"، وهي غير كلمة "العورة"، وغير كلمة "السّوءة"، وكلها ذكرت في كتاب الله، ولكل منها معنى مختلف وإن تقاربت. فالعورة والسّوءة يجب سترهما عن النّظر، أمّا الزّينة فأباح الله أن تظهر أمام أناس معينين، ولم يبح العورة إلّا للزّوج أو الزّوجة، ومن هذا نفهم حدود هذه الرّخصة التي أعطاها الله للمؤمنين، فهي تدور في حدود الزّينة، ولا تتعدى إلى العورة أو السّوءة.

وهنا يحدد القرآن الكريم المحيط الذي للمرأة أن تُبدي من زينتها الخفية والظّاهرة.

أمّا الأزواج فلا يُخفىٰ عنهم شيء، فهم الأولىٰ بأن تظهر لهم الزّينة والعورة، والذي نميل إليه أنّ الآية تنبهنا إلىٰ أنّ للمرأة أن تظهر فيما عرف بثياب المنزل، وثياب المنزل -عند العمل في الطّبخ والكنس- قد تظهر أجزاء من الجسم داخله في زينتها الخفية، فأراد القرآن المجيد بهذا أن يستريح النّاس في بيوتهم، وأن لا تكون هناك قيود تفرض عليهم نوعاً من التّكلف الذي لا يجعل الإنسان مستريحاً في حياته، ولا يجعل الحياة سلسة، بحيث يستوي آنذاك النّاس في داخل البيت وخارجه، فالبيت مكان يسكن الإنسان فيه ويستريح، ولن يتحقق له ذلك إلّا إذا استمتع بحريته فيما يأخذ ويترك، وأبعد عن نفسه الشّعور بالقيود. وفي أزماننا هذه كثرت الوقائع الانحرافية خاصة لدىٰ أولئك الذين يعاقرون الخمر أو المخدرات، فإنّ بعض هؤلاء -والعياذ بالله- يغيب وعيه ويمكن أن يقع علىٰ أي من محارمه نتيجة فرط الشّهوة واختلال التّوازن العقلي، ولذلك فإنّ المساكنة نفسها لها أحكام لا بدّ من إحيائها. وقصة سيدنا يوسف يستفاد منها ما أدّت إليه المساكنة حين كان يوسف في بيت العزيز، ودخل علىٰ امرأة العزيز ما دخل، لذلك فللمساكنة أحكام وآداب لا بدّ من ملاحظتها خاصة في البيئات المعاصرة.

﴿ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]؛ أي جميع النّساء. والله أعلم.

﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ [النور: ٣١]

أمّا مُلْك اليمين فقد أغنانا الله عنه، وفيه كلام كثير واختلافات كثيرة للعلماء حوله.

لكننا نميل إلىٰ القول بأنّه لا يباح للنساء أن يُتخذن رقيقاً أو خدماً أو ما إليهم، أو يُبَحْنَ لهم مثل ما يستبيح الرّجل من أَمَتِه، وذلك لأنّ الرقَّ قيدٌ أراد الشّارع إنهاءه وتحرير البشرية منه في وقت مبكِّر، واسترقاق الناس ضد مقصود الشّارع، وإذا عاشرت امرأة عبدها فستحمل عبداً مثله، وذلك أمرٌ يتنافىٰ والنّصوص التي جاءت لتحرير العبيد وإغلاق ذرائع الرّق والتّخلص من الموجود منه. لكنَّ له أن ينظر من سيدته ما ينظر أهل بيتها إليه في حالة المساكنة للخدمة دون خلوة وحضور من تنتفي

الخلوة بحضوره، وما أَلِف النّاس اتخاذه في أيامنا هذه من الخدم والسّواقين، لا يقاس علىٰ ملك اليمين، وهو قياس فاسد، فالبلاد التي ابتليت بأعداد هائلة من السّائقين والخدم ومن إليهم قد دخل إلىٰ منازلها من الفساد ما نسأل الله جلّ شأنه الحفظ منه. وهذه الأقيسة الفاسدة كثيراً ما أدت إلىٰ مفاسد، والأَوْلىٰ عندنا أنّ ملك اليمين إذا كان رجل لامرأة فليس له أن يساكنها أو يخلو بها أو يرىٰ منها ما حرم علىٰ الأجانب أن يروه، وملك اليمين للنساء في الجاهلية وفي صدر الإسلام كان يستفاد منهم للعمل لدىٰ أولئك النّسوة في تجارة أو زراعة وما إليها، فليس هناك ما يدعو لتساهل بعض الفقهاء في إعطائهم في الرّؤية والخلوة مثل حقوق المحارم لمجرد العطف في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ﴾ [النور: ٣١] وإذا أريد به رؤية الزّينة الخفية من المرأة فيكون ذلك لإمائهن من النّساء لا من الرّجال.

إنّ مُلك العبد لا يُحلل ما يَحرُم عليه قبل الـمُلك، إذ مُلك النّساء للرّجل ليس كمُلك الرّجال للنّساء، فإنّهم لم يختلفوا في أنّها لا تستبيح بـمُلك العبد منه شيئاً من التّمتع كما يملكه الرّجل من الأَمَة، كما أنّ العبد وإن لم يجز له أن يتزوج بمولاته، إلّا أنّ ذلك التّحريم عارض كمن عنده أربع نسوة، فإنّه لا يجوز له التّزوج بغيرهن، فلما لم تكن هذه الحرمة مؤبدة كان العبد بمنزلة سائر الأجانب. إذا ثبت هذا ظهر أنّ المراد من قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ [النور: ٣١] هنّ الإماء.(١)

وإن قيل الإماء دخلنَ في قوله: "نسائهن" فأي فائدة في الإعادة؟ فنقول: لئلا يظن أنّ الإباحة مقصورة علىٰ الحرائر من النّساء، إذ كان ظاهر قوله: أو نسائهن يقتضي الحرائر دون الإماء كقوله: ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] علىٰ الأحرار لإضافتهم إلينا كذلك قوله: أو نسائهن علىٰ الحرائر، ثمّ عطف عليهن الإماء فأباح لهن مثل ما أباح في الحرائر.(٢)

﴿أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ [النور: ٣١]

---

(١) الرازي، **مفاتيح الغيب «التفسير الكبير»**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٢٠٩.

(٢) المرجع السابق، ج٢٣، ص٢٠٩.

﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ [النور: ٣١] هم أناس اعتادوا التّردد على البيت لطلب المأكل والمسكن، والإربة: الفِعلة، من الأرَب كالمِشية والجِلسة من المشي والجلوس. ﴿أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾ [النور: ٣١] الأرب هو الحاجة والولوع بالشّيء والشّهوة له، والإِربَة الحاجة في النّساء، والإربة العقل ومنه الأريب.

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: قيل هم الذين يتبعونكم لينالوا من فضل طعامكم، ولا حاجة بهم إلى النّساء، لأنّهم بُلْه لا يعرفون من أمرهن شيئاً، أو شيوخ صلحاء إذا كانوا معهن غضوا أبصارهم، ومعلوم أنّ الخَصِيّ والعِنِّين ومن شاكلهما قد لا يكون له إِرْبة في نفس الجماع، ويكون له إربة قوية فيما عداه من التّمتع، وذلك يمنع من أن يكون هو المراد. فيجب أن يحمل المراد على المعلوم منه أنّه لا إرْبة له في سائر وجوه التّمتع، إمّا لفقد الشّهوة، وإمّا لفقد المعرفة، وإمّا للفقر والمسكنة، فعلى هذه الوجوه الثّلاثة اختلف العلماء؛ فقال بعضهم: هم الفقراء الذين بهم الفاقة، وقال بعضهم: المعتوه والأَبْلَه والصّبي، وقال بعضهم: الشّيخ، وسائر من لا شهوة له، ولا يمتنع دخول الكل في ذلك، وروى هشام بن عروة، عن زَيْنَبَ بِنْتِ أبي سَلَمَةَ، عن أُمِّهَا أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: "دخل عَلَيَّ النبيُّ ﷺ وَعِنْدِي مُخَنَّثٌ، فسمعه يقول لِعَبْدِ الله بن أُمَيَّةَ: يا عَبْدَ الله أَرَأَيْتَ إن فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ الطَّائِفَ غَداً فَعَلَيْكَ بِابْنَةِ غَيْلَانَ، فَإِنَّهَا تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ، وقال النبيَّ ﷺ: "لَا يَدْخُلَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَيْكُنَّ"[1]، فأباح النّبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ دخول المخنث عليهن حين ظنّ أنّه من غير أولي الإربة، فلما علم أنه يعرف أحوال النّساء وأوصافهنّ علم أنّه من أولي الإربة فحجبه.

﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١] الطّفل: اسم للواحد، لكنه وضع هنا موضع الجمع لأنّه يفيد الجنس، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [الحج: ٥]. والظّهور على الشّيء على وجهين: الأول: العلم به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ ...﴾ [الكهف: ٢٠] أي أن يشعروا بكم، والثّاني: الغلبة له والصّولة عليه

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الطَّائِفِ، ح٤٣٢٤، ص٨١٦.

كقوله: ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤]، فعلىٰ الوجه الأول يكون المعنىٰ أنّ الأطفال الذين لم يتصوروا عورات النّساء ولم يدروا ما هي من الصّغر وهو قول ابن قتيبة، وعلىٰ الثّاني الذين لم يبلغوا أن يطيقوا إتيان النّساء، وهو قول الفرّاء والزّجّاج.

قال الحسن: هؤلاء وإن اشتركوا في جواز رؤية الزّينة الباطنة فهم علىٰ أقسام ثلاثة؛ فأولهم الزّوج: وله حرمة ليست لغيره، يحلّ له كل شيء منها، والحرمة الثّانية: للابن والأب والأخ والجد وأبي الزّوج وكل ذي مَحْرَم، والرّضاع كالنّسب، يحلّ لهم أن ينظروا إلىٰ الشّعر والصّدر والسّاقين والذّراع وأشباه ذلك، والحرمة الثّالثة: هي للتابعين غير أولي الإربة من الرّجال، وكذا مملوك المرأة فلا بأس أن تقوم المرأة الشّابة بين يدي هؤلاء في درع وخمار صفيق بغير ملحفة، ولا يحلّ لهؤلاء أن يروا منها شَعْراً ولا بَشَراً، والسّتر في هذا كله أفضل، ولا يحلّ للشّابة أن تقوم بين يدي الغريب حتىٰ تلبس الجلباب، فهذا ضبط هؤلاء المراتب.(١)

وقد يسأل سائل: ما السّبب في إباحة نظر هؤلاء إلىٰ زينة المرأة؟

الجواب: لأنّهم مخصوصون بالحاجة إلىٰ مداخلتهن ومخالطتهن، ولقلة توقع الفتنة بجهاتهن، ولما في الطّباع من النّفرة عن مجالسة الغرائب، وتحتاج المرأة إلىٰ صحبتهم في الأسفار وللنّزول والرّكوب.

﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]

كان المفسرون يرون أنّ المقصود الخلخال، أمّا الآن وقد امتد بنا الزّمان الذي يوجد فيه تحري بعض النساء الوسائل التي تؤدي إلىٰ إبراز مفاتنهن عن طريق حركتهن ومشيتهن بطريقة مغرية، مثل لبس الكعب العالي وبناطيل معينة إلىٰ غير ذلك. وقد صارت أحذية النّساء من الأمور التي يتفنن أصحاب هذه الصّناعة فيها وتحويلها إلىٰ وسيلة من وسائل إبراز مفاتن مشتهاة من جسم المرأة، وكذلك بعض الملابس لمناطق الجسم المختلفة، وحتىٰ الرّجال فهناك تفنن في ملابسهم وسراويلهم وشعرهم، وشاع ارتداء بعض الرّجال للأقراط والأساور، وكله مما يصب في إطار إنماء وسائل الإغراء

---

(١) الرازي، **مفاتيح الغيب "التفسير الكبير"**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٢١٠.

والإضافة إليها. والبيئات التي تحرص على أن لا تشيع الفاحشة فيها ولا تنهار الضّوابط والسّدود الأخلاقية ينبغي أن تحذر هذه الأمور بقدر الإمكان وتبتعد عنها، ولذلك فإنّ العناية بصناعة والملبس وأن يكون للشعوب تقاليد معينة فيها، من الأمور التي لا ينبغي أن ينظر إليها باستخفاف، وفي الرّيف وبخاصة المصري يحرص أهله على التّميز بالملابس السّاترة التي لكلّ شيء منها معنى لا ينفك عن ثقافات الشّعوب، فجلباب الفلاح والملس الذي ترتديه الفلاحة والعمامة التي يعتمرها النّاس، كل ذلك له من المعاني الكثير، وهو الأنسب لأجواء البلاد، وحين سأل أحدهم عن كبر عمامة الفلاحين في الصّعيد خاصة فيما مضى قال: "إن العمامة الكبيرة فيها عدة أمتار من القماش، تصلح أن يصلي عليها الإنسان، وأن يتغطى بها عند النّوم، وأن يكفن فيها عند الموت، فهي تؤدي أغراضاً عديدة." وحين ظهرت السّاعات طور كثير من شعوبنا ملابسهم بحيث صاروا يطلبون من الخياطين عمل جيب خاص في الجلباب للسّاعة، فأفكار الملابس تعكس ثقافة الأمة، والذين يستهينون ويستخفون لم يلتفتوا إلى هذه النّواحي الخفية في الأمر، فصارت الأمة هجينا تُسوَّق عليها صناعات اختزلت الحياة وجعلتها حياة شقية.

إن السّورة الكريمة كأنّها اختصت بتزكية الأسرة والمجتمع، وتطهيرهما من كل ما يؤدي إلى ظهور أية ظاهرة سيئة تخرج أو تباعد بين الأسرة والمجتمع من ناحية، والتّزكية من ناحية أخرى، ولذلك فإنّها تعرضت لسائر الأمور التي تحقق هذا الهدف. إنّ في تحليل رؤية هؤلاء الأصناف لزينة النّساء رفع للحرج عن النّاس، فتنشأ العلاقات بين الأقرباء والسّاكنين معا، فالنّاس تستوحش القيود التي تمنعها من التّبسط مع أقربائهم والقريبين من قلوبهم، فإذا قيل للمرأة احتجبي عن والد زوجك أو أخيك ففيها نوع من الاغتراب، وإعلان وجود فواصل وحواجز لا يناسب صلة القربى والرّحم بينهما، ولا نزال نعرف في أريافنا أنّ بعض النّساء المتقدمات في السّن لديهن إصرار على تقبيل بعض رجال الأسرة ومنهم أبناء العمومة والخؤولة وما إليهم، وإن كان بعضهم ممن يحلّ له نكاحه فهو بمثابة الأجنبي، ولكن منعها من تقبيله تعني أنّه يتنكّر لقرابتها منه، فتثار تساؤلات كثيرة تبلغ في بعض الأحيان حد الاختلاف وإثارة المشكلات، فلاحظ القرآن المجيد هذه الرّوابط الاجتماعية الموجودة في البيئات المختلفة فشرّع هذا الاستثناء.

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣١]

وقد جاء النّداء بالتّوبة ليكون عاقبة وخاتمة لكل ما تقدم من توجيهات ووصايا، وفيها دلالات كثيرة وإضافات إلىٰ ما ورد في كتاب الله عن التّوبة، أهمها أنّ الآية الكريمة قد نصت علىٰ مناداة المؤمنين ودعوتهم إلىٰ التّوبة، وفي ذلك ما يساعد علىٰ حسم الجدل الذي أثير في القرن الثّاني الهجري، وما تزال آثاره قائمة حول مرتكب الكبيرة أو الذّنوب بصفة عامة، وهل يخرجه ذلك عن الإيمان بحيث يكون الإيمان بمثابة ثوب يخلعه أثناء ارتكاب الذّنب، ثمّ يعود إلىٰ لبسه ثانية بعد انتهائه من الذّنب، أو أنّ الإيمان لا يفارقه حتىٰ مع الذّنب، إلّا إذا كان ارتكابه مقروناً بمشاقة الله ومعاندة أوامره والتّمرد عليها، وإنكار وجوب الواجب وتحريم المحرم، وفي كلّ الأحوال فإنّ المؤمن بين مخافتين، أجل قد مضىٰ لا يدري ما الله قاضٍ فيه، وأجل قد بقي لا يدري ما الله صانع فيه. وليكون الإنسان من الذين يحظون بحب الله فلا بدّ له من التّوبة؛ لأنّ الله يحب التّوابين، والله تبارك وتعالىٰ يطهر التّائب من الذّنب ويجعله من أهل محبته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقد قرن الله تعالىٰ الفلاح بالتّوبة والتّزكية، فهما سبيل الفلاح والنّجاح في الوفاء بعهد الله، والقيام بحق الاستخلاف، وأداء الأمانة، والنّجاح في الابتلاء.

النّكاح

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: ٣٢]

تستمر السّورة الكريمة في بيان الأحكام التي تطهّر المجتمع وتنقي أُسَرَه وأفراده من كل ما ينافي الطّهارة، أو يؤدي إلىٰ الوقوع في الفاحشة أو فتح باب للزّنا في المجتمع، فلا يترك فسحة ولا ذريعة لانتشار الفواحش، ويسيطر علىٰ شهوات الإنسان من أولها وقبل أن توقعه في الحرام.

واختصاص الذّكر هنا بالأَيَامىٰ والعباد والاماء وذكر حالة الفقر؛ لأنّها هي حالات الضّعف التي تقلل من الرّغبة في النّكاح وتزهد فيه، فيحض المولىٰ القدير علىٰ إتيان هذه الحالات التي يزهد فيها النّاس.

فكأنّ الآيات الكريمة تقول لا تتركوا فرداً ذكراً كان أو أنثىٰ دون زواج، سواء تزوج من قبل أم لا، حراً كان أم عبداً، غنياً كان أم فقيراً. فقد اشتملت الآية الكريمة علىٰ كل الاحتمالات الموجودة في واقعنا الاجتماعي، وهذا حضٌّ للقضاء علىٰ حياة الفردية -العزوبية- لما في ذلك من مصالح عديدة، ودرءٌ لمفاسد كبيرة نبّهت إليها هذه السّورة وغيرها من السّور الكريمة.

ومن ملاحظاتنا اليومية نستطيع تبين أضرار ذلك علىٰ الحالة النّفسية والعضوية التي يتعرض لها العازب، ومدىٰ الانشغال العاطفي والعقلي بهذه القضيّة، مما يعوق صفاء ذهنه وانطلاقه في تحقيق رسالته التي خلق من أجلها، هذا فضلاً عن سهولة وقوعه في الفحشاء لسد احتياجه من الشّهوات النّفسية والجسدية. ونستطيع بأبحاث اجتماعية متعمقة بيان مدىٰ الأضرار الكبيرة التي نتجت عن انتشار حالة العزوبية التي حضّ المولىٰ جلّ شأنه علىٰ إنهائها، والتي تظهر في تأخر سن الزّواج والعنوسة لدىٰ الجنسين، وما إلىٰ ذلك من مآسٍ تحياها المجتمعات لعدم تطبيقها للمفهوم العميق الذي تدلنا عليه هذه الآية الكريمة.

فهنا يأتي الأمر الجليل بتحرك إيجابي من المجتمع بتزويج الأَيَامىٰ وتيسير زواجهم؛ والأَيِّم كل ذكر لا أنثىٰ له وكل أنثىٰ لا ذكر لها.

إنّ الآية الكريمة كأنّها تقدم البدائل عما نهىٰ الله عنه؛ ففي سورة البقرة نهىٰ الله جلّ شأنه بشدة وصرامة عن إيقاع النّكاح بين المؤمنين والمؤمنات من ناحية والمشركين والمشركات من ناحية أخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٢١] فضاقت المساحة قليلاً، وكذلك في أوائل هذه السّورة الكريمة فقد نهىٰ الله عن زواج الزّناة ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور: ٣] فضيقت المساحة أكثر، فكأنّ النّهي شمل المشركين والمشركات وأضيف إليهم الزّناة والزّانيات، إلّا أنّ المساحة واسعة بين المؤمنين والمؤمنات للنّكاح الطّيب الطّاهر الذي يؤدي إلىٰ بناء الأسرة المتينة المتماسكة، وفي آية سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٢١] ذكر العبيد والإماء علىٰ سبيل المقارنة مع المشركين والمشركات، أمّا في هذه الآية فقد ورد الأمر بنكاح الإماء والعبيد، فهؤلاء من الفئات الضّعيفة في المجتمع التي يسهل وقوعها في

الزّنا، لابتذال هذه الفئة وتعرضها للاختلاط من خلال المهام التي تؤديها في المجتمع، فوجود العزوبية فيهم وحرمانهم من النّكاح الحلال الطّيب قد يؤدي إلىٰ دفعهم إلىٰ الزنا بشكل أيسر وأسهل، مما يعود علىٰ المجتمع كله بشيوع الفاحشة والتّساهل فيها وانتشارها، فكأنّ الآية الكريمة توجه مجتمع الإيمان إلىٰ إغلاق هذه الثّغرة. وأمّا ضعف هذه الفئة من النّاس وتعرضها للسقوط في الزّنا والانحرافات فقد أشار إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [النساء: ٢٥] فتنصيف الحد وتخفيف العقوبة عنها حكمته ظاهرة في كونها معرضة للضّغط والوقوع في الزّنا أكثر مما تتعرض الحرة له في هذه المجتمعات، وكلنا يعلم أنّ الله قد رحم البشرية من ظاهرة الرّق، وهيأ السّبل للتّوقف عن إنتاجها مرة أخرىٰ في عصورنا هذه، لكن هناك ظاهرة أخرىٰ بديلة هي ظاهرة الخدم والخادمات والفقراء الذين تحملهم ظروفهم علىٰ العمل في بيوت الآخرين ومساكنتهم، فلعلّ في الخطاب إيماءً لهؤلاء الذي حلّوا محل أولئك بأن يفضل في الاختيار المتزوجون علىٰ العزاب في خدمة البيوت، وفيها حثٌّ وحضٌّ علىٰ تزويج من لم يتزوج أو مساعدته علىٰ النّكاح والزّواج. والله أعلم.

زواج العبد والأَمَة

إنّ من كبرىٰ المعاصي منع النّكاح لا لشيء إلّا لفقر طالب هذا النّكاح، فهنا يؤكّد الله جلّ شأنه أنه سيغني هؤلاء الفقراء طالبي العفاف بالنّكاح من فضله الواسع الغير محدود، فمن يرفض ويرد النّاكح لفقره فقط، فهو غير مصدق -إمّا جهلاً أو جحوداً- بأنّ الله سيغنيه من فضله الواسع.

والآية صدرت بالأمر وظاهره الوجوب، لكن ورودها بعد نهي يجعلها دائرة بين الإباحة، بقرينة النّهي السّابق وبين النّدب والتّرغيب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ ﴾ [النور: ٣٢] ذكر فيه المفسرون أقوالاً كثيرة لا نجد لها داعياً، فكلمة "منكم" هنا أي من أمة المؤمنين كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ

مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩] وورود الأمر بهذه الصّيغة لتنشط النّفوس إلىٰ تنفيذ ذلك، مما يشكل قرينة بأنّ أقل مراتب هذا الأمر النّدب إلىٰ القيام بالمأمور به.

والصّلاح في الآية يمثل القدر المشترك بين معاني عدة منها صلاح دينهم وتقواهم، وكذلك صلاحهم للزّواج وقدرتهم علىٰ تحمل أعبائه وتكوين أسر صالحة. والله أعلم.

﴿ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النور: ٣٢]

تمتد الآيات الكريمة في أمر الذين لا يجدون نكاحاً لأيّة أسباب غير ما ذكر، حتىٰ يغنيهم الله من فضله، بحيث يجدون ما يمكنهم من النّكاح، ويزيل سائر الموانع التي تحول بينهم وبين القيام به.

ومع هذا الحضّ السّابق علىٰ الإنكاح، فإنّه لا بدّ أن يبقىٰ أناس دون نكاح، فهنا تحدثنا الآية الكريمة عن من يبحث عن النّكاح ولم يجد إلىٰ لحظته تلك، فعندئذ يأمره المولىٰ العليّ القدير بالعفاف، وذلك بتطبيق آيات الله الكثيرة بالبعد عن الفحشاء والمنكر، وغضّ البصر، وحفظ الفروج، والاستئذان في البيوت، وارتداء الثّياب التي لا تثير الشّهوات، إلىٰ غيرها من أوامر الله جلّ شأنه. ولتحقيق هذا العفاف أتبعه الله تعالىٰ بوعد أنّه سيغنيهم من فضله الكريم، وكأنّه يقول لنا: إنّه واقع لا محالة، فاصبر وعفَّ نفسك لتنجح في هذا الابتلاء، فيطيب لك التّمتع بما أحله الله لك حين يأتيك فضله تعالىٰ في الدّنيا، ويبارك لك عفافك وصبرك في الآخرة.

وأمر الله تعالىٰ -في هذه الآية- بالمكاتبة هو باب من أبواب القضاء علىٰ ظاهرة الرّق، وغلق جميع الذّرائع والأبواب التي تؤدي إلىٰ انتشارها واستفحالها وشيوعها، وتحرير الأرقّاء يعطيهم الصّلاحية لتحمل المسؤولية الفردية وبناء أسر صالحة من شأنها أن تكون لَبِنات صالحة في المجتمع.

إنّ هناك أموراً ظنّ الفقهاء أنّه لا بدّ من الوقوف بها عند انتهاء مرحلة التّشريع بوفاة رسول الله ﷺ غير ملتفتين إلىٰ أنّ مقصود القرآن كان فتح الباب لإنهاء تلك الظّواهر المتأصلة في المجتمعات والتي لها ذيول فيها، فكان ينبغي أن يكون ظاهراً للفقيه التّفريق بين الظّواهر الممتدة التي نبّه القرآن إلىٰ معالجتها، وبدأ بتلك المعالجة في عهد رسول الله ﷺ؛ فبعض الظّواهر بدأت معالجتها وانتهت في عهده ﷺ، وبعض تلك الظّواهر بدأت من حيث التّشريع وآثار النّهاية كانت واضحة، لكنها تركت لما قد يترتب من خلل أو اضطراب أو آثار تؤدي إلىٰ ذلك، لو جاءت الأوامر بصفة الحسم والظّاهرة مستفحلة شائعة وفي عنفوانها.

فظاهرة الرّق فتح القرآن المجيد سائر الأبواب لإنهائها. وإدخال تحرير الرّقاب في تشريع الزّكاة والكفارات والتّأكيد علىٰ الحرية في كثير من الأحكام والواجبات، يدل علىٰ أننا أمام ظاهرة شاذة، أراد القرآن المجيد تخليص البشرية منها، دون أن تترتب علىٰ ذلك أضرار وتبعات قد تكون أخطر من أضرار الظّاهرة نفسها، وهذه الآية الكريمة تعتبر من أكثر الآيات دلالة علىٰ أنّ الهدف الأبعد للقرآن هو تحرير الرّقاب، وإنهاء ظاهرة الرّق وتطهير المجتمعات منها، لكن هذه الظّاهرة ما كان لها أن تنتهي إلّا بتدرج حكيم يستأصل شأفتها وينهي وجودها وآثارها بحكمة، بعد أن تكون شبكة آثارها قد تمّ تقليصها واحتواؤها واحتواء الأضرار التي قد تترتب علىٰ الإنهاء الفوري لها، فهناك أمور وظواهر انتهت في عهد رسول الله ﷺ وصدرت أحكامها النّهائية مثل ظواهر الخمر والزّنا والرّبا وأمثالها، أمّا هذه الظّاهرة فلم تكن ظاهرة خاصة في الإطار الدّاخلي للأمّة، بل كانت ظاهرة شائعة ومنتشرة وذات علاقة بسائر القوىٰ الموجودة في العالم القديم، فلها جوانب محلية ولها جوانب دولية كذلك، فلا بدّ من ملاحظة الجميع واحتواء سائر الآثار قبل الوصول إلىٰ الحكم النّهائي. وظاهرة الرّق تُعدُّ نموذجاً من تلك النّماذج.

وأَمْرُ مالكي الرّقيق بقبول مكاتبة أرقائهم يُعدُّ باباً من أهم الأبواب لتحقيق مقاصد القرآن في الإسراع بمعالجة الظّاهرة وتحرير الرّقيق، قال جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ

يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [النور: ٣٣] وهذا الأمر عندنا للوجوب فيجب مكاتبة الرّقيق الذي يريد التّحرر من الرّق بنفسه وبجهوده، وقد استفاض الفقهاء في أحكام الكتابة وأسهبوا فيها، ويمكن الرّجوع إليهم لمعرفة تفصيلاتهم الفقهية في ذلك.(١)

والأمر بمكاتبة الرّقيق مشروط بمعلومية الخير فيهم، والخير في الآية يعني أول ما يعني الإيمان، لأنّه لا خير في إنسان فقد الإيمان مهما تحلّىٰ بغيرها من الصّفات، فمن يعلم من عبده توافر الإيمان وحسن الخلق فيه فيجب عليه مكاتبته لتحريره حتىٰ يكون عضواً صالحاً ولبنة طيبة في المجتمع، وهذا الشّرط حكمته ظاهرة، فما الفائدة من تحرير عبدٍ سيء الخلق والطّباع لا يفعل الخير ولا يتصف بشيء منه، فتحريره أشد ضرراً علىٰ نفسه ومجتمعه من رِقّه.

إنّ من كليات الشّريعة الإسلامية السّمحة التّعاون علىٰ الخير والبر والتّقوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢ ﴾ [المائدة: ٢] ومن الأشكال العملية لهذا التّعاون أمر الله تعالىٰ بإعطاء المُكَاتَبين من مال الله، ونرىٰ عظمة التّعبير عن المال بأنّه لله تعالىٰ وليس لأحد، فلا ينبغي لأحد أن يضِنَّ به لأنّه ليس ملكه، ولأنّ من أعطاه إياه الله جلّ وعلىٰ قادر علىٰ نزعه منه، ومن هنا نجد وجوب معاونة هؤلاء الرّقيق علىٰ أداء مال عتقهم، سواء من مال السّيد أو من أموال المسلمين بشكل عام. وإذا كان الأمر بإعطاء المال كوجه للتّعاون علىٰ الخير لعتق هؤلاء الرّقيق، فالأَوْلىٰ من السّيد عدم المبالغة في تقدير ثمن عتقه والتّيسير عليه في كيفية السّداد ومدته، فلا يعضله ولا يرهقه ولا يقهره، فسبحان المولىٰ العليّ القدير الذي أنزل لنا في كليات شريعتنا ما نستطيع أن نستنبط به العديد من الأحكام من كلمات وآيات بسيطة، بربط آي الكتاب العزيز جميعها.

في سياق الحديث عن العبيد والإماء وضرورة عتقهم بل ومساعدتهم وتيسير عتقهم، تُحدثنا الآية الكريمة عن أحد أسباب الرّق، فتتحدث عن الفتيات – وهي

---

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (توفي: ٤٥٦هـ). **المحلىٰ بالآثار**، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٢م، ج٨، ص٢١٩.

كلمة قرآنية لطيفة توحي بالشباب والإقدام قال تعالىٰ: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٠] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ [الكهف: ١٣] وقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥]، وقد تطلق علىٰ اللواتي يستخدمهن السّيد كوسيلة لجلب المال من البغاء ﴿لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النور: ٣٣]، والقضاء علىٰ البغاء هو قضاء علىٰ سبب من أسباب الرق".

إنَّ ممارسة البغاء -الدّعارة في أيامنا هذه- كانت ولا تزال إلىٰ اليوم من أكبر التّجارات -غير المشروعة- السّائدة والمربحة بشكل كبير، والتي تتم بإكراه الفتيات ورغماً عنهن في كثير من دول العالم، ولا تزال هذه التّجارة البشعة رائجة إلىٰ اليوم، فنهىٰ القرآن الكريم عن ذلك نهياً مباشراً لما في ذلك من المفاسد الواضحة علىٰ الفرد والمجتمع. ولعلّ سؤالاً يتبادر إلىٰ الذّهن عن اقتصار الآية علىٰ الفتيات التي يردن تحصنا بأن يعففن أنفسهن عن الحرام، فهل يعني ذلك أنّه يمكن إكراه من لا تريد التّحصن؟

إنّ هذا بالطّبع غير وارد، فالبغاء فاحشة ورذيلة، ولا يمكن أن يسمح الله بها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ومن يرد الرّذيلة من الرّجال أو النّساء يقع في إطار الزّنا، وقد تبين حكم الزّنا في أول السّورة. لذلك كان لا بدّ من استثناء من يمارسونه بالإكراه وهم لا يريدونه، فأولئك يخرجون من إطار الزّنا، وبناءً عليه ليس عليهنّ من حد أو عقوبة، وكيف يكون عليهنّ عقوبة وهنّ مكرهات، فكأنّ الله يواسيهن ويخفف عليهن بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ [النور: ٣٣] وأيضاً فإنّ الإكراه يكون للممتنع ولا يكون للموافق، فإذا كنّ يحببن الزّنا فكيف يكرهن عليه؟! أمّا من يعارضون ويردن العفاف فهنّ من يقع عليهم الإكراه.

النَّجم الرابع: البيّنات النور وضرب الأمثال

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤ ۞
ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ
دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ
عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ
ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ

عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ
أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ
بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا
فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ
لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا
فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن
يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ
خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النور: ٣٤-٤٦]

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ [النور: ٣٤]

لقد صاغ القرآن الكريم "مفهوم البيان" ووضّح سائر جوانبه بما لا يدع حاجة لطلب مزيد، ولم تعد حاجة لأن تنسب "نظرية البيان" -كما يقول البعض- إلى الإمام الشّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أو غيره، فالقرآن محفوظ من بين يديه ومن خلفه، وما الخلف إلّا ما اقتضى البيان، وإذا كان هناك ما يمكن أن يقال فيه "نظرية البيان" فسائر جوانب البيان الضّروري للقرآن جاء بها القرآن نفسُه، لذلك استحق أن يوصف بأنّه مبيّن وأنّه تبيانٌ لكلّ شيء، فهو كتاب مستغنٍ بذاته عن غيره، وكل ما عداه محتاج إليه مستند عليه تأسيساً وتأصيلاً وبياناً، والذين يرفضون هذه الحقيقة النّيرة أو يترددون في قبولها خوفاً من أن يؤثر ذلك على مكانة السّنة النّبوية المطهرة في التّشريع واهمون؛ فالقرآن المجيد لا يقلّل من أهمية السّنة أن ينسب بيانُه إليه هو، ولا يقلل من أهمية السّنة، إنّ لكلِّ سنّة أصلاً قرآنياً كُلياً أو تفصيلياً، فذلك على العكس يُعلي من شأنّها ويعزِّز من مكانتها دون حاجة إلى افتئات أو نسبة شيء إضافي إليها، ليس عليه دليل واضح ظاهر. وإذا كانت بعض الأفهام قد تكلّ عن النّظر في كُليات الكتاب، وتتشبث بالتّطبيقات والتّفصيلات، وتعدّها هي البيان وحده، فلا يشكّل ذلك حجةً لهؤلاء

بأنّ الكتاب يتوقف على غيره من الأدلة، بحيث لا يمكن فهمه ولا تطبيقه إلّا إذا ساندته وبيّنته بطرق تفصيلية أو تطبيقية، فالله تبارك وتعالى عدّ كتابه أقوى المعجزات وأعلى البيانات وأكملها، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١] فالتّطبيقات مستندة إلى الكتاب، ورسول الله ﷺ تمسك بالكتاب ووقف عنده.

إنّ مفهوم البيان القرآني يغني الأمة عن صياغة نظريات مبتدعة مبتكرة في البيان، ليدخل من شاء فيه ما شاء من أدلة أصولية، ما زالوا يضيفون إليها حتى بلغت الخمسين دليلاً إضافياً إلى كتاب الله. وما في كتاب الله حاجة إلى تلك البيانات التي تلقي كثيراً من الظّلال الغامضة على الآيات المبيِّنات البيِّنات. فلنتقِ الله تعالى في هذا الأمر، ولنتبين معنى "البيان" وتفاصيله في هذا الكتاب المبيِّن ومن آياته البينات، وقد جعلها الله تبياناً لكلِّ شيء، ولسنا بحاجة إلى أن نزيغ في الفهم ونضل في التّطبيق بإقامتنا لنظريات للبيان من خارج الكتاب المبيِّن، لمجرد وجود مذاهب لبعض أناس سبقوا تميل النّفوس إلى تعزيزها، وتتطلع إلى تكريسها، ولو على حساب كتاب الله جلّ شأنه.

ومن الأقوال العميقة في هذا الأمر قول الشيخ عبدالله دراز في مقدمته لكتاب الموافقات للإمام الشّاطبي، إذ يقول: "لقد أبان -ويقصد الشاطبي- في هذه المسائل منزلة الكتاب من أدلة الشّريعة، وأنّه أصل لجميع هذه الأدلة، وأنّ تعريفه للأحكام كلي، وأنّه لا بدّ له من بيان السّنة، كما بيَّن أقسام العلوم المضافة إلى القرآن، وما يحتاج إليه منها في الاستنباط وما لا يحتاج إليه، وتحديد الظّاهر والباطن من القرآن، وقسّم الباطن الذي يصح الاستنباط منه، والذي لا يصح الاستنباط منه، وأثبت أنّ المكي اشتمل على جميع كليات الشّريعة، والمدني تفصيل وتقرير له، وأنّه لا بدّ من تنزيل المدني على المكي، وأنّ النّسخ لم يرد على الكليات مطلقاً، وإنّما ورد على قليل من الجزئيات لأسباب مضبوطة، وحدد الضّابط للحد الأعدل الأوسط في فهم الكتاب العزيز الذي يصح أن يبنى عليه اقتباس الأحكام منه، ثمّ بين رتبة السّنة ومنزلتها من الكتاب، وأنّها لا تخرج في أحكام التّشريع عن كليات القرآن، وأثبت ذلك كله بما لا يدع في هذه القواعد شبهة."[1]

(١) الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي (توفي: ٧٩٠هـ). **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، القاهرة: دار ابن عفان، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٨.

﴿ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النور: ٣٤]

وكما أنزل الله إلينا آيات مبيّنات فإنه -شأنه- أنزل إلينا مثلاً من الذين خلوا من قبلنا، فعبر آيات الكتاب المجيد نجد القرآن الكريم يتحدث عن الأقوام السّابقة، ويقص علينا بكل التّفاصيل -التي نحتاجها- ما أنزل إليهم وما أرسل به أنبياؤهم إليهم، وكيف تعاملوا معه، وصراع الحق مع الباطل، وكيف كان مآل كل من الطّرفين، فضرب هذه الأمثلة ليس من قصّ التّاريخ وإنّما للموعظة التي لا ينتفع بها ويفهمها ويعمل بها إلّا المتّقون، فالمتقون تؤثر فيهم الموعظة وتغير منهم وتزكّي نفوسهم وتدفعهم للعمل الصّالح.

فضَرْب الأمثال في القرآن الكريم بالأمم السّابقة إنّما هو عظة لكي لا تكرر الأمة المسلمة أخطاءهم وتتبع سبيل المصلحين منهم، فترى بشكل عملي ماذا صنعوا لتصنعوا مثلهم عندما يأتيكم الاختبار الدّنيوي كما أتاهم. ومن هذه الأمثلة قصة الإفك على السّيدة الطّاهرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وكيف كانت ردود أفعال الأطراف المختلفة في المجتمع، وكيف آلت إليه الأمور، وكيف كان ينبغي التّعامل معها لتجنّب الشّرور التي قد تقع في المجتمعات بسبب حوادث مماثلة. وضرب المولى عزّ وجلّ مثلاً بقصة نبيه الكريم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، التي لم تخلُ أيضاً من اتهامات في العِرْض والشّرف، وقصة العفيفة الطّاهرة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، وكيف اتهمها قومها وكيف كان المآل، فكل ذلك وغيره مما ضرب لنا مثلاً لنتعظ به في آيات الكتاب الكريم، ليتكوّن لدينا النّفس الطّاهرة والمجتمع المزكّى الطّاهر.

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور: ٣٥]

وليبين جلّ شأنه أنّ هذه الآيات مبيّنات، أعقبها بحديث عن نفسه جلّ شأنه، فبقدر ما تحتمل طاقات الإنسان المحدودة من المعرفة وقدرة التّعقُّل والتّفكُّر والتّخيُّل،

يبيّن الله لنا قَبَسات عن ذاته العليَّة، فيبيّن الله جلّ شأنه أنّه نور السّماوات والأرض؛ فأي نور في السّماء شمس أو قمر أو نجوم تتلألأ وتنير ينبغي أن تذكرك أيّها الإنسان بنور ربك، فمادة النّور عائدة إليه، هو مصدرها وهو من أضاف لها النّور، فهو يضرب لك النّور مثلاً لذاته، ولكتبه التي أوحاها إلىٰ رسله أيضاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤] ويضرب لنوره مثلاً أيضاً لأنّه يعلم جلّ شأنه أيّها الإنسان بتطلعاتك وحاجتك إلىٰ فهمه ومعرفته، ولتهديك إلىٰ الحق والخير، وتدلك علىٰ الصّراط المستقيم، ألم يقل بنو إسرائيل أَرِنا الله جهرة! توهماً منهم أنّ البصر الإنساني الكليل ومحيطه المحدود يمكن أن يدركه جلّ شأنه فخابوا وخسروا! فهو تعالىٰ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير، وليوقف فضول البشر في محاولة معرفته ومثّل لنفسه بالنّور المنتشر الذي لا يحاط به، بل يدرك الإنسان آثاره، وأنّ مثله الذي تستطيعون استيعابه والتّأمل فيه مثل النّور المنتشر في السّماوات والأرض، فهل تستطيع أبصاركم الكَليلة أن تحيط به وتدركه، كلا! إنّها لم تعدّ لذلك ولا تحمل طاقة كافية لهذا النّوع من الرّؤية.

كما أنّ سيدنا موسىٰ حين قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، كان الجواب من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وهذا التّجلّي لا نعلم كُنهه، فقد يكون التّجلي بطاقات معينة لا يعلمها إلّا الله تعالىٰ، وقد لا يصل إلىٰ كُنهها العلم أبداً، تصهر الجبال وتفتتها كما تصهر النّارُ الحديدَ.

ففي الآية لفت للإنسان أنّ ربك أعظم من أن تحاول رؤيته أو إدراكه بحواسك، لكن أقصىٰ ما تستطيع إدراكه هو الـمَثَل الذي يضربه لنفسه، فتدرك به ما يدرك بالأبصار، وتدرك أنواراً أخرىٰ لا تدرك إلّا بالبصائر ولا تكفي لها الأبصار، وأنّه ينبغي أن يكون النّظر في الآثار والتّدبُّر فيها والتّأمُّل في علائقها وأسبابها مغنياً لك عن البحث في أمور لا أمل لك ما دمت حياً في إدراكها، فتأدب معه سبحانه واكتفِ بهذه الأمثلة المقّربة وتدبرها ببصرك وبصيرتك، فلك في ذلك غناء وبها كفاء.

إنّ من جميل الرّبط بين الكون المشاهد والأمثلة المضروبة، يجعلنا نرىٰ كيف أنّنا في عصرنا الحديث صنعنا لأنفسنا أنواراً تخصنا، لكننا جميعاً نطفئها عندما يبزغ نور الشّمس التي هي إحدىٰ مخلوقات الله تعالىٰ، وحتىٰ إذا لم نطفئ أنوارنا فلا فائدة منها، فهي لا تكاد تكون ملحوظة وسط ضوء الشّمس الكاشف، فهذا نور مادي، كذلك فالنّور المعنوي الذي أنزله الله تعالىٰ في كلماته في الكتاب العزيز هو خير وأبقىٰ من الأنوار الصّغيرة الضّعيفة التي اتخذناها في الدّنيا لتسيير حياتنا وتنظيمها، فطالما نزل نور الله في قضية ما فلا حاجة بنا إلىٰ آراء وأنوار أخرىٰ بشرية مصطنعة.

وقد ضرب الله جلّ شأنه مثلاً آخر بنور المشكاة، ووصف المشكاة بأوصاف تقرب إلىٰ أذهانهم المراد، لعلّ في ذلك ما يشبع فضولهم ويقطع حيرتهم ويجعلهم علىٰ نور من ربهم، فينشغلون بما كلفوا به لا بما لم يُكلَّفوه، وينصرفون إلىٰ ما يجعلهم أهلاً لرؤيته، ولكن ليس في هذه الدّار ولكن للدّار الآخرة، فيضرب الله تعالىٰ مثلاً لنوره، وليس له هو بذاته جلّ شأنه لأنّكم لا تستطيعون الإحاطة به ولا استيعابه، إنّها صورة تربي خيال الإنسان وطاقاته وقدراته الذّهنية بشيء يؤهلها لنوع من الاقتراب النّفسي للتّفكير بتلك الرّحاب، فيكفيك أيّها الإنسان في هذه الدّنيا أن تتدبّر وتتأمّل في هذه الأمثال التي توصلك -إنْ استنار قلبك وعقلك واتصفت بالتّقوىٰ- إلىٰ ما يطمئن به قلبك وتستقر به نفسك إلىٰ المعرفة بالتّقوىٰ.

إنّنا نجد هنا أحد أكثر الأمثال إشعاعاً وجمالاً وشفافية وقد صورت في نطاق الملموس القريب من الخيال الإنساني، فالله الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، هو النّور الذي يأتي في صدارة أوصاف الخالق العظيم، الذي أنزل الهدىٰ وعداً لآدم وزوجه ولنسلهما رحمة بهم من عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا الوعد تلقياه ساعة الخطب العظيم، حين كانا أحوج ما يكونان للعزاء والطّمأنينة. وتلك الرّحمة مشروطة باتباع النّور الذي يهديهما في مرتقاهما خلال مكوثهما في مستقرهما الأرضي الزّمني، أمّا أولئك الذين يتّبعون هدىٰ الرّسل المبعوثين بالنّور المبين فسيهتدون إلىٰ سواء السّبيل المضيء، ولا بأس عليهم ولا خوف ولا هم يحزنون أو يجزعون من مصيرهم في الدّنيا التي بغير الهداية تكون عالماً مظلماً وممزقاً بالصّراع، ومثلما تخرج بذرة الحياة من ظلمة الرّحم مندفعة إلىٰ النّور، فإنّ

ظلمة بحر تحولات الحياة تصبح منذرة بالهيمنة علىٰ الحياة، لولا وجود مصباح الفنار الهادي علىٰ الشّاطئ، ذلك الضّوء الآتي من وراء الوجود الذي ما من ضوء دونه.

إنّ وجود إحدىٰ أكثر الفقرات روحانية في القرآن -حرفياً- وسط واحدة من أكثر السّور واقعية واكتنازاً اجتماعياً لم يكن بغير دلالة، إنّها لا تشير فحسب إلىٰ مجرد طريقة توازن الأقطاب التي تصبح الحياة معلقة وسطها، بل تقدم أيضاً تصويراً مجسداً، وتمنح معنىٰ جامعاً.(١)

إنّ في كل لفظ من ألفاظ هذه الآية معاني لا تحصىٰ، وفيها بحور لا يسهل الخوض فيها، لكنها كافية في طمأنينة القلب المؤمن وهدوئه حتىٰ يلقىٰ الله في الآخرة.

﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥] يعلمنا الله تعالىٰ ما في القرآن الكريم بطرق شتىٰ؛ فمن الأوامر المباشرة، إلىٰ التّرغيب، إلىٰ التّرهيب، إلىٰ قصص السّابقين وضرب الأمثال. وهذا التّنوع الرّائع لا غنىٰ عنه لتثبيت الإيمان بالقضايا المتناولة. وضَرْبُ الأمثال هو ما يعرف في العلم الحديث بالنّمذجة modeling؛ فلكي تستطيع فهم قضية ما أو قانون ما يقوم العلماء بعمل نموذج له من شيء آخر معروف لهم، حتىٰ يصلوا إلىٰ ما يجهلون في موضوع بحثهم. وتعتمد دقة النّموذج علىٰ دقة محاكاته للقضية موضع البحث، وعدد أوجه التّشابه بين الاثنين، وعلىٰ ما يحتويه النّموذج من عناصر تؤثر في عمله، كالتي توجد في موضوع البحث. كذلك نجده في القرآن الكريم في أمثلته؛ فمن يتعمق في تدبر هذه الأمثال يستطيع أن يستنبط أحكاماً ومفاهيم وقوانين اجتماعية وكونية كثيرة ومتنوعة بحسب علمه وعمق تدبره، وذلك بدهي؛ لأنّه لن يكون هناك أعلم ولا أدق من الله تعالىٰ في أي شيء، ومنه ضرب الأمثال وعمل النّماذج لمحاكاة القضايا التي يعالجها، فدورنا نحن أن نكتشف هذه الأحكام والمفاهيم.

إنّ الذي أنزل هذا الكتاب بسنن وقوانين ثابتة هو الذي خلق هذا الكون بسنن وقوانين ثابتة أيضاً، فكما أنّه لا يمكن للنّار أن تغيّر قانونها فتبرد الأشياء بدلاً من تسخينها -إلّا أن يشاء الله- فكذلك لا يمكن لقوانين الكتاب أن تتغير أو تتبدل.

---

(١) أبو الفضل، منىٰ. **العلاقة الجنسية «منظور قرآني»**، القاهرة: دار السلام، ط١، ٢٠١١م، ص٣٣.

المساجد

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦﴾ [النور: ٣٥] إنّ كلمة (بيت) وردت في القرآن الكريم مرات عديدة على معنين كبيرين:

المعنى الأول: هو بيوت الله، أي البيوت التي يُعبد فيه الله، ويُذكر فيها اسم الله كثيراً، كالصّوامع والبِيَع والمساجد، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] فكل تلك الأماكن يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولذلك فهي بيوت الله.

وأول بيت من بيوت الله وضع في الأرض هو البيت الحرام في مكة المكرمة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦﴾ [آل عمران: ٩٦]، وهو المسجد الذي فيه الكعبة المشرفة ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] وإليه فرض الحج لمن استطاع إليه سبيلاً ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقد سمّى المولى عزّ وجلّ البيت الحرام بمكة بأسماء عديدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحج: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣﴾ [الحج: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [الطور: ٤]، وللمفسرين فيه كلام كثير؛ فمنهم من حمله على البيت الحرام بمكة، ومنهم من أورد آثاراً تدل على أنّه المحاذي للبيت الحرام في السّماء، وكلمة المعمور في الحالة الأولى معروفة، أمّا في الثّانية فلعلّ المراد به المعمور بالملائكة.

المعنى الثّاني لكلمة بيت هو: المساكن التي يتخذها النّاس لسكناهم وجلوسهم ونومهم، ولا فرق فيها بين بيوت المسلمين وغير المسلمين، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: ٥] وقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ [يوسف: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ [القصص: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]،

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٣٦].

ويسري هذا المعنىٰ أيضاً علىٰ بيوت غير بني البشر، قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

إنّ الله تعالىٰ قد أوضح لنا في هاتين الآيتين الكريمتين كيف يجب أن يتصرف النّاس داخل المساجد، من ناحية، وكيف ينبغي أن تكون شكل حياة النّاس من ناحية أخرىٰ، وهي علىٰ النحو الآتي:

أولا: الرفع: بيوت الله تعالىٰ يجب أن تُرفع، أي تُبنىٰ، أو نُعلي قدرها، وكلاهما صحيح، ونجده في آية البقرة ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]، والرّفع يستلزم التّأسيس قبله حتماً، وهو ما يعني وجوب تأسيس الإيمان والتّقوىٰ في قلوب أولئك الذين سيرفعون هذه البيوت، وإلّا فما فائدة مسجد أسس علىٰ غير التّقوىٰ، قال تعالىٰ عن هذا النّوع: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ثانياً: ذِكْرُ الله وحده: إنّ هذه البيوت ترفع لكي يذكر فيها اسم الله تعالىٰ وحده، ولا يُذكر فيها معه أحد، فهي المكان الذي يتعلم فيه النّاس عن الله، ويتعلمون من كلام الله، ولعلنا الآن ندرك المعنىٰ العميق وراء حصر الذّكر علىٰ اسم الله وحده، وهو عدم التّفرق والتّحزب؛ فذِكْرُ أسماء آخرين -ولو كانوا أولياء لله صالحين- لا يجوز بهذه الآية، لأنّه بالتّأكيد لن يخلو من هوىٰ مؤيد ما أو معارض ما لهذا المذكور دون الله، فيتحزّب النّاس لمؤيدين ومعارضين، وكلنا رأينا كيف تكوّنت المذاهب والتّعصب لآراء قائليها -مع عظم شأنهم وعلمهم ولا نزكيهم علىٰ الله- الذين كانوا هم بأنفسهم لا يتعصبون لها، فقد ينزل الإمام الشّافعي علىٰ رأي الحنفية حينما يحلّ بأرضهم لحسن فهمهم، رحمهم الله جميعاً وغفر لهم؛ فتكونت من بعدهم الطّائفية الدّينية والتحزُّب -بالتّعصب لآرائهم- الذي نهىٰ الله تعالىٰ عنه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فإذن، يجب أن تُنَزَّه المساجد عن الصّراعات والنّزاعات، لتبقىٰ أماكن آمنةً لممارسة التّوحيد والتّسبيح لله تعالىٰ وحده، ولتكون مثابة للنّاس في مختلف الظّروف، وأَمْناً لهم حين يستبد بهم الخوف في غيرها.

وما يجري في بعض الدول من هدم المساجد علىٰ المصلين، فدليل علىٰ أنّ هذه الأمّة قد تُودّع منها، لا لخلاف في الكبائر وإنّما في الفضائل وأمور خلافية سطحية. فهدمها والقضاء علىٰ من فيها دليلٌ علىٰ انتفاء الإيمان وموت هؤلاء النّوع من النّاس، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١١٤].

فأيّ مسؤول مارس ذلك ابتداءً من عبد الملك بن مروان ونائبه الحجاج الذين رميا الكعبة بالمنجنيق، وليس انتهاءً بالذين هدموا المساجد علىٰ رؤوس السّاجدين هم أظلم النّاس كما ذكر القرآن، بل لا أحد أكثر ظلماً منهم لنفسه وشعبه ودينه إن كان لهم دين.

وإن أولئك الذين يقتحمون المساجد ويخربونها لا ينفعهم ولا ينجيهم من عذاب الله أنّهم مأمورون بتدمير هذه المساجد واقتحامها، ومن يلجأون إلىٰ المساجد لا يحق لهم استخدام أرضها ولا مآذنها لمقاتلة مخالفيهم؛ لأنّ بيوت الله لم تؤسس للأغراض الحربية. فالجميع مسؤولون عن حرمة المساجد وصيانتها، وإذا قصّر النّاس في حماية المساجد واحترامها وصيانتها من الدّنس، فإن ذلك قد يجعلهم جميعاً عُرضة لسخط الله وعقوباته. إنّ كل المواثيق الدّولية قد نبهت إلىٰ ضرورة احترام دور العبادة، لكن الفتن المعاصرة لم تُبقِ حرمة لمسجد ولا حتىٰ للمسجد الحرام، ولم تُبقِ علىٰ حرمة للدَّم الحرام.

نعود للآية الكريمة التي وجهنا الله تعالىٰ فيها إلىٰ ذِكْر اسمه وحده في بيته وهي إشارة إلىٰ دينه، فعندما تتكلم عن دين الله فاذكر الله وحده لتجنب ما لا تعلم من الشّرور والمفاسد والعواقب السّيئة في الدّنيا والآخرة. قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨]، وبالطبع يظهر جلياً اليوم في أيام ثوراتنا الاستقطابات والتّحزبات والنّزاعات والصّراعات والمناقشات الحادة التي تجري في المساجد تأييداً

لموقف فلان أو اعتراضاً عليه، ولو آمنوا بكلام ربهم حقاً ونفذوا هذه الآية الكريمة بعدم ذكر غير الله لما حدث هذا، بل ويحزننا أكثر أنّهم يقرؤون هذه الآية في قراءتهم لحزبهم اليومي في كتاب الله أول النّهار، ويختلفون ويتنازعون آخره، كأنّهم لم يقرؤوا أو يعوا أو يفهموا.

إذن فذِكْرُ الله تعالىٰ وحده هو السّبيل إلىٰ عبادته وحده، وإلىٰ تكوين الأمة الواحدة التي أُمرنا بها حتىٰ لا نتفرق ونتنازع بأهواء وعصبيات، فهذا يؤدي إلىٰ التّصارع والتّناحر والاقتتال، وليست الحروب الطّاحنة بين الشّافعية والأحناف في مدينة الرّي بالعراق منا ببعيد والتي أرّخ لها الإصطخري،(1) ولا سقوط دولة الموحدين والمرابطين والمذابح المليونية المذهبية التي ارتكبت فيها بسبب الطّائفية والأهواء. ودون الدّخول في دهاليز التّاريخ المظلمة، يكفينا قول ربنا جل وعلا: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولكي تكون هذه الأمة أمّة واحدة، يجب عليها أن تحرص علىٰ الدّعوة لإله واحد، وبطريقة واحدة علىٰ بصيرة، وهي طريقة الكتاب العزيز، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨] فهذه البصيرة التي أُمر رسولنا الكريم بأن يدعو بها هي القرآن الكريم، لقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤﴾ [الأنعام: ١٠٤] فتربط السّياقات بشكل مباشر بين وحي الله تعالىٰ -آياته المتلوة- والبصائر التي تقابل الأبصار التي هي مختصة بالحسيات المرئية كما أنّ البصائر مختصة بالمدركات، وهذا واضح جلي من معنىٰ البصائر التي هي الأدوات المعينة علىٰ

(١) هو الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسىٰ، أبو سعيد الإصطخري، شيخ الشافعية ببغداد ومحتسبها، ومن أكابر أصحاب الوجوه في المذهب، كان ورعاً زاهداً، قال أبو إسحاق المروزي: لما دخلت بغداد لم يكن بها من يستحق أن يدرس عليه إلا ابن سريج وأبو سعيد الإصطخري، ولي قضاء قُم وحسبة بغداد، وله مصنفات مفيدة، توفي في ربيع الآخر، وقيل: في جمادىٰ الآخرة سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وقد جاوز الثمانين، انظر:

- السبكي، **طبقات الشافعية الكبرىٰ**، مرجع سابق ج٣، ص٢٣٠.

إبصار الطّريق المستقيم، وهي النّور والهدىٰ، فالإنسان الذي يضلّ طريق هدايته يحتاج إلىٰ نور وإلىٰ هداية ليبصر بهما طريقه المستقيم إلىٰ خلاصه ونجاته في الدّنيا والآخرة؛ والنّور والهدىٰ كلاهما من أسماء الكتاب العزيز، إذن فالدّعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة أي علىٰ هدي القرآن، وكيفما علمنا القرآن الكريم.

ثالثاً: التّسبيح: العمل الثّالث الذي نوّهت به هذه الآية الكريمة هو التّسبيح، فهو مما تُبنىٰ له بيوت الله تعالىٰ. ومعنىٰ التّسبيح معنىٰ هائل في كتاب الله تعالىٰ، فكما رأينا مدىٰ عمق المعنىٰ واتصاله بباقي آيات الكتاب الكريم في قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦] فكذلك العمق والاتصال بآيات الكتاب الكريم في التّسبيح، والذي يزداد ويتسع بازدياد التّدبر والتّفكر في الآيات الكريمات.

إنّ التسبيح جزء من ذكر الله تعالىٰ، وهو كغيره من العبادات له شقه الفعلي الظّاهري في القول والعمل، وله شقه الباطني القلبي، فالتّسبيح في مضمونه الإجمالي هو: تـنـزيـه الله تعالىٰ عن ما لا يليق بجلاله. ولأنّ التّسبيح من الذّكر، فيجب علينا القيام به كما علمنا الله في كتابه ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] وقوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٩].

كيفية التسبيح

وقد علمنا المولىٰ جلّ شأنه بطريق مباشر وغير مباشر كيفية التّسبيح وصيغه.

فأما صيغ التّسبيح التي علّمنا إياها بشكل مباشر تظهر جلية في أوامره العديدة، ومنها:

قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧-١٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ

رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف: ١٣-١٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ﴾ [الأعلىٰ: ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر: ٣].

فهكذا علّمنا الله تعالىٰ بشكل مباشر كيفية التّسبيح وصيغه، ليؤدي التّسبيح مئات الوظائف في حياتنا كلها، فبالتّسبيح ينمو الإدراك، وتنزّه العقول والقلوب، وتستنير القلوب، وتنتظم الحياة، وينسجم الإنسان مع ذاته ومع ما حوله، ويبارك الرّزق وينمو، وتصفو الحياة وتطهر، وبالتّسبيح تقترن البركات بالأهل والولد، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية.

كما علّمنا الله تعالىٰ أيضاً بشكل غير مباشر كيفية التّسبيح من خلال قصص القرآن، كما في قصة سيدنا موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وكما في قصة نبي الله يونس، قال تعالىٰ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤]، وكما في قصة أصحاب الجنة، قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القلم: ٢٨-٢٩].

أوقات التسبيح

وكما علمنا جل شأنه صيغ التسبيح في آيات الكتاب الكريم علّمنا أيضاً أوقات التّسبيح، ومنها:

- التّسبيح بُكرة وعَشياً، قال تعالىٰ: ﴿ وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم: ١١].

- قبل طلوع الشّمس وقبل غروبها ومن آناء اللّيل وأطراف النّهار، قال تعالىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه: ١٣٠].
- التّسبيح باللّيل والنّهار، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت: ٣٨].
- التّسبيح في الغدو والآصال، قال تعالىٰ: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النور: ٣٦].
- في المساء والصّباح، قال تعالىٰ: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الروم: ١٧].
- في البكرة والأصيل، قال تعالىٰ: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٢].
- بالعشي والإشراق، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص: ١٨].
- قبل طلوع الشّمس وقبل الغروب ومن اللّيل وبعد السّجود، قال تعالىٰ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ق: ٣٩-٤٠].
- حين تقوم ومن اللّيل وبعد النّجوم "قبل الشّروق"، قال تعالىٰ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور: ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الطور: ٤٩].

لذلك نجد التّسبيح في كل وقت، بل وفي كل مكان مشاركاً كل المخلوقات في التّسبيح، وكل هذا ما بدأ إلّا بإذن الله تعالىٰ أولاً وقبل كل شيء، فسبحان الملك الذي لا يجري شيء في ملكه إلّا بإذنه وأمره ومشيئته.

ومن أعمال التّسبيح

- تنزيه المولىٰ تعالىٰ عن الولد، والإيمان بمُلكه للسّماوات والأرض، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ﴾ [مريم: ٣٥].
- عدم القول علىٰ الله إلّا بالحق قال تعالىٰ: ﴿ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: ١١٦].
- عدم قول ما لا يليق علىٰ الله تعالىٰ، مثل ادّعاء شريك لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال عزَّ وجلَّ:

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

- عدم التّكلم في البهتان وتناقل الشّائعات، خاصة التي تمس الأعراض أو تحدث فتنة ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ ﴾ [النور: ١٦].
- الإيمان بأنّ الله تعالىٰ يخلق ما يشاء ويختار ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص: ٦٨].
- والحمد- أيضاً- من أعمال التّسبيح؛ لأنّ فيه تنزيهاً لله تعالىٰ، ولليقين بتفرده جل وعلا في العطاء والإنعام علىٰ البشر، قال تعالىٰ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

عظمة التّسبيح

ومن عظمة هذا التّسبيح، ما أخبرنا الله به عمّن يسبحون:

- كلّ مخلوقات الله، قال تعالىٰ: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٢٤].
- المؤمنون، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [السجدة: ١٥].
- الجبال، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص: ١٨].
- الملائكة، قال تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ [غافر: ٧].

صفات المؤمن

﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور: ٣٧-٣٨]

إن ّنوعية الرّجال الذين يسبّحون في بيوت الله بالغُدو والآصال ويفهمون التّسبيح بالمعنىٰ القرآني، هم حقاً من لا تلهيهم أكبر شهوات وملذات الإنسان وهي المال، التي ألهت وشغلت غيرهم، بل يكاد يكون شغلت معظم البشر، وقد أخبر المولىٰ هنا عن التّجارة والبيع تحديداً، لأنّه يأتي علىٰ النّاس بالمال علىٰ عكس الشّراء الذي يسلب منهم المال.

وهنا يعلمنا الله تعالىٰ كيف ينبغي أن تكون صفات المؤمنين حقاً:

- لا تلهيهم مكاسب الدّنيا عن مكاسب الآخرة، وهي تختلف مع كل إنسان، إلّا أنّها لأغلب البشر تكون مالاً، فلو أن أحدنا يمتلك تجارة رائجة وبيعاً كثيراً، فهل سيترك ذلك ويطلب ثواب الآخرة وجزاءها بالتّسبيح في المساجد، وذكر الله تعالىٰ بالغدو والآصال؟ فهذا اختبار حقيقي بل ميزان يزن به كلٌّ منّا نفسه، فسبحان الذي أنزل إلينا ميزاناً في الدّنيا قبل أن نوزن في الآخرة.
- أنّهم حريصون علىٰ ذكر الله، وهذا الذِّكر قد يكون بترك البيع والتوجه لأداء الصّلاة كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤]، وقد يكون بالذّكر أثناء البيع نفسه، ذلك لأنّ مفهوم الذّكر هو تذكر المولىٰ جلّ شأنه بعدم نسيانه. وذِكْره بمعنىٰ الحديث عنه، كما نقول: "كنا نذكر فلاناً فذكرناك" فذلك يكون بتلاوة كلامه جلّ شأنه والذّكر -أيضاً- بمعنىٰ تذكير النّاس بالله، فأنت علىٰ إحدىٰ ثلاث حالات للذّكر: مُتَذكِّر، أو ذاكر، أو مذكِّر به.
- أنّهم حريصون علىٰ إقامة الصّلاة، وإقامة الصّلاة يعلمها المؤمنون ويشعرون بها؛ إذ يعلمون يقيناً أنّها ليست الحركات والوقفات والرّكعات والسّجدات، فلكل عبادة شقها الظّاهري في القول والعمل، وشقها الباطني في القلب والنّية. فإقامة الصّلاة هي أداؤها علىٰ أحسن وجه بتحقيق أهدافها من العباد، وهي:

أولاً: الذّكر: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤] وهو بدهي، فما الفائدة من صلاةٍ أدينا حركاتها، ولكننا لم نتذكر الله فيها، فتجد كثيراً من المصلين بمجرد خروجه من المسجد قد يرفع صوته ويغضب علىٰ غيره ويتقاتل ويسب ويلعن، وكأنّ

صلاته لم تؤد شيئاً في نفسه؛ أو تجده قد يكمل عملاً سيئاً كان قد بدأه قبل الصّلاة، وكأنّها لم تنهه عن السّوء والفحشاء والمنكر، ولم تذكره بالله الذي سيحاسبه على ذلك، فهو لم يذكر، لذلك فهو لم يقم الصّلاة!

ثانياً: التّزكية: وكم من مرة اقترن فيها إقامة الصّلاة بإيتاء الزّكاة وحتى في هذه الآية الكريمة. فإن لم تؤد الصّلاة إلى تزكية النّفس وتطهيرها فهذه صلاة غير مقامة.

- أنّهم حريصون على إيتاء الزّكاة: إنّ الزّكاة الحقيقية هي زكاة النّفس، التي تتحقق بطرق عديدة منها: إنفاق المال، ولكنها ليست محصورة عليه، فتحري الصّدق، وكف اللّسان والعدل مع النّاس والعفو عن المسيء، وغيرها من محاسن الأخلاق مما يجتهد الإنسان في التّحلي بها، فمحاولة الإنسان الوصول لهذه المرتبة العالية من حسن الخلق هي عملية التّزكية للنّفس.

- أنّهم يخافون يوم القيامة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧]، يوم الحساب بلا عمل، يوم اللّارجعة، يوم تتقلب القلوب والأبصار، تتقلب من اضطرابها وخوفها وفزعها من الأحداث الهائلة التي تقع، تضطرب رعباً وفزعاً من مجيء ساعة الحساب على الأعمال والعرض على الله، تضطرب رعباً وفزعاً من حدوث اليوم الذي كذّب به أكثر النّاس، إمّا تكذيباً صريحاً وإمّا تكذيباً بعملهم رغم ادّعائهم التّصديق، ولكن بالقول فقط.

فهم يفعلون ذلك أملاً ورجاءً من الله أن يجزيهم بأحسن أعمالهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٨]، فأولئك المؤمنون السّابق ذكرهم يفعلون هذه الأعمال تقوى لله ورجاءً أن يجازيهم على أحسن أعمالهم. ونحن في الدّنيا نفعل هذا؛ فالذي يقوم بعمل ما يتمنى من مديره أن ينظر إلى جوانب الحَسَن في هذا العمل ولا ينظر إلى جوانب السّوء فيه، ولله المثل الأعلى، فإننا بشر لن نستطيع أن نتم العمل الواحد لنصل به لحد الكمال، أو نجعل كل أعمالنا في كل لحظة من حياتنا مستوفاة لشروط العمل الصّالح دون أي خطأ، فهذا أيضاً محال، ولكن دائماً سيبقى نواقص في العمل الواحد ونواقص في مجمل أعمالنا ما بين صالح وغير ذلك، فنأمل من المولى الرّؤوف الرّحيم أن يجازينا على ما فيها من الحَسَن وأن يتجاوز بفضله عن ما في أعمالنا من سوء.

وقد بشَّرهم الله تعالىٰ بأحسن بشرىٰ بأنَّ ذلك ممكن، بل إنّه تعالىٰ بعد أن يجزيهم بأحسن ما عملوا يزيدهم من فضله من دون عمل منهم! فالحمد لله الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

صفات الكافرين

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور: ٣٩]

مثَّلت الآية الكريمة هنا لعمل الكفار بالسّراب، والذي يلوح للسائر من بعيد فيتخيله ماءً، فإذا كان هذا السّائر ظمآن، ظنّ أنّ هذا الماء هو الأمل، فأسرع المسير إليه، فكلما قرب من السّراب بعد الماء -أو ما يتخيله ماء- بحيث يحافظ دائماً على المسافة نفسها بينه وبين الرّجل فلن تقترب أبداً، فيزداد العطش بالرّجل فيزيد المسير تجاه الماء المتوهم، فلا يصل إليه أبداً حتىٰ يهلك.

سبحان الله العظيم الذي حاكىٰ حياة الكافرين بهذه الدّقة المتناهية في هذا المثل العظيم. فحياة الكافر الذي لا يؤمن بالله ولا بالآخرة نجدها تسعىٰ وراء وَهْم؛ إذ يضع لنفسه هدفاً موهوماً متخيلاً ويسعىٰ وراءه، وما تكون هذه الأهداف إلىٰ إشباع للغرائز الجِبلّية التي خلقنا الله بها، من أكل وشرب ونوم وجنس وأولاد وقوة وسلطة ومال إلخ.

فيتوهم المالَ ماءً، وهو ظمآن ليروي روحه المتسائلة دائماً: كيف أكون سعيداً؟ لماذا أنا هنا؟ من خلقني؟ وهل يوجد خالق أصلاً؟ وماذا يريد مني؟ وماذا ينبغي أن أفعل؟ وأي طريق يجب أن أسير فيه؟ فهي روح متعطشة ككل الأرواح للإجابة عن هذه التّساؤلات، متعطشة للرّاحة وللسّعادة التي لن تأتي إلّا بعد إجابتها، فيجيب الكافر نفسه بأنّ السّعادة في المال، فهذا هو الماء الذي سيروي نفسه العطشىٰ، فيسعىٰ وراءه وهكذا، وكلما ازداد قرباً ازداد عطشاً، فازداد الماء بُعداً، فازداد الكافر الظّمآن جرياً، وهكذا لا تتحقق السّعادة أبداً، بل صراع دائم وقلق وخوف ونفس لا تهنأ ولا تهدأ، وبال لا يرتاح، وعقل مشغول، وروح عطشىٰ لا ترتوي من ماء هذا المال، وكذلك كل الشّهوات الحسية المادية التي لا تروي الرّوح؛ لأنّه من أوله سراب، ولم يدرك هو ذلك، فيظل هكذا في صراع حتىٰ يهلك، فيجد الله عنده فيوفيه حسابه.

الله الذي كان ينبغي أن يكون هو الهدف والغاية منذ بداية الرّحلة وليس السّراب، فيتبين الكافرُ الحقيقة عندئذ، بأنّه خُدِع وجرىٰ وراء الماء الذي لم يكُنْ موجوداً أصلاً! أمّا الموجود الحقيقي هو الله جلّ شأنه، فوجده أخيراً، لكن بعد ما لا ينفع العمل، فقد انتهت الرّحلة والآن وقت توفية الحساب.

نجد في هذا المثل أنّ أخطر ما يُهلك الإنسان هو اتخاذه وجهة خاطئة من البداية، والأخطر هو الاطمئنان إليها، وعدم مراجعتها باستمرار. لذلك يدعو المؤمن ربه قائلاً: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٨].

العمل الصّالح

إنّ الآية الكريمة السّابقة تطرح علىٰ الذّهن تساؤلاً غايةً في الأهمية، وهو كيف أتأكد من العمل أنّه صالح، كيف لا أُخدع بالعمل وهو سراب لكي لا يضيع عمري هباءً؟

إنّ مفهوم العمل الصّالح في القرآن الكريم مفهوم واسع، ولكن له محددات يستطيع الإنسان أن يحكم بها علىٰ العمل إن كان صالحاً أو غير ذلك، وهذه المحددات هي:

أولاً: التّقوىٰ

إنّ العمل الصّالح فقط هو الذي يقبله الله تعالىٰ. ولكي يُقبل أي عمل يجب أن يشتمل علىٰ تقوىٰ الله تعالىٰ، قال جلّ شأنه: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧] فقربانُ أحد ابني آدم قُبل والآخر لم يُقبل، رغم أنّهما يبدوان ظاهرياً متشابهين، إلّا أنَّ أحدهما اشتمل علىٰ التّقوىٰ لله تعالىٰ، والآخر افتقد هذه التّقوىٰ؛ فهذا أول محددات العمل الصّالح.

ثانياً: طاعة الله

إن العمل الصّالح لا يمكن أن يكون مما نهىٰ الله عنه حتىٰ ولو حسنت النّية، ذلك لأنّ الله أمر بالعمل الصّالح ونهىٰ عن السَّيّء، ولا يأمر الله إلّا بحسنة ولا ينهىٰ إلّا عن

سيئة، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾ [النحل: ٩٠]، فعلىٰ سبيل المثال، نجد في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١٥١] فلا يُتصور أن يكون قتل النّفس التي حرم الله عملاً صالحاً حتىٰ ولو كانت النّية خيراً، بتخليص المجتمع من السّارقين أو الإرهابيين مثلاً، وزجرهم عن هذا العمل، فالنّية الحسنة لا تُصلح العمل الفاسد، فيجب أن يكون هذا العمل الصّالح هو في أصله طاعة لله ورسوله لِيُعد من الأعمال الصّالحة، وعلىٰ ذلك فالعمل الصّالح هو كل ما أمر الله به بشكل صريح في كتابه العزيز، كالإيمان بالله والدّعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة، وبالحكمة والموعظة الحسنة، وإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة، وتلاوة القرآن، والجهاد، والإنفاق في سبيل الله، وغيرها الكثير من الأوامر المباشرة، فكلها من العمل الصّالح.

ثالثاً: الإرادة

يجب أن يشتمل هذا العمل علىٰ النّية الخالصة لله تعالىٰ، فلا يجب أن تحتوي نية العمل علىٰ أي شريك لله تعالىٰ، وأن تكون خالصة لإرضاء المولىٰ جلّ شأنه، فالعمل الذي يكون النّية فيه لله وللدّنيا معاً، كنية إرضاء النّاس، أو بنية كسب الشّهرة أو ما إلىٰ ذلك من نوايا لم تخلص في أصلها لله تعالىٰ وحده، فهو عمل أشرك الإنسان فيه مع الله غيره، ولا يقبله الله تعالىٰ، فالنّية في العمل يجب أن تخلص لله تعالىٰ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦ ﴾ [هود: ١٥-١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ۝١٩ ﴾ [الإسراء: ١٨-١٩]، وقال سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠ ﴾ [الشورىٰ: ٢٠].

فإرادة الإنسان بالعمل الذي يعمله تحدد قبول هذا العمل من عدم قبوله، فهذه الإرادة إمّا أن تكون طلباً للدّنيا وما يندرج تحتها، وإمّا أن تكون طلباً للآخرة وثوابها

من رضى الله تعالى، ولا يمكن للإنسان أن يجمع الإرادتين معاً، ففي هذا شرك كما أوضحنا سابقاً، ولكن قد ينال الإنسان ثوابي الدّنيا والآخرة معاً، بفضلٍ ومنَّةٍ من الله وليس لإرادته لهما معاً.

إنّ إرادة الآخرة وعدم إرادة الدّنيا تعني إتمام إخلاص الأعمال كلها لله تعالى، ولا تعني عدم العمل في الدّنيا، والفرق بينهما شاسع، فعمل الإنسان المحاسب به كله في الدّنيا، ولكن الفرق بين الصّالح وغيره هو نيته حتى وإن كان عملاً دنيوياً كتجارة ما أو وظيفة ما -فيما أحلّ الله بالطّبع- وحتى النّوم والأكل والشّرب بل والتّرفيه، فهذه أعمال دنيوية، ولكن يمكن أن تخلص فيها النّية لله، فيثاب المرء عليها لأنّه يريد بها الآخرة.

معنى العمل الصّالح

العمل الصّالح يضم معاني عديدة:

- فهو العمل الذي يتقّبله الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧] ويصلح أن تنال عنه ثواباً ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].
- وهو العمل الذي يُصلح الله به فساداً في الأرض، لأنّ في المقابل له العمل الفاسد الذي لا يصلحه الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١]، فالمفسدون مهما حاولوا الحصول على الأمان بأعمالهم الفاسدة، فلن يتمكنوا ولن يُصلح الله لهم هذا العمل.
- وهو العمل النّاجح الذي ينجح في الوصول إلى أهدافه النّبيلة وله نتائج طيبة مترتبة عليه ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١] كالبركة في الرّزق أو الغنى بعد الفقر أو الأمان.

الصَّالحون

إنّ صلاح العمل لا يتم الحكم عليه إلّا من خلال كتاب الله تعالى كما سبق وبيّنا في محددات العمل الصّالح، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصّالحين، فالمولى جلّ شأنه قد حدد الصّالحين وأعمالهم في كتابه بشكل دقيق لا يتطلب منّا إلّا التّدبُّر والعمل به، بدلاً

من أن نخمن العمل الصّالح ونخمن من هم الصّالحون، ونتبع الظّنون بغير هدىٰ من الله. قال تعالىٰ في محكم البيان: ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤] وقال عزّ وجلَّ: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾ [النساء: ٦٩]، فلا أبيَن ولا أوضح من هذه الأعمال الصّالحة التي تُدخل من داوم عليها في الصّالحين.

الـمُصلحون

إنّ معنىٰ الـمُصلحين في كتاب الله كغيره من جزئيات هذا الدّين الحنيف بيِّن وواضح، قال تعالىٰ عن المصلحين: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، فالمصلحون -كما في الآية الكريمة- هم الذين يُمَسِّكون النّاس بكتاب الله وحده ولا يمسكونهم بمشايخ ولا بعلماء ولا بأولياء يكونون أنداداً من دون الله، ولا يخفون الكتاب عن النّاس، ليظل النّاس دائماً أتباعاً لهم، وفي حاجة إليهم وتحت سلطتهم، فهم يُعلّمون النّاس كتاب الله وحده ويردونهم إليه في كل مسألة، ويعلّمونهم كيفية استنباط الحكم من كتاب الله تعالىٰ مباشرة، ليشق كل إنسان طريقه بعدما تعلّم كيفية قراءة كتاب الله تعالىٰ بما يبني داخل كلٍّ منّا إيمانه الخاص بالله تعالىٰ وليس إيمان التّقليد، وإن كان الفهم فيه عيب أو نقص فمن السّهل استكمال هذا النّقص وتقويمه بردّه -أيضاً- إلىٰ كتاب الله لاستكماله، وهكذا حتىٰ يتم الفهم الصّحيح عن قناعة وتجربة ورحلة شخصية لكل فرد مع كلام المولىٰ عزّ وجلّ، ولا يكون حكراً علىٰ مجموعة معينة في كل طائفة توجه أتباعها إلىٰ ما يجب عليهم فهمه، وما يجب عليهم عمله، وما يجب عليهم الإيمان به كما يفهمونه هم!

العمل الثّاني للمصلحين هو: إقامة الصّلاة؛ فهذه علامة علىٰ هؤلاء المصلحين، وهذا عمل ينبغي علىٰ المصلحين عمله والحرص علىٰ أدائه. إنّ هذه العلامة الواضحة تبيّن بشكل جلي مدىٰ الخداع الذي يعيشه البعض باتباع أناس تمّ تسميتهم بالمصلحين

عبر التّاريخ وهم بعيدون تمام البعد عن ذلك، فمن لم يُمَسِّك النّاس بكتاب الله ويقيم الصّلاة، فلا يمتُّ للإصلاح بصلة. إنّ إقامة الصّلاة ليست هي الأذان ولا ما يليه من إعلان حين وقت الصّلاة، وإنّما مفهوم إقامة الصّلاة أكبر بكثير، إنه إتمام الصّلاة وأدائها على وجهها الأكمل الذي يؤدّي إلى ظهور نتائجها من خشوع وقنوت وصبر وطاعة لله في سلوكه كله، ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فالصّلاة إن تمَّتْ حركاتها ولم تَتِمّ بها التّقوى وإخلاص الإرادة لله وللآخرة فهذا ليس إقامةً للصّلاة، بل عمل ظاهري لا يسمن ولا يغني صاحبه من جوع. ومن إقامة الصّلاة أداؤها مع الجماعة ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٤٣]، ومن إقامة الصّلاة عمارة المساجد بها ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٨]، ومن إقامة الصّلاة تحقيق التّقوى بها ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ [الأنعام: ٧٢]، ومن إقامة الصّلاة تحقيق الذّكر بها ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه: ١٤]، لذلك فإن الصّلاة هي مصنع الإيمان، لأنّ إقامتها هي إقامة لكل قواعد الإيمان.

الـمَثَلان الكريمان

﴿ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور: ٤٠]

ضرب الله عزّ وجلّ في هذه الآية الكريمة مثلاً بحرياً بعد ما سبقه في الآية السّابقة بمثل بري أرضي، ولعلّ هذا مما يقرب للنّاس الفهم بتنوع الأمثلة ومما يناسب بيئات النّاس المختلفة، فمن لم يُصادِف له رؤية السّراب في الصّحراء أو الطّرق الطّويلة يرى المثل البحري، ومن لم ير البحر، ويعيش في بيئة بعيدة عنه يفهم المثل الآخر.

ضرب الله عزّ وجلّ هنا مثلاً لأعمال الكافرين بالظّلام الشّديد في البحر اللّجي ذي الأمواج الهائلة، ولكنه ليس ظلاماً واحداً، إنّه ظلمات متعددة لا نهاية لها بعضها فوق بعض، فلو حاول إخراج يده -وهي أقرب شيء لعينه- ليراها لما استطاع من

شدة الظّلام، فهي ظلمات مركبة، فنور القمر الذي كان ينبغي أن يبدد هذه الظّلمات حجب بالسّحاب ابتداءً، ثمّ حجبه موج البحر العالي، ثمّ أمواج البحر الصّغرىٰ التي تسفلها، فإذا حاول الكافر إخراج يده من الموجة الأولىٰ فسيسقط في ظلمة الثّانية، وإذا خرج من الثّانية فسيقع في الثّالثة، وهكذا، إلىٰ ما لا نهاية من الظّلمات والموجات المتتالية التي لا تنتهي، فكلما نجا من ظلمة موجة سقط في ظلمة الموجة الأخرىٰ التي تتبعها، وهكذا، فلا خروج منها أبداً إلّا أن يشاء الله انقشاع هذه السّحاب، وتوقف هذه الموجات المتتالية، لذلك ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

فالكافر يغوص في ظلمات عمله العديدة التي تحيط به كالدّوائر المتحدة المركز، ما إن يخرج من دائرة حتىٰ يدخل في الأخرىٰ، وهكذا فلا يخرج أبداً من دوائر الظّلام، وهكذا يستمر بالدّخول في هذه الظّلمات التي تتراكب أحدها علىٰ الأخرىٰ، وكأنّها برج عالٍ إذا حاول النّزول منه يسقط علىٰ الأرض صريعاً، فلا يمكنه التّوقف ولا التّراجع في هذه الظّلمات الكثيرة المتراكبة التي ما إن يخرج من واحدة حتىٰ يدخل في أخرىٰ، وللأسف فإنّ هذه الدّوائر من عمله هو، ولا يمكنه التّوقف ولا التّراجع في هذه الظّلمات إلّا بنور وهدىٰ من الله تعالىٰ الذي يخرج المؤمنين من الظّلمات العديدة التي قد تسقطهم أعمالهم فيها إلىٰ نوره جلّ شأنه، أمّا الكافرون فلا خروج لهم من ظلماتهم لأنّهم لا يرون أنفسهم في ظلام أصلاً، بل علىٰ الطّريق الصّحيح، وأنّ آخر مبتغانا من الدّنيا هذا الصّراع علىٰ المال والسّلطة والشّهوة، فلا مخرج من ذلك إلّا بأن يرىٰ أنّ هناك إلها، وأنّ هناك ما هو أكبر وأهم من هذه الدّنيا التي نحياها، وأننا محاسبون علىٰ كل أعمالنا، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ولاحظ في الآية السّابقة أنّ النّور جاء مفرداً والظّلمات جاءت جمعاً، فليُتدبر.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ [النور: ٤١-٤٢]

إنّ هذه الأمثال التي ضربها الله تعالىٰ لا ينبغي أن تشعركم باحتياجه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ

لكم، فإنّه جلّ شأنه له ما في السّماوات والأرض كله من ملكه تعالىٰ، وكلهم يسبحون لله تعالىٰ ويصلّون له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فأنتم لا تمثّلون شيئاً يذكر من ملكه العظيم، وما هذه الأمثلة إلّا نور وهداية لكم أنتم لكي لا تضلوا في الدّنيا، فتخسروا الدّنيا والآخرة ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء: ١٤٧].

السّحاب والماء

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور: ٤٣]

بعد أن ضرب المولىٰ جلّ شأنه الـمَثَلَيْن السّابقين؛ أحدهما في البر والآخر في البحر، يضرب لنا مثلاً ثالثاً علىٰ قدرته سبحانه في الجو، وتبدأ الآية كما بدأت سابقتها باستفهام ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ [النور: ٤٣]، وفي هذا درس من أهم الدّروس، وهو البحث في الطّبيعة والتّفكر في الكون، والذي نسميه اليوم بالعلوم التّطبيقية -فيزياء، كيمياء، الطّقس، الفضاء، الفلك، الجيولوجيا إلخ-، ونجد فائدة أخرىٰ عظيمة في ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ [النور: ٤٣]، والتي تعني أنّ المخاطب يستطيع أن يرىٰ هذا بنفسه، بالبحث والتّفكُّر في هذه الأمور، وأنّها ليست مستحيلة ولا مُعجزة علىٰ العقل البشري أن يراها، فمن يخرج علينا بعد ذلك ليقول: إنّ الدّين ضد العلوم الحديثة؟!

إنّ هذا المثل العظيم يخبر كيفية تفاعل السّحب وهطول الأمطار، فيخبرنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن الإزجاء، [1] ﴿ يُزْجِى سَحَابًا ﴾ [النور: ٤٣] وقد وردت في آية الإسراء: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٦]، فالمولىٰ جلّ شأنه يرسل الرّياح لتزجي السّحب أي تدفعها رويداً رويداً

(١) معنىٰ الإزجاء في اللغة، الدّفع قليلًا قليلًا، ومثله التزجية، يقال: الريح تُزجي السحاب. قال الله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ﴾ [النور: ٤٣]، وزجيت فلاناً بالقول دافعته، وفلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالحيلة. انظر:

- الرازي، **مفاتيح الغيب «التفسير الكبير»**، مرجع سابق، ج١٨، ص٢٠٥.

بعد أن كوّنتها ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الروم: ٤٨] ولا تعارض بين نسبة الفعل إلىٰ الله مرة، ونسبته إلىٰ الرّياح مرة أخرىٰ، فكلُّه مآله إلىٰ الله تعالىٰ. ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ ﴾ [النور: ٤٣] الله تعالىٰ بين السّحاب، ونجد هذا التّفاعل الرّائع، فهو ليس دمجاً بين السّحب لتكون واحدة أكبر، وإنّما يؤلّف بينها، وهذا يذكّرنا بالتّأليف بين القلوب الذي لا يقدر علىٰ فعله إلّا الله ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٣]، فهذا التّأليف هو الذي يؤدّي إلىٰ الخير والإنتاج، كما يحدث بين السّحب، الذي أدّىٰ التّأليف بينها إلىٰ الخير وإنتاج الودقِ وهو المطر. ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [النور: ٤٣] وليس منه، وتكررت من خلاله في آية الرّوم، وذلك لأنّ السّحب هشة، وليس لها جسم صلب يخرج منه أشياء، فهي ليست شيئاً واحداً وإنّما هي جزيئات متعددة تتألف مع بعضها، فتتكون قطرات المطر خلال أجزاء السّحابة. إنّ هذا التّفاعل بين السّحب التي تتآلف سوياً بقدرة الله دون توحّد بينها، يعلمنا أحد أهم القواعد في الدّنيا وهي التّكامل وعدم الفردية، فكل جزء من أجزاء السّحابة يتكامل مع الآخر ولا يمتزج به، وإنّما يتراكم عليه حتىٰ يخرج منه الوَدْق، ومثله في الحياة: الرّجل والمرأة، اللّيل والنّهار، السّماء والأرض، الحرارة والبرودة، الضّوء والظّلام، والأمم مع بعضها، فلا يمكن أن يُنتج شيء من دون هذا التّفاعل بين أكثر من واحد، وهذا بخلاف المولىٰ جلّ شأنه الذي هو الوحيد الواحد الذي يفعل ويخلق ويُدبر دون التّكامل مع ما سواه جلّ شأنه.

وهناك مصدر آخر للمياه وهو قمم الجبال التي فيها برد، ونلاحظ قوله تعالىٰ: ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ [النور: ٤٣] للتّبعيض، فليس كل الجبال فيها بَرَد، وحتىٰ ما فيه برد فليس كل الجبل بَرَداً، وإنّما في قممه العليا، حتىٰ في أوقات الصّيف والحرارة العالية، فيذوب هذا البَرَد ويسيل علىٰ الجبال وتنزل إلىٰ الأرض.

هذه المياه التي تنزل علىٰ الأرض من أي مصدر ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٤٣]، والتّعبير بيصيب ويصرف من عظمة الدّقة في البيان؛ لأنّ الإصابة والصّرف قد يكونان كلاهما للخير، وقد يكونان كلاهما للشّر أيضاً، فقد يصيب

اللهُ قرية بهذا الماء رحمة منه وبركة لهم، وقد يُسيره إليهم سيولاً وفيضانات تقتلعهم وتنتزعهم من جذورهم، وكذلك قد يصرف عن النّاس الماء عقاباً لهم وعذاباً، وقد يصرفه عنهم صرفاً حميداً بعد مطر لكيلا يكون فيضانات تدمرهم. ومن عجيب القدرة الإلهية في تحقيق كلمته ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [النور: ٤٣] أنّ هذه المياه قد تنزل على أناس في صحراء ولكن لا يستفيدون بها، وتتخلل المياه بين الرّمال وتغوص في أعماق الأرض إلى أنهارها الجوفية التي تسير إلى أناس آخرين يريد الله أن تصلهم. فسبحان الخالق ذي القدرة والملكوت.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٣﴾ [النور: ٤٣] أي سطوعه وإضاءته أن تُفقد النّاظر بصره من فرط قوته وشدة سطوعه، فهذا البرق الشّديد المهيب قد تولد من سحاب تسوقه الرّياح، فهذا أحد مخلوقات الله الدّالة عليه وعلى وجوده وعلى قدرته وعظمته، ألا يدعوكم هذا إلى الإيمان بالله يقيناً دون ريب؟!

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٤﴾ [النور: ٤٤]

إنّ الله تعالى يشير كثيراً في آياته المحكمات إلى آيتي اللّيل والنّهار اللتين هما أيضاً تتكاملان -كما ذكرنا سابقاً- لتكون حياة البشر ممكنة، ولو كان أحدهما فقط موجوداً لتعذرت الحياة وتوقفت ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۝٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٧٢﴾ [القصص: ٧١-٧٢]، ففي تقليب اللّيل والنّهار آيات وعبر كثيرة، لأنه هو الذي يجعل اختلافاً في درجات الحرارة بين مناطق الأرض المختلفة، الذي بدوره يؤدي إلى اختلاف الضّغط الجوي من منطقة لأخرى، فيؤدي إلى الرّياح من مناطق الضّغط العالي إلى مناطق الضّغط المنخفض، فتبدأ رحلة تكوين السّحب والأمطار، كل ذلك بفعل تعاقب اللّيل والنّهار! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [النور: ٤٤] الخلق لليل والنّهار ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ [النور: ٤٤] ولكن ليس لأي أحد وإنّما ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٤﴾ [النور: ٤٤] الذين يستطيعون إبصار هذا الأمر وفهمه، ثمّ شكر الله تعالى عليه.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور: ٤٥]

بعد ذكر كيفية تكوّن الماء في السّحب، وكيفية نزوله، وعلاقة اللّيل والنّهار بذلك، تكمل الآيات الكريمات في ذكر القدرة الإلهية الهائلة في الماء، فيُذكرنا الله تعالىٰ بأنّ هذا الماء هو أيضاً الذي خلق الله منه الدّواب، بل وخلق منه كلَّ شيءٍ حيٍّ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وهذا من دلائل عظمة القدرة الإلهية التي تثبت لنا في كل لحظة تأمل أنّه هو الواحد الأحد الذي هو علىٰ كل شيء قدير.

الوجه الأول: هو أنّ هذا الماء الذي خلقناكم منه هو معكم أيّها النّاس، فهل تستطيعون أن تخلقوا كخلق الله جلّ شأنه؟ من المعروف أنّ صناعة الأشياء تعتمد فيها علىٰ ثلاثة أشياء، أولاً: توافر المواد الأولية المطلوبة، ثانياً: توافر أدوات التّصنيع، ثالثاً: توافر العلم بكيفية التّصنيع.

أمّا فيما يتعلق بالخلق الإلهي فهناك عنصر رابع مهم للغاية ومُميز لخلق الله وهو النّفس (الحياة).

ففي خلق الدّواب، نجد أنّ المواد الأولية التي خُلقت منها موجودة وهي الماء والتّراب، والأدوات موجودة وهي بيئة الرّحم، التي يستطيع الإنسان محاكاتها الآن، والكيفية معلومة عن مراحل نشأة الجنين وتطوره، ومع ذلك لا يمكن للإنسان بأي حال من الأحوال أن يتخطىٰ إلىٰ المرحلة الرّابعة وهي نفخ الرّوح (الحياة). وقد يدّعي قائل بأنّ العلم الحديث تمكن من تخليق إنسان جديد كالتّلقيح الصّناعي أو الاستنساخ مثلاً، ولكن نقول له أنت تفعل جزءاً بسيطاً في سلسلة عمليات التّخليق وهو تهيئة البيئة الملائمة، ولا يمكنك فعل أكثر من ذلك، ولو أنّك تستطيع إتمام كامل العملية فهل لك أن تأتي بخلق جديد غير كل المخلوقات التي نعرفها!

الوجه الآخر الذي تشير إليه الآية الكريمة في القدرة الإلهية هو تنوع الخلق، مع أنّ مصدرهم واحد وهو الماء؛ فمنهم من يمشي علىٰ بطنه كالثّعابين والتّماسيح، ومنهم من يمشي علىٰ رجلين كالإنسان، ومنهم من يمشي علىٰ أربع كالأنعام، ونجد

هذا التّنوع أيضاً في النّبات، قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد: ٤]، فهذا من أدلة قدرته جلّ شأنه علىٰ أنّه يخلق ما يشاء وأنّه علىٰ كل شيء قدير.

بعد آيات الماء هذه وفي سياق هذه السّورة الكريمة التي تمحورت حول التزكية والطّهارة وتنقية المجتمع وحمايته، نجد أنّ للماء دوراً كبيراً في هذا السّياق، فالإنسان مخلوق من ماء، والسّورة تناولت موضوع الزّنا والقذف والملاعنة وستر العورات والاستئذان، وكلها مرتبطة بالأعضاء التّناسلية للإنسان التي يخرج منها الماء الذي يبدأ به خلق الإنسان!

فآيات السّورة الكريمة عالجت أغلب الموضوعات المرتبطة بعفة المجتمع ونقائه وطهارته فيما يتعلق بالعلاقات بين الرّجال والنّساء. وكل إصلاح أو إفساد في هذه العلاقات، إنّما هو مرتبط بهذا الماء، فشهوة الإنسان لا تنطفئ إلّا بخروجه، والحمل لا يحدث إلّا به؛ فإن كان في زواج شرعي كان حلالاً، وإلّا كان في حرام وأصبح زناً، واتّهام امرأة بهذا الماء إنّما هو القذف، واتّهام الرّجل لزوجته بهذا يؤدي بهم للملاعنة.

إنّ هذا الارتباط العجيب بين الموضوعات داخل السّورة، يؤكد كما أكدنا مراراً علىٰ الوحدة البنائية لكلّ سورة من سور الكتاب الكريم؛ إذ يجعل كل مُتدبر يمعن النّظر في سبب وجود كل آية داخل كل سورة، فهي بالتّأكيد مرتبطة بمحور السّورة الأساس.

الإرادة والمشيئة الإلهية

﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾ [النور: ٤٦]

وهذه الآيات –آية تسبيح الطّير واصطفافه، وآية السّحاب، وآية تقليب اللّيل والنّهار، وآية خلق الدّواب من الماء، وآية اختلاف الدّواب في مشيهم، وغيرها الكثير– كلها ﴿ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ [النور: ٤٦] لوجود الله، فهي تشير وتبين وتثبت وجود خالق عظيم عليم قدير يخلق ما يشاء، فهذه آيات عظيمة ينبغي أن تقودكم إلىٰ معرفة الخالق جلّ شأنه وإلىٰ الإيمان به ومعرفة جزء من قدره جلّ شأنه، ولكن ليس كل

النّاس يهتدون بهذه الآيات برغم كونها مبيّنات! فكأنّ السّياق يدلنا على أنّه كما خلق الله كل هذه الآيات، وترون هذا الخلق المادي الذي يتصرف الله فيه كيف يشاء دون أدنى تدخل منكم أيّها البشر، فكذلك الهداية تتحقق بمشيئة الله تعالى، وقد يُظن بذلك أنّ الله تعالى يجبر النّاس على الهداية أو يجبرهم على الضّلال طالما أنّه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [المدثر: ٣١] وبناء عليه فلا يجب أن نُحاسَب على هدايتنا أو ضلالنا؛ لأنّه ليس بإرادتنا ولا بأعمالنا وإنّما بإرادة الله!

لكن هذا خطأ محض وسوء فهم بَيِّن وقصر نظر فادح في آيات الكتاب الكريم، ولكي نصحح هذا المفهوم علينا أن نبحث ماذا يريد الله جلّ شأنه، في الآيات التي تناولت مفهومي الإرادة والمشيئة؟

أولاً: الإرادة

الإرادة المذكورة في القرآن الكريم على قسمين:

القسم الأول: هناك آيات تناولت الإرادة الحسنة بالمؤمنين المطيعين لله، فالإرادة بالخير والحسنى لهم بعد أن عملوا هم الخير ابتداءً، فأراد الله لهم الخير جزاءً في الدّنيا والآخرة، ومن هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾ [البقرة: ١٨٥] فهنا إرادة اليسر في الخطاب للمؤمنين الذين يؤمنون بهذه الآيات ويصومون الشّهر الكريم طاعة لله، فهؤلاء يريد الله لهم اليسر، هم وكل من يتبع آيات الله مثلهم.
- وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]، هنا

أيضاً الخطاب للمؤمنين الذين يتلقون أوامر الله، ويحرصون على تطبيقها، فهؤلاء يريد الله أن يبين لهم ويهديهم ويتوب عليهم وعلى كل من هو على شاكلتهم.

- وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: ٦] يبشّر الله تعالى المؤمنين الذين يحافظون على صلاتهم ويحرصون على إقامتها بالشّكل الصّحيح، وإسباغ الوضوء للتّطهر والصّلاة، يبشرهم الله ويعلمهم بأنّ هذا ليس للحرج والمشقة عليهم وإنّما للتّطهر ولإتمام الصّلاة على وجهها الأكمل.

إذن فهذة الإرادة ليست منفصلة عن عمل الإنسان، وإنّما مرتبطة به كما رأينا في الآيات السّابقة.

القسم الثاني: وهناك آيات تناولت الإرادة بالسّوء للكافرين والظّالمين، ومن هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾ [آل عمران: ١٧٦] فهم كفارٌ أصلاً بل ويسارعون في الكفر، ولم تصلحهم كثرة دعوة الرّسول ﷺ لهم، فهذا ينفي تماماً مفهوم الجبر، بأنهم لم يكونوا مسلمين وأراد الله أن يضلهم ليجعلهم كفاراً ويلقيهم في النّار -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- بل هم في الأصل كفاراً، وأرسل الله لهم الرّسل المبشرين والمنذرين فأبوا واستكبروا وحاربوهم.

- وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾ [المائدة: ٤٩] نجد وضوحاً شديداً في هذه الآية؛ إذ إنَّ إرادة الله تعالى

بأن يصيبهم بذنوبهم أتت بعد أن تولوا هم أولاً، فهم اختاروا بحريتهم أن يتولوا ثم بعدها أراد الله أن يصيبهم بذنوبهم.

- وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]، فالآية تتحدث عن الكافرين والمشركين والمنافقين الذين كرهوا الخروج مع رسول الله للقتال في سبيل الله، فقال الله عنهم: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤]، فبعد كل هذا الكفر والعناد لله ولرسوله أراد الله أن يعذبهم بأموالهم وأولادهم في الدّنيا. وهنا نلحظ الدّقة الهائلة في نسبة الأمر للإرادة وليس للمشيئة، لأنّ هذا العذاب بالمال والولد لم يتحقق بعد؛ أي لم يصل إلىٰ الشّيئية المشاهدة والمحسوسة؛ لأنّه لو تحقق لما صح أن يعجب به أحد، فلا يعجب أحد بالعذاب، لذا نسب للإرادة لأنّه سيتحقق مستقبلاً.

إذن فإرادة المولىٰ جلّ شأنه هي نتيجة لعمل النّاس، فمن آمن وعمل صالحاً فله اليُسرىٰ، ومن كفر وأعرض وتولىٰ فله العُسرىٰ، وآيات سورة اللّيل تلخّص لنا القضية في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥-١٠] فتدخُّل المولىٰ جلّ شأنه بالتّيسير لليُسرىٰ أو العُسرىٰ، إنّما يأتي بعد عمل بني آدم وكنتيجة عليه، وليس أبداً للإجبار أو الإكراه.

ثانياً: المشيئة

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ٣٥]، هنا الحديث عن أمر واقع ومتحقق في صورة شيء وهو عبادة غير الله، فكان الكلام عن المشيئة، ولو شاء الله تعالىٰ ما عبدوا غيره، وهذا صحيح إذ إنّه قادر علىٰ إجبارهم علىٰ عبادته، ولكنّه سبحانه أعطىٰ للإنسان الاختيار وأعطاه سبل الهداية ولم يجبره علىٰ طريق معين. والمشركون منذ القِدَم يحتجّون علىٰ رسل الله بالجبر، قال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ

ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩] فنجد في الآية الثّانية محذوفاً يفهم من السّياق وهو "الإكراه" فتكون "لو شاء إكراهكم على شيء لأكرهكم على الهداية"، ولكنه أعطى للإنسان الاختيار، والسّؤال الأهم، لم يكرهكم الله تعالى على الكفر! فكان الأَوْلى -إن كان في الأمر إكراه- أن يكرهكم على الهداية والاستجابة للرّسل وتنفيذ أوامره-جلّ شأنه-، فحِجّة الإكراه هذه حجة باطلة.

﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] هنا تتحدث الآيات عن شيء قد وقع بالفعل وهو الاقتتال، فصحّ أن يكون الحديث عن مشيئة الله وليس عن الإرادة التي لم تتحقق بعد، وكما ذكرنا في الآية السّابقة؛ فالله جلّ شأنه لم يجبر النّاس على شيء -مؤمنين أو غير ذلك- وإنّما بيّن الله لهم طريق الخير والشر وهم الذين يختارون، قال تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ٧-١٠].

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [النحل: ٩٣] تتحدث الآية الكريمة عن تفرق النّاس إلى فريقين، أهل اليمين من المسلمين وأهل الشّمال من الكافرين، فالله تعالى قادر على أنّ تحقيق وحدة هؤلاء الفريقين بجعلهم كلهم مؤمنين أو كلهم كافرين بإجبارهم على ذلك، ولكنه تعالى شاء أن يجعل النّاس تختار طريقها ما بين طريقين شاءَهم المولى -أي حولهم إلى شيء واقع في حياتنا- طريق الخير والجنّة وطريق الشّر والنّار.

إذن، فتلخيصاً لمفهومي الإرادة والمشيئة والحرية والجبرية من القرآن الكريم، نجد أنّ الإرادة هي الرّغبة في تحقق شيء ما في المستقبل ولكنه لم يتحقق بعد، أمّا المشيئة فهي تحول هذه الإرادة إلى شيء ملموس ومشاهد، أو إلى واقع يعيشه النّاس،

وهذه الإرادة والمشيئة لا تجبر أحداً ولا تكرهه على خير أو شر، وإنّما أراد الله وشاء أن يكون للنّاس حرية الاختيار ما بين طريقين شاءَهم الله تعالىٰ طريق الجنة وطريق النّار، وألهم كل نفس فجورها وتقواها وعليها هي أن تختار. والله تعالىٰ أعلم.

النَّجم الخامس: التّمكين: سننه، وقواعده، وأدواته، ووسائله

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦ ﴾ [النور: ٤٧-٥٦]

تمكين الله جلّ شأنه يكون لعباده المرسلين والمؤمنين، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ ﴾ [غافر: ٥١]، وهذا التّمكين هو العِدّة الإلهية التي يضعها الله جلّ شأنه بين أيدي رسله وعباده المؤمنين ليكون بعض أسلحتهم في مواجهة مشروع الشّيطان الرّجيم، فالعهد بين الله والإنسان ثمّ استخلاف الله لعباده ثمّ عهده إليهم بحمل الأمانة والمحافظة عليها، ثمّ ابتلاؤهم واختبارهم بالجزاء وقوانينه وقواعده، ثمّ الإنعام بالنّتائج ليكون البشر فريقاً في الجنّة وفريقاً في السّعير، ذلك كله يجعل عملية التّمكين الإلهي للمؤمنين تأتي في سياق كوني كامل، فهي ليست شذوذاً ولا خرقاً لقوانين الكون، ولا خروجاً على السّنن الإلهية؛ لأنّ التّمكين كما ذكره القرآن المجيد هو جزء من القدر الإلهي، لا يتخلّف حين توجد شروطه، ولا

يتحقق دون شروط وأرضية. والدّاعية الذي يكون له دور في قضيّة التّمكين لأمّته أو شعبه لا بد أن يكون أكثر حساسية بالوقت وقيمته وعلاقته بنضج الحالة وبلوغها حد التّمكين أو قصورها عنه، فذلك كله ينبغي أن يكون جزءاً من حركة الإنسان في هذه الحياة وإحساسه بها.

وقصة سيدنا يونس تستحق التّأمل والتّدبر والاستحضار في هذا المقام، فنبيُّ الله يونس هرب من قوم لم يصدّقوه، ولم يصبر كسيدنا نوح، فيونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ظنّ أنّه قد بذل كل ما عنده، وقام بكل ما كان يتوقع من مثله أن يقوم به، ولكنَّ قومه أبوا أن يسلموا أو يؤمنوا، فلما لم يتحقق له التّمكين في وقت كان يرى أنّه لا بدّ أن يحدث ترك قومه وحدث ما حدث، فردّه الله جلّ شأنه إليهم، ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨] فأراد جلّ شأنه أن يلقنه وباقي الرّسل من بعده هذا الدّرس القاسي "لست أنت من يقرر وقت التّمكين أو يحدد ساعته"، فللتّمكين سننه وقواعد وأدواته ووسائله التي لا بدّ من استيفائها كلها، ثمّ الله يأذن بعد ذلك متى شاء وكيف شاء بتمكين من يشاء، وإدخال تلك الدّورة؛ دورة التّمكين أو المداولة.

أمارات الإيمان الكاذب

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النور: ٤٧]

عبر آيات سورة النّور الكريمات من ٣٩ إلى ٤٦ يضرب الله تعالى للكافرين المنكرين لوجوده الذين لا يعقلون الآياتِ البينات الدّالة على وجوده التي لا ينكرها إلّا جاحد مستكبر، ثمّ يكمل السّياق في تعريف علامات هؤلاء الكافرين، فهم يقولون بألسنتهم أنّهم مؤمنون بالله وبرسوله، ويدافعون عن ذلك، ويجادلون في ذلك بقوة وإصرار، لكن عندما يأتي الوقت الذي يجب أن تتخذ فيه المواقف العملية، تجد فريقاً منهم يتولون ويعرضون، ويحكم القرآن عليهم بأنّهم ليسوا بمؤمنين، فلا يجب على المؤمنين أن ينخدعوا بهؤلاء، ولكي تعلموهم أكثر أيّها المؤمنون فهذه علامة واضحة جلية:

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠ ﴾ [النور: ٤٨-٥٠]

فهذه علامة واضحة لا تلتبس على أحد، فلا تنخدعوا بمن يحسنون الكلام، ولكي تبطلوا هذا ادْعوهم إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فيما يقولون، فسيعرضون ولن يقبلوا بأن يجلسوا لتحكيم الله ورسوله، ولكن إذا علموا أنّ لهم حقاً وأنّ الحكم سيصير لصالحهم، فسيأتون ويحتكمون إلى الله ورسوله بدافع الإذعان لا الإيمان. فهؤلاء الذين سبق وصفهم هم الذين في قلوبهم مرض وارتابوا وهم الظّالمون.

أمارات الإيمان الصادق

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢ ﴾ [النور: ٥١-٥٢]

أمّا المؤمنون حقاً، فهم الذين يقبلون بتحكيم الله ورسوله إذا دعوا إليه، ويقولون: سمعنا وأطعنا، ولا يظنون أنّ هذه الطّاعة ستؤدي إلى نقصان رزقهم أو تقليل سعادتهم أو الجور على حقوقهم كما ظنّ الكافرون في الآيات السّابقة، ولكنها ستؤدّي إلى فَلاحِهم وفوزهم في الدّنيا والآخرة. ونجد تكرار هذا الأمر في القرآن الكريم بطاعة المولى جلّ شأنه وقبول حكمه، قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى في أوامره لنبيه ﷺ: ﴿ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧ ﴾ [الأنعام: ٥٧] وأخبرنا الله تعالى بقول رسوله الكريم يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ ﴾ [يوسف: ٤٠]، فأمر التّحكيم وقبول حكم الله هو أمر إلهي، أمر به كل الرّسل الكرام؛ لأنّه في أصله هو توحيد الله وإخلاص العبادة له وحدة وعدم الإشراك به شيئاً، فقبول تحكيم غير الله إنّما هو الشّرك بعينه؛ لأنّ فيه عبودية لمن حكم من دون حكم الله.

وقد يتساءل العقل فيقول: قد ورد في عدة آيات الطّاعة والتّحكيم لله وحده ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى: ١٠] وورد في بعضها الآخر الطّاعة والتّحكيم لله ولرسوله، ونوع ثالث أنّ الطّاعة والتّحكيم لله ولرسوله ولأولي الأمر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩]، فكيف نفهم ذلك؟

إنّ كل هذه الآيات ترد الحكم في النّهاية إلىٰ الله تعالىٰ وحده، فحكم الله جلّ شأنه إنشاؤه الأحكام وتفصيلها، وحكم رسوله ﷺ أن يحكم بين عباد الله بما أنزل الله ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وحكم أولي الأمر إنّما يكون بما أمر الله أن يحكموا به، فيُحكِّمون كتاب الله فيهم، فيَحكمون فيهم بمثل ما حكم رسول الله بتنفيذ أحكام الكتاب فيهم، فإذا فعلوا ذلك فقد حكموا فيهم بما أنزل الله، ولم يتبعوا أهواءهم ولم يخالفوا ما أنزله الله تعالىٰ عليهم.

وكذلك الطّاعة، فطاعة رسول الله في حكمه إنّما هي طاعة لله تعالىٰ، لأنّه يحكم بما أنزل الله وبما أراه الله في كتابه العزيز، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: ١٠٥] فحكم الرّسول هو بالتّأكيد من كتاب الله، ومن ثمَّ فهو حكم الله تعالىٰ وحده، ويجب علىٰ المؤمنين جميعاً طاعته وعدم المخالفة عن أمره، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]، ومع العصمة التي حباها الله تعالىٰ إلىٰ رسوله لا يمكن حدوث خطأ منه ﷺ فيما يتعلق بالتّطبيق والرّسالة، لذلك لا يجب عصيان أمره قط ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولذلك لا يتوقع منازعة الرّسول في الحكم أو الرّسالة. وكذلك طاعة أولي الأمر فهي أيضاً مردها إلىٰ الله وحده، فإذا كان حكم الرّسول الكريم من الكتاب فأولو الأمر

أولىٰ من رسول الله بأن يبنوا أحكامهم علىٰ الكتاب أيضاً، بل إنّه يجب عليهم ذلك لعدم عصمتهم ومظنة الخطأ والأهواء منهم، لذلك يحتمل وقوع النّزاع معهم، فعندئذ يردّ الأمر إلىٰ الله ورسوله الذي هو برمته مرده إلىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء: ٥٩].

أمارة أخرىٰ من أمارات الإيمان الكاذب

﴿ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النور: ٥٣] تتحدث الآية الكريمة عن المنافقين الذين يقولون ولا يفعلون، فهم يقسمون لرسول الله وللمؤمنين ويغلظون الإيمان ليصدّقهم المسلمون، بأنّهم لو أمرهم الرّسول أن يخرجوا ويتركوا بيوتهم وأموالهم وأولادهم لخرجوا معه، فالله تعالىٰ يُعلِّم رسوله كيفية الرّد، ويعلّمنا من بعده بأن نقول لهم لا تقسموا، وهذا أمر واضح في كيفية التّعامل مع من تشك في نواياهم وصدقهم، فإن كانوا صادقين فقسمهم لن يضيف شيئاً وسنرىٰ صدقهم في الواقع، وإن كانوا كاذبين فلا يقسموا أيضاً، لأنّ قسمهم سيزيدهم ضلالاً، وعندما يأتي وقت الفعل سيثبت كذبهم. فالطّاعة معروفة، وطبيعي أن تفعلوها فلِمَ تقسمون عليها؟! إنّ هذا القسم في الحقيقة يشكك السّامع، ويجعله مرتاباً، خاصة إن كان قسماً علىٰ شيء عادي تقليدي معروف. إن الله خبير بما تصنعون.

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور: ٥٤]

فهؤلاء المنافقون الذين يحلفون علىٰ الطّاعة المعروفة نهاهم عن هذا القسم، وأمرهم بطاعة الله ورسوله، فإن تولوا ولم يطيعوا فهم الخاسرون، فالرّسول الكريم لن يخسر شيئاً، فهو عليه ما حُمل من الله وهو تبليغ الرّساله كما جاء في آخر الآية، وأنتم عليكم ما حُملتم من طاعة هذا الرّسول الكريم واتّباع النّور والهدىٰ الذي أنزل معه، ولذلك أن تطيعوه تهتدوا.

التّمكين

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥]

التّمكين حالة عقليّة ونفسيّة وواقعيّة ونظميّة ومعرفيّة ووجوديّة، ولا يمكن أن توجد على سبيل التّجزئة أو التّقسيط، بل توجد عندما توجد بشكلها الكلي الكامل، فتنتقل الأمة من حالة الاستضعاف والخنوع والذّل والخضوع إلى حالة العزّة والكرامة والقوة والمنعة والأنفة التي لا بدّ للتّمكين أن يستدعيها، وتوجد إرهاصاتها ومقدماتها وتجلياتها في سائر جوانب الحياة، وهذه الآية الكريمة هنا عبارة عن عنوان لتلك الحالة وبيان لها.

وحين نتدبر هذه الآية الكريمة نجد فيها الكثير من الوقفات للتّدبُّر والتّفكُّر فيها.

أولاً: الإيمان والعمل الصّالح، هذا الثّنائي الذي لا يكاد ينفك في الأغلب الأعم من آيات الكتاب العزيز، فلا قيمة لإيمان دون عمل؛ لأنّه ليس إيماناً حقيقياً، وإنّما إيمان ظاهري سهل التّغير والزّوال عند الملمات، ولا يفيد عمل دون إيمان لذلك يمحق الله عمل الكافرين. وبالطّبع هذا الإيمان والعمل يجب أن يسبقا الجائزة المرجوة والهدف المنشود وهو الاستخلاف والتّمكين، ومع ربط باقي آيات القرآن معاً من آيات الصّبر والجهاد واستيئاس الرّسل ثمّ نصرهم، نتفهم أنّه ينبغي القيام بالعمل الطّويل المستمر المخلص الشّاق من قِبَلِ الذين آمنوا، حتى يمنّ الله عليهم بالنّتيجة من الاستخلاف والتّمكين.

ثانياً: ما معنى "منكم" في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ [النور: ٥٥] كما هي عادة القرآن الكريم، يخاطب النّاس كما لو أنّه يخاطب كل واحد بمفرده وبنفسه، وكما لو أنّ الخطاب نازل له هو بعينه، فكأنّه يقول: "لا تستبعدوا الأمر" فهذا الوعد للمؤمنين منكم أنتم إن حققتم شروطه. وفيه أيضاً معنى التّشريف، فالله -تعالى- يُخاطبكم مباشرة بذاته جل شأنه، وفيه أيضاً معنى التّمحيص ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤١]، فكأنّ فيه حثاً وتحريضاً للنّاس على أن ينتموا

لحزب المؤمنين الذين يعملون الصّالحات، لكي يكونوا من الفائزين بالاستخلاف والتّمكين والأمن. وفيه أيضاً معنىٰ التّكرار والاستمرارية، في كل زمان ومكان، "فمنكم" أنتم أيّها المؤمنون الذين تسمعون هذه الآيات -في أي مكان وفي كل زمان- سيفوزون بالوعد الإلهي.

مفهوم الاستخلاف

﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥]

إنّ الاستخلاف في كتاب الله هو غاية خلق الإنسان، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، فالله تعالىٰ قد اختاره خليفة علىٰ الأرض ليؤدي عليها رسالة الله عزَّ وجلَّ ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩]، فالاستخلاف مطبّق علىٰ كافة البشر، فمنهم من يتبع الهدىٰ فينجو، ومنهم من يكفر فيهلك. فمفهوم الاستخلاف -بمفهوم هذه الآية الحاكمة علىٰ كل البشر- ليس مفهوم حكم ولا سلطة ولا تحكّم، ويؤكد هذا المفهوم قول المولىٰ جلّ شأنه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ٥٨-٥٩] فقوله: "خَلْف" ليس بمعنىٰ جعلهم حكاماً وذوي سلطة، لأنّ اللّوم عليهم لم يكن في توليهم للسلطة، وإنّما في إضاعتهم الصّلاة واتباع الشّهوات، والتي قد يفعلها من في السّلطة ومن هو خارجها أيضاً. فمفهوم الاستخلاف بمعنىٰ الحكم والسّلطة يجعل مَنْ هم خارج السّلطة غير مسؤولين حتىٰ لو أضاعوا الصّلاة واتبعوا الشّهوات، ولذلك لا يستقيم أبداً هذا المعنىٰ الضّيق للاستخلاف، ومثله في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ

﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف: ١٦٨-١٦٩]، فالاستخلاف هنا هو المضاد للنّفي والاستئصال، فأصحاب هذه القرية قد أعمّهم الله بعذاب لم ينجُ منه إلّا النّاهون عن السّوء، ثمّ خلف الله من بعدهم؛ أي أبدلهم وأسكنهم الأرض، وأبقىٰ عليهم من بعد نفي الآخرين وتقطيعهم في الأرض. ويتضح هذا المعنىٰ -الاستبدال وإسكان المستخلفين الأرض بعد الظّالمين- بجلاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤]، فهذا الإسكان من بعد إهلاك من سبق هو الاستخلاف، أي يخلف قومٌ قوماً آخرين.

ويتضح هذا المفهوم أكثر في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [يونس: ١٣-١٤] فالذين استخلفوا من بعد إهلاك الظّالمين استخلفوا بغاية الابتلاء لينظر الله في أعمالهم، فكل منهم مُكلَّف سواء من تولّىٰ السّلطة أو من هو خارجها، وكلهم سينظر الله في أعمالهم بعد إهلاك الظّالمين، ويؤكد هذا أيضاً أنّ الظّالمين الذين هلكوا لم يكونوا من السّلطة الحاكمة فقط، وإنّما من القوم أنفسهم كذلك.

تلخيصاً لما سبق، فإن قَصْرَ مفهوم الاستخلاف علىٰ الحكم والسّلطة هو تضييق لواسع، وإفراغ للمعنىٰ من مضمون أشمل غاية في الأهمية، بل هو الغاية من خلق الإنسان وإنزاله علىٰ الأرض. والمعنىٰ الحقيقي للاستخلاف هو: الإبقاء علىٰ قومٍ ما بعد إهلاك أو نفي قومٍ آخرين، فأقوامٌ تخلف أقواماً، ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: ٦٩].

إنّ الحكم والسّلطة نتيجة يمنُّ الله بها علىٰ من يُبتلىٰ بها من عباده، وليست غاية يسعىٰ إليها المؤمنون، ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: ٨٣]، فلا ينبغي أبداً أن تكون السّلطة إرادة وغاية للمؤمنين، وإنّما هي تكليف وابتلاء يجعله الله علىٰ من شاء بأهون الأسباب، كما حدث مع سيدنا

يوسف الذي مكّنه الله تعالىٰ بعد تأويل رؤيا، وعقب لقائه "العزيز"، وبمفهومنا الحديث "تولّي السلطة"! وكما أوضحنا سابقاً مفهوم "إرادة الدّنيا وإرادة الآخرة"، فإن إرادة المؤمن توجهه للآخرة دائماً، ولا يجب أن تكون أبداً للدنيا، ولا يمنع ذلك من التّمتع بالدّنيا والتّرقي فيها، لكنه لا يكون هدفاً ولا غاية يسعىٰ إليها، وإنّما يكون إنعام الله عليه وإكرامه له في الدّنيا نتيجة فرعية لهذه الإرادة للآخرة التي تستهدف الجنة والدّرجات العلىٰ، ولا تستهدف الدّرجات العلىٰ في الدّنيا، فقد يمُنُّ الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين بتوليهم السّلطة أو الحكم كفضل منه وابتلاء في الوقت نفسه، لكن إن لم يتولوه لا ينبغي أن تكون هدفاً لهم يسعون وراءه، وفي كلا الحالين -سواء في السّلطة أو خارجها- هم مستخلفون لينظر الله كيف يعملون.

إنّ الكتاب المجيد قد جعل ثواب الآخرة هو الهدف والغاية، وهو الفَلَك الذي تدور فيه آيات الكتاب العزيز، أمّا ثواب الدّنيا فليس من تركيز القرآن الكريم أبداً، فهو يأخذه البر والفاجر، المؤمن والكافر بقدر اجتهادهم في سبيل الدّنيا، وأخذهم بالأسباب، وسعيهم في الدّنيا بقوانين الدّنيا، لذلك لا ينبغي تأويل مفاهيم القرآن علىٰ ثواب الدّنيا، فغرض الكتاب المجيد وهدفه وتوجيهه كله للآخرة وحدها.

مفهوم تمكين الدّين

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور: ٥٥]

من القرآن الكريم نفسه نفهم ونتعلم معنىٰ التّمكين، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: ٢١].

يعلّمنا المولىٰ جلّ شأنه أنّ سيدنا يوسف قد مكّنه الله في الأرض علىٰ مرحلتين: المرحلة الأولىٰ من التّمكين قد بدأت بولادته في بيت نبوة لنبي الله يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثمّ نجاته من البئر، ثمّ دخوله بيت العزيز آمناً وبقاءه فيه وتربيته بداخله فحمي من العبودية، وتعلُّمه كلام الله تعالىٰ ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ ﴾ [يوسف: ٢١]، كما أنّ وجوده داخل

قصر الحكم قد علمه أسس الحكم والقيادة ومعرفة كيفية إدارة شؤون الدّولة وحفظها، وهنا يقول تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٤-٥٦].

ثمّ تأتي المرحلة الثّانية من التّمكين وهي تولي السّلطة بالفعل بعد انتهاء مرحلة التعلُّم، ونجد في القصة كيف أن المَلِكَ قد جعله ممكناً ابتداءً ولم يطلب سيدنا يوسف السّلطة وإنّما عُرضت عليه، فتولاها، فقال الله عندئذ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] فهذا هو معنىٰ التّمكين.

وفي قصة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخبر المولىٰ عن الذين اتبعوه من المستضعفين: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥-٦]، وهذا يعني أنّ التمكين سعي من العبد بتنفيذ ما أمره الله به من الدّعوة والإصلاح والتّمسك بالكتاب وإقامة الصّلاة، وتوفيق من الله تعالىٰ، فهو يقوم علىٰ دعامتي العمل البشري والتّفضل الإلهي، شأنه شأن أي عمل آخر.

وكذلك مع ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ [الكهف: ٨٤-٨٦].

فتحكي لنا الآيات الكريمات عن تمكينه في الأرض، وملكه للأرض شرقاً: ﴿بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٩٠]، وغرباً: ﴿بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٨٦]، وأمره ونهيه: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ [الكهف: ٨٦]، وقدرته علىٰ صب الحديد وتطويعه، فهذا من التّمكين في الأرض، وبناءً علىٰ هذا التّمكين الذي أعطاه الله إياه بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٤]، وبحال ذي القرنين الذي قال الله فيه: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٥]، فكان يستخدم هذه الأسباب ويعمل بها في سبيل الله عزَّ وجلَّ، وهذا هو شكر النّعمة التي أنعم الله بها عليه، فيجب أن يستخدم الإنسان القدرات والإمكانيات التي منحها الله إياه في سبيل الله ولا يطغىٰ بها.

فالتّمكين مسؤولية على صاحبه، كما أنّ كل نعمة مسؤولية على صاحبها، فيجب اتّباع الأسباب الخاصة بالنّعمة والعمل بها في سبيل الله تعالى لشكرها وعدم كفرها، فتلك مسؤولية كبرى لا ينبغي التّفريط فيها، فمن يفعل هذه المسؤولية فأولئك هم الذين ينصرون الله حقاً فينصرهم الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

ومما سبق يتبين لنا أنّ معنى التّمكين هو: سلطة الحكم وامتلاك القوة.

وبالعودة لآيتنا الكريمة، فمعنى ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾ [النور: ٥٥] بأن يكون الدين هو الحاكم ذو السّلطة على العباد في أمور حياتهم كلها، وهو المرجعية التي يَرُدّون إليها في كل مسألة لكي يتحرَّوا قول الدّين فيها.

إنّ هذا المفهوم القرآني يوضح بجلاء لكل المسلمين أنّ تمكين الدّين هو في المقام الأول تمكين له في نفوسهم قبل أن يكون تمكيناً على الآخرين، فإذا كان الدين مُمكناً في قلوبهم، فيتحرون أمر الله وشرعه في كل أمور حياتهم، ويفعلون الأعمال الصّالحات، ويزكون أنفسهم، لكان هذا هو تطبيق للآية على أرض الواقع، ولتحقق التمكين للدين. كيف ذلك؟ لأنّه إذا أصبح كل فرد منّا على هذه الشّاكلة التي يتمكن فيها الدّين في قلب كلٍّ منّا، لأصبح المجتمع كله على هذه الشّاكلة، فالمجتمع ما هو إلّا أفراد، وعندئذ يكون تمكين الدّين كما تبشر الآية الكريمة.

إنَّ محاولات التّمكين الخاطئة التي يمارسها المسلمون، بِناءً على الفهم الخاطئ لمعنى التّمكين بالسّعي للوصول لحكم بالمفهوم السّياسي، لفرض الدّين على النّاس في صورة قوانين دون أن يؤمن النّاس بهذا الدّين ابتداءً، فما هذا إلّا أبشع أشكال التّسلط والطّغيان باسم الدّين، والدّين من هذا براء، فما فائدة تطبيق قواعد الدّين على النّاس دون الإيمان به! وما أمَرَ الله تعالى بالإكراه على الدّخول في الدّين ولا الإكراه على طاعته والامتثال لأوامره، لهذا السّبب تحديداً وهو "الإيمان"، فالإكراه ينافي الإيمان!

إنّ الملاحظة المهمة في هذه الآية هو التّمكين للدّين وليس للفرد أو للجماعة المؤمنه والفارق كبير، فالتّمكين للفرد كان فيما سبق كما مكّن الله ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أو

ذي القرنين، أمّا التّمكين للدين فهو إقامته وتحقيق الإيمان وعمل الصّالحات وتحقيق التّقوىٰ والتّزكية، لذلك يمكن لكل فرد منّا أن يُمكِّن لدينه في نفسه هو، لأنّه سوف يسأل عن نفسه، وليس مطلوباً منه التّمكين لدين الآخرين، بل وحتىٰ الرّسل لم يُطلب منهم ذلك؛ لأنّه عمل فردي يقوم به كل شخص بنفسه لنفسه، ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٣٥﴾ [النحل: ٣٥] ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ۝٤٠﴾ [الرعد: ٤٠].

وهناك ملاحظة ثانية وهي أن بعض الاتجاهات الإسلامية المعاصرة عمدت إلىٰ بعض الظّواهر فضخّمتها وربطتها بالتّمكين، فكثير من الحركات والفئات الإسلامية اعتبرت الاضطهاد الذي تتعرض له حركة أو فئة أو جماعة من النّاس ظاهرة صحية سُنَنِيّة، وإذا حصلت فذلك يعني أنّ النّصر قد صار قريباً؛ إذ إنَّ معظم قصص الأنبياء الذين امتُحنوا وابتُلوا كانت تنتهي بعد البلاء بكشف الضّر ومنح النّصر والتّمكين لذلك النّبي ومن معه، والأمر ليس كذلك علىٰ عمومه، فقد تقع الفتنة والابتلاء والمحنة بسبب أخطاء وقع بها قادة الحركة أو الجماعة أو وقع بها عامتُها، أو ذنوب وانحرافات، فليست كل فتنة تمر بها جماعة من النّاس دليلاً علىٰ أنّها بلغت مرحلة الإعداد والتّهيئة للتّمكين، وهذه الظّاهرة الخطيرة قد رسّخت لفكر اعتذاري، لدىٰ كثير من الجماعات، بحيث يقولون: "إنّ علينا العمل وليس علينا الوصول إلىٰ النّتائج" فيتنصلون من مسؤولية أخطائهم بحجة أنّهم غير مسؤولين عن النّتائج، والحق أنّ الإنسان مسؤول عن عمله ونتائج عمله وآثار ذلك العمل، قال تعالىٰ: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٢٥﴾ [النحل: ٢٥]، فنفي هؤلاء لمسؤوليتهم عن النّتائج لا يغني عنهم من الله شيئاً، ولا يعفيهم من المسؤولية.

وهناك ظاهرة أخرىٰ وهي حصر مفهوم التّمكين بالتّمكُّن من السّلطة، لتوهم أنّ أضخم شيء في الإسلام هو تطبيق الحدود والتّعازير للنّاس، ولا شك في أنّ تطبيق النّظام الجزائي الإسلامي مهم جداً، ولكن من قال: إنّ النّظام الجزائي هو كل شيء؟

إنّ هناك الإيمان والعمل الصّالح بجميع أنواعه وأركان الإيمان والإسلام والإحسان، كل تلك تشكّل وحدة كاملة لا تنفصل، ولا بدّ من القيام بها ليتحقق اتصاف الإنسان بالإيمان والإسلام، ولذلك كانت الحدود والنّظام الجزائي من أواخر ما جاء القرآن المجيد به، في حين صار يتصدر لدىٰ المعاصرين ما يسمىٰ بتطبيق الشريعة.

وتنبثق عن هذه الظّاهرة ظاهرةٌ سلبية أخرىٰ، تكاد تشبه ما كان عليه بنو إسرائيل من تلك المقايضات السّخيفة التي كانوا يحاولونها بينهم وبين أنبيائهم، ليقولوا لله تعالىٰ ما دمنا نعبدك، ونأتمر بأوامرك، فالمفروض أن تقدم لنا مقابل ذلك في الحياة الدّنيا ما نحن بحاجة إليه من ماء وطعام وشراب ونصرة علىٰ أعدائنا والتّمكين لنا. هذه الظّواهر السّلبية الانحرافية لا تتوافق أبداً مع الإسلام وروحه، وليست مقبولة من مؤمن بالله واليوم الآخر صيغت علاقته بالله جلّ شأنه بمنتهىٰ الدّقة والوضوح، فليس فيها مقايضة ولا تبادل ولا "أعطني ما أُريد لأعمل لك ما تريد" فذلك منطق لم يألفه الإسلام ولم يقبله.

إنّ التّمكين هو تمكين لدين الله ولمقاصده وللقيم العليا التي بُني عليها، التّمكين هو تمكين للعدل والحرية الإنسانية والمساواة بين بني البشر وأداء الأمانات إلىٰ أهلها والقيام لله بالقسط، التّمكين هو تمكين لرسالات النّبيين كافة وكل ما جاؤوا به، ونبذ لكل ما خالف رسالات الله أو خرج عن شرعه أو تنكب طريق منهجه في أي حال من الأحوال، وإذا مُكِّن لدين الله ومقاصده وقيمه، فقد مُكِّن لحَمَلَتِه المؤمنين به المطبّقين لمقاصده والقائمين علىٰ حدود الله. وأن تأتي هذه الآية في السّورة التي أَسَّست للنّظام الأخلاقي ونظام العلاقات بين النّاس، ووضعت الفواصل بين ما هو خصوصي وما هو مشاع، دليلٌ علىٰ أهمية هذه الأمور التي قد يتساهل الإنسان بها. وفي سورة المائدة وضع الله جلّ شأنه آية كمال الدّين وتمامه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] في سياق تحدث عن الطّعام والشّراب والصّيد والنّكاح، فكان فيها رسالة بأنّ تمام الدّين وكماله بأن لا يفرط الإنسان ولا يتساهل بأي من أمور الدّين في المأكل والمشرب والمسكن والمنكح، فهنا يعطي رسالة للإنسان المسلم بأنّ التّمكين لا يكون بالأخذ بعظائم الأمور وحدها، بل لا بدّ من الأخذ كذلك بهذه الأمور التي قد يضعها البعض في دائرة التّحسينات والكماليات، فربط بها التّمكين في الأرض، ونبّه إلىٰ أنّه تمكين يغاير التّمكين المادي الذي قد يحصل عليه البر والفاجر من الحكام والملوك والمنحرف والمستقيم من الشّعوب والأمم. وهؤلاء الذين يمكّن الله لهم ولا يتوقف التّمكين فيهم، لا قبل النّصر ولا بعده، هم المداومون علىٰ استيفاء شروط التّمكين والقيام بها.

تحقيق الأمن

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥]

لا يَفهم هذه الآية الكريمة بشكل عميق إلّا من يضمها إلىٰ باقي آيات الكتاب الكريم شأن كل آياته، ومن يحاول فهم الكتاب بطريقة تفاعلية مع الواقع الحياتي وليس تاريخياً فحسب، ومن يحاول بالفعل عبادة الله وحده دون شِرْك ودعوة النّاس لذلك.

فمن آيات الكتاب الكريم نجد أنّه ما أتىٰ رسول بهذا القول وهذه الدّعوة إلّا ونوصب العداء هو وأصحابه، وهكذا وجدنا أيضاً في أيامنا هذه، فهي سنّة تتكرر في كل عصر، ولم ولن تنتهي طالما هناك بشر يحيون علىٰ الأرض. فكل مؤمن سيدعو إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، سيُعادىٰ ويُحارب ويُسفّه ويُكفّر كما فُعل برسل الله من قبله.

ومن أسوأ محاولات فهم آيات الكتاب الكريم هي محاولة الفهم السّاكنة التّاريخية التي تُرجع كل فهم وتأويل إلىٰ الماضي وإلىٰ عصر النّزول، وتجاهل تماماً أنّ هذه الآيات الكريمات إنّما هي لكل عصر، وهي تعالج واقعاً متحركاً وديناميكياً للبشر، وليس واقعاً ثابتاً وساكناً.

ومن هذه الأخطاء الجسيمة في الفهم محاولة تفسير هذه الآية الكريمة علىٰ أنّها تعني استخلاف أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد الرّسول الكريم، وأنّ التّمكين المقصود هو الخلافة الرّاشدة، وأنّ الأمن هنا هو حالة الأمن في المدينة المنورة بعد الهجرة قبل وفاة الرّسول الكريم وبعدها. إنّ الفهم بهذه الطّريقة التّاريخية السّاكنة التي لا تفاعل فيها مع الحياة ومع تطور العصر والأحداث يفرغ الآية الكريمة -وما عداها من الآيات التي تُفهم بالطّريقة نفسها- من مضمونها ومن أهدافها، والتي هي ضبط حركة الحياة وتصحيحها في كل وقت وعصر.

والآية الكريمة تعطي الوعد بتحقيق الأمن للمؤمنين الذين استخلفهم الله في الأرض ومكّن لهم دينهم. والوعد بتحقق الأمن بعد الخوف بسبب عبادة الله وحده -خالصة دون شرك- يشير إلىٰ أنّ تحقيق هذا الأمر ليس بالسّهولة ولا اليسر التي يتخيلها البعض، لأنّ من يكفر بعد هذا الاستخلاف والتّمكين والأمان فليس له أي

عذر أو حجة أو مخرج، بل سيكونون من الفاسقين، وليس الكفر هنا هو فقط إنكار وجود الله تعالىٰ وإنكار آياته، وإنّما قد يكون كفر النّعم التي أنعم الله بها في هذه الآية، وهذا من أعظم ما فقد المسلمون من مبادئ؛ مبدأ شكر النّعمة، والذي يعني استخدام نِعَمِ الله في أداء أوامر الله والامتثال لها.

وقد أتىٰ مبدأ شكر النّعمة واضحاً جليّاً أيضاً في قوله تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل: ١١٢].

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور: ٥٦]

ويستمر السّياق في تعليم هؤلاء الذين في قلوبهم مرض، والمنافقين الذين كانت تتحدث عنهم الآيات، فبعد الأمر بطاعة الله والرّسول، يأتي الأمر بإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة وطاعة الرّسول مرة أخرىٰ، منفردة وغير مقترنة بالله، وهي دائماً طاعة لله وحده بالطّبع، ولكن لإزالة كل ريب في قلوبهم منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

إنّ العلاقة بين الله تعالىٰ والنّفس الإنسانية علاقة عجيبة، فالآيات المنتشرة في كتاب الله كلها تنبه إلىٰ أنّ أي غفلة عن ذكر الله أو إعراض عنه جلّ شأنه أو فتور عن طاعته، يؤدي إلىٰ توقف الصّلة بين الله والنّفس الإنسانية، وتوقف الصّلة هنا موت اعتباري لتلك النّفس ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. هذا الموت الاعتباري يصيب النّفس الإنسانية بحالة اغتراب هائلة، وهي تستشعر حالة البعد عن الله وانقطاع الصّلة به جلّ شأنه. والتّرابط بين الآيتين الكريمتين السّابقتين يؤكد هذه الحقيقة بوضوح، فالتّمكين أحياناً قد يُطغي الإنسان الغافل بحيث قد يقول: إنّما أوتيته علىٰ علم عندي، وقد ينسب كل الإنجازات والنّجاحات التي حققها الإنسان بتوفيق الله وتسديده إلىٰ ذات الإنسان البشرية، ولذلك فإنّ القرآن الكريم يؤكد لهذا الإنسان باستمرار أن لا يغفل عن ذكر الله في أيّة حالة؛ إذ إنّ أيّة غفلة سوف تؤدي إلىٰ الموت، موت القلب والعقل والرّوح، ولذلك جاءت هذه الآيات مباشرة لتدعو المؤمنين إلىٰ إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة وطاعة الرّسول الكريم، فهدفكم لا ينبغي أن يكون اللّعب واللّهو في الحياة الدّنيا، وإنّما طلب الرّحمة وبلوغها في الدّار الآخرة.

﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧ ﴾ [النور: ٥٧]

ثمّ يأتي التّحذير لهم من الكفر وبيان عواقبه، فإمهال الله لكم ليس عجزاً منه سبحانه، ولكن فرصة لكم لتتراجعوا عن سيئات أعمالكم وعن كفركم ونفاقكم، لكن إن أبيتم إلّا الكفر، فأنّتم خلق ضعيف من خلقه لا تعجزونه في أرض الدّنيا ولا يوم القيامة، فمأواكم النّار ولبئس المصير.

النَّجم السادس: تنظيم شؤون الأسرة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ
صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا
عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ
٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ
ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن
يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٦٠ لَّيۡسَ عَلَى
ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ
أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ
أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم
مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا
فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦١ ﴾ [النور: ٥٨-٦١]

الاستئذان داخل البيت

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ
صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا
عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ
٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ

ءَايَـٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ
أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾

[النور: ٥٨-٦٠]

إنّ هذه الآية الكريمة ضمن باقي آيات سورة النّور التي اهتمت بأمر الأسرة، وتنظيم شؤونها، والحفاظ علىٰ عفتها وطهارتها، وبذلك طهارة المجتمع بأكمله، فهي بهذا استكمال لأحكام البيوت التي سبقت. فهنا الأمر بالاستئذان داخل البيت الواحد بعد أن سبق بيان ضرورة الاستئذان قبل دخول البيت كله. فالاستئذان داخل البيت بمعنىٰ قبل الدّخول علىٰ غرفة معينة في البيت فيجب الاستئذان ممن بداخلها ثلاث مرات، بأن يطرق الباب ثلاثاً؛ فإن لم يؤذن له بعد المرة الثّالثة فيجب عليه الرّجوع، وذلك لما قد يكون من انتهاك لخصوصية الإنسان في داخل بيته خاصة في تلك الأوقات التي حددتها الآية، والتي عادة ما تكون وقت راحة واسترخاء وخلوة؛ فعدم الاستئذان في هذه الحالة يضع الحرج علىٰ أهل البيت فلا يستريحون، وكذلك يؤذي الآخرين بما قد يرون من عورات تهيج نفوسهم وتثير غرائزهم.

مَن الذين يستأذنون

أولاً: الذين ملكت أيمانكم، وهم العبيد أو الإماء. ولم تحدد الآية النّوع ولا السّن ولا الدّين الخاص بهم، فالكل يجب أن يستأذن، وينصرف هذا الأمر علىٰ العاملين بالمنازل هذه الأيام من عاملات النّظافة أو المربيات أو الطّباخات والخدم بشكل عام.

ثانياً: الذين لم يبلغوا الحلم، وهم الأطفال دون سنّ الاحتلام، والذي يختلف اختلافاً بسيطاً من طفل لآخر، ويختلف بشكل أكبر من مجتمع لآخر، بحسب البيئة والعوامل الوراثية والجوية أيضاً. وهنا لم تحدد الآية أيضاً النّوع، فالأمر منصرف إلىٰ الذّكور والإناث.

ثالثاً: الأطفال الذين بلغوا الحُلُم من المؤمنين.

رابعاً: القواعد من النّساء اللاتي لا يرغبن في النّكاح، فنجد في مجتمعاتنا إناثاً

آيسات من النّكاح؛ فهؤلاء أباح الله لهنّ أن يتخففن من ملابسهن، ولكن لا يتبرجن بالتّزين بحيث يصبحنّ فتنة تهيج الغرائز وتثير النّفوس، وخير لهنّ من ذلك أن يستعففن، فهذه رخصة لهنّ من الله حتىٰ لا يجعل عليهنّ الحرج فلا يرتحن في بيوتهنّ بسبب ارتدائهنّ لكامل ملابسهنّ داخل البيت. فشَرَع الله تعالىٰ لهم الاستئذان حتىٰ لا تتأذىٰ نفوسهنّ برؤية عورة أو مشاهدة فعل يثير نفوسهنّ، فتتأجج الشّهوات ولا ترتاح النّفوس ولا القلوب.

مواعيد الاستئذان

أولاً: من قبل صلاة الفجر، وهو موعد النّوم الرّئيسي في اليوم، والذي يتخفّف فيه الإنسان من ملابسه وقد تظهر عورته فيه.

ثانياً: بعد الظّهر، وهو وقت القيلولة، وهو وقت التّخفّف من الملابس أيضاً.

ثالثاً: من بعد صلاة العشاء، وهو وقت الرّاحة بعد عناء اليوم وتعبه.

ونلحظ التّبعيض في قوله: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ [النور: ٥٨]، و﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ [النور: ٥٨]، وهو ما يشير إلىٰ أنّ ليس كل الوقت قبل الفجر وكذلك بعد العشاء هو وقت راحة ونوم، فيجب أن يقوم المؤمن باللّيل لله رب العالمين ولا ينام طول اللّيل، فهو يقوم في اللّيل ليُسبِّح أو يقرأ القرآن أو يتهجد أو يذكر الله تعالىٰ بشتىٰ الطّرق. كذلك فإن المولىٰ جلّ شأنه لم يحدد موعداً بعينه قبل الفجر أو بعد العشاء، وإنّما تركه ليناسب ظروف كل إنسان واحتياجاته حتىٰ لا يكون حرج علىٰ النّاس في ذلك، فالحمد لله علىٰ الدّين الذي ما جعل الله علينا فيه حرجاً.

عِلّة الاستئذان

ذكرت الآية الكريمة العِلّة من الاستئذان بأنّ هذه الأوقات عورة، فهي أوقات راحة واسترخاء وتخفيف من الثّياب كما ورد في الآية الكريمة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ [النور: ٥٨]، فيجب أن تُحترم الخصوصيات، وتُستر فيه العورات، ويرتاح أصحاب البيت بأن لا يظلوا طوال اليوم مرتدين كامل ثيابهم كأنّهم في الشّوارع.

وبعد هذه الأوقات لا جناح في الدّخول دون استئذان، ونجد جميل التّعبير ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ [النور: ٥٨]، فهو ترك الأمر خياراً لكم بأن تستأذنوا أو لا تستأذنوا، فالمولىٰ عزّ وجلّ لا يريد أن يجعل حرجاً علىٰ أهل البيت في كثرة الاستئذان في الأوقات العادية، فلو أمر الله بالاستئذان في كل وقت لكان حرجاً كبيراً.

مثل هذا البيان الصّريح الواضح لأحد أوامر الله في كتابه، قد جعله الله في كآفة آياته ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [النور: ٥٨]، فهذا الأمر من الله تعالىٰ لأنّه عليم حكيم.

ولهذا الأمر عِلّة أخرىٰ غير مذكورة في هذه الآية، لكنها مذكورة في غيرها من الآيات، ألا وهي تربية الأطفال والنّشء الجديد علىٰ طاعة الأبوين واحترامهما، وعلىٰ حسن الخلق والأدب العالي. فتعويدُ الطّفل منذ صغره علىٰ الاستئذان عند الدّخول علىٰ أبويه يبني في داخله هيبةً واحتراماً وإجلالاً لهما، ويجعل أمرهما له مطاعاً في سائر الأمور، إن تعود الطّفل علىٰ ذلك الأمر، فهو أمر يتكامل مع باقي أوامر الكتاب المجيد لإنشاء جيل علىٰ خلق عظيم.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور: ٦١]

تستمر السّورة الكريمة في تنظيم شؤون الأسرة إلىٰ أدق تفصيلاتها، والتي قد نعدّها بدهية، فهنا حكم الأكل في البيوت التي ذكرتها الآية من غير استئذان أهل البيت دون أن يُعدَّ ذلك سرقة للبيت أو تعدياً علىٰ خصوصيات البيت، ففي حالة بيوت الآباء مثلاً لا يُتصور أن يستأذن الابن من أبيه كلما أراد تناول طعام، وكذلك في باقي الحالات. ونجد الحكمة البالغة في هذا الأمر وهي رفع الحرج عن أهل البيت

الواحد وعن الأقرباء، فنلاحظ أنّ معظم المذكورين في الآية الكريمة أقرباء، والحكمة الأخرىٰ هي توطيد وتثبيت المودة في العلاقات بين أبناء العائلة الواحدة وإزالة حواجز الرّسميات وإبدالها بأمور تفشي بينهم الثّقة والمودة والحب.

ومن مفهوم المخالفة، نجد أنّه ينبغي علىٰ الإنسان أن يطلب الإذن ممن هم خارج هذه الحالات، أي خارج صلة القرابة أو الصّداقة، فهذا أدعىٰ إلىٰ احترام حرمات البيوت ومشاعر الغرباء الذين لم تصل علاقتهم بعد إلىٰ مرتبة الصّداقة.

النَّجم السابع: أحكام خاصة بمعاملة للرسول ﷺ

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٢-٦٣]

أحكام مجالس الرسول ﷺ

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: ٦٢] ومن الآداب أيضاً التي تخص الاستئذان، الاستئذان من رسول الله ﷺ قبل الانصراف، إذا كان هناك أمر جامع للمسلمين، فقد يطرأ حادث أو يتم التّجهيز لحرب أو يتم أخذ المشورة أو ما إلىٰ ذلك من الأمور الجامعة العامة التي تخص المسلمين، ففي هذه الأمور لا ينبغي أن يغيب عنها المسلم، وإنّما يجب أن يكون شاهداً وحاضراً لكي ينتفع هو بنفسه ويعلم ما يدور من أحداث، ويزداد وعيه وفهمه ومعرفته بأراء الآخرين أيضاً، وكذلك ينتفع المسلمون برأيه أو مجهوده إذا تطلب الأمر. أمّا إذا اقتضت الحاجة أن ينصرف الشّخص لشأن خاص به، فيجب عليه أن يستأذن من رسول الله ﷺ قبل الانصراف احتراماً له وإجلالاً لمكانته، فإذا ما أذن الرّسول الكريم له فلن تكون هناك ذريعة لسوء الظّن،

خاصة وأنّ التّسلل والانسحاب من مجلس الرّسول دون إذن هو من أعمال المنافقين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾ [التوبة: ١٢٧]، لذلك جعل المولى جلّ شأنه هذا الاستئذان علامة على الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: ٦٢]. وإذا كان الأمر بالإذن لمن شاء منهم منوط به ﷺ فإنه ﷺ له حق الاستغفار من عدمه لمن خالف هذه الآداب، وكأنّ هذا العمل أورثهم ذنباً عظيماً يتطلب استغفار الرّسول ﷺ لهم، فهذا يشير إلى أهمية الحضور في أمور المسلمين الجامعة مع رسول الله ﷺ، وعدم الانصراف منها إلّا لشيء شديد لا يحتمل التّأجيل. إنّ هذا الأمر -وهو يؤكد على ضرورة الاهتمام بأمر المسلمين ووجود المسلمين معاً في أمورهم الجامعة- نجده مؤكداً أيضاً بالأوامر المختلفة في القرآن بصلاة الجماعة، سواء في الصّلوات اليومية أو صلاة الجمعة أو العيدين أو صلاة الجنائز، فيجب العمل بتوجيه القرآن الكريم الدّائم على تجمع المسلمين وترابطهم، ومعاونة بعضهم بعضاً في الأمور الجامعة، وعدم الانصراف عنها للأمور الفردية الشّخصية، إلّا الضّروري جداً الذي لا يُحتمل تأجيله.

حكم آخر مما خُص به الرّسول ﷺ

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النور: ٦٣]

يأمرنا المولى جلّ شأنه بعدم مساواة الرّسول ببعضنا البعض في الدّعاء، والمقصود بالدّعاء النداء كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠﴾ [النمل: ٨٠]

وقال تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر: ١٤]

فالآية تدل علىٰ معنىٰ النّداء من قِبَل الرّسول ﷺ للاجتماع لشأن المسلمين، فلا تُساووا أيّها المؤمنون بين دعوة الرّسول ﷺ لكم للاجتماع لأمر المسلمين، ودعوتكم بعضكم بعضاً في أموركم الخاصة. فدعوة الرّسول ﷺ يجب أن تُلبّىٰ ولا ينصرف عنها أحد لشأنه الخاص، إلّا ما اضطر إليه حتىٰ لا يأثم كما بيّنت الآية السّابقة.

وتحمل الآية الكريمة أيضاً معنىٰ النّداء علىٰ الرّسول ﷺ فلا ينبغي أن يكون كسائر النّاس، بأن ينادىٰ باسمه «يا محمد» فهذا غير مقبول. وخيرُ مُعلّم لنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي لم يناده ويخاطبه باسمه قط كما نادىٰ سائر الأنبياء بل قيل له: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وهكذا ينبغي علينا أن نناديه كما علّمنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إنّ أمر دعوة الرّسول الكريم، سواء أكانت صادرة منه أو له، يجب ألا تتساوىٰ مع غيره من النّاس، وذلك لأنّها لا تخص شخصه الكريم، وإنّما تخص الأمة الإسلامية كلها، وتخص هذا الدّين إلىٰ قيام السّاعة. إنّ في أمر النّداء أهمية كبرىٰ، وذلك لأنّ المساواة بين دعاء الرّسول ودعاء الآخرين للاجتماع يجعل القدر العالي لدعاء الرّسول مساوياً للقدر الأدنىٰ لدعاء باقي الأشخاص، فسيؤدي مع الوقت إلىٰ تجاهل دعوة الرّسول ومعصيته فتحبط الأعمال. وكذلك مساواة دعوة الرّسول -أي بمعنىٰ النّداء عليه- مع غيره من البشر سيؤدي إلىٰ مساواة نفسية تقلل من هيبة الرّسول الكريم وإجلاله في النّفس وتجعله كسائر البشر، مما قد يؤدي إلىٰ عصيانه في أمر قد يصدره خاصة في الأوقات العصيبة كالحروب والمعاهدات. لذلك كان توجيه المولىٰ بقطع هذا الطّريق من بدايته والنّهي عن كل ما ينافي تعظيم شأن الرّسول الكريم وإجلاله في النّفوس.

و ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾ [النور: ٦٣] من مجلس الرّسول وينصرفون، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾ [التوبة: ١٢٧]، ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] بالاجتماع والحضور إليه، ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ [النور: ٦٣] في دينهم أو في دنياهم

﴿ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: ٦٣] في الدّنيا والآخرة.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النور: ٦٤]

وفي نهاية السّورة الكريمة يذكّر المولى جلّ شأنه بحقيقة الدّنيا، وحقيقة المصير الذي سنؤول إليه جميعاً، وأنّه سبحانه هو المالك الحق لكل شيء في السّماوات والأرض، وأنّه يعلم كل شيء فيهما، وأنَّ مردنا ومصيرنا إليه جميعاً يوم القيامة، فيُنبّأ كل إنسان بما عمل، ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النور: ٦٤].

هذا والله أعلى وأعلم.

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

وصفها: سورة مكيَّة

عدد آياتها: تسع وستون.

وعدد كلماتها: تسعمائة واثنتان وثمانون.

وعدد حروفها: أربعة آلاف ومئتان.

هي سورة مكيَّة كلها على الأرجح، وهي من أواخر ما نزل بمكة، لذلك كان فيها ما يشبه الخاتمة لما جرى في العهد المكيّ من اضطهاد وفتنة للمؤمنين بطريقة ملخصة، تكاد تلخص ما تعرَّض له المؤمنون وتهيئ الأذهان لمرحلة أخرى تختلف فيها طبيعة التحديات والمواجهات بين معسكر الإيمان ومعسكرات الشرك والكفر وأهله، ومنهم من عُرِفوا بأهل الكتاب الذين كان يتوقع منهم أن يكونوا أحلافاً لأهل الإيمان وحملة الرسالة الخاتمة، لولا البغي والحسد اللذان ملآ قلوبهم. لقد كان بغيهم أشبه ببغي ابن آدم على أخيه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧] والسورة كلها تفصيل لما أُحكم في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧]. ولذلك كانت خاتمتها: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فكأنَّها تقول من أراد الاهتداء إلى الصراط المستقيم فليجاهد في الله حق جهاده، وعلى جميع المستويات، فيبدأ بجهاد النفس ويتخلص من التبعية والتقليد والعقلية الآبائية، ثم بجهاد الدفع والتدافع وجهاد الطلب. وإذا كانت بداية سورة البقرة قد بيَّنت مصدر الهداية: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢]، فإنَّ هذه السورة قد بيَّنت بعض وسائل هذه الهداية.

عمود السورة:

عمود هذه السورة ومحورها الأساس "الإيمان والتحديات التي تواجه حملته"، في جميع جوانبها ومستوياتها، فتبيّن الفتنة وتتناول دروباً منها لتتوطن نفوس المؤمنين

وتتهيأ لاستقبال ما سَيُبْتَلون به من فتن من سائر مخالفيهم في الإيمان، وخصومهم الذين لا ينقمون منهم إلا أنَّهم آمنوا بالله حين كفر الخصوم، ووحّدوه -سبحانه- حين أشرك به الخصوم، وأخلصوا دينهم لله حين خلط خصومهم الشرك والإيمان، ومزجوا بين العمل الصالح والعمل الخبيث. فبها بُدِئَتْ وبجانب منها خُتمت.

فسنَّة الفتنة وابتلاء المؤمنين سنَّة ثابتة مستمرة: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤١]، وتُنبّه خاتمة السورة على أنَّ الجهاد ينبغي أن يُفهم في إطار الفتنة والابتلاء وأنَّه ينبغي أن يكون سبيلاً إلى الهداية، فهو يخالف "الفتح" الذي يكون هدفه التغلُّب على الخصم وكسر شوكته وإذهاب ريحه، أمَّا هدايته فقد لا تخطر على بال الفاتحين، وهنا يظهر الاختلاف الحقيقي بين الجهاد بمفهومه القرآنيّ والغزو والقتال ومايترتب عليهما، ولذلك قال -تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩] وليس سبلهم هم، فالنتائج التي يوصل الجهاد إليها نتائج تحظى بعناية الله -جل شأنه- ومباركته، وأمَّا الغزو والفتح فهي أمور أخرى.

مؤشرات في المنهج:(١)

وهناك وجه آخر من أوجه المقارنة بين سورة العنكبوت وسورة البقرة، فسورة البقرة نبهت إلى بعض صفات المؤمنين المتقين، ومنها ارتباطهم بالله -جل شأنه- وسؤاله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ اللُّطف والتخفيف وعدم التكليف بما لا يُطاق أو يَصْعُب، والنظر إلى أن ذلك جزء من أهم وسائل تكوين مَلَكَة التقوى في الإنسان حتى يعبد الله كأنَّه يراه. وفي هذه السورة التفات نحو الجغرافيَّة، فيبيِّن -جلّ شأنه- نعمته على الإنسان بهذا التنوع في الجغرافيا، فهناك حرم آمن امتن عليهم بتمكينهم منه، فقال -تعالى-: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧]، وعدَّ الجهاد في الآية الأخيرة

(١) العلواني، **الوحدة البنائيَّة للقرآن المجيد**، مرجع سابق، حيث تم هناك تفصيل رؤيتنا لأحد أهم ملامح الخطاب القرآنيّ، وما يحتّمه من محددات منهجيَّة خاصَّة في القراءة. كما نشرنا في إبريل ٢٠١٢م، مقالاً نفسّر فيه آيات القتال في القرآن وفقاً لهذا المنهج، وانطلاقاً من إيماننا بوجود وحدة بنائيَّة للقرآن، وخلافاً لكل المناهج التجزيئيَّة للقرآن والتي تقرؤه عضين بين ناسخ ومنسوخ، فهذا المقال هو تطبيق عملي لهذا المنهج.

وسيلة لهداية العباد إلىٰ سبل الله -جلّ شأنه- ويلفت النظر إلىٰ أنَّ فيه إشارة إلىٰ تعدد السبل: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] لينبهنا أنَّ الجهاد والمدافعة لا تنحصر في سبيل واحد، بل لها سبل عديدة، ذكر لنا بعضها، وهيّأ لنا الأسباب لاستنباط البعض الآخر ليدوم الأمن في الحرم ويستمر، وتُحترم الأرض المقدسة وتُحفظ لها مكانتها، ويعمل الإنسان المستخلَف بالمدافعة والمجاهدة كي يجعل من بقية أجزاء الأرض مسجداً وطهوراً تشبه الحرم والأرض المقدسة إذا ما دخل الناس في السلم كافَّة واستجابوا لربهم وأقاموا الصلاة.

كما أنَّ فاتحة السورة بدأت بالأحرف المقطعة التي استهلت بها سورة البقرة، مما يشير إلىٰ نوع من الترابط بين السورتين في بعض الموضوعات، ومن أبرزها

ما يُعدُّ بمثابة حتميَّة الفتنة والابتلاء للمؤمنين ليميز الله الخبيث من الطيب، وهو الذي أشارت إليه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]، وكذلك الإشارة إلىٰ فتنة المشركين للمؤمنين وترابطها مع آيات سورة البقرة وآية العنكبوت، وبعض آيات سورة الحج ونحوها، وكذلك سورة آل عمران في الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمرن: ١٥٤]، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥]، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وحين تُضم هذه الآيات إلىٰ بعضها وتُستحضر كاملة؛ فسيلحظ القارئ المتدبِّر كيف يفسر القرآن بعضه بعضاً في ترابط وإحكام، يُبرز تسلسل الأفكار التي توحي الآيات الكريمة بها وبدلالاتها وترابطها وانسجامها.

إنَّ سورة العنكبوت في آياتها الأولىٰ تشير إلىٰ الارتباط بتلك النتيجة؛ وهي أنَّ العاقبة بعد الفتنة انتصار الإيمان علىٰ الشرك، وانتصار المؤمنين علىٰ الكافرين، فجعجعة الكفر وأهله ليست نهائيَّة، وقدراتهم علىٰ الفتنة -فتنة المؤمنين- لها أجلٌ سوف تبلغه وتتوقف عنده شاء أهل الكفر أم أبوا، وما كان الله ليسمح بأن يُفتن المؤمنون به من أولئك المشركين والكفار لولا الحكمة البالغة في ذلك، ومتطلبات الإعداد لما لا يتحقق العمران والاستخلاف إلا به من تدافع، ولا يكتمل الابتلاء والتزكية إلا بحدوثه.

مناسبة السورة لما قبلها:(١)

جاءت سورة العنكبوت عقب سورة القصص التي قصَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علينا فيها نبأ موسىٰ وفرعون، وهو نبأ من أنباء الصراع بين الحق والباطل، والتدافع بينهما، وحلقة من حلقات تلك السلسلة.

---

(١) قال الإمام البقاعي في تفسيره نظم الدرر: «سورة العنكبوت مقصودها الحث علىٰ الاجتهاد في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعاء إلىٰ الله -تعالىٰ- وحده من غير فترة، كما ختمت به السورة الماضية، من غير تعريج علىٰ غيره -سبحانه- أصلاً، لئلا يكون مَثَلُ الفرج عند المتعوض عوضاً منه مَثَلَ العنكبوت، فهي سورة ضعف الكافرين وقوة المؤمنين، وقد ظهر تسميتها بالعنكبوت وأنَّه دال علىٰ مقصودها، «بسم الله» الذي أحاط بجميع القوة فأعز جنده «الرحمن» الذي شمل جميع العباد بنعمة الأمر والنهي، «الرحيم» الذي ألزم أهل العرفان ذروة الإحسان.

لما ختم السورة الماضية بالحث علىٰ العمل للدار الآخرة، وأنَّ كلَّ أحد محسن ومسيء مجزيٌّ بعمله، وبالإخبار بأنَّه -سبحانه- عالمٌ بالسرِّ والعلن، وبالأمر بالاجتهاد في الدعاء إليه وقصر الهمم عليه، وإن أدىٰ ذلك إلىٰ الملال، وذهاب النفس والأموال، معللاً بأنَّ له الحكم -سبحانه- لأنَّه الباقي بلا زوال، وكل ما عداه فإلىٰ تلاشٍ واضمحلال، وأنَّه لا يفوته شيء في حال ولا مآل، قال أول هذه" الم "إشارة بالألف الدال علىٰ القائم الأعلىٰ المحيط، ولام الوصلة وميم التمام بطريق الرمز إلىٰ أنَّه -سبحانه- أرسل جبريل إلىٰ محمد -عليهما الصلاة والسلام- ليدعو الناس بالقرآن الذي فرض عليه إلىٰ الله، لتعرف بالدعوة سرائرهم، ويتميز بالتكاليف ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمد:٣١] "انظر:

- البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**،، مرجع سابق، ج١٤، ص٣٨٤-٣٨٥.

ومما يستفاد منها معرفة طبائع الاستبداد وآثاره الخطيرة عندما يتعالىٰ الإنسان علىٰ نظرائه في الإنسانيَّة، وكيف يُفرِّق الناس فيستضعف طائفة ويستقوي بأخرىٰ، ويفسد في الأرض ويستبد فيها وفي ساكنيها. وتذكر السورة لنا نماذج من استبداد السلطة وطغيانها، واستبداد أهل المال وطغيانهم. وبين الخاتمة والعاقبة يظهر كيف تكون العاقبة للمؤمنين بالله، المستقيمين علىٰ الطريقة، المهتدين بهداية النبيين، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيجعل الدار الآخرة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وسيجعل العاقبة دائماً للمتقين، وهذا رسول الله ﷺ الذي فرض الله عليه القرآن، بعد أن أُوذي وأُخرج من داره ومستقر عيشه مكة؛ تعهد الله -جلّ شأنه- أنَّه سيرده إليها ظافراً منتصراً، ويُذكِّره الله -جلّ شأنه- بأنَّه لم يكن يتطلع إلىٰ أن ينزل عليه الكتاب، بل كان نزول الكتاب علىٰ قلبه رحمة من الله له وللعالمين كافَّة، ولذلك ينهاه -جلّ شأنه- أن يخضع لأي تهديد أو وعيد، أو يضعف أمام أي ضغط يوجهه أولئك الكافرين إليه، ليصدوه عن آيات الله، ويأمره بالاستمرار في الدعوة إليه، وتجنب سبيل المشركين، وأن لا يدعو مع الله إلهاً آخر، فهو صلب دعوته وقوام رسالته، لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم والفصل بينك وبين خصومك وأعدائك، وإليه مرجعك ومردك ومرجعهم جميعاً، وسوف تفرح بما أعددناه لك في حين يتحسَّر أولئك علىٰ ما فرطوا في جنب الله.

النَّجم الأول: من الآية الأولىٰ حتىٰ الآية ١٣

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧ ﴾ [العنكبوت: ١-٧].

تبين سورة العنكبوت أنَّ ما يفعله معسكر الشرك والكفر ضد النبيين والمرسلين وأهل الإيمان؛ ليس أمراً مبتدعاً، وليس خاصّاً، فلا يظن المسلمون أنه لم يتعرض له أحد غير رسول الله ﷺ ومن معه، بل هو سنَّة إلهيَّة شاملة للناس المؤمنين كافَّة ﴿ أَحَسِبَ

ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢-٣] فالمؤمنون لا يُتركون لمجرد إعلانهم الإيمان؛ بل لا بد أن يُفتنوا ويُختبر إيمانهم بابتلائهم بالكافرين وشياطين الإنس والجن. وهذه الفتنة جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سنَّة مرَّ بها من سبقنا، ونمرّ بها، ويمرّ بها من يلحقنا- أيضاً- وبذلك يثبت الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ويمتاز المجرمون المدعون للإيمان والمنافقون والكاذبون والمراءون، ويدرك أولئك الذين عملوا السيئات أنَّهم لن يسبقوا الله- جلّ شأنه- بل الله غالب على أمره، وهم مقهورون بأحكامه، وأنَّ زعمهم أو دعواهم أن يسبقونا هي دعوى لا تقوم إلا على أساس الغرور والرغبة في الاستعلاء، وما يمليه ضعف الإيمان، وانتفاء اليقين على أصحابه.

وحين نستحضر قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والآية التي معنا: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ١-٢]، وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٧]، نستطيع أن نرسم -من خلال هذه الآيات كلها- صورة كاملة، تنفي عن حياة الإنسان أي شيء يمكن أن يؤدي إلى شعورٍ بالعبثيَّة، أو إحساس بالعدميَّة، ذلك الشعور والإحساس الذي لا يمكن أن يُقاوَم إلا بمعرفة واستحضار الغائيَّة من خلق الإنسان، والحكمة في وجوده، فإدراك هذه الغائيَّة، ومعرفة هذه الحكمة، هي ما يمكن أن يساعد الإنسان على الخروج من حالة العبثيَّة والعدميَّة اللتين كثيراً ما تستوليان عليه حينما تغيب عنه حكمة الحياة والوجود فيها، ويحملانه على الكسل، والانغماس في العبث وعدم الشعور بالمسئوليَّة [1] والغائيَّة من ذلك الوجود، التي تمنحها الغاية المقنعة، التي تجعل الإنسان فيها صاحب مهمة ورسالة وهدف، وغاية تجعل من حياته حياة تقوده إلى

(١) مثال الأبيات الشهيرة لإيليا أبي ماضي: (أتيت لا أعلم من أين لكني أتيت)، وهذه الأبيات الشهيرة هي من قصيدة الطلاسم، انظر:

- أبو ماضي، إيليا. **ديوان إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر**، تقديم: جبران خليل جبران، بيروت: دار العودة للصحافة والطباعة والنشر، ٢٠٠٠م، ص١٩١.

الجنَّة، وتحبط كل جهود الشيطان الذي يعد مدخل الإحساس بعبثيَّة الحياة وعدميَّتها من أهم وأخطر مداخله.

وإذا فهم الإنسان الفتنة بحقيقتها وجوانبها المختلفة؛ فإنَّ ذلك سوف يُهَوِّنُ عليه مصائب الدنيا من ناحيَّة، ويجعله قادراً علىٰ تفسير كثير من الأحداث التي يصادفها، والمواقف التي تحيط به، ويفسرها تفسيراً ملائماً، لا يدفعه نحو الجبريَّة والاستسلام، ولا إلىٰ ردود الفعل التي لا تنضبط بضوابط الشرع من ناحية أخرىٰ.

مفهوم الفتنة:

«الفتنة» مفهوم قرآنيّ من «فتن» أصلها اللساني إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته وإزالة ما قد يكون خالطه من معادن أخرىٰ،[1] ومنه قوله –جلّ شأنه–: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الذاريات: ١٣] تشبيهاً لأهل النار الذين خالط فِطَرهم نزغ الشيطان، فأبعدهم عن الصراط، وفتنتهم علىٰ النار تجعلهم أكثر أسفاً وألماً علىٰ اتِّباعهم همزات الشياطين، وتخلِّيهم عن نداءات الفطرة السليمة التي غطّوا عليها وطمسوها بالكفر والشرك والمعاصي. ويقول الله –جلّ شأنه– لهم: ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ ﴾ [الذاريات: ١٤] أي جزاء تعذيبكم عبادي في الدنيا، لصدّهم عن السبيل. وقد قال– تعالىٰ– في المنافقين: ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة: ٤٨-٤٩].

«الفتنة» مفهوم قرآنيّ من «فتن» أصلها اللساني إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته وإزالة ما قد يكون خالطه من معادن أخرىٰ،[2] ومنه قوله –جلّ شأنه ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الذاريات: ١٣] تشبيهاً لأهل النار الذين خالط فِطَرهم نزغ الشيطان، فأبعدهم عن الصراط، وفتنتهم علىٰ النار تجعلهم أكثر أسفاً وألماً علىٰ اتِّباعهم همزات الشياطين، وتخلِّيهم عن نداءات الفطرة السليمة التي غطّوا

---

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٦٢٣.

(٢) المرجع نفسه.

عليها وطمسوها بالكفر والشرك والمعاصي. ويقول الله -جلّ شأنه- لهم: ﴿ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ ﴾ [الذاريات: ١٤] أي جزاء تعذيبكم عبادي في الدنيا، لصدّهم عن السبيل. وقد قال -تعالىٰ- في المنافقين: ﴿ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة: ٤٨-٤٩].

﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ [العنكبوت: ٣] في إيمانهم عِلْم مشاهدة ﴿ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣] في ادعائهم الإيمان. فالفتنة والابتلاء والتدافع سنن إلهيَّة ثابتة، لها غايات وأهداف ومقاصد لا بد من إدراكها وملاحظتها، فيدرك المؤمنون طبائع التدافع بينهم وبين خصومهم في الحاضر وفي المستقبل ويهيئوا أنفسهم ويعدوا عدتهم لمواجهة التحديات، فلا يفاجأون فيها.

هل للمؤمن أن يطلب الفتنة:

والفتنة وإن كانت سنَّة من سنن الله -كما ذكرنا- فليس للمؤمن أن يسعىٰ إليها أو يطلبها أو يستدرج الآخ رين بحيث يدفعهم إلىٰ أن يقوموا بفتنته، فهي كأي بلاء وابتلاء، إذا أمكن للمؤمن ألا يتعرض لها فلا ينبغي أن يتصدىٰ أو يستشرف لها،(١) لكنَّها لو لم تحدث لأي سبب -غير المداهنة وممالأة أعداء الله أو موافقتهم- فلا ينبغي السعي إليها، فمن عُوفي منها فليحمد الله، ومن ابتُلي بها صبر وصابر ووطَّن نفسه علىٰ أنَّها سنَّة من سنن الله في النبيين والمؤمنين والمصلحين والدعاة وفريق الذين أنعم الله عليهم. فعلىٰ من ابتُلي بها أن يستعين بالله علىٰ تجاوزها بالصبر والصلاة وما يناسبها من فنون التحمل واكتساب القدرة علىٰ إدارة الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل.

(١) وفي الحديث: أن رَسُولَ الله ﷺ في بَعْضِ أَيَّامِهِ التي لَقِيَ فيها الْعَدُوَّ انْتَظَرَ حتىٰ مَالَتْ الشَّمْسُ ثُمَّ قام في الناس فقال: "أَيُّهَا الناس لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فإذا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ". ثُمَّ قال: "اللهم مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عليهم." انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الجهاد والسير، بَاب لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، حديث رقم (٣٠٢٥)، ص٥٧٩.

هل لمن فُتِنَ حقُّ الانتقام مِمَّن فتنوه؟

ومن الفتنة والسقوط فيها أن يقع أي انحراف في سلوك المؤمن وتجاوز ما أُمر به، فالمؤمن محور تفكيره يدور كله حول الإصلاح وهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، فهو لا يبغض الناس ولا يحقد ولا يستعلي عليهم، ولا يريد علواً في الأرض باسم الإسلام ولا فساداً، بل يريد الإصلاح ما استطاع، وقد يوفقه الله لذلك، وقد لا يصادف التوفيقُ جهوده، وفي سائر الأحوال فليس له أن يبتكر عند الفتنة وسائل تقوم علىٰ ردود أفعال لشخصه، فيُكَفّر من فتنوه بحق وبغير حق، ويغلو في معاداته لهم، فالصادق المصدوق ﷺ لم يكن يتمنىٰ الهلاك لمن كُلِّف بدعوتهم، بل كان يتمنىٰ لهم البقاء لعل الله يخرج من أصلابهم من يُوحِّد الله، وكان يعتذر لهم، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كَأَنِّي أَنْظُرُ إلىٰ النبي ﷺ يَحْكِي نَبِيّاً من الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وهو يَمْسَحُ الدَّمَ عن وَجْهِهِ وَيَقُولُ: اللهم اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).[1] فَغُلُوّ الغالين وتحولهم إلىٰ مُكفِّرين وانتقاميين ينزع عنهم صفة الدعاة المصلحين، ويباعد بينهم وبين التأثير في الناس، وقصة «أصحاب الأخدود» التي وردت في كتاب الله وشرحها رسول الله ﷺ[2] شاهد ومثال علىٰ أولئك الذين جعلوا

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كِتَاب الْأَنْبِيَاءِ، باب حَدِيثُ الْغَارِ، حديث رقم (٣٤٧٧)، ص٦٧٠.

(٢) روىٰ مسلم -بسنده- عن صهيب، أن رسول الله ﷺ قال: "كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحرٌ، فلما كبر، قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إليَّ غلاماً أعلّمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهبٌ فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه فكان إذا أتىٰ الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتىٰ الساحر ضربه، فشكا ذلك إلىٰ الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر، فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك، فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتىٰ علىٰ دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتىٰ يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضىٰ الناس، فأتىٰ الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرىٰ، وإنك ستبتلىٰ، فإن ابتليت فلا تدل عليَّ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع، إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتىٰ الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، =

الإصلاح هدفهم، والدعوة والجهاد بالتي هي أحسن وسيلتهم، فنبذوا العنف والكراهية وانطلقوا يدعون إلىٰ الله حبّاً في الله، ورغبة في إنقاذ عباده من أحابيل الشيطان ووساوسه، وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، ولا شك أنَّ من يعمل علىٰ إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور يحمل قلبه ووجدانه لهم حبّاً لا مراء فيه، هذا الحبّ هو الكفيل بتهيئة عقول المدعوين وقلوبهم، وصدورهم؛ لقبول دعوة الداعي إذا دعاهم؛ فَفِقْه التعامل مع الفتنة في القرآن فِقْهٌ غنيّ مليءٌ بالثراء إذا استُنبطت آدابه وأحكامه من كتاب الله الذي قصَّ علينا قصص النبيين والمرسلين الذين أمر الله رسوله أن يهتدي ويقتدي بهداهم، ومن اطلع علىٰ فِقْه التعامل مع الفتنة في الكتاب يدرك بُعد الشُّقة بين ممارسات الكثيرين من السائرين في موكب الدعوة عندما

= فأخذه فلم يزل يعذبه حتىٰ دل علىٰ الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتىٰ دل علىٰ الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبىٰ، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتىٰ وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبىٰ فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتىٰ وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك، فأبىٰ فدفعه إلىٰ نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلىٰ جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلىٰ الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلىٰ نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلىٰ الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتىٰ تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني علىٰ جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه علىٰ جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخُدت وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتىٰ جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك علىٰ الحق." انظر:

- مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كِتَاب الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، بَاب قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ وَالسَّاحِرِ وَالرَّاهِبِ وَالْغُلَامِ، حديث رقم (٣٠٠٥،) ص١٢٠١.

تداهمهم الفتن وبين هدي القرآن في التعامل معها، وهو يروي لنا سيرة رسول الله ﷺ ومَنْ قبله من الرسل والأنبياء الذين وجب علينا أن نهتدي بهداهم وأن نقتدي بهم.

إنَّ رسول الله ﷺ حين فتح مكة ونظر في وجوه القوم الذين فتنوه وعذبوا أصحابه حتىٰ استشهد بعضهم تحت وطأة التعذيب والفتنة سألهم وكل أنظارهم معلقة علىٰ شفتيه الكريمتين "ما تظنون أنِّي فاعل بكم؟" قالوا: "خيراً أخ كريم وابن أخ كريم!"(١)، يقولون هذا لكنّ كلاً منهم يكاد قلبه يسقط بين قدميه تحسباً وخوفاً مما سينطق به -عليه الصلاة والسلام- لأنَّهم يعلمون أكثر من أي أحد آخر ألوان العذاب الذي ساموه وأهله وأصحابه بها سنين عدداً. أمَّا العفو فلم يكن أحد منهم يتوقعه أو يفكر فيه لأنَّهم لم يفهموا معنىٰ النبوة والرسالة بعد، ولم يدركوا حقيقة كونه رسولاً منهم، ولم يفقهوا حقيقة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، ويستطيع الإنسان أن يقدر مشاعرهم في تلك اللحظة التي نطق رسول الله ﷺ فيها: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"(٢) وهنا عادت الحياة إلىٰ نفوسهم، وشعروا شعور من عادت إليهم الحياة بعد موت.

والرسول ﷺ إمام الدعاة وخاتم النبيين والمرسلين يعرف أنَّ فتنة الأنبياء والدعاة سنة إلهيَّة تندرج في إطار التكوين والتدريب والإعداد لمراحل تالية، وذلك يزيل من نفس المؤمن أي شعور بالرغبة في الانتقام لنفسه أو للمؤمنين لأنَّ الرسالة التي يحملها أكبر منه ومن الذين فتنوه، فانصرف بعد النصر إلىٰ التمكين للرسالة والإرساء لدعائم بنائها، ووضع استراتيجياتها وخطط تبليغها، وإيصالها. وقدم رسول الله ﷺ أروع الدرس للبشريَّة وهو ينادي في أهل مكة (من دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل بيته وأغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن).(٣)

---

(١) البيهقي، **السنن الكبرىٰ**، مرجع سابق، كتاب السير، باب فتح مكة حرسها الله تعالىٰ، ج١٨، حديث رقم (١٨٣٢٣)، ص٣٨٤.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، أول كِتَاب الْخَرَاجِ وَالْفَيْءِ وَالْإِمَارَةِ، بَاب ما جاء في خَبَرِ مَكَّةَ، ج٤، حديث رقم (٣٠٢١)، ص٦٣٢.

وكأنَّه يريد أن يُدْخل الأمن والطمأنينة إلىٰ كل نفس ودخل مطأطئاً رأسه متواضعاً وهو يعلم الناس آداب الدخول إلىٰ الحرم ويقول "إنَّما أحلت لي ساعة من نهار".(١)

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [العنكبوت: ٤] الشرك والمعاصي ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤] يفوتونا فلا ننتقم منهم ﴿سَآءَ﴾ [العنكبوت: ٤] بئس ﴿مَا﴾ الذي ﴿يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت: ٤] هـو حكمهم هذا ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ [العنكبوت: ٥] يخاف ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ﴾ [العنكبوت: ٥] به ﴿لَأَتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] فليستعد له ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ [العنكبوت: ٥] لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥] بأفعالهم.

وهنا ينتقل السياق ليؤكد -جلّ شأنه- علىٰ الذين يرجون لقاءه، وعلىٰ أولئك الذين لا يرجون لقاءه، أنَّ أجلَ لقاء الله آت، وهو السميع لكل ما يقول هؤلاء لأولئك، وهذه الآية كقوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ۝٧﴾ [يونس: ٧] وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢١﴾ [الفرقان: ٢١] فهذه كلمات جاءت في لسان القرآن بمعنىٰ وفي لسان العرب بمعانٍ أخرىٰ، لذلك لا بدّ للمتدبر للقرآن من ملاحظة الفروق الدقيقة بين معاني الكلمات في لسان القرآن ومعانيها في لسان العرب وطرائق القرآن في استعمالها وطرائق العرب.(٢)

---

(١) عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: "إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ فلم تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ولا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لي سَاعَةً من نَهَارٍ لَا يُخْتَلَىٰ خَلَاهَا، ولا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، ولا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إلا لِمُعَرِّفٍ،" وقال الْعَبَّاسُ: يا رَسُولَ الله إلا الْإِذْخِرَ لِصَاغَتِنَا وَقُبُورِنَا. فقال: "إلا الْإِذْخِرَ." انظر:
- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب جزاء الصيد، بَاب لَا يُنَفَّرُ صَيْدُ الْحَرَمِ، حديث رقم (١٨٣٣)، ص٣٤٩.

(٢) حاولنا في كتاب «لسان القرآن» تحديد مفردة «رجا» القرآنيَّة، لنبرز مدىٰ اختلاف دلالة «رجا» في القرآن عن المعنىٰ اللغوي لها، كتطبيق وتأكيد لطرحنا في تميز لسان القرآن واختلافه عن لغات العرب ولهجاتها، وضرورة صياغة معجم مفاهيمي للقرآن لا يقاس علىٰ لغات العرب ولهجاتها وإنَّما تكون معضدة في كشفه فحسب. انظر:
- العلواني، طه جابر. **لسان القرآن ومستقبل الأمَّة القطب**، القاهرة: مكتبة الشروق الدوليَّة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٦٨-٧٥.

السُّنن الإلهيَّة:

أولاً: المجاهدة:

﴿ وَمَن جَٰهَدَ ﴾ [العنكبوت: ٦] جهاد حرب أو نفس ﴿ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ ﴾ [العنكبوت: ٦] هذا تأكيد منه -جلّ شأنه- أنَّ أولئك الذين اختاروا الجهاد في سبيل الله -وذلك بتزكية أنفسهم أو لإزاحة أعداء الله وأولياء الشيطان من طريق قيادة البشريَّة والسيَّادة عليها لتستقيم البشريَّة، وتعتدل الحياة- إنَّما يجاهدون لأنفسهم، فتزكيَة نفوسهم وتزكيَة الحياة والبيئة من حولهم إنَّما عائدها إليهم، ولإيجاد الحياة الطيبة لهم، والحيلولة دون سيطرة الظالمين والمنحرفين علىٰ شؤون الحياة وشجونها، وهؤلاء يجزيهم الله أحسن الذي عملوا، فيختار الله -جلّ شأنه- لهم من أعمالهم أعلاها وأحسنها ليجازيهم بها، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ [العنكبوت: ٦] فليس بحاجة إلىٰ جهادهم، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ [العنكبوت: ٧] والذين جاهدوا وآمنوا وعملوا الصالحات إنَّما يجاهدون لأنفسهم، لأنَّهم بذلك يُكَفَّرون عن سيئاتهم، ويُجزون أحسن الذي كانوا يعملون ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧ ﴾ [العنكبوت: ٧].

ثانياً: القيام بأوامر الله عز وجل

﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨ ﴾ [العنكبوت: ٨].

بعض الكاتبين في أصول الفقه يُوحي بأنَّ كلمة «وصّىٰ» هي دون «أوجب وكتب وفرض».[1] لكن ملاحظة أن الموصي هو الله -جلّ شأنه- تزيل هذا اللبس،

(١) "فرض: وهو الواجب في اصطلاح أهل الأصول، ويعني ما يذم شرعاً تاركه قصداً مطلقاً، ويثاب فاعله، وواقعه هو ما طلبه الشارع طلباً جازماً، بدليل قطعي أو ظني، غير أنَّ بعض الأصوليين يرىٰ أنَّه إذا ثبت التكليف بدليل قطعي كالكتاب والسنَّة المتواترة فهو الفرض، وإن ثبت بدليل ظني كخبر الواحد والقياس فهو الواجب، وهذا التفريق ليس اصطلاحاً علىٰ الحقيقة، بل تعريف لمسمىٰ معين، فيجب أن يكون مطابقاً للواقع، والشرع طلب طلباً جازماً بقطع النظر عن ثبوت الدليل قطعاً أو ظناً. فلا عبرة بهذا التفريق بين اللفظين، ومعنىٰ الوجوب لغة الثبوت والاستقرار، واللزوم، والسقوط." انظر:
- هلال، هيثم. **معجم مصطلح الأصول**، تحقيق: محمد التونجي، بيروت: دار الجيل، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٣٣.
وأما «كتب» فهي: بمعنىٰ حكم وقضىٰ وأوجب، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣]." انظر:
- المرجع السابق، ص٢٦٠.

فإنَّ أي شيء صادر عن الله للعبد ينبغي أن يؤخذ في أعلىٰ مراتبه ودرجاته، وخاصَّة إذا ما جاء بمثل هذه الصيغ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [العنكبوت: ٨]، فكأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يتلطَّف بالعبد بمستويات عديدة، فيأمره بالشّيء علىٰ مستوىٰ وصيَّة منه -جلّ شأنه- لعبده؛ لئلا يضيق صدره بإحساسه بوطأة التكليف، ويأمره أحياناً بلفظ الفرض «فرضناها»، وكأنَّه يريد أن ينبّه إلىٰ أنَّ هذا الأمر مقطوع به، لا بدّ له من فعله، ويجعل الإنسان يلاحظ أهميَّته من حيث كونه مقطوعاً بفرضيَّته عليه، ووجوب أدائه له، ومرة يأتيِّه بصيغة «كتب» وكأنَّه يقول له: إنَّ هذا أمر مكتوب ومقدر ودقيق، فلا ينبغي أن يتردد العبد في أدائه، ومن ثمَّ فإنَّ سائر هذه الصيغ «وصىٰ وفرض وأوجب وكتب» لا ينبغي أن يُنظر إليها -وقد صدرت من الله لعبده- علىٰ أنَّ فيها ما يمكن التساهل فيه، وإعطاؤه درجة أقل من درجة الحتميَّة والإيجاب، بل إنَّ تنوع هذه الألفاظ تلطف من الله بعباده، وتنبيه منه -جلّ شأنه- لهم لينشطوا للقيام بهذه التكاليف، وأداء هذه الواجبات، وملاحظة جوانب التكامل فيها، وموقع كل منها من الآخر، فالتكاليف كُلُّها بناء متكامل، وقد جاءت كثير من الآيات التي اشتملت علىٰ بيان فرضيَّة ووجوب أو تحريم إلهيّ مقترنة بالتوصيَّة؛ لتستثير في الإنسان كل مشاعر الخير وتستفزها إذا ما لاحظ أنَّها وصيَّة مباشرة من الله إليه بأن يفعل أو يترك، فهناك قدر مشترك بين هذه المفردات يجعل منها مفهوماً متكاملاً، وهناك قدر من الاختصاص الذي قد يوحي بمعانٍ إضافيَّة، علىٰ المعني بقضايا الأصول أن يلحظها، فلا ينزل بأي منها عن مرتبته، وقد صدرت كُلُّها عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ .

ومع ذلك فإنَّ ألفاظ القرآن الكريم بناءً علىٰ أنَّها استعمال إلهيٌّ للغة؛ ينبغي أن تميَّز دائماً عن الاستعمال البشريّ، ويلاحظ فيها نسبتها إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ .

ثالثاً: لا طاعة لمخلوق في معصية الله

ومن الفتنة أن يتصدىٰ للمؤمن -الذي يريد أن يُخْرج الناس من الظلمات إلىٰ النور بكتاب الله- أقرب الناس إليه، وأحبهم إلىٰ قلبه، بل أحياناً من هم سبب وجوده كالوالدين، فهي فتنة كبيرة أن يكون الداعية مؤمناً ويكون والداه مشركين أو يكون أبناؤه أو أحباؤه ممن ينتمون إلىٰ معسكر الكفر. وفي هذه الفتنة يفصل القرآن

المجيد فينهىٰ المؤمن أن يشرك به إذا ما واجه حالة كهذه وجاهده أبواه علىٰ أن يشرك بالله، لأنَّ الشرك ظلم عظيم، ولأنَّ الشرك نقيض الإيمان الذي يخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، ويؤدي إلىٰ البوار في الدنيا والآخرة، وفي الوقت الذي يوجب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ المؤمن أن لا يضعف أمام مجاهدة والديّه له ليكفر بالله ويشرك به، يأمره أن يصاحبهما في الدنيا معروفاً، فلا يتنكر لهما ولا يؤذيهما، ويجد المؤمن -والحالة هذه- نفسه في معادلة شديدة الصعوبة، فمن ناحيَة يجد والديه يجاهدانه ويبذلان قصارىٰ جهودهما لإلقائه في براثن الشرك، وهو مطالَب برفض الاستجابة من ناحية مع المحافظة علىٰ حسن الصحبة من ناحية أخرىٰ، وذلك أدب من آداب الفتنة شديد الصعوبة، لكنَّه واجب لا بد من القيام به والمحافظة عليه، والمرجع آنذاك إلىٰ الله -تعالىٰ- الذي ينبئ الجميع بما كانوا يعملون من خير أو شر أو صلاح أو فساد ويجازي كلًّا بعمله.

رابعاً: الدخول في زمرة الصالحين لا يتأتىٰ دون الاقتداء بهداهم

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّـٰلِحِينَ ٩ ﴾ [العنكبوت: ٩]

هنا يقرر الله -جلّ شأنه- أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات في هذه الحياة الدنيا، ولم يخضعوا إلىٰ أي ضغوط، بما في ذلك ضغوط أقرب الناس إليهم؛ سيدخلهم في الصالحين، ويعوضهم عن تلك القرابات -التي كانت تحاول أن تجتالهم عن سبيل الحق والهدىٰ والنور- عباداً لله صالحين، يكونون فيهم وينتمون إليهم.

وعبارة ﴿ فِي ٱلصَّـٰلِحِينَ ٩ ﴾ [العنكبوت: ٩] أي في زمرة الكاملين في صلاحهم، وهي دعوة سيدنا يوسف: ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ ١٠١ ﴾ [يوسف: ١٠١]، أي أدخلني في زمرة أولئك الصالحين، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠ ﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠] فهم الذين أنعم الله عليهم والذين ندعو الله عند قراءتنا للفاتحة في كل مرة أن يهدينا صراطهم ويضعنا علىٰ سبيلهم، لندخل في زمرتهم يوم القيامة. وفوائد ذكر هذا واستمرار المؤمن في ترديده

وتذكره لا تخفى؛ فإنَّها تخرجه دائماً من دائرة الإحساس بالغربة والتفرد لتجعله يشعر – باستمرار– أنَّه ينتمي لفريق وقبيل لهم كل ذلك الامتداد في البشريَّة، ويشعر بالقرابة الحقيقية التي تنأى به عن الإحساس بالروابط الهابطة التي قد تتنافى ورسالته في هذه الحياة الدنيا مثل الروابط الجاهليَّة القبائليَّة حين تتجاوز حدودها العرقيَّة والإقليميَّة وما إليها؛ فهي انتماء حقيقي إلى فسطاط الصالحين، له عائده النفسيّ على الإنسان حين يضعه نصب عينيه.

خامساً: الصمود أمام الفتن

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠-١١]

هذه الآية امتداد لقضيَّة الفتنة، وبيان لموقف بعض من يُبْتَلون بها، فهناك أناس ضعفاء لا يصمدون أمامها، وحبهم للعاجلة وتعلقهم بها قد يجعلهم يستهينون بعذاب الله، ولا يشعرون بخطورة تعرضهم له في الدار الآخرة، فيجعلون من فتنة الناس سبباً يدفعهم إلى قبول الشرك والكفر والنفاق؛ مما يؤدي بهم إلى العاقبة الوخيمة في الدار الآخرة، نسأل الله العفو والعافية.

ويخبر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بأنه عليم بالصادقين في إيمانهم، الذين لا يمكن –إذا فتنوا– أن يعتريهم ضعف يؤدي بهم إلى التنازل عن الإيمان كما يفعل المنافقون.

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، فيعلم الصادقين في إيمانهم، ويعلم الكاذبين من المنافقين.

وهذه الآية وهي في سورة مكية كأنَّها تمهِّد لفصائل من الناس سوف يواجههم المسلمون في المدينة المنورة بعد هجرتهم؛ وهم المنافقون، وفي ذلك إعداد نفسي للمؤمنين؛ ليعرفوا كيف يواجهون هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف، فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن أصابهم شيء غير ذلك انقلبوا على أعقابهم، واستهانوا بفتنة الله وعذابه، ولم يحتملوا فتنة الناس التي هي قصيرة المدى وزائلة؛ ليكسبوا رضا الله –جلّ شأنه– فكأنَّ رضا الله أهون عندهم من أن يحتملوا من أجله فتنة الناس الزائلة.

وهذة الآية تعيد إلىٰ الذاكرة ذلك الصنف الضعيف الهابط من البشر الذين ذُكروا في سورة الحج: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾[1][الحج: ١١-١٢] فهم صنف هابط وضائع تغلبت عليه خواص الطين المتعفن والحمأ المسنون فأخلد إلىٰ الأرض واتبع هواه، فلم يفهم حقيقة الدين ولا التدين، وأوهمته نفسه وشياطينه بأنَّ الدين نوع من الهوىٰ لا بدّ أن يخضعه لمصالحه، فإن حقق له مصلحة فهو دين يستحق أن يتدين به، وإن فَوَّت عليه أية مصلحة دنيويَّة أو حَرَمه من أية شهوة من شهواته، انقلب علىٰ عقبيه يلهث وراء أي شيء قد يلبي له رغباته ويحقق له ما يعده مكاسب. إنَّه يربط بين شهواته ورفاهيَّته، فدينه ديناره وإلهه هواه، لكنَّه في هذه السورة يبدو جباناً رعديداً يخشىٰ الناس أكثر من خشيته لله ويجعل فتنة الناس كعذاب الله، بل إنَّه لشدة تعلّقه بالعاجلة يخشىٰ فتنة الناس ويتنازل عن الإيمان خوفاً منها ويتغافل عن أنَّ الله- تعالىٰ- يعلم ما في قلبه من نفاق وأمراض وفساد. وتنبّه الآية الكريمة إلىٰ ضعف تفكير هؤلاء المنافقين وفساد تدبيرهم، أمَّا في آية سورة الحج (١١) فتتضح غلبة السَفه عليهم حين يضعون لصلاح الدين من عدم صلاحه مقياساً مفتعلاً، وهو ما يتوهمونه مصلحة لهم وما هو بمصلحة، وكيف يكون ما يجلب الخسران المبين -خسران الدنيا والأخرة- مصلحة؟!

---

(١) يقول سيد قطب في الظلال في تفسيره لهذه الآية "وإلىٰ أين يتّجه هذا الذي يعبد الله علىٰ حرف؟! إلىٰ أين يتجه بعيداً عن الله تعالىٰ؟! إنّه: ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾[الحج: ١٢]، يدعو صنماً أو وثناً علىٰ طريقة الجاهليَّة الأولىٰ، ويدعو شخصاً أو جهة أو مصلحة علىٰ طريقة الجاهليَّات المتناثرة في كل زمان ومكان كلّما انحرف الناس عن الاتجاه إلىٰ الله وحده، والسير علىٰ صراطه ونهجه، فما هذا كله؟ إنَّه الضلال عن المتَّجه الوحيد الذي يُجدي فيه الدعاء: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾[الحج: ١٢]، المغرق في البُعد عن الهدىٰ والاهتداء: ﴿ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ ﴾ [الحج: ١٣] من وثن أو شيطان، أو سند من بني الإنسان، وهذا كله لا يملك ضُراً ولا نفعاً، وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضرّ، وضرّه أقرب من نفعه، ﴿ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ ﴾ [الحج: ١٣] ذلك الضعيف لا سلطان له في ضرّ أو نفع، ﴿ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحج: ١٣] ذلك الذي ينشأ عنه الخسران، يستوي في ذلك المولىٰ والعشير من الأصنام والأوثان، والمولىٰ والعشير من بني الإنسان، ممن يتّخذهم بعض الناس آلهة أو أشباه آلهة في كل زمان ومكان، "انظر:

- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٨م، ج٤، ص٢٤١٣.

إنَّ سفههم وخسرانهم مُحتَّم، كيف لا وهم يدعون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، بل إن ضره أكبر من نفعه، إنَّه لبئس المولىٰ ولبئس العشير.

فهذا الصنف غير مستقرّ في إيمانه، بل هو علىٰ حرف في إيمانه، وانحراف في عقيدته، مثله كمثل الذي علىٰ طرف من جرفٍ هارٍ، مقاييس صحّة الدين أو عدم صحّته عنده هي النفع الدنيويّ الذي يُقدّمه الدِّين له، فإن تتابعت عليه المنافع الدنيويَّة قال: "هذا دين جيّد، وعليّ الاستمرار عليه" !!وإنْ أصابه شيء غير ذلك سارع للارتداد والتحوّل والانقلاب علىٰ وجهه، وبذلك يخسر الدّنيا والآخرة، فالدين والعبادة لا بدّ أن تكون خالصة لله تعالىٰ، لا تشوبها شوائب المنافع الدنيويَّة.

سادساً: استبيان سبيل المجرمين

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٢]

تنبهنا الآية إلىٰ نوع من الإغراءات، قدمها دعاة الشرك للضعفاء الذين يحاولون ضمهم إلىٰ قوافل أولئك الذين أضلوهم بغير علم، ألا وهي؛ أن يقولوا لهم: إنَّ الأصل أن لا تكون هناك آخرة ولا حساب ولا جزاء، لكن لو حدث وصادف وجود شيء من ذلك فسوف نحمل عنكم تلك الخطايا، إمعاناً منهم في السخرية والاستهزاء، ونفي البعث والحساب وإضلال المستضعفين، فيبين الله -جلّ شأنه- مدىٰ جناية هؤلاء علىٰ من يتبعونهم، وينبه إلىٰ أنَّ هذا النوع من المستكبرين لديهم من الخطايا ما يكفي لإلقائهم في النار مرات عديدة، وهم كذبة مفترون حين يزعمون أنَّهم سوف يحملون خطايا أولئك الذين يستجيبون لوساوسهم وإيحاءاتهم، فيتبعونهم في كفرهم وشركهم،(١) ويخرجون من دائرة الإيمان واتباع النبي ﷺ إلىٰ دائرة الكفر والنفاق واتباع المنافقين والضالين.

(١) قال النسفي في شرح قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٢]: لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم علىٰ خلافه، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف. انظر: - النسفي، **تفسير النسفي مدارك التأويل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٦٧.

فأولئك السادة والمستكبرون يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم، وهي أوزار الذين يضلونهم بغير علم، فما أجرأهم على الله حين تبلغ بهم رغبات الضلال والإضلال هذا المدى، فيحاولون أن يخدعوا المستضعفين ويقودوهم إلى النار بمثل ذلك الوعد الكاذب: ﴿ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ ﴾ [العنكبوت: ١٢]، ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣ ﴾ [العنكبوت: ١٣]

وتكمل الآية الكريمة أنَّهم سيحملون كفرهم وشركهم ونفاقهم ورياءهم وأثقالهم من الذنوب والمعاصي والانحرافات كلها، وهي كافية لإلقائهم في النار دون أن يُعفى أولئك الذين انخدعوا بهم واتبعوا سبيلهم من خطاياهم؛ فخطايا المستكبرين هي خطايا الدعوة إلى الضلال والعمل على إضلال الآخرين، أمَّا خطايا أولئك المستضعفين فهي الخطايا العمليَّة والسلوكيَّة التي وقعت منهم بناءً على انخداعهم بدعوى أولئك الضالين المنحرفين أو خضوعهم لها.

إنَّ هذه الآية الكريمة تنبِّه إلى ظاهرة أخرى تتلخص في أنَّ هؤلاء الذين جنّدتهم الشياطين للصد عن سبيل الله لا يتركون وسيلة تساعد الشيطان وتحقق أهدافه وأهدافهم المشتركة في الصد عن سبيل الله إلا توسّلوا بها، فهم لا يكتفون بالضغوط المختلفة التي يوجهونها إلى أولئك المستضعفين ليصدوهم عن سبيل الله وعن اتّباع سبل رسل الله بل يعدونهم الوعود الكاذبة ليزيلوا مخاوفهم من تنكُّب سبيل الهدى فيقولون لهم: ﴿ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ ﴾ [العنكبوت: ١٢] إن كنتم تظنون أنَّ مخالفتكم لسبل الرسل وعدم اتباعكم إياهم قد يسلككم في عداد الخاطئين. وهم يعلمون علم اليقين أنَّ الجزاء في الدار الآخرة فَرديٌّ، فلا أحد سيحمل خطايا أحد: ﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ٤٢ ﴾ [النجم: ٣٦-٤٢].

إنَّ طبيعة الاستعباد والاستبداد هي الاستخفاف بالمستضعفين واستحمارهم وتدمير إرادتهم ومصادرة حريَّة الاختيار لديهم واتخاذهم خولاً وعبيداً يوجهونهم

إلىٰ حيث يريدون.[١]

ولقد تسللت إلىٰ ثقافتنا الشعبيَّة هذه النزعة الطغيانيَّة المنحرفة، فصرنا إذا ما حاك في نفس أحد شيء يتطوع أحد أصحابه أو أهله ويقول: "افعل ولا عليك، الذنب أو الخطأ برقبتي" وقد يضرب علىٰ رقبته توكيداً لذلك، وقد انتشر قول العامَّة- المنحرف- تعزيزاً للتقليد: "حطها برقبة عالم واطلع منها سالم"، بينما سيدنا رسول الله ﷺ علّمنا أنَّ حكمه- نفسه- لا يجعل ما ليس بحق لأحد في الواقع ونفس الأمر حقاً له، ولا يجعل ما ليس بحلال حلالاً.[٢] فأحكام الله والجزاء في الدار الآخرة يجريان علىٰ ما هو حاصل في الواقع ونفس الأمر، لا علىٰ مستوىٰ فتوىٰ المفتي وقضاء القاضي واجتهاد المجتهد. لقد استدركت أمُّنا عائشة علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ والقراء العظام منهم أحاديث كثيرة جمعها الزركشي في كتاب "الإجابة فيما استدركته عائشة

---

(١) إنَّ تجاوز الاستبداد يحتاج لتجديد حقيقي وليس يتم بمجرد الاشتغال بأساليب المقارنة والمقاربة والتأويلات الجزئيَّة التي لن تحقق نفعاً، وكما أشرنا هناك فإنَّ وضع الأمَّة نفسه هو ما يدل علىٰ فشل هذه المقاربات التي لا تقوم بتجديد حقيقي صحيح لمنظومة الأفكار الموروثة التي أدَّت إلىٰ تفشي ظاهرة الفرديَّة والطغيان والاستبداد في أمتنا لا في الحاضر فقط؛ بل في الماضي كذلك. وقد صدر للصديق الأستاذ الأديب الشاعر زيد بن علي الوزير كتاب قيم:

- الوزير، زيد بن علي. **الفرديّة بحث في أزمة الفقه الفرديّ السياسيّ عند المسلمين**، صنعاء: مركز التراث والبحوث اليمنيّ، ٢٠٠٠م.

وأعتبر هذا الكتاب امتداداً طبيعياً لكتاب «طبائع الاستبداد» للكواكبي، يأتي بعد ما يزيد عن مائة عام علىٰ صدور كتاب الكواكبي (ضمن الأعمال الكاملة بتحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥م)، دار النفائس، ط٣، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، والكتاب صدر للمرة الأولىٰ عام ١٩٠٢م، وكتاب النائيني:

- النائيني، محمد حسين. **تنبيه الأمَّة وتنزيه الملة**، ترجمة وتحقيق: د. مشتاق الحلو، بغداد، بيروت: مركز دراسات فلسفة الدين ودار التنوير، ط١، ٢٠١٤م.

والكتاب صدر أول مرة باللغة الفارسيَّة عام ١٩٠٩م، ليجد طبائع الاستبداد لا تزال كما هي والفرديّة أكثر تغشياً وانتشاراً، والأمَّة في نوم أعمق، وإنا لله وإنا إليه راجعون. انظر مقال عن التجديد نشر لنا علىٰ موقعنا علىٰ النت في نوفمبر ٢٠١١م.

(٢) المقصود هنا هو حديث: "إنَّما أنا بشر وإنَّه يأتيني الخصم ولعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنَّه صادق فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنَّما هو قطعة من النار فليأخذها، أو ليدعها." انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأحكام، بَاب القضاء في كثير المال وقليله، حديث رقم (٧١٨٥)، ص١٣٧١.

علىٰ الصحابة."[1] وما أروع مشاهد القيامة في القرآن وهي تصور الحوارات المليئة بالدروس والعبر بين الذين استكبروا والمستضعفين وبينهم وبين الشيطان.

النَّجم الثاني: ابتلاء المرسلين: من الآية ١٤ إلىٰ الآية٥٥

إرسال نوح وعاقبة قومه:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤]

هنا تبدأ قصص الأنبياء التي تقدم كثيراً من الفوائد لرسول الله ﷺ والمؤمنين، أمَّا رسول الله ﷺ ففيها التسرية عنه، وبيان أنَّه -عليه الصلاة والسلام- سائر علىٰ ذات الطريق الذي سلكه وسار عليه سائر الأنبياء والمرسلين من قبل، وهو طريق محفوف بالمخاطر، مليء بالأشواك، جعل منه الشيطان وأتباعه طريقاً صعباً بمن اجتالوهم وأفسدوا فطرتهم من البشر، وجعلوا منهم أعداءً لله ولأنفسهم، فيبدأ بسيدنا نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ويبين لرسول الله ﷺ صبر سيدنا نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهي فترة تمثل أضعافاً مضاعفة لما لبثه رسول الله ﷺ بين قومه، وتبين أنَّ معاناته ﷺ أقل بكثير من معاناة سيدنا نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مع تلك الفترة الطويلة، ومع ذلك فقد كانت نهايتها أشد وأشق علىٰ النفس من النهايات المبشرة التي ستنتهي بها جهود رسول الله ﷺ، فنوح قال له الله -جلّ شأنه- بعد كل تلك الفترة الطويلة: ﴿ ..لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦] ونوح نموذج للصبر من أقوىٰ النماذج، فلم يقل: «يارب ما دمت تعلم أنَّه لن يؤمن منهم إلا ذلك العدد اليسير فلم تركتني أعاني هذه المعاناة معهم؟ وأطمع بهدايتهم وأنت تعلم أنَّهم لن يهتدوا» بل كان مثالاً للتسليم والاستسلام لله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأمره الله -تعالىٰ- بصناعة الفلك ليحمل فيه من آمن من أهله وقومه وما أمره الله -سبحانه- بحمله، ففعل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

(١) الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الشافعي (توفي: ٧٩٤هـ). **الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة علىٰ الصحابة**، تحقيق: محمد «بنيامين أرول»، راجعه وقدم له المحدِّث شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٤م.

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٥]

فأنجاه الله ومن حمل في سفينته، وجعل ذلك آية للعالمين؛ يأخذون منها العبر والدروس ما دامت السموات والأرض. لقد كان مَنْ أنجاه الله مع نوح وذرية من حمل الله معه كأنَّه استئنافٌ لعمليَّة الخلق والاستخلاف. فكأنَّ الله -جلّ شأنه- قد غسل بالطوفان الأرض من أولئك المفسدين وطهرها منهم ومن أرجاسهم لإعداد من نجا منهم لحالة استخلاف مستأنسة تكون أفضل مما سبقها في ألفيَّة نوح وما جاء قبلها ولتبدأ مرحلة اصطفاء من نوع جديد غير اصطفاء آدم ونوح، يقول الله -جلّ شأنه-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣]. وفي حالات الاصطفاء التي تلت الطوفان اصطفىٰ الله أُسراً وعوائل، فاصطفىٰ إبراهيم وآله وآل عمران واصطفىٰ بني إسرائيل، واصطفىٰ كثيراً من الأنبياء والرسل لما اقتضت حكمته أن لا يعذب أحداً حتىٰ يبعث إليه رسولاً؛ ولذلك فإنَّه ما من قرية ولا أمَّة إلا خلا فيها نذير. وحين اصطفىٰ إبراهيم وآله قال: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤] ولذلك فإنَّ حالات الاصطفاء استهدفت أن تجعل من أولئك الذين اصطفاهم الله نماذج من المهتدين الذين يكونون قدوة وأسوة لغيرهم من البشر، فَوَالىٰ إنزال الكتب والصحف عليهم لتوفير سبل الهداية والاستقامة وليقال للناس ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وهذه الفترة فترة الاصطفاء الأُسري والقومي -إن صح التعبير- كانت مؤقتة بأجلّ مسمىٰ هو بعثة رسول الله ﷺ برسالته العالميَّة الخاتمة التي تقوم علىٰ دعائم ختم النبوَّة وحاكميَّة الكتاب وشريعة التخفيف والرحمة ووضع الإصر والأغلال التي كانت عليهم.

سيدنا إبراهيم ودعوته قومه:

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

[العنكبوت: ١٦]

ثم تعرج السورة على أبي الأنبياء إبراهيم الذي كان رسول الله ﷺ والعرب من حوله يعرفونه ويعرفون شيئاً من تاريخه، وعلاقته بالبيت الحرام، فَذَكره الله -جلّ شأنه- لرسوله محمد ﷺ وبيّن له ما قاله لقومه وأركان دعوته، وهي بيان ضلالهم في اتخاذ الأوثان وبيان أنَّهم لن يضروا أحداً بتكذيبهم إلا أنفسهم وبيان ضرورة الإيمان بعقيدة البعث والنشور، وأنَّ من يرفض ذلك ويكذب الرسول فلن يضر إلا نفسه، أمَّا الرسل فما عليهم إلا البلاغ المبين، وخلال ذلك يدعوهم إلى التفكر في خلق الله، ويبيِّن لهم أَّنهم لا يُعْجزون الله في أرضه ولا في السماء، وأنَّه ما لهم من دون الله من ولي ولا نصير، ويحذرهم من عاقبة الكافرين وهذه الأركان المشتركة في دعوات الأنبياء والرسل كافَّة.

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧]

فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دعا قومه بمثل ما دعوت قومك يا محمد إلى نبذ الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابديها ومعظِّميها من الله شيئاً، فبيَّن لهم ها هنا أنَّ هذه الأصنام لا تملك رزقاً ولا عطاءً، فمن يبتغِ منكم الرزق والعطاء فليطلبه من الله -جلّ شأنه- رب العالمين، الذي ما من دابة إلا عليه -سبحانه- رزقها، والذي قدر في الأرض أقواتها.

﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٨]

وأنتم يا قوم محمد، ويا مشركي قريش إن كذبتم؛ فلستم أول من كذب الرسل، فهناك خلق كثير سبقوكم في ذلك التكذيب والكفر، وما ضروا الله شيئاً، ولا ضروا رسوله بشيء، فالله غني عن العالمين، ورسوله ﷺ لم يكلف بغير البلاغ، وقد بلَّغ وأنذر وأدىٰ ما عليه، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

البعث والنشور:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٩].

ثم ينتقل السياق للفت أنظار هؤلاء المنكرين للبعث والنشور والحياة بعد الموت؛ ليؤكد لهم أنَّ من بدأ الخلق قادر على إعادته بعد إماتته، وأنَّ ملاحظة ذلك كافية لإقناعهم بتلك القدرة المطلقة لله -سبحانه- فهو الذي بدأ الخلق، وهو من سيعيده، فأنَّى يؤفكون، كيف يُصرفون عن الحق، وكيف تسمح لهم أفهامهم بإنكار الخلق من القادر عليه، والذي برهن لهم على تلك القدرة المطلقة، ويفترض أن يدرك هؤلاء -لو أنَّ لهم عقولاً يفقهون بها- أنَّ إعادة الخلق أهون من إبداعه وإنشائه لا على مثال سابق، لكنَّهم لم يدركوا ذلك.

التفكُّر في خلق الله:

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٠-٢١]

فإذا لم تستطيعوا أن تدركوا قدرة الله على بعث الخلائق فأنتم أهل رحلات وضرب في الأرض؛ فسيروا في الأرض وتفكّروا مَنْ خَلقها ومن أوجدها، ومن أوجد من يعيشون عليها، لتدركوا أنَّ ذلك أمرٌ على الله يسير، وأنَّه قادر عليه، بل هو أهون عليه -جلّ شأنه- وله المثل الأعلى، وأنَّه في يوم القيامة قادر على أن يعذِّب المشركين والمجرمين، ويجازيهم بما ارتكبوه في هذه الحياة الدنيا، ويعذبهم على ما اقترفوه، وأنَّه قادر على المغفرة لأولئك الذين يؤمنون به، وعلى ربهم يتوكلون، لا يشركون بالله شيئاً، بل يوحدونه التوحيد الخالص.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٢]

وأنتم أيُّها المشركون لن تعجزوا الله -جلّ شأنه- لا في الأرض التي تحيون عليها ولا في السماء لو كان لكم سبيل للوصول إليها، وما أنتم بمعجزين، وليس لكم من دون الله ولي ولا نصير ينصركم منه، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حصر ولايته في أولئك الطائعين الذين يتولونه ويحبونه، ويهتدون بهداه ويستجيبون لرسله.

عاقبة الكافرين:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٣]

ومع كل رحمته وسَعَتِها -وقد وسعت كل شيء وسبقت غضبه- إلا أنَّ من أشركوا به ولم يستجيبوا له إذ دعاهم، ولم يؤمنوا به إذ ناداهم، فهؤلاء يئسوا من رحمة الله فلم يطلبوها، ولن يكون لهم جزاء إلا العذاب الأليم في الدار الآخرة.

موقف قوم إبراهيم من دعوته:

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٤]

إنَّ حوار إبراهيم مع قومه تظهر فيه شخصيَّة إبراهيم الباحثة في الخلق، المتتبعة للكون، التي يُفترض أن تقود قومه إلىٰ النظر في الخلق؛ لينظروا كيف بدأ الله الخلق، فيدركوا قدرته -جلّ شأنه- علىٰ أن يُنشئ النشأة الآخرة، وقدرته علىٰ إلقاء من يشركون به في النار، وتعريضهم إلىٰ العذاب الأليم، ورحمة من يشاء الله لهم الرحمة ويجعلها نصيبهم؛ لإيمانهم به، وطاعتهم له، وإيمانهم بأنَّهم سوف ينقلبون إليه -جلّ شأنه- فهم إليه يُقلبون وإليه يرجعون، لا إلىٰ طواغيتهم، ولا إلىٰ المستكبرين الذين قادوهم إلىٰ عبادة الأصنام، وأنَّهم لن يعجزوا الله -جلّ شأنه- أن يفعل ذلك فيهم، ويميز الكافرين عن غيرهم.

وبالرغم من كل ما حملته دعوة سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من أسس عقدية وتفنيد لأحاجي قد يطرحونها، بالإضافة إلىٰ طريقته الحكيمة في مخاطبتهم؛ إلا أن رد أولئك المكذبين جاء علىٰ غير ما توقعه إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إنهم بدلاً من أن يواجهوا المنطق بالمنطق والفكر بمثله كان جوابهم اقتلوه أو حرقوه، فكأنَّهم يريدون بتحريقه أو قتله حرقاً أن يبينوا له قدرتهم علىٰ إدخاله النار، نار الدنيا قبل أن يصلوا إلىٰ نار الآخرة التي تَوَعَّدهم بها، فأنجاه الله منها، وكان ذلك كافياً لأن يدركوا أنَّ لإبراهيم رباً وإلهاً قادراً، له قدرة مطلقة، وهو الذي نجّاه من النار، أمَّا هم فلا ولي لهم ولا ناصر

ينصرهم من الله، وتكون سلامة سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من النار آيةً ودليلاً على صدقه، لكن هذ النوع من الآيات والدلائل لا يستطيع أن يستفيد به إلا المؤمنون، أمَّا هم فهم أعجز من أن يستفيدوا بذلك.

ردّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على قومه:

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]

فعلى الرغم من أنهم تركوا الحوار ولجأوا إلى التهديد بالقتل أو الحرق إلا أن سيدنا إبراهيمعَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يحاول أن يستدرجهم للرجوع إلى منطقه في الحوار فيحقر آلهتهم أولاً قائلاً لهم ما الذي اتخذتموه من دون الله؟ !إنَّكم ما اتخذتم من دون الله إلا أوثاناً -جمع وثن- وهو ما يعبده المشركون مما يُتخذ من الحجر. والفرق بينه وبين الصنم؛ أنَّ الصنم ما يتخذ من حجر وغيره، فقد يكون من نحاس أو أي معدن آخر، وقد يكون من حجارة؛ فالأصنام أعمُّ من الأوثان، والأوثان أخص منها. ثم يكشف سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن الحالة النفسيَّة لأولئك المشركين من قومه، ويبيِّن لهم أهم الأسباب التي جعلتهم يتشبثون بالشرك، وهي رغبة كل منهم بعدم مخالفة عادات قومه وتقاليدهم، أو الخروج عليها، وأنَّ من أهم دوافع شرك كلٍّ منهم: أنَّه يريد أن يظهر المودة لقومه، ويتقرب إليهم، ولكن هذه المودة سوف تنقلب إلى نقمة وعذاب يوم القيامة، ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً، ولن ينفعكم آنذاك الاعتذار بأنَّكم إنَّما أشركتم للمحافظة على تلك المودة بينكم، لأنَّ يوم القيامة سيكون مصيركم إلى النار، ولن تجدوا من ينصركم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، فهي مثل قوله -تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٦٧ ﴾ [الزخرف: ٦٧]

فما هي حصيلة دعوة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لهؤلاء القوم ؟

يجيب القرآن الكريم ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ ﴾ [العنكبوت: ٢٦] ومع ذلك لم يتسلل الإحباط واليأس إلى قلب سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإنما قرر أن يسيح في الكون باحثاً عن أرض

خصبة لدعوته، ويسجّل القرآن هذه المحصلة وهذا القرار فيقول -تعالىٰ-: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ ﴾ [العنكبوت: ٢٦]

صَدَّقه لوط وقال: «إنِّي مهاجر إلىٰ ربي» حيث لم يتحول قومه إلىٰ الإيمان، ولم يؤمن به عدد يُطمعه في هداية الآخرين، ليواصل الحياة بينهم ودعوتهم، ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: ٢٦] وفي ذلك تنبيه إلىٰ حيرته الشديدة عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في قومه وهي مثل حيرته وهو ينظر في النجوم، كما في سورة الأنعام؛ حين رأىٰ كوكباً قال هذا ربي، ثم بعد جولته مع الكواكب والشمس والقمر وقناعته وإيمانه بأنَّه ليس شيء منها يصلح أن يُتخذ إلهاً، قال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: ٧٩] وهنا أعلن لقومه أنَّه مهاجر إلىٰ ربه، وكذلك المؤمن دائماً؛ كلما ادلهمت الخطوب، وتراكمت الكروب، واشتدت عليه الأزمات؛ توجه مخلصاً إلىٰ الله العزيز الحكيم.

خيرا الدنيا والآخرة:

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ ﴾ [العنكبوت: ٢٧]

ولذلك فإنَّ العزيز الحكيم الذي هاجر إليه إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قد أثابه في الدنيا، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، بأن وهب له إسحاق ويعقوب وجعل في ذريتهما النبوَّة والكتاب، ليفتح له شعاعاً من نور يتمثل في حمل هذه الذرية الممتدة لهذه الرسالة، ورفع مكانته، واتخذه خليلاً، وجعله في الآخرة من الصالحين، وبذلك فقد حاز سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ خيري الدنيا والآخرة.

لوط وقومه:

﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾ [العنكبوت: ٢٨]

وردت كلمة الفحشاء في القرآن الكريم في آيات كثيرة منها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور: ٢١] ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى: ٣٧].

والفحشاء والفاحشة هي ما عظم قبحه شرعاً وعقلاً وطبعاً من الأفعال والأقوال والتصرفات، وجمعه يدل على تعدد الأنواع التي أطلق عليها فواحش، وتنوعه إلى فواحش ظاهرة وفواحش باطنة؛ ولذلك فقد كان مستغرباً ذلك الفهم العجيب في قصر مفهوم الفاحشة على جريمة الزنا، فهذا يجعل الناس يعتادون الفواحش الأخرى ولا ينكرونها، والله يقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٣] ولله في خلقه شؤون، فأسلاف هؤلاء قد سووا بين البيع والربا، وفرق الله بينهما حين قالوا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وردّ -جلّ شأنه- عليهم بقوله: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وعجيب أن يُسقط هؤلاء الفوارق بين ما يُنظر إليه من جانب الشرع، وما ينظر إليه من جانب العرف أو العقل أو الطبع.

قوم لوط وإتيانهم الفواحش:

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وبسبب هذا المنطق في قصر مفهوم الفاحشة على جريمة الزنا اعتاد قوم لوط الفاحشة ولم يستحيوا من ارتكابها، فكانوا يأتون الفواحش كلها ما ظهر منها وما بطن، وأبرزها الفاحشة التي رفضها الشرع ونفر منها العقل وحقرها الطّبع، ألا وهي؛ إتيان الرجال شهوة من دون النساء، كما أنّهم لم يكونوا يتعففون عن أي قول فاحش، أو تصرف فاضح، أو فعل مناف لكرامة الإنسان وحيائه، وما يقوم عليه المجتمع والأسرة، وكل تلك الأمور بالنسبة لهم بعيدة عن تفكيرهم، خارجة عن

اهتماماتهم، كما كانوا يقطعون الطرق، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ولا يتعفّفون عن منكر أبداً، ولا يتردّدون في مقارفة أي منكر توحي شياطينهم إليهم به في منتدياتهم وأماكن اجتماعهم.

طلب النصر من الله:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠ ﴾ [العنكبوت: ٣٠]

فكانوا قوماً من المفسدين، ما آمن منهم مع لوط أحد ولا استهجن فواحشهم أحد منهم، فهم قد أطبقوا على الفاحشة، وتوافقوا على أقبح المنكرات، ولم يجُدِ معهم جهد لوط وطُهْره، ودعوته ونصحه، وقلَبوا سائر المقاييس والقيم، فلا غرابة أن يهلكهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بشيء يرمز إلى ما كانوا يقارفونه ألا وهو تدمير قريتهم عليهم، وجعل عاليها سافلها، وإمطارهم بحجارة من سجيل، فذلك الجزاء المناسب لهؤلاء القوم بما تمردوا عليه -سبحانه- وعصوا رسله، وتجرأوا على سائر الحرمات والشرائع.

مجيء البشارة لسيدنا إبراهيم:

﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ ﴾ [العنكبوت: ٣١].

«بشرى» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ ﴾ [هود: ٧١].

والبشرى هي الإخبار بما يَسُرّ ومن يخبر بها يسمى "بشير"، قال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦ ﴾ [يوسف: ٩٦] أي؛ الذي يحمل البشارة والخبر السَّار إلى من كان يتمناه أو ينتظره، فحمل إليه الملائكة نبأين، أحدهما بشرى له ولزوجه، وهذه البشرى قد وردت في آيات أخرى كما سبق، والآخر فيه جانبان؛ جانب يخبره بأنَّ القول قد حقَّ على قوم لوط، وأنَّ الله قد أرسل ملائكته لإهلاكهم، والجانب الآخر يبشره بنجاة لوط وأهله مما سيحل بقومه.

طَمْأَنة لوط:

﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٣]

لقد خاف من إساءة قومه إلىٰ ضيوفه، وأحزنه أنَّه لا يملك من القوة ما يُمَكنه من حمايتهم، والدفاع عنهم، فسارع ضيوفه من الملائكة إلىٰ طَمْأَنته بأنَّ قومه لن يصلوا إليه ولا إليهم، وأخبروه بأنَّهم قد حقَّ القول علىٰ قومه، وأنَّ موعدهم الصبح، وهو قريب.

عاقبة الظالمين:

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٤]

حينما يريد القرآن أن يُبيِّن ما يترتب علىٰ الانغماس في الرذائل؛ من اضطراب في الحياة الدنيا، وسوء العاقبة في الآخرة؛ يذكر الرجز، فكأنَّه يذكر عاقبة الفعل ليستدعي العقل المتدبر للفعل نفسه، المؤدي لتلك النتيجة التي سماها رجزاً،[1] فأنزل الله عليهم هذا الرِّجْز من السماء بكل ما فيه، وما يسببه جزاءً وفاقاً لـمَا كانوا يُقَارِفُونَه من جرائم إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ومقارفة المنكر بأنواعه في نواديهم، وقطع الطرق، وإيذاء الناس، والاعتداء عليهم في أموالهم وأنفسهم، ورفضهم لرسالة لوط وما جاء به، واستكبارهم علىٰ الاستجابة له، فاستحقوا بذلك هذا العذاب الأليم.

(١) جاءت كلمة الرُّجْزَ بالضم في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾ [المدثر: ٥]، وأمر الله -جلّ شأنه- رسوله ﷺ بأن يهجر الرُّجْز، لينبه إلىٰ أنَّه -عليه الصلاة والسلام- قد أُمر بهجر كل ما يمكن أن يؤدي إلىٰ الرجز، وكأنَّ الأفعال المتنوعة، والأقوال التي تؤدي إلىٰ ذلك الاضطراب الذي سمي رِجْزاً يمكن أن يقال عنها: رُجز، كما أنَّها رِجْس ورِجْز، فما ورد في رِجْس انصرف إلىٰ القول أو الفعل الذي قد يقع من الإنسان، بل قد يتصف الإنسان به، فإذا ضم؛ أريد به الأشياء والأعيان التي يجب هجرها لئلا يقع الإنسان في رِجْسٍ يقوده إلىٰ الرِّجْز، وتقول العرب للشِّعرِ الخفيف، الذي يستعمل لحداء الإبل، أو التسرية عن الأطفال: رَجَز، ويقال لواحده من القائد: «أُرْجُوزَة» لأنَّ فيه معنىٰ التقلب والاضطراب، إذا لوحظت بحور الشعر الأخرىٰ. والله أعلم.

تفكَّروا يا أولي الألباب:

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٥]

ولقد بقيت تلك القرية التي أُمْطرت مطر السَّوء آيةً للناس لئلا يكرروا تلك الأفعال، ولئلا يسلكوا السُّبل نفسها، لكن لا يمكن للكافرين والمنافقين أن يأخذوا تلك الدروس ويستوعبوها وهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا يؤمنون بوجود الله، ويتخذون الأصنام والأوثان آلهة، ولذلك فقد قال -جلّ شأنه-: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٠]

إرسال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٦]

أُطلقت مدين على اسم ولد من نسل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وذلك ما ورد في التوارة، ثم أطلقت على القبيلة التي نُسبت إليه وانتشرت من ذريته، كما أُطلقت على مساكنهم التي امتدت ما بين طور سيناء إلى نهر الفرات، كما أنَّ قصة سيدنا موسى بعد فراره من مصر بعد حادثة قتل القبطي ارتبطت بوصوله إلى مدين، وعمله لدى الشيخ الكبير، وزواجه بابنته، هؤلاء هم الذين أُرسل إليهم شعيب، يدعوهم إلى عبادة الله -وحده- وعدم إشراك غيره معه في العبادة، لأنَّه المتفرِّد بالألوهيَّة والربوبيَّة والصفات، ونلحظ أنَّه قد جعل العبادة فرعاً عن التوحيد، ليس ذلك فحسب، ولكنَّه دعى قومه إلى خصال كثيرة استند فيها إلى التوحيد، منها نهيه لقومه أن يعثوا في الأرض مفسدين، وهو نهي عام شامل يتناول كل ما يمكن وصفه بالفساد والإفساد بجميع مستوياته، وفي بعض الأحيان يدخل شعيب ببعض التفاصيل فينهاهم عن أن يبتغوا اعوجاجاً، أي؛ انحرافاً وميلاً عن الحق والصواب في تلاوتهم لآيات الله، أو استقبالهم لها، وهذا أمر يغاير ما نُسب لأهل الكتاب من تحريف الكلم عن مواضعه، وقد يتفق مع قوله تعالى: ﴿ لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ [النساء: ٤٦]، فهل كان قوم شعيب يبغون العوج في الكتاب بطريق اللَيِّ بألسنتهم والطعن في الدين؟!

وفي سورة الأعراف ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٥] نجده يتعرض إلىٰ فريضة الإيفاء بالكيل والميزان، وينهىٰ قومه عن أن يبخسوا الناس أشياءهم، وعن أن يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وينهاهم عن أن يقعدوا بكل صراط يقطعون الطريق، ويخيفون الناس، ويهددونهم ويصدونهم عن سبيل الله حين يعلمون منهم الإقبال علىٰ الإيمان به، ويبغونها عوجاً، أي يريدون بها الاعوجاج سواء بطريق التحريف أو اللَيِّ بألسنتهم والطعن في الدين، أو أيَّة وسيلة أخرىٰ تجعل آيات الله المنزلة معوجة في نظر الناس، لينفروهم منها، وليباعدوا بينهم وبينها وهم شهداء علىٰ أنَّها لا عِوَجَ فيها ولا أمْتاً.

فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لم يجعل في آياته عوجاً -كما ذكر في سورة الكهف-، لأنَّ آيات الله التي أنزلت إلىٰ سائر أنبيائه ورسله آيات قويمة مستقيمة، هادية مهتدية، لا تميل عن الحق، ولا تسمح بالإفساد في الأرض، ولا تقبل ميلاً أو اعوجاجاً في سلوك الناس أو في علاقاتهم، فذلك كله مما جاءت رسالات الله لمقاومته لا لتعزيزه.

وقد وُوجه شعيب بمثل ما وُوجه به الأنبياء من قبله ومن بعده، بالتهديد بالطرد والنفي ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وفي ذلك إشارة إلىٰ أنَّ الملأ المتحكِّم في أي بلد حين ينحرف عن آيات الله، وينصرف عنها، يشعر بامتلاكه للأرض، وامتلاكه لإرادة البشر الذين يعيشون عليها، وامتلاكه لحق السماح أو عدم السماح لهم بالمعتقد أو السلوك، كما يستشعر أولئك غروراً وطغياناً بأنَّهم هم الذين يمتلكون الوطن، ومن حق المواطنة فيه نفي أو سجن من يخالف إرادتهم أو يتمرد عليهم، حتىٰ لو كانوا علىٰ الباطل والفساد والاعوجاج والانحراف. وذِكْرُ هؤلاء الرسل الكرام وبيان أنَّهم قد كُذِّبوا من أهم أهدافه التسرية عن رسول الله ﷺ.

وقوله -جلّ شأنه-: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٦]

إنَّما يعني نهيهم عن أن يقيموا علىٰ العَثْو في الأرض فساداً حتىٰ يصبح الفساد

وكأنَّه صفة لازمة لهم لاصقة فيهم، فالعَثْو والإفساد في الأرض حين يداوم عليه العاصي والمنحرف والكافر ولا يتوب عنه من قريب يتحول إلىٰ صفة لازمة له، وحينما تكون المفاسد صفتهم ولباسهم ورداءهم فإنَّهم لا علاج لهم- آنذاك- إلا إهلاكهم جميعاً، كما اشتركوا في العَثْو وصاروا مفسدين كلهم.

إهلاك المكذبين لرسول الله:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٧]

وهؤلاء أخذتهم الرجفة، والرجفة زلزلة شديدة مهلكة؛ ولذلك فإنَّ الزلازل حين تنتشر أو تكثر فإنَّ أهل الإيمان لا يقتصرون علىٰ التفسير العلمي المجرد لها، بل لا بد لهم من الاتعاظ بها، وتحويلها إلىٰ درس فيتذكرون قصص الأمم التي أهلكت بهذه الزلازل، فحين يقع زلزال ونتحدث عن مقاييسه بمقياس «رختر» أو سواه فلا يكفي أن نفسّر ذلك علميّاً لأخذ الدرس ولمعرفة قدرة الله -جلّ شأنه- وعظمته وهو يتصرف في كونه هذا، الذي تفرَّد بخلقه وتدبيره، بل تكتمل العبرة والعظة بتذكر الأقوام الذين أهلكوا بمثل هذه الوسيلة، وعلينا الضراعة إلىٰ الله -جلّ شأنه- بأن لا يجعل مصيرنا مثل مصيرهم.

فهم قد أصبحوا في ديارهم هلكىٰ، جاثين علىٰ ركبهم أمواتاً، وفي ذلك إشارة لرسول الله ﷺ إلىٰ أنَّ القدرة المطلقة لرب العالمين يمكن أن تقضي علىٰ هؤلاء الذين يصدون عن القرآن وعنك، ويبغون العوج في آيات الله، ويفسدون في الأرض من مشركي قريش هم في قبضة الله -جلّ شأنه- لو شاء أهلكهم بالرجفة أو غيرها، وحينما يقول الله لرُسله ذلك، يشد من عزائمهم، ويقوي معنوياتهم، ويشعرهم بالشرف الذي أولاه الله لهم حين كلفهم بإصلاح ما أفسد الناس، ودعوة الناس إلىٰ صراطه المستقيم، وهدايتهم بآياته وأنبيائه ورسله إلىٰ سواء السبيل.

وفيه إشارة إلىٰ أولئك الأنبياء المصطفين الأخيار، بأنَّهم يأوون إلىٰ ركن شديد، وأنَّ الله الذي أرسلهم ومَنَّ عليهم باصطفائه، وفضلهم برسالته، قادر علىٰ إكراه مخالفيهم علىٰ الهداية لو شاء، ولولا أنَّ كلمته قد سبقت بجعل هذا الإنسان حراً

مختاراً، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لأكره الجميع علىٰ الهداية، أمَّا الأنبياء أنفسهم فما عليهم إلا البلاغ، ليسوا بمسيطرين، ولا يليق بهم أن يكونوا جبابرة، بل هم هداة ودعاة، يستجيب لهم من يستجيب بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ويرفض من يرفض غير متجاوز لقدرة الله أو متنقص منها.

قوم هود وقوم صالح:

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]

«عاد» هم قوم «هود» كما جاء في سورة هود: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [هود: ٦٠]، ولم يذكر الله -جلّ شأنه- في هذه السورة مجادلة هود لقومه هؤلاء، لكنَّها وردت في سورة الأعراف حيث قال لهم هود: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٥] فكان جوابهم في منتهىٰ الكبر الغبي، والاستعلاء المستكبر، علىٰ لسان الملأ أو النخبة الكافرة من قومه: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٦] فنفىٰ عن نفسه السفاهة، وأكد علىٰ كونه رسولاً من رب العالمين، يبلغ رسالات ربه، وأنَّه الناصح الأمين لقومه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٞ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٖ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةٗۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٖ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٢ – ٦٩] وليختصر الطريق علىٰ تلك النخبة الباغيَّة الطاغيَّة، فقد أخبرهم بأنَّ سبب رفضهم له كونه رجلاً منهم، جاء لينذرهم ويذكرهم بنعم الله عليهم، وكيف استنقذهم الله -تعالىٰ- من الطوفان، وجعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح، وزادهم في الخلق بسطة، وسعة في الملك، وقوة في الأبدان، وقد ورد أنَّ القوم

كانوا طوالاً، أطول من في العالم من رجال، وأقوياء في أبدانهم وأجسامهم.

وجادلوه في أسماء أصنامهم التي لم ينزل الله بها من سلطان، وحين توضع السلاسل في أعناقهم يوم القيامة ويسحبون بها إلى النار؛ سوف يتنكرون لهذه الأصنام ولأسمائها؛ وحين يسألون عنها: ﴿...أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [غافر: ٧٣-٧٤] وفي سورة هود يتكرر الجدل بين هود وقومه عاد ولا ينتهي بأي اتفاق، ويعلن هود يأسه منهم فيقول: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: ٥٧] فلما جاء أمر الله بإهلاكهم نجَّى عبده ورسوله هوداً والفئة القليلة التي آمنت معه من جائحة الهلاك، وهي الرجفة، ومن عذاب يوم القيامة.

وفي قصة هود مع قومه -كما جاءت في سورة هود- أنَّهم في الوقت الذي عصوه فيه اتبعوا أمر كل جبار عنيد، فكأنَّ خيار الأمم منحصر إمَّا باتباع الرسل، وإمَّا بهيمنة الجبابرة والعتاة والمستبدين عليهم.

وأمَّا «ثمود» فهم قوم كانوا في شبه جزيرة العرب، قال -تعالى-: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩] أرسل الله إليهم رسوله صالحاً، وطلبوا الآيات فأعطاهم الآية، وهي الناقة، وأمرهم أن يتركوها وشأنها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء، فهي آية طلبوها، وذكرهم صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنَّ الله قد جعلهم خلفاء من بعد عاد، وبوأهم في الأرض، ومكَّنهم من

بناء ما يمكن تسميته حضارة متميزة، فقد تعلّموا كيف يختارون من بقاع سهول الأرض أماكن يبنون قصورهم فيها، وينحتون في داخل الجبال بيوتاً كذلك، فكأنَّ لهم مشاتي ومصايف، وكأنَّ لهم بيوتاً مألوفة، وبيوتاً متميزة يصعب على مهاجميهم اختراقها، أو النيل منهم وهم فيها، فذكرهم صالح بنعم الله -تعالىٰ- عليهم، وبهذه الرفاهيَّة التي مَنَّ الله عليهم بها، واستجابته لهم حين طلبوا الآية، وأنَّ ذلك كلّه من المفروض أن يمنعهم من السقوط في جريمة الإفساد في الأرض والعَثْو فيها.

ويتصدىٰ الملأ النخبة وأصحاب النفوذ لنبي الله صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، ويتصدرون الأكثريَّة الصامتة من المستضعفين؛ ليقولوا لصالح ومن آمن معه ﴿ ...إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٦-٧٧]، وظنُّوا أنَّهم قادرون وسابقون، وما يسبق أمر الله أحد، فجلسوا في كبريائهم وغرورهم يسخرون بصالح والمؤمنين معه، ويقولون له: ﴿ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٧] فأخذتهم الرجفة مثل قوم عاد، فأصبحوا في دارهم جاثمين، فتولىٰ صالح عنهم وهو في أسىٰ وأسف قائلاً: ﴿ ... يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٩].

المنهج القرآنيّ في دراسة آثار الأمم السابقة:

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]

وقد تركت مساكنهم وما تزال قائمة، خاصَّة المساكن المنحوتة في الجبال، وما تزال تُعرف بمدائن صالح، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول لقوم محمد ﷺ: ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٣٨] ويُفترض أن تعتبروا وتدركوا أنَّ من يفسد في الأرض بعد إصلاحها، ويتمرّد علىٰ الله وعلىٰ ما جاء به رُسله، ويتّبع الشيطان وما يزين به إليه؛ فإنَّه هالك لا محالة، ولن يغني عنه من الله شيءٌ.

وهنا نستطيع أن نرىٰ إلىٰ أي مدىٰ غفل المسلمون عن بعض التوجيهات القرآنيَّة، فلم يبنوا عليها، ولم يستفيدوا بها، أو يحسنوا فهمها وتوظيفها، فما من بلد من بلاد المسلمين إلا وفيها آثار مختلفة، ووزارات أو إدارات ثقافة وآثار، تتجه في

كثير من الأحيان إلىٰ عكس الاتجاه المطلوب قرآنيًّا، فالقرآن يوجهنا لدراسة الآثار دراسة المعتبر الباحث عن الدروس والعبر، لنستخلص من رؤية تلك الآثار أسباب قيام الحضارات وعوامل انحرافها، وأسباب انهيارها عندما تنهار؛ لنتجنب السقوط فيما سقطوا فيه، أو الهلاك بما أهلكوا به، ومن المؤسف أنَّ إدارات الآثار والثقافات تحفظ الآثار وتصونها لتبيِّن عظمة أولئك الكافرين الذين أهلكهم الله، ولكنَّها تتجاهل أسباب هلاكهم، ولا تربط ذلك بتاريخ رُسلهم، ولا بمصادر هدايتهم وعوامل انحرافاتهم، وآثار تلك النخب في تلك الانحرافات، وقد كان من الممكن أن تكون تلك الآثار الغنيَّة الكثيرة في بلادنا من وسائل الدعوة إلىٰ الله، والهداية إلىٰ سبيله، وتذكير الناس بالقيم التي جاء بها المرسلون، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، كما أنَّ البعض قد ظن نتيجة ذلك الفهم الخاطئ المنحرف عن القرآن لوظائف الآثار وفوائدها؛ أنَّ ذلك قد يصرف الناس عن التوحيد، فدعا إلىٰ تحطيم كل تلك الآثار، وهو فهم خاطئ كذلك، وكان الواجب أن تفهم وظائف الآثار في حياة الأمم في إطار هداية القرآن المجيد، لتكون وسيلة استبصار وتمييز للحق من الباطل، ولكن الذين لا يعلمون إلا القشور، لا يستطيعون أن يعلموا كثيراً عن آيات الآفاق وآيات الأنفس، وكيفيَّة جعلها وسائل هداية واستبصار وفهم ووعي.

موسىٰ وقومه:

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَـٰمَـٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾ [العنكبوت: ٣٩].

ثم ينتقل السياق إلىٰ ذكر هامان وزير فرعون الذي تقدم ذكره في سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: ٣٨] حين أمره فرعون أن يبني له صرحاً ليصل به -حسب ظنِّه المريض- إلىٰ إله موسىٰ وقارون الذي جاء ذكره أيضاً في السورة نفسها: ﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: ٧٦] وقد ذكر أنَّ قارون كان من أقارب موسىٰ، وإشارة القرآن

الحكيم المعجزة أنَّه كان من قومه، أمَّا بعد ذلك أن يكون من أقاربه أو من الأبعدين فذلك لا يهم كثيراً في الدروس المستخلصة.

فهامان أطغاه السلطان وقُربه من فرعون، وأمَّا قارون فقد بغىٰ بالكنوز والأموال الطائلة التي مكَّنه الله -تعالىٰ- منها فأصابه الغرور، وفي ذكرهما تذكير بالانحرافات وعوامل الاستبداد والطغيان التي يمكن أن تصيب الإنسان نتيجة تسلطه علىٰ المال أو تخويله السلطة المطلقة، وأياً كانت أسباب الطغيان فإنَّها تعود إلىٰ الغرور والشعور باستغناء الطاغية عن كل من عداه، واحتياج كل من عداه إليه: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ٦-٧] وهذا الشعور بالاستغناء يكون عن اغترار بالمال أو بالجاه أو بهما معاً، وبعد الشعور بالاستغناء يأتي الإعراض والاستبداد، فالمستبد حين يستبد يرىٰ الناس جميعاً في حاجة إليه، ويرىٰ نفسه في غنىٰ عنهم؛ ولذلك فإنَّه يطغىٰ ويتعالىٰ ويستكبر ويرىٰ أنَّ كل من حوله دونه وأنَّه أعلىٰ وأغلىٰ وأعز، فقارون وفرعون وهامان كل هؤلاء لم يستمعوا لآيات الله التي حملها إليهم موسىٰ، فاغترّ قارون بماله، واغترّ فرعون بجنوده وملكه، واغترّ هامان بسلطانه وقربه من فرعون ومشاركته له في جاهه، فاستكبر هؤلاء كلّهم عن اتّباع موسىٰ أو طاعته أو الاستماع إليه: ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

المنهج القرآنيّ في جزاء الظالمين:

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]

فبعد التمادي في الاستعلاء علىٰ البشر الذين يماثلونه ويشابهونه في كل شيء إلا فيما خوَّله الله له من سلطان، والاستعلاء علىٰ الخلق والاستغناء عنهم، يستعلي ذلك الإنسان الضعيف علىٰ خالقه -جلّ شأنه- مع أنه ليس في متناول إدراكه، فلا يدركه بالبصر ولا يستمع إليه بشكل مباشر، ولا يراه إلا من بعد أن يأذن الله ويرضىٰ في

يوم الدين، فيظن واهماً أنَّه يستطيع أن يسابق الله ويسبقه، فيفلت من عذابه، وأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لن يتمكن حسب زعم هؤلاء منهم، ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٩] إنهم لن يسبقوا الله بقول ولا بعمل، ولن يفلتوا من عذابه -جلّ شأنه- وكل من هؤلاء سيأخذه الله بذنبه، فهناك من يرسل عليه حاصباً، وهي عبارة عن حصيات صغيرة لكنَّها تحملها الريح بقوة وبعاصفة فتتحول إلىٰ حصيات مهلكة قاتلة علىٰ صغرها، وهناك من تأخذه الصيحة، مثل قوم ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحاً، وقوم هود الذين أخذتهم الرجفة، قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [الحاقة: ٥] أي الصاعقة: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الحاقة: ٦] ومنهم من خسف به الأرض مثل قارون ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٨١] وأمَّا قوم فرعون فقد أغرقهم الله وأخذهم أخذة رابية (أي زائدة في الشدة) قال تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾ [الحاقة: ٩-١٠].

وهذا يعني أنَّ ما يحدث في الكون من أمور لا بد من أن ينظر إليه من جوانب عديدة فلا يكفي -كما أسلفنا- التفسير العلمي أو التنبؤ بوقوع شيء، فهذه كلها أمور تحتاج إلىٰ دراسات يفترض أن لا تغيب عن أذهان العلماء والدعاة، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وبصائرهم، وما نوَّع الله في عذاب هؤلاء ووسائل إهلاكهم إلا لإفادة الدروس والعبر التي علىٰ الأمم الخالفة لهؤلاء والآتية بعدهم أن تستفيدها، وذلك بالعلم المتعمق الذي يتجاوز ظواهر الحياة الدنيا ويربط بين الدنيا والآخرة، وبين عالمي الغيب والشهادة، وبين الآفاق والأنفس، ويستفيد بذلك كلّه ليقدم للإنسان دروساً وعبراً وعظات تباعد بينه وبين الشيطان وسبل الشيطان وتأخذ بيديه إلىٰ الصراط المستقيم.

فهل في ذلك ظلم لهؤلاء؟

الحقيقة أنَّ الناس يظلمون أنفسهم، والآن كل الفساد الذي لحق بالبيئة وظهر في البر والبحر والجو وفي مجاهل الغابات وأعماق المحيطات كله راجع إلىٰ أنَّ الحضارة المعاصرة قد انحرفت في فهمها للطبيعة وعلاقة الإنسان بها وعلاقتها

بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، فلم تفهم هذه الحضارة ذات العين الواحدة علاقات التفاعل بين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وعالم غيبه وأمره، وبين الإنسان ابن الأرض وابن الطبيعة وبين الطبيعة ذاتها: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه: ٥٥].

فالإنسان مثلما انحرف عن هداية الله في ظل هذه الحضارة، فتوهم أنَّه هو مركز الكون وخالقه، وأنَّ له أن يستبد في سلوكه ونظم حياته بعيداً عن الله -جلّ شأنه- وعن هدايته، انحرف في سلوكه مع الطبيعة، فتوهم أنَّ العلاقة بها علاقة صراع، فأخذ يصارعها ويحاول تدميرها ناظراً إليها علىٰ أنَّها عدوّه وليست أُمّه التي كان عليه أن يتعامل معها برفق. وهنا تبدو لنا عظمة الإسلام؛ فالشجرة المثمرة يعلمنا الإسلام احترامها والمحافظة عليها، حتىٰ في الحالات الاستثنائيَّة، حالات القتال والحروب والصراع يُنهىٰ عن قطع الأشجار المثمرة، وعن استهداف العناصر التي لا علاقة لها بالقتال، كتلويث المياه، فالحروب لا ينبغي أن تستهدف إلا تحقيق العدل، ولن تكون عادلة إلا إذا حُصرت في العناصر المحاربة وأسلحتها وما يخصها. أمَّا استهداف المدنيين وغير المقاتلين وتخريب الطرق والجسور وتلويث المياه، فهو تدمير وتخريب يخرج الحروب -حتىٰ لو كانت أهدافها وغاياتها سامية- عن طريق العدل ليجعل منها حرباً ظالمة غير عادلة. وذلك ما خسرته البشريَّة حينما حاصرت الإسلام وقيمه ولم تستطع أن تستفيد مما جاء فيه لعلها تدخل في السلم كافَّة، ونحن لا نلوم العالم الآخر وحده علىٰ هذا الانحراف، بل يجب أن نلوم أنفسنا حينما استبدلنا بالدعوة الفتح، وما تزال البلدان التي دخلت الإسلام بالدعوة لا بالفتح تعتبر أقرب إلىٰ الإسلام وأعمق وأشد التصاقاً به من تلك التي دخلت بعمليَّات فتح وغزو، والمتتبع للجغرافيا والتاريخ الإسلاميّ يجد مصداق ذلك في نماذج كثيرة، ومعظم ما دار من صراعات حتىٰ بعد انحراف من انحرف من ولاة الأمور وغيرهم يجد مدىٰ حرص من دخل الإسلام في أيام الملتزمين به من القادة العظام أمثال أبي بكر وعمر وعلىٰ وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين وأمثالهم، ومدىٰ انحراف من انحرف عن ذلك الهدي في عهود من ظنوا أنَّ الخلافة الإسلاميَّة مثل غيرها تريد علوّاً في الأرض، وهي لم تكن تريد من ذلك شيئا، وما كان لها وما ينبغي أن يكون، بل كانت تعمل علىٰ إعلاء كلمة الله لا إعلاء كلمة بشر أياً كان.

كثر الحديث بين الهيئات الدينيَّة والسياسيَّة وقادة الرأي وقيادات المجتمعات المختلفة عن الحروب العادلة والحروب الظالمة، وأنَّ الحروب الظالمة يجب علىٰ البشريَّة أن تُكثِّف جهودها وتتضافر شعوبها علىٰ محاربتها ومنعها، لكنَّ تلك الهيئات حينما تأتي إلىٰ محاولة تعريف الحرب العادلة أو بيان الاختلاف بينها وبين الظالمة، تضطرب تعريفاتها وأقوالها اضطراباً شديداً، وتعجز تماماً عن إعطاء تعريف مقنع، وقد عجزت الإنسانيَّة المعاصرة عن وضع حد للحروب الصغيرة منها والكبيرة، كما عجزت عن وقف سباق التسلُّح أو صناعة الأسلحة الفتاكة، وما زلنا نرىٰ مصانع الأسلحة تفاجئنا كل يوم بجديد أشد فتكاً وأكثر تدميراً.

وتنفق الدول ثرواتها علىٰ التسلح، وقد تتقبل أن تترك طوائف عديدة من أبنائها تحت خط الفقر، أو تتمرغ بالجوع والعري وأوحال الأمراض، وتُحرم من الأدوية؛ لتوفير المال للسلاح والتسلح بأسلحة تجعل تطوراتها السريعة من كل سلاح يصدر قبل أشهر أو أسابيع فضلاً عن سنوات سلاًحا لا يساوي إلا ثمن الحديد والمواد التي فيه، لأنَّ الأسلحة الأحدث والأكثر تطوراً تجعله عديم الفائدة في مواجهة أعدائها. أعلنت البشريَّة عن رغبتها في سيادة السلام، وحاولت الماركسية أن تقدم نفسها علاجاً لمشاكل الصراع الكامنة في الفكر الرأسمالي والمتفشية في الفكر الغربي بكل جوانبه، ثم وجدت نفسها تنادي بصراع الطبقات وتدخل في حروب كثيرة مثلما دخلها الآخرون وقد تزيد. وكل بلد من البلدان الكبرىٰ والدول المتسلطة يحاول أن يدافع عن حروبه وعمليَّات سيطرته علىٰ الضعفاء بمختلف الأسباب ويدعي أنَّ حربه عادلة وأنَّها كانت ضروريَّة. فأمريكا فعلت ذلك في حروبها كلّها، وكذلك فعل الاتحاد السوفيتي السابق وفعلتها أوروبا وما زالت الأرض عطشىٰ للسلام.

فهل هناك حرب عادلة في هذا الزمن خاصَّة؟

الحق أنَّ الأسلحة المتطورة -التي لم يعد بإمكان أصحابها أن يوجهوها نحو الأهداف الحربيَّة وحدها- لم تعد تسمح بأي نوع من أنواع الحروب العادلة. فأسلحة الدمار الشامل بمستوياتها المختلفة تقضي علىٰ الأخضر واليابس، والمسالم والمحارب، والطفل والشيخ، والجندي المقاتل، وتهلك الحرث والنسل. والأسلحة المختزنة اليوم

أصبحت لعنة على الأرض وأهلها قادرة على تدمير الكرة الأرضيَّة كلّها ست مرات أو تزيد، والعاملون في الحقول السياسية والذين يتصدون لقيادة الشعوب معظمهم مرضى بجنون العظمة والاستعلاء والطغيان، سواء أكانت الدوافع وطنيَّة أم قوميَّة أم إقليميَّة أم مذهبيَّة أم أية دوافع أخرى. وحين نتأمل في ذلك نجد أنَّ ما دعت إليه الكتب المنزلة والأنبياء والمرسلون من قيام السلام على الأرض والمحبة بين الناس أصبح بعيد المنال، متعذر التحقق في ظل قيادات قام فكرها وفلسفتها وحضارتها على أفكار مريضة كأفكار الصراع والبقاء للأصلح (أي الأقوى)، والعيش للأغنياء والشركات العابرة للقارات مع استباحة البحار والأنهار والصحاري لدفن النفايات المدمرة للإنسان والحيوان والنبات والطبيعة. فلم يبقَ للبشريَّة من وسيلة لتحقيق السلام إلا أن ترفض الحروب كافَّة بكل أنواعها، بقطع النظر عن من ينشئها، أو من الذي يذهب ضحيتها، وتعمل على إيجاد المؤسَّسات والوسائل الكفيلة باحتواء جميع أسباب الصراع في العالم قبل استفحالها وبلوغ مستوى التصادم. وهذا الأمر لا نجده إلا في كتاب الله -تعالى- الذي أكَّد على وحدة الأرض كلّها، فقد خلقها الله لتكون بيتاً آمناً للإنسان، يولد عليها ثم يعيش عليها ما شاء الله له أن يعيش، ثم قدّر له فيها أقوات الحياة: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] ولو أنَّ الناس آمنوا أنَّهم أسرة ممتدة، قد خُلِقُوْا من نفس واحدة، وخلق اللهُ منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وما جُعلوا شعوباً وقبائل وأمماً: إلا ليتعارفوا، ويتآلفوا، ويتعاونوا، ويعمروا الأرض، ويستثمروها، ويقيموا الحق والعدل فيها.

والقرآن كتاب كونيٌّ، يستطيع أن يُوجِد هذا الوعي، ويبنيه في عقول الناس وقلوبهم آنذاك: لا يستحيل على البشريَّة أن تشق طريقها لبناء عالم واحد يكون بيتاً للإنسان يستطيع الإنسان أن يشبع حاجته بكل ما فيه إذا توافر الحق والأمن وانتفى البغي والحسد وحب الأثرة والاستعلاء، فآنذاك يمكن أن يظهر الهدى والحق، وتأتلف البشريَّة على قيم مشتركة تساعدها على الوعي بذاتها ومعرفة كل إنسان لما له وما عليه، فتشرق الأرض بنور ربها وتعمّ المحبة الناس ويعم الأرض السلام. كما أن الخطاب القرآنيّ يرفض أن يتخذ الناس بعضهم بعضاً آلهة والآخرين عبيداً مسخرين؛ فالألوهيَّة منحصرة في الله وحده وكل البشر أمامه سواء، أكرمهم عند الله أتقاهم.

والذي حملنا على الإسهاب في التعليق: أنَّ العالم يعيش اليوم تحت تهديد عدد قليل من الدول المستعلية المستكبرة؛ التي لا تتردد في إبادة أي شعب، يستهدفه الشيطان، ويدفعها لمهاجمته، وقد رأينا كثيراً من حروب الإبادات الجماعيَّة من بعض تلك الدول.

ضرب الأمثال في القرآن:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٢]

إنَّ الأمثال وعاء حكمة الأمم، وخزائن تجاربها، ووسيلة من أهم وسائل حفظ تلك التجارب والحِكم، وتناقلها بين الأجيال، وهي قبل ذلك، وبعده: من أدق أساليب التعبير، وأوجزها، وأبلغها؛ تأثيراً في النفوس، ولذلك يقول -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦] وحين تقصر -في غير القرآن- أساليب التعبير الأخرىٰ عن استيعاب مراد المتكلم، أو يضيق إدراك المخاطب عن فهم المراد منه، فإن ضرب المثل يجعل ذلك كلّه سهلاً مُيَسراً، مع إيجاز اللفظ، وإصابة المعنىٰ، وحسن التشبيه.

إن أمثال القرآن العظيم مظهر من أهم مظاهر بلاغته وإعجازه، ودقة تصويره الفني، وسحر أسلوبه، فهي قد سحرتِ العربَ -مؤمنهم وكافرهم- وبانتْ حلاوتها، وظهرتْ طلاوتها؛ لعامتهم وخاصتهم، وبان تأثيرها فيهم أجمعين.(١)

والأمثال القرآنية تمثل عِلماً من علوم القرآن المهمة، وبحثاً لم يُغفله أحد من المفسرين، أو البلاغيين، أو الكاتبين في علوم القرآن، ولكنهم قلّ أن يتناولوها بشكل شمولي؛ يبرز صور الإعجاز الجمالي الفني فيها، مع إصابة المعنىٰ الموضوعي بأتمّ شكل وأكمل وجه، وبعض أمثال القرآن تجسّد النموذج وتشخصّه بحيث ننظر إليه وكأنه ماثل أمامنا شخصاً وعملاً وسلوكاً وأخلاقاً وتصرّفات، فتشهد أقبح إنسان وأسوأ عمل، وأردأ سلوك يمكن أن يصدر عن إنسان، وأسوأ مصير يمكن

(١) للاستزادة حول رؤيتنا للأمثال ومنهجية التعامل معها يُرجىٰ الرجوع إلىٰ تفسيرنا سورة البقرة.

أن يصير إليه، فلا تملك إلا أن تفرّ بنفسك وبدينك من مشابهته ومماثلته، واقرأ إن شئت: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١٠-١١] ففي هذين المثلين يضرب الله -تعالىٰ- مثلاً للكفر والخيانة في بيتي نبوة، والإيمان والتقىٰ والطهر في بيت كفر. فشخصية المرأة مستقلة، وهي مكلَّفة مسؤولة، لها ثواب ما تفعل، وعليها جزاء ما ترتكب، وأمام كل امرأة في الدنيا يضرب القرآن العظيم هذين النموذجين: مَثَلُ المرأة التي لا يستطيع الكفر كله أن يصدّها عن الإيمان، ولا تحملها كنوز الفراعنة وقصورهم علىٰ الانتساب إليهم، بل تتبرأ من فرعون وعمله، وتترفع وتتعالىٰ علىٰ قصره ودنياه وقومه، وتسأل الله -تعالىٰ- أن يُنعم عليها ببيت بديل في الجنة، وأن ينجيها من القوم الظالمين، أي: زوجها وقومها، فهي مَثل ونموذج وأسوة لشخصية المرأة التي تستعلي علىٰ الدنيا كلها، وتزهد في زوج هو أعظم ملوك عصره، وقصوره هي أفخم ما عرفته الدنيا -آنذاك- من قصور، ولا يفل من عزمها، ولا يضعف من إرادتها أنها امرأة وحيدة منفردة بين قوم ظالمين، تعيش في قصر جبّارٍ كان يقتل الناس علىٰ مجرد شبهة الإيمان، ثم يعطف القرآن عليها مريم ابنة عمران، فأيّة امرأة تقرأ هذا المثل ولا تتمنىٰ أن تتأسىٰ به: شخصيَّةً وإرادةً وإيماناً وسلوكاً واستقامة ومصيراً؟!

إلىٰ جانب ذلك ضرب المثل المغاير: المرأة المتحجِّرة القاسية، غليظة الطبع، التي تعيش في بيت نبوّة فلا تتأثر ولا تلين، ولكنها تخون البيت والزوج والنَّبيّ، وتُناصر الظالمين من قومها، ويجسِّد المثل القُرآنيُّ هذه الصورة البشعة للكافرتين الخائنتين في بيتي النبيّين الرسولين الصالحين، بجانب الصورة الـمُشْرِقة لامرأة فرعون ومريم، وهل يملك أحدٌ أن يرضىٰ لنفسه مماثلة الخائنتين ومشاققة الله ورسوله؟!

ونحوه قوله -تعالىٰ-: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ

ﭐلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧].

إنه مثل يضربه الله -تعالىٰ- لصورة الانحراف عن سواء الفطرة، ونقض العهد مع الله -تعالىٰ-، والنكوص عن آياته بعد العلم بها وفهمها، وذلك في صورة إنسان آتاه الله -تعالىٰ- علماً بآياته المنزلة، لكنّه -مع علمه بها - ينسلخ عنها بعد أن كانت تحيط به كثوبه، بل تلفه كجلده، لكن نداء هواه، وإخلاده إلىٰ الأرض، والتصاقه بشهواتها ولذات طينها أقوىٰ عنده وأولىٰ بالاستجابة لديه من نداء آيات الله، فينسلخ عن الآيات ويلتصق بالتراب خالداً إليه، والمثل يضربه الله -تعالىٰ- لأي إنسان يتجاوز ما علّمه الله -تعالىٰ-، فلا يسمو ولا يرتفع بالعلم، بل يخلد إلىٰ الأرض، والذي يتلو هذه الآيات وهي تصوِّر هذا المثل في مشهد حيّ متحرك، عنيف الحركة شاخِص السمات، بارز الملامح، واضح الانفعالات يحمل كل إيقاعات الحياة الواقعية إلىٰ جانب إيحاء العبارات الموحِيَةِ، لا يمكن أن يرضىٰ لنفسه مشابهة هذا المخلوق التعيس بأي حال من الأحوال.

وهكذا كل أمثال القرآن العظيم الأخرىٰ:

- ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ [هود: ٢٤]
- ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]
- ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٦]

وتستمر آيات الأمثال، تصوِّر النفوس، والقلوب، والأشخاص، والأعمال، والأقوال، والمشاهد، والأمم، والحضارات، وتضرب منها ولها الأمثال، فلا تغادر جانباً منها، إلَّا أعطته من التوضيح، والتشخيص، ما يجعله وسيلةً من أهم الوسائل التربويَّة، ففيها إخراج ما لا يقع عليه الحسّ، إلىٰ مستوىٰ المحسوس، وإخراج ما لا يعلم ببديهة العقل، إلىٰ ما يعلم بالبديهة، وإخراج ما لم تجرِ العادة به إلىٰ الأمر المعتاد، وإخراج ما لا تأثير له من الصفات، إلىٰ ما له كامل التأثير، كما أنها من أفضل وسائل البيان والتعليم والإيضاح.

فأمثال القرآن محور أساس من المحاور التي نزل بها، وضرب القرآن المثل بالبعوضة فما فوقها والذباب والعنكبوت والنمل فيه تحدّ لأولئك القوم، وبيان لضآلة شأنهم، وضعف عقولهم. فقد وضعوا للعظمة والضّعة مقاييس تحكّموا فيها، فأراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يبيِّن لهم تفاهة تلك المقاييس وانحرافهم فيها، فهم يقيسون العظمة بالجاه والمنصب وأحياناً بحسن المظهر والمنظر، وأحياناً بوفرة المال، وما إلىٰ ذلك من متاع زائل، فأراد -جلّ شأنه- أن يبيِّن لهم أنَّهم مخلوقون، هو مَنْ خلقهم، وهو من يرزقهم، وأنَّه قد خلق معهم أمماً كثيرة، لأنَّه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] وأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما فرَّط في كتابه المنزَّل، ولا في كتابه المنثور المبثوث في «الكون» من شيء، فالجامع بين القراءتين والناظر في الكتابين يجد مصداق ذلك بوضوح في كل منهما، وأنَّ هذه الحشرات والمخلوقات التي يحتقرونها وقد يعيبون علىٰ رسول الله ﷺ وعلىٰ القرآن ضرب المثل بها؛ تبدو وكأنَّها أقوىٰ منهم في بعض المواقع، وأنَّهم أضعف منها وأقل حيلة وتدبيراً، فالله لم يستح -بناء علىٰ ذلك- أن يضرب لهم مثلاً بالبعوضة فما فوقها، ولا بالذباب الذي يسلبهم شيئاً ولا يستطيعون استنقاذه منه، ويُبدي لهم ضعفهم أو مساواتهم له في ذلك الضعف: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣]، وهذا العنكبوت يبني بيوتاً من لعابه دون أن يحتاج لشيء آخر، فتتحول إلىٰ خيوط مهما قويت فهي واهنة، لكنَّها تشكِّل بالنسبة له بيتاً قد يتناسب مع ضعفه وصغره واحتياجاته، وكذلك يفعل النمل وهم يدخلون مساكنهم، يدّخرون فيها احتياجاتهم، ولكن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ استخلفكم أيُّها البشر علىٰ هذه الأمم كلها، وعلىٰ الكون بمجموعه؛ لتقيموا الحقَّ والعدل فيها، كما خلقها الله بالحق، وتكونون مستخلفين فيها بحق، فإذا استعليتم واستكبرتم واغتررتم فسيدفعكم ذلك باتجاه الجور والظلم والتقصير في القيام بمهام الاستخلاف.

وفي الآية التي معنا يضرب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لآلهة الكافرين وأصنام هم وأوثانهم مثلاً بالعنكبوت وبيتها الضعيف، فإنَّ اتخاذهم تلك الأوثان والأصنام والمعبودات من دون الله تعالىٰ سوف يؤدي بهم إلىٰ الهلاك، وقد ظنوا أنَّ تلك الآلهة المدّعاة سوف تحميهم وهي لن تستطيع ذلك، فمثلهم -آنذاك- كمثل العنكبوت في ضآلة شأنها،

اتخذت من خيوط لعابها بيتاً تأوي إليه، فلا يستطيع حمايتها لسهولة اختراقه من أي عدو من أعداء العناكب، وإنَّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت، وأوهن الأديان وأضعفها الأديان الشركيَّة، وأوهن الآلهة وأضعفها الأوثان والأصنام، فالمثل هنا يتحدىٰ هذا الإنسان الطاغية، المستكبر عن آيات ربه، والرافض للاستماع إلىٰ صوت النبوَّة ونداء الألوهيَّة الحقة، ويبيِّن له السبب في ذلك وضلاله فيه، وأنَّ هذه الآلهة المصطنعة والأرباب المتفرقين لن يغنوا عنه من الله شيئاً، فهو وكل ما اتخذه من آلهة وأرباب لا يساوون شيئاً، ولا يُقام لهم يوم القيامة وزناً، وهذه المقاييس التي يتفاخرون بها لن تغني عنهم من الله شيئاً، لوهنها وضعفها، وما تدل عليه من ضعفهم.

سبب ضرب الأمثال:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

وهذه الأمثال التي يواجهونها بكبرهم وغطرستهم ما يعقلها ولا يدرك مغازيها ومراميها إلا العالمون، لا الذين ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم: ٧] بل أولئك الذين يخشون الله ويتقونه، لما علموه من جوانب عظمته وقدرته وألوهيَّته وربوبيَّته -جلّ شأنه-.

التفكُّر في آيات الله:

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٤]

وبعد أن ضُرب المثل انتقل السياق للتوكيد علىٰ أنَّ الله -تعالىٰ- خلق السموات والأرض بالحق، فلهذا الخلق بالحق حِكَمٌ وغايات ومقاصد وأهداف، وحين ينحرف المنحرفون بها عن تلك الأهداف والحكَم؛ فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يذكر بأنَّ هذا الخَلق خُلق بالحق، فالأصل في الوجود هو الحق، وأمَّا الباطل فهو خلاف الأصل؛ ولذلك فإنَّ الباطل زائل، لأنَّ الباطل كان زهوقاً ولا قرار له، فهو مجتثٌّ من فوق الأرض ما له من قرار، وما له من عمق، والحق هو الأبقىٰ، وهو الدائم والمستمر، والإنسان الذي خلقه الله بالحق أيضاً استخلفه في هذا الكون؛ ليقيم الحق والعدل، وينتصر

وينتصف دائماً للحق، لا ينحرف عنه بحال، وحين يتفكّر الإنسان في نفسه وفي آفاق هذا الكون فإنَّه سيدرك -لا محالة- أنَّه مسؤول عن مقاومة مشروع الشيطان، ومسؤول عن إحقاق الحق، ونفي الباطل، وهداية البشر ليكونوا عباد الرحمن لا عباد الشيطان ولا أولياء له.

دعوة إلىٰ إقران العلم بالعمل:

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

ثم يأتي السياق -بتناسب وتناسق- ويقول لرسول الله ﷺ إنَّك تحمل هذا الحق وتستطيع أن تخرج الناس من ظلمات الباطل إلىٰ أنوار الحق، فالوحي الذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق، فاتلوه علىٰ الناس: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ولكن لا بدّ من قرن العلم بالعمل، وتلك من أهم الفوائد التي تجنيها البشريَّة من الرسل الكرام، أنَّهم يستطيعون أن يعملوا بالوحي الذي أُنزل عليهم، ويهيئوا للناس سبل اتباعهم، والاقتداء بهم، والاهتداء بهداهم في معرفة الكتاب والعمل بآياته، ومعرفة كيفيَّة العمل به، وتطبيق ما جاء فيه، فقرن بين الأمر بالتلاوة والأمر بإقامة الصلاة، مبيناً أنَّ ذلك هو الإطار الذي يبرز الحق ويجعل الناس قادرين علىٰ رؤيته، ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي اقرأ ذلك الوحي الذي أنزلناه عليك لتخرج الناس به من الظلمات إلىٰ النور بإذن ربهم، ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ليتعلموا كيف يَتْلُون هذا الكتاب حق تلاوته، فيتعلمون آياته ويتبعونها، ويجعلونها بحيث يراهم الناس عليها فيقتدون بأفعالهم، وكأنَّه يريد أن يبيِّن لنا لماذا تم الربط بين تلاوة الكتاب النازل بالحق وتعليم الناس الوحي، وأمَرَه ﷺ بإقام الصلاة؛ لأنَّ الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، و«الفحشاء» عرّفناها في غير موضع بأنَّها: القول أو الفعل المتناهي في فحشه، و«المنكر» هو: ما تستنكره الفطرة والعقول السليمة والقلوب المستقيمة والشرائع الحكيمة، فذلك كلّه تذكرنا به الصلاة الخاشعة، صلاة القانتين: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] هذا النوع من الصلاة هو الذي يذكرنا بضرورة الابتعاد عن ممارسة الفحشاء في القول والعمل أو الاقتراب من المنكر، وأنَّ ذكر الله -جلّ شأنه- هو العاصم للإنسان من الانحراف: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦] فالإنسان لكي يستقيم ويبتعد عن الانحراف بكل أنواعه ولا يسقط في فحشاء أو منكر؛ فإنَّه لا بدّ له من استدامة ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وعدم الغفلة عنه وعدم نسيانه في أيَّة لحظة، فإذا ذكر الإنسان الله كذكره أباه، وكذكره نفسه، واستحضر وجوده -جلّ شأنه- ومراقبته له كأنَّه يرىٰ الله، فإنَّ لم يكن يراه لأنَّه -جلّ شأنه- لا تدركه الأبصار، فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يرىٰ الإنسان ويعلم ما يخفي وما يعلن، وهو معه أينما كان وكيف كان. وهذا الذكر هو الذي يعطي لحياته المعنىٰ، وهو الذي يباعد بينه وبين الكآبة والشعور بالعبث أو العدم.

والصلاة التي تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر هي صلاة الخاشعين القانتين المخبتين لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، الذين إذا قاموا إلىٰ الصلاة نشطوا إليها، واستيقنوا أنَّهم قائمون للوقوف بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يتلون آياته ويسبحون بحمده ويستغفرونه ويتوبون إليه، ويذكّرون أنفسهم بموقفهم بين يديه في الآخرة، فتلين قلوبهم وتخشع جوارحهم، ويدركون أنَّهم إنما وجدوا في هذه الحياة الدنيا لتحقيق غايات الحق من الخلق، وعبادة الله -تعالىٰ- في كل حين، وذِكره -جلّ شأنه- في كل موقف، والذّكر ليس مقصوراً علىٰ ذِكْر أسماء الله أو صفاته، فتلاوة القرآن ذِكْرٌ، والوقوف عند الحلال وعدم تجاوزه إلىٰ الحرام ذِكْر، ورفض الحرام لأنَّ الله قد حرمه ذِكْر، والنظر في خلق الله وتذكر نعمه ذِكْر، وبذلك يستطيع الإنسان أن يكون في كل شأن ذاكراً لربه -جلّ شأنه- غير غافل عنه لا يعطي فرصة للشيطان لاجتياله أو الانحراف به: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١] لا تعتري قلوبهم الغفلة، ولا تعشو أبصارهم عن تأمل ما في الكون، ولا تغفل قلوبهم أن تقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: ١٩١] وذلك يعني أنَّ الإنسان إذا راقب نفسه وحاسبها وأراد لها الاستقامة فإنَّه يستطيع أن يجعلها علىٰ ذِكْر لله -تعالىٰ- في كل حين.

كيفية مجادلة أهل الكتاب:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

ثم يقود السياق إلىٰ وسيلة من وسائل الدعوة إلىٰ الله وهي المجادلة بالتي هي أحسن، فإن دعوة الناس للإيمان بالله -جلّ شأنه- والإيمان بالبعث والنشور والحساب والجزاء، قد يقتضي من المؤمنين ومن أبناء أمَّة الإجابة مجادلة أمَّة الدعوة، فيبادر القرآن الكريم إلىٰ تعليم أبناء أمَّة الإجابة كيفيَّة مجادلة أهل الكتاب، فينهاهم الله -جلّ شأنه- أن يجادلوهم إلا بالتي هي أحسن، أي اتباع أحسن الأساليب وأكثرها تأثيراً وفاعليَّة في نفوسهم وقلوبهم، فهناك آيات تتلىٰ عليهم ورسالة تُبَلَّغ قد يقابلونها بالتكذيب والرفض، وها هنا لا بدّ للنبي وحملة الدعوة من محاورتهم ومجادلتهم، فإذا سلمت عقولهم وقلوبهم من آفاتها وأمراضها ولم يتحكم الهوىٰ فيها، فقد تستجيب لآيات الله، وإلا فقد يلجأون إلىٰ الجدال، فلا ينبغي أن يستدرجنا ذلك إلىٰ نوع من الغضب وإساءة الأدب: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٣] بل لا بدّ من مجادلتهم بأحسن ما يكون عليه الجدال، ومحاورتهم بأفضل الأساليب، مع العلم بأنَّهم يعرفون الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ فهم يجادلون في شأن يعرفونه ويدركون أنَّه حق، ويمارون في آيات يعلمون صدقها، فالجدل -إذن- هنا ليس جدلاً من أجلّ إثبات أنَّ ما ندعوهم إليه هو حق؛ بل من أجلّ استثارة كوامن الخير في نفوسهم واستدراج عقولهم للتفكير، ومحاولة فتح قلوبهم لاستقبال نسائم الحق، فنحن نعرض عليهم حقاً يعرفونه وصدقاً يدركونه، فكأنَّنا والحالة هذه ينصب جدالنا معهم بالتي هي أحسن علىٰ محاولة السمو بهم إلىٰ الاعتراف بما يعرفون، وإيصالهم إلىٰ مستوىٰ الاستعداد والرغبة والجرأة علىٰ قول الحق الفطري الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ ولذلك فإنَّ الخطاب الذي يخاطب به هؤلاء فيما يعرف اليوم بحوار الأديان لا بد أن يصاغ انطلاقاً من هذه الآية الكريمة ونظائرها، وقوله -جلّ شأنه- ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] في حاجة من الدعاة إلىٰ فهم عميق لتحديد التي هي أحسن من بين

مختلف طرق الخطاب، فيعلمنا الله -جلّ شأنه- أنَّه نزّل لنا أحسن الحديث: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٣] فيستخدم الداعية ما نزله الله -جلّ شأنه- ليدعو الناس به لا بشيء غيره لأنَّه أحسن الحديث ولأنَّه الذي قال الله فيه: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: ١]

وتختلف مخاطبة من لا يعرف عن مخاطبة العارف بالشيء، ولكنَّه لأسباب نفسيَّة عديدة جعلته يُنكر ما عرف، ويبدي رفضاً أو تجاهلاً لما علم، فقد سبقت لهؤلاء مقولات أَلِفُوها، وقامت لهم فيها هم عليه مصالح ارتبطوا بها، ولا بد للداعية أن يأخذ كل هذا بعين الاعتبار وهو يوجه دعوته وخطابه إليهم، ثم تشير الآية الكريمة إلىٰ أنَّ من بين هؤلاء المدعوين من يمكن أن يوصفوا بالظلم؛ ومن الظلم إشراكهم بالله -جلّ شأنه-؛ إذ إنَّ ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا يجعل هذه الفئة منهم مستحقة لخطاب آخر غير خطاب أولئك الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، خطاب مناسب لذلك الظلم، وقد يكون ظلم هؤلاء لأمم غيرهم كأن يكونوا وقد تلبّسوا بالباطل وأخرجوا مؤمنين من ديارهم وقاتلوهم علىٰ دينهم، ولهؤلاء ولا شك نوع آخر من المعاملة يختلف عن معاملة أولئك الذين لم يتلبّسوا بجرائم الإكراه علىٰ الدين، وفتنة المؤمنين، وإخراجهم من ديارهم وقتالهم لإرجاعهم عما آمنوا به وما إلىٰ ذلك من ظلم.

أمَّا الذين لم يقاتلوا المؤمنين في دينهم ولم يخرجوهم من ديارهم ولم يظاهروا علىٰ إخراجهم؛ فإنَّ الدعاة مطالبون مع سائر أمَّة الدعوة ببر هؤلاء والإقساط إليهم والعناية بهم والمجادلة بالتي هي أحسن، وتبيِّن لنا الآية كيف نفتتحها فيقول -جلّ شأنه-: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت: ٤٦] ويفترض أن تكونوا مثلنا لأنَّ ما أنزل إليكم لا يختلف عما أنزل إلينا، ولذلك آمنا به: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فهو لم يأمرنا بغير ما أمركم به، ولم يطلب منا شيئاً غير ما طالبكم به، ومن ثمَّ فنحن وأنتم

كان ينبغي أن نكون له مسلمين، ولكن ما دمتم قد اخترتم شيئاً آخر فلكم ذلك، فإنَّه -جلّ شأنه- قال: ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام: ١٠٤] وقال -جلّ شأنه-: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف: ٢٩]، فعلى الدعاة أن يعملوا دائماً على إيجاد الأرضيَّة المشتركة وبناء القاعدة التي نتفق عليها ثم ننطلق منها لحل ما نختلف فيه لنصل إلى الكلمة السواء، التي ليس فيها فظاظة ولا غلظة ولا تنفير، ولا يراد منها علوّاً في الأرض ولا فساداً.

القرآن نور وهداية:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٧]

يبيِّن الله -جلّ شأنه- أنَّه قد أنزل على عبده محمد ﷺ الكتاب، وهؤلاء الذين آتاهم الله الكتاب من قبل من يهود ونصارى آمن بعضهم به وعلم أنَّه يحمل مثل النور الذي حملته كتبهم ومثل الهدايَّة التي جاء بها الرسل من قبل، وبعض هؤلاء القوم من قريش أيضاً يؤمنون به ويصدقونك فيه، أمَّا أولئك الذين يبدون لك غير ذلك فإنَّهم جاحدون، والجحود: نفي الحق مع معرفته، فالجاحدون يعرفون الحق ولكنَّهم ينفونه، وهؤلاء هم الكافرون؛ لأنَّ الكفر في أصله اللغوي يأتي من الستر والتغطية المتعمدة المقصودة، فهم كأنَّهم يغطون على الحق الذي جئت به، ويسترونه لئلا يراه الناس ويتعمدون الجحود به بين الناس وإعلان نفيه؛ كِبراً وغروراً وغطرسة واستعلاء منهم، فهؤلاء لا ينبغي أن يحزنك جحودهم أو يؤذيك استكبارهم وغرورهم فهم كافرون.

أُميَّة الرسول دليل على صدقه:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]

ومن كان من الناس في ريب مما جئت به فيكفي أن ينظر في تاريخك وسيرتك وطبيعتك، فأنت من شعب أُمّي ما جاءه قبلك من رسول، وأنت لا تقرأ ولا تكتب، فلو كنت من غير الشعوب الأُميَّة، وكنت متقناً للقراءة والكتابة، لارتاب المبطلون الموغلون في الباطل المدمنون للشكوك والريب، ولكن اخترناك من الأُميين؛ من شعب أُمي ما جاءه من نبي ولا رسول قبلك، واخترناك أُميّاً لا تقرأ ولا تكتب لنقطع على هؤلاء أي سبيل للتشكيك فيك، ولممارسة الريب والشك فيما أوحي إليك، ومع ذلك فإنَّهم يجحدون.

الحق المبين:

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]

إنَّ هذا الكتاب الذي أنزلناه إليك هو آيات بينات واضحات ظاهرات ناطقات بالحق المبين، فيها ذكرى لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهذه الآيات البينات ليست خافية على علماء بني إسرائيل يهوداً كانوا أو نصارى، قال -جلّ شأنه-: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وقال: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦] فهو آيات بينات في صدورهم تعرفه قلوبهم، وتنكره ألسنتهم، وتجحد به: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

الآيات البينات لا تشبه الآيات الحسيَّة:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٠]

القائلون ذلك هم هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بذلك الجحود، والذي صدهم ما كانوا يدعون من دون الله عن الإيمان به. ومما أسهم في صدهم عنه أنَّ آياته البينات لا تشبه الآيات الحسيَّة التي يفاخرون بها، والتي لم يشهدها إلا الجيل المعاصر لأنبيائهم مثل عصا موسى ويده، وباقي الآيات التسع التي أعطاه الله إياها،

وكذلك إحياء الموتىٰ وإبراء الأكمه والأبرص لعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فهذه الآيات الحسيَّة التي يدَّعون أنَّها أهمُّ وأقوىٰ من آيات الكتاب المبين، هي عند الله -جلّ شأنه-[1] وما كان منها شيء يعجزه -جلّ شأنه- وكأنَّ الله -تعالىٰ- اختار أن تكون آيتك يا محمد هذا القرآن المبين الذي يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين، وهو دائم باق كأنَّه نبي مقيم لن يتوقف عطاؤه حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها،[2] ولكن أولئك الذين ابتلوا بقصر العقول وضآلة الأفهام وعمىٰ البصائر، يقدِّمون الأيات الحسيَّة الفانية علىٰ آيتك الباقية الدائمة والخالدة -القرآن الكريم- ويقولون في معرض مجادلتهم لك وصد الناس عنك وهو في قلوبهم آيات بينات يقولون: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [العنكبوت: ٥٠] كما قالوا: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القصص: ٤٨] إلىٰ غير ذلك مما حكاه عنهم القرآن الكريم.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ٥٠] أي: إنما أمر ذلك إلىٰ الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلىٰ سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلىٰ ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ [الإسراء: ٥٩]

وقوله: ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٠] أي: إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة فعلي أن أبلغكم رسالة الله و﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، انظر:

- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج٦، ص٢٨٧.

(٢) وفي هذا المعنىٰ جاء الحديث عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة.» انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب فضائل القرآن، بَاب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، حديث رقم (٤٩٨١)، ص٩٩١.

- مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، حديث رقم (١٥٢)، ص٨٥.

(أعطي ما مثله آمن عليه البشر) أجري علىٰ يديه من المعجزات الشيء الذي يقتضي إيمان من شاهدها بصدق دعواه لأنها من خوارق العادات حسب زمانه ومكانه. (أوتيته) المعجزة التي أعطيتها. (وحياً) قرآناً موحىٰ به من الله تعالىٰ يبقىٰ إعجازه علىٰ مر الأزمان، ولذلك يكثر المؤمنون به، ويوم القيامة يكون أتباعه العاملون بشريعته المنزلة أكثر من الأتباع العاملين بالشرع الحق لكل نبي.

إنزال الكتاب رحمة:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١]

فهؤلاء الذين يطلبون الآيات ويبحثون عن أصول ومراجع خارج هذا القرآن ويطالبونك بها لم ننزل عليك؛ لو أرادوا الهداية والاستقامة والوصول إلىٰ الحق لكفاهم كتابنا هذا الذي ينطق بالحق، والذي يُتلىٰ عليهم والذي يسرناه بلسانك ليكون في مقدورهم فهمه وتدبره. أو لم يكفهم هذا؟!

وهذه آية عظيمة لا تختص بأولئك الذين يجادلون رسول الله ﷺ ويطالبونه بالمعجزات الحسيَّة والآيات المنظورة، والخوارق المشاهدة، بل تشمل الناس- كافَّة- وخاصَّة الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي أنزل الله عليه، فهؤلاء يفترض أن يكون الكتاب كافيًّا ومغنياً لهم عما سواه، ومع ذلك فإنَّنا نجد كثيراً من الناس ومنهم المسلمون، لا يكتفون بالكتاب الكريم ويبتغون الهداية خارجه، وبعيداً عن آياته، فالآية نصٌّ بأنَّ هذا الكتاب كاف لهم، وأنَّه كما يُغْني عن الآيات الحسيَّة والمعجزات، فإنَّه يغني عن كثير من العلوم والمعارف، والأدلة التي اصطنعوها من خارجه، وزعموا أنَّها أدلة، إنَّ هذه الآيات -آيات الكتاب- رحمة وهدىٰ وذكرىٰ ونور وبصائر لقوم يؤمنون: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت: ٤٤].

الله شهيد عليكم:

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٢]

فهو يشهد عليكم بما كذبتم واستكبرتم ورفضتم وجحدتم، ويشهد علىٰ أنَّني بلَّغتُ رسالته وأدّيتُ إليكم أمانته ونصحتُ لكم ولكن لا تحبون الناصحين، فهو شهيد عليَّ وعليكم؛ لأنَّ علمه المحيط به: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٢]

وكأنَّه يريد أن يقول لهم: أنتم ظالمون وجاحدون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

لكل شيء أجلّ محدد:

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٣]

ثم تأتي هذه الآية لتبيِّن لنا مدىٰ سفاهة هؤلاء ومدىٰ غطرستهم واستعلائهم وكبريائهم؛ إذ يستعجلون رسول الله ﷺ بالعذاب ويطالبونه - بدلاً من أن يستجيبوا له ويؤمنوا به- بإيقاع العذاب عليهم، وهذه الآية كقوله -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٢] والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ [العنكبوت: ٥٣] أي إنَّ عدم الاستجابة لهم وإنزال العذاب بهم ليس لعجزنا عن ذلك، ولا لأنَّهم علىٰ الحق، بل لأن لهذا الكون سننه وقوانينه التي لا يخضع شيء منها لإراداتهم ولا لمطالبهم، وما يحميهم من عذابنا اليوم وإنزاله بهم؛ إلا كلمتنا والأجلّ الذي سميناه وحددنا زمنه في علمنا، فهناك أجلٌ لكل فرد في الدنيا، وسَيَرىٰ كل واحد من هؤلاء بداية العذاب حين تأتيه ملائكتنا يتوفونه فيبسط إليه أيديهم ويقولون له ولأمثاله: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ [الأنعام: ٩٣] وذلك الأجلُ الذي قد قضاه الله لكل فرد، ثم يأتي العذاب الأكبر وهو الأجلُ المسمىٰ عند الله؛ سوف يأتيهم العذاب الذي يستعجلون به من فوقهم ومن تحت أرجلهم، سيأتيهم عندما يأتي الموعد الذي حددناه وجعلناه أجلاً لإنزاله بهم، وليأتينهم ذلك العذاب: ﴿ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

علام يستعجل هؤلاء السفهاء؟

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٤]

ثم يقول -جلّ شأنه-: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ [العنكبوت: ٥٤] باستفهام إنكاري، فهذا العذاب الواقع بهم لا محالة، علام يستعجلُ هؤلاء السفهاء علىٰ بلوغه

والوصول إليه وكأنَّه أمر محبب للنفوس أو مطلوب للقلوب؟ !ولو أنَّهم عقلاء كما يدَّعون لاستعجلوا الخروج من الكفر والعناد، لئلا يسقطوا في ذلك العذاب القادم لا محالة، والمحيط بهم بما كفروا بالله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً، وإذا كانوا لا يستشعرون ذلك؛ فذلك لضعف أبصارهم وانطماس بصائرهم.

للعذاب أنواع:

﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٥]

وليعلم هؤلاء أنَّه سيأتيهم العذاب ويغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ويقول -جلّ شأنه- لهم وتقول ملائكتُه: ﴿ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، إنَّ هذا العذاب سوف يجدونه أنواعاً، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل، فعلام يستعجل هؤلاء الأغبياء ذلك العذاب الأليم.

أرض الله واسعة:

﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٦]

ثم يلتفت السياق إلىٰ الذين آمنوا بذلك النداء الإلهي المحبب ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ [العنكبوت: ٥٦] فأنتم أيُّها المؤمنون بمكة وفي كل مكان يضطهدكم فيه أولئك المشركون الظالمون، اعلموا أنَّ أرضي واسعة وأنتم أولىٰ الناس بها: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وأنتم عُمارها والمستخلفون فيها، لا ينبغي أن تتنازلوا عن إيمانكم نتيجة اضطهاد هؤلاء وعدوانهم، فلا تعطوهم فرصة استضعافكم ومصادرة حريَّاتكم ومنعكم عن مزاولة فرائضكم وما أمرتكم به؛ لأنَّ أرضي واسعة، فهاجروا فيها وستجدون فيها مراغماً كثيراً وسعة كما قال عزّ من قائل: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠٠]

المرجع في النهاية إلىٰ الله:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧ ﴾ [العنكبوت:٥٧]

ولا تخشوا من الهجرة فإنْ أدرككم الموت أو القتل فإنَّ أجركم يقع علىٰ الله -جلّ شأنه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فلا ينبغي أن يمنعكم تعلقكم بـمُلْك أو موطن أو ذكريات من الهجرة إذا كان لا سبيل لنشر الدعوة إلا بها، لا يمنعنكم ذلك من أن تهاجروا فأنتم عُمّار الأرض والخلفاء فيها، وأنتم تنتمون لخير أمَّة أخرجت للناس لتكون مثلاً ونموذجاً للبشريَّة كلّها، فأنتم لستم من الأمم المدخلة مثل بني إسرائيل الذين قيل لهم: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ [المائدة: ٢١]، أنتم أبناء أمَّة مخرجة قلنا لها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فأنتم مسؤولون عن إيصال هذا النور الذي حمله رسول الله ﷺ إليكم إلىٰ بقاع الأرض وإلىٰ البشريَّة جميعها، لذلك صرتم: ﴿ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] فأنتم في الحياة الدنيا تتخذون من الأرض داراً و ﴿ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ [النحل: ٨٠] لأنّكم بالدين تعيشون وبالدعوة تحيون، فإذا ضاقت عليكم أرض ولم تفسح صدرها لقبول دعوتكم والاستجابة لربكم ولرسوله ﷺ فإنَّ بقيَّة الأرض في حاجة إليكم، فأنتم أمَّة موطنها حيث يكون دينها، لا حيث تكون مصالحها، أنتم أمَّة تحمل النور والخير إلىٰ البشريَّة كافَّة، فلا ينبغي أن تقبلوا الدنيَّة والاستضعاف والذلة والاستكبار، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ٩٩ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٠ ﴾ [النساء: ١٠٠ – ٩٧] فالله -جل شأنه -يدعوهم إلىٰ اتخاذ الأرض داراً لهم حتىٰ لو أدّت إلىٰ انفصالهم أو ابتعادهم عن بلدان بها نيطت

عليهم التمائم -كما يقال- أو أنَّها كانت مواطن لآبائهم وأجدادهم، فالمؤمن المسلم موطنه حيث تعلو كلمة الله، وموطنه حيث يجد فرصة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا خِفْتَ القتل وأنت في طريقك مهاجراً إلىٰ الله فسيقع أجرك علىٰ الله، ولن تموت إلا بأجلِك، وما دام الأجلُ واقعاً فأنْ تموت وأجرك علىٰ الله ثابتٌ خيرٌ لك من أن تموت حتف أنفك مستذلاً مستضعفاً.

بشرىٰ للمؤمنين:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩]

إنَّ هذه الآيات تبدأ بتشريف عباد الله المؤمنين بذلك النداء المحبب الذي يضيفهم إلىٰ الله -تعالىٰ- فهم عباده يحتفي بهم، فهم الذين قرنوا الإيمان بالعمل الصالح، وتحملوا المشاق من أجل عقيدتهم وأحسنوا التوكل عليه سبحانه، فصبروا علىٰ الاضطهاد واستعذبوا الغربة من أجل الدين فلا بدّ وأن يجزوا الجزيل، وحسبهم شهادة رب العالمين لهم، إنهم يوم الفزع الأكبر آمنون، ومستقرهم الجنة تجري من تحتها الأنهار، نِعْمَ أَجرُ العاملين.

ويرزقكم من حيث لا تعلمون:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾[العنكبوت: ٦٠]

فانظر في هذا الكون الفسيح وإلىٰ سائر الأمم التي خلقها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من دواب وحيوانات وطيور وغيرها، أهناك دابة أو طير يحمل معه رزقه؟! لا، إنَّ الطيور تغدو خماصاً وتروح بطاناً، والطيور قد تهاجر آلاف الأميال في المواسم المختلفة في العام ذاهبة وآيبة لا تحمل معها شيئاً، الله يرزقها. وحين تتوكل علىٰ الله -جلّ شأنه- وتهاجر في سبيله وتطلب رضاه وتكون إنساناً ربانيّاً فهو -جلّ شأنه- يرزقك من حيث لا تحتسب، وهو حسبك يكفيك شأنك، ما دمت علىٰ التقوىٰ، وقد وعد -جلّ شأنه- وهو لا يخلف الميعاد.

يعرفون الحق وينكرونه:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦١]

وهؤلاء الذين كانوا يتطاولون بألسنتهم ويعبّرون عن كبريائهم بتساؤلاتهم وأسئلتهم التي قلَّ أن يكون لها مضمون يستحق الالتفات، يقول الله -جلّ شأنه- لرسوله الكريم: إذا أردت أن تسألهم أو تدخل معهم في حوار أو تجادلهم في شيء فاسألهم عمّن خلق السموات والأرض وسخَّر الشمس والقمر، أهي آلهتهم هذه التي يدعون من دون الله؟ أم أصنامهم؟ أم آبائهم الذين يزعمون اتّباعهم؟ !إنّهم لن يجدوا شيئاً من ذلك يمكن أن يجيبوك به، ولن تسمح لهم أنفسهم علىٰ ضلالها وانحرافها أن تجيبك إلا بجواب واحد هو: أنَّ من خلق السموات والأرض وسخَّر الشمس والقمر إنَّما هو الله، إذاً ما دمتم تعترفون بأنَّه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فأنّىٰ يؤفكون أي يُصرَفون.

تقول العرب: أفَكَهُ مثل ضَرَبَهُ إفكاً إذا صرفه عن الشيء أو قَلَبَه من جهة إلىٰ جهة أخرىٰ، وفي سورة المائدة حين ذكر -جلّ شأنه- المسيح بن مريم وأمَّه الصديقة وأنَّهما كانا يأكلان الطعام، ليبين لهم ضلال طوائفهم المختلفة في المسيح بن مريم وأمَّه، عَقَّب علىٰ ذلك بقوله: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة: ٧٥] والمراد هنا أن يبيِّن الله -جلّ شأنه- كيف يصرف هؤلاء عن سبيل الهدىٰ إلىٰ سبل الشيطان ومن معه من شياطين الإنس، مع وضوح الأدلة والآيات البيِّنات.

وما كان عطاء ربك محظوراً:

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٢]

ثم يقول -جلّ شأنه- هؤلاء الذين يزعمون بل ويجعلون رزقهم مرتبطاً بتكذيبك وبإيمانهم بآلهتهم وشركهم وكفرهم: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

[الواقعة: ٨٢] هؤلاء يجهلون أنَّ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢] فيوسع على بعض الناس في أرزاقهم ويقدّر للبعض الآخر بمقتضى حكمته -جلّ شأنه- وعلمه لما يصلح لعباده: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧] أي لو بسطه لهم كلهم لبغوا في الأرض، ذلك لأنَّ الإنسانَ: ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦] والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له حكمته وله تقديره: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠]

جحود آيات الله دليل على عدم التعقُّل:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]

ثم يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [العنكبوت: ٦٣] على أن أظهر حجتي عليكم وأظهر سفههكم وضآلة شأن الباطل الذي تتبنونه وتؤمنون به، فجحودكم بعد ذلك إنّما هو دليل على أنّكم لا تعقلون، ولو كنتم تعقلون لما جحدتم بآيات الله ولما سمحتم للشياطين أن تأفككم وتصرفكم عن الإيمان بالله وبما جئتكم به.

الحياة الدنيا ممر للحياة الحقيقية في الآخرة:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤]

ويبيِّن -جلّ شأنه- أنَّ هذه الحياة الدنيا التي يتعلقون بها بجهلهم وبما ران على قلوبهم لن تكون في حقيقتها -إذا خلت من الإيمان- إلا لهواً ولعباً وتنافساً على متاع زائل، ولو أدرك هؤلاء الذين فُتنوا بهذه الحياة وظنوا أنَّها نهاية المطاف، وأنَّه لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، لو أدرك هؤلاء وعقلوا لعلموا أنَّ الدار الآخرة لهي الحيوان، هي الحياة الحقيقيَّة، وهي الحياة التي لا يعقبها موت، وأمَّا هذه الحياة

الدنيا فهي ممر وطريق إليها لو كانوا يعلمون، فبعد أن نفىٰ عنهم التعقُّل، والعقل في الآية السابقة، نفىٰ عنهم العلم في هذه الآيه الكريمة ليبيِّن لهم ضآلة شأنهم، ولعل ذلك يحملهم علىٰ التدبُّر والتفكُّر.

عدم استقرار المشركين علىٰ حال:

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]

إذا ركب هؤلاء الفلك؛ أي السُّفن، دعوا الله مخلصين له الدين، كأنَّهم لم يشركوا به يوماً، فيخلصون التضرع والدعاء والمناجاة، فلما نجاهم إلىٰ البر إذا هم يشركون، فبعد أن نفىٰ عنهم العقل والعلم نفىٰ عنهم الوفاء والاستقرار والاستقامة، فهم -قلوباً ووجوهاً- بأيدي الشياطين -شياطين الإنس والجن- يقلبونهم كيف شاؤوا.

تهديد:

﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٦].

ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا إذا كانوا يعتبرون، إذا ما كان في هذه الحياة ممتعاً فسوف يعلمون، وهذا تهديد لهم فسوف يأتي اليوم الذي يعلمون فيه أنَّ كل ما جئتهم به هو الحق وهو الخير والهدىٰ، فيعلمونه وهم يشاهدونه ويعيشونه، ولا ينفعهم علمهم- آنذاك- حين لم يتقبلوا ما جئتهم به من العلم.

مِنْ نِعَم الله أن جعل الحرم آمناً:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]

فشبه جزيرة العرب ما كانت فيها بقعة يستطيع الإنسان أن يأمن فيها علىٰ ماله أو علىٰ نفسه، إلا تلك البقعة المباركة المحرَّمة، التي حرمها الله، ألا يرون أنَّ في ذلك نعمة كبرىٰ مَنَّ الله عليهم بها تستحق أن تشكر ولا تكفر؟ أفبالباطل يؤمنون؟ !أي

بأوثانهم وأصنامهم التي يزعمون أنَّها آلهة، وهي باطل، وبنعمة الله يكفرون؟! إنَّهم بذلك تنكشف حقيقتهم وزيفهم وزيغهم وانحرافاتهم، وهم يجحدون نِعَم الله، وأبرزها نعمة الأمن والأمان لهذا الحرم.

من يفتري الكذب على الله يظلم نفسه:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٨]

فما أضأل شأنهم، وأسخف عقولهم، وما أخف أحلامهم، إنَّهم ظالمون بذلك كلّه، ثم هم أشد الناس ظلماً، وأكثرهم عدواناً، بافترائهم على الله الكذب وتكذيبهم بالحق لما جاءهم. لقد افتروا على الله الكذب حين زعموا أنَّهم ما يعبدون تلك الأصنام إلا لتقربهم إلى الله زلفى، وما هي بفاعلة، إلى غير ذلك من افتراءاتهم وما أكثرها.

الجهاد في الله يؤدي إلى سبل الهداية:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

أمَّا أنت ومن معك ممن جاهدوا فينا واهتدوا إلينا فأنتم المهتدون وأنتم المنصورون وأنتم الذين تحظون بمعيَّة الله؛ لأنَّكم محسنون، وأنتم حزب الله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢] واختياركم سبيل الجهاد فينا بكل مستوياته سوف يكون وسيلة لهدايتكم إلى سبلنا لتسلكوها في الحياة الدنيا في سائر المجالات؛ في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والتعليم، كما أنَّها ستسلك بكم السبيل إلى الجنَّة -إن شاء الله تعالى-.

والله أعلم.

سُورَةُ الرُّومِ

نزولها: مكيَّة.

عدد آياتها: ستون.

عدد كلماتها: ثمانمائة وسبع.

عدد حروفها: ثلاثة آلاف وخمسمائة وثلاثون.(١)

عمود السورة:

هذه السورة عمودها الأساس: عرض اليوم الآخر والإيمان به، وأهميَّة ذلك الإيمان على جميع المستويات؛ على المستوى الفرديِّ، وعلى مستوى الشعوب والأمم، وعلى المستوى العالميِّ، فكأنَّها تضع موضوع الإيمان باليوم الآخر خارج دائرة قريش، والدائرة العربيَّة الضيقة، وتقدمه مصحوباً بأدلته الكونيَّة، والعقليَّة، في إطار الخطاب القرآنيِّ العالميِّ، الموجه إلى البشريَّة كافَّة إلى يوم الدين.

إنَّ هذه السورة؛ من بدايتها إلى نهايتها: تبين -بجلاء ووضوح- عالميَّة الخطاب القرآنيّ، (٢)وأنَّه خطاب موجه إلى العالم كلِّه، لا يقتصر على قوم دون قوم، أو على شعب دون شعب، أو على أمَّة دون أمَّة، فالعالم كلُّه -بِكُلِّ ما فيه، ومن فيه- مخاطب بهذا الكتاب، ومشمول بدلالاته ومعانيه، والمضمون الذي حمله، وتكاد السورة تكون دليلاً تدريبياً لأبناء الأُمَّة الوسط؛ لكي يهتموا بشؤون العالم كلِّه؛ إذ إنَّ أمَّتهم ستحتل موقع الشهادة، والوسطيَّة، والخيريَّة بين الناس، بحكم كونها الحاضن الأول للرسالة الخاتمة، والأُنموذج الأول، الذي صاغه هذا الكتابُ، ورسم جميعَ معالمه

---

(١) الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، مرجع سابق، ج ١١، ص٤٧٢.

(٢) عالميَّة الخطاب القرآني: هو محدد منهاجي، من محددات المنهاج القرآني، بحثنا دلالاته، وما ينطوي عليه، في العديد من دراساتنا ومحاضراتنا، فهو يخالف الخطابات المنحصرة في قوم، أو عائلة، أو أهل بيت؛ كما في رسالات سابقة، وهو يستلزم عدة أمور، لا بدّ من الوعي بها، وكلها تُعَدُّ في إطار المنهاج القرآني، أو في إطار لوازمه؛ مثل: ختم النبوة، وحاكميَّة الكتاب، وكونها شريعة تخفيف ورحمة، تعتمد في دعائمها وأساسيَّاتها على قواعد مشتركة، وقيم عامَّة بين البشر، وسنزيد في توضيح هذا المحدد المنهاجي فيما سيأتي إن شاء الله.

هذا الخطابُ، وسوف تشهد هذه الأُمَّة علىٰ الآخرين إذا حافظتْ علىٰ موقعها، وكانتْ للعالم مثالاً في تبني الخطاب، وبناء الأُمَّة وَفْقاً لهدايته، وبَنَتْ جميع نُظُمها ومنظومة حياتها -بِكُلِّ تفصيلاتها الدقيقة والجليلة- علىٰ بصائره، وهدايته، وأنواره.

كما أنَّ هذه البداية -التي بدأت السورة بها- فيها براعة استهلال؛ إذ إنَّها تنبه الأُمَّة الوسط الشاهدة الخيِّرة؛ لأن تتعلمَ، وتُعْليَ من شأن العلم، وتبنيَ دعائمها -وهي ما تزال في طور بناء النواة الأولىٰ للأمَّة في العهد المكيِّ- علىٰ القرآن، وعلىٰ العلم، كما أنَّ في هذه البداية تنبيهاً؛ للإعداد للمستقبل؛ انطلاقاً من دروس الحاضر. وفي ذلك إيحاء أَيضاً بالتأسيس والإعداد لبناء قواعد علم التدبير، والتخطيط المستقبلي، لا علىٰ مستوىٰ أقاليمها وحدها، بل علىٰ مستوىٰ العالم كلِّه، فكأنَّ السورة تقول لنواة الأُمَّة المؤمنة في مكة -وهي ما تزال في طور التكوين-: لا بدّ لك من معرفة دورك كاملاً، علىٰ مستوىٰ العالمِ كُلِّه، والأرضِ كلِّها، وإعداد نفسك لهذه اللحظة، فأنتِ أمَّة مسؤولة -بالشهادة والحضور- عن إصلاح العالم، فعليك أيتها الأُمَّة الشاهدة إصلاح الحاضر، وتهيئة التدابير اللازمة؛ لئلا يحدث أي انحراف في المستقبل، وذلك يعني أنَّ هذه الأُمَّة مسؤولة عن مراقبة مسيرة الحقّ والباطل، علىٰ الأرضِ كلِّها، والانتصارِ للحق دائماً، وعدمِ السماح بانتكاسته، وبعدم السماح بظهور الباطل، في أيَّة بقعة من بقاع الأرض؛ فالأرض لله، يورثها من يشاء من عباده، والأرض ينبغي أن يرثها عبادُ الله الصالحون، وإذَا حدث أن غَفَلَ الصالحون المتقون، واستبدَّ بأمر الأرض الفاسدون والمفسدون: فلا ينبغي أن يكون ذلك إِلَّا أمراً مؤقتاً، لا ينبغي أن تسمح الأُمَّة الشاهدة أن يدوم، ولا أن يستمر طويلاً، وإلا فإنَّ الأُمَّة الشاهدة سوف تسقط في جريمة الغياب، وعدم الحضور لأداء الواجب.

فالسورة مَلِيئةٌ بِكُلِّ ما من شَأْنُه إعداد جميع أبناء الأُمَّة المسلمة؛ لإدراك البعد العالميِّ في هذه الرسالة، وجعل الإحساس بالمسؤوليَّة عن العالم كلِّه، والبشريَّة كلِّها جُزءاً من عقيدة الأمَّة، وأنَّها كلَّها لأبٍ واحدٍ؛ هو آدمُ، وآدمُ من تراب، ووَحْدة الأرض يجب أن تكون موروثة للصالحين، لا للفاسدين من أبناء آدم، الذين قضىٰ الله -جَلَّ شَأْنُه- أَلَّا ينالوا عهده؛ في إطار سنن التدافع، ولا يمكّنوا بشيء من ذلك؛

لأنَّهم إذا تمكّنوا أهلكوا الحرث والنسل، وأفسدوا في الأرض، والله لا يحب الفساد، وليس للظالمين أن يستبدوا بأي جزء من أجزاء الأرض، قد يَدَّعُون أنَّها ملكهم، وأنَّهم أحرار فيها؛ فالأرض كلُّها بيت مُوَحَّد؛ للأسرة الإنسانيَّة الممتدة، يرثها عبادُ الله الصالحون.

قصة الرِّهان:

لقد شَغَلَ جمهرةُ المفسرين قديماً وحديثاً أنفسَهُم بقضيَّة الرهان، بين أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمية بن خلف، والحديث الذي ورد في تلك المناسبة.[1]

والحقيقة أنَّ ذكر هذه الواقعة بين الروم والفرس، وتعليق القرآن الكريم عليها: ينبهنا إلى أنَّ التدافع بيننا وبين الروم، أو الغرب سوف يكون طويلاً، ومستمراً، كالتدافع بيننا وبين بني إسرائيل، لكنَّ هناك اختلافاً كبيراً بين تدافعنا مع بني إسرائيل، وتدافعنا مع الروم؛ ففي هذه السورة إشارات كثيرة إلى العِلْم، وإلى الفرق بين العِلْم -كما ينبغي أن يكون عندنا- والعِلْم كما هو عند الآخرين وبخاصَّة الرومُ،

---

(١) القصة كما ذكرها عُرْوَة بن الزُّبَيْر عن نِيَارِ بن مُكْرَمٍ الأَسْلَمِيِّ، قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: ١-٤] فَكَانَتْ فَارِسُ يوم نَزَلَتْ هذه الْآيَةُ قَاهِرِينَ لِلرُّومِ، وكان الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُورَ الرُّومِ عليهم؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وفي ذلك قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾ [الروم: ٤-٥] فكانت قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسَ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ، ولا إِيمَانٍ بِبَعْثٍ، فلما أَنْزَلَ الله تَعَالَى هذه الْآيَةَ خَرَجَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَصِيحُ في نَوَاحِي مَكَّةَ ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: ١-٤] قال نَاسٌ من قُرَيْشٍ لِأَبِي بَكْرٍ: فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ زَعَمَ صاحبكم أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فارساً في بِضْعِ سِنِينَ أَفَلَا نُرَاهِنُكَ على ذلك. قال: بَلَى، وَذَلِكَ قبل تَحْرِيمِ الرِّهَانِ، فَارْتَهَنَ أبو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ، وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ: كَمْ تَجْعَلُ الْبِضْعُ، ثَلَاثُ سِنِينَ إلى تِسْعِ سِنِينَ؟ فَسَمِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطاً تَنْتَهِي إليه، قال: فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ. قال: فَمَضَتْ السِّتُّ سِنِينَ قبل أَنْ يَظْهَرُوا، فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أبي بَكْرٍ فلما دَخَلَتْ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتْ الرُّومُ على فَارِسَ، فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ على أبي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قال: ﴿ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: ٤] قال: وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذلك نَاسٌ كَثِيرٌ." انظر:

- الترمذي، **الجامع الكبير (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عن رسول الله ﷺ، بَاب وَمِنْ سُورَةِ الرُّومِ، ج٥، حديث رقم (٣١٩٤)، ص٣٤٤، وقال: هذا حَدِيثٌ صَحِيحٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ من حديث نِيَارِ بن مُكْرَمٍ، لَا نَعْرِفُهُ إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزِّنَادِ.

فهل سيكون صراعنا معهم -وقد بلغوا ما بلغوه من العِلْم- صراعاً علميّاً معرفيّاً، يكون العِلْمُ أهمَّ أدواته؛ بحيث يدخل العِلْمُ فيه، بوصفه سلاحاً فعالاً وأساسياً؟

كما أنَّ في هذه السورة توجيهاً؛ خفياً، وظاهراً، للأمَّة المسلمة؛ لتأخذ بِكُلِّ أسباب العلم، وشتىٰ أنواعه؛ فتكون قد استوعبتْ ما وصلت إليه الأمم الأخرىٰ؛ من الأسباب المادية، والدنيوية، وانفردتْ عن سواها؛ بربط ذلك بالآخرة، فتكون قادرةً علىٰ تحقيق النصر، علىٰ أولئك الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

إنَّ المفروض علىٰ أبناء الأُمَّة الشاهدة: أن يكونوا علىٰ علم واسع شامل، لا ينحصر في ظواهر الحياة وقشورها، فذلك أمرٌ مفروغ منه، يستطيعونه هم، كما يستطيعه غيرُهم، ولكن المفروض أن يكونوا علىٰ علم بحقائق الأشياء، ودخائلها، ومآلاتها، وربطها بمقاصد القرآن وآياته، والتزود للدار الآخرة؛ لأنَّهم قوم لا يغفلون عن فعل الله في الكون، وغيرهم لا يفقهون هذا؛ فيقتصرون في علومهم علىٰ ظاهرٍ من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

مستقبل الصراع بين الروم الكتابيين والفرس الوثنيين:

إنَّ حديث السورة عن مستقبل الصراع بين النصارىٰ؛ من أهل الكتاب، أو الروم، والوثنيين الفرس، فيه إشارة إلىٰ صلات القرابة، واتفاق الأهداف، بين الكتابيين جميعاً؛ بمن فيهم الأُمَّة التي حملتِ القرآن، فقد صارتْ أمَّةً كتابيَّةً، تحمل كتاباً مصدقاً لما بين يديه، ومهيمناً عليه، وأنَّ هذه الصلات تجعل الكتابيين مطالَبين بالوفاء بالعهود؛ التي أُخِذَتْ عليهم، قبل بعثة محمد ﷺ بأن يؤمنوا بهذا النبي، وبالكتاب الذي حمله، وفي الوقت نفسِهِ تُوجِّه نظرَ الأُمَّة صَوْب فقه المآلات؛ فهي أمور ليس لمؤمن أن يغفل عنها، أو ينساها، أو يتجاهلها في كلِّ الشؤون.

لقد كان العرب قبل البعثة منقسمين إلىٰ غساسنة؛ تحت حكم الروم، وإلىٰ مناذرة؛ تحت حكم الفرس، فحينما تتحارب الدولتانِ: فإنَّ هناك عرباً في جيش كلٍّ منهما، يتحاربون، ويتأثرون بالنصر والهزيمة التي تصيب أياً منهما، صحيح أنَّ عربَ الجزيرة

العربية -بما فيهم قريش- كانوا فيما يشبه الاستقلال، إذا تجاوزنا عن ضغوط الحاكمين في اليمن والفرس والروم، لكنَّهم يتأثرون بالقتال الذي يحدث بين هذه الدول، التي كانت تعد دولاً عظمىٰ في التاريخ القديم، فلا غرابة أن يكون هذا الاهتمام لديهم، وأن يشير القرآن المجيد إليه، ويواكب الحدث.

أمَّا قوله جَلَّ شَأْنُه: ﴿ ..وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم: ٤-٥] فإنَّ من غير المقبول أن يفرح المؤمنون بنصرٍ مهما يقال فيه، فإنَّه لكتابيين علىٰ وثنيين، فكيف يقرر القرآن المجيد فرح المؤمنين بهذه الطريقة، هل لمجرد كون الكتابيين كتابيين؟ وإن حرَّفوا، وبدَّلوا، وخالفوا كتب النبيين والمرسلين، بل وكَذَّبوا من كَذَّبوا وقتلوا من قتلوا؟

إنَّ المتدبّر يجد في الآية حذفاً ينطوي مكنونها عليه، تقديره: "كذلك أنتم أيُّها العرب المسلمون، ستقاتلون الروم والفرس، وستنتصرون علىٰ الاثنين، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، الفرح الحقيقي"، فتكون الآية في منطوقها قد رحبتْ بالفرح بانتصار الحليف، وفي مكنونها نبهتْ إلىٰ رؤية مستقبليَّة؛ أنَّ هذه القوىٰ لَنْ تترك المؤمنين يؤسِّسون قاعدتهم في جزيرة العرب، ثم ينطلقون منها آمنين، يحملون هذا القرآن، ويَدْعون الناس إلىٰ الإيمان بالله، والاستجابة له وللرسول ﷺ وأنَّكم ستقاتلونهم جميعاً، بقطع النظر عمن سوف ينشئ الحرب ضدكم، وستنتصرون عليهم؛ فيومئذ يفرح المؤمنون بالنصر الحقيقي لله جَلَّ شَأْنُه الذي ينتصر فيه أهل الإيمان علىٰ أهل الشرك؛ بِكُلِّ أنواعه «وهذا ما حدث بعد فتح الشام، والعراق، وتدمير الدولتين، والانتهاء من القوتين العظميين؛ لتظهر القوةُ الثالثةُ؛ الخيِّرةُ، الشاهدةُ، الوسط.

وقد يُعَزِّزُ ما ذهبنا إليه: ما قاله ابن عطية في المحرر الوجيز: «وقوله تعالىٰ ﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾ [الروم: ٤] يحتمل أن يكون عطفاً علىٰ "القبل" و"البعد"، كأنَّه حصر الأزمنة الثلاثة الماضي والمستقبل والحال، ثم ابتدأ الأخبار بفرح المؤمنين بالنصر".

وأشار ابن عطية بعد ذلك إلىٰ أنَّه فَرْحٌ بانتصار الحليف المؤقت، وبتصديق ما جاء القرآن به؛ من الوعد بالغلبة في بضع سنين، أو أن يكون الفرح بنصر يخص المسلمين علىٰ عدوهم، والذي حدث إمَّا يوم بدر، أو بيعة الرضوان، ولا مانع أن

يكون ذلك مراداً، ومعه في الوقت نفسه انتصار المسلمين علىٰ دولتي فارس والروم معاً فيما بعد، وهو ما ينبه إليه قوله جَلَّ شَأْنُه: ﴿ ..لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ . ﴾[الروم: ٤].

فما أروعَ الدروسَ الكثيرة جدّاً، التي يمكن أخذها من هذه السورة الكريمة، خاصَّة في هذه الظروف، التي تتداعىٰ فيها الأممُ علينا؛ كما تداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها، وتسود الهزيمة النفسيَّة تجاه القوىٰ الخارجيَّة!

إنَّ هذه السورة تمثل هادياً، ودليلاً؛ مثل باقي آيات الكتاب الكريم وسوره؛ لإخراج أمَّة المسلمين من ضغط الواقع السيِّئ الذي تمزقت فيه وَحْدَتها، ودالت دولتها، وتشتت شملها، وأصبحت خيراتها ومواردها نهباً لخصومها وأعدائها، وكل ذلك في الحقيقة راجع إلىٰ تنكبها الصراط السوي، وعدم اهتدائها بالكتاب الكريم، وقراءته قراءة حِمَارية؛ مثل قراءة بني إسرائيل؛ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لَمْ يحملوها، فكان مثلهم كمَثَل الحمار يحمل أسفاراً، وكلّ ما نشاهده يدمي القلب، ويفتتُه، ويكادُ يُذهب عقلَ اللبيب ولُبَّه، فمتىٰ تعود هذه الأُمَّة إلىٰ هذا الكتاب؛ ليستقيم أمرها، وتخرج من تيهها وضياعها؛ الذي زاد أضعافاً مضاعفة عن تيه بني إسرائيل؛ الذي استمرَّ أربعين سنة؟!

نسأل الله -جَلَّ شَأْنُه- أن يهيِّئ لهذ الأُمَّة أَمْرَ رُشْدٍ، ويردّها إلىٰ موقعها الصحيح؛ بلطفه، وعنايته، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

ولعل الحديث الذي رواه الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ عِنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يزيد في وضوح ما نحن فيه. قال المستورد: "سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ». فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: «أَبْصِرْ مَا تَقُولُ». قَالَ: «أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ»، قَالَ: «لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ أن فِيهِمْ لَخِصَالاً أَرْبَعاً؛ إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وضعيّفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ»[١].

(١) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كِتَاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَاب تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ الناس، حديث رقم (٢٨٩٨)، ص١١٦١.

فلعل في هذا الحديث؛ الذي أخرجه مسلم وغيره: ما يشير إلىٰ نقاط القوة، التي تجعل الروم (أو الغرب كما نسميه اليوم) قادرين علىٰ البقاء والاستمرار؛ بالأخذ بمسالك القوة، وكذلك الحديث الآخر، الذي روي وكأنَّه في إطار القراءة لمستقبل الصراع الإسلاميِّ الفارسيِّ الروميِّ في العالم القديم، «عن ابن محيريز قال: قال رسول الله ﷺ: «فارس نطحة أو نطحتان، ثم لا فارس بعدها أبداً، والروم ذات القرون؛ كلما هلك قرنٌ خلف مكانه قرن أهل صخر، وأهل بحر، هيهات لآخر الدهر، هم أصحابكم ما كان في العيش خير."[١]

إنَّ القرآن لَمْ يقف بالمسلمين وخصومهم عند هذا الوعد، ولا في حدود ذلك الحادث، بل جعل من ذلك مناسبة؛ لينطلق منها بهم إلىٰ آفاق أبعد، وآماد أوسع، من ذلك الحادث الموقوت والرهان عليه؛ وليصلهم بالكون كلِّه؛ وليربط بين سنَّة الله في نصر الإيمان وأهله، والحقّ الكبير الذي قامتْ عليه السموات والأرض وما بينهما؛ وليصل بين ماضي البشريَّة، وحاضرها، ومستقبلها، ثم يستطرد بها إلىٰ الحياة الأخرىٰ، بعد هذه الحياة الدنيا، وإلىٰ العالم الآخر، بعد عالم الأرض المحدود، ثم يطوف بهم في مشاهد الكون، وفي أغوار النفس، وفي أحوال البشر، وفي عجائب الفِطَر؛ فإذا هم في ذلك المحيط الهائل الضخم الرحب، يطلعون علىٰ آفاق من المعرفة، ترفع حياتهم وتطلقها، وتوسع آفاقها، وتخرجهم من تلك العزلة الضيقة؛ عزلة المكان والزمان والحادث، والانحصار في عمليَّات الاستقطاب بين الروم والفرس (الدولتين العظميين في ذلك العصر)، إلىٰ فسحة الكون كلِّه؛ ماضيه وحاضره ومستقبله، وإلىٰ نواميس الكون وسننه وروابطه.

---

(١) الهيثمي، نور الدين علي بن سليمان بن أبي بكر (توفي: ٨٠٧هـ). **مسند بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث**، تحقيق: حسين أحمد صالح الباكري، المدينة المنورة: مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، ط١، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ج٢، حديث رقم (٧٠٢)، ص٧١٣.

قال المناوي: يريد أن فارس تقاتل المسلمين مرة أو مرتين، ثم يبطل ملكها ويزول، فحذف الفعل لبيان معناه، ويريد «بأصحابكم» إن فيهم السلطنة والإمارة علىٰ العرب، والحديث إسناده ضعيف، انظر:

- المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف (توفي: ١٠٣١هـ). **التيسير بشرح الجامع الصغير**، الرياض: مكتبة الإمام الشافعي، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ط٣، ج٢، ص٣٢٢.

ومن ثَمَّ يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات، وحقيقة العلاقات في هذا الكون الكبير، ويشعرون بضخامة النواميس التي تحكم هذا الكون، وتحكم فطرة البشر؛ ودقة السنن التي تصرف حياة الناس، وأحداث الحياة، وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة؛ وعدالة الموازين التي تقدر بها أعمال الخلق، ويُقوَّم بها نشاطُهم في هذه الأرض، ويَلقون على أساسها الجزاء في الدنيا والآخرة.

وفي ظل ذلك التصور المرتفع الواسع الشامل، تتكشف "عالميَّة الخطاب القرآنيِّ"، وارتباطه بأوضاع العالم كُلِّه من حوله؛ بقاعدة بناء الأُمَّة الشاهدة الوسط، حتى وهي ناشئة في مكة، محصورة بين شعابها وجبالها، وإنَّها إشارة إلى تلك النواة، أنَّها سيتسع مجالها، فلا تعود مرتبطة بهذه الأرض وحدَها، بل تكون مرتبطة كذلك بفطرة هذا الكون ونواميسه الكبرى، وفطرة النفس البشريَّة وأطوارها، وماضي هذه البشريَّة ومستقبلها، لا على هذه الأرض وحدَها، ولكن كذلك في العالم الآخر الوثيق الصلة بها والمتين الارتباط بها.

وكذلك يرتبط قلب المسلم بتلك الآفاق والآماد؛ ويتكيَّف على ضوئها شُعورُهُ وتصورُهُ للحياة والقيم؛ ويتطلع إلى السماء والآخرة؛ ويتلفت حواليه إلى العجائب والأسرار، وخلفه وقدامه إلى الحوادث والمصائر، ويدرك موقفه هو، وموقف أمَّته، في ذلك الخضم الهائل؛ ويعرف قيمته هو، وقيمة إيمانه في حساب الناس، وحساب الله؛ فيؤدي حينئذ دوره على بصيرة، وينهض بتكاليفه، في ثقة، وطمأنينة، واهتمام.

ويمضي سياق السورة في عرض تلك الارتباطات، وتحقيق دلالاتها، في نظام الكون، وتثبيت مدلولاتها في القلوب. ويمضي سياق السورة في شوطين مترابطين:

في الشوط الأول: يربط نصر المؤمنين بالحق، الذي تقوم عليه السموات والأرض وما بينهما، ويرتبط به أمرُ الدنيا والآخرة، ويوجه قلوبهم إلى سنَّة الله فيمن مضى قبلهم من القرون، ويستدل به على قضيَّة البعث والإعادة، ومن ثَمَّ يعرض عليهم مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وما يجري فيه للمؤمنين والكافرين، ثم يعود من هذه الجولة إلى مشاهد الكون، وآيات الله المبثوثة في تضاعيفه؛ ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقلوب، ويضرب لهم من أنفسهم، ومما ملكت أيمانهم مَثَلاً يكشف

سخافة فكرة الشرك، وقيامها على الأهواء؛ التي لا تستند إلى حق أو علم، وينتهي هذا الشوط بتوجيه الرسول ﷺ إلى اتباع طريق الحقّ الواحد الثابت الواضح، طريق الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ والتي لا تتبدل، ولا تدور مع الهوى، ولا يتفرق متَّبعوها فرقاً وشيعاً؛ كما تفرَّق الذين اتبعوا الهوى، ففرَّقوا دينهم، وكانوا شيعاً.

وفي الشوط الثاني: يكشف عمَّا في طبيعة الناس من تقلّب، لا يصلح أن تُقام عليه الحياة، ما لَمْ يرتبطوا بمعيار ثابت، لا يدور مع الأهواء، ويصوّر حالهم في النعماء والضراء، وعند بسط الرزق وقبضه، ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق، وتنميته، ويعود إلى قضيَّة الشرك والشركاء، فيعرضها من هذه الزاوية؛ فإذا هم لا يَرزُقون ولا يُميتون ولا يُحيون، ويربط بين ظهور الفساد، في البر والبحر، وعمل الناس وكسبهم؛ ويوجههم إلى السير في الأرض، والنظر في عواقب المشركين من قبل، ومن ثَمَّ يوجه الرسول ﷺ إلى الاستقامة على دين الفطرة، من قبل أن يأتي اليوم الذي يجزى فيه كلّ إنسان بما كسبت يداه، ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله في مشاهد الكون؛ كما عاد بهم في القسم الأول، ويعقب عليها بأنَّ الهُدى هدى الله، وأنَّ الرسول ﷺ لا يملك إلّا البلاغ، فهو لا يَهدي العمي، ولا يُسمع الصم. ثم يطوف بهم في جولة جديدة في ذوات أنفسهم، ويذكرهم بأطوار نشأتهم؛ من بدئها، إلى منتهاها، منذ الطفولة الواهنة الضعيفة، إلى الموت، والبعث، والقيامة، ويعرض عليهم مشهداً من مشاهدها، ثم يُنْهي هذا القسم، ويختم معه السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر على دعوته، وما يلقاه من الناس فيها؛ والاطمئنان إلى أنَّ وعد الله حق لا بُدَّ آتٍ؛ فلا يُقْلِقُهُ، ولا يستخفه الذين لا يوقنون."(١)

والسورة بعد ذلك أُنموذجٌ للسور، التي جمع القرآن فيها بين القراءتين؛ قراءة الوحي، وقراءة الوجود، وهي أُنموذج متميزٌ لقراءة الجمع بين القراءتين، فهي تجول في الإنسان جَوْلات سريعة متعمقة في جوانب الكون وفي جوانب الوحي، وفي مقدور الإنسان القارئ الجيد أن يلحظ منهجها في الجمع بين القراءتين في جميع آياتها.

وفي السورة دروس وعبر لكل أولئك الذين أسلموا وآمنوا، ولكنهم لَمْ يُخْلِصُوا الإسلام والإيمان لله جَلَّ شَأنُه، بل شاب إيمانَهم وإسلامَهم شركٌ كبير، وظلم عظيم؛

---

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٧٥٥-٢٧٥٦.

مثل الذين يقولون: إنَّ جميع أوراق القضيَّة الفلانيَّة، أو غيرها، من قضايا الأُمَّة المسلمة: بأيدي الجهات الفلانيَّة، وينسون الله عزَّ وجَلَّ الذي منه النصر كلّه، وأنَّه ينصر من يشاء، وأنَّه يعِد أناساً بالنصر؛ لاستكمالهم وسائلَه وأدواته؛ فينصرهم عزَّ وجَلَّ عندما يقدِّر ذلك، ووفق موعد لا يخلفه -جَلَّ شَأْنُه- فالمؤمن الحقّ لا يكون مؤمناً حَقّاً، ولا يكون خالص الإيمان لله تعالىٰ إلا حين يؤمن بأنَّ الله -جَلَّ شَأْنُه- وَحْدَه مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو علىٰ كلّ شيءٍ قدير ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وأنَّه وَحْدَه الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وأنَّ انتصار من ينتصر وخذلان من يُخذَل، ذلك كُلُّه راجع إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا إلىٰ أحد لا يؤمن إيماناً يقينياً ثابتاً بهذه الحقيقة.

والسورة أعلنت هزيمة الروم، وأعلنت أنَّهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين؛ لتشير إلىٰ التغيير الذي سيحدثه الروم في أنفسهم ونظامهم وتسليحهم وتدريبهم الذي سيؤمن لهم النصر في بضع سنين؛ بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ووفقاً للسنن والقوانين التي أودعها في هذا الكون، لأنَّ له -جَلَّ شَأْنُه- الأَمرَ من قبل ومن بعد؛ فمتىٰ يراجع المسلمون أنفسهم؟ ومتىٰ يستردون إيمانهم الذي ذهب الشركُ بنصيب وافر منه؟ فأشركوا بالله ما لَمْ ينزل به سلطاناً، من قوىٰ عظمىٰ ودنيا ومنظمات دوليَّة وإقليمية وسواها، وهم الذين علّمهم رسول الله ﷺ كيف يعتمدون عليه سبحانه، ويكلون الأمور كلَّها إليه، ويعرفون سننه وقوانينه في التداول والتدافع، وكيفيَّة تسخير الله -جَلَّ شَأْنُه- لتلك السنن والقوانين، لمن آمن من عباده، وأخلص في إيمانه واستقام في سلوكه، وصار عبداً لله عزَّ وجَلَّ، لا يتصرف إلّا من أجله وطلباً لرضاه ومثوبته؛ ولذلك فإنَّ «جيل التلّقي» لَمْ يكن ينظر إلىٰ نفسه إلّا أنَّه جيل ابتعث الله نبيّاً ورسولاً له، يبلغه آياته ويتلوها عليه، ويعلمه الكتاب والحكمة ويزكيه بها، ثم ينقل ذلك كلَّه إلىٰ الذين يستجيبون لله وله؛ ليكوِّن منهم الأُمَّة، ولذلك كانوا يقولون: «إنَّ الله ابتعثنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وَحْدَه، ومن جَوْر الأَديان إلىٰ

عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة.» كان كلّ همهم أن يخلصوا لله إيمانهم، وأن تخبت له قلوبهم، وأن يعلموا أنَّهم جند الله، وما يعلم جنود ربك إلّا هو، فهم جند الله من البشر، ينضمون إلىٰ جنود الله الأخرىٰ التي لا يعلمها إلّا الله -جَلَّ شَأنُه- ومنها السنن الكونيَّة والطبيعيَّة والاجتماعيَّة والموازين المختلفة. وإذا قصَّرت جهود البشر من المؤمنين المخلصين فإنَّ لله جنوداً آخرين؛ يشدون أزرهم، ويبشرونهم بالنصر؛ كما أنَّ لله سنناً، تثبت أقدام قوم، وتزلزل أقدام آخرين، دون إخلال بالأسباب التي لا بُدَّ منها، والتي أمر الله -جَلَّ شَأْنُه- بالعناية بها؛ من إعداد العُدَدِ، وتهيئتها، وعدم التهاون في شيء منها.

نجوم السُّورة:

النَّجم الأول: (الآيات من ١ حتىٰ٧)

قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ④ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ⑥ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ⑦﴾ [الروم: ١-٧]، إكمالٌ لما تقدم في تناولنا لهذا النَّجم، نود أن نشرك القارئ فيما تدبرناه من هذه الآيات، فقوله (غُلِبَت) من الغلبة بمعني القهر؛ أي: تَمَّ التغلبُ عليها، والانتصارُ علىٰ قواتها، وقهرُ إرادتها، وقد وردتْ مادة هذا الفعل في غير هذا المكان من القرآن الكريم، حيث قال جَلَّ شَأْنُه: ﴿..كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾[البقرة: ٢٤٩]؛ أي: انتصرتْ عليها وقهرتْها، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ⑥⑤﴾ [الأنفال: ٦٥]، وقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ②①﴾ [المجادلة: ٢١]، أي لأغلبن الكافرين، بياناً لقوله جَلَّ شَأْنُه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ⑤①﴾ [غافر: ٥١] فالله غالب علىٰ أمره، وخاطب الشيطان المشركين، ووسوس لهم بقوله: ﴿..لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ

لَكُمْ..﴾[الأنفال: ٤٨]، (لا غالب لكم اليوم؛ أي: ليس هناك من يستطيع قهركم، وإنِّي جار لكم؛ أي: مجير وناصر) وقال -تعالىٰ- علىٰ لسان سحرة فرعون: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الشعراء: ٤١] وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الغلبة لا تقتصر علىٰ الانتصار في المعارك الحربيَّة، بل يمكن استعمالها في كلِّ ما فيه صراعٌ، أو نزاعٌ، أو تنافسٌ؛ كما فيما هو جارٍ في زماننا؛ هذا من تنافس في الرياضة، بشتَّىٰ أنواعها، والتي تنتهي بغالب ومغلوب، لكنَّها إذا أُطلقت فَإنَّها تنصرف إلىٰ الصراع المسلح أو الحربي.

وقوله: ﴿ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٣]؛ أي: أقربها إلىٰ شبه جزيرة العرب، ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ [الروم: ٣] أضاف المصدر إلىٰ الضمير؛ ليوضح أنَّهم -من بعد أن غُلبوا وقُهروا- ﴿سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الروم: ٣] مَنْ قَهَرَهم، وينتصرون عليه، ويقهرونه، ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ ﴾ [الروم: ٤] والبضع: من الثلاثة إلىٰ ما دون العشرة، وفي ذلك حكمة كبيرة، أراد أن يشد أذهان المسلمين وأنظارهم، إلىٰ كلِّ ما يحيط بهم، وقد يشكِّل تهديداً لهم، أو يعترض سبيلهم فيما بعد؛ ليهيئ عقولهم وأذهانهم وقواهم وطاقاتهم؛ لمواجهة ما سوف يَجِدُّ بعد ذلك، فإنَّ وضع العالم القديم حين بعث سيدنا رسول الله ﷺ كان أشبه بوضع عالمنا اليوم؛ حيث كان الروم والفرس أشبه بالروس والأمريكان، قبل توقف الحرب الباردة، وانهيار الاتحاد السوفيتي، وذلك يعني أنَّ أبناء الأُمَّة الشاهدة، ينبغي أن يكونوا شهوداً علىٰ العالم، لا يغيبون، ولا يغفلون، عما يجري فيه.

ولئلا تستغرقهم الظلمات، وتصيبهم بالغفلة عن المسبب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّ الله -جَلَّ شَأْنُه- يذكرهم بأنَّ الأَمر له من قبل ومن بعد، وأنَّ النصر والهزيمة، لا يمكن أن يقع أيٌّ منهما بالوسائل الماديَّة المجردة، بل لا بد من اقتران ذلك بالمشيئة الإلهيَّة، فالخلق خلقه، والكون كونه، والأَمر أمره، وإليه ترجع الأمور من قبل ومن بعد، فهزيمة الروم لَمْ تخرجْ عن دائرة المشيئة، وانتصارهم القادم لَنْ يتجاوز دائرة المشيئة؛ كذلك؛ لأنَّ لله الأَمر من قبل ذلك، ومن بعده.

وهذه قضيَّة مُهمَّة: كثيراً ما يغفل الناس عنها، وتعشو أبصارهم وبصائرهم عن تذكرها؛ انشغالاً بالأسباب عن المسبِّب، وقد يعطي بعضُ الناس للأسباب

أوزاناً لا تستحقها، فتشلّ حركته، أو ينطلق بتهور، ويفقد الميزان، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حين أنزل الكتاب: أنزل معه الميزان، والميزان يساعد علىٰ إعطاء الأسباب حجمها الحقيقيّ، دون غفلة عن خالق الأسباب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجاعلها أسبَاباً، وهذه المعادلة كثيراً ما تختلّ لدىٰ الناس، وهي في حاجة إلىٰ ألّا يغفل عنها أحد، ولا يتجاوزها أحد؛ ولذلك فقد بدأ الله -جَلَّ شَأْنُه- برسله الكرام؛ ليؤدبهم بهذا الأدب معه، فيأخذو بالأسباب علىٰ أنَّها مسخرات، سخرها الله -سبحانه- ويستحضروا دائماً أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو من جعلها أسبَاباً، وهو قادر علىٰ تعطيلها، وأنَّ كلّ شيءٍ بمشيئته -وفرق بين المشيئة والإرادة- فثمَّةَ جوانب ثلاثة: جانبُ الأَمر أو (عالم الأمر)، وهو مجال يندرج فيه الغيب المطلق، وما يتعلَّق بالله -جَلَّ شَأْنُه- من أسماءٍ وصفاتٍ وما إليها، "وأغلب" الذي استأثر الله -تعالىٰ- بعلمه، فلا يُطلع عليه أحداً، إلّا إذا أراد أن يُطلعَ من رسله من يشاء، وجانب المشيئة أو (عالم المشيئة)؛ وهو أمر يتعلَّق بالخلق، وإيجاد الأشياء، وإبرازها إلىٰ الوجود، وجعلها جُزءاً من الوجود الخارجيّ، بعد أن تكون قد دخلتْ في عالم الإرادة بعد ذلك، نحو قوله -تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ①﴾ [الإنسان: ١]، فحين تعلقت مشيئة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بإيجاد الإنسان، جعلت منه شيئاً مذكوراً، وكذلك كلّ الموجودات، أو ما يطلق عليه أشياء، أوجدها الله من عدم، عندما تعلقت مشيئته بها، وذلك ما يطلق بعضهم عليه بعالم الشيئيَّة، أي إيجاد الأشياء؛ إبداعاً، لا عن مثال سابق. وجانب الإرادة أو (عالم الإرادة)، فهو عالم سابق لعالم المشيئة، أي جعل المعدوم شيئاً وإبرازه إلىٰ حيز الوجود؛ ولذلك قال جَلَّ شَأْنُه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ④⓪﴾ [النحل: ٤٠]؛ فعالم الإرادة هنا يماثل عالم التقدير والتدبير، ويزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالىٰ: ﴿ ..وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا يَعْلَمُونَ . ﴾[فصلت: ١٠]، فالتقدير يسبق المشيئة، وبه تتمثل الإرادة الإلهيَّة في إيجاد الأشياء أو إعدامها. فإذاً هناك عوالم ثلاثة لا بُدّ من ملاحظتها؛ (عالم الأمر) وفيه يندرج كلُّ ما يتعلَّق بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وبغيبه المطلق، و(عالم الإرادة) وهو عالم التدبير والتخطيط والتقدير، و(عالم المشيئة)؛ أي: إبراز ما سبق لله -جَلَّ شَأْنُه- أن أراده، أو قدَّره، إلىٰ حيز الوجود، وفي الآية ذكر للعَوَالِم الثلاثة، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ④⓪﴾ [النحل: ٤٠].

وقد يقول قائل: كيف ذكر الله شيئاً لَمْ يكن شيئاً قبل الإرادة؟

فنقول: إنَّ ذلك وجه من وجوه البلاغة، باعتبار ما سيؤول إليه، فإنَّ ذلك المعدوم الذي لَمْ يكن شيئاً يعلم الله أنَّه سيجعله شيئاً؛ فسماه باعتبار ما يؤول شيئاً، فساغ أن يقول جَلَّ شَأْنُه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ أي: وقع في دائرة الإرادة ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾؛ فكن: هي التعبير المتعلق بالشيء، أو بجعله شيئاً، وإبرازه إلىٰ عالم الوجود، وعالم الأشياء، وفي سورة يسَ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل:٤٠]، فتندرج كلُّ التدبيرات التي تسبق المشيئة في إطار عالم الإرادة، وفيه عالم التقدير، والتدبير، وما إلىٰ ذلك.

إنَّ في القرآن إضماراً وحذفاً في بعض الأحيان، ومكنوناً ينطوي الخطاب عليه، والله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أراد أن يبيِّن لنا أنَّ هذه الرسالة الخاتمة هي رسالة تصحيح وتجديد للدين، وإعادة بناء للحنيفيَّة السمحة؛ ملة إبراهيم، علىٰ يدي خاتم النبيين؛ ولذلك فإنَّ خطابها سيبدأ بدعوة الأميين إلىٰ أن يكونوا كتابيين، ثم ينتقل بعد ذلك إلىٰ الكتابيين؛ لتصحيح ما هدموه، وإعادة بنائه، وتقويم ما حرَّفوه، وتنقية ما شابوه وخلطوه؛ حين حرَّفوا الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به؛ فيعيدهم -جَلَّ شَأْنُه- إلىٰ الصدق برسول جاء بالصدق، وصدَّق به، وكتاب مصدِّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، وآنذاك يعم السلام، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤-٥]، وهو تعالىٰ ينصر من يشاء.

وهذا النصر -ليس كما يتصور بعضهم أنَّه فرح المؤمنين بانتصار الروم- بل فرح المؤمنين بظهور الدِّين علىٰ الدِّين كلّه؛ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم: ٥]، وذكر الرحيم هنا فيه إشارة إلىٰ المؤمنين، الذين يستحقون الرحمة ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وَإنَّ وَعَدَ الله بظهور الدِّين علىٰ الدِّين كُلِّه، وانتصار رسل الله؛ المتمثل بانتصار محمد بن عبد الله؛ خاتمهم، ومجدّد ما جاءوا به، هو وَعْدٌ وَعَدَ الله به عبادَه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، ولَكِنَّ أكثر الناس لا يعلمون ما وَعَدَ الله به أنبياءَه ورسلَه، ولا يعلمون أنَّ وعد الله لَنْ يتخلَّف، وفيه إشارة إلىٰ آيات ظهور الدين الثلاثة، في سور التوبة، والفتح، والصف: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، [الصف: ٩].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨].

وفيه إشارة كذلك إلىٰ أنَّ ذلك الضعف -الذي كانوا يرون المؤمنين عليه في مكة- لَنْ يدوم، وَلَنْ يَستمرَّ؛ لأنَّ علمهم قاصر محدود، معلق بظواهر الأشياء لا ببواطنها؛ فهم حين يعلمون إنَّما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، وعلمُ ظاهر الحياة الدنيا لا يكفي؛ لتحقيق انتصار الحقّ علىٰ الباطل، ولا لتحقيق الغلبة، بل لا بُدّ من وجود علم حقيقي شامل، هذا العلم لا يستطيع الإنسانُ أن يحصل عليه إلّا من مصدر واحد، هو كتاب الله، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢] فهو ليس بعلم نظري فحسب، بل علم له واقع مشاهَد، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٥٣].

النَّجم الثاني: دليل الخلق والبعث والنشور ومقدماتها

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾[الروم: ٨-١٦].

الحقّ من "حقَّ" بمعنىٰ "ثَبُتَ"، والحقّ (أي الثابت) الذي لا يعتريه الباطلُ، ولا القلق، ولا يزول إلّا عند حلول الأجل المسمىٰ، الذي سمّاه الله -تعالىٰ- لزواله، ووجود هذا الأجل المسمىٰ لا ينفي كونه ثابتاً، ولا استحقاقه لأن يحمل هذه التسمية، والحقيقة هي الشيء الثابت، الذي لا مراء فيه، ويمكن إقامَة الأدلّة والبراهين علىٰ كونها حَقًّا وأمراً ثَابتاً، وهو مفهوم كَثُرَ ورودُه في القرآن الكريم، وتنوعتِ استعمالاته في سياقات عديدة، بل هو اسم من أسماء الله جَلَّ شأنه؛ لأنَّ الله هو الحقّ الثابت، الذي له في كلِّ شيءٍ آيةٌ، تدلّ علىٰ وجوده، وتثبت ذلك الوجود، وتدلّ علىٰ اتصافه بِكُلِّ صفات الكمال، وابتعاد كلّ صفات النقصان عنه -جَلَّ شَأْنُه- كما قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم: ٨].. وهذه الآية الكريمة تستدعي قولَه تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

كما أنَّ في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ [الروم: ٨] تنبيهاً لهؤلاء الغافلين، الذين يَدَّعُون أنَّهم من أبناء إبراهيم، ويزعمون أنَّه أبوهم؛ ليلتفتوا إلىٰ التفكير السليم المنهجيِّ، في النظر في الكون مثلما فعل إبراهيمُ في آيات الحجة، التي آتاها الله له، والتي ورد تفصيلها في سورة الأنعام، قال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾[الأنعام: ٧٤-٨٠].

وعوداً إلىٰ آية هذا النَّجم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩] وهذه الآية تستدعي إلىٰ الذاكرة آية سورة الأنعام التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦] وآية سورة فاطر: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، هذه الآية تضع لنا أُنموذجاً ثَابتاً للعمران، وتنبِّه للمراد بالحضارة، وتثير تساؤلاً مهماً: هل الحضارة والعمران مفهوم يرتبط بإثارة الأرض، وحرثها وزرعها، أو البناء عليها وإقامَة شواهق العمائر والأبنية، والشوارع المعبدة السالكة بينها، أو هي شيء آخر، يستوعب ذلك ويتجاوزه؟

إنَّ القرآن المجيد ينحاز إلىٰ الإنسان دائماً، ويَعُدُّ سموَّه ورقيَّه والاعتداد بإنسانيَّته وإنمائها أساسَ العمران، وحَجَرَ الزاوية في بناء الحضارة، فلا حضارة طالما لا تُعظِّم شأنَ الإنسان، ولا تحفظُ كرامته التي أكرمه الله بها، ولا تباعد بينه وبين الامتهان والإذلال والاستعباد.

ومن هنا: يُعَدُّ غيرَ ملاحِظٍ للقرآن، من يرىٰ أنَّ الحضارة الإسلاميَّة تجلَّتْ في قصور بني أميَّة بالشام، ومساجدهم، وفي قصور بني العباس في بغداد ومساجدهم ومؤسَّساتهم، ولا ينظر إلىٰ الحضارة كما أُرسيَتْ دعائمها، في مجتمع المدينة علىٰ يدي رسول الله ﷺ، فالمدينة المنورة -حتىٰ وقت قريب- أشبه ما تكون بقرية من القرىٰ الكبيرة، ولم يَبْنِ رسولُ الله ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون من بعده، ناطحاتِ سحاب، ولم يؤسِّسوا لمدينة؛ مثل إرم ذات العماد، وإنَّما كان الجهد كُلُّه متَّجها نحو الإنسان، وكيفيَّة إصلاحه، وتعليمه الكتاب والحكمة وتزكيته، وجعله إنساناً مكرَّماً، مستخلفاً مؤهلاً لقيادة قوافل التسبيح لله -جَلَّ شَأْنُه- في هذه الأرض في الحياة الدنيا، وإحباط جهود الشيطان؛ لصرف الناس عن سبيل الله تبارك وتعالىٰ.

فهذه القرية علىٰ صغر مبانيها وعمرانها، تُعَدُّ صانعة الحضارة، وأقربَ إلىٰ رُوح العمران القرآنيِّ من الشام، وما شاده الأمويون فيها، وبغداد وما عمّره العباسيون فيها، وإسطنبول وما عمّره العثمانيون فيها.

من هنا نستطيع أن ندرك كيف تغيَّرت المفاهيم، وأصبحت العمارة والحضارة رهناً بالقدرة علىٰ تصنيع الحجر؛ ففي الماضي وفي عهود الوثنيَّة كان الحجر يُصنع أصناماً آلهةً، وكانت بعض الأمم تنحت من الجبال بيوتاً، وتثير الأرض وتعمّرها، وتشق الأنهار والقنوات، وتزرع وتحصد، وتفعل الكثير، ولو علىٰ حساب اضطهاد الإنسان، وإذلاله والهبوط بكرامته؛ فقد بُنيتِ الأهرامات، والقلاع الرومانيَّة، وساحات الألعاب والمصارعات، وتفاخر الناس بها، ونظروا إليها علىٰ أنَّها مصدر فخارهم، وعزهم، وإبداعهم؛ بقطع النظر عن تلك الأرواح، التي كانت تزهق، والناس يقومون ببناء تلك القلاع، والأهرامات والجِنان المعلّقة وما إليها.

نزل القرآن علىٰ قلب محمد بن عبد الله ﷺ؛ ليبين للناس أنَّ الإنسان وكرامته وحياته وطاقاته ودوره في الحياة: أجلُّ وأهمُّ من ذلك كُلِّه، ودار الزمان وبرزت النظريَّات المعاصرة للتنمية الشاملة، والجزئيَّة، وما إليها، فأعدَّتِ البرامجَ العشريَّة، والخمسيَّة، وسواها، ونُظِرَ إلىٰ الإنسان لا علىٰ أنَّه هدف التنمية وصانعها، بل علىٰ أنَّه وسيلة، وأداة؛ لتحقيقها وإنجازها؛ فكثيراً ما حُرِم وعُطِّلَ عن العمل، وامتُهنتْ كرامتُه، وأُوذي في إنسانيَّته؛ من أجل تحقيق ذلك، الذي سمي بالتنمية، ولما برزتْ بعض المشكلات: حاولوا معالجتها بما أطلق عليه «التنمية البشريَّة»، والقرآن الكريم يؤسِّس لهذه التنمية؛ بالتوحيد والتزكية؛ التي تجعل الإنسان قادراً علىٰ صناعة التنمية، وإيجادها.

إنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد خلق السموات والأرض بالحقّ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١]، ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٩]، ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣]، وهذا الثبات الذي بمقتضاه استحقت السمواتُ والأرض أن يوصف خلقُها بأنَّه حق، أي ثابت دائم مستقر، فإذا خلا شيء من ذلك الحقّ الثابت، فإنَّه يكون لهواً ولعباً؛ ولذلك قال جَلَّ شَأْنُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ [محمد: ٣٦]؛ لأنَّها حين تخلو من التوحيد والتزكية، وتغيّر في مفاهيم العمران والبناء والحضارة، فَإنَّها تتجه نحو العدم، والعبث، لا نحو شيء آخر.

هنا يبرز الكفر بوصفه مانعاً من التفكير، ومعطلاً لقوىٰ الوعي، وصارفاً لها عن أداء وظائفها: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ [الروم: ٨] أَوَلَمْ يُقلّبوا أذهانهم، وقوىٰ الوعي لديهم: في أنفسهم، وهو مِثْلُ قوله تعالىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ فهو حضٌّ من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لهم أن يتفكروا في أنفسهم، ليدركوا أنَّ الله -جَلَّ شَأْنُه- ما خلق السموات والأرض إلّا بالحقّ؛ فلم يخلقهما عبثاً، ولا لعباً، ولا لهواً، ومن ثَمَّ فهو لَنْ يترك الناس سدًىٰ؛ بل سيحشرهم إليه جميعاً، ويحاسبهم علىٰ ما قدّموا في هذه الحياة الدنيا؛ ليكونوا فريقين بعد ذلك: فريق في الجنة وفريق في السعير.

علىٰ أنَّ الربط بين الأَنفُس والآفاق، أو بين الأَنفُس والسموات والأرض، مُنَبِّهٌ علىٰ أنَّ الإنسان -وإن بَدَا صغيراً- ففيه انطوىٰ العالم الأكبر، كما روي عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

دواؤك منك ولا تشـعر   وداؤك منـك ولا تبصر
وتزعم أنَّك جِرْمٌ صغير   وفيك انطوىٰ العَالَمُ الأكبرُ

فالإنسان ابن هذا الكون، وسيِّده المستخلف فيه. والمنظومة الكونيَّة مثل المنظومة الإنسانيَّة؛ كلٌّ منهما شبيهٌ بالآخر، يدلُّ علىٰ وجوده ويستدعيه.

والأجل المسمّىٰ قد مرّ في سورة الأنعام، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٢]؛ فهناك الآجال الجزئيَّة؛ التي يرتبط بها الأفراد وآجالهم، وهناك الأجل المسمّىٰ للأحياء كافَّة، حيث يفنىٰ كلُّ من عليها ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام؛ أَلَا وهو يوم القيامة.

فكون وجود الأجل المسمّىٰ، لا ينفي كونها حَقّاً، ثَابتاً، مستمراً؛ من بداية الخلق، حتىٰ حلول الأجل المسمىٰ.

إنَّ هذا الإنسان، حين تمسه النعماء، وتحيط به السراء، كثيراً ما يغفل عن نفسه، وعن حقيقته، وقد يوهمه الشيطانُ وكبرياؤه وايحاءاتُ شياطين الإنس والجن، أنَّه مالك هذا الكون وموجدُه، وليس مجرد إنسان مخلوق مُستخلَف فيه، متمتع بما أودع الله فيه من نِعَم، هي ليست من صنع الإنسان، حتىٰ وإن بدا للإنسان أنَّه يصنع شيئاً، بل هي من صنع الله -تعالىٰ- بل حين يغفل عن ذكر الله أو ينساه، تُسارِعُ نزعة

الطغيان والاستعلاء فيه، إلىٰ الظهور؛ فيمشي في الأرض مَرَحاً؛ كأنَّها له، وكأنَّه قادر علىٰ اختراقها، ألم يقل فرعون لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥١-٥٢]؟ فيرىٰ أنَّ هذه النعم كأنَّها بعض ما خلق وأوجد بنفسه، فيبغي علىٰ الناس، ويستعلي عليهم!

ولذلك فإنَّ الإنسان في حاجة دائمة إلىٰ أن يتفكر في السموات والأرض، وما خلق الله فيهما، ويذكِّر نفسه بأنَّها ما خلقت إلّا بالحق، لَمْ يخلقها هو وَلَمْ يَعْيَ الخالق العظيم في عمليَّة إنشائها وإيجادها، فالباطل -الذي منه تلك التصورات الإنسانيَّة الخاطئة الساذجة- لا بد أن يُجتنب، وإلا فقد يبلغ الغرور بهذا الإنسان، الحدَّ الذي بلغه عند فرعون، والذي بلغه من قبله، عند الذي حاجّ إبراهيم، مبلغاً مماثلاً، وزعم أنَّه يُحيي ويُميت، بقتل سجين، وإطلاق آخر، من هنا يصبح التفكير في خلق الله عبادة أساسيَّة، تكوِّن عند الإنسان المناعة؛ من الاستعلاء، والغرور، وكلّ ما يؤدي إلىٰ البغي، والطغيان.

وبعد أن ندبهم إلىٰ التفكير في أنفسهم، أنذرهم، ودعاهم إلىٰ السير في الأرض؛ ليروا عواقب أولئك الذين كذّبوا بآيات الله، واستكبروا عنها، ولم ينظروا فيما جاءهم به رسل الله؛ ليعلموا أنَّه لَنْ تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ولا ثراؤهم وغناهم، فمن أُهلكوا قبلهم، أثاروا الأرض، وعمروها أكثر ممَّا عمروها، وما أغنىٰ عنهم جمعهم، ولا ما بنوا، وشقّوا من طرق وأنهار، وعمروا من مدائن وقصور؛ لما حقَّت عليهم الكلمة، وهؤلاء لَمْ يُهلكوا بظلمٍ؛ لأنَّ الله لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلِمون.

وعاقبة الذين أساءوا السُّوأَىٰ؛ لأنَّهم كذّبوا بآيات الله، وكانوا يسخرون منها، ومن رسل الله؛ فيكون جزاؤهم: أن يُصْرفوا عن آيات الله؛ بما تكبّروا علىٰ رسل الله، واستكبروا في الأرض من دون استحقاق، ولم يُدْركوا أنَّهم علىٰ ضلال، وانحراف، والعياذ بالله رب العالمين: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦]. ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ

يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ [الروم: ١١] مع آيات العنكبوت: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ [العنكبوت: ١٩]، ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ [العنكبوت: ٢٠]، فهو الذي بدأ الخلق لا على مثال سبق، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١١٧]. ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ [الروم: ١٢] ويبلس، أي يَيْأس المجرمون؛ إذ لا عودة إلى الدنيا فيقولون: يا ليتنا نُرَدّ ولا نُكذِّبَ بآيات الله، حيث يعرفون أنّهم لَنْ يستدركوا أو يتلافوا ما حدث؛ حيث لا عودة إلى الحياة الدنيا، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، لو وُجدوا، وَلَنْ يكون في مقدورهم أن يفتدوا من عذاب يومئذ ولو تمنّوا ذلك ورغبوا فيه ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ [الروم: ١٣]، فلا تنفعهم شفاعة الشافعين، وَلَنْ يغنيَ عنهم من الله شيء ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ [الروم: ١٤]: إلى فريقين:

فريقٌ في الجنة: يحبرون؛ أي يسعدون ويسرون ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ [الروم: ١٥]

وفريق في السعير: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ [الروم: ١٦]، وَلَنْ يستطيع الذين استحقوا السعير وعذاب جهنم أن يغيروا من ذلك المصير، وتلك النتيجة المحتمة. قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ [المؤمنون ٩٩-١٠٠].

يحضرهم الملائكة؛ بحيث لَنْ يكون لديهم فرصة لهرب، أو اختفاء؛ فالملائكة الموكلون بهم يحضرونهم إحضاراً؛ لينالوا العذاب ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

النَّجم الثالث: من دلائل القدرة

﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الروم: ١٧] هنا يبدأ الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتذكيرنا بمجموعة كبيرة من الآيات الكونية؛ لتكون دليلاً علىٰ تفرده -سبحانه- بالأَمر ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤] والإرادة، والتدبير، وتحقيق المشيئة، وهي كلها من الآيات الحسيَّة -التي أعطيها الأنبياء من قبل، ويطالبك هؤلاء بأن تأتي بمثلها وكأنَّهم لَمْ يكفروا بأولئك الأنبياء والمرسلين، بالرغم من الآيات الحسيَّة التي قدموها لهم- حيث تأخذنا الآيات القرآنيَّة في جولةٍ، تقف بنا علىٰ النفس الإنسانيَّة، في إطارها الفرديِّ، ومحيطها الأسريِّ، والمجتمعيِّ، وظواهر الطبيعة التي تحيط بها، وكأنَّ في ذكر هذه الآيات مجتمعة، مع تصدير كلٍّ منها بقوله -تعالىٰ: "وَمِنْ آياتِه"؛ تذكيراً للمشركين بغفلتهم، وضآلة فهمهم، وعدم اعتبارهم بِكُلِّ تلك الآيات، ومطالبتهم الدائمة لرسول الله ﷺ بأن يُنَزِّلَ عليهم آياتٍ خارقة للعادة، خارجة عن الإلف: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٧] فكأنَّه -سبحانه- في هذه الآيات يقول لهم: إن كلَّ شيءٍ مذكور هنا هو من آيات الله، بل إنَّ آيات القرآن الكريم الحكيم المجيد التي بلغت ٦٢٣٨ آية[١] كل منها يُعَدُّ آيةً، لو أحسنوا التدبّر، وأبصروا الآيات، ولم تَعْشُ أبصارهم عنها.

(١) طبقاً للحساب العددي من مصحف عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وهذا العدد مختلف فيه، قال ابن كثير: "فأمَّا عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك علىٰ أقوال، فمنهم من لم يزد علىٰ ذلك، ومنهم من قال: ومائتي آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، أو ست وعشرون آية، وقيل: ومائتان وست وثلاثون، حكىٰ ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان، وأمَّا كلماته فقال الفضل بن شاذان عن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة، وأمَّا حروفه فقال عبد الله بن كثير عن مجاهد: هذا ما أحصيناه من القرآن، وهو ثلثمائة ألف حرف، وأحد وعشرون ألف حرف، ومائة وثمانون حرفاً، وقال الفضل بن عطاء بن يسار: ثلثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً، وقال سلام أبو محمد الحماني: إنَّ الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب، فقال: أخبروني عن القرآن كله كم حرف هو، قال: فحسبنا فأجمعوا أنه ثلثمائة ألف وأربعون ألف وسبعمائة وأربعون حرفاً. "انظر:

- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج١، ص١٤٧.

آية الزوجية:

وقد بدأ بشيءٍ بَدَهِيٍّ ومعروف؛ وهو بناء الأسرة فقال جَلَّ شَأْنُه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١] ففي هذه الآية الكريمة على وجازتها: يمكن أن يُدْرِكَ الإنسان مجموعة كبيرة هائلة من المعلومات، والنظم، والفوائد، ويستنبط قوانين لهذه العلاقة؛ التي تبدو -لبساطتها وبداهتها- وكأنَّها علاقة بسيطة جداً؛ لا تستحق الالتفات، لكن الله -جَلَّ شَأْنُه- عَدَّها آيةً من آياته، ودليلاً من دلائل قدرته، فقال جَلَّ شَأْنُه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الروم: ٢١] وهو -جَلَّ شَأْنُه- هنا يشير إلى الخلق الأول؛ أي خلق أمّنا حواء؛ ولذلك استعمل "خَلَقَ" لا "جَعَلَ" وقوله جَلَّ شَأْنُه: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢١]: من جنسكم أنتم، بشراً مثلكم، وما أروع هذا التعبير، في الدلالة على المساواة التامَّة الكاملة بين الرجال والنساء، هي أعمق وأدق في الدلالة على هذه المساواة من أي تعبير آخر عرفته العربيَّة، فهي منكم ومن أنفسكم، ليستْ شيئاً خارجياً، أو بعيداً عنكم، ﴿أَزْوَٰجًا ﴾ [الروم: ٢١] وجمع الزوج هنا دون أن يعطي ما أَلِفَه الناس من تسمية المرأة بزوجة، والرجل بزوج؛ إشارةً إلى تحييد اللغة، فقد استعمل -جَلَّ شَأْنُه- هنا تعبيراً محايداً، فكلٌّ من الزوجين زوج للآخر، دون تأنيث أو تذكير؛ فالرجل زوج، والمرأة زوج، فالزوجيَّة عدد فوق "الفرديَّة" يتجاوزها، وهذا النظام هو نظام سائد في الخلائق كلِّها، وفي مقدمتهم البشر: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس: ٣٦] فنظام الزوجيَّة جعل الله منه دليلاً على وحدانيَّته، تبارك وتعالى، فكل ما في الوجود عداه -سبحانه- خاضع لنظام الزوجيَّة، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَحْدَه هو الفرد الصمد الواحد الأحد، الذي لَمْ يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وخلق البشر أزواجاً، وجعلها من أنفسنا؛ لتحقيق أمور حياتيَّة؛ نفسيَّة، وقلبيَّة، وعاطفيَّة، وأمور حياتيَّة أخرى؛ ماديَّة وحسيَّة.

فخَلْقُ أزواجِنا من أنفسنا -سواء أكنّا رجالاً أم نساءً- هو نعمة كبرى، ودلالة كبيرة على وحدانيَّته -سبحانه-، وفي الوقت نفسه تُحَقِّقُ لكلٍّ من الزوجين؛ الذكر

والأنثىٰ، السكنَ النفسيَّ، والأمنَ، والطُّمأنينةَ، وتُوجِدُ بين الزوجين مودةً ورحمةً.

والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يعطي في هذه الآية الكريمة إشاراتٍ مُهِمَّةً جداً؛ إلىٰ الجوانب النفسيَّة، والقلبيَّة، والعاطفيَّة، وعلاقتها كلّها بالالتزام بأوامره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واتّباع ما ورد في كتابه، لا في الخروج عنه؛ فأولئك الذين يقيمون علاقاتٍ محرَّمةً كثيراً ما تؤدي إلىٰ مشكلات كبيرة، بين الرجل والمرأة، قبل الارتباط بعقد النكاح، ويعرضون أنفسهم للأخطاء، والذنوب: مخطئون حين يتصورون أنَّ المودة والرحمة يمكن أن تأتي قبل الزواج، أو عبر اتصالات تتم خارج إطاره، بل إنَّ الآية الكريمة تنبِّهُ -بوضوح شديد- علىٰ أنَّ المودة والرحمة بين الزوجين، وإحلال ذلك في قلب كلٍّ منهما، إنَّما هو أَمْرٌ إلهيٌّ، يأتي من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أكثر مما يأتي من جهد الإنسان وكسبه، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي يوجد في قلب كلٍّ من الزوجين -إذا التزما بأوامره، ولم يسقطا في نواهيه، ووقفا عند حدود الله، ولم يتعدَّ أيٌّ منهما تلك الحدود- المودةَ والرحمةَ ويؤلف بينهما، ويجمع بينهما بخير؛ ما أقاما حدود الله، وهذا كُلُّه يجعل عمليَّة النكاح عمليَّة تؤدي إلىٰ بناء مؤسَّسة، هي مؤسَّسة الأسرة -اللبنة الأولىٰ في المجتمع الإنساني الصالح- بناءً متيناً قوياً سليماً؛ لتُصبحَ حجرَ زاوية في بناء المجتمع والأُمَّة.

فهي في هذا الإطار آيةٌ من آيات الله، ودليلٌ من دلائل قدرته، وبرهانٌ من براهين وحدانيته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ولو أردنا إعداد كتاب كامل في شرح هذه الآية وتفسيرها وبيانها لأمكن إعداد مجلدٍ كبير في هذا المجال.

وقَدَّمَ ذكرَ الأسرة والزوجيَّة علىٰ آية خلق السموات والأرض؛ لبيان مدىٰ اهتمامه بها، وضرورة بنائها علىٰ أقوىٰ الدعائم؛ علماً بأنَّ خلق السموات والأرض أكبر، ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

آية خلق السماوات والأرض، واختلاف لهجات البشر، وألوانهم:

ثم قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢].

وقد جاء خلق السمواتِ والأرض في القرآن في مواضع عديدة، واسْتُدِلَّ به علىٰ وجود الله، وعلىٰ وحدانيَّته، وعلىٰ البعث والنشور، وذكره هنا في هذا السياق؛ لينبه إلىٰ العلاقة الوثيقة، بين خلق السموات والأرض، واختلاف كلٍّ منها عن الأخرىٰ، وبين خلق الإنسان، وما أودعه الله فيه، وتضعها مع النعم التي أنعم الله -تعالىٰ- بها علىٰ الإنسان؛ لأنَّها مسخّرة في الأصل له، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

واختلاف ألسنتكم وألوانكم؛ فهذا الاختلاف الذي يجعل كلَّ إنسان كِياناً منفصلاً، مختلفاً في بصماته، وجيناته، وفِكْرِه، وقدراته، واستعداداته، وطاقاته. وفي الوقت نفسه هو واحد في جنسه، ونوعه، فكل بني آدم مشتركون في حقيقة الآدميَّة والإنسانيَّة، مختلفون في بعض الأمور الشخصيَّة؛ ليكونَ في ذلك دلالةٌ علىٰ أنَّ هناك خالقاً عظيماً، تفرَّدَ في الخلق بالإيجاد، لا شريك له.

فلو اتّحد البشر في كلِّ شيءٍ: لما تحقق الاستخلاف، مثلما حدث بالنسبة للملائكة؛ الذين كانوا جميعاً مشتركين في أنَّهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤْمرون، وأنَّهم خُلِقُوا من نور، وأنَّهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فلو استخلفوا -وهم متماثلون بهذا القدر- فلن تتحقق أهداف الاستخلاف، والائتمان، والابتلاء، التي حدّدها الله -جَلَّ شَأْنُه- وجعلها مهمةً لمن أراد أن يجعله خليفة في الأرض، ولذلك عَلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣١-٣٢].

ولقد وردت أقوال كثيرة في الأسماء التي علمها الله آدم، فهي أسماء الأشياء الموجودة في الأرض، أو هي أسماء أخرىٰ، ولعل من أقرب تلك الأقوال والمعاني إلىٰ الآية المتناولة هنا، أنَّ تلك الأسماء هي الأسماء المتعلقة ببناء الأسرة، التي هي النواة

الأولىٰ للمجتمع، التي سيقوم المجتمع عليها، ويُبْنَىٰ علىٰ دعائمها؛ مثل: زوج، وأب، وأم، وأخ، وأخت، وما إلىٰ ذلك، فهذه الأسماء هي التي يحتاج إليها المستَخْلَفُ؛ أَلَا وهو الجنس البشريّ، بَدْءاً بآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

واختلاف الألسن: دعامةُ للتآلف، وأساس للتعاون، كما أنّ الكلام، وتقطيع الأصوات إلىٰ أحرف، هي وسيلة البيان، والإفصاح عن الحاجات التي يتوقّف عليها التآلف، والتعاون، والتعارف الذي ذكرنا.

وكذلك **اختلاف الألوان**: من وسائل التعارف، والتعاون، والتآلف، فهي اختلافات تمثّل آيةً، ودلالةً علىٰ قدرته -جَلَّ شَأْنُه- وعنايته بالجنس البشريِّ؛ الذي استخلفه. وإعانته له علامة مهمَّة؛ لذلك جاءت الفاصلة تبين أنَّ هذه الآيات يعقلها العلماء الذين أُوتوا العلم، وعلموا من الله -جَلَّ شَأْنُه- حكم التسخير وفوائده، واختلاف الألسن والألوان ونظام الزوجيَّة، وعلاقة ذلك كُلِّه بوحدانيَّة الله -تعالىٰ- وألوهيَّته، وربوبيَّته.

وهؤلاء العلماء ينبغي عليهم ألّا يكونوا من أُولئكَ الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، ولكن من علماء الجمع بين القراءتين، المدركين حق الإدراك لتفاصيل النشأتين؛ يدركون العلاقة بين الإنسان وتاريخه والمحيط الجغرافي الذي يعيش فيه، وتداخله مع شعوب الأرض الأخرىٰ، من عدمه، وتداخل اللغات، وتناقلها، ونموها، أو ضمورها، وآثار العوامل المختلفة في انتشار لغة، وضمور أخرىٰ؛ فنحن اليوم -وقد اخترع غيرنا من الغربيين واليابانيين جميع الإلكترونيَّات الحديثة، والأجهزة المعقدة المتطورة- نستجديهم استجداءً، أن يحسبوا حساب اللغة العربيَّة؛ لنتمكنَ من استعمالها بلغتنا، لكنَّ جُلَّ العالَم يستخدم لغات المخترعين، والمطورين لهذه الأجهزة؛ مهما تعقدت لغاتهم؛ كاليابانيَّه والصينيَّة، أو تيسرت؛ كالإنجليزيَّة وغيرها، فانتشرتْ لغاتهم، وانكمشتْ لغتُنا؛ فلم نعد قادرين

علىٰ دراسة العلوم الحديثة كافَّةً بلغتنا، فحصل لدينا ما يشبه الضمور الفكريّ، بعد توقف لغتنا عن المشاركة في بناء العلم والتقنية وما إليها!

نحن نستخدم الفضائيَّات، والتلفاز، والحاسوب، لكن الأفكار التي سبقتْ هذه الاختراعاتِ وتصنيعَها لا نعرف عنها الكثير؛ فالترجمةُ لا تترجم الفكرة، بل تترجم الأجهزة والآلة، فإذا أردنا أن نكون أمَّةً وسطاً، وشاهدةً، تتَّسم بالخيريَّة، فإنَّنا في حاجة ماسَّةٍ إلىٰ أن نتقن لغاتٍ مختلفةً، ونجعل لسان القرآن واللغة العربيَّة لغةً عالميَّة، يستعملها العالمُ كُلُّه؛ ليكون ذلك وسيلتَهُ؛ للاطلاع علىٰ القرآن المجيد، وحُسْن فهمه، ومعرفة قيمته، والاهتداء بنوره.

هذا، ومعرفة الأسماء علىٰ حقائقها له أهميَّة كبيرة، غَفَلْنا عنها، فتساهلنا فيها، وكثيراً ما نتداول أسماء مترجمة، أو وُضِعَتْ دون سلطان، أو دليل، من دون أن نلقيَ لها بالاً، ويكون لها بَعْدَ ذلك من الخطورة، ما قد تؤثر في اتجاهات كثيرة آثاراً سلبيَّة، لا يكون الخلاص منها سهلاً، بمثل السهولة التي دخلتْ فيها إلىٰ ساحة الأفكار.

لذلك: **فمعرفة الأسماء**، ومعرفة الاختلافات فيها: تُعَدُّ من المعارف الضروريَّة للمسلم؛ لأنَّها من شروط الشهادة، كما أنَّها أهم مؤهلات الاستخلاف.

وأمَّا **الألوان**: فهي الأخرىٰ في حاجة إلىٰ عناية خاصَّة من المسلمين، لا ينبغي أن يغفلوا عنها، فحين غَفَل عنها المؤمنون، وضع غيرهم من أنصار الشيطان عِلْماً، أسموه بعلم **الأنثربولوجيا** أو **علم الإنسان**، فصنفوا الشعوب إلىٰ شعوب دُنْيا، لا يمكن أن تُقِيْمَ حضارة، ولا أن تبنيَ عِمراناً؛ لأنَّ ألوانها كذا، وَمُناخها كذا، وأعطوا لأنفسهم حَقَّ الاستعلاء علىٰ شعوب الأرض؛ لأنَّهم -كما صَوَّرَ لهم الشيطان- شعوبٌ مصطفاة؛ لنصاعة ألوانها، ولسكناها في بقاع من الأرض؛ أضفَوا عليها من صفات القداسة ما شاءوا؛ ليجعلوا منها أرضاً تليق بشعوبهم الراقية، بل أطلقوا علىٰ لغتهم وصف **اللغات الحيَّة** مقابل **اللغات الميِّتة!**

هنا يأتي دور العالِمِيْنَ؛ الذين يحملون مسؤوليَّة رد الاعتبار لشعوب الأُمَّة المسلمة كلِّها، إضافةً إلىٰ شعوب الأرض الأخرىٰ؛ ليسود القانونُ الإلهيُّ القائل: ﴿..إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ تَجَسَّسُواْ.﴾ [الحجرات: ١٣] وليس تبعاً للونٍ، أو عرقٍ، أو جنسٍ.

آيتا النوم والابتغاء:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم: ٢٣] ثمَّ ينتقل السياق إلىٰ حالة تتكرَّر في اليوم والليلة؛ ليبيِّنَ أنَّها آية مهمَّةٌ من آيات الله، ﴿ .. وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٢]، ألَا وهي منامنا بالليل، الذي جعله الله سباتاً، أي راحة للأبدان، وتجديداً لخلاياها، وفي الوقت نفسه جعلنا في النهار قادرين علىٰ التماس معايشنا، وتدبير حاجاتنا، فجعل لنا الليل والنهار آيتين: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء: ١٢]، ولكي ندرك أهمية هاتين الآيتين قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص: ٧١-٧٢]. فهذه آية متكررة مستمرة يفترض ألَّا نغفلَ عنها، ومع ذلك فهم غافلون عنها، ويطالبون بآيات حسيَّة؛ متجاهلين ما يحدث لهم كلّ لحظة من آيات الله -جَلَّ شأنه- فهذه الآيات ستكون كافيةً حين يسمعون سمعاً حقيقياً، والذي يتوقف علىٰ أن يكونوا من الذين اتقوا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة: ٩٣] فهؤلاء هم ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر: ١٨]، فكان يجب عليهم أن يستجيبوا لأوامر الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٠-٢٣] إذاً، فالذين يستطيعون إدراك هذه الآيات -في الكون الطبيعي، وفي الإنسان- لا بدَّ أن يكونوا من الذين يسمعون، أمَّا الذين لا يسمعون؛ كالأصناف التي تقدّم ذكرها: فإنَّهم لا يستفيدون بهذه الآيات. ولو استجاب الله لمقترحاتهم، وآتاهم المعجزات الحسية، فلن يستجيبوا أَيضاً؛ بسبب الوَقْر الذي ملأ آذانهم، وأصمَّها عن سماع الحق،

قال جَلَّ شَأْنُه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦].

آيتا البرق والغيث: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٤].

في سورة البقرة ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مثالاً للمنافقين فقال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٩-٢٠].

فالبرق له في نفوس الناس هيبة وكذلك الرعد، وحينما تنزل صواعقُ مع شدة البرق والرعد فإنَّ الخوف لدىٰ الناس يزداد، وظواهر البرق والرعد والصواعق هي ظواهر طالما تعرضت لها الأَديان الوضعيَّة في تاريخ سحيق، حيث كان الكهنة والأدعياء كثيراً ما يخيفون الناس بها، حتىٰ إنَّ بعض الأَديان نعتت البرق بأنَّه إله[1] وسمَّته إلهَ البرق، وإله الرعد، وإله الصواعق -تعالىٰ الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً- وكان هؤلاء الأدعياء والكهنة كثيراً ما يضلّون الناس، ويبتزونهم؛ بافترائهم، وادعائهم القدرة علىٰ عمل تمائم وأحجبة، تقيهم من شرِّ البرق إذا غضب، والرعد إذا زمجر، والصواعق إذا نزلت، وقد ورد مثل هذا في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٢-١٣]، ليبيِّن أنَّ الرعد والبرق والصواعق والغيث نفسه كلّها أمور بيد الله -جَلَّ شأنه- وأنَّ البرق يُطْمِعُ الإنسانَ بنزول الغيث، فيرجو أن يكون موسم زراعته وكلأه موسماً حافلاً جيداً، وفي الوقت نفسه قد تدركه الخشية والخوف من أن يكون البرقُ رسولَ عذاب، والصواعق قد يصيب الله بها من يشاء بأجله- سبحانه-: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ١٣].

---

(١) يوجد في قائمة آلهة الإغريق إله اسمه زيوس، يلقب بملك الآلهة وحاكمها، وهو إله الرعد والبرق.

إنَّ الذاكرة البشريَّة -إذاً- تحتفظ بانطباعات متنوعة عن قضايا البرق، والرعد، والصواعق وغيرها؛ فكثيراً ما يقترن الخوف بها، لكن هذه الآية تضع هذه الظواهر الطبيعيَّة في حجمها الطبيعيِّ، فهي آيات من آيات الله، وعلاماتٌ، ودلائلُ على قدرته -جَلَّ شَأنُه- فالعقلاء من الناس هم الذين تكون عقولُهم قادرةً على تمييز الحسن من القبيح، والحقّ من الباطل، فيستطيعون إدراك المعاني الكامنة وراء هذه الظواهر، ومعرفة أنَّها ظواهر خاضعة لإرادة الله وقدرته، وليست مجرَّد ظواهر تسير من دون مهيمن ولا مسبب، فهي لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تؤذي ولا تدفع، إلّا بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

آيتا قيام السموات والأرض بالأمر الرباني، والبعث بعد الموت:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم: ٢٥]

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ويبدأ سورة آل عمران بقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٢]، وقال جَلَّ شَأنُه: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]؛ فالسموات والأرض ومن فيهن يقوم الله -جَلَّ شَأْنُه- وَحْدَه بها، ولو لَمْ يَمُنَّ الله -تعالىٰ- بقيوميّته بها لأقلّ جزء من الثانية، لانهارت كلُّها؛ بما عليها، ومن عليها، فلا غرابة أن ينبِّه الله -تعالىٰ- إلىٰ هذه الآية المشاهدة المحسوسة، والتي تُغْني عن آلاف المعجزات والخوارق، التي وقعتْ علىٰ أيدي أنبياء سابقين، كما أنَّ هناك آيةً أخرىٰ تعقب زوال السموات والأرض عند القيامة؛ أَلَا وهي قضيَّة البعث، ثم الحشر، فالحساب، فالجزاء، فيقول تعالىٰ: ﴿ ..ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم: ٢٥] ففي هذه الآية الكريمة عُدَّتْ عمليَّةُ البعث بمنزلة دعوةٍ؛ يدعو الله بها عباده؛ ليخرجوا من قبورهم، متجهين نحو المحشر؛ ليبينَ سهولة ذلك، وأنَّه ليس بالأَمر المعقّد، الذي يتيح لهم، أو يتطلّب منهم أن يستبعدوه.

وفي آية أخرىٰ يقول جَلَّ شَأْنُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨] فكأنَّ الدعوةَ المذكورة في الآية المتناولة هي النفخةُ الثانية؛ التي يخرج الناس بها من قبورهم؛ بكامل حياتهم وحيويتهم، فإذا هم قيام ينظرون.

وفي سورة يس يقول جَلَّ شَأْنُه: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٢-٥٣]؛ فهؤلاء الذين يقومون: هم جميع البشر؛ من لدن آدم، حتىٰ قيام الساعة، يتساءلون أول قيامهم، وانفراج القبور عنهم، وإلقاء الأرض لهم من بطنها إلىٰ ظهرها: "من أخرجهم من مراقدهم تلك؟ «!فيجيبهم الله -تعالىٰ- أو الأنبياء والرسل، والذين أنعم الله عليهم: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٣].

آيتا الـمُلْك، والقنوت:

ثم يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم: ٢٦]؛ فكأنَّه -جَلَّ شَأْنُه- يقول لهؤلاء المشركين: إذا أمرتكم بالإيمان بي، وبوحدانيَّتي، وبالبعث بعد الموت، والحساب، والجزاء، والعبادة والتقوىٰ، فإنَّ ذلك كُلَّه من أجلكم أنتم، أمَّا أنا فغنيٌّ عنكم وعن عبادتكم؛ فلي كلُّ من في السموات والأرض؛ قانتون خاضعون، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨] فالله -تعالىٰ- ليس في حاجة إلىٰ عبادة أحد، ولكنَّه -تعالىٰ- تفضّلاً منه، وتكرُّماً، وإنعاماً، لا يرضىٰ لعباده الكفرَ، ولذلك قال موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨].

آيتا بدء الخلق، وإعادته:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧] يعود السياق ليخاطب هؤلاء ليذكّرهم أنَّ الله -تعالىٰ- هو الذي بدأ الخلق؛ فيفترض أن تدركوا أنَّ من بدأ شيئاً -علىٰ غير مثال سابق- يستطيع إذا تَلِفَ ذلك الشيءُ، أو تحطَّم: أن يعيده، بل سيكون أمرُ الإعادة أسهلَ من أمر الابتداء، لكن لله المثل الأعلىٰ فهو القادر في الابتداء، وهو القادر علىٰ الإعادة، وكلاهما بالنسبة إليه سواء، لكنَّه أراد أن يخاطب تلك العقولَ القاصرة، وأن ينبهها لأن تتعلم طرائق الاستدلال والاحتجاج لما تريد، بشكل مقنع مقبول، فخاطبهم بالآية المذكورة. ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨] تتجه الآية الكريمة إلىٰ ضرب مثل مُهِمٍّ جداً؛ لعله يوقظ أولئك الغافلين والمستكبرين؛ من الضالين الذين يصرّون علىٰ أن يجعلوا لله شريكاً من عباده، أو ممَّا يخلقون من إفكهم، فيضرب الله -تعالىٰ- هذا المثل المعبِّر أيضاً من أنفس هؤلاء، فهم قلَّ أن تخلوَ بيوتُهم أو متاجرهم من الرقيق، فيضرب الله -جَلَّ شَأْنُه- لهم المثل: لو أنَّ واحداً من الأرقّاء المملوكين لهؤلاء الجاحدين قال لسيده: إنِّي مثلُك، وشريكُك فيما تملك، أختار لك ما أشاء من الشركاء، وأحدّدُ لك وظائفك، هل يرضىٰ ذلك السيدُ من عبده المملوك هذا القول؟ وهل يستجيب له أو يقره عليه؟

بالتأكيد لا، فإذاً كيف تحاولون أن تجعلوا لربكم المالك الخالق الذي أوجدكم من عدم، وجعلكم شيئاً مذكوراً، بعد أن لَمْ تكونوا شيئاً مذكوراً، واستعمركم في الأرض، وسخّر لكم كلَّ شيءٍ، وآتاكم من كلّ ما سألتموه؟ فكيف تتصورون أن يقبل الله -جَلَّ شَأْنُه- دعواكم الساقطةَ؛ بأنَّ لله شركاءَ مما تصفُ ألسنتُكم الكذب، تزعمون أنَّهم شركاء له في سلطانه، وتتجهونَ إليه بضروبِ العبادة والتقديس؟ فمرةً تختارون هؤلاء الشركاء من الجن: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وثمة مَنْ تختارونهم

من كبرائكم، ومن تعظِّمون من أهل المال والجاه، ومرةً تخلقون وتصنعون بأيديكم أصناماً، وتجعلونهم لله شركاء ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧]، وفي جميع الأحوال اتخذتم من هواكم آلهةً، ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٢-٢٣]، وحينما تستمتعون بنعم الله لا تذكرون الله -تعالىٰ- ولا تشكرونه عليها، وقد بلغتْ بكم الجرأةُ أن تجعلوا لله نصيباً كأنَّكم الخالقون، وتنحدرون أكثر؛ حينما تجعلون لشركائكم نصيباً من مُلك الله، الذي افتريتموه، فأيُّ سَفَهٍ تتخبطون فيه، ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم: ٢٩]، فأنتم لَمْ تتبعوا في شرككم، وإنكاركم البعث والنشور والحساب والجزاء، أيَّ دليلٍ أو برهانٍ، ولم تنطلقوا من منطقٍ سويٍّ، أو حالةٍ مقبولةٍ، بل اتبعتمْ أهواءَكم، ومن أضلّ ممّن اتَّبع هواه، بغير علم، ولا سلطان أتاه ولا دليل لديه من الله؛ فكيف ترضون لله ما لا ترضونه حتىٰ لأنفسكم؟ أما وقد بلغتم هذا المستوىٰ من الضلال، فقد استحققتم أن يدعكم الله فيه؛ لأنَّكم استحببتم العمىٰ علىٰ الهدىٰ، وآثرتم الكفر علىٰ الإيمان، ومشاقَّة الله ورسوله؛ فلا أمل في هدايتكم، بعد أن ختم الله علىٰ قلوبكم؛ التي أبتْ أن تُفْتَحَ لأيِّ نورٍ، أو دليل، أو برهان، أو الكتاب المنير.

النَّجم الرابع: الفطرة والدين القَيِّم

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم: ٣٠]؛ تذكرةً بسيدنا إبراهيم، والحجة التي منحها اللهُ إيَّاه، ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣] ففي تلك الحجة التي بسطها إبراهيم علىٰ قومه، وأعلن براءته من المشركين كافَّة، وفي مقدّمتهم أبوه وقومه قال: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فَلِمَاذا قالها الله -تعالىٰ- لرسوله الكريم محمدٍ ﷺ بعد كلِّ تلك الآيات التي استدلّ بها علىٰ وجود الله ووحدانيَّته، والبعث والنشور والجزاء والجولة الطويلة التي جال القرآن بها بين المشركين وآرائهم وتخرّصاتهم، وأطروحاتهم السقيمة، كأنَّه يختم ذلك كُلَّه بأن يأمر نبيه الكريم ﷺ بأن يقيم وجهه للدين حنيفاً؟

فقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ [الروم: ٣٠] هو مثل قوله تعالىٰ: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الإسراء: ٧٨] التي جاءتْ في العديد من السياقات في القرآن، تحمل الأَمر لرسوله ﷺ ألّا يعبأ بكفر من يكفر، ولا بضلال من يضلّ؛ فقد بلَّغَ الرسالة، وأدّىٰ الأمانة، ونصح لهم، ولكنَّهم لا يحبون الناصحين، فحين يقول له: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم: ٣٠]؛ فكأنَّه يقول له: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣]، فأقم وجهك للدين، واستقم عليه؛ كما أُمِرْتَ، وادْعُ إليه، إنَّك علىٰ صراط مستقيم: ﴿ ..فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٩]، فإذا كانَ هؤلاءِ قَدْ عَمِيَتْ أبصارُهم، وأغلق الوَقْرُ آذانهم، وختم الكفرُ علىٰ قلوبهم، فهناك ملايين أخرىٰ من البشر الذين ما تزال فطرتُهم نقيَّةً سليمةً، مهيئينَ للإيمان بك، وبالرسالة التي حملتَ، والدعوة التي بلغتَ، والوجه -والحالة هذه- مُعَبِّرٌ عن الإنسان كُلِّه، وهو في حالة الإقبال علىٰ الشيء، فقوله جَلَّ شَأْنُه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم: ٣٠] يأمره بالإقبال التام علىٰ رسالته، والدين الذي يحمل، ويدعو الناس إليه، فكأنَّه يريد أن يقول له: لا تشغل نفسك بهؤلاء، فلا يشغلوك، ولا يلهوك عن رسالتك، وليكن توجُّهُكَ للدين القيم توجهاً تامّاً، لا يُنشغل بغيره عنه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [عبس: ٥-١٠]. فإنَّ ما يثيره هؤلاءِ ليستْ أسئلةً حقيقيَّةً لمعرفة الحقّ، بل نجمتْ عن شَغَبٍ، ومحاولة إلهاء

رسول الله ﷺ. وهكذا نجد السياق القرآنيَّ يأتي في كلِّ موضعٍ بطريقة تؤدي للرسالة وصاحبها ﷺ عدة توجيهات ودواع تستهدف تقوية عزيمته ﷺ علىٰ الصبر والمصابرة، وفي سياق آخر حينما اشتدت الأمور: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: ٤٨] وحين يوجهه -جَلَّ شَأْنُه- إلىٰ التمسك بما هو عليه، وإقامة وجهه له يعزز ذلك بقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]؛ لأنَّ المعصوم قد يتساءل: لماذا ينصرف الناس عن تلبية رسالته؟ فقيل له: إنَّ ما تحمل من دين هو الدين القيّم، لا أَقْوَمَ منه، ولا أعدل، ولا أشدَّ منه، وهو في الوقت نفسِهِ فطرةُ الله التي خلق الناس عليها لا تبديل لخلق الله، إذاً فالانحرافُ ناجمٌ عنهم وعن كِبَرِهم وحسدهم، أمَّا أنت، والدين الذي تحمله، فإنَّك علىٰ صراط مستقيم، تحمل ديناً قيماً متصلاً بالفطرة.

وقوله جَلَّ شَأْنُه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] يوضح بجلاء أنَّ الله حين خلق الخلق، فطرهم، وخلقهم، وأودع فيهم استعدادات تمكّنهم من معرفة الله -جَلَّ شَأْنُه- وأنَّه واحد أحد، خلق كلّ شيءٍ وقدّره، فهو الخالقُ البارئُ المصورُ، وهو الرحمن الرحيم. وهذه الفطرة من شأنها أن تتقبل الدين القيّم، وما فطر الله الناس عليه، وعهدهم مع الله واستخلافه لأبيهم آدم، وايداعهم لأمانة الاختيار في جذور قلوبهم، وأنَّ هناك ابتلاءً يعقبه جزاء، وهذه الفطرة تظهر أحياناً، دون دعوة، أو نبوة، أو رسالة؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢] وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]. وقوله جَلَّ شأنه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ

لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٠-٦٦] فهذه الآيات الكريمة، تبيِّن كيف تبرز الفطرة بوصفها قابليَّة في الإنسان، تدعوه إلىٰ الإيمان بالله، ومعرفته وتدعوه إلىٰ الالتزام بالدين والتمسك به، فالكفر والشرك والنفاق والضلال كلّها تُعَدُّ معادية للفطرة، ومضادة لها، مناقضة لما توحي به، فكأنَّه يقول لرسول الله ﷺ: هؤلاء إن قاوموك ورفضوا دعوتك واستكبروا عن اتباعك فإنَّما يحاربون فطرتهم التي فطرهم الله عليها، ويقمعون هذه الفطرة قبل أن يردّوا عليك أو يرفضوا الاستجابة لك، ولذلك يقول -جَلَّ شَأْنُه- عن هؤلاء وأمثالهم: ﴿..وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [النحل: ٣٣]، ولذلك فإنَّ حسرة هؤلاء ستكون شديدة خطيرة، بعد أن يكتشفوا أنَّهم خالفوا فطرتهم، واستكبروا علىٰ ما أودعه الله فيهم، فآلُوا إلىٰ ما آلُوا إليه، ونصر الله نبيه، وهيّأ له ولدينه الْقَيِّمِ أقواماً آخرين، يحبهم الله تعالىٰ ويحبونه، أذلّة علىٰ المؤمنين، أعزّة علىٰ الكافرين.

إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أمر رسوله ﷺ أن يقيم وجهه للدين حنيفاً، ومن عادة القرآن المجيد إذا ساق أمراً بهذا الشكل، أن يشمل الذين آمنوا مع رسول الله ﷺ؛ فهو العبد الشكور الصبور ﷺ، الذي يحب أن يتبتَّل إلىٰ ربه علىٰ الدوام، فإذا خوطب بأمر كهذا فكأنَّه قيل له فأقم ومن معك، أو فأقم وجهك للدين حنيفاً؛ مائلاً عن جميع الأديان، ومن معك.

ويأتي قوله جَلَّ شأنه: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم: ٣١]؛ ليدلَّ علىٰ ذلك، ويشير إليه، فيكون المراد أن نواة الأُمَّة المسلمة بقيادة رسول الله ﷺ مطالبون جميعاً بأن يكونوا منيبين لله راجعين

إليه باستمرار، لا يغفلون عن ذكره، و ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وأنابوا إلىٰ ربهم مرة أخرىٰ وهم يتحلّون بالتقوىٰ دائماً، فقد أُلزِموا كلمَتَها واستقاموا علىٰ الطريقة، حتىٰ صارت التقوىٰ لهم مَلَكَةً وشعاراً ودثاراً.

وقوله جَلَّ شَأْنُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم: ٣١] تنديد بأهل الشرك، وبيان لوضاعة مكانتهم عنده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ بحيث يحذِّرُ الرسولَ ﷺ والمؤمنين، من أن يكونوا مِنْهُم، أو ممَّنْ يشابهونَهم في تصرفاتهم، من تزييف الفطرة، والخروج عليها، والتي هي من الثوابت، التي لا تبديل لها، وإِذَا جاءهم دينٌ: فلا يأخذونه كما ينبغي أن يؤخذ بقوة واهتمام، بَلْ يفرِّقونه ويجعلونه عِضِين، وينتقون منه ما يشتهون، ويرفضون ما لا يستجيب لشهواتهم ورغباتهم؛ فيكونون– آنذَاكَ– شِيَعاً؛ تتفرَّقُ كلمتُهم؛ جزاءً وفاقاً لما فرَّقوا من دين الله، وحولوه إلىٰ أجزاء، وأعضاء؛ يؤمنون ببعضها، ويكفرون ببعضها الآخر، ويأخذون بما يشتهون، ويتجاوزون ما لا يرغبون؛ فحقُّهم أن يكونوا شيعاً وفرقاً؛ يذيق بعضهم بأسَ بعضٍ، ويضرب بعضهم رقاب بعض، ويقتتلون كما اقتتل أتباع الأنبياء من بعدهم؛ لمثل تلك الأسباب.

وقد وَصَفَ الله –تعالىٰ– التَفَرُّق في الدين أنَّه شرك؛ لأنَّ المشركين لا يستطيعون أن يتقبَّلوا التوحيد الخالصَ، فتراهم يعملون علىٰ الدوام؛ باختراع شفعاء، واتخاذ وسطاء؛ يزعمون أنَّها تقربهم إلىٰ الله زلفىٰ، ويطوِّرون هؤلاء الشفعاء، فهناك الأصنام المعروفة، والأوثان، وهناك الحكام المستبدون، والطغاة؛ الذين يريدون العلوَّ في الأرض، والبغي علىٰ أقوامهم، وهناك صُلَحاؤُهم، الذين يعظِّمونهم ويمجِّدونهم، وينسبون إليهم ما لا يُرضي اللهَ، أن يُنْسَبَ إلىٰ غيره، وقد يشركون أهواءَهم ورغباتهم وأولادهم ونساءَهم؛ كما أنَّ هناك ما يسمَّىٰ بأوثان المجتمع، فكثير من المجتمعات تصنع لنفسها أعرافاً وتقاليدَ ورموزاً، قد تبلغُ بها في بعض الأحيان مستوىٰ الشرك، وهي من أخطر الأوثان؛ لأنَّ الإنسان يصعب عليه أن يخرج علىٰ مجتمعه وبيئته، فقد يُشعرُه ذلك بنوعٍ من الاغتراب عن المجتمع، فيتجنَّبه، فنجدهم حين يدعون إلىٰ شيءٍ من أمور الدين يقولون: "وماذا نقول للناس؟ كيف سينظر الناس إلينا؟" إلىٰ غير ذلك من أصنام وأوثان، تؤدي إلىٰ التَفَرُّق في الدين، وتشيُّع كلٍّ إلىٰ مذهبه.

ومن هنا فالتوحيد الخالص يحتاج إلىٰ عنايةٍ، ويقظةٍ دائمةٍ من أصحابه؛ ليجتنبوا الرجس من الأوثان، ومن دون لطف الله وعنايته وحفظه وتسديده: يقعُ غالبيةُ الناس في الشرك، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

إنَّ الأُمَّة اليوم تتساءلُ -علىٰ مستوياتها المختلفة- عن أسباب تفرُّق كلمتها، وضياع وحدتها وانهيارها، وتحولها إلىٰ: شيعٍ، وأحزابٍ، وفِرَقٍ، وطوائفَ، قد يقتل بعضُهم بعضاً، علىٰ مجرَّد الخلاف المذهبي والطائفي؛ كما حَدَثَ في بُلدان كثيرة، وعصور عديدة؛ فالتاريخ يذكر لنا -إضافةً إلىٰ الطوائف والفِرق والنحل- الفتن التي جرت بين المذاهب:

- فتنةَ الأشاعرة والمعتزلة في خلق القرآن.
- وفتنَ الشيعة والسنَّة بطوائفهم المختلفة.
- وفتناً بين الشافعيَّة والحنفيَّة.
- وما نزال نقرأ في كتب الفقه فصولاً؛ تتحدث عن حِلِّ زواج الشافعي بالحنفيَّة أو تحريمه، والعكس!!
- فضلاً عن تلك الأبواب التي تتحدث عن جواز زواج السنَّة بالشيعة، من عدم جوازه، والعكس.
- كذلك نجد فصولاً تتحدث عن الكفاءة في النكاح، فتبين أنَّ القرشيَّة لا يكافئها إلَّا قرشي، وقد ترسّخ ذلك وتحوّل إلىٰ تقاليدَ سائدةٍ، إلخ. وقد يُفرَّق بين الزوجين بحجة عدم الكفاءة.

وفي ظل ذلك التَفَرُّق والتشرذم ضاعتِ الروابطُ المشتركةُ بين عناصر الأُمَّة، وانهارتْ دِعامة التأليف بين القلوب التي أوجدها الله -جَلَّ شَأْنُه- بنفسه.

وها هي ذي المؤتمرات تعقد، وتنفض، ومؤسَّسات التقريب بين المذاهب والطوائف، تؤسِّس وتنهار؛ دون أن تؤدي إلىٰ جمع شمل الأُمَّة، أو إعادة بنائها، وممَّا زاد الطين بلة أنَّ أهل العلم، وقادة الرأي، والقادة السياسيين، قد عَدَّوا ذلك أمراً واقعاً لا بُدَّ منه، ولا يمكن إزالته، ولا بُدَّ من التعايش معه، وتقنينه والاعتراف

به، وربما يستشهد بعضُهم بفهوم خاطئة لبعض آيات الكتاب الكريم؛ مثل قوله جَلَّ شأنه: ﴿ ..وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فيفسِّرها بعضُهم بأنَّ الاختلاف المذهبيَّ والطائفيَّ اختلافٌ مقدَّرٌ، لا بد أن يقع، وأنَّ الله خلقهم مختلفين وليختلفوا، ولكن الأَمر ليس كذلك، فقوله تعالىٰ: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٩] عائدٌ علىٰ الرحمة، وليس علىٰ الاختلاف، أي "للرحمة خلقهم". ومن رحمته، ولطفه أنَّه أنزل إلينا هذا الكتاب الهادي، وأمرنا بالاعتصام به، وحذَّرنا من تجاهله، أو الابتعاد عنه؛ لأنَّ ذلك سوف يؤدي إلىٰ فُرقتنا، وانهيار وحدتنا، وزوال ألفتنا، وتناكر قلوبنا؛ كما نشهد في الواقع.

فهذا التفريق للدين، وتمزيقه، والفرق المختلفة، وتعريض الأُمَّة للمستغلين من شياطين السياسة؛ يقودونهم للتحارب، والتسالم؛ وَفْقاً لمصالحهم السياسيَّة، ورغباتهم الاستعلائيَّة، ففرَّقوا دينَهم، وصاروا شيعاً؛ كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون. ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الروم: ٣٣-٣٥]، في هذه الآيات الكريمة: إشارةٌ إلىٰ أنَّ هذا الإنسان خُلِقَ ضعيفاً، لديه استعدادٌ للسقوطِ السريع في حبائل الإحباط واليأس والقنوط، ولديه استعدادٌ سريعٌ؛ للإحساس بالنشوة، والفخر، والخيلاء، والاعتداد بنفسه، وطاقاته، وتناسي ضعفه، وفاقته، فيبين الله -جَلَّ شَأْنُه- لنا أنَّ الإنسان ما دام حيّاً فهو يتقلب في صحته، وماله، وعلاقاته، ونفوذه، وسلطانه، بين البأساء، والنعماء، والضرّاء، والسرّاء؛ كما يقال: "يوم لك، ويوم عليك"، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥-٦٦]، في حين أنَّ الله -جَلَّ شَأْنُه- نبَّه المؤمنين فقال جَلَّ شأنه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]؛ وذلك لتوطين أنفسهم، وتهيئتها لعوارض الحياة، فهي اختبار وابتلاء وامتحان، قال تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فكان ينبغي

علىٰ الإنسان ألّا تُطْغِيَهُ النعمةُ، وتقنِطُهُ النقمة، وإِذَا لفظ لسانُه بالدعاء عند الفتنة، أو مس الضرّاء؛ فيفترض أن يصنع من الشكر ودعاء الشكر ما يوازي ذلك ويقابله، أمَّا إذا أبطرته النعمة وأقنطته النقمة، فإنَّه سيقع في الشرك، والشرك أصناف ومستويات؛ فقد يشرك علمَه وقدرَتَه فيقول: "إنَّما أوتيته علىٰ علم عندي"، أو الأسباب والسنن فيقول: (لولا أنَّنا فعلنا كذا وأعددنا كذا لاستمررنا في الضرّ)، فالشيطان كأنَّه يشهد حالة الابتلاء هذه، وتقلب الإنسان في صروف الحياة؛ فيغتنم تلك الفرصة، ويشق طريقه إلىٰ إيقاعه في الشرك في حالات ضعفه، وذلك يفرض علىٰ الإنسان أن يكون ذاكراً لله علىٰ الدوام، حامداً، شاكراً، صابراً، ذاكراً باستمرار. فيهدد الله هؤلاء الذين أشركوا بقوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦٦] يوم تلقون ربكم أنَّكم ضللتم وأشركتم به ما لَمْ ينزل به عليكم سلطاناً، فالله -جَلَّ شَأْنُه- لَمْ ينزل عليكم سلطاناً -كتاباً أو صحفاً- يمكن أن تستدلوا بها أنَّها كانت تتكلم بما كانوا به يشركون، يقول الله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقوله جَلَّ شأنه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون: ٦٢]، أمَّا هم فليس لديهم سلطان، أو كتاب ينطق بما كانوا به يشركون، ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: ٦٣-٦٧].

وقوله جَلَّ شأنه: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم: ٣٦]، فكأنَّها طبيعةٌ في الإنسان، كامنةٌ فيه، فحين يفرح ينسىٰ المنعم جَلَّ شَأْنُه، وإِذَا أصابتهم سيئة بما قدمت أيديهم أصابهم القنوط والإحباط، مع أنَّ الله -تعالىٰ- قد قدَّم لهم أنَّ الحياة الدنيا دارُ ابتلاء، وأنَّ عليهم أن يتوقعوا السرَّاء والضرّاء ويعدوا أنفسهم لكلِّ حالة من الحالتين، فيقوموا بواجب الشكر إذا مستهم السرّاء، وبواجب الصبر والتوجُّه إلىٰ الله -تعالىٰ- إذا مسَّتهم الضرّاء. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم: ٣٧].

إنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يوسع ويضيق على الإنسان في الرزق، ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت: ٦٢] وفي هذا كُلّه حِكَمٌ، وآيات؛ على الإنسان أن يدركها، لكن لا يدركها إلّا القوم المؤمنون فقط، ويقول تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦]، فالإنسان يقول: ربي أكرمني؛ أي: عن استحقاق منّي لذلك، أي لولا أنَّه راضٍ عني، وأنِّي مستحقٌّ لها لما أكرمني، فينسيه ذلك شكرَ النعمة والتعلُّق به.

وإذا قَدَرَ عليه رزقَه، قال: ربي أهانني؛ أي حقَّرني، وضيَّقَ عليَّ؛ فيشغله الحزنُ والشكوى، عن الصبرِ، والدعاء، والتضرُّع، ففي الأولى تطغيه النعمة، وتنسيه الشكر، وفي الثانية تُنْسيه النقمةُ أن يصبر؛ فكان يجب أن يتذكر أنَّ الله -تعالى- هو المنعِمُ، وهو المعطي، والمانع، فالأَمر كُلُّه لا يخرج عن حالات ابتلاء؛ بالسرَّاء، والضرَّاء، ليس له أن تطغيَه النعمةُ، أو تُذْهِبَ صبرَه النقمةُ؛ لأنَّه إذا أراد النجاح في هذا الابتلاء فعليه أن يشكر، ويصبر، في النعمة والمصيبة، ويقول: "إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون"، وأنَّ الله -تعالى- إذا أخذ نعمةً فقد ترك ما لا يُحصى من غيرها من النعم، وحكمة الله -جَلَّ شَأْنُه- لا تغيب عن أيّ أمر يقدره.

وفي ذلك كُلِّه آياتٌ لقوم يؤمنون، يعمر الإيمانُ قلوبَهم، ويجعلهم من الشاكرين، الذاكرين، الصابرين، ويُعينُ على ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم: ٣٨]؛ فذلك خير لمن يخلصون النيَّة له -سبحانه- فيما يقدِّمون، وقد ضرب الله مثلاً للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، لا يريدون إلّا وجهه، في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وللذين ينفقون في سبيل الله مواصفات عديدة، ورد أهمُّها في آيات سورة البقرة، من قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٤].

ويمكن تلاوة الآيات الأخرىٰ التالية لها؛ لتتَّضحَ مواصفاتُ الصدقة، التي يراد بها وجهُ الله، أمَّا ذوو القربىٰ: فهم أقارب المعطي، وخاصَّة المحتاجين منهم. والمساكين: هم المحتاجون المعوزون، الذين لا يسألون أحداً، أو الذين قال الله عنهم: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وابن السبيل: هو المسافر المحتاج؛ لبُعدِه عن أهله، فذلك الإنفاق في هذه الأوجه خير للمنفق من كَنْز المال، وبذلك يدخل تحت المفلحين بإذن الله؛ وبذلك يبين ما يمكن أن يفعله الشحُّ والبخلُ في الإنسان، ويحول بينه وبين أن يتصدق، وأن يريدَ وجهَ الله فيما يعطي ويتصدَّق.

ويقابل هذه الصورةَ الجميلةَ صورةٌ بشعةٌ لإنسان يبلغ به الشحُّ، ليس عند مستوىٰ منع حقوق المال كافَّة، عن أهله وأصحابه ومستحقيه وحسب، بل يحاول أن يقتنص من أموال الناس ما يستطيع !قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم: ٣٩] ليقابل ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم: ٣٨].

فهذا إيتاء، وذاك إيتاء، ولكن شتان بين الاثنين، فأحدهما يؤتي ماله للمحتاجين إليه؛ يريد وجه الله، والآخر يؤتي ماله؛ ليستردَّه أضعافاً مضاعفةً، من الناس الذين هم من ذوي الحاجة خاصَّة، فأولئك الذين يؤتون أموالهم لتربو في أموال الناس، ويتقاضون عليها الرِّبا فإنَّها لَنْ تربوَ عند الله، قال جَلَّ شأنه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ

لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٥-٢٧٦].

وما أجمل السياق الذي وضعتْ هذه السيئةُ الكبيرة فيه، فقد وُضِعَتْ بين قوله تعالىٰ: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الروم: ٣٨]، وقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم: ٣٩]؛ ليبين الله -تعالىٰ- الفرق بين المتزكّي، والمتصدق، والمرابي، وهو فرق كبير؛ فالله -جَلَّ شَأْنُه- ينبهنا إلىٰ أنه: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]؛ فهو يُرْبِيْ الصدقات، ويضاعف الزكوات؛ مثلما في قوله جَلَّ شأنه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٢] وقولِه جَلَّ شأنه: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم: ٣٩] يربطنا بقوله تعالىٰ: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ختام هذا النَّجم:

وبعد تلك الجولة الطويلة في عناصر الضعف الإنساني، والمداخل المختلفة التي تقود إلىٰ الشرك: يأتي قوله جَلَّ شأنه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم: ٤٠]؛ ليقرّر الحقيقة الثابتة، ويذكّر بها: أنَّ الله -تعالىٰ- هو من خلقنا، ورزقنا، ثم يميتنا، ثم يحيينا، فهل من شركائكم الذين تزعمون من يستطيع فعل شيء من ذلك؟ فالاستفهام هنا يردنا إلىٰ الآية الكريمة: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ

ﵟٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨ﵞ [الروم: ٢٨]؛ لتستدعي هذه المقارنة من جديد، وتضعها أمام أهل الشرك؛ ليقرّوا بأنَّه ليس أحد منهم، أو من شركائهم، والأرباب المتفرقين الذين اتخذوهم آلهةً، من يفعلُ ذلكم من شيء، وبالقطع ستكون الإجابة عن هذا السؤال بالنفي، فلا أحد غير الله -جل شأنه- قادر علىٰ فعل ذلك، فكان يجب عليكم طاعتُه وَحْدَه دون شريك، فتعالىٰ الله عمَّا يشركون عُلوّاً كبيراً.

النَّجم الخامس: ﵟظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١ﵞ [الروم: ٤١]

يأخذنا السياق إلىٰ الإشارَة إلىٰ ظهور الفساد؛ أي: شاع هذا الفساد، وانتشر في البرِّ والبحر، ويمكن أن يُضافَ الجُوُّ والفضاءُ أَيضاً (الذي هو فوق البر والبحر)، وقوله تعالىٰ: ﵟبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِﵞ [الروم: ٤١] يأخذنا إلىٰ قوله عزَّ وجلَّ: ﵟوَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧ﵞ [الشورىٰ: ٢٧]؛ لأنَّ الله -جَلَّ شَأْنُه- وهو الخبير البصير بالعباد قد قال: ﵟكَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ﵞ [العلق: ٦-٧]، فهذا جزء من طبيعته، إذا لَمْ يهتد بهداية الله، ويحفظه الله ويَصُنْهُ.

وقوله جَلَّ شأنه: ﵟلِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١ﵞ [الروم: ٤١] يَتَّصل بقوله تعالىٰ: ﵟوَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١ﵞ [السجدة: ٢١].

فهذا العذاب الأَدنَىٰ؛ من حروب، وفتن، وجدب، وقحط، ومجاعات، وانتشار الأمراض، وقلة مياه الشرب، وإذهاب البركة في الرزق، ومن جميع ما في الأرض، بحيث بدأ ساكنوها يظنّون بالله الظنون، فتخرج تقريرات جاهليَّة شركيَّة يسميها بعضهم تقريرات علميَّة، تتحدث عن أنَّ ارتفاع نسبة السكان جعل ما في الأرض غيرَ كافٍ لكلِّ السكان؛ متجاهلين أنَّ الله -تعالىٰ- قدَّر في الأرض أقواتها، وجعل فيها مجالاً لحصول كلِّ مخلوق علىٰ رزقه وما يحتاج إليه، ﵟوَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ﵞ [هود: ٦]، فما من طير، ولا حيوان، ولا بشر، إِلّا وفي الأرض ما يكفيه من رزق؛ ليعيش إلىٰ الأجل المسمّىٰ، الذي سماه الله

له. وهذه التقريرات لا تتحدث عن البطرِ، والتبذيرِ، في الموارد، والإسرافِ، والسفهِ في إنفاق المال، وتَسَلُّمِ السفهاءِ زمامَ التصرف بالأموال، خارج حدود ما رسمه الله من شرائع؛ فاستباحوا الربا، والاحتكار، وتبديد الموارد، والتحكُّم في الزراعة، والصناعة، وما إليها، ولو أنَّهم ما فعلوا ذلك، وآتاهم الله الحكمة في التصرف، والتزموا حدود ما أنزل الله، لما جاع إنسانٌ، ولا حيوانٌ على ظهر البسيطة.

ولو أنَّهم نظروا في هذه الأمور نظرة علميَّة؛ كما يدعون، لأدركوا أنَّ كلّ ما يحدث للبشريَّة على وجه الأرض، إنَّما يحدث لها بما كسبت أيادي البشر أنفسهم، وبعدم عودة الناسِ إلى الخالق العظيم، وإلى دينه القويم، وفطرتهم السليمة، ويقيموا وجوههم للدين حنفاء، فإنَّ جميع الخطط التي يرسمونها، والتدابير التي يقترحونها: لَنْ تغنيَ عنهم من الله شيئاً؛ لذلك تأتي الآية التالية؛ لتأمرَهم بالسير في الأرض: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ٤٢﴾ [الروم: ٤٢] فهلكوا على الشرك، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠] ويقول الله -جَلَّ شَأْنُه- في معالجة مثل هذه الأحوال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ١٤٦ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾ [النساء: ١٤٦-١٤٧].

ثم يوجه الله -جَلَّ شَأْنُه- الأَمرَ الجازم؛ لمعالجة الفساد الشامل، وإنقاذ البشريَّة منه فيقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾ [الروم: ٤٣]، هو يوم القيامة، ويَصَّدَّعون أي يتفرقون، ويُمَيَّزُ بينهم بشدة، كما سبق في الآية الكريمة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾ [الروم: ١٤]، ويعود السياق؛ ليؤكد أنَّ البشر إنَّما يفعلون ما يفعلون؛ من خيرٍ، أو شرٍّ، فإنَّما هو لأنفسهم، وَلَنْ ينال اللهَ من تمسُّكهم بالدين، والتزامهم التقوى، وإخلاصهم العبادة له شيءٌ من النفع، ولو أنَّهم جميعاً انخرطوا في الفساد الذي ظهر في كلِّ مكان وعصَوْا الله تعالى، فإنَّهم لَنْ يضروا اللهَ شيئاً، ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ٤٤﴾ [الروم: ٤٤]، قد

يُضَيِّق على الكافرين في الدنيا، ويقودهم إلى النار في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٠] وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٦] ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الروم: ٤٤-٤٥]، وقد يمد لهم في النعيم؛ ليستدرجهم؛ كما قال تعالى: ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القلم: ٤٤].

وأمَّا الذين عملوا صالحاً، فهم يمهدون لأنفسهم الطريق؛ ليصلوا إلى الجنَّة بسهولة ويسر، فيجزيهم الله بمقعدهم في الجنَّة، الذي يكون كالمهاد؛ يَسْتريحُون فيه، ويجزيهم الله -جَلَّ شَأنُه- جزاءً غير محدَّد من فضله، فالله -تعالى- يحبُّ المؤمنين؛ الذين يعملون الصالحات، ولا يحب الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الروم: ٤٦]، يستدعي الآيةَ الكريمةَ: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النمل: ٦٣]، فها هنا يعود، فيذكرنا بهذه النعمة العظيمة؛ للدلالة على وحدانيَّته، فيخاطب هؤلاء بشيءٍ يعرفونه حقَّ المعرفة؛ مثل سائر الآيات في بقيَّة السورة؛ مثل الرياح، والمطر الذي ينتظرونه دائماً بفارغ الصبر، والذي يحتاجون إليه، وتتوقف حياتهم عليه؛ فكأنَّه يقول لهم: هل تطالبون رسول الله بخوارق؟ فقد آتيناكم آيات كثيرة بينات مبينات، ونزيد عليها هذه، فقد أرسل الله الرياح مبشِّرات، وأنتم تعلمون هذه الرياح، وتسمونها بأسماءٍ تختارونها لها، وتستبشرون بالرياح، التي تحمل الغيث، الذي ينزله الله عليكم، بعد قنوط، ويأس، وتصحُّر، وتهديد يشمل الحياة كلَّها، وهو مصداقٌ لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى: ٢٨]، فيبين الله -جَلَّ شَأنُه-

فوائدَ الرياح، ويجعل منها آيةً؛ يستدل بها علىٰ التوحيد، وعلىٰ البعث بعد الموت، والجزاء، ويبيِّن لنا جانباً من وظائفها؛ فهذه الرياح مبشِّرات؛ تبشِّرنا بنزول الغيث؛ ليذيقنا الله من رحمته، ولتكون أنهاراً وبحاراً، تحمل الفلك؛ فالله قادرٌ علىٰ أن يمسك الرياح قال تعالىٰ: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٣٣]، فهو يرسل الرياح؛ لتحرِّك الفلك علىٰ ظهر الماء، وتنقلكم من بلد إلىٰ آخر؛ فتتاجرون، وتقضون مصالحكم، لعلكم بعد هذا تشكرون الله علىٰ هذه الآية العظيمة.

ويأتي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم: ٤٧]، ليذكر الرُّسل بعد آية الرياح؛ لأنَّ الرُّسل أنفسهم كالرياح؛ يأتونكم بالهداية، ويخرجونكم من الظلمات إلىٰ النور، ويهدونكم إلىٰ سبل الرشاد، فهم رحمة، كما أنَّ الرياح رحمة، فكان الأولىٰ لكم أن تدركوا ذلك، وتحسنوا استقبالهم، فالذي أرسلهم بالرحمة هو الذي أرسل لكم الرياح بالرحمة، مبشراتٍ بعد انتظار، وقنوط من الحياة، فالذين يجيئون بالبينات -وهم الرُّسل- هم في الحقيقة أهم لكم من تلك الرياح التي تأتي بخير الدنيا فقط، فهؤلاء الرُّسل يأتون للناس بخيري الدنيا والآخرة، ومع ذلك تفرحون وتستبشرون بالرياح، ولا تستبشرون بالرُّسل، فهذا إجرام في حق الله، وحق الرُّسل، فكان من أعمال الذين أجرموا أن قتلوا الرُّسل، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢].

ومن فضله -جَلَّ شَأْنُه- ورحمته أن عَدَّ نصره للمؤمنين حَقّاً لهم عليه، بما آمنوا، وأحسنوا، واتبعوا الرُّسل، والنورَ الذي أنزل معهم، وتستدعي هذه الآية قوله جَلَّ شأنه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

بعد ذلك يقول جَلَّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٤٨-٥٠]؛ حيث يعود السياق -بعد ذكر إرسال الرُّسل بالرحمة- يُذكِّر مرةً أخرىٰ بإرسالِ الرياح بالرحمة، فيُفَصِّلَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا- بدقةٍ بديع خلقه في كيفيَّة تَكَوِّنِ الأمطار، فتبدأ هذه العمليَّة العظيمة بإرسالِ الرياح بأمر الله تعالىٰ، فتثير السحب، وتحركها في السماء، فتُبسط، وتنتشر في السماء إلىٰ الأماكن التي يشاء الله تعالىٰ سقياها، ثم تتحول هذه السحب إلىٰ قطرات من الماء، يصيب به الله تعالىٰ من يشاء، وهذه الآيات الكريمة تُذكِّرنا بقوله جَلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣]، ويُذكِّرنا بقوله جَلَّ وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورىٰ: ٢٨]، وقوله جَلَّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧]، فيخبرنا الله تعالىٰ بفضله ورحمته علينا جميعاً، فمن رحمته تلك نزول الغيث، فلو لَمْ ينزلْ هذا الغيث لظلّوا علىٰ حالهم كما هم، لا يستطيعون تغييره بأنفسهم، ولظلوا في حزنهم الشديد ممّا أصابهم من القحط واليأس والبأس؛ فنزول هذه الأمطار رحمة من الله تعالىٰ بعباده، ليحييَ الأرض الميتة الجدباء، فمثل ذلك تماماً ينزل الله الكتاب، ويرسل الرُّسل؛ رحمةً من الله بعباده، ليحييَ النفوسَ بعد موتها بكفرها وضلالها، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالله -جَلَّ شَأْنُه- أرسل الرُّسل رحمةً منه؛ لكي يهدوا الناس إلىٰ شؤون حياتهم الدنيا، وليؤمنوا بالله ربهم، وبالدار الآخرة، المقبلين عليها، فيعبدوه حقَّ عبادته، فيحيوا حياةً طيبة في الدنيا وفي الآخرة، فهذا كلُّه رحمةٌ بهم، من أن يتركهم فيضلوا في الدنيا ويكفروا بالله تعالىٰ، فلا يحيون حياة طيبة في

الدنيا، ويعذبهم في الآخرة بكفرهم وشركهم، فلماذا تستشعرون الرحمة الماديَّة؛ من: الغيث، ولا تستشعرون الرحمة الحقيقيَّة؛ بنزول الكتاب، وإرسال الرُّسل، وكلاهما من الله جَلَّ شَأْنُه؟!

وهنا: يخبرنا المولىٰ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: ٥١-٥٣]، يعرّفنا الله تعالىٰ بطبيعة بعض الناس، فلو أحسن الله إليهم بنزول المطر، ثم أرسل بعده ريحاً فرأوه مصفراً؛ من الأتربة، التي يحملها، بدل المطر، أو رأوا زروعهم مصفرة؛ بسبب الاحتياج إلىٰ الماء: لعادوا إلىٰ الكفر بالله، فهؤلاء كالموتىٰ لا يسمعون من يكلمهم، أو ينصحهم، وهم كالصُّم؛ الذين لا يسمعون نداءً، ولا بشارة، ولا نذارة، وهم كالعمي الضالّين؛ الذين لا يهتدون إلىٰ طريقٍ مستقيم، إنَّهم مثل أُولئكَ الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ [الحج: ١١-١٢]، فلا تهتم بهؤلاء العُمي الصُّم الموتىٰ.

أمَّا من يستجيب لله ولرسوله فهم الذين يسمعون: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦]، والذين يؤمنون بآيات الله، فيعلمون حقها فيسلمون، ويستسلمون لأمر الله وكلامه، بمجرد تلاوة آياته الكريمة، وتذكيرهم بها؛ فهؤلاء الذين يؤمنون بآيات الله يهديهم الله بإيمانهم، ويجعلهم ممَّن وصفهم بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٨]، وينير أبصارهم وبصائرهم، فَإِنَّها لا تعمىٰ الأبصار، ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور.

النَّجم السادس: العلاقة بين العلم والإيمان

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم: ٥٤-٥٥]، يُذكِّرنا المولىٰ جَلَّ وَعَلَا بأنَّ الإنسان

تكوينه بدأ بضعفٍ، وهو أساس التكوين، قال تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٨]، ثم بعد ضعفه يبلغ بعض القوة، ويبلغ أشده، ثم يدخل في مرحلة ضعف أخرىٰ وشيبة، قال جَلَّ شأنه: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يس: ٦٨]، قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج: ٥]. فالله تعالىٰ يُذَكِّرهم بضعفهم، وضعف خَلْقِهِمْ، وأنَّه هو خالقهم، فلم لا يستجيب المعاندون والمستكبرون رغم رؤيتهم بأمِّ أعينهم أنَّهم ضعافٌ، لدرجة أنَّهم لَنْ يخلقوا شيئاً حتىٰ ذباباً، بل وإن سَلَبَ منهم شيئاً لا يسترجعونه منه، قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج: ٧٣]، ثم أنتم أنفسكم أيُّها المجرمون المستكبرون المعاندون لآيات الله، ستقفون بين يدي الله تعالىٰ يوم القيامة، فتقسمون أنَّكم لَمْ تعيشوا إلَّا قليلاً، قال تعالىٰ: ﴿ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

فهذا الإفك الذي كنتم تحيون فيه؛ من الانصراف عن الله تعالىٰ وآياته، وكتبه، ورسله، هو الذي أوردكم موردَ الهلاك، الذي أنتم واردوه يوم القيامة، رغم أنَّ هذه الحياة الدنيا صغيرةٌ حقيرةٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل: ٧٧]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الروم: ٥٦-٥٧].

ويكمل الله تعالىٰ لنا مشهد يوم القيامة، فيرُد الذين أوتوا العلم -قيل هم الملائكة- أنَّكم أيُّها المجرمون الظالمون لبثتم أجلكم كاملاً، كما قدَّره الله تعالىٰ في

كتابه، فهذا هو يوم البعث الذي كنت تكذبون به، وبه تمترون، فاليوم لا تنفعكم معذرة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢]، ولا تستحقون حتىٰ العتاب عليكم، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النحل: ٨٤]، فمن فضل الله جَلَّ شَأْنُه أنَّه ضَربَ لنا أمثالاً لما يحدث للأقوام المختلفة يوم القيامة، حتىٰ يعلم الناس ما سيقع بهم، فلا يفاجأوا بشيءٍ لَمْ يخبرهم به الله تعالىٰ، فهذا رحمة منه سبحانه؛ لعلَّ الناس تؤمن وتتعظ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩]، ولكن يأبىٰ أكثر الناس إلَّا أن يكفروا بِكُلِّ تلك الآيات البينات والإنذارات، رغم أنَّهم كثيراً ما كانوا يطلبون آيات، قال تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩] فتبيَّن أنَّهم كانوا كاذبين فيما يزعمون، لأنَّهم لو جاءتهم آية ليؤمنن بها فهم مبطلون، لا يريدون إلّا الصد عن سبيل الله، فلا تصدقهم يا محمد؛ فهم معاندون مستكبرون، ولئن جئتهم بآية ليقولون لكم: (إن أنتم إلّا مبطلون)، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ٤-١٠]، فهم مستهزئون؛ لأنَّ هذا القرآن العزيز دائماً ما يأتيهم بالحقّ، وأحسن تفسيراً، إذا ما أَتَوْهُ بأي مَثَلٍ، فلا يريدون إلّا الاستهزاء، والصدّ عن سبيل الله؛ لأنَّهم من الذين طَبَعَ اللهُ الكفرَ علىٰ قلوبهم؛ بظلمهم، واستكبارهم، وعنادهم، وإصرارهم علىٰ عدم السمع والإبصار، فاصبر يا محمد -والأمر بالصبر لنا أيضاً- ولا يستخفنك الذين لا يوقنون.

بدأت السورة بالحديث عن المعركة، التي غُلِبَ الروم فيها، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين، وخُتِمَتْ بقوله جَلَّ شأنه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا

يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ [الروم: ٦٠]، وأنَّ الله لا يخلف الميعاد، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون؛ فيدفعوك لترهاتهم، ومحاولاتهم: إلىٰ القلق، والجزع، واستعجال النصر، فإنَّ له موعداً لا يخلفه، وسيأتي فكانتِ الهجرةُ، والمعاركُ الحاسمةُ بينه وبين الشرك وأهله، حتىٰ فتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

أمَّا بعدُ: فإنَّ هذه السورة تعدُّ من أهم سور القرآن المجيد، وأكثرِها إنارةً للسبيل، في مواجهة المشركين وأعداء هذه الأُمَّة، فليتدبرْها المتدبرون، ويُدْركوا عظمةَ هذا القرآن الكريم، وما يحمله من الهداية.

تم بحمد الله

سُورَةُ السَّجْدَةِ

وصف السّورة:

السَّجْدَة كلهَا مَكِّيَّة.

عدد آياتها: تسع وَعِشْرُونَ.

عدد كلماتها: ثَلَاثمائَة وَثَلَاثُونَ.

عدد حروفها: ألف وَخَمْسمِائَة وَثَمَانِية عشر.(١)

ترتيبها في المصحف: ٣٢

النَّجم الأول: حقيقة الوحي

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السّجدة: ١-٩] ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ [السّجدة: ١] مضىٰ الكلام في معنىٰ الحروف المقطعة عند تفسيرنا لسورة البقرة مما أغنىٰ عن إعادته ههنا. ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [السّجدة: ٢].

لـمّا نزل الكتاب الكريم علىٰ رسول الله ﷺ استبد العجب بالقوم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢]. وقد خالط هذا العجبَ الحسدُ والبغيُ، ومن ثَمّ برزت منهم مقولة الافتراء لتكون وسيلة لهم للصّد عن سبيل

(١) ابن عباس، **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**، مرجع سابق، ص٣٤٧.

الله، واعتذاراً منهم عن عدم الإيمان به، فجاءت هذه الآية -وغيرها كثير- لتؤكد أنّ تنزيل الكتاب من الله -تعالىٰ- أمر لا ريب ولا شك فيه، فهو رب العالمين، وما كان لرب العالمين أن يترك عباده هملاً دون إرشاد وتوجيه وتصحيح مسار من خلال نبي أو كتاب يبين لهم ما فيه هدايتهم وسعادتهم في الدّنيا والآخرة، وذلك ينبغي أن يكون دافعاً كافياً لكل ذي قلب وعقل أن يؤمن بأنّ تنزيل القرآن من رب العالمين أمر لا شك فيه ولا ريب ولا مراء ولا جدال. ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ [السّجدة: ٣] ومع ذلك فإنّ هؤلاء قد نسبوا إلىٰ النبي الافتراء وقالوا: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السّجدة: ٣]؛ أي جاء به من عند نفسه.(١)

وقد تكرر ذكر مقولتهم السّخيفة تلك في سياقات مختلفة، وكان الرّد القرآني مناسباً في كل مرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٥-١٦].(٢) فهنا أُمر ﷺ بأن يحتج عليهم في صحة ما جاءهم به بقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦]، أي: هذا إنّما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدّليل علىٰ أنّي لست أتقوّله من عندي ولا افتريته، أنّكم عاجزون

(١) لأنّ «أَمْ» هي المنقطعة الكائنة بمعنىٰ «بل»، والهمزة معناه: «بل أيقولون افتراه»، إنكاراً لقولهم، وتعجباً منهم لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه. انظر:
- النسفي، **تفسير النّسفي (مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل)**، مرجع سابق، ج٣، ص٥.

(٢) قال النسفي: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] أمر بأن يجيب عن التّبديل، لأنّه داخل تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة، أو أن يسقط ذكر الآلهة بقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ [يونس: ١٥] ما يحل لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ [يونس: ١٥] من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [يونس: ١٥] من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل، لأنّ الذي أتيت به من عند الله لا من عندي فأبدله ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ [يونس: ١٥] بالتّبديل من عند نفسي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: ١٥] أي يوم القيامة، وأمّا الإتيان بقرآن آخر فلا يقدر عليه الإنسان، وقد ظهر لهم العجز عنه إلّا أنّهم كانوا لا يعترفون بالعجز، ويقولون: لو نشاء لقلنا مثل هذا. انظر:
- النسفي، **مدارك التنزيل**، مرجع سابق، ج٢، ص١١، تفسير الآية ١٥ من سورة يونس، بتصرف.

عن معارضته، وأنّكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلىٰ حين بعثني الله -عزّ وجلّ- لا تنتقدون عليّ شيئاً تغمصوني به؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦]، أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل.(١) ففي هذا السّياق يرد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليهم بنوع من تنبيههم إلىٰ استعمال عقولهم، وفي سياق آخر يردّ بتحديهم لبيان عجزهم، كما في قوله -جلّ شأنه-: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ٣٧-٣٩]. وهكذا.

وهنا يرد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليهم ذلك القول الذي لا دليل عليه ولا برهان بقوله: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السّجدة: ٣]، بل تعني: اضرب عن قولهم ودعه فهو لا يستحق الوقوف عنده ولا الالتفات إليه، لأنّ ما أنزل عليك هو الحق من ربك، والدّلائل التي تثبت أنّه حق من ربك لا تحصىٰ، وأسباب إنزاله كثيرة منها: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ [السّجدة: ٣]، فهو حق كله، ومقصده الأساسي أن ينذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبله ﷺ، وهم الشّعوب الأُميّة (٢)وفي مقدمتهم العرب، فهي شعوب لم تكن كتابية، وإذا كان هناك رسل قد جاءوا في الماضي مثل هود وصالح فقد بعد العهد بهم ونسيت رسالاتهم، بحيث لم تعد في ذاكرة أحد منهم، فصاروا في حاجة إلىٰ من يخرجهم من أميّتهم تلك.

وأولئك الغافلون من تلك الشّعوب الأمية إذا اهتدوا وقبلوا رسالة الله وآمنوا بها واتقوا، فذلك يعني أنّ الأرض سوف تستضيء كلها بما أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من هداية،

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج٤، ص٢٦٣.

(٢) للأمّي معنيان، أحدهما: هم من لم يأتهم قبل رسول الله محمدٍ ﷺ من رسول، والمعنىٰ الآخر: هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وعليه حمل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] قال قطرب: الأُمِّيَّة: الغفلة والجهالة، فالأميّ منه، وذلك هو قلة المعرفة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي: إلّا أن يتلىٰ عليهم. انظر:

- الأصفهاني، **مفردات القرآن**، مرجع سابق، ص٨٧.

فالله -تبارك وتعالىٰ- نزل علىٰ محمد ﷺ الكتاب بالحق، وأنزل التّوراة والإنجيل من قبل هدىٰ للنّاس، لتشرق الأرض كلها بنور ربها وبهداية ما أنزل، فرسول الله ﷺ كانت له مهمتان: الأولىٰ: إخراج الأُميين من أُميّتهم وتحويلهم إلىٰ أهل كتاب، وذلك فيما يتعلق بالعرب والكرد والتّرك والهنود والبربر والشعوب لم تحظَ برسل، ولا نزلت فيها كتب تخرجها من الظّلمات إلىٰ النّور، والمهمة الثّانية: أن يقوم -صلوات الله وسلامه عليه- بالتّصديق علىٰ الكتب التي أنزلت قبله، أي إعادتها إلىٰ حالة الصّدق، ثمّ الهيمنة عليها لحفظها والحيلولة دون تحريفها مرة أخرىٰ أو كتمان شيء منها.

وبعد أن بيّن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنّ القرآن نازل بالحق لينذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبل رسول الله ﷺ لعلهم يهتدون، جاء قوله -جلّ شأنه-: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [السّجدة: ٤].

فكأنّ المعنىٰ: إنّ الله الذي خلق السّموات والأرض قادر علىٰ أن ينزل الكتاب علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيراً، وقادر علىٰ أن يرسل محمداً ﷺ بالحق بشيراً ونذيراً، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فاطر: ٢٤-٢٦]. فالذي خلق السّموات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهن قادر علىٰ أن ينزل علىٰ من اصطفاه من خلقه آية هي هذا الكتاب المعجز. هذا الخالق العظيم الله -جلّ شأنه- هو ربكم ورب العالمين، ليس لكم من دونه ولي ولا شفيع ولا نصير ولا منقذ من الضّلال. ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السّجدة: ٥] فمعاشكم ومعادكم وسير حياتكم والأرض وما أودع فيها -جلّ شأنه- وما سخر لكم فيها كل ذلك يدبره -جلّ شأنه- بأمره، وكل ذلك تعرج نتائجه وطرق تصرفكم فيه وتعاملكم معه إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليحاسبكم عليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون، هذا الخالق العظيم قادر أن ينزل علىٰ نبيه آيات وكتاباً، فهو الذي سخر الشّمس والقمر والنّجوم وتفرد بالخلق والأمر. ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [السّجدة: ٦] وهو الذي لا يعلم حقائق أيامه إلّا هو، وما أوتيتم من

العلم بها إلّا القليل، ذلك هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾ [السّجدة: ٦] ومن رحمته أن أرسل لكم رسوله رحمة للعالمين، ومن عزته أن أنزل عليه الكتاب بالحق ليخرجكم من الظّلمات إلىٰ النّور لعلكم تهتدون، وهو ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧﴾، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ [السّجدة: ٨] ذريته ﴿مِن سُلَٰلَةٖ﴾ [السّجدة: ٨] علقة ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨﴾ [السّجدة: ٨] ضعيف هو النّطفة،[١] وهو الذي خلق النّطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، ثمّ كسىٰ العظام لحماً، فتبارك الله أحسن الخالقين. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السّجدة: ٩] ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾ [السّجدة: ٩]، وهو الذي سواكم ونفخ في أبيكم من روحه ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾ [السّجدة: ٩] فكيف تعطّلون قواكم كلها ولا تنظرون في هذا الأمر، ولا يهديكم ذلك إلىٰ أن تدركوا أنّ الذي خلق الخلق ونظّم الأمر وخلقكم وأحسن صوركم قادر علىٰ أن يرسل رسولاً وينزل عليه كتاباً؟ فلمَ تستغربون ولمَ تتعجبون؟

النَّجم الثاني: أدلة وقوع البعث

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٤﴾ [السجدة: ١٠-١٤]

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾ [السجدة: ١٠]

ثُمّ ينتقل السّياق لمناقشة أمر آخر مما جعلوه موضع عجب منهم واستغراب وتساءلوا عنه، وهو البعث بعد الموت: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[السجدة: ١٠] أي خفينا،[٢] كناية عن الموت، ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ [السجدة: ١٠] وهو أن نبعث. ونسوا أنّ من خلقهم أول مرة من لا شيء قادر علىٰ إعادة خلقهم بل هو أهون عليه، وله المثل

(١) المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٥٤٥.

(٢) الرازي، **مختار الصحاح**، مرجع سابق، ج١، ص٤٠٣، مادة: (ضلل).

الأعلىٰ، فإن إعادة الخلق أهون من إنشائه ابتداءً، فلم يتعجبون أو يستغربون أن يكون من أنشأهم وخلقهم أول مرة قادراً علىٰ إعادتهم إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ؟ والاستدلال علىٰ الإعادة بالبدء تكرر كثيراً في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: ٧٨-٧٩]. فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم علىٰ البيان، أن يأتي بأحسن من هذه الحجة، أو بمثلها، بألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضوح الأدلة وصحة البرهان لما قدر. فإنّه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد، اقتضىٰ جواباً، فكان في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥ﴾ [يس: ٧٨] ما وفَّىٰ بالجواب، وأقام الحجة وأزال الشّبهة، فاحتج بالابتداء علىٰ الإعادة، وبالنّشأة الأولىٰ علىٰ النّشأة الأخرىٰ؛ إذ كل عاقل يعلم علماً ضرورياً أن من قدر علىٰ هذه قدر علىٰ هذه، وأنّه لو كان عاجزاً عن الثّانية لكان عن الأولىٰ أعجز وأعجز.

ولـمّا كان الخلق يستلزم قدرة الخالق علىٰ المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه - أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: ٧٩] فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، ومواده وصورته، فكذلك الثّاني. فإذا كان تام العلم، كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟.

ثمّ أكد الأمر بحجة قاهرة، وبرهان ظاهر، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بدّ أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة، بما يدل علىٰ أمر البعث، ففيه الدّليل والجواب، فقال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠﴾ [يس: ٨٠]. فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة، من الشّجر الأخضر الممتلئ بالرّطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشّيء من ضده، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه، من إحياء العظام وهي رميم. وكم في القرآن من مثل هذا الاحتجاج.(١)

(١) ابن أبي العز الحنفي، صدر الدين محمد بن علاء الدين علّي بن محمد الأذرعي (توفي: ٧٩٢هـ). **شرح العقيدة الطّحاوية**، تحقيق: أحمد شاكر، الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١، ١٤١٨هـ، ص٤٠٧.

لكنهم قد غرتهم أنفسهم وأضلتهم شياطينهم فكفروا بلقاء ربهم فجرّهم ذلك الكفر بلقاء الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ إنكار البعث والنّشور والحساب والجزاء.

ثُمّ يؤمر رسول الله ﷺ بأن يفاجئهم بما يكرهون سماعه ولا يتمنون لقاءه ورؤيته، فيقول لهم: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١١﴾ [السجدة: ١١]، فالأمر هيّن والدلائل عليه قائمة وليس هناك ما يدعو إلىٰ الإنكار والاستغراب أو العجب، فالله يتوفّىٰ الأنفس حين موتها، وجعل لكم في المنام عبرة، فالنّوم في حقيقته موت أصغر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر: ٤٢]. فما الذي ينتظرونه بعد الموت؟ إنّنا لم نخلق هذا الكون عبثاً ولن نتركهم سدىٰ، وإنّهم ملاقو ربهم فسائلهم عن أعمالهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ [السجدة: ١٢] أيّها المخاطب ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [السجدة: ١٢] الذين أنكروا البعث ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] قد خفضوا رؤوسهم عند ربهم من الخزي والعار قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ [السجدة: ١٢] قبائحنا، ﴿وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] منك تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدّنيا، وقد تُبْنا إليك، ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] إلىٰ الدّنيا ﴿نَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] لنعمل فيها بطاعتك، ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة: ١٢] إنّا قد أيقنَّا الآن ما كنّا به في الدّنيا مكذبين من وحدانيتك، وأنّك تبعث مَنْ في القبور. ولو رأيت –أيّها الخاطب– ذلك كله، لرأيت أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً.(١)

إنّهم في هذا الموقف لا ينفعهم أن يبصروا أو يسمعوا، لأنّه لا رجوع لهم، وقولهم حين يبعثون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة: ١٢]. أو حين يأتي أحدهم الموت: ﴿..رَبِّ ٱرْجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، لا جواب له إلّا: ﴿..كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: ١٠٠] فلا يقبل من أي منهم عند الموت والاحتضار أو عند البعث أي دعاء أو طلب للعودة أو البقاء لاستدراك ما فرطوا فيه، ذلك أنّهم أُعطوا الوقت الكافي ليتذكروا فلم يتذكروا وليتدبرا فلم يتدبروا. قال –جلّ شأنه–: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ

(١) آل الشيخ، **التفسير الميسر**. مرجع سابق، ص٤١٦.

جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

ولـمّا كان كِبْر المشركين قد يحملهم على أن يتوهموا أنّهم بكفرهم وشركهم قد سبقوا الله -تعالىٰ- وفاتوه فلن ينتقم منهم، أو أنّهم قد تجاوزوا بكفرهم مشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال لهم جلّ شأنه: ﴿ .. وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا .. ﴾ [السجدة: ١٣] لو شئنا إكراهكم ومعاملتكم معاملة المسخَّرات لا معاملة المستخلف المختار لحملناكم على الهداية وأكرهناكم عليها ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ [السجدة: ١٣] ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣]،[1] فإذا سيق هؤلاء الذين كفروا إلى جهنم زمراً قال لهم خزنتها: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]، فمن نسي الله فلم يذكره ولم يؤمن به ولم يوحده ولم يتقه أنساه الله نفسه، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر: ١٩] ومن نسي الله ونسي لقاءه ونسي وحيه ونسي البعث والدّار الآخرة ونسي الجزاء نسيه الله تعالىٰ، فالجزاء من جنس العمل، ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [السجدة: ١٤] مِنْ كفر وشرك وعبادة أصنام واجتراح سيئات ومقارفة كبائر، فهي أعمالكم تُردّ عليكم، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ليس بظلام للعبيد: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الزمر: ٧١].

النَّجم الثالث: مقابلة بين صفات المؤمن وصفات الفاسق

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ

(١) الجلالين، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٥٤٦، عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [السجدة: ١٣].

ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة: ١٥-٢٢]

ثُمّ ينتقل السّياق إلىٰ بيان صفات أولئك الذين يمكن أن يؤمنوا لوجود الاستعدادات لديهم للإيمان: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [السجدة: ١٥]، أمّا الذين يخرون علىٰ آيات الله صماً وعمياناً فلا ينتظر منهم أن يؤمنوا أو يستجيبوا لنداء الله لهم، إنّما يصدق بآيات القرآن ويعمل بها الذين إذا وُعِظوا بها أو تُليت عليهم سجدوا لربهم خاشعين مطيعين، وسبَّحوا الله في سجودهم بحمده، وهم لا يستكبرون عن السّجود والتّسبيح له، وعبادته وحده لا شريك له.[1] نزع الله من صدورهم الكبر وباعد بينهم وبين الغرور. ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦]. تتباعد جنوبهم عن مضاجعهم وتتركها لتتفرغ لتلاوة آيات الله والتّعبد والقيام لله بها في قنوت وخشوع، ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا ﴾ [السجدة: ١٦] منه -جلّ شأنه- ﴿وَطَمَعٗا ﴾ [السجدة: ١٦] فيما عنده، ورغبةً إليه وحُباً فيه واستجابة لأوامره وتلبية لنداء رسوله، فهم يدعون ربهم في وقت يسمع فيه الدّعاء -جلّ شأنه- ويستجيب له: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة: ١٦] ولا يكفيهم ذلك بل ينفقون مما استخلفناهم فيه، وبذلك يعمرون الأرض، ويواسون ساكنيها ويقودون قافلة الذّكر والتّسبيح لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ. ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [السجدة: ١٧] من عوامل السّرور ودواعي البهجة والانشراح والانبساط ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧]، والفرق كبير بين جزاء وجزاء، ففريق في النار يذوق عذاب الخلد بما كانوا يعملون، وفريق في الجنة لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون كذلك. ورغم ضآلة وقلة ما يفعله العبد وما يقوم به وما يقدمه لله جلّ شأنه، فإن الله جل شأنه ينمي لعبده عمله ويجزيه عنه أحسن الجزاء مضاعفاً له

(١) آل الشيخ، **التّفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٤١٦، تفسير الآية ١٥ من سورة السجدة.

الحسنات، أمّا السّيئات فلا يجازي النّاسَ إلّا بمثلها، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية: ٢١-٢٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]. إنّ عدل الله لا يسمح بأن يكون المؤمن كالفاسق فهم لا يستوون، لا يستون في أعمالهم ولا مهامهم ولا يستوون كذلك في الجزاء الذين يجازون به.

- تعريف المؤمن والفاسق قرآنياً

إذا أردنا تعريف المؤمن والفاسق قرآنياً، فإنّ ذلك يستلزم تتبع الآيات الواردة في تعريفهما؛ ففي تعريف المؤمن نقرأ مثل قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢-٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النور: ٦٢]. وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات: ١٥]. وغيرها مما يتضمن هذا المعنىٰ.

وفي تعريف الفاسق نقرأ نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [البقرة: ٩٩]. وقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة: ٤٧]. وقوله: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ

بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور: ٤]. وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر: ١٩]. وغيرها من الآيات. ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [السجدة: ١٩]، سمّىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الجنات هنا بجنّات المأوىٰ، فكأنّها مكان إيواء لأولئك الذين فرّوا من عذاب الله إلىٰ رضاه، فجنات المأوىٰ يدخلهم الله إياها ويؤويهم فيها ويجعلها ﴿ نُزُلًۢا ﴾ [السجدة: ١٩] لهم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [السجدة: ١٩]، فليس الإيمان بالتّمني ولا بالإعلان ثمّ مقارفة أي شيء آخر، بل لا بدّ أن يصحب الإيمان العمل الصّالح.

ويقابل القرآن بين مقام الفريقين، فيقول تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي ملجأهم ومنزلهم، ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ﴾، أي تقول لهم خزنة النار: ﴿ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة: ٢٠][١] وهذه المقابلة بين مأوىٰ ومأوىٰ فيها استهزاء شديد بهؤلاء الكافرين.

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة: ٢١]

هذه الآية الكريمة ظاهرة جداً في تصنيف العذاب الذي تمر الأمم به إلىٰ صنفين، فهناك عذاب أدنىٰ وهناك عذاب أكبر، فالأدنىٰ هو ما تصادفه الأمم في هذه الحياة الدّنيا من حروب وفتن وأوبئة ومجاعات وتظالم وبغي وانتشار لسيّء الأخلاق وفاسد التّصرفات بحيث يضرب الله قلوب بعضهم ببعض، وهذا العذاب الأدنىٰ فيه معنىٰ التّذكير ولفت النّظر ودفع النّاس شعوباً وقبائل وجماعات لمراجعة نفسها ومعرفة أسباب ذلك وجذوره في تصرفاتها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

(١) النّسفي، **مدارك التنزيل**، مرجع سابق، ج٣، ص١٠، تفسير الآية ٢٠ من سورة السجدة.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥]. وهذا في معنىٰ قوله تعالىٰ ههنا: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة: ٢١].(١)

وهذه الآية تبين للمشركين أنّهم سيجابون إلىٰ ما طلبوا في وقت غير بعيد، وأنّهم سيذوقون من العذاب أدناه وأقله، منه- سبحانه- كالجدب، وانقطاع المطر، والخوف، والفرقة، والصّراع، وغلاء الأسعار، وفساد الأوضاع، وما إلىٰ ذلك. أو بأيدي المؤمنين حين يأذن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لهم بالقتال؛ وهذا ما حدث بعد الهجرة، دون عذاب الاستئصال التّام كما حصل لأقوام هود وصالح وأصحاب الأيكة، وقوم لوط وغيرهم. دون عذاب جهنم الذي ينتظر من يستمرون علىٰ كفرهم وإنكارهم وجحودهم. لأنّ من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأمّة "خاتم النّبيين" أن حفظها من عذاب الاستئصال؛ ولأنّ "ختم النّبوة" يجعل فترة الرّسالة ممتدة، وهذا قد يؤدي بهم إلىٰ الرّجوع إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، والإيمان به، وبما أنزل علىٰ رسوله ﷺ أمّا العذاب الأكبر فإنّه ينتظر أولئك الذي يصرّون علىٰ الشّرك، ولا يتحولون عنه إلىٰ التّوحيد في الدّار الآخرة لا في هذه الدّار. ومع وضوح هذا المعنىٰ فقد جاء عن مجاهد وغيره قولهم: "إنّ العذاب الأدنىٰ هو عذاب القبر، والأكبر هو عذاب جهنم" ويرد هذا القول وينفيه قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة: ٢١]، وهذا الرّجوع عن الذّنوب والتّوبة عنها وعن الأخطاء لا يكون إلّا في الحياة الدّنيا، أمّا القبر فلا رجاء في الرّجوع أو الخروج منه إلّا بعد قيام السّاعة.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾ [السجدة: ٢٢] تبين الآية أنّ هؤلاء قد مارسوا أشد أنواع الظّلم بدوامهم علىٰ الشّرك بعد أن جاءهم رسول من أنفسهم عزيز عليه عنتهم حريص عليهم. وأنزل عليه كتاباً لا يمسه إلّا المطهرون،

(١) في تفسير الجلالين: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [السجدة: ٢١] عذاب الدّنيا بالقتل والأسر وجدب سنين والأمراض ﴿دُونَ﴾ [السجدة: ٢١] قبل ﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السجدة: ٢١] عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ [السجدة: ٢١]؛ أي من بقي منهم ﴿يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة: ٢١] إلىٰ الإيمان. انظر:
- المحلي، والسيوطي، **تفسير الجلالين**، مرجع سابق، ص٥٤٧.

وصارت كل فرص الهداية متاحة لهم، ومع ذلك أصرّوا على كفرهم وشركهم وقال قائلهم: ﴿ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص: ٦]. آلهتهم التي لم تكن سوى أوثان صنعوها بأيديهم، ومنحوها أسماء مخترعة، وصفات مصطنعة. فهم بذلك كله قد تعرّضوا لنقمة الله وغضبه الذي لن يجعل المسلمين كالمجرمين، بل سيرحم المؤمنين وينتقم من المجرمين.

النَّجم الرابع: سنن الله لا تتخلف

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٢٣ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٢٥ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ۝٢٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ۝٢٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٨ قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ۝٢٩ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾ [السجدة: ٢٣-٣٠]

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٢٣﴾ [السجدة: ٢٣]

ولقد آتينا موسى التّوراة كما آتيناك -أيّها الرّسول- القرآن، فلا تكن في شك من لقاء موسى ليلة الإسراء والمعراج، وجعلنا التّوراة هداية لبني إسرائيل، تدعوهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم.(١)

والتّذكير بموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يأتي في الغالب بعد بيان معاناة رسول الله ﷺ مع قومه، فكان التّذكير به وبقومه يحقق أهدافاً عديدة؛ منها:

- التّسرية عن رسول الله ﷺ.
- إشعار اليهود -وكانوا كثيرين في جزيرة العرب- بأنّهم مهما بالغوا بالتّخفي، وبكتمان مساوئهم، وتحريف وتزييف تراثه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فإنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سيطلع نبيه ﷺ عليه، لئلا تتوهم يهود أنّها حين تصدّ النّاس عن الإيمان برسول الله ﷺ

(١) آل الشيخ، **التّفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٤١٧، تفسير الآية ٢٣ من سورة السجدة.

وتصديقه، وتحريض العرب ضدّه، وتفضيل أهل الشّرك على أتباعه أنّ الله ساتر ذلك عليهم، لا؛ لأنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سيفضحهم ويكشف تآمرهم وخيانتهم للعهود والمواثيق كلها.

- أنّ في ذلك رسالة للعرب والأميين كافة ولأهل الكتاب أيضاً، أنّ رسول الله ﷺ قد كُشف له من أنباء بني إسرائيل ما لم يكتشفه علماؤهم وأحبارهم وربانيّوهم، سواء في ذلك تاريخهم ودينهم وكتابهم وأنبياؤهم، ودخائل نفوسهم. وفي هذه السّورة توضع العلاقة بين سيدنا محمد ﷺ وسيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في شكل فيه معنى الإغاظة لليهود، بالتّأكيد على أنّك يا محمد سوف تلقى أخاك موسى دون ريب ولا شك، وستسمع منه الكثير مما عاناه من قومه هؤلاء من أذى وجحود وتمرد لم يقلل منه ما صنعه الله على يديه لهم، ومع أنّ ما جئت به من وحينا يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، لكنهم تنكروا لك وهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم، ولذلك فإنّهم سيرجعون إلينا بخلافاتهم تلك يوم القيامة ونفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون. فكيف يتخذهم قومك مراجع لهم يستفتونهم في شأنك وشأن رسالتك؟ !وهو ما أغضب (حبر الأمة وترجمان القرآن) عبد الله ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: "يا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَكِتَابُكُمْ الذي أُنْزِلَ على نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِالله تقرؤونه لم يُشَبْ؟ وقد حَدَّثَكُمْ الله أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا ما كَتَبَ الله، وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمْ الْكِتَابَ، فَقَالُوا: هو من عِنْدِ الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً، أَفَلَا يَنْهَاكُمْ ما جَاءَكُمْ من الْعِلْمِ عن مُسَاءَلَتِهِمْ؟ ولا والله ما رَأَيْنَا منهم رَجُلاً قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عن الذي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ." (١)

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤]

وجعلنا من بني إسرائيل هداة ودعاة إلى الخير، يأتمُّ بهم النّاس، ويدعونهم إلى التّوحيد وعبادة الله وحده وطاعته، وإنّما نالوا هذه الدّرجة العالية حين صبروا على

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الشهادات، بَاب لاَ يُسْأَلُ أَهْلُ الشِّرْكِ عن الشَّهَادَةِ وَغَيْرِهَا، حديث رقم (٢٦٨٥)، ص٩١١. (كتابكم) القرآن. (أحدث الأخبار بالله) أقرب الكتب إليكم نزولاً من عند الله عزّ وجلّ. (لم يشب) لم يخلط بشيء غيره، ولم يبدّل ولم يغيّر. (ينهاكم) يكفيكم ويغنيكم.

أوامر الله، وترك زواجره، والدّعوة إليه، وتحمُّل الأذىٰ في سبيله، وكانوا بآيات الله وحججه مصدقين علىٰ وجه اليقين.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [السجدة: ٢٥]

إنّ ربك -أيّها الرّسول- يقضي بين المؤمنين والكافرين من بني إسرائيل وغيرهم يوم القيامة بالعدل فيما اختلفوا فيه من أمور الدّين، ويجازي كل إنسان بعمله بإدخال أهلِ الجنةِ الجنةَ وأهلِ النّارِ النّارَ.(١)

ثمّ تنتقل السّورة إلىٰ التّعجب من أمر هؤلاء المشركين الذين عطّلوا قوىٰ الوعي التي مَنَّ الله عليهم بها، ولو أنّهم أحسنوا الاستفادة بها لاستطاعوا الوصول إلىٰ الهداية: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة: ٢٦]

ثمّ إنّهم أصحاب رحلتين: رحلة الشّتاء ورحلة الصّيف، وهم في كلتا الرّحلتين يمرّون علىٰ آثار أمم سادت ثمّ بادت، أو لم تؤدِّ أخبار تلك الأمم وآثارها إلىٰ هدايتهم بأن يفهموا من هلاك تلك الأمم وبقاء آثار مساكنهم ما يرشد العقل السّليم، ويوضح ويبين لهؤلاء أنّ مصيرهم لن يختلف عن مصائر أولئك الذين كذبوا الرّسل من قبل، فحقَّ عليهم وعد الله تعالىٰ: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ .. ﴾ [النمل: ٨٥].

ولكنهم قد عطّلوا حاسة السّمع وعطّلوا البصر، وأوقفوا قوىٰ الوعي، فلم تعد تلك الأمور ولا سواها تعني لهم الكثير، ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢١-٢٢].

ثمّ يردف ذلك بآية أخرىٰ يرونها في كل حين، ويشاهدونها في كل مكان، وذلك هو "الغيث" الذي ينتظرونه بفارغ الصّبر ويحتفون باستقباله؛ لأنّ حياتهم وحياة زروعهم وأنعامهم تتوقف عليه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا

---

(١) آل الشيخ، **التّفسير الميسر**، مرجع سابق، ص٤١٧، الآية ٢٤ من سورة السجدة.

تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة: ٢٧]، إنّهم يبصرونه، ولكنّهم لا يبصرون بعيون بصائرهم من نزَّله وكيف نزَّله؛ لأنّ أبصارهم لا تؤدي لهدايتهم، لأنّهم يؤمنون بالأنواء، (١)ولا يرون التّدبير الإلهي فيها لغفلتهم وعمىٰ قلوبهم. وبدلاً من أن يؤدّي كل ما يسمعون ويبصرون لهدايتهم فإنّهم يتجاهلون ذلك ليعودوا إلىٰ السّخرية والاستهزاء برسول الله ﷺ. والمؤمنين. ليتساءلوا ساخرين: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [السجدة: ٢٨]، متىٰ يحين موعد هذا الفتح والنّصر الذي يعدكم محمد به؟ !فيتجاهل السّياق هذه السّخرية، ويرد عليهم بجد: ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [السجدة: ٢٩]، فكأنّه يجيب علىٰ سخريتهم تلك: لِمَ تسألون عن يوم الفتح، وما الذي تنتظرونه فيه؟ إنّه يوم إذا جاء قد لا تجدون بعده فرصة للتّوبة أو التّراجع، ولن تحصلوا علىٰ إمهال. فكان الأجدر بكم لو عقلتم أن تتساءلوا عما إذا كان من الممكن لكم بعد الدّخول في ذلك اليوم العودة إلىٰ الدّنيا، أو التّوبة والرّجوع عما كنتم تعلمون، أو أنّ يوم الفتح سيجلب لكم أيّ نفع!!

والآية الكريمة جعلت المراد "بالفتح" شاملاً للفتح في الدّنيا بالتّمكين لرسول الله ﷺ. والمؤمنين كما في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [غافر: ٥١-٥٢]. ويحتمل أن يكون المراد بـ"يوم الفتح" اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق فيما كانوا فيه يختلفون. فإذا أريد به "الفتح" في الدّنيا فقد بشر رسول الله ﷺ به قبل وقوعه في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ ﴾ [النصر: ١]، وجاءت "سورة الفتح" بعد فتح مكة بامتنان الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ رسوله ﷺ، بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴿١﴾ ﴾ [الفتح: ١]، وقد يرجح ذلك كون اطراد الفتح في الدّنيا. ولا يتعارض ذلك مع قوله تعالىٰ:

---

(١) عن زَيْدِ بن خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قال: "صلىٰ لنا رسول الله ﷺ صَلاَةَ الصُّبحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ علىٰ إِثْرِ سَماَءٍ كانت من اللَّيْلَةِ، فلما انْصَرَفَ، أَقْبَلَ علىٰ الناس، فقال: هل تَدْرُونَ مَاذَا قال رَبُّكُمْ؟ قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: أَصْبَحَ من عِبَادِي مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، فَأَمَّا من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ" فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا من قال: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ." انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: الأذان، بَاب: يَسْتَقْبِلُ الْإِمَامُ الناس إذا سَلَّمَ، حديث رقم (٨٤٦)، ص١٧٢.

﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٢٩﴾ [السجدة: ٢٩]، **وذلك لأنّ** من قال كلمة التّوحيد متعوذاً وقد رابه شعاع السّيوف ثُمّ قُتل فإنّه لا ينتفع بذلك، كإيمان فرعون بعد أن أيقن أنّه هالك لا محالة، وقد يعضد ذلك ترديد رسول الله ﷺ لقوله تعالىٰ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر: ٤٥]. يوم بدر، ونحو قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: ٨٩]. وقد يُراد بيوم الفتح يوم الدّين، وهذا هو المتبادر إلىٰ الذّهن في هذه السّورة الكريمة بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٢٩﴾ [السجدة: ٢٩]؛ إذ إنّ ذلك اليوم هو يوم الحكم والفصل وقيام القيامة حيث يكشف الغطاء عن الأبصار ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: ٢٢]، ثمّ تختم السّورة بقوله تعالىٰ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾ [السجدة: ٢٩]؛ فانصرف عنهم فقد بذلت كل ما استطعت لهدايتهم، وأبلغتهم رسالة ربك، ونصحت لهم. وبذلت كل طاقتك لدعوتهم إلىٰ الإيمان فأعرضوا؛ وبذلك استحقوا أن تعرض عنهم، وما بقيَ إلّا أن تنتظر وعد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لك بالنّصر عليهم، وبالفتح لك وللمؤمنين، وهم ينتظرون هزيمتك وانتصارهم اغتراراً بوعد الشّيطان لهم. وفرق كبير بين من ينتظر وعد الله -عزّ وجلّ- ومن ينتظر أماني الشّيطان ووعوده الكاذبة التي سوف ينفيها ويتنصل منها... والله أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

طه جابر العلواني

السيرة العلمية والعملية

الميلاد والوفاة:

ولد الدكتور طه جابر العلواني في مدينة الفلوجة، في العراق، منطقة الحصوة، محافظة الأنبار، في تاريخ ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م. وتوفي رحمه الله في القاهرة بتاريخ ٤ آذار ٢٠١٦م.

المؤهلات العلمية:

- شهادة الدكتوراه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، ١٩٧٢م بمرتبة الشرف الأولى في تخصّص "أصول الفقه".
- شهادة الماجستير، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، ١٩٦٨م.
- شهادة الليسانس (البكالوريوس)، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، ١٩٥٩م.
- شهادة الثانوية الأزهرية، القاهرة، ١٩٥٣م.
- شهادة المدرسة الآصفيّة الدينية (المعهد الديني) في الفلوجة، العراق، ١٩٥٢م.
- شهادة الابتدائية من المدرسة الابتدائية للبنين بالفلوجة، العراق، ١٩٤٨-١٩٤٩م.

اللغات:

- العربية (اللغة الأم - إتقان تام)
- الإنجليزية (إتقان تام)
- الفارسية (إلمام يسير)
- التركية (إلمام يسير)

الخبرات العلمية:

- الرئيس المؤسس لأكاديمية طه العلواني للدراسات القرآنية، فرجينيا، منذ سنة ٢٠١٣م.
- أستاذ كرسي الإمام الشافعيّ الفقه وأصوله والفقه المقارن بجامعة قرطبة، فرجينيا، من سنة ١٩٩٧م.
- رئيس جامعة العلوم الإسلاميَّة والاجتماعيَّة سابقاً (G.S.I.S.S)، من سنة ١٩٨٦م وحتى سنة ٢٠٠٧م، التي أصبحت تعرف فيما بعد بـ"جامعة قرطبة" منذ ٢٠٠٢م.
- نائب رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي (هيرندن- فرجينيا) من سنة ١٩٨٤م وحتى سنة ١٩٨٦م.
- رئيس قسم البحوث والدراسات في المعهد العالمي للفكر الإسلامي من ١٩٨٤م وحتى سنة ١٩٨٦م.
- رئيس تحرير مجلة إسلاميَّة المعرفة، الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، من سنة ٢٠٠٢م وحتى ٢٠٠٧م.
- أستاذ الفقه والأصول كلية الشريعة جامعة الإمام محمد بن سعود، من سنة ١٩٧٥م وحتى ١٩٨٤م.
- أستاذ الثقافة الإسلامية بمعهد ضباط الأمن العام في الرياض من سنة ١٩٧٧م وحتى سنة ١٩٨٣م.
- مستشار قانوني في الحقوق الخاصة بوزارة الداخلية في المملكة العربية السعودية من سنة ١٩٧٥م وحتى ١٩٧٦م.
- مستشار اللجنة الوطنيَّة للمياه في المملكة السعودية لمدة سنتين.
- مدير تحرير مجلة الجندي في التدريب العسكري في بغداد ١٩٦٣م.
- مدرس الدراسات الإسلامية في الكلية العسكرية في بغداد من سنة ١٩٦٤م وحتى سنة ١٩٧٩م.

- مدرس في كليَّة الدراسات الإسلاميَّة في بغداد.
- الخطابة والإمامة والتدريس في جامع (الحاجة حسيبة) في بغداد، الكرادة الشرقيَّة، من سنة ١٩٥٣م وحتىٰ سنة ١٩٦٩م.

عضوية المؤسسات العلمية:

- أستاذ زائر لجامعة القاضي عياض، مراكش، وبني ملال، المغرب لعدة مرات، ابتداءً من سنة ٢٠٠٠م.
- أستاذ زائر للجامعة الإسلامية العالمية في كوالالومبور، ماليزيا لعدة مرات، ابتداءً من سنة ١٩٨٩م.
- أستاذ زائر لجامعة الجزيرة في السودان.
- أستاذ زائر لجامعة بروناي، سلطنة بروناي.
- أستاذ زائر لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في الجزائر.
- أستاذ زائر لجامعة ستراسبورج، فرنسا.
- أستاذ زائر لجامعة جورج تاون – واشنطن.
- عضو مؤسّس لمجلس أمناء المعهد العالمي للفكر الإسلامي وللمعهد، فرجينيا.
- محاضر لعدة مرات في الدروس الحسنيَّة الرمضانية تحت رعاية الملك الحسن الثاني والملك محمد السادس.
- عضو اللجنة التنفيذيَّة لمجمع التقريب بين المذاهب مع المشاركة في دورات ومؤتمرات عديدة للمجمع في طهران ومسقط وعمّان.
- عضو مجلس أمناء جامعة أفريقيا العالميَّة في السودان.
- حاصل علىٰ جائزة مؤسسة كير (CAIR) لأفضل إنجاز في خدمة العمل الإسلامي في أمريكا، واشنطن، نوفمبر ٢٠٠٥م.
- حاصل علىٰ جائزة وزارة الثقافة في طهران لأحسن كاتب في الإسلاميَّات لعام ٢٠٠٥م.

- عضو المجمع الفقهي الدولي بجدة (منظمة المؤتمر الإسلامي).
- عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.
- عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة (مؤسسة آل البيت- الأردن).
- عضو مؤسس للمجمع الفقهي في الهند.
- رئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية وكندا من ١٩٨٨ حتى ٢٠٠٥م.
- حاصل على وسام الحسين للعطاء المميز من الدرجة الأولى، من مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي/ الأردن ٢٠١٣م.
- تأسيس كرسي التفاهم الإسلامي المسيحي تحت عنوان كرسي العلواني للدراسات اللاهوتية (المؤدية إلى التفاهم الإسلامي المسيحي) في واشنطن، منذ ٢٠٠٩م.

المؤتمرات والندوات العلميَّة واللقاءات الأكاديميَّة:

- اللقاء العالمي الثالث للندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٩٧٦م.
- دورة الأئمة والدعاة في أمريكا الشمالية، شيكاغو، ١٩٧٦م، ودورات لاحقة في ولايات أمريكيَّة عديدة.
- مؤتمر الفقه الإسلامي، الرياض، ١٩٧٦م.
- ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر، رقم: (١١)، ١٩٧٧م.
- اللقاء التأسيسي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في لوغانو، سويسرا، ١٩٧٧م، الذي تقرّر فيه إنشاء المعهد العالمي.
- ندوة الاستطاعة في الحج، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٩٧٨م.
- مؤتمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الرياض ١٩٨٠م.
- مخيم الشباب الإسلامي في أفريقيا، باماكو، مالي١٩٨١م، بصفة محاضر.
- مخيم الشباب الإسلامي، دكا، بنغلاديش، ١٩٨١م، بصفة محاضر.
- مؤتمر الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية (IIFSO) كوالامبور، ماليزيا، ١٩٨١م، بصفة محاضر.

- مؤتمر التدريب القيادي لحركة الطلاب المسلمين، بوبال، الهند، ١٩٨١م، بصفة محاضر.
- اللقاء العالمي الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي، نيروبي، ١٩٨٢م، بصفة محاضر.
- ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر، رقم: (١٦)، ١٩٨٢م.
- ندوة: (إسلامية المعرفة) التي عقدها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بالتعاون مع الجامعة الإسلامية، إسلام آباد، باكستان، ١٩٨٢م.
- المؤتمر العالمي لإسلاميَّة المعرفة، كوالالمبور، ١٩٨٤م.
- المؤتمر العالمي لإسلامية المعرفة الثالث في السودان، ١٩٨٦م.
- ندوة حقوق المتهم في الإسلام، الرياض: المملكة العربية السعودية، ١٩٨٢م.
- مؤتمر الاتحاد الإسلامي في أمريكا الشمالية (إسنا/ ISNA)، ١٩٨٣م، ومرات أخرى لاحقة.
- المؤتمر السنوي لـ"أمة الإسلام" برئاسة لويس فرخان ووارث الدين محمد في شيكاغو.
- ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر، رقم: (١٧)، ١٩٨٣م، عضو مشارك لعدة مرات.
- ندوة الإيسيسكو (نحو إستراتيجية ثقافية إسلامية) ١٩٨٨م شارك في صياغة تلك الاستراتيجيّة.
- ندوة السنة النبويَّة في عمّان – الأردن ١٩–٢٣، يونيو ١٩٨٩م.
- ندوة الحياة الفكرية في الدولة العثمانية، زغوان، تونس: مركز الدراسات العثمانية والموريسكية والتوثيق، ١٩٨٨م.
- ندوة "حول النظام المعرفي الإسلامي" عمّان، الأردن: مايو ١٩٨٨م.
- مؤتمر نحو نظريَّة تربويَّة إسلاميَّة، عمّان، الأردن ٢٤–٢٧، يوليو ١٩٩٠م.
- ندوة إشكالية التحيز في العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية، القاهرة: ١٩٩٥م.
- أستاذ التأصيل وإسلامية المعرفة في دورة مكثفة لخمسين أستاذاً من أساتذة الجامعات السودانية، ١٩٩٢م، لمدة أسبوعين.

- أستاذ "إسلامية المعرفة" في الدراسات العليا في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا.
- الدورة الحادية عشر، لمجمع الفقه الإسلامي الدولي، البحرين، ١٩٩٨م، ودورات أخرىٰ في جدة وغيرها.
- مؤتمر مؤسسة الأوقاف لجامعة المسلمين الإندونيسية، مايو ١٩٩٨م.
- الندوة التحضيريَّة لإعداد برامج جامعة الخليج في البحرين قبل التأسيس.
- عضو لجنة وضع برامج كلية الشريعة والقانون في جامعة السلطان قابوس، سلطنة عُمان.
- الدورة الخامسة عشر لمجلس مجمع الفقه الإسلامي، سلطنة عُمان، ٢٠٠٣م.
- المشاركة خبيراً في الشؤون الإسلامية في المائدة المستديرة التي عقدت حول موضوع "مزيداً من الفهم للعالم الإسلامي"، في معهد جورج شولتز التابع لوزارة الخارجية الأمريكيّة، حضره سفراء أمريكا في العالم الإسلامي وكبار موظفي الخارجية في ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢م.
- المشاركة ببحث في: مؤتمر مقاصد الشريعة، جامعة همدرد، نيودلهي، الهند، ديسمبر ٢٠٠٤م.
- أستاذ زائر لجامعة همدارد من ديسمبر ٢٠٠٤ إلىٰ يناير ٢٠٠٥ في الهند.
- المشاركة ببحث في: ندوة إعجاز القرآن الكريم، جامعة الزرقاء الأهلية، عمّان، الأردن، ٢٠٠٥م.
- المشاركة ببحث في: ندوة المذاهب الإسلامية والتحديات المعاصرة، جامعة آل البيت، عمّان، الأردن، ٢٠٠٥م.
- الدورة الأولىٰ لجائزة نايف بن عبد العزيز العالمية للسنّة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، أبريل ٢٠٠٥م.
- مؤتمر القيم الإسلامية ومناهج التربية والتعليم، تطوان، المغرب، ٢١-٢٣ نوفمبر ٢٠٠٥م.

- الدورة الأولى لتدريب الأئمة ، بالتعاون مع دار الإفتاء المصرية، القاهرة، ٢١ يناير- ٣٠ مارس، ٢٠٠٦م (الأستاذ الأول).
- ندوة الفقه العُماني والمقاصد الشرعية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عُمان، مارس ٢٠٠٦م.
- الدورة الثانية لتدريب الأئمة ، بالتعاون مع دار الإفتاء المصرية، القاهرة، مايو- أغسطس، ٢٠٠٦م.
- ندوة الاتجاهات الحديثة في دراسة القرآن الكريم، بيروت، ١١- ١٣، فبراير ٢٠٠٦م.
- مؤتمر المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، نوفمبر ٢٠٠٦م.
- مؤتمر تقييم مشروع إسلامية المعرفة خلال ٢٥ عاماً، اسطنبول، تركيا، ديسمبر ٢٠٠٦م.
- ندوة "السياق في القرآن الكريم" الرابطة المحمديَّة لعلماء المغرب، الرباط، ٢٠٠٧م.
- المشاركة في الأيام الدراسيَّة لجامعة القاضي عياض وجمعيَّة الشباب المغاربي في كندا لمرات متكررة.
- دورة "إعداد باحث في العلوم الشرعية" ٢٠١٤م.
- ندوة "التجديد في الفكر والعلوم الإسلامية" مشيخة الأزهر، أبريل ٢٠١٥م.
- دورة "تجديد الخطاب الديني" الأولى بالتعاون بين أكاديمية طه العلواني للدراسات القرآنية ومشيخة الأزهر، مايو: أكتوبر ٢٠١٥م.
- جزء من دورة "تجديد الخطاب الديني" الثانية، بالتعاون بين أكاديمية طه العلواني للدراسات القرآنية ومشيخة الأزهر يناير: فبراير ٢٠١٦م.

CONFERENCES ATTENDED:

- “American Muslims and Politics—Where Are We?” Presentation at 24th Annual Shura Conference، Leesburg، Virginia (May 28-30، 2002).
- Panelist “Muslim Perspective on Political Participation،” AMC Imam Conference 2002، Alexandria، Virginia، April 26-29، 2002.

- Panelist "Muslim Perspective on Political Participation،" at National Leadership Conference for Imams، Arlington، Virginia (September 29-October 1، 2000).
- "Quran، Sunnah and Military Regulations: GSISS Mission Analysis،" presentation at First Annual Muslim American Military Chaplains Conference: Faith in Action: Serving God، Country and the Muslim Community،" Leesburg، Virginia (August 28-30، 2000).
- Chairperson for panel on "Shariah Foundations for Islamic Banking and Finance II: Injunction" during Islamic Banking and Finance America 2000 Islamic Society of North America Conference، Long Beach، California (July 14-16، 2000).
- Speaker at Fiqh Conference in Trinidad، West Indies (May 25-31، 2000).
- "Ikhtilaf: the Ethics of Disagreement،" address at the 22nd Annual Institutional Dawah and Surrah Conference، Leesburg، Virginia (may 31-June 2، 2000).
- Gave Welcoming Address at 28th Annual Conference of the Association of Muslim Social Scientists، Leesburg، Virginia (October 29-31، 1999).
- Participant, Halaqa Conference، London، England (March 11-13, 1999).
- Participant in Symposium on Fiqh Issues، Organization of the Islamic Conference، Islamic Fiqh Academy، Bahrain (November 14-19, 1998).
- "Ijtihad، Islamic Capital Markets، and Economic Development," presentation at Second Annual Harvard Forum on Islamic Finance, Harvard University, Cambridge، Massachusetts (October 9-10,1998).

- Participant in panel on "Causes of Clash of Civilizations," Clash of Civilizations Conference، Diyarbakir، Turkey (September 19-20, 1998).
- Participant at Second International Islamic Unity Conference، Washington، D.C. (August 7-9، 1998).
- Presented a paper during the Zaghwan Conference: "The Islamic Thought During the Ottoman Empire،" sponsored by the Center of Ottoman Studies and Documentation، Tunisia (1988).
- "Al-Fiqh wa al-Hadharah" (Jurisprudence and Civilization). Conference: Conference of the Islamic Civilization، Kuala Lumpur، Malaysia (May 1984).
- Speaker at the Conference of Islamization and Knowledge، jointly sponsored by the International Institute of Islamic Thought and The Islamic University in Islamabad، Pakistan (1982).
- The Camp of Muslim Youth of Africa، Bamako، Mali (1982).
- Speaker at the Conference of The Islamic Union of Student Organizations، Kuala Lumpur، Malaysia (1981).

الأبحاث والدراسات:

- علم أصول الفقه: نشأته وتدوينه، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، عدد ١٤، ١٥، سنة ١٩٧٨م.
- مقدمة في المنطق والمقدمات الأصولية، ألّفت لطلاب كلية الشريعة، الرياض، ١٩٧٩م.
- نظرة عامة في بعض مناهج البحث الإسلامية، مجلة أضواء الشريعة، الرياض، عدد ٨، ١٩٧٩م.
- الجاحظ وموقفه من الطاعنين في القرآن الكريم، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٠م.
- نظرات في تطور علم أصول الفقه، مجلة أضواء الشريعة، الرياض، عدد ١٣، ١٩٨٢م.

- أفعال رسول الله (صلىٰ الله عليه وآله وسلم) ومذاهب العلماء في الاحتجاج بها، الملتقىٰ السادس عشر للفكر الإسلامي، الجزائر، ١٩٨٢م.
- المياه وأحكامها في الإسلام، بحث أعد للخطة الوطنية للمياه في السعودية، نشر ضمن المجلد القانوني للخطة باللغة العربية والإنجليزية، ١٩٨٢م.
- علم أصول الفقه باعتباره منهج بحث في المعرفة، المؤتمر الثاني لإسلامية المعرفة، إسلام آباد، باكستان، ١٩٨٢م.
- الرأي وحجيته، الملتقىٰ السابع عشر للفكر الإسلامي، الجزائر، ١٩٨٣م.
- حقوق المتهم في مرحلة التحقيق: بحث فقهي مقارن، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، عدد ٣٥، ١٩٨٤م.
- الفقه والحضارة، ندوة الحضارة الإسلامية، كوالالمبور، ماليزيا، ١٩٨٤م.
- تعليل الأحكام الشرعية واختلاف العلماء فيه وحقيقة موقف الحنابلة منه، مجلة أضواء الشريعة، الرياض، عدد ١٠، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م.
- مذكرة تضمنت عرض مقرر الثقافة الإسلامية لمعهد ضباط الأمن في الرياض ١٩٨٧م.
- حول فكرة المواطنة في المجتمع الإسلامي، مجلة قراءات سياسية، فلوريدا، س٣، ع١، ١٩٩٣م.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير في الواقع العربي، مجلة الاجتهاد، بيروت، ع٢٤، ١٩٩٤م.
- التعددية: أصول ومراجعات بين الاستتباع والإبداع، مجلة قراءات سياسية، فلوريدا، س٤، ع٢، ١٩٩٤م.
- لماذا إسلامية المعرفة، مجلة إسلامية المعرفة، فرجينيا، س١، ع١، ١٩٩٥م.
- العلوم النقلية بين منهجية القرآن المعرفية وإشكاليات عصر التدوين، مجلة قراءات سياسية، فلوريدا، س٥، ع٣، ١٩٩٥م.
- العقل وموقعه في المنهجية الإسلامية، مجلة إسلامية المعرفة، فرجينيا، س٢، ع٦، ١٩٩٦م.

- عالم فقدناه "الشيخ محمد الغزالي" مجلة إسلامية المعرفة، فرجينيا، ع٤، ١٩٩٦م.
- شيخنا محمد الغزالي وصفحات من حياته، مجلة إسلامية المعرفة، فرجينيا، ع٧، ١٩٩٧م.
- في منهج فهم الحديث الشريف، مجلة الرشاد، كاليفورنيا، ع٤، ١٩٩٧م.
- إسلامية المعرفة: فكرةً ومشروعاً، مجلة قضايا إسلامية، إيران، ع٤، ١٩٩٧م.
- تساؤلات حول إسلامية المعرفة، مجلة قضايا إسلامية، إيران، ع٥، ١٩٩٧م.
- حاكمية القرآن، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع٢، ١٩٩٨م.
- المشهد الثقافي العربي، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، ع٣، ١٩٩٨م.
- أبعاد غائبة عن الفكر الإسلامي المعاصر، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع٥، ١٩٩٩م.
- مدخل إلى فقه الأقليات: نظرات تأسيسية، مجلة إسلامية المعرفة، فرجينيا، س٥، ع١٩، ١٩٩٩م.
- القرآن رسولٌ خالد ورسالة عالمية ومرجع كوني للبشرية، مجلة الكلمة، بيروت، ع٢٢، ١٩٩٩م.
- منهجية التعامل مع القرآن، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع٦، ١٩٩٩م.
- فقه الأولويات: أعلم أولويات أم فقه أولويات، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع٧، ١٩٩٩م.
- الفقه الموروث: بعض ما له وشيء مما عليه، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع٨، ١٩٩٩م.
- مقاصد الشريعة، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع٩، ١٠، ٢٠٠٠م.
- السنة النبوية ودراساتها بين الماضي والحاضر، مجلة الكلمة، بيروت، ع٢٧، ٢٠٠٠م.
- المقاصد الشرعية العليا الحاكمة: التوحيد، التزكية، العمران، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع١٣، ٢٠٠٠م.
- مدخل إلى فقه الأقليات الإسلامية، مجلة المسار، فرجينيا، ع٢، ٢٠٠٠م.

- الفكر الإسلامي في مواجهة العولمة: حوار مع د. طه العلواني، مجلة رؤى، باريس، ع١٢، ٢٠٠١م.
- حول مقولة: الإسلام والغرب، مجلة رؤى، باريس، ع١٣، ٢٠٠١م.
- التوحيد، التزكية، العمران (١)، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع١٦، ١٧، ٢٠٠١م.
- التوحيد، التزكية، العمران (٢)، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع١٨، ٢٠٠٢م.
- نحو منهجية قرآنية للبحوث والدراسات، مجلة إسلامية المعرفة، فرجينيا، ع٣٠، ٢٠٠٢م.
- الإسلام والغرب: حوار أم صراع، مجلة رؤى، باريس، ع١٦، ٢٠٠٢م.
- مفهوم الأسرة في الخطاب الإسلامي المعاصر، نشر ضمن كتاب "موسوعة الأسرة"، الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ٢٠٠٢م.
- فقه التعارف، وثقافة التعايش، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع٢٢، ٢٠٠٣م.
- منهجية القرآن المعرفية، وأسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع٢٣، ٢٠٠٣م.
- مفاهيم القرآن وتحديد مهام الأنبياء، مجلة إسلامية المعرفة، فرجينيا، ع٣٣، ٣٤، ٢٠٠٣م.
- القرآن المجيد وخطابه العالمي (١)، مجلة المسار، فرجينيا، ع١١، ١٢، ٢٠٠٣م.
- القرآن المجيد وخطابه العالمي (٢)، مجلة المسار، فرجينيا، ع١٣، ٢٠٠٤م.
- الوحدة البنائية للقرآن المجيد، مجلة الكلمة، بيروت، ع٤٣، ٢٠٠٤م.
- عربية القرآن ومستقبل الأمة القطب، مجلة إسلامية المعرفة، فرجينيا، ع٣٥، ٢٠٠٤م.
- مراجعة كتاب "العالمية الإسلامية الثانية" لمحمد أبو القاسم حاج حمد، مجلة إسلامية المعرفة، فرجينيا، ع٣٧، ٣٨، ٢٠٠٤م.
- السنة النبوية الشريفة ونقد المتون، مجلة إسلامية المعرفة، فرجينيا، ع٣٩، ٢٠٠٥م.
- تراثنا الإسلامي والمعارف الإنسانية والاجتماعية، مجلة إسلامية المعرفة، فرجينيا، ع٤٢، ٤٣، ٢٠٠٦م.

PUBLISHED PAPERS:

- "Fatwa Concerning the United States Supreme Courtroom Frieze." The Journal of Law and Religion، Vol. XV، Nos. 1 & 2، (2000-2001).
- "The Role of Islamic Ijtihad in the Regulation and Correction of Capital Markets." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 14، no. 3 (Fall 1997).
- "Authority: Divine or Qur'anic." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 13، no. 4 (Winter 1996).
- "The Testimony of Women in Islamic Law." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 13، no. 2 (Summer 1996).
- "Some Remarks on the Islamic and Secular Paradigms of Knowledge." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 12، no. 4 (Winter 1995).
- "Naturalization and the Rights of Citizens." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 11، no. 1 (Spring 1994).
- "The Rights of the Accused in Islam." The American Journal of Islamic and Social Sciences، Vol. 11، no. 2 (Fall 1994) and vol. 11، no. 4 (Winter 1994).
- "The Problem of Bias: An Epistemological Approach and Call for Ijtihad." The American Journal of Islamic and Social Sciences،
- "The Crisis of Thought and Ijtihad." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 10، no. 2 (Summer 1993).
- "The Islamic Lunar Calendar as a Civilizational Imperative." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 9، no. 4 (Winter 1992).

- "Taqlid and Ijtihad: The Lexical and Technical Meanings of Taqlid." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 9، no. 2 (Summer 1992).
- “The Scope of Taqlid.” The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 9، no. 3 (Fall 1992).
- “Taqlid and Ijtihad: The Polemics of Ijtihad.” The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 8، no. 1 (March 1991).
- “The Crisis in Fiqh and the Methodology of Ijtihad.” The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 8، no. 2 (Sept. 1991).
- “Taqlid and the Stagnation of the Muslim Mind.” The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 8، no. 3 (Dec. 1991).
- "Taqlid and Ijtihad: The Polemics of Ijtihad." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 8، no. 1 (March 1991).
- “The Reconstruction of the Muslim Mind: The Islamization of Knowledge.” The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 7، no. 3 (Dec. 1990).
- “Islamic Perspectives on the Question of History.” The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 7، no. 2 (Sept. 1990).
- "Political Science in the Legacy of Classical Islamic Science." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 7، no. 1، (March 1990).
- "Islamization of Methodology of Behavior Sciences." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 6، no. 2 (Dec. 1989).
- "Toward an Islamic Alternative in Thought and Knowledge." The American Journal of Islamic and Social Sciences، vol. 6، no. 1 (Sept. 1989).

الكتب (مؤلفات الدكتور طه العلواني):

- تحقيق ودراسة كتاب (المحصول في علم أصول الفقه) للإمام فخر الدين الرازي، وقد قامت جامعة الإمام محمد بن سعود بطبعه ونشره في ستة مجلدات، ١٩٨٠م. والطبعة الثانية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢م. والطبعة الثالثة قيد الإعداد في دار السلام للطباعة والنشر.
- الاجتهاد والتقليد في الإسلام، القاهرة: دار الأنصار، ١٩٨٠م.
- تحقيق كتاب "النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار" للعلامة مصطفى الوارداني، الرياض، شركة العبيكان، ١٩٨٣م.
- أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨٨م، الولايات المتحدة الأمريكية. والطبعة الثانية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥م.
- أدب الاختلاف في الإسلام، ط١، ١٩٨٥م، قطر: سلسلة كتاب الأمة، الكتاب رقم :٩. أما طبعات المعهد، ط٣، ١٩٨٧م، نشر وتوزيع الدار العالمية للكتاب الإسلامي في الرياض، والطبعة الرابعة، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١م.
- الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات وعلاج، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٨٩م.
- إصلاح الفكر الإسلامي: بين القدرات والعقبات، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩١م. وطبعة أخرى عام ١٩٩٤م.
- مشكلتان وقراءة فيهما، مع المستشار طارق البشري، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣م.
- إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤م. وطبعة منقحة ومزيدة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتب الأردن. وطبعة خامسة، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٩م.

- إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، القاهرة: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٥م.
- ابن تيمية وإسلامية المعرفة، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥م.
- خواطر في الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية، ١٩٨٩م، وطبعة أخرىٰ منه في الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٩٩٦م.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير: الآفاق والمنطلقات، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م.
- الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م.
- التعددية: أصول ومراجعات بين الإستتباع والإبداع، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م.
- حاكمية القرآن، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٧م.
- إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٧م.
- في فقه الأقليات المسلمة (ضمن سلسلة: في التنوير الإسلامي)، القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٠م.
- مقدمة في إسلامية المعرفة، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١م.
- إصلاح الفكر الإسلامي، ط٢، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١م.
- مقاصد الشريعة، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١م.
- الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٣م.
- مدخل إلىٰ فقه الأقليات، إيرلندا، المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، ٢٠٠٤م.
- أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م، وط٢، ١٩٩٧م، وهناك طبعة في دار السلام، في القاهرة، ٢٠٠٤م. وطبعة أخرىٰ في دار السلام، ط٢، ٢٠٠٧م.

- نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٤م.
- ابن رشد الحفيد: الفقيه والفيلسوف، مراكش: جامعة القاضي عياض، المطبعة الوطنية، ٢٠٠٦م.
- أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- الوحدة البنائية للقرآن المجيد، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- لا إكراه في الدين: إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم. ط٢، مشتركة بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- نحو موقف قرآني من النسخ، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧م.
- نحو التجديد والاجتهاد، مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، أولاً: الفقه وأصوله، القاهرة: دار التنوير، ٢٠٠٨م.
- التعليم الديني بين التجديد والتجميد، القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩م.
- نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية، بالاشتراك مع منى أبو الفضل، القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٩م.
- مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية، القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩م.
- معالم في المنهج القرآني، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠م.
- الإمام فخر الدين الرازي ومصنفاته، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠م.
- نحو موقف قرآني من إشكالية المحكم والمتشابه، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠م.
- تفسير سورة الأنعام، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٢م.

- إشكالية التعامل مع السُّنة النبوية، هرندن، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م، مكتب الأردن، عمّان.
- حوار مع القرآن، تجربة ذاتية ودعوة للتدبر، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٤م.
- الحاكمية والهيمنة، نحو إعادة بناء مفهوم الأمة والدولة والدعوة، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م، بالتعاون مع دار الفتح للدراسات والنشر، عمّان، الأردن.
- من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف، هرندن – فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٣٨ هـ، ٢٠١٧م، مكتب الأردن، عمّان.

Books:

- Source Methodology in Islamic Jurisprudence. London: Washington، International Institute of Islamic Thought، 1990.
- The Quran and the Sunnah: The Time-Space Factor. Herndon، Virginia: The International Institute of Islamic Thought، Occasional Paper Series، No. 3، 1991
- Outlines of a Cultural Strategy. Herndon، Virginia: The International Institute of Islamic Thought، Occasional Paper Series، No. 1، 1991.
- The Ethics of Disagreement in Islam، London، International Institute of Islamic Thought، 1993.
- The Islamizatin of Knowledge: Yesterday and Today، London، International Institute of Islamic Thought، 1995.
- Missing Dimensions in Contemporary Islamic Movements. Herndon، Virginia: The International Institute of Islamic Thought، Occasional Paper Series، No. 9، 1996
- Linking Ethics and Economics: the Role of Ijtihad in the Regulation and Correction of Capital Markets. co-authored with Waleed El-

Ansary، Washington، District of Columbia: Center for Muslim Christian Understanding، 1999.

- Towards a Fiqh for Minorities: Some Basic Reflections، London، Washington: International، Institute of Islamic thought، 2004.
- Fondements du Droit Musulman (Usul al-Fiqh al-Islami). Paris: Institut International de la Pensee Islamique، 2005.
- Shaykh Taha Al-Alwani: Issues in Contemporary Islamic Thought. London، Washington، International Institute of Islamic Thought، 2005.

مقالات أو محاضرات للدكتور طه العلواني

مقالات الدكتور طه جابر العلواني كثيرة جداً، وهي تكاد تتصل بمعظم المجالات المعرفية والدينية، ويمكن الوقوف على بعض عناوين محاضراته، أو مقالاته ذات البُعد الفكري والمعرفي والثقافي، وهي مرتبة حسب الأحرف الهجائية، ومنها:

حرف الألف:

(الإبداع) و(أبشع الجرائم ... هل من تفسير؟) و(ابن رشد الحفيد الفقيه والفيلسوف) و(آثار الاستبداد) و(آثار تجاوز علم الأولويات) و(الاجتهاد الجماعي بين الحقيقة والخيال) و(الاجتهاد والتجديد أهما واجب أُمَّة أم نخبة؟) و(الاجتهاد والتقليد في الإسلام) و(الأحاديث الموضوعة والضعيفة وآثارها السلبيَّة في بناء الأمَّة والمجتمع) و(الأحاديث وآفات رواتها) و(الإحباط وموجات الإلحاد) و(الاحتقان الطائفي في منطقة الخليج والوطن العربي حلول ومعالجات) و(الاحتقان والتوتر الطائفي في الخليج والمنطقة وكيفية تنفيسه) و (أحكام البناء في الإسلام) و(أحكام عيد الفطر) و(الإحكام والتفصيل، جزءان) و(اختلاف مناهج الأئمة في الاستنباط) و(الاختلاف والخلاف وعلم الخلاف) و(الآخر بين الإسلام والغرب) و(أدب الاختلاف) و(أدب السؤال) و(أرزاق الأفكار) و(الإرهاب والإسلام والمسلمون)

و(أزمات الإنسانية والحل القرآني) و(أزمة الإنسانية ودور القرآن في الخلاص منها) و(أَزمَة الإيمَانِ المَورُوث) و(الأزمة الفكريّة) و(الأزهر علمني الاعتدال) و(الإساءات الخارجيَّة إلى العقيدة الإسلاميَّة قراءة جديدة) و(أسباب الاختلاف الفقهي) و(أسبابٌ ثمانيَّة لضرورة أسلمة الصراع العربيّ الصهيونيّ) و(استجلاء معاني القرآن الكريم) و(الاستحمار ونظرية المؤامرة) و(استراحة محارب) و(الاستقامة) و(الإسراء مفهوماً وحقيقة) و(الإسراء والمعراج) و(الأسرة بين الإسلام والغرب) و(إسقاطات التراث على الواقع المقاصد العليا الحاكمة ومستويات أخرى، ٤ أجزاء)، و(الإسلام والبرامج السياسيّة) و(الإسلام والبرامج السياسيَّة، جزءان) و(الاستعلاء الإيماني) و(الإسلاموفوبيا هل ستخلق لنا أندلساً جديدة) و(الإسلاميون بين الأمة والدولة) و(الإسلاميون بين الدعوة والدولة) و(الإسلاميون بين المصحف والسيف) و(أسئلة حول اتجاهات التفسير وعلوم القرآن) و(أسئلة نطرحها على القرآن) و(إشكاليَّة استقلال السُنَّة بالتشريع، ٤ أجزاء) و(الأصل تفسير القرآن بالقرآن، ٣ أجزاء) و(أصول الدين وأصول الفقه والشريعة في الرسالة الخاتمة) و(أصول علم المراجعات) و(الأصوليُّون المعاصرون والحداثة) و(إعجاز القرآن) و(إعلام المحتجِّين على رب العالمين) و(إعلان الحكومة الإسرائيليَّة دولة إسرائيل دولة قوميَّة يهوديَّة) و(آفة التعلُّم مع الكبر) و(أفعال الرسول ودلالاتها) و(أفلا يتدبرون القرآن) و(الاقتصاد في كتاب ربّ العباد) و(الأكاديميَّة الغربيَّة .. والتراث الإسلامي) و(الإمام الباقلاني وردّه على من استدلوا بروايات لا تصح) و(الإمام الغائب وملكية الأرض) و(الأمانة في القول والعمل) و(أمة الهيكل ونفسية العبيد) و(الأمَّة بين التمزُّق ووحدة المصير، جزءان)، و(الأمة والافتئات عليها) و(الأمم والحاجز النفسي) و(الأمن) و(الأمن الدينيّ، أو التديُّني) و(الأمن الغذائيُّ فريضة واجبة) و(أموات يُعَادُون إلى الحياة) و(أنا مسلم) و(أنا وآل الحكيم) و(الأنا والآخر) و(أنا والتصوير) و(أنا والطائفيَّة) و(الأنبياء والتجديد) و(الإنسان بين الجبر والاختيار) و(الإنسان هدف العمران والحضارة) و(الانسلاخ من الآيات حقيقته وكيفيَّته) و(اهتماماً بأزمات الأمة وبيان سبيل حلّها) و(أهمية الحوار الفكري) و(أهميَّة سورة الفاتحة) و(أول مؤسس للعنف)

و(أولى الضروريات) و(آيات القتال: نموذج لتفسير القرآن بالقرآن) و(أيديولوجية التعذيب) و(الإيلاء) و(أين هي الفرقة الناجية من المسلمين اليوم؟)

حرف الباء:

(بدأ نزول القرآن والناس صنفان) و(البعد الواحد) و(البيان العالمي لرسول الله ﷺ، بيان رقم واحد) و(بين الاحتجاج الإيجابيّ والتّفتّت السلبيّ) و(بين الاستقرار الإيجابيّ والاستقرار السلبيّ) و(بين التشيعين العلوي والصفوي) و(بين التقصير في حقوق الاستخلاف، والابتلاء، والعقاب) و(بين الصورة والحقيقة) و(بين القراءة والاستماع) و(بين المهدي والخليفة: مخططات المخابرات وسيناريوهات هوليود) و(بين الوحي والحداثة) و(بين تكسير القلم وتكسير المغزل) و(بين جنون العظمة وجنون الكنز) و(بين خوارق العادات والآيات البينات) و(بين زيارتي عظيمي الروم أوباما والبابا) و(بين شكليَّة الفقه والقانون ومقاصديَّة الدين) و(بين كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة) و(بين مقاصد الشريعة ومقاصد القرآن العليا).

حرف التاء:

(تاريخ الاختلاف وآثاره) و(تأمُّلات في الحج والمناسك، ٣ أجزاء) و(تأملات في الفاتحة) و(تأملات في مصارع الحكّام) و(التبذير) و(التبنِّي) و(تجديد الثقافة الإسلاميَّة فريضة وضرورة) و(تجديد الخطاب الديني) و(تجديد الخطاب الديني: تاريخ الإشكال وراهنيته المعاصرة) و(التجديد لا يتحقق بالتأويلات والتعديلات الجزئيَّة) و(تجديد لفكر الحركة وتنشيط لحركة الفكر) و(التجديد وتجاوز الأزمة الفكريّة) و(تجربتي في الزواج ودروس مستفادة) و(تحذير القرآن من اتباع أهل الأهواء) و(التحقيق وتعرية المتهم) و(تحوّلات الساحة الفقهية وضرورة المنهج الضابط) و(تحية وفاء للمستشار البشري) و(التدبُّر) و(بين التدبر والتفسير) و(من معوقات التدبر، جزءان) و(تدبر القرآن وختمات رمضان) و(التدبُّر والرقية الشرعيَّة) و(التدبر والعقل الذرائعيّ) و(التدبر وسيلتُنا لفهم القرآن الكريم، ٤ أجزاء) و(التدليس) و(التسيير والتخيير)

و(التصديق والهيمنة مع الاستيعاب والتجاوز) و(التضامن وفقه الأولويَّات) و(تطور المنهج المقاصدي عند المعاصرين) و(التعصب آفاته وأضراره) و(التعليل والأسباب والأخذ بالأسباب) و(تعليم الأسماء لآدم) و(التعليم الديني بين التجديد والتجميد) و(التعليم بين الأزمة والحل) و(تغير الفتوىٰ بين الانضباط والفوضىٰ) و(تفسير القرآن بالقرآن، جزاءن) و(تفسير بعض نجوم سورة الفاتحة من خلال مدخل الجمع بين القراءتين) و(تفسير سورة الأنعام) و(تفسير سورة الروم) و(تفسير سورة العنكبوت) و(تفكك مفهوم الأمة وضرورة المراجعة) و(التقريبُ بين المذاهبِ ودعائمُه) و(تقييم المشروعات الكبيرة) و(التكامل المعرفي) و(التلقي) و(التوحيد والتزكية والعمران) و(التوحيد وجرائم العنف) و(التوحيد ومبادئ المنهجية) و(التوحيد ونفسيَّة العبيد) و(توصيات مقترحة لوحدة الأمة).

حرف الثاء:

(الثقافات وحاجتها إلىٰ المراجعة) و(ثقافة الاختلاف) و(ثنائيَّة الأصالة والمعاصرة).

حرف الجيم:

(الجابري وفينومينولوجيا العقل السياسي العربي) و(الجريمة بين الوحدة والكثرة) و(جسر المحبة) و(جمال البرزنجي المفكر الداعية الذي فقدناه) و(الجمع بين القراءتين).

حرف الحاء:

(حاكمية القرآن) و(الحاكمية والهيمنة) و(الحج أشهر معلومات) و(الحج والتوحيد الخالص) و(حجة الوداع: البيان العالمي الأول في الإسلام) و(الحد في لسان القرآن) و(الحداثة وداحس والغبراء) و(حرب الشائعات) و(حرق الأحياء والسحل حتىٰ الموت، جزءان)، و(حرق داعش لخصومهم واستدلالهم بتحريق الإمام علي -كرم الله وجهه- لمن ألهوه) و(حرمة المال العام والخاص) و(حصاد قراءات .. الحداثة ونظريات التطور) و(حصر الحمد به سبحانه) و(حصر العبادة والاستعانة والهداية به سبحانه) و(حضارة الصورة وحضارة الكلمة) و(حق الطريق) و(الحق والباطل)

و(حقيقـة المعجـزة) و(الحمد في وسط سور القرآن الكريم) و(الحميد والخبيث في مفهوم الاستقرار السياسي) و(حوار حول الإخبار بالسنة النبوية) و(حوار مع الداعشيين .. ولعلهم يرجعون، ٣ أجزاء) و(حوار مع القرآن) و(حول أحداث فرنسا) و(الحيرة والمخرج) و(حين يختصم المسلمون مع إسلامهم فيجادلونه).

حرف الخاء:

(خواطر مع القرآن) و(خصال النفاق) و(خصائص الأمة الذاتية) و(خصائص الرسالة القرآنيَّة) و(خصائص الشريعة الخاتمة) و(الخصوصيّة) و(الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي) و(الخطاب الإسلامي المعاصر) و(الخطاب الإسلاميّ واختزال الغرب للإسلام والمسلمين) و(الخطاب الإسلامي وثقافة الموت) و(خطاب المرأة العملي في سيرة زهيرة عابدين) و(خطبة الجمعة بين التصويت والبيعة) و(خطبة الجمعة خطورة التلاعب بالمفاهيم القرآنية) و(خطبة الجمعة والوعي السياسي) و(خطبة الجمعة. حبل الله المتين) و(خطبة جمعة اللغو) و(خطبة عيد الأضحىٰ) و(خطورة تسييل المفاهيم: المقدس والمحرم) و(خواطر) و(خواطر حول إعادة بناء الأمَّة، جزاءن) و(الخوف عدوّ يفترس مجتمعاتنا ويدمّر شخصيّاتنا).

حرف الدال:

(داحس والغبراء .. نسخة معاصرة) و(دار الدعوة ودارالإجابة) و(الدراسات الفكرية المعاصرة) و(الدراسات القرآنية) و(درجة الرجال مسؤوليَّة وليست أفضليَّة) و(دردشة حول فقه النساء) و(دردشة حول فقه المرأة) و(درس في نقد الذَّات) و(درس معاصر من الرابع عشر من رمضان) و(درسٌ من الهجرة) و(درس من دروس النقد الذاتي الحلقة الأولىٰ) و(درس من دروس النقد الذاتي الحلقة الثانيَّة) و(دعوىٰ تاريخانيَّة القرآن) و(دورة الفقه المقارن: فقه الخلافيَّات) و(دورة تنمية وتجديد المعلومات) و(دولة نتمناها) و(الديمقراطيَّة) و(الديمقراطية في العالم الإسلامي بين الإمكان والاستحالة) و(الدين المعاملة).

حرف الذال:

(ذكرياتي عن الحج والعمرة) و(ذنوب الأمم والشعوب).

حرف الراء:

(الرحمن الرحيم) و(رد الأحاديث بين المرونة والتراجع.. أحكام المواطنة نموذجًا) و(رد عام على بعض المتعالمين) و(رِدَّة ولا أبو بكر لها) و(الرسالة الاجتماعية للمسجد) و(رسالة المسجد) و(الرضا) و(الركون إلى الظالمين) و(رمضان وأخلاق الصبر والصفح والهجر) و(رمضان وفقه الأولويّات) و(الرياضة بين الترويح والاستبداد) و(الرياضة وصناعة الأصنام).

حرف الزاي

(الزكاة) و(الزواج والأفكار الدخيلة).

حرف السين:

(السادية والمازوخية) و(سل القرآن) و(السلاطين والعلماء والألقاب) و(السلام ذلك الأمل المنشود) و(سلسلة تأملات رمضانية (١) الحديث عن الإيمان والمؤمنين) و(سلسلة تأملات رمضانية (٢) مرتكب الكبيرة) و(سلسلة تأملات رمضانية (٣) عدو الله) و(سلسلة تأملات رمضانية (٤) الجمع بين القراءتين) و(سلسلة تأملات رمضانية (٥) الركاز) و(سلسلة تأملات رمضانية (٦) الركاز الفريضة الغائبة) و(سلسلة تأملات رمضانية (٧) العولمة وصلاة الجمعة) و(سلسلة تأملات رمضانية (٨) الحرامي) و(سلسلة تأملات رمضانية (٩) الصديق) و(سلسلة تأملات رمضانية (١٠) صفات الصديق) و(سلسلة تأملات رمضانية (١١) السنة النبوية) و(سلسلة تأملات رمضانية (١٢) تصديق القرآن وهيمنته على السُّنة) و(سلسلة تأملات رمضانية (١٣) الترغيب والترهيب) و(سلسلة تأملات رمضانية (١٥) مرجئة العصر) و(سلسلة تأملات رمضانية (١٦، ١٧) حديث السحر، جزءان) و(سلسلة تأملات رمضانية (١٨، ١٩) تلبس الجني للإنسي، جزءان) و(سلسلة تأملات رمضانية (٢٠)

العلانية في الانحراف) و(سلسلة تأملات رمضانية (٢١) ماهية العقل) و(سلسلة تأملات رمضانية (٢٢) الأخلاق) و(سلسلة تأملات رمضانية (٢٣) حقوق المتهم في مرحلة التحقيق) و(سلسلة تأملات رمضانية (٢٤) المصالحة الوطنية) و(سلسلة تأملات رمضانية (٢٥) التدين الفطري) و(سلسلة تأملات رمضانية (٢٦) الحرب العادلة) و(سلسلة تأملات رمضانية (٢٧) التكوين العقلي للمقاتل الأمريكي) و(سلسلة تأملات رمضانية (٢٨) زكاة الفطر، جزءان)، و(السلفية) و(السُنَّة والشيعة) و(السؤال وضوابطه) و(سورة الفاتحة) و(سياسات التجهيل في العالم الثالث) و(سياق ما بعد الحداثة).

حرف الشين:

(شباب الأمّة ثروة الحاضر وعدة المستقبل) و(شبهات وردود .. إثبات عدم صحة حد الردة في الإسلام) و(الشخصيَّة العراقيَّة بين القيم ودمارها) و(الشعارات وأهميتها وايحاءاتها) و(شهادة الحق) و(الشيعة والسنَّة).

حرف الصاد:

(الصبر) و(الصبر والتقوى ومواقف الناس منهما) و(الصبر والصفح في شهر الصيام) و(الصحافة والمجتمع المسلم) و(الصدمة الفرنسيَّة والكرم المغاربي، جزءان) و(الصلح والإصلاح). و(صناعة الاستبداد) و(الصوت بين الإهدار وحسن الاختيار).

حرف الطاء:

(الطائفية أخطر ألغام المنطقة جزءان) والطائفية أخطر ألغام المنطقة.. حملة الخطاب الديني ومسؤولياتهم (ج٣)، والطائفية أخطر ألغام المنطقة (ج٤) أجهزة الإعلام والطائفية السياسية، والطائفية أخطر ألغام المنطقة (ج٥) التعليم، والطائفيَّة أخطر ألغام المنطقة (ج٦) الزلازل توحدنا، والطائفيَّة (٧) من مصائب الطائفيَّة السياسيَّة، والطائفيَّة (٨) خطوات مقترحة لتخفيف الآثار الخطيرة للطائفيَّة السياسيَّة، والطائفيَّة (٩) العراق بين الوحدة والأقاليم، و(الطائفية -حلول ومقترحات) و(الطائفيَّة مقبرة الأوطان)، و(طرائف مع جوازات السفر) و(طهّروا التراث).

حرف الظاء:

(ظاهرة الحنين إلىٰ الماضي) و(ظاهرة الدعوة إلىٰ وحدة الأديان) و(ظاهرة توافق الأفكار) و(ظاهرة دورات التدبُّر في العالم الإسلامي).

حرف العين:

(العالميَّة والأطوار التاريخيَّة لرسالات الأنبياء) و(العالميتان الإسلاميَّتان وخصائصهما) و(عتاب مع الله أم إلحاد فيه) و(العدل والعدالة) و(العراق الحديث بين الثوابت والمتغيرات) و(العراق والأحاديث الموضوعة) و(العراق والحزبيَّة) و(العراق والطائفية) و(عز العلماء) و(العقل الحركيّ بين الاحتواء والاختراق) و(عقلية الشعوب ما بين الاستبداد والاسترداد) و(علم الكلام والإمامة) و(علماء ربانيُّون) و(العلُوُّ الكبير مفاهيم الإصلاح والتجديد) و(العمل والإعمارالتجديد) و(عمود سورة الزخرف) و(العنف والاحتقان) و(العنوسة تلك القنبلة المتفجرة) و(عوائق التدبر، أجزاء) و(عوائق أمام المراجعات) و(عودة إلىٰ إشكالية الردة والمرتدين) و(عيد الشكر في أمريكا) و(عيد الفطر) .

حرف الغين:

(الغرب والعلاقة مع الشعوب العربية).

حرف الفاء:

(الفاتحة وتفسيرها علىٰ سبيل الإجمال) و(فإني قريب) و(الفتن.. مَن المستفيد؟) و(الفتنة، جزاءن) و(فتنة الاعتداء علىٰ الكنائس) و(الفتنة ومظاهر الفساد) و(الفتوىٰ والغرامة) و(الفتوىٰ والفتيا) و(الفتيا والفتوىٰ في أمريكا) و(الفِرَق الإسلامية بين الاختلاف والتأسي) و(الفرقة الناجية) و(فروض الأمة) و(فقه الأقليات) و(فقه الأولويَّات) و(فقه التديُّن وإشكاليَّاته) و(فقه الكلمة ومسؤوليتها) و(فقه المراجعات) و(الفقه والعُرف) و(الفكر الإسلاميّ، وقواعد التفكير العالميَّة المشتركة) و(فكرنا الحديث بين الجذور والعوامل المؤثرة) و(فلسطين بمنظور قرآني) و(فهم الواقع قبل

بناء الخطاب الإسلامي) و(في حرية التّدين وحماية بيوت العبادة) و(في قضيَّة الخطاب الديني) و(في مواجهة العنف والمد الشيوعي، أجزاء) و(فيروس الفوضىٰ الخلاقة).

حرف القاف:

(قاتل الله دعاة العاميَّة) و(القادة السياسيون ودورهم في منع الفتن الطائفية وطبيعة القطيع) و(القدر وتعامل الناس معه) و(القدّوس) و(قراءة في كتاب أسس التقدم عند مفكري الإسلام) و(قراءة في كتاب الدولة المستحيلة) و(قراءة في كتاب تجديد المنهج في تقويم التراث) و(قراءة معاصرة للسنَّة النبويَّة المطهرة) و(القرامطة الجدد: وتعيين أميرين لمكة والمدينة ١ والقرامطة الجدد: داعش وأخواتها، ٣ أجزاء)، و(القرآن الكريم والتفسير) و(القرآن المجيد والأمّة اليهودية) و(القرآن المجيد وسؤال الثورة) و(القرآن المجيد يتكلّم) و(القرآن أولاً) و(القرآن شاف كاف وحده) و(القرآن شفاء لما في الصدور) و(القرآن والمعرفة) و(القرآن والنقص من الأرض) و(القرآن وحقوق الإنسان) و(القضاء والأخطاء) و(قضيَّة للتدبُّر والنقاش) و(القلوب الغُلْفُ والنبوَّة) و(القِوامة) و(القوَّة والاستضعاف) و(القيادات الدينيّة السنيّة في العالم العربي: هل من رؤية استراتيجيّة؟!) و(القيم العليا الحاكمة).

حرف الكاف:

(كتاب أصول الفقه الإسلامي) و(الكلمة ومسؤولية الكلمة) و(الكنيسة والمسجد) و(الكوارث الطبيعيَّة والمواقف اللاهوتيَّة) و(كيف نحقّق التوازن بين ثقافة الحقّ والواجب) و(كيف يفكرون ونفكر) و(كيفيَّة التدبُّر).

حرف اللام:

(لا إكراه في الدين إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلىٰ اليوم) و(الزكاة الحارس الأمين للمال المزكىٰ) و(لسان القرآن ولسان العرب) و(لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب) و(لِمَ نتدبر القرآن؟) و(لماذا الامتناع عن تقييم الأشخاص من الكُتَّاب والمفكرين؟) و(ليلة القدر بين الشكليَّة والمقاصديَّة).

حرف الميم:

(ما الفرق بين الشريعة والفقه) و(ما صحة حديث: يا معشر قريش لقد جئتكم بالذبح؟) و(ماذا تفعل الحريَّة؟) و(ماذا خسر الإسلام بدخول الفرق والأحزاب فيه) و(ماذا خسر العالم بهجرنا للقرآن) و(مبادئ مهمة لمراجعة التراث) و(متفيقهون ولكنَّهم جهلة) و(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها) و(المجتمع المسلم في أمريكا قبل وبعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م) و(مداخل تفسير القرآن المجيد) و(مداخل مراجعة القرآن الكريم، جزاءن)، و(مدخل العقيدة والشريعة، والحلال والحرام) و(المدخل القرآني لقضيَّة بناء الكنائس بالجزيرة العربيَّة بين التدرج الديني والتطور التديني) و(إدراك الواقع اللبناني أساس الفتوىٰ فيه) و(المدرسون ونفسيّة العبيد) و(المراجعات) و(المراجعات وتجديد الخطاب الديني في اللغة) و(مراجعة خطاب الإصلاح المعاصر) و(مراجعة علىٰ مراجعات) و(مراحل نشأة وتطور الخطاب الإسلاميّ) و(المرجعيَّة في العالم السُّني بين الأزمة والحل) و(المرجعيّة وحكم العراق) و(مُرجِئة العصر، أجزاء) و(المرض الأول: عقليَّة العوام، أجزاء) و(المرض الثاني: طبيعة القطيع) و(المرض الثالث: نفسية العبيد) و(المسجد والإمام وخطب لا تُنسىٰ) و(المسلمون بين العمل والكسل) و(المسلمون بين مقاتل الشيعة ومذابح السنَّة) و(مسيلمات العصر) و(المسؤوليَّة (١)، والمسؤوليَّة (٢) مسئوليَّة الضعفاء والمستكبرين، والمسؤوليَّة (٣) مسؤوليَّة المُغرَّر بهم، والمسؤوليَّة (٤) المسؤوليَّة عن فعل الغير، والمسؤوليَّة (٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسؤوليَّة (٦) المسؤوليَّة التضامنيَّة في الإسلام، والمسؤوليَّة (٧) المسؤوليَّة عن الأعمال القلبيَّة، والمسؤوليَّة (٨) مسؤوليَّة المرء عن عمره)، و(مشروع الإصلاح القرآني) و(مشروع تجديد أصول الفقه) و(مشروع خطبة الجمعة) و(مصطلحات سياسية معاصرة) و(معاً لمشروع نهضة وإحياء) و(معالم في المنهج القرآني، أجزاء) و(مفاتح القرآن) و(مفاهيم التدبُّر) و(مفاهيم سورة الفاتحة إجمالاً) و(مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية) و(المفاهيم والمتلاعبون بها الرسالة والنبوة) و(مفهوم الاستعانة) و(مفهوم الأمَّة وواقعها) و(مفهوم الجمال) و(مفهوم الحب) و(مفهوم الدَّرجة) و(مفهوم الدولة والعلمانية)

و(مفهوم الذين أنعم الله عليهم) و(مفهوم الرب والربوبية) و(مفهوم الرحمة) و(مفهوم الزمن) و(مفهوم الصراط المستقيم) و(مفهوم الضالين) و(مفهوم الطائفيَّة) و(مفهوم العبادة) و(مفهوم العمىٰ) و(مفهوم الفكر) و(مفهوم الله) و(مفهوم المالك) و(مفهوم المغضوب عليهم) و(مفهوم النعمة) و(مفهوم الهداية) و(مفهوم تقويم التراث) و(مفهوم يوم الدين) و(مقاصد الشريعة) و(المقاصد العليا الحاكمة وتفعيلها) و(مقترح مقرر دراسي في علوم القرآن) و(مقدمة في إسلامية المعرفة) و(مقرر دراسي حول منهجيَّة التعامل مع القرآن الكريم) و(ملاحظات سريعة حول إشكالية تجديد الخطاب الديني) و(من أدب الاختلاف إلىٰ نبذ الخلاف) و(من التفسير إلىٰ التدبّر) و(من طرائف المسلمين في التعامل مع القضاء) و(من عبّارات الموت إلىٰ جسور الحياة) و(من هدي النبوّة في الفتنة) و(مناسك الحج في تجارب الأنبياء) و(مناسك الحج: حكم وأسرار، أجزاء) و(المنهج القرآني في فقه الواقع وإعادة بناء الأمة) و(المنهج القرآني لإعادة بناء الأمة وتوحيد كلمتها) و(منهج النظر في الحالة الثورية العربية، ٣ أجزاء) و(منهج تفسير القرآن بالقرآن) و(منهجيَّة التعامل مع القرآن الكريم) و(مواقف التعامل مع التراث) و(مواقف للتأمل بين الحفظ والقراءة) و(مؤتمر تأسيس منظمة وحدة الأديان الأول، أجزاء) و(المولد النبوي وحكم الاحتفال به) و(مؤهلات الحوار في منظمة الأديان)

حرف النون:

(النبوَّة والرسالة) و(نحن والحداثة) و(نحن والغرب) و(نحو إخراج الاجتهاد من مضيق الفقه إلىٰ رحابة القرآن) و(نحو استّراتيجيَّة فاعلة لخطاب إسلاميّ جديد، أجزاء) و(نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية) و(نحو التجديد والاجتهاد، أولاً: الفقه وأصوله) و(نحو الاجتهاد والتجديد، ثانياً: من التعليل القرآني إلىٰ المقاصد القرآنية العليا الحاكمة) و(نحو التأليف بين القلوب) و(نحو آليَّة إسلاميَّة لاحتواء الاختلافات وحلِّ المنازعات) و(نحو بناء ثقافة الانتخاب) و(نحو بناء علاقة سليمة بين القرآن وأمَّة القرآن) و(نحو بناء مشروع إحياء للأمَّة المسلمة) و(نحو تجديد الخطاب القيميّ) و(نحو ثقافة رمضانيَّة جادَّة) و(نحو خطاب إسلامي معاصر) و(نحو خطاب ديني سديد) و(نحو فلسفة إسلاميَّة في العمران) و(نحو فهم

لما يجري في مالي) و(نحو مخرج من الفتنة) و(نحو مشروع حضاري) و(نحو مفهوم قرآنيٍّ للسياحة) و(نحو منهجية معرفية قرآنية) و(نحو موقف قرآني من إشكالية المحكم والمتشابه) و(نحو موقف قرآني من النسخ) و(النخبة وأولو الأمر منكم حول الصراع الدائر في عراق اليوم) و(نداء إلىٰ علماء العراق ومراجعه) و(نداء عام إلىٰ أمَّة الإسلام) و(نسب الطلاق والعالم الإسلامي) و(النسق المغلق والنسق المنفتح) و(نصرانيَّة المعرفة!!) و(نظرات في القراءات المعاصرة) و(نظرات في تاريخ بناء الأمة) و(نظرة عامَّة علىٰ حركات الإصلاح) و(نظرة في تاريخ الأمة الحديث) و(النَّظم القرآني) و(نعمة التخلف) و(نفسية العبيد) و(نقاش حول الخطاب الدينيّ في العالم العربيّ والإسلاميّ) و(نقد الخطاب الإسلامي المعاصر) و(نقدي لأدب الاختلاف) و(النكاح ومعركة المفاهيم) و(نهضة الأمّة بالقرآن) و(النيّة).

حرف الهاء:

(هجر القرآن بين العلماء والعامَّة) و(هجر القرآن وعلماء أصول الفقة) و(هجران الأمَّة للقرآن، هل من سبيل إلىٰ إزالة أسبابه؟) و(الهجرة، أجزاء) و(هذا بيان للناس، أجزاء) و(هذا بيان للناس: لا رجم في القرآن) و(الهزائم النفسيَّة) و(هل الدنيا أخت للآخرة أم ضرة لها؟) و(هل تعد الإقامة في ديار الغرب هجرة؟) و(هل من فرقة ناجية اليوم؟) و(الهُوِيّ والهوىٰ).

حرف الواو:

(واقعة «الفيلم المسيء» في ميزان الأولويات) و(وأنَّ المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدًا) و(الوجود الإسلامي في أمريكا) و(الوجود الإسلاميّ في فرنسا) و(وحدة الأديان) و(وحدة الأمة) و(الوحدة البنائية) و(وحدة الشعب أولاً) و(الوحدة العربيَّة الفريضة الغائبة) و(الوحدة العربيَّة ضرورة حتميَّة) و(الوحدة البنائية للقرآن المجيد) و(الوحدة ضرورة حتميّة) و(ورقة عمل مقترحة لدورة حول القرآن الكريم) و(وصيَّة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم) و(وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ولكن) و(وما قدروا القرآن حق قدره) و(ويل للمفكّر من الفكر).

والحمدلله رب العالمين



هذا الكتاب

هو آخر أعمال المرحوم الدكتور طه جابر العلواني، وفيه كشفٌ عن البلورة المعرفية والفكرية للعلواني؛ إذ يُبرز لنا هذا السِّفر منهج العلواني -في موئله ومعاده- في التعامل مع القرآن الكريم، ضمن رؤية ثاقبة بأن القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً في صورة بنائية متماسكة؛ فهو النصُّ المؤسِّس والمهيمن، الذي يضمن للشخصية الإسلامية نقاء هويتها، وللبشرية سرّ سعادتها.

المنهج كلمة مركزية في رؤية العلواني؛ إذ من خلالها تتبيّن العمليات والممارسات المنطقية، وتكشف عن قدرة الباحث في الكشف عن العلاقات السببية بين الأشياء بصورة "علمية". وهذا التفسير هو منهج في المنهج، وتفكيك واعٍ للبِنات المنظومة القرآنية، للكشف عن معالم التصوّر القرآني للوجود، وإحياء للرؤية النبوية في تعاملها مع القرآن المجيد، بوصف تلكم الرؤية بياناً للنص المؤسِّس.

"تفسير القرآن بالقرآن" خلاصة تجربة العلواني الممتدة عبر الزمان والمكان، وتتجلى فيه رؤيته لكثير من القضايا -المعرفية والفكرية والثقافية والدينية- التي بثّها في كتبه ومؤلفاته ولقاءاته.

وفي السنوات الأخيرة من حياته، ركز جهده في تأسيس لبنات مشروعه في خدمة القرآن المجيد لإعادة كتابة "علوم القرآن" على الوجه الذي يساعد على تقديم القرآن المجيد لأبناء هذا العصر باعتباره كتاب استخلاف، وكتابًا معادلًا للوجود وحركته. فقدّم سلسلة قيمة في (الدراسات القرآنية)، تهدف إلى تقديم منهج يساعد على إعادة تلاوة القرآن "حق التلاوة" وقراءته بوعي قادر على استيعاب وتجاوز شروط الوعي العالمي المعاصر بمناهجه المعرفية. وهو - بذلك الجهد الاستثنائي- يؤكد أن القرآن المجيد المكنون قادر على مخاطبة عالم اليوم في أعلى درجات تقدمه، وفي مستوى سقفه المعرفي، كما هو قادر على إخراج الإنسان المعاصر من أزماته إن تمكن حملة القرآن الكريم من اكتشاف خصائصه ومنها على سبيل المثال: "لسان القرآن" و "الوحدة البنائية للقرآن المجيد" وغيرهما وتفعيل مدلولاتها في الواقع الإنساني.

طه جابر العلواني



- من مواليد العراق عام 1354هـ/1935م.
- دكتوراه في أصول الفقه من جامعة الأزهر 1392هـ/ 1973م.
- أستاذ سابق في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
- شارك في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام 1401هـ/1981م، وترأسه بين عامي 1986-1996م. وهو عضو في مجلس أمنائه.
- عضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة، ورئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية.
- بلغت مؤلفاته الصادرة بعد عام 2000م ثلاثة وعشرين كتاباً منها:
  - لا إكراه في الدين، مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة، 2005م.
  - إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2009م.
  - إشكالية التعامل مع السنة النبوية. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2014م.
  - الحاكمية والهيمنة نحو إعادة وبناء مفهوم الأمة والدولة والدعوة، 2016م.
  - من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2017م.
- ترجمت كثير من أعماله إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية والأوردية والماليزية.
- توفي رحمه الله بتاريخ 4 آذار 2016م.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
iiit
INTERNATIONAL INSTITUTE OF ISLAMIC THOUGHT

ISBN 978-1-56564-826-5
9 781565 648265